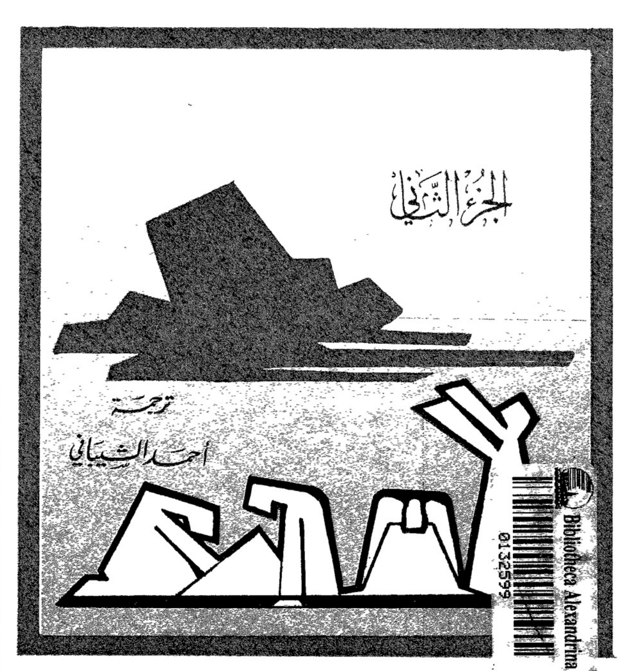
أسوالد اشبنغلر

تدهور الحضارة الغربية



تدهور الحضارة الغربية

أسوالد اشبنغلر

تدهور الحضارة الغربية

ترجمة
أحمد الشيباني

الجزء الثاني

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

الفهرس

الفصل الثالث عشر

الأصل والمنظر الطبيعي

(ب)

مجموعة الحضارات الأرقى

- ١ -

والآن ، فإن الانسان ، بغض النظر عما إذا كان قد ولد في هذا العالم من أجل أن يعيش أو أن يفكر ، فانه طالما يعمل فكراً وتصرفاً ، فهو يقظ واع ، ولذلك هو داخل مركز الدائرة ، واعني بذلك انه قد نظم وأعد وفق المغزى الذي يحتويه من أجله عالم الضوء للبرهة التي هو فيها . فكل واحد منا يعلم بانه لمن المؤلم جداً تقريباً أن ينعطف المرء فجأة وهو منهمك مثلاً في إجراء إحدى التجارب الفيزيائية الى التفكير بحادثة ما من حوادث اليوم . ولقد قلت في فصل أسبق بان الاوضاع التي تتناوب على وعي الانسان اليقظ تنقسم الى مجموعتين واضحتين مختلفتين ، مجموعة عوالم المصير والخفقان Pulsation ومجموعة عوالم الاسباب (العلل) والتوترات .

أما الصورتان اللتان تشكلها هاتان المجموعتان ، فلقد أسميت الاولى منهما بالعالم

كتاريخ ، والثانية بالعالم كطبيعة . وتستخدم الحيـــاة في الصورة الاولى الفهم التنديدي المحكم ، وفي هذا تخضع العين لامرتهـا ويصبح الخفقان المحسوس سياق التموج وسلسلته المتخيلين باطناً ، وتمسي الخبرة الروحية المدمرة مرسومة بوصفهـا ذروة حقبية (Epochal) أما في الصورة الثانية فان الفكر نفسه هو الذي يسيطر ويحكم حيث يحيل نقده السببي (العلي) الحياة الى عمليـة صارمة وتدرج مدقق ، ويحول المحتوى الحي للواقعـــة الى حقيقة تجريدية ، والتوتر الى دستـور رياضي .

فكيف يمكن أن يكون هذا الأمر ممكناً ؟ إذ إن كلتا الصورتين هما صورتان رسمتها العين ، لكن الناظر يستسلم في الصورة الاولى الى الوقائع التي لا يمكن أن يتكرر حدوثها ، بينما أنه يناضل في الصورة الثانية كي يجمع الحقـائق ويتصيدها من أجل منهاج دائم الصحة . ففي صورة التاريخ ، حيث تحتل المعرفة فيها مكاناً ثانوياً فقط ، فان الكوني (Cosmic) يستخدم الكوني الأصغر وينتفع بـــه . اما داخل الصورة التي ندعوها ذاكرة وتأملاً فان الاشياء تحضرنا على الشكل الذي يبرزها فيه ضوء باطني ويظهرها خفقان وجودنا، لكن العنصر الكرونولوجي يعلمنا بأن التاريخ حالما يصبح تاريخ فكر ، فانه لا يعود منيعاً على الظروف الاساسية لكل وعي يقظ. ففي صورة الطبيعة (العلم) فان الذاتي (Subjectiae) الحاضر أبداً ودائماً ، هو الغريب الوهمي الغرار ، لكن في صورة التاريخ فـان الرقم الموضوعي الذي لا يمكن بالمثل حذفه ، هو الذي يقود الى الخطأ .

وعندما نكون منهمكين في العمل داخل ميدان الطبيعة (العلم) فان اوضاعنا وملاءمات ذاتنا يجب أن تكون ، ويمكن ان تكون الى حد معين أوضـــاع وملاءمات غير شخصية ، لكن كل انسان أو طبقة أو أمة أو عائلة ، ترى صورة التاريخ بالنسبة الى ذاتها .

إن طابع الطبيعة هو امتداد يشتمل على كل شيء ، لكن التاريخ هو ذاك الشيء الذي ينبثق من ظلماء الماضي ويعرض نفسه على الناظر حيث ينطلق منه قدماً

الى المستقبل . ولما كان الناظر بوصفه الحاضر ، فانه يشكل نقطة الوسط ، وانه لمن المستحيل على الناظر أن ينظم الوقائع بأية وسيلة كانت اذا ما كان يجهل وجهة الوقائع واتجاهها ، هذا الاتجاه الذي هو عنصر خاص بالحياة وليس بالفكر . فلكل زمان وأرض ومجموع حي أفقه التاريخي ، وان طابع المفكر التاريخي الاصيل يبتدىء في انجاز صورة التاريخ التي يطالبه بها زمانه .

وهكذا فان الطبيعة والتاريخ يمكن أن يميز بينهما كما يميز بين النقد النقي والنقد غير النقي ، واعني بالنقد الشيء المعاكس للخبرة المعاشية . فعلم الطبيعة هو نقد وليس أي شيء آخر . لكن النقد في التاريخ لا يستطيع اكثر من ان يعد الحقل إعدادا علميا حيث يتوجب على عين المؤرخ أن تصول وتجول . فالتاريخ هو تلك النظرة ذات الامتداد مهما كان الاتجاه الذي تمتد فيه النظرة ، وذاك الانسان الذي يمتلك مثل هذه العين ، يستطيع أن يفهم كل واقعة ووضع فهماً «تاريخياً» . أما الطبيعة فهي منهاج ، والانسان يستطيع أن يدرس المنهاج ويتعلمه .

إن عملية ملاءمة الذات ، ملاءمة تاريخية ، تبدأ بالنسبة الى كل إنسان مع ابكر انطباعات طفولته . فعيون الاطفال ثاقبة النظرات حادتها ، فهم يحسون بوقائع اقرب البيئات إليهم ، أي بوقائع حياة العائلة والبيت والشارع إحساساً يبلغ بهم نواة هذه الوقائع ولبها ، وذلك قبل ان تدخل المدينة وسكانها نطاق بصرهم بزمن طويل ، وحينما تكون كلمات « كالامة » و « الوطن » و « الدولة » لا تزال تفتقر الى معنى حسي بالنسبة للاطفال . وعلى هذه الشاكلة تماماً فان الانسان البدائي يعرف كل ما يعرض داخل نطاق نظرته الضيقة بوصفه تاريخاً وعيشاً ، ويعرف فوق كل شيء الحياة نفسها ، هذه الدراما المؤلفة من ولادة وموت ، من ولادة وشيخوخة ، من تاريخ حرب شجي وحب عاطفي كما اختبره داخل ذاته أو لاحظه داخل ذوات الآخرين ، ومن مصائر الاقرباء وعشيرته وسكان قريته ، واعمال هؤلاء ونوازعهم ودوافعهم واساطير عداوات طويلة نجمت عنها معارك وانتصار وانتقام . وهنا يتسع أفق الحياة ، لكنه لا يظهر حياتات بل إنما يعرض

الحياة في اقبالها وادبارها . فالواقعة التاريخية حين تمثيلهـا أو عرضها ، لم تعد الآن واقعة محصورة بقرى أو افخاذ أو عشائر ، بل انما أصبحت واقعـة ترتبط بأجناس وبلدان غارقة في القدم ، ولا تعود تقاس بالاعوام بل بالقرون . فالتـاريخ الذي يعيشه الانسان ويشارك فيه لا يتجاوز ابداً في مداه الزمني الجد (Grand Fathen) وهذا القول ينطبق على الالمان كما ينطبق على الزنوج (Negroes) في يومنا هذا، وعلى بركليس وفالنشتاين . فهنا يبدأ أفق النهايات الحية وأفق مستوى جديد حينما تكون الصورة قد اسندت الى روايات وأخبار وتقليد تاريخي، أفق مستوى يلاءم فيه بين العواطف المباشرة وصورة الذهن التي هي واضحة مميزة، ولطول الاستعمال، مستقرة معاً . والشكل الذي طورت وفقه الصورة ، يجعل الصورة تظهر وفرات مختلفة واتساعات متباينة بالنسبة لأمم مختلف الحضارات . أمـــا بالنسبة الينا نحن معشر الغربيين فـان التاريخ الأصيل يبدأ مع هذه الصورة الثانوية ، وذلك لأننا نعيش تحت تأثير نظرتنا الى الخلود ، بينما أن التاريخ ينتهي ، بالنسبة الى الاغريق والرومان ، عند هذه النظرة تماماً . فأحداث الحروب الفارسية من وجهـــة نظر ثوسيديدس ،والحروب البونية بالنسبة الى قيصر كانت أحداثاً وحروباً قد جردت منذ زمن من محتواها الحي .

وتنتصب لتطالعنا وراء هذا المستوى صور اخرى لوحدة ، صور مصائر عالم النبات وعالم الحيوان والمنظر الطبيعي والكواكب ، هـذه الصور التي تنصهر في النهـاية وآخر صور العلم الطبيعي لتمسي صوراً اسطورية لخلق العـــالم ونهـايته .

إن الصورة التي يشكلها الطفل والانسان البدائي عن الطبيعـة (العلم) تنشأ من التقنية البسيطة ، لا بل التافهة للحياة اليومية ، وترغم دائماً وابداً كلا منهما على الابتعاد عن التأمل المرعب في الطبيعة الواسعة الفسيحة ليركزا بصريهما على نقد وقائع بيئتيهما القريبة واوضاعها . والطفل حاله كحال الحيوان الحديث السن ، إذ أنه يكتشف اولى حقـائقه بواسطة العبث واللعب . ففحصه « للعبة » وبعجه

للدمية وإدارته للمرآة كي يرى مـــا وراءه ، وشعوره بنشوة الانتصار في تقريره لشيء مـا تقريراً دائم الصحة ، كل هذه الأمور لم يستطع أي نوع من البحث الطبيعي ، أيـاً كان ، أن يتجاوزه . زد على ذلك ان الانسان البدائي يطبق هذه الخبرة النقدية التنديدية ، حالما يكتسبها ، على اسلحته وادواته ، وعلى مواد كسائه وغذائه ومنزله ، واعني بذلك على الاشياء بوصفها اشياء ميتة. كما وأنه يطبقها بالمثل على الحيوانات ايضاً، وذلك حالما لا يعود فجأة لهذه الحيوانات أي معنى في نظره ، بوصفها كائنات حية يترصد حركاتها ويتكهن بها أكان مطارداً او مطارداً ، حيث يدركها ادراكاً ميكانيكيا ، بدلاً من أن يعيها وعياً حيـــاً ، كمجاميع من لحم وعظم ينتفع بها انتفاعاً معيناً ، وذلك تماماً كوعيه للحادثة في حاله تلك ، بوصف هذه الحادثة عملاً من اعمال روح خفية ، ومن ثم عقب برهة ، وحين تطور حاله تلك الى حال أخرى ، يعيها كسياق من علة ومعلول . زد على ذلك أن الانسان الناضج في حضارة ما يبدل وفق الطريقة ذاتها تماماً مكان كل يوم وكل ساعة . وهنـا نشهد ايضـاً أفق « طبيعة » ، ويقع وراء هذا الافق مستوى ثانوي شكل من انطباعاتنا عن المطر والبرق والعاصفة والصيف والشتاء واوضاع القمر ومدارات الكواكب . ولكن التدين في هذا المستوى ، هذا التدين الذي يرتعد رعباً وألمـا ، يفرض على الانسان ميزاناً من نوع جد ارقى من ذاك .

وكما أن الانسان يسبر تماماً غور وقائع الحياة ، فانه هنا يسعى لاقامة الحقائق النهائية للطبيعة ، لذلك تراه يسمي كل شيء يقع بعيداً ما وراء حدود المعرفة بالله ، أما كل مـا يقع داخل هذه الحدود فانه يكد ويكدح كي يدركه ويعرفه بوصفه عملاً وخليقة وظاهرة سببية (علية) لله .

لذلك فان لكل مجموعة من عناصر مقررة تقريراً علمياً ، نازعاً ثنائياً فطرياً لم يطرأ عليه أي تبديل منذ العصور البدائية . فالنازع الاول يستحث الانسان قدما نحو اكمل المناهج الممكنة للمعرفة التقنية وذلك من أجل خدمة الغايات العملية من اقتصادية وشبه حربية ، هذه الغايات التي بلغت بها عدة انواع من الحيوان ذروة من

كمال ، والتي ينطلق مباشرة منها ، ابتداءً من الانسان ودرايته بالنار والمعادن الى تقنيات الآلة لحضارتنا الفاوستية . أما النازع الثاني فانما تجسد واتخذ له شكلاً فقط بواسطة التفريق بين الفكر الانساني الدقيق وبين الرؤيا الجسمانية ، وذلك بواسطة اللغة ، أما هدف مجهوده فلقد كان ، بالمثل ، معرفة نظرية كاملة ، هذه المعرفة التي نسميها ، في مراحل الحضارة الابكر ، تديناً وفي مراحلها المتأخرة زمناً علمانية .

إن النار هي بالنسبة الى المحارب سلاح ، لكنها بالنسبة الى العامل الماهر عدة ووسيلة ، أما بالنسبة الى الكاهن فهي إشارة من الله ، غير انها في نظر العلماني معضلة . ولكن وفق هذه النظرات ، كلها على حد سواء ، الى النار فان الصيغة العلمية للوعي اليقظ هي خاصة ذاتية من خصائص العامل «الطبيعي» ونحن في العالم كتاريخ لا نجد ناراً على هذه الشاكلة ، بل انما نجد حريق قرطاجة ولهيب النار المنبعث من حزم الحطب التي مدد فوقها جون هوس وجيوردانو برونو .

- ٢ -

إنني أعود فأكرر قولي بأن كل كائن يختبر كل كائن آخر اختباراً حياً من وجهة نظره الخاصة . فالفلاح يرى في سرب من الحمام يحط على حقله غير ما يراه انسان يتعشق الطبيعة في الشارع ، كما وان نظرة الصقر في الجو الى سرب الحمام تختلف عن نظرة كل من الفلاح وعاشق الطبيعة اليه .

إن الفلاح يرى في ابنه المستقبل والميراث ، لكن هذا الابن هو في نظر الجار فلاح وفي نظر الضابط جندي وفي نظر الزائر من سكان الريف الاصليين . لقد كانت خبرة نابليون بالرجال والاشياء ، حينما كان ملازماً في الجيش ، تختلف اختلافاً كبيراً عن خبرته بهم وبها ، عندما امسى امبراطوراً . ولتضع ايها القارىء

أحد الناس في وضع جديد ، ولتجعل من الثوري وزيراً، ومن الجندي جنرالاً ، عندئذ سيصبح فوراً التاريخ ورجاله الاساسيون في نظر مثل هذا الانسان شيئاً ما يختلف عما كانوه . لقد كان تاليران يسبر اغوار رجال زمانه وذلك لأنه كان ينتمي اليهم ، ولكن لو ان احدهم دفع فجأة بتاليران الى رفقة كراسوس وقيصر وكاتالين وشيشرون، لجاء فهمه لاجراءات هؤلاء ونظراته اليهم إما باطلاً أو خاطئاً. وليس هناك تاريخ في ذاته . فتاريخ عائلة ما ينظر اليه كل عضو من اعضاء هذه العائلة نظرة تختلف عن نظرة العضو الآخر ، زد على ذلك أن نظرة كل حزب الى تاريخ بلاده تختلف عن نظرة الحزب الآخر ، كما وان لكل أمة نظرة خاصة بها وتختلف عن نظرة الامم الأخرى الى تاريخ العصر . فنظرة الالمان الى الحرب العالمية (الاولى) تختلف عن نظرة الانكليز ، كما وان نظرة العامل الى تاريخ الاقتصاد تختلف ايضاً بدورها عن نظرة رب العمل ، واخيراً فان للمؤرخ الغربي تاريخاً عالمياً يختلف تماماً عن التاريخ الذي يراه كبار المؤرخين من العرب أو الصينيين .

ان الطريق الى معالجة حقبة تاريخية ما معالجة موضوعية تستوجب ان تكون مثل هذه الحقبة غارقة في القدم وتستلزم أن يكون المؤرخ متجرداً تجرداً جذرياً كاملاً من كل مصلحة أو غرض ، ونحن نجد أن مؤرخينا لا يستطيعون ان يحكموا على أو يصفوا حتى الحروب البولوبونيزية ومعركة اكتيوم، دون ان يتأثروا بطريقة ما بالمصالح الراهنة .

انه ليس من المناقض او المضاد، وبالأحرى إنه لمن الجوهري بالنسبة الى المعرفة العميقة بالرجال ، كون المقيم مرغماً على أن ينظر من خلال نظارتين صبغ زجاجتيها بلونه الخاص . والحق أن هذه المعرفة هي تماماً العامل الذي ندرك افتقارنا إليه في تلك العموميات التي تشوه أو تتجاهل كلياً تلك الحقيقة التي ما فوقها حقيقة ، واعني بها جوهر الحادثة في التاريخ، هذا الجوهر الفريد في نوعه وحدوثه . واسوأ مثل على ما أردت هو النظرة « المادية » الى التاريخ ، هذه النظرة التي سبق

لي أن قلت عنها كل مـا يتوجب علي قوله تقريباً ، وذلك عندما بحثت العقم السياني . ولكن بالرغم من هذا ووفق هذا معاً، فانه يوجد بالنسبة لكل إنسان ، صورة نموذجية للتاريخ ، كما يتوجب على هذه الصورة أن تبدو في نظره ، وذلك لان كل انسان ينتمي الى طبقة وزمان وأمة وحضارة ، كما وأنه توجد بالمثل ايضاً ، صور نموذجية خـــاصة بالزمان او الطبقة أو الحضارة وذلك فيما يتعلق بمـا ذكرت . إن التعميم ، او الاطلاق، الاسمى الممكن لكل حضارة بوصفها كينونة رئيسية ، هو أمر أولي أساسي ، وهو في نظرهـا صورة رمزية لعالمها الخاص كتاريخ ، وجمع ملاءمات Attunements الفرد لذاته ، (أو ملاءمات مجموعة من الناس لذواتها ، مجموعة تنشط نشاطاً حياً بوصفها فرداً) فانما تتم وفق هـــذه الصورة واستناداً اليها . وعندما ننعت افكار أحد الناس بأنها عميقة أو سطحيـــة ، أصيلة أو تافهة ، خاطئة أو مبتذلة ، فاننا نكون نصدر أحكامنا عليهـا ، دون أن ندري ،اعتماداً على الصورة التي تنتصب لنسعر القيمة في لحظة من نشاط متتال لزماننا وشخصيتنا .

فمن الواضح إذن أن كل انسان ينتمي الى الحضارة الفاوستية يمتلك صورته الخاصة عن التاريخ وذلك الى جانب صور اخرى لا تعد أو تحصى يكون قـــد شكلها منذ صباه فيما بعد ، وهذه الصور تتذبذب وتتبدل ، دون انقطاع ، تجاوباً وخبرات اليوم والسنة . ومرة اخرى نقول يا له من اختلاف ذاك الذي يقوم بين الصور التاريخية النموذجية للناس ، ولشتى العصور والطبقات . ويا له من تبـاين يسود بين عالم اوتو الكبير وعالم غريغوري[1] الثامن ، بين عالم دوج مدينة البندقية وعالم ذاك الحاج المسكين ! ويا لها من عوالم مختلفة متباينة تلك العوالم التي عاش فيها لورنزو دي مديتشي وفالنشتاين وكرمويل ومـــارا وبسمارك ، وقن في العصر

---

١ – احد البابوات المشهورين في التاريخ .

(المترجم)

الغوطي وعالم في العصر الباروكي وضابط في حرب الثلاثين عاماً وحرب السنوات السبع وحروب التحرير ! أو لنتأمل في أزماننا التي نعيشها ، ولنمعن النظر في حياة الواقعة لفلاح «فريزي» (Frisian) ، هذه الحياة المحدودة بريفه وأنداده ، وفي حياة تاجر ثري من تجار هامبورج ، وفي حياة بروفسور في الفيزياء ! ومع هذا كله ، وبغض النظر عن العصر الافرادي والمقام والمرحلة، فان هناك عاملاً مشتركا يميز مجموعة هؤلاء الاشخاص الذين ذكرت ، ويميز بين صورتهم الاولية وبين الصورة الاولية لكل حضارة أخرى .

ولكن فوق هذا وقبله ، فان هناك فرقاً من نوع آخر يفصل بين صورتي التاريخ لكل من الحضارتين الكلاسيكية والهندية وبين صور التاريخ لكل من الحضارات الصينية والعربية وخاصة الفاوستية ، وهذا الفرق يتمثل في الافق الضيق لتينك الحضارتين اللتين كانتا اول ما ذكرت (الكلاسيكية والهندية) إن كل مـا قد عرف به الاغريق (ويجب فعلاً أن يكونوا قد عرفوا به) عن التاريخ المصري القديم ، لم يسمحوا له أبداً بان يتسرب الى صورتهم الخاصة للتاريخ ، هذه الصورة التي كانت بالنسبة الى الاغلبية منهم محصورة داخل ميدان الحوادث والاحداث التي كان يمكن أن يرويها أحياء منهم طاعنون في السن سبق لهم أن اشتركوا فيها ، والتي كانت تنتهي حتى بالنسبة الى انقى مـنـا لدى الاغريق من عقول واذهـان عند حرب طروادة التي كانت تشكل في نظرهم حداً جعلهم لا يسلمون بانه كانت توجد إطلاقاً وراءه حياة تاريخية .

ومن جهة أخرى فان الحضارة العربية قد أقدمت في وقت جد مبكر على تلك اللفتة العجيبة المذهلة (والتي نشاهدها في الفكر التاريخي لليهود وفرس عصر قورش على حد سواء) هذه اللفتة المتمهلة في ربط اسطورة الخليقة بالحاضر وذلك بواسطة تقويم (كرونولوجي) تاريخي أصيل. ولقد قام الفرس فعلاً بتضمين لفتتهم الكاسحة المستقبل ايضاً، فحددوا مسبقاً تاريخ يوم الدينونة وعودة المسيح. ان هذا التحديد المصيب والضيق جداً للتاريخ الانساني (فالفرس يحددون مداه بـ ١٢ دورة الفية

من السنين ، أما اليهود فيقررون ان مداه لا يتجاوز حتى الوقت الحاضر دورات الفية ستا) ، أقول ان هذا التحديد هو تعبير ضروري عن الشعور المجوسي بالعالم ، وهو يميز بصورة جوهرية بين الاساطير اليهودية الفارسية عن الخليقة ، وبين اساطير الحضارة البابلية التي اشتق منها الكثير من الملامح الظاهرية لتلك الاساطير ، (اليهودية الفارسية) .

زد على ذلك إن الشعورين الاولين اللذين يعطيان الفكر التاريخي في كل من الحضارتين الصينية والمصرية افقيها الواسع اللامحدود ، واللذين يتمثلان في سياقات من سلالات حاكمة مقررة تقريراً تقويمياً ، سلالات تتجاوز في امتداداتها الدورات الالفية من الاعوام وتذوب أخيراً في بعد سحيق أغبر ، أقول ان هذين الشعورين الاولين يختلف ايضاً الواحد منهما عن الآخر .

أضف الى ذلك أن الصورة الفاوستية لتاريخ العالم ، هذه الصورة التي أعدها سلفاً التقويم المسيحي ، قد خرجت فجأة الى الوجود بامتداد وتعميق هائلين للصورة المجوسية التي اضطلعت بها الكنيسة الغربية ،وقد قدر لذاك الامتداد وهذا التعميق أن يعطيا يواكيم فون فلوريس ، في ذروة العهد الغوطي ، قاعدة لترجمته الرائعة لجميع مصائر العالم بوصفها سياقاً من دهور ثلاثة، وذلك وفق مفاهيمه للأب والابن والروح القدس . ويسير ، جنباً الى جنب وما ذكرت ، التعميق الهائل للافق الجغرافي ، هذا التعميق الذي امتد حتى في الازمنة الغوطية (بفضل الفايكنغز والصليبيين) من جزيرة ايسلندا حتى اقصى اطراف آسيا .وأمسى الانسان المتقدم في العصر الباروكي ، ابتداء من عام ١٥٠٠ فما بعد ، قادراً على القيام بما لم يستطعه أي من انداده من أبناء الحضارات الأخرى ، إذ أنه (ولاول مرة في التاريخ الانساني) بات يعتبر كامل سطح هذا الكوكب ميدانا له . وبفضل البوصلة والتلسكوب استطاع لاول مرة علامة ذاك العصر الناضج ألا يثبت فقط كروية الارض ، كقضية نظرية ، بل انما تمكن فعلاً من أن يشعر بانه يعيش فوق جسم كروي في الفراغ (Space) . ايضاً .

وهنا انتفى أفق الارض ولم يعد له وجود ، وهكذا ذابت ايضاً آفاق الزمان في التقويم ذي اللانهائية المزدوجة ، تقويم ما قبل المسيح وما بعده . واليوم فاننا نجد ، تحت تأثير هذه الصورة التي تستوعب كامل هذا الكوكب ، والتي ستحتوي أخيراً على كل الحضارات الراقية ، أن التقسيم الغوطي للتاريخ الى قديم «ووسيط» وحديث قد أمسى غثا تافهاً ، وأنه آخذ بالانحلال على مشهد منا .

إن جميع المفاهيم لتاريخ العالم وتاريخ الانسان تنطبق بعضها على بعض في كل الحضارات. فبداية العالم هي بداية الانسان، ونهاية الانسان هي نهاية العالم. لكن الحنين الفاوستي الى اللانهائية قد فرق ، خلال العصر الباروكي ، لاول مرة بين النظرتين، وقد جعل الآن التاريخ بكل ما له من امتداد هائل لا يزال حتى الآن مجهولاً ، مجرد قصة استطرادية في تاريخ العالم ، بينما ان الارض (التي لم تشهدها حتى كلها الحضارات الأخرى ، بل انما شاهدت أجزاء سطحية منها اعتبرتها « العالم ») قد أمست نجماً صغيراً بين الملايين من الانظمة الشمسية .

إن امتداد صورة العالم التاريخية يضاعف حتى في هذه الحضارة (الفاوستية) اكثر من غيرها في ضرورة تمييزنا بين الملاءمات الذاتية اليومية للناس العاديين وبين الملاءمة الذاتية القصوى التي لا تستطيعها سوى العقول الارقى ، هذه العقول التي لا تثبت حتى فيها الملاءمة الذاتية سوى برهات واعتقد بان الفرق بين ميدان نظرة تيميتوكلس التاريخية وبين ميدان نظرة فلاح « اتيكي » هو فرق جد بسيط ، لكن هذا الفرق هائل بين نظرة هنري السادس ونظرة أجير فلاح في عصره . وكلما تسامت الحضارة الفاوستية عاليا فعاليا، فان قوة تركيز الذات تبلغ ذرى واعماقاً كتلك بحيث تزداد معها دائرة البراعة ضيقاً يوماً بعد يوم . والحق أنه قد شكل هرم من إمكانات صنفت فيه درجات الافراد وفق مواهبهم ، فكل فرد، يقف ،حسب فطرته، في مستوى يستطيع في حالة تركيزه الشديد الاحتفاظ به . وينجم عما أوردت أن هناك بين الشعوب الغربية محدوديات لامكانيات الفهم المتبادل لمشاكل الحياة التاريخية ، وهذه محدوديات لا تنطبق على الحضارات الأخرى، واقول أنها على كل حال لا تنطبق على تلك الحضارات بمثل هذه الصرامة

الخطيرة التي تنطبق بها على حضاراتنا . فهل يستطيع العامل في عصرنا هذا أن يفهم حقا الفلاح ؟ أو هل يستطيع الدبلوماسي أن يفهم العامل الماهر ؟ فالافق التاريخي الجغرافي الذي يقرر الكل من ذكرت آنفاً الاسئلة التي هي جديرة بان تطرح والشكل الذي تطرح فيه هذه الاسئلة ، انما هو افق يختلف عند كل واحد منها اختلافاً كبيراً عن افق الآخر بحيث يجعل ما يستطيعان أن يتبادلاه من حديث ليس بمواصلة ذهنية بل إنما هو مجرد ملاحظات عابرة . ومن البدهي أن طابع المقيم الحقيقي للناس يتبدى في فهمه كيفية تركيب « الانسان الآخر » وفي تنظيمه لمعاملته له وفق ذاك التركيب (كما نفعل نحن جميعاً حينما نتحدث الى الاطفال) ، لكن فن التقييم حسب هذا المفهوم إنما يتناول إنسانا عاش في الماضي (ولنقل هنري الاسد أو دانتي مثلا) لهذا فهو فن يستوجب المقيم أن يعيش ذاته داخل صورة تاريخ من يقيمه عيشا يبلغ من الكمال درجة تتخذ معها افكاره وأحاسيسه وقراراته طابعاً ما هو غني عن البيان . ولكن نظراً للفرق الواسع بين الوعي اليقظ المقيم وبين وعي المقيم اليقظ ، فان هذا الفن كان من الندرة الى حد جعلنا لا نرى حتى مطلع القرن الثامن عشر أنه من المتوجب على المؤرخ أن يحاوله . ومنذ عام ١٨٠٠ فقط أمسى هذا الفن أمنية لكتابة التاريخ ، لكن نادراً ما صادف أحدهم النجاح في تحقيق هذه الأمنية .

إن الفصل النموذجي في فاوستيته للتاريخ الانساني عن تاريخ العالم الاشد إتساعاً بكثير من تاريخ الانسان ، على هذه الشاكلة ، قد اسفر عن نتيجة تقرر أن صورتنا للعالم قد اشتملت ، منذ نهاية العصر الباروكي ، على عدة آفاق نسق الواحد منها وراء الآخر على مستويات تعادلها عدداً . ومن أجل سبر أغوار هذه المستويات ، اتخذت علوم افرادية ، ذات طابع تاريخي تقريباً ، اشكالاً لها . فعلوم الفلك والجيولوجيا والبيولوجيا والانتربولوجيا يأخذ بعضها برقاب بعض وهي تقتفي مصائر عالم الكواكب وقشرة الارض والحياة والانسان ، ونحن هنا فقط نلتقي بتاريخ «العالم» (كما لا يزالون يسمونه حتى اليوم) للحضارات الارقى التي قد شدّ اليها ايضاً تواريخ شتى العناصر الحضارية الأخرى ، كتاريخ العائلة والسيرة

الشخصية – Biography – (أخيراً هذه السيرة التي تعتبر خـاصية غربية بلغت درجة رفيعة من التطور) .

إن كل مستوى من هذه المستويات يستوجب تركيز ذات خاص ، وفي اللحظة التي يصبح فيها التركيز حـاداً لا تعود المستويات الأضيق والاعرض كينونة تعاش ، بل تمسي مجرد وقـائع مقررة . ونحن إذا مـا بحثنا في معركة غابة تيتوبورجر Teuteburger ، فان نمو هذه الغابة في عالم النبات في السهل الالماني الشمالي أمر يستلزمه البحث . أمـا إذا كنا ، من جهة أخرى ، نبحث في تاريخ عالم الاشجار الالمانية فان التنضيد الجيولوجي لطبقات الارض هو الموضوع المفترض مسبقاً لبحثنـا ، بالرغم من أن هذا الموضوع هو مجرد واقعة لا مجـال الآن لتتبـع مصيرها بهذا الصدد . أمـا ، ايضاً ، إذا كان سؤالنا يدور حول أصل الطبقة الطباشيرية ، فان وجود الارض ذاتها ككوكب في النظام الشمسي هو حقيقة وليس بمشكلة . أو لنعبر عما أوردناه بصيغة اخرى ولنقل بأن هناك أرضـاً موجودة في عالم الكواكب ، وان ظاهرة «الحياة» تتبدى وتحدث على الارض ، وانه داخل هذه الحياة يوجد الشكل « الانسان » ، وانه داخل تاريخ الانسان يوجد الشكل العضوي للحضارة ، فقولنا هذا يدل في كل حالة أوردناها على أن هناك واقعة طارئة في صورة المستوى الأرقى الذي يتلو سابقه .

ونحن نجد في غوتيه ابتداءً من مرحلة شتراسبورغ حتى سكناه الأول في فيمار ، أن رغبته في ملاءمة ذاته وتاريخ « العالم » كانت رغبة ضارية شديدة ومخطوطاته التي تتناول سير قيصر ومحمد وسقراط واليهودي التائه واغمونت خير مصداق على ما ذكرت . وقد كان اطراحه[1] الأليم لآماله في تحقيق انجازات سياسية مرموقة ،

---

[1] – عزم غوتيه اثناء رحلته في ايطاليا عام ١٧٨٦ على الاستقـالة من منصبه السياسي في فيمار والاحتفاظ بمقعده في مجلس الشورى فقط كي يكرس اوقاته للفن والعلم . وقد نفذ عزمـه هذا حين عودته الى فيمار عام ١٧٨٨ ، وظهرت مسرحية «تاسو» عام ١٧٩٠

–المترجم–

(هذا الاطراح الأليم الذي يستصرخنا في مسرحية «تاسو» حتى من خلال الاذعان الوقور لشكلها النهائي) أقول كان اطراحه ذاك بالتأكيد بمثابة ملاءمة ذات اختار أن يقتطعها من حياته ، وهكذا نراه انه عقب أن حقق تلك الملاءمة يوزع نشاطاته بوحشية تقريباً بين دراسة مستويات صورة تواريخ النبـــات والحيوان والارض (لطبيعته الحية) وبين كتابة السير الشخصية .

ان كل هذه « الصور » التي تطورت في الانسان ذاته لهـــا ذات التركيب . وحتى تاريخ النبات والحيوان، وحتى تاريخ قشرة الارض أو قشرات الكواكب ، هو اسطورة أو خرافة تعكس في الواقعة الظاهرية النازع الباطني لكينونة الأنا (ego) . فالباحث في عالم الحيوان أو في طبقات الأرض هو انسان يعيش في عصر وله قوميته ومنزلته الاجتماعية ، ولذلك فان قدرته على استئصال وجهة نظره الذاتية من معالجته لهذه المواضيع لا تزيد عن قدرته على تقديم بيان كامل في تجريديته عن الثورة الفرنسية او الحرب العالمية (الاولى).

ان للنظريات المشهورة لكل من « كنت » ولابلاس و كوفيير ولايل وداروين ايضاً لونها السياسي الاقتصادي، زد على ذلك أن جوهر قوة هذه النظريات وتأثيرها في الجمهور العامي يظهران أن صيغة النظرة الى كل هذه المستويات التاريخية انمـــا تنطلق من نبع واحد . أما ما يحقق ذاته اليوم فهو المنجزة الأخيرة التي يستطيعها التفكير التاريخي الفاوستي (أي الربط والتنسيق العضويان لهذه المستويات التاريخية في تاريخ واحد واسع للعالم ، تاريخ ذي نسق سيمائي سيمكن نظرنا من الامتداد دون انقطاع من حياة الفرد الانسان الى اول وآخر مصائر الكون . والقرن التـاسع عشر قد أعرب عن المعضلة ونطق بهـــا (بصيغة ميكانيكيـة « واعني بهذا لا تاريخية ») . وهذه المعضلة هي احـدى المعضلات التي انيط بالقرن العشرين حلها .

- ٣ -

ان الصورة التي نمتلكها عن تاريخ قشرة الارض وعن الحياة لا تزال في الوقت الحاضر خاضعة لسيطرة الافكار والنظريات التي طورها الفكر الانكليزي المتمدن [١] منذ عصر التنوير، واستنبطتها من العادة الانكليزية في الحياة . فنظرية لايل البلغمية (Phlegmatic) في تشكل الطبقات الجيولوجية ، ونظرية داروين في اصل الانواع ، هما في الواقع نظريتان مشتقتان من تطور انكلترا ذاتهـــا . فالانكليز يستعيضون عن الكوارث والتغيرات التي لا تحصى ، كتلك التي اعترف بهـا فون بوخ و كوفيير ، بتطور منهاجي يستوعب حقبات طويلة من الزمان ويقررون كأسباب (علل) تلك العلل العلمية المحسوبة فقط ، وهذه هي فعلاً علل نفعية ميكانيكية .

ان نموذج السببية (العلية) الانكليزية هذا ، ليس بضحل فقط بل انما هو بالغ الضيق ايضـــاً . فهو يحصر في الدرجة الاولى ، الارتباطات السببية المحتملة بتلك الاشياء التي تفسر كامل مجراها على سطح الارض، ولكن هذا الأمر يطرح جانباً كل الارتباطات الكونية العظمى بين الظاهرة الحياتية على الارض وبين احـداث النظـام الشمسي والكون الكوكبي ، ويطالعنا بالزعم بفرضية مستحيلة تقول بأن الوجه الخارجي للكرة الارضية هو منطقة معزولة عزلاً تاماً عن الظاهرات الطبيعية.

---

١ – لاحظ الفرق بين المتمدن والمتحضر ، انه الفرق بين الحضارة وبين المدنية ، فالمدنية هي في راي اشبنغلر المرحلة الاخيرة للحضارة.

– المترجم –

ثم يزعم ثانية بأن الارتباطات التي لا يمكن إدراكها وفهمها بواسطة الوسائل المتوفرة حالياً لدى الوعي الانساني ، (واعني بهذه الوسائل والاحاسيس التي أرهفتها الأجهزة والفكر الذي ضبطته النظرية) أقول يزعم بأن مثل هذه الارتباطات لا وجود لها .

وستكون المهمة المميزة للقرن العشرين ، كما هو مقارن بالقرن التاسع عشر أن يتخلص من هذا المنهاج للسببية (العلية) السطحية الذي تمتد جذوره لتغوص في عقلانية العصر الباروكي ، وان يستعيض عنه بمنهاج سيمائي نقي مجرد .

إننا ننظر بعين الشك الى أية وكل صيغة من صيغ الفكر التي تقدم لنا تفسيراً سببياً (علياً) . فنحن نترك للاشياء أن تتحدث بنفسها ونحصر ذواتنا بالحس بالمصير الملازم والفطري فيها ونتامل في ظاهرات الشكل الذي لن نستطيع ابداً النفاذ اليه . أما اقصى ما نتمكن من بلوغه فهو يتمثل في اكتشاف اشكال غير علية ولا هدفية ، اشكال موجودة فقط وتكمن وراء صورة الطبيعة المليئة بالتبدلات والتغيرات .

لقد كانت كلمة « تطور » تعني في القرن التاسع عشر التقدم ، بما لهذه الكلمة من مفهوم لتزايد موافقة الحياة وإطراد اهليتها للغايات والأهداف . فليبنتز يخطط في كتابه المعروف باسم (Protogaea) (الصادر عام ١٦٩١) صورة لطفولة العالم وصورته غوطية سداة ولحمة ، وهي صورة خططها استناداً الى دراسات جرت في مناجم الفضة في جبال الهرتز ، وهي والحق دراسات تنم عن فكر عميق .

أما التطور بالنسبة الى غوتيه فانما يعني الاكتمال وفق ما لهذه الكلمة من مفهوم لتزايد محتوى الشكل ومضمونه .

إن نظريتي غوتيه وداروين ، نظرية اكتمال الشكل ، ونظرية التطور ، هما نظريتان متعارضتان تعارضاً كلياً ، تعارض المصير والسببية (العلية) زد على ذلك تعارض الفكر الانكليزي والفكر الالماني ، وتعارض التاريخ الالماني والتاريخ الانكليزي .

وليس هناك من دحض جازم بات للداروينية كذاك الدحض الذي قدمه الينا علم الأحافير النباتية (Palaeontology) فالأرجحية البدهية البسيطة تشير الى ان ذخائرنا من الأحافير المتحجرة (Fossil) لا يمكن أن تكون إلا عينـــات اختبـــارية فقط . إذن فكل عينة يجب أن تمثل مرحلة مختلفة من (Samples) مراحل التطور ، ولهذا يجب أن يكون هناك فقط نماذج « انتقالية » لا تعريف لها ولا نوع ، لكننا نجد بدلاً من هذه اشكالاً بلغت الكمال في استقرارها وعـــدم تبدلها أو تغيرها ، اشكالاً خالدة على مر العصور الطويلة ، اشكالاً لم تطور ذواتهـا وفق مبدأ الأهلية ، انها تظهر فجأة وتتخذ فوراً شكلاً معيناً لها . وهذه اشكال لا ترتقي فيما بعد نحو تكييف أفضل ، بل انما يزداد وجودها ندرة واخيراً تختفي بينما تنبثق اشكال مختلفة مرة اخرى .

ان ما يكشف عن نفسه بثراء متزايد أبداً للشكل،فانما هو الطبقات والانواع العظمى للكائنات الحية التي توجد وجوداً أصلياً أولياً ولا تزال توجد دون نماذج انتقالية في تجمع يومنا هذا . فنحن نرى كيف أن نوع السلاخيان[1] Selechian من الاسماك ، بما لهذا النوع من شكل بسيط ، يتبدى في مقدمة التاريخ ثم يختفي رويداً رويداً مرة اخرى ، بينما نرى ان نوع التليوستيان[2] Teleostians يدفع شيئاً فشيئاً الى السيطرة نموذجاً مكتملاً من السمك . والشيء ذاته ينطبق في عـالم النبات على السرخس والامسوخ (ذيل الفرس) اللذين لا تزال آخر انواعهما تعيش في مملكة النبات المزدهرة التي بلغت الذروة من تطورهـــا . لكن الزعم بوجود اسباب نفعية ، أو بالاحرى علل مرئية لهذه الظاهرات لا تمده الواقعة بأي تأييـد أو سند . فالمصير هو الذي ايقظ ودفع الى هذا العالم بالحياة بوصفها حيـاة ، وهو

---

١ ـ السلاخيان : نوع من الاسماك له غضاريف بدلا من العظام .

٢ ـ نوع من الاسماك ذو عظام ويطلق هذا الاسم على كل انواع الاسماك ذوات العظام .

(المترجم)

الذي أوجد التعارض المتزايد ابداً حدة بين النبات والحيوان ، وبين كل نموذج وفصيلة ونوع .

وقد اعطيت ايضاً الى جانب هذا الوجود طاقة معينة للشكل ، وبموجب هذه الطاقة ، وفي سياق انجاز الشكل لذاته ، فان الشكل إما أن يصون ذاته نقية، أو على العكس من ذلك ، أي ان تتبلد ذاته وتمسي غير واضحة أو مراوغة فتنقسم الى عدة اصناف ، واخيراً فان ديمومة هذا الشكل تؤدي بداهة الى شيخوخة النوع ومن ثم الى اختفائه (وذلك إذا لم تتدخل المصادفة لتختصر من ديومته المعينة) .

أما فيما يتعلق بالجنس البشري ، فان اكتشافات عصر الطوفان Diluvial ، تشير بدقة واحكام الى ان اشكال الانسان التي كانت موجودة آنذاك تنطبق على شكل الانسان الذي يعيش في عصرنا الحاضر ، وليس هناك من أي أثر يدل على عملية تطور نحو جنس ذي أهلية أعظم في نفعيتها . أما الفشل المتتالي لنظرية التطور فانما يتبدى في اكتشافاتنا العائدة الى العصر الثلاثي[1] Tertiary ، هذه الاكتشافات التي تدل بوضوح أشد فأشد ، على ان شكل الحياة الانسانية كشكل كل حياة اخرى ، أي انه ينشأ نتيجة لنشوء فجائي (Wandlung) تبقى أمامه «من أين» و « كيف » و « لماذا » سراً مغلقاً . ولو انه كان هناك حقاً تطور بما لهذه الكلمة من مفهوم انكليزي ، لما كان هناك أي نوع من طبقات أرض مقررة معينة ، أو أية مراتب حيوان ، بل لوجدت هناك فقط كتلة جيولوجية وفوضى (Chaos) من اشكال افرادية حية قد نفترضها انها من مخلفات الصراع من أجل البقاء . غير أن كل ما نره حولنا يستحثنا على القناعة مرة بعد اخرى بالتبدلات الفجائية العميقة التي تطرأ على كينونتي النبات والحيوان ، تبدلات هي من نوع كوني وهي ليست ابداً أسيرة لسطح الارض ، إذ انها تقع ما وراء معرفة الحس والفهم الانسانيين، وذلك من جهة الاسباب والعلل ، ان لم نقل فعلاً من كل الجهات .

---

١ – العصر الثلاثي هو العصر الذي بدأت فيه الاحياء اللبونة بالظهور .

(المترجم)

وهكذا نلاحظ ايضاً ان التبدلات السريعة العميقة تؤكد ذواتها في تاريخ الحضارات العظمى دون ان تكون هناك اسباب أو مؤثرات أو غايات مخصصة معينة من أي نوع كان .

إن الاساليب من غوطية واهرامية تخرج فجأة الى الوجود الكامل كما يخرج الاستعمار الصيني في عصر شي – هوانج – تي والروماني في عهد اوغسطس ، أو الهيليني والبوذي والاسلامي . ويحدث الشيء نفسه تماماً ايضاً بالنسبة الى احداث حياة كل فرد ذي اهمية واعتبار ، وكل من يجهل بهذه الواقعة فانه لا يعرف بأي شيء عن الرجال ومعرفته بالاطفال هي ايضاً دون جهالته تلك . إن كل كائن ، أكان حياً ناشطاً أو متأملاً متبحراً ، يخطو قدماً خلال حقبات نحو اكتماله ،وعلينا ان نفترض ايضاً حقبات كهذه تماماً في تاريخ الأنظمة الشمسية وتاريخ العالم والكواكب الثابتة .

وما أصول الأرض والحياة والحيوان الذي يتحرك طليقاً إلا حقبات كهذه ، وهي لذلك اسرار لا نستطيع حيالها اكثر من ان نقبل بها ونسلم .

– ٤ –

إن ذاك الذي نعرفه عن الانسان ينقسم بوضوح الى دهرين [1] عظيمين من كينونته . إما الدهر الاول ، وذلك فيما يتعلق بوجهة نظرنا ، فانه محدود من

---

١ – ترجمنا كلمة Age بكلمة دهر ، ولم نترجمها بعصر وذلك انسجاماً منا وما يعنيه اشبنغلر .

– المترجم –

الجانب الواحد بتلك « الفوغيه » (Fugue) العميقة للمصير الكوكبي الذي ندعوه ببداية العصر الجليدي (والذي لا نستطيع أن نقول عنه (داخل صورة تاريخ العالم) اكثر من ان تبدلاً كونياً قد طرأ وحدث) ، أما الجانب الثاني فهو محدود ببدايتي الحضارتين الراقيتين على ضفاف نهري النيل والفرات ، واللتين أمسى فجأة بواسطتها كامل مغزى الوجود الانساني مختلفاً عما كان عليه . فنحن نكتشف في كل مكان الحد الدقيق الواضح للعصر الثلاثي وعصر الطوفان ، ونرى الانسان على جانبه نموذجاً بلغ الكمال في شكله، ونراه مسلماً بالعودة والاسطورة، وذا حصافة وفطنة ، له تقنية واسلوب في الزينة، وقد منح تركيباً جسمانياً لم يطرأ عليه ، مادياً ، أي تبديل حتى عصرنا الحاضر .

إننا سنعتبر الدهر الاول دهر الحضارة البدائية. أما المكان الوحيد الذي اتخذته هذه الحضارة ميدانا لها حيث كابدت فيه وبقيت طيلة الدهر الثاني ، (وذلك بالرغم من أنها كانت أكيداً حينذاك في شكلها «المتأخر» زمناً) ،فاننا لا نزال نجده حياً ومنتظماً انتظاماً حسنا في افريقيا الشمالية الغربية . والحق انها لحصافة عظمى هي تلك التي يتمتع بها «ليو فروبنيوس» والتي تتجلى باعترافه بما اوردت آنفاً بجلاء ووضوح ، هذا الاعتراف الذي ينطلق به من الافتراض القائل بان في هذا الميدان (افريقيا الشمالية الغربية) قد بقي عالم كامل من الحياة البدائية (وليس فقط عدد اكبر أو أصغر من عشائر بدائية) بمعزل عن مؤثرات الحضارات الراقية . لكن العالم السيكولوجي الانتولوجي (علم أصول السلالات البشرية) ، هو على العكس مما ذكرت ، إذ أنه يجد لذته وسروره ، في تجميعه لهتامات من شعوب ، من القارات الخمس ، هتامات ليس لها من أي شيء مشترك وحضارات راقية أخرى ، ما عدا تلك الحقيقة السلبية ، حقيقة عيشها وجوداً ثانوياً في وسط حضارات لم تشارك او تشترك في حياتها الباطنية . والنتيجة هي مجموعة من عشائر بعضها ثابت مستديم ، والبعض الآخر منها أحط من الاول رتبة ، وغيرها منحل منحط ، زد على ذلك أن جميع صيغ تعبيرها قد جمعت دون ما تمييز وكتلت معاً .

لكن الحضارة البدائية ليست بهتامة ، بل انما هي شيء ما قوي كامل ، شيء مـا هي عميق الاثر والتأثير . وهذه الحضارة تختلف فقط عن كل شيء نمتلكه نحن ابناء الحضارة الارقى من ناحية إمكانياتها الروحية اختلافاً قد يجعلنا نتساءل عما إذا كانت حتى هذه الاقوام التي حملت ودفعت عميقاً بالدهر الأول داخل أحشاء الدهر الثـاني تشكل بواسطة صيغ كينونتيها المجردة والواعية كبنية حسنة بالنسبة الى ظرف الزمان القديم وحاله .

وقد كان للوعي اليقظ للانسان لمدة بضعة الاف من سنين ، انطباع عن تماس مستديم متبـــادل بين العشائر والاقوام ، بوصف هذا التماس حقيقة واضحة من حقائق الحياة اليومية. ولكننا حينما نعالج الدهر الاول علينا ألا ننسى ان الانسان كان خلال هذا الدهر ، يندمج في جماعات بالغة القلة في عددهـــا ، وكان الانسان ضائعاً تمامـــاً في الاتساع والامتداد غير المحدودين للصقع الذي كانت فيه قطعان هـائلة من الحيوانات الضخمة هي العنصر السائد والمسيطر . وندرة ما نعثر عليه من آثار ، تقدم برهانا كافيا على صحة ما ذهبنا إليه . ولربما كان عدد الذين يعيشون في فرنسا في عصر الانسان الاورينيكي (Aurignacian) لا يتجـاوز الاثنتي عشرة قبيلة ، ولا يزيد عدد الواحدة منهـا على المئة ، وكانت هذه القبائل ترتحل في كامل مساحة فرنسا ، ولا شك أن هذه العشائر كانت تقف مذهولة حائرة إذا ما ترامى (وذلك إذا ترامى) الى علمها نبأ وجود غيرها من البشر .

وهل نستطيع أن نتصور ، حتى ابسط درجة ، مـا تعنيه الحياة في عالم خال مهجور ، نعم هل نستطيع ذلك نحن الذين أمست ، منذ زمن طويل، كل الطبيعة بمثـــابة الأساس للحشد الانساني ؟ وأي تبدل يجب ان يكون قد طرأ على وعي الانسان للعالم حينما بدأ يصادف ، اكثر فاكثر ، في الاصقاع بشراً آخر « مثله تمامـــاً » ، الى جانب الغابات وقطعان الوحوش ؟ إن تزايد عدد البشر (وهذا التزايد حدث دون شك فجأة) جعل خبرة الانسان بغيره من ابنـــاء البشر خبرة عـــادية مألوفة ، واستبدل انطباعه الذاهل بأحاسيس من سرور أو عداء ، وهذه

الأحاسيس قد استثارت فيه ايضاً عالماً جديداً من الخبرات ومن العلاقات القهرية الحتمية . وهذا الأمر بالنسبة الى تاريخ النفس البشرية قد يشكل اعمق الأحداث وأخصبها . إن الانسان بدأ أول ما بدأ بادراك شكل حياته الخاصة استناداً الى اشكال الحيـاة الغريبة عنه . وبهذا إزداد التنظيم الداخلي للفخذ (Clan) ثراء من اشكال ارتباط عشائري مشترك ، ارتباط سيطر فيا بعد سيطرة كاملة على الحياة والفكر البدائيين . وذلك لانه انبثقت آنذاك أصول اللغة الشفوية ، وجاء انبثاقها من صيغ متناهية في بساطتها لفهم حسي . (وهكذا ايضـــاً عرفت أصول الفكر التجريدي طريقها الى الوجود) . وهنـاك من بين هذه الاصول تلك الأصول المحدودة بصورة خاصة والتي بمقدورنا ، (بالرغم من اننا لا نستطيع أن نكون فكرة عن تركيبها)، أن نفترضها أصولاً لمجموعات اللغات الهندية الالمانية والسامية فيا بعد .

ومن ثم انبثقت فجأة (وقرابة عام ٣٠٠٠ ق.م) حضارتا مصر وبابل ، وقد تم انبثاقها المفـاجيء من هذه الحضارة البدائية العـامة لانسانية تنتظمها روابط عشائرية مشتركة . ومن الجـائز أن كلًا من مصر وبابل كانتا قبل هذا التاريخ (٣٠٠٠ ق.م ــ المترجم) بدورة ألفية كاملة من الاعوام . تتمخضان عن شيء ما يختلف اختلافاً جذرياً عن كل حضارة بدائية في نوعه ومحتواه ، شيء مـــا يمتلك وحدة باطنية مشتركة لكل أشكال تعبيره ، واتجاهية في كل حياتها . ويبدو لي أنه من الجـائز جداً أن تبدلاً قد تم خلال ذاك الزمان ، وان لم يكن هذا التبدل قد طرأ فعـلًا على كامـل سطح الارض لكنه على كل حـال قـــد طرأ على جوهر الانسان . وإذا كانت الحـال على مـا ذكرت ، فعندئـذ يجب أن تكون أية حضارة بدائية جديرة باسمها، والتي وجدت لا تزال حية ومن ثم أخذت تنحط وتنحل بصورة مستمرة بين الحضارات الارقى ، أقول يجب أن تكون اية حضارة بدائية شيئاً ما يختلف عن حضارة الدهر الاول . ولكن ما أدعوه بما قبل الحضارة بالنسبة الى الحضارة البدائية (والذي يمكن أن يرى حدوثه كنسق لتدرج في بداية كل حضارة) هو شيء ما يختلف في نوعه ، إنه شيء ما جديد كل الجدة .

إن الـ « It »[1] ، أي العنصر الكوني هو في كل وجود بدائي فعال ناشط بفورية من قوة كتلك التي تجعل كل تلفظ (Utterance) كونيا أصغر ، أجاء هذا التلفظ في شكل اسطورة أو عادة او تقنية او زينة ، يطيع ويـــذعن فقط لضغوط اللحظة الفورية في آنيتها .

وبالنسبة الينا ، ليست هناك من قواعد ، يمكن التحقق منها ، الديمومة وايقاع تطور هذه التلفظات ومجراه . فنحن نلاحظ ، مثلاً ، لغة شكل تزييني ، (ويجب الا تدعى هذه اللغة باسلوب) تسيطر على سكان مساحة واسعة من الارض وتنتشر وتتبدل وتموت اخيراً .

وقد نجد الى جانب لغة الشكل هذه ، وربما نجد ايضاً في ميادين شتى من امتداد، انماطاً من ازياء واستخدام الاسلحة والتنظيمات العشائرية والممارسات الدينية، ونجد كل واحدة من هذه تتطور وفق اسلوب خاص بها لها نقاطها الحقبية الخاصة، ولها بداياتها ونهاياتها ، ومتأثرة تأثراً كاملاً بمجالات اخرى للشكل . ونحن عندما نتعرف ، في احدى مراتب ما قبل التاريخ ، على نموذج من فخار معروف معرفة صحيحة ،فعندئذ لا نستطيع انطلاقاً منه ان نناقش في عادات السكان ودينهم الذين يعود اليهم هذا النموذج من الفخار واذا كانت المنطقة ذاتها (التي اكتشفنا فيها ذاك النموذج من الفخار – المترجم) يتمسك اهلوها ، نتيجة لاحدى المصادفات بشكل خاص للزواج ، أو لنقل أن لهم نموذجاً معيناً من وشم، فان هذا الأمر لا يعني ابداً أن لأهليها فكرة أساسية تربط بينهم ، كتلك الفكرة التي يعبر عنها اكتشاف البارود،أو المرئي في التصوير الزيتي مثلاً.ولا تظهر الى الضوء ارتباطات ضرورية بين الزينة والتنظيم بواسطة طبقات الدهر ومراتبه ، أو بين مذهب عبادة

---

[1] (١) It : هو، أو هي لغير العاقل.

(المترجم)

أحد الالهة وبين نوع الزراعة الممارسة .

فالتطور في هذه الحالات يعني شيئاً من تطور مظهر أو ميزة فرديين للحضارة البدائية ولا يعني ابداً تطور هذه الحضارة نفسها. وهذا الأمر هو ، كما سبق لي أن قلت ، مشوش معدوم النظام ، فالحضارة البدائية ليست بنظام عضوي وليست مجموعاً من انظمة عضوية .

ولكن الـ « It » (العنصر الكوني – المترجم) يذعن مع هذا النموذج من الحضارة الارقى لنـــازع غير منتشر او موزع . فالعشائر والافخاذ هي ، داخل الحضارة البدائية ، مجرد كينونات دبت فيها الحياة، وهي مغايرة طبعاً للافراد من الناس . وهنا تكون الحضارة ذاتها كينونة كتلك الكينونات ، إذ أن كل شيء بدائي هو مجموع، إنه مجموع من اشكال التعبير للتجمعات البدائية. لكن الحضارة الراقية هي على العكس من الحضارة البدائية ، فهي كينونة واعية لنظـام عضوي ضخم واحد ،نظام لايجعل فقط العادة والاساطير والتقنية والفن ،بل ايضاً الاقوام والطبقات التي تضمها أحشاؤه ، أوعية للغة شكل واحدة وتاريخ واحد. إن أقدم نطق (Speech) نعرفه هو ذاك النطق الذي ينتمي الى الحضارة البدائية ، ولهذا النطق مصائر عاصية متمردة خـاصة به ، مصائر لا نستطيـع أن نستدل عليها من الزينة والزواج مثلاً . لكن تاريخ الخطوط ينتمي كليـا الى تاريخ التعبير لشتى الحضارات الارقى. أما كون الحضارات من مصرية وصينية وبابلية ومكسيكية، قد اوجدت كل واحدة منها ، خلال حقبة مـا قبل الحضارة ، خطاً خاصاً بها ، وكون الحضارتين الهندية والكلاسيكية ، من جهة أخرى ، لم تحذوا حذو تلك الحضارات ، بل انما اقتبستا (وفي عصر جد متأخر زمنا) خطي المدنيتين المجاورتين لهما ، هذين الخطين اللذين كانا قد بلغـا حينذاك مرتبة رفيعة من التطور ، وكون كل دين أو مذهب جديد في الحضارة العربية قد اتخذ له فوراً خطاً خاصاً به : كل هذه الأمور هي حقائق ترتبط ارتباطاً وثيقاً وعميقاً بتاريخ الشكل الشامل الجامع وبمغزاه الباطني لهذه الحضارات . ان معرفتنا بالانسان محصورة بهذين الدهرين وهما لا يكفيان بالتـأكيد ليبرروا صحة استنتاج عصور محتملة أو جديدة ، من أي نوع

كانت ، او تخمين زمن هذه العصور و كيفيتها ، وذلك بغض النظر تماماً عن تلك الحقيقة القائلة بان الارتباطات الكونية التي تحكم تاريخ الانسان بوصفه جنساً ، هي في كل حال ارتباطات تستعصي كلياً على مقاييسنا .

ان طريقتي في الفكر وطرازي في الملاحظة محدودان بسياء ما هو واقعي . والنقطة التي تمسي عندها خبرة «الحاكم على الناس» قبالة بيئته ،وخبرة «رجل الفعل» قبالة وقائعه ، باطلتين عقيمتين، عندئذ تجد البصيرة حدودها ايضاً . ان وجود هذين الدهرين هو واقعة من وقائع الخبرة التاريخية ، زد على ذلك أن اختبارنا للحضارة البدائية لا يتوقف فقط على المراقبة وعلى آثارها كشيء قائم بذاته ومنغلق على نفسه ، بل يتوقف ايضاً على تفاعلنا ومغزاها الاعمق نظراً لرباط باطني يشدنا اليها ، وهو رباط لجوج ملحاح داخل ذواتنا .

لكن الدهر الثاني يفتح أمامنا ميداناً لخبرة أخرى ذات نوع مختلف تماماً . إن الظهور المفاجيء لنموذج الحضارة الارقى في ميدان التاريخ البشري جاء وليد مصادفة لا نستطيع أن نتحرى مغزاها او نتقصاه . والحق أنه من الجائز تماماً أن حادثة مفاجئة قد وقعت في مجال تاريخ الارض ، فدفعت بشكل جديد مختلف ، الى الوجود الظاهري . ولكن حقيقة وجود ثماني حضارات كهذه أمامنا، حضارات لها جميعاً الشكل ذاته والتطور نفسه والديمومة ذاتها ، تخولنا أن ننظر اليها نظرة قياسية مقارنة ، ولذلك تبرر معالجتنا لها معالجة مقارنة، ودراستنا لها دراسة مقارنة ايضاً ، وان نستحصل من دراستنا على معرفة نستطيع أن نمتد بها وراء لتغطي حقبات مفقودة من التاريخ ، وأماماً لتشمل المستقبل وذلك شريطة ألا يستبدل مصير نظام مغاير، وبصورة اساسية مفاجئة ، عالم الشكل هذا ، بعالم شكل آخر . إن حقنا في ان ننطلق بدراستنا على هذا النحو ينبع من خبرتنا العامة للكينونة العضوية . وكما أننا لا نستطيع في ميدان تاريخ سباع الطير أو تاريخ النبات ذي الثمار المخروطية الشكل (Coniferae) أن نتنبأ ، أين أو متى ستنشأ فصائل جديدة ، كذلك فاننا لا نستطيع أن نقرر أين أو متى ستنشأ حضارة جديدة .

ولكن في اللحظة التي يحمل الرحم بكائن جديد ، أو تدفن البذرة في التربة ، فاننا نعرف الشكل الباطني لمجرى الحياة الجديد هذا ، ونعرف ايضاً بان سياق تطوره الصامت واكتماله ، قد يعكر صفوه ضغط قوى خارجية ، لكنه لا يبدله أبداً .

إن هذه الخبرة تعلمنا ايضاً ، ان المدنية التي تقبض الآن على كامل سطح الارض هي ليست بدهر ثالث ، بل انما هي مرحلة (ومرحلة ضرورية) من مراحل الحضارة الغربية التي تمتاز عن مثيلاتها من الحضارات فقط بشدة نازعها الى الامتداد .

وعند هذه النقطة تنتهي الخبرة ، ويصبح كل رجم بالغيب عن ماهية الاشكال الجديدة التي ستسيطر على حيـــاة الجنس البشري مستقبلاً ، (أو بالنسبة الى هذا الأمر عمــا إذا ستقوم مستقبلاً أية اشكال جديدة كهذه) ويمسي كل بنــاء لقصور كرتونية فخمــة ، تنشأ على أساس من « يجب أن يكون » أو « سيكون » مجرد تفاهة تبدو لناظري أن فيها من العقم والبطلان قدراً يجعلني لاأبرر إهدار مجهودات حياة واحدة من أي نوع كانت ، عليها .

ان مجموعة الحضارات الراقية ، بوصفها مجموعة ، ليست بوحدة عضوية . أمــــا كونها قد بلغت تماماً هذا الرقم عدداً وقامت في تلك الاماكن والازمنة وحدها ، فهذان الأمران همــــا بالنسبة الى العين البشرية مجرد مصادفة لا تمتلك أي وضوح اعمق . بينما أن تنسيق الحضارات الافرادية هو على العكس من ذلك ، إذ بلغ درجة من الوضوح مكنت التقنية التاريخية للعوالم من صيني ومجوسي وغربي ، (ومراراً كثيرة مكن بالفعل الوفاق المشترك بين المثقفين من ابنــــاء هذه الحضارات) من صياغة مجموعة من الاسماء التي يستحيل علينا أن ندخل أي تحسين عليها .

إذن فامـــــام الفكر التاريخي واجب ذو شقين ، ويتمثل الشق الاول منه في معالجة مجاري حياتات الحضارات الافرادية معالجة مقارنة ، أمــا الثاني فيتجلى في تمحيص العلاقات الطارئة الشاذة لهذه الحضارات بعضها ببعض وذلك من جهة معناها . ومن الواضح بما فيه الكفاية انه قد تغوضي حتى الآن عن ضرورة الشق الاول من هذا الواجب . أما الشق الثاني فانه قد عولج بواسطة منهاج كسول ضحل فقط ،

منهاج يفرض السببية (العلية) على كامل العقدة ويعرضها بترتيب وكياسة بمحاذاة مجرى تاريخ « عالم » افتراضي ، وبهذا يجعل من المستحيل اكتشاف سيكولوجيا هذه العلاقات الصعبة لكنها الغنية الجاء ، أو الحياة الباطنية لاية حضارة خاصة . والحق أن شرط حل المعضلة الاولى هو أن تكون المعضلة الثانية قد حلت قبل الآن . فالعلاقات (الحضارية) هي علاقات مختلفة جداً حتى من الناحية البسيطة ، ناحية الزمان والفراغ . فالصليبيون قد حملوا ربيعاً حضارياً ليضعوه قبالة مدنية عتيقة ناضجة . ونحن نرى أن زمان البذر يقف ، في العالم الكريتي - الماسيني ، جنبا الى جنب والخريف الذهبي . فالمدنية قد تفيض متدفقة من بعد هائل ، كما تدفقت المدنية الهندية من الشرق لتفيض في الحضارة العربية ، أو قد ترقد هرمة شائخة خانقة فوق طفولة الحضارة ، كما كانت حال المدنية الكلاسيكية بالنسبة الى الجانب الآخر من الحضارة العربية . ولكن هناك ايضاً فروقاً في النوع والقوة ، فالحضارة الغربية تبحث عن العلاقات ، أما المصرية فتحاول أن تتجنبها ، زد على ذلك أن الحضارة الغربية تتعرض مرة بعد أخرى للطمات هذه العلاقات وضرباتها خلال أزمات مأساوية ، بينما أن الحضارة الكلاسيكية تستحصل على كل ما يمكنها استحصاله منها دون ما عذاب أو ألم . ولكن لجميع هذه النوازع جذورها الضاربة عميقاً في روحانية الحضارة نفسها ، واحيانا تقدم الينا هذه النوازع من أخبار تلك الحضارة، اكثر بكثير مما تقدمه الينا لغة الحضارة الخاصة بها ، هذه اللغة التي تبطن أكثر مما تجاهر به وتعلن .

- ٥ -

إن لمحة نلقي بها على مجموعة الحضارات تكشف لنا عن مهمة بعد مهمة وواجب إثر واجب . فالقرن التاسع عشر الذي وجه فيه العلم الطبيعي البحث التاريخي ،

وسيطرت خلاله افكار العصر الباروكي على الفكر التاريخي، قد ارتفع بنا فقط الى ذروة سامقة مكنتنا من أن نرى عالماً جديداً ينفسح من تحتنا .فهل ستتمكن من ان نضع في أحد الأيام أيدينا على ذاك العالم الجديد ؟

ان المعالجة المطردة الوحيدة النسق للمجاري العظمى ، مجاري الحياة ، لا تزال حتى يومنـــا هذا بالغة الصعوبة شديدتها ، وذلك لانه لم يجر البحث عن الميــادين التاريخية الابعد بحثـــاً جدياً ، وهذا الأمر ناشىء عن النظرة المتكبرة المتعالية لانسان اوروبا الغربية ، فهذا الانسان يلاحظ فقط مـا يقترب اليه من هذا العهد العتيق أو ذاك ، سالكاً نحوه (نحو انسان اوروبا الغربية) درباً خاصاً لائقاً لعصر وسيط ، أمـا ذاك الذي يسلك سبله الخاصة ، فانه لن يستأثر إلا بالقليل من اهتمام الانسان الاوروبي الغربي وانتباهه.وهكذا نجد أن انسان اوروبا الغربية قد بدأ الآن يعالج مواضيع من انواع معينة خاصة من محتويات العالمين الهندي والصيني (الفن، الدين ، الفلسفة) ، لكن علاجه للتاريخ السياسي ، وذلك إذا مـا عالج مثل هذا الموضوع ، لا يتعدى الثرثرة ولغو الكلام . ولا يخطر على بال أي انسان أن يعالج المعضلات العظمى من أساسية ودستورية للتاريخ الصيني، كمصير لي – وانغ (٨٤٢) المماثل لمصير آل هوهنشتاوفن [١] او أول مؤتمر عقده الأمراء (عام ٦٥٩) ، او الصراع المذهبي الذي نشب بين العقيدة الاستعمارية لدولة «تسن» [٢] «والرومانية» (لين – هنغ) وبين الدعوة الى تأسيس جامعة أمم (هو – تسونغ) ، هذا الصراع الذي دار بين عـــامي ٥٠٠ و ٣٠٠ ، أو ظهور اوغسطس الصيني ، هوانغ – تي (عام ٢٢١) ، أقول لا يخطر على بال أي إنسان أن يعـالج هذه الأمور باي من

---

١ – سلالة مالكة المانية . (المترجم)

٢ – لاحظ الدراسة المقارنة للتاريخ ، فدولة « تسن » دولة قامت في الصين .

(المترجم)

عمق أو تفصيل كالذين كرسها « مومسون » لدراسة ولاية اوغسطس .

ونعود الآن لنطرق موضوع الهند ثانية ، فنقول بانه مهما بلغ نسيان الهنود انفسهم لتاريخ دولتهم درجة من التام، إلا أن المواد المتوفرة لدينا، على كل حال، من زمن بوذا هي أوفر من المواد التي وصلت إلينا من القرنين التاسع والثامن الكلاسيكيين ، ومع ذلك ترانا نسلك حتى اليوم سلوك من يرى أن الانسان الهندي قد كرس كل حياته وعاشها في فلسفته ، تماماً كما أمضى سكان اثينا (على حد ما يريده المتكلسكون منا أن نؤمن به) حياتهم يفلسفون الجمال على ضفاف « الالسوس » . ولكن حتى السياسة المصرية تحظى بالقليل من الاهتمام التأملي . فالمؤرخ المصري المتأخر زمنا قد أخفى وراء اسم « مرحلة الهكسوس » الأزمة ذاتها التي عالجها نده الصيني تحت عنوان « مرحلة الدول المتنازعة » .

وهنا ايضاً نصادف شيئاً ما لم يبحث أبداً . أما الاهتمام بالعالم العربي فانه بلغ حدود الالسنة الكلاسيكية ولم يتجاوزها الى ما هو أبعد من ذلك . ولكن بأية مثابرة لا تعرف تعباً او مللاً ، وصفنا نظام ديوكلتسيان وجمعنا مواد تاريخ إداري غير هام كليا لولايات اسيا الصغرى ، وذلك كله لان ذاك النظام وتلك المواد قد دونت باللغة اليونانية . لكن الدولة الساسانية ، وهي، على كل الوجوه ، النموذج لدولة ديوكلتسيان ، لا تظهر في الصورة التاريخية إلا اتفاقاً ومصادفة ، وتظهر حتى في هذه الحال كخصم مناجز لروما في الحرب . ولكن ما الذي لدينا من تاريخها الاداري والتشريعي ? فيالها من مجموعة فقيرة هي تلك المجموعة التي قمنا بتجميعها من قوانين واشكال اقتصاد مصر والهند والصين ، وذلك إذا ما قارناها بالجهود التي بذلناها على القانونين من اغريقي وروماني .

فقرابة عام ٣٠٠ ق. م. ، وعقب حقبة « ميروفنجية » (Merovingian) طويلة لا تزال جلية واضحة المعالم في مصر ، ولدت اقدم حضارتين عرفهما العالم ، وذلك في مناطق جد محدودة تقع على اسفل مجريي نهري النيل والفرات . وقد عرف منذ زمن طويل ، التمييز بين المراحل المبكرة والمراحل المتأخرة زمناً

لهاتين الحضارتين بالمملكة القديمة والمملكة الوسيطة ، وبالسومريين والأكاديين (Sumer Akkad) .

إن نتاج الحقبة الاقطاعية المصرية المطبوع بطابع توطد اركان النبالة الوراثية وانحلال المملكة الاقدم (ابتداء بالاسرة السادسة) يشبه الى حد مذهل مجرى الحوادث في ربيع الحضارة الصينية المبتديء بأي – وانج (٩٣٤ – ٩٠٩) ويشبه أيضاً الربيع الحضاري الغربي المنطلق من الامبراطور هنري الرابع (١٠٥٦ – ١١٠٦) شبهاً عجيباً بحيث يجعلنا نقدم على المغامرة بالقيام بدراسة مقارنة موحدة بين الحضارات الثلاث جميعاً . فنحن نشاهد في بداية العصر البابلي « الباروكي » شخص سرجون الاكبر (٢٥٠٠) الذي انطلق فبلغ شواطيء البحر الابيض المتوسط واحتل جزيرة قبرص ونصب نفسه ، كما نصب نفسيهما كل من يوستنيان الاول وشارل الخامس ، « أي سيداً على اجزاء الارض الاربعة . » كما واننا نلاحظ في حينه، وقرابة عام ١٨٠٠ بدايات اولى المدنيات تطل برؤوسها على النيل، وتبتديء في وقت ابكر من هذا في الحضارة السومرية الاكادية . ولقد أبدى العنصر الاسيوي في هذه المدنيات قوة انتشارية هائلة. «فانجازات المدنية البابلية»، وهي أشياء وافكار وتصورات كثيرة تتعلق بالقياس والعد والحساب ، قد بلغت (كما تقول الكتب) بانتشارها تخوم بحر الشمال والبحر الاصفر ولربما وجدت الهمجية الجرمانية كثيراً من الطوابع البابلية التي شاهدتها على أداة أو آنية بابليتين وصلتا اليها ، بوصف هذه الطوابع رموزاً سحرية ، وهكذا من الجائز أن يكون قد نشأ عن هذه الطوابع زخرف « الماني مبكر زمناً » . ولكن المملكة البابلية كانت في تلك الاثناء تنتقل من يد الى يد ، من يد الحثيين الى الاشوريين فالكلدانيين فالميديين فالفرس فالمقدونيين .

وكان جميع هؤلاء الذين يتألفون من جماعات محاربة يقودها قواد بارعون أقوياء الشكيمة ، تغتصب الجماعة منهم مقاليد السلطة في العاصمة من الجماعة الأخرى ، دون أن تلقى من السكان أية مقاومة تذكر . وهذا أول مثال في التاريخ من طراز الأمثلة التي ضربتها « الامبراطورية الرومانية » فيما بعد . لكن سرعان ما

حذت مصر حذو بابل في هذا المضمار . وكان الحرس البريتوري في عهد الحثيين يعزل الحكام وينصبهم ، أمـــا الاشوريون فشأن حكامهم كان شأن الاباطرة العسكريين الرومان المتأخرين زمناً (وخاصة مـا بعد كومودبوس) ، إذ انهم حافظوا على الاشكال الدستورية الاساسية القديمة للدولة . كما وان قورش الفارسي واوستروغوث الثيودري كانا يعتبران نفسيهما بمثابة مديرين للامبراطورية ويريان في العصابات المقاتلة من ميديين ولومبارديين أقواماً سيدة مستقلة في بيئات غريبة عنها .

ولكن هـــذه الأمور هي « فروق » دستورية أكثر من كونها فروقاً واقعية .

والحق أن فيالق سبتيموس سفيروس الافريقي لم تكن في جوهرها وغايتهـا مختلفة عن المحاربين من الفيزيغوت (Visigoths) في جيوش « ألاريك » . وفي معركة ادريانوبل انعدم التمييز تقريباً بين الرومان البرابرة .

وعقب عـــام ١٥٠٠ تبدأ ثلاث حضارات جديدة : الاولى ـ الهندية ، وقد ولدت هذه في منطقة البنجاب العليا . والثـانية ـ الصينية التي شاهدت النور عقب الاولى بمئة عام في منطقةهوانغ ـهو ـالوسطى،والثالثة ـالكلاسيكية وقد عرفت هذه طريقها الى الوجود على شواطىء بحر ايجيه قرابة عام ١١٠٠ .

ويحدثنا المؤرخون الصينيون عن ثلاث أسر مالكة عظمى، وهذه الاسر هي: « هسيا » (Hsia) وشانغ وتشو ، وحديثهم عن هذه الأمر مماثل في اسلوبه تقريباً لاعتبار نابليون نفسه مؤسساً لاسرة رابعة تخلف الامرات المالكة من موروفونجية وكارولنجية وكابيتسيانية . لكن الاسرة الصينية الثالثة قد عايشت فعلًا الحضارة الصينية في كل حالة من حالاتها وطيلة ما كان لهذه الحضارة من عمر .

وفي عام ٤٤١ ق.م عندما وقع الامبراطور ، سليل عائلة تشو ،والذي لم يكن يملك من السلطة سوى اسمها ، أسيراً في قبضة «الدوق الشرقي» ، وعندما نفذ حكم

الاعدام عام ١٧٩٣ « بلويس كابي »[1] عندئذ تحولت الحضارة في كل من الحالتين الانفتي الذكر الى مدنية .

وهناك مخلفات أثرية برونزية صينية تعود الى عهود جد غارقة في القدم ، ولا تزال محفوظة منذ الأزمنة المتأخرة لعائلة تشانغ ، وعلاقة هذه المخلفات بالفن الصيني الذي اعقبها هي تماماً كعلاقة الفن الماسيني بالحرف الكلاسيكي المبكر ، وكعلاقة الزخرف الكرولونجي بفن الرومانسك . وباستطاعتنا ان نرى في الربيع الحضاري ، من فيدي وهوميروسي وصيني ، وفيما تمخض عنه هذا الربيع من « قلاع » وفروسية وسيادة اقطاع ، كامل صورة عهدنا الغوطي ، زد على ذلك أن « مرحلة الحماة العظام » (هذه المرحلة المتمثلة في منغ تشو ٦٨٥ - ٦٩١) تنطبق انطباقاً كلياً على أزمنة كرومويل وفلانشتاين وريشيليو ،وعلى عصر الطغاة الاول في العالم الاغريقي .

ويسمي المؤرخون الصينيون المرحلة الممتدة بين عامي ٤٨٠ و ٢٣٠ ق. م. « بمرحلة الدول المتنازعة » وقد بلغت هذه المرحلة ذروتها في قرن توزعته حروب متواصلة دارت رحاها بين جيوش هائلة ، واضطرابات اجتماعية مرعبة ، واخيراً تمخضت تلك الحروب. وهذه الاضطرابات عن قيام دولة « تسن » بوصفها مؤسسة الامبراطورية الصينية .

أما مصر فلقد مرت بالتجربة الآنفة الذكر ذاتها خلال المرحلة الممتدة بين عامي ١٧٨٠ و ١٥٨٠ ، وقد اوقف القرن الاخير من هذه المرحلة ، أحداثه على « الهكسوس » .

أما العالم الكلاسيكي فقد عانى المحنة ذاتها وذلك ابتداء من معركة كرونيا (عام ٣٣٨) وبلغت هذه المرحلة الذروة في رعبها ابتداء بمعركة « جراتشي » (عام ١٣٣) وانتهاء بمعركة اكسيوم (عام ٣١) ، وأخيراً فان القرنين

---

١ - لويس السادس عشر .

(المترجم)

التاسع عشر والعشرين يشكلان المرحلة نفسها بالنسبة الى العالم الاوروبي الغربي الاميركي .

ويبدل مركز الثقل خلال هذه المرحلة موضعه وينقله ، وكما نقله من أنيكا الى لاتسيوم ، كذلك نقله من هوانج - هو (الواقعة في هو - نان - فو) الى اليانغتسي (الاقليم الحديث من هو - بي) . ولقد كان نهر سيكيانغ في تلك الايام غامضاً بالنسبة الى علماء الصين غموض نهر الالبه بالنسبة الى العالم الجغرافي الاسكندري ، ولم تكن تراود أي انسان من هؤلاء أية فكرة أو خاطر عن وجود الهند .

وكما ارتفعت على الجانب الآخر من الكرة الارضية أسرة جوليان كلوديان الى السلطان ، كذلك نشأت هنا في الصين شخصية وانغ - تشينغ الجبارة الذي قاد دولة «تسن» خلال صراع حاسم ، ليبلغ بها مرتبة السيادة العليا واتخذ له عام ٢٢١ لقب تي (وهذا مماثل تماماً في معناه للقب اوغسطس ،) وسمى نفسه باسم القياصرة أي هوانغ - تي . وهو الذي اسس الـ « Pax Serica » كما يجوز لنا أن ندعوها، وقام باصلاحات اجتماعية عظيمة في الأمبراطورية المتعبة المنهوكة وبدأ (بسرعة روما وفوريتها) ببناء « سوره » ، السور الصيني العظيم الذي اضطره استكماله الى ضم جزء من منغوليا الى أمبراطوريته وذلك عام ٢١٤ وهوانغ - تي كان اول من أخضع البرابرة في الاقاليم الواقعة جنوباً من نهر يانغ تسي ، وذلك عقب سلسلة من حملات واسعة المدى اتبعها ودعمها بشق الطرق العسكرية وبناء القلاع وتشييد الحصون وانشاء المستعمرات . ولكن تاريخ عائلته كان ايضاً تاريخاً « رومانيا » (لقد كان هذا التاريخ بمثابة دراما «تاسيتيه» قام بتمثيل بعض ادوارها لوي - تي (مستشار الأمبراطور وزوج أمه) ولي ستسو (اغريبا عصره وموحد الخط الصيني) لكنها كانت دراما سرعان ما انتهت بفظائع نيرونية . وخلف اسرة هوانغ - تي في الحكم اسرتا الهان (الغربية من ٢٠٦ ق.م الى ٢٣ ب.م ، والشرقية من ٢٥ ب.م الى ٢٢٠ ب.م) وقد أخذت رقعة الصين خلال عهدي

هاتين الاسرتين تزداد اتساعاً يوماً بعد آخر ، وذلك بينما كان الخصيان من الوزراء والقادة العسكريين في العاصمة ينصبون الحكام ويخلعونهم حسبما تشاء لهم نزواتهم وتهوى . وفي فترات معينة نادرة ، كفترة حكم وو – تي (١٤٠ – ٨٦) وعهد منغ – تي (٥٨ – ٧٦) بلغ ، في مناطق بحر قزوين ، اقتراب قوى العالم من كونفوشيوسية صينية وبوذية هندية ورواقية كلاسيكية بعضها من بعض درجة تجعلنا نرجح حدوث تماس واقعي بينها .

وقد شاء الحظ أن تتكسر هجمات الهون (Huns) على سور الصين الذي كان يجد له في كل محنة أمبراطوراً قوياً يدافع عنه . ولقد صد الامبراطور «تراجان» الصيني ، وو – تي ، هجمات الهون صداً حاسماً وذلك خلال المدة الواقعة بين عامي ١٢٤ و ١١٩ . والامبراطور وو – تي هو الذي ضم في النهاية المناطق الجنوبية الصينية الى الامبراطورية مستهدفاً من وراء ذلك بلوغ الهند ، كما وانه شق طريقاً عسكريا عظيماً الى «تاريم» . وعندما فشل الهون في اقتحام سور الصين اتجهوا بهجماتهم غرباً وظهروا في حينه وجماعة من العشائر الجرمانية التي اغروها بالانضمام اليهم أمام اسوار العالم الروماني . وقد صادفهم هذه المرة النجاح فتهاوت الامبراطورية الرومانية واندثرت . وهكذا لم يبق من الامبراطوريات الثلاث سوى امبراطوريتين أصبحتا غنيمتين سال لهما لعاب قوى متواترة مختلفة . وأمسى بربري الغرب « ذو الشعر الاحمر» هو الذي يقوم على مشهد من البرهمي والمندريني (Mandarin)[1] اللذين بلغا درجة من المدنية ، بالدور ذاته ، الذي قام به فيما مضى المغولي والمنشو . وبراعة بربري الغرب في تمثيل دوره ليست افضل أو اسوأ من براعة نده . وسيحل اكيداً في الوقت المناسب محل البربري الغربي ذي الشعر الاحمر آخرون ليمثلوا الدور ذاته . لكن بينما كانت الحضارة الغربية تنضج خفية

---

١ – Mandarin : الموظف الصيني في عهد الأمبراطورية

–المترجم–

في الغرب الشمالي من الميدان الاستعماري لروما المتعثرة ، كانت الحضارة العربية قد تجاوزت طور ازدهارها في الجزء الشرقي من ذاك الميدان . والحق ان الحضـــارة العربية هي كشف واكتشاف . ولقد اشتبه العرب المتأخرون زمنـــاً في وحدتها لكن انعتاقها من البحث التاريخي الغربي بلغ درجة من الكلية بحيث لم نستطع معها أن نجد لها حتى إسماً نرضى عنه ونطمئن إليه . غير أننـــا نستطيع اعتماداً على اللغات السائدة التي عرفتها هذه الحضارة أن ندعو طورها الجنيني وربيعها الحضاري بالعهد الارامي ، وان نسمي أطوارها الأخرى بالعهد العربي . لكننا لا نستطيع في هذا المجال ، مجـــال التسمية من تحديد الاسماء تحديداً حقيقياً يفي بالغرض ، وذلك لان الحضارات في هذا المجـــال كان بعضها قريبـــاً من بعض وادى امتداد المدنيات التي آلت إليها الى الكثير من التراكم والتمويه .

بدأت وانتهت الحقبة مـا قبل الحضارية من الحضارة العربية ، هذه الحقبة التي نستطيـع أن نقتفي آثارها في التاريخين الفارسي واليهودي داخل مناطق العالم البابلي القديم . غير أن الربيـع الحضاري العربي تأثر تأثراً جباراً بالمدنية الكلاسيكية التي انطلقت من الغرب بكل ما لهـا من قوى وزخم نضوج كانت قد بلغته لتوها ، زد على ذلك أنه كان للمدنيتين المصرية والهندية أثر بارز ايضـاً في الربيـع الحضاري العربي . ومن ثم قامت الروح العربية بدورها (وهي تخفي معظم فعالياتها تحت اقنعة كلاسيكية تعود الى أزمنة متأخرة) باخضاع الحضارة الغربية الوليدة لسلطان سحرها .

وتشكلت المدنية العربية فوق طبقة من مدنية كلاسيكية كانت لا تزال حية في النفس الشعبية في أقاليم اسبانيا الجنوبية وفي بروفانس وصقلية، وأمست النموذج الذي هذبت وفقه النفس الغوطية ذاتها . وقد مد في مجالات هذه الحضارة الخاصة مداً عجيباً وجزئت ايضاً هذه المجالات تجزئة شاذة غريبة . فلينتقل الانسان بخياله الى تدمر أو زيزفون مثلا وليتأمل سارحاً بفكره خارج هاتين المدينتين أو ممعناً النظر في كل ما حولها ، فهو عندئذ سيرى Osrhoene في الشمال، وستقع انظاره

على أديسه التي أمست « فلورنسا » الربيع الحضاري العربي . وسيشهد في الغرب سوريا وفلسطين موطن العهد الجديد والمشنا اليهودية وستطالعه الاسكندرية بوصفها مركزاً أمامياً دائماً . أما شرقاً فلقد اختبرت المازادية تجدداً جباراً يعادل ما كان لولادة المسيح من أثر على اليهودية ، وعن تجدد المازادية نستطيع أن نقول اعتماداً على الحالة الهتامية لآداب الافستا بأنه قد وقع حتماً وحدث . وهنا ايضاً شاهد التلمود ومذهب ماني النور . أما في الجنوب البعيد ، موطن الاسلام المقبل ، فان عصر الفروسية قد تمكن من أن يبلغ الذروة من تطوره كما بلغها الساسانيون من قبل في بلادهم . وحتى هذا اليوم لا تزال توجد آثار ، لم تكتشف بعد ، من قلاع وحصون شهدت حروباً ضارية حامية نشبت على ساحلي البحر الأحمر بين دولة اكسوم (Axum) المسيحية ودولة حمير اليهودية ، وكانت الدبلوماسية الفارسية والرومانية تغذي هذه الحروب وتسعر ضرامها . أما في الشمال الأقصى فلقد كانت تقوم بيزنطة وهي مزيج غريب من عناصر كلاسيكية متمدنة جافة وذات شباب وفروسية تجليا قبل كل شيء في تاريخ نظام الجيش البيزنطي المحير المربك . واخيراً (لا بل متأخراً جداً) حمل الاسلام الى هذا العالم الانف الذكر الوحدة الوجدانية ، وهذا هو السر في زحفه الظافر والاستجابة المستسلمة تقريباً للمسيحيين واليهود والفرس على حد سواء الى دعوته .

ومن الاسلام انبثقت في الوقت المناسب المدنية العربية التي بلغت ذروة اكتمالها الذهني حينما اقتحم البرابرة[1] من الغرب لفترة من الزمن البلاد الاسلامية في طريقهم الى القدس . وقد نسأل ذواتنا كيف بدت يومذاك هذه الغارة في أعين العرب المتمدنين ؟ هل بدت مثلاً شيئاً ما شبيهاً بالبلشفية ؟ وذلك لأن علاقات الفرنجة (Frankistan) السياسية وأنظمتهم كانت دون الأنظمة الادارية في العالم العربي

---

١ - لا شك ان اشبنغلر يعني بهؤلاء الصليبيين .

(المترجم)

درجة ومستوى. وحتى خلال حرب الثلاثين عندما بذل مبعوث[1] بريطاني قصارى جهده ليستعدي الباب العالي على أسرة هابسبورغ ، فان السلطان الذي كان يوجه سياسة منطقة تمتد من مراكش الى الهند قد رأى حتماً ان الدول الصغيرة المعتدية النهابة والبعيدة عن بلاده غير جديرة باهتمامه . وحتى عندما نزل نابليون بجيوشه في مصر بقي الكثيرون من الناس مجردين من كل خاطر عن المستقبل .

وشهدت المكسيك في هذه الفترة من الزمن تطور حضارة جديدة ، غير ان عزلة هذه الحضارة عن الحضارات الاخرى كانت شديدة الى حد انها لم تبادل غيرها من الحضارات كلمة واحدة . ولكن ممـــا يثير الدهشة لا بل الذهول هو أوجه الشبه بين تطور هذه الحضارة وتطور الحضارة الكلاسيكية . ولا شك ان علماء الآثار اذا ما وقفوا امام معبد مكسيكي فانهم سيذعرون ويهلعون اذا ما أشار أحدهم الى اوجه الشبه بين هذا المعبد والمعبد الدوري ، ومع هذا فان لهـذا المعبد مسحة كاملة في كلاسيكيتها (مسحة تبرز ضعف الارادة -- للقوة في ميدان التقنية) وهذا الضعف هو الذي أبقى شعب الازتيك (Aztecs) مسلحاً تسليحاً رديئاً وجعل الكارثة التي نزلت بهم أمراً ممكناً . وذلك لأن هـــذا النوع الواحد من الحضارة كما يحدث قد لاقى موتاً عنيفاً مروعاً . فحضارة المايا لم تمت جوعـاً ولم تكبح أو يعترض سبيلها معترض ، بل انمـــا قتلت قتلاً ، وقتلت وهي في أوج ازدهارها ، ودمرت كما تدمر زهرة عباد الشمس اذا ما قطع احد المارة تاجها . فكل هذه الدول (دول الازتيك) (بما فيها من قوة عالمية واكثر من اتحاد) وبما لها من حجم وموارد أضخم بكثير من موارد الدول الاغريقية والرومانية في زمن هنيبال ، واوسع من احجامها ، وبما لها من سياسة واعية مدركة ونظام مالي

---

١ ـ يدعى هـــذا المبعوث السير توماس رو Thomas Roe وقد قـــام بمهمته هذه عام ١٦٢٠ .

(المترجم)

أعد بعناية وفهم ، وتشريع بلغ درجة رفيعة من التطور ، وأنظمة ادارية وتقاليد اقتصادية لم يحلم بمثلهـــا حتى وزراء شارل الخامس ، وثراء عريض في الآداب واللغات، ومدن عظمى ذات مجتمعات متأدبة ولامعة ذهنياً، مجتمعات لا يستطيع الغرب أن يقدم مجتمعاً واحداً يضارع هاتيك ، أقول كل هذه الدول وبكل مـا لها من ارصدة حضارية لم تندثر نتيجة لحرب يائسة ، بل انما جرفتها خلال سنوات قليلة عصابة ضئيلة العدد من اللصوص ودمرتها تدميراً جعل الآثار التي خلفها السكان بلهاء لا تحتفظ حتى بأية ذكرى عن تلك الحضـــارة . فمن المدنية العملاقة « تينوشتتلان » (Tenochtitlan) لم يبق حجر واحد لم يغيبه الثرى في أحشائه. وأذعنت العناقيد من مدن « المايا » العظيمة التي شيدت في غابات يوكاتان العذراء لهجات نبات الارض واستسلمت لها استسلام من فترت همتـه وخارت عزيمته . وهكذا ترانا اليوم لا نعرف اسم أية مدينة من تلك المدن . ولم تعف يـد الدمار الا عن ثلاثة كتب من آدابهم ، لكنها كتب لم يتمكن أحـــد حتى الآن من قراءتها .

أمـــا أشد مظاهر هذه المأساة ايلاماً للنفس وترويعاً لها كون هذا التدمير الساحق الماحق يتنافى نزوله وأبسط ضرورات الحضارة الغربية . وقد جـاء وليد نزوات خاصة فاضت بهـا نفوس اولئك المغامرين ، ولم يترام يومذاك الى مسامع المانيا وفرنسا أو انكلترا أي نبأ عما يدور في المكسيك ويحدث . وهـذا المثال لدليل قاطع ما بعده من دليل على ان تاريخ الانسانية لا يمتلك أي معنى كان ، وعلى أن المغزى العميق انما يكمن ويثوي في مجرى حياة كل حضارة على حدة . فالعلاقات المشتركة بين الحضارات هي من بنات الصدفة ودون أهميـــة . ولقد بلغت الصدفة في هذه الحال درجة من القسوة والتفاهة والشذوذ والغباء بحيث لا يجوز لنا معها أبداً أن نبدي أي نوع من التسامح نحوها . فعدد قليل من المدافع والبنادق بدأ هذه المأساة وأنهاها .

وهكذا نرى أن معرفة أكيدة حتى بأكثر تاريخ العـــالم عمومية هي أمر

ممكن دائماً وأبداً . ونشهد أيضاً أن أحداثاً هامة كالحملات الصليبية والاصلاح الديني قد اختفت من صورة التاريخ دون أن تترك أي أثر وراءها . ولم يستطع البحث التاريخي الا خـــلال هذه السنوات الاخيرة أن يتدبر أمره فيقرر مخططاً عاماً لمجرى التطور في مراحله المتأخرة على كل حـــال ، وبهذا أمسى بمقدور المورفولوجيا المقارنة بمساعدة هـــذه المعلومات ان تحاول تعميق صورة التاريخ وتوسيعها مستعينة بوسائل الحضارات الأخرى تلك .

وانطلاقا من هذه القاعدة نقول بان النقـاط الحقبية لحضارة المـايا هذه هي على بعد زمني يبلغ قرابة المئتي سنة ما بعد النقاط الحقبية العربية ، وسبعمائة سنة ما قبل نقـاط حضارتنا الحقبية . وقد مر الأزتيك بحقبة سبقت حضارتهم ، شأنهم في ذلك شأن المصريين والصينيين ، وقد طوروا خلال هذه الحقبة خطهم وتقويمهم الزمني ، لكننا لا نزال نجهل حتى اليوم كل شيء عن هذين ، فمعرفة الزمان بدأت بالتأريخ الاولي الذي يقع بعيداً ما قبل ميلاد المسيح ، لكنه من المستحيل علينا الآن أن نحدد مطمئنين واثقين التأريخ بالنسبة الى حضارة المايا . وعلى كل حال فـان هذه الحضارة تظهر أن الجنس البشري المكسيكي يتمتع بحس تاريخي غير مـــألوف في عمقه وقوته .

ويطالعنا الربيع الحضاري لدول المـــايا « الهيلينية » من خلال الاعمدة ذات التضاريس والتي نقشت التواريخ عليها، وهذه الاعمدة تنتصب في المدينتين القديمتين الجنوبيتين « كوبان» وتيكال Tikal ، وفي المدن الشمالية ، التي بنيت في وقت ما بعد تينك ، كتشتن اتزا « Chichen Itza » « ونارانجو » « وسايبال » . وقد تم بنـاء كل هذه المدن التي ذكرت في الفترة الواقعة بين عام ١٦٠ و ٤٥٠ . وفي نهاية هذه الفترة الزمنية أمست مدنية « تششن اتزا » نموذجاً للهندسة المعمارية طيلة قرون . أمـا الازدهار التام « لينك » (Palenque) و « بيدراس نيغراس » (في الشمال) فانه قد ينطبق على العصر القوطي المتـــأخر وعصر الانبعاث (فحقبة حضارة المـــايا الممتدة من ٤٥٠ – ٦٠٠ تنطبق على الحقبة الممتدة من ١٢٥٠ –

١٤٠٠ ؟) . وفي العصر «الباروكي» ، أي في المرحلة المتأخرة زمناً ، من حضارة المايا تبدو « تشامبوتون» كأنها قد أمست مركزا لتشكل الاسلوب والنسق ، زد على ذلك أن التيار الحضاري قد بدأ في هذه المرحلة يفعل فعله في اقوام « ناهوا » Nahua « الايطاليين » Italic الذين كانوا يسكنون النجود المرتفعة . وكان هؤلاء الاقوام من الناحيتين الفنية والروحية مجرد مقتبسين ، لكنهم كانوا في غريزتهم السياسية ، ارفع بكثير من شعوب المايا . (وحقبة « ناهوا » تبدأ قرابة عام ٦٠٠ ، وتنتهي قرابة عام ٩٦٠ ، وهذه تنطبق على الحقبتين الكلاسيكية من عام ٧٥٠ — ٤٠٠ ق.م، والغربية من عام ١٤٠٠ الى ١٧٥٠ ؟) . وبعد هذه الحقبة دخلت حضارة المايا طورها « الهيلينستي» .

وقرابة عام ٩٦٠ شيدت مدينة « اوكسمال » لتصبح سريعاً مدينة عالمية من طراز أول ، ولتمسي الاسكندرية أو بغداد ، وقد تم انشاؤها في مطلع مدنية المايا . ونجد الى جانب هذه المدينة العالمية سلسلة من المدن الشهيرة كمدن «لابان» و « مايان » و « شاكمولتون » و « تششن إتزا » جديدة مجددة. وهذه المدن تمثل الذروة في الهندسة المعمارية الفخمة ، وقد نشأ عنها فيما بعد اسلوب جديد في الهندسة، لكنه كان اسلوباً يطبق النوازع الهندسية القديمة وذا ذوق وحصافة في علاجه لكتل البناء الجبارة . أما من الناحية السياسية فان هذه الحقبة هي الحقبة الشهيرة والمتميزة بعصر جامعة دول «مايابان » .

ولقد كانت هذه الجامعة بمثابة حلف يربط بين ثلاث دول رئيسية . ويبدو أن هذا الحلف قد حافظ بنجاح على الوضع القائم وذلك بالرغم من الحروب الكبرى والثورات المتواترة ، وبالرغم مما شاب اجراءاته من تكلف واستبداد. (وتمتد هذه الحقبة من عام ٩٦٠ — ١١٦٥ وتنطبق على الحقبة الكلاسيكية الممتدة من ٣٥٠ — ١٥٠ والحقبة الغربية من ١٨٠٠ — ٢٠٠٠) .

وقد تميزت نهاية هذه الحقبة بنشوب ثورة عظمى رافقها تدخل اكيد من قبل قوى « ناهوا » (« الرومانية ») في شؤون المايا . وقد تمكن هوناك كيل

(Hunac Ceel) بمساعدة «الناهوا» من التطويح بدول المايابان وتدميرها تدميراً شـــاملا . (وذلك قرابة عام ١١٩٠ = عام ١٥٠ بالنسبة للحضـــارة الكلاسيكية) .

وجاءت هذه النتيجة التي آلت اليها دول «المايابان» مثالاً نموذجياً من الأمثلة التي تضربها لنا مدنية تجاوزت آخر مراحل النضوج حيث يصبح أهلوها شيعاً واقواماً مختلفة تتنازع على السيادة العسكرية . وهكذا أخذت مدن المايا العظمى تغرق في أحضان الدعة والرفـاه والترف شأنها في ذلك شأن أثينا الرومانية والاسكندرية ، لكن افق بلاد « النـــاهوا » كان يتمخض عن آخر هذه الاقوام ، عن الازتيك البرابرة الفتيان الشديدي المراس والذين تركيبهم ارادة للقوة لا تعرف شبعاً. وقد شيّد هؤلاء عام ١٣٢٥ (عصر اوغسطس) مدنية تينوشتتلان Tenochtitlan التي سرعان ما أصبحت جوهرة المدن وعاصمة كل العالم المكسيكي . وفي عـام ١٤٠٠ بدأ التوسع العسكري على نطاق واسع ، وقد حوفظ على الاقـاليم المحتلة بواسطة انشاء مستعمرات عسكرية وشبكة من الطرق الحربيـــة ، ودبلوماسية حصيفة ابقت الدول التابعة موزعة الكلمة وخاضعة لسيطرتها. ونمت العاصمة الامبراطورية تينوشتتلان واتسعت رقعتها وأمست مدينة عملاقة يقطنها سكان « كسموبوليتن » ينطقون بكل لغة من لغات هذه الامبراطورية. وغدت أقاليم «ناهوا» آمنة سياسياً وعسكريا ، وكان التوق الى الاندفـاع نحو الجنوب يتطور تطوراً سريعاً ، وبدا أن وصاية ما وشبكة أن تفرض على دول المـايا ، ولكن ليس هناك من أثر يدل على الشكل الذي سيتخذه مجرى القرون التالية ، إذ أن النهاية باغتتهم فجأة .

وفي ذلك الحين كان الغرب قد بلغ المستوى الذي تجاوزته حضارة المـايا عـام ٧٠٠ . وليس هناك من شيء دون عصر فريدريك الكبير يمكن له أن يبلغ النضوج الكافي ليفهم سياسة جامعة دول مايابان ويدركها ، أمـــا ذاك الذي كان يعده الازتيك في عام ١٥٠٠ من تنظيم فـــانه لا يزال بالنسبة الينا (معشر الغربيين ــ المترجم) مرهونا بالمستقبل . لكن ذاك الذي يميز الانسان الفاوستي حتى في ذاك

الحين ، عن أي إنسان حضارة أخرى ، فانما يتمثل في حافزه الذي لا يكبح الى البعد . وقد كان هذا الحافز هو الذي قتل في نهاية المطاف ، وحتى أباد الحضارة المكسيكية والبيروية ، إنه الاندفاع الذي لا مثيل له ، اندفاع مستعد للعمل في أي مجال وكل ميدان .

لا شك أنه قد جرى تقليد الاسلوب « الايوني » في كل من قرطاجة وبرسيبوليس، كما وان الذوق الهيليني في فن غاندارا قد وجد له مقدرين ومعجبين. زد على ذلك أن الابحاث المقبلة قد تكشف شيئاً من الفن الصيني في الهندسة الخشبية الالمانية البدائية . أضف الى ذلك أن اسلوب المسجد في البناء سيطر على الهندسة المعمارية من اقاصي الهند حتى روسيا شمالاً فافريقيا واسبانيا غرباً . لكن هذه الاشياء كلها تبدو تافهة إذا ما قورنت بزخم التوسع الذي تفيض به النفس الغربية. ومن النوافل أن نقول بان تاريخ اسلوب هذه النفس الحقيقي قد اكتمل فقط على ارض وطنه ، لكن آثاره ومؤثراته الناجمة عنه لا تعرف حدوداً . فعلى بقعة الارض ذاتها التي كانت تقوم عليها تينوشتتلان شيد الاسبان « كاتدرائية باروكية » الطراز وزينوها بروائع الصور الزيتية ، والتماثيل . كما وان البرتغاليين كانوا قد بدأوا آنذاك بالعمل في الهند . وانطلق المهندسون الاسبان والايطاليون من مدرسة الفن الباروكي المتأخر زمناً يعملون في قلب بولندا وداخل روسيا . أما فنانو الركوكو الانكليز وخاصة الامبراطوريين منهم ، فلقد اتخذوا لانفسهم من الولايات المستعمرة في أميركا الشمالية ميداناً فسيحاً لهم حيث تعرف المانيا عن غرف هذه الولايات ومخادعها الرائعة العجيبة ، وأثاثها أقل بكثير مما يجب ان تعرفه عنها . وكان التكلسك قبل ذلك قد أخذ ينشط في كندا و « الكاب » ولم يكن هناك مطلقاً من حدود لهذه النشاطات. والحالة كانت هي نفسها تماماً في كل ميدان آخر من ميادين الشكل .

فالعلاقة بين هذه المدنية الفتية ذات التأثير الشديد الفعال وبين المدنيات القديمة التي كانت لا تزال باقية هي أن تلك المدنية تغطي جميع المدنيات القديمة على حد

سواء بطبقات من اشكال الحياة الاوروبية الغربية الاميركية ، تزداد كثافة يوماً بعد آخر ، حيث يختفي معها الشكل الوطني (Native) القديم رويداً رويداً .

-٦-

أمام هذه الصورة لعالم الانسان ، (التي مقدر لها أن تحل محل الصورة القديمة ، صورة «القديم والوسيط والحديث» والتي لا تزال ماثلة حتى في افضل الاذهان) ، أقول ، أمام هذه الصورة سيمسي بالامكان ايضاً ان نعطي جواباً جديداً (وهو كما اعتقد جواب نهائي بالنسبة الى مدنيتنا) على السؤال القديم :

ما هو التاريخ ؟

يقول « رانكه » في مقدمة كتابه « تاريخ العالم » :

« إن التاريخ يبدأ فقط عندما تصبح الأبنية الأثرية mon uments ملموسة محسوسة ، وتمسي الدلائل المخطوطة الجديرة بالقناعة بمتناول اليد . » هذا هو جواب جامع لمعلومات ومرتب لها . وهو لا شك يخلط بين ذاك الذي حدث ووقع وبين ذاك الذي حدث داخل ميدان نظر منفتح على زمان معين بالنسبة الى دارس معين للتاريخ . لقد هزم ماردونيوس في بلاتيا Plataea . فهل لا تعود هذه الواقعة تاريخاً اذا ما سقطت بطريقة ما عقب الفين من الاعوام، من شباك معرفة المؤرخين وبصيرتهم ؟ وهل كي تكون الواقعة واقعة يجب ان تذكر في الكتب ؟ ويقول ادوارد ماير ، وهو أخطر المؤرخين شأناً منذ عصر رانكه :

« إن التاريخي هو ما له أو كان له أثر فعال .... وبواسطة التصرف التاريخي فقط ، تصبح العملية الافرادية المنتشلة من بين كتلة من عمليات معاصرة لا نهاية لها حادثة تاريخية » .

هذه الملاحظة تتفق كليا واسلوب هيجل وروحه . فنقطة انطلاقها أولاً ، هي الواقعة ،وليست أية معرفة تصادفية أو جهالة عرضية بالواقعة ، وإذا كان هناك أي اسلوب لتصوير التاريخ ، اسلوب يفرض بالضرورة نقطة انطلاق كهذه ، فـانه الاسلوب المعروض في هذه الصفحات وذلك طالما أنه يرغمنا على ادعاء وجود وقائع من المرتبة الاولى في سياقات فخمة ذات جلال ، وذلك حتى عندمـا لا نعرفها (ولن نعرفها أبداً) . بحماسة علمية إن علينا أن نعـالج المجهول وفق اوسع الطرق إدراكاً وشمولاً .

ثانياً : إن الحقائق توجد بالنسبة الى العقل ، أمـا الوقائع فوجودها متعلق بالحياة . إن التصرف التاريخي ، (وهو في عرفي الواقعة السمائية) ، يقرره الدم، تقرره موهبة الحكم على الرجـال المنفسحة والضاربة في أحشاء المـاضي والمستقبل ، وقوة التمييز والتشريح الفطرية للاشخاص والاحوال والحدث ، وذلك لأن مـا كان عليه أن يكون ، يجب ان يكون قد كان . إن المعـالجة التاريخية لا تتوقف على النقد العلمي ومعرفة المعلومـات . فالاسلوب العلمي للخبرة هو بالنسبة الى كل مؤرخ حقيقي شيء ما إضافي أو ثانوي . فالاسلوب يتوجه الى الوعي بواسطة الفهم والتبليغ ببرهـان متعب مكرر شاق على ذاك الذي كانت دفعت به ، قبل الآن وفوراً ، لحظة واحدة من استنارة الى الكينونة .

وفقط بسبب ان قوة كينونتنا الفاوستية يجب أن تكون الآن قد ضربت حولنا دائرة من الخبرات الباطنية ما لم يستطع أن يكتسب مثلها أي جنس بشري غيرنا أو زمان آخر ، وفقط بسبب أن أبعد الأحداث يزداد مغزاه يومـاً بعد آخر ، ويكشف عن علاقـات لا يستطيع ادراكها أي إنسان آخر حتى اقرب الناس معاصرة لهذه الاحداث ، بسبب هذا فقط أصبح الكثير ، ممـا لم يكن منذ قرون تاريخاً ، (واعني الحياة المتناغمه وحياتنا) تاريخا . ومن الجائز ان تاسيتوس كان مطلعاً على المعلومات المتعلقة بثورة تيبريوس جراكوس ، لكن هذه الثورة لم يعد لها بالنسبة الى تاسيتوس أي معنى مؤثر فعـال ، بينما أنهـا في نظرنا مترعة

بالمعنى. زد على ذلك ان تاريخ المونوفيزيت وعلاقتهم ببيئة محمد ليس له أي معنى، مهما كان، في نظر المسلم المؤمن، بينما أنه في نظرنا هو القصة المشهودة المصاغة في قالب آخر لحركة المطهرين الانكليزية. وفي نهاية المطاف ليس هناك من شيء غير تاريخي تماماً بالنسبة الى نظرة مدنية جعلت من كامل الكرة الارضية مسرحها.

ان منهاج التاريخ المنقسم الى « قديم ووسيط وحديث »، وذلك كما فهم في القرن التاسع عشر، لم يحتو إلا على مجموعة مختارة من العلاقات الاكثر وضوحاً. لكن الأثر الذي أخذ التاريخان القديمان من صيني ومكسيكي يخضعاننا له، هو من نوع أشد مراوغة وعقلانية. فهناك (في هذين التاريخين - المترجم) نسبر أغوار آخر ضرورات الحياة نفسها. فنحن نتعلم من مجرى حياة أخرى لنعرف أنفسنا من نحن، وما الذي يجب أن نكونه وما سنكون عليه.

ان مجرى الحياة تلك هو مدرسة مستقبلنا العظمى. ونحن الذين لا يزال لدينا تاريخ، ولا نزال نصنع التاريخ، نجد هنا على اقصى حدود الانسانية التاريخية ما هو التاريخ.

ان معركة تنشب بين قبيلتين سوداوين في السودان أو نشبت بين تشورسكي وتشاتي في عصر قيصر، أو بين طوائف النمل (والمعركة بين هذه الطوائف هي في جوهرها الشيء ذاته)، انما هي مجرد دراما « الطبيعة الحية ». ولكن عندما ينزل التشورسكي الهزيمة بالرومان، كما حدث عام ٩، أو يغلب الازتيك الطلاسكلانز، فهذا هو التاريخ. فالـ « متى » هنا هي ذات اهمية وبال، ولكل عقد من الاعوام وحتى لكل سنة أهمية، لأن المرء هنا يتعامل وزحف لمجرى حياة عظيم حيث يرتفع كل قرار الى مرتبة تجعله يمسي كالحقبة التاريخية. وهنا يوجد هدف يدفع كل حدوث احد الكائنات ويحركه نحوه، هذا الكائن الذي يكدح ويناضل لينجز ايقاعاً، ديمومة عضوية، وهذا الحدوث ليس هو بتصاريف الدهر المشوشة

التي مـارسها السكيث [١] Scythians والغول أو الكريبس Caribs حيث أن التفصيل المعين من تفاصيل هذه التصاريف يعادل في عدم اهميته تفاصيل مـا يجري من عمل في مستعمرة من مستعمرات كلاب البحر ، أو قطيع من غزلان البراري والصقوع . فهذه هي حدوث زلوجية تحتل مركزها في مكان مختلف كليـاً من توجيه مطلنا على العالم ، وذلك من حيث اننا لا نهتم بمصير شعوب افرادية أو قطعان ، بل انما نشغل انفسنا بمصير « الـ » إنسان أو « الـ » غزال أو « الـ » نمل بوصفهـا أنواعـاً .

إن الانسان البدائي يملك تاريخاً وفق ما للمفهوم البيولوجي من معنى فقط ، وكل دراسة سابقة للتاريخ انما تتقلص لتخضع لبحث هذا المفهوم وتحريه .

إن الاعتياد المتزايد للانسان على النار والادوات الحجرية والقوانين الميكانيكية التي تجعل الاسلحة ذات أثر فعال ، إنما يميز فقط تطور نموذج الامكانات الكامنة لهذا الاعتياد . وليست للاهداف التي من أجلها استخدمت احدى العشائر هذه الاسلحة ضد عشيرة أخرى ، أية أهمية على هذا المستوى من التاريخ . فالعصر الحجري ، والعصر الباروكي همـا مرتبتا عصر في وجود كل من احد الاجناس واحدى الحضارات ، أي انهما نظامان عضويان ينتميان الى تركيبين يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافاً جوهرياً .

وهنـا أود أن احتج على زعمين قد افسدا حتى الآن كل الفكر التاريخي : الزعم القائل بأن للجنس البشري ككل ، هدفاً نهائياً ، والانكار المطلق لوجود أهداف نهائية .

إن للحياة هدفاً ، إنه تحقق وانجاز ذاك الشيء الذي عُين وفرض على مفهومها . لكن الفرد ينتمي بالولادة من جهة الى الحضارة الراقية المعنية ، وينتسب من جهة

---

١ – Scythians : قبائل بدوية كانت تعيش على شواطىء البحر الاسود .
(المترجم)

أخرى الى الانسان النموذج ، وليست هناك وحدة ثالثة من كون بالنسبة اليـه . فمصيره يجب أن يقع إمـــا داخل الميدان الزلوجي وإما داخل الميدان العالمي التاريخي فالرجل « التاريخي » كما أفهم هذه الكلمة ، وكما أراد لها جميع عظماء المؤرخين أن تُفهم ، هو انسان حضارة تزحف دون توان أو ابطاء نحو انجـــاز ذاتها . والانسان قبل هذه (الحضارة – المترجم) وبعدها وخارجهـا ، هو دون تاريخ . أما مصائر الشعوب التي ينتمي اليها فان لها من الاهمية الزهيدة مـا لمصير الارض وذلك عندمــا يكون مستوى الاهتمام هو المستوى الفلكي وليس الجيولوجي .

وتنشأ من هذا واقعة ذات أهمية بالغة في حسمها ، واقعة لم يسبق لهـا ابداً أن قررت من قبل ، وهذه الواقعة تقول بأن الانسان ليس فقط دون تاريـخ قبل ولادة الحضارة ، بل انما يصبح ايضاً بلا تاريخ حالمـا تكمل المدنية نفسها اكمالا تامـاً حيث تمسي معه الشكل النهائي الذي يشير الى نهاية التطور الحي للحضـارة ، ونضوب آخر امكانيات وجودها الخطير الشأن .

ان ما نراه في المدنية المصرية بعد عصر «ستي» الاول (١٣٠٠) ، وما نراه حتى اليوم في المدنيات من صينية وهندية وعربية ، هو بالرغم من كل مهـارة الاشكال الدينية والفلسفية وخاصة السياسية التي غُلف بها ، أقول انمـــا هو فقط تصاريف العصر البدائي مرة أخرى ، أما مـا اذا كان الاسياد المتربعون في بابل حشداً من محاربين متوحشين كالحثيين ، أو ورثة مهذبين متأدبين كالفرس ، ومتى ، وما هي المدة الزمنية ، وباي نجاح حافظوا على مقاعدهم ، فان هذه الأمور لم يكن لها أي مغزى من وجهة نظر بابل . ومن البدهي أن أموراً كهذه كانت تؤثر على راحـة الشعب واطمئنانه ، ولكنها لم تؤثر في كلتا الحالين على الواقعة القائلة بان روح هذا العالم قد همدت وان أحداثها كانت لذلك معدومة من أي معنى عميق . فقيـــام اسرة مالكة وطنية كانت أم أجنبية في مصر ، ونشوب ثورة في الصين أو غزوها وبروز شعب جرماني جديد في الأمبراطورية الرومـــانية ، كل هذه الأمور هي

عناصر في تاريخ المنظر الطبيعي ، وهي مماثلة للتبدل في الأحياء الخاصة بزمان أو موطن (Fauna) أو في هجرة سرب من طيور .

وقد كانت الغنيمة التي حورب من أجلها في التاريخ ، التاريخ الأصيل للجنس البشري الارقى ، ومبدأ الصراع الحيواني للتغلب والسيادة – هما أبداً ودوماً – وحتى عندما يكون المطارِد والمطارَد فاقدي الشعور بالقوة الرمزية لعمليهما وغافلين عن مقاصدهما وغير عالمين بخطيهما ، أقول هما تحقق شيء ما روحي في جوهره وترجمة فكرة الى شكل تاريخي حي. وهذا ينطبق ايضاً بالمثل على الصراع بين نوازع الاسلوب الضخمة في الفن (الغوطي وعصر النهضة) والصراع بين الفلسفات (الرواقية الابيقورية) وبين المثل العليا السياسية (الاليغاركية والاستبداد) وبين الاشكال الاقتصادية (الرأسمالية والاشتراكية . لكن ما بعد التاريخ (Posthistory) عاطل من كل هذه الأمور . وكل ما يتبقى فانما هو الصراع من أجل القوة فقط ، من أجل منفعة حيوانية مجردة ، بينما كانت القوة من قبل ، حتى عندما كانت تبدو في كل مظهرها مفتقرة الى الوحي والالهام ، تخدم أبداً ودوماً الفكرة على وجه أو آخر . ويكون في المدنية «المتأخرة زمناً» أشد ما لوهم فكرة من اقناع اقناعاً فقط للكفاح الزولوجي المجرد.

إن الفرق بين الفلسفة الهندية قبل بوذا وبينها بعد بوذا هو ان الاولى هي تحرك عظيم نحو بلوغ هدف الفكر الهندي بواسطة النفس الهندية وداخلها، أما الثانية فهي ظهور دائم مستديم لأوجه جديدة ، أوجه أرومة فكر متبلور الآن وغير قابل للتطوير ، فالحلول موجودة فيها بصورة نهائية بالرغم من أن صيغ التعبير عنها تتغير وتتبدل . والشيء نفسه صحيح ايضاً بالنسبة للتصوير الزيتي الصيني ما قبل وبعد سلالات الهان المالكة ، (أعرفنا بهذا الأمر أم لم نعرف) وصحيح ايضاً بالنسبة الى الهندسة المعمارية المصرية قبل وبعد بداية الامبراطورية الجديدة . وهذه هي حال التقنية ايضاً (Technics) .

فالانسان الصيني يتقبل اليوم مخترعات الغرب ، الآلة البخارية والكهرباء

بالطريقة ذاتها تماماً (وبالرهبة الدينية نفسها) التي تقبل بها منذ اربعة آلاف سنة البرونز والمحراث ، وكما تقبل النار في عصر اعتق من هذا ماضياً . فالآلة البخارية والكهرباء تختلفان روحياً اختلافاً كلياً عن الاختراعات التي صنعها الصينيون لأنفسهم في مرحلة « تشو » ، والتي كانت تمثل في كل مثل ضربته، حقبة في تاريخهم الباطني . فقبل وبعد تلك المرحلة تلعب القرون دوراً أقل أهمية بكثير من دور عقود من سنين وحتى الاعوام من عمر الحضارة ، وذلك لأن مقاييس الزمان تعود تدريجياً الى النظام البيولوجي . وهذا هو ما يمنح هذه الظروف المتأخرة جداً زمناً ، والتي تبدو للشعوب التي تعيشها غنية عن البيان تقريباً ، أقول يمنح ذاك الطابع لأبهة ثابتة لا تتغير ، أبهة وجدها الانسان الحضاري الأصيل (مثلاً : هيرودوت في مصر وخلفاء ماركوبولو في الصين) مذهلة للغاية حين مقارنتها بالخفقان الشديد لتطوره الخاص إنها اللاتغير للاتاريخ .

ألا يبلغ التاريخ الكلاسيكي باكتيوم والسلم الروماني Pax Romana نهايته ؟ فبعدهما لم يعد هناك المزيد من تلك القرارات العظمى التي تكشف المعنى الباطني لحضارة بكاملها . فنحن هنا نجد اللا عقل، البيولوجيا ، قد بدأت بالتسلط والسيادة وان العالم لم يعد يكترث أو يبالي بما اذا كانت احدى الحادثات قد انتهت على هذا الوجه أو ذاك ، (علماً بأن لا مبالاته لاتشمل اعمال الفرد الخاص) . فكل الاسئلة السياسية العظمى قد أجيب عليها كما اجيب ويجاب عليها ، عاجلاً أو آجلاً في كل مدينة، من حيث ان الاسئلة لم يعد أحد يحس بها كأسئلة أو يطرحها . ومع ذلك ، فبرهة قصيرة من زمن ، والمرء سيكف بعدها عن فهم أية مشاكل وقضايا كانت تكتنفها حقاً النوازل والكوارث الابكر زمناً .

ان ما لا يستطيع المرء ان يختبره اختباراً حياً من نفسه ، لا يستطيع ان يختبره مثل هذا الاختبار الحي ، من الآخر . فعندما يتحدث المصريون ما بعد عصر الهكسوس ، عن زمان الهكسوس، أو الصينيون ما بعد مرحلة (الدول المتنازعة) المطابقة لزمان الهكسوس عن هذه المرحلة ، فانهم يصدرون أحكامهم على الصورة الظاهرية وفق ميزان اساليبهم الخاصة في الحياة التي لم تعد تحتوي على المزيد من

الالغاز والاحاجي . فهم يرَوْن في هذه الاشياء مجرد صراعات من أجل القوة ، ولا يرون أن هذه الحروب اليائسة ، الخارجية منها والداخلية ، هذه الحروب التي استعدى فيها الناس الاجانب والاغراب على أبناء قومهم الخاصين ، انهـــا كانت حروباً شنت من أجل فكرة .

إننـــا اليوم نفهم وندرك ما كان يحدث ويدور في التعاقب المفزع من توتو وانفجار ، حول مقتل تيبريوس غراكوس ومقتل كلوديوس ذاك ، لكن هذا لم يكن باستطاعتنا ان ندركه عام ١٧٠٠ ولن يكون أيضاً باستطاعتنا ادراكه عام ٢٢٠٠ . والأمر هو نفسه تماماً فيما يتعلق بتشيان Chian ، وهو شخصية نابليونية لم يستطع المؤرخون المصريون فيما بعد ان يكتشفوا أي شيء يعطيها طابعها المميز أكثر من ملك هكسوسي . وربما لولا مجيء الالمان لكان المؤرخون الرومان قد اعتبروا ، عقب الف عام ، غراتشي ، ماريوس ، سولا وشيشرون معاً سلالة مالكة أطاح بها قيصر .

ولتقارن مصرع تيبريوس غراكوس بمصرع نيرون عندما تلقت رومـا انباء انتفاضة غالبا ، أو ولتقابل بين انتصار سولا على حزب ماريوس وبين انتصار ستيموس سيفيروس على بسينيوس نيغر (Pescennius Niger) فلو أن الحدث في هذه الحالات المتـأخرة قد اتخذ وجهة أخرى ، فهل كان مجرى العصر الأمبراطوري قد تبدل على أية حـــال من الاحوال ؟ إن التميز الذي اختطه مومسون وادوارد ماير، بمثل تلك العناية والحذر، بين «ولاية» بومباي واوغسطس و «ملكية» قيصر انما يخطيء الهدف تماماً. ففي تلك المرحلة كان الموضوع الأساسي موضوعاً دستورياً فقط ، بالرغم من أنه لو قام قبل خمسين عاماً قبل تلك المرحلة ، لبقي يرمز الى تعارض بين الفكر . فعندمـا انطلق فندكس وغالبا عـــام ٦٨ لاستعادة « الجمهورية » فانها كان يقامران على ميل في أيام لم يعد فيهـا للميول أية قوة رمزية أصيلة ، فالسؤال الوحيد آنذاك كان يدور حول من هو ذاك الشخص الذي يجب أن يتسلم مقاليد القوة المـادية العارية . وأخذ الصراع على لقب قيصر يزداد بمثابرة وثبات اكثر فاكثر زنجية (نسبة للزنوج) وكان من الجائز أن يستمر

قرنا بعد قرن في اشكال متزايدة في بدائيتها ، اشكال هي لذلك «خالدة» .

إن هذه المجموعات من السكان لم تعد تملك نفساً . ونتيجة لذلك فليس بامكانها أن يكون لها تاريخ خاص بهـــا . وباستطاعتها في أحسن الاحوال أن تكتسب شيئاً من أهمية بوصفها موضوعاً في تاريخ حضارة غريبة عنهـــا ، ومهما امتلكت هذه العلاقة من معنى أعمق ، فان هذا المعنى سيكون مشتقاً بكامله من إرادة الحياة الغريبة عنها . (العلاقة – المترجم) .

إن أي حدوث تاريخي فعال يحدث على تربة مدنية قديمة إنمـا يكتسب شكله ونوعه من مكان آخر ، ولا يكتسبه ابداً من أي دور يقوم بـه فيه انسان تلك التربة . وهكذا نجد انفسنا مرة أخرى نتـــأمل في ظاهرة « تاريخ العالم » من الناحيتين ، ناحية مجاري حيـــاة الحضارات العظمى ، وناحية العلاقات بين هذه الحضارات .

* * *

الفصل الرابع عشر

الأصل والمنظر الطبيعي

(ج)

العلاقات بين الحضارات

- ١ -

بالرغم من أن إمعان النظر في الحضارات ذاتها يجب ان يسبق التأمل في العلاقات بينها ، إلا أن الفكر التاريخي الحديث يعكس بصورة عامة هذا النظام. والحق انه كلما تدنت معرفة الفكر التاريخي الحديث بمجاري الحياة التي تشكل معاً وحدة ظاهرية من حدوث عالمي ، يزداد تعصباً وحماساً للبحث عن الحياة داخل نسيج العلاقات، ويزداد قلة حتى في فهمها. فيا لها من ثروة من سيكولوجيا هي تلك التي توجد في سبر الاغوار وفي الرفض والاختيار والتقويم والاخطاء والادراك والترحيب . وليس هذا فقط بين الحضارات التي تلامس فوراً الواحدة منها الاخرى ، وتتطلع الواحدة منها بدهشة الى الاخرى ، وتقاتل إحداها الاخرى ،

بل انما ايضاً بين حضارة حية وبين شكل عالم لحضارة ميتة لا تزال آثارها قائمة مشهودة في المنظر الطبيعي . ومن جهة اخرى ، كم ضيقة وفقيرة هي تلك المفاهيم التي يعنونها المؤرخون بكلمات : (تأثير) (استمرار) و (مؤثرات دائمة) .

إن هذا الأمر هو قرن تاسع عشر مجرد . فالذي يُبحث عنه انما هو فقط سلسلة من علل ومعاليل . فكل شيء يتبع وليس هناك من شيء هو فاتحة أو مطلع ولما كانت كل حضارة تظهر سطحياً عناصر شكل لحضارة أقدم منها ، لذلك يُفترض انه مذ كان لهذه العناصر معلول مستمر ، وعندما تُنظم تشكيلة من معاليل كهذه معاً ، يأخذ المؤرخ بتأملها راضياً قانعاً بوصفها قطعة صحيحة من عمل .

ويرتكز هذا النهج من المعالجة في اعماقه ، على تلك الفكرة التي ألهمت الغوطيين العظام منذ طويل زمن ، الفكرة القائلة بوحدانية خطيرة ذات دلالة في تاريخ كل الجنس البشري . فلقد شاهد هؤلاء كيف تبدل الناس والشعوب على الارض ، لكن الفكر بقيت على حالها ، وقابلية التأثير الجبارة للصورة لم تُبل ذاتها حتى هذا اليوم ، وفي الأصل كان يُنظر الى هذه الصورة بوصفها مخططاً يفرره الله بواسطة اداة انسانية .

ومن الممكن ايضاً اعتبارها على هذا الشكل ، في مرحلة اكثر تأخراً من الزمان وذلك طالما امتد فعلاً العمر بسحر المنهاج القائل بمراحل « قديمة ووسيطة وحديثة » وطالما استعراضها لديمومتها وخلودها قد حال بيننا وبين الملاحظة بان الواقعة هي دائماً وابداً في تغير وتبدل مستمرين . وفي غضون ذلك فان مطلنا على الحياة قد تبدل أيضاً فأمسى أشد برودة واتساعاً . زد على ذلك أن معرفتنا قد تخطت بعيداً حدود هذه الخريطة ، أما اولئك الذين لا يزالون يحاولون أن يبحروا مسترشدين بها فانهم يتخبطون خبط عشواء . فليست النتائج هي التي «تؤثر» بل انما هم المبدعون الذين يتشربون ويمتصون . فلقد خلط بين الكينونة والكينونة اليقظة ،

وخلط بين الحياة وبين الوسائل التي بواسطتها تعبر الحياة عن نفسها . فالعقل النقاد ، أو حتى الوعي اليقظ البسيط، يرى في كل مكان أن الوحدات النظرية قد أخضعت للحركة . وهذا الامر هو حقاً ديناميكي وفاوستي، وذلك لان الناس في أية حضارة أخرى لم يخالوا أبداً أن التاريخ هو على هذه الشاكلة . فالانسان اليوناني بما له من فهم للعالم كامل في جسمانيته، لم يكن أبداً ليقتفي أثر المعاليل لوحدات تعبير مجردة « كالدراما الاتيكية » أو « الفن المصري » أما ما يحدث أصلاً فهو أن اسما يعطى لمنهاج من اشكال تعبير يستثير في عقولنا مركباً معيناً من علاقات . لكن هذا لا يمتد به الأجل بعيداً، فهو يتلاشى حالما يفترض المرء بالاسم كائناً وبالعلاقة معلولاً ، وعندما نتحدث اليوم على الفلسفة اليونانية أو البوذية أو الكلامية (اللاهوتية) Scholasticism ، فاننا نعني شيئاً ما يحيا على صورة من الصور ، نعني وحدة من قوة نمت ونمت حتى بلغت من الجبروت ما يكفيها للاستيلاء على الناس واخضاع وعيهم اليقظ وحتى كينونتهم ، لكي ترغمهم في نهاية المطاف داخل مطابقة Conformity فعالة تمتد بالاتجاه الذي تتبعه «حياتها» الخاصة . إنها ميثولوجيا كاملة، وبما هو ذو مغزى ودلالة ، أن شعوب الحضارة الغربية وحدها ، هي الجنس البشري الوحيد الذي يعيش مع وداخل هذه الصورة ، إنه الجنس البشري الغربي الذي تحتوي اسطورته Myth على فيض من الجن من هذا النوع ، « الكهرباء والطاقة المركزية » مثلاً .

والحق ان هذه المناهج توجد فقط داخل الوعي الانساني اليقظ ، وهي توجد كصيغ من نشاط . فالدين والعلم والفن هي نشاطات الوعي اليقظ المرتكزة الى كائن . وما الايمان والتأمل والابداع ، وأي شيء يتطلب من النشاط المشهود كنتاج لهذه الامور غير المشهودة ، (كالتضحية والصلاة والتجربة الجسمانية ونحت التمثال والتصريح عن خبرة بكلمات متداولة) إلا نشاطات الوعي اليقظ وحده وليست نشاطات أي شيء آخر غيره . إن اناساً آخرين يبصرون فقط بالمنظور ويسمعون الكلمات وحدها ، وهم بعملهم هذا يختبرون شيئاً ما داخل ذواتهم ،

لكنهم لا يستطيعون أن يقدموا أي بيان عن العلاقة بين هذه الخبرة وتلك الخبرة التي عاشها المبدع داخل نفسه . فنحن نرى شكلاً ، لكننا لا نعرف مـــا الذي أنجب هذا الشكل داخل نفس الآخر . ونحن نستطيع فقط ان نمتلك بعض اعتقاد أو ايمان حول المادة ، ونحن نؤمن بواسطة ايلاج نفسنا الخاصة داخلاً .

ومهما قد يبلغ أحد الأديان من الدقة تعريفاً وتمييزاً في التعبير عن نفسه بواسطة الكلمات ، فهذه تبقى كلمات والسامع يضع داخلها مفهومه الخاص لها .

ومهما كان ما يدونه الفنان ويلونه مؤثراً ومحركاً للعواطف ، فان المُشاهد يرى ويسمع نفسه فقط داخل عمل الفنان ، واذا لم يستطع ان يقوم المُشاهد بما ذكرت ، فعندئذ يكون انجاز الفنان معدوماً من المعنى في نظره . (أما الموهبة الحديثة النادرة جداً والرفيعة والتي تمتلكها قلة من الناس قلة ذات كثافة تاريخية شديدة ، موهبـة « وضع المرء نفسه في مكان الآخر » فليس من حاجة لامعان النظر فيها في هذا المجال .) فالفرد الالماني الذي هـــداه بونيفاس الى الدين لم ينقل ذاته الى داخل نفس المبشر (بونيفاس – المترجـــم) فلقد كانت رعشة ربيـع هي تلك التي مرت خلال تلك الايام مخترقة عالم الشمال الفتي بكامله ، أما ما كانت تعنيه ، فهو ان كل انسان وجد فجأة في تبديل دينه (هدايته – المترجم) لغة ليعبر بها عن تدينه الخاص ، وهكذا تماماً تشرق عينا الطفل عندما نطلعه على اسم المادة التي يمسك بها بيده .

إذن فليست الوحدات الكونية الصغرى هي التي تتحرك ، بل انما هي الذاتيات الكونية هي التي تختار فيما بينها وتضع يدها عليها . ولو كانت الحال خلافاً لما قلت ، (ولو كانت هذه المناهج كائنات مؤكدة أكيدة تستطيع أن تمارس نشاطاً ، لأن « التأثير » هو نشاط عضوي ») أقول لو كانت الحال خلافاً لما قلت لكانت صورة التاريخ صورة اخرى مغايرة تماماً لما هي عليه الآن . ولنتأمل كيف أن كل انسان ناضج وكل حضارة حية تُغسل بصورة دائمة مستمرة بتأثيرات كامنة محتملة لا يحصيها العد . ومن كل هذه (التأثيرات) يُقبل ببعض القليل منها على أنها تأثيرات

أما الاغلبية الساحقة منها فهي ليست كذلك . فهل يتعلق الاختيار بالاعمال أم بالناس ؟

إن المؤرخ الذي يتعمد إقامة سلسلة سببية (علية) يُدخل في حسابه التأثيرات الحاضرة فقط ، أما الجانب الآخر من المعرفة (وهو تلك التأثيرات غير الحاضرة) فانه لا يظهر أو يتبدى . فبسكولوجيا التأثيرات ترتبط سكولوجيا بالتأثيرات « السالبة »، وهذه ميدان لم يجرأ أي انسان على ولوجه حتى الآن . ولكن إذا كان هناك من أي مكان توجد فيه ثمار لتجنى ، فانه هنا ، ويجب أن يُلم به إلا اذا كان يُراد للجواب على كامل السؤال أن يُترك غير مقرر أو معين ، وذلك لأنه إذا ما حاولنا أن نتجنبه فاننا نساق الى رؤى وهمية لحدوث تاريخي عالمي بوصف هذا الحدوث عملية مستمرة يُعلل فيها كل شيء التعليل اللازم . فقد تتلامس حضارتان بين انسان وانسان، أو قد يواجه انسان الحضارة الواحدة بعالم الشكل الميت لحضارة اخرى، كما هو معروض في ذخائره وآثاره القابلة للتبليغ عنها . وفي كلتا الحالين يكون الفاعل ، المحرك ، هو الانسان نفسه . فالعمل المغلق لـ – أ – يمكن أن يُنشط من قبل – ب – وتنشيطاً منبعثاً فقط من داخل كينونة – ب – وبهذا يصبح ملكية باطنية لـ – ب – ، يصبح عمله وجزءاً من ذاته . فلم تكن هناك من حركة بوذية انتقلت من الهند الى الصين ، بل انما كان هناك قبول لجزء مما تدخره البوذية الهندية من صور ، وقد تقبل هذا الجزء افراد صينيون ذوي نازع روحي معين حيث صاغوا منه اسلوباً لتعبير ديني له معنى بالنسبة الى البوذيين الصينيين والصينيين وحدهم .

إن المهم في كل الحالات التي هي مثل هذه ، ليست المعاني الأصلية للاشكال ، بل الاشكال نفسها بوصفها تكشف لحساسية المراقب الفعالة وفهمه حالات محتملة كامنة لقوة ابداعه الخاصة . إن المضامين غير قابلة للنقل أو الترحيل . فالناس الذين ينتمون الى جنسين مختلفين ، تفصل بين كل واحد منهما، في توحده الروحي الخاص ، هوة لا يمكن عبورها . وحتى بالرغم من أن الهنود والصينيين كانوا يحسون جميعاً

في تلك الايام على أنهم بوذيون ، لكن كل أمـة منها كانت تقف روحيـاً بعيدة وبمعزل عن الآخرى ، كما هي الحـال أبداً ، فالكلمات هي نفسها والطقوس هي ذاتها والرمز هو الرمز ، لكنهما كانتا نفسين مختلفتين كل واحدة منهماتسلك سبيلها الخاص بها .

إذن ، إذا ما بحثنا ونقبنا كل الحضارات ، فان المرءمنا سيجد أن استمرار الابداعات الابكر زمنـاً في حضارة تلي هو أمر ظاهري فقط ، والحقيقة هي ان الكائن الاصغر سنا قد أقـام عدداً قليلاً (وقليلاً جداً) من العلاقـات والكائن الاكبر سنا ، وعمله هذا يأتي دائمـاً دون إقـامة أي اعتبار للمعـاني الأصيلة لذاك (الابداع) الذي يجعله خاصته . إذن مـا الذي سيحدث « للفتوحات الدائمة » للفلسفة والعلم ؟ انهم يحدثوننـا المرة تلو المرة عن الكمية التي لا تزال حيـة حتى اليوم من الفلسفة اليونانية ، لكن حديثهم هذا هو كلام مجازي فقط وليس له أي محتوى حقيقي، وذلك لان الانسانية المجوسية اولاً ، ومن ثم الانسانية الفاوستية، قد رفضت كل واحدة منهما بما لها من حكمة عميقة لفطرة لم يلحق بها ضرر فتعطل، اقول رفضت كل واحدة منهما تلك الفلسفة (اليونانية - المترجم) أو جرت بهـا دون أن تأبه لهـا أو تكترث ، أو ابقت على قواعدها لكنها ترجمت هذه القواعد ترجمة جذرية في جدتها . إن سلامة النية السـاذجة للحماس اللوذعي تخدع نفسها هنا ، فالتصورات الفلسفية اليونانية قد تؤلف قائمة (كاتالوغ) طويلة ، وكلما أبعدنا بهـا تزداد نسبة المتبقي منها ، حياً ، كما يزعم ، ضآلة تقارب التلاشي .ان عادتنا هي أن نغض الطرف ببساطة فنعتبر تلك المفـاهيم ، كنظرية الصور الذرية لديمقريطس ، والعـالم الكامل في جسمانيته « لفكرات » افلاطون ، والاجسام الكروية المقعرة الاثنتي والخمسين لكون ارسطوطاليس ، أقول نعتبرها « أخطاء » عرضية طارئة ، كأنه باستطاعتنا أن نخمن باننا نعلم ما الذي عناه الموتى افضل مما عرفوه هم أنفسهم! ان هذه الاشياء هي حقائق وجوهرية ، لكنها ليست كذلك بالنسبة الينـا فقط . فكل مجموع الفلسفة اليونانية الذي نمتلكه حقاً واقعاً وليس سطحياً فقط ، انما هو من الوجهة الواقعية لا شيء إنه عدم (Nil) .

ولكن صادقين مع ذواتنا ، ولنأخذ الفلاسفة القدامى بكلامهم ، اننا لا نجد أية فرضية من فرضيات ديمقريطس أو افلاطون صحيحة بالنسبة الينـــا ، اللهم إلا وحتى نلائم بينها وبين ذواتنا . وبعد هذا كله ما هو مقدار ما اقتبسناه من مناهج ومفاهيم ومقاصد ووسائل العلم اليوناني ، ناهيك عن مصطلحاته غير القابلة للادراك والفهم بصورة أساسية ؟ ان الناس يقولون بان عصر النهضة كان يخضع خضوعاً تاماً لنفوذ الفن الكلاسيكي . ولكن ماذا عن شكل الهيكل الدوري والعمود الايوني وصلة العمود بالعارضة ، واختيار اللون وعلاج أرضية الصورة والمرئي في التصوير الزيتي ومبـــادىء تجمـع المشخص (Figure) ، والتصوير الزيتي على الاواني والفسيفساء وتثبيت الالوان بالحرارة (Encaustic) والعنصر التركيبي في نحت التماثيل ، وتناسبات ليسبوس « لماذا لم تمارس هذه كلها أي «تأثير» أو «نفوذ» ؟

ان ذلك يعود الى أن الذي يريد المرء (وهنا اعني فنان عصر النهضة) أن يعبر عنه انما هو بدهي فيه . فمن مخزون الاشكال الميتة التي كانت أمـام ناظريه ، رأى حقاً عدداً قليلا فقط مما أراد أن يراه ، وشاهده كما أراد أن يشاهده ، واعني بذلك أنه شاهده وفق قصده الخـاص ، وليس وفق قصد المبدع الأصلي ، وذلك لأنه لا يوجد اي فن حي يولي هذا الامر (قصد المبدع الاصلي - المترجم) اعتباراً جدياً . ولتحاول أن تقتفي عنصراً فعنصرا أثر «تأثير» التشكيل (Plastic) المصري في التشكيل اليوناني المبكر زمنـــاً ، إنك ستجد في النهاية انعدام وجود أي تأثير انعداماً مطلقاً،لكن الارادة اليونانية للشكل قد أخرجت من مخزون الفن الاقدم زمنا بعض القليل من المميزات التي كانت على كل حـال ستكتشفها لنفسها في بعض من شكل لقد كانت هناك حميـــا من عمل تحيط أو أحاطت بالعالم الكلاسيكي من أطرافه الاربعة ، فكان هنـــاك المصريون والكريتيون والبابليون والاشوريون والحثيون والفرس والفنيقيون ، وكانت أعمال هذه الشعوب ، من أبنية وزخارف وانجازات فنية ومذاهب واشكال دول ومخطوطـات وعلوم ، معروفة لليونان بفيض وافراط . ولكن ما هو مقدار مـا استخلصته النفس الكلاسيكية من كل هذا الحشد كوسيلة خاصة بهـا للتعبير ؟ اعود فاكرر قولي بان العلاقات المقبول بها

هي وحدها التي نلاحظها . ولكن ماذا عن تلك العلاقات التي لم يقبل بها ؟ لماذا مثلاً لا نستطيع أن نجد في المرتبة السابقة (العلاقات المرفوضة - المترجم) اهرام وبوابة ومسلة مصر ، أو الخط الهيروغليفي أو المساري ؟ وما هو الذي لم يقبل به الفن والفكر الغوطيان في اسبانيا وصقلية من مخزون بيزنطة والشرق المراكشي ؟ إنه لمن المستحيل أن نفرط في امتداح الحكمة (دون ما وعي تماماً) التي سادت الاختيار وإعادة التقييم غير المتردد لما جرى اختياره . فكل علاقة قُبل بها ، لم تكن استثناء فقط ، بل انما كانت سوء فهم ايضاً ، ولم يسبق أبداً أن شوهدت القوة الباطنية لاحدى الكينونات بوضوح كهذا ، كما تشاهد في هذا الفن من سوء الفهم المتعمد المقصود . وكلما ازددنا حماساً في ثنائنا على مبادىء فكر غريب عنا، نزداد والحق بصورة أساسية في مسخه وتغيير خواصه الطبيعية. ولنتأمل فقط بما يجزيه الغرب لافلاطون من مديح وثناء! ابتداء من برنراد اوف تشارترس ومارسيليوس فيسينوس الى غوتيه وشللنغ وكلما ازداد قبولنا بدين غريب عنا ، تواضعاً، تزداد الحقيقة القائلة بان هذا الدين قد انتحل له شكل نفس جديدة. والحق أنه كان يجب على أحد الناس ان يكتب تاريخ الأراسطة (جمع ارسطوطاليس) الثلاثة ، ارسطو اليوناني وارسطو العربي وارسطو الغوطي، هؤلاء الذين ليس لاي واحد منهم مفهوم واحد او فكر مشترك بينهم ، أو يكتب تاريخ تحول المسيحية المجوسية الى المسيحية الفاوستية ! انهم يقولون لنا موعظة وكتاباً بان هذا الدين قد امتد من الكنيسة القديمة ليغطي الميدان الغربي ويتخلله وذلك دون أن يطرأ على جوهره أي تبديل. والواقع ان الانسان المجوسي قد طور من اعمق اعماق وعيه الثنائي Dualistic للعالم لغة لدرايته الدينية الخاصة التي ندعوها « بالـ » — دين المسيحي . إن مقداراً كهذا من الخبرة — أي كلمات وقواعد وطقوس — قد تقبله إنسان المدنية الكلاسيكية المتأخرة زمناً بوصفه قابلاً للتبليغ به، وكوسيلة للتعبير عن حاجته الدينية ، ثم انتقل هذا المقدار من الخبرة من انسان الى آخر ، وانتقل حتى الى جرمان ما قبل الحضارة الغربية ، وكان انتقاله يتم دائماً بواسطة الكلمات ذاتها ، لكن معناه كان دائم التبدل والتغير . ولم يكن الناس يجرأون على ادخال

أي تحسين على المعاني الأصيلة لهذه الكلمات المقدسة ، وذلك لانهم، بكل بساطة ، لم يكونوا يدركون هذه المعاني او يعرفونها . وإذا كان هنـاك من أحد يشك فيما أقول ، فليدرس هذا المتشكك فكرة النعمة(«The» Idea of Grace)كما تبدو على ضوء ترجمة اوغسطين الثنائية لهـــا ، حيث أن هذه الترجمة تؤثر في جوهر الانسان، وليدرس ايضاً هذه الفكرة على ضوء ترجمة كالفن Calvin الديناميكية لها ، هذه الترجمة التي تؤثر في إرادة الانسان . أو فليدرس تلك الفكرة المجوسية التي بالكاد نستطيـع إدراكها ، واعني بها فكرة الاجماع ، Consensus ، حيث يعتبر الرأي الاجمـــاعي للمصطفى ، كنتيجة للتواجـد في كل انسان ذي نفس Pneuma منبعثة من الروح الالهية، أقول يعتبر ذاك الرأي على أنه الحقيقة الالهية الفورية . وقد كانت هذه الفكرة هي التي تعطي قرارات المجامع الكنسيه المبكرة طابعها البات الجازم، وكانت هي التي تكمن وراء المناهج العلمية التي لا تزال تسود عالم الاسلام حتى هذا اليوم . وبسبب عدم فهم الانسان الغربي لهذه الفكرة ، لم تبلغ المجامع الكنسية فيما بعد من الأزمنة الغوطية، في نظره أي شيء اكثر من نوع من برلمان مهمته أن يجد من التحرك الروحي للبابوية. وهذه الفكرة التي عناها المجمع سادت حتى في القرن الخامس عشر(ولتعد الى ذاكرتك مدينتي كونستانس وبازل وشخصي سافونا رولا ولوثر) لكنها اختفت في النهاية ، بوصفها فكرة عقيمة غير ذات معنى أمام نظرية المعصومية البابوية . أو فليدرس المتشكك ايضـاً تلك الفكرة الشاملة المبكرة في العـالم العربي ، فكرة بعث الجسد وقيامته ، والتي كانت تدل على ما هو الهي ونفس بشرية .

أما الانسان الكلاسيكي فانه قد افترض ان النفس بوصفها شكلاً ومعنى للجسد، فانها قد خلقت طيه وإياه معاً ، ونادراً مـا يأتي الفكر الكلاسيكي على ذكرها . وقد يعود سكوته إزاء موضوع على هذا الجـــانب من الخطورة الى هذا أو ذاك السبب من السببين الاتيين :

فاما أن هذه الفكرة لم تكن موجودة إطلاقاً،وإما أنها كانت غنية عن البيان فلم تبرز داخل وعيه كمشكلة .لكن تصور الانسان العربي ان روحه كانت فضياً

من الله اتخذ له من جسده مقرا ،كان غنياً عن البيان تماماً كتلك الفكرة في نظره، ولذلك توجب بالضرورة ان يكون هناك شيء مـا يتوجب على النفس البشرية أن تنشر ، او تنهض منه ثانية في يوم الدينونة. من هنا كان يفكر بالبعث على أنه ... (القيامة) وهذا الأمر في معناه الاعمق غير قابل مطلقاً للفهم بالنسبة الى الغرب والحق أنه لم يشك أحد في كلمات الاسفار المقدسة ، لكن العقول الاشد مضاءً بين الكاثوليك قد استعاضت عن معناها بمعنى آخر ، وهذا المعنى الذي لم يخطئه النظر في لوثر من قبل ، والشائع اليوم شيوعاً تامـاً ، هو مفهوم الخلود ، بوصفه الوجود المستمر والكلي الابدية للنفس التي هي بمثابة مركز للقوة . ولو أنه قدر لبولص او أوغسطين ان يتعرفـــا الى افكارنا المسيحية ، لكانا رفضا كل مذاهبنا وكتبنا ومفاهيمنا بوصفها مطلقة في هرطقتها وضلالها .

وباستطاعتنا أن نأخذ القانون الروماني كأقوى الأمثلة لاسلوب بدا في كل مظهره أنه عبر عن دورتين الفيتين من الاعوام ، ومع ذلـك مر فعلا خلال ثلاث مراحل كاملة من التطور وفي حضارات ثلاث، وكانت معانيه في كل مرحلة تختلف اختلافاً كلياً عن معانيه في المرحلة الاخرى من سابقة او لاحقة .

٢

ان القانون في العـالم الكلاسيكي يشترعه المواطنون من أجل المواطنين ، ويفترض ان شكل الدولة هو شكل المدينة Polis. وهذا الشكل الاساسي للحياة العـامة هو الذي قاد - واكيداً - الى التصور أن الشخص Person هو مطابق للانسان Man الذي اذا ما اضيف الى غيره من امثاله ، يشكل جسم الدولة . من هذه الواقعة الشكلية للحس الكلاسيكي بالعالم نما تركيب القانون الكلاسيكي .

إذن فالشخص (Persona) هو تصور كلاسيكي بنوع خاص ، تصور يمتلك معنى وقوة تكافؤ Valency ، وذلك في الحضارة الكلاسيكية فقط . فالشخص الفرد هو جسم ينتمي الى مخزون المدنية من الاجسام واستناداً اليـه يجري تنظيم قانون المدنية انحداراً فيمسي قانوناً للاشياء (مع العبد ، كقضية هامشية ، حيث أنه كان جسماً لا شخصاً) ويجري تصعيده فيصبح قانونـاً للالهة (مع البطل من حيث كونه شخصاً استحصل على رأس إله واكتسب الحق المشروع في ان يكون له مذهب - يعبد وفقه - المترجم - كما كانت حال ليساندر والاسكندر في المدن اليونانية وديفوس يوليوس وخلفائه في روما .

إن هذا النازع في ازدياده ثبوتاً ورسوخاً في الفقه الكلاسيكي يوضح ايضاً التصور لمعنى Capitis Deminutio Media الذي هو غريب الى حد بعيد على الافكار الغربية . إذ أنه كيف نستطيع ان نتخيل شخصاً مـا (بمفهومنا لكلمة شخص) محروماً من حقوق معينة أو حتى من كل الحقوق ، لكن الانسان الكلاسيكي ، تحت طائلة هذه العقوبة ، لم يعد شخصاً بالرغم من أنه تابع عيشه كجسد . زد على ذلك ان الفكرة الكلاسيكية عن الشيء Res بنوع خاص هي فكرة قابلة فقط للحس في تباينها والشخص وبوصفها غايته .

ولما كان الدين الكلاسيكي هو دين الدولة سداة ولحمة ، لذلك لم يكن يقام أي تمييز بالنسبة الى مصدر القـانون وينبوعه . فلقد كان المواطنون هم الذين يشترعون القانون الوضعي والقانون الالهي ، كما يشترعون القانون الشخصي ، وكانت علاقات الاشياء والإلهة بالاشخاص محددة ومعينة . والآن فـان هناك واقعة ذات مغزى حاسم بالنسبة الى الفقه الكلاسيكي ، وهي أن هذا الفقه كان أبداً ودوماً نتاج خبرة المشرعين المحترفين ، بل انما كان نتاج الخبرة العملية اليومية لأناس يعتبرون بصورة عامة ذوي شأن في الحياة من سياسية واقتصادية .

فالانسان الذي كان يختار الحياة العـامة عملاً له ، كان يتوجب عليه أن يكون بالضرورة محامياً وقائداً عسكريا وإداريا ومديراً مالياً . وهكذا فانه عندما كان

يصدر حكمه كقاض روماني ، كان يستند الى خبرة واسعة في حقول عديدة غير القانون . فطبقة الفقهاء المحترفين (ناهيك بالنظريين) والمختصين بالقانون والمكرسين كل نشاطهم له ، كانت طبقة لا وجود لها في العالم الكلاسيكي . وهذه الحقيقة هي التي حددت كامل مظهر الفقه الروماني ومطله ، واعني هنا الفقه الروماني المتخلف زمناً . ففي هذا الزمن لم يكن الرومان منهاجيين أو مؤرخين أو نظريين ، بل انما كانوا عمليين فقط وعمليين بصورة رائعة . ففقههم هو علم إختباري تجزيبي لقضايا فردية ، إنه تقنية محصة ، وهو ليس أبداً تركيباً من تجريد .

انها لفكرة غير مصيبة أن نضع القانون اليوناني والقانون الروماني وجها لوجه بوصفها كميات من الطراز ذاته .فالقانون الروماني في كل تطوره هو قانون ذاتي لاحدى المدن ، وهو واحد من مئات القوانين من هذا الشكل ، أما القانون اليوناني ككل كامل ، او وحدة ، فانه لم يكن له أبداً من وجود .

وبالرغم من أنه كثيراً ما كانت للمدن الناطقة باللغة اليونانية قوانين متشابهة ، الا أن هذا الواقع لم يبدل الحقيقة القائلة بان قانون كل مدينة من هذه المدن كان قانونها الخاص بها وليس بقانون أية مدينة أخرى غيرها .

ولم يسبق ابداً أن رأت النور فكرة تهدف الى إيجاد تشريع دوري (Doric) عام ، أو دون هذا ، تشريع هيليني عام . فمثل هذه الافكار كانت غريبة غرابة مطلقة عن الفكر الكلاسيكي .

فالقانون المدني Jus Civile كان يطبق فقط على المواطنين – Quirites ، أما الأجانب والعبيد ، وكل من كان في العالم خارج اسوار المدينة ، فانهم جميعاً لم يكونوا ذوي شأن في نظر القانون ، بينما أننا نرى أن حتى الساخسنشبيجل [1]

---

[1] – اسم مجموعة من أعراف وعادات جرمانية جمعها وأطلق عليها اسم Sachsenspiegel أيكي فون ريبجوف في القرن الثالث عشر

(المترجم)

Sachsenspiegel قد فطن الى فكرتنا الخاصة التي نحس بها احساساً عميقاً والتي تقول بانه لا يمكن ان يكون هناك في الواقع سدى قانون واحد . زد على ذلك أنه حتى في العصور الامبراطورية المتأخرة زمناً كان لا يزال هناك تميز دقيق صارم بين الـ — Jus Givile الساري على مواطني المدينـــة الاصليين وبـــين الـ Jus Gentium المطبق على الأناس الآخرين ، الذين كان ينظر اليهم الفقه الروماني بوصفهم مغتربين . (ومن نافل القول ان نضيف قائلين بانـــه لم يكن « لقانون الشعوب » هذا ، أي وجه من شبه والقانون الذي نطلق عليه نحن الاسم ذاته) . وفقط بسبب كون مدينة رومـــا قد بلغت بوصفها مدينة .. وحدة مرتبة الامبراطورية واستحوذت على السلطان المطلق (وربمـــا كان بامكان مدينة الاسكندرية ان تبلغ ما بلغته روما لو أن ظروفها كانت غير ظروفها تلك) أقول فقط بسبب استحواذ رومـا على السلطان المطلق على العالم الكلاسيكي أمسى القانون الروماني القانون الفائق المفضل ، ولم يمس على ما ذكرت بسبب مـا لهذا القانون من سمو ذات ورفعة شان في الجوهر ، بل انمـا ارتقى الى تلك المرتبة أولاً نتيجة لانتصار روما السياسي ومن ثم بسبب احتكار رومـــا للخبرة العملية على نطاق واسع .

إن تشكل فقه كلاسيكي عام من الطراز الهيليني (وذلك إذا ما جاز لنا أن نطلق هذا الاسم على التشابه في الروح التي تكتنف عدداً ضخماً من مناهج قانونية متفرقة) قد تم في مرحلة تاريخية كانت لا تزال فيها روما دولة من الدرجة الثالثة في الميدان السياسي .

وعندما بدأ القانون الروماني يتخذ لنفسه أشكالاً أضخم ، فان هذا العمل كان يدل على مظهر واحد من مظاهر الحقيقة المقررة أن العقل الروماني قد قهر الهيلينية وأخضعها له . فلقد انتقلت مهمة التشريع الكلاسيكي فيما بعـد من الهيلينية الى روما ، وأعني بهذا ، انهـــا انتقلت من مجموعة من دول المدن ، هذه الدول التي أشعرت جميعها بضعفها ووعته وعياً كاملاً مؤثراً ، الى مدينة واحدة كرست في

النهاية كل طاقاتها وحيويتها لتدعيم واستغلال سلطان فاعل فعـال . وهنا يكمن السر في كون الميلينية لم تشرع أبداً أي فقه باللغة اليونانية . وعندمـا دخل العالم الكلاسيكي المرحلة التي أمسى خلالها ناضجاً لمثل هذا العلم (الفقه) (وهو آخر كل العلوم) ، لم يكن هناك سوى مدينة مشترعة واحـــدة تعتبر ذات شأن في هذا الميدان .

والحق أنــه لم يُنظر فيا مضى باهتمام كاف الى الحقيقة القائلة بأن القانونين الاغريقي والروماني ليسا بقانونين متوازيين زمنـــاً ، بل انهما قانونان متتاليان . فالقانون الروماني هو الأصغر سناً، وهو يحتوي على خبرة سلفه الطويلة. أما القانون اليوناني فقد استن في وقت متأخر حقاً ، وتم اشتراعه قبل اطلالة القانون الروماني بمدة جد وجيزة ، وإنه ليس دونما مغزى كون ربيع الفلسفة الرواقية التي أثرت تأثيراً عميقاً في الافكار القانونية قد تلا القانون اليوناني ، بل كونه قــد تقدم القانون الروماني وسبقه .

- ٣ -

وهذا الفقه ، مهما كانت حاله ، هو فقه اشترعه عقل لنوع من الجنس البشري مغرق في لا تاريخيته . ونتيجة لذلك فان القانون الكلاسيكي هو قانون النهار وحتى قانون اللحظة ، ولقد كان في فكرته تشريعاً عرضيا يستهدف قضايا معينة خاصة ، لذلك كان عندمـا يتم البت في أية قضية من هذه القضايا كانت تزول صبغة القانون عن هذا التشريع ولا يعود قانونا. لهذا فنحن إذا ما أمددنا بسريان مفعوله على قضـــايا لاحقة أو تابعـــة لتلك ، نمسي بعملنا هذا على طرفي نقيض والمفهوم الكلاسيكي المعاصر .

لقد كان قاضي القضاة الروماني Preator يصدر في الايام الاولى لولايته لمنصبه المحددة مدتها بسنة واحدة ، مرسوماً يحدد فيه القواعد التي ينتوى السير وفقهـا ، لكن خلفه في السنة التالية لم يكن في أية حال ملزماً باتباع مـــا اتبعه سلفه من قواعد واجراءات . زد على ذلـك ان حتى تحديد مدة سريان مفعول الاجراءات هذا ، بسنة واحدة ، لم يكن يعني في الواقع أن هذه هي مدة ديمومـة صحة هذه القواعد ، بل ان الحال على عكس ما ذكرت (وخـاصة عقب Lex Aebutis) إذ أن قاضي القضاة كان يستن لكل قضية فردية نهجاً معيناً ثابتاً في القانون يطالب القضاة ، الذين يرفع إليهم مثل تلك القضية للحكم ، باتبـاعه وحده ووحده فقط . وبهذا يكون قـاضي القضاة يستصدر ويولد فعلاً قانونـــاً للحاضر البرهي معدوم الديمومة .

ويشابه هذا القانون في المظهر ، لكنه يختلف عنه إختلافاً عميقاً بالغاً ، ونقول هذا كي لا نترك أي أثر من شك في الهـــوة السحيقة التي تفصل بين القـــانون الكلاسيكي والقانون الغربي ، اقول يشابه هذا القـانون مظهراً ذاك الفكر الجرماني الاصيل في الفقه الانكليزي، وتلك القوة الابداعية للقاضي الذي «ينطق» بالقانون. فمهمة هذا القاضي هي أن يطبق قانوناً يمتلك من حيث المبدأ صحة وسريان مفعول خالدين . وباستطاعته حتى في تطبيق مجموعة القوانين القائمة أن ينظم ويدبر الأمر وفق الحـالات التي تتبدى أثنـــاء السير في القضية وذلك بواسطة اجراءاته وقواعده (التي لا تمت بـأية صلة الى إجراءات قاضي القضاة الروماني وقواعده) . وإذا ما إستدل في حالة وجود مجموعة خاصة من الوقائع على أن في القانون قصوراً أو نقصاً بالنسبة الى هذه الوقائع ، فان باستطاعته ان يتلافى فوراً هذا النقص ، وهكذا يبدع ،والمحاكمة لا تزال تمـاماً في منتصفها ، قانوناً جديداً يمسي فيما بعد (إذا ما وافقت عليه هيئة القضاة) جزءاً من مجموعة القوانين الدائمة ، وهذا هو ما يجعل الفقه الانكليزي غريباً غرابة كلية عن الروح الكلاسيكية . وقد جاء تدرج مجموعة من القواعد والاجراءات في تشكلها في الفقه (الكلاسيكي) القديم فقط نتيجة للحقيقة القائلة بان الحياة العامة قد اتبعت بصورة جوهرية مجرى متجانساً

طيلة مرحلة معينة من الزمن ، وقد انتجت مرة بعد أخرى الحالات والظروف ذاتها التي كان من المتوجب أن تعالج ويتدبر أمرها ، ولم يعتمد أن يكون لمثل هذه القواعد القانونية سريان مفعول في المستقبل ، بل انما كانت تقريباً تشترع مرة بعد أخرى بوصفها قواعد تجريبية في حالة خاصة .

وقد جاءت مجموعة هذه القواعد (وهي مجموعة وليست بمنهاج) لتشكل «القانون» كما نجده من خلال التشريع فيما بعد،هذا التشريع المتبدي في التشريعات القضائية لقضاة القضاة الذين وجد كل واحد منهم أنه من المناسب له عملياً أن يأخذ عن سلفه جزءاً جوهرياً من انجازه .

اذن فان الخبرة تعني في نظر المشترع القديم شيئاً ما يختلف عما تعنيه في نظرنا انها لا تعني تلك الاطلالة المدركة لكتلة ثابتة من القوانين ، كتلة تحتوي ضمناً على كل حالة ممكنة ، وترافقها مهارة عملية حين تطبيقها ، بل انما تعني المعرفة الاختبارية بأن هناك حالات قانونية خاصة يتجدد حدوثها أبداً ودوماً الى درجة توفر على الانسان عناء اشتراع قانون جديد في كل فرصة أو مناسبة .

ان الشكل الكلاسيكي الأصيل للتراكم البطيء لمادة القانون ونموها، هو تقريباً مجموع آلي لتشاريع فردية تتبدى على الصورة التي تطالعنا في ربيع حقبة قاضي القضاة الروماني وريعانها . وكل ما يسمى بتشاريع صولون وتشاروندس Charondas واللوائح الاثنتي عشرة هي ليست اكثر من مجموعات عرضية من تشاريع كهذه ، تشاريع وجدت فيها منفعة وفائدة . أما قانون جورتين Gortyn الذي هو معاصر تقريباً للوائح ، فانما هو ذيل وملحق لاحدى المجموعات الاقدم زمناً . فاحدى المدن التي كانت تؤسس حديثاً ، كانت لا شك ستزود نفسها فوراً بمجموعة كهذه من القوانين ، وكان يحدث اثناء عملية تزودها بمثل هذه المجموعة ، أن يتسرب اليها بعض من الفذلكة (ولتذكر قصيدة « الطيور » لأريستوفان التي يهجو فيها المشترعين) ، ولكن هذه القوانين لم تكن تحتوي ابداً على أي نهج

أو منهاج ، وأكثر من ذلك لم تكن هناك حين اشتراعها أية نية على أن تكون هذه القوانين بذلك ذات ديمومة .

أما في الغرب فان الحال تختلف اختلافاً جلياً واضحاً عن الحال في العالم الكلاسيكي . فالنازع الغربي يستهدف منذ بدايته صهر كامل الجسد الحي للقانون في قانون عام منظم تنظيماً ابدياً وكاملاً كل الكمال ويحتوي مقدماً على البت في كل قضية يمكن ان تحدث في المستقبل . ان كل قوانين الغرب مطبوعة بطابع المستقبل ، أما كل القوانين الكلاسيكية فهي ممهورة بخاتم اللحظة البرهية .

- ٤ -

ولكن من الجائز أن يقول احدهم ، بأن ما أوردته آنفاً تناقضه الواقعة المقررة أنه كانت هناك انجازات قانونية كلاسيكية بوبها بعض الفقهاء المحترفين وصنفوها للاستعمال الدائم . ولا شك أن هذا القول حق ، لكن يتوجب علينا أن نتذكر أننا نجهل جهلاً مطبقاً بالقانون الكلاسيكي المبكر زمناً (١١٠٠-٧٠٠) واننا واثقون كل الثقة من أن قوانين الريف والبلدة الاخذة بالنمو لم تدون ابداً كما دونت مثيلاتها في العصور الغوطية في الساخسنشبيجل ، أو تلك التي سطرت في العصور العربية المبكرة في كتاب القانون السوري . فأبكر تنضيد من القوانين (الكلاسيكية - المترجم) نستطيع أن نكتشفه الان، انما يتكون من مجموعات من القوانين (تبدأ عام ٧٠٠ ق. م.) وتنسب الى شخصيات اسطورية أو شبه اسطورية كليكورغوس Lycungus وزاليكوس Zaleucus وتشاروندداس Charondas ودراكون وبعض الخاصة من ملوك الرومان . أما كون هذه

المجموعات قد وجدت فان شكل الاسطورة يُري ذلك ويظهره ، لكن فيما يتعلق بواضعيها الحقيقيين وبالعملية الواقعية لجمعها وتنسيقها ، وبمحتوياتها الاصلية ، فـان حتى الاغريق الذين عاصروا الحرب الفارسية كانوا يجهلون بكل ما أوردت .

وهنـــاك مجموعة ثانية من القوانين تتشارك وقانون يوستنيان ، و « لتقبّل » القانون الروماني في المانيا ، وهذه المجموعة ترتبط بأسماء صولون (٦٠٠) وبتاكوس (٥٥٠) وآخرين غيرهما . وهنا نجد ان القوانين قد أصبح لهـــا هيكل وأمست تستلهم المدينة ، وتوصف على انها (Politeiai) و (Nomoi) ، وذلك في تباينها والكلمتين القديمتين (Thesmoi) و (Rhetrai) . ولهذا فنحن في الواقع لا نعرف إلا تاريخ القانون الكلاسيكي المتأخر زمناً . والان لماذا نُجابه على هذه الصورة المفاجئة بجمع الشرائع وتنسيقها هذين ؟

ان مجرد نظرة نلقي بها على تلك الاسماء (صولون وبتاكوس الخ المترجم) ترينا أن جمع القوانين وتنسيقها لم يكونا في اعماقها وليدي الرغبـة في تدوين نتائج الخبرة المجردة ، بل انما كانا قرارات حاسمة لمشاكل السلطة وقضايا السلطان .

إنه والحق لخطأ خطير أن يفترض المرء أن باستطاعة أحد القوانين الذي يعـاين كل الأشياء بتساو وعدل دون أن يتأثر بالمصالح السياسية والاقتصادية يمكن ان يكون له إطلاقاً من وجود .

إن حالة كهذه للاشياء يمكن لها أن تُرسم ، وهي دائماً تُرسم من قبل اولئك الناس الذين يفترضون أن تخيل الامكانات السياسية هو عمل سياسي . ولكن ليس هناك من شيء يمكن أن يبدل الحقيقة القائلة بأن قانوناً كهذا جادت بـه احشاء التجريدات ليس له من وجود في التاريخ الواقعي .

ان القانون يحتوي دائمـــاً في الشكل التجريدي على صورة عالم مشترعه أو واضعه ، وكل صورة تاريخية للعالم تحتوي على نازع سياسي اقتصـادي ، نازع لا يرتبط بما يفكر به هذا الانسان أو ذاك ، بل انما يعتمد على مـا تعنيه عملياً الطبقة التي تستأثر واقعاً بالسلطان وتستأثر معه بالتشريع .

ان كل قانون تشترعه احدى الطبقات الاجتماعية باسم جميع الطبقات .

ولقد قال اناطول فرانس مرة :

« إن قوانينا ، بمساواة رائعة وجلال ، لا يقل تحريمها على الاغنياء ، عن تحريمها على الفقراء ، سرقة الخبز والاستعطاء في الشارع . »

وهذا الأمر ، يمثل دون شك ، عدالة ذات جانب واحد، لكن الجانب الاخر ، سيحاول بدوره أن ينتصر فينفرد بسلطة اشتراع القوانين النابعة من نظرته الى الحياة .

إن هذه القوانين الاشتراعية ، هي جميعاً ، جملة وتفصيلاً، افعال سياسية، افعال حزبية سياسية ، وفي هذه الحال تكون مجموعة صولون من القوانين تمثل دستوراً ديمقراطياً يمتزج بقوانين خاصة من الطابع ذاته ، أما مجموعتا دراكون وديسمفرس ، فانما تشكل دستوراً اوليغاركيا يعضده قانون خاص . وقد ترك للمؤرخين الغربيين الذين تعودوا على قانونهم الخاص ذي الديمومة ، أن يبخسوا أهمية هذا الترابط ، أما الانسان الكلاسيكي فإنه لم يكن ابداً يعاني أي سوء فهم لما كان يحدث فعلاً في هذه الحالات .

وقد جاء نتاج ديسمفرس في روما ليكون خاتمة القوانين التي تطبعها طبقة النبلاء Patrician بطابعها . ويسمي تاسيتوس هذا القانون بنهاية القانون الحق . وبما هو ذو دلالة ومغزى ، أن يعقب مباشرة سقوط ديسمفرس نهوض العشرة الآخرين ، المعروفين باسم قضاة الشعب Tribunes ، وسرعان ما انطلق قانون الشعب (Lex Rogata) ليهاجم ويقوض في مجرى تشكله اللوائح الاثنتي عشرة والدستور الذي تستند اليه هذه اللوائح ، وأخذ هذا القانون على نفسه أن ينجز بما عرف عن الرومان من مثابرة وحماس ، ما أنجزه صولون بضربة واحدة حينما قوض . ما أنجزه دراكون ، هذا الانجاز الذي كان يعتبر مثلاً أعلى للقانون في نظر الاوليغاركية الأتكية Attic .

ومنذ ذاك الحين فصاعداً أمسى دراكون وصولون الشعارين اللذين دارت حولهما تلك المعركة الطويلة بين الاوليغاركية وعامة الشعب Demos ، واللتين عرفتا في

روما باسم مجلس الشيوخ Senate ومجلس قضاة الشعب Tribunate . أما الدستور الاسبرطي الذي ارتبط باسم ليكورغوس (Lycurgus) فانه لم يكن فقط بناصر مثل دراكون الاعلى واللوائح الاثنتي عشرة، بل انما أقرها وأثبتها ايضاً وباستطاعتنا أن نرى ما يوازي مجرى الحوادث في روما ويشابهه شبهاً جد قريب، نازع الملكين الاسبرطيين نحو الخروج من وضع الطغاة التاركوينيين Tarquinian الى وضع قضاة الشعب من النوع الجراتشي Cracchan .

فسقوط آخر التاركوينيين ، او دستور ديسمفرس (وهذا يمثل انقلاباً من هذا النوع أو ذاك ضد النـــازع الشعبي في التشريع)ينطبق تقريباً على سقوط كليومينس Cleomenes (٤٨٨) وباوسانياس (٤٧٠) ، كما وان ثورة آجيس Agis وكليومينس الثالث(٢٤٠)تنسلك في عقد النشاط السياسي لفلامينيوس Flaminius ، الذي بدأ عقبها بسنوات قليلة فقط. ولكن الملوك في اسبرطة لم يستطيعوا ابداً أن يحققوا انتصاراً كاسحاً على عناصر النبلاء الذين كان يمثلهم افورس Ephors .

وخلال حقبة الصراع أمست روما مدينة عظمى من النوع الكلاسيكي المتأخر زمناً . وأخذت الغرائز الغشيمة الساذجة تتراجع يوماً بعد آخر أمام ذكاء المدينة. ونتيجة لهذا الواقع نجد قرابة عام ٣٥٠ قانون الشعب يسير جنباً الى جنب وقانون البينات Lex Data ، قانون الاجراءات للبريتور. وبهذا تطرح فكرة اللوائح الاثنتي عشرة خارج حلبة الصراع،وتصبح اجراءات البريتور الكرة التي تتقاذفها الاحزاب في المعركة .

ولم يحتج البريتور طويل وقت ليمسي مركزاً للممارسة التشريعية والقضائية . وانسياقاً وراء توسع سلطان المدينة السياسي ، سرعان ما بدأ يعتري سلطة البريتور التشريعية ويعتري القانون المدني ، قانون المواطنين ، هزال في مغزاهما وأهميتها ، وأمسى البريتور الاجنبي بقانونه للأجانب Jus Gentium ، في المقدمة. واخيراً عندما أصبح قانون الاجانب ينطبق على كامل سكان العالم الكلاسيكي ، مـا عدا تلك الفئة القليلة التي كان ابناؤها يحملون الجنسية الرومانية ، أمسى هذا القانون قانوناً

امبراطورياً من الوجهة العملية . وقد احتفظت كل المدن الاخرى ، وحتى قبائل جبال الألب ، والعشائر البدوية الرحل التي كانت تعتبر متحضرة من الوجهة الادارية ، أقول احتفظت بقوانينها المحلية بوصف هذه القوانين فقط ذيلًا ، وليس بديلًا ، لقانون الاجانب لمدينة روما .

وهكذا عندما أصدر هادريان قرابة عام ١٣٠ ب . م الـ Edictum Perpetuum الذي أعطى الشكل النهائي للأصول الحسنة الانتظام،لاجراءاتالبريتور وأحكامه وحرم ادخال أي تعديل آخر عليها ، فان عمل هادريان هذا كانبمثابة خاتمةاشتراع القوانين الكلاسيكية .

وبقي من واجبات البريتور ، كما كان مألوفاً من قبل ، نشر « قانون عامه » ولكن مع أن هذا القانون لم يكن على نطاقمن السريان أوسع مما يتفق وسلطات البريتور الادارية، لميكن قانون الامبراطورية،غير أن البريتور كانعليه أن يتقيد منذ ذاك الحين فصاعداً بالنص المقرر . وهذا هو الرمز كل الرمز لمدنية متحجرة « ومتأخرة زمناً » .

ومع العصر الهيلني أطل الفقه ، علم القانون ، الادراك المنهاجي للقانون، وأخذ الناس عملياً بتطبيقه . ولما كان الفكر القانوني يفترض سلفاً جوهراً للعلاقات السياسية والاقتصادية شأنه في ذلك شأن الفكر الرياضيالذي يفترض مقدماً عناصر فيزيائية وفنية للمعرفة ، لذلك سرعان ما أمست روما موطن الفقه الكلاسيكي . ويشابه هذه الحال في العالم المكسيكي ، الازتكس الغزاة الذين جعلت جامعاتهم (مثلًا تزكوكو Tezcuco) القانون الموضوع الرئيسي للتدريس والدراسة . فالفقه الكلاسيكي كان العلم الروماني ، وعلمه الوحيد فقط . ففي اللحظة ذاتها التي أنتهت الرياضيات الخلاقة المبدعة بارخميدس،يبدأ الأدب الفقهي بثلاثية Tripertita إليوس Aelius ، وهذه الثلاثية هي شرح اللوائح الاثنتي عشرة (عام ١٩٨ ق.م.) . وقد كتب م. سكيفولا M. Scaevola أول قانون منهاجي خاص قرابة عام ١٠٠ . وقد استغرق نضوج الفقه الكلاسيكي الأصيل قرنين من الزمن ابتداء من عام

٢٠٠ ق.م الى عام ٠ — ، وذلك بالرغم من أننـا نعمد بمشاكسة غير مألوفة الى اعتماد أزمنة وتواريخ تعود في الواقع الى الفقه العربي المبكر زمنـاً . وباستطاعتنا بما لدينا من ذخائر وآثار لهذين الادبين الفقهيين أن نقيس ضخامة الهوة التي تفصل بين فكري هـاتين الحضارتين . فالرومان يعالجون فقط القضايا وتصنيفها ، وهم لا يحللون أبداً الفكرة الاساسية ، مثلاً كفكرة الخطأ القانوني .

وهم يميزون بعنـاية واهتمام انواع العقود ، ولكنهم لا يملكون أي مفهوم عن العقد كفكرة ، أو أية نظرية بالنسبة الى البطلان وعدم الصحـة . ويقول « لينيل » Lenel :

« ونحن إذا ما راعينا كل أمر ، يتضح لنـا أنه لا يمكننا ان نعتبر الرومان قدوة تحتذى في النهج العلمي . »

ان آخر طور يتمثل في مدرستي « سابنياني » (Sabiniani) وبروكولياني (Proculiani) (ابتداء من اغسطس حتى قرابة عـام ١٦٠ ب. م.) وهاتان المدرستان هما مدرستان علميتان كمدارس الفلسفة في اثينا ، ومن الجـائز أن آخر جولات الصراع بين نظريات النبلاء ونظريات الشعب (القيصرية) في القانون قد دارت في رحـاب هاتين المدرستين ، لأن شخصين من أفضل تلامذة سابنياني يتحدران من صلب قتلة قيصر ،وثالث من انبغ تلامذة بروكولياني اختاره تراجان خليفة له. وحينما اكتمل المنهاج وبت فيـه من كل الوجوه والمقاصد ، ثم صهر القانون المدني الاساسي ، وقانون البريتور (Jus Honorarium) هنا ايضاً واكتمل .

ان آخر ما جاد به الفقه الكلاسيكي ، حسبما نعلم ، كانت شرائع غـايوس (قرابة عام ١٦١) .

إن القانون الكلاسيكي هو قانون الاحجام ، وهو في تشكيله للعـالم من وجهة عامة ، يميز اشخاصاً حجميين وأشياء حجمية كأنه نوع من رياضيات يوقليدية للحياة العامة ، ويقيم نسباً ودرجـات بينها . والشبه بين الفكر الرياضي والفكر

القانوني جد قريب . فقصد كل من الفكرين هو أن يأخذ البينات عند أول نظرة، وان يعزل ما هو طارىء حسي ، وان يجد المبدأ العقلاني الاساسي ، (الشكل المجرد الموضوع ، النموذج المجرد للوضع ، الترابط المجرد بين العلة والمعلول) .

إن الحياة في القانون الكلاسيكي تعرض ذاتها على الوعي اليقظ للانسان الكلاسيكي في شكل يتخلله طابع يوقليدي ، والصورة التي تتولد في الذهن القانوني هي صورة أحجام ، صورة علاقات أوضاع بين أحجام ، وصورة آثار متقابلة متبادلة لاحجام ، آثار تنشأ عن تماس وردة فعل ، شأنها في ذلك شأن ذرات ديمقريطس ، إنها والحق لسكونية فقهية .

- ٥ -

ان أول إبداع للفقه العربي جاء متمثلاً في مفهومه للشخص الروحي الذي لا جسد له أو حجم ، وهذا المفهوم لا وجود له إطلاقاً في الفقه الكلاسيكي ، وهو يتبدى فجأة لدى الفقهاء « الكلاسيكيين »، (الذين كانوا جميعاً من الارامين) ، وإنه لمن غير المستطاع أن نقدر قيمة هذا الابداع حق قدرها ، أو أن نقيم أهميته الرمزية ، بوصفه دليلاً من أدلة الشعور الجديد بالعالم ، إلا إذا أدركنا كامل مساحة الميدان الذي كان يصول فيه هذا الفقه العربي ويجول .

وهذا الميدان الجديد يضم سوريا وشمالي العراق وجنوبي جزيرة العرب وبيزنطة، . ففي هذه الاقاليم جميعاً أخذ فقه جديد يشق طريقه الى الوجود ، إنه الفقه المألوف ، الشفهي أو المكتوب ، وهو من النموذج « المبكر » ذاته الذي نجده في الساخسنشبيجل .

وهنا نرى فقه المدن الافرادية ، الواضح الصريح والغني عن البيان على التربة الكلاسيكية ، يتحول ، بروعة وصمت ، الى فقه طوائف مذهبية . إنه فقه مجوسي

سداة ولحمة ، فهنا تتجلى دائماً وأبداً روح واحدة ، نفس واحدة ، معرفة مطابقة واحدة ، وإدراك واحد، لكامل الحقيقة الوحيدة الفريدة، فتصهر وتذيب المؤمنين بالدين ذاته في وحدة من إرادة وعمل ، في شخص فقهي واحـــد . وهكذا فان الشخص الفقهي هو ذاتية جماعية ، ذاتية لها مقاصدها وقراراتها ومسؤولياتها بوصفها ذاتية . ونحن نرى هذه الفكرة في المسيحية فعالة ومؤثرة في طائفة مدينة القدس البدائية ، ونراهـــا سرعان ما تسمو وتحلق فتبلغ مفهوم الأقانيم الثلاثة ، للأشخاص الثلاثة .

وقبل زمن قسطنطين ، وبالرغم من الحفاظ على الشكل الروماني لفقه المدينة ، كان حتى الفقه الكلاسيكي المتأخر زمناً ، الفقه القائم على المراسيم الامبراطورية، هو أصلاً فقه أشترع من أجل ابناء الكنيسة الموفقة بين النقائض والاراء ، هـــذه الجمهرة من المذاهب ، التي اثرها تدين واحد ووحيد .

والحق ، ان القانون في روما نفسها كان يفهم من قبل جزء كبير من السكان ، على أنه قانون دولة المدينة ، لكن هذا الاحساس بالقانون كان يزداد هزالاً وضعفاً مع كل خطوة يخطوها نحو الشرق . وقد تأثر ، بصورة صريحة واضحة ، انصهار المؤمنين في طائفة فقهية واحدة وحيدة ، بمذهب عبادة الامبراطور ، هذا المذهب الذي كان ، جملة وتفصيلاً ، قانوناً دينياً . وكان اليهود والمسيحيون يعتبرون في نظر هذا القانون،من الكافرين المستكينين وراء قوانينهم الخاصة في ميدان آخر من ميادين القانون .

وفي عام ٢١٢ عندما منح الامبراطور الارامي كراكلا Caracalla بموجب دستور انطونيانا – الجنسية الرومانية جميع سكان الامبراطورية ، مـا عدا طبقة الديدتيتشي Dediticii [1] الرحالة،فان شكل عمله هذا كان شكلاً كلاسيكياً مجرداً،

---

١ – Dediticii : طبقة اجتماعية عرفها المجتمع الروماني وكانت تتشكل من افراد غـير مرغوب فيهم من قبل طبقات المجتمع الروماني الاخرى .

(المترجم)

ولا ريب أن الكثيرين من الناس آنذاك ، فهموا هذا الأمر بروح كلاسيكية ، وأعني بذلك انهم اعتبروا هذا العمل بمثابة دمج سكان كل مدينة اخرى من مدن الامبراطورية في سكان مدينة روما .

لكن الامبراطور كان يرى في هذا الأمر غير ما يراه اولئك ، إذ أن عمله هذا جعل كل انسان خاضعاً « لأمير المؤمنين » ، رأس المذهب الديني والمبجل بوصفه « إلهاً » Aivus . وقد حدث التغيير العظيم على يد الامبراطور قسطنطين ، حيث انه استعاض عن قانون التوفيق بين المذاهب ، بقانون الخليفة الامبراطوري الناظم لدستور المسيحية ، وبهذا يكون قسطنطين قد حدد معالم الأمة المسيحية وقرر هويتها . وهكذا بدل شعارا «المؤمن» والكافر مكانيهما.وابتداء بقسطنطين فما بعده أخذ التحول الصامت للقانون الروماني الى قانون مسيحي ارثوذكسي يزداد حسماً وحزماً ، وعلى هذه الصورة تقبل المهتدون من الاسيويين والجرمان هذا القانون (المسيحي) وتبنوه . وهكذا شق قانون جديد كل الجدة طريقه الى الوجود وهو يتلفع بأشكال قديمة .

ولقد كان من المستحيل أن يجري ، وفق قانون الزواج القديم، عقد قران احد نواب مدينة روما ، على ابنة احد نواب كابيوان Capuan مثلاً، وذلك اذا لم يكن هناك قانون بزواج مشترك ونافذ المفعول في كل من المدينتين . أما الآن (ابتداءً بقسطنطين فما بعده المترجم) فان القضية اصبحت عما إذا كان يستطيع المسيحي أو اليهودي ، وبغض النظر عما إذا كان مثل هذا الانسان رومانياً أو سورياً أو من سكان المغرب العربي ، أن يتزوج فتاة من غير بنات دينه، وذلك لأنه لم يكن يجري في عالم الفقه المجوسي أي زواج يربط بين زوجين يختلفان ديناً أو مذهباً. فلم يكن هناك أي حائل ، مهما قل شأنه ، يحول بين زواج رجل ارلندي يقيم في اسطنبول ، من فتاة زنجية ، وذلك في حالة كون مثل هذين الزوجين يدينان بالمسيحية ، ولكن كيف يستطيع المسيحي اليعقوبي أن يتزوج من فتاة نسطورية يعيش كلاهما في قرية سورية واحدة ؟ فهذان ، قد يكونان غير مختلفين عنصراً ،

ولكن كل واحد منها إنما ينتمي من الوجهة القانونية الى أمة تختلف عن أمة صاحبته أو صاحبها .

إن هذا المفهوم العربي للجنسية ، (للقومية) هو مفهوم جديد ، وحقيقة حاسمة قاطعة فالحدود التي كانت في العالم الأبولوني تفصل بين وطن وآخر ، إنما كانت تقوم بين كل مدينتين من مدن ذاك العالم ، غير أن هذه الحدود في العالم المجوسي ، كانت تخطط بين كل طائفتين من طوائفه . زد على ذلك أن التباين الذي كان قائماً آنذاك بين « العدو » الغريب ، وبين الروماني ، هو التباين ذاته الذي يقوم بين المسيحي والوثني ، بين الأمهري (الحبشي) واليهودي ، وما كان يعنيه اكتساب «غالي» أو اغريقي للجنسية الرومانية في عهد قيصر ، هو ذات ما أصبحت تعنيه المعمودية المسيحية بالنسبة الى هذين الشخصين ، أي إنها أصبحت تعني دخولها صفوف أمة طليعية للحضارة الطليعية .

فالفرس في العهود الساسانية لم يعودوا يرون في نفوسهم ما كان اسلافهم في عصور خمينيين يرون أي على انهم وحدة من أصل واحد ولغة واحدة ، بل إنما أصبحوا يؤمنون بانهم وحدة من المؤمنين «بالمازددية» تقابلهم وحدة من الكفرة ، وذلك بغض النظر عن الحقيقة المقررة بان هذه الوحدة قد تكون أصيلة في قوميتها الفارسية (كما هو واقع الحال بالنسبة الى الاكثرية الساحقة من النساطرة) . وهكذا ايضاً كانت الحال واليهود ، ومن ثم حال « العارفين » Mandaeans ومن بعدهم « المانيين » ، وعقب هؤلاء ايضاً المسيحيين من يعاقبة ونساطرة ، فكل ملة من الملل الآنفة الذكر كانت تشعر بانها أمة أو شعب ، وبأنها طائفة ذات كيان حقوقي ، وذاتية قانونية وفق مفهوم جديد .

وعلى هذا النمط أخذت مجموعة من القوانين العربية المبكرة بالنشوء ، وكان يجري التمييز بين هذه القوانين وفق الاديان والمذاهب ، وذلك على القياس الحاسم ذاته الذي كان يجري التمييز بين القوانين الكلاسيكية وفق المدن . ونشأ في رحاب المدارس الساسانية ، ومن أجل التدريس ، القانون الزرادشتي الخاص بهذه

المدارس، كما وان اليهود الذين كانوا يشكلون جزءاً كبيراً جداً من سكان البلدان الممتدة من أرمينيا حتى « سبأ» قد إشترعوا قانونهم الخاص ، هذا القانون المدون في التلمود، والذي تم وضعه وأختتم قبيل بضع سنوات من وضع Corpus Junris .

ولقد كان لكل كنيسة من هذه الكنائس تشريعها الخـــاص ، المستقل عن الحدود الجغرافية البرهية (كما هي الحال اليوم في الشرق) وكان القاضي الممثل لحاكم البلد لا يقضي إلا في القضايا القـائمة بين أطراف ينتمون الى مذاهب مختلفة . ولم يحدث أبداً أن قام أي امرىءٍ بمنافسة التشريع الذاتي لليهود داخل الأمبراطورية، غير النساطرة واليعاقبة ، وحالمـا انفصلوا الى طائفتين مستقلتين ، أخذوا بدورهم يشترعون ويطبقون قوانين خاصة بهم ، وقد قاموا بعملهم هذا وفق منهاج سلبي ، وأعني بذلك ، انهم أخذوا ينعزلون تدريجيـــاً عن جميع الطوائف الهرطوقية ، وهكذا أصبح القانون الأمبراطوري الروماني فقط قانون المسيحيين الذين يدينون بالمذهب الذي يدين به الأمبراطور ،ولهذا السبب تتمتع مجموعة القوانين الرومانية السورية بتلك الاهمية البـــالغة ، هذه المجموعة التي لا تزال محفوظة في العديد من اللغات ، ومن الجائز جداً أن تكون قد وضعت مـــا قبل قسطنطين ، وجرى تدوينها من قبل المجلس العدلي لبطريرك انطاكية . وهي لا ريب تشريع عربي مبكر يتسربل بجلباب كلاسيكي متأخر زمناً ، ويعود الفضل في رواجها الواسع ، كما يدل على ذلك ترجمتهـــا الى العديد من اللغـــات ، الى مناهضتها للكنيسة الارثوذكسية الأمبراطورية .

وهذه المجموعة ، هي ، لا شك ، القواعد التي ارتكز إليها القانون اليعقوبي ، وقد بقيت مسيطرة وسارية المفعول ، حتى بزوغ الإسلام وإنتشاره فوق ميدان أوسع بكثير من الميدان الذي غطاه الـ Corpus Juris .

وهنا يتبادر الى ذهننا السؤال التالي :

ما الذي يمكن ان يكون للجزء المدون باللغة اللاتينية من هذه الفسيفساء من القوانين ، من أهمية حقيقية وعملية ؟

إن مؤرخي القانون قد نظروا الى هذا الجزء وحده بكل ما للخبير من نظرة

وحيدة الزاوية والجانب ، ولهذا السبب لم يتبينوا إطلاقاً أن في الأمر قضية ومشكلة . فنصوص هذا الجزء كانت تشكل «قانوناً» ناقصاً عديم الاهلية ، وهو القانون الذي تحدر من روما إلينا ، وقد حصر المؤرخون همهم في تحري تاريخ هذه النصوص فقط ، ولم يتجاوزوا التحري ، الى تفهم المغزى الحقيقي لهذه النصوص في نظر الشعوب الشرقية وحياتها . ان ما يطالعنا ، في الحقيقة ، في هذا الجزء (المدون باللاتينية ـ المترجم) إنما هو قانون بلغ اعلى مراتب المدنية ، انه قانون حضارة هرمة فُرض على حضارة في ربيع عمرها ، وتحدر كمؤلف صال فيه العلم وجال ، وجاء مشدوداً الى سلسلة من التطورات السياسية التي كانت لا شك ستصبح غير ما أمست ، لو أنه قدر للاسكندر او قيصر أن يمتد به الأجل فترة أطول من الزمن ، أو كتب لانطونيو النصر في معركة اكسيوم .

إنه لمن المتوجب علينا أن نتطلع الى القانون العربي المبكر من وجهة نظر ستسيفون (Ctesiphon) لا من وجهة نظر روما . فقانون الغرب الجاف والبعيد قد بلغ ومنذ زمن طويل قبل بزوغ القانون العربي، آخر مراحل اكتماله الباطني، فهل يمكن ان يكون هذا القانون ، في هذه الحال ، اكثر من مجرد مؤلف ؟ وما هو الدور الذي لعبه ، إن كان له أي دور، في الدراسة القانونية الفعالة وفي اشتراع القوانين وممارستها في هذا الصقع من العالم ؟ (الصقع العربي ـ المترجم) . وعلينا، حقاً، أن نتوجه بسؤال آخر فنقول : ما مقدار ما تحتوي مجموعة القوانين المدونة باللاتينية إياها ، على روح رومانية ، أو في هذا الموضوع ، على روح كلاسيكية بصورة عامة ؟

إن تاريخ هذا القانون المدون باللغة اللاتينية ينتمي ما بعد عام ١٦٠ الى الشرق العربي ، وفيه الشيء الكثير الذي باستطاعتنا ان نقتفي آثاره بمجار متوازية تماماً ، حتى داخل تاريخ المؤلفات اليهودية والمسيحية والفارسية . فالفقهاء « الكلاسيكيون » « بابنيان » Papinian « وألبيان » Ulpian وبولس كانوا من الارامين ، وقد وصف « ألبيان » نفسه مفاخراً بأنه فينيقي من بلدة صور . إذن فهؤلاء جميعاً يتحدرون من اولئك السكان الذين تحدر منهم تانايم Tannaim

الذي بلغ بالمشنا [١] Mishnah أعلى ذرى الكمال عام ٢٠٠ ، بالاضافة الى معظم الجدليين المسيحيين (ترتوليان ١٦٠ — ٢٢٣) ويعاصر [٢] هؤلاء تثبيت اعتماد العهد الجديد قانون إيمان ونص ، والعهد القديم العبراني والافستا ، وذلك من قبل الأئمة المسيحيين والعبرانيين والفرس كل فيما يختص بدينه

إن هذه الأمور جميعاً لتمثل الكلامية الرفيعة لربيع الحضارة العربية .

إن مكانة مجموعات قوانين هؤلاء الفقهاء وشروحهم أمام المخزون الكلاسيكي المتحجر من القوانين لمماثل تماماً لمكانة « المشنا » من توراة موسى (والحديث من القرآن ، بعد تلك بزمن جد طويل) . فتلك هي جميعـــاً اجتهادات وتفاسير « هلاكوت » Halakhoth [٣] ، إنها قانون يستند الى العرف والعـادة ويُدرك بأشكال من مادة قانون جازمة تقليدية . زد على ذلك ان النهج في الفتـــاوى الشرعية ، هو نهج واحد دائماً في كل مكان . ولقد كان يهود بابل يملكون قانوناً مدنيا بلغ درجة جيدة من التطور ، وكان هذا القانون يُدرّس في كليات سورا (Sura) « وبامبديتا » Pumbeditha . وفي كل مكان كانت تخلق طبقة من رجال القانون ذاتها ، فهناك طبقة المتبصرين من الشعب المسيحي ، وطبقة الحاخاميين من الشعب اليهودي ، وجاءت فـــيما بعد طبقة العلماء (وبالفارسية الملة) من الشعب الاسلامي ، وكانت مهمة افراد هذه الطبقة تتركز على الافتاء ، واذا ما اعترفت الدولة بأحدهم فعندئذ يطلق عليه لقب « المفتي » . وهكذا نرى ان الاشكال هي ذاتها تماماً في كل مكان .

---

١ — المشنا : اجتهادات حاخامي اليهود في تفسير التوراة . (المترجم)

٢ — لا يعني هنا المؤلف المعاصرة الزمنية ؛ لقد سبق وشرحنا ما يفهم اشبنجلر بالمعاصرة .

(المترجم)

٣ — Halakhoth : هي التفاسير او الاجتهادات ، او الاعراف الشفوية الدينيـــة اليهودية ، وتعتبر ملاحق للكتب الدينية اليهودية ، المنزلة .

(المترجم)

وتحول ، قرابة عام ٢٠٠ ، الجدليون الى الآباء السديديي الرأي ، والتانايم الى آمورايم Amoraim ، والمجتهدون العظام في الفقه الشرعي الى متضلعين في شرح الكتب الدينية ومنسقين للفقه الدستوري (Lex) . وما دساتير الاباطرة ابتداء من عام ٢٠٠ فما بعده ، هذه الدساتير التي تعتبر المنبع الوحيد للفقه « الروماني » الجديد ، سوى « اجتهادات وتفاسير » « هلاكوت » جديدة وضعت فوق تلك في مؤلفات رجال القانون ، ولذلك فهي تنطبق تماماً على الجمارا Gemara [١] التي سرعان ما نشأت كجزء منفصل عن المشنا .

وقد بلغت النوازع الجديدة اكتمالها في الـ Corpus Juris والتلمود معاً .

ويعبر التعارض القائم بين الفقه الشرعي والفقه الدستوري في العرف العربي اللاتيني عن نفسه بأوضح عبارة في تشاريع جوستينان. فالأنظمة ومجموعات القوانين تشكل الفقه الشرعي، وتحتوي في جوهرها على مغزى النصوص الشرعية ومفهومها. والدساتير وبعض قوانين جوستينيان Novels تشكل الفقه الدستوري، أي انها تشكل فقهاً جديداً في شكل شروح وايضاحات . كما وان الكتب الدينية العائدة الى العهد الجديد وتقاليد آباء الكنيسة يرتبط الواحد منها بالآخر وفق الطريقة ذاتها .

وليس هناك اليوم من أحد يشك أو يرتاب في الطابع الشرقي للالاف من الدساتير .

فكون الضغط الحي للتطور قد أخضع لنصوص الفقهاء إنما هو مجرد عرف وعادة متعارف عليها في العالم العربي ومألوفان من قبل شعوبه وسكانه . كما وان المراسيم ، التي لا تعد ولا تحصى ، والتي صدرت عن حكام بيزنطه المسيحية ، وعن فرس ستسيفون ، ويهود بابل (طبقة رش – غاليوتا) [٢] ، وأخيراً مراسيم خلفاء

---

١ – الجمارا : شرح التلمود .

–المترجم–

٢ – رش – غاليوتا : هي الطبقة اليهودية المتزعمة للطائفة اليهودية التي عاشت السبي البابلي.
(المترجم)

المسلمين ، فان لكل هذه المراسيم المغرى ذاته والمفهوم نفسه تماماً .

ولكن أي مغزى كان لذاك الجزء الآخر من القانون ذي الشكل الكلاسيكي الكاذب Pseudo - Classical ، قانون الفقهاء القدماء ؟ وهنا لا يكفي أن نشرح النصوص ، بل انما يتوجب علينا ان نعرف ما هي العلاقة التي كانت تربط بين النصوص والشرع وقرارات المحكمة . فمن الجائز أن يحدث فيرى الوعي اليقظ لطائفتين من الناس في المجموعة الواحدة من القوانين ذاتها ، على انها مجموعتان تختلف الواحدة منها عن الاخرى اختلافاً جوهرياً .

ولم يمض طويل زمن ، إلا وتفشت عادة عدم تطبيق القوانين القديمة لمدينة روما على أساس الدعوى المنظورة من القضاء ، بل انما كانوا يستشهدون بنصوص الفقهاء كما يستشهد المرء بنصوص من الكتاب المقدس .

فما هو مغزى هذه الواقعة ؟ إن هذا الأمر في نظر عشاق الرومانية منا ، انما يمثل ظاهرة انحطاط وتدهور ، ولكننا اذا ما نظرنا اليه من وجهة نظر الانسان العربي فانما يمثل العكس تماماً ، فهو دليل على ان الانسان العربي قد نجح اخيراً في ان يمتلك باطناً مؤلفات غريبة عنه فرضت عليه فرضاً ، وأن يجعلها ملكاً خاصاً به ويصوغها في شكل مقبول به من شعوره الخاص بالعالم . وبهذا يصبح اكتمال التعارض القائم بين الشعور الكلاسيكي بالعالم وبين الشعور العربي جلياً صريحاً وواضحاً .

- ٦ -

بينما كان القانون الكلاسيكي يشترع من قبل النواب والحكام وعلى اساس من الخبرة العملية ، كان القانون العربي يُنزّل من عند الله ويُعلن بواسطة المصطفين المستنيرين من الرجال . ولقد أمسى التمييز الروماني بين القانون (Jus) والحق (Fas)

فاقداً لكل معنى (كما كانت حاله، وذلك لأن محتوى الحق انبثق عن التأمل البشري) . فالقانون مهما كان نوعه، أروحياً أم دنيوياً، فانما انطلق الى الوجود، كما قال جوستنيان، في الكلمات الاولى من مجموعات قوانينـــه، كعمل من أعمال الله .

إن سلطان القانون الكلاسيكي يستند الى النجاح الذي صادفه، اما سلطان القانون العربي فانما يرتكز الى جلال الاسم الذي يحمله .

والحق أنه لمن الأهمية بمكان، بالنسبة الى شعور الانسان، ما اذا كان الانسان يعتبر القانون تعبيراً جادت به ارادة أحد النـــاس الآخرين، أم أنه عنصر من عناصر ناموس الهي، فهو في الحالة الاولى امـا أن يرى، بينه وبين نفسه، أن القانون صواب وحق واما أن يذعن للقوة ويخضع، لكنه في الحالة الثانية يقر به بخشوع وورع، (وكلمـــة الاسلام تعني أسلم الانسان أمره، أو أوكله) . والانسان الشرقي لا يطالب بأن يرى الموضوع العملي للقـانون المنطبق عليه، ولا يبحث عن الاسس المنطقية لاحكامه . لذلك فأنه لا توجد أية أوجه شبه بين علاقة القاضي الشرعي بالنـاس، وبين علاقة القـاضي الروماني بالمواطنين الرومان . فهذا الأخير تصدر أحـكامه عن بصيرة جربت وأمتحنت في المراكز العالية، أمـــا الأول فانمـا يستند في أحكامه الى روح فعـالة وفطرية داخل ذاته، روح تتحدث بلسان القاضي وفمه .

ومن هذا يستدل على أن علاقتي كل من القـــاضي الشرعي والقاضي الروماني بالقـانون المكتوب (علاقة القاضي الروماني بقوانينه واجراءاته، وعلاقة القاضي الشرعي بنصوصه الفقهية) يجب ان تكونا مختلفتين اختلافـاً كليـــاً . فالقاضي الروماني يعتمد في أحكامه على زبدة خبرة مركزة يجعلها ملكاً خاصاً به، أمـا القـاضي الشرعي فيرى في النصوص نوعـاً من «الاوراكل» Oracle يستفتيها باطنـــاً .

ولا يعير هذا الاخير أدنى اهتمام لما تعنيه أية فقرة في الأصل، أو للشكل الذي صيغت وفقه، بل انما يمحص الكلمات (ويمعن النظر حتى في الاحرف) ولا

يقوم بهذا ابداً بغية معرفة معانيها اليومية المألوفة ، بل حبـــاً بمعرفة العلاقات السحرية التي يجب أن ترتبط بينها وبين الدعوى التي ينظر فيها . ونحن نعرف علاقة « الروح » « بالحرف » من مؤلفات الروحانيين Gnostico [1] العـــارفين ، ومؤلفـــات المسيحيين الاوائل والفرس العجائبيين والصوفيين ، ومن الفلسفة الفيثاغورية الجديدة ، ومن الكابالا ، وليس هناك أقل شك أو ريب في أن الملاحق والتعديلات اللاتينية كانت تستخدم بالطريقة ذاتها تماماً في الممارسة القضائية الثانوية للعالم الآرامي .

إن الايمان بأن الأحرف تحتوي على معان سرية تتخللهـا روح الله ، ليعبر عن ذاته تعبيراً خيالياً من خلال الحقيقة (المذكورة اعلاه) والمقررة أن جميع أديان العالم العربي قد سطرت مخطوطاتها الخاصة بها ، ودونت فيها جميع كتبها المقدسة ، وقد صانت هذه الكتب ، حتى ما بعد التغيرات والتبدلات التي طرأت على اللغة ، مـــا ورد فيها بصلابة مذهلة وتماسك عجيب ، وذلك بوضعها شعارات « الأمم والشعوب » التي دانت بها .

ولكن حتى في القانون ، فان تقرير الحقيقة باعتماد اكثرية النصوص ، فانما هذا يمثل واقعة تقول باتفاق المصطفين روحاً : انه الاجماع وقد سار العلم الاسلامي بهذه النظرية حتى استولدها نتائجها المنطقية . فنحن (أي معشر الغربيين – المترجم) نبحث عن الحقيقة ونتحرى عنها ، ويقوم كل واحد منا بهذين البحث والتحري ، مستقلاً عن الآخر ، وبامعان وبجران شخصيين ، لكن المجتهد العربي انما يستشعر في بحثه ويتوجه في تحريه نحو التأكد من قناعة زملائه العامة ، هـذه القناعة التي لا يمكن لها أن تخطىء ، لأن عقل الله وعقل الجماعة ، هما العقل الواحد ذاته . فاذا ما

---

١ – Gnosticism « حركة فلسفية دينية سبقت المسيحية زمناً ، وكانت تقول بان الخلاص يتم عن طريق المعرفة .

– المترجم –

حصل الاجماع ، فعندئذ تُقرر الحقيقة ، تثبت وتقوم .

إن مبدأ الاجماع هو الدعامة الرئيسية التي ارتكزت اليها كافة المجامع (الدينية - المترجم) المبكرة زمناً ، من مسيحية ويهودية وفارسية ، ولكن هذا المبدأ هو ايضاً الاساس الذي قام عليه قانون فالنتينيان الثالث المشهور (٤٢٦) ، قانون الاستشهاد ، هـذا القانون الذي جعله رجال القانون في العالم مرتكزاً لسخريتهم وهزئهم ، دون أن يفهموا على الاقل الاسس الروحية التي قام عليها . وهذا القانون يحد من عدد الفقهاء العظام الذين يجوز الاقتباس ، أو الاستناد الى اجتهاداتهم ونصوصهم ، ويحصر عددهم بخمسة ، وهكذا فانه يشترع ناموساً - بما للناموس من معنى في كل من العهدين القديم والجديد ، واللذين كان كلاهما ايضاً مجموعات من النصوص التي يجوز أن تعتبر قوانين شرعية .

وقد نص قانون فالنتينيان، انه اذا ما حدث خلاف في الآراء ، فعندئذ يجب اعتماد رأي الاكثرية ، أو اذا ما اختلفت النصوص اختلافاً مماثلاً فعندئذ يعتمد بابنيان Papinian . وما منهاج الاستيلاد ، والحشر في النص الأصلي الذي استخدمه تريبونيان Tribonian على صورة جد واسعة في معالجته لقوانين جوستنيان سوى ثمرة لهذه الاطلالة ذاتها .

إن النص الشرعي هو في جوهر فكرته، صحيح ولا يحتمل أي تحسين. ولكن الحاجات العملية للروح تبدل وتعدل ، وهكذا نمت تقنية Technique لتعديلات سرية ، حافظت في المظهر على الوهم القائل بعدم احتمال النصوص أي تعديل أو تبديل ، ولكنها استخدمت فعلاً بحرية جد واسعة في جميع الكتابات والكتب الدينية التي عرفها العالم العربي بما في ذلك الكتاب المقدس .

ويعتبر ، جوستينيان ، بعد ماركانطوني أخطر الشخصيات وأشدها شؤماً التي شهدها العالم العربي . وهو ، « كمعاصره » شارل الخامس ، قد دمر كل شيء أثار أو استثار اهتمامه . وكما عصف بالغرب ذاك الحلم الفاوستي، حلم بعث الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ومرت انفعالاته في كل ما جادت به الرومانطيكية السياسية،

هذه الرومانطيكية التي أغرقت مفهوم الحقيقة بلجج الظلام ، خلال وما بعد عصر نابليون ، (وحتى عصر اولئك الحمقى من ملوك وامراء عـــام ١٨٤٨) كذلك ركبت رأس جوستنيان لجاجة من طيش مفتون باستعادة كامل الامبراطورية.

لقد كان هذا الشرقي مركزاً دائماً ابصاره على روما النائية عنـه ، بدلاً من أن يركزها على عالمه الخاص به . وحتى قبل أن يرتقي العرش ، دخل في مفـاوضات وبابا روما الذي كان في ذلك الحين لا يزال تابعـاً لبطريرك المسيحية العظيم ، ولم يكن قد اعترف به بعد ، على وجه العموم ، حتى بوصفه الأول بـــين أنداده Primus inter Pares. وبناء على الحاح البابا واصراره أدخل جوستنيان رمز الطبيعة الثنائية (للمسيح – المترجم) على مجمع خالقيدونيا Chalcedon ، وقد جـاء عمله بمثابة خطوة أضاعت الى الأبد جميع البلدان التي يدين سكانها بالمذهب اليعقوبي (وهذا المذهب يقول بأن للمسيح طبيعةواحدة–المترجم)وكانت نتيجة أكسيوم Octium ، أن جذبت المسيحية خلال القرنين الأولين من عمرهـــا ، والاشتقاقيين الحاسمين في حياتها ، الى الغرب ، الى الديار الكلاسيكية ، حيث بقيت الطبقـــة الراقية المفكرة بمعزل عنها . ومن ثم انطلقت الروح المسيحية المبكرة من جديـد مع اليعاقبة والنساطرة،ولكن جوستنيان عطل هذا الانبعاث ، وكانت النتيجة في ميدان المسيحية الشرقي، أنه عندما ظهرت الحركة الاصلاحية في الوقت المناسب، فانها لم تظهر كحركة مطهرين Puritanism ،بل انما ظهر الدين الجديد،دين الاسلام، وفي اللحظة التي أصبح القانون الشرقي المألوف ناضجاً ليصبح دستوراً ، أقـــدم جوستنيان ، بالطريقة ذاتها، على اشتراع دستور لاتيني حكم عليه منذ مطلع حياته، أن يبقى في الشرق لاسبـــاب لغوية ، وفي الغرب لاسباب سياسية ، مجرد نتاج أدبي .

ان هذا النتاج ، بحد ذاته ،هو مطـــابق لقوانين دراكون وصولون ، اذ أنه خرج الى الوجود في فجر مرحلة متأخرة زمنـا ، وكان يحمل في أحشائه أغراض ومقاصد سياسية . أمـــا في الغرب ، حيث نجمت عن الوهم القائل باستمرار

الامبراطورية الرومانية ، معارك بليزاريوس ونارسس ، هذه المعارك التي لا معنى لهـــا اطلاقاً ، فلقد قام الفيزغوت والبورغوند والاستروغوت ، بجمع الشرائع اللاتينية (قرابة عام ٥٠٠ ب.م) للرومان المغاوبين على أمرهم ، وهكذا وجدت بيزنطة نفسها ملزمة باستخراج شرائع أصيلة في رومانيتها مقابل تلك . أما في الشرق ، فكان الشعب اليهودي آنذاك قد بلغ تشريعته المـائلة في التلمود شكلها النهائي ، وذلك حينما أمسى اشتراع شريعة لذاك العدد الغفير من النـاس الذين يخضعون لدستور الامبراطور ، شريعة مناسبة لشعب الامبراطور الخاص، الشعب المسيحي ، ضرورة ماسة وحاجة ملحة .

وذلك لان القانون الروماني Corpus Juris ، بما فيه من قلب للأمور راساً على عقب ، وبما يحتوي عليه من أخطاء فنية ، هو بالرغم من كل شيء ابداع عربي (أو بكلمة أخرى ديني) وذلك كما هو جلي واضح في النزعة المسيحية الى حشر الكثير في النصوص الاصلية ، وفي الحقيقة المائلة في كون الدساتير المتعلقة بالشرع الكنسي والتي كانت قد وضعت في نهاية التشاريـع الثيودوسية ، قد وضعت الآن في مطلعها ، وبصورة جد أوضح في ديباجات الكثير من القوانين . ومع هذا فان القانون الروماني لا يمثل البداية ، بل انما يمثل النهاية. فاللغة اللاتينية التي أمست منذ طويل زمن غير ذات قيمة ، أخذت الان تتلاشى وتغيب تماماً عن ميادين الحيـاة القانونية وقد دونت معها الانجازات على تلك الصورة الضالة المضللة (وحتى القرارات كتبت معظمها باللغة اليونانية) . لكن تاريخ القانون كان لا يزال يتابـع طريقه التي أشار اليها التشريـع السوري الروماني ، وقد بلغ في القرن الثامن مرحلة جادت بانجازات تعادل الانجازات التي عرفها قرننا الثامن عشر ، كما كلوغا Ecloga الامبراطور ليو مثلاً ، وقانون البطريرك المشترع الفارسي العظيم جوسوبوخت Jesubocht ، كما وشهد ذاك العصر ايضاً أعظم شخصية عرفها الفقه الاسلامي، ألا وهو ابو حنيفة .

- ٧ -

إن تاريخ القانون في الغرب يبدأ بداية مستقلة استقلالاً كامـلاً عن انجازات جوستنيان . ولقد كانت تلك الانجازات في ذاك الزمن ، تنـام في احضان نسيان كامل ، وكانت معدومة الاهمية انعداماً مطلقاً الى درجة أنه لم يكن ، والحق ، قد تبقى من عناصرها الاساسية ، سوى مخطوطة واحدة ، واعني بهـا الفتاوى ، مجموعة القوانين المدونة باللغة اليونانية ، هذه المجموعة التي شاءت لها صدفة (من حظ عاثر سيء) أن تكتشف في عام ١٠٥٠ وتُعرف .

إن مرحلة ما قبل الحضارة (الفاوستية – المترجم) ، هـذه المرحلة التي تبدأ قرابة عام ٥٠٠ بعد المسيح ، قد انجبت سلاسل من التشاريع العشائرية ، أعراف القبائل وعاداتها – تشاريع فيزغوتية واوستروغوتيـــة وبرغوندية وفرنكية ولومباردية – وهذه التشاريع تماثل التشاريع التي تمخضت عنها مرحلة مـــا قبل الحضارة العربية ، والتي لا تزال محفوظة لنا في سفر التثنية اليهودي ، وفي تاريخ الكهنوت الممثل الآن في السفر الثاني والثالث والرابع من أسفار موسى الخمسة . وكلتا المجموعتين تعنيان بقيم المغزى الرئيسي لوجود بدائي (بمطـــالب العائلة وهمومها) ، وكلتاهما تستخدمان قانونـــاً متمدناً استخداماً خشناً لكنه أريب ذكي ، فاليهود (ولا شك الفرس وغيرهم) كانوا يعالجون التشريع البابلي المتأخر زمنـاً ، بينما كان الجرمان يعالجون بعضاً من ذخائر قليلة مما خلفته رومـــا في حقل التشريع .

إن الحياة السياسية لربيع الحضارة الغوطية ، بما لها من قوانين فلاحين وقوانين اقطاع ، وتشاريع مدنية بسيطة ساذجة ، سرعان ما تفضي الى تطور مميز خاص يتناول ثلاثة فروع عظيمة من القانون ، فروع لا يزال كل منها متباعداً عن الآخر

حتى هذا اليوم إذ انه لم يقم في الغرب تاريخ قانون موحد ومقارن كي يسبر المغزى العميق لهذا التطور .

ولقد كان أشد هذه القوانين أهمية، وذلك نظراً للمصائر السياسية المترتبة عليه، هو القانون النورماندي الذي اقتبس من التشريع الفرنكي . فلقد اطرح هذا القانون جانباً ، بعد الغزو النورماندي لبريطانيا عام ١٠٦٦ ، القانون السكسوني الأهلي ، وأمسى منذ ذاك اليوم قانون الرجال العظام في بريطانيا قانونا لكافة الشعب ولقد طورته روحه الجرمانية النقية ، دون أية كارثة ، من قانون لنظام اقطاعي لا مثيل له في صرامته الاقطاعية الى تلك الانظمة الحالية التي أمست اليو القانون السائد في كل من كندا والهند واستراليا وافريقيا الجنوبية والولايات المتحدة الأميركية وحتى بغض النظر عن اتساع سلطانه ، فان هذا القانون يعتبر افضل الوسائل والمناهج التهذيبية في بلدان اوروبا الغربية . وقد جرى تطويره على صورة مغايرة لبقية القوانين الاخرى، اذ ان هذا التطوير لم يتم على أيدي الفقهاء النظريين. فلم يكن يسمح لدراسة القانون الروماني في اوكسفورد أن تلامس الممارسة ، كما وان طبقة النبلاء الأشد رفعة قد رفضته في ميرتون Merton عام ١٢٣٦ ونبذته بكل جلاء ووضوح . زد على ذلك أن هيئات القضاء ذاتها واظبت على تطوير المواد القانونية القديمة عامدة في ذلك الى الاستعانة بسوابق ابداعية، ولهذه القرارات العملية (التقارير) يعود الفضل كل الفضل في ايجاد قواعد كتب القانون ، ككتاب براكتون Bracton مثلاً . ومنذ ذاك الحين حتى اليوم ، حافظ نظام أساسي واحد على حياته ، وزودته قرارات المحاكم بدماء التقدمية والوجود ، وقام الى جانبه قانون عام يكمن دائماً ببهاء ونشاط وراء التشريع ، دون ان تستدعي الضرورة في أي يوم من الايام ، ممثلي الشعب الى بذل أي جهد ضخم لجمع القوانين في قانون عام واحد .

وبقي القانون القائم على التشاريع الجرمانية الرومانية المذكورة اعلاه ساري المفعول في الجنوب ، أما في جنوبي فرنسا فكانت السيادة للتشاريع الفيزغوطية

(هذه التشاريع المعروفة باسم القانون المكتوب Droit Écrit وذلك تبايناً منها والتشاريع الفرنكية للشمال والمعروفة باسم قانون العرف والعادة) ، وأمـــا في ايطاليا فلقد كانت الكلمة فيها للتشاريع اللومباردية (هذه التشاريع التي كانت أعظم كل التشاريع المذكورة ، وكانت مجرد تشاريع جرمانية تقريباً ، وبقيت سارية المفعول حتى خلال عصر النهضة) . ولقد أصبحت « بافيا » Pavia مركزاً لدراسات الفقه الجرماني ، وانتخب قرابة عـــام ١٠٧٠ القانون المعروف باسم Expositio ، وهذا الانجاز في ميدان القانون يعتبر الى حد بعيد أعظم الانجازات الفقهية في ذاك العصر ، وقد اعقب مباشرة هذا الانجـــاز القانون المعروف باسم قانون لومبارد . ومن ثم جـــاء قانون نابليون المدني ليضع حداً لتطور القانون في كامل الجنوب ، وليحل محله ، ولكن هذا القـانون أصبح بدوره في جميع البلدان اللاتينية ، وما وراء هذه البلدان ببعيد، قواعد انطلاق لانجازات ابداعية أخرى، ومن هنا يعتبر ، بعد القانون الانجليزي ، أشد تلك القوانين أهمية .

أما في المانيا فان تلك الحركةالتي انطلقتعلى ذاك الشكل من القوة والجبروت المـاثلين في القوانين القوطية العشائرية (المعروفـة بسخسن شبيجل عـــام ١٢٣٠ وشوبنشبيجل عـام ١٢٧٤) فانهـا بددت طاقاتها حتى العدم . وقد أخذت جمهرة من الحقوق المدنيـة والاقليمية الطفيفـة الزهيدة تتدفق الى الوجود ، حتى فجر السخط على الحقائق لإثارةرومانتيكيةسياسيةغير واقعيةفي نفوس الحالمينوالمتحمسين، وكان الأمبراطور مكسيميليان في عداد هؤلاء ، وحتى أمسى القانون نفسه هدف تهجم وهجوم شأنه في ذلك شأن الباقي من الأمور . وفي عـام ١٤٩٥ قـام مجلس نواب مدينـــة « ورمس » Worms ، باشتراع القـــانون المعروف باسم Kammer gericht sordnung ، ناهجاً في عمله نهجـــاً ايطالياً . وهنا لم تشهد الارض الالمانية « الأمبراطورية الرومانية المقدسة » فقط ، بل انمـا شهدت ايضاً « قانوناً رومانيا » بوصفه القانون الالماني العام . كما واستبدلت الاجراءات الالمانية القديمة باجراءات ايطالية ، واصبح من المترتب على القضاة أن يدرسوا قانونهم مـا وراء جبال الألب ، ولم يعودوا يكتسبون خبرتهم مما يحيط أو يكتنف الحياة من

أمور ومشاكل ، بل انما أصبحوا يكتسبونها من « فيلولوجيا » مهدمة للمنطق مهشمة لقواعده . وفي هذا البلد وحده (المانيا) نجد فيما بعد اولئك الايديولوجيين الذين أمسى القانون الروماني ، في نظرهم ، بمثابة تابوت العهد الذي يتوجب عليهم ان يدافعوا عنه ويذودوا عن حياضه ضد انتهاك الحقائق لحرماته .

فما هو، بربك ، ذاك الشيء الذي أمسى باسمه الرنان محطاً للعناية الفكرية لحفنة من الرجال الغوط ؟ لقد قام احد الالمان ، المدعو إرنريوس Irnerius قرابة عام ١١٠٠ ، وفي جامعة بولونيا Bologna ، وجعل من تلك المخطوطة الوحيدة ، والفريدة في نوعها ، مخطوطة مجموعة القوانين والفتاوى ، موضوعاً لاهوتياً صحيحاً في لاهوتيته . وقد نقل المنهاج اللومباردي الى النص الجديد الذي كان الناس يؤمنون بحقيقة ايمانهم بالكتاب المقدس وبارسطو، هذا الايمان الذي لم يكن ليأتيه الشك من خلف أو قدام .

إنه الحق! لكن الادراك الغوطي المرتبط بمحتوى الحياة الغوطية، كان عاجزاً حتى عن أن يخمن ، أو يحدس ، حدساً غامضاً ، بروح تلك النصوص ، وذلك لأن المبادىء المقررة فيها كانت مبادىء حياة متمدنة ، وحياة مدنية عظمى (Megalopolitan) . وهذه المدرسة من الشراح، وهي كالمدرسة اللاهوتية بصورة عامة ، كانت أسيرة لسحر مبدأ حقيقة الاشياء . ولما كان هؤلاء يؤمنون بأن ما هو أصيل وحقيقي ، وبان جوهر العالم ، لا يكمن داخل الأشياء ، بل انما يكمن في المبادىء الكونية ، لذلك زعم هؤلاء ، لا بل اكدوا ، أن القانون لا يكمن في العرف والعادة كما هو مبين في قانون لومباردا المحتقر المهان ، بل إنما يكمن في معالجات وتصورات تجريدية . ولقد كان اهتمامهم بالكتاب مجرد اهتمام ديالكتيكي، ولم يخطر لهم ابداً أن يطبقوا انجازاتهم على الحياة ولم تشق شروحهم وتفاسيرهم واجتهاداتهم المعادية لقانون لومباردا ، طريقها الى مدن عصر النهضة إلا ما بعد عام ١٣٠٠ ، وقد جاء دخولها حتى حينذاك هذه المدن متئداً بطيئاً .

ولقد قام فقهاء العصر الغوطي المتأخر زمناً ، وعلى رأسهم بارتولوس

(Bartolus) بصهر الشريعة والقانون الجرماني في قانون جامع واحد ، وقاموا بعملهم هذا مدفوعين بقصد عملي مؤكد العملية ، وأدخلوا في هذا القانون فكرات الواقعة ، وهنا نصادف ، كما نصادف في قانون دراكون والقوانين الامبراطورية ابتداء من ثيودوسيوس حتى جوستينيان ، واقعة حضارة على عتبة مرحلتها المتأخرة زمناً . ولقد كان إبداع بارتولوس هو الابداع الذي اصبح ساري المفعول في كل من اسبانيا والمانيا بوصفه « القانون الروماني » . وفي فرنسا وحدها عاد فقهاء العصر الباروكي بعد كوجاسيوس Cujacius ودونيللوس Donellus عن النص المدرسي الى النص البيزنطي .

غير أن بولونيا شهدت الى جانب انجازات ارنيريوس في التجريد ، حادثة لها محتوى آخر تماما وحاسم ايضاً ، وهذه الحادثة تتمثل بالقانون الكنسي المشهور ، قانون غراتشيان Gratian's Decretum والمدون قرابة عام ١١٤٠ . وهذا هو ما خلق علم القانون الروحي الغربي ، وذلك لأن جعل قانون الكنيسة الكاثوليكي القديم والمجوسي والمستند الى سر المعمودية المقدس ، هذا السر الذي هو سر عربي مبكر زمنا ، اقول ان جعل هذا القانون منهاجاً ، قد اعطى المسيحية الفاوستية الكاثوليكية الجديدة الشكل كل الشكل الذي تحتاج اليه للتعبير الشرعي عن وجودها الخاص الذي يعود الى السر الأولي ، سر المذبح ورجال الكهنوت المكرسين المرسومين . ويعتبر القانون الكنسي قد بلغ مرحلة الاكتمال بالقانون المعروف باسم Liber Exra والذي صدر عام ١٢٣٤ . وهكذا فان ما لم تستطع الأمبراطورية انجازه (واعني بهذا عجزها عن ايجاد قانون كنسي غربي عام من تلك الوفرة والفيض الهائلين من القوانين العشائرية) أنجزته البابوية . وقد برز الى الوجود ايضاً قانون خاص وكامل ، وذو حدود واجراءات ، وقد جرى اخراجه وفق منهاج المـاني ومن مواد قانونية كنسية ودنيوية تعود الى العصور الغوطية. وهذا القانون هو القانون المسمى بالقانون «الروماني» والذي سرعان ما سكب بعد بارتولوس في كل دراسة لنصوص جوستينيان ذاتها . ويرينا هذا القانون في ميدان الفقه ، كما في الميادين الاخرى ، ذاك الخلاف الهـائل في الرأي والملازم للطبيعة

الفاوستية والذي نجم عنه ذاك الصراع الجبار بين البـــابوية والامبراطورية . ان التمييز بين الحق والقانون ، هذا التمييز الذي لا وجود له اطلاقاً في العالم العربي ، كان امرا محتوماً في العالم الغربي . وهمـا (الحق والقانون المترجم) ليسا سوى تعبيرين من تعابـــير ارادة القوة المستهدفة السيطرة على اللانهـائي ، لكن الارادة الكامنة وراء التشاريـع «الدنيوية» انمـا تضرب جذورها في العادة وتقبض على أزمة أجيال المستقبل ، بينما تلك الارادة الكامنة وراء التشاريـع « الروحية » تتولد وتنشأ في اليقين الصوفي وتنطق بقانون خالد غير محدود بوقت أو زمان . ان هذه المعركة التي تدور بين خصمين متكافئين في القوى (البابوية والامبراطورية ـ المترجم) لم تنته أبداً بعد، وما نراه اليوم من تعارض بين قانوني الزواج من كنسي ومدني لخير دليل على ما ذكرت .

ومع الفجر الباروكي ، تبدأ الحيـــاة ، بعد أن اتخذت لها أشكالاً مدنية واقتصادية - نقدية ، بالمطالبة بقـــانون كذاك القانون الذي اتخذته دول المدن الكلاسيكية عقب عصر صولون ناظماً لهـــا . لقد أمسى القصد من وراء القانون الساري المفعول واضحاً الآن تام الوضوح .

ولكن يالهـا من تركة مشؤومة تلك التي ورثناها من الغوطية والتي ترى في « القانون الفطري داخلنا » على أنه منة وفضل لطبقة مثقفة ، ولم يستطع أحد أن ينجح في زعزعة تلك المنة وهذا الفضل .

واتجهت العقلانية الحضرية ، كما اتجه السفسطائيون والرواقيون من قبـل ، الى إشغال ذاتها « بقانون الطبيعة » وذلك منذ تأسيسها من قبل أولد ندورب Olden dorp وبودينوس Bodinus حتى تدميرها على يدي هيغل . وقـد ذاد كوك Coke[1] العظيم بنجاح عن حيـاض القانون الجرماني الذي كان آنذاك يطور ذاته ، ضد محاولات آل تيودور لادخال الفتاوى والاجتهادات الرومانية .

---

١ - اللورد ادورد كوك (١٦١٩ - ١٦٨٣) احد كبار المشرعين البريطان - المترجم

ولكن مناهج المجتهدين في القارة الاوروبية تطورت في اشكال رومانية وبلغت في تطورها هذا حتى قوانين الدولة في المانيا ومناهج النظام الغابر في فرنسا التي استند اليها قانون نابليون . ولذلك فـان كتاب بلاكستون المعروف باسم تعليقات على قوانين انجلترا (عـــام ١٧٦٥) هو القانون الجرماني الواحد النقي في جرمانيته ، وقد صدر هذا الكتاب عندما كانت الحضارة الفاوستية قد بلغت أعتاب مدنيتها .

– ٨ –

بهذا أبلغ قصدي ، وآخذ بالتحديق فيما حولي . انني أرى ثلاثـــة تواريخ – قانون ، ترتبط بمجرد عناصر من شكل كلامي ولغوي ، أحدهم مقتبس من الآخر ، وهذا الاقتباس جاء امـا طوعاً وامـــا قسرا ، لكنه لا يكشف أبداً للمستخدم الجديد طبيعة الكينونة الاجنبية الغريبة الكامنة وراءهـا (التواريخ الثلاثة – المترجم) ان تاريخين ، من هذه التواريخ الثلاثة ، هما كاملان أما الثالث فهو ذاك الذي ننتصب نحن بذواتنا داخله ، ونقف ايضاً في نقطة حاسمة حيث نباشر بدورنا العمل الانشائي العظيم الذي انجزته روما والاسلام قبلنا ، وانجزه كل منهما لنفسه وكل منهما في موسمه .

فما الذي كانه القانون «الروماني» بالنسبة الينا حتى الآن ؟ ومـا الذي أتلفه ؟ وماذا سيكونه بالنسبة الينا في المستقبل ؟

ان هناك لازمة أساسية (محركاً Motive) تتخلل كامل تاريخ قانوننا ، انها الصراع بين الكتاب والحياة .

فالكتاب الغربي (القانون – المترجم) ليس بنص سحري أو اوراكل Oracle ذي مفهوم مجوسي باطني ، بل انما هو قطعة من تاريخ محفوظ . انه ماضٍ مضغوط

يريد أن يصبح مستقبلاً بواسطتنا نحن معشر من نقرأه ، وحيث يعيش محتواه داخلنا من جديد . ان الانسان الفاوستي لا يستهدف كالانسان الكلاسيكي ، أن يبلغ بحياته كمالاً قائماً مستقلاً بذاته ، بل انما يستهدف متابعة حياة انبثقت قبله بزمن طويل ، وستقترب وتبلغ نهايتها بعده بزمان طويل .

ان القضية بالنسبة للانسان الغوطي ، وعلى قدر ما هداه تأمله في ذاته اليه ، لم تكن في نظره عما اذا كان من المتوجب عليه ان يبحث عن الروابط بين وجوده والتاريخ ، بل انما كانت القضية تتمثل في أي اتجاه عليه ان يبحث عنها . فهو قد استلزم ماضياً كي يجد في الحاضر مغزى وعمقاً . وكان الماضي الذي قدم نفسه اليه من الجانب الروحي يتمثل في اسرائيل الغابرة ، اما ذاك الماضي الذي عرض نفسه عليه من الجانب الدنيوي ، فقد تجسد في رومـا العتيقة حيث كان يرى آثارها وذخائرها تحيط به من كل جانب . فما كان يقدو ويحترم ، كان يقدر ويحترم لانه ناءٍ عتيق ، لا لكونه ضخماً عظيماً . ولو قدر لهؤلاء الرجال أن يعرفوا بمصر ، لكان بالكاد أن التفتوا الى روما ، ولكانت لغة حضارتنا قد تطورت تطوراً مغايراً لما سلكته من سياق تطور .

ولما كانت الحضارة (الفاوستية – المترجم) حضارة كتب وقراء ، لذلك « تقبلت » شعوبها النصوص الكلاسيكية على الصورة ذاتها التي « تقبل » وفقها الناس القانون الروماني في المانيا ، كما وأن تطويرها فيما بعد اتخذ لنفسه شكل تحرير ذات بطيء وغير راغب . « فتقبل » ارسطو ويوقليد والقانون الروماني ، يعني بالنسبة لهذه الحضارة (غيرمما يعنيه بالنسبة للشرق المجوسي) لمنه يعني لما كتشاف مركب جاهز لفكرنا باسرع وقت ، وقد نجم عن هذا الأمر ان جعل من نوع انسان بني بناءً تاريخياً ، عبداً للنظريات والاراء . ومن البدهي ان شعور الحياة الغربية عنه ، لم تلج ولم تستطع ان تلج فكره ، لكنها كانت عقبة في طريق تطوير شعوره الخاص بالحياة للغة مطلقة حرة خاصة بهذا الشعور .

والان فان الفكر القانوني قد أرغم على ان يربط ذاته بشيء ما ملموس ،

فيجب ان يكون هناك شيء ما قبل أن يستطيع استخلاص آرائه ونظرياته، فعليه أن يمتلك شيئاً ما يستخلص منه . وشاء الحظ العاثر للفقه الغربي أن يستخلص، قبل الاوان وعلى عجـــالة من أمره ، من المؤلفات اللاتينية . بدلاً من أن يجعل من العادات القوية الثابتة في الحيـــاة الاجتماعية والاقتصادية مقالعه ومحـاجره . فغدا المشرع الغربي عالمـــاً فلولوجياً ، واستبدلت الخبرة العملية بالحياة بالخبرة النظرية وذلك في الفصل والتنسيق المجردين للاراء والنظريات القانونية المرتكزة وعلى أسس مستقلة بذاتها .

ونتيجة لهذا الأمر فقدنا تماماً كل تماس مع الحقيقة القائلة بان القانون الخـاص يقصد من وراء اشتراعه أن يمثل الوجود الاجتماعي والاقتصادي لمرحلته .
وهذه الحقيقة لم يعها أكيداً قـــانون نابليون ولا قانون بروسيا كما ولم يعها ايضاً غروشيوس ولا مومسن .ونحن لا نلمس ، أو نكتشف في كل من التمرين في الحرفة القانونية ، أو في المؤلفات عنهـا ، أبسط تلميح ، أو أقل إشارة الى هذا المنبع (الأصيل) للقانون الساري المفعول .

ونتيجة لمـا ذكرت فاننا نمتلك اليوم قانوناً خاصاً يرتكز الى الأسس الظلالية للاقتصاد الكلاسيكي . ان المرارة الشديدة ، التي تضع في مطالع اقتصاد مدنيتنا ، أسم الرأسمالية كمعارض ، او نقيض للاشتراكية، يتدفق معظمها من الحقيقة القائلة بان الفقه النظري،والفكر المثقف بصورة عامة نظراً لتأثره بالفقه النظري،قد ربط كل تلك الاراء الهامة في الشخص والشيء والملكية مثلاً،بأحوال الحياة الكلاسيكية ونوازعها . ان الكتاب يضع نفسه ، بين الحقائق وبين ادراكها . والمتضلعون ، وأعني هنا المتضلعين في الكتاب ، يوزنون كل شيء بموازين هي كلاسيكية الجوهر . والرجل العامل فقط في الحياة ، والذي لم يدرب على المحاكمة ، يشعر بانه قد أسيء فهمه . فهو يرى التعارض القائم بين حيـاة الازمان وبين القوانين التي تطالعه ، فيطالب برؤوس اولئك ، الذين حبـاً منهم في تحقيق غايات خاصة كما يخيل اليه ، قاموا بايجاد هذا التعارض وترويجه .

ومرة أخرى يطالعنا هذا السؤال: مَن ومن أجل مَن وضع القانون الغربي؟ فلقد كان القاضي الروماني ملاكاً وضابطاً في الجيش ، وكان رجلاً خبيراً بالأمور الادارية والمالية ، وكانت خبرته هذه هي وحدها التي تؤهله للوظيفتين اللتين لا يمكن الفصل بينها ، ألا وهما وظيفة المجتهد في القانون وشارعه . وكان القاضي الروماني المتجول يطور قانونه للأجانب ، بوصفه قانوناً للمعاملة التجارية للمدنية الكلاسيكية العظمى والمتأخرة زمنا ، وكان يقوم بعمله هذا دون الاعتماد على أية خطة أو نازع أو حافز ، انما كان يستوحيه من القضايا التي تعرض أمامه وليس من أي شيء آخر .

لكن إرادة الديمومة الفاوستية تطالب بكتاب ، تطالب بشيء ما ثابت ومكين ، تطالب بمنهاج يفترض فيه أن يقدم سلفاً الاحكام في كل قضية ، وهذا الكتاب ، هو انجاز دراسة وعلم ، ويستلزم بالضرورة وجود طبقة من العلماء ، من الفقهاء والقضاة ،ويستلزم وجود دكاترة الجامعات والعائلات الالمانية العريقة في ميدان القانون ، وطبقة نبلاء « الروب » ، « Noblesse de robe » الفرنسية . فالقضاة الانكليز الذين بالكاد يتجاوز عددهم المئة ، انما يجري اختيارهم من طبقة المحامين العليا ، من طبقة « البارستيرز » Barristers ولكن مركزهم فعلاً يسمو فوق مركز أي عضو من اعضاء الحكومة .

ان طبقة العلماء ، هي طبقة غريبة عن العالم ، وهي تحتقر الخبرة التي لا تتأمل وتتولد داخل الفكر . ولهذا ينشب صراع محتوم بين « حال المعرفة » كما يريد أن يتقبلها العالم ، وبين العادة السارية للحياة العلمية . فمخطوطة ارنريوس الفقهية أصبحت وبقيت طيلة قرون من الزمن « العالم » الذي عاش فيه المشرعون . وحتى في انجلترا نفسها حيث لا توجد كليات حقوق (بالمعنى الاوروبي) فلقد سيطرت كلياً حرفة القانون على المزيد من النماء والتطور ، الى حد انه حتى في بريطانيا انحرف تطوير النظريات القانونية عن مجرى تطور الحياة العامة .

وهذا الذي سميناه حتى الآن بعلم القانون ، هو في الواقع واحد من شيئين ، فهو اما فيلولوجيا لغة القانون ، واما دراسة النظريات القانونية . وهذا العلم – علم

القانون ـ لا يزال اليوم العالم الوحيد الذي ما انفك يستنتج معنى الحياة ومفهومها من المبادىء « الخالدة في صحتها وصوابها » . ويقول سوم Sohm « ان الفقه الالماني المعاصر يمثل ، فعلاً والى حد كبير ، تركة خلفها لنـــا لاهوت القرون الوسطى » . ونحن حتى الآن لم نبدأ بجد عميق في تقدير مركز القيم الأساسية للحيـاة العملية ، فيما حولنا ، من نظرية القانون ونحن لا نعرف حتى ما هي هذه القيم .

وها هنا اذن عمل يتوجب على الفكر الالماني أن ينجزه في المستقبل . فمن الحياة العملية للحاضر ، يجب أن تطور اعمق مبادىء هذه الحياة ، وان يرتفع بها حتى تمسي نظريات أساسية في القانون . واذا مـا كنا قد خلفنا فنوننا العظمى وراءنا ، فان فقهنا العظيم لا يزال في رحم المستقبل . وذلك لأن انجازات القرن التاسع عشر ، مهما خـال هذا القرن في نفسه من ابداع ، كانت مجرد أعمـال تمهيدية . لقد حررنا ذاك القرن من كتاب جوستينيان ، ولكنه لم يحررنا من النظريات والاراء . ولم تعد للاجتهادات في القانون الروماني أية قيمة أو بال ، غير أن التلمذة وفق القالب باقية وموجودة . ان ما نحتاج اليه اليوم هو نوع آخر من الفقه ، نوع يحررنا من منهاجية هذه النظريات والمفـــاهيم . فعلى الاختصاص الفيلولوجي أن يخلي مكانه للاختصاص في حقلي الاجتماع والاقتصاد .

ان لمحة عابرة نمر بهـا على قانوني الجزاء والمدني الالمانيين ستجعل الموقف جلياً واضحاً . فهما منهاجان طوقـا بإكليل ضفر من قوانين ثانوية . وكان من المستحيل تجسيد مواد هذه القوانين الثانوية في قانون رئيسي . فتلك المواد التي يمكن ان تفهم فيها هي تركيب لغة ، بمصطلحات وتعابير المنهـــاج الكلاسيكي ، تعزل نفسها وتنفصل عن تلك التي يمكن ان تفهم بمصطلحات هذا المنهاج وتعابيره .

فكيف حدث عام ١٩٠٠ عندما طرحت قضية سرقة طاقة كهربائية ، أن قرر ، عقب مناقشة شاذة غريبة دارت حول مـــا اذا كان المسروق شيئاً مادياً جسمانيا ، أن هذه القضية يجب أن تعالج وفق قانون خاص بها وحدها ؟ ولماذا كان

من المستحيل دمج جوهر قانون براءة الاختراع في مجموع القانون المتعلق بالاشياء ؟ ولماذا عجز قانون حقوق الطبع والترجمة والنشر أن يميز مفهوماً بين الابداع الفكري بشكله القابل للتبليغ عنه ، أي بمخطوطته ، وبين الانتاج الموضوعي طباعة ؟ ولماذا ، تعارضاً وقانون الاشياء ، كان من المتوجب أن يميز بين الملكية الفنية والمادية بصورة تميز بين تملك الأصل وبين تملك حق اعادة اخراجه ؟ ولماذا يعاقب من يسرق قصاصة ورق ولا يعاقب من يختلس فكرة لمشروع عمل أو منهاجاً للادارة والتنظيم يطبع على تلك القصاصة ؟ ان الجواب على كل ما طرحته آنفاً من أسئلة يقول باننا لا نزال حتى هذا اليوم خاضعين لسيطرة النظرية الكلاسيكية في الشيء المادي . اننا نعيش خلافاً لهذه النظرية ، فخبرتنا الفطرية خاضعة لمفاهيم وظائفية ، كقوة العمل ،والاختراع ذهنيا وجسديا وفنيا ، وتنظيم الطاقات والقدرات والمواهب . وفي فيزيائنا (مع أن نظريتها متقدمة كما هي حالها ، غير أنها ليست سوى نسخة طبق الأصل عن نموذج حياتنا) فان فكرة الحجم لم يعد لها من وجود مبدئياً ، كما هي الحال في هذه اللحظة ، لحظة وجود الطاقة الكهربائية . ولماذا يقف قانوننا مشلول اليدين ، متهدماً ، أمام الحقائق الكبرى للاقتصاد الحديث ؟ انه يقف على هذه الحال ، لأنه لا يعرف في الاشخاص سوى أحجام .

فاذا كان الفقه الغربي قد تسلم كلمات غابرة ، فانه مع ذلك لا تزال اشد العناصر سطحية للمعاني القديمة ملتصقة بتلك الكلمات . فتماسك النص وتركيبه انما كشفا فقط عن الاستخدام المنطقي للكلمات ولم يكشفا عن الحياة التي تكمن وراءها . وليست هناك من أية ممارسة تستطيع أن توقظ الميتافيزيقا الصامتة للاراء الفقهية . وليس هناك من قانون في العالم يستطيع أن يجعل هذا العنصر الأخير والاعمق واضحاً جلياً ، وذلك لأنه ، ولأنه فقط غني عن البيان . فالجوهري من العناصر هو مقدر ضمنا في جميعها ، فحين التطبيق ، ليس فقط القانون ، بل انما هو ، وبصورة اولية ، العنصر الذي لا يمكن التعبير عنه ، الذي يكمن وراء

القانون ، هو ذاك الذي يفهمه الشعب ويستطيع أن يمارسه . فكل قانون ، الى الحد الذي يسمى من المستحيل المبالغة فيه ، هو قانون عرف وعادة. وليقم القانون بتحديد الكلمات ، لكن الحياة هي التي تفسرها .

واذا ما حاول عالم لغة قانون ، من أصل أجنبي ، ووفق منهاج أجنبي ، أن يقيد قانوناً أهليا خاصاً ، فان نظرياته ستبقى عبثاً وباطلاً ، وستبقى الحياة بكماء خرساء . وعندئذٍ لا يصبح القانون اداة بل عبثاً ، ولا تمشي الواقعة الى جانب تاريخ القانون بل انما تتجنبه وتسير بمنأى عنه .

وعلى هذه الحال ، فما تحتاج اليه مواد قانون مدنيتنا ، فانها تتفق فقط ، وذلك اذا ما اتفقت اطلاقاً ، وظاهر منهاج كتب القانون الكلاسيكي ، وهي بالنسبة الى فقهنا الذاتي والخاص ، والى فكرنا المثقف بصورة عامة ، لا تزال دون ما شكل ، وهي لهذا ليست بمتناول يدنا .

فهل الاشخاص والاشياء وفق مفهوم تشريعنا اليوم مفاهيم قانون على أية حال؟ كلا! ان مهمتهم فقط تنحصر في رسم الخط الفاصل، في التمييز الزيولوجي ، مثلاً ، بين الانسان وبقية الكائنات . ولكن الكينونة الميتافيزيقية الكلاسيكية كانت ، منذ القدم ، تلتصق بنظرية الشخص ، الحجم . فالتمييز بين الانسان والالوهية ، جوهر المدنية العظمى ، جوهر البطل والعبد ، وكون المادة والشكل والمثل الأعلى للبرود الفلسفي ، كانت كل هذه الأمور هي المقدمة المنطقية الغنية عن البيان، وهذه المقدمة قد اضمحلت بالنسبة الينا وتلاشت تماماً. فكلمة «ملكية» ترتبط داخل فكرنا بالتعريف الكلاسيكي السكوني ، ولذلك فهي تشوه وتزور في كل تطبيق لنا لها على اسلوب حياتنا الديناميكي . ونحن نترك تعاريف كهذه الى اولئك الاساتذة التجريديين الحجولين من العالم ، أساتذة علم الأخلاق والفقهاء والفلاسفة ، والى المناقشة غير النبيهة التي يقوم بها العقائديون السياسيون ، وهذا بالرغم من أن كامل فهم تاريخ الاقتصاد اليوم يرتكز الى هذه النظرية الميتافيزيقية الواحدة .

إذن يتوجب علينـــا أن نؤكد ، وبكل شدة وصراحة ، على أن القانون الكلاسيكي كان قانوناً للاحجام ، بينما أن قانوننا هو قانون للوظائف . ان الرومان قد خلقوا سكونية حقوقية ، وواجبنا أن نخلق ديناميكية حقوقية . فالاشخاص بالنسبة الينا ليسوا بأحجـام ، بل انهم وحدات من قوة وارادة ، والاشياء ليست بأحجام ايضاً ، انهـــا أهداف ووسائل وابداعات لهذه الوحدات . فـــالعلاقة الكلاسيكية بين الاحجام كانت علاقـة مراكزية ، لكن العلاقة بين القوى انمـا تدعى عملاً وفعلاً . فالعبد كان في نظر الروماني شيئاً ينتج اشياء جديدة ، وكاتب كشيشرون لا يمكن له أن يدرك « ملكية فكرية » ناهيك عن ملكية تنشأ عن تصور ذهني ، أو تتولد عن امكانات موهبة ، بينما أن الحـال تختلف عندنا تماماً عن تلك ، فالمنظم أو المخترع أو المؤسس هو قوة مولدة تعمل في قوى تنفيذية أخرى، وذلك بواسطة تحديد الاتجاه والهدف ووسائل أعمالها . وكلتا الملكيتين تنتميان الى الحياة الاقتصادية ، لا بوصفها مالكتين للاشياء ، بل انما بوصفها حاملتين للطاقات وناقلتين لها .

ان المستقبل سيطالب بان يبدل مكان كامل فكرنا في القانون ليتناسق وفيزيائنا ورياضياتنا الارقى . ان كامل حياتنـا الاجتماعية والاقتصادية والفنية - التقنية لتنتظر أن تفهم - وتفهم أخيراً - وفق هذا المفهوم . ونحن لفي حـاجة الى قرن أو أكثر من أرهف ما للفكر من ذكاء وأعمق مـا للذهن من أغوار كي نصل الى الهدف . والضروري ، الضروري هو نوع كامل من التدريب التمهيدي في الفقه . وهو يتطلب ما يلي :

١ - خبرة فورية شاملة وعملية في حياة الحاضر الاقتصادية

٢ - معرفة صحيحة بتاريخ القانون الغربي ، ومقارنة دائمة بين التطور الالماني والانجليزي « والروماني » .

٣ - معرفة بالفقه الكلاسيكي ، وليس بوصفه نموذجاً لمبادىء لها سريان مفعولها اليوم ، بل انمـا بوصفه مثالاً رائعـاً الكيف يستطيع القانون ان يتطور من حياة عصوره قوياً نقياً .

الفصل الخامس عشر

المدن والشعوب

– أ –

نفس المدنية

قرابة منتصف الدورة الالفية الثانية قبل المسيح كان هناك ، على بحر ايجيه ، عالمان يتعارضان اوضاعاً واحوالاً ، وكان اولهما يسير عامهاً حاملاً كبار آماله ، وسنان سكران مفتوناً بأعماله وآلامه يشق طريق نضوجه ميمماً بصمت شطر مستقبله ، وكان هذا العالم ، العالم المسيني Mycenaean ، اما ثانيهما فكان فرحاً طروباً ، انيقاً راضياً ، يستكين مختبئاً في كنوز حضارة عتيقة غابرة متأنقة رشيقة الخطى خفيفتها بعد أن خلفت جميع احمالها وقضاياها العظمى وراءها بعيداً بعيداً . وهذا العالم كان العالم المنواني Minoan الذي عرفته جزيرة كريت .

ونحن لا نستطيع أبداً أن نفهم هذه الظاهرة على حقيقتها ، والتي أخذت هذا اليوم تستأثر باهتمام الباحثين ، الا اذا أدركنا التعارض العميق الذي يفصل بين نفسي هذين العالمين . ولا شك أن انسان تلك الايام البعيدة كان يحس احساساً

عميقاً بذاك التعارض ، ولكنه كان بالكاد يعرفه أو يتعرف عليه .

انني أرى أمام ناظري وداعة مواطن تيرنس Tiryns ومسينا وخضوعه أمام روح الحياة في «كنسوس» التي لا تدرك ، وأرى احتقار كنسوس المؤدبة المهذبة للرؤساء الصغار التافهين وأتباعهم ، وأرى ايضاً شعوراً خفياً كتوماً من الاستعلاء تعتلج به صدور البرابرة المتعافين ، كشعور الجندي الالماني وهو يقف في حضرة أعيان روما الطاعنين في السن .

فكيف تيسر لنا أن نكون في مركز يمكننا من معرفة هذا ؟

هناك كثير من لحظات كهذه ، حيث استطاع خلالها انسانا حضارتين ان يتطلع كل واحد منهما الى وجه الآخر . فنحن نعرف اكثر من حضارة وسيطة واحدة Inter - Culture حيث كشفت فيها عن ذاتها بعض من اعظم نوازع النفس الانسانية وأعمقها مغزى .

(ونحن نستطيع أن نقول واثقين) بأنه كما كانت الحال بين كنسوس وميسنا، كذلك كانت الحال ايضاً بين بـلاط بيزنطه وبين رؤساء القبائل الالمانية ، الذين دخلوه ، على شاكلة اوتو الثاني ، واقترنوا منه ، فبدا عملهم هذا اعجوبة سافرة في نظر الفرسان و« الكونتات » Counts ، عملاً اجابت عليه مدنية خالصة مهذبة ، شاحبة الوجه ، كالحته بعض الشيء ، بذهول مزدر مشدوه بفجر ذاك العزم الخشن الفظ المتبدي فوق الاراضي الالمانية التي وضعها شفل Scheffel في كتابه اكهاردت Ekhardt .

وفي شارلمان ، يتبدى المزيج بين روحانية انسانية بدائية تقف على اعتاب يقظتها ، وبين ذهنية متأخرة زمناً ، جلياً واضحاً . وهناك خصائص معينة لحكمة قد تقودنا الى اطلاق لقب خليفة Caliph الفرنكة عليه ، ولكنه من الجانب الآخر لم يكن سوى رئيس قبيلة جرمانية ، وهذا المزيج بين الجانبين هو ما يعطي لشخصه رمزاً كالرمز نفسه المتجلي في شكل كنيسة القصر في مدينة آخن، هذه الكنيسة التي لم تعد مسجداً ولكنها لم تمس كتدرائية بعد. ان ما قبل الحضارة الغربية الجرمانية كانت اثناء ذلك تنطلق قدماً الى الأمام ، لكن انطلاقها كان

بطيئاً خفياً ومستتراً ، وذلك لأن تلك النورانية المفاجئة التي نطلق عليها اسماً هو في غير محله اطلاقاً ، اسم عصر الانبعاث الكرولنجي ، انما هي (النورانية) شعاع من بغداد .

ويتوجب علينا الا نتغاضى عن الحقيقة القائلة بان عصر شارل الاكبر ، كان حادثة سطح لا عمق لها او غور ، حادثة انتهت كما ينتهي كل ما هو عرضي أو طارىء ، انتهت دون ما عاقبة أو نتيجة . فبعد عام ٩٠٠ ، وبعد انحطاط جديد وعميق ، يبدأ شيء ما جديد ، وحقيقي في جدته ، شيء ما يمتلك تلك القوة المعبرة عن مصير وعمق يبشران ببقاء وديمومة . أما في عام ٨٠٠ فلقد كان نور شمس المدنية العربية يتسرب منتقلاً من المدن العالمية في الشرق الى أرياف الغرب. وحتى على هذا الشكل أيضاً انتشرت أضواء شمس الهيلينية فبلغت الاندوس .

إن ما يقوم الآن على تلال تيرنس ومسينا ، لهو بلاط ملكي Pfalz وقلعة ، وذو نموذج جرماني الجذور . وقصور جزيرة كريت ، التي لم تكن قلاع ملوك ، بل مبان دينية ضخمة لجمهرة من الكهنة والكاهنات ، كانت مجهزة بوسائل ترف المدن العظمى ، لا بل بوسائل ترف العصور الرومانية المتأخرة زمناً . وتناثرت على أقدام هذه التلال أعداد غفيرة من اكواخ الفلاحين ورقيق الاقطاع ، لكن الحفريات في جزيرة كريت (في غورنيا ، هاجيا وتريادا) وفي المدن والدارات Villas قد أظهرت أن متطلبات الحياة فيها كانت متطلبات حياة مدنية رفيعة راقية ، كما وان فن البناء أثبت انه فن يسند الى خبرة طويلة تستهدف اشباع أشد الأذواق اغراقاً في الترف ، وأرهفها في اختيار الأثاث والرياش ، وديكور الجدران ، وعليمة بالاضاءة ومجاري المياه والسلالم وغيرها من مثل هذه المشاكل والأمور .

ومخطط البيت في مسينا انما هو رمز للحياة دقيق وصارم ، بينما هو في كريت تعبير عن مذهب نفعي خالص . ولتقارن بين مزهريات كماريس Kamares والتصوير على الحائط بمعجون المرمر الناعم الملمس وبين كل شيء «مسيني» أصيل ،

انك لترى تلك انها جميعاً ، مظهراً وجوهراً ، نتاج فن صناعي حاذق لكنه فارغ ، لا يمت بأية صلة الى أي فن عظيم عميق المغزى غير متقن الصناعة لكنه يمثل رمزية قوية شديدة كتلك الرمزية التي عرفتهـــا مسينا والتي كانت تنمو وتنضج لتمسي اسلوباً هندسياً . وبكلمة اخرى فان ما كان في كريت فإنما كان يمثل ذوقـاً لا أسلوباً .

لقد كان يقطن في مسينا قوم اختاروا مواقع مساكنهم وفقـــاً لقيمة التربة وسهولة الدفاع ويسره ، بينما أن سكان العالم المنواني اختاروا أماكن سكناهم على ضوء مستلزمات الأعمال والتجارة وهذا يبدو جليـاً وواضحاً تماماً من أمر بلدة فيلاكوبي Philakopi في ميلوس Melos التي أنشئت خصيصاً لتجارة الصادرات في السبج (حجر زجاجي أسود) . ان القصر المسيني يمثل أملاً ، بينما أن القصر المنواني فهو يمثل شيئاً ما يتجه الى نهايته . ولكن هذه الحال كانت ذاتها في الغرب قرابة عام ٨٠٠ ، فهناك المزارع والمنازل الريفيـة الممتدة من نهر اللوار حتى نهر ابرو ، بينما كانت تقع الى الجنوب منها القلاع والدارات البربرية ـ المغربيـــة Moorish ومساجد قرطبة وغرناطة .

ومن المؤكد انه ليس من بنات الصدفة أن تنطبق ذروة هذا الترف المنواني على عصر الثورة المصرية العظمى وخاصة عصر الهكسوس (١٧٨٠ ـ ١٥٨٠ قبـــل المسيح) . فمن الجائز ايضاً أن يكون العمال المهرة المصريون قد فروا آنذاك الى الجزر التي كانت ترتع في بحبوحة من الأمن والسلام ، وأن يكون فرارهم قد حملهم حتى القلاع على البر الأصلي (للعالم المنواني) ، كما حدث في عصور تلت عندما فر علماء بيزنطة الى ايطاليا ، وذلك لأنه من المتعارف عليه أن الحضارة المنوانيـة هي جزء من الحضارة المصرية ، ولقد كان بامكاننا أن نتحقق من هذا الأمر على صورة أوسع لو لم تأت الرطوبة على ذاك الجزء من مخزون الفن المصري ، وأعني بهذا الجزء ، ذاك الذي أنجز في الدلتا الغربية ، والذي كان من الجائز أن يمسي الدليل الحاسم على مـــا ذكرت آنفاً . ونحن لا نعرف من الحضارة المصرية اكثر من تلك التي ازدهرت على تربة الجنوب الجافة ، ولكن قد اتفق الجميع منذ طويل أمد

وتأكدوا من أن مركز ثقل تطور الحضارة المصرية انما كان يقع في مكان آخر غير الجنوب .

وليس بامكاننا أن نخطط حداً دقيقاً بين الفن المنواني المتأخر زمناً، وبين الفن المسيني الفتي. فباستطاعتنا أن نلحظ في كل بقعة من بقاع العالم المصري ـ الكريتي هوى جد عصري لتلك الاشياء الغريبة والبدائية ، أما عصبة الملوك المتحاربين ، ملوك قلاع البر الأصلي ، فإنهم ، خلافاً لذلك ، كانوا يسرقون أو يشترون التحف الفنية الكريتية أينما وكيفما جاءتهم ويعجبون بها ويقلدونها. وحتى أسلوب الهجرات Migrations الذي كان قد افترض مرة وُقدر على أنه أسلوب جرماني أصيل ، إنما يستعير لغة شكله من الشرق .

لقد بنى أولئك قصورهم وقبورهم وزينوها مستخدمين في ذلك عمالاً مهرة من الأسرى او الذين أغرامهم الأجر . لذلك فإن « بيت الكنوز » ، قبر « أتريس » Atreus في مسينا ، مشابه تماماً لجدث تيودور في « رافينا » .

ومن جهة النظر هذه ، فان بيزنطة نفسها لمعجزة واعجوبة . فهنا في بيزنطة ، كان من المتوجب أن يفرزوا . بعناية ، طبقة عن طبقة . وفي عام ٣٢٦ عندما أخذ قسطنطين يعيد البناء على اطلال تلك المدينة العظمى التي دمرها سبتيموس سيفروس ، أبدع مدينة عالمية من النسق الكلاسيكي المتأخر زمناً ، ومن الدرجة الاولى ، وما كاد قسطنطين يبني هذه المدينة حتى أخذت تتدفق عليها أمواج الابولونية الهرمة من الغرب ، والمجوسية الفتية من الشرق .

وبعد هذا بزمن طويل ، وفي عام ١٠٩٦ ، غدت بيزنطة مدينة عالمية مجوسية متأخرة زمناً ، تجابه أيضاً في أواخر أيام خريفها ربيعاً تجسد صليبي جودفري بوالون Godfreiy of Bouillon الذين وصفتهم تلك السيدة الملكية الاديبة، آنا كومنينا Anna Comnena باحتقار وازدراء .

وقدفتنت هذه المدينة الغوط بوصفها الجانب الشرقي من الغرب الكلاسيكي، وسحرت بعد دورة ألفية من السنين، الروس ، لكونها الجانب الشمالي من العالم العربي . ويقف فاسيلي بلازني VasiliBlazheni (١٥٥٤) المذهل والمبشر في موسكو بما قبل الحضارة

الروسية » بين الاسلوبين » ، كما وقف قبل ألفي عام هيكل سليمان بين المدينة العالمية البابلية وبين المسيحية المبكرة زمناً .

- ٢ -

إن الانسان البدائي لهو جوّال رحال ، وكائن يتحسس وعيه اليقظ طريقه خلال الحياة قلقاً متبرماً ، وهو كله كون اصغر لا يخضع لعبودية المكان أو المسكن ، وحواسه مرهفة قلقة ، وفي حال من تنبه دائم لطرد عنصر ما من الطبيعة المعادية . ان تبدلاً عميقاً يبدأ اول ما يبدأ مع الزراعة ، لأن الزراعة هي شيء ما اصطناعي ليس للصياد أو الراعي أي تماس بها . إن ذاك الذي ينبش التربة ويحرثها لا يستهدف السلب والغنيمة ، بل انما يستهدف تغيير الطبيعة . فان تزرع لايعني أن تأخذ شيئاً ما، بل انما يعني ان تنتج شيئاً ما . ولكن الانسان نفسه يصبح ، بهذا العمل ، نبتة ، وأعني بهذه ، فلاحاً . وهو يضرب جذوره في التربة التي يعتني بها ويرعاها ، وتكتشف نفس الانسان نفساً في الريف وارتباطاً جديداً للكائن بالتربة ، وشعوراً جديداً يُعلن عن ذاته . وهنا تصبح الطبيعة المعادية صديقاً ، وتمسي الارض ، الأم الارض . فهناك شبه عميق قد تبدى وانتصب ، الشبه بين البذر والانجاب ، بين الحصاد والموت ، بين الطفل والبذرة . وهنا يعبر ورع جديد عن نفسه في مذاهب عبادة للأرض الخصبة التي تنمو جنباً الى جنب والانسان . ويتبدى لنا في كل مكان الشكل الرمزي للبيت الريفي ، كتعبير كامل لهذا الشعور بالحياة ، فهو في تنسيق غرفه وفي كل خط من خطوط شكله الخارجي انما ينبىء عن دماء سكانه .

إن مسكن الفلاح هو لرمز عظيم للاستقرار والاستيطان . فهو نفسه نبتة تضرب جذورها عميقاً عميقاً في « تربتها الخاصة » . إنه للمكية بأقدس ما لهذه الكلمة من معنى . فالأرواح اللطيفة الانيسة للموقد والباب وارضى البيت والمخدع هي ارواح استقرت وتوطدت فيه ، كاستقرار الانسان نفسه وتوطده .

إن هذه الحال ، هي شرط متقدم من شروط كل حضارة ، حيث تنمو هذه بدورها من الصقع الأم وتجدد وتمتن من أواصر الالفة بين الانسان والتربة . إن ما يمثله الكوخ في نظر الفلاح تمثله البلدة في نظر انسان الحضارة . وكما ان لكل منزل ارواحه الانيسة اللطيفة ، كذلك فان لكل بلدة إلهها الوصي الحارس أو قديسها . إن البلدة هي ايضاً كائن شبيه بالنبات ناء عن البداوة نأي الفلاحين عنها وعن الكوني الاصغر المجرد . لذلك فان تطور لغة شكل راقية هو مرتبط دائماً بالصقع ، ولا يستطيع الفن ولا الدين ان يبدل موضع نمائها ، ونحن لا نحتقر أو نحرر، انفسنا ايضاً من جذور هذه اللغة إلا عندما نعيش في المدن العملاقة المدنية. فالانسان بوصفه انساناً متمدناً ، بوصفه بدوياً رحالاً مدركاً ، هو ايضاً بكليته كوني اصغر دون ما منزل أو مسكن إطلاقاً ، وهو حر ذهنياً حرية الصياد والراعي حساً وشهوة .

إن المثل القائل Ubi bene , ibi patria ، هو مثل ثابت الصحة قبل الحضارة وبعدها . فقبيل ربيع الهجرات كان ذاك الذي يبحث في الجنوب عن موطن تعشش فيه حضارته المقبلة ، حنيناً جرمانياً ، حنيناً عذراوياً لكنه ناضج الامومة .

واليوم ، وفي ختام هذه الحضارة ، يطوف الذهن الفاقد الجذور ويجوب محوماً فوق كل الارياف والاصقاع وإمكانيات الفكر . ولكن بين هذه الحدود النهائية ، يقع الزمن الذي اعتبر فيه الانسان رقعة من الارض ، وحفنة من التراب شيئاً ما جديراً بان يموت المرء من اجله .

إنها لحقيقة حاسمة جازمة ، حقيقة لم يدركها الانسان حتى الآن ، ألا وهي

أن جميع الحضارات العظمى انما هي حضارات بلدة . فالانسان الارقى ، انسان الجيل الثاني ، هو حيوان مشدود الى البلدة بكل رباط . وهنا يتبدى لنا الميزان الحقيقي « لتاريخ العالم » هذا الميزان الذي يفرق بصورة جد دقيقة بين « تاريخ العالم » وتاريخ الانسان – فتاريخ العالم هو تاريخ الانسان المتمدن . فالشعوب والدول والسياسات والدين ، وجميع الفنون والعلوم انما ترتكز كلها الى ظاهرة أولية من ظاهرات الوجود الانساني ، ألا وهي البلدة .

ولما كان جميع مفكري الحضارات يعيشون في البلدة (وحتى ولو كان من الجائز أن يقطنوا جسدياً في الريف) فانهم لا يدركون اطلاقاً أي شيء غريب شاذ هي البلدة . ونحن كي نحس بهذا الامر ، يتوجب علينا ان نضع انفسنا دون ما تحفظ ، في مكان الانسان البدائي المذهول عجباً حينما يرى لأول مرة كتل الحجارة والاخشاب منضدة في الريف والاصقاع ، بشوارعها المسورة بالحجارة وساحاتها المرصوفة بالحجر – انه والحق لمسكن ذو شكل غريب ومكتظ بالناس على شكل عجيب .

ولكن الاعجوبة الحقيقية انما تتبدى في ولادة نفس البلدة ، انها لنفس جمهور من نوع جديد كل الجدة ، نفس ستبقى آخر أسسها مختفية عن انظارنا الى الابد ، نفس تبرعم فجأة وتفرخ من الروحانية العامة لحضارتها . وحالما تستيقظ هذه النفس تشكل لذاتها جسداً منظوراً . وتنشأ عن المجموعة الريفية الغشيمة من المزارع والاكواخ ، التي لكل منها تاريخها الخاص ، وحدة مجموع كامل . ومنذ ذاك الحين فصاعداً ، تصبح الكاتدرائية والقصر ومنظر البلدة نفسها ، وذلك بالاضافة الى كل منزل على حدة ، أقول تصبح وحدة تعبر تعبيراً موضوعياً عن لغة الشكل وتاريخ الاسلوب اللذين يرافقان الحضارة طيلة دورة حياتها ومجراها .

ومن البدهي ، أن ما يميز البلدة عن القرية ، ليس هو الحجم ، بل انما هو وجود نفس . ونحن لا نجد فقط في الاوضاع البدائية ، كتلك الاوضاع القائمة في افريقيا الوسطى ، بل نجد ايضاً في الاوضاع المتأخرة زمناً – كأوضاع الصين

والهند واوروبا واميركا الصناعيتين ، أقول نجد مستوطنات بالرغم من ضخامتها لا يجوز ان نسميها بالمدن . فهذه المستوطنات هي مراكز لأرياف وأصقـاع ، وهي لا تشكل باطناً عوالم داخل ذواتها . وليس لها نفس فجميع السكان البدائيين يعيشون كلياً كفلاحين وأبناء للأرض ، وليس « للمدنيـة » من وجود لديهم أمـا ذاك الذي ينشأ ويتطور من القرية فليس هو بالمدينة ، بل انما هو سوق ، وهو مجرد نقطة التقاء لمصالح الحياة الريفية. وهنا لا يمكن أن تقدم أية قائمة لوجود منفرد ، فمن الجائز أن يكون ساكن أحد الأسواق عاملاً ماهراً أو تاجرا لكنه يعيش ويفكر كفلاح . وعلينا أن نعود الى الوراء وأن نخمن تخميناً صحيحاً مـا الذي يعنيه عندمـا تنبثق من الحياة البدائية للقرية المصرية أو الصينية ، وهي نقطة صغيرة في رقعة واسعة فسيحة من الارض ، مدنية تشق طريقها الى الوجود . ومن الجائز جداً أن لا يميز هذه المدنية أي من المعالم الظاهرية ، لكنها ، روحانياً ، هي مكان يعتبر معه الريف ، منذ قيام المدينة فصاعداً، ويحس به ويختبر بوصفه ضاحية وبكونه شيئاً ما يختلف عن المدينة وتابعاً لها . ومنذ الآن فصاعداً توجد حياتان ، حياة الباطن وحياة الظاهر ، والفلاح يدرك هذا الأمر بالوضوح ذاته تمامـاً الذي يدركه ابن البلدة . فحداد القرية ، وحداد المدينة ، ومختـار القرية ، ورئيس البلدية ، يعيش كل واحد منهما في عالم يختلف عن عـالم الأخر . وانسان الريف ، وانسان المدينة هما جوهران مختلفان .

وهمـا ، بادىء ذي بدء ، يشعران بهذا الفرق ، الذي يسيطر عليهما عندئذ ، وأخيرا لا يعود الواحد منهما قادراً على فهم الآخر إطلاقاً . واليوم فان فلاحاً من مقاطعة براندنبورغ هو أوثق عروة بفلاح من سليسيا ، منه بساكن مدينة برلين . وابتداء من لحظة هذا التناغم الخاص ، تخر المدينة الى حيز الوجود، وهذا التناغم بوصفه شيئاً ما بدهياً ، يكمن وراء الوعي اليقظ لكل حضارة .

ان كل ربيع حضارة هو حتماً ربيع نموذج جديد لمدينة وتمدن . ويعصف بصدور أناس ما قبل الحضارة قلق عميق وهم يشاهدون هذه النماذج الجديدة التي لا يستطيعون أن يقيموا معها علاقة باطنية . وكثيراً مـا كان الجرمان على ضفاف

نهري الرين والدانوب ، كما وفي شتراسبورغ ، يلقون بعصا الترحال ويستقرون أمام أبواب المدن الرومانية التي بقيت خالية من سكانها . أما في جزيرة كريت ، فان الغزاة الفاتحين شيدوا القرى على أطلال المدن المحروقة كغورينيا وكنسوس. ولقد استوطنت فصائل رهبان ما قبل الحضارة، كالبندكتيين ،وبخاصة الكلانياك، Cluniacs والبريمونستريتنسيان Premonstratensians على أرض حرة شأنهم في ذلك شأن فرسان القرون الوسطى . وكان الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان هم أول من بدأ بالبناء داخل المدن الغوطية المبكرة زمناً . وهنا استيقظت لتوها نفس جديدة . ولكن ، حتى هنا ، لا تزال سويداء نضيرة ساذجة تلازم الهندسة المعمارية ، كما تلازم الفن الفرنسيسكاني ككل . انها لخوف غامض يملأ قلب الفرد في حضرة الجديد والنبيه والواعي الذي تقبلته الاغلبية آنذاك بتبلد . فانسان ذاك العصر نادراً ما تجرأ على التخلي عن شخصيته كفلاح .

وكان اليسوعيون هم أول من مارس حياة أبناء المدن الكبرى الأصلاء وعاشوها بكل نضوجها ويقظتها وتنبهها . وعندما كان الحاكم ينتقل في كل فصل ربيع من قصر الى قصر ، فإن انتقاله هذا ليشكل دلالة على أن الريف لا يزال المتفوق تفوقاً غير مشروط ولم يعترف بالمدينة بعد . وفي المملكة المصرية القديمة كانت ممفيس (الجدار الابيض) ، والكثيفة السكان مركزاً للادارة ، غير أن مقر الفراعنة كان يتبدل باستمرار شأنه في ذلك شأن بابل السومرية والامبراطورية الكارولانجية .

وكان الحكام الصينيون الاوائل من سلالة شو قد درجوا على عادة اقامة بلاطهم في لو - يانغ (وهي اليوم مدينة هو - نان - فو) وذلك ابتداء من عام ١٦٠٠ تقريباً ، ولكن هذا المركز لم يتطور ليصبح المقر الملكي الدائم إلا في عام ٧٧٠ وهذا التاريخ يتوافق وقرننا السادس عشر .

ولم يحدث أبداً أن عبر شعور الكوني المماثل للنبات بمحدودية الارض عن نفسه بمثل تلك القوة ، كما عبر عنها في الهندسة المعمارية للبلدان الحقيرة الصغيرة والمبكرة زمناً والتي كانت بالكاد تتألف من أكثر من بضعة طرق تحيط بالسوق أو من

قلعة أو مكان للعبادة . وإذا كان هناك من مكان يتجلى فيه كل أسلوب عظيم على أنه هو نفسه مماثل للنبات ، فانه ليتجلى صريحاً ها هنا . فالعمود الدوري والاهرام المصرية والكاتدرائية الغوطية ، كل هذه ، إنما تنمو من التربة وتتبدى جـادة ضخمة ذات مصير ، وتتجلى كينونة مجردة من الوعي اليقظ . كما وأن العمود الايوني ، ومباني المملكة الوسيطة والعمارات الباروكية تنتصب على الارض حرة واثقة تعي وتدرك بهدوء ذواتها .

وهنا وعندما تُفصل الكينونة عن زخم التربة وقوتها ، وتنقطع صلتها بالتربة حتى ولو بواسطة الرصيف الذي تدوسه الاقدام ، يزداد فتور همتها ضعفاً على ضعف ، ويزداد الحس والعقل قوة على قوة ، ويصبح الانسان ذهناً « حراً » كالبدوي الرحال الذي يمسي شبيهاً له ، ولكنه يكون أضيق أفقاً من البدوي وأشد برودة منه . فالذهن هو الشكل الحضري الخاص للوعي اليقظ المدرك . ورويداً رويداً « يتعقلن » [1] كل فن ودين وعلم ، ويصبح غريباً عن التربة ومستعصياً على ادراك الفلاح . فبالمدنية يبدأ طور حرج وخطر من أطوار الحياة. فجذور الكينونة الغارقة في القدم تجف وتيبس في كتل حجارة مدنها ، ويبدو الذهن الحر (وهذه كلمة مشؤومة خطيرة) كأنه اللهب يتصاعد بروعة وجلال في الهواء ثم يخبو وينطفىء على صورة يُرثى لها .

---

١ – يصبح عقلانياً .

-٣-

إن النفس الجديدة للمدنية تتحدث بلغة جديدة ، لغة سرعان مــا تصبــح مماثلة للغة الحضارة نفسها . أما التربة الطليقة المفتوحة بنوع انسانها القروي فانهــــا قد جُرحت ، ولم تعــد بقادرة على فهم تلك اللغة ، فهي مرتبكة بكماء حائرة . ان كل اسلوب تاريخ اصيل انما يستنزف طاقاته في المدن . انــ مصير المدنية وخبرة الانسان المتحضر فقط هما اللذان يتحدثان الى العين بمنطق الاشكال المنظورة . ان ابكر الاساليب الغوطية كان لا يزال نماء جادت به التربة ، نماء سيطر على المنزل الريفي بكل ما فيه من سكان وما له من محتويات . ولكن اسلوب عصر النهضة أينع وازدهر في مدنية عصر النهضة فقط ، كما وان الاسلوب البــاروكي أخصب واينع في المدينة الباروكية فقط ،ناهيك بالعمود الكورنثي أو الروكوكو،اللذين هما انجازان من انجازات المدن العظمى . وربما تسرب بهدوء وصمت بعض من هذه الاشياء الى الريف ، لكن الارض ذاتها لم تعد قادرة على الاتيان بأقل المجهودات الابداعية ، وكانت الكراهية الخرساء هي كل ما تستطيعه . ولقــد بقي الفلاح ومسكنه في كامل جوهريها غوطيين ، ومنزله لا يزال غوطياً حتى هــذا اليوم .. زد على ذلك ان الريف الهيليني احتفظ بالاسلوب الهندسي ، كما حافظت القرية المصرية على سحنة المملكة القديمة .

انــ تعبير مُحيا المدينة هو الذي يملك تاريخاً قبل كل شيء آخر . وحركات تعبير هذا المحيا هو فعلاً التاريخ الروحي للحضارة ذاتها تقريباً . ويصادفنا اول ما

يصادفنا المدن الاولية الصغيرة ، مدن الحضارة الغوطية وغيرها من الحضارات المبكرة زمناً ، هذه المدن التي تذيب معالمها في الريف ، في الصقع ، والتي لا تزال تتألف من مساكن فلاحين اصيلة تتجمهر تحت ظلال قلعة أو معبد ، وتمسي ، دون أن يطرأ عليها أي تبدل باطني ، مساكن بلدة ، وذلك فقط ، وفق المفهوم القائل بأنه قد أصبح لهذه المساكن مساكن مجاورة لها وتحيط بها بدلاً من الحقول والمروج .

فشعوب الحضارة المبكرة زمناً تحولت تدريجياً الى شعوب بلدة ، ووفقاً لهذا لم يعد هناك فقط اشكال بلدات صينية وهندية وأبولونية وفاوستية مميزة خاصة ، بل انما أصبح هناك علاوة على ذلك سيماءات بلدات أرمنية وسورية وايونية واترسكانية والمانية وفرنسية وانجليزية فهناك مدينة فيدياس ومدينة رمبراندت ومدينة لوثر . وهذه التسميات بالاضافة الى مجرد أسماء غرناطة والبندقية ونورينبورغ ، انما تستحضر فوراً صوراً معينة ومحدودة تماماً ، لان كل ما تنتجه الحضارة في ميادين الدين والفن والمعرفة ، انما يجري وجرى انتاجه في مدن كهذه فبينما كانت روح فرسان الحصون والاديرة الريفية لا تزال الروح التي استثارت الصليبين ، فان عصر الاصلاح الديني ، هو عصر حضري ، عصر ينتمي الى الطرق الضيقة والمساكن ذات السقوف الهرمية الواقفة الانحدار . والملاحم العظمى التي تتحدث وتتغنى بالدم ، انما تنتمي الى البلاط Pfalz والقلعة Burg ، أما الدراما حيث تمتحن الحياة المستيقظة نفسها ، فهي شعر مدينة ، كما وان الرواية العظمى ، حيث يقوم العقل المحرر بمعاينة كل شيء بشري ، فانها لتدل على المدينة العالمية . والشعر الغنائي الوحيد ، ما عدا الاغاني الشعبية الصادقة الاصالة ، هو غنائية المدينة فقط ، وما خلا فن الفلاح « الخالد » هناك فقط تصوير زيتي حضري وهندسة معمارية حضرية ذات تاريخ سريع العبور سريع النهاية .

وهذه السحنات الحجرية التي دمجت في عالم نورها انسانية المواطن نفسه ، وهي مثله ، أي أنها كلها عين وذهن ، فبأية لغة شكل واضحة مختلفة تتحدث ، وبالاختلافها عن لغة الصقع الساذجةالبطيئة النبرات ! وصورة ظل Silhouette المدينة العظمى ،

بسطوحها ومداخنها وبروجها وقبابها المرتسمة على الافق ! وأية لغة تذيعها لنا نظرة واحدة نلقي بهـــا على نورنبرغ او فلورنسا أو دمشق أو موسكو أو بكين أو بانارس ! ومـــا الذي نعرفه عن المدن الكلاسيكية ، نظراً الى أننـا لا نعرف الخطوط التي تعرضها هذه تحت ضيـاء ظهيرة الجنوب ، وتحت الغيوم في الصباح ، وتحت سماء ليل رصعته النجوم ؟ فأنمـاط الطرق المستقيمة أو الملتوية ، العريضة او الضيقة ، المساكن الخفيضة أو الشامخة ، الزاهية أو المعتمة ، والتي تدير لنـا في كل المدن الغربية واجهاتها ، وجوهها ، وتعطينا في المدن الشرقية ظهورهـا ، والجدار الابيض ، وسور المنزل باتجاه الطريق ، وروح الساحات والزوايا والطرق المسدودة والمنـــاظر والينابيـع والأنصاب التذكارية والكنائس او الهيا كل أو المساجد أو المسارح المدرجة ومحطـات سكك الحديد والاسواق وقاعات البلدة ! والضواحي ايضاً ، الضواحي المرصعة بالدارات المحاطة بالحدائق والجنائن ، أو المكتظة بخليط من بنايات موزعة الى شقق ، بنايات كأنها حشود نفايات وحصص . والأحياء من عصرية ، وحقيرة وبيئة ، وضواحي روما الكلاسيكية ، وضاحية فوبورغ سانت جرمان في باريس ، وبايي Baiae [1] الغـــابرة ومدينة نيس العصرية ، وصورة البلدة الصغيرة كبروجس Bruges [2] وروتنبورغ ، وذاك البحر من المساكن كمدن بابل ، وتنوشتتلان وروما ولندن ! كل هذه لهـــا تاريخ وهي تاريخ . ويكفي لحادثة سياسية عظمى أن تمر باحدى المدن كي تجعل من وجهها ذي قسمات مختلفة . فنابليون أعطى باريس البوبونية سحنة جديدة ، كما وأعطى بسمارك برلين الصغيرة الوجيهة طلعة جديدة ، لكن الريف ينتصب بعيداً عن كل مؤثر ، مرتاباً منفعلاً مهتاجاً .

وفي أقدم الأزمان كان منظر الصقع هو وحده الذي يسيطر على عين الانسان.

---

١ – منتجع كان يرتاده سكان روما القديمة

٢ – تقع في بلجيكا (المترجم)

فهو يعطي نفس الانسان شكلاً ويهتز متناغماً معهـــا . فالمشاعر وحفيف الغابات والاحراج تتناغم معاً، والمروج والروابي تنسق ذواتها لتتلاءم وهيئة الصقع ومجراه وحتى لبـــاسه . والقرية بسطوحها التلالية الصـامتة ، وبدخانها عند الغروب ، وبينابيعها وآبارها وسياجاتها النباتية تنـام معانقة الصقع وتذوب كلياً في أحضانه . ان البلدة الريفية تؤكد الريف ، وهي تكثيف لمنظر الريف وصورته . والمدينة المتـــأخرة زمناً هي أول من يتحدى الريف ويناقض الطبيعة بخطوط صورة ظلها وتنكر الطبيعة بكل مـا فيها . فهي تريد أن تكون شيئاً ما مختلفاً عن الطبيعة وأرقى منهـــا . فذرى تلك السقوف الهرمية ، وتلك القباب والمسلات والبروج الباروكية لا ترتبط ولا ترغب في ان تكون لهـا أية صلة باي شيءمن الطبيعة . وهنا تولد المدينة الجبارة العملاقة ، المدينة بوصفها عالماً ، والتي لا تجيز أي شيء ما عدا وجودهـا ، وتنطلق لتدمر ولتمحو صورة الريف . والبلدة التي كانت في احد الايام تلائم بتواضع بين ذاتها وبين الريف ، تصر الآن من ان تكون هي نفسها . ويمسي ما خارج الاسوار من غابات ومراع ومرو حدائق عامة ، وتصبح الجبال مشاهد ومطلات للسواح ، وينشأ داخل الاسوار تقليد للطبيعة ، فنوافير المياه تحل محل العيون والينابيع ، وتخلي المروج والغدران والبحيرات والادغـــال والايك أماكنها لاحواض الزهور وبرك السباحة والوشيع المعلم . فالسطوح ذات الروافد في القرية لا تزال شبيهة بالتلال ، وطرقهـــا تتماثل طبيعة والممرات الترابية بين الحقول . ولكن هنـا وفي المدينة فان الصورة تبدي أفاجيج عميقة تشق مسالكها بين مساكن حجرية عـالية ، مساكن يملأها غبـار ملون وضوضاء غريبة ، وبشر يسكنونها ، بشر لم يخطر أبداً على بال أي كائن من كائنات الطبيعة ، فهنـا تعتمد الازياء وحتى الوجوه الحجر نموذجاً لهـا ، ويلاءم بينها وبين صورته . وتنطلق في النهـار حركة مرور ذات الوان واصوات غريبة ، ويشع في الليل ضيـــاء جديد يكسف ضياء القمر ، ويقف الفلاح على الرصيف عـاجزاً عديم الحيلة لا يفهم شيئاً مما يشهد ويرى ولا يفهمه أي انسان ، والمدينة تتسامح معه وتحتمله لانه نموذج من حشوة نافعة ، ومورد الخبز اليومي لهذا العالم .

وعلى كل حال ، ونتيجة لما تقدم ، (وما يأتي هو أهم نقطة في الموضوع واكثفها جوهراً) ، أقول بأننا لا نستطيع اطلاقاً ان نفهم التاريخ السياسي والاقتصادي ، الا اذا ادركنا ان المدينة بانفصالها التدريجي عن الريف وتفليسها النهائي له ، انما هي الشكل البات الحاسم الذي ينطبق عليه ويتوافق معه ، بصورة عامة ، مجرى التاريخ الارقى ومفهومه . فتاريخ العالم هو تاريخ المدينة .

ومن البدهي أن أوضح مثال على ما ذكرت هو العالم الكلاسيكي حيث كان الشعور اليوقليدي بالوجود يربط فكرة المدينة بحاجتها الى اختزال الامتداد وتقليصه ، وبهذا كان يثبت ، بتأكيد والحاح متزايدين ، هوية الدولة بالحجم الحجري للمدينة الافرادية . ولكن ، وبعيداً تماماً عن هذا المثال ، نجد (سرعان ما نجد) في كل حضارة نموذج المدينة العاصمة . وهذه المدينة ، كما يشير اسمها بوضوح ، هي تلك المدينة التي تسيطر روحها ، بما لها من وسائل ومناهج ومقاصد وقرارات سياسية واقتصادية ، على الريف بسكانه ، هو مجرد اداة ومادة في نظر هذه الروح المهيمنة . والريف لا يفهم ما يجري ويدور من أحداث وأمور ، ولا يُسأل حتى عن رأيه في ذلك . فالاحزاب الكبرى والثورات والقيصريات والديموقراطيات والبرلمانات فيجميع بلدان الحضارات المتأخرة زمناً، هي الاشكال التي تتحدث من خلالها روح العاصمة ،الى الريف وتحدد له ما ينتظر منه ، وتطالبه بالتضحية بحياته اذا ما طلبت اليه مثل هذه التضحية . فالفوروم [١] الكلاسيكي والصحافة الغربية هي الاجهزة الفكرية للمدينة الحاكمة . وان أياً من سكان الريف الذي يفهم حقاً مغزى السياسة ومفهومها في مراحل زمنية كهذه ، ويشعر بذاته أنه على هذا المستوى ، فانه يهاجر الى المدينة ، ومن الجائز أن لا يهاجر بجسده ، ولكنه سيهاجر أكيداً بروحه اليها . زد على ذلك ان عاطفة الريف والرأي العام فيه يجري توجيهه بواسطة ما تصدر اليه المدينة من مطبوعات وخطب . فمصر هي مدينة طيبة، و Orbis Terrarum هي مدينة روما والاسلام

١ – ساحات الخطابة .

هو بغداد وفرنسا هي باريس . ان تاريخ كل حقبة ربيعية ينشأ في العديد من المراكز الصغيرة لمناطق متفرقة كثيرة فالاقاليم المصرية وشعوب هوميروس الاغريقية ، والمقاطعات الغوطية والمدن الحرة ، كل هذه كانت من صناع التاريخ منذ القديم . لكن السياسة تأخذ تدريجياً بحشد نفسها داخل عواصم جد قليلة ، ولا يحتفظ أي مكان او شيء آخر سوى تلك العواصم ، بغير بعض من ظل من الوجود السياسي . زد على ذلك أن نازع التفتيت في العالم الكلاسيكي الى جعل كل مدينة من مدنه دولة ، لم يستطع أن يصمد في وجه الحركات الرئيسية . فخلال الحرب البلوبونيزية لمنفردت أثينا واسبرطة بمعالجة القضايا السياسية ، ولم تكن بقية مدن إيجيه اكثر من مجرد مناطق نفوذ لهذه أو تلك ، ولم يعد لها سياسات خاصة بها . وأخيراً فـان فوروم مدينة روما وحده مسرح التاريخ الكلاسيكي . فقد يحارب قيصر في بلاد الغال ، وقد يجاهد قتلته في مقدونيا ويناضل انطونيو في مصر ، ولكن جميع ما يحدث في هذه الميادين ، وكل حادثة تشهدها انما تكتسب مفهومها ومغزاها من علاقتها بمدينة روما .

– ٤ –

إن كل تاريخ ذي أثر وفعال يبدأ بالطبقتين الاوليتين وهما طبقة النبلاء وطبقة الكهنوت ، حيث تشكل هاتان الطبقتان ذاتيهما وترتفع بها ، على هذا النحو ، فوق طبقة الفلاحين . وان التصادم بين طبقة النبلاء في شقيها الارقى ومـا دونه ، بين الملك والسيد الاقطاعي ، بين السلطة الزمنية وبين السلطة الروحية ، هو الشكل الأساسي لجميع السياسات البدائية أهوميروسية كانت أم صينية أم غوطية، وتبقى هذه القاعدة سارية المفعول حتى تطل المدينة بنائبها (نائب في مجلس الأمة)

وتخر بطبقة ثالثة ، وهنا يبدل التاريخ اسلوبه . ولكن كامل معنى التاريخ يلتصق بهذه الطبقات وحدها وبوعيها الطبقي . أما القرية فانها تقف خارج دائرة تاريخ العالم ، وكل تطور ، ابتداء من الحروب الطروادية وانتهاء بحروب مثرا[1]، ومن الاباطرة السكسونيين حتى الحرب العالمية (الاولى - المترجم) انما يمر بهذه النقاط الصغيرة المنتشرة فوق الاصقاع يدمرها حيناً ويستنزف دماءها احيانا ، لكنه لا يلامس ابداً باطنها اقل ملابسة .

إن الفلاح لانسان خالد مستقل عن كل حضارة تخفي ذاتها داخل المدن ، وهو يتقدم الحضارة زمناً ويعمر أطول مما تعمر ، وهو مخلوق أخرس يتوالد جيلاً فجيلاً وقد ارتبط بالتربة ونداءاتها واستعداداتها ، انه روح غامضة وفهم جاف فطين أريب يلتصق بالأمور العملية ، وأصل وينبوع دم دائم التدفق يصنع تاريخ العالم داخل المدن .

ويتقبل الفلاح كل ما تحمل به الحضارة وتصوره في اشكال الدولة من اقتصاد وأزياء ووسائل ايمان وأدوات ومعرفة وفن ، أقول يتقبل كل هذا بارتياب وتردد، بالرغم من أنه في النهاية قد يقبل بهذه الاشياء ، غير أنه لا يتبدل أبداً نوعاً بواسطتها .

وهكذا فان فلاح أوروبا الغربية تقبل ظاهراً جميع عقائد المجامع ابتداءً من مجمع لاتيران العظيم حتى مجمع ترنت ، وجاء تقبله هذا لها بالطريقة ذاتها التي تقبل بها ثمرات الهندسة الميكانيكية والثورة الفرنسية، لكنه مع هذا يبقى ما كانه وما قد كانه في عصر شارلمان .

وان تدين الفلاح وورعه الحاليين لها أقدم من المسيحية زمناً ، وآلهته لأقدم من أي اله في اي دين أرقى . وأنت إذا ما أزحت عن منكبيه ضغط المدن الكبرى ، فعندئذٍ سيعود الى الطبيعة وحالها دون أن يشعر بأنه قد فقد أي شيء بعودته هذه . زد على ذلك أن اخلاقيته الحقيقية ومتيافيزيقاه الصحيحة اللتين لم

---

[1] - مثرا ، اله الشمس عند الفرس .

يفكر أي عالم حتى هذا اليوم انها جديرتان بالاكتشاف ، إنما تقعان خارج نطاق كل تاريخ ديني وروحي ، وليس لها فعلاً أي تاريخ اطلاقاً .

إن المدينة هي ذهن ، وأما المدينة العالمية العظمى فهي ذهن «حر» . وتبدأ الطبقة المفكرة ، طبقة سكان المدينة ، الطبقة البرجوازية ، من خلال مقاومتها لطاقات الدم والتقاليد «الاقطاعية» بوعي وجودها الخاص المنفصل .

وهذه الطبقة تقلب العروش وتحد من الحقوق القديمة باسم العقل وباسم «الشعب» قبل كل شيء ، هذا الشعب الذي يعني منذ ذاك الحين فصاعداً سكان المدينة وحدهم فقط .

وما الديمقراطية سوى الشكل السياسي لنظرة ابن المدينة الى العالم ، هذه النظرة التي يطالب الفلاحون بأن تكون نظرتهم ايضا . زد على ذلك ان الذهن المتحضر يصلح الأديان العظمى ، أديان ربيع الحضارة ، ويضع الى جانب الدين القديم ، دين النبلاء والكهنة . الدين الجديد ، دين الطبقة الثالثة ، وأعني بهذا العلم الليبرالي .. وهنا تتولى المدينة أزمة قيادة التاريخ والسيطرة عليه ، وذلك بواسطة استبدالها القيم البدائية للارض التي لا يمكن ابداً الفصل بينها وبين حياة القروي وفكره ، بفكرة النقود المطلقة في سلطانها بوصفها مميزة ومختلفة عن السلع ، فالكلمة الريفية الغارقة في القدم والمرادفة لكلمة تبادل السلع ، هي كلمة المقايضة . وحتى حينما كانت تتناول عملية التبادل ، مبادلة سلعة ما بمعدن ثمين فان الفكرة الكامنة وراء هذه العملية لم تصبح بعد فكرة نقدية (نقودية) وأعني بهذا انها لا تشتمل على تجريد الاشياء من القيمة وتحديد القيمة بكميات معدنية أو خيالية يقصد بها قياس الاشياء بوصفها «سلعاً» . فبعثات القوافل ورحلات الفيكنغ كانت تجري في ربيع الحضارة بين مستوطنات ريفية وكانت تعني المقايضة أو الاسلوب ، بينما أمست هذه الرحلات والقوافل في المرحلة المتأخرة زمناً تتنقل بين المدن وتستهدف النقود . وهذا هو الفرق بين النورمان ما قبل الحروب الصليبية وبين مدن الهنسا وأهل البندقية ما بعدها ، كما وهو الفرق ايضاً بين جوابي البحار

في العصور المسينية وبين اولئك النـــاس الذين عرفتهم حقبة الاستعمار فيما بعد في اليونان . ان المدينة لا تعني فقط أنها ذهن بل تعني أنها نقود أيضاً .

وسرعان مـا تطل حقبة يبلغ خلالها تطور المدينة ذاك المركز من القوة بحيث لا يعود فيه مضطر للدفاع عن نفسه ضد الريف والفروسية ، بل تمسي حـاله على العكس من ذلك تماماً ، اذ أنه يغدو طغيانـاً يخوض ضده الريف وأنظمة مجتمعه الأساسية غمار معركة دفاعية لا رجاء فيها أو أمل ، وهنا نرى الريف يحارب المدينة في ميادين ثلاثة ، فهو في الميدان الروحي يناضل ضد القومية، وفي الميدان السياسي يقاتل الديمقراطية ، وفي الميدان الاقتصادي يجاهد النقود .

وقد أمسى الآن ، وفي هذه المرحلة ، عدد المدن التي تعتبر بحق ذات سيطرة ونفوذ تاريخيين جد قليل . وبهذا نشأ ، فرق جد عميق، وهو فرق روحي قبل كل شيء آخر ، فرق بين المدينة العظمى وبين المدينـــة الصغيرة أي البلدة . وهذه الأخيرة التي تسمى بالبلدة الريفية ، ولتسميتها هذه مغزى جد عميق، كانت جزءاً من ريف لم يعد في حـال من تكافؤ . والواقع أن الفرق لم يتقلص بين ابن البلدة والقروي في بلدان كهذه ، بل انمـــا أصبح هذا الفرق زهيداً لا يؤبه به اذا ما قورن بينه وبين الفرق الجديد بين هذين الانسانين وبين المدينة العظمى . فدهاء الريف الماكر وذكاء المدينة العظمى هما شكلان للوعي اليقظ ، ومن النادر امكان قيام فهم مشترك بينهما . وهنا يبدو ثانية وبوضوح أن العبرة ليست في عدد السكان بل انما هي في الروح .

وفضلاً عن ذلك ، فـــانه لمن الواضح أن هناك آثاراً من زوايا في جميع المدن العظمى لا تزال قـائمة حيث كان يعيش فيها جنس بشري من النوع الريفي تقريباً ويمـارسون حياتهم كأنهم يعيشون في الريف ، وتبدو العلاقة التي كانت تربط بين الناس الذين كانوا يسكنون على جانبي الطريق مماثلة تقريباً للعلاقة القائمة بين قريتين . والحق ، أن هناك اهراماً متصاعداً من المواطنية يتناقص عدداً ويتزايد اتساعاً في مجال نظره ، ويتدرج من عناصر شبه ريفية تدرجاً تزداد دائمـاً معه درجاته ضيقاً

فتصبح متــألفة من عدد جد قليل من سكان المدن الاصلاء الذين يتربعون على قمته ويحسون أنهم في مواطنهم وبين أهليهم وذويهم حيثما يشعرون برضـــاء افتراضاتهم الروحية وشبعها .

وبهذا يصبح تصور النقود تصوراً تجريديـاً كاملاً . فلا تعود النقود تسهل فهم المعاملة الاقتصادية وتخدمه ، بل انمـا تخضع تبادل السلع لتقييمها الخاص . وهي لا تعود تقيم الاشياء معادلة بينها ، بل انما تقيمها بالنسبة الى ذاتها (النقود) . زد على ذلك أن علاقتها بالتربة ، وبانسان التربة ، قد تلاشت واختفت تمامـــاً حتى ذاك الحد الذي أصبح معه الفكر الاقتصادي للمدن القيادية ، للاسواق المالية ، يتجاهلها لا بل يجهلها ويرفض الاعتراف بهـا . فالنقود قد أصبحت الآن قوة ، وعلاوة على ذلك قوة ذهنية مظهراً وجوهراً ، قوة لا تفهم الا بواسطة المعدن الذي تستخدمه، قوة تكمن حقيقتها في الوعي اليقظ للطبقة العليـــا من سكان ينشطون اقتصادياً ، قوة تجعل اولئك النـــاس الذين يهتمون بأمرها ، يعتمدون عليها اعتماد الفلاح على الارض ، وكما انـ هناك فكراً رياضياً وآخر قانونيا ، كذلك فان هناك ايضاً فكراً نقودياً .

ولكن الارض هي شيء واقعي وطبيعي ، أما النقود فهي شيء مجرد معنوي واصطناعي ، انهـــا مجرد « مرتبة » « كالفضيلة » في مفهوم مخيلة عصر التنوير . ولذلك فان كل اقتصاد أولي لمـا قبل التمدن هو أسير القوى الكونية اذ انه يعتمد على التربة والطقس ونوع الانسان ، بينما أن النقود ، بوصفها الشكل المجرد للمعاملة الاقتصادية داخل الوعي اليقظ، لا تزيد الواقعة من محدوديتها داخل الدائرة المحتملة اكثر من محدودية كميات العالم الرياضي والمنطقي . وكما أنه ليست هناك أية نظرة الى الحقائق تستطيع ان تمنعنا من انشاء أي عدد نريده من الهندسات اللااقليدية ، كذلك فانه لا يوجد أي اعتراض فطري وملازم في « اقتصادات » المدن العظمى المتطورة ، يحول بيننا وبين زيادة عدد النقود وانواعها ، أو التفكير ، مثلا ، بأبعاد نقودية أخرى Dimensions . وهذا الأمر لا يمت بـأية صلة بامكانية نيل الذهب

والانتفاع به ، أو باية قيمة واقعية اطلاقاً. وليس هناك من قياس ولا أي نوع من السلع بحيث نستطيع بواسطتها أن نقارن قيمة الوزنة (وزنة من ذهب او فضة) في الحروب الفارسية بقيمتها من أسلاب بومبـاي المصرية . لقد أصبحت النقود ، بالنسبة الى الانسان ، كأنهـا حيوان اقتصادي ، وأمست شكلاً لنشاط الوعي اليقظ ، ولم يعد لها أية جذور في تربة الكينونة .

وهذا هو قاعدة قوتها الهـائلة المريعة وأساسها ودستور سلطانها على فاتحة كل مدينة ، هذا السلطان الذي يمثل دائمـاً دكتاتورية النقود المطلقة ، بالرغم من أنه يتخذ اشكالاً مختلفة في الحضارات المختلفة . ولكن هذا هو ايضاً سبب افتقارها الى الصلابة والتماسك والثبات ، وهو الذي يدفع بهـا أخيراً الى فقدانهـا لسلطانها ومعناها ، حيث تختفي في النهـاية ، كما حدث في أيام ديولكتسيان ، وتغيب عن فكر المدينة في دورها الختامي ، وتعود قيم التربة الأولية لتحل محلها من جديد .

وأخيراً يطل الرمز الهائل المريع للعقل المحرر تحريراً كاملاً ، وتتبدى أشرعة سفينته في الافق ، انه المدينة العالمية ، المركز الذي ينتهي فيه مجرى تاريخ العـالم ويصفي نفسه بنفسه. وتطالعنا في كل مدينة أماكن عملاقة جبارة لا يتجاوز عددها عدد اصابع اليد الواحدة ، فتقدم هذه على حرمان كامل الارض الأم من حقوقها وتبخس قيمة حضارتها الخـاصة بهـا بتسميتها بذاك الأسم المهين « الاقاليم » لقد أصبح الآن كل شيء ، مهما كان حجمه أو نوعه ، أأرضاً كان أم بلدة أم مدينة ، « اقليماً » ما عدا هاتين النقطتين أو الثلاث. ولم يعد هناك من نبيل أو برجوازي، من حر أو عبد ، من هيليني أو بربري ، من مؤمن أو كافر ، بل انمـا هناك فقط سكان المدن العالمية Cosmopolitans وسكان الاقاليم . وكل ما هناك من تباين آخر ، انما يذوي ويشحب لونه أمام ذاك التباين (المذكور آنفا) والذي يسيطر على كل الحادثات وعادات الحياة والنظرات الى العالم .

إن أقدم المدن العالمية هي بابل وطيبة المملكة الجديدة ، أمـا عالم كريت المنوائي ، فمع كل ما عرفه من سناء وأبهة وجلال ، فانمـا ينتمي الى « الأقاليم » المصرية . امـا في العالم الكلاسيكي فجاءت الاسكندرية لتكون أول مثال على

المدن العالمية ، وقد استطاعت هذه المدينة أن تهوي بضربة واحدة ببلاد اليونان الى مستوى الاقليم ، ولم تستطع حتى روما ولا حتى قرطجنة التي استتب لها الأمر من جديد ، ولا حتى بيزنطة أن تخضع الاسكندرية أو تكشف ضياءها .

وفي الهند كانت المدينتان العملاقتان اوجينا Ujjaina وكانوج Kanauj وخاصة مدينة باتاليوترا Pataliputra ذائعة الصيت حتى في الصين وجزيرة جاوى ، وليس هناك من انسان لا يعرف بالمركز الاسطوري الذي كانت تحتله بغداد في الشرق وغرناطة في الغرب . أما في العالم المكسيكي فإن مدينة اوكسمال Uxmal (أسست عام ٩٥٠) كانت على ما يبدو أول مدينة عالمية في دولة المايا ، غير أن هذه المدينة هوت الى مستوى الأقاليم عندما برزت المدينتان العالميتان التولتكيتان Toltec ،مدينتا تزكوكو Tezcuco وتنوشتتلان Tenochtitlan، الى الوجود .

وعلينا ألا ننسى أن كلمة إقليم ظهرت أول ما ظهرت كتسمية دستورية أطلقها الرومان على جزيرة صقلية .والحق ان اخضاع صقلية لهو أول مثال يشير الى هبوط حضارة صقع كانت فيما مضى رفيعة الشأن متفوقة الى ذاك الحد الذي اصبحت معه مجرد شيء أو مادة فقط . أما سيراكوس ، وهي أول مدينة عالمية في العالم الكلاسيكي ، فانها كانت في أوج ازدهارها عندما كانت روما لا تزال مدينة ريفية ، لكنها أمست فيما بعد أمام روما مدينة ريفية .

والى هذا ايضاً آلت حال مدريد الهبسبورجية وروما البابوية، هاتين المدينتين اللتين احتلتا مركز القيادة في اوروبا في القرن السابع عشر ،لكن ما كاد القرن الثامن عشر يطل على القارة الاوروبية حتى هبطت بهما باريس ولندن الى مستوى الأقليم . زد على ذلك أن ارتفاع مدينة نيويورك خلال الحرب الأهلية (١٨٦١- ١٨٦٥) الى مصاف المدن العالمية قد يبرهن على أنه أشد الحادثات اخصاباً التي حملت بها أحشاء القرن التاسع عشر .

- ٥ -

ان تمثال الحجر الهائل الحجم ، أي المدينة العالمية العظمى ، ينتصب عند نهاية مجرى حياة كل حضارة عظيمة . فالانسان الحضاري الذي صنعته وشكلته الارض، قد أمسى في قبضة انجازه الخاص وغدا ملكاً لهذا الانجاز ، ملكاً للمدينة . وقد جعل منه مخلوقاً لها وعضوها المنفذ وأمسى أخيراً ضحيتها . ان هذه الكتلة الحجرية لهي المدينة المستبدة والمطلقة السلطان . وصورتها كما تبدو بكل ما لها من جمال فخم عظيم في عالم نور العين البشرية ، انما تحتوي على كامل رمزية الموت النبيلة للشيء الحتمي في الصير . فالحجر الذي كانت تتخلله الروح ، حجر المباني الغوطية ، قد أصبح بعد دورة ألفية من السنين مر بها تطور أسلوبه ، مادة لا روح لها لهذه الصحراء الشيطانية من الحجر .

ان هذه المدن الختامية هي بكاملها ذهن أو عقل، ومساكنها لم تعد كما كانت تلك المساكن لايونية والباروكية ، أي اشتقاقات من مساكن بيوت الفلاحين القديمة ، وذلك حينما كانت الحضارة تعيش ربيعها في التاريخ . فهذه المساكن لم تعد بصورة عامة مساكن تيسر أي نوع من موطىء قدم لفستا وجانوس ، للاريس وبنيتس Penates [١] ، بل انما أصبحت مجرد عقارات لم يصممها الدم ، بل صممتها متطلبات العيش ، ولم يخططها الشعور ، بل انما خططتها روح المشروع التجاري . وطالما يبقى للموقد (المنزلي) معنى من تقى وورع، بوصفه مركزاً واقعياً وأصيلاً

---

١ - فستا إلهة الموقد جانوس إله الأبواب والبوابات ، وهو لذلك إله كل بداية ، لاريس وبنيتس ، الهة التدبير المنزلي .

(المترجم)

تلتف حوله العائلة ، فعندئذ يكون ضياء العلاقة القديمة بالتربة لم يخبُ تماماً . ولكن عندما يتبع أيضاً الموقد ما تبقى فيغيب في غياهب النسيان ، وعندما يعيش المستأجرون وشاغلو الأسرة في ذاك الخضم من المنازل ، وجوداً زائفاً مشردا فيتنقلون من ملجأ الى ملجأ كأنهم الصيادون وقسس الأزمنة السالفة ، فعندئذ يكون البدوي الرحال المفكر Intellectual قد بلغ آخر مراحل تطوره. إن هذه المدينة هي عالم ، لا بل إنها العالم ، وهي لها معنى ككل بوصفها فقط مكاناً لسكنى البشر ، أما مساكنها فهي مجرد حجارة جرى تجميع المدينة منها .

والآن تبدأ المدن الناضجة القديمة ، بنواة الكاتدرائية الغوطية ودور بلدياتها ، وطرقها ذات السقوف الهرمية الشامخة ، وبجدرانها العتيقة وابراجها وبواباتها المحاطة بناءٍ من مساكن الطبقة الثرية ، مساكن وقصور وقاعات كنائس هي اكثر تألقاً وتأنقاً ، أقول تبدأ هذه المدن بالتدفق في كل اتجاه ، ويجيء تدفقها هذا على صورة من كتل لا شكل لها ، وتأخذ بالتهام الريف الآخذ بالانحلال ، وتأتي عليه بمساكنها المماثلة للثكنات وبمبانيها ذات النفع العام ، وتباشر في تدمير المنظر النبيل للزمن العتيق وذلك بواسطة الهدم واعادة البناء . ونحن اذا ما القينا بنظرة من قمة أحد الابراج القديمة على ذاك الخضم من المساكن ندرك من خلال تحجر كائن تاريخي الحقبة الحقيقية التي تشير الى نهاية نماء متعضٍ وبداية حقبة لا متعضية ، ولذا فما يجري ، انما هو عملية من تكتيل لا يكبح لها جماح وتجميع لا حدود له . ويتبدى لنا الآن ايضاً ذاك النتاج المصطنع والرياضي والغريب تماماً عن التربة ، نتاج الرضاء الذهني بالملائم والمناسب ، واعني به مدينة مهندس المدينة . وهذه المدن في كل المدنيات على حد سواء ، والتي جل ما تقصده هو ان تستوي وشكل رقعة الشطرنج ، انما تمثل رمزاً لما لا نفس له . ولقد اذهلت عمارات بابل المنتظمة في زواياها القائمة ، هيرودوت ، وهذا ما حدث ايضاً لكورتيز وهو يشاهد مدينة بنوشتتلان . أما في العالم الكلاسيكي فان اول سلسلة من المدن « التجريدية » تبدأ بمدينة « ثوري » Thurii التي « وضع تصميمها » هيوداموس المايلتسي Hippodamus of Miletus عام ٤٤١ . زد على ذلك « برين » التي يتجاهل

مخطط رقعة شطرنجها مرتفعات المكان ومنخفضاته ، ومن ثم تتبع هذه مدينتـــا رودوس والاسكندرية واللتان تصبحـــان بدورهما مدينتين اقليميتين في العصر الامبراطوري . ولقد قام المهندسون المسلمون ببناء مدينة بغداد عام ٧٦٢ وتشييد مدينة سامراء العملاقة بعد تلك بقرن من الزمن ، وقاموا بعملهم هـــذا وفق مخطط .

أما في عالم اوروبا الغربية واميركا فان شكل مدينة واشنطن الهندسي هو لأول مثال ضخم . وليس هناك من شك في أن المدن العالمية في الصين وفي عصور الهان، بالاضافة الى مثيلاتها من المدن الهندية في عصور أسرة الموريا Maurya كان لهـا النموذج الهندسي ذاته . لكن المدن العالمية للمدنية الغربية لا تزال حتى الآن بعيدة عن ذروة تطورها كل البعد . وانني لأرى بعين الخيال، ما بعد عام الألفين ب م، مدناً صممت لسكنى عدد من البشر يتراوح بين العشرة والعشرين مليوناً ، مدناً تنتشر فوق مساحات هـــائلة الاتساع من الريف ، وذات بنايات ستجعل اضخم العمارات التي نعرفها تبدو أمامها كما يبدو القزم امام عملاق ، ووسائل مواصلات وحركة سير سنراها تتجاوز الخيال الى الجنون .

ويبقى شكل المثل الأعلى للانسان الكلاسيكي ، حتى في هذا الشكل النهائي لكينونته ، النقطة الحجمية . فبينما نحن نرى مدننا العملاقة الحالية تعترف بنازعنا الى اللانهائي ، هذا النازع الذي لا يكبح له جماح ، ونرى أحياءنا ومدننا المسورة بالحدائق تغزو الريف الواسع ، ونشاهد شبكات طرقنـا الوفيرة الشاملة ، ونشهد في المساحات الكثيفة المبـاني حركة مرور سريعة منتظمة تسير على وفوق الطرق العريضة، المستقيمة وتحتها، أقول بينما نرى كل هذا، نرى المدن العالمية الكلاسيكية تجاهد وتناضل لا بغية الاتساع والامتداد ، انمـــا بغية التكثف ، فطرقها ضيقة مغلولة يستحيل عليها أن تيسر حركة مرور سريعة (بالرغم من أن هذه الحركة قد عولجت علاجاً شافياً بواسطة الطرق الرومانية الكبرى) ونشعر ايضـاً برفض كامل للسكنى في الضواحي ، أو حتى جعل قيام الضواحي أمرا ممكنا . وحتى في تلك المرحلة كانت المدينة ملزمة بأن تكون حجماً، وحجماً كثيفاً مستديراً بكل

ما لهاتين الكلمتين من معنى. فعامل الاجتماع الذي دفع تدريجياً بسكان الارياف ، في العصور الكلاسيكية المبكرة الى المدن وأوجد نموذجاً للمدينة الكبرى ، قد كرر أخيراً ذاته على شكل شاذ غريب ، اذ ان كل انسان كان يريد ان يسكن في وسط المدينة ، وفي أشد أحيائها كثافة ، والا فانه لن يكون بمستطاعه ان يشعر بأنه الرجل المتحضر الذي كانه . ان جميع هذه المدن هي مجرد قرى « باطنية » « داخلية » . وعامل الاجتماع الجديد قد أوجد بدلاً من مناطق الضواحي ، عالماً من طبقات المساكن العليا .

وقد بلغ محيط دائرة مدينة روما عام ٧٤ ، وبالرغم من عدد سكانها الهائل ، ١٩ كيلو متراً ونصف ، وهذا والحق لمحيط تافه في صغره . ونتيجة لما ذكرت ، كانت أحجام المدن لا تمتد عرضاً ، بل تزداد يوماً بعد آخر ارتفاعاً . وكانت المساكن في عمارات روما « كانسولا » ، « وفليشولي » Feliculae الشهيرتين مثلاً ، ترتفع بعرض والطريق يتراوح بين الثلاثة والخمسة أمتار فقط ، وتبلغ مستوى من الارتفاع لم تشهد له أبداً اوروبا الغربية مثيلاً ، مستوى لم تعرفه سوى القليل من مدن أميركا . وقد بلغت سطوح العمارات المجاورة للكابيتول مستوى سفح التلة . ولكن هذه المدن من الكتل تتستر دائماً على فقر يرثى له وعادات منحطة حقيرة ، كما وأن طبقات المساكن العليا والسقوف المنكسرة والاقبية والساحات الخلفية تلد نموذجاً جديداً لانسان خام ، نموذجاً عرفته بغداد وبابل وتنوشتلان ، وتعرفه اليوم لندن وبرلين . وديودورس يحدثنا عن ملك مصري مخلوع هبطت به الحياة فسكن في أحد الطوابق العليا من تلك الطوابق المزرية البائسة التي شهدتها روما . ولكن ليس هناك من تعاسة أو حقارة ولا من ارغام ولا حتى رؤيا الجنون الصافية لهذا التطور يمكن لها أن تبطل مفعول القوة الجذابة لهذه الانجازات الشيطانية . فعجلات المصير تتدحرج وتدور حتى تبلغ منتهاها ، وولادة المدينة تستلزم موتها . فالبداية والنهاية ، وكوخ الفلاح « والشقة » في العمارة ، انما ترتبط احداها بالأخرى ارتباط النفس بالذهن ، وارتباط الدم بالحجر . ولكن « الزمان » ليس بكلمة معنوية مجردة ، بل انما هو أسم واقعة لما لا يمكن أن يقلب

اتجاهه أو يعكس .

فهنا لا يوجد الا اندفاع الى الأمام ولن يكون هناك تراجع الى الوراء أبداً . فمنذ زمن جد طويل حمل الريف البلدة الريفية وغذاها بأحسن ما في شرايينه من دم . لكن اليوم تمتص المدينة العملاقة الريف حتى الجفـــاف ، وامتصاصها هذا امتصاص لا يروي ، وتطالب أبداً وتلتهم كل يوم كتلاً جديدة من البشر ، حتى يعتريها الوهن وتموت في وسط قفر بوار من الريف وخـال من السكان تقريباً . فعندما تقع ضحية ما بين مخالب هذا الجمال الغارق في الشر والأثم ، جمال آخر ما للتاريخ من أعاجيب ، فانّ هذه الاعجوبة لن تطلق أبدا سراح تلك الضحية ولن تخلي سبيلهـا . ان الشعوب البدائية تستطيع أن تحرر ذاتهـا من الارض وتجوب فيافيها رحالة جوالة ، ولكن الانسان البدوي العقلاني لا يستطيع هــذا الأمر أبداً .

فالعليل شوقه الى موطنه هو اشد من كل حنـين آخر الى الوطن .والوطن في نظره هو احدى هذه المدن العملاقة ، ولكن حتى اقرب القرى اليـه تعتبر بلداً غريباً عنه . وهو يفضل أن يموت على احد الأرصفـة ، على ان يعود الى الريف . ولا تستطيـع حتى عجرفة المدينة هذه ، وتعب ابنها ومله من البريق ذي الألف لون ولون ، ولا حتى غثيانه من الحياة ، هذا الغثيان الذي يسيطر في النهـاية على نظرته الى الكثير من الاشياء ، أقول لا تستطيـع كل ردود الافعال النفسانية هذه ، ان تحرره من المدينة . فهو ينقل المدينة معه الى الجبال أو الى البحر ، وهو قد فقد الريف داخل ذاته وأضاعه ، ولن يسترده أبداً من الخارج .

ان ما يجعل ربيب المدن العالمية عاجزاً عن العيش في أي مستقر آخر غير هذا المستقر المصطنع ، هو كون النبض الكوني لكينونته يعاني فتوراً يتزايـد في كل حين ولحظة، بينما تزداد توترات وعيه اليقظ خطراً يوماً بعد آخر . ويتوجب علينا أن نتذكر هنا ، أن الجانب الحيواني من الكوني الاصغر يتلو ويتبع الجــانب النباتي لهذا الكائن وليس العكس بالعكس . فالفرق القـائم بين النبض والتوتر ، بين الدم والذهن ، بين المصير والسببية ، هو الفرق ذاته الذي يقوم بين الريف في

فصل ازدهاره وبين مدينة الحجر ، انه الفرق بين شيء ما يمارس وجوده مستقلاً قائماً بذاته وبين شيء ما آخر لا يملك هذا الاستقلال في ممارسة وجوده . فالتوتر اذا ما حرم من خفقان نبض كوني ليتنفس ويحيا ، فعندئذ يكون مرحلة انتقال الى العدم . لكن المدينة ليست سوى توتر والرأس في جميع المدنيات البارزة يسيطر عليه حصراً تعبير توتر متناه في شدته . وما الذكاء غير المقدرة على الفهم في حال من توتر عال ، وهـذه الرؤوس في كل حضارة هي نماذج لرؤوس الدورة الختامية من البشر ، ويكفي المرء ان يقارن بينها وبين رؤوس الفلاحين ، عندما يحدث ان تظهر مثل هذه الرؤوس في دوامات حياة شوارع المدن الكبرى . زد على ذلك ان الانطلاق من حكمة الفلاح - من « النحول » ، من حصافة الأم ، من الغريزة ، المبنية على نبض الحياة المحسوس بـه حس كل حيوان آخر - خلال الروح المدنية الى الذكاء الكوسموبوليتي (وهـذه الكلمة بالذات يكشف جرسها الحاد عن اختفاء الاساس الكوني القديم) أقول ان هذا الانطلاق يمكن وضعه على انه تبلد (نقصان) شعور متزايـد بالمصير وزيادة لا يكبح لها جماح في الحاجات والاحتياجات وفق عملية السببية (العلية) .

ان الذكاء هو استبدال الحيـاة اللاواعية بممارسة الفكر ممارسة ماهرة ، لكنها ممارسة سقيمة تافهة نضبت شرايينها وأوردتها من الدم . كما وان الطلعات الذكية هي طلعات متشابهة في كل العناصر (القومية) ، والذي يكرر ذاته انما هو العنصر (القومي) . وكلما ازداد الشعور بالضرورة ، وبالكينونة الغنيـــة عن الشرح والبيان ، ضعفاً على ضعف ، تزداد معه عادة الايضـاح نماء ، ويزداد الاعتماد على الوسائل السببية (العلية) لتسكين الخوف داخل الوعي اليقظ . ومن هنا جاء تمثل المعرفة بواسطة البرهان الدامغ ، واستبدال مـــا هو ديني بالنظرية العلمية ، أي الاسطورة السببية (العلية) . ومن هنا ايضاً تبدت النقود في شكلها التجريدي ، بوصفها السببية (العلية) المجردة للحياة الاقتصادية ، في تباينهـا والمقايضة الساذجة الغشيمة التي تمثل خفقان نبض لا منهاجاً لتوترات .

وعندما يصبح التوتر عقلانياً ، لا يعود يعرف التسلية البريئة أو النزهات ، بل يعرف منها ما هو مميز وخاص بالمدينة العالمية ، وأعني بهذا الاسترخاء والذهول .

فاللهو الأصيل Joie de vivre والمسرات والثمل هي ثمرات النبض الكوني ، وهي بوصفها على ما ذكرت ، لم تعد في جوهرها قابلة للادراك والفهم . ولكن التخلص من عناء العمـــل الذهني الشديد الوطأة بواسطة نقيضه ، وهو عبث واع وبمارس ، ومن التوتر العقلاني بواسطة التوتر الجسماني الناشيء عن الرياضـة ، ومن التوتر الجسماني بواسطة الاجهاد الشهواني عقب «اللذة » ومن الاجهاد الروحي عقب الانفعالات الناشئة عن المراهنات والمضاربات ، ومن المنطق المجرد للعمـل اليومي بواسطة صوفية يستمتع بها استمتاعاً واعياً ، كل هذه الاشياء ، هي أمور مألوفة في جميع المدن العالمية لجميع المدنيات . ودور السينما والانطباعيـــة ، (التعبيرية) والملاكمة والمباريات ، ورقص الزنوج ، « والبوكر » والسباق ، باستطاعة المرء أن يجد كل هذه الأمور في روما . والحق أنه لبمقدور الباحث أن يتوسع في ابحاثه عن هذه الأمور وأن يمتد بها لتشمل أيضاً المدن العالمية من هندية وصينية وعربية. واذا ما أوردنا مثلاً واحداً فقط ، وهو انه اذا ما قرأ أحـــدهم الكاما – سوترام Kama - Sutram فسيدرك كيف حدث أن استساغت أذواق النـــاس البوذية أيضاً ، وعندئذٍ ستختلف نظرتنا الى مشاهدة مصارعـة الثيران في قصر كنسوس اختلافاً كلياً . ولا شك أن مذهباً كان يكمن وراء هذه كلها ، ولكن مذاقـــاً ونكهة كانا يتحكمان بها جميعاً ، كما هي حال مذهب روما الايزيسي التقليدي الذي عرفته ضواحي مسرح مكسيموس .

ومن ثم عندما تستأصل جذور الكينونـة استئصالاً كافياً ، وتمسي الكينونة اليقظة في حالة من توتر كاف ، عندئذٍ تندفع فجأة الى ميدان نور التاريخ الوضاء ، ظاهرة كانت تعد ذاتها في الخفاء منذ طويل زمن ، ظاهرة تتقدم الآن لتضع النهاية للدراما ، وهذه الظاهرة هي عقم الانسان المتمدن . وهذه الظاهرة هي شيء مـا لا يمكن ادراكه بوصفه أمراً مألوفاً من أمور السببية (العلية) (وذلك كما حاول العلم الحديث ادراكه وهذا أمر فيه من البداهـة مـا يكفي) بل انمـــا يتوجب ادراكه بوصفه انعطافاً جوهرياً ميتافيزيقياً نحو الموت . فالانسان الاخير للمدينة العالمية لا يعود يرغب في أن يحيا أو يعيش ، وقد يتشبث بأهداب الحياة كفرد ،

ولكنه كنموذج ، كمجموع ، لا يريدها ولا يرغب فيهـا ، لان ميزة هذا الوجود الجماعي تستأصل الرعب من الموت وتطرحها جانبـــاً . فذاك الذي يثير في الفلاح خوفاً عميقاً غير قـابل للتفسير ، الخوف من أن تفنى العائلة وينطفيء الاسم ، قد فقد الآن مغزاه ومعناه . واستمرار رابطة الدم ، في العالم المنظور ، لم يعد واجب الدم ، والمصير المقدر على أن يكون آخر حبات العنقود ، لم يعد يحس به على انه لعنة وهلاك . والاطفال لم يعودوا يشقون طريقهم من الارحام الى الحياة ، وهذا الامر لا يعود الى ان انجابهم أمسى مستحيلاً ، بل انما يعود ، بصورة أساسية ، الى ان العقل الذي بلغ ذروة توتره ، لم يعد يجد أي سبب يبرر وجودهم . وليحاول القارىء أن يتقمص نفس الفلاح وروحه . لقد جلس الفلاح على تربـــة أرضه منذ أزمان عتيقة غارقة في القدم ، وربط تلك التربة الى قبضته والتصق بهـــا بدمه ، وضربت جذوره فيها عميقاً عميقاً بوصفه متحدراً من صلب أسلافه ، ولكونه سلفاً لمن في ارحام المستقبل من خلف .

ان بيته ، ان عقاره ، لا يعنيان هنـــا ، ترابطاً وقتياً بين الانسان والشيء ، ترابطاً محدوداً بفترة من سنوات قصار ، بل انمـــا يعنيان اتحاداً باطنياً دائمـاً بين الارض الخالدة والدم الخالد . ومن هذه القناعة الصوفية وحدها ، قناعة التوطن ، تستمد جميع الحقبـات العظمى للدورة ــ دورة التناسل والولادة والموت ــ ذاك العنصر الميتافيزيقي من عناصر الاعجوبة التي تتكثف في رمزية العرف والعـــادة والدين ، هذه الامور التي يمتلكهـا كل انسان مشدود الى الارض ، والتي أمست بالنسبة « للانسان الاخير » (انسان المدينة العالمية) أشياء غيبها المـاضي ، وذهبت بها الايام . وليس تجانس الذكاء والعقم وتحالفهما في العائلة العريقة والشعوب القديمة والحضارات الغابرة مجرد كون أن عنصر الحيوان المكبل بالأغلال والمرهق في كل كون أصغر قد أخذ يلتهم عنصر النبـات (في الكون الأصغر ــ المترجم ــ) بل انمـــا أيضاً لأن الوعي اليقظ يتوهم أن الكينونة انما عادة تنتظمها السببية . وذاك الشيء الذي يطبعه انسان الذكاء ، بصورة عميقة المغزى بالغـــة التمييز ، بطابع « النبض الطبيعي » أو « زخم الحياة » فهذا الانسان لا يعرف ذاك الشيء معرفة

سببية فقط ، بل انما يقيمه تقييما سببياً أيضاً ويخصه بالمكان الذي يقرره لهحكمه العقلاني بين احتياجاته الاخرى . وعندما يبدأ الفكر العادي لشعب رفيع الثقافة والعلم بان يعتبر « انجاب الاطفال » هو قضية لهـــا وجوههـا المؤيدة والمناهضة ، Pro's and Con's فعندئذ تكون نقط الانعطاف العظمى قد جاءت وحـــان أوانهـــا ، فالطبيعة لا تعرف أي شيء عن عوامل تأييد Pro's and Con's أو مناهضته ، ففي كل مكان حيثما تكون الحيـــاة حقيقة وواقعة يسود منطق باطني متعضي، إنه « It » وي يطر اندفاع مستقل استقلالاً تاماً عن الكائن الواعي بما لهذا الكائن من ارتباطات سببية ، وحتى هذا الاندفاع هو غير ملحوظ حقـاً من قبل هذا الكائن . ان التكاثر الحضري Proliferation الغزير في الشعوب البدائية لهو ظاهرة طبيعية ، ظاهرة لم يفكر حتى بهـــا ، وحتى أقل من هذا ، لم يحكم عليها بالنسبة لنفعها أو عكسه . وعندما يتوجب علينا أن نقدم ، إطلاقاً ، الاسباب اقضية من قضايا الحياة ، عندئذ تصبح الحياة ذاتها مشكو كاً في أمرهـــا ومدار تساؤل . وعند هذه النقطـة يبدأ تحديد المواليد تحديداً متدبراً بصيراً بالعواقب . وقد قـام بوليبيوس في العالم الكلاسيكي يشكو وينوح على هذا الاجراء (تحديد المواليد) واصفاً اياه بأنه خراب اليونان ودمارها ، ولكن هذا الاجراء كان حتى في زمن بوليبيوس ، قد أمسى ، منذ طويل زمن ، قـاعدة مقررة وعملاً مألوفاً في المدن الكبرى، كما وشاع في الازمان الرومانية التي تلته على صورة مرعبة مفزعة . وكان الناس ، بادىء ذي بدء يفسرونه بالبؤس الاقتصادي ، ولكن سرعان مـا تخلى هذا الاجراء عن تفسير له وشرح . وعند هذه النقطة ايضاً ، وفي كل من الهند البوذية وبابل ، كما في روما ، وكما هي الحال في مدننا نحن معشر الغربيين ، أصبح اختيار الرجل للمرأة، لا بوصفها أماً لأولاده كما هي الحال بين الفلاحين والبدائيين، بل بوصفها « رفيقة حيـاة » معضلة للعقول ومشكلة . فالزوا عند إبسن يبدو على أنه « الامتزا الروحي الارقى » حيث يكون فيه كل من الفريقين (الزوجين — المترجم) « حراً طليقاً » وأعني بالحرية هنا ، أنهما عقلان حران ، متحرران من حافز الدم الشبيه بالنبات ، حـافزه الى استمرارية ذاته ومتابعتها وهكذا يصبح

بمقدور « شو » [1] أن يقول « أنه مـــا لم تفكر المرأة بأنوثتها ، وبواجبها إزاء زوجها واطفالها والمجتمع والقانون ، وإزاء كل انسان آخر ، ما عدا واجبها إزاء نفسها ، فانها لا تستطيع أن تحرر ذاتها . »

إن المرأة الاولية ، المرأة الفلاحة ، هي أم . وان كامل رسالتها ، هذه الرسالة التي تحن اليها منذ طفولتها ، إنما تحتويها تلك الكلمة، كلمة أم . ولكننا نرى اليوم امرأة إبسن ، المرأة الرفيقة الزميلة الخدن ، تخرج الينا ، ونراها بطلة جميع آداب المدن العـالمية العظمى ، ابتداء من الدراما الشمالية حتى الرواية الباريسية . فهي بدلاً من أن يكون لها اطفال لها تصادمات وتناقضات نفسية، وما الزواج غير فن من براعة هدفه تحقيق « التفاهم المتبادل » . وسيان أكانت القضية ، قضية معارضة إنجـــاب الاطفال ، هي قضية السيدة الاميركية التي لن تقايض على حضور أي موسم حفلات ، بأي ثمن، أو قضية السيدة الباريسية التي تخشى أن يهجرها عشيقها، أو قضية بطلة إبسن التي « لا تنتمي الى احد مـــا عدا نفسها » فالقضية واحدة وجميعهن ملك ذواتهن فقط، وكل واحدة منهن عاقر عقيم. وعطفاً على ما اوردت نجد الواقعة ذاتها في الاسكندرية وفي المجتمع الروماني ، وبداهـة ، في كل مجتمع متمدن آخر ، ونجدها بصورة جلية واضحة في المجتمع الذي نشأ فيه بوذا وترعرع. وهناك قواعد أخـلاق للعقول المعدومة الذرية في كل من الهيلينية والقرن التاسع عشر ، كما في أزمان لاوتسي ومذهب تشارفاكا Charvaka ، وآداب تتحدث عن التناقضات الباطنية لنورا ونانا . فتلك « الرعشة » ، التي كانت لا تزال حتى أيام فيرتز ، مشهداً فيه الكفاية من الصدق والشرف تصبح شيئاً ما « فلاحياً » قروياً . والأب الكثير الاولاد يمسي موضوعاً للرسم الكاريكاتوري ، ولم يفت إبسن أن يسجل هـــذه الحقيقة إذ انه عرضها في كوميدياه المعروفة باسم كوميديا الحب .

وعند هذا المستوى تدخل جميع المدنيات مرحلة من تدن وتنـاقص مرعبين

---

١ – جورج برنارد شو

في السكان وتستمر هذه المرحلة قروناً من الزمن . وهنـــا يضمحل كامل هرم الانسان الحضاري ويتلاشى ويزول . وهذا الهرم يبدأ تفتته بذروتـه ، إذ تتفتت أول ما تتفتت المدن العالمية ، ومن ثم الاشكال الريفية واخيراً الارض ذاتهـا التي تدفقت أنقى دمائها بشهوة داعر الى البلدات كي تسندها لفترة من زمن . وفي نهاية المطاف لا يبقى حيـــاً سوى الدم البدائي ، لكنه دم سُلب من أقوى عناصره وأوسعها مدار أمل ومحط رجـاء . وهذه الفضلة المتبقية هي نموذج الفلاح . واذا كانت هنـاك من واقعة تظهر ان السببية لا تمت من بعيد أو قريب ، بأية صـلة للتاريـخ ، فان هذه الواقعة لتتمثل بتدهور العالم الكلاسيكي وانحطاطه ، فهـــذا التدهور قد حقق اكتماله قبل غارات الهجرات الالمانية على العالم الكلاسيكي بزمن طويل . فلقد كانت الامبراطورية (الرومانية – المترجم) المطلقـــة السلطان Imperium ترتع آنذاك في أرحب مجالات الطمأنينة وأوسع ميادين الراحـــة والسلام ، وكانت عريضـــة الثراء رفيعة التطور ، حسنة التنظيم ، وامتلكت في أباطرتهـا ، ابتداء من نيرفا Nerva حتى مارك اوريل ، سلسلة من الحكام ، لا تستطيـع أية قيصرية في أية مدنيه أخرى ، ان تقدم لهم نظراء او مثلا . ومع هذا تضاءل عدد السكان تضاؤلاً سريعاً وجماعيا .

ولم تستطع قوانين الزواج والاطفال اليائسة التي اشترعها أوغسطس ، ومن بين هذه القوانين القـانون المعروف باسم Lex de Maritandis Ordinibus والذي أثار من الفزع في المجتمع الرومـاني أشد ممـا أثارته إبادة جيوش فاروس وهزيمتها الساحقة المـاحقه ، ولم يستطع تبني الاطفـال بالجملة ، ولا التجنيد الدائم لمن هم من أصل بربري في الجيوش الرومانيه ، ليملأوا الثغرات الواسعة من الريف المستنزف المنهوك ، ولا الصدقات الهـــائلة في غزارتها التي وزعها نيرفا وترجان Trajan على الأطفال والآباء المعوزين ، لم يستطع أي عمل من هذه أو أي عمل آخر أن يوقف ذاك التيار .

فايطاليا ومن بعدها شمالي أفريقيا وبلاد الغال ، واخيراً اسبانيا التي كانت في

عصور القياصرة الأولين أشد بلدان الأمبراطورية كثافة سكان أمست جميعها خاوية مقفرة يباباً . وقول بليني Plyni الشهير المأثور « Lati fundia perdidere Italian , Jam,vero et provincias » والذي كثيراً ما يقتبس اليوم حين التحدث عن الاقتصاد القومي ، انما هو قول يقلب القضية رأساً على عقب . فالملكيات الزراعية الواسعة لم تكن لتصل الى هذه النقطة لو ان المدن لم تكن قد امتصت قبل الآن طبقة الفلاحين ، ومع أن امتصاصها للفلاحين قد لا يكون قد جرى من صورة ظاهرة مكشوفة ، لكن الفلاحين تنازلوا باطنياً عن الارض وهجروها .

وأخيراً أطلت الحقيقة المرعبة برأسها من بين سطور قانون برتيناكس Pertinax الصادر عام ١٩٣ ب م : والذي يخول كل فرد في ايطاليا والولايات الأخرى أن يضع يده على أية رقعة مهملة من الارض ويعطيه ، اذا ما استصلحها بأن تصبح ملكاً مشروعاً له . وما على دارس التاريخ الا أن يتجه جديا بابصاره الى المدنيات الاخرى ليرى أن هذه الظاهرة مألوفة في جميع المدنيات . ونحن نستطيع أن نتبين تدني السكان بصورة جلية واضحة ، في بدء عهود الأمبراطورية المصرية الجديدة وخاصة ابتداء من عهد الاسرة التاسعة عشرة فما بعد . فتلك الطرق ، كطريق امينوفيس الرابعة في تل العمارنة والبالغة الخمسين من الياردات عرضاً هي طرق لم تخطر أبداً على بال السكان الاشد كثافة في العصور القديمة . وبالكاد تمكنوا من صد هجوم « شعوب البحر » بعد جهود ما بعدها جهد ، وكانت فرص هذه الشعوب في الحصول على أراض ومقاطعات لا تقل أكيداً في امكانيات نجاحها عن فرص الالمان في القرن الرابع تجاه العالم الروماني . وهناك أخيراً تسرب الليبيين الدائم الى الدلتا ، هذا التسرب الذي بلغ ذروته عندما استولى أحد قادتهم في عام ٩٤٥ قبل المسيح على مقاليد السلطة والسلطان ، وذلك تماماً كما فعل ادواسر Odoacer عام ٤٧٦ بعد المسيح . ولكن باستطاعتنا أيضاً أن نلمس النازع ذاته في تاريخ البوذية السياسي ما بعد القيصر آسوكا Asoka . واذا ما كانت شعوب المايا قد تلاشت واختفت بكل ، ما لهاتين الكلمتين من معنى حرفي ، وبادت في وقت جد قصير بعد الفتح الاسباني ، وزحفت الادغال والغابات على مدنها الكبرى

الخاوية من السكان فأعادتها اليها ، فـــان هذه الامور لا تبرهن فقط على وحشية الفاتح وقسوته ، اللتين لن يكون لهما حول وطول أمام قوة تجدد ذاتهـــا لجنس بشري حضاري مثمر وفتي ، بل انمـا تبرهن على انطفاء داخلي وخمود باطني كانا لا شك قد بدءا منذ زمن طويل ، وبعد ، اذا ما اتجهنا بابصارنا الى مدنيتنا الخاصة، فاننا سنلحظ أن العائلات العريقة من طبقة النبلاء الفرنسية لم تبد في معظم الحالات الكبرى خلال الثورة، بل انما اضمحلت منذ عام ١٨١٥ ، وانتشر عقمها الى الطبقة البرجوازية ، ثم انتقل ، ابتداءً من عام ١٨٧٠ ، الى طبقة الفلاحين ، هذه الطبقة التي أعادت تلك الثورة إياهـا ، خلقها من جديد . وفي بريطانيا لا بل واكثر من هذه في الولايات المتحدة الاميركيـــة – وخاصة في الشرق، في تلك الولايات ، التي تضم أعرق ما في الولايات المتحدة من عناصر وأفضل ما فيها من أقوام ، فان عملية « الانتحار العنصري » بدأت على أوسع صورة ، وقبل أن يشجبها روزفلت بزمن طويل .

ونتيجة لما تقدم نجد في كل مكان من هذه المدنيات أن المدن الريفية في مرحلة مبكرة زمنا، والمدن العملاقة في نهاية التطور، تنتصب خاوية من السكان، وتؤوي داخل كتل حجارتها عدداً قليلاً من السكان الفلاحين حيث يسكنون ، كما كان ابناء العصر الحجري يسكنون في الكهوف والمساكن المكدسة بعضاً فوق بعض . ولقد هجرت سامراء في القرن العاشر ، وكانت باتاليبوترا Pataliputra ، عاصمة آسوكا،كانت قفراً هائلاً من بيوت مهجورة تماماً،وذلك عندما زارها الرحالة الصيني هوين – تسانغ Hiouen - tsang قرابة عام ٦٣٥ بعد المسيح. ولا شك أن العديد من مدن المايا العظمى كانت حتماً في الحال ذاتها حتى في عصر كورتيز . وتورد سلسلة طويلة من الكتاب الكلاسيكيين ، إبتداءً ببليبيوس فمن بعده ، ذكر مدن قديمة شهيرة أمست طرقها خطوطاً من هياكل أبنية خـــاوية مهجورة حيث تقضم قطعان الماشية أطراف النبات في الاسواق والملاعب الرياضية ، وحيث أمست المسارح المدرجـة حقولاً مبذورة نقطتها تمـــاثيل بارزة وأعمدة يعلوهـا رأس هرمز . أما رومـــا فلم يتجاوز عدد سكانهـا في القرن الخـــامس من بعد

الميلاد عدد سكان قرية ، لكن قصورهـا الأمبراطورية كانت لا تزال مأهولة في ذاك القرن .

إذن فهذه هي نهـاية مطاف تاريخ المدينة ، وهذه هي نتيجته . انهـا تنمو من مركز المقايضة البدائي، لتصبح مدينة حضارة ومن ثم لتمسي أخيرا مدينة عالمية، انها تهدر أول مـــا تهدر دم خالقيها ونفوسهم ، لتشبـع ضرورات تطورها الفخم الجليل ، وأخيرا تقطف آخر زهرة من ذاك النماء لتقدمهـــا الى روح المدنية ، وهكذا تتابـع سيرها مقضياً عليها بالهلاك ، حتى تدمر ذاتها تدميراً نهائياً .

- ٦ -

إذا مـا كانت المرحلة المبكرة زمناً تتميز بولادة المدينة من أحشاء الريف ، وإذا مـا كانت المرحلة المتأخرة تتميز بالمعركة بين المدينة والريف ، فـان مرحلة المدنية هي مرحلة انتصار المدينة على الريف ، حيث تحرر نفسها من قبضة الارض، لكنها تتحرر لتنطلق الى دمارها النهائي . والمدينة تقف موقفاً ميتـاً لا جذور له بالكوني ، وترتبط ارتباطاً ، لا رد له أو نقض ، بالحجر والعقلانية ، وتنشيء لغة شكل تنسخ كل مسحة أو خلة من جوهرها، وهذه اللغة ليست لغة صيرورة ونماء، بل انها لغة صير وانهاء ، لغة قادرة أكيدا على التبديل ، لكنها عاجزة عن التطور . وهنـا لا يحكم المصير بل السببية ، ولا يسيطر الاتجاه الحي بل الامتداد . وينشأ مما تقدم أنه ، بمـــا أن كل لغة شكل لإحدى الحضارات تلتصق وتاريخ تطورها بالنقطة الأصلية ، لذلك فان الأشكال المتمدنة موجودة وقائمة في أي مكان وقادرة لهذا على امتداد لا حدود لهـا حالما تتبدى وتظهر . وانها لحقيقة وواقعة أن بلدات الهنسا Hanse بما لهـا من قوام روسي شمالي قد شيدت على طراز غوطي ، وأن

البلدات الاسبانية في أميركا الجنوبيــة قد بنيت على طراز باروكي ، ولكن لزوم إنتشار أصغر فصل من تاريخ الطراز القوطي خـارج حدود اوروبا الغربية كان أمراً مستحيلاً استحالة انتشار الدراما الاتيكية أو الانجليزية، انتشار فن الفوغيه Fugue أو الدين اللوثري أو الاورفي ، أو حتى تمثيل هذه الأمور باطنيــاً بين ومن قبل شعوب حضارات غربية عنهـــا . ولكن جوهر الاسكندرانية (نسبة للاسكندرية . المترجم) وجوهر رومانتيكيتنا هما أمران تشترك فيها جميع الشعوب المتمدنه دون حصر أو تمييز . والرومانتيكية تشير الى بداية ذاك الشيء الذي اسماه غوتيه ، بما لغوتيه من رؤيا واسعة وبصيرة ثاقبة ، بالآداب العـــالميه ، آداب المدينة العـالميه القائدة ، هذه الآداب التي تجـاهد في كل مكان ضدها آداب الريف ، إبنة الأرض والتربة ، وتـكافح ، دون أن يبالي بهـا أحد ، وتتخطف أنفاسها جهاداً في كل ميدان كي تحافظ على ذاتها . وليس بالامكان إعـادة خلق دولة البندقية ، أو دولة فريدريك الأكبر ، أو البولمان البريطاني (كحقيقة واقعة وذات أثر) ولكنه بالأمكان « إدخـال » « الدساتير الحديثة » على أية دولة افريقية أو اسيوية ، كما وأنه بالامكان ايضـاً إقـــامة البلدة الكلاسيكية بين النوميديين والبريطـــان القدامى . وفي مصر لم تكن الكتابة الهيروغلوفية هي الشائعة بين الناس ، وإنما كان الحرف المخطوط ، هذا الحرف الذي كانَ ، دون ريب، اكتشافاً تقنيا لحقبة المدينة. وبصورة عامه نقول أنه ليست لغات الحضارات الأصيلة ، كاللغة اليونانيه التي كتب بها سوفوكليس ، أو اللغه الالمانيه التي استعملها لوثر ، هي اللغات التي يستطيـع أي وكل شخص أن يكتسبها، بل إنها تلك اللغات العالمية ، لغة « كون » Koine الاغريقية والعربية والبابلية والانجليزية ، هذه اللغات التي هي نتـاج الممارسة اليومية العملية في المدينة العالمية ، هي وحدهـا سهلة المنال على أي انسان وكل مرء . ونتيجه لما تقدم نقول أن المدن الحديثه في جميع المدنيات تتخذ طرازاً تتزايد وحدانية نسقه يوماً بعد يوم . فلتذهب اينما شئت ، فانك ستجد برلين ولندن ونيويورك ، بالنسبة الينا في كل مكان ، تماماً كما كان يصادف الرحالة الروماني هندسته المعمارية العمودية وساحاته واسواقه بما نصب فيها

من تماثيل ، وهيا كله في تدمر وترير أو تمجاد Timgad ،[1] أو المدن الهيلينستية التي امتدت فبلغت الاندوس[2] والآرال Aral[3] . ولكن هـذا الذي شاع وذاع ، على هذه الصورة ، لم يعد اسلوباً أو طرازا ، بل إنما هو ذوق ، وهو ليس بعرف أصيل، بل هو تكلف وتصنع، وليس بعادة وطنية قومية، بل هو «موضة» وزي . ومن البدهي أن هذا الواقع لا يجعل فقط بامكان الشعوب النائية البعيدة أن تتقبـــل بمكاسب المدنيـة « الدائة » ، بل إنما يجعل ايضـاً هذه الشعوب قادرة على أن تعود فتشع بهذه المكاسب بشكل مستقبل . وخير مثل على مدنية « ضوء القمر » هذه ، يتجلى في الاقاليم الصينية الجنوبية ، ويتبدى خاصة في اليابان (التي كانت صينية الطابـع حتى ختام حقبة الهان عـام ٢٢٠ ب.م) ، وبطل من جزيرة جاوا بوصفها محطة تقوية لتيار المدنية البرهمية، ومن قرطجنة التي استحصلت عل اشكالها من بابل .

إن جميـع هذه هي اشكال من وعي يقظ كان قد أصبح آنذاك حاداً وحاراً حتى الافراط ، لا تلطف من مضائه أو تحده قوة كونية ، فسداة هذه الاشكال هي العقلانية ولحمتها الامتداد ، وهي لهذا السبب بالذات قادرة على فيض هائل غزير من الانتـاج ، وتمتد أشعتها الأخيرة الرجراجة فتبلغ ، ومؤثراتها المتوافقة لا بل المتماثلة ، لتعم كامل الكرة الارضية تقريباً . فمن الجائز أن نعثر على بعض شظايا اشكال المدنيـة الصينية في الهندسة المعمارية الخشبية السكندنافية ،وعلى المقاييس والمعايير البابلية في البحـار الجنوبية ، وعلى قطع النقود المعدنية الكلاسيكية في افريقيا الجنوبية وعلى آثار من نفوذ مصري وهندي في بلاد الإنكا Inka .

ولكن بينما كانت عمليه الامتداد هذه تجتاز كل الحدود ، كان تطور الشكل الباطني للمدنيّة يغذ السير حثيثاً الى إنجاز ذاته .

---

١ ـ تمجاد ـ بلدة قديمة في الجزائر اسسها تراجان عام ١٠٠ ب.م- المترجم
٢ ـ الاندوس ـ نهر ينبع من التيبيت ويجري في باكستان ـ المترجم
٣ ـ الآرال بحيرة في روسيا تقع بين كازاخستان والاوزبك ـ المترجم

ويتوجب علينـا أن نميز بوضوح وجلاء ثلاث مراحل ، مراحل تطور الشكل الباطني للمدنية ، إن المرحلة الأولى هي مرحلة التحرر من الحضارة ، والثانية هي مرحلة نشوء شكل أصيل للمدنية ، والثالثة والاخيرة هي مرحلة التيبس والتصلب النهائيين ، وقد بدأ هذا التطور الآن بالنسبة الينا نحن معشر الغربيين . وإنني ، كما أرى، أعتقد بأن القدر يريد لألمانيا، بوصفها موطن آخر شعب من شعوب الغرب، أن تتوج هذا الصرح الضخم الجبار .

فجميع قضايا الحياة ، أمورها ومشاكلها ، ـ الحياة من أبولونية أو مجوسية أو أو فاوستية ـ قد بلغ التفكير بهـا نهاية مداه وأخضعت لشرط نهائي وواضح من معرفة أو عدم معرفة . وذلك لأن الناس لم يعودوا اليوم يقتتلون حول العقائد . فالعقيدة الأخيرة ـ عقيدة المدنية ذاتها ـ قد قررت ورسمت ، واحتواها مخطط والمهارات الفنية Technics والاقتصادات (جمع إقتصاد المترجم) هي بوصفها قضايا ومشاكل ، قد أعلن عنهـا وصرح وأعدت للمعالجـة . ولكن هذا الأمر ليس سوى بداية عمل ضخم واسع ، فعلينا أن نكشف القناع عن الفرضيات ونبسطها وأن نطبق هذه الاشكال على كامل وجود الكرة الارضية .

وفقط عندمـا يتحقق هذا الأمر وينجز ، وتشيد المدنية تشييداً أكيدا لا شكلًا فقط ، بل كتلة ، عندئذ يبدأ الشكل بتيبسه وتصلبه . فـالاسلوب في الحضارات ، كان إيقاع عملية انجـاز الذات واكمالها . ولكن الأسلوب المتمدن ذلك(إذا جاز لنا استعمال كلمة اسلوب واطلاقا) ينشأ بوصفه تعبيراً عن حـالة إكتمال . وهو يبلغ ـ (وبلغ خـاصه في مصر والصين) مرتبة من كمال رائع ، ويعطي هذا الكمال لكل ما تنطق به الحياة وتفوه ، هذه الحياة التي هي الآن غير قابلة للتبديل باطنـا ، إنه يسبـغ كماله على اشكال الحياة ووجوهها الطقوسية ، كما يسبغه على الاشكال الفخمة الفاخرة المدروسة لممارستها للفن .

ولا يعود هناك أي مجال للحديث عن التاريخ ، وذلك بوصف التاريخ حافزاً أو انطلاقـاً نحو مثل أعلى للشكل ، بل هنـاك ملاءمة لا تعدم حيلة ، وهي هينة

سطحية تداور وتراوض ، المرة بعد المرة ، قضايا وحلولا طـازجة صغيرة لقضايا الفن ، وذلك خلال اللغـة التي أمست الآن مستقرة جوهراً . وينخرط في هذا النوع كامل « تاريخ » التصوير الزيتي الصيني الياباني (كما نعرفه) و « تاريخ » الهندسه المعمارية الهندية . وكما يختلف تماماً التاريخ الصادق للاسلوب الغوطي عن التـاريخ الكاذب ، كذلك يختلف فـارس العصور الصليبيه عن الماندرين Manderin الصيني ، أي إختلاف الدولة في الصيرورة عن الدولة في الانتهـاء . فالأول منهما هو تاريخ ،أما الثاني فلقد تغلب على التاريخ وهزمه منذ زمن طويل، نعم منذ زمن طويل ، هذا ما اقوله ، وذلك لأن تاريخ هـذه المدنيات ، كما هو واضح وجلي ، هو كتاريخ مدنها الكبرى ، وهذا التاريخ يتبدل دائماً مظهراً ، ولكنه لا يتغير ابداً جوهراً ، فجوهره يبقى باستمرار على حاله . ففي هذه المدن لا توجد نفس ، فهي ثرى وتربة في شكل متحجر .

فما هو ذاك الذي يفنى هنا ويبيد ? وما هو ذاك الذي تكتب له الحيـاة ? انها لمجرد حادثة عرضية أن تقوم الشعوب الألمانية فتستولي ، تحت ضغط قبائل الهون، على الصقع الروماني ، وبهذا تحول المدنيـة الكلاسيكية ، دون تمديد ذاتها في دولة نهاية « صينية » . كما وان حركة «شعوب البحر» (وهذه الحركة شبيهـة حتى بتفاصيلها بالحركة الجرمانية) والتي انطلقت ضد المدنية المصرية ابتـداء من عـام ١٤٠٠ق.م. ، نجحت فقط في مناطق السيادة الكريتية (نسبةالى جزيرة كريت) ، أما حملاتها الجبارة على السواحل الليبية والفينقية ، برفقة أساطيل الفايكنغ فلقـد فشلت كما فشلت حملات الهون على الصين . وهكذا فان المدنية الكلاسيكية هي أحد الأمثلة التي نضربها على مدنية انهارت في اللحظة التي بلغت فيها ارقى مراتب فخامتها وجلالها . ومع هذا فان الجرمان دمروا فقط الطبقة العليـا من الاشكال واستبدلوها بحياة عصور ما قبل حضارتهم الخاصة . لكن الطبقة الخالدة ، لم يبلغها أحد اطلاقاً فهي تبقى مختفية ومغلفة تغليفاً كاملا بلغة شكل جديد في اعمـاق كل ما يتبعها من تاريخ . وحتى الان لا تزال هناك ذخائر وآثار كلاسيكيـة ملموسة في مقاطعات فرنسا وايطاليا الجنوبية ، وفي مقاطعات اسبانيا الشماليـة .

ففي هذه المقاطعات يشوب الكاثوليكية الشعبية في اعماقها لون كلاسيكي متأخر زمناً ، لون يفرزها بصورة مميزة عن كاثوليكية كنيسة الطبقة الاوروبية الغربية التي تقع فوقها . فالمهرجانات الكنسية التي تقام في المقاطعات الايطالية الجنوبية تكشف عن طقوس كلاسيكية (وحتى ما قبل الكلاسيكية) فنحن نجد ، بصورة عامة ، في هذا المجال آلهة (قديسين) حيث ، يبدو ، في التعبد لهم ، النظام الكلاسيكي واضحاً منظوراً ومتستراً بأسماء كاثوليكية .

وهنا يدخل ، على كل حال ، عنصر آخر على الصورة ، عنصر ذو مغزى خاص به ، فنحن نقف الآن أمام مشكلة العنصر .

الفصل السادس عشر

المدن والشعوب

(ب)

الشعوب ، العناصر ، الألسنة

(أ)

لقد أفسد ، طيلة القرن التاسع عشر ، الصورة العلمية للتاريخ ، تصور ذهني اشتق إما من الرومانتيكية ، أو بلغت به الرومانتيكية ، على كل حال ، شأواً هاماً وملحوظاً ، وأعني بهذا التصور الذهني فكرة « الشعب » بما لهذه الكلمة من مفهوم حماسي إخلاقي . فلقد كان اذا ما تبدى، هنا أو هناك ، في الازمنة القديمة، دين جديد ، أو زخرفة جديدة ، أو هندسة معمارية جديدة ، أو أبجدية جديدة ، فان القضية التي كان يثيرها أي ما ذكرت آنفاً كانت تعرض ذاتها على بصيرة البحاثة على هذا الشكل : ما اسم ذاك الشعب الذي ولّد الظاهرة ؟

إن عرض القضية هذا ، هو أمر خالص بالروح الغربية ومميز للقالب الحالي لتلك

الروح ، لكنه عرض خاطىء بكل زاوية من زواياه، وخاطىء الى درجة تستلزم الصورة التي يستخلصها هـذا العرض من مجرى الاحداث ، أن تكون مغلوطة بالضرورة .

ان « الشعب » بوصفه شكلًا اساسياً مطلقاً ، شكلًا يكون فيه الناس فعالين تاريخياً ، والموطن الأصلي ، والمقر الأصيل ، وهجرات « الـ » شعوب ، كل هذه الأمور إنمـــا هي انعكاس لتلك الفكرة المهزوزة الرجراجة التي عبرت عن ذاتها بمفهوم كلمة « أمة » Nation لعام ١٧٨٩ ، ولكلمة « قوم » Volk لعـــام ١٨١٣ ، وكلتا الكلمتين ، همـــا بعد كل تحليل وتمحيص ، مشتقتان من تأكيد انكلترا لذاتها ومن حركة المطهرين Puritanism . لكن حدة العاطفة بالذات التي تحتويها تلك الفكرة (الأمة ، القوم ـ المترجم) قد وفرت لها حماية ممتازة من النقد فقط . وحتى اللواذع من البحاثة قد جعلوا ، سهواً ، هذه الكلمة تمتد لتغطي جمهرة من الاشياء غير المتشابهة إطلاقاً ، وذلك بالاضافه الى النتيجه القائلة بأن « الشعوب » قد تطورت الى كميات من وحدة معينة محددة ومفترض انها مفهومة فهماً جيداً ، كميات من وحدة صنعت كل ما هنالك من تاريخ . فتاريخ العالم يعني بالنسبة الينا اليوم ، أنه هو تاريخ الشعوب ، ونحن لا نستطيع هنا ان نزعم جازمين بأن الاغريق أو الصينيين مثلًا يرَون مـا نراه نحن للتاريخ مِنْ معنى . ان كل شيء ما عداه ، من حضارة ولغة وذكاء وحصافة ودين ، إنما هو من خلق الشعوب وإبداعها ، وما الدولة سوى شكل الشعب .

إن الهدف من وراء كتابة هذا الفصل هو تدمير هذا المفهوم الرومانتيكي .
* فذاك الذي سكن الارض منذ العصر الجليدي انما هو الانسان وليس « الشعوب » .. ولقد قررت مصير الانسان ، في الوهلة الاولى ، واقعـــة التعاقب الجسماني للاباء والابناء ، ورباط الدم المولد للجماعات الطبيعية والذي يكشف عن نازع أكيد الى ضرب جذوره في الصقع . وحتى القبـــائل الرحالة تحصر تنقلاتها داخل ميدان محدود ، وبهذا يطبع الجـانب الكوني الشبيه بالنبات من جـانبي الحيـــاة ، من الكينونة ، بطابع الديمومة . وهذا هو مـــا أسميه بالعنصر (Race) . فالقبائل

والافخاذ والبطون Clans والعائلات ، كل هذه هي مسميات لواقعة من دم يدور ويتوارث بالتناسل والولادة في صقع ضيق أو فسيح .

ولكن هذه الكائنات البشرية تمتلك أيضاً الجانب الحيواني الكوني الأصغر من الحياة داخل الشعور الواعي وقوة الذاكرة والعقل . أما الشكل الذي يتم فيه ترابط الشعور الواعي لانسان ما بالشعور الواعي لآخر ، فانما أسميه لغة ، حيث تبدأ هذه بكونها مجرد تعبير حي غير واع تلقته كاحساس ، غير أنه يتطور تدريجياً ليصبح فناً واعياً للمواصلة ، فناً يعتمد على حس مشترك للمعاني المرتبطة بالاشارات .

وفي النهاية أقول إن كل عنصر انما هو جرم عظيم واحد ، وان كل لغة هي الشكل الكفؤ الفعال لشعور واع واحد وعظيم ، شعور يربط الكثيرين من الافراد بعضهم ببعض . ونحن لا نستطيع أبداً أن نصل أيا من المكتشفات النهائية لأي منها (العنصر ، اللغة) ما لم نعالجها معاً ونقيم بينها مقارنة دائمة .

ولكن ، وبالاضافة الى ذلك ، فنحن لن نستطيع أبداً أن نفهم التاريخ الارقى للانسان إذا ما تجاهلنا الواقعة القائلة بان الانسان بوصفه جوهر العنصر وأصله ، وبوصفه المالك للغة والمتحدر من وحدة من دم ، وبوصفه عضوا من وحدة مدركة ، إنما له مصيران مختلفان، أحدهما لكينونته ، والآخر لكينونته الواعية. وهذا ما يعني أن أصل وتطور وديمومة جانب العنصر فيه ، إنما هو مستقل تماماً عن أصل وتطور وديمومة جانب اللغة فيه . فالعنصر هو شيء ما كوني ونفساني ومتعاقب ودوري وفق طريقة غامضة ، وهو بطبيعته الباطنية مكيف ومشروط الى حد ما بالروابط الفلكية العظمى .

أما اللغات فهي من جهة أخرى ، أشكال سببية (علية) وهي تعمل بواسطة استقطابية وسائلها . فنحن نتحدث عن غرائز العنصر أو فطرته، وعن روح اللغة ، لكن هذين إنما هما عالمان متباعدان ، فالعنصر ينتسب الى أعمق ما لكلمتي « الزمان » و « الحنين » من معاني ، أما اللغة فهي تخص معاني تينك الكلمتين : « الفراغ » Space و «الخوف» . ولكن فكرة « الشعوب » كانت حتى الآن

تغشي جميع هذه الأمور وتخفيها عن بصائرنا .

إذن فهناك تيارات لكينونة ، واعمـال من ربط لكينونة واعية ، وللأولى سيماء ، أما الأخيرة فانها ترتكز الى منهاج . فالعنصر ، كما نراه في العالم المحيط بنا ، هو مجموع كل السمات الجسمانية وذلك الى الحد الذي توجد فيه هذه السمات بالنسبة الى مدارك حس المخلوقات الواعية . وهنا يتوجب علينا أن نتذكر أن الجسد إنما يتطور ويكمل ، ابتداء من الطفولة حتى الشيخوخة ، الشكل البـــاطني النوعي المحدد له لحظه الحمل ، بينما أن ماهية الجسد هي ، في الوقت ذاته ، (وفي حالة تأملها منفردة عن شكلها أقول هي في حال من كينونة دائمة التجدد . ونتيجة لما تقدم ليس هنـاك من شيء يبقى فعلاً من الجسد في الانسان سوى المعنى الحي لوجوده وكل مـــا نعرفه عن هذا (المعنى الحي) هو ذاك القدر كما يعرض ذاته في عالم الشعور الواعي . فالانسان من النوع الارقى ، فيما يتعلق بتـــأثير العنصر الذي يستطيع أن يتلقاه ، إنما هو مقيد تماماً بذاك الذي يتبدى لعينيه في عـالم الضوء ، وهكذا فـان العنصر ، متنا وحاشية ، هو ، بالنسبة اليه ، شمس من سمات وسجايا منظورة . ولكن ، حتى بالنسبة اليه ، لا توجد هناك من ذخائر وآثار غير وفيرة لقوة ملاحظة السمات غير البصرية ، كالرائحة مثلًا وكصياح الحيوانات ، وأهم من هذا كله ، نماذج (Modelities) الكلام البشري . والأمر على العكس من هذا لدى الحيوانات الارقى الاخرى ، فان قدرة هذه الحيوانات على تلقي تأثير العنصر لا يقرره أبداً البصر ، فحاسة الشم لدى هذه هي أشد وأقوى ، وللحيوانات ايضاً ما عدا هذه الحاسة ، حالات من انفعال تراوغ الفهم البشري وتنفلت منه . وعلى كل فـان الانسان والحيوان همـا وحدهما القادران على تلقي تأثير العنصر ، وليس النبات الذي له أيضاً عنصر كما يعلم كل مُرَبٍّ . وانه والحق ليثير في نفسي اعمق الانفعالات ، أن أشاهد كيف تتوق أزاهير الربيـع ، كأنهـا الوحامى ، لتلقِح ولتلقَح ، ولا تستطيـع ، مع كل ما أعطيت من بهاء وضاح ، أن تجذب الواحدة منها الاخرى ، أو حتى أن تراهـا ، ولكن هذا المشهد (مشهد أزاهير الربيـع) يجب أن يكون له معنى لدى الحيوانات ، التي توجد بالنسبة اليهـا وحدها ، هذه

الألوان والروائح .

انني ادعو « اللغة » بكامل النشاط الحر للكون الأصغر الواعي ، وذلك طالما أنها تنطلق بالشيء الى ميدان التعبير للاخرين . أما النبات فليس له من شعور واع ، وليست له قدرة التنقل والحركة ، وهو لذلك لا يمتلك لغة . أما الشعور الواعي للوجود الحيواني ، فهو على العكس من ذلك ، إذ أنه شعور ناطق متناً وحاشية ، أكانت الأعمال الافرادية تعتمد التعبير أو لا تعتمده ، أو حتى أكان الهدف المدرك أو غير المدرك للعمل يقع في اتجاه مغاير تماماً .

فالطاووس ، دونما جدال ، يتحدث عندما ينشر ريش ذيله ، لكن هريرة تلاعب بكرة مشدودة الى خيط ، تتحدث ، دونما شعور ، الينا أيضاً من خلال مفاتن حركاتها الظريفة . ان كل انسان يعرف الفرق القائم في حركات الواحد كما لو كان الواحد مدركا أو غير مدرك أنه موضوع لمراقبة ، والواحد يبدأ فجأة بالتحدث ، بوعي وادراك ، في جميع أعمال الواحد .

وهذا ، على كل حال ، يقودنا فوراً الى التمييز البالغ الأهمية بين نوعين من اللغة – النوع الأول وهو اللغة التي هي تعبير فقط بالنسبة للعالم ، وهي ضرورة باطنية تنبع من الحنين الملازم لكل حياة، حنين الحياة الى تحقيق ذاتها أمام نواظر شهود ، وعرض وجودها الخاص على ذاتها ، أما النوع الثاني ، فهو اللغة المقصود بها أن تفهم من قبل كائنات معينة . ولهذا فان هناك لغات تعبير ولغات مواصلة ، والأولى تتخذ فقط لنفسها حالة لكائن واع ، أما الثانية فانها تتخذ صلة لكائنات واعية . فان تفهم يعني أن تجيب أو تستجيب لما للاشارة من محرض أو محرك ، وأن يرافق استجابتك شعورك الخاص بمغزاها . وأن يفهم الواحد الآخر ، وأن تجري بينهما « محادثة » ، وأن تتحدث الى « الـ » « أنت » ، يشترط لذلك أن يكون لدى الآخر حس بالمعاني ينطبق تماماً على حسك بها . ان لغة التعبير أمام شهود تبرهن فقط على وجود أو حضور « الأنا » ، لكن لغة المواصلة تفترض وجود ، أو حضور « الأنت » .

« فالأنا » هي التي تتحدث ، و « الأنت » هي المقصود منها أن تفهم كلام « الأنا » . فالشجرة أو الحجر أو السحابة يمكن أن تكون في نظر الانسان البدائي « الأنت » ، كما وأن كل ألوهيـة هي « الأنت » . وليس هناك من شيء في الاساطير عاجزاً عن الحديث الى الانسان ، ويكفينا فقط أن نتأمل في نفوسنا ، في لحظات الهياج الجامح أو الانفعال الشعري ، كي نتحقق من أن أياً من الاشياء يستطيع أن يصبح في نظرنا حتى هذا اليوم « الأنت» . ونحن توصلنا أول ما توصلنا الى معرفة « الأنا » بواسطة بعض من « انت » . لذلك « فالأنا » هي مسمى للواقعة القائلة بان هناك جسراً قائماً يمتد الى كائن آخر ما .

لذلك فمن المستحيل علينا ، على كل حال ، أن نخطط حدوداً دقيقة في صحتها بين لغات التعبير الديني والفني وبين لغات المواصلة . وهذا القول صحيح أيضاً وينطبق (خاصة) على الحضارات الارقى بما لهذه الحضارات من تطور منفصل لدوائر شكلها . وذلك لأنه لا يستطيع ، من جهة ، أي انسان أن يتحدث دون أن يدخل في صيغة الكلام بعضاً من مسحة أو ميزة بارزة للتأكيد ، دون أن تكون لتلك المسحة ، أو هذه الميزة ، أية علامـة بضرورات المواصلة على هذا الشكل ، ومن جهة أخرى ، جميعنا يعلم بالدراما التي أراد فيها الشاعر أن «يقول» شيئاً ما كان باستطاعته أن يقوله بالجودة ذاتها ، أو بافضل منها ، اذا ما عمد الى الحض او النصح أو التحذير ، أو الانذار ، زد على ذلك للتصوير الزيتي الذي تعمدت محتوياته أن تهذب أو تحذر أو تحسن ، وهذا يتجلى لنا في سلاسل الصور التي نشاهدها في أي من الكنائس الارثوذكسية والتي تتفق وتنطبق على قواعد قانون كنسي صارم ، وتهدف الى تحقيق هدف صريح يتمثل في جعل حقيقة الدين جلية واضحة للمشاهد الذي لا يقول الكتاب له شيئاً ، أو ما استعاض به هوغارت عن المواعظ الدينية ، أو حتى بالصلاة ، فيما يتعلق بهذا الأمر ، الصلاة التي هي بمثابة توجه مباشر ، أو حديث مباشر الى الله ، والتي يمكن أيضاً أن تستبدل بالقيام بالطقوس المذهبية على مشهد من النـاس ، هذه الطقوس التي تتحدث الى المشاهد بلغة صريحة واضحة . ان الجدل النظري الدائر حول غاية الفن أو هدفه يستند الى

الفرضية القـــائلة بان لغة التعبير الفني يجب ألا تكون ، وفي كل الأحوال ، لغة مواصلة ، وأن ظاهرة الكهنوت ترتكز الى القنـاعة بأن الكاهن وحده هو الذي يعرف اللغة التي يستطيع الانسان ان يواصل بواسطتها الله .

ان جميع تيارات الكينونة تحمل طابعاً تاريخياً ، وكل مناهج الربط للكينونة الواعية مطبوعة بطابع ديني . وان ما نعرفه بكونه ملازماً لكل لغة شكل، من دينية أو فنية ، وخاصة في تاريخ كل أبجدية، (لأن الكتابة هي لغة لفظية للعين)، انما يسري مفعوله وينطبق ، دون شك ، بصورة عـــامة ، على الكلام البشري الواضح المعنى والحق أن الكلمات الأولية (للتركيب الذي لا نعرف الآن عنه أي شيء مهما كان نوعه) يجب أن يكون لها ايضاً وبالتأكيد صبغة من مذهب . ولكن يوجد هناك منها ربط يوفق من جهة أخرى ، بين العنصر وبين كل شيء نسميه حياة (كالصراع من أجل القوة) ، والتاريخ (بوصفه مصيراً) أو السياسة اليوم. وانه قد يكون أمراً خيالياً أن نناقش شيئاً ما ذا غريزة سياسية في البحث في نبات متعرش يتسلق ليبلغ تماسك تمكنه من الالتفاف والتغلب وخنق الشجرة بغية أن يثبت نفسه أخيراً ويتطاول عاليا برأسه فوق تاج الشجرة ـ أو نناقش شيئاً من شعور ديني بالعالم في أغنية قبرة تتسامى عاليـاً في الأجواء . ولكن بالتأكيد انه من خلال أشياء كهذه تشكل هذه التلفظات للكائن والكائن الواعي، وللنبض والتوتر سلاسل متصلة تبلغ الاشكال المتكاملة من سيـــاسية ودينيـــة لكل مدينة حديثة .

وهوذا أخيرا المفتاح لهذين العـالمين الغريبين اللذين اكتشفهما علمـــاء أصول السلالات البشرية في جزئين مختلفين تمامـاً من العالم ، وبتطبيقات هي نوعاً مـــا محدودة، ولكنهما أخذا منذ اكتشافها يزحفان بهدوء الى مقدمةالبحث وأعني بهذين العالمين «الطوطم» Totem ، «والتابو» Taboo . وكلما ازدادت هاتان الكلمتان غموضاً وابهاماً ، وازداد عدم امكانية تعريفها وتحديدهما،يزداد شعورنا بأننا نلمس في هاتين الكلمتين قاعدة نهائيه للحياة ، قـــاعدة لم تكن بالقاعدة تلك ، أي بجرد

قـاعدة الانسان البدائي . والآن ونتيجة لاستقصائنا المذكور أعلاه ، نجد أمامنا معاني واضحه لكل منهما . فالطوطم والتابو يصفان المعـــاني النهـائيه لكل من الكينونة والكينونة الواعية ، للمصير والسببية (العلية) ، للعنصر واللغه ، للزمان والفراغ ، للحنين والخوف ، للنبض والتوتر ، للسياسة والدين . فجـانب الطوطم من الحياة هو الجـانب الشبيه بالنبات ، وهو ملازم وموروث في كل كائن ، بينما أن جانب التابو (من الحياة) هو الجـــانب الحيواني وهو يفترض مسبقاً الحركة الحرة الطليقة لكل كائن في أحد العوالم . أمـــا وسائل « طوطمنا » فهي وسائل الدورة الدموية والتناسل، بينما أن وسائل «تابونا» هي وسائل الحواس والأعصاب. إن لكل ما هو طوطم سيماء ، وان لكل مـــا هو تابو منهاجاً . ويكمن داخل الجـــانب الطوطمي الشعور المشترك بين الكائنات هذا الشعور الذي ينتسب الى تيار الوجود ذاته ، ونحن لا نستطيـع أن نكتسب الجـانب الطوطمي أو أن نتخلص منه ، فهو واقعة ، لا بل إنه واقعة كل الوقائع . أما ما هو تابو ، من جهة أخرى ، فهو المميز لانظمة الشعور الواعي للربط ، وهذا قـــابل لأن يتعلمه الانسان ويكتسبه ، وهو لهذا السبب بالذات يصان ويحافظ عليه من قبل الطوائف المذهبية ومدارس الفلاسفة واتحـادات الفنانين بوصفه سراً ، وكل من هذه تملك نوعاً من لغه خفية المعنى سريته خاصة به وموقوفة عليه .

ولكننا نستطيـع أن نفكر بالكينونة دون أن نكون بحاجة للشعور الواعي، ولكننا لا نستطيـع العكس – فهناك مثلاً كائنات عنصر لا لغة لها ، ولكن لا توجد لغات لا عنصر ، او عناصر لها . ولذا فان كل ما هو من عنصر يمتلك تعبيره الذاتي الملائم وهو مستقل عن أي نوع من انواع الشعور الواعي ، ومشترك بين النبات والحيوان . وهذا التعبير – وعلينـا أن لا نخلط بينه وبين لغة التعبير التي تتوقف وتحتوي على تبديل فعال للتعبير – أقول ان هذا التعبير لا يقصد ان يكون له مشاهدون أو شهود ، لكنه موجود وقائم بكل بساطة ، انه سيماء . وهو ليس بذاك الذي يتوقف عند النبات ، فهنـاك في كل لغة حية ايضـاً (ويا لعمق مغزى كلمة حية) نستطيـع أن نكتشف ، الى جانب التابو القابل للتعلم ، صفة عنصر لا

يمكن اطلاقاً تحويلها والتي لا تستطيع الأوعية القديمة للغة أن تنقلها الى خلف غريب ، وهذه الصفة تكمن في اللحن والايقاع والنبرة ، وفي اللون والرنين ومقياس سرعة Tempo التعبير ، وتكمن في اللهجة المرافقة للايماءة أو الاشارة. وعلينا بهذا الخصوص أن نميز بين اللغة وبين النطق ،فالاولى هي بحد ذاتها مخزون ميت من الاشارات ، بينما أن الثاني (النطق) هو الحيوية ، أو النشاط . الذي يعمل بهذه الاشارات . وعندما نعجز عن سماع أو الرؤية المباشرة لكيفية النطق باللغة ، فعندئذ كل ما نستطيع أن نعرفه عن تلك اللغة انما هو مجرد عظامها وليس بلحمها . وهذه هي حال اللغات من السومرية والغوطية والسنسكريتية ، وحال جميع اللغات الأخرى التي حللنا رموزها من المخطوطات والمحفورات ، ونحن لعلى حق اذا ما نعتنا هذه اللغات باللغات الميتة لأن الجماعات البشرية التي كانت قد تكونت بواسطتها زالت من سفر الوجود . فنحن نعرف اللسان المصري ولكننا لا نعرف الألسنة المصرية . ومن اللغة اللاتينية الاغسطية نعرف تقريباً قيم جرس الحروف ونعرف معاني التكلمات ، ولكننا لا نعرف كيفية جرس خطابات شيشرون وهو يلقيها من على منصات الخطابة ، زد على ذلك أن معرفتنا بهذه اكثر من معرفتنا بطريقة ونغم القاء هسيود وسافو Sappho لقصائدها ، أو أي شكل حقيقي كانت الاحاديث تتخذه في ساحة السوق الأثينية . واذا ما كانت اللغة اللاتينية قد أمست ثانية في الحقبة الغوطية لغة واقعية وعملية ، فانها كانت لغة جديدة. وهذه اللغة الغوطية اللاتينية لم تحتج الى وقت طويل كي تنتقل من تشكيل الايقاعات والاجراس المميزة لها (والتي لم تستطع مخيلتنا اليوم أن تستعيد اكثر من تلك ــ الايقاعات والاجراس ــ العائدة للغة اللاتينية القديمة) أقول كي تنتقل الى التجاوز على معاني الكلمة بالاضافة الى التجاوز على علم تركيب الكلام . ولكن اللغة المضادة للغة الغوطية اللاتينية ، وأعني بهذه لغة حركة الانسانيين والتي قصد بها أن تكون لغة شيشيرونية، كانت أي شيء ما عدا ظاهرة انتعاش ونهضة. وباستطاعتنا أن نقيس كامل مغزى العنصر في اللغة اذا ما قارنا بين ألمانية نيتشه ومومسن ، أو بين فرنسية نابليون ، ونلاحظ أن ليسنغ Lessing هو أقرب

بكثير باسلوب تعبيره الى فولتير منه الى هلدرلن .

والحال ذاتها تنطبق على اكثر لغات التعبير اعلاماً ، ألا وهو الفن بجانب التابو منه — وأعني بهذا المخزون من الاشكال وقواعد الاعراف ، والاسلوب الى ذاك الحد من حيث أنـه مصنع وترسانة لوسائل مقررة (وهو من هذه الوجهة شبية بالمفردات وعلم تركيب الكلام في لغة اللفظ) فـان هذا الجانب يقوم مقام اللغة وبالامكان تعلمه . وهو يتعلم وينقل بواسطة تقـاليد المدارس العظمى في التصوير الزيتي ، وبناية الاكواخ ، وبصورة عامة في الانضباط التقني الصارم الذي يمتلكه بداهة كل فن أصيل ، والذي قصد به في كل العصور أن يعطي السلطة الأكيدة لاسلوب تعبير كان أو لا يزال في وقت معين اسلوبا لا شك أبداً في حياته في ذاك الوقت . وذلك لأن في هذا المجال ايضاً لغات حية وأخرى ميتة . فنحن نستطيـع فقط أن نصف لغة شكل ما بأنها لغة حية عندما نشاهد فصائل الفنانين يستخدمونها كمجموعة كما يستخدم المرء لغته الأصلية دون أن يكون في حاجة حتى الى التفكير بتركيبها . ووفق هذا المفهوم كان الاسلوب القوطي لعـام ١٦٠٠ ، واسلوب الروكوكو لسنة ١٨٠٠ ، يمثلان معـاً لغتين ميتتين . ولنقابل بين الثقة التامة التي عبر بهـا مهندسو القرنين السابع عشر والثامن عشر وموسيقيوهما عن ذواتهم وبين تردد بيتهوفن وفن شنكل وشادو الفيلولوجي ، هذا الفن الذي اكتسباه بعد أن عـانيا مرير الألم ، وعلماه نفسيهما بنفسيهما تقريبـاً ، ولنتمعن في مشوهات الفنانين ما قبل رفائيل وفي القوطيين الجدد وفي المذهب التجريبي المربك المحير الذي يدين به فنانو هذا العصر .

اننا لنرى، في لغة شكل فني كما تعرض علينا من خلال انجازاته ، لسان الجانب الطوطمي ، العنصر ، ينطلق بصوته ليفرضه على أسماعنا ، وصوته ليس أقل جلجلة في الفنانين كأفراد منه في أجيال كاملة من الفنانين . ان مبدعي الهياكل الدورية Doric في جنوبي ايطاليا وفي صقليه ومبدعي المعـابد القوطية المبنية من الأجر في شمالي ألمانيا كانوا أكيدا رجالاً عنصريين ، وهكذا ايضاً كانت حال الموسيقيين الألمان ابتداء بهينريخ شوتز حتى جوهـان سبستيان باخ . ان مؤثرات الدورات

الكونية تنتمي الى الجـــانب الطوطمي ، وبالكاد أشتبه حتى بوجود أهمية لهذه المؤثرات في تركيب تاريخ الفن ناهيك عن تقريرها ، وان أزمنه الابداع ، أزمنة الربيـع ، وأزمنة محركات الحب ومحرضاته التي (كليا مـا عدا الثقة الاجرائية في الشكل الاعلامي) تقرر زخم الاشكال وعمق التصورات والاراء تنتسب ايضاً الى الجانب الطوطمي . ان الشكليين (اتباع المذهب الشكلي - المترجم) يفسرون بواسطة عمق الخوف من العالم ، أو بواسطة قصور ، أو عيب في « العنصر » ، أما الفنانون اللاشكليون العظام فانهم يفسرون بفيض من دم أو قصور في الانضباط . اننا ندرك أن هناك فرقـــاً بين تاريخ الفنانين وبين تاريخ الأساليب ، وأن من الجائز أن تنقل لغة أحد الفنون من بلد الى آخر ، لكنه من المستحيل أبداً أن يتقن البلد الآخر التحدث بها اتقانا تاماً كاملاً .

ان للعنصر جذوراً ، وان العنصر والصقع ينتمي احدهما الى الآخر وينتسب اليه . واينما يضرب النبات جذوره فهناك يموت ايضـــاً . وهناك بالتأكيد حقيقة نستطيع وفقها أن نتتبـع دون ، مـا بطلان أو سخف ، العنصر حتى نعود به الى « مواطنه »، ولكن أهم من هذا بكثير أن نعرف ونتحقق من أن العنصر يلتصق أبداً ودائمـــاً بهذا الموطن ، مشدوداً اليـه ببعض من أهم مميزات جسده وروحه الجوهرية . واذا كنا لا نستطيـع أن نجد لذاك العنصر من أثر ، فـان هذا الأمر يعني أن هذا العنصر لم يعد له وجود . ان العنصر لا يهاجر ، بل ان الناس يهاجرون وذراريهم يولدون في أصقاع دائمة التبدل . لكن الصقع يمارس زخمـــاً خفياً على طبيعة النبـات فيهم ، وأخيراً يتبدل تعبير العنصر تبدلاً كاملاً ، ويتم تبدله نتيجة لخمود التعبير القديم وظهور تعبير جديد . ان الانكليز والألمـــان لم يهاجروا الى أميركا ، بل ان الذين هاجروا الى هناك هم أناس ، أما ذراريهم فهم أميركيون . ولقد أتضح منذ طويل زمن أن تربة الهنود قد طبعتهم بطابعها ، وانهم يمسون جيلاً بعد جيل اقرب شبهاً بالشعب الذي أبادوه ولقد أظهر لنا غاولد Gould وباكستر أن البيض من جميـع العناصر والهنود والسود قد بلغوا جميعـــاً ذات المستوى من الحجم الجسماني ، وذات السن من البلوغ ، وأن المهاجرين الارلنديين الذين وصلوا

وهم صبيان ينمون نمواً كسيح البطء ، قد جرفتهم بصورة صـــاعقة قوة الصقع خلال الجيل ذاته .

لقد أبان لنا « بوس » Boss أن الأطفال المولودين في أميركا من الأباء ذوي الرؤوس الصقيلة الطويلة ، والرؤوس الالمـــانية اليهودية القصيرة قد أمسوا فوراً ذوي رؤوس ذات نموذج واحد . وهذه ليست بحالة خاصة ، بل انمـا هي ظاهرة عامة ، يتوجب علينا أن نستفيد منهـا لنكون جد حذرين حين معالجتنا لهجرات التاريخ التي لا نعرف عنهـا شيئاً اكثر من بعض اسماء القبائل متشردة وآثار من لغات (كالدانيا Dania ، الأترسكان ، بيلاسجي ، آخيان ، دوريان) .

أما بالنسبة الى عنصر هذه « الشعوب » فنحن لا نستطيـع أن نستنتج أي شيء مهما كان أمره . وان ذاك السيل الذي تدفق على أراضي جنوبي اوروبا تحت مختلف الاسماء من غوط ولمبارديين وفندال ، فانه كان دون ريب عنصراً قائمـاً بذاته ، ولكن ما كادت أزمان عصر النهضة تطل برأسها حتى كانت هذه قد أنمت ذاتها تماماً داخل مميزات جذر تربة بروفنسـال وكاستليا وتوسكانا .

وليست الحـــال هي هذه واللغة . فموطن اللغة يعني فقط المكان التصادفي لتكونها ، وهذا لا يشده أي رابط الى شكلها الباطني . فاللغات تهاجر وهي بهذا تنتشر بواسطة نقلهـا من عشيرة الى عشيرة . وهي قابلة للوجود ، وقابلة للتبادل ، ونحن في حال دراستنا لتاريخ العناصر المبكرة زمنا ، لسنا بحاجة ، لا بل يتوجب علينا الا نشعر بأقل تردد نفترض حينها قيام تبدلات لغوية كهذه. إن ،وأكرر ثانية، ما يقتبس هو محتوى الشكل وليس لهجة اللغة ، وهو يقتبس (كما يقتبس البدائيون حوافز الزخرف) بغية استخدامه بقناعة تامة كعناصر من لغة شكلهم الخـاصة . وفي الأزمنة الغابرة كان اذا مـــا أظهر الشعب نفسه أنه هو الأقوى ، أو تبدى الشعور بأن لغته تمتلك فاعلية أسمى ، فهذان الأمران كانا كافيين لاستمالة الآخرين وترغيبهم في التخلي عن لغتهم الخـــاصة – برهبة دينية أصيلة – واقتباس لغة ذاك الشعب لغة لهم . ولنتتبع التبدلات التي طرأت على لهجة النورمانديين الذين نجدهم

في منطقة نورماندي وانكلترا وصقلية والقسطنطينية ، ونجد أن لهؤلاء لغة تختلف عن الاخرى باختلاف المكان ،ونجد أستعدادهم الدائم لأن يبادلوا الواحدة منها بالاخرى . ان الخشوع أو الورع أمام اللغة الأصلية (لغة الأم) ، وهذه الجملة تدل بالذات على قوى أخلاقية عميقة ، ونوضح مرارة معاركنا اللغوية المتكررة أبداً أقول أن هذا الخشوع هو سجية من سجايا النفس الغربية المتأخرة زمنـــاً ، وهي غير معروفة تقريباً من قبل شعوب الحضارات الاخرى ، ومجهولة تماماً لدى الجماعات البدائية .

ومن سوء الحظ أن مؤرخينا لا يدركون فقط هذه بل انما يمطون بها ضمنا ويشدون بها بوصفها فرضية ، ليجعلوها تغطي كامل ميدانهم حيث تؤدي في النهاية الى استخلاص جمهرة من الاستنتاجات الخادعة الغرارة وذلك فيما يتعلق بارتبـاط الاكتشافات اللغوية وأثرهـا في أقدار « الشعوب » ، ولنتأمل في اعـادة تركيب «الهجرة الدورية» Dorian من زاوية توزع اللهجات العامية الاغريقية التي عرفت فيما بعد . لذلك فمن المستحيل علينـا أن نستخلص الاستنتاجات عن أقدار الجانب العنصري من القضية ، من مجرد أسمـاء الأماكن والاسماء الشخصية والخطوط والنقوش واللهجات العامية .ونحن لا نعرف بالبداهة أبداً عما اذا كان أسم قوم ،يقوم مقام ، أو يدل على جرم لغة ، أو جزء من عنصر أو كلا الأمرين، أو لا يدل على أي منها – زد على ذلـك أن أسماء الاقوام وحتى أسماء الاراضي ونحوهـا تملك مصائر خاصة بها .

- ٢ -

إن أنقى ما للعنصر من تعابير ، إنمـا هو الدار .فمنذ اللحظة التي يستقر فيها الانسان ويتوطن ، لا يعود قانعاً بمجرد مأوى ، بل انمـا يبني له مسكنا ، وهذا

التعبير الدار - يتجلى داخل « الانسان » العنصر (الذي هو مـادة صورة العالم البيولوجي) ويميزه كما يميز كل عنصر من العناصر البشرية في تاريخ العـالم ، هذه العناصر التي تشكل أنهاراً من كينونة أشد بكثير بأهميتها ومغزاهـا الروحيين (من انسان العنصر - المترجم) ان الشكل الاولي للدار هو في كل مكان نتـاج شعور ونمـاء ، وليس أبداً نتاج معرفة . وهو كصدفة القوقعة ، أو قفير النحل ، أو عش الطير ، له وضوح ذاتي فطري ، وكل سمة من سمات العادة الاصلية وشكل الكائن والزواج والحياة العائلية والنظام القبلي إنمـا تنعكس داخل المكان وفي تنظيم الغرف ، تنظيم صحن الدار ، القاعة ، الكوخ المخروطي الشكل ، Wigwam[1] الايوان ، الحوش ، المخدع ، ومخدع النساء . والمرء ليس بحاجة الى اكثر من أن يقارن بين مخطط لدار سكسونية قديمة وآخر لمسكن روماني ، حتى يشعر بأن روح أهل كل دار منها إنما تنطبق بكل ناحية من نواحيها على روح الدار .

ولقد كان من المتوجب على تاريخ الفن ألا يمد بأصابعه الى هذا الميدان . فـانه كان من الخطأ البالغ أن يعالج بناء الدار كفرع من فن الهندسة المعمارية . فالدار هي شكل ينشأ من مجاري الكائن الغامضة ، ولا تنشأ من أجل العين التي تبحث عن الاشكال في الضوء . فلم يحدث أبداً أن قـام أي من المهندسين بوضع مخطط لغرف كوخ الفلاح الالماني القديم Boor ، كما وضع مخطط احدى الكتدرائيات وصمم . وهذا الخط من الحدود ذو المغزى العميق قد سها عن بال الابحاث الفنية - بالرغم من أن دهيو Dehio يشير في احدى صفحـاته الى أن الدار الخشبية الالمانية القديمة لا تمت بـأية صلة الى الهندسة المعمارية العظمى والتي عرفت فيما بعد ، ونشأت نشأة مستقلة تماماً - وهكذا جاءت النتيجة لتخلق حيرة وارتباكاً دائمين في المنهاج ، هذا المنهـاج الذي يملك اللوذعي في الفن احساساً كافياً به ، لكنه لا

---

١ - Wigwam اسم الكوخ الذي يسكنه الهنود الحمر وخاصة القاطن منهم على البحيرات الأميركية العظمى

(المترجم)

يستطيع أن يفهمه . فعلمه يجمع دون مـا تمييز ، وفي كل « المراحل البدائيـة » والسابقة لهـا ، جميع انواع العدد والاسلحة والفخـار والاقمشة والنصب التذكارية والدور ، ويعالج كل هذه الاشياء من وجهة نظر الشكل بالاضافة الى دراسته لهـا على أضواء الزخرف « الديكور » ، وهو بانطلاقه على هذا النمط لا يشعر بـأنه يسير فوق أرض راسخة ثابتة حتى يبلغ التـاريخ المتعضي Organic لفن التصوير الزيتي والنحت والهندسة المعمارية ، (وأعني بهذا الفنون المميزة والقائمة بذاتهـا) . ولكن دون أن يحس أو يعرف فهو قد تجاوز حداً يفصل بين عالمين ، عالم تعبير النفس وعالم لغة التعبير المنظورة . فالدار ومثلها الاشكال الأساسية (أعني العادة) التي لم تدرس أبداً ، أشكال الأواني والاسلحة والثياب والعدد ، كل هذه إنمـا تنتسب الى الجانب الطوطمي .

وهذه لا تمثل ذوقاً ، بل إنما تمثل نمطاً من القتال والسكن والعمل. فكل مقعد بدائي إنما هو عسلوج من عساليج وضع الجسد كنموذج ، وكل حلقة جرة إنمـا هي امتداد للذراع اللدنة الطرية العود . أما التصوير الزيتي المنزلي والخياطة والحلة كزخرف أو زينـة ، وزخرفة الأسلحة والمعدات الحربية فهي ، على العكس من تلك ، إذ أنها تنتمي الى جانب التابو من جانبي الحياة، والحق أن نماذج هذه الاشياء وحوافزها إنما تمتلك في نظر الانسان البدائي حتى الصفات السحرية . ونحن جميعاً نعرف شعار السيوف الالمانية القديمة في عصور الهجرات ، ومـا عليها من زخرفة شرقية ، ونعرف القلاع الماسينية بمهارتها الفنية المنوانية . وزبدة القول، أن التمييز بين هذين العالمين (الطوطم ، والتابو - المترجم) إنما هو تمييز بين الدم وبين الحس ، .. بين العنصر وبين الكلام ، (اللغة - المترجم) بين السياسة وبين الدين .

والحق أنه لا يوجد حتى تاريخ عالم للدار وللعناصر التي سكنتها لذلك فان ايجاد تاريخ كهذا يجب أن يكون من أشد واجبات البحاثة الحاحـاً . ولكن يتوجب علينا أن نعمل (في هذا الموضوع - المترجم) مستعينين بوسائل أخرى تختلف تماماً عن وسائل تاريخ الفن هاتيك . فمسكن الفلاح ، اذا ما قورن أو قيس بمقياس سرعة

l'empo كل تاريخ فن ،يتبدى شيئاً ما ثابتاً دائماً و«خالداً» كالفلاح نفسه . فمسكنه يقع خارج دائرة الحضارة ، ولذلك هو خارج نطاق التاريخ الأرقى للانسان، وهو لا يعترف بالحدود الدنيوية والفراغية معاً لهذا التاريخ ، ويصون ذاته بصورة مثالية من كل تغيير أو تبدل طيلة التبدلات والتغيرات التي تطرأ على الهندسة المعمارية هذه التبدلات التي يشاهدها مسكن الفلاح لكنه لا يشترك أو يشارك فيها . فنحن لا نزال نجد الكوخ المستدير ، الذي عرفتـــه ايطاليا القديمـــة ، وجوداً في العصور الأمبراطورية ، كما وأننا نجد شكل الدار الرومانية . القائمة الزوايا، والتي تمثل طابع وجود لعنصر ثان ، في مدينة بومبي وحتى في القصور الأمبراطورية. ولا شك أن كل نوع من زخرفة واسلوب انما قد اقتبس من الشرق ، غير أننـــا لا نستطيع أن نجد أنساناً رومانياً واحداً يمكن أن يراود أبداً عقله التفكير بتقليد دار سورية ، اكثر مما أن يراود مثل هذا التفكير مهندس مدينة هيلينية فيبعث بشكل دار مسنية(نسبة لمدينة مسينا) وأخرى تايرنسية (نسبة لمدينة Tiryns) وثالثة دار فلاح اغريقي قديم كتلك الدار التي وصفها غالن Galen . فدار الفلاح السكسوني أو الفرنكوني قد حافظت وصانت نواتها الجوهرية من كل ضرر ابتداء من المزرعة الريفية ومروراً بالدار التي عرفتها المدن الحرة القديمة ، وانتهاء بمباني الطبقة الثرية في القرن الثامن عشر ، وذلك كله بينما كانت الأساليب المعمارية الغوطيـــة واساليب عصر النهضة والباروكية والامبراطورية تنحدر فوق دار ذاك الفلاح اسلوباً بعد اسلوب فتجليها بجواهرها من القبو حتى غرفة سطحها العلوية، لكنها مع هذا لم تستطع ابداً ان تحرف روح تلك او تعكسها او تقلبها . والقول نفسه هو صحيح ايضاً بالنسبة لأشكال الأثاث المنزلي الذي يتوجب علينا ان نفرق فيه بحذر وعناية ، بين الشكل السيكولوجي وبين المعالجة الفنية له . فتطور المقعـــد الشمالي صعوداً حتى المتكأ (المقعد ذو التكاة) Armchair المعروف في النوادي هـــو بصورة خاصة قطعة من تاريخ العنصر وليس هو كما يسمى جزء من تاريخ الاســـلوب . وكل مسحة أخرى يمكن أن تغرر بنا وتخدعنا بالنسبة لأقدار العنصر – فان نجد أسماء أثر وسكانيه ، بين « شعوب البحر » التي هزمها رمسيس الثالث ، وأن نتأمل

في النقوش الغامضة المكتشفة في جزيرة ليمنوس Lemnos ، وفي الصورة الزيتية على جدران قبور اتروريا Etruria ، كل هذه الأمور لا تقدم الينا دلائل مقنعة على أن ترابطاً جسمانياً يقوم بين هذه الأقوام. ومع أنه وقرابة نهاية العصر الحجري قد نشأت واستمرت وامتدت زخرفة معبرة ناطقة في الاقاليم الفسيحة الواقعة شرقي جبال الكاربات ، فمن الجائز تماماً أن يكون عنصر قد حل محل عنصر آخر في تلك الأقاليم. ونحن لو كان كل ما نملكه في اوروبا الغربية فقط بقايا خزفية وآثار من فخار تعود الى تلك القرون الممتدة من تروجان Trojan حتى شلودفغ Chlodwig ، لتوجب علينا ألا يكون لدينا أقل فكرة عن ذاك الحدث الذي نعرفه باسم « الهجرات العظمى ». ولكن وجود دار بيضاوية الشكل في اقليم بحر ايجا ، واخرى مدهشة في مماثلتها لها في روديسيا ، وذاك التوافق التام (في الشكل) ، بين دار فلاح سكسوني ودار فلاح بربري ليبي Kabyle ، هذا التوافق الذي كثيراً ما نوقش وبُحث ، كل هذه الأمور انما تكشف عن قطعة من تاريخ عنصر .

ان الزخرفة تنتشر عندما يقوم شعب من الشعوب بضمها اليه بما لها من لغــــة شكل ، ولكن الدار إنما تنقل فقط مع عنصرها. فاختفاء نوع من الزخرفة لا يعني أكثر من أن تبدلاً قد طرأ على اللغة ، ولكن عندما يختفي نموذج الدار ، فهذا يعني ان عنصراً قد اختفى ، وخمد وباد.

مما تقدم يتضح أنه من المتوجب على تاريخ الفن ، بالاضافة الى انتباهه بأن يبدأ ببحث الحضارة باسلوب ملائم وسديد ، أن لا يهمل حتى في مجراه أن يفصل بعناية وحذر جانب العنصر عن اللغة الخاصة به . ففي مطلع كل حضارة ينشأ شكلا نظام أرقى ، وهما محددان ومعرفان تعريفاً واضحاً وينتصبان فوق قرية الفلاح بوصف الاول منهما تعبيراً لكائن ، والثاني للغة كائن واع . انهما القلعة والكاتدرائية. وفيهما يتسامى التمييز بين الطوطم وبين التابو ، بين الحنين وبين الخوف ، بين الدم وبين الذهن ، فيبلغ رمزية عظمى . فالقلاع القديمة من مصرية وصينية وكلاسيكية ، وعربية جنوبية وغربية ، تنتصب كل واحدة منها بوصفها موطناً لأجيال مستمرة ، وهي قريبة جداً الى كوخ الفلاح ، وكلاهما ـ القلعة والكوخ بوصفهما نسختين

طبق الأصل عن حقيقتي الحي ، التوالد والموت ، يقعان خارج دائرة كل تاريخ لفن. فتاريخ القلاع الالمانية هو قطعة من تاريخ عنصر متناً وحاشية ،والزخرفة المبكرة زمناً لا تغامر فعلاً بنشر نفسها عليها، وان كانت تزين هنا العوارض وهناك الابواب، وايضاً السلالم لكنها يمكن أن تكون على هذا الشكل أو ذاك، أو على تلك الحال، التي تراد وتشتهى، أو أن تحذف كلها. وذلك لانه لا يوجد أي رباط باطني بين هيكل القلعة وبين الزخرفة. اما الكاتدرائية من جهة اخرى. فهي لا تزخرف لانها هي الزخرفة فيها . وتاريخها انما هو ذاك الذي يطبق تمام الانطباق على تاريخ الاسلوب الغوطي. وهذا القول صحيح ايضاً وينطبق على المعبد الدوري وعلى جميع الحضارات المبكرة الاخرى . والتوافق ، في هذا الميدان بين الحضارة الغربية وكل حضارة اخرى نعرف شيئاً من فنها . تام الى ذاك الحد حيث أنه لم يخطر على بال احد ليندهش ويذهل من الواقعة المقررة ان الهندسة المعمارية الدقيقة في قواعدها ، والتي هي بداهة الشكل الارقى للزخرفة المجردة ، انما تنحصر كلياً في المباني الدينية . فكل ما هنالك في جلنهاوسن وغوسلار وفارتبورغ هو من فن الكاتدرائيه. وهو «ديكور» وليس جوهراً. فالقلعة أو السيف او الجرة يمكنه ان يستغني كلياً عن هذا الديكور ، دون أن يفقد معناه او حتى شكله . ولكن تمييزاً كهذا في الكاتدرائية او معبد اهرام مصري . بين الجوهر وبين الفن هو امر غير معقول بداهة .

إذن فاننا نميز هنا بين المبنى الذي يملك اسلوباً ، وبين المبنى الذي للانسان فيه اسلوب. فبينما نحن نرى في الدير والكاتدرائية أن الحجر هو الذي يمتلك شكلاً ويعبر عنه للناس الذين هم في خدمته ، نرى في الدار الريفية والقلعة الاقطاعية انها تمثلان كامل قوة حياة الفلاح والفارس ، هذه القوة التي تبني البناء من داخل ذاتها . وهنا نرى الانسان لا الحجر في الطليعة ، وهنا ايضاً توجد زخرفة، ولكنها زخرفة خاصة بالانسان تتضمن الطبيعة الصارمة والشكل المستقر الراسخ للأعراف والعادات . ويجوز لنا ان نصف هذا الاسلوب بالاسلوب الحي تمييزاً له من الاسلوب المتخشب. ولكن ما تكاد قوة هذا الشكل الحي تضع يدها على الكهانة

أيضاً ، خالقة في الازمان الغوطيه والفيدية ، نموذج الكاهن الفارس ، حتى تستولي لغة الشكل الرومانسكية الغوطية المقدسة على مقاليد كل أمر يتعلق بالحياة الدنيوية هذه من ازياء واسلحة وغرف وعدد الخ ... وتجعل لسطحها أسلوباً ، ولكن يتوجب على تاريخ الفن ألا يسمح لنفسه بأن تفقد اتجاهها في هذا العالم الغريب فهو ليس اكثر من السطح .

والحال هي الحال ذاتها في المدن المبكرة زمناً ، فليس هناك من شيء يتبع أو يتلو ، وبين الدور التي بناها العنصر والتي تشكل الآن شوارع أو طرق أو أزقة ، نصادف حفنة من شتيت مبان للعبادة تمتلك اسلوبـاً . وحينما يقوم هذا الشتيت يمسي مقاعد تاريخ الفن والمنابع التي تشع اشكالها على الساحات والواجهات وغرف الدار . ومع أن القلعة تتطور الى قصر مدني ومسكن لعائلة ثرية ، والبلاتيوم « والمنزول » الى دار نقابة وقاعة بلدية ، فان الواحدة منها وجميعها لا تمتلك اسلوباً بل انما تتلقاه وتحمله . والقول بأن الدين المبكر زمناً قد فقد ابداعه الميتافيزيكي في مرحلة الاستبلاد [1] الحقيقي هو قول صحيح .وهو(الدين المبكر زمنا) يسير قدما بتطوير الزخرف ، ولكن ليس الى حد جعل البناء زخرفة،ومن هذه النقطة يتناثر تاريخ الفن الى تواريخ فنون متفرقة . وتصبح الصورة ، والتمثال ، والدار ، مواضيع خاصة يطبق عليها الاسلوب .

وهنا تمسي حتى الكنيسة داراً كهذه . أما الكاتدرائية الغوطية فهي زخرفة ، لكن قاعة الكنيسة الباروكية هي بناء جلبب بالزخرفة . وسياق هذه العملية بدأ بالاسلوب الأيوني،واكتمل القرن السادس عشر،بالأسلوب الكورنتي والروكوكو ومن هنا انفصل البيت عن زخرفته انفصالا لا لقاء بعده ، وافترقا فراقاً تاماً بلغ من التنائي حداً لم تعد معه حتى التحف من كنائس القرن الثامن عشر وادبرته قادرة على تضليلنا ــ فنحن نعرف بأن كل فنها هذا انما هو فن دنيوي ، انه زخرفة

---

١ ــ أستبلاد: سكن البلدة

ــ المترجم ــ

ومع حلول العصور الأمبرارطورية يحول الاسلوب نفسه الى «ذوق» Taste، وبنهاية هذه الحـــال تتحول الهندسة المعمارية الى فن مهارة craft-art وهـذا الفن هو لغة التعبير الزخرفي ، وخاتمة تاريخ الفن معه ، لكن دار الفلاح بما لهـــا من شكل عنصر غير متبدل تستمر في الحياة .

- ٣ -

تبدأ أهمية الدار بوصفها تعبيراً عن عنصر حالمـــا يبـــدأ المرء بادراك المصاعب الهـائلة التي تعترض طريقه الى بحث لب العنصر . وأنا لا أشير هنـا الى جوهره الباطني ، الى نفسه – كما أشير الى ذاك الشعور الذي يتحدث الينا بوضوح كاف ، ونحن جميعـــاً نعرف انسان العنصر ، الانسان الكريم الارومة عندما نشاهده . ولكن ما هو الطابع بالنسبة لحسنا ، وقبل كل شيء بالنسبة لعيننا الـتي تمكننا من التعرف على العناصر وتمييزهـا ؟ ان هذا الطابـع هو أمر يدخل لا ريب في ميدان السيماء ، كما يدخل تصنيف اللغات في دائرة المنهـاج . ولكن يا لضخامة المادة التي قد تطلب ويا لكثرة تنوعها ! ويا لوفرة مـا يضيع منها ولا يسترد أبدا نتيجة للدمار ، وأكثر ممـا يضيعه الدمار منها ، ما يأتي عليه التلف او الفساد ! ان ما لدنيا من آثار بشر ما قبل التاريخ هو ، في أحسن الحالات ، هياكلهم العظمية ، ولكن كم من الأمور لا يحدثنا عنهـا الهيكل العظمي ! انه لا يحدثنا عن كل شيء تقريباً . إن البحث فيما قبل التاريخ يبدي باندفاعه السقيم وحماه السخيفة استعداده لأن يستنتج اللامعقول من عظم فك أو عظم ذراع . ولكن ليتأمل المرء في أحد تلك القبور الجماعية ، قبور الحرب في شمالي فرنسا ، فهذا القبر يضم كما نعرف رفات أناس من جميع العناصر ، وفي مثل هذا القبر يضطجع القتلى من البيض والملونين ،

من الفلاحين وابناء المدن ، من الشباب والرجال جنباً الى جنب . ولو أن المستقبل لم يكن لديه دلائل تكميلية بالنسبة لطبيعة هؤلاء ، فانه أكيدا لن ينور بواسطة البحث الانتربولوجي .

وبكلمات أخرى أقول إن الدرامات الهـائلة للعنصر يمكن أن تجتاز بقعة من الارض دون أن يحصل الباحثون في عظام المقابر على أقل علم بها . ان الجسد الحي هو الذي يحمل تسعة أعشار التعبير - وليست عقد أجزاء الجسد ومفاصله ، ولكن حركاتها الواضحة البينة ، والتعبير لا يرتسم على عظام الوجه ، بل إنمـا يتبدى على سحنته . وبالنسبة لهذا الموضوع كم من تعابير العنصر المحتملة والقابلة للترجمة تلاحظ فعلاً من قبل أشد المعاصرين ، لأحد الناس ، إرهاف حس ؟ وكم من الأمور تفوتنا رؤيتها ويفوتنا سماعها ! ومـا هو ذاك الأمر أو الشيء الذي نحن البشر - خلافاً للكثير من فصائل الحيوان - نفتقد عضو حاسة به ؟

لقد جـــابه العلم في العصر الداروبني هذه القضية بثقة هينة وتأكيد بسيط . ولكن ياهذا المفهوم الذي استخدمه من مفهوم سطحي أملس زلق وميكانيكي ! فهذا المفهوم يجمع أولاً مجموعة من ذات سمات سمجة مفرطـة واضحة كتلك التي يمكن ملاحظتهـا في تشريح المكتشفـات - وأعني بهذا السمات التي يمكن حتى للجثث أن تبديها . أما فيما يتعلق بملاحظة الجسد بوصفه شيئاً حياً ، فان هذا المفهوم لا يتطرق اليـــه من بعيد أو قريب . ثم إن هذا المفهوم يتحرى تلك الاشارات فقط التي لا تحتاج إلا الى أقل القليل من الفطنة وحدة الذهن ، ويتحراها فقط من حيث كونها قابلة للقياس وللاحصاء .

وكلمة الحسم هنا للمجهر وليست لجسّ النبض . وعندما تستعمل اللغة كعلامة فارقة ، أو صفة مميزة ، فعندئذ لا يجري تصنيف العناصر وفق طريقـة النطق أو اللهجة ، بل إنما يتم وفق التركيب الكلامي للنطق من صرف ونحو ، وهذا الأمر هو تماماً تشريح ومنهاج من نوع آخر . ولم يدرك أحد حتى الآن أن البحث في عناصر النطق هذه هو أحد الفروض البالغة الأهمية التي بامكان البحث أن يكرس

نفسه لها . ونحن جميعاً نعرف تمام المعرفة من خلال واقعة التجربة اليومية بأن طريقة النطق هي ميزة من أهم المميزات للانسان المعاصر . والأمثلة على هذا القول جمة غفيرة - وكل واحد منا عليم بأي عدد من هـذه الأمثلة . ففي الاسكندرية كان النا س يتكلمون اللغة اليونانية بلهجات عنصر بالغة في تباينها واختلافها ، وهذا واضح لنا ، حتى هذا اليوم ، من المخطوطات والنصوص . أما في أميركا الشمالية فان الناس المولودين فيها يتحدثون بلهجات متماثلة تماماً أجاء حديثهم باللغـات من انكليزية أو المانية أو حتى فيما يتعلق بهـذا الأمر ، بالهندية . فما هي خاصة عنصر الأرض التي تتبدى من خلال لهجة يهود أوروبا الشرقية ، وهي لذلك أيضاً موجودة في اللغة الروسية ايضاً ، وما هي خاصة عنصر الدم المشتركة بين كل اليهود والمستقلة عن كل مكان يقطنونه وعن مضيفيهم هذه الخاصة التي تتبدى في لهجـاتهم حينما يتكلمون أية لغة «أم» اوروبية ؟ وما هي ، تفصيلاً ، تراكيب الصوت ، والنبرات من تشديد أو تفخيم ، ومواضع الكلمات ؟

ولكن العلم فشل في أن يلاحظ أن العنصر هو ليس الشيء نفسه بالنسبة للنبات الذي يضرب جذوره في التربة ، كما هو بالنسبة للحيوانات المتحركة ، وأن هناك ، بالنسبة للجانب الكوني الأصغر من الحياة ، مجموعة طـازجة من الخصائص تطل وتتبدى ، وأن هذه هي بالنسبة لعالم الحيوان جازمة حاسمة . ولم يدرك ايضاً أن مغزى مختلفاً كل الاختلاف يجب أن يحمل أو يربط الى « العناصر » ، عندما تدل هذه الكلمة (العنـاصر) على التفرعـات أو التشعبـات داخل العنصر المتكامل « الانسان ». وهو - أي العلم - بحديثه عن التكيف والوراثة انما يقيم تسلسلا أو ارتباطاً سببياً (علياً) لا روح له ، تسلسلاً من خصائص سطحية ، ويلطخ الواقعة القائلة بان الدم هنا ، وقوة الارض المؤثرة على الدم هنـا ، إنمـا يعبران عن نفسيهما - عن أسرار لا يمكن أن تصبح مداراً لبحث أو قياس ، ولكن يمكن فقط أن تختبر اختبارا حيا وأن يشعر بها حينما ترمق عيناً عين أخرى .

وليس العلماء ايضاً مجمعين فيما بينهم على رأي واحد فيما يتعلق بالمرتبة النسبية لهذه

الخصـــائص السطحية . فبلومنباخ صنف عنـــاصر الانسان وفق اشكال الجمجمة ، وفريدريك ميلر (بوصفه ألمانيا أصيلا) صنفهم معتمداً في ذلك على الشعر وتركيب اللغة ، وتوبنار Topinard (بوصفه ايضـــاً فرنسيا أصيلا) أجرى تصنيفه لهم بالنسبه للون الجلد وشكل الأنف،وهاكسلي (لكونه انكليزيا عريقاً) اعتمد مثلاً خصائص الرياضة Sport . وآخرهم هذا قد أقام ، دون ريب ،ميزاناً جد ملائم ، ولكن أي خبير بالخيول كان سيقول له أن خصائص الأرومة لا يمكـن أن يحكم وصفها بواسطة الاصطلاحات العلمية .

ان « اوصاف »العناصر هي دون استثناء عديمة الجدوى كعدم جدوى أوصاف أناس مطلوبين للقضاء فتقوم الشرطة بتعميمها معتمدة في ذلك على معرفتها النظرية (Theoretical) بالناس .

ومن الواضح،أن ما هو مشوش وعادم النظام في مجموع تعبير الجسد البشري، لم يجر التحقق منه من قريب أو بعيد . فبغض النظر تماماً عن الشم (الذي هو في نظر الصينيين مثلاً خاصة من أهم الخصائص المميزة للعنصر) وعن الصوت (صوت النطق ، الاغنية ، وقبل هذا كله صوت الضحك الذي يمكننا من ان نشعر شعوراً عميقاً وصحيحاً بالفروق التي يعجز المنهاج العلمي عن النفوذ اليهـا) ، أقول بغض النظر عن الامور هذه كلها ، فان وفرة الصور التي تتراءى للعين هي مفرطة، حتى الذهول ، في تفاصيلها المنظورة فعلاً أو التي تحس بها الرؤيا الباطنية ، وإفراطها هذا يبلغ حداً يجعل امكانية تنسيقها في وجهات قليلة أمراً يستعصي على الفكر تمامـاً . وكل جوانب هذه الصورة ، وكل الملامح التي تشكلها ، إنمـا الواحد (الجانب ، الملمح) منها مستقل تماماً عن الآخر ، وله تاريخه الخاص به . وهناك حالات يتغير فيها التركيب العظمي (وخاصة شكل الجمجمة) تغيراً كاملاً دون ان يصبح تعبير الأجزاء اللحمية – مثلاً الوجه – تعبيراً مختلفـــاً . والاخوان والاخوات الذين ينتمون الى العائلة ذاتها قد يعرضون كل خاصة أو ميزة (تميز الواحد ، أو الواحدة منهن عن الاخرى – المترجم) من الخصـــائص التي اعتبرها بلومنباخ ، ميلر أو

هاكسلي حقـائق ثابتة ، ومع ذلك فيمكن ان يكون تعبيرهم الحي عن عنصرهم طابعاً « مسجلاً » لأي واحـد ينظر اليهم . ويتكرر حتى اكثر من ذلك التشابه في التركيب الجسماني المرافق بتنوع حقيقي وكامل في التعبير الحي – ويكفيني هنا أن اذكر الفرق غير القابل للقياس والقائم في أرومة الفلاحين الأصيلة كالفرق بين الفريزيين أو البريطان مثلاً وبين أرومة سكان المدينة الاصيـلة . ولكن هناك ، بالاضافة الى طاقة الدم – التي تصوغ الملامح الحية ذاتها (ملامح العائلة) مرة بعد أخرى وطيلة قرون من الزمن ، والى قوة الارض – التي نشاهدهـــا من خلال طـابع الانسان – اقول هناك ايضاً تلك القوة الكونية الغامضة ، قوة تجـاوب الروابط البشرية الوثقى (Syntony) . وان ما يعرف بالوحام لدى المرأة الحامل فانما هو ليس مثالاً بالغ الاهمية ، بل مثال خاص على عمل مبـــدأ اشتقاقي بالغ العمق وملازم لكل ما يحتويه جانب العنصر من الحياة . وإنهـــا لظاهرة عامه أن يلاحظ المرء أن المتزوجين المتقدمين في السن يصبح الواحـــد منهم ، شبيهاً بالآخر على صورة غريبة ، بالرغم من ان العلم بقياساته واجهزته قـــد « يثبت » العكس تماماً . ومن المستحيل علينا ان نغالي في القوة الاشتقاقية لهذا النبض الحي ، هذا الشعور الباطني الذي يحس به الواحد باكتمال طرازه الخاص .

إن الشعور بجمال العنصر – وهو شعور يتعارض تماماً مع الذوق الواعي لسكان المدن الناضجة ، تذوقهم لملامح الجمـــال الذهنية الفردية – هو بالغ القوة هائلها في الانسان البدائي ، ولهذا السبب وحده لا ينبجس أبداً داخل وعيه . ولكن شعوراً كهذا إنما يخلق عنصراً . وهو ، دون ريب ، تلك القوة التي قولبت طراز المحارب أو البطل من القبائل الرحـالة ، وقولبته أكثر فأكثر ليصبح مثلاً جسمانيا أعلى ، حيث أصبح بالامكان أن يتحدث المرء بوضوح تام عن شكل منظر Figure عنصر الرومان أو الاوستروغوط . والقول هذا صحيح ايضاً وينطبق على أية طبقة قديمة من النبلاء – فهي نتيجة لامتلائهـا بحس قوي عميق بوحدتها الخـــاصة تنجز تشكيل مثل جسماني أعلى .

فالزمالة تتجنب العناصر وتربيها . وما طبقة النبلاء الفرنسيين ، أو الالمان سوى تعابير أو إشارات لعنصر . ولكن هذه هي ايضاً التي انجبت وربت تمامـــاً نماذج اليهودي الاوروبي ، بما له من زخم عنصر هائل ، ومن حياة « غيتو » Ghetto [1] تمتد الى ألف خلت من الأعوام ، والتي ستصهر دائمـــاً سكانا داخل احد العناصر ، حينما يقف هذا العنصر لمدة طويلة متماسكا روحياً ومتحداً أمام مصيره. وحينما يوجد مثل أعلى لعنصر ، على الحـال المتفوقة التي يوجد فيها في الحقبة المتقدمة من الحضارة ـ الازمان الفيدية والهوميرية،وأزمان هوهنشتاوفن الفروسية ـ فان حنين الطبقة الحاكمة الى هذا المثل الأعلى ، الى تقرير ارادتهـــا على هذا الشكل وليس على أي شكل آخر ، يعمل وينشط (مستقلاً تـماماً عن اختيـار الزوجات) لتحقيق هذا المثل الأعلى ، وهو يحققه أخيراً . زد على ذلك أن هناك ناحية احصائية لهذا الأمر ، وهذه الناحية قد لقيت من الاهتمام أقل بكثير مما تستحقه . فلقد كان لكل كائن بشري يعيش اليوم مليون من الأسلاف حتى في عام ١٣٠٠ ميلادية وعشرة ملايين في عام ١٠٠٠ ميلادية ، وهذا يعني أن كل ألماني يعيش اليوم هو ، دون استثناء ، قريب من ناحية الدم لكل اوروبي آخر عاش في عصور الحملات الصليبية . وعلاقة القربى هذه تزداد مئة أو ألف مرة وثوقـاً ، اذا ما قلصنا من ابعاد هذا الميدان ، تقليصاً يمسي السكان معه خلال عشرين قرن من الزمن أو أقل مجرد عائلة واحدة . وهذا بالاضـافة الى اختيار الدم ونداثه ، هذا الدم الذي يتسرب خلل الأجيال ، ويدفع دائمـــاً باستمرار المتجانسين بعضـاً الى أذرع بعض ، فيذيب الزواج أو يكسره ، ويتجنب أو يقتحم كل العقبات والعادات ، أقول أن هذا الدم يؤدي الى توالدات لا يحصيها عد ، توالدات تنفذ في حالة من لا شعور تام لإرادة العنصر . وهذا ينطبق بصورة أولية على الملامح النباتية ، على « سيماء المركز » بوصفه منفصلاً عن حركة مـــا هو متحرك ـ واعني بهذا كل شيء لا تختلف له حـال في الجسد

---

١ ـ Ghetto الحي الخاص باليهود في أي من المدن الاوروبية

(المترجم)

الحيواني من حي وميت ، ولا يستطيع الا أن يعبر عن نفسه حتى من خلال أعضائه المتخشبة .

وهناك ، دون ريب شيء مـا من أصل واحد في نماء نجوم البلوط (Ilex) وشجرة الحور اللومباردية وفي نماء الانسان ـ إنه الاكتناز ـ النحول ، الاحديداب الخ ... وبالمثل فان الخطوط الخارجية لظهور النجائب من الابل وجلد النمر والحمار الوحشي هي طابع عنصر نباتي . وهذه هي أيضاً حال أعمال حركة الطبيعة الواقعة على أو مع المخلوق ـ حالها على ومع شجرة البتولا أو طفل ذي بنية نحيلة اللذين يترنح كلاهما في الهواء ، كما وهي حالها وشجرة البلوط بما لهذه من تاج منثور ، ومع الدوائر الثابتة أو الرفرفات الرعديـدة التي ترسمها الطيور وهي تحلق في العاصفة ، جميع هذه الامور انما تنتمي الى الجانب النباتي من العنصر . ولكن على أي جانب من الخط تقف خصائص كهذه عندما يناضل الدم والتربة في سبيل الشكل الباطني للأنواع « المنقولة » Transplanted من بشرية أو حيوانية؟ وكم هي الحالة هذ من دستور النفس وشرعة الاجتماع ؟

وانهـا والحق لصورة أخرى تمامـاً عندما نضبط أنغام ذواتنا Attune لتلقي تعابير الجانب الحيواني المجرد . فالفرق بين الكائن ذي النمط النباتي وبين الكائن الواعي ذي النمط الحيواني (وليذكر القارىء مـا أوردناه فيما تقدم) هو على هذه الحال . أي أننا هنا لا نهتم فقط بالكائن الواعي ذاته وبلغته ، بل انمـا نهتم بذاك المركب من الكوني والكوني الأصغر ، كي يتشكل جسد يتحرك بحرية ، يشكل كوناً أصغر يقف والكون الاكبر وجهـا لوجه ، هذا الكون (الاكبر) الذي تمتلك حيوية حياته تعبيراً خاصاً بها والتي تستخدم بعضاً من أعضاء الشعور الواعي ، والتي يهدر معظمها ثانية عند توقف الحركة وزوالهـا ـ كما يثبت المرجان ذلك ـ وإذا ما كانت سيماء المركز تحتوي في اغلب الأحيان على تعبير عنصر النبات ، فان تعبير الحيوان يكمن داخل سيماء الحركة ـ وأعني هنا أنه يكمن في الشكل الممتلك حركة ، وفي الحركة ذاتهـا ، وفي تركيب الأعضاء على الحـال التي ترسم الحركة وتصورها .

ولا يكشف الكثير من تعبير العنصر هذا في الحيوان النائم ، وأقل من هذا بكثير في الحيوان الميت هذا الحيوان الذي ارتادت بحوث العلماء أجزاءه . وليس هنـاك عمليا من شيء نتعلمه الآن عن جمجمة المتفقر (ذي الفقرات) . ومن هنـا كانت الاطراف في الحيوانات المتفقرة اكثر تعبيراً من العظام . ومن هنـا أيضاً كانت مقاسات الطرف هي منطلق التعبير في تباينها والأضلاع وعظام الجمجمة ـ أما الفكان فهما استثناءان ، بسبب كون تركيبهما يكشف خصـائص غذاء الحيوان ، بينما أن غذاء النبات هو مجرد عملية من عمليات الطبيعة .

وعلى هذا أيضاً كان هيكل الحشرة الذي يجلبب جسمها ، أغنى في تعبيره من هيكل الطير الذي يجلببه جسمها . إن أعضـــاء الغمد الخارجي التي تجمع بتفوق وبقوة متزايدة تعبير العنصر لذواتهـا ــ كالعين وليس بوصفهـا شيئاً من شكل أو لون ، بل بوصفها لمحـة وطلعة معبرة ، والفم الذي يصبح نتيجة لعادة النطق تعبيراً للفهم ، والرأس (ليس الجمجمة) بمـا فيه من أسارير وملامح شكلها اللحم ، هذا الرأس الذي أمسى كل ما للجانب اللانباتي من تاج . ولنتأمل كيف نستنبت من جهة الاركيديا والورود ونؤصلهـــا ،ونستولد من جهة أخرى الخيول والكلاب ونجنسها ، وقد نرغب ايضاً في استيلاد الكائنات البشرية وتأصيلها .

ولكن ليس، واكرر ثانية، الشكل الرياضي للأجزاء المنظورة الذي هو الذي يعرض هـذه السماء ، بل انما الذي يعرضه حصراً هو تعبير الحركة . ونحن عندما ندرك من خلال لمحة واحدة تعبير عنصر إنسان متوقف عن الحركة، فانما ندركه لان عيننا المجربة كانت قد رأت الحركة المناسبة الكامنة في أطرافه .

فمظهر العنصر الحقيقي لثور البرية (الاميركية) Bison ،أو سمك السلمون المرقط أو النسر الذهبي ، لا يمكن أبداً استيلاده بواسطة حساب أبعاده العادية والفراغية، وقوة الجذب العميقة التي تملكها هذه المخلوقـــات الانفة ، الذكر ، بالنسبة للفنان المبدع ، تنبع حصراً من الحقيقة المقررة أن سر عنصرهـــا لا يكشف عن ذاته بواسطة التقليد المجرد لمـــا هو منظور منها ، بل انها يكشف عن نفسه في الصورة بواسطة النفس . وعلى المرء أن يرى ، وحينما يرى عليه أن يشعر بمـــا لزخم هذه

الحياة من طاقات هـــائلة تركزها على الرأس والعنق ، و كيف تتحدث في العين الملتهبة احمراراً ، وفي القرن القصير المحكم البنـاء ، وفي المنسر الاقنى المعقوف ، وفي الصورة الظلالية لجوارح الطير ، أقول على المرء أن يرى ويشعر ليذكر نقطة أو نقطتين من هذه النقاط التي لا يحصيها عد ، والتي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات وأنا لا استطيع أن أعبر هنا عنها لك الا بواسطة لغة فن فقط .

ولكن مع هذه الملاحظات كالتي استشهدنا بهـــا آنفاً ، والتي تمثل انبل انواع الحيوان ، نقترب جداً من مفهوم العنصر الذي يمكننـــا ، داخل نموذج « الجنس البشري » ، من ادراك الفروق لنوع ارقى من كل النبـــات والحيوان – وهذه فروق روحية ، ومسارب المناهج العلمية اليهـــا هي بالبداهة اقل من مساربها الى الحيوان والنبات .

لم تعد الخصائص الخشنة لتركيب الهيكل العظمي تمتلك أهمية مستقلة . ولقد قام رتزيوس Retzius (عـام ١٨٦٠) بوضع خاتمة لعقيدة بلومنباخ القائلة بأن تكوين الجمجمة والعنصر شيئان متوافقان ينطبق الواحد منهما على الآخر ، كما وأن ج. رانكه يلخص مذاهبه في هذه الكلمات :

« ان مـا يعرضه الجنس البشري ، بصورة عـامة ، من ناحية نوع تكوين الجمجمة ، انما تعرضه ايضـــاً ، على درجة أقل ، كل عشيرة ، وحتى الكثير من الجماعات التي تضم عدداً لا يستهان به من الناس – ان إتحاداً من اشكال مختلفة للجمجمة بمـــا له من نهـــايات ، قد أدى أخيراً الى تخرج – ظهور – أشكال وسيطة » .

لا يستطيع أحد أن ينكر أنه من المعقول أن يبحث المرء عن اشكال أساسية مثالية، لكن يتوجب على الباحث ألا تغيب عن نظره حقيقة كون هذه الاشكال مثالية ،وانه مع الاحترام لكل موضوعية قياساته ، فـان ذوقه هو الذي يحدد حدوده النهائية وتصنيفه. وهناك حقيقة أهم بكثير من أية محاولة لاكتشاف مبدأ تنسيق ، ألا وهي الحقيقـــة المقررة أن كل هذه الاشكال تظهر وظهرت داخل وحدة « الانسانية » ، منذ أقدم الازمان الجليدية ، وانها لم تتبدل تبدلاً واضحاً،

وأنها توجد دون مـــا تمييز حتى في العائلات نفسها . والاستنتاج الاكيد الوحيد الذي لاحظه العلم ، جاء به رانكه عندما قال أن المرء عندما ينضد اشكال الجمجمة تنضيداً متسلسلاً بالنسبة لمراحل التحول عندئذٍ تنشأ مستويات معينة ليست من خصائص « العنصر » بل خاصة من خصائص الارض .

والحق ان تعبير عنصر راس الانسان يمكن له أن يرتبط بأي شكل من اشكال الجمجمة ، إذ أن العظم ليس عنصر الجسم في الامر ، فعنصر الجسم هو اللحم ، النظرة، حركة السحنة. إننا نتحدث منذ أيام العصر الرومانتيكي عن العنصر «الهندي الجرماني» ، ولكن هل يوجد هنـاك ذاك الشيء الذي ندعوه بالجمجمة الآرية أو بالسامية ؟ وهل باستطاعتنا أن نميز بين جمجمة كلتية وأخرى فرنكية ، أو حتى بين ثالثة بوبرية ورابعة كفيرية Kaffir [1] ؟ وإذا كنا لا نستطيع هذا الامر فأية من هذه الجماجم قد تكون الارض لم تشهدها خلال العصور التي لم يدونها التاريخ ، والتي لم يبق منهـا أي دليل أكثر من العظام ؟ وكم ستكون تافهة ، في نظر ذاك الشيء الذي نسميه العنصر في الجنس البشري الارقى ، تلك الاشياء التي تستطيع أن تظهرها التجربة العلمية العنيفة . ولتأخذ مجموعة من الناس تتـألف من شتى انواع العناصر التي يدركها العقل ، ولتتمحصهم من خلال جهـــاز أشعة إكس ، وانت تحـاول ذهنيا أن تصور العنصر ، لا شك أن النتيجة التي سيبلغها من خلال هذه التجربة ستكون نتيجـة مضحكة ،إذ أن الأشعة لا تكاد تنطلق فتتخلل أي واحد منهم حتى يختفي « العنصر » فجأة وتماماً .

إننا فضلاً عن ذلك ، لا نستطيع ان نكرر مراراً أن ذاك القليل الذي يتبدى في تركيب الهيكل العظمي ، إنما هو نماء الصقع ، وليس أبداً عملاً من اعمال الدم. ولقد قـام إليوت سمث في مصر وفون لوشن في جزيرة كريت بفحص مواد هائلة الغزارة من عظام وضعتها تحت تصرفهامغاور تبدأ بالعصور الحجرية وتمتد الى عصرنا

---

١ — Kaffir : قبيله صغيرة تسكن في جبال الهند كوشوش الهندية

(المترجم)

الحاضر . وقد تدفقت ، كما نعلم ، مصر وكريت على ابتداءً من «شعوب البحر» في منتصف الدورة الألفية الثانية قبل المسيح حتى العصور العربية والتركية ، سيول هـائلة من البشر ، وسيلاً بعد سيل ، لكن مستوى تركيب العظام بقي على حاله ولم يطرأ عليه أي تبديل . وقد يكون صحيحاً الى حد ما أن نقول بان العنصر بوصفه لحماً قد مر على شكل الهيكل العظمي الثابت للارض . وأقليم جبال الألب ، يضم اكثر الأجناس البشرية تنوعاً — فهناك التيتون واللاتين والسلاف وتكفينا لمحة واحدة نلقي بهـا الى الوراء لنكتشف في هذا الاقليم اتروسكان وهن Huns أيضاً . ولقد كانت فيه عشيرة تتلو عشيرة ، غير ان تركيب الهيكل العظمي للجنس البشري الذي عـاش ويعيش في هذا الاقليم بقي دائمـاً وأبداً نفس التركيب بصورة عـامة ، وهو لا يختفي الا عند حافات هذا الاقليم باتجاه وهو السهول ، حيث يخلي مكانه لاشكال أخرى ، أشكال هي محدودة ثابتة كذلك . اذن فان ما يتعلق بالعنصر ، وبترحـال عنصر الانسان البدائي وتجواله ، فان لقطاتنا المشهورة والعائدة الى ما قبل التاريخ ، ابتداءً من نيندرتال Neanderthal وحتى Aurignacian ، لا تثبت أي شيء . فهي مـا عدا بعض استنتاجات تتعلق بعظام الفك بالنسبة لأنواع الطعام المـأكول ، إنما تدل فقط على شكل الأرض الأساسي الذي لا يزال موجوداً وقائماً حتى الآن .

ومرة أخرى أقول بـأن قوة التربة الغامضة هي التي يمكن إثباتها فوراً في كل كائن حي ، وذلك حالما نكتشف ميزانا متحرراً من اليد الثقيلة للعصر الدارويني . فلقد نقل الرومان الكرمة من الجنوب الى اراضي نهر الراين ، والكرمة بالتأكيد لم تتغير ، في موطنهـا الجديد ، منظراً — أعني نبـاتيـاً Botanically — ولكن « العنصر » في هذا المثال ، الآنف الذكر ، يمكن تقريره بوسائل أخرى ، فهناك فروق نبتت من التربة وولدت من أحشائهـا ، وهذه الفروق لا تقوم فقط بين أنواع النبيذ من شمـالي وجنوبي ، من رايني — نسبة للراين — وموزيلة — نسبة للموزيل — بل انما تقوم بين منتوجات كل موقع والمواقع الأخرى ، وثمار مختلف

الهضاب. والقول هذا ينطبق ايضاً على كل « عنصر » نباتي آخر ذي مرتبة عالية ، « كالشاي » والتبغ مثلاً. فالشذا، هو النتاج الريفي الأصيل ، هو احدى خصائص العنصر الأصيل البارزة ، (وهذه الخصائص تزداد أهميتها لأنها غير قابلة للقياس) . ولكن العناصر الانسانية النبيلة انما يميز بينهـا وفق الاسلوب الذهني الذي يعتمد للتمييز بين أنواع النبيذ النبيل . (الفاخر – المترجم) وهناك جوهر مماثل ، لا يدركه غير أشد المدارك صفــاء، انه شذا خفيف يتضوع من كل شكل يكمن وراء كل حضـــارة أرقى ، ويشد الاتروسكان وعصر النهضة في توسكانا ، والسومريين وفرس عـــام ٥٠٠ قبل المسيح ، وفرس العصور الاسلامية الذين توطنوا ضفاف نهر دجلة .

والعلم الذي يقيس ويزن لا يستطيع أبداً أن ينفذ الى جميع هذه الأمور . فهي موجودة بالنسبة الى الشعور فقط – ووجودها يستند الى قناعة بدهية تكتسب عند أول لمحة – لكنها لا توجد من أجل أن يعـالجها علامة لوذعي . والنتيجة التي أبلغها هي أن العنصر هو كالزمان والمصير ، وهو جوهر حاسم في كل قضية من قضايا الحياة ، وانه شيء ما يستطيع كل انسان أن يعرفه بجلاء وتأكيد ، طالما هذا الانسان لا يحـــاول أن يترك نفسه تسلك الى فهمه السبيل العقلاني – العديم النفس – سبيل التسريح والتنسيق والتصنيف . فالعنصر والزمـان والمصير ينتمي الواحد منها الى الآخر . ولكن في اللحظة التي يقترب الفكر العلمي منها ، فعندئذ يكتسب « الزمـان » معنى البعد ، ويصبح لكلمة « المصير » مفهوم الترابط ، بينها العنصر الذي نحتفظ له ، حتى في المرحلة العلمية ،بقناعة أكيدة وعميقة، يصبح خليطاً مشوشاً من خصائص غير مترابطة أو متجانسة، خصائص تتدفق على مفهومه (تحت عناوين ، الارض ، الحقبة ، الحضارة ، الارومة) دون ما نهاية أو نظام . فبعض من هذه الخصائص تلتصق بقوة وثبات بالارومه وهذه قابلة للنقل والتحويل، وغيرها ترفرف فوق السكان كأنها مجرد ظلال سحابة ، والكثير منهـا هي ، كما كانت ، عفاريت الارض ، عفاريت تتلبس كل انسان يسكنها ، طيلة مدة اقامته في ارضها . وبعضها يطرد بعضاً ، وأخرى تبحث عن غيرها .

إن ايجاد نظام صارم لتصنيف العناصر – وهو امنية كل علم لأصول السلالات البشرية ومشتهاه – لعمل مستحيل . لذلك فان أية محاولة ترمي الى بلوغ هذا الأمر ، هي محاولة مكتوب لها الفشل منذ بدايتها ، وذلك لأنها تتعارض والجوهر العنصري جملة وتفصيلاً ، وإن كل مخطط لاقامة مثل هذ التصنيف ، انما كان ، وسيكون حتما تزويراً وسوء فهم لطبيعة هذا الموضوع . فالعنصر ، خلافاً للنطق ، هو غير منهاجي متناً وحاشية .

وفي نهاية المطاف لكل انسان فرد ، ولكل لحظة من وجوده عنصر خاص ولذلك فان الطريق الوحيدة لبلوغ الجانب الطوطمي ، ليست التصنيف ، بل انما هي الواقعة السيمائيه .

– ٤ –

ان كل من يرغب في أن ينفذ الى جوهر اللغة يتوجب عليه أن يطرح جانباً كل ما للعالم الفيلولوجي من أجهزة وأن يراقب كيف يتحدث الصياد الى كلبه . فالكلب يتابع الأصبع الممدودة ويصغي بتوتر لجرس الكلمة أو صوتها ، ولكن يهز برأسه ، فهذا النوع من نطق الانسان لا يفهمه الكلب . ثم يتفوه الصياد بجملة أو جملتين ليعبرعما يجول في خاطره ، فعندئذٍ يقف الكلب جامداً في مكانه وينبح ، وهذا النباح في لغة الكلب انما يشكل جملة تحتوي على السؤال :

هذا هو ما يقصده السيد ؟ » ومن ثم وبلغة الكلاب ، يعبر الكلب عن غبطته لأنه فهم صواباً ما قصده سيده .

الحال هي ذاتها أيضاً مع انسانين لا يعرف الواحد منهما كلمة واحدة من لغة الآخر . وعندما يشرح كاهن ريفي شيئاً ما لامرأة ريفية فأنه يقوم بالتحديق فيها

مليـا ويحمل أساريو وجهه جوهر المفهوم الذي كانت المرأة لن تستطيع أكيداً ادراكه أبداً بواسطة صيغة التعبيز الكهنوتي .

وان كل الأحاديث التي ينطق بها اليوم هي، دون استثناء ، غير قابلة للفهم إلا اذا ترافقت وصيغ أخرى من النطق ، وهذه الصيغ ليست كافية بحد ذاتهـا ولم تكن أبداً كذلك .

واذا ما كان الكلب يريد ، الآن ، شيئاً ما فانه يبصبص بذيله، ويبدو متبرماً بغباء سيده الذي لم يستطع أن يفهم نطقه الواضح في تعبيره تمامـاً وكمالاً ، ثم يضيف الكلب الى بصبصته تعبيراً صوتيا – فينبح – واخيراً يردف نباحه بتعبير عن وجهة نظره ، فيقلد أو يأتي ببعض الإشارات .

وأخيراً يحدث شيء مـا بالغ العجب ، فعندما يستنزف الكلب كل وسائله لادراك شتى مـا فاه به سيده ، ينتصب فجأة ويحدق في سيده وتخترق عينه العين البشرية غائصة فيها. ان شيئاً ما بالغ الغموض عميقه يحدث هنا الآن – انه الاتصال المباشر بين « الأنا » و « الأنت » والنظرة تتحرر منعتقة من محدوديات الشعور الواعي. فالكينونة تدرك نفسها دون ما اشارات .

وهنا أمسى الكلب « قاضياً عليماً » بالناس ، تحدق عينه فيمن أمامه مباشرة وتحملق ، وتفهم المتكلم من وراء النطق .

ونحن عادة ما نستعمل لغات من هذا النوع دون أن نعي هذه الحقيقة الواقعة. فالرضيع يتكلم قبل أن يتعلم أولى الكلمات بوقت طويل ، والكبار يتحدثون اليه دون حتى أن يفكر الواحد أو الواحدة منهم بالمعاني العـادية للكلمات التي يستعملونها ، وهذا ما يعني أن أشكال الصوت تصلح ، في هذه الحال، لتكون لغة تختلف تماماً عن لغة الكلام . ولغات كهذه لها أيضاً مجموعات ولهجات عامية ، وبالامكان ايضاً تعلمها واتقانها واساءة فهمها ، وهي أمور لا يمكن ان يستغنى عنها بالنسبة الينا ، اذ أن اللغة الشفهية ستتمرد علينا اذا ما حاولنا أن نطلب اليها القيام بكل عمل دون الاستعانة بلغة الصوت والايماء . وحتى كتابتنا التي هي لغة شفهية

بالنسبة للعين ، كانت لا شك ستكون غير قـابلة للفهم تقريبـا ، لولا العون الذي تتلقاه من لغة الايماء ، هذا العون الماثل بأشكال علامات الوقف Punctuation .

إن الخطأ الأساسي الذي يقترفه علم اللغة أنه يخلط بين اللغة بصورة عامة وبين لغـة الكلمة الانسانية ، وعمله هذا ليس محصوراً فقط داخل الميدان النظري ، بل انها يتجاوزه عادة الى جميع الابحاث العملية التي يجريهـا . ونتيجة لهذا الخطأ بقي علم اللغة جـاهلاً جهلاً مطبقاً بالوفرة المفرطة لصيغ النطق من شتى الأنواع ، هذه الصيـغ التي تشترك في استخدامها الحيوانات والبشر. فميدان النطق، ككل كامل، هو أوسع بكثير مما يظنون ، والنطق الشفهي بعجزه أن ينتصب وحده على قدميه (وهذا العجز لم تتغلب عليه حتى اليوم) وما يملكه هو جزء أكثر تواضعاً وأشد بساطة مما يخاله تلاميـذ هذا النطق ودارسيه . أما فيما يتعلق «بأصل النطق البشري» فان شبه الجملة هذه (أصل النطق البشري) تدل على تعبير خـاطىء عن المشكلة . فالنطق الشفهي –بمـا تعنيه هاتان الكلمتان – لم يكن له أبداً أية أصول بالمفهوم المفترض . فهو ليس أولياً وليس موحداً . والاهمية البالغة التي ادركها منذ مرحلة معينة من تاريخ الانسان، يجب أن لا تخدعنا حين تقدير مركزه في تاريخ الذاتية (Entity) المطلقة في حركتها من كل قيـد . والبحث في النطق يجب بالتأكيد ألا يبدأ بالانسان .

ولكن الفكرة القائلة بأن هناك بداية للغة الحيوان، هي فكرة خاطئة ايضاً. فالتكلم مرتبط الى الكائن الحي من الحيوان ارتباطاً يبلغ حداً من التماسك حيث يصبح معه القول بأن حتى الخلية الوحيدة Unicellulor ، هذه المخلوق العديم من أعضاء الحواس ، هي خرساء بكماء ، أمراً لا يقبله عقل ، (وهنا وجـه التعارض بين الحيوان والكائن من النبات) . فأن يكون هناك كون أصغر في الكون الأكبر فان هذا يعني الشيء الواحد ذاته ، يعني ان يملك قوة للمواصـلة بين نفسه وغيره . لذلك فان الحديث عن بداية للنطق في تاريخ الحيوان هو حديث لا معنى له أو مفهوم . فكون الوجودات » الكونية الصغرى هي وجودات متعـــددة

متجمعة ، هو أمر بسيط وغني عن البيان . أما ان يحاول المرء التفكير بامكانات أخرى فهذا تبذير للوقت واهدار له .

ومن المسلم بـــه ان الاوهام الداروينية ، في النوع الاساسي وفي السلفين الاولين ، انما تنتمي الى مؤخرة الجيش الفكتوري (نسبة لفكتوريا) ويجب ان تترك حيث هي ، زد على ذلك الحقيقة القائمة والقائلة بأن طائفة النحل ، أو النمل ، هي ايضاً واعية ومدركة باطناً ، وتعيش حساً « الـ - نحن » وكل نحلة أو نملة ، تتطلع الى الاخرى وتتلمس لديها روابط الشعور الواعي .

إن الكائن الواعي هو نشاط فيما هو ممتد ، وهو بالاضـــافة الى ذلك نشاط مُراد . وهذا هو الفرق بين حركات الكوني الأصغر وبين الحركة الميكانيكية للنبات والحيوان والانسان في حال النبات - أي في حـال نومها - ولنتأمل في نشاط الحيوان في أحوال التغذية والتوالد والدفاع والهجوم - لا شك أن أحـد جوانب هذا النشاط يتوقف بصورة منتظمة على الاتصال بالكون الاكبر بواسطة الحواس ، أو بواسطة الحساسية غير المميزة للخلية الوحيدة ، أو بواسطـة رؤيا عين بالغة السمو في تطورها التي هي موضوع البحث . وهنـا توجد ارادة اكيدة لتلقي التأثير ، وهذا هو ما نسميه توجيهاً . ولكن بالاضافة الى هذه توجد ايضـاً ، منذ البدء ارادة لتوليد التأثير في الآخرين ، وهي مـا نسميه تعبيراً - وبذلك يصبح التكلم فوراً لدينا نشاطاً للشعور الحيواني الواعي ، ولم يتلُ هذه الواقعة أو يعقبها أي شيء جوهري آخر . فلغات عـــالم المدنيات الراقية ليست اكثر من شروح تجاوزت كل حد في نقائها وصفائها ، انهـــا شروح امكانات كانت جميعها تكمن وتوجد داخل واقعـــة التأثيرات المرادة للمخلوقات ذات الخلية الوحيدة ، والتي تفرضها الواحدة منها على الاخرى .

ولكن أسس هذه الواقعة انما ترتكز الى الشعور الأولي بالخوف كما وان الشعور الواعي يحدث شقاً أو فتقاً فيما هو كوني ، ويبرز فراغـاً بين الخصائص ويقصيها . فأن يشعر المرء بنفسه وحيداً انما هو أول تأثير يتلقاه المرء في اليقظة

اليومية ، ومن هنا ينشأ حافز الانسان البدائي للتجمهر وغيره من الناس في وسط هذا العالم الغريب وذلك بغية أن يؤكد المرء البدائي حسياً لنفسه قرابته للاخر ومجاورته له ، باحثاً عن رباط واع يشده اليه .

إن « الأنت » لهي الخلاص والتحرر من خوف الكائن من كونه وحيداً . واكتشاف « الأنت » ، اكتشاف مفهوم ذات اخرى، قررت عضوياً وروحياً، من عالم غريب ، انما يمثل اللحظة العظمى في التاريخ المبكر للحيوان . وعلى ذلك هي الحيوان . وما على المرء إلا أن يحملق طويلاً وبعناية في نقيطة ماء وضعت تحت المجهر كي يقتنع من ان اكتشاف « الأنت » ومعها « الأنا » انما يجري هنا على أبسط شكل يراود خيال الانسان. فهذه المخلوقات البالغة في صغر حجمها لا تعرف فقط الآخر بل الآخرين ايضاً ، وهي لا تمتلك فقط شعوراً واعياً، بل تمتلك ايضاً روابط لهذا الشعور الواعي ، ولا تمتلك معه تعبيراً فقط ، بل وتمتلك ايضاً عناصر نطق لتعبير .

ويجدر بنا أن نتذكر هنا الفرق بين مجموعتي النطق العظيمتين . فنطق التعبير يعامل الآخر بوصفه شاهداً ويستهدف فقط توليد مؤثرات فيه ، بينما أن نطق المواصلة يعتبر الآخر متكلماً ويترقب منه أن يجيب عليه . فأن يفهم المرء يعني ان يتلقي التأثيرات بشعوره الخاص بمعانيها ، وعلى هذه الواقعة تعتمد مؤثرات أرقى شكل لنطق التعبير البشري ، الا وهو الفن . فأن أبلغ فهماً وأن أجري حديثاً يفترضان أن يكون شعور الآخر بالمعاني هو نفس شعوري الخاص . ان الوحدة الأولية لنطق التعبير أمام شهود انما تسمى دافعاً Motive . والسيطرة على هذا الدافع هو كل ما لتقنية التعبير من قواعد وأصول . ويسمى ، من جهة أخرى ، التأثير المستولد لأجل الفهم إشارة Sign ، وهو الوحدة الأولية لكل تقنية مواصلة ، وهو لذلك يشتمل ، في أعلى مستوياته ، على النطق البشري .

ونحن بالكاد نستطيع أن نشكل حتى اليوم فكرة عن اتساع كلا عالمي

النطق هذين داخل الشعور الواعي . ولا يحتوي نطق التعبير ، الذي يظهر في ابكر الأزمان بكل ما للتابو من وقار ديني ، فقط على زخرفة ذات شأن خطير وحازمة في قواعدها التي تنطبق تماماً في البداية على فكرة الفن وتجعل كل مـــا هو هامد ومتيبس اداة لتعبيرهـا - بل انها يحتوي ايضـــاً على أمر طقوسي وقور . ينشر شبكة قواعده فيغطي بها كامل الحياة العامة بما فيها حتى حياة العائلة - زد على ذلك أن لغة الزي من ثياب ووشم وتبرج شخصي لكل من هذه لغة منتظمة وقد حاول باحثو القرن التاسع عشر عبثاً أن يردوا الثياب الى دوافع من خجل أو نفعية . والحق أن الثياب لذات مفهوم قابل للفهم تصفها وسائل نطق تعبير ، وهي لكونها على ما ذكرت تتطور حتى تبلغ مستوى جليلاً فخماً في جميع المدنيات بما فيها مدنيتنـــا الحاضرة . ونحن يكفينا ان نفكر فقط بالدور المسيطر الذي تلعبه « الموضة » في كامل حياتنا اليومية وفي كل ما نأتيه من عمل ، وفي قواعد اشكال الزي وألوانه في الواجبات الاجتماعية، كالزي المخصص لحضور المأتم أو الآخر المعين لحفلات الزواج ، وان نتأمل في الزي العسكري ورداء الكاهن وفي الاوسمة والاوسخة ، وفي تاج الاسقف ، وجز الشعر ، والشعر المستعار والضفيرة والمسحوق والخواتم ونماذج تصفيف الشعر ، وفي كل ما يعرضه الشخص أو يخفيه ، وفي زي الماندرين ، وعضو مجلس الشيوخ ، وزي الجارية من الحريم ، أو الراهبة ، وفي اعراف بلاط نيرون ، أو صلاح‌الدين ومونتزوما - هـذا اذا لم نذكر تفاصيل أزياء الفلاحين ، ولغـة الزهور والألوان والحجارة الكريمة . ومن نافلة القول ان نذكر هنا لغة الدين ، لأن كل ما ذكرته آنفاً إنما هو دين .

إن لغات المواصلة، حيث يكون باستطاعة تأثير الحس أن يدرك عددا أقل أو اكثر من المشتركين (فيه) قد ولدت تدريجيا (فيما يتعلق بشعوب الحضـارات الأرقى) ثلاث اشارات بارزة - الا وهي الصورة والصوت والايمـــاءة ، والتي جميعهـــا قد تبلورت في نطق الكتابة للمدنية الغربيــة في وحدة من حرف وكلمة وعلامة وقف .

ونشأ أخيرا في سياق هذا التطور الطويل الأمد انفصال الكلام عن النطق . وليس لأية عملية أخرى من عمليات مجرى التاريخ من مركز أسمى واوسع مما لهذه العملية من مركز ومقام . وبالأصل فأن جميع الدوافع والاشارات هي ، دون جدل ، نتاج البرهة وثباتها ، ويقصد بها فقط فعلًا افراديا واحداً من أفعال الشعور الواعي الفعال. أما معانيها العملية فليست هيذات المعاني المرادة والمحسوس بها . ولكن الحال لا تبقى على ما هي عليه عندما يتقدم خزين من الاشارات نفسه الى العمل الحي المعطي للاشارة ، لأن بهذا لا يفترق فقط النشاط عن وسائله ، بل انها تفترق أيضاً الوسائل عن معانيها ، والوحدة بينها لا يصبح فقط انفصامها أمراً غنياً عن البيان ، بل انها لا تعود ايضاً أمراً ممكنا

فالشعور بالمغزى وهو شعور حي ، وهو ككل شيء غيره انها ينتمي الى الزمان والمصير ، وهو يحدث مرة واحدة ووحيدة ، ولا يتكرر أبداً. ولا تتكرر هناك من اشارة مهما كانت معروفة واستعمالها مألوفاً ، حيث يجيء تكرارها يحمل تماماً المعنى السابق ذاته وفحواه . ومن هنا ينشأ كون أية أشارة لم يتكرر أبداً في الشكل ذاته . فدائرة الاشارة المتخشبة انها تقع دون قيد أو شرط داخل ميدان الشيء في الصير ، وفي عالم الممتد ، فهي ليست جهازاً عضوياً ، بل منهاج يمتلك منطقه السببي (العلي) الخاص به ، ويدخل ايضاً التعارض ، الذي لا يمكن أبداً ازالة أسبابه ، والقائم بين الفراغ والزمان ، بين الذهن والصيغة في الشعور الواعي لكائنين .

ان هذا الخزين من الاشارات والدوافع ، بما له من معاني قررت ظاهرياً ، يجب أن يكتسب بواسطة التعلم والممارسة ، وذلك اذا ما كان الراغب في اكتسابه ، يريد أن ينتمي الى المجتمع الذي يتعامل معه ويرتبط به . وايجاد الاقتران اللازم بين الكلام المنفصل عن النطق يمثل الرأي في المدرسة وميلها .

وقد تطور هذا (الاقتران) في الحيوانات الارقى حتى اكتمل ، وكل دين مستقل قائم بذاته ، وكل فن أو مجتمع ، يفترض هذا اساساً يستند اليه المؤمن كما

ويستند اليه الفنان والكائن البشري الذي احسن تعليمه وتربيته . وابتداء من هذه النقطة يصبح لكل طائفة حدودها المحددة تحديداً دقيقاً ، ولكي يكون المرء عضواً من أية طائفة من هذه الطوائف ، يجب أن يكون عليماً بلغتهـــا وأعني بذلك أن يكون عليماً بقوانين ايمانها واخلاقها وقواعدها. زد على ذلك ان الشعور المجرد والنية الطيبة لا يستطيعان أن يحيطا بالغبطـة في الموسيقى الكونتربوينتية والكاثوليكية على حد سواء . ومن هنا تعني الحضارة تشديداً في التعمق وصرامة في لغة الشكل يفرضان على كل دائرة من الدوائر . وذلك لأنهـا تتضمن بالنسبة لكل انسان ينتمي اليهـــا ــ بوصفها حضارته الشخصية في شتى فروعها من دينية واخلاقية واجتماعية وفنية ــ عملية من ثقافة وتدريب على هذه الحيـاة تمتد امتداد أجل الانسان . ونتيجه لذلك نشاهـــد في جميع الفنون العظمى ، في الكنائس والأسرار والأنظمة العظمى ، تحقق نوعا من إتقان شكل يدهش الانسان نفسه ، وينتهي الى تحطيم ذاته تحت وطأة ضروراته ومقتضيـاته ، وعلى ذلك نرى الشعار القائل « بالعودة الى الطبيعة » يقرر (علناً أو سراً) في جميع الحضارات على حد سواء . وهذا النوع من الرغبة الغامضة يمتد الى اللغة الشفهية ايضـاً . فنحن نرى فن الخطابة الاتيكية والحديث الفرنسي ، اللذين يفترضان كأي فن آخر تقاليد صارمة نضجت بوعي وحذر وتدريب صحيح وطويل للفرد ، يقوم جنباً الى جنب والصقل الاجتماعي الذي عرفته مرحلة Tyranis أو التروبودورز ، ومرحـــلة فوجيه باخ ، والتصاوير الزيتيه على الاواني الخزفيه لايكسيكياس Exexias .

ونحن بالكاد نستطيع أن نبلغ ميتافيزيقيا في تقدير مغزى هـذا الانفصال الواقع في لغـه ثابته مقررة . فالممارسة اليومية للمخالطة (والبشرية) في اشكال مقررة ثابته ، وتحقق سيطرة كامل الشعور الواعي بواسطـة اشكال كهذه ــ التي لم يعد يوجد من اجلها مجرى عمليه تكون أو تشكل، والتي انما تقوم وتوجد هناك وتتطلب فهماً بكل ما تعنيه هذه الكلمه .. أقول ان تحقق سيطرة كامل الشعور تقود الى تمييز يزداد ابداً ودائماً حدة بين الفهم والشعور داخل الشعور الواعي .

فاللغة البدائية يُحس بها بادراك وفهم ، وبمارسة الكامله تتطلب من المرء ان يحس أولاً باداة النطق المعروفه ، وتستوجبه ثانياً أن يفهم القصد الذي أدخل فيها لهذه المناسبه . ونتيجه لما تقدم فان جوهر كل درس أو تدريس إنما يكمن في اكتساب عناصر المعرفه .

وكل كنيسة تعلن دون تردد أن ليس الشعور بل المعرفة هي التي تقود الى الخلاص . وكل مهارة فنية حقيقية انها ترتكز الى المعرفة الأكيدة بالاشكال التي لا يتوجب على الفرد اكتشافها بل تعلمها . « فالفهم » هو معرفة تعتبر كائناً . وهو ذاك الشيء الغريب كل الغرابة عن الدم والعنصر والزماني ، ومن تعارض النطق المتخشب ودوران الدم وتطور التاريخ تنشأ المثل العليا للمطلق، والخالد والمتعارف عالميا على صحته – وأعني بهذه المثل العليا للكنيسة والمدرسة .

ولكن هذا هو تماماً الذي يجعل، في نهاية الأمر ، اللغة ناقصة غير كاملة ويؤدي الى التعارض الخالد القائم بين مـا نطق به فعلاً وبين مـا أراده أو عناه المتكلم . ويجوز لنا حقاً أن نقول بأن الكذب شق طريقه الى العالم بواسطة فصل النطق عن الكلمة . فالاشارات هي ثابته مقررة ، ولكن معانيها ليست كذلك – ونحن منذ البدء نشعر بأن الأمر هو على هذه الحـال ، ومن ثم نعرفه ، وأخيراً نستفيد – بمعرفتنا . وانهـا والحق لخبرة غارقه في القدم اختبرها الانسان عندما كان يريد أن يقول شيئاً ما فوجد أن الكلمات تخذله ، فأحد الناس قد «لا يعبر عما يريده تعبيرا صحيحا » فيقول فعلاً شيئاً مـا ، لا يحمل ما يراد له من معنى ، وغيره قد ينطق نطقاً صحيحاً ويفهم فهمـاً خاطئاً . وهكذا أخيراً نبلغ فن استخدام الكلمات لاخفـاء حقيقة افكارنا ، وهذا الفن واسع الانتشار حتى بين الحيوانات (مثلاً الهرة) . فأحدهم لا يقول كل شيء ، أو يقول شيئاً ما باسلوب جد مختلف ، أو يتكلم وحسب الأصول عن لا شيء ،أو يتحدث بسرعة ليغطي حقيقة كونه قال شيئاً ما. أو أن أحد الناس يقلد نطق الآخر. فطائر الجزار يقلد الانغام التي تتبادلها صغار الشوادي من الطير كي يغويهـا . وهذه حيلة من حيل الصيـاد المشهورة ،

ولكن هنا ايضاً تتقدم عليها الدوافع والاشارات المقررة ، التقدم ذاتـــه الذي يشترطه تقليد الآثار أو تزوير الامضاء . وجميع هذه السمات التي نصادفها في وضع السحنة كما نجدها في الخط والتفوه الشفهي، تظهر ثانية في لغة كل دين وفن ومجتمع – ويكفينا فقط أن نشير الى الفِكَر التي تعبر عنها الكلمات التالية : « منافق » « مستقيم » « خـارج على الدين » والكلمة الانكليزية « رياء » والمفاهيم الثانوية لكلمات « دبلوماسي » « يسوعي » « ممثل » زد على ذلك تحفـظ المجتمع المهذب وحذره ، والتصوير الزيتي المعاصر الذي لم يعد يحتوي على أي رسم صـادق والذي يعرض في كل معرض على العين الكذب في كل شكل قد يراود الخيال .

إن المرء لا يستطيع أن يكون دبلوماسياً في اللغة التي يتلعثم في نطقهـــا . ولكن قد يكمن ، في حال السيطرة الحقيقية على احدى اللغات الخطر ، في ان يجعل من العلاقة بين الوسيلة ، أو الاداة ، وبين المعنى ، اداة جديدة . وهنا ينشأ فن عقلاني للتلاعب بالتعبير ، وقـــد مارس هـذا الفن الاسكندرانيون والرومانتيكيون وقد مثل الاولين ثيوكريتس ، ومثل الآخرين برنتانو في الشعر الغنائي وريجر Reger في الموسيقى وكيركيغارد في الدين .

واخيراً فان النطق والحقيقة [1] يطرح الواحد منها الآخر جانباً. وهذا الواقع هو الذي يستولد في عصر اللغة المقررة الثابتة « القاضي النموذجي الخبير بالناس » والذي تتكامل كل خلية فيه والخلايا الاخرى لتصوغ منه عنصراً ، فيعرف كيف يدرك الكائن الذي يتحدث . فان تحدق بشدة في عيني انسان ، وان تحيط به من وراء نطقـــه الثوري الأبتر ، أو خطابه الفلسفي ، وان تعرف القلب من وراء الصلاة ، وان تدرك مستويات الأهمية الاجتماعية الأشد اخلاصاً من وراء اللهجة الودود المألوفة ، وان تعرف كل هذه الأمور فوراً وبقناعة راسخة وطيدة وبميزة

---

(١) لاحظ لم نقل هنا الواقعة .

(المترجم)

لكل ما هو كوني – هذا هو ما يفتقده انسان التابو الذي تحمل ، على كل حال ، لغة واحدة القناعة بالنسبة اليه . فالكاهن الذي هو دبلوماسي ايضاً لا يستطيع أن يكون كاهناً أصيلاً . وفيلسوف اخلاقي من طراز « كنت » Kant ليس ابداً « قاضياً خبيراً بالناس » .

ان الانسان الذي يكذب في تفوهاته الشفهية يكشف دون أن يشعر ، عن ذاته في سلوكه أو تصرفه . والانسان الذي يستخدم سلوكه للتصنع يكشف عن ذاته بجرس صوته . وهـــذا ناشيء حصراً عن كون النطق المتخشب يفصل بين الاداة والمحتوى الذي لا تحمـــله الاداة في نظر مقيم فطين . فالفطين يقرأ بين السطور، ويفهم الانسان حالما يشاهد مشيته أو خط يده . وكلما ازدادت المعاشرة الروحية عمقاً والفة ، يزداد فوراً استغناؤهـا عن الاشارات والروابط الناشئة عن الشعور الواعي . فالزمالة الحقيقية إنما تعبر عن ذاتها بكلمات قليلة ، امـا الايمان الحقيقي فهو ، جملة وتفصيلاً ، ساكت صامت .

إن أنقى ما هناك من رموز الفهم ، هو ذاك الرمز الذي غدا ثانية مـا وراء اللغة ، إنه الزوجان الريفيان القديمان والجالسان عند الغروب امام كوخهما، حيث يرفه الواحد منهما عن الآخر دون ان يبادل الواحد منهما الآخر بكلمة ، وكل واحد منهما يعرف بما يشعر به الآخر ويفكر . فالكلمات هنا لن يكون لهـا من أي أثر سوى تشويش التناغم . ومن حال كهذه لتفاهم مشترك ، يمتد شيء ما أو آخر الى الوراء متجاوزاً بعيداً الوجود الجماعي لعالم الحيوان الارقى ، وضارباً عميقاً عميقاً في بطون التاريخ الفطري العتيق للحيـــاة المتحركة والمتحررة بحركتها من كل قيد . وهنا ، يحقق الانسان تقريباً خلاصه للحظات من الشعور الواعي .

- ٥ -

ليس هناك من اشارة من الاشارات التي قررت قد أدت الى نتائج أعظم من تلك الاشارة التي ندعوها ، في وضعها الحالي ، « كلمة » . فالكلمة تنتمي ، دون ريب ، الى التاريخ البشري المجرد للنطق ، ولكن مع ذلك فان الفكرة ، أو على كل حال ، الفكرة التقليدية ، عن أصل اللغة الشفهية هي فكرة عقيم ومعدومة المعنى ، كنقطة الصفر بالنسبة الى النطق بصورة عامة . كما وان ايجاد بداية محددة تحديداً واضحاً للنطق هو أمر غير معقول، لأن النطق موجود مع الكون الاصغر هذا الكون الذي يحتويه ايضاً ، وكذلك هي الحال بالنسبة للغة الشفهية لأنها تتضمن العديد من الانواع الكاملة التطور لنطق المواصلة ، وتعيّن فقط مادة واحدة فقط تتطور تطوراً بطيئاً هادئاً بالرغم من انها تصبح في النهاية المادة السائدة - . إنه والحق لخطأ جوهري يغشى جميع النظريات (مهما بلغ التناقض بين الواحدة منها والاخرى) كنظريات فوندت Wundt وجسبرسن Jespersen ، في ان يبحث عن التكلم داخل الكلمات ، كما ولو ان التكلم كان شيئاً ما جديداً ومستقلاً قائماً بذاته، وهذا مما يؤدي حتماً بهذه النظريات الى تشكيل سيكولوجيا خاطئة خطأ جذرياً . فاللغة الشفهية هي ، في الواقع ، ظاهرة متأخرة جداً من حيث الزمان ، وهي ليست برعماً طرياً فتياً ، بل انما هي آخر زهرة يحملها أحد فروع الساق الأم لكل النطوق الصوتية .

والحق أنه لا يوجد في الواقع نطق مجرد لكلمة. فليس هناك من انسان يتحدث دون أن يستخدم ، بالاضافة الى الكلمات المقررة ، صيغاً أخرى تماماً من النطق ، كالتشديد والايقاع وأسارير الوجه مثلاً ، وهذه أعرق بكثير في أوليتها من لغة الكلمة، والتي أصبحت زيادة على ذلك مرتبطة متلاحمة مع لغة الكلمة هذه. ولذلك

فانه لمن الضرورة القصوى بمكان ، أن نتجنب اعتبار مجموع لغات الكلمة المعاصرة، بما في هذه اللغات من افراط في التعقيد والتشابك ، وحدة باطنية ذات تاريخ متجانس . فلكل لغة كلمة معروفة لدينا جوانب جد مختلفة ، ولكل جانب من هذه الجوانب مصيره الخاص داخل التاريخ ككل . فليس هنا من ادراك حس يمكن أن يكون غير ملائم اطلاقاً لتاريخ سديد لاستعمال الكلمات واستخدامها . زد على ذلك أنه يتوجب علينا أن نميز بدقة بين اللغة الشفهية وبين اللغة الصوتية . فالأخيرة هي لغة مألوفة حتى للأبسط من انواع الحيوانات ، أما الأولى فهي في خصائص معينة شيء مختلف اختلافاً جذريا عن الثانية - وبالرغم من أن هذه الخصائص هي خصائص فردية ، فكونها كذلك يجعلها أعمق مفهوماً ومغزى . فكل حيوان يستطيع أن يميز لغة الصوتبوضوح وذلك بالاضافة الىدوافع التعبير (هدير الغضب مثلاً) واشارة المواصلة (كصرخةالتحذير) ،والقول ذاته ينطبق ، دون ريب ، على أبكر الكلمات . ولكن هل نشأت آنذاك اللغة الشفهية كلغة تعبير أم كلغة مواصلة ؟ وهل كانت في أوضاعها الغارقة في البدائية مستقلة الى حد قريب أو بعيد عن أية من اللغات البصرية كالصورة والايماءة مثلاً ؟ اننا لا نملك أجوبة على أسئلة كهذين السؤالين وذلك لأننا لا نعرف أقل معرفة ما كانت عليه الاشكال السابقة لما يسمى وجوباً « بالكلمة » . والحق انها لفيلولوجيا سخيفة هي تلك التي تستخدم ما ندعوه اليوم باللغات البدائية (وهذه اللغات هي صور غير كاملة لأوضاع اللغة المتأخرة زمناً) كمقدمات لنتائج عن أصل الكلمات وأصل «الكلمة» . فالكلمة في هذه اللغات هي اداة مقررة طورت تطويراً راقيا وأمست واضحة وغنية عن البيان .

لا شك أن الاشارة التي مكنت لغة مستقبل الكلمة من فصل ذاتها عن النطق الصوتي لعالم الحيوان كانت تلك التي أدعوها « بالأسم » - وهو صورة صوتية تستخدم لتدل على شيء ما قائم في العالم المحيط بنا ، شيء ما يحس به على أنه كائن وحينما أطلق عليه اسماً أصبح روحاً « الهيا » Numen . ولسنا بحاجة للحدس والتخمين عن كيفية بروز الاسماء الاولى الى الوجود فليس هناك من لغة بشرية

يمكن أن ننفذ اليهـــا تستطيع أن تعطينا أية قـاعدة أو مستنداً لهذا الموضوع . ولكن ، خلافـاً لوجهة نظر البحث الحديث ، أقدر أن المنعطف الحـاسم لم ينشأ لتكوين الحنجرة، أو لخاصية تكوين الصوت ، أو لأي عامل فيزيولوجي آخر - فاذا كانت قد وقعت مطلقاً تبدلات كهذه فان مثل هذه التبدلات تؤثر في جانب العنصر (من جوانب الانسان) - كما وأن هذا المنعطف الحاسم لم ينشأ حتى نتيجة للانتقـــال من الكلمة الى الجملة (كما يقول هـ . بول) ، بل نتيجة لتبدل روحي عميق . فمع الأسم ينشأ مطل جديد على العالم أو نظرة جديدة فيه . واذا ما كان النطق بصورة عامة إبناً للخوف ، إبناً للرعب الذي لا يسبر له غور ، هذا الرعب الذي يتدفق جيشانه عندمـا تعرض الوقائع على الشعور الواعي ، والذي يستحث كل المخلوقات معاً في الحنين الى برهنة كل واحدة منها على حقيقة الأخرى وجوارها - فعندئذ تمثل الكلمة الاولى ، الأمم قفزة جبارة الى العلاء . فالاسم يسحج معنى الشعور ومنبع الخوف على حد سواء . فالعالم ليس مجرد قائم وموجود ، بل انما يحس بسر فيه . فالانـسان ، قبل وما عدا المواضيـع العديدة للغة التعبير والمواصلة، يطلق اسماً على ذاك الشيء الذي يكون غامضـــاً . والحيوان وحده هو الذي لا يعرف الغوامض . والانسان لا يستطيـع أن يفكر ببالغ من عميق الوقـــار والاحترام بهذه التسمية الاولى . فلم يكن انذاك من الحكمة ، أن يتفوه دائـمـاً بالاسم أو يلهج به باستمرار ، فـــالاسم يجب أن يبقى سراً ، اذ أن قوة خطرة تسكنه . ومع الاسم تمت الخطوة من الوضع الفيزيولوجي اليومي للحيوان الى الوضع الميتافيزيقي للانسان . فالاسم كان اعظم منعطف في تاريخ النفس البشرية.

ولقد تعودت الابستمولوجيا ان تضع النطق والفكر جنباً الى جنب ، وهـذا شيء صحيح تماماً اذا ما اعتبرنا اللغات التي تملك النفوذ في الوقت الحاضر. ولكنني اعتقد بأننا نستطيـع ان نذهب الى اعمق من ذلك ، فنقول بأنه قد برز مع الاسم الدين بمفهومه الذاتي الخـاص ، وولد الدين الثابت المقرر من وسط ورع شبه ديني لا شكل له . والدين بهذا المفهوم انما يعني التفكير الديني . وهـو المفهوم الجديد للفهم المبدع والمتحرر من الاحساس . ونحن نستعمل اصطلاحاً ذا مغزى عميق اذ

نقول اننا « نتأمل في ، ونفكر ملياً » في شيء ما . فمع فهم الاشياء المسماة ، يبدأ تكون عالم أرقى ، وأهم من هذا كله ، يبدأ الوجود الحسي - وهو عالم ارقى استناداً الى الرمزية الواضحة ، واستدلالاً على مركز الرأس الذي يخمنه المرء (ويخمنه مراراً بدقة أليمة) انه موطن افكاره . وهذا التفكير الديني يعطي الشعور البدائي بالخوف موضوعاً ولحظة من تحرر . وعلى التفكير الديني الاول هذا كانت ولا تزال تعتمد جميع الافكار الفلسفية والمدرسية والعلمية، في الازمنة المتأخرة ، بأعمق ما لها من أسس، ويتوجب علينا ان نفكر بهذه الاسماء الاولى بوصفها مواد فردية ومنفصلة تماماً ، مواد من مخزون اشارات لغة صوت وايماءة طورت تطويراً راقياً ، لغة لم يعد بامكاننا ان نتخيل ثراءها ، وذلك لأن هذه المواد الاخرى قد اصبحت تابعة للغات الكلمة ، وإن المزيد في تطويرها يرتبط بها ويعتمد عليها . وعلى كل حال فان هناك شيئاً واحداً قد حُقق وأثبت عندما دشن الاسم تحول تقنية المواصلة وإعطاءها روحاً - ألا وهو تفوق العين على بقية اعضاء الحواس الاخرى . فيقظة الانسان ودرايته كانتا في فراغ منور مضاء ، وكانت خبرته بالعمق اشعاعاً خارجياً يتجه نحو منابع الضوء ومقاومته وأدرك على أن « أناه » Ege هي نقطة الوسط في الضوء . « فالمنظور » أو « اللامنظور » كان البديل الذي سيطر على الفهم عندما نشأت الاسماء الاولى . فهل كانت الاسماء الاولى ربما اسماء لأشياء من عالم الضوء وكان يُحس بها وتلاحظ في مؤثراتها ولكنها لم تكن منظورة ؟

لا شك ان مجموعة الأسماء هي ، وهي ككل شيء يشكل منعطفاً في مجرى أحداث العالم، يجب ان تكون قد تطورت بسرعة وقوة معاً . فكامل عالم الضوء حيث يمتلك كل شيء فيه صفات المركز والديمومة في الفراغ كان - في أي وسط من توترات العلة والمعلول ، الشيء والملكة ، الموضوع والذات ! وكان قد جُلب بكشوف من اسماء لا تعد ولا تحصى ، ومن ثم رسا على هذا الشكل في الذاكرة، لأن ما نسميه الآن « بالذاكرة » إنما هو القدرة على التخزين من أجل الفهم ، بواسطة الاسم والمسمى . ففوق ميدان الاشياء المنظورة المفهومة يمتد ميدان عقلاني

لتسميات يشترك فيه الملكة المنطقية بكونه امتداداً مجرداً ومنتظماً في الاستقطابية ومحكوماً بالمبـدأ السببي (العلي) . ولكل نماذج الكلمة كالضمائر واحرف الجر (التي تنشأ طبعاً بغـد تلك بكثير) معنى سببي (علي) أو محلي فـيما يتعلق بالوحدات المسماة ، كما وان الصفات والافعال قد برزت مراراً الى الوجود بأزواج بحيث يناقض الفرد من الزوجين الآخر ، وكثيراً ما تلفظ الكلمة (كما هي حـال لغات إوِ E'we في افريقيا الغربية والتي بحث فيها وسترمان) بصوت مرتفع أو خفيض كي تعني مثلاً كبيراً أو صغيراً بعيداً أو قريباً ، فعلاً معلوماً أو مجهولاً . وهذه الآثار من لغه الايماء تمر فيما بعد لتدخل بكاملها شكل الكلمة ، كما نرى ذلك بوضوح في بعض الايماءات اليونانية مثلاً وفي اصوات المصرية هـذه الاصوات التي تدل على الألم .

وشكل التفكير في المتناقضات ، هذا الشكل الذي يبدأ من زوجي الكلمة المتنـاقضين ، هو الذي يوجد أساس كل منطق غير متعض ، وهو الذي يحول كل اكتشاف علمي للحقائق الى حركة تناقضات مفاهيمية والتي أبرز مـا فيها من مثال كوني ، هو مثـال النظرة القديمة والنظرة الجديدة حيث تتباينان بوصف الواحدة منهما « خطأ » أو « صوابا » .

ويتمثل المنعطف الثـاني العظيم في استخدام الصرف والنحو . فبالاضافه الى الاسم تقوم الآن الجملة ، وتوجد زيادة على التسمية الشفهية العلاقة الشفهية ، واستناداً الى هذا أصبح التأمل – الذي هو تفكير في علاقـات الكلمة الناشئة عن ادراك الاشياء التي من أجلها توجد دمغات الكلمة – أقول أصبح التـأمل الميزة الحـاسمة للشعور الواعي للانسان . اما السؤال عما اذا كانت لغات المواصلة قد احتوت فعلاً على « جمل » كاملة قبل ظهور الاسم « الاصيل » فـان الجواب عليه لعسير فالجملة بقبولها الحـالي للكلمة قد تطورت ، فعلاً مع صورها الخـاصة ، داخل هذه اللغات وتبعاً لظروفها الخاصة ، ولكن مع هذا فانها تفترض وجود الاسم سابقاً لوجودها . ويصبح تركيب الجمل ، بوصفهـا علاقات مفاهيمية ، أمراً ممكنا فقط مع التبدل

الذهني الذي يرافق ولادتها . ويتوجب علينا ان نفترض اكثر من هذا فنقول بأنه قد حدث ، داخل اللغات المعدومة الكلمة والبالغة مرتبة رفيعة من التصور ، وفي سياق الاستعمال العملي المستمر ، تحول خاصة أو ميزة بعد ميزة الى شكل شفهي هبط على حاله هذه في مكانه ، وبتركيب متزايد في صلابته ، تركيب هو الشكل الاولي لكل لغاتنا المعاصرة وبهذا فان البنية الباطنية لكل اللغات الشفهية ترتكز على أسس اتركيب اقدم بكثير منها ، وهي لا تعتمد في المزيد من تطورها على مخزون الكلمات ومصيره

ولكن في الواقع هو العكس تماماً وذلك لأن المجموعة الأصلية للأسماء الفردية قد تحولت مع علم تركيب الكلام الى منهاج كلمات لم تعطه معاني الكلمات الخاصة طابعه ، بل انما أعطاه إياه معناها الأجرومي Grammai. فلقد ظهر الأسم بوصفه شيئاً ما جديداً ومستقلاً قائماً تماماً بذاته. ولكن انواع الكلمه نشأت بوصفها مواد الجملة ، ولذلك تدفقت محتويات الشعور الواعي بوفرة عرمة فائضة على عالم الكلمات هذا ، مطالبة بأن تدمغ وتمثل فيه ، حتى اصبح « الكل » أخيراً، وعلى هذا الشكل أو ذاك ، كلمة بمتناول عملية التفكير .

ومن الآن فصاعداً ، أمست الجملة المـادة الحاسمة فنحن ننطق بجمل وليس بكلمات . والمحاولات لتعريف الجمل والكلمات كانت جديدة متعددة ، ولكنها لم تكن أبداً ناجحة . فتركيب الكلمة على حد مـا يقول ف . ب فنك هو نشاط تحليلي للعقل ، بينما أن تركيب الجملة هو نشاط تركيبي للذهن ، وأن الأول منهما يتقدم الثاني ويسبقه .

ونحن نستطيع أن نثبت أن الواقعة التي تتلقى كتأثير انما تفهم فهماً متنوعاً ، ولهذا السبب فان الكلمات قابلة لتحديد معانيها من قبل عدد جد كبير من وجهات النظر المختلفة . ولكن وفق التعريف المـألوف للجملة ، فالجملة هي التعبير الشفهي لفكر ، وهي رمز (كما يقول هـ . بول) يرمز الى ترابط فِكَرٍ متعددة داخل نفس المتكلم . ولكن يبدو لي أنه من المستحيل أن نبت في طبيعة الجملة معتمدين

في ذلك على محتوياتهـا ، فنحن نسمي ببساطة الوحدات الميكانيكية الأكبر نسبياً والمستخدمة « جملا » وندعو الأصغر ، منها نسبياً « بكلمات » . وعلى هذا الميدان تمتد القوانين الأجرومية . ولكن حالمـا ننتقل من النظرية الى التطبيق نرى أن اللغة ، كما درج الناس على استعمالها ، لم تعد نظاماً ميكانيكيا كهذا ، فهي لا تلبي أوامر القوانين ، بل انما تطيع النبض . وهكذا فـان خاصة من خصائص العنصر تكتنفها بالبداهة وذلك في كون الطريقة التي يبلغ فيها عن الموضوع قد قررت . بجمل. فالجمل ليست هي الشيء ذاته بالنسبة لتاستوس ونابليون كما هي لدى شيشرون ونيتشه . والانسان الانكليزي ينظم مـادته صرفا ونحوا باسلوب يختلف عن الاسلوب الالماني .فليست الخواطر والافكار بل انما هو التفكير ونوع الحياة والدم الذي يقرر في طوائف النطق البدائية من كلاسيكية وصينية وغربية نموذج وحدة الجملة ، ويقرر معه العلاقة الميكانيكية بين الكلمة والجملة . فالحد بين الصرف والنحو وبين تركيب الكلام يجب أن يقوم عند النقطة التي ينتهي عندها النطق الميكانيكي ويبدأ منهـا المتعضي من المتكلم - أي الخصائل والعـادة وسياء الاسلوب الذي يستخدمه الانسان للتعبير عما في نفسه . أما الحد الآخر فيقع عند النقطة التي ينتقل التركيب الميكانيكي للكلمة فيدخل في العوامل المتعضية لتكوين الصوت والتعبير . وحتى نستطيع أن نميز مرارا حتى أطفال المهاجرين من اللهجة التي يتلفظون بهـا بـ Th الانكليزية - فهذه هي سمة من سمات الارض . وفقط كل مـا يقع بين هذين الحدين وهو مـا يسمى بصورة سديدة « اللغة » التي لهـا منهاج ، انها هو اداة يمكن أن تخترع وتحسن وتبدل وأن تبلى ، لكن التصريح والتعبير هما على العكس من ذلك ، فهما يلتصقان بالعنصر ويلازمانه . فنحن نستطيع أن نتعرف على انسان نعرفه دون أن نراه من لفظه للكلمات ، واكثر من هذا ، فاننا نستطيع ايضاً أن نتعرف على عضو من عنصر غريب حتى ولو كان يتقن الحديث باللغة الالمانية . والتعديلات الكبرى التي طرأت على الصوت ، كالالمانية الراقية القديمة في الأزمان الكرولانجية ، واللسان الألمـاني المتوسط الرقي في العصور الغوطية المتأخرة حدود اقليمية تؤثر فقط في التكلم باللغة ،ولا تؤثر في الشكل الباطني للجملة والكلمة .

إن الكلمات ، كما قلت آنفاً ، هي الوحدات الصغرى نسبياً في الجملة . وقد يكون ليس هناك من ميزة تميز تفكير نوع من الانواع البشرية ، كأسلوبه الذي يتم بواسطته اكتساب هذه الوحدات . فالشيء الذي يراه مثلاً الانسان الاسود من قبيلة البانتو [1] Bantu انما ينتمي الى عدد جد كبير من مراتب الادراك . وانطباقاً على هذا القول فان الكلمة المعبرة عن هذا الشيء تتألف من لب أو جذر ومن عدد من ادوات التصدير ذات المقطع الواحد . فعندما يتحدث عن امرأة موجودة في حقل فان حديثه يكون شيئاً ما مشابهاً لما يلي : تعيش ، واحدة ، كبيرة ، مسنة ، امرأة ، خارجاً ، بشرية.

(Living , one , big , old , female , outside , human) .

وهذه « الجملة » تشكل سبعة مقاطع وتدل على عمل صافي الذهن من اعمال الادراك ، غير ان هذا العمل هو غريب تماماً بالنسبة الينا . وهناك لغات تكون الكلمة منها مساوية في امتدادها الجملة .

إن الإحلال التدريجي للايماءات الأجرومية ، محل ما هو جسماني أو عميق ، يشكل العامل الحاسم في تكوين الجمل ، لكن هذا الاحلال لم يُنجز ابداً . فليس هناك من لغات شفهية مجردة . فنشاط التكلم بكلمات كما ينشأ ويزداد دقة واتقاناً ، يتضمن على اننا نوقظ بواسطة اصوات الكلمة الشعور بالمعنى الذي يوقظ بدوره ، وبواسطة ترابطات الصوت ، الشعور بالعلاقة . ودراستنا للغة لا تدربنا فقط على الفهم بهذا الشكل المختصر المفيد ، فهم أشياء الضوء وعلاقاته ، بل تدربنا أيضاً على فهم اشياء الفكر وعلاقاته . فالكلمات انما تسمى فقط ، ولا تُستعمل استعمالاً محدداً ، وعلى السامع ان يشعر بما يعنيه المتكلم . وهذا وحده هو الذي يعتبر نطقاً ، ومن هنا تلعب السحنة والجرس دوراً أهم بكثير من الدور الذي

---

١ – Bantu قبيلة غفيرة العدد تقطن في افريقيا الاستوائية وجنوبي افريقيا .
(المترجم)

يعترف به فهم النطق الحديث بصورة عامة . فاشارات الاسماء الموصوفة قد توجد حتى بالنسبة للكثير من الحيوانات ، ولكن اشارات الفعل لا توجد ابداً (بالنسبة اليها - المترجم) .

إن آخر مـا في هذا التاريخ من أحداث عظمى هو ولادة الفعل الذي يسير تقريباً بتكوين لغة النطق الى نهايتها . وهذا (الفعل) يتخذ ، في مستهل ولادته لنفسه نظامـاً بالغ الرفعة في التجريد . وذلك لأن الاسماء الموصوفة هي كلمات تصبح بواسطتها الاشياء المعرّفة حساً في الفراغ المضاء مستوجبة ايضاً في التفكير الطارىء فيما بعد ، بينما أن الافعال تصف نماذج من تبدل ، وهذي لا تُشاهد أو يبصر بها ، بل انما تستخلص من عالم الضوء اللانهائي في تغيره وتلونه ، وذلك بواسطة ملاحظة الميزات الخاصة للقضايا الفردية ، وتوليد المفاهيم منها . « فالحجر الساقط » هو اصـــلاً تعبير وحدة ، ولكننا نفصل أولاً الحركة عن الكثير من الانواع والظلال - عن الغرق ، الترنح ، التعثر ، الانزلاق . وهنا « لا نشاهد » الفرق ، بل انما « نعرفه » . فالفرق بين الهرب والركض ، والطيران ، والطفو ، يتسامى بجميع هذه فوق التعبير البصري الذي ينشأ عنها ومنها ، وهو قابل للادراك فقط بواسطة شعور مدرب على الكلمة . ولكن حتى الحياة ذاتهـا اصبحت الآن ، مع تفكير الفعل هـذا ، بمتناول التأمل والتفكير . فيستأصل من الطابع الحي الذي طبع بـه الشعور الواعي ، ومن بيئة الصيرورة (حيث يقلع نطق الايماء دون ان يُسأل أو يُسبر له غور لكونه نطقاً تقليدياً مجرداً) أقول يستأصل ، دون ما وعي ، ما هو الحياة نفسها - واعني به وحدانية الحدوث - أما مـا يتبقى (بعد استئصال الحياة) فيجري ترتيبه بوصفه معلولاً لعلة (كالهواء يهب ، والبرق يومض ، والفلاح يحرث) وتنسيقه وفق اوصاف شاملة في مواضع مناسبة من منهـــاج الاشارة . ويتوجب على المرء ان يدفن نفسه تمامـــاً في المحدودية الصلبة للمبتدأ والخبر ، للفعل من معلوم ومجهول ، للحاضر وصيغة الماضي التام Perfect ، كي يدرك كيف يسيطر هنا الفهم تماماً على الحواس ويسلب النفس من الواقعة .

أمـــا في الاسماء الموصوفة فان المرء لا يزال يستطيع أن يعتبر الشيء الذهني (الفكرة) بوصفها نسخة طبق الأصل عن الشيء البصري ، ولكن في الفعل قد أحل شيئاً ما غير متعض محل شيء ما متعض . فواقعة كوننا نحيا - وأعني بذلك أننا ندرك في هذه اللحظة شيئاً ما - تصبح في النهاية ملكة للشيء مـا المدرك . وفي مصطلحات تفكير الكلمة يحتمل المدرك الفعل النـاقص « Is » . وعلى هذا النمط تشكلت مراتب الفكر ، وجرى تدريجها وفق ما هو طبيعي لهـا وما هو ليس بالطبيعي . وعلى هذه الحـال يبدو الزمان بعداً ، ويبدو المصير علة ، ويبدو الحي كأنه نظـام ميكانيكي كيمائي أو نفساني . وعلى هذا الشكل ينشأ أسلوب الفكر من رياضي وفقهي ودغماتي .

وعلى هذا النمط ينشأ الانشقاق ، الذي يبدو لنـــا أنه ملازم للانسان ، وهو والحق ليس سوى تعبير من تعابير سيطرة لغة الكلمة على شعوره الواعي . وقد صاغت اداة المواصلة هذه ، بين « الأنا » و « الأنت » ، وبسبب كمالها ، من الفهم الحيواني للاحساس ، تفكيراً في الكلمات التي تقوم مقام الاحساس وتنوب عنه . فـالتفكير الدقيق - أو التمسك بالزهيد من الامور كما يسمونه - انما هو أن يتحدث المرء لنفسه في مغازي الكلمة ومعانيها . وليس هنـــاك أي نوع من لغة يصلح للنشاط سوى لغة الكلمات،وهو يمسي حين اكتمال اللغة أمراً مميزاً أو منفصلاً عن عـادة حياة كامل طبقات من الكائنات البشرية . ولطلاق النطق من التكلم ، هذا الطلاق الذي يجعله متخشباً وفـــاقدا لعناصر الحيـاة ، والذي يصبح معه من المستحيل على النطق ان يحتوي على كامل الحقيقة في تلفظ شفهي ، أقول ان لهذا الطلاق خـاصة نتائج بعيدة المدى على منهاج اشارة الكلمة . فالتفكير التجريدي يقوم على استخدام اطار كلمة محدود ، ومن ثم يحاول هذا التفكير أن يحشر كامل محتوى الحيـاة اللامحدود داخل هذا الاطـــار . فالمفاهيم تقتل الكينونة ، وتزور الكينونة الواعية . وفي الايام الغابرة ، أيام ربيع تاريخ اللغة ، حينما كان لا يزال على الفهم أن يناضل ضد الاحساس ليحافظ على ما لديه ، لم يكن لهذه الميكانيكية

أي أهمية بالنسبة الى الحياة . ولكن الآن تطور الانسان فن ذاك الكائن الذي كان يفكر بين فترة وأخرى، الى كائن مفكر ، واسمى المثل الاعلى لكل منهاج تفكير يتمثل في اخضاع الحياة ، اخضاعاً لا تحرر بعده ، لسيطرة الذهن. ويتحقق هذا الاخضاع ، من الناحية النظرية ، بواسطة اضفاء ثوب الصحة على كل ما هو معروف ، وبدمغ كل ما هو واقعي بدمغة الكذب والوهم والهوس . أما من الناحية العلمية فانه يتحقق عن طريق ارغام أصوات الدم على السكوت في حضرة المبادىء الاخلاقية الكونية .

إن كلًّا من المنطق والاخلاق هما منهاجان ، سواءً بسواء ، منهاجان لحقائق مطلقة وخالدة بالنسبة للذهن ، ومطابقة لغير الحقائق بالنسبة للتاريخ . فمهما بلغ انتصار العين الباطنية من الكمال على العين الظاهرية في ميدان الفكر ، فان الاعتقاد بالحقائق الخالدة في ميدان الوقائع انما هو مسرحية تافهة سخيفة لا توجد الا في رؤوس الافراد . فلا يمكن أكيداً أن يوجد منهاج حقيقي للافكار ، وذلك لانه لا تستطيع أية اشارة أن تحل محل الواقعة. والمفكرون المخلصون والعميقو الفكر يقادون دائما الى الاستنتاج القائل بان كل معرفة هي معرفة مكيفة بداهة بشكلها الخاص ، وهي لا تستطيع أبداً أن تبلغ ذاك الذي تعنيه الكلمة – وذلك بغض النظر ، ثانية ، عن حال التقنيات ، حيث أن المفاهيم فيها هي ادوات وليست أهدافاً بحد ذاتها .

وهذا القول يتوافق ايضاً وبديهة كل لوذعي اصيل ، خلص الى التقرير ان المبادىء التجريدية للحياة هي مبادىء مقبولة فقط بوصفها تعابير مجازية ، وقواعد رثة مبتذلة للاستعمال اليومي ، حيث تجري من تحتها الحياة ، كما جرت فيما مضى ، منطلقة دائماً الى الامام . والعنصر هو ، في النهاية ، أقوى من اللغات ، وهكذا فان المفكرين – والذين هم اشخاص – وليسوا بمناهج – لا تثبت على حال – هم ، وتحت كل ما نراه من عناوين عظمى ، الذين أثروا في الحياة وفعلوا فيها .

- ٦ -

إذن فالتاريخ الباطني للغـــة الكلمة ُيظهر حتى الآن ثلاث مراحل . ففي المرحلة الاولى تظهر الاسماء - الوحدات من نوع جديد من الفهم - داخل لغات مواصلة تطورت تطوراً راقياً ، لكنها مجردة من الكلمات . فالعالم في هذه المرحلة يستيقظ بوصفه سراً ؛ ومن هنا يبدأ التفكير الديني . أما في المرحلة الثانية فان نطق مواصلة تاماً يتحول تدريجياً الى قيم من صرف Grammar فالايماءة هنا تصبح جملة ، والجملة تحول الاسماء الى كلمات . وتمسي الجملة بالاضـــافة الى ذلك مدرسة عظمى للفهم تنتصب قبالة الاحساس ، ويستدعي شعور متزايـد ودقيق بالمغزى يتوق الى العلاقات التجريدية داخل ميكانيكية الجملة فيضـــاً هائلاً من التصاريف (جمع تصريف في الصرف) التي تربط ذواتها خاصـة بالاسم الموصوف والفعل ، بكلمة - الفراغ وكلمة - الزمان . وهذا يمثل عصر ازدهـار الصرف ، أي المرحلة التي نستطيـع ان نعتبر (بكل تحفظ) انها استغرقت الدورتين الألفيتين السابقتين لولادة الحضارة المصرية والحضارة البابلية . أما المرحلة الثالثة فانها تتميز بانحلال سريع يطرأ على التصاريف وبحلول النحو ، في الوقت ذاته ، محل الصرف. وهنا تبدأ عملية تعقل (الصيرورة عقلاً - المترجم) الشعور الواعي للانسان ، فهذا الشعور قد بلغ الآن شأواً لم يعد معه بحاجة الى دعائم حس التصريف ، وهو يطرح الاشكال القديمـــة الغزيرة للكلمة ، وُيبلغ بحرية ويعين مستعيناً بأبسط ظلال الفروق في المصطلحات وأبهتها ، (كالحروف ، ومراكز الكلمة ، والايقـاع) ونتيجة للاكثار من التلفظ بكلمات حقق الفهم سيطرته على الشعور الواعي ، وهو اليوم في طريقه الى تحرير ذاته من محدوديات الآلية الشفهية المحسوسة وقيودهـا ،

وينشط الآن متجهاً نحو ميكانيكية عقل مجردة . فالعقول هي اليوم تتصل بعضاً ببعض وليست الحواس .

وفي المرحلة الثالثة هذه من التاريخ اللغوي ، والتي تحدث وفق هذه الحال، على مستوى بيولوجي وهي لذلك تنتمي الى الانسان بوصفه نموذجاً ، أقول في هذه المرحلة يتدخل تاريخ الحضارات الارقى ويدخل بنطق جديد كل الجدة ، نطق البعد ، المسافة ، - أي الكتابة - وهي اختراع يملك ذاك القدر من القوة الباطنية بحيث ينشأ ، ايضاً ، وفجأة ، انعطاف حاسم في مصائر لغات الكلمة .

فاللغة المصرية المكتوبة كانت في عام ٣٠٠٠ ق. م. قد أمست في وضع من انحلال صرفي ، وكذلك ايضاً كانت حال اللغة الادبية السومرية المعروفة باسم (eme - Sal) (أي لغة النساء) . كما وان اللغة المكتوبة الصينية -التي كانت اللغات الدارجة في العالم الصيني قد شكلت تجاهها منذ زمن طويل لغة منفردة عن هذه - هي ، حتى في اقدم النصوص المعروفة ، معدومة كلياً من كل تصريف ، بحيث أن البحث الحديث فقط قد اثبت أنه كانت لهذه اللغة ، في وقت ما ، تصاريف إطلاقاً . زد على ذلك أن المنهاج الهندي الجرماني هو معروف لدينا فقط في وضع من تهشم تام . أما فيما يتعلق بالمنهاج القيدي (قرابة عام ١٥٠٠ ق.م.) فان اللغات الكلاسيكية ، التي جاءت بعده بألف عام ، لم تحتفظ بأكثر من هتامات منه . فمنذ زمن الاسكندر الاكبر اختفت الثنائية ، من تصريف الاسماء للغة الهيلينية الدارجة ؛ وتلاشى الفعل المبني للمجهول من تصريف الفعل إطلاقاً . كما وان اللغات الغربية ، بالرغم من ان منابعها متنوعة الى اقصى حد يمكن ان يدركه الخيال - الشكل الجرماني ذو الارومة البدائية ، الشكل اللاتيني ذو الأصل الراقي في تمدنه - فهذه اللغات تحوّر وتعدّل في الاتجاه ذاته ، فالمواضيع اللاتينية قد اختزلت الى موضوع واحد ، اما الانكليزيةفقد اختزلت ، بعد حركة الاصلاح الديني ، الى صفر .

زد على ذلك أن اللغة الألمانية العادية قد اطرحت المضاف اليه جانباً في مطلع

القرن التاسع عشر ، وهي اليوم في طريقها الى الغـاء المجرور . والمرء فقط عندما يحـاول أن يترجم قطعة صعبة من نثر مليء - ولنقل لتاسيتوس أو مومسن - الى احدى اللغات الغـارقة في القدم والغنية في التصاريف ، عندئذ يستطيـع هذا المرء أن يتحقق كيف تبخرت تقنية الأشارات ، خلال المرحلة الزمنية التي تفصل تلك اللغة عن تاسيتوس أو مومسن ، الى تقنية أفكار لا تحتــاج الآن الى استخدام الاشارات - المختزلة لكن المليئة بالمعنى - إلا لأنهــا تعتبر هذه الاشارات تجرد فريق يباريها في لغة لا يستطيـع أن يفهمها غير المكرسين في طائفة نطقهـا . وهذا هو السبب الذي يجب أن تبقى دائما من أجله النصوص الصينية المقدسة كتابا مغلقاً، بكل مـا لهذه الكلمة من معنى ، بالنسبة الى الانسان الاوروبي الغربي ، ولكن هذا القول ينطبق ايضاً على الكلمة الأولية في لغة كل حضارة أخرى - كالكلمتين السنسكريتيتين آتمان وبرامان - وهما تدلان على نظرة هذه الحضارة في العالم،ولا يستطيـع أي إنسان ، غير مسلسل نسباً في هذه الحضارة أن يفهم لها معنى .

إن التاريخ الظاهري للغات ، وخاصة أشد أجزائه أهمية ، يعتبر بمثابة المفقود. فربيعه يكمن عميقـاً في الحقبة البدائية ، حيث يتوجب علينا (ولأكرر مـا قلته آنفـا) أن نتصور الانسانية في شكل من جماعات صغيرة مشتتة وتائهة في أرجـاء الارض الفسيحة. ثم طرأ على هذه الجماعات تبدل روحي عندما أصبحت الاتصالات المتبادلة أمراً مألوفاً (وهذه في النهاية شيء طبيعي)، ولكن ليس هناك من ريب في أن هذه الجماعات قد نشدت اولاً هذه الاتصالات ومن ثم قـامت بتنظيمها ، أو تجنبها بواسطة النطق ، ولا ريب أن تأثير أرض مترعة بالنـاس كان ذاك هو أول دفع بالشعور الواعي الى نقطة الفطنة الشديدة في ذكائها ، مرغماً اللغة الشفهية أن تطفو تحت الضغط على السطح. وهكذا ، فلربما كانت ولادة الصرف ترتبط بطابع عنصر العدد الاعظم .

ومنذ ذاك التاريخ حتى اليوم لم يعرف أبداً أي منهـــاج صرفي طريقه الى الوجود ، ما عدا فقط مشتقات جديدة من كلمات كانت قائمة وموجودة . كما وأننا

لا نرى ، طيلة المدى الذي نستطيع ان تحملنا اليه نظرة نلقي بها الى الخلف اكثر من مناهج لغوية كاملة ومطورة ، يستعملها كل انسان ويتعلمها كل طفل بوصفها شيئاً مـــا كاملاً في طبيعته . ونحن بالاضافة الى ذلك نجد انه اكثر من صعب أو عسير ، أن نتخيل انه لربما كانت الاشياء في احد الأيام السالفة تختلف عما هي اليوم ، وأن رعدة من خوف قـد تكون رافقت سماع لغة غريبة غامضة كهذه ـ أو ورعاً كذاك الذي كان المخطوط في الازمان التاريخية ولا يزال يثيره في النفوس. ومع هذا فعلينا أن ندخل في حسابنا الاحتمال القائل بأن لغة شفهية قد أوجدت ، في عالم مواصلة معدوم الكلمات ، امتيازاً ارستقراطياً هو سر لطبقة تحافظ عليه بغيرة وحماس . ولدينا على مـا قلته آنفاً الف مثال ومثل ـ الدبلوماسيون بلغتهم الفرنسية ، العلماء بلاتينيتهم ، والكهنة بسنسكريتيتهم ـ يخولنا الافتراض انه لربما كان آنذاك نازع كهذا . وإنه لجزء من كبرياء الانسان العريق الاصيل أن يكون قادراً على الحديث مع نده بأسلوب لا يفهمه دخيل ـ لأن اللغة هي بالنسبة لكل انسان عامية دارجة . فلكي تكون على « مستوى اصطلاحات الحديث » وشخص ما هو امتياز لك أو حجة . وهكذا ايضاً فان استعمال اللغة الفصحى في الحديث مع الناس المثقفين واحتقار اللغة العامية ، هو مما يميز الكبرياء البرجوازية الصحيحة . وانـــه لأمر مألوف لنا نحن فقط الذين نعيش في المدينة حيث يتعلم الأطفال الكتابة كما يتعلمون المشي ـ لكنه في الحضارات المبكرة كان يمثل انجازاً نادراً لا يطمح اليه الا القليل . وانني لواثق من انه كانت هذه هي الحال أيضاً ، في أحد الأيام ، واللغة الشفهية .

ان مقياس (Tempo) سرعة زمن التاريخ اللغوي هائل في سرعته ، فمجرد جيل واحد فقط يعني الكثير من الاشياء والعظيم من الأمور . ويجوز لي هنا ان أشير ثانية الى لغة الايماء للهنود الشماليين ، هذه اللغة التي أمست ضرورة لازمة بسبب التغيرات السريعة التي طرأت على اللهجة العامية للعشائر ، فجعلت التفاهم أمراً مستحيلاً بدون لغة الايماء .

ولنقارن ايضاً بين اللاتينية التي اكتشفت حديثاً في نقوش الفوروم (قرابة عام ٥٠٠) وبين لاتينية بلاوتوس (قرابة عام ٢٠٠) وبين هذه ايضاً وبين لاتينية شيشرون (قرابة عام ٥٠) . لذلك فاذا ما فرضنا ان اقدم النصوص الفيدية قد حافظت على الوضع اللغوي لعام ١٢٠٠ ق.م، عندئذ قد تكون حتى النصوص العائدة لعام ٢٠٠٠ قد اختلفت عن ذاك الوضع اكثر بكثير مما يظن أو يحدس أي فيلولوجي ، من فيلولوجيي الهندية الجرمانية ، يقوم بابحاثه فوق مناهج متتالية متلاحقة . ولكن الأليغرو Allegro يتبدل الى لنتو Lento ، في اللحظة التي يتدخل الخط فيكبل المناهج بالأغلال ويشل حركتها عند مستويات حقبة مختلفة تماماً . وهذا هو ما يجعل التطور معتماً غامضاً الى هذا الحد بالنسبة الى البحث ، وكل ما نمتلكه الآن انما هو آثار وبقايا من لغة مكتوبة . أما من عالمي اللغتين المصرية والبابلية ، فلدينا تعود حتى عام ٣٠٠٠ ولكن اقدم الآثار الهندية الجرمانية هي نسخ طبق الاصل Copies ، حيث الوضع اللغوي فيها أغض ايهاباً بكثير من المحتويات .

لقد كانت مصائد الصروف (جمع صرف) والمفردات ، تحت ضغط عوامل الحسم هذه بالغة في التنوع فالصروف ترتبط بالذهن أما المفردات فانها ترتبط بالاشياء والأماكن . والمناهج الصرفية هي وحدها الخاضعة للتبدل الطبيعي الباطني . أما استعمال الكلمات ، فهو على العكس ، إذ أنه يفترض سيكولوجياً ، بالرغم من أن التعبير قد يتبدل ، أقول يفترض الحفاظ على التركيب الميكانيكي ويبالغ في تثبيته) لكونه القاعدة التي تستند جوهريا التسمية اليها . ان العائلات اللغوية العظمى هي العائلات الصرفية العظمى .

فالكلمات فيها هي ، الى حد قريب أو بعيدة ، مشردة لا موطن لها ، جوابة رحالة من واحد الى آخر . وهناك خطأ أساسي في البحث الفيلولوجي ،(وخاصة الهندي الجرماني منه) وهذا الخطأ يتمثل في معالجة الصرف والمفردات بوصفها وحدة (كاملة المترجم). فكل المفردات المخصصة – كرطانة الصياد ، الجندي ،

الرياضي ، البحري ، العلامة – هي في الواقع مجرد مخازن من الكلمات ، ويمكن استعمالها داخل أي وكل المناهج الصرفية . فمفردات الكيمياء والدبلوماسية الفرنسية ، والمفردات الانكليزية المستعملة في ميدان السباق قد جنست في جميع اللغات الحديثة على حد سواء . فنحن قد نتحدث عن كلمات « غريبة » ولكن الوصف نفسه كان يمكن أن يطلق في أحد الايام أو غيره ، على أعمق الكلمات « جذوراً » كما يصفونها ، في جميع اللغات القديمة .

إن جميع الاسماء تلتصق بالاشياء التي تسميها وتشارك في تاريخها. فأسماء المعادن في اللغة اليونانية هي أسماء ذات منابع غريبة عن هذه اللغة ، فهناك اسماء سامية المنشأ . كما وان الاعداد الهندية أعداد موجودة في النصوص الحثية التي دونت في بوغاز كو Boghaz kaui ،والقرائن التي تتخذها هي قرائن دخلت البلاد مع تربية الخيول وتأصيلها . كما وأن المصطلحات الادارية قد اكتسحت الشرق الأغريقي ، زد على ذلك أن جمهرة من المصطلحات الألمانية قد تدفقت بغزارة على روسيا البطرسية (نسبة لبطرس الأكبر) ، أضف الى ذلك أن الكلمات العربية تتخلل مفردات الرياضيات الغربية والكيمياء وعلم الفلك . والنورمان ، وهم جرمانيون، قد أغرقوا اللغة الانكليزية بالمفردات الفرنسية . واللغة المصرفية (البنكية) في الاقاليم الناطق أهلوها بالالمانية ، مليئة بالتعابير الايطالية ، وبالمثل فان جمهرات من تسميات جد أوسع ، تسميات ترتبط بالزراعة وبتوليد قطعان الماشية ، وبالمعادن والاسلحة ، وترتبط بصورة عامة بكل صفات المهارة اليدوية والمقايضة والقانون المشترك بين العشائر ، أقول بأن هذه الجمهرات يجب ان تكون قد هاجرت من لغة الى أخرى، تماماً كما كانت تنتقل دائماً المسميات الجغرافية الى المفردات الخاصة باللغة المسيطرة ، ودليلنا أن اللغة الاغريقية تحتوي على العديد من أسماء المكان الكارية Carian والجرمانية والكلتية . ونحن لا نبالغ إذ نقول بأنه كلما اتسعت دائرة توزيع الكلمة الهندية الجرمانية ، تزداد هذه الكلمة فتوة وشباباً ، واكثر من هذا أن تكون هذه الكلمة كلمة غريبة . فالاسماء القديمة جداً هي وحدها التي تسيج بوصفها ممتلكات خاصة. واللغتان اللاتينية والاغريقية تشتركان فقط في كلمات

هي في مستهل مطلع الشباب . أو هل تنتمي كلمات « كتلفون » « وغـــاز » واوتومبيل الى مخزون كلمة الشعب البدائي ؟ ولنفترض جدلاً أن ثلاثـــة أرباع الكلمات البدائية الآرية قد تحدرت الينا من المفردات المصرية او البابلية العائدة الى الدورة الالفية الثـالثة ، عندئذ يتوجب علينا ألا نجد أي أثر لهذه الواقعة في اللغة السنسيكرتية ، وذلك لانه لم يعد بامكاننا اطلاقـــاً أن نتعرف ، حتى في اللغة الالمانية، على الالاف من الكلمات اللاتينية المستعارة، إذ أن هذه الكلمات قد أصبحت منذ طويل زمن كلمات لا يمكن تمييزها عن الالمانية . فالمقطع الاخير « Ette » من أسم هنريت هو مقطع اتروسكاني ــ وكم هنـاك من المقـاطع الآخيرة من آرية وسامية أصلية ، تتحدانا ، بالرغم من أصلها الغريب تماماً لنبرهن على أنهـا مقاطع متطفلة ؟ فما هو التفسير الذي يقدم للتشابه المذهل للكثير من المفردات في اللغتين الاوسترالية والهندية الجرمانية ؟

ان المنهاج الهندي الجرماني هو أصغر المناهج سناً، وهو لذلك اكثرها عقلانية. وان اللغات التي تشتق منه ، هي ، لهذا السبب اكثرهـــا عقلانية . فاللغات التي تشتق منه تحكم اليوم الأرض، ولكن هل كانت توجد إطـلاقاً في عام ٢٠٠٠ لغات بوصفها صرحـــاً صرفيـاً معيناً ؟ وكما هو معروف لدينا تمامـاً أن مجرد شكل الحرف الأولي يفترض اليوم شيئاً محتملاً بالنسبة الى الآري أو السامي أو الحامي. فأقدم مـا هناك من نصوص هندية تحـــافظ (على الارجح) على الشروط اللغوية العائدة الى ما قبل عام ١٢٠٠ ، كما وأن أقدم النصوص الاغريقية تحافظ على تلك الشروط العائدة (على الارجح) الى عـــام ٧٠٠ . ولكن الاسماء الهندية ، من شخصية والهية ، نراها أيضاً تدخل سوريا وفلسطين في الوقت ذاته،الذي يدخل فيه الحصان هذين البلدين ، ونلمس أن الذين يحملون هذه الاسماء كانوا ، في الظـاهر ، أول ما كانوا ، جنوداً مغامرين ، ومن ثم أصبحوا ذوي صولة ودولة .

فهل من الجائز أن تكون أقوام فايكنغ الارض هؤلاء الفرسان الاوائل ــ هؤلاء الذين نموا وترعرعوا وشبوا من سروج خيولهم ، لا يفرق بينهم وبينهـا أي

عامل ، هؤلاء الاصول المرعبة لأسطورة الصنطور ، فايكنغ عام ١٦٠٠ – أقول هل من الجائز أن يكون هؤلاء قد ضربوا جذورهم ،أغاص عمقهم أم قل ، في تربة السهول الشمالية بوصفهم شيوخاً لمغامرين يجلبون معهم نطق الالوهيــات للحقبة الاقطاعية الهندية ؟ والأمر ذاته هو أمر المثل العليا الارستقراطية الآرية ، مثل التزاوج والسلوك.

ووفقاً لما قلناه آنفاً عن العنصر ، فهذا قد يفسر المثل الأعلى لعنصر الأقاليم التي تتحدث بالالمانية ، دون أن تكون هناك أية ضرورة تستوجب « هجرة » أي من الاقوام « البدائية » ، وفضلاً عن ذلك – فهذا كان النمط الذي أسس وفقــه الصليبيون الفرسان دولهم في الشرق – وفي الاماكن نفسها تماماً التي قامت بهـــا أسماء خيول ماتاني Mitanni قبل ٢٥٠٠ سنة خلت .

أو هل كان هذا المنهاج العائد الى قرابة عـام ٣٠٠٠ لهجة دارجة عامية ، غير ذات بال ، من لغة لم يعد لها أثر ؟ إن عائلة اللغة اللاتينية قد سيطرت عـام ١٦٠٠ على كل البحار . ولكن اللغة الاصلية التي كانت لغة نهرالتيبر كانت تمتلك من مجال يزيد بقليل في مساحته على الالف من الكيلومترات المربعـة . ومن المؤكد أن الصورة الجغرافية للعائلة الصرفية Grammatical ، كانت لا تزال ، قرابة عــام ٤٠٠٠ ، مدبجة بالنقوش . فالمجموعة السامية – الحامية –الآرية (وذلك اذا كانت اطلاقاً قد شكلت وحدة في يوماً ما) تكاد بالكاد تكون ذات أهمية في هذا اليوم. فنحن نتعثر في كل منعطف بـآثار من عــائلات نطق – اتروسكان ، باسك ، سومري ، والليغوريين ، من ألسنة آسيا الصغرى وغيرها – وهذه النطوق (جمع نطق) يجب أن تكون منتمية في عصرهـــا الى مناهج بالغة جداً في اتساعها وانتشارها . ففي محفوظات بوغـاز كيوي Boghaz - keüc قد تعرفنا حتى الآن على ثماني لغـات جديدة ، وجميع هذه اللغات كانت متداولة قرابة عام ١٠٠٠ وبهذا ووفقاً لمقياس السرعة الزمنية للتعديل Tempo ، الذي كان سائداً آنذاك ، فمن الجائز أن تكون اللغة الأرية قد شكلت وحدة مع لغات يتوجب علينا أبداً ألا نجعلها تختلط معها .

٧

إن الكتابة هي لغة من نوع جديد كل الجدة ، وتدل على تبدل كامل طرأ على علاقات الشعور الواعي للانسان ، وهي بهذا تحرره من طغيان الحاضر . أما لغات الصورة التي ترسم الاجسام والمواد فهي أقدم من هذه بكثير وقد تكون أقدم من اي نوع كان من الكلمات . ولكن الصورة هنا (في لغة الكتابة — المترجم) لم تعد تسمية لجسم منظور ، بل إنما هي في الاصل اشارة كلمة - وأعني بذلك أنها شيء ما مجرد عن الاحساس . وهي أول الامثلة لا بل وحيدها للغة تتطلب وتطلب التدريب الاولي الضروري ، دونما أن توفر هي بنفسها مثل هذا التدريب .

إذن فالخط يفترض صرفـاً مطوراً تطويراً كاملاً حيث ان نشاط الكتابة والقراءة هو على صورة لا نهائية اكثر تجريداً من نشاط التكلم والسماع . والقراءة تقوم على التفرس وإمعان النظر في صورة الخط بشعور بمعـاني أصوات الكلمة المنطبعة على هذه الصورة .

أما مـا يحتويه الخط فهو إشارة لإشارات أخرى وليس إشارات لاشيـاء . والحس الصرفي يجب أن يوسع بواسطة الادراك الفوري البرهي .

إن الكلمة هي ممتلك من ممتلكات الانسان ، بينما أن الكتابة تنتمي حصراً لابناء الحضارة أو ناسها . والكتابة تبايناً منهـا واللغة الشفهية ، مرهون مصيرها ، لا جزئياً فقط بل كله ، بمصائر تاريخ العالم من سياسية ودينية . وجميع الخطوط تظهر الى الوجود في الحضـارات الفردية ويجب أن تعتبر من بين أعظم مـا لهذه الحضارات من رموز . ولكن لم يكتب حتى الآن أي تاريخ جامع شامل للخط ، ولم تقم أبداً حتى اليوم أية محـاولة لدراسة سيكولوجيا أشكاله أو التعديلات التي طرأت عليها . إن الكتابة هي الرمز الاعظم لما هو ناء أو بعيد ، هي لا تعني فقط

مسافة امتداد ، بل انما تعني ايضاً ، وقبل كل شيء ، الديمومة والمستقبل والارادة للخلود . فالتحدث والاصغاء يحدثان متجاورين متقاربين وفي الحاضر ، ولكن المرء يستطيع بواسطة الكتابة الى أناس لم يرهم أبداً ، وحتى الى بشر لم يولدوا بعد ، وصوت المرء يسمع حتى بعد قرون طويلة من وفاته . وهذه أولى الدمغات المميزة للهبة التاريخية .

ولهذا السبب بالذات ، لا يوجد من شيء يميز للحضارة اكثر من علاقتها الباطنية بالكتابة . واذا كنا نعرف فقط هذا القليل الذي نعرفه عن الكتابة الهندية الجرمانية ، فهذا الامر يعود سببه الى أن الحضارتين الابكر زمناً واللتين استخدمت شعوبها هذا المنهاج - الهندي والكلاسيكي - كانتا حضارتي شعوب بلغت فطرتها اللاتاريخية حداً جعلها لا تكتفي فقط بعدم إنشاء ، أو تكوين أي خط خاص بها ، بل انما دفع بها لتحارب الخطوط الغربية واستمرت حربها حتى الحقبة المتأخرة من سياق هاتين الحضارتين .

والحق أن كامل فن النثر الكلاسيكي قد صمم ليلائم فوراً الاذن . فالانسان يقرأه كأنه يتكلمه ، بينما نحن ، بالنسبة لذاك ، نتكلم بكل أمر كأننا نقرأه وهكذا كانت النتيجة ، نتيجة التأرجح الابدي بين صورة الخط وجرس الكلمة ، اننا لم نبلغ أبداً مستوى أسلوب نثر ، بحيث يبدو صحيحاً كاملاً وفق المفهوم الاتيكي . أما في الحضارة العربية ، من جهة أخرى ، فان كل دين من أديانها قد وضع له خطاً خاصاً به وحافظ عليه خلال التبدلات التي طرأت على اللغة الشفهية . فديمومة الكتب المقدسة وديمومة التعاليم الدينية بالاضافة الى ديمومة الخط الابجدي بوصفه رمزاً لديمومة ، انما تنتمي كل واحدة منها الى الاخرى . وقد وجدت أقدم البراهين على الخط الابجدي في جنوب جزيرة العرب ، وفي خط سبأ ومنيا — والفوارق بين هذين الخطين تنبع ، دون ريب ، من الفوارق بين المذهبين — اللذين قد يعودان الى القرن العاشر قبل المسيح . زد على ذلك أن اليهود ، من ماندیان Mandaeans ومانيشيان Manichaeans ، كانوا يتكلمون اللغة الآرامية الشرقية

في بابل ، ولكنه كان لكل طائفة ، من هاتين الطائفتين ، خط خاص بها . وقد سيطرت الابجدية العربية ابتداء من الحقبة العباسية ، غير أن المسيحيين واليهود كانوا يكتبون بحروفهم الخاصة . وقد نشر الدين الاسلامي الخط العربي ، على نطاق عالمي ، بين اتباعه ، بغض النظر عما اذا كانت اللغة التي يتكلمها هؤلاء سامية أو منغولية أو آرية أو لسان شعب من السود . ويجلب نمو عادة الكتابة حتما معه وفي كل مكان الفرق القائم بين اللغات المكتوبة وبين اللغات العامية . وتطبع اللغة المكتوبة وضعها الصرفي الخاص بومزية الديمومة ، وهذا الوضع بدوره يستسلم فقط ببطء وتردد للتعديلات والتحويرات التقدمية التي تجريها اللغة العامية – لذلك فان اللغة العامية تمثل ، في أية لحظة ، وضعاً أصغر عمراً من الوضع الصرفي . ولا توجد هناك لغة هيلينية واحدة ، بل انما هناك لغتان ، زد على ذلك أن التباين الهائل القائم بين اللغة اللاتينية المكتوبة وبين المعاشة في العصور الامبراطورية ، أمر واضح وضوحاً كافياً في تركيب اللغات اللاتينية المبكرة . وكلما ازدادت المدينة عمراً تزداد هوة العرف عمقاً حتى نبلغ ذاك المهوى الذي يعمق اليوم بين اللغة الصينية المكتوبة وبين الكوان هاو Kwah - nua ، اللغة التي يتكلمهاالفرد الصيني المثقف من أبناء الشمال الصيني – ولم يعد هذا المثل يشير الى لهجتين ، بل انما يدل على لغتين الواحدة منها غريبة عن الأخرى .

وهنا يتوجب علينا أن نلاحظ التعبير المباشر للواقعة والقائل بأن الكتابة هي ، قبل كل شيء ، قضية مركز أو منزلة ، وهي على وجه أكثر من التحديد ، امتياز لرجال الكهنوت . أما الفلاحون فليس لهم تاريخ ولذلك لا توجد لهم كتابة . ولكن بغض النظر عن هذا الأمر ، فانه يوجد في العنصر كراهية للكتابة لا تخطئها عين . وانني لأعتقد بانه كلما كان الكاتب اعرق أصالة في عنصره ، كلما تزداد معالجته للتركيب الزخرفي زهوا واختيالاً ، ويزداد معه ميله لاستبدال هذا التركيب بصور خط شخصية ، وهذه واقعة بالغة الأهمية بالنسبة الى الغرافولوجيا

Graphloghy [1] .

وإنسان التابو هو وحده الذي يقر بنوع من احترام للاشكال الملائة للحروف، ويحاول ، دائماً ودون مـــا وعي منه ، أن يزيد في عددها . وهذا هو الفرق بين رجل العمل الذي يصنع التاريخ وبين العالم الذي يدون فقط التاريخ على الورق ، « ويخلده » . ولقد كان الخط في جميع الحضارات في عهدة رجال الكهنوت الذي يتوجب علينا أن نعتبر الشعراء والعلماء ايضاً منتمين الى طبقة هؤلاء ايضاً . أمـا طبقة النبلاء فانهـــا تحتقر الكتابة ، فلهذه الطبقة أناس يكتبون لها . ولقد كان ، منذ أقدم الزمان ، لهذا النشاط ـ الكتابة ـ شيء ما من طابع عقلاني كهنوتي. والحقائق ، التي لا زمان لها ، لم تصبح هذه حالها بواسطة النطق ، بل انما أصبحت كذلك عندما أمسى لهـــا خط . وهنـــا يتبدى ثانية التنـاقض بين القلعة وبين الكاتدرائية ، ولكن مـــا الذي ستكتب له الديمومة الفعل أم الحقيقة ؟ ومذ بـع الأرشيفي (منسق المحفوظات) تصون الوقائع وتحفظها ، أمـــا الكاتب الديني فيحفظ الحقائق . وما تعنيه أسفار التاريخ والوثائق في نظر الأرشيفي هو ذات ما تعنيه الشروح أو التفاسير والمكتبة بالنسبة الى الكاتب الديني . وهكذا فان هناك شيئاً ما الى جانب الهندسة المعمارية المذهبية ، شيئاً ما لم يزين بزخرفة بل انمـــا هو نفسه زخرفة ـ إنه الكتاب . وتاريخ الفن في كل ربيـع حضـارة يجب أن يبدأ بالخط ، وبالخط الرقعي حتى قبل النسخي .وهنا نستطيـع أن نلاحظ جوهر نمط الخط الغوطي ، أو المجوسي ، بوصفه أنقى الانماط وأصفاها . فليس هنـــاك من زخرف آخر ـ غير هذين النمطين ـ يمتلكان باطنيـة شكل الحرف ، أو شكل صفحة من مخطوط . ولا تبلغ النقوش العربية ، في أي مكان ، تلك الدرجـة من الكمال كما تبلغها في النصوص القرآنية المخطوطة على جدران الجوامع .

ثم هنـاك أيضـــاً ذاك الفن العظيم فن كتابة الحروف الأولى من الاسماء ،

---

[1] الغرافولوجيا : فن معرفة الأخلاقية من خط اليد

(المترجم)

وهندسة الصورة الهامشية وتصميمها وتركيب دفوف الكتاب ! وكل صفحة من صفحات القرآن المكتوب بالخط الكوفي هي بالفعل قطعة من زركشة . كما وأن كتاباً غوطياً ، يضم الاناجيل ، انما يبدو ، كما كان ، كأنه كاتدرائية صغيرة . أمـا بالنسبة الى الفن الكلاسيكي ، فان الشيء الوحيد الذي لم يزينه هذا الفن بلمساته ، انمـا هو الخط ولغة الكتاب ، وهذا أمر بليـغ المعنى عميق المغزى — وهذا الاستثناء انما يقوم على الكراهية الكلاسيكية العميقة لكل مـا له ديمومة ، وينبـع من الاحتقار الكلاسيكي . لتقنية تصر على أن تكون اكثر من تقنية . ونحن لا نجد في كل من هيلاس أو الهند أي فـن من نقوش حفرت على التماثيل كذاك الفن الذي نجده في مصر . ويبدو أنه لم يطرأ على بال أي من النـاس (الكلاسيكيين) أن صفحة مدونة بخط افلاطون انما تعتبر ذخراً أثريا ، أو أن أصلا جميلا من أصول مسرحيات سوفوكليس يجب أن تكتنز في الاكروبول . وعندما شمخت المدينة برأسها فوق الريف ، وحالمـا انضم البرجوازي الى النبيل والكاهن ، وحينما طمحت الروح المدنية الى السيادة ، تحولت الكتابة من كونها المبلغ بشهرة النبلاء وبالحقائق الخالدة الى صيرورتها وسيلة من وسائل المعاملة التجارية والعلمية ، أما الحضارتان الهندية والكلاسيكية فانها قد رفضتا هذه الحجة واستوردتا من الخارج مـا يفي بمتطلبات العمل ، وقبلتا ببطء بالخط الأبجدي اذ كان اداة متواضعة للاستعمال اليومي .

ويصنف في مرتبة هذا الحدث ويعاصره ويمـاثله في مغزاه حدث ادخال الخط الصوتي Phonetic في الصين قرابة عام ٨٠٠ واكتشاف طبـاعة الكتب في الغرب في القرن الخـامس عشر ، فاكتشاف الطباعة قد ارتفع برمز الديمومة والمسافة الى أعلى مراتب القوة ، اذ أنه جعل بمتناول عدد كبير من النـاس . وأخيراً خطت المدنيات آخر خطوتها وألبست الخط زيـاً نفعيا . فاكتشاف الخط الأبجدي في المدينة المصرية ، قرابة عام ٢٠٠٠ ، كان ، كما رأينا ، بدعة تقنية مجردة . وبالطريقة ذاتهـا أدخل لي — سي Li - Si مستشار اغسطوس الصيني ، الخط الصيني النموذجي عام ٢٢٧ . وأخيراً ظهر بيننا نحن نوع جديد من الخط ، بالرغم من أن القليلين منا

فقط هم الذين ادركوا المغزى الحقيقي لهذا الأمر . ويدلل على أن الخط الأبجدي المصري ليس ، في أية حال الشيء النهائي المكتمل ، أقول يدلل على هذا اكتشاف زميله ، خطئيا للاختزال، Steno graphy ، الذي لا يعني مجرد تقصير الكتابة بل انما يعني التغلب على الخط الأبجدي بواسطة شكل مواصلة جديد وبالغ الرفعة في تجريده .

والحق أنـــه ليس من المستحيل أن تطرد اشكال خط الاختزال ، في سياق القرون القادمة ، الحروف طردا نهائياً كاملا .

- ٨ -

هل يجوز ، وفي هذه الحـــال المبكرة ، أن تقوم محاولة لكتابة مورفولوجيا للغات الحضارة ؟ ومن المؤكد أن حتى العلم لم يكتشف حتى اليوم وجود واجب كهذا . ان لغات الحضارة هي لغـــات ناس تاريخيين . والمصير لا ينجز ذاته في فراغات بيولوجية من زمان ، بل انمـــا يساير في خطاه تطوراً عنصريا ذا أزمان حياتية محددة تحديداً دقيقاً صارماً .

ولغات الحضارة هي لغـات تاريخية تعني أصلاً أنه لا يوجد هنـــاك أي حدث تاريخي أو مؤسسة سياسية لم تقرر بجسم روح اللغة التي استخدمهـا ذاك الحدث أو هذه المؤسسة جزء من ذاك أو هذه ، كما وأنه لا يوجد أي حدث أو مؤسسة لم تؤثر في الشكل الروحي لتلك اللغة . فتركيب الجملة اللاتينية لا يزال نتيجة أخرى من نتائج المعارك التي خاضتها روما ، هذه المعارك التي اذ حققت للاتينية الفتوحات أرغمت الشعب ككل أن يفكر تفكيراً ادارياً . زد على ذلك أن النثر الألماني لا

يزال يحمل حتى اليوم آثاراً من حرب الثلاثين عاماً بسبب احتياجه الى قواعد ثابتة مقررة ، كما وأن المذهب المسيحي كان لا شك سيكتسب شكلاً مغـــايراً لو أن مخطوطاته الدينية قد كتبت بالشكل السرياني ، كأشكال المـــاندان تلك ، ولم تكتب باليونانية جملة وتفصيلاً . ولكن هذا يعني ثانية أن التـاريخ يعتمد – الى درجة نادراً مـــا تصورها دارسوه حتى الآن – على وجود خط بوصفه الوسيلة الجوهرية التاريخية للمواصلة . كما وان الدولة (بما لهذه الكلمة من مفهوم ارقى) تفترض المعـــاملة ، أو المخالطة ، بواسطة الكتابة . زد على ذلك أن أسلوب كل السياسات يقرره بصورة مطلقة المغزى القائل بان التفكير التاريخي السياسي للشعب يرتبط في كل حالة بحروف ومحفوظات وتواقيع ، يرتبط بغلال المشترع ، فمعركة التشريع هي معركة من اجـــل أو ضد قـانون مكتوب ، والدساتير تحل محل القوة المـادية بواسطة صياغة فقرات ، واضفاء مهابة السلاح على قطعة من كتابة . والنطق يساير الحاضر ، أمـا الكتابة فتجاري الديمومة ، ولكن ، بالمثل ، يقترن الفهم الشفهي بالخبرة العملية ، بينما تقترن الكتابة بالتفكير التاريخي .

ونحن نستطيع أن نرد حجم التاريخ السياسي الباطني في كل المراحل المتأخرة ، الى هذا التعارض (الآنف الذكر). والوقائع الأبدية التنوع تقاوم «الحروف» ، بينما أن الحقائق تطالب بهـا – هذا هو التعارض التاريخي العالمي القائم بين فئتين ، والذي نصادفه ، على هذا الشكل أو ذاك ، في الازمات الكبرى التي تنزل بكل الحضارات . فالفئة الأولى (الوقـائع – المترجم) تعيش في الواقعة ، أمـا الثانية فانها تنمق نصاً في وجهها ، زد على ذلك أن جميع الثورات الكبرى تستلزم منسبقاً كتباً ومؤلفات .

ظهرت مجموعة لغات الحضارة الغربية في القرن العاشر . وقـــد جرى تطوير متون اللغة الموجودة – وأعني بهذه المتون الجرمانية واللغات العامية اللاتينية (بما في ذلك لاتينية الرهبان – الى لغات خط وتحت تأثير روحي وحيد . وانــه لمن المستحيل أن يتوجب أن لا يكون هنـاك طابع مشترك لتطور الالمانية

والانكليزية والايطالية والفرنسية والاسبانية ، هذا التطور الممتد من عام ٩٠٠ الى عام ١٩٠٠ ، كما هي الحال في تاريخ الميلينية والايتاليكية Italic (بما في ذلك الاتروسكانية) والواقع بين عام ١١٠٠ والامبراطورية . ولكن ، وبغض النظر عن مساحة امتداد عائلات اللغة أو العناصر ، فما هو ذاك الشيء الذي يكتسب وحدة معينة من حد صقع الحضارة وحدها ؟ وما هي التعديلات المشتركة بين كل من الميلينية واللاتينية عقب عام ٣٠٠ التعديلات في اللفظ والاصطلاح قياساً وصرفاً واسلوباً ؟ وما هو موجود في الالمانية والايطالية بعد عام ١٠٠٠ ، لكنه ليس موجوداً في الايطالية والرومانية ؟ هذه الاسئلة ، وغيرها من الاسئلة المشابهة لها ، لم يجر ابداً حتى الآن بحثها بحثاً منهاجياً ؟

ان كل حضارة تستيقظ لتجد نفسها في وسط لغات الفلاح ونطوق ريف خال من المدن ، ريف أبدي لا يكترث تقريباً بأحداث التاريخ الكبرى التي عبرت ، خلال الحضارة المتأخرة والمدنية ، كلهجات عامية لم تدون وطرأت عليها تغيرات بطيئة لم يشعر بها وعلى قمة هذه ترتفع لغة هاتين المنزلتين الأوليتين بنفسها بوصفها الظاهرة الاولى لعلاقة واعية تمتلك حضارة ، وهي حضارة . وهنا تصبح اللغات في دائرة النبلاء والكهان لغات حضارة ، أما الحديث فانه ينتمي ، بمزيد من التخصص ، الى القلعة ، بينما ينتسب النطق الى الكاتدرائية . وهكذا يفصل ، في مطلع التطور ، الشبيه بالنبات نفسه ، عن الحيوان ، انفصال مصير الحي عن مصير الميت ، والجانب المتعضي عن الجانب الميكانيكي من الفهم . وذلك لأن الجانب الطوطمي يؤكد الدم والزمان ، بينما أن جانب التابو ينفيهما . ونحن نصادف ، في كل مكان ، وفي وقت جد مبكر فعلاً ، لغات مذهب متخشبة يضمن قداستها عدم قابليتها للتحوير أو التعديل ، أو مناهج طواها الردى منذ زمن طويل ، أو انها غريبة عن الحياة وقد قيدت بقيود صناعية وذات مفردات دقيقة هي مطلب صياغة الحقائق الخالدة ومشتهاهـــا . فاللغة الفيدية قد تخشبت كلغة دينية ، وكذلك السنسكرتية كلغة علماء . ولقد خلدت اللغة المصرية العائدة الى المملكة القديمة بوصفها لغة الكهنة ، وهكذا فان القواعد المقدسة لم تعد مفهومة في الامبراطورية الجديدة اكثر مما كانت

الكارمن سالبار Carmen Saliare أو ترنيمة فراتريس ارفاليس Fratres Arvales مفهومة في الازمـان الاوغسطينية . وفي الحقبة السـابقة للحضارة العربية يطل ، في وقت واحد ، استخدام اللغات البابلية والعبرانية والأفستية كلغات متداولة للأعمال اليومية - ومن الجائز أن يكون بطلانها هذا قد تم في القرن الثاني قبل الميلاد ولهذا السبب بالذات استخدم اليهود هذه اللغات لكتابة مخطوطاتهم الدينية تبايناً من هذه اللغـات واللغتين الآرامية والفهلوية .والمغزى ذاتـه ينطبق ويرتبط باللغة الغوطية اللاتينية للكنيسة ، وبلاتينية حركة الانسانيين لتعلم الاسلوب الباروكي ، وبالسلافية الكنسية في روسيا ، وينطبق دون ريب على السومرية في بابل .

وتبايناً والآنف الذكر ، فان القلاع والقصور الجليلة الشأن هي مهد الحديث . ففي هذه تشكلت لغـات الحضارة الحية . فالحديث هو زي النطق وسجاياه انه « الشكل الحسن » في التجويد والاصطلاح ، والمهـارة الرفيعة في اختيار الكلمات وصيغ التعبير . وجميع هذه الأمور هي علامة من علامـــات العنصر ، وهي لا تكسب في صومعة من دير ، أو في غرفة مطالعة العالم ودراسته ، بل انما تكتسب من الاختلاط المهذب والأمثلة الحيـــة . ففي بيئة النبلاء ، نشأت وشيدت لغة هوميروس وكذلك اللغة الفرنسية القديمة، لغة الصليبين واللغة الألمـانية الوسيطة الرقي ، لغة الهوهنشتاوفن ، أقول نشأت هذه وبنيت من الحديث العادي للجانب الريفي وبوصفها طابعاً للنبالة . ولذلك فنحن عندمـــا نتحدث عن شعراء الملاحم العظام ، عن السكالديين والتروبادورز ، Trobadours , Skalds ، يتوجب علينا ان لا ننسى ، أنهم قد بدأوا تدريبهم لانجـــاز واجبهم في اللغة كما في الأمور الأخرى ، بالتنقل بين دوائر النبلاء . وما الفن العظيم الذي تجد بواسطته الحضارة لسانها سوى انجاز عنصر ، وليس انجاز مهارة .

أمـــا اللغة الاكليريكية فهي تبدأ ، من ناحيـة أخرى ، من المفـــاهيم والاستنتاجات . وهي تعمل وتكدح لكي تحسن الطاقات الديالكتيكية للكلمات واشكال الجمل الى أقصى الحدود . وهنا ينشأ ، نتيجة لذلك ، فرق ، يتزايد أبداً ،

بين الاصطدم المدرسي العقلاني المهذب وبين المخالطة الاجتماعية . ويوجد ما وراء جميع الانقسامات السائدة بين عائلات اللغة عامل مشترك بين تعبير بلوطينيوس وتوما الأكويني ، ومشترك أيضاً بين الفيدا Veda والمشنا . وهنا نجد، في الغرب، نقطة الانطلاق لكل لغات العلماء الناضجة - والتي تحمل اللغات من ألمانية وانكليزية وفرنسية ، على حد سواء ، حتى هذا اليوم علامات لا تخطئها عين تشير الى أصلها في لغة العلماء اللاتينية - وهي لذلك أيضاً نقطة انطلاق كل أجهزة التقني وشكل الجملة المنطقي .وهذا التعارض في التعبير القائم بين صيغ فهم المجتمع وبين فهم العلم يجد نفسه مرة بعد أخرى ويصل بعداً زمنياً يتخلل الحقبة المتأخرة. ولا شك أن مركز الثقل في تاريخ اللغة الفرنسية كانت بصورة حاسمة ملكاً لجانب العنصر - وأعني بذلك الحديث . ففي بلاط فارساي وصالونات باريس تنشر الروح الثمينة للروايات الارثورية ، في « المحادثة » فن الحديث الكلاسيكي ، هذا الفن الذي يعترف كامل الغرب بسلطانه . وكون اللغة الايونية الاتيكية قد صيغت بكاملها داخل قاعات الطغاة والمستبدين ، وفي شكل من أحاديث تجري في اجتماعات دورية ، قد خلق أشد المصاعب بالنسبة للفلسفة اليونانية : وذلك لانه أصبح ، فيما بعد ، من المستحيل أن يناقش المرء القياس المنطقي لالسيادس .

ومن جهة أخرى ، فالنثر الالماني ، وفي المرحلة الباروكية الحاسمة ، لم يكن يملك نقطة مركزية يستطيع منها أن يسمو الى مراتب الجودة ، وهو لا يزال حتى هذا اليوم يتذبذب، من جهة الاسلوب ، بين الفرنسية واللاتينية - بين لغة البلاط ولغة العلماء - وذلك وفق ما اذا كانت بديهة الكاتب ترغب في التعبير عن نفسه تعبيراً حسناً أم تعبيراً صحيحاً . وقد اكتسب كتابنا الكلاسيكيون ، بفضل أصلهم اللغوي في الوظيفة أو الدراسة ، وبسبب اقامتهم كمدرسين ومربين في القلاع والبلاطات الصغيرة ، أقول اكتسب هؤلاء أساليب شخصية ، وهناك آخرون يستطيعون أن يقلدوا هذه الاساليب ، ولكنهم جميعاً لم يستطيعوا حصراً أن يبدعوا أسلوباً نموذجيا للنثر الألماني .

وقد أضاف نشوء المدن الى لغتي الطبقة لغة ثالثة ،هي اللغة البرجوازية التي تمثل

النطق الحقيقي للخط ، تمثل النثر العقلاني النفعي بكل مـا لهذا النثر من مفهوم .
وهذه اللغة تتأرجح بتؤدة ورقـة بين صيـغ تعبير المجتمع الانيق ، ومجتمع العلم ، وهي في تأرجحها نحو الاتجاه الاول تفكر دائمـاً بايجاد دورات جديدة وكلمات « على الموضة » A La Mode ، وتقبض ، في الاتجاه الثاني ، بقوة على مخزونها من الفكر الموجودة . غير أن هذه اللغة هي ، بجوهرها البـاطني ، لغة ذات طبيعة تجارية . وهي تشعر بنفسها بصراحة على انها شعار طبقة يقف ، وجها لوجه ، أمام تركيب الجمل اللاتاريخي واللامتغير ، تركيب جمل « الشعب » الذي استعمله لوثر وآخرون الى حد فضح معاصريهم السطحيين فضيحة نكراء .

ويمتص النطق المدني ، مع الانتصار النهائي للمدينة النطق الأنيق والمتعلم معاً . وهنا تنشأ داخل الطبقة العليا من سكان المدن العظمى ، اللغة الوحيدة النسق الحـادة الذكاء والعملية ، وهذه طفل مدينتها ورمزهـا ، وتنفر بالمثل من اللغة العـامية والشعر ـ انها شيء ميكانيكي متنا وحاشية، دقيق بارد ، لا يترك الا أقل القليل الممكن للايماء . وهذه اللغات النهائيـة المشردة المعدومـة الجذور يمكن أن يتعلمها كل تاجر وعتال ـ انها الهيلينية في قرطاجة وعلى ضفاف نهر ،أو كسوس والصينية في جزيرة جافـا ، والانكليزية في مدينة شنغهاي ـ ولا قيمة أو مغزى للحديث لفهمها وادراكها .

ونحن اذا ما فتشنا عن الحافز الذي أبدع حقاً هذه اللغات ، نجد أنه لم يكن حافز روح أو عنصر ، بل إنما كان حافز الاقتصاد وروحه .

الفصل السابع عشر

المدن والشعوب

(ج)

البدائيون ، شعوب الحضارة ، الفلاحون

- ١ -

وأخيراً أصبح بامكاننا أن ندنو الآن – وبأشد الحذر – من مفهوم كلمة « الشعب » وأن ندخل شيئاً من نظام على هذه الفوضى من أشكال الشعب التي لم ينجح البحث التاريخي المعاصر الا في جعلها أسوأ ارتباكا وحيرة مما كانت عليه من قبل . فليست هناك من كلمة – ككلمة الشعب – استعملت بجرية ودون ما نقد اكثر مما استعملت هذه الكلمة ، ومع هذا لا توجد كلمة أخرى تستدعي أن يكون نقدها أصرم وأدق أكثر من هذه الكلمة . فالمؤرخون الشديدو العناية والاهتمام ، ينزلقون ، حتى بعد الجهود المضنية التي يبذلونها لايضاح نظريتهم (ايضاحاً يبلغ حداً معينا) ، أقول ينزلقون الى الوراء فيعالجون الشعوب وأجزاء العنصر وطوائف النطق بوصف هذه جميعاً مواضيع متكافئة متعادلة ومتساوية .

واذا ما عثر هؤلاء على اسم أحد الشعوب ، فانهم يرون فوراً في هذا الاسم تسمية للغة ودلالة عليها كذلك . واذا ما اكتشفوا نقشا يتألف من ثلاث كلمات فعندئذٍ يعتقدون بأنهم قد أقاموا الترابط العنصري . واذا ما انطبق القليل من « الجذور » بعضهـا على بعض ، فعندئذٍ يرفع الستار فوراً عن شعب بدائي له موطن بدائي. زد على ذلك أن الروح القومية قد بالغت فقط في تقدير مصطلحات التفكير بالشعوب هذه .

ولكن هل الهيلينيون والدوريون أم الاسبرطيون هم شعب ؟ واذا ما كان الرومان شعبا فلماذا يتوجب أن نقول عن اللاتين؟ وأي نوع من وحدة داخل سكان ايطاليا عـام ٤٠٠ نعني باسم « الاتروسكان » ؟ ألم تكن جنسيتهم تعتمد فعلا ، كجنسية الباسك والتراقيين ، على بنية اللغة؟ وما هي الفكرة السلالية التي تكمن وراء كلمة « أميركي » أو « سويسري » أو « يهودي » أو بويري ؟ الدم ، النطق ، العقيدة ، الدولة ، الصقع – أي من هذه الكلمات كلها تعني العامل الحـاسم في تكوين شعب من الشعوب ؟ فعلاقـات الدم باللغة تقرر عـادة بواسطة العلم أو الدراسة ، أمـا الفرد العادي فلا يشعر اطلاقـاً بهذه العلاقات. فمفهوم المصطلح « الهندي الجرمـاني » هو مجرد مفهوم علمي فقط ، ومفهوم فيلولوجي على وجه أكثر من التخصيص .

وقد لاقت محاولة الاسكندر الاكبر لصهر اليونان والفرس في أمـة واحدة فشلاً ذريعاً كاملاً ، كما واننا نشهد اليوم بأم عيننا القوة الحقيقية لشعور الطائفة[1] الانجلو ألمانية . ولكن « الشعب » هو نظام روابط يشعر به الفرد ويعيـه . وفي العرف العادي يدل المرء الى شعبه – وهو يشعر عانياً – تلك الطائفة من الطوائف

---

١ – لا شك ان اشبنغلر يعني هنا اقتتال الالمان والانكليز في الحرب العالمية الاولى ، وهو يورد القول الآنف الذكر من باب السخرية .

(المترجم)

الغفيرة التي ينتمي اليها والتي تقف باطنياً أقرب من غيرها منه . ومن ثم يمـــدد استعمال هذا المفهوم ، وهذا أمر هو ، فعلاً ، ذاتي تمامـــاً ويشتق من الخبرة الشخصية بالتجمعات البشرية التي هي من أشد الانواع تنوعاً . فالارفيرني Arverni كانوا في نظر قيصر Civitas ، والصينيون هم في نظرنا « أمة » Nation . واعتماداً على هذه القاعدة فان اهل أثينا وليسوا الاغريق هم الذين شكلوا أمـة ، والحق انه كان هناك عدد جد قليل من الافراد الذين شعروا، كما شعر إسوكراتس، بأنهم بالأصل هيلينيون . واعتماداً على هذه القاعدة ايضاً يجوز لأخوين ، أن يسمي الأول منهما نفسه سويسرياً وان يكون للأخ الآخر الحق ذاتـه في تسمية نفسه ألمانياً . وهذه ليست مفاهيم فلسفية ، بل انما هي وقائع تاريخية .

إن الشعب هو مجموعة من الناس تشعر وتحس بأنهـــا تشكل وحدة قائمة . والاسبرطيون أحسوا بأنفسهم أنهم شعب وفق هذا المفهوم، ومن الجائز ان يكون الدوريون عام ١١٠٠ قد شعروا كما شعر هؤلاء؛ لكن دوربي عام ٤٠٠ لم يشعروا أكيداً بهذا الشعور .

والصليبيون قـد أصبحوا حقاً شعباً عندما اقسموا يمين كليرمون ، وكذلك المورمون عندما طردوا من ولاية ميسوري عام ١٨٣٩ ، والمامرتين Mamertines عندما دفعت بهم الحاجة لاكتساب حصن يلجأون اليه . وهل كان مبدأ التشكيل (تشكيل شعب - المترجم) يختلف اختلافاً كبيراً مع اليعـاقبة والهكسوس ؟ وكم من شعوب ربما نشأت كأتباع لرئيس ، أو عصابة من هاربين ؟ وجماعة كهذه يمكن لهـــا ان تبدل عنصرها ، كما حدث للعثمانيين الذين ظهروا في اسيا الصغرى بوصفهم منغولاً ، أو أن تبدل لغتها كالنورمان الصقليين ، أو اسمها كـ Achaean و Danaoi . فطالما يوجد هناك حس جماعي ، فالشعب موجود ايضـــاً على هذه الحال .

ويتوجب علينا ان نفرق بين مصير الشعب وبين اسمه . فالاسم كثيراً مـــا يكون الشيء الوحيد الذي يخلف لنا معلومات عنه واخباراً . ولكن هل نستطيع

أن نستنتج من أحد الاسماء أي شيء عن التاريخ والمتحدرين منه ، واللغـة ، أو حتى بمجرد هوية الذين حملوه ? وهنا ايضاً يتوجب علينا ان نوجه اللوم الى البحاثة في التاريخ، ووجه لزمنا له انه عالج العلاقة بين الاسم وبين حامله ، بالبساطة ذاتها التي قد يعالج بها الاسماء المعاصرة . وهل لدينا أي مفهوم عن الامكانات غير المسبورة في هذا الميدان ? واستهلالاً نقول بأن مجرد القيام باطلاق اسم ، كان على درجة هـائلة من الاهمية ، في الاختلاطات البشرية المبكرة . وذلك لأن مع الاسم تنتصب مجموعة واعية من البشر يسندها نوع من كرامة مذهبية . ولكن قد توجد هنا اسماء مذاهب ، جنباً الى جنب ، واسماء حروب ، وأخرى قد تطلقها الارض أو توفرها التركة . واسم احدى القبائل قـد يتغير فيصبح اسمـاً كان يحمله بطل تاريخي ، كما كانت الحال مع العثمانيين ، وأخيراً ، بالامكان أن يطلق عـدد غير محدود من الاسماء على طول حدود جماعة من الناس دون أن يكون اكثر من جزء من هذه الجماعة قد سمع بها اطلاقاً . ولو كانت فقط اسماء كهذه قد وصلت الينـا لكانت عملياً الاستنتاجات عن حامليها مغلوطة حتماً . فالاسماء المذهبيـة الثابتة للفرنك والالمان والسكسون قد تلت جمهرة من الاسماء العائدة الى مرحلة معركة فرسوس – ولو اننا كنا لا نعرف بهذا الامر ، لكنا قد اقتنعنا منذ زمن طويل بأن طرد أو ابادة قبائل قديمة قد جرت هنا على ايدي معتدين جـدد . والاسماء التالية : الرومان ، الكويريتس Quirites ، والاسبرطيون ، اللاكيديمونيون Lacedaemonians والقرطاجيون والفونيون قد عاشت معاً وجنباً الى جنب – وهنا أيضاً يكمن الخطر ثانية في ان يفترض المرء ، استدلالاً من الاسمـــاء التي ذكرت آنفاً ، وجود شعبين بدلاً من شعب واحد . وما هي العلاقة بين اسمـاء « Danai » ، « Achaeans » ، « Pelasgi » وارتباط كل واحد منها بالآخر ، هـذا ما لن نعرفه ابداً ، ولو انه لم يكن متوفراً لدينا أكثر من هذه الاسماء لكان العلماء قد خصوا كل اسم من هذه الاسماء بشعب منفصل كامل يملك لغـة ولمحات نسب عنصرية . أوَ لم يحاولوا أن يستخلصوا من التسمية الاقليميـــة « دورية » استنتاجات عن مجرى الهجرة الدورية ? وكم من مرة اقتبس احـد الشعوب اسم

الارض وحمله معه؟ وهذه هي الحال والبروسيين الجدد، ولكنها ايضاً الحال والزردشتيين من الفرس Parsees والحال واليهود والاتراك، بينما انها على العكس من ذلك وبورغونديا ونورمانديا. لقد نشأ الاسم «الهيلينيون» عام ٦٥٠، ولذلك لا يمكن أن يُربط هذا الاسم بأي حركة سكان.

وإقليم اللورين سمي باسم أمير لا شأن له إطلاقاً، وجاء هذا الاسم نتيجة تقرير تركة أو ميراث، وليس نتيجة لهجرة قوم. وقد سمت باريس الالمان عام ١٨١٤ بالالمان، ثم دعتهم بالبروسيين عام ١٨٧٠، ولقبتهم «البوش» عام ١٩١٤ - وفي حالات غير هذه كان من الجائز أن تدل هذه الاسماء على ثلاثة شعوب مختلفة. كما وأن الانسان الاوروبي الغربي يسمى في الشرق «الفرنجي» ويدعى اليهودي بالاسبانيولي - وهذه الواقعة قد فسرتها الظروف التاريخية، ولكن أي شيء كان الفيلولوجي قد استولده من هذه الكلمات وحدها؟

ولا شك أن الخيال لا يستطيع أن يتصور النتائج التي قد يصل اليها العلماء في عام ٣٠٠٠ بعد الميلاد، لو أن هؤلاء استندوا في ابحاثهم الى المناهج المعاصرة التي تعتمد، الاسماء والبقايا اللغوية والظنون في المواطن الأصلية والهجرات، أساساً لها. فمثلًا (كانوا سيقررون - المترجم) أن الفرسان التيوتون قد طردوا «البروسيين» الوثنيين عام ١٣٠٠، غير أن هؤلاء الناس ظهروا فجأة عام ١٨٧٠ أمام ابواب باريس! أو أن الرومان هاجروا، تحت ضغط الغوط من التيبر الى القسم السفلي من نهر الدانوب! أو أن جزءاً منهم ربما استقر في بولندا حيث كان أهلوها يتكلمون اللاتينية؟ أو أنْ شارلمان قد دحر السكسون على ضفاف نهر الفيزر، فهاجر هؤلاء الى جوار درسدن، واستولى الهونوفريون على أرضهم، هؤلاء الذين كان موطنهم الأصلي، اعتماداً على اسم العائلة الحاكمة منهم، يقوم على ضفاف نهر التيمز Themes (في بريطانيا)! ان المؤرخ الذي يكتب تاريخ الاسماء بدلاً من تاريخ الشعوب ينسى أن للاسماء ايضاً مصائرها، وكذلك فان اللغات أيضاً، بما لها من هجرات وما طرأ عليها من تعديلات، وما «عرفته» من

انتصارات وهزائم، ليست بأدلة جامعة مانعة حتى بالنسبة لوجود الشعوب المرتبطة بها . وهذا هو الخطأ الاساسي للبحث الهندي الجرماني بصورة خاصة. ولو حدث في الازمـان التاريخية أن تنقل إسما « Pfalz » و « Calabria » ، أو أن العبرانية طردت من فلسطين الى وارسو ، والفـارسية من نهر دجلة الى الهند ، فما هي الاستنتاجـات التي يمكن أن تستخلص من تاريخ اسم الاتروسكان ومن النقش « الترسيني » Tyrsenian المزعوم في ليمنوس ؟ أو هل شكل الفرنسيون والسود من سكان هايتي في أحد الازمان شعباً بدائياً واحداً كما يظهر من لغتهم المشتركة ؟ وهناك اليوم في المنطقة الواقعة بين بودابست واسطنبول لغتان منغوليتان وواحدة سامية ، واثنتان كلاسيكيتان ، وثلاث سلافية ، وكل طـائفة من طوائف هذه اللغات، تشعر جوهرياً بأنها شعب .

ونحن اذا ما أردنا أن نؤلف في هذه المنطقة قصة هجرات ، فان أخطاء المنهاج ستتبدى في نتائج فريدة في شذوذها . ان كلمة « دوري » هي تسمية عامية، وهذا كل ما نعرفه . ولا شك أن بعضاً من لغات عـامية قليلة قد انتشرت بسرعة من هذه المجموعـة ، وكل هذا لا يشكل دليلاً على انتشار أو حتى وجود أرومة بشرية تنتسب اليها .

- ٢ -

وهكذا نأتي الى الفكرة المدللة للتفكير التاريخي الحديث . فاذا ما حدث أن صادف أحد المؤرخين ، في ابحاثه ، شعباً حقق شيئاً من انجاز ، فـان مثل هذا المؤرخ يشعر بأنه مدين لهذا الشعب بأن يجيب على السؤال التالي :

« من اين جـاء هذا الشعب ؟ » اذ أنه لأمر يتعلق بكرامة الشعب ، أن

يكون الشعب قد جاء من مكان ما وأن يكون له موطن أصلي . فالظن في أن للشعب مكاناً حيث نصادفه هو ظن يكاد يكون زعماً مهيناً تقريباً . فالترحال أو التجوال هو نازع لأسطورة عزيزة على أفئدة الجنس البشري البدائي ، ولكن استخدامه في الابحاث الجدية جنون مطبق . فليس هناك من أحد يسأل عما اذا كان الصينيون قد افتتحوا الصين أو المصريون مصر ، بل أن الجميع يسألون متى وقع ذلك ومن اين . ويقتضينا جهداً أقل أن نؤصل الساميين في البلاد الاسكندنافية ، والاريين في بلاد كنعان ، مما يقتضينا التخلي عن الزعم بوجود موطن أصلي .

إن الواقعة ، القائلة بان جميع اجناس السكان المبكرين زمنا كانوا كثيري الترحال والتجوال ، قد أصبحت اليوم واقعة لا تقل نقاشاً أو جدلاً ، وفي أحشائها يكمن سر المشكلة الليبية ، فأسلاف الليبيين كانوا يتكلمون اللغة الحامية، ولكنهم كانوا جميعاً ، كما تظهر النقوش النافرة المصرية، ذوي بشرات شقراء وعيون زرقاء، ولذلك فهم دون ريب ينتسبون الى أصول اوروبية شمالية . وقد ثبت أن آسيا الصغرى قد شهدت منذ عام ١٣٠٠ ثلاث دفعات من هجرات يحتمل أن تكون اسبابها عائدة لهجمات « شعوب البحر » في مصر ، وشيء ما شبيه بهذا قد ظهر في الحضارة المكسيكية. ولكننا لا نعرف أي شيء إطلاقاً عن طبيعة هذه الحركات. وعلى كل حال ، فالهجرات ليست موضوعاً لجدل كما يريد أن يصورها المؤرخون الجدد — حركات من شعوب مضغوطة بشدة تجوب الارض بجماهير غفيرة ، تدفع وتُدفع حتى تبلغ في النهاية مستقرا في مكان ما أو آخر ، وليست التعاقبات بحد ذاتها ، بل انما المفاهيم التي شكلناها (عن تعاقبات الشعوب هذه على بلد أو قطر — المترجم) هي التي أفسدت نظرتنا الى طبيعة الشعوب . فالشعب ، وفق مفهوم الشعب الحديث ، لا يرحل ، أما ذاك الذي كان يرحل في قديم العصور فيحتاج الى بحث حذر بالغ الدقة قبل أن يُدمغ أو يوسم ، لأن الدمغة أو الوسم لن تعني دائماً الشيء نفسه . كما وأن الحافز الذي عين هذه الهجرات ، وجعل حافزها ، هو حافز

لا لون له وجدير بالقرن الذي اخترعه فأسماه ـ الضرورة المادية . فالجوع عـادة يولد مجهودات من نوع مغاير تمامـاً ، ولا شك أبداً أن الجوع كان آخر الدوافع التي دفعت بناس العنصر الى خارج أعشاشهم ـ بالرغم من أنه من المفهوم بأنه كان في الكثير من الأحيـان يشعر النـــاس بوجوده عندما كانت العقبات العسكرية تعترض سبيل عصابات كهذه .

ولا شك أنه كان من الطبيعي أن تتنقل اللجـاجة الأولية الميكروكوسمية ، التي يختزنها باطن هذا النوع البشري البسيط والقوي ، بحرية في الفيافي والاصقاع ، اذ أنهـا لجاجة تنبـع من اعماق نفسه ، وتتدفق على شكل حب المغامرة والاقدام وحب السلطة والأسلاب ، وعلى شكل من رغبـة ملتهبة ؛ رغبة لا نستطيـع نحن اداكها تقريباً ، تتفجر أفعـــالاً وسروراً بالمذابح وموت البطل . ولا شك أن النزاع المحلي ، أو الخوف من انتقام الأقوى ، كان في كثير من الأحيـان الدافع (للتجوال والترحال ـ المترجم) ولكنه كان ايضاً أحد الدوافع ، القوية الهامة . ودوافع كهذه هي دوافع معدية ـ فالانسان الذي يتخلف في داره يعتبر جبـانا . وهل كان ايضـــاً الجوع الجسماني المشترك هو الذي حرك الصليبيين ، أو حملات كورتيز وبيزارو ، أو أوجد مغامرات رواد «الغرب المتوحش» في عصرنا الحالي؟ وحينما نجد في التاريخ تلك الحفنة من الناس الذين يفتتحون الاراضي الفسيحة، فان أصوات الدم والحنين الى مصائر سامية هي التي تدفع بهم أبداً .

زد على ذلك أنه يتوجب علينا أن نتـأمل في وضع البلد الذي يجتازه أو يجوبه الغزاة . وهنا نلحظ أن خصائص هذا البلد تعدل دائماً ، وكثيراً أم قليلاً ، ولكن هذه التعديلات ليست ناشئة فقط عمـا للمهاجرين من نفوذ ، بل انمـــا تنشأ اكثر فـــاكثر عن طبيعة السكان المتوطنين ، والذين يشكلون في النهـــاية الأكثرية العددية المطلقة .

ومن الواضح انه من السهل على الأضعف أن يتجنب الاكتساح والغـارات في فياف تـكاد تكون خالية من السكان تقريباً ، وبصورة عامة كان باستطاعتـه أن

يتجنبها . ولكن الغارة أصبحت ، في ظروف أشد كثافة ، تعني في نظر الأضعف الاغتصاب والطرد من بلده ، وكان عليه في هذه الحال ، إما أن يدافع بنجاح عن نفسه ، أو أن يرتحل ليكسب أرضاً جديدة يستعيض بها عن أرضه القديمة . وهنا يتبدى الاندفاع نحو الفراغ (الفضاء) . ولا يمكن لأية قبيلة أن تعيش دون أن تكون لها احتكاكات دائمة بكل من يسكن الى جوارها ، ودون أن يكون لديها استعداد شاك مرتاب لتهب الى سلاحها . وضرورة الحرب القاسية تنجب الرجال . والشعوب تنمو بواسطة وضد شعوب اخرى حتى تكتسب العظمة الباطنية . والاسلحة تصبح اسلحة ضد الرجال لا ضد الوحوش . وهنا نأتي أخيراً الى شكل الهجرات الوحيد الذي له قيمة واعتبار في الازمان التاريخية - فعصابات المحاربين تكتسح اكتساحاً تاماً بلاداً مأهولة بالسكان ، ويبقى سكانها آمنين اذ انهم يمثلون جزءاً جوهرياً من اسلوب النصر . وهنا تنشأ أوضاع جديدة كل الجدة نتيجة لكون المنتصرين يشكلون أقلية من السكان . والشعب الذي يمتلك شكلاً باطنياً قوياً ينشر نفسه فوق قمة عدد من السكان أكبر من عدده بكثير ، لكن ذاك العدد لا شكل له ،زد على ذلك أن ما يطرأ من التغيرات أو التحولات على الشعوب واللغات والعناصر انما هو مرهون بعوامل من تفصيل بالغة التعقيد . ونحن نعرف منذ أن قام بيلوخ Beloch ودلبروك Delbrück بابحاثهما الحاسمة بأن الشعوب المهاجرة - بالاضافة إلى فرس قورش Mamertines والصليبين والاستروغوط ، وشعوب البحر ، شعوب النقوش المصرية ، وهي جميعاً شعوب وفق هذا المفهوم - أقول نعرف بأن الشعوب المهاجرة كانت بالغة في قلة عدد أفرادها اذا ما قيست بعدد سكان البلاد الأصليين بعزيمتهم على أن تكون مصيراً وتصميمهم على أن لا يخضعوا لأي إنسان كان . وهؤلاء لم يمتلكوا أرضاً غير مسكونة أو قابلة للسكن ، بل انما امتلكوا أرضاً مأهولة ، وبهذا أصبحت العلاقة بين الشعبين موضوع منزلة أو مركز ، وتحولت الهجرة إلى حملة عسكرية ، وغدت عملية التوطن عملية سياسية .

وهنا نقول ايضاً بأنه أمام هذه الواقعة ، واقعة انتصارات حققتها عصبة محاربة

قليلة العدد ، خلال فترة تاريخية من الزمن ، ونجم عنها انتشار اسماء المنتصرين ولغتهم ، نقول بأنه من السهل بأن يتوهم المرء بأن جميع هذه الأسماء هي أسماء لشعوب مهاجرة . وهنا يصبح من الضروري أن نكرر سؤالنا :

ما هم فعلاً الناس والاشياء والعوامل القادرة على الهجرة ؟

وها كم بعض الأجوبة - فعندما ينتشر اسم منطقة أو مستوطن (أو اسم بطل تبناه اتباعه) يصبح بانتشاره منطفئاً خامداً هنا ، ويعطى أو يتم تبنيه هناك من قبل سكان يختلفون تماماً عن مسماه . وبهذا يمكن ان ينتقل من الارض أو الشعب ، وأن ينتقل مع الشعب أو العكس بالعكس - ومثال على ذلك لغة الفاتح ، أو لغة المغلوبين على أمرهم ، أو حتى لغة ثالثة ، يتم تبنيها من أجل تحقيق الفهم المتبادل المشترك - زد على ذلك العصابة المحاربة برأسها رئيس والتي تخضع بلداناً بأكملها وتنشر ذاتها من خلال وقاعها للنساء الاسيرات ، أو جماعة من مغامرين غير متجانسين ألفت بينهم الصدفة ، أو عشيرة بنسائها وأطفالها كالفلسطينيين القدماء الذين عرفهم عام ١٢٠٠ ، والذين كانوا يرتحلون وفق التقليد الالماني تماماً ، فيستخدمون العربات التي تجرها الثيران ويجوبون الساحل الفينيقي حتى مصر . ونتيجة اوضاع كهذه ، الآنفة الذكر ، يجوز لنا ان نسأل : هل نستطيع ان نستخلص من مصائر الاسماء واللغات ، استنتاجات عن هذه الشعوب والعناصر ؟ ان هناك جواباً واحداً ممكناً على هذا السؤال ، ألا وهو السلب الأكيد .

ويبرز من وسط « شعوب البحر » التي هاجمت مصر مراراً وتكراراً إسماً : Danni و Aciaeaus - ولكن كلا هذين الاسمين هما لدى هوميروس تسميتان اسطوريتان تقريباً - زد على ذلك إسم لوكا Lukka الذي التصق بـ Lycia بالرغم من أن سكان هذه المنطقة كانوا يسمون انفسهم بـ Tramilae - واسماء الاتروسكان والسردس و Siculi - لكن هذه الواقعة (الاسماء) لم تبرهن ابداً على أن هذا الخليط قد تكلم فيما بعد لغة الاتروسكان ، وانه كان هناك أقل ترابط جسماني بين

السكان المتشابهين اسماً في ايطاليا ، أو وجود أي شيء آخر يخولنا أن نتحدث عن « الشعب الواحد ذاته » فالزعم بأن نقش ليمنوس هو نقش اتروسكاني ، وان الاتروسكانية هي لغة هندية جرمانية يمكن أن يستنتج من هذا الكثير في ميدان التاريخ اللغوي ، لكننا لا نستطيع أن نستنتج منه أي شيء ، مهما كان ، في ميدان التاريخ العنصري فمدينة روما كانت مدينة اتروسكانية ، ولكن أليست هذه الواقعة عديمة من كل أثر أو نفوذ على نفس الشعب الروماني ؟ وهل الرومان هنود جرمان لأنه قدر لهم أن يتكلموا اللهجة العامية اللاتينية ؟

ان علماء أصول السلالات البشرية يعترفون بعنصر بحري متوسطي ، وبعنصر ألبي (نسبة للألب) ، ولكن يوجد الى الشمال والجنوب من هذين يوجد تشابه جسماني مذهل بين الألمان الشماليين وبين الليبيين . ولكن الفيلولوجيين يعرفون بأن الباسك Basque هم ، استدلالاً من لغتهم ، سكان ايبريا ما قبل الهنود الجرمان . وكلا الرأيين متعادلان في اطلاقيتها .

وهل كان الهيلينيون هم بناة ميسينا و Tiryns ؟ ومن المناسب هنا أن نسأل عما اذا كان الاستروغوت جرماناً ؟ وأنا هنا لأعترف بأنني لا أستطيع أن أدرك لماذا أوجدت أسئلة كهذه .

فالشعب هو ، في نظري ، وحدة نفس . والأحداث العظمى في التاريخ لم تنجزها الشعوب ، بل انها هي نفسها التي خلقت الشعوب . فكل عمل يبدل روح عامله . وحتى لو سبق الحديث نوع من تجمع حول وتحت اسم شهير ، فالواقعة القائلة بأن هناك شعباً وليس مجرد عصابة تكمن وراء مكانة هذا الاسم ، ليست شرطاً للحدث بل انما هي نتيجة له . فأقدار هجرات العثمانيين والاستروغوت هي التي جعلتهم ما كانوا عليه فيما بعد . والأميركيون لم يهاجروا من اوروبا ، واسم الجيوغرافي الفلورنسي ، آميركو فيسبوتشي Amerigo Vespucci لا يشير فقط اليوم الى قارة ، بل انما يدل ايضاً على شعب بكل ما للكلمة من معنى ومفهوم شعب ولد طابعه الخاص خلال الاضطرابات الروحية التي عرفها عام ١٧٧٥ ، وقبل

كل شيء ، التي شهدتها الفترة الزمنية بين عام ١٨٦١ و عام ١٨٦٥ . وهـــذا هو المضمون الوحيد لكلمة «شعب» . فليست وحدة اللغة ،أو التحدر من صلب واحد، هو عامل الحسم فذاك الذي يميز الشعب من السكان ويرتفع بالشعب من وســط السكان ، والذي سييسر له اليوم الذي يمكنه فيه من ايجاد مستواه بين السكان، انما هو ، دائماً ، خبرة « الـ نحن المعاشة . وكلما ازداد هــذا الشعور عمقاً تزداد فاعلية الشعب وحياته . وهناك اشكال لشعوب حية فعالة وأخرى داجنة أليفة ، وغيرها سريعة الزوال ورابعة لا يمكن تحطيمها . والشعب قد يستطيع أن يبدل الاسم والعنصر والأرض ، ولكن طالما لروحه حياة ، فان ابنـــاءه سيجمعون اشتاتهم وسيبدلون شكل المادة البشرية مهما كان أصلها أو جنسها . وكلمـــة رومان كانت تعني في أيام هنيبال شعباً ، غير أنها لم تعد تعني في عنصر تراجان اكثر من سكان .

ومن البدهي أنه يجوز لنا أن نصنّف الشعوب في عناصر ، لكن يتوجب ، في هذا المجال ، ألا نفسر العنصر وفق المفهوم الداروبني المعاصر لهـذه الكلمة . ولا يمكن لنا ان نقبل أو نسلم ، بقناعة ، بأن الشعب قـد حافظ على تماسكه بسبب وحدة أصله الجسمانية ، أو انه لو صح هذا الزعم ، يستطيـع حقاً أن يصون هذه الوحدة حتى طيلة عشرة قرون من الزمن . ونحن لا نستطيـع ان نكرر القول مراراً وتكراراً بأن لا وجود لهـــذا المنبـع الفيزيولوجي إلا بالنسبة الى العلم - وليس ابـداً وعي القوم - وانه لم يحدث ابداً حتى الآن ان استثار حماس الشعب المثل الاعلى القائم بنقاء الدم وصفائه. ففي العنصر لا يوجد أي شيء مادي، بل انما يوجد شيء ما كوني واتجاهي ، يوجد التناغم المحسوس للمصير ، محط النغم الوحيد لزحف الكينونة التاريخية . وهو متماثل في درجته ، وهــذا النبض (الميتافيزيكي مظهراً وجوهراً) والذي يولّـد البغضاء العنصرية ، التي هي في شدتها بين الالمان والفرنسيين ، كما هي تماماً بين الألمان ، واليهود وتجاوبها وهذا النبض هو الذي يجعل الحب الحقيقي ، الحب المتبـــادل بين الزوج والزوجة - مشابهاً البغضاء الى حد بعيد . والمرء الذي لا يمتلك عنصراً لا يعرف شيئاً عن هذا الحب

الخطر . واذا كان هناك جزء من هذه الجمهرة البشرية التي تتكلم اللغات الهندية الجرمانية ، تعتز بمثل أعلى لعنصر ، فهذا لا يدل على وجود نموذج اصلي جد عزيز على قلب العالم ، بل إنما يدل على الارغام والقوة الميتافيزيكيين لهذا المثل . والحق انه لذو مغزى عميق ان لا يجري التعبير عن هـذا المثل الاعلى من خلال كامل السكان ، بل انه يعبر عنه ، بصورة رئيسية ، من خـــلال العنصر المقاتل من السكان ، وان يكون تعبيره متعالياً سامياً من خلال طبقة النبلاء من السكان — أي ان يتخذ المعبرين عنه — اولئك الذين يعيشون كلياً في عــالم من الوقائع ، وتحت تأثير سحر الصيرورة ، يتخذ الرجال الذين يعزمون ويخاطرون — وهذا ، حصراً ، هو الذي يجعلنا نتفهم كيف استطاع أمرؤ غريب ذو نوعية وكرامة ، أن يكتسب قبول الطبقة الحاكمة لهبين اعضائها ،زد على ذلك أن أخبار النساء كان يجري وفق توليدهن [1] وليس حسب تحدرهن من أصول . ويتوافـق مع هـذا كون طابع سمات العنصر هي الأضعف (كما قد يلاحظ حتى الآن) في الطبيعتين الحقيقيتين لكل من الكاهن والعالم ، حتى بالرغم من روابط الدم الوثقى التي تشد أحدهما الى الآخر . فالروح القوية تصهر الجسم في نتاج فن. فلقد شكل الرومان، في وسط القبائل الحائرة وحتى الشاذة في ايطاليا ، عنصراً من اشد العناصر تماسكاً وحزمـــاً في وحدته ، وهذا العنصر لم يكن اتروسكانيا أو لاتينيـا ولا حتى كلاسيكيا ، بل كان رومانيا بصورة محدودة خاصة .

وليس هناك من شيء يتبدى فيه الارغام الذي يجعل الشعب متماسكاً كالبنيان المرصوص ، كمـــا يتبدى في التماثيل النصفية Busts التي نحتت في المرحلة الجمهورية المتأخرة زمنا .

وانني هنـا سأورد مثلاً آخر ، مثلا ، ليس له من مثيل لكشف أخطاء ظنون العلماء هذه بوضوح ، في الشعب واللغة والعنصر ، وهو مثل يؤدي حتماً ، ويكمن

---

(١) لاحظ المولدات عند العرب .

—المترجم—

فيه السبب النهائي ، ولربما كان السبب الحاسم الذي يجعلنا نتساءل لماذا لم يعترف حتى الآن بالحضارة العربية كنظام عضوي . ان السبب يعود الى الفرس . ولما كانت الفاوسية لغة آرية ، لذلك فان الفرس هم شعب هندي جرماني ، ولهذا فان التاريخ والدين الفارسيين هما من اختصاص الفيلولوجيا « الايرانية » .

واستهلالاً نتساءل : هل تتساوى اللغة الفارسية والهندية مرتبة وتشتق من أصل واحد ، أم هل هي مجرد لغة عامية هندية ؟

إن هناك سبعة قرون من التطور اللغوي اللامخطوط والسريع لذلك ، تفصل بين فيدية النصوص الهندية القديمة وبين نقوش داريوس الـ Behistum . وهذه تشكل هوة عميقة تقريباً بالنسبة الى الهوة التي تفصل بين لاتينية تاسيتوس وفرنسية قسم ستراسبورغ عام ٨٤٢ . زد على ذلك أن كتابات تل العمارنة ، ومحفوظات بوغاز كوي Boghaz keüi تطلعنا على الكثير من اسماء الاشخاص والآلهة الآرية العائدة الى منتصف الدورة الألفية الثانية قبل الميلاد – أي الى عصور الفروسية الفيدية . ولكن فلسطين وليست سوريا هي التي تقدم هذه الأسماء. ومع هذا فإن ادوارد ماير يلاحظ بأن هذه الأسماء هي أسماء هندية وليست فارسية ، والشيء ذاته ينطبق على الأرقام التي اكتشفت الآن. فليس هناك أية وحدة فارسية ، أو أية وحدة لشعب آخر ، وفق مفهوم كتابنا التاريخيين . فهؤلاء كانوا ابطالاً هنوداً انطلقوا غرباً ، وقد جعلوا انفسهم يحس بها بواسطة اسلحتهم الغالية وخيولهم الجربية وحيويتهم الغيورة وطاقتهم الحارة ، كقوة أبعد مدى واكثر اتساعاً من الامبراطورية البابلية الهرمة .

وتظهر ، قرابة عام ٦٠٠ ، في وسط هذا العالم برسيس Persis ، وهي منطقة صغيرة تضم سكاناً متحدين سياسياً ومن أرومة برابرة فلاحين . وهيرودوت يقول بأن ثلاثاً فقط من قبائل هذه المنطقة كانت قبائل فارسية أصيلة. فهل استمرت حياة لغة هؤلاء الفرسان في التلال ، وهل فارس هي حقاً إسم أرض أطلق على شعب ؟ فالماديون الذين كانوا جد مشابهين لهؤلاء ، يحملون اسم البقعة من الارض ، حيث

تعلمت طبقة المحاربين العليا أن تشعر ، نتيجة لنجاحاتها السياسية العظمى ، بأنهـــا تشكل بنفسها وحدة . ونحن نجد ، في المحفوظات الاشورية العائدة الى سيرجون وخلفائه (قرابة عام ٧٠٠)،الى جانب أسماء السكان اللا آرية،أسماء « آرية» عديدة لأشخاص ؛ جميعهم شخصيات بارزة ، لكن Tiglath - Pilser (٧٤٥-٧٢٧) يسميهم بالشعب ذي الشعر الأسود . ولذا فإن «الشعب الفارسي» في عهدي قورش وداريوس ، قد تشكل فقط فيا بعد ، وتشكل من أصول متنوعة مختلفة، ولكنه صُهر في وحدة باطنية قوية لخبرة مُعاشة . ولكن عندما وضع المقدونيون ، بعد بالكاد من مضي قرنين ، نهاية لسيادتهم هل كان هذا يعني أن الفرس لم يعـــد لهم وجود في هذا الشكل ؟ (وهل كان يوجد هناك إطلاقاً شعب لومباردي في ايطاليا عام ٩٠٠ بعد المسيح ؟) . وانه لمن المؤكد ان الانتشار الواسع جداً للغة فارس الامبراطورية ، وتوزع الالاف القليلة من شبـــان فارس المراهقين على الشؤون العسكرية والادارية الهائلة ، يجب أن يكون قد أدى ، منـذ وقت طويل ، الى انحلال الشعب الفارسي ، وإحلال من يحملون هذا الاسم كطبقة عليا تقي ذاتهـــا بوصفها وحـدة سياسية ، التي قد لا يستطيـع فقط ، وفعلاً ، أن يزعم إلا القليل بأنه متحدر من أصلاب فاتحي فارس . وليس فعلاً هناك حتى بلد واحد التي يمكن اعتبارها مسرحاً للتاريخ الفارسي .

فالاحداث ابتداء من داريوس فالاسكندر ، في شمالي بلاد مـــا بين النهرين (وهذا يعني في وسط السكان الذين يتكلمون الآرمية) قد وقعت جزئيـــاً في (Sinear) القديمة ، وفي أي مكان ما عدا برسيس Persis ، حيث ان البنـايات اللطيفة التي بدأت بكزرسس لم تُنجز ابداً . أمـا البارثيون Parthians الذين تلوا مرحلة Achaeminid ، فلقد كانوا قبيلة منغولية اقتبست لهجة عامية فارسية، وحاولت في وسط هذا الشعب ان تتجسد شعوراً قومياً داخل ذاتها .

وهنا يبرز الدين الفارسي كقضية لا تقل في مصاعبها عن قضايا العنصر واللغـة تلك . ولقد ربطته الدراسة بهذه القضايا ، كما ولو ان هذا الارتباط كان غنياً عن

البيان ، ولهذا قد عالجته دائماً بالاستدلال بالهند . ولكن دين فايكنغز الارض هؤلاء لم يكن مرتبطاً به ، لقد كان منطبقاً على الفيـدي ، كما يظهر ذلك تزاوج ميترا ـ فارونا واندرا ناساتيا لنصوص بوغاز كيوي . وداخل هـذا الدين الذي حافظ على رأسه داخل هذا العالم البابلي ، ظهر زردشت الان ، من صفوف الشعب السفلي ، كمصلح . ولقد كان معروفا بأنه لم يكن فارسياً . وهذا الذي أبدعـه (كما آمل أن أظهره) كان يمثل تحويل شكل الدين الفيدي الى اشكال من تأملات آرامية ، التي كانت قد دخلتها بدايات التدين المجوسي. فالديفاس Daevas ، آلهة المذاهب الهندية القديمة ، قد نموا وشبوا ليصبحوا عفاريت السامية وجن العرب. والعلاقة التي تقوم بين يهوى وبلعزبوب هي تمامـاً كالعلاقة بين Ahamazda و Ahriman ، في هذا الدين الفلاحي ، الذي كان في الاساس ديناً آرامياً ولهذا وجد في قالب من شعور أخلاقي ثنائي بالعالم . ولقد حدد ادوارد ماير ، بصورة صحيحة ، الفرق بين النظرة الهندية والنظرة الايرانية الى العـالم ، ولكنه نتيجة لمقدمته الخاطئة لم يتعرف على اصل هذا الفرق. فزردشت كان رفيق ترحال لانبياء امرائيل ، الذين كانوا مثله ، قـد بذلوا في الوقت ذاته شكل معتقدات الشعب (الموسوية والكنعانية) . ومما له مغزى كبير ان جميع فلـفات الحشر والنشور ، هي ملك مشترك بين الدينين اليهودي والفارسي ، وأن نصوص الافستا قد كتبت أصلاً بالارامية (في ازمان بارثا) وقد ترجمت فقط فيما بعد الى الفهلوية.

ولكن كان قد حدث في الأزمة البـارثية ، وبين كل من الفرس واليهود ، ذاك التبدل العميق المتآلف الذي لم يعد يجعل الترابط العشائري ، بل صحة المعتمد الطابع العام للقومية . فكان اذا مـا تحول اليهودي عن دينه الى الدين المازدي ، يصبح بهذا فارسيا ، أمـا الفارسي الذي كان يعتنق المسيحية ، فكان بذلك ينتمي الى « الشعب » النسطوري .

زد على ذلك أن السكان الكثيفي العدد جداً والذين كانوا يسكنون في المنـاطق الشمالية من بلاد مـا بين النهرين ـ الموطن الأصلي للحضارة العربية ـ

يتحدرون من جنسية يهودية وفـارسية بكل معنى الكلمة وهم لم يكونوا يهتمون اطلاقاً بالعنصر ، واهتمامهم باللغة كان جد زهيد . وكلمة « كافر » كانت تعني حتى قبل ميلاد المسيح ، اللافارسي ، أو اللايهودي .

إن الامة هي « الشعب الفـارسي » في الحقبة الساسانية وارتباطـاً بهذه الواقعة نجد أن اللغتين البهلوية والعبرية تموتان في وقت واحد ، وصيرورةاللغة الآرامية اللغة الأصلية لكلا الطائفتين . ونحن اذا ما تكلمنا عن الآريين والساميين ، نقول بأن الفرس العائدين الى عصر مراسلة Tell - el - Amarna كانوا آريين ، لكنهم لم يكونوا « شعباً » . وكانوا في عصر داريوس شعباً دون مـــا عنصر : وكانوا في الأزمان الساسانية طائفة من المؤمنين ، لكنها طائفة ذات أصل سامي . فليس هناك « شعب فارسي » أصيل يشتق من الآرية ، كما أنه لا يوجد ايضاً تاريخ عام للفرد ، أضف الى ذلك ، أنه لا يوجد حتى مسرح تاريخي مشترك للتـاريخ الثلاثة الخاصة التي نراها متماسكة بسبب الروابط اللغوية فقط .

- ٣ -

وبهذا نكون قد أرسينـــا اخيراً أسساً « لمورفولوجيا الشعوب » وهذه ذات جوهر منظور مباشرة ، كما ونرى ايضاً انتظاماً باطنياً داخل هذا النهر المتدفق من الشعوب ، وهذه ليست بوحدات لغوية ولا وحدات سياسية ولا زلووجيه ، بل انها وحدات روحية . وهذا يؤدي بنا فوراً الى التمييز بين شعوب ما قبل وخلال وما بعد الحضـارة . والحق أنهـــا لواقعة محسوسة ، في كل العصور ، كون الشعوب الحضارية شعوباً تمتلك طابعاً أكثر تميزا من طـابع بقية الشعوب . وأسلاف هذه الشعوب الحضارية أسميهم بالشعوب البدائية ، وهذه هي بمثـابة اتحادات تضم أناساً مشردين غير متجانسين يشكلون اتحادات ويحلونهـا دون أية قـاعدة يمكن التثبت

منهـــا . ويبقى أمرهم على هذه الحال حتى يتزايد أخيراً الحس الداخلي ، اكثر فأكثر ، وطوراً بعد طور ، لحضارة لم تولد بعد (مثلاً : حقبات ما قبل الموميروسية والمسيحية والجرمانية) أقول يتزايد ثبوتاً في نموذجه ، وهنا يجري تجميع المـادة البشرية في جماعات ،بالرغم من أنه لم يطرأ طيلة الوقت السابق لهذا التجميع، سوى تبدل طفيف ، أو بالأحرى أي تبدل على طـــابع الانسان . وتراكب اشكال أطوار كهذا يبدأ من كمبري Cimbri والتيوتون مـــاراً بمار كوماني والغوط الى الفرنجة Franke واللومبارديين والسكسون .

والأمثلة على الشعوب البدائية، هم اليهود والفرس في عصر سلوقس و «شعوب البحر» والنوميون Nomes في زمن مينيس Menes . أما الشعوب التي تتلو إحدى الحضارات وتتبعها ، فيجوز لنا أن نسميها – اعتماداً على أفضل مثال معروف لدينا أي المصريين ما بعد العصور الرومانية – بشعوب الفلاحين .

استيقظت فجأة ، في القرن العاشر من زمننا ، النفس الفاوستية ، وأعلنت عن ذاتهـا في اشكال لا يحصيها عد . ويتبدى بين هذه الاشكال ،وجنبـــاً الى جنب والهندسة المعارية والزخرفة ، شكل يميز تمييزاً خاصاً لشعب .

إذ تنتصب فجـــأة من وسط اشكال الشعب في الأمبراطورية الكارولانجية – السكسوني ، السوابي ، الفرنكي ، الفيزغوطي واللومباردي – اشكـــال الشعوب : الالمـــاني والفرنسي والاسباني والايطالي . ولقد أحل ، حتى الآن ، البحث التاريخي (عامداً أم غير متعمد ، واعياً أم غير واع) شعوب الحضارة هذه المحل الأول وأحل الحضارة نفسها المحل الثاني، معتبرا الحضارة نتاجاً لهذه الشعوب. وبنـاءً عليه تكون وحدات التاريخ المبدعة هي فقط الهنود والاغريق والرومان والجرمان وهكذا دواليك . ولمـا كانت الحضارة الأغريقية هي انجاز الهيلينيين ، لذلك يجب أن يكونوا قد وجدوا على هذه الحال في العصور الابكر زمنا ، ولهذا يجب أن يكونوا قد كانوا مهاجرين . وهكذا تبدت كل فكرة أخرى عن مبدع وابداع ، فكرة لا يقبلها العقل والادراك .

لذلك فانني اعتبر الوقائع التي سأوردها والتي تؤدي الى الاستنتاج المضاد لذاك، اكتشافاً ذا أهمية حاسمة. واني سأقرر هنابكل حزم وصرامة أن الحضارات العظمى هي ذاتيات أولية وأصيلة ، وأنها تنشأ من أعمق أغوار الروحانية وأسها ، وان الشعوب تحت تأثير سحر احدى الحضارات، متماثلة في شكلها الباطني وكامل اعلانها، وان الشعوب هي نتاج الحضـــارة ، وليست مؤلفيهـا . فالاشكال ، التي يتم داخلها استيعاب الانسانية وقولبتها ، تملك تاريخ اسلوب لا يقل عمـا لانواع الفن وصيغ الفكر من تآريخ اسلوب . ان شعب اثينـــا هو رمز لا يقل عن المعبد الدوري ، والانسان الانكليزي لا يرمز الى أقل من الفيزياء الحديثة . وهنـاك شعوب ذات قـــالب ابولوني ، أو مجوسي أو فاوستي . فالحضارة العربية لم يبدعها العرب ، بل على العكس من هذا تمامـاً ، وذلك لأن الحضارة المجوسية تبدأ في زمن المسيـح والأمة العربية تمثل آخر الابداعـات العظمى لهذه الحضارة بوصفهـا طـائفة مقيدة بالاسلام ، كما كان اليهود والفرس طـائفتين ترتبط كل واحدة منهما بدينها . وان تاريخ العـالم هو تاريخ الحضـارات العظمى ومـــا الشعوب سوى الاشكال الرمزية والمواعين التي يحقق بواسطتهـــا رجـــال هذه الحضـــارات مصائرهم .

فهناك في كل حضارة من هذه الحضارات : المكسيكية ، والصينية ، والهندية والمصرية (أكانت علومنا تعرف بهذا أم لا تعرف) مجموعـة أفراد ، من شعوب عظمى ذات أسلوب متماثل ، وتنشأ هذه المجموعة في مطلع ربيـع الحضارة فتشكل الدول وتحمل التاريخ وتنطلق، طيلة سياق تطور الحضارة، بشكلها الأسامي قدماً حتى تبلغ الهدف . وأفراد هذه المجموعة متباينين الى أعقد درجات التباين ـ فمثلاً من النادر أن نجد من خلاف أشدمن الخلاف الذي قام بين الأثينيين والاسبرطيين، بين الألمان والفرنسيين ، بين تسن وتسو ـ زد على ذلك أن كل تاريـخ عسكري يدلل على أن البغضاء القومية هي أفضل السبل لاتخاذ المقررات التاريخية. ولكن في اللحظة ذاتها التي يبرز الى ميدان التاريخ شعب غريب عن الحضـارة ، فعندئذٍ يستيقظ في كل مكان شعور جارف من قرابة روحية، وتنشأ فكرة البربري التي

تعني إنساناً لا ينتمي باطنياً الى الحضارة ــ وهذه الظاهرة واضحة تماماً في شعوب المستوطنات المصرية ودول العالم الصيني ، كما هي واضحة في العالم الكلاسيكي . وللشكل زخم تبلغ شدته درجة تجعله يستحوذ على الشعوب المجاورة ويتقولبها من جديد،ولنتأمل في قراطجة الأزمان الرومانية بما لهم من أسلوب نصف كلاسيكي ، وفي الروس الذين اعتبروا ، ابتداءً من كاترين الكبرى حتى سقوط القيصرية البطرسية ، شعباً ذا اسلوب غربي .

وسنسمي الشعوب ، اعتماداً على اسلوب حضارتها،أمماً ، وهذه الكلمة ـ الأمم ـ تميزها عن الاشكال التي تقدمتها والتي تتلوها . فليس ذاك مجرد شعور قوي بالـ « نحن » هو الذي يصوغ الوحدة الباطنية من أعمق ما لكل الاتحادات البشرية من مغزى ، إذ أن هناك فكرة تكمن وراء الأمة . فهذا السيل من الكائنات الجماعية يملك رابطاً بالغ العمق يشده الى المصير والزمان والتاريخ ، رابطاً يختلف في كل أمة عن الأمة الأخرى ، وهو الذي يقرر ايضاً علاقة المادة البشرية بالعنصر واللغة والارض والدولة والدين.كما تختلف أساليب الشعوب الصينية والكلاسيكية القديمة ، كذلك تختلف أساليب تواريخها .

فالحياة ، وفق خبرة الشعوب البدائية والفلاحين،هي تصاريف زمانٍ زولوجية، وحدوث غير مخطط أو مرسوم ودون ما هدف أو زحف ايقاعي داخل الزمان ، حيث الحدوث تكثر فيه ، ولكنها مجردة ، في نهاية المطاف ، من كل معنى أو مغزى . فالشعوب التاريخية الوحيدة ، الشعوب التي يكون وجودها تاريخاً للعالم ، هي الأمم . ولنكن واضحين تماماً بما نعنيه من وراء هذا القول . لقد كابد الاستروغوط مصيراً عظيماً ، ولهذا فهم لا يملكون ، باطنياً ، تاريخاً . فمعاركهم ومستوطناتهم لم تكن ضرورية ، ولذلك جاءت عرضية ، ونهايتهم كانت تافهة لا مغزى لها . زد على ذلك أن أولئك الذين ، عاشوا عام ١٥٠٠ قبل المسيح،بالقرب من ميسينا و Tiryns ، لم يكونوا قد أصبحوا أمة بعد ، أما أولئك الذين قطنوا في جزيرة كريت المنوانية Minoan فلم يعودوا أمة .

ولقد كان تيبريوس آخر حاكم حاول أن يقود الرومان كأمة قدماً على دروب التاريخ ، وسعى أن يستعيدها للتاريخ .

وفي عصر ماركوس اوريل لم يكن هناك غير سكان ليدافع عنهم - وهـذا العصر ميدان حدوث، لكنه لم يعد ميدان تاريخ. ونحن لا نستطيع أن نجزم أو نستند إلى قاعدة لنقرر كم كان عدد الأجيال الحرة مـا قبل Mede أو Achaean وقوم الهون ،وأي نوع من حياة جماعات اجتماعية كان أسلافهم وذراريهم يعيشون. ولكن حقبة حياة الأمة هي حقبة مقررة معلومة، وكذلك سرعة السير والايقاع اللذين ينطلق تاريخها وفقهما الى الاكتمال. فعدد الأجيال ، منذ بداية حقبة شو حتى حكم شيه - هوانغ - تي - ، ومنذ الاحداث التي شيدت عليها أسطورة طروادة حتى اوغسطس ، ومنذ أزمان Thinite حتى الأسرة الثامنة عشرة ،أقول أن عددها لواحد تقريباً . فالمرحلة المتأخرة من الحضارة ، ابتداءً بصولون وانتهاءً بنابليون ، لا تضم اكثر من عشرة أجيال تقريباً .

ويبلغ مصير شعب الحضارة الأصيل ، ومعه مصير تاريخ العالم ، داخل حدود نهائية كهذه ، درجة الاكتمال . زد على ذلك أن الرومان والعرب والبروسيين هم أمم ولدت في زمن متأخر . وكم من أجيـال فابي Fabii وجوني Junii عـبرت بوصفها رومانية في فترة معركة كاني Cannae ؟

أضف إلى ذلك ، أن الأمم هي الشعوب الحقيقية لبناء المدن. وهي تنشأ داخل القلاع ، وتنضج في المدن وتنحل في المدن العالمية . وكل تشكل بلدة يملك طابعاً، إنما يمتلك أيضاً طابعاً قومياً ، أما القرية ، والتي هي بأكملها شيء من عنصر ، فانها لا تمتلكه ، زد على ذلك أن المدينة العالمية الكبرى قد فقدته ولم تعد تمتلكه .

ومن هذا الجوهر الذي يكوّن الحياة العامة بصورة مميزة إلى درجة تجعـل أبسط ظواهر هذه الحياة تشير اليه وتدل عليه،لا نستطيع أن نغالي - بل نستطيع بالكاد أن نتخيل - القوة والاكتفاء الذاتي والتوحد. فاذا كان الستار الفاصل بين روحي حضارتين ، ستاراً لا يمكن أن تنفذ من خلاله بصيرة ، وإذا ما فقد الفرد

الغربي كل أمل في فهم الانسان الهندي أو الصيني ، فهذا القول ينطبق تماماً،لا بل اكثر ، على الأمم التي بلغت درجة راقية من التطور. ففهم الأمم بعضها لبعض هو من القلة كفهم الافراد لبعضهم بعض . فكل واحد من هؤلاء يفهم فقط عن الآخر الصورة التي شكلها لنفسه عن قرينه ، أما اولئك الذين حباهم الله ببصيرة تنفذ الى الأعمق ، فهم قلة ويوجدون في فترات متباعدة .

وكذلك هي الحال والمصريين ، كما وان جميع الشعوب الكلاسيكية قد أحست بالضرورة بنفوسها بأنهم أقرباء في كل واحد ، لكن فيما بينهم لم يفهم أحد منهم الاخر أبداً. فهل هناك من تناقض اشد من التناقض القائم بين الروح الاثينية والروح الاسبرطية ؟ زد على ذلك أن صيغ التفكير الفلسفي من المانية وفرنسية وانكليزية ، تختلف كل واحدة منها عن الاخرى ، واختلافها لا يتبدى فقط في بيكون وديكارت ولايبنتز ، بل انما قد ظهر ايضاً واضحاً وجلياً في الفلسفة الكلامية اللاهوتية Scholasticism، ويظهر حتى الان في الفيزياء والكيمياء الحديثين ، وفي المنهاج العلمي ، واختيار نماذج التجارب والفرضيات ، زد على ذلك ترابطات هذه والاهمية النسبية لسياقها ومجراها بالنسبة الى البحاثة تختلف لدى كل أمة اختلافاً بيناً عما هي لدى الامة الاخرى . فالورع الالماني والتقوى الفرنسية والاعراف الاخلاقية الاجتماعية الانكليزية والاسبانية ، والعادات الالمانية الانكليزية في الحياة، كل واحدة من هذه الأمور تقف بصورة بعيدة عن الاخرى الى حد يبقى معه المفهوم الباطني الحقيقي لكل شعب ، في نظر الانسان العادي ، ولذلك في نظر الرأي العام لطائفته ، سراً عميقاً ومنبعاً لاخطاء مستمرة فادحة .

وفي الامبراطورية الرومانية بدأ الناس يفهمون ، بصورة عامة ، بعضهم بعضاً ، ولكن مرد هذا الأمر ، يتمثل ، حصراً ، في انه لم يعد هناك من شيء في المدينة الكلاسيكية يستحق ان يُفهم . فهذا النوع الخاص من الانسانية ، لم يعد عند مطلع حقبة الفهم المتبادل المشترك ، يعيش بوصفه أمماً ، لذا لم يعد له طابع تاريخي اكيد .

وبسبب عمق الخبرات بالذات ، ليس بامكان الشعب بأكمله ان يكون شعباً

حضارياً.من أول فرد فيه حتى آخر فرد ، أن يكون أمـة . فلكل انسان من الأقوام البدائية الشعور ذاته بواجبات الجماعة ، لكن يقظة الأمة لوعي ذاتها ، انما تحدث ، تدريجياً - تحدث في طبقة خاصة معينة هي اقوى روحـــاً أو نفساً ، وتسحر الاخرين بقوة تنبع من تجاربها المعاشة . وكل أمة تمثلها أقلية منهـــا في التاريخ. وهذه الأقلية تكون في مطلع ربيع الحضارة ، طبقة النبلاء ، وظهورها الاول يمثل ازدهاراً رائعاً لشعب ، وإناءً يحتوي دون مـــا وعي لكن الشعور بنبضه الكوني يتزايد أبداً - على الطابع القومي ويتلقى الاسلوب المصيري المقدر للأمة. « قال - نحن» هي طبقة الفرسان في الحقبة الاقطاعية المصرية لعام ٢٧٠٠ ، وليست هي دون ذلك في الحقبتين الاقطاعيتين من هندية وصينية لعام ١٢٠٠ . فالأبطال الهوميريون هم الـ Danai ، والبارونات النورمان هم انكلترا . وقد اعتاد سان سيمون - والقول عنه بأنه تجسد لفرنسا الأقدم زمناً ، قول حق - اعتـاد ان يقول بأن « كل فرنسا » كانت مجتمعة في غرفة انتظار Ante . room الملك ، وعرفت الامبراطورية الرومانية عصراً كان خلاله مجلس الشيوخ هو روما بذاتها . ويصبح البورغر Burgher [1] ، مع إطـــلالة البلدة على الوجود ، إناء القومية وماعونها الوعي القومي (وهذا ما يتوجب علينا ان ننتظره من نمـــاء العقلانية) الذي يرثه من طبقة النبلاء ويسير به حتى اكتماله . وهناك دائمـــاً دوائر خاصة تتخرج من ظلال رائعة ، وهـذه الدوائر هي التي تعيش وتشعر وتعمل وتعرف كيف تموت باسم الأمة ، وهي تزداد اتساعاً مرحلة بعد مرحلة والقد نشـــأ في القرن الثامن عشر المفهوم الغربي للأمة ، هـذا المفهوم الذي يفترض (وفي بعض المناسبات يلح) في كل فرد ان يتبناه ويدافع عنه دون استثناء . غير اننـا نعرف حقاً بأن قناعة المهاجرين (من الملكيين عقب الثورة - المترجم)Emigrés كانت

---

١ - الرجل الحر من ابناء بلدة محصنة ومسورة ، او في مجموعة من بيوت بطريقهـــا الى شكيل بلدة .

(المترجم)

لا تقل ابداً عن قناعة اليعاقبة بأنهم هم الأمة الفرنسية . أما الشعب الحضاري الذي ينطبق على الجميع ويتفق معهم ، فليس له وجود - وهذا الانطباق امر ممكن فقط بين الشعوب البدائية وشعوب الفلاحين ، وذلك نتيجة لمجرد صلة لا تمتلك عمقاً أو كرامة تاريخية . وطالما ان الشعب يبقى أمة ، وينتج مصير أمة ، فهناك اقلية منه تمثل الجميع وتنجز باسم الجميع تاريخ الامة .

- ٤ -

كانت الشعوب الكلاسيكية ، انسجاماً والروح اليوقليدية السكونية ، وحدات جسمانية من أصغر الاحجام التي يمكن أن تراود الخيال . فلم يكن الهيلينيون أو الايونيون هم الذين كانوا أمتين ، بل كان لكل مدينة دهماؤها ، دهماء تتمثل في جماعات متحدة من الناس الراشدين ، وموزعة من الوجهة القانونية وكذلك القومية ، الى جماعات كان لها البطل نموذجاً بوصفه الحد الاعلى ، وأخرى البعد بوصفه الحد الادنى .

فتلك العملية الغامضة التي شهدتها الحقبات المبكرة والتي كان سكان الريف يتخلون خلالها عن قراهم ويتجمعون بوصفهم بلدة ، تدل على اللحظة التي عندما بلغ الكلاسيكيون فيها وعي ذاتهم ، كونوا أمتهم على هذا الشكل ، (شكل البلدة) . ونحن لا نزال نستطيع أن نقتفي آثار تشكل هذا الشكل من الامة من العصور الهوميرية حتى حقبة الاستعمار العظيم وهذا التشكل ينطبق ويتجاوب تماماً والرمز الاولي الكلاسيكي : فكل قوم كانوا حجماً منظوراً قابلاً للمسح والقياس ، وهناك كلمة اغريقية تعبر عن الانكار الواضح لفكرة الفراغ الجغرافي .

ولا يهم أبداً التاريخ الكلاسيكي أن يعرف ما إذا كان الاتروسكان في ايطاليا

يتفقون جسما أو لغـة وحملة هذا الاسم من « شعوب البحر » ، ولا يكترث أبداً بماهية العلاقة التي تربط بين الوحدات البشرية من Pelasgi او Danai ، وبين الوحدات الأخرى التي حملت الاسم الدوري أو الهيليني . فـاذا كانت توجد ، قرابة عـــام ۱۱۰۰ ، شعوب دورية واتروسكانية بدائية (ومن الجائز أنها وجدت) ، فبرغم هذا فــانه لم توجد أبداً أمـــة دورية أو اتروسكانية . وفي توسكانا كما في البولوبونيز كان يوجد فقط دول مدينة ، نقـــاط قومية ، لم تستطع خلال حقبة الاستعمار أكثر من التكاثر عدداً ، لكنها لم تمتد أبداً . كما وان حروب رومـا الاتروسكانية كانت تشن دائمـاً ضد مدينة أو اكثر . زد على ذلك أن الأمم التي تصدى لها الفرس والقراطجة كانت هذا الطراز نفسه .

أمـا حديثنا عن « الاغريق والرومان » كما تحدث عنهم القرن الثـامن عشر (وكما لا نزال نتحدث حتى الآن) فهو لأمر خاطىء تمامـــاً ومغلوط . فالقول بالأغريق كأمة ، هو في نظرنا ، سوء فهم أو ادراك ، فالاغريق نفسهم لم يعرفوا إطلاقاً فكرة كهذه . والاسم « الهيلينيون » هذا الاسم الذي عرف قرابة عـام ٥٠٠ ، لم يشر ابداً الى شعب ، بل انمـا أشار الى مجموعة من الرجال الحضاريين ، الى مجموع أممهم تمييزا لها عن العالم « البربري » . أضف الى ذلك أن الرومان ، وهم شعب متمدن حقـاً ، لم يستطيعوا أن يدركوا أمبراطوريتهم على شكل مخالف لكونها كيانا يتألف من نقاط أمة Civitates ، لا تعد أو تحصى ، نقـــاط حل الرومان داخلها جميع الشعوب البدائية في الامبراطورية من الوجهة القانونية ، كما حلوهـا من الوجهات الأخرى . وعندمـا يجمد الشعور القومي من هذا الشكل ، عندئذ يبلغ التاريخ الكلاسيكي نهايته .

والحق انه سيكون من الواجب ـ ومن اثقل واجبات المؤرخين ـ ان يقوم المرء بتعقب آثار الامم الكلاسيكية الداوية جيلاً بعد جيل ، في المنطقة الشرقية من البحر المتوسط ، خلال الحقبة « الكلاسيكية المتأخرة زمنـــاً » ، ويتمعن في الانسكاب الداخلي المتزايد ابداً شدة في دفقه ، انسكاب روح أمـــة جديدة ،

ألا وهي المجوسية .

إن الامة من الطراز المجوسي هي طائفة يوحد الايمان المشترك بين أبنائها، وهي جماعة يعرف جميع افرادها الطريق الصحيح الى الخلاص ، ويشد باطنياً الاجماع على هـذا الايمان ، بعضهم الى بعض . والمرء كان ينتمي الى احـدى الامم الكلاسيكية بسبب امتلاكه لتذكرة هوية تلك الأمة ، لكن انتهاءه الى الأمة المجوسيه لا يتم إلا بعد طقس من الطقوس الدينية ـ كالختان عنـد اليهود وانواع خاصة من المعمودية لدى الـ Mandaeans أو المسيحيين . فالمارق كان في نظر القوم المجوس ما كانه الغريب في نظر الكلاسيكيين ـ أي منبوذاً لا يجوز الاختلاط به والتزاوج معه ، وهذا الفصل القومي بلغ حداً في فلسطين حيث تشكلت ، معـه جنباً الى جنب ، لغة عامية آرامية يهودية واخرى آرامية مسيحية .

أما الأمة الفاوستية ، فبالرغم من انها مرتبطة بالضرورة بتدين معين ، غير انها ليست كذلك باعتراف خاص ، أما الأمة الكلاسيكية فهي بنموذجهـا ذات علاقات مطلقة بمختلف المذاهب . لكن الأمة المجوسية لا تضم أكثر أو أقل من أولئك الذين يؤمنون بفكرة هذه الكنيسة المجوسية أو تلك والأمةالكلاسيكية ترتبط ارتباطاً باطنياً بالمدينة ، أما الفاوستية فبالصقع ، ولكن الأمـة العربية لا تعرف وطناً أو لغة أم . ونظرتها الى العالم يعبر ظاهراً عنهـا فقط الخط المميز الذي توجده وتطوره كل أمة كهذه حالما تبصر النور . ولكن لهذا السبب بالذات فان باطنية وزخم شعور الأمة المجوسية ـ السحري فعلاً ـ يؤثران فينا نحن معشر الفاوستيين حيث نرى في غياب فكرة الوطن لدى الامة العربية أمراً غامضاً كل الغموض ولا ينم عن مكر أو احتراس. وهذا التماسك أو التلاحم الضمني والضامن للذات (تماسك اليهود مثلاً في مواطن الشعوب الغربية) هو الذي دخل « القانون الروماني » (هذا القانون الذي يحمل طابعاً كلاسيكياً لكنه من إنجاز الآراميين) بوصفه مفهوماً « للشخص الاعتباري » Juridical Person الذي هو ليس إلا مجرد رأي مجوسي في الطائفة ، زد على ذلك أن يهودية ما بعد السبي كانت قـد اصبحت

شخصاً اعتبارياً قبل طويل زمن من اكتشاف هذا المفهوم .

لقد كان البدائيون الذين سبقوا هذا التطور يشكلون بصورة رئيسية جماعات عشائرية ، وكان المينيون Minaeens الذين قطنوا جنوب جزيرة العرب من بين هذه الجماعات ، وقد ظهر هؤلاء في مطلع الدورة الالفية الاولى ، واختفى اسمهم في القرن الاول قبل المسيح ، وكذلك كان الكلدانيون الذين يتكلمون الآرامية والذين نشأوا ايضاً ، قرابة عام ١٠٠٠ ق.م ، كجماعات قبلية ، وحكموا العالم البابلي من عام ٦٥٩ – ٥٣٩ ، وكذلك ايضاً الاسرائيليون قبل السبي ، وفرس قورش . وقد كان حس السكان بالشكل على تلك الدرجة من القوة حيث أطلقت أسمـــاء الكهانات ، التي نشأت وتطورت هنا وهناك وفي كل مكان ، بعد عصر الاسكندر ، على قبائل حقيقية وأخرى وهميـــة . وكان كهان تلك الكهانات يُعرفون بين اليهود والسبأيين في جنوب جزيرة العرب باسم اللاويين ، أمـــا الميديون والفرس فعرفوهم باسم المجوس (وهو اسم لقبيلة هندية بائدة) ، وعرفوا بين اتباع الدين البابلي الجديد باسم الكلدانيين (حتى بعد انحلال هـذا التجمع العشائري) . ولكن هنا ، كما في كل الحضارات ، ألغى زخم الاتحـاد القومي جميع الاعراف العشائرية لهؤلاء البدائيين تماماً . وكما كانت « الامة الرومانية » تحتوي ، دون شك ، على جماعات من أقوام بالغة في اختلاف اصولها ومنابعها ، وكما تبنت أمة الفرنجة الفرنك الساليين Salian ، والرومان والكلت المواطنين القدماء على حد سواء ، كذلك لم تعد ايضاً الامة المجوسية تعتبر الاصل (العنصر ـ المترجم) علامة مميزة ، ولا شك ان عملية هذا الاعتبار استغرقت وقتاً جد طويل من الزمن ، إذ أن العشيرة كانت لا تزال تحافظ على اعتبارها بين اليهود حتى في الحقبة المكابية ، وكذلك عند العرب في عصر الخلفاء الاوائل ، غير انها – أي العشيرة ـ لم تعـد تمتلك في نظر شعوب حضارة هـذا العالم الناضجين باطنياً ، كالشعب اليهودي في حقبة التلمود ، أي معنى .

فالمرء الذي كان « ينتمي » إلى الدين ، كان ينتمي بصورة تلقائية الى الأمة التي

تدين به ــ ولقد كان من التجديف قبول أي تمييز آخر . وحدث في الأزمنــة المسيحية المبكرة أن اعتنق أمير Adiabene ، وكامل قومـه اليهودية ، فأمسوا بذلك فعلاً جزءاً من الأمة اليهودية .

والشيء نفسه ينطبق على طبقة النبلاء الأرمن وحتى على العشائر القوقازية (التي لا شك أنها اعتنقت اليهودية على نطاق واسع) ، وينطبق ايضاً على سكان المنطقـة المعاكسة في اتجاهها الجغرافي لهذه ، وأعني ، على بدو الجزيرة العربيــة حتى أقصى الجنوب ، وعلى من وراء هؤلاء ببعيد ، على القبائل الافريقية الضاربة حتى بحـيرة تشاد . وهنـا يتبدى جليــاً شعور قومي مشترك كدليـل حتى ضد تمايز عنصرية كهذه .

ويقال أن اليهود يستطيعون حتى في أيامنا هذه أن يميزوا عند اللمحـة الأولى عناصر جد مختلفة من ابناء دينهم ، وأنه يمكن التعرف في الأحياء اليهودية الخاصة في مدن أوروبا الشرقية على هذه «العشائر» (بمفهوم العهد القديم) بجلاء ووضوح. ولكن لا يشكل أي من هذه العناصر تبايناً داخل أمة . ونموذج الفرد اليهودي الاوروبي الغربي ، هو نموذج موزع ، على حد قول « فون اركارت » بصورة جد واسعة داخل الشعوب القوقازية غير اليهودية ، بينما يقول فيزنبرغ أن هذا الأمر غير موجود اطلاقاً بين يهود جنوب جزيرة العرب ذوي الرؤوس المستطيلة، وحيث تظهر نقوش القبور السبائية نموذجاً لانسان بشري يجعلنا نفترض تقريباً انه يتحدر من أصول رومانيـة أو جرمانيـة ، وهــذا النموذج هو الجسد الأعلى لهؤلاء اليهود الذين اعتنقوا اليهودية ، نتيجـة لمجهودات المبشرين ، قرابة ميلاد المسيح على الأقل .

ولكن انحلال هذه القبائل البدائية في الأمم المجوسية من فرس ويهودومانديين Mandaeans ومسيحية ومن تبقى ، يجب أن يكون قد حدث بصورة شامـلة وعلى نطاق هائل في اتساعه . ولقد سبق لي أن أشرت في هــذا الكتاب الى تلك الواقعة الحاسمــة والمقررة أن الفرس كانوا يمثلون ، قبل مطلـع تاريخنــا

طائفة دينية فقط ، وأنه من المؤكد أن عددهم قد تزايد دون مـــا تحديد بسبب اعتناقهم المذهب المازدوي (Mazdaist) كما وان الدين البابلي قـد اختفى في ذلك الزمن – وهذا ما يعني أن اتباعه قد توزعهم اليهود والفرس – ولكن قد خرج من هذا الدين ، دين جديد ، دين غريب باطنياً عن كل من الدين اليهودي والفارسي ، وهو دين فلـكي ويحمل اسم الكلدانيين ، واتباع هذا الدين هم الذين كونوا أمة تتكلم الآرامية الأصيلة . ومن هؤلاء السكان الآراميين اشتقت القومية الكلدانية – اليهودية – الفارسية ، وأطل أولاً التلمود البابلي والعارفون ، ودين ماني ، وظهرت ، ثانياً في الأزمنة الاسلامية الصوفية والشيعة .

زد على ذلك ، أن سكان العالم الكلاسيكي ، يبدون ايضاً ، كما تعرضهم إديسا (الرها)، أممـــاً من طراز مجوسي . « والاغريق » يعنون وفق مفهوم الاصطلاح الشرقي ، مجموع جميع اتباع المذاهب التوفيقية ، وكان يشدهم بعضاً الى بعض مبدأ الاجماع من التدين الكلاسيكي المتأخر زمناً. فلم يعد لأمم المدينة الهيلينية موضع في الصورة التي تظهر فقط طائفة واحدة من المؤمنين ، عبدة الغوامض والاسرار ، والذين كانوا يعبدون ، تحت أسماء هيليوس ،جوبتروميثرا ، نوعاً من يهوه أو الله. فالتأغرق (أصبح اغريقياً) كان « في طول الشرق وعرضه ، فكرة دينيـــة أكيدة ، ومن أجل هذا الموضوع يتوافق المرء تماماً والوقائع كما كانت يومذاك ، فشعور المدينة قد همد أو انطفأ تقريباً ، والأمة المجوسية لا تحتـــاج الى وطن أو طائفة من أصل واحد . وحتى هيلينية الامبراطورية السلوقية [١] ، التي أوجـدت لها اتباعاً ومريدين في تور كستان وعلى ضفاف الاندوس ، كانت ترتبط باطنيـاً باليهودية الفارسية، وبيهودية ما بعد السبي. ولقد حاول فيما بعد بورفيري الآرامي ، تلميذ بلوتينوس ، أن ينظم هذا التأغرق كمذهب لكنيسة على الطراز المسيحي

---

١ – أسس هذه الامبراطورية سلوقس نيكاتور احـــد قواد الاسكندر وكانت تضم فارس وبابل وسوريا وجزءاً من آسيا الصغرى .

(المترجم)

والفارسي ، وقد ارتقى الامبراطور جوليان به الى جعله مذهباً لكنيسة الدولة — وهذا ليس بمجرد عمل ديني ، بل إنما هو ايضاً عمل قومي قبل كل شيء . وكان اليهودي عندما يقدم القرابين الى صول Sol أو أبولو ، يصبح بذلك اغريقياً . وعلى هذه الحال انتقل مثلاً أمونيوس ساكاس Ammonius Sakkas (٢٤٢) استاذ بلوطينيس ، وربما أوريجن من أيضاً صفوف « المسيحيين » الى صفوف « الأغارقة » ، وكذلك أيضاً بورفيري ، الذي أطلق عليه عند ولادته اسم ملخوس وكان (كالفقيه « الروماني » يولبيان Ulpian) فينيقياً من أهالي صور ونحن نشاهد في هذه الحالات المشترعين وموظفي الدولة يتخذون لهم اسماء لاتينية ، بينما يتخذ الفلاسفة اسماءً اغريقية — وهذه الواقعة كافية بالنسبة الى الروح الفيلولوجية للبحث الحديث والديني ، لكي تعتبر تاريخياً هؤلاء الناس روماناً واغريقاً وفق المفهوم القومي الكلاسيكي للمدينة ! ولكن كم عدد اولئك من بين الاسكندرانيين العظام ، الذين من الجائز كانوا أغارقة حسب ما يعنيه فقط المفهوم المجوسي لهذه الكلمة ؟ أو لم يكن بلوطينس وديوفانتس من ناحية المولد ، ربما يهوديين أو كلدانيين ؟

أضف الى ذلك ، أن المسيحيين قد شعروا ايضاً في مطلع المسيحية بأنهم أمة من الطراز المجوسي ، واكثر من ذلك أن الآخرين : الاغريق (الوثنيين) واليهود على حد سواء قد أعتبروهم كذلك . ومن المعقول تماماً أن يعتبر اليهود انشقاق المسيحيين عن اليهودية بمثابة خيانة عظمى ، وأن يرى الأغارقة في تسرب المبشرين بالمسيحية الى مدنهم غزواً وفتحاً ، وأن يرى المسيحيون ، من جهة أخرى ، في الشعوب التي تدين بمذاهب مخالفة للمسيحية شعوباً أجنبية . . . . وعندما انفصل اليعاقبة والنساطرة عن الارثوذكسية ، خرجت شعوب جديدة الى الوجود كما ولدت كنائس جديدة ايضاً . ولقد حكم النساطرة ابتداء من عام ١٤٥٠ رجل يدعى مار شمعون ، وكان هذا أمير قومه وبطريركهم ، وبالمثل ، فان السلطان كان يحتل المركز نفسه ، كما احتله ايضاً ، وقبله بزمان طويل رش غالوتا Resh Galutha اليهودي في الامبراطورية الفارسية .

وهذا الوعي القومي النابع من شعور خاص ومحدد بالعالم ، والمتمتع اكيداً بقناعة بدهية ، لا يمكن لنا ان نتجاهله اذا ما أردنا ان نفهم الاضطهادات التي نزلت بالمسيحيين فيما بعد . فالدولة المجوسية ترتبط ارتباطاً لا انفصام بعده بمفهوم صحة المعتقد (الارثوذكسية) وتشكل الخلافة والامة والكنيسة وحدة متكاملة . و Adiabene انتقلت، بوصفها دولة، الى الديانة اليهودية، وكدولة هجرت امرحون Osrhoene قرابة عام ٢٠٠ (وبهذه السرعة !) الاغريقية الى المسيحية، وكذلك ارمينيا عندما تركت الكنيسة اليونانية الى الكنيسة اليعقوبية . وكل حادثة من هذه الحوادث تعبر بصراحة عن الواقعة المقررة ان الدولة تنطبق كل الانطباق على الطائفة الصحيحة المعتقد بوصفها شخصاً اعتبارياً (قانونياً) . واذا ما كان المسيحيون قد عاشوا في دول اسلامية ، وعاش النساطرة في دول فارسية ، واليهود في دول بيزنطية ، فان هؤلاء لم يكونوا ، لا بل لم يستطيعوا الانتماء الى هذه الدول ، بوصفهم كفرة مارقين ، ولذلك يرفضون ويردون الى دائرتهم . وكانوا اذا ما أصبحوا ، بسبب عددهم أو روحهم التبشيرية خطراً يهدد استمرار هوية الدولة وطائفة مذهبها ، فعندئذ كان يصبح اضطهادهم واجباً قومياً . وهذا هو السبب الذي اضطهدت من اجله الكنيسة « الارثوذكسية » (أو « اليونانية ») اولا ومن ثم الكنيسة النسطورية في الامبراطورية الفارسية ، ودبولكتسيان بوصفه « خليفه » (Domius et Deus) قد ربط ايضاً الأمبراطورية بكنائس المذهب الوثني ، ورأى في نفسه ، وبكل اخلاص ، أميراً لهؤلاء المؤمنين ، فلم يستطع أن يتجنب واجبه في اخضاع الكنيسة الثانية وقهرها. أما قسطنطين فانه بدل الكنيسة « الحقيقية » وبهذا يكون قد بدل ايضاً قومية الامبراطورية البزنطية . ومن هذه النقطة أخذ الاسم اليوناني ينتقل ، رويداً رويداً ، الى الامة المسيحية وخاصة الى تلك الامة التي اعترف بها الامبراطور بوصفه أميراً للمؤمنين ، وسمح لها بالجلوس في المجامع الكنسية العظمى .

ومن هنا تنشأ الخطوط غير الثابتة في صورة التاريخ البزنطي – ففي عام ٢٩٠

يطالعنا ذاك التنظيم لامبراطورية كلاسيكية ، ونرى في عام ٣١٢ تبدلاً قومياً مع الحفاظ على الاسم. وتحت أسم « الاغارقة » حاربت أولا الوثنية كأمة، المسيحين، وحاربت ثانيا المسيحية كأمة ، المسلمين، وفي هذه المعركة طبع الاسلام أيضــاً ، بوصفه أمة (عربية) الاحداث أعمق فاعمق بطابعه . ومن هنا فان أغارقة هذا اليوم هم من خلق الحضــارة المجوسية ، وقد طوروا أولا بواسطة الكنيسة المسيحية ومن ثم بواسطة اللغــة المقدسة لهذه الكنيسة وأخيراً بواسطة اسم هذه الكنيسة . وقد حمل الاسلام معه ، من موطن محمد ، الاسم العربي ، وجعله شعاراً لقوميته . وإنه لمن الخطأ أن نساوي بين هؤلاء « العرب » وبين القبائل البدوية في الصحراء . فذاك الذي خلق الأمة الجديدة بروحها الجياشة والمميزة تمييزا شديداً وخاصا ، كان الاجماع على الايمان الجديد . ووحدة هذا الايمان لم تنبع من العنصر أو الوطن اكثر مما نبعت وحدة الايمان من مسيحي ويهودي وفارسي ، ولذلك لم « يهاجر » هذا الايمان ، بل أن الفضل في اتساعه الهائل يعود ، بالأحرى ، إلى امتصاصه للجزء الأكبر من الشعوب المجوسية المبكرة . وبانتهاء الدورة الألفية الأولى من حقبتنا هذه ، أمست هذه الأمم جميعاً شعوبا من فلاحين ، ومـا تلك الشعوب المسيحية التي يحكمها الاتراك في البلقان سوى شعوب فلاحين ، وكذلك الفرس في الهند ، واليهود ايضاً في اوروبا الغربية مارسوا هـذا النوع من الحياة منذ ذاك التاريخ حتى اليوم .

أما في الغرب ، فلقد أخذت تبرز إلى ميدان الوجود أمم من الطراز الفاوستي وذلك بصورة تتزايد وضوحاً وتمييزا إبتداءً من زمن اوتو الكبير (٩٣٦-٩٧٣) وأخذت الشعوب البدائية العائدة للحقبة الكارولانجية تذوب بسرعة داخل هـذه الامم وتنحل . وما أطل عام ١٠٠٠ حتى بدأ ذوو الحيثيات : من الناس يشعرون في كل مكان ، بأنفسهم أنهم المان وايطاليون واسبان وفرنسيون ، بينما كان أسلافهم قبيل سنة قرون من هذا التاريخ يحسون في أعماق نفوسهم بأنهم فرنجة ولومبارديون وفيزغوط .

ينبع شكل شعب هذه الحضارة، كما تركز هندسته المعمارية الغوطية وحسابه اللانهـائي الصغر من التفـاضل والتكامل Infinitesmal Calculus ، من النازع الى اللانهائي بمفهومه الفراغي ، والزمني أيضاً فشعور الأمة يشتمل ، بادىء ذي بدء ، على أفق جغرافي لا بد أن يوصف فقط بأنه شاسع لم يسبق لأية حضارة أخرى أن عرفت له مثيلاً في اتساعه ، وذلك اذا مـا أدخلنا في حسابنا تلك الحقبة ووسائل مواصلاتها. فالوطن كامتداد، كمنطقة ذات حدود نادراً ما شاهدها الفرد، وذلك اذا ما سبق له أن شاهدها ، وبالرغم من هذا يكون الفرد عازماً على الدفاع عنه والموت في سبيله ، اقول بأن الوطن (الفاوستي – المترجم) يمثل شيئاً مـا لا تستطيـع أبداً أمم الحضارات الأخرى أن تفهمه بعمقه الرمزي وزخمه . فـالأمة المجوسية لا تمتلك موطنـاً أرضياً على هذا الشكل ، أمـــا الكلاسيكية فتمتلكه بوصفه فقط بؤرة نقطة .

والواقعة التي وحدت حتى في الأزمان الغوطية بين مشاعر النـاس على ضفاف الادج Adige وبين مشاعر الناس في قلاع ليتوانيا ، واقعة لربما استعصت حتى على أذهان مصر والصين ، وهي تتناقض تناقضاً شديداً وواقعة رومـا وأثينا ، حيث كان لا يغيب أبداً كل الشعب Demos عن ناظري أي عضو من أعضائها .

زد على ذلك أن الحساسية بالمسافة داخل الزمان هي أقوى من تلك (الحساسية بالوطن – المترجم) . فقبل أن ينشأ الوطن (ونشوؤه هذا هو نتيجة وجود الأمة) اطلاقاً ، استوجبت عاطفة الحساسية هذه فكرة أخرى تدين لهـا الامم الفاوستية باسباب وجودهـــا – وأعني ، بهذه الفكرة ، فكرة الخلافـة السلالية الملكية Dynastic . فالشعوب الفاوستية هي شعوب تاريخية ، وطوائف لا تحس بـــأن تمـاسكها هو وليد مكان أو نتاج اجماع ، بل انمـا هو من صنع التاريخ ، وبأن « البيت » المالك هو الرمز الرفيـع لمصيرها المشترك وماعونه . أمـــا بالنسبة الى الجنس البشري من صيني ومصري ، فان السلالة المالكة ترمز الى شيء آخر تماماً . فهي تعني هنا ، بوصفها ارادة وحيوية ، الزمان . فكل مـا كناه وما قد نكونه

انما يتبدى ويظهر من خلال ذرية واحدة ، وحسنا بهذا الأمر أعمق من أن يزعج بتفاهة نائب ملك Regent ، أو وصي على العرش . فليس المهم هنا الشخص ، بل انما هي الفكرة ، ومن أجل هذه الفكر كثيراً مـــا مشى الناس الى حتوفهم ، بقناعة وايمان ، في الحروب السلالية . أما التاريخ الكلاسيكي فلم يكن اكثر من سلسلة من الحوادث تنطلق من برهة الى برهة ، غير ان التاريخ المجوسي يمثل التحقق التقدمي ، داخل ومن خلال الجنس البشري ، لمخطط عـــالم وضعه الله وأنجزه في الفترة الواقعة بين الخليقة والطوفان ، لكن التاريخ الفاوستي يمثل في نظرنا مشيئة عظمى ووحيدة لمنطق واع ، حيث يقوم الحكام بقيادة الامم الى انجازها وتمثيلها . وهذه سمة من سمات العنصر .

وليس لهذه ، كما وأن هذه لا تستطيع أن تكون لهـا قواعد عقلانية – فلقد كان يحس بها على هذا الشكل فقط ، ولانه كان يشعر بها على هذا الشكل ، تطورت ثقة الرفقة في زمن الهجرات الجرمانية الى الميثـاق الاقطاعي الذي عرفه الغوط ، والى الاخلاص المعهود بالحقبة البـاروكية ومن ثم الى وطنية القرن التـاسع عشر اللاسلالية في ظاهرها فقط . ويتوجب علينا ألا نخطىء في الحكم على عمق هذا الشعور ومكانته بسبب أن هناك قائمة لا نهـاية لهـا من اقطاعيين مزورين وشعوب ومهزلة خالدة في تذلل رجال الحاشية ومداهنتهم وحقارتهم ، وفي دناءة السوقة وخستهم . فجميع الرموز العظمى هي رموز روحية لا يمكن ، ادراكها الا من خلال أسمى اشكالها وأرفعها . فحياة البابا الخاصة لا تمت بأية صلة الى فكرة البابوية أو مبدئها . وانشقاق هنري الاسد Henry the Lion ، يظهر بوضوح كيف يحس الحـــاكم الحقيقي احساسا كاملاً ، خلال حقبة تكوُّن الامة ، بأن مصير شعبه يتجسده ، وأنه يمثل هذا المصير أمـــام التاريخ ، وفي كثير من الاحيان يكلف هذا العمل الحاكم شرفه ثمناً له .

إن جميع أمم الغرب هي أمم من أصول تؤمن بالسلالات الملكية . فروح البدائيين الكرولانجيين لا تزال ترتعش من خلال الرومانسكيه وحتى من خلال

الهندسة المعمارية الغوطية المبكرة زمنا . فليست هناك من هندسة معمارية فرنسية أو المــانية أو غوطية ، بل سالیانية Salian ورينيشيه وسوابية ، كما هنـــاك رومانسكيه فيزغوطية (شمال اسبانيا ، جنوب فرنسا) ولومباردية وسكسونية. ولكن سرعان مــا تنتشر فوق هذه كلها أقلية تتألف من رجال عنصر يحسون بان عضويتهم في أمــــة هي رسالة تاريخية عظيمة . ومن هذه ينطلق الصليبيون هؤلاء الذين كانت نفوسهم تختزن الفروسية الصحيحة من ألمانية وفرنسية . وان للشعوب الفاوستية طابعاً أو وسماً ، ألا وهو وعيها وادراكها لاتجاه تاريخها ووجهة سيره . ولكن هذا الاتجاه يرتبط بسياق الاجيال وتسلسلها، وهكذا فـــان طبيعة المثل الأعلى للعنصر هي طبيعة سلالية Genealogical مظهراً وجوهراً ـ وما الداروينية، حتى في نظرياتها في السلالات والوراثة ، الا نوع من صورة كريكاتورية لما كان منقوشاً على الدروع والاسلحة الغوطية من صور ـ زد على ذلك أنه اذا مـا عاش كل فرد على مستوى التاريخ بوصفه عالمـاً ، فأن هذا التاريخ لا يحتوي فقط على شجرة عائلة كل فرد ، بل انما يشتمل أيضـاً على شجرة أصل الشعب بوصف الشعب الشكل الأساسي لكـــل حوادثـه . ولهذا يتوجب علينـا أن نلاحظ بدقـة لندرك أن المبدأ السلالي الفاوستي ، وآراءه التاريخية الرفيعة الشأن في النسب ونقاء الدم هو غريب تماماً عن المصريين غرابته عن الصينيين مع كل ما لهولاء من فطرة تاريخية ، كما وهو غريب ايضاً عن طبقة النبلاء الرومانية والأمبراطورية البزنطية، ومن جهة أخرى لا يستطيـع أحد أن يفهم طبقة فلاحينـا ، أو طبقة الاثرياء من سكان مدننا إذا لم يعتمد على هذا المبدأ . أضف الى ذلك أن المفهوم العلمي للشعب، هذا المفهوم الذي سبق لي أن شرحته أعلاه ، انما هو مفهوم يشتق أصلًا من المفهوم السلالي للحقبة الغوطية . والظن في أن للشعوب ايضاً شجرات عائلاتها (أصولها ـ المترجم) قد جعل الايطاليين يعتزون ويفخرون بأنهم ورثة روما ، وجعل الالمان فخورين بذكرى أجدادهم التيتون، وهذا أمر يختلف تماماً عن الاعتقاد الكلاسيكي بالتحدر العديم الزمن من أصلاب الابطال والآلهة . وأخيرا عندمـا أدخلت ، في اعقاب عام ١٧٨٩ ، فكرة لغة الام ادخالاً مناسباً على المبدأ السـلالي ، حول ذاك

الذي كان مجرد وهم علمي راود مخيلة شعب هندي جرماني ، أقول حول نفسه الى سلسلة نسب لعنصر آري ، سلسلة يحس بها احساساً عميقاً ، وأمست كلمة عنصر ، في سياق هذه العملية ، اسماً للمصير تقريباً .

ولكن « عناصر » الغرب ، ليست هي الخالقة والمبدعة للامم العظمى ، بل انما هي حصيلتها ونتاجها . فلم يكن قد خرج ، في الازمان الكرولانجية ، أي منها الى الوجود ، بل كان المثل الاعلى لطبقة الفروسية هو الذي عمل مبدعاً وسالكاً شتى السبل ، في ألمانيا وانكلترا وفرنسا واسبانيا ومهر مساحة هائلة من الارض ، بذاك الذي تشعر به كل أمـة ، على حدة ، وتخبره كعنصر . وعلى هذا ترتكز الامم المنسوبة ونقـاء الدم ـ الامم البالغة في تاريخيتها والغُربية كل الغرابة عن الكلاسيكية . وبسبب كون دم العائلة الحاكمة يشتمل على مصير كامل الامة وكينونتها ، جاء تركيب نظام الدولة في الحقبة الباروكية تركيباً سلاليا ، ولهذا كانت تتخذ معظم الازمـات الكبرى شكل حروب سببها الخلاف حول وراثة السلطان . وقد اتخذت حتى الكارثة المدمرة التي نزلت بنابليون ، والتي فرضت الاستقرار على النظام السياسي طيلة قرن ، شكلها من الواقعة القائلة بأن مغامرا تجرأ بدمه على طرد السلالات الملكية القديمة ، وأن هجومه على هذا الرمز ، جعل مقاومته من وجهة النظر التاريخية عملاً مقدساً . وذلك لان هذه الشعوب كلهـا كانت نتاجاً للمصائر السلالية .

وأن يوجد هناك شعب برتغالي ، وبرازيل برتغالية في وسط أميركا الاسبانية ، هو حصيلة زواج الكونت هنري اوف بورغوندي عام ١٠٩٥ . وأن يكون هناك سويسريون وهولنديون فانما هو ردة فعل ضد آل هابسبورغ . زد على ذلك أن اسم اللورين ، ليس باسم قطعة من الارض او باسم شعب ، فهذه المقاطعة تحمل اسمها الحالي بسبب عقم لوتار الثاني من الذرية . ففكرة ـ القيصر هي التي صهرت البدائيين المفككين في زمن شارلمان ، وجعلت منهم الامة الالمـانية . فألمانيا والامبراطورية يمثلان فكرتين لا يمكن الفصل بينهما . وسقوط عائلة هوهنشتاوفن

لا يعني سوى استبدال سلالة عظيمة بحفنة من سلالات صغيرة تافهة ، زد على ذلك أن الامة الالمانية من الطراز الغوطي ، كانت أمة ممزقة الاوصال حتى قبل مطلع الحقبة الباروكية — وهذا في الوقت كل الوقت الذي أخذ الناس خلاله يرتفعون بفكرة — الامة الى مستويات أرقى من العقلانية في مدن كباريس ومدريد ولندن وفينا . وحرب الثلاثين عاماً ، قد دمرت،حسبما يقول التاريخ التقليدي ، ألمانيا وهي في ربيعها . ولكن هذا القول ليس بصحيح ، فكون هذه الحرب قد قدر لها أن تحدث اطلاقا ، على هذا الشكل المزري البائس ، انما أثبت وأظهر فقط الانحلال الطويل الذي تم وانجز — فهذه الحرب كانت النتيجة النهائية لسقوط عائلة هوهنشتاوفن . وبالكاد أن نجد دليلاً مقنعاً كهذا يثبت ان الامم الفاوستية هي وحدات سلالية . ولكن هنا خلق أيضاً آل الساليان والهوهنشتاوفن وعلى الاقل فكرة — أمة ايطالية من الرومان واللومبارديين النورمان . ولكن الامبراطورية وحدها هي التي مكنت هؤلاء من أن يمدوا يدهم ، الى الوراء ، الى عصر روما .

وحتى بالرغم من أن قوة غريبة قد أثارت عداء سكان المدن ، وشقت النظامين الأولين ، فجعلت النبلاء يساندون الامبراطور ، والكهنة يناصرون البابا،وبالرغم من أنه سرعان ما فقد النبلاء ، في صدامات غيلف Guelph وغيبلين Ghibelline، أهميتهم ، فارتفعت البابوية ، بواسطة المدن المعادية للسلالية ، الى قمة السلطان السياسي ، وبالرغم من هذه الأمور قد أسفرت في النهاية عن قيام عقدة من دول سلالية نهّابة دفعتها سياسات عصر النهضة الى مقاومة السياسة العالمية الشامخة للامبراطورية الغوطية ، كتحدي ميلان القديم لارادة فريدريك باربروسا — نعم بالرغم من كل هذه الأمور فان المثل الأعلى لشعار ايطاليا الواحدة ، Una Italia هذا المثل الأعلى الذي ضحى دانتي من أجله بسلام حياته وطمأنينتها ، إنما كان انجازاً سلالياً صافياً من انجازات عظماء الأباطرة الجرمان . فعصر النهضة ، هذا العصر الذي كان أفقه أفق الأثرياء المتمدنين ، قد خرج بالأمة عن طريق تحقيق ذاتها وضل بها في أوسع متاهة يمكن أن تخطر على بال . وقد ضغط على الأرض

الايطالية طيلة الحقبتين الباروكية والروكوكية ضغطاً متواصلاً حتى أمست مجرد مخلب من مخالب سياسات القوة للبيوت المالكة الغربيـة . ولم تنشأ الرومانتيكية إلا في عام ١٨٠٠ لتعيد بعث الشعور الغوطي وتحقنه بزخم من تكثيف جعل منـه قوة سياسية .

لقد صهر ملوك الفرنسيين أمتهم وصاغوها من الفرنجة والفيزغوط وتعلمت، لأول مرة ، الأمة الفرنسية الشعور بذاتها ككل كامل في بوفيني Bouvines عام ١٢١٤.وماهو أعمق من هذا مغزى هو عائلة هابسبورغ التي أبدعت الأمة النمساوية من سكان لا يربط بينهم رابط من لغة ولا وشيجة من حس قومي، أو تقليـــد ، وجعلت منهم أمة أثبتت قوميتها في الدفاع عن ماريا تيريزا وفي مقاومة نابليون وكان هذا الامتحان الاول والاخير لها . زد على ذلك أن التاريخ السياسي للحقبة الباروكية كان في جوهره تاريخاً لعائلتي البوربون والهابسبورغ .

ونشوء عائلة فيتن Wettin محل عائلة فلف Welf هو السبب الذي يكمن وراء وجود « سكسونيا » على نهر الفيزر عـام ٨٠٠ ، ووجودها اليوم على نهر الالب Elbe . فالاحداث السلالية ، وأخيراً تدخل نابليون ، جعل بافـاريا تشارك في تاريخ النمسا ، وجعل الجزء الاكبر من سكان الدولة البافارية يتـــألف من الفرنكونيين والسوابيين .

وكما أن الامة العربية كانت آخر مـــا أنتجه الاجماع الديني ، وكانت الامة الرومانية نهاية منجزات شعور المدينة الكلاسيكي ، كذلك فان آخر أمم الغرب هي الامة البروسية ، هذه الامة التي أبدعتها عائلة هوهنتزولون . فهذه الامة الفتية حققت الاعتراف بهـــا في معركة فيبلين (ضد السويد عـام ١٦٧٥ – المترجم) Fehbellin ، وكسبت النصر لالمـــانيـا في معركة روسباخ . (ضد الفرنسيين وملحقاتهم من الالمان عام ١٧٧٥ – المترجم) ولقد كان غوتـه، ذو العين المعصومة عن الخطـــأ في معرفة المنعطفات التاريخية ، هو الذي وصف «منـــافون برنهلم» Minna von Barnhelm ، بأنها باكورة الشعر الالماني ذي المحتوى القومي

بصورة خاصة ، وهذه مثل آخر ايضاً ومثل عميق المغزى، يظهر لنا مدى تعريف الامم الغربية لذواتها تعريفاً سلالياً ، وكيف أن المانيا، استطاعت، بهذا الشكل، أن تعيد اكتشاف لغتها الشعرية. فلقد رافق سقوط حكم عائلة هوهنشتاوفن سقوط الآداب الغوطية ايضاً . وكل مـا نشأ هنا وهناك من أدب خلال القرون التي تلت هذا السقوط - هذه القرون الذهبية بالنسبة الى الآداب الغربية - انمـا لا يستحق الاسم الذي يحمله . ولكن شعراً جديداً عظيمـــاً ولد مع انتصارات فريدريك الاكبر . والمرحلة الممتدة من ليسنغ الى هيبل تعني تماماً مـــا تعنيه المرحلة من روسباخ الى سيدان . أما المحاولات التي قـامت لاستعادة المضمون المفقود بواسطة الاعتماد أولاً على الفرنسيين ومن ثم على شكسبير والأغاني الشعبية، والاعتماد أخيراً (في عصر الترمنتك) على حقبة الفروسية ، أقول بأن هذه المحاولات قد أسفرت ، على الاقل ، عن ظاهرة فريدة في نوعهـــا من ظاهرات تاريخ فن كان في معظمه يتألف من ومضات عبقرية ، بالرغم من أنه لم يبلغ أبداً هدفاً واحداً .

وشهدت نهاية القرن الثامن عشر اكتمال ذاك المنعطف الجـذري بالاعتبار حيث أخذ عنده الوعي القومي ينشد تحرير نفسه من المبدأ السلالي . ويبدو للجميع ان هذا المنعطف ، وجد في انكلترا قبل نهاية القرن الثامن عشر ببعيد، وهنا قد تشرد أذهان معظم القراء الى التفكير بالماجنا كارتا (عام ١٢١٥) ، غير انني اعتقد بان بعض القراء لم يفشلوا في ملاحظة العكس تماماً ، إذ ان الاعتراف، كل الاعتراف، بالأمة إعترافاً يشتمل على الاعتراف بممثليها ، قـد زود الشعور السلالي بقوة عمق اقتحامية جديدة ونقاء بقيا غريبين غرابة كلية تقريباً عن شعوب القارة الاوروبية. فاذا كان الفرد الانكليزي الحديث هو اليوم (دون أن يبدو على هـذا الشكل) أشد الناس ، في العالم ، إغراقاً في المحافظة ، واذا ما كان تدبيره السياسي ، نتيجة لذلك ، يعتمد في حل مشاكله السياسية على التناغم العديم الكلمات ، تناغم النبض القومي ، بدلاً من اعتماده على المناقشة الواضحة الصريحة ، ولهذا كان اكثر الناس نجاحاً حتى اليوم، فان السبب الكامن وراء هذه الامور انما يعود الى تحرر شعوره السلالي المبكر زمناً ، من تعبيره بواسطة القوة المالكة .

أما الثورة الفرنسية ، فهي على العكس من ذلك، إذ انها كانت تمثل ، من هذه الناحية ، انتصار العقلانية . فتحريرها لمفهوم الشعب ، هو اوسع من تحريرها للشعب نفسه . فالمبدأ السلالي قد تغلغل في دماء العناصر الغربية ، ولهذا السبب بالذات ، هو مزعج ومكدر لعقلها وذلك لان السلالة الملكية تمثل تاريخاً ، وهي التاريخ الذي يصبح دماً وارضاً ، بينما أن العقل عديم الزمان وغير تاريخي . فمثل الثورة الفرنسية العليا كانت جميعاً « خالدة » و « صحيحة » . ومـــا الحقوق الانسانية العالمية ، والحرية والمساواة ، سوى آداب وتجريد ، وليست بوقائع .

ولتستنجد ذاكرتك بجميع الجمهوريين ، اذا ما رغبت في ذلك ، فانك لن تجد في الواقع سوى أقلية من الناس تناضل باسم الجميع لادخال مثل أعلى جديد في عالم الواقعة . وهذه الاقلية اصبحت قوة ، ولكن على حساب المثل الاعلى ، وكل مـا فعلته لم يتعد استبدال المناصرة المحسوس بها قديماً ، بالوطنية العقلانية للقرن التاسع عشر ، وبالقومية المتمدنة الممكنة فقط في حضارتنا ، والتي هي في فرنسا ذاتهـــا لا تزال بصورة لا شعورية ، قومية سلالية ، وبمفهوم الوطن كوحدة سلالية ، هذا المفهوم الذي انبثق اول ما انبثق خلال الثورات الاسبانية والبروسية ضد نابليون، ومن ثم تجلى في حروب التوحيد السلالي الايطالي والالماني . وقد نشأ عن التعارض القائم بين العنصر والنطق ، بين الدم والعقل ، مثل أعلى جديد ومميز ليجابه المثل الاعلى السلالي ــ إنه لغة الام . ولقد قام في كل من البلدين (ايطاليا والمانيـا ــ المترجم) الغيارى والمتحمسون منادين باستبدال القوة الجـــامعة الموحدة ، قوة الامبراطور ، وفكرة ــ الملك ، بالربط بين الجمهورية والشعر ــ وفي هذا شيء مـا من شعار العودة الى الطبيعة ، لكنها عودة التاريخ الى الطبيعة . وهكذا حلت صراعات اللغة محل الحروب على توارث العرش، حيث اخذت الامة الواحدة تحاول أن تفرض لغتها ، وبذلك تفرض قوميتهـا على هتامات من أمم اخرى . ولكن لن يغيب عن ذهن احد حتى أن المفهوم العقلاني للامة بوصفها وحدة لغوية يستطيع في أحسن الاحوال ان يتجاهل الشعور السلالي ، ولكن لا يستطيع أبداً ان يستأصله

أو يلغيه ، وقدرته هذه لا تزيد ابداً عن قدرة الاغريقي الهيليني على التغلب باطناً على وعي مدينته ، أو قدرة اليهودي الحديث على قهر الاجماع القومي . زد على ذلك أن لغة الام لا تنشأ من اللاشيء ، بل انها في نفسها ثمرة التاريخ السلالي . فلولا خط الكابيتيان Capetian لما كانت هناك لغة فرنسية ، بل لكانت لغة رومانسية فرنكية في الشمال، واخرى بروفنسالية في الجنوب . والفضل في وجود لغة ايطالية مكتوبة يعود الى الاباطرة الالمان وعلى رأس هؤلاء فريدريك الثاني . والامم الحديثة هي ، أصلاً ، السكان وفق مفهوم التاريخ السلالي القديم . ومع هذا فان المفهوم الثاني للأمة بوصفها وحدة من لغة مكتوبة قد استأصلت في القرن التاسع عشر ، اللغة النمساوية ، ولربما هي التي خلقت اللغة الاميركية . ومن هنا فصاعداً استأثرت مجموعتان من الناس ، من كل أمة ، بتمثيل الشعب من وجهتي نظر متعارضتين ، فالمجموعة الاولى تمثل وحدة سلالية تاريخية ، والثانية وحدة عقلانية ـ انهما حزب العنصر وحزب اللغة ـ ولكن هاتين هما انعكاسان سرعان ما يثيران مشاكل سياسية يجب أن ينتظر بحثها فصلاً سنأتي به فيما بعد .

- ٥ -

في البدء ، عندما كانت الارض لا تزال خالية من المدن ، كانت طبقة النبلاء هي التي تمثل الأمة باسمى ما لكلمة تمثيل من مفهوم . أمـــا طبقة الفلاحين ، هذه الطبقة ذات الديمومة الابدية واللاتاريخية ، فلقد كانت شعبـاً قبل فجر الحضارة ، واستمرت ، بجميع طباعها الجوهرية ، شعباً بدائياً بقي موجوداً عندمـــا اندثر شكل الامة ثانية وتلاشى .

إن الامة ، ككل رمز عظيم آخر من رموز الحضـارة ، هي ملك عزيز لفئة قليلة من الناس ، واولئك الذين يملكونها هم مفطورون عليها كاولئك الذين فطروا على الفن أو الفلسفة ، كما وأن الخصائص المميزة للمبدع أو الناقد أو الرجل العادي ، أو أي شيء يماثل هؤلاء ، انما هي خصائص مميزة للامة — وهذا القول ينطبق ايضاً على المدينة الكلاسيكية والاجماع اليهودي والشعب الغربي على حد سواء .

وعندما تهب الامة لتقاتل بحماس من أجل حريتها أو شرفها ، فان الاقلية من ابنائها هي التي تضرم دائمـــاً وحقـاً جذوة الحماس في أفئدة الجماهير وتؤجج لهبه . وعندما يقول أحدهم « الشعب قد استيقظ » فهذا القول اكثر من تعبير مجازي ، وذلك لانه فقط اذ ذاك وعلى هذا الشكل يتبدى الشعور الواعي للجميع ، ويجعل جلياً واضحاً » :

فجميع هؤلاء الافراد الذين كان بالامس « شعورهم بال « نحن » واضياً بافق العائلة قانعاً بالوظيفة وربما مكتفياً ببلدته ، قد أصبحوا فجأة اليوم رجال لا شيء أقل من الشعب . فتفكيرهم وشعورهم « وأنا هم » ومع هذه الـ - « It » . قد تحولت حتى اعماق الأعماق . فالشعب قد أصبح شعباً تاريخياً ، وهنا يصبح حتى الفلاح اللاتاريخي . عضوا من الامة ، فاليوم ينبلج للفلاح عن فجر جديد يعيش خلاله التاريخ ، ولا يترك للتاريخ أن يمر به فقط مروراً عابراً .

ولكن تنشأ في المدن العالمية الىجانب الاقلية التيتملك تاريخاً وتحيا الاختبارات وتشعر وتسعى الى قيادة الامة ، أقول تنشأ أقلية أخرى من أدباء لا تاريخيين معدومي الزمان ، أناس محردين من المصير متشبثين بالعلل والمعلولات ، أناس مفصولين باطنا عن نبض الدم والكينونة وذوي شعور واع واسع التفكير لا يجد أي محتوى معقول لفكرة - الامة . فالكوسموبوليتية هي مجرد اتحاد من شعور واع يضم الانتلجنسيا . وصدور هذا الاتحاد يعتلج ببغضاء مريرة للمصير ، وقبل كل شيء ، بكراهية أكول للتاريخ بوصف التاريخ لسان المصير وتعبيره . ان كل ما هو قومي ينتمي الى العنصر - الى درجة أنه عاجز عن ايجاد لغة لنفسه ، وممج غير ماهر في كل ما يتطلب تفكيراً وعديم الحيلة حتى القدرية Fatalism فالكوسموبولتية هي آداب وتبقى آداباً بالغة القوة في الاسباب ، وبالغة الضعف في الدفاع عنها بغير المزيد من الاسباب ، وهزيلة في الذود عن حياضها بالدم

واكثر من هذا فان هذه الاقلية ، ذات العقل البالغ في سلطانه ، تختار السلاح العقلاني ، وقدرتها تتزايد في هذا المضمار ، وذلك بسبب كون المدن العالمية عقلاً مجرداً لا جذور له ، وهو ، استناداً الى كل فرضية ، ملك مشترك للمدينة . ان المواطنين العالميين ، أنصار السلام في العالم ، دعاة الوئام في العالم ، هم - كما كانوا في حين « الدول المتحاربة » وهند بوذا ، وفي العصر الهيلينستي ،وفي عصرنا هذا نحن معشر الغربيين - انهم القادة الروحيون للفلاحين . فشعار « الخبز والالعاب » انما هو مجرد صيغة أخرى للمسالمة. ان هناك في تاريخ كل حضارة مادة معادية للقومية،

أشعرنا بهـــا أم لم نشعر . فالتفكير المجرد والموجه ذاته كان ولا يزال غريباً عن الحياة ، وهو لذلك غريب عن التاريخ وغير نضالي ومعدوم العنصر ، فلنتأمل في مذهبنـا في الانسانية ، والتكلسك ، Classicism وفي سفسطائيي أثينـا ، وفي بوذا ولاوتسي ـ ناهيك عن ذكر الاحتقـار العميق لكل القوميات ، هذا الاحتقـار الذي أبداه الابطـــال العظـام المدافعون عن النظرة العـــالمية من إكليريكية وفلسفية .

ومها اختلف هؤلاء في آرائهم فهم من جهـة أخرى متفقون على أن شعور العنصر العـالمي ، والغريزة السياسية (وهي لذلك قومية) من أجل الواقعة (انه وطني مصيبـاً كان أم مخطئاً) ، والعزم على الكون موضوع التطور وليس هدفه (فـــالأمر يجب أن يكون هذا أو ذاك) ـ وبكلمة أخرى الارادة ـ للقوة ، أقول انهم متفقون على ضرورة تراجع هذه الأمور والتخلي عن مكانها لنـــازع يكون حملة ألويته ، في معظم الاحيان رجالاً فارغين من الزخم الاصيل ، لكنهم يعتمدون أكثر فأكثر على منطقهم ، رجالاً يحسون ، في عالم الحقائق والمثل العليا والطوباويات ،بأنهم بين أهليهم ، رجـــال كتب يؤمنون بأن بمقدورهم استبدال الواقعي بالمنطقي ، وجبروت الوقـــائع بعدالة تجريدية ، والمصير بالعقل . وهذا النازع يبدأ بالرعاديد ، دائمـاً وأبداً ، هؤلاء الذين ينسحبون من عـالم الواقعة الى صوامعهم وغرف دراساتهم وطوائفهم الروحيـة ويعلنون بطلان أعمـــال العـالم وحبوطها ، وينتهي ، في كل حضارة ، بدعاة السلام العالمي والمبشرين به . وكل شعب يملك نتـاج نفـايات كهذه . وحتى رؤوس هذا النوع من البشر ، تشكل سياسياً مجموعة مستقلة قـــائمة بذاتها . وهؤلاء يحتلون في « تاريخ العقل » مراتب رفيعة ، وهناك أسماء واسعة الشهرة بينهم ، ولكن اذا مـا نظرنا اليهم من زاوية التاريخ الواقعي ، فانهم يبدون عاجزين مجردين من كل الكفاءات

إن مصير أمة أغرقت في خضم أحداث عالمها يتوقف على مدى نجـــاح نوعية عنصرها في ابطال مفعول هذه الاحداث تاريخيا في هذا المصير . ومن الجائز أن

تثبت ، حتى في يومنا هذا ، أن مقاطعة تسن قد انتصرت (عام ٢٥٠ ق.م) في دول عالم الصين لانها فقط أبقت نفسها بعزل عن العواطف الطاوية Tauist . كما وأن الشعب الروماني تمكن من السيطرة على العالم الكلاسيكي لانه استطاع أن يعزل توجيه سياسته عن فلاح الهيلينستية .

إن الامة هي الانسانية المصاغة في شكل حي . والنتيجة العملية للنظريات القائلة بتحسين العالم هي دائماً نتيجة لا شكل لها ، ولذلك هي جمهور لا تاريخ له . وجميع الدعاة الى تحسين العالم وكل المواطنين العالميين انما يتبنون ويدافعون عن المثل العليا للفلاحين ، أعرفوا بهذا الامر أم لم يعرفوا . ونجاح هؤلاء لا يعني تنازل الامة التاريخي عن سلطانها للسلام الدائم ، بل تنازلها لامة أخرى . فالسلام العالمي هو ، أبداً عزم ذو جانب واحد. فالسلام الروماني كان له معنى عملي واحد لدى الاباطرة العسكر وملوك العصابات الجرمان ، وهذا يعني أنه جعل من سكان لا شكل لهم ويتجاوز عددهم المئة مليون ، مجرد هدف لارادة القوة لمجموعات صغيرة من المحاربين .

إن السلم يكبد المسالمين ضحايا تبدو الى جانبها خسائر معركة كاني تافهة حتى التلاشي . والعوالم البابلية والصينية والهندية والمصرية كانت تنتقل من فاتح الى فاتح ، وكان دم هذه العوالم هو الذي يدفع ثمناً للنزاع . هذا هو — سلامهم . وعندما احتل المغول بلاد ما بين النهرين أقاموا نصباً تذكاريا لنصرهم من جماجم مئة ألف من سكان بغداد الذين لم يدافعوا عن أنفسهم . ولا شك ، أن انطفاء الأمم ، أو خمود نار القوميات ، يضع عالم الفلاحين ، وجهة النظر العقلانية ، فوق التاريخ ، ويجعل منهم اخيراً اناساً متمدنين الى الابد ، لكن عالم الفلاحين يرتد في ميدان الوقائع الى وضع الطبيعة ويتناوبه إذلال طويل وغضبات قصيرة لا تستطيع مع كل الدماء التي تهرقها — والسلام العالمي لا يقلل منها — أن تبدل شيئاً . وكان الفلاحون في العهود الغابرة يريقون دماءهم من أجل نفوسهم ، أما الآن فيجب أن يهرقوها من أجل غيرهم ، وكثيراً ما يهرقونها من أجل مجرد

تسلية الغير والترفيه عنـــه – وهذا هو الفرق . فـــالقائد العزام الذي يجمع حوله عشرة آلاف من المغـامرين يستطيع أن يفعل مـا يرغب ولو أن العـالم بأكمله كان أمبراطورية واحدة ، لامسى مجرد ميدان معقول لانجازات أبطـال غزاة كهؤلاء .

« الموت أفضل من العبودية » هـذا مثل قديم شائع بين الفلاحين الفريزيين . وعكس هذا المثل كان يقع عليه اختيار كل مدينة متاخرة زمنـاً ، وكان على كل مدينة كهذه أن تختبر كم كلفها هذا الاختيار من ثمن

الفصل الثامن عشر

مشاكل الحضارة العربية

(أ)

التشكل التاريخي الكاذب

HISTORIC PSEUDOMORPHOSES

- ١ -

ترقد ، داخل طبقة إحدى الصخور ، بلورات معدن . وتحدث في الصخرة شقوق وشروخ يتسرب إليها الماء ويجرف تدريجياً البلورات خارج مراقدها حيث تخلف ، وفي الوقت المناسب ، وراءها تخاريب داخل الصخرة . ثم تحدث انفجارات بركانية تُفجّر الجبل فتتدفق الكتل المصهورة داخل الصخرة وتتصلب وتتبلور بدورها ، لكن هذه الكتل ليست حرة في تبلورها بأشكالها الخاصة ، إذ يتوجب عليها أن تملأ التخاريب الموجودة داخل الصخرة . وهكذا تنشأ اشكال مشوهة وتتوضع بلورات يتناقض تركيبها الباطني وشكلها الخارجي ، وتبرز حجارة من

نوع معين لكنها تبدى في شكل حجارة من نوع آخر غير نوعها . وهذه الظاهرة يسميها علماء التعدين بالتشكل الكاذب .

وأنا أرمي من وراء استعمال اصطلاح « التشكل التاريخي الكاذب » إلى تعيين تلك الحالات التي تكون فيها حضارة غريبة وأقدم زمناً متموضعة بصورة واسعة فوق أرض أحد البلدان ، حيث تمسي الحضارة الفتية التي ولدت في تربة هذا البلد عاجزة عن تخطف أنفاسها نتيجة لتموضع تلك الحضارة الأقدم منها زمناً . وهذه الحضارة الفتية لا تفشل فقط في تحقيق أشكال تعبيرها الخاصة والنقية ، بل إنما تفشل أيضا في تطوير شعورها الخاص بذاتها تطويراً كاملاً . فكل ما يتدفق من الروح الفتية لهذه الحضارة قد جرت صياغته في قوالب قديمة ، وهكذا يتصلب الشعور الفتي داخل إنجازات هرمة ، وبدلاً من أن يشب وينتصب مستنداً الى قوته الابداعية الخاصة نراه لا يستطيع غير كراهية القوة الجافة كراهية تتزايد لتصبح مروعة هائلة فظيعة .

وهذه هي حال الحضارة العربية . فكامل حقبتها ما قبل التاريخ تقع داخل دائرة المدنية البابلية القديمة ، هــــذه المدنية التي ظلت طيلة الألفين من الأعوام فريسة لفاتح يتلوه فاتح . وتتميز الحقبـــة « الميروفنجية » Merovingian من الحضارة العربية بديكتاتورية فخذ فارسي قليل العدد ، وبدائي كالاستروغوط ، واستمرت سيطرة هذا الفخذ طيلة قرنين من الزمن ، ولم تشهد خلال هذه المدة إلا ما ندر من التحدي ، وقد أقام سلطانه على الفتور غير المتناه لعالم الفلاحين . ولكن في عام ٣٠٠ ق . م ، فما بعده ، بدأ وعي عظيم بالانتشار بين الشعوب الفتية الناطقة باللغة الآرمية والقاطنة في المنطقة الواقعة بين صحراء سيناء وسلسلة جبـــال زغروس . وكما حدث في حقبـة حرب طروادة وحقبـــة أباطرة السكسون ، فلقد تخللت علاقة جديدة بين الانسان والله ، أي شعور جديد كل الجدة بالعالم ، أقول تخللت هذه العلاقة جميع الاديان الشائعة والمألوفة ، أكانت هذه الاديان تحمل اسم اهورامازدا Ahuramazda أو بعل أو يهوه ، وحركت

في كل مكان قوى جبارة من الابداع . ولكن عند نقطة الاتصال هذه بالذات برز المكدونيون على المسرح — وجاء بروزهم مُحكماً الى درجة تجعل افتراض وجود نوع من علاقة باطنية بين هؤلاء واولئك أمراً ليس بمستحيل ، وذلك لأن السلطة الفارسية كانت تستند في حكمها على فرضيات روحية ، وهذه الفرضيات بالذات هي التي تلاشت واختفت . أما المكدونيون فلقدبدوا في نظر البابليين زمرة أخرى من المغامرين كغيرها من الزمر التي سبقتها .

ولقد غطى المكدونيون البلاد حتى تركستان والهند بغطاء رقيــق من المدنية الكلاسيكية . والحق ان ممالك الديادوتشي كان باستطاعتها ان تصبح دولا متبلدة ذات روح لما قبل الحضارة العربية — زد على ذلك ان الامبراطورية السلوقية التي كانت تنطبق جغرافياً كل الانطباق على الاقاليم الناطق اهلوهــا بالارامية كانت فعلاً في عام ٢٠٠ ق . م دولة من هذا النوع . لكنها ابتداء بمعركة بدنا Pydna فما بعد ، أخذت الأمبراطورية الكلاسيكية بامتصاص هذه الدولة ، بجزئها الغربي أكثر فأكثر ، وهكذا أخضعتها الى انجازات جبارة لروح يقوم مركز ثقلها في اقليم بعيد ناء عن الامبراطورية السلوقية وعلى هذا الشكل تهيأت اسباب التشكل الكاذب .

إن الحضارة المجوسية هي ، من الوجهتين الجغرافية والتاريخية ، بمثابة القلب من جميع الحضارات الارقى . فهي الحضارة الوحيدة التي تلامس عملياً ، من حيث الزمان والمكان ، جميع الحضارات الاخرى . لذلك فان تركيب تاريخها ككل في صورتها العالم يعتمد كل الاعتماد على تعرفنا على الشكل الباطني الصحيح الذي شوهته قوالبنا . ومن المؤسف ، ان هذا الشكل هو الذي لا نعرفه حتى الآن ، والفضل في جهلنا به يعود الى التحيّزات اللاهوتية ، والفيلولوجيــة ، واكثر من هذه ، ان النازع الحديث الى الاغراق في التخصص ، الذي وزّع بصورة غــير معقولة البحث الغربي الى عدد من فروع منفصلة — وكل فرع من هذه الفروع لا يتميز عن الآخر بمواده ومناهجه فقط ، بل باسلوبه في التفكير ايضاً — وهكذا

حجب هذا النازع المشكلة الكبرى عن انظارنا . وقـد كانت نتائج التخصص في هذا الموضوع أشد خطراً من نتائجه في أي موضوع آخر . فالمؤرخون الذاتيون بقوا داخل ميدان الفيلولوجيا الكلاسيكية ، وجعلوا حدود اللغـة الكلاسيكية أفقهم الشرقي ، ومن هنا نشأ فشلهم في فهم وحدة التطور العميقة الواقعـــة على جانبي حدودهم التي لم يكن لها روحياً وجود . وجاءت النتيجة متمثلة في تقسيم التاريخ الى قديم ووسيط وحديث وتنظيمه وتعريفه بواسطـة استخدام اللغتين اليونانية واللاتينية . فاكسوم وسبا وحتى مملكة الساسانيين كانت بالنسبـــة الى الخبراء في اللغات القديمة ، بما لدى هؤلاء من نصوص ، مواضيع خارج نطاق البحث ، ولهـــذا فنادراً ما لهذه المواضيع من وجود اطلاقاً في « التاريخ » . أما البحاثة في الاداب (وهو فيلولوجي أيضاً) فانه يخلط بين روح اللغة وروح الانجاز ، فاذا ما حدث ان أن دوّن أو حتى حفظ نتـــاج أدبي لاقليم ناطق بالآرامية ، باللغة اليونانية ، فان هذا البحاثة يقوم بضم هذا النتاج الى « آدابـــه اليونانية المتأخرة زمناً » وينطلق الى تصنيفه بوصفه نتاج حقبة خاصة من هـــذه الآداب . زد على ذلك أنالنصوص ، التي هي من أصل واحد في اللغاتالاخرى، تقع خارج دائرة هذا البحاثـــة ، وقد أدخلت في مجموعات أخرى من الآداب بالاسلوب الاصطناعي ذاته . ومع هذا فهنا دليل ما بعده دليل على أن تاريخ الآداب لا ينطبق أبداً على تاريخ اللغة. فهنا كان يقوم مجموع آداب قومية مجوسية مستقلة وقائمة بذاتها ، وذات روح واحدة ، لكنها كُتبت بلغات متعددة — من بينها اللغة الكلاسيكية . وذلك لأن الامة من الطراز المجوسي لا تملك لغةأم. فهنا توجد آداب قومية تلمودية ومانية ونسطورية ويهودية أو حتى نيوفيتاغوريه، ولكن لا توجد آداب هيلينستية أو عبرانية .

وأدلى البحث اللاهوتي ، هو الآخر ، بدلوه ، فوزع موضوعه الى فروع وفق مختـــلف المذاهب الاوروبية الغربية . وهكذا اعتمـــد ولا يزال اللاهوت المسيحي أيضاً الحدود الفيلولوجية الفاصلة بين الشرق والغرب . فالعالم الفارسي

أصبح من اختصاص البحاثة في الفيلولوجيا الايرانية ، وبما أن نصوص الأفستا كانت منثورة مبثوثة ، وان لم تكتب بلغة عامية آرامية ، لذلك اعتبرت مشكلتها الضخمة ، فرعاً ثانوياً من حمل المنطيق المندي ، وهكذا اختفت تماماً من ميدان بصيرة اللاهوت المسيحي . وهناك أخيراً تاريخ اليهودية التلمودية ، فلما كانت الفيلولوجيا العبرانية مرتبطة بتخصص واحد ، الا وهو التخصص في العهد القديم ، لذلك لم يلق أبداً هذا التاريخ ، معالجة مستقلة ، بل تناسته تماماً كل ما أعرفه من التواريخ الرئيسية للاديان ، مع ان هذه التواريخ تجد في صفحاتها مكاناً لكل ملة هندية ، وتجد لكل دين زنجي Negro بدائي فائدة ونفعاً (فالفولكلور بلغ مرتبة التخصص أيضاً .)

- ٢ -

كان العالم الروماني يمتلك ، في حقبة الامبراطورية من تاريخه ، فكرة حسنة عن دولته الخاصة . وكتابات الكتاب الذين جاءوا بعد هذه الحقبة مليئة بالتذمر والشكوى من تناقص عدد السكان والخواء الروحي في كل من افريقيا واسبانيا وبلاد الغال ، وقبل هذه كلها ، في البلدين الاصليين ايطاليا واليونان . ولكن تلك المناطق العائدة الى العالم المجوسي ، كانت دائماً مستثناة من دراساتهم المتفجعة هذه . فسوريا خاصة كانت كثيفة السكان ، وكانت كبلاد ما بين النهرين «البارتيه» Parthian ، مزدهرة دماً وروحاً .

كانت أهمية الشرق الفني وخطورته واضحتين للجميع ، وكان سيجد في وقت قريب أو بعيد ، تعبيراً سياسياً عن ذاته أيضاً . ولذلك فنحن اذا ما تأملنا في المشهد من وجهة النظر هذه ، نرى ، وراء الوقائع التاريخية الملحمية التي وقعت بين ماريوس وسولا ، بين قيصر وبومباي ، بين انطونيوس وأكتافيان ، هذا

الشرق يناضل بشدة متزايدة لتحرير نفسه من الغرب المحتضر تاريخياً ، ونرى عالم الفلاح يستيقظ . فنقل العاصمة الى بيزنطة انما هو لرمز عظيم . وديولكتسيان كان قد اختار نيكوديميا Nicodemi عاصمة له ، وكان قيصر يفكر في اختيار الاسكندرية ، أو طروادة عاصمة له . ولا شك في أن انطاكية كانت ستحتل اختياراً أفضل من تلك كلها . ولكن اختيار بيزنطة جاء متأخراً ثلاثة قرون عن زمنه المناسب ، وكانت هذه القرون الثلاثة تمثل حقبة حاسمة من ربيع الحضارة المجوسية .

بدا التشكل الكاذب بمعركة اكتيوم ، وفي هذه المعركة كان من المتوجب أن يكون انطونيوس هو المنتصر .. فهذه المعركة لم تكن تمثل صراعاً بين روما وبلاد اليونان - فهذا الصراع انتهى أمره ودار في معركتي « كاني » وزاما Zama ، حيث شاء مصير هنيبال الفاجع أن لا يكون دوره في هاتين المعركتين دور البطل المدافع عن وطنه الخاص ، بل دور المدافع عن الهيلينستية . ففي معركة اكتيوم كانت الحضارة العربية التي لم تولد بعد هي التي تجابه المدنية الكلاسيكية الشهباء الحديدية اللون ، وكان موضوع الصراع يدور بين مبدأ « القيصرية » ومبدأ الخلافة ، ولو قُدر لانطونيوس النصر في هذه المعركة لكان حرر الروح المجوسية ، فهزيمته غطت بلاد هذه الروح بلوح الامبراطورية الرومانية الصلب . وهناك حدث مشابه لهذا الحدث في تاريخ الغرب ، الا وهو المعركة التي دارت رحاها بين تور Tours وبواتيه Poities عام ٧٣٢ ب. م. فلو قُدّر للعرب أن ينتصروا في هذه المعركة لأدخلت « فرنكستان » في خلافة الشرق الشمالي ، ولأمست اللغة والدين والعادات العربية مألوفة لدى الطبقات الحاكمة ، ولنشأت مدن عملاقة كغرناطة والقيروان ، في اللوار والراين ، ولأرغم الشعور الغوطي أن يجد التعبير عن ذاته داخل اشكال تحجرت منذ طويل أمد ، اشكال المسجد والنقوش العربية ، ولكان لدينا نوع من الصوفية بدلاً من الصوفية الالمانية . وكون مثل هذه الامور قد وقعت فعلاً في العالم العربي ، فالسبب في ذلك يعود

الى ان الشعوب السورية الفارسية لم تنجب شارل مارتل ليقاتل جنباً الى جنب ومتردات وبروتوس وكاسيوس أو انطونيوس (أو بدونهم) ضد روما .

وهناك تشكل كاذب ثان يتجلى في روسيا أمام عيننا . فاساطير الابطال الروسية العائدة لبايلني Bylini بلغت ذروتها في الجيل الملحمي لأمير كييف فلادمير (عام ١٠٠٠) بما كان لهذا الأمير من مائدة مستديرة ، وفي البطل الشعبي إليا موروميتس Ilya Muromyets . ويتبدى كامل الفرق الماثل بين النفس الروسية والنفس الفاوستية في تباين هذه الاساطير « ومعاصرتها » أساطير آرثر وإرماناريتش وخرافات النيبلونجن Nibelungen العائدة الى حقبة الهجرة والماثلة في شكل اغنيتي هلد براند وفالتاري Waltharilied . أما الحقبة « الميروفنجية » الروسية فتبدأ عندما أسقط ايفان الثالث (عام ١٤٨٠) سيطرة التتر وتمر بآخر أمراء عائلة روريك وبأول أمراء آل رومانوف حتى تبلغ بطرس الاكبر (١٦٧٩ – ١٧٢٥) . وهذه الحقبة تنطبق كل الانطباق على الحقبة الواقعة بين كلوفيس (٤٨١ – ٥١١) ومعركة تستري Testry (٦٨٧) والتي رفعت الكرولونجيين ، بصورة فعالة ، الى مراكزهم من التفوق والسيادة . وانا هنا أنصح جميع القراء بمطالعة التاريخ الفرنكي الذي وضعه غريغوري التوري (نسبه لتور) (حتى عام ٥٩١) وذلك توازياً والأجزاء المنطبقة عليه من روايات كرامزن Karamzin البطريركية ، وخاصة تلك الروايات المتعلقة بإيفان المرعب ، وبوريس غودونوف ، وفاسيلي شويسكي Shuiski . وبالكاد أن تكون هناك من روايات متوازية على هذه الصورة الصحيحة ، كهذه وتلك . وقد تبع الحقبة الموسكوبية ، حقبة عائلات بويار Boyar العظيمة والبطاركة ، حيث نجد المادة الدائمة في هذه الحقبة تتمثل في مناهضة حزب روسيا القديمة لأصدقاء الحضارة الغربية ، أقول تبع هذه الحقبة ، ابتداء من تأسيس مدينة بطرسبورغ في عام ١٧٠٣ ، تشكل كاذب حشر النفس الروسية البدائيـــة حشراً في قالب غريب عنها ، وجاء أولا هذا التشكل في قالب باروكي كامل ، ومن ثم في قالب

عصر التنوير ، وأخيراً اتخذ له القرن التاسع عشر قالباً . وتتمثل شخصية القدر في التاريخ الرومي في شخص بطرس الاكبر ، الذي يجوز لنا أن نقارنه بشارلمان الذي ناضل متعمداً وبكل قواه ليفرض الشيء ذاته الذي حال شارل مارتل دون فرضه ، ألا وهو سيطرة الروح البربرية البزنطية . وكانت توجد هناك إمكانية معالجة العالم الرومي بالطريقة الكارولونجيه ، أو بالاسلوب السلوقي — واعني بهذا الاختيار بين الوسائل الروسية القديمة ، وبين الوسائل الغربية ، واختار آل رومانوف الوسائل الاخيرة . فالسلوقيون كانوا يرغبون في ان يشاهدوا أنفسهم وسط الهيلينيين لا وسط الاراميين. وقيصرية موسكو البدائية لا تزال حتى اليوم الشكل المناسب للعالم الرومي ، لكن هذا الشكل شُوّه في مدينة بطرسبورغ ، إذ جعلوا منه شكلاً سلالياً ينتمي الى اوروبا الغربية . فسلطان الجنوب المقدس — سلطان بيزنطة والقدس ، والشديد في كل نفس ارثوذكسية ، قد حُرّف على يد الدبلوماسية الدنيوية التي اتجهت بأبصارها نحو الغرب. فإحراق موسكو ، هذا العمل الرمزي الجبار من أعمال شعب بدائي ، وهذا التعبير الهائل عن بغضاء مكابية ، للغريب والمرطيق ، قد تبعه دخول الاسكندر الاول مدينة باريس ، وتلاه الحلف المقدس واتفاق الدول الكبرى في الغرب . وهكذا أرغمت قومية ، كان من المتوجب على مصيرها ان يعيش دون ما تاريخ لبضعة أجيال ، على أن تدخل تاريخاً اصطناعياً مزوراً لم تكن نفس روسيا القديمة قادرة على فهمه وهكذا أُدخلت فنون الحقبة المتأخرة زمناً وعلومها وتنويرها وآدابها الاجتماعية ومادية المُدن العالمية على روسيا ، بالرغم من ان الدين وحده ، كان في تلك الحقبة ما قبل الحضارية ، اللغة الوحيدة التي يفهم ، بواسطتها ، الانسان الرومي نفسه والعالم . وهكذا انتصبت في الارض الخالية من البلدان ووسط فلاحيها ، مدن غريبة تبدت كأنها ندبات وقروح — وبدت كاذبة مزورة غير طبيعية وغير مقنعة . ولقد جاء على لسان دستوفسكي قوله :

« ان مدينة بطرسبورغ هي أشد مُدن العالم تجريداً وصنعة . » ومع ان

دستوفسكي وُلد فيها ، غير انه كان يحس دائماً بأنها ستتلاشى في احـــد الايام وتختفي مع ضباب الصباح . وعلى هذا الشكل الشجي وغير المعقول تناثرت المدُن الاصطناعية الهيلينية فوق أراضي الفلاح الآرامي . والمسيح عرف بهذا في جليله (الجليل) . ولا شك ان القديس بطرس يجب ان يكون قد أحسّ بـه حالما وقعت عيناه على روما الأمبراطورية .

وبعد هذا ، أصبح الانسان الروسي الأصيل يحس بكل شيء ينشأ حوله على انه مسموم وأكاذيب . وهكذا سُلطت على اوروبا كراهية عجائبية الجوهر حقاً ، وكانت « اوروبا » تعني في نظر مثل هذا الانسان كل ما هو ليس روسيا بما في ذلك اثينا وروما ، وحاله في هذه لا تختلف عن حال العالم المجوسي الذي كان يرى في مصر القديمة وبابـــل بلدين بائدين شيطانيين ووثنيين . ولقد كتب أكساكوف الى دستوفسكي في عام ١٨٦٣ يقول :

« إن أول شروط تحرير النفس الروسية ، يتمثل في انه يجب على هذه النفس أن تكره مدينة بطرسبورغ بكل قواها وجوارحهـــا . » فموسكو ، في نظر الروسي الأصيل ، مدينة مقدسة وبطرسبورغ شيطانية ، وهناك اسطورة شعبية واسعة الانتشار تصور بطرس الاكبر على صورة عدو المسيح Antichrist وبهذا الاسلوب ايضـــاً يستغيث التشكل الآرامي الكاذب ويصرخ في جميع اسفار الرؤى ابتداء من دانيال فأخنوخ في الازمنة المكابية الى يوحنا وباروخ وعزرا الرابع بعد تدمير القدس ، ويزعق مهاجماً انتياخوس عدو المسيح وروما عاهرة بابل ، ومدن الغرب بما لها من تهذيب ورونق وسناء وكل الحضـــارة الكلاسيكية . فجميع اعمالها كاذبة ودنسة ، بما في ذلك مجتمعها المتأدب وصناعتها الفنية الماهرة وطبقاتها الاجتماعية والدولةالغربية بما لها من دبلوماسية متمدنة وعدالة وادارات . ان التباين القائم بين العدمية الروسية وبين العدمية الغربية واليهودية والكلاسيكية المتأخرة زمناً هو تباين يبلغ اقصى الحدود فالأولى هي كراهية

عميقة للاجنبي الذي يسمم حضارة لا تزال جنيناً في رحم الارض ، اما الثانية فتمثل اشمئزازاً متخماً للذات من نموها الخاص الذي تجاوز حدوده . فأعماق المشاعر الدينية وومضات التجلي وقشعريرة الخوف من يقظة عظمى والأحلام الميتافيزيقية والحنين ، كل هذه تنتمي الى بداية التاريخ كما تنتسب آلام الصفاء الروحي الى نهايته ، لكن هذه جميعاً تختلط بعضها ببعض داخل هذه التشكلات الكاذبة .
ويقول دستوفسكي :

« ان كل انسان في الشارع والسوق يفكر الآن في طبيعة الايمان . » وهذا قول من الجائز انه قد قيل عن الاديسا او القدس . فاولئك الروس ما قبل عام ١٩١٤ – اولئك القذرون المكفهرو الوجوه المكتئبون في الزوايا والغارقون أبداً في الميتافيزيقا الذين ينظرون الى كل شيء بعين الايمان حتى عندما يكون الموضوع في ظاهره موضوع منح امتياز او كيمياء أو تربية النساء – اولئك كانوا اليهود والمسيحين الاوائل من المدن الهيلينية الذين كان الرومان ينظرون إليهم نظرة هي مزيج من تسلية أكيدة وخوف غامض خفي . ولم يكن للبرجوازي وجود في روسيا القيصرية ، كذلك لم يكن هناك نظام طبقي بصورة عامة ، بل إنما كان يوجد فقط ، كما كانت الحال في المقاطعة الفرنكية ، سيد وفلاح . ولم تكن هناك بلدان روسية . وكانت موسكو تتألف من مقر مُحصّن (الكرمل Kreml) تحيط به سوق هائلة الاتساع . وما المدينة المقلدة التي نبتت حول ذاك المقر وطوقته ، الا مدينة كغيرها من المدن التي تتربع على تربة الام روسيا ، اذ انها أنشئت لتأمين منافع البلاط والادارة والتجار ، ولكن تلك الكتل التي كانت تعيش فيها ، كانت أعلاها تجسيداً للوهم والخيال ، اذ انها الانتلجنسيا المنكبة على اكتشاف المشاكل والمنازعات ، وكان يلي هذه طبقة فلاحين أجتثت جذورها من الارض لتعيش كآبة ميتافيزيكية ، وتعاني قلق دستوفسكيها الخاص وبؤسه ، وتحن ابداً الى الأرض الطليقة ، وتكره برارة هذا العالم الحجري الأغبر الذي أغواها عدو المسيح بدخوله . ولم تكن لموسكو نفس خاصة بها فالطبقات العليا

من أهليها كانت غربية ، وأدخلت الطبقات الدنيا معها نفس الريف . وهكذا لم يكن هناك أي تفاهم متبادل أو مواصلة أو تعاطف بين هذين العالمين . ولكي نتمكن من فهم هذين العالمين ، يتوجب علينا ان نستعرض الناطقين بلسانيهما ، وضحيتي هذا التشكل الكاذب ، وأعني بهما دستوفسكي الفلاح وتولستوي ربيب المجتمع الغربي . فأولهما لم يستطع أبداً أن يهرب بنفسه من الريف ، أما الثاني فانه لم يتمكن أبداً ، وبالرغم من المجهودات اليائسة التي بذلها ، من ان يقترب بذاته من الريف .

كان تولستوي هو روسيا الماضية ، أما دستوفسكي فكان روسيا المقبلة . وكان جوهر تولستوي الباطني يلتصق بالغرب ، فهو لسان البطرسية الفصيح وخطيبها البليغ حتى عندما يحاول إنكارها . فالغرب لا تستقيم له قائمة دون سلبية أو إنكار – والمقصلة كانت أيضاً الابنة الشرعية لفرساي – ومهما بلغ صخب تولستوي وغضبه على الأمبراطور فهو لا يستطيع أن ينفي هذا الاتهام عنه . وهو حينما يكره الغرب فإنما يكره نفسه ، وبذلك يصبح أباً للبلشفية . ويتبدى العجز الكامل لهذه الروح ولثورتها عام ١٩١٧ جلياً وباسلوب اعترافي في كتابه اليتيم المولد ، والمعروف باسم « نور يشع في الظلام » . أما دستوفسكي فلا يعرف هذه الكراهية . فطاقات حياته الانفعالية لها من الشمولية ما فيها الكفاية لتضم الى صدرها كل الأشياء بما فيها الغربية منها ، وبهذا الصدد يقول – إن لي وطنين ، روسيا واوروبا . فهو قد تجاوز كلًا من البطرسية والثورة ،وهو من مستقبله ، يلقي عليهما بنظرات الى الوراء ، كأنه قد نأى عنهما بعيداً بعيداً . وَنفسه هي نفس عجائبية مترعة بالحنين واليأس ، لكنها عميقة اليقين بالمستقبل . وبهذا الصدد ورد في روايته الأخوة كرامازوف ، قول ايفان لأمه اليوشا : « سأذهب الى اوروبا ، وأنا عالم كل العلم بأنني سأذهب فقط الى باحة كنيسة ، ولكنني اعرف ايضاً بأن تلك الباحة عزيزة وعزيزة جداً على نفسي . فأحبابنا الموتى يرقدون هناك ، وكل حجر فوق قبورهم يحدثنا عن حياة عيش بحرارة وحماس ،

وعن إيمان بانجازاتها سريع التأثر سريع الانفصال ، أما حقيقتها ومعركتها ومعرفتها فأنا بهذا كله عليم ، - وأنا به حتى الآن خبير - لكنني سأخر راكعاً على ركبتي وأقبل تلك الحجارة وأذرف الدمع فوقها مدراراً . »

أما تولستوي فهو على العكس من دستوفسكي ، إذ أنه هو أصلاً ، فهم عميق كبير ، « مُنوّر » يهتم بشؤون المجتمع . وكل ما يراه حوله يتخذ الشكل الغربي شكل الحقبة المتأخرة زمناً شكل المدينة العالمية للمشكلة ، بينما ان دستوفسكي لا يعرف حتى ما هي المشكلة . وتولستوي حدث داخل المدينة الغربية وأحد احداثها ايضاً . وهو يقف في منتصف الطريق بين بطرس والبلشفية اللذين لم يستطع أي منهما ان يصل ببصره الى التربة الروسية. فالشيء الذي يحارب بطرس والبلشفية ضده يتبدى ثانية معروفاً من خلال الشكل كل الشكل الذي يحاربان به . فنوعية معارضتهما ليست بعجائبية بل إنما هي عقلانية . فكراهية تولستوي للملكية هي كراهية الاقتصادي ، وكراهيته للمجتمع هي كراهية المصلح ، وبغضاؤه للدولة ، هي بغضاء العالم النظري السياسي . ومن هنا نشأ تأثيره الهائل في الغرب – فهو ينتمي ، في هذه الناحية وتلك ، الى عصبة كارل ماركس وابسن وزولا .

أما دستوفسكي فهو عكس تولستوي ، إذ أنه لا ينتمي إلى أية عصبة ، اللهم الا اذا كانت عصبة من رُسل المسيحية البدائية « فشياطينه » وصمتها الانتلجنسيا الروسية بوصفها « الرجعيين » . ولكنه هو نفسه لم يكن يشعر أبداً بوجود منازعات كهذه – فالمحافظة والثورية كانتا اصطلاحين غربيين خلفاه غير مكترث أو مبال . فباستطاعة نفس كنفسه أن تنظر الى ما وراء كل شيء نصفه بالاجتماعي ، وذلك لأن اشياء هذا العالم تبدو لها غير ذات أهمية الى درجة لا تستحق معها التحوير او التحسين . وليس هناك من دين أصيل يستهدف تحسين عالم الوقائع ، ودستوفسكي هو ، ككل إنسان رومي بدائي لا يشعر أصلاً بوجود

هذا العالم ، فهو يعيش في عالم ثان ، عالم ميتافيزيقي يقع ما وراء هذا العالم . فما دخل آلام النفس و كروبها بالشيوعية ؟ والدين الذي يبلغ به اجتهاده مدى يجعله يمسك بالقضايا الاجتماعية بيديه لا يعود ديناً. ولكن الحقيقة التي عاشها دستوفسكي ، وحتى خلال حياته هذه ، هي إبداع ديني حاضر وموجود مباشرة لديه . وشخصية اليوشا في روايته استعصت على كل انواع النقد الادبي وأبوابه ، وحتى الروسي منها : وحياة المسيح لو كتبها - كما كان يردد دائماً انه عازم على تدوينها - لجاءت إنجيلاً صحيحاً كأناجيل المسيحية البدائية ، هذه الأناجيل التي تقع بكاملها خارج الاشكال الادبية من كلاسيكية ويهودية . أما تولستوي ، من جهة أخرى ، فهو معلم في فن الرواية الغربية - وأننا كارنينا تسبق كل منافسة لها باشواط ومراحل - ولكن تولستوي يبقى حتى داخل ردائه الفلاحي رجلاً ينتمي الى مجتمع أديب مهذب .

وهنا ترى البداية والنهاية تصطدمان ، نرى دستوفسكي القديس ، ونرى تولستوي مجرد ثوري . فمن تولستوي ، خليفة بطرس الشرعي ، ومنه وحده تنطلق البلشفية التي لا تمثل النقيض للبطرسية ، إذ أنها آخر ابنائها ، وآخر خزي أو هوان ينزل بما هو ميتافيزيقي ، وينُزله به ما هو اجتماعي ، ويلقاه فعلاً على يدي شكل جديد من التشكل الكاذب . فإذا كان تشييد مدينة بطرسبورغ هو الفصل الأول من رواية عدو المسيح ، فإن تدمير المجتمع ، الذي تشكل من بطرسبورغ هذه ، لذاته هو الفصل الثاني ، وعلى هذه الصورة يجب ان تحس به نفس الفلاح . وليسوا حتى بجزء منها ، بل هم أسفل طبقة من طبقات المجتمع البطرسي ، وهم أجانب وغربيون ، فالطبقات الأخرى ، ومع هذا لم يعترف بهم من قبل هذه الطبقات ، ونتيجة لذلك تأكل كراهية من ديس بالقدم أكبادهم . فجميع هذه ثمرات مدن عالمية و « متمدنة » - السياسة الاجتماعية الانتلجنسيا ، والاداب التي تكافح أولا بالاسلوب الرومانتيكي ومن ثم تستعمل الرطانة الاقتصادية في جهادها من أجل الحريات والاصطلاحات . وأما جمهور من المستمعين

فينتمي هو نفسه الى المجتمع. ان الانسان الروسي الأصيل هو تلميذ لدستوفسكي، بالرغم من انه قد لا يكون قرأ شيئاً لدستوفسكي أو غيره، وقد يكون، بسبب جهله بالقراءة، هو نفسه جوهر دستوفسكي ولبّه، ولو ان البلاشفة الذين يرون في المسيح ثائراً اجتماعياً مثلهم، لم يكونوا ضيقي الافق عقلانياً الى ذاك الحد، تعرفوا في دستوفسكي على شخص عدوهم اللدود. فلم تكن كراهية، الانتلجنسيا هي التي حققت الثورة بطاقاتها وزخمها، بل إنما كان الشعب نفسه الذي حرضته، دون كراهية، حاجته للخلاص من مرض، فدمر بانتفاضة واحدة التشبه بالغرب القديم Westernism وسيلحق الجديد (البلشفية) به بانتفاضة واحدة أخرى، وذلك لأن ما يحن اليه هذا الشعب الذي لا مدن له، انما هو شكل حياته الخاصة، ودينه وتاريخه الخاصين. أما مسيحية تولستوي فكانت سوء فهم، فهو كان يتحدث عن المسيح ويعني ماركس، ولكن على مسيحية دستوفسكي موقوفة الألف القادمة من الأعوام.

- ٣ -

وعندما تضاءل النفوذ الكلاسيكي في البلاد وهنا على وهن، انبثقت، خارج التشكل الكاذب، وبتناسب أشد عزماً وقوة، جميع أشكال الحقبة الاقطاعية الأصيلة. فأطلت الفلسفة اللاهوتية والصوفية والولاء الاقطاعي، وصناعة الانشاء وروح الصليبية، كل هذه كانت موجودة في القرون الأولى من الحضارة العربية، ويمكننا أن نجد آثارها، حالما نعرف كيف نبحث عنها. لقد كان الفيلق يوجد اسماً حتى بعد سبتيموس سفيروس، ولكن الفيالق في الشرق تبدو في نظر كل العالم أتباع دوق (أو أمير — المترجم) من خدم وبطانة وحشم. والموظفون كانوا يعينون، ولكن التعيين كانت قيمته الحقيقية تتمثل في العلاقة

القائمة بين الكونت والقن من رقيق الأرض . وبينا كان لقب قيصر يتساقط في الغرب في أيدي رؤساء القبائل ، حوّل الشرق نفسه الى خلافة مبكرة ومذهلة في تشابهها والدولة الاقطاعية في الحقبة القوطية الناضجة . فلقد أطل فجر حقبة إقطاعية نقية على الأمبراطورية الساسانية ، وحوران وجنوبي الجزيرة العربية . وخُلدت مآثر ملك سبأ ، سامر جوهاريش ، تخليد مآثر رولاند وأرثر - في الأساطير العربية التي تحدثنا عن تقدم جيوشه في بلاد فارس وبلوغها حتى الارض الصينية ، ووجدت مملكة معن Main جنباً الى جنب ومملكة اسرائيل خلال الدورة الالفية الاولى قبل ميلاد المسيح ، وآثارها (التي توحي بالمقارنة بينها وبين ميسينا وتايرنس) تمتد عميقاً داخل أفريقيا . لكن الآن ازدهر عصر الاقطاع في طولي الجزيرة العربية وعرضها وحتى في جبال الحبشة . ونشأت هناك في أكسوم Axum خلال الازمنة المسيحية المبكرة قلاع جبارة وقبور ملوك عرفت بأن حجرها الواحد كان أضخم الحجارة كتلة في العالم . وكان يقف وراء الملوك النبلاء الاقطاعيون من الامراء (الكونتات) والقيمون والاقطاعيون المشكوك في ولائهم ، والذين كانت ممتلكاتهم الواسعة تحد أكثر فأكثر من سلطة الملك وأهل بيته . وللحروب المسيحية اليهودية اللامتناهية بين جنوبي جزيرة العرب ومملكة أكسوم طابع هو في جوهره طابع الحروب الفروسية ، وكانت مراراً ما تستمر هذه الحروب فتمسي منازعات وخصومات بين الامراء وتتخذ من القلاع قواعد لها . وقد حكم في سبأ الهمذانيون الذين اعتنقوا المسيحية فيما بعد . وكانت تنتصب وراء هؤلاء مملكة اكسوم المسيحية المتعاهدة وروما والتي امتدت في عام ٣٠٠ من النيل الأبيض الى ساحل الصومال فالخليج الفارسي ، وطردت الحميريين اليهود عام ٥٢٥ . وفي عام ٥٤٢ عقد أمراء مأرب اجتماعاً أرسلت اليه كل من روما والامبراطورية الساسانية سفراء لها . وحتى اليوم لا تزال مأرب مليئة بآثار لا تعد ولا تحصى لقلاع جبارة نسب العوام في الازمنة الاسلامية

بُناتها الى أصول تعود الى ما وراء الطبيعة . فقلعة غمدان مثلاً هي بناء يتالف من عشرين طبقة .

حكم الامبراطورية الساسانية الـ Dikhans ، أو الاسياد المحليون ، بينما كان البلاط الرائع لهؤلاء « الموهنشتاوفن » المبكرين ، في كل وجهة من وجوهه ، نموذجاً للبزنطيين الذين اتبعوا ديوكلتسيان .

وحتى بعد مضي أزمان وازمان على اندثار الامبراطورية الساسانية لم يستطع العباسيون في بغداد ان يفكروا بشيء أفضل من تقليد المثل الاعلى لحياة البلاط الساسانية على مستوى رفيع . وقد نشأت في شمالي جزيرة العرب وفي بلاطات الغساسنة واللخميين زمر تروبادور Troubadour أصلاء ، وشعر « المني » Minne وكان الشعراء الفرسان ، في أيام الآباء الاوائل ، يستعملون « الكلمة والرمح والسيف » في مبارزاتهم . واحد هؤلاء كان السموأل اليهودي سيد قلعة الابلق الذي صمد أمام حصار شهير ضربه عليه ملك الحيرة بسبب دروع ثمينة . ومقام هذا الشعر الغنائي من الشعر العربي المتأخر زمناً والذي أينع وازدهر في اسبانيا خاصة ابتداءً من عام ٨٠٠ ، هو كمقام فالتر فون در فوجل فايدي من أولاند وايشندورف .

ومن المؤسف ان الله لم يمن على علماء الآثار واللاهوت منا بعيون ليروا هذا العالم الفتي الذي شهدته بعيون القرون الاولى من تاريخنا . زد على ذلك أن كون هؤلاء الى جانب دولة روما من جمهورية وامبراطورية يجعل أوضاع الشرق الاوسط تبدو لهم أوضاعاً بدائيةمجردة وخالية من كل مغزى او معنى . ولكن العصابات البارثية التي هاجمت الفيالق الرومانية المرة بعد المرة كانت تجري في دماء افرادها روح الفروسية وكانت مبجلة عظيمة القدر لدى المازادية ، ففي جيوش هؤلاء كانت تتجسد روح صليبية . وكان بمقدور المسيحية ان تكون هي أيضاً على هذا الحال لو لم تكن مكبلة بأغلال قوة التشكل الكاذب تكبيلاً

كاملاً . فالروح كانت موجودة في المسيحية ، فترورتليان يتحدث عن ميليشيا المسيح ، والعشاء الرباني كان يمين الولاء الذي يقسمه بعد مضي العديد من الاعوام ، حينما انطلق باسمه اتباعه ضد الوثنيين . ولكن طيلة ذاك لم يعرف جانب الحدود الرومانية هنا لوردات وفرساناً مسيحيين ، بل عرف فقط حكاماً رومانيين ، ولم يعرف قلاعاً بل معسكرات ، ولا مهرجانات فروسية ، بل تنفيذ احكام الاعدام . ولكن مع كل هذا فلم تكن هذه الحرب حصراً حرباً بارتيه ، بل كانت حملة صليبية أصيلة شنتها اليهودية عام ١١٥ عندما زحف تراجان على الشرق ، وقد جاء قتل كامل سكان قبرص الكفرة (اليونانيين) - الذين يبلغ عددهم ٢٤٠٠٠٠ تقريباً - بمثابة ثأر لتدمير القدس . ولقد قاومت نصيبين Nisibis ، التي كان يدافع عنها اليهود مقاومة رائعة ، زد على ذلك أن هديب Adiabene الباسلة (تقع في سهول دجلة العلوية) كانت دولة يهودية . ولقد قاتل الاعيان والفلاحون والمجندون اليهود من رقيق الارض في بلاد ما بين النهرين ، طيلة الحروب البارتية والفارسية ضد روما ، في الصفوف الامامية .

وحتى بيزنطة لم تستطع أن تتجنب تماماً تأثير الحقبة الاقطاعية العربية ، وقد برز نظام القنانة (وخاصة داخل آسيا الصغرى) الى الوجود مغلفاً بقشرة من الاشكال الادارية الكلاسيكية المتأخرة زمناً . ولقد كانت توجد هناك عائلات قوية واسعة النفوذ وكان اخلاص هذه العائلات مشكوكاً في امره، وكان طموحها يستهدف امتلاك العرش الامبراطوري . ويقول روت Roth في كتابه « التاريخ الحضاري لدولة بيزنطة » ما يلي :

« ولما كانت طبقة النبلاء هذه محددة اقامتها اصلاً في العاصمة ، وكان لا يسمح لها بمغادرتها الا باذن من الامبراطور ، لذلك استقرت هذه الطبقة فيما بعد في اقطاعياتها الواسعة في الأقاليم ، وامست هذه الطبقة النبيلة الريفية ابتداء من القرن الرابع فما بعده « اقطاعية من المملكة » من الوجهة الواقعية ، وحصلت مع الزمن على استقلال معين من الاشراف الامبراطوري . »

وتحول « الجيش الروماني » اثناء ذلك ، وخلال اقل من قرنين من جيش حديث الى جيش اقطاعي النظام . فاختفى الفيلق الروماني حينما أعيد تنظيم الجيش في زمن سيفيروس قرابة عام ٢٠٠ ب.م. وبينما كان الجيش في الغرب ينحط الى زمر وزرافات ، نشأت هناك في الشرق ، وفي القرن الرابع ، فروسية اصيلة وان جاءت متأخرة ـ وهذه واقعة اشار اليها مومسن منذ زمن طويل دون أن يرى مغزاها على كل حال . فكان الفتيان النبلاء يدربون تدريباً كامـــلاً على المبارزة الفردية ، وركوب الخيل واستخدام القوس والرمح . وقرابة عام ٢٦٠ شكل الامبراطور جالنيوس صديق بلوتينس ، ومُشيِّد بورتا نيجرا Porta Nigra في تريير ، وأحد اشد الشخصيات بروزاً وسوء حظ من الاباطرة العسكريين ـ اقول شكل هذا الامبراطور من الجرمان وبرابرة المغرب طرازاً جديداً من قوى الفرسان ، ألا وهو التابعة العسكرية الشخصية . وهناك واقعة ذات مغزى تمثل في التبدلات التي طرأت على آلهة المدينة القديمة ، فهذه الآلهة كانت تتراجع ، في دين الجيش ، امام الآلهة الجرمانية ، البطولة الشخصية ، التي كانت تحل محـــل تلك وتُدمغ بدمغتي مارس وهرقل. فحرس ديوكلتيان المعروف باسم بالاتيني Palatini ليس البدل للحرس البريتوري الذي ألغاه سبتيموس سفيروس ، بل انما هو جيش فرومي صغير حسن الانضباط ، وكان يجري تنظيمـه للمجندين في سرايا Company . وكان التكتيك هو تكتيك كل حقبـــة مبكرة بما لهذه من فخر واعتزاز بالشجاعة الشخصية . وكان الهجوم يتخذ الشكل الالماني المعروف باسم « رأس الخنزير » ـ الحشد العميق المسمى فنياً بـ Gevier thaufe . ونجد لدى جوستنيان نظاماً طُوِّر تطويراً كامـــلاً وينطبق تماماً على نظام رقيق الارض Lands Knecht لشارل الخامس ، حيث يخول فيـــه قائد عصبة مرتزقة Condottieri من طراز فروندسبرغ تجنيد قوات محترفة على أساس اقليمي . وقد وصف بروكوبيوس حملة نارسيس تماماً على شكل كأن أحدهم يصف عمليات التجنيد الواسعة التي قام بها فلانشتاين .

ولكن ظهرت هناك ايضاً ، وفي القرون المبكرة هـــذه ، فلسفة لاهوتية (كلامية) وصوفية رائعة من الطراز المجوسي ، وقد جرى تدجين هذه الفلسفة في المدارس الشهيرة التي قامت في الاقليم الآرامي - كالمدارس الفارســـة في تستفون Ctesiphon رأس العين Resaina وجنديسابورا Gundisapora ، والمدارس اليهودية في Sura ، Neherdea ، وقنسرين . وكانت هذه مراكز رئيسية ازدهرت فيها علوم الفلك والفلسفة والكيميـــاء والطب . ولكن هذه الظاهرات العظمى عندما اتجهت نحو الغرب امست مزورة ايضاً نتيجة التشكل الكاذب . فالعناصر المجوسية المميزة لهذه المعرفة تنتحل في الاسكندرية اشكال الفلسفة اليونانية ، وفي مدينة بيروت اشكال الفقه الروماني ، فهي تلتزم بالكتابة باللغات الكلاسيكية ، وتحشر حشراً في اشكال غريبة تحجرت منذ زمن طويل ، ويحرّفها منطق هرم لمدنيـة ذات تركيب يختلف تماماً عن تركيب تلك . وفي هذا الزمن ، وليس في الأزمان الاسلامية بدأت العلوم العربية . ومع هذا فان فيلولوجيينا لم ينبشوا سوى ما ألبس الثوب الكلاسيكي منها في الاسكندريـــة وانطاكية ، ولا يعرفون حتى اتفـــه الاشياء من الثروة العريضة الهائلة لربيع الحضارة العربية ، او المحور الحقيقي لابحاثه وفكره . ومن هنا نشأ الزعم المحال ، الذي لا يقبله عقل او عاقـل ، والقائل (Epigoni) بأن العرب كانوا اقل نمواً ورقياً روحياً من الحضارة الكلاسيكية . والحق أن كل شيء تقريباً انتج على الجانب « الآخر » من حدود الفيلولوجيا هو ليس الا انعكاساً للباطنية العربية ، بالرغم من أنه يبدو للعين الغربية خلفاً للروح الكلاسيكية المتأخرة زمناً . وهكذا نأتي الآن لنتأمل فيما فعله التشكل الكاذب للدين العربي .

- ٤ -

عاش الدين الكلاسيكي ، بعدده الوفير من المذاهب المنفصل الواحد منها عن

الآخر ، والتي كانت على هذا الشكل ، طبيعية واضحة وغنية عن البيان بالنسبة الى الانسان الكلاسيكي ، أقول عاش هذا الدين في حرز ممتنع عن أي انسان غريب . والحق أنه حالما تنشأ مذاهب من هذا النوع ، عندئـذ تطالعنا حضارة كلاسيكية ، وعندما يتبدل جوهرها ، كما حدث في الأزمنة الرومانية المتأخرة ، تبلغ روح هذه الحضارة نهايتها . ولم تكن المذاهب الكلاسيكية في يوم ما خارج الصقع الكلاسيكي حية وأصيلة . فالإله (الكلاسيكي ، المترجم) هو دائماً مرتبط بالموقع (المكاني) ومحدود به ، وذلك انسجاماً والشعور السكوني واليوقليدي بالعالم . وكذلك فان علاقة الانسان بالإله تتخذ شكل مذهب محلي ، وتكمن مغازي هذا المذهب داخل شكل الإجراء الطقوسي ، ولا تكمن في عقيدة تسند هذه المغازي وتركزها . وكما أن السكان كانوا متناثرين جغرافيا في نقاط لا تعد ولا تحصى ، كذلك تناثرت روحانية دينهم الى المذاهب الصغيرة التافهة . وكان كل مذهب منها مستقلاً عن البقية . أما ما كان قادراً على التكاثر او التزايد ، فهو عددها وليس مجالها او مداها . فالتكاثر كان هو الشكل الوحيد للنماء داخل الدين الكلاسيكي ، وهكذا أطرح جانباً كل جهد من الجهود التبشيرية ، وذلك لأنه كان باستطاعة الناس ان يمارسوا هذه المذاهب دون ان ينتموا اليها . فلم تكن هناك طوائف تضم الرفاق المؤمنين . ومع أن الفكر قد بلغ فيما بعد في أثينا نوعاً ما من افكار اكثر عن الله وخدمته ، لكن ما حققه الفكر كان فلسفة وليس ديناً . وهذه قد استهوت فقط قلة من المفكرين ، لكن لم يكن لها اقل اثر على شعور الأمة — أي المدينة .

ويقف الشكل المنظور للدين المجوسي موقفاً شديد التناقض والكلاسيكي واعني بالشكل المنظور : الكنيسة ، وأخوة المؤمنين اللتين لا وطن لهما ، ولا تعرفان حدوداً ارضية ، وتؤمنان بما قاله المسيح : « عندما يجتمع اثنان او ثلاثة باسمي ، آنذاك أكون في وسطهم . » وانه لمن نافل القول أن مؤمناً من هذا النوع يجب أن يؤمن بأنه لا يمكن أن يكون هناك الا إله واحد فقط ، والإله

الصحيح ، وأن آلهة الآخرين هي شريرة وباطلة . والعلاقة بين هذا الإله وبين الانسان لا تقوم على تعبير او اقرار ، بل انما تكمن في القوة الخفية ، في سحر اجراءات رمزية معينة ، التي اذا ما أريد لها ان تكون مؤثرة فعالة ، يجب أن تكون معروفة تماماً شكلاً ومغزى ، وأن تمارس وفقيها . ومعرفة هذا المغزى أمر خاص بالكنيسة — والحق أن الكنيسة نفسها هي بمثابة طائفة المرشدين . ولذلك فان مركز الثقل لكل دين مجوسي ، لا يكمن في المذهب بل انما يكمن في العقيدة ، في المُعتقد .

وقد استمر التشكل الكاذب لجميع كنائس الشرق معتمدا اسلوب الغرب طيلة بقاء الدين الكلاسيكي ذا روحانية قوية . وهذا هو أهم مظهر من مظاهر المذهب التوفيقي Syncretions . ويتخذ الدين الفارسي شكل مذهب مترا ، اما الكلداني السوري فيتخذ مذاهب آلهة النجوم وبعل (جوبيتر Dolichenus ، Sabazius ، Invictus Sol ، Atargatis) ، أما الدين اليهودي فيتخذ شكل مذهب يهوه (وذلك لأنـــه لا يوجد اسم آخر يمكن ان يأتي موافقاً للطوائف المصرية في حقبــة بطليموس) اما المسيحية فقد اتخذت — كما تظهر لنا بوضوح رسائل بولس وسراديب روما — جوهراً بوصفه مذهب يسوع . ومها ضج أيٌ من هذه الاديان المتنوعة — التي دفعت قرابة عصر هدريان الآلهة الكلاسيكية الى المؤخرة تماماً — معلناً عن نفسه أنه الإعلان الإلهي عن الايمان الحقيقي فانها جميعاً تحمل ، في الواقع ، طابع الانفصالية الكلاسيكية — اي أنها تتكاثر حتى اللانهاية ، وإزيس أقامت لنفسها deorum dearumque facies uniformis فكل طائفة من الطوائف الآنفة الذكر مستقلة عنْ غيرها ومحلية المعتقد . وجميع المياكل والسراديب ، وأماكن عبادة مترا ، ومُصليّات المنازل هي أماكن مقدسة تعتبر الآلهة مرتبطة بها (شعورياً ، بالرغم من أنه لا يُعبر عن هذا الارتباط شكلياً). وبالرغم من هـــذا يوجد شعور مجوسي حتى في هذا النوع من التقوى والتدين . فالمذاهب الكلاسيكية تمارس ، وباستطاعة الانسان أن يمارس منها أي عدد يهوى

او يريد ، لكن الانسان ، في هذه المذاهب الجديدة ، ينتمي الى مذهب واحد ، وواحد فقط . ولقد كانت الدعاية في المذهب القديم امراً لا يخطر على بال ، اما في المذهب الجديد فانها عمــــل بدهي ، كما وأن مغزى الممارسات الدينية ينعطف اكثر فأكثر نحو الجانب العقائدي .

وابتداء بالقرن الثاني فما بعد ، ومع ذواء الدين الابولوني ، وازدهار النفس المجوسية ، عكست العلاقات . زد على ذلك أن نتائج التشكل الكاذب قـــد استمرت ، لكن مذاهب الغرب هي التي تنعطف الآن لتصبح كنيسة جديدة الشرق — وأعني بهذا نشوء طائفة من مجموع هذه المذاهب المنفصلة تتألف من الذين يؤمنون بآلهة هذه المذاهب وطقوسها — وهكذا نشأت ايضاً في سياق من تدرج ، قومية مجوسية يونانية . ونما من الاشكال المقررة تقريراً صارماً ، ومن الاجراءات المنفصلة القرابين والاسرار الدينية ، نوع من عقيـدة Dogma ، تتعلق بالمغزى الباطني لهذه الاعمال . واصبحت المذاهب قادرة الآن على تمثيل بعضها بعضاً ، ولم يعـــد الناس يمارسونها ، او يجرونها حسب الاسلوب القديم ، بل انما امسوا « اتباعاً » او « مشايعين » لها . وأصبح الإله الصغير للمكان — دون ان يلحظ اي انسان خطورة التحول — الله العظيم الحاضر حقاً في المكان .

وبالرغم من العناية التي لاقاها المذهب التوفيقي في السنين الاخيرة فان مفتاح تطوره قد فقد — وأعني بتطوره عمليـــة تحول الكنائس الشرقية الى مذاهب غربية ، ومن ثم انعكاس هذه العملية بتحول المذاهب الغربيـــة الى كنائس شرقية . ومع ذلك فانه لمن المستحيل علينا أن نفهم التاريخ الديني للمسيحية المبكرة بغير هذا المفتاح . فالمعركة التي كانت تدور رحاها بين المسيح ومتراس بوصفهما الهي مذهب ، اتخذت ، شرقي انطاكية ، شكل منافسة بين الكنائس الفارسية والكنائس المسيحية . لكن اشد المعارك ، التي كان يتوجب على المسيحية أن تحاربها ، وذلك بعـــد أن وقعت تحت تأثير التشكل الكاذب وبدأت تطور روحانيتها وانظارها متجهـــة نحو الغرب ، لم تكن تلك المعركة معركة الآلهة

الكلاسيكية . فالمسيحية لم تجابه ابداً هذه الآلهة وجهاً لوجه ، وذلك لان المذاهب الشعبية للمدن ، كانت باطناً قد قضت نحبها منذ زمن طويل ، ولم تكن تملك اية سيطرة ، مهما كان وزنها ، على نفوس الناس . فالوثنية Paganism أو الهلينية ، هي التي كانت عدو المسيحية الجبار، وقد انبثقت ككنيسة جديدة صلبة العود شديدة المراس ، وولدت من تلك الروح بالذات التي ولدت منها المسيحية نفسها . وفي نهاية المطاف لم تقم في الشرق من الامبراطورية الرومانية كنيسة مذهب واحدة فقط ، بل قامت كنيستان ، واذا كانت احدى هاتين قد ضمت اتباع المسيح بنوع خاص ، فان الاخرى كانت ايضاً تتألف من طوائف تعبد بوعي ، وتحت الف عنوان وعنوان ، المبدأ الإلهي ذاته .

لقد كتب الكثير عن التسامح الكلاسيكي . ومن الجائز أن نرى ، بأشد وضوح وجلاء ، طبيعة اي دين من خلال الحدود النهائية لتسامحه ، ولقد كانت هناك حدود نهائية لتسامح الأديان الكلاسيكية كغيرها من الأديان الأخرى . والحق أنه كان هناك طابع جوهري واحد لهذه الأديان يتمثل في كون هذه الأديان غفيرة العدد ، وطابع آخر يتجلى في كونها أدياناً تتألف من اجراءات (طقوس) مجردة ، ولذلك لم تنشأ قضية التسامح ، في الأديان الكلاسيكية بالمعنى الذي تعنيه عادة هذه الكلمة . ولكن احترام شكليات المذهب كان أمراً متوجباً ومطلوباً . وكم من فيلسوف ، او حتى اجنبي غريب ، كان اذا ما اعتدى سهواً على هـذا القانون ، بالقول او بالعمل ، يُقاد قوداً الى التحقق من الحدود النهائية للتسامح الكلاسيكي . اما الاضطهادات المتبادلة بين الكنائس المجوسية فكانت شيئاً ما يختلف عن هذا ، ففي هذه الكنائس كان واجب الموحِّد بالله Henotheist نحو معتقده الخاص هو الذي يمنعه من الاعتراف بالمعتقدات الباطلة . وقد تتسامح المذاهب الكلاسيكية ومذهب المسيح معتبرة اياه واحداً منها . ولكن كنيسة المذهب كانت ملتزمة بمهاجمة كنيسة المسيح . اما جميع الاضطهادات العظمى التي نزلت بالمسيحيين (وهذه تتطابق تماماً والاضطهادات التي لاقتها الوثنية فيما

بعد) فهي لم تنشأ عن الدولة الرومانية ، بل نشأت عن كنيسة المذهب وكانت سياسية فقط من حيث أن هذه الكنيسة كانت تضم كلاً من الأمـــة والوطن . ويلاحظ أن قناع عبادة القيصر كان يغطي عرفين للدين ، ففي المدن الكلاسيكية في الغرب ، وخاصة في روما ، نشأ مذهب عبادة القيصر Divus كآخر تعبير لذاك الحس اليوقليدي الذي تطلب وجوب ايجاد وسيلة مواصلة قانونية ، وهي لذلك مقدسة ، بين انسان وحدة الجسد وبين إله وحدة الجسم . ومن جهة اخرى ، جاء نتاج مذهب عبادة القيصر في الشرق ايماناً بقيصر بوصفه مخلصاً ، وانسان الله ، ومسيح جميع المؤمنين بالمذهب التوفيقي الذي جعلته الكنيسة يعبر عن ذاتـــه بشكل قومي رائع . وكان تقديم القرابين للامبراطور يمثل اهم الاسرار المقدسة لهذه الكنيسة – وهو يتماثل تماماً ومسر المعمودية عنـــد المسيحيين – ولذلك من السهل ان يفهم المرء المغزى الرمزي الكامن في أيام اضطهاد الفريضة ، كانت لها اسرارها المقدسة : وجبات الطعام المقدسة كشرب الفرس للهاؤما Haoma [1] ، وعيد الفصح عند اليهود ، والعشاء الرباني لدى المسيحيين ، وطقوس أخرى مشابهة لهذه لأجـــل Attis والمـــثرا ، وشعائر المعموديـــة بين الـ Mandaeans والمسيحيين وعبدة ازيس وسيبيل Cybele . والحق أنه من الجائز اعتبار المذاهب الإفرادية الكنيسة الوثنية نِحَلاً Sect وأنظمة Order تقريباً – وهذه النظرة تفضي بنا الى فهم اوسع بكثير (من أي فهم آخر – المترجم) للدعايات المتبادلة لهذه المذاهب .

ان جميع الاسرار « الدينية » الكلاسيكية الحقيقيـــة ، كأسرار إليُسس Eleusis وتلك التي ابتدعها الفيثاغوريون في مدن ايطاليا الجنوبية قرابة عـــام ٥٠٠ ب. م ، كانت محدودة بالمكان ومقيدة اليه ، وتتضمن عملاً رمزياً او طريقة.

---

(١) Haoma ، نبتة ترمز الى شجرة الحياة ، كما ترمز نبتة السوما في البراهميـــة – المترجم –

وقد حررت ذواتها ، داخل ميدان التشكل الكاذب ، من مواقعها (المكانية — المترجم) .

وكان يجوز القيام بطقوسها اينما يجتمع اتباعها ، وكان هدفها النشوة الروحية المجوسية والتحول التقشفي في الحياة وقد حوّل زوار المكان المقدس أنفسهم الى فصائل ممارسة ، زد على ذلك أن طائفة النيوفيتاغوريين ، التي تشكلت قرابة عام ٥٠ ق م وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأسّينيين *Essenes* اليهود ، قد تكون أي شيء ما عدا كونها « مدرسة فلسفة » كلاسيكية ، وهذه فصيلة مجردة من رهبان أو نساك ،وهي ليست الفصيلة الوحيدة من هذا النوع في حركة المذهب التوفيقي الذي حرر المثل العليا للنساك المسيحيين والدراويش المحمديين . فلقد كان لهذه الكنائس الوثنية نساكها وقديسوها وانبياؤها وهداياتها العجائبية ،وكتبها الدينية، ووحيها الإلهي . وقد طرأ على مغزى الصور تبدل جد بارز وعجيب لا يزال ينتظر التمحيص والبحث . ففي قرابة عام ٣٠٠ ب م ، أوجد أخيراً أعظم اتباع بلوطينوس Plotinus ، ألا وهو إيامبليخوس Iamblichus ، نظاماً جباراًللاهوت الارثوذكسي ، وسلطة كهنوتية منظمة ، وطقوساً صارمة للكنيسة الوثنية، وقد كرس تلميذه جوليان نفسه ، وضحى أخيراً بحياته من أجل محاولة إقامة كنيسته وجعل ديمومتها بعمر الخلود . ولقد جدّ الى خلق حتى الاديرة ليُمكّن الرجال والنساء من التأمل الروحي ، وكدّ لادخال مبدأ الكفارة - التوبة — الاكليريكية . وكان يدعم هذا العمل العظيم ، حماس أعظم تسامى فبلغ ذرى الاستشهاد ، وبقي مخلداً حتى بعد وفاة الأمبراطور بزمن طويل . وهناك نقوش موجودة (تعود الى جوليان - المترجم) لكن من الصعب ترجمتها الا اذا اعتمد المرء القاعدة المنادية .

« لا إله إلا الله وجوليان نبي الله . » ولو قدّر لهذه الكنيسة أن تعيش عشر سنوات اكثر فقط ، لأصبحت واقعة تاريخية دائمة. فالمسيحية لم ترث في النهاية فقط

سلطان هذه الكنيسة ، بل انما ورثت ايضاً تفاصيل هامة منها ومن كل شكل ومحتوى . وهنا قول يتردد بأن الكنيسة الرومانية قد وفّقت بين ذاتهـا وبين تركيب الدولة الرومانية ، وهـذا قول ليس صحيحاً تمامـاً . فتركيب الدولة الرومانية ، كان بحد ذاته ، من الوجهة النظرية ، كنيسة . وقـد شهد التاريخ مرحلة كانت خلالها الدولة والكنيسة متلامستين متصلتين - فقسطنطين الأكبر ، كان في ، وقت واحد ، الداعي الى مؤتمر نيقيا Nicaea والحبر الأعظم معـاً ، زد على ذلك أن أولاده ، وهم المسيحيون الغياري ، جعلوا منه « إلهاً » Divus وقدموا اليه الطقوس المقررة . ولقد تجرأ القديس أوغسطين على التأكيد بأن الدين الحقيقي كان موجوداً قبل ولادة المسيحية ، وفي شكل الدين الكلاسيكي .

- ٥ -

يتوجب علينا ، بغية فهم اليهودية ككل ، وخلال المدة الزمنية الواقعة بين قورش وطيطوس ، أن نضع بصورة دائمة أمام أعيننا ثلاث وقائع يدري بها العلم تماماً ، لكنه يرفض لاسباب فيلولوجية ولاهوتية ، أن يسلم بها كعوامل في بحثه . اولاً ، ان اليهود هم « أمة بلا أرض » ، وهم ، علاوة على ذلك ، اتحاد يقوم في وسط عالم يتألف من أمم صافية ، ومن الطراز ذاته . ثانيـاً ، ان القدس هي بالفعل مكة (المكرمة) ، وهي مركز مقدس لكنها ليست وطن اليهود ولا بؤرتهم الروحية . وأخيراً فان اليهود ظاهرة شاذة غريبة في تاريخ العالم ، وذلك طالما نصر نحن على معالجة موضوعهم على هذا الشكل . وانه لصحيح أن يهود ما بعد السبي ، في حالة التمييز بالضد ، بينهم وبين اسرائيليي ما قبل السبي هم -كما قال هوجو فنكلر ، وهو أول من ميزهم - شعب من نموذج جديد تماماً . ولكنهم ليسوا هم الممثلين الوحيدين لهذا النموذج . فالعالم الآرامي كان قد بدأ

في تلك الايام بتنظيم نفسه في عدد كبير من شعوب كهذه ، بما فيهم الفرس والكلدان ، وجميعهم كانوا يعيشون في المنطقة ذاتها ولكنهم كانوا متباعدين تباعداً صارماً عن بعضهم بعضاً ، وكانوا حتى في ذلك الحين ، يمارسون الطريقة العربية الحقيقية في الحياة التي نسميها « غيتو » Ghetto[1] .

جاءت أول تباشير النفس الجديدة متمثلة في الاديان النبوية ، بما لهذه الأديان من باطنية رائعة ، وبدأت بالنشوء قرابة عام ٧٠٠ ق . م ، وتحدث الممارسات العتيقة الفطرية للشعوب وحكامها . وهذه هي ايضاً ظاهرات آرامية . والحق أنني كلما زدت تمعناً في عاموس واشعيا وارميا ، من جهة ، وفي زردشت من جهة أخرى ، أحس بأن ارتباط اولئك يزداد وثوقاً بهذا . أما ما يبدو على أنه هو الفاصل بينهم ، فليس هو بمعتقداتهم ، بل انما هو أهداف هجماتهم . فالأولون قارعوا ذاك الدين القديم المتوحش ، دين اسرائيل ، والذي هو في الواقع حزمة كاملة من عناصر دينية - كالإيمان بالحجارة المقدسة والاشجار وآلهة أماكن لا يحصيها عد (دان ، بيت إيل ، حبرون – الخليل – شيشم She chem ، بير السبع جلجال) ، ويهوه واحد (أو إلوهيم) يغطي اسمه جمهرة من أشهر الأسماء انعداماً في تجانسها ، كعبادة الأسلاف ومن ثم القرابين من البشر ، ورقص الدراويش ، والبغضاء الطقوسي – وهذه كلها تختلط بتقاليد موسى وابراهيم الغامضة وبالكثير من العادات والأعراف والاساطير التي ابتدعها العالم البابلي المتأخر زمناً والتي بعد أن توطدت في ارض كنعان مدة طويلة ، انحطت وتصلبت في اشكال فلاحية . أما الثاني (زردشت – المترجم) فلقد قارع المعتقدات الفيدية القديمة بالابطال « والفايكنغ » ، وهذه لاشك غليظة غير مصقولة كتلك ، وتحتاج اكيداً ، لأن تستدعي إلى الواقعة ، مرة بعد اخرى ، بواسطة تمجيد

---

[1] الحي الذي يسكنه اليهود في أية مدينة غير يهودية ، أو تسكنه قومية مميزة عنصراً – المترجم –

البهائم المقدسة ورعايتها. عاش زرادشت، قرابة عـــام ٦٠٠ق م. ، وكان في معظم حياته معوزاً مضطهداً ، ومفهوماً على غير مـا يريد ،وسقط وهو شيخ في ميدان القتال ضد الكافرين ـ وهو معاصر كفؤ لأرميا المنكود ، والذي كرهه مواطنوه بسبب نبوآته ، وسجنه ملكه ، وحملـه معهم الهاربون الى مصر بعـد الكارثة ، حيث أعدم . وانني لأعتقد بأن هذه الحقبة العظمى قـــد جاءت بدين نبوي ثالث ، ألا وهو الدين الكلداني .

فهذا الدين ، بما له من علم فلك ثاقب نافذ ، وباطنية رائعة دائماً وأبداً ، كان ، كما أنجرأ فأخمّن، قد وُلد في ذاك الزمان من ذخائر الدين البابلي القديم ، وتعهدته شخصيات مبدعة خلاقة من وزن أشعيا . ولقد كان الكلدانيون قرابة عام ١٠٠٠ ق.م كالاسرائيليين من القبائـــل الناطقة باللغة الآرامية ويعيشون جنوبي شنعار ولا تزال لغة المسيح الأصلية تدعى حتى الآن في بعض الاحيان باللغة الكلدانية . وقد أطلق هذا الاسم في الازمنة السلوقية على طـــائفة دينية واسعة الانتشار ، وخاصة على كهنة هذه الطائفة . ولقد كان الدين الكلداني ديناً فلكياً ، غير انه لم يكن على هذه الحال ، مثل حمورابي البابلي. وهذا الدين يمثل أعمق التراجم للكون المجوسي ، لكهف العالم ، والقسمة Kismet التي تعمل داخـله ، ونتيجة لذلك بقي الأساس الجوهري للتفكير الاسلامي واليهودي حتى آخر مراحل هـذا التطور الطويـل . وبواسطة هذا الدين ، وليس بواسطة الحضارة البابلية ، تشكلت ، عقب القرن السابـع ، علوم فلك تستحق بأن تدعي علماً صحيحاً ـ وأعني بهـــذا تقنية كهنوتية لمراقبة عجائبية في دقتهـــا . وقد استبدل الاسبوع القمري الــــبابلي، بالاسبوع الشمسي . وعشتار ، إلهة الحيـــاة والخصب ، وابرز شخصية في الدين القديم ، أصبحت الآن كوكبا ، وتموز الذي يموت دائماً ويُبعث دومـــاً ، إله النبات ، صار نجماً ثابتاً . وأخـيراً اعلن الشعور المـُوحّد (بالله ـ المترجم) عن نفسه . فكان ماردوك العظيم في نظر نبوخـــذ نصر الإله الحقيقي الواحد ، إله الرحمة ، وكان نيبو Nebo ، إله بورسيبا Borsippa ، ابنه وسفـيره الى الجنس

البشري . وغدا ملوك الكلدانيين طيلة قرن من الزمن (٦٢٥ - ٥٣٩) حكاماً العالم . ولكنهم كانوا ايضاً نذراً بالدين الجديد . وعندما كان الناس يبنون المعابد ، كان هؤلاء الملوك يحملون بانفسهم الأجُر . ولا تزال الصلاة التي تلاها نبوخذ نصر عندما اعتلى العرش ، موجودة لدينا ، ولا تفوقها صفاء وعمقـــاً ، اجمل ما في النبوءات الاسرائيلية، من مقاطع إطلاقاً. ومزامير التوبة الكلدانية، وهي مزامير ترتبط ايقاعاً وتركيباً باطنياً ، بالمزامير اليهودية ، تعـرف الخطيئة التي لا يشعر بها الانسان ، وتعرف آلام المعترف المنسحق القلب ، والتي يستطيع ان يتفاداها امام الإله المُتَجبّر وهذه الثقة برحمة الاله هي نفسها التي وجدت لها تعبيراً مسيحياً صحيحاً في نفوس هيكل « بعل » BEL في تدمر .

إن لُبّ التعاليم النبوية هو لب مجوسي . فهنا يوجد إله واحـــد ـ سمّي بيهوه ، او اهورا مازدا او ماردوك ـ بعل ـ وهو مبدأ الخير ، وجميع الآلهة الاخرى هي آلهة إما عاجزة او شريرة .

وقد ربط الامل بالمسيح نفسه إلى هذه العقيدة ، وهذا واضح جـــداً لدى اشعيا ، غير انه يتفجر ايضاً في كل مكان خلال القرون التـــالية ، ويتفجر تحت ضغط ضرورة باطنية . وهو الفكرة الرئيسية للدين المجوسي ، وذلك لانه يحتوي ضمناً على مفهوم الصراع التاريخي العالمي بين الخير والشر ، وسيادة الشر في الحقبة الوسيطة ، وانتصار الخير اخيراً في يوم الدينونة . وتَحقّق التاريخ بطاقـــات اخلاقية أمر شائع ومشترك بين الفرس والكلدان واليهود ، ولكن مـع حلوله تختفي حتماً فكرة الشعب المشدود الى موضع او مكان ، وبذلك فان تكوين الأمم المجوسية دونما اوطان وحدود ارضية أمراً بمتناول اليد . وهنا نشأت فكرة الشعب المختار . ولكن من السهل علينا ان نفهم ان اناساً تفور اجسادهم بدماء قوية ، وخاصة العائلات الكبرى منهم ، قد وجدوا في هذه الفِكر المغـــرقة في الروحانية ، « فِكَرات » تشمئز منها طبائعهم وتنفر ، فعادوا الى المعتقـــدات

العشائريـة الراسخة القديمة . واعتماداً على ما تقوله ابحاث كومونت Cumont ، كان دين الفرس ديناً متعـــدد الآلهة ، ولم يكن يملـك السر المقدس هاأوما Haoma وهذا يعني انه لم يكن زردشتياً متنا وحاشية . والشيء نفسه صحيح بالنسبة لمعظم ملوك اسرائيل ، ومن المحتمل جـداً ان يكون كذلك بالنسبة لـ نابو ـ نابيد Nabu - Nabid (نابونيدوس Nabonidus) الذي اصبح خلعه بواسطة رعاياه وقورش امرا ممكناً بسبب رفضه الايمان بمذهب ماردوك . زد على ذلك ان اليهود اكتسبوا في السبي ، ولاول مرة ، الختـان والسبت (البكلداني) بوصفها طقسين .

وعلى كل حال ، فلقد اوجد السبي البابلي فرقاً هاماً بـــين اليهود والفرس ، وهذا الفرق لا يتعلق بالحقائق النهائية للدين الواعي ، بل إنما يتعلق بجميع وقائع الواقع . ومن ثم بموقف الناس من هذه الوقائع . فالمؤمنون بيهوه هم الذين سمح لهم بالعودة الى الوطن ، واتباع اهورامازدا هم الذين سمحوا لهم بذلك ، وهاتان العشيرتان الصغيرتان واللتان لربما كانتا قبل مئتي عام من ذاك التاريخ ، متساويتين في عدد الرجال المقاتلين ، انطلقت الواحدة منها فامتلكت عالمـاً ، بينما اصبحت الاخرى ـ حينما عبر داريوس الدانوب شمالاً ، وامتدت سلطته عبر شرقي جزيرة العرب الى سوكوترا الواقعة على شاطىء الصومال جنوباً ـ اقول اصبحت الاخرى مخلباً لا قيمة له إطلاقاً من مخالب سياسة اجنبية . وهذا هو الذي جعـــل الدين الواحد منها متعالياً إلى ذاك الحد ، وجعل الثاني متضعاً ذليلا الى تلك الدرجة . وليتمعن الدارس في نقش بهستون Behistun العظيم لداريوس ليرى التباين بـين معناه ومعاني إرميا ، هـــذا النقش القائل : يا له من اعتزاز رائع وفخر عميق للملك بإلهه المنتصر ! وليتـأمل اية درجة من اليأس بلغتهـــا مناقشات الانبياء الاسرائيليين في محاولتهم للحفاظ على صورة الههم سليمة من كل أذى . فهنـــا في السبي ، وقد وجه النقد الفارسي كل عين يهودية نحو العقيدة الزردشتية ، نرى نبوة ارض اليهودية Judaic (في عاموس وأشعيـــا وأرميا) تتحـــول الى رؤيا

Apocalypse (تثنية اشعيا حزقيال زكريا) .

زد على ذلك ان جميع الرؤى الجديدة، رؤى ابن الانسان والشيطان ، وكبار الملائكة ، والسموات السبع ، والدينونة ، إنما هي استحضارات فارسية الشعور المشترك بالعالم . وفي سفر اشعيا يظهر قورش نفسه ويُهتف له بوصفه المسيح . فهل استمد المؤلف العظيم لتثنية سفر إشعيا استنارته من تلميذ زرادشتي؟ وهل من الجائز ان الفرس أعتقوا اليهود بسبب شعورهم بوجود علاقة باطنية بين تعاليم هؤلاء وتعاليم اولئك ؟ وعلى كل حال فإنه من المُحقق ان كلا من الفرس واليهود كانوا يشتركون في عقيدة شعبية واحدة ، وذلك فيما يتعلق بالاشياء الاخيرة ، وقد احسّوا وعبروا عن بغضاء مشتركة للدينين البابلي والكلاسيكي ، وللكافرين بصورة عامة ، ولم يشعروا بمثل هذه البغضاء نحو بعضهم بعضاً .

وعلى كل حال ، يتوجب علينا ان ننسى النظر الى « العودة من السبي » من وجهة نظر بابل . فالجماهير الكبرى ، وهي جماهير ذات طاقة عنصر قوية ، كانت في الواقع ، بعيدة كل البعد عن هذه الفكرة ، او انها كانت تعتبرها مجرد رؤى واحلام . ولا شك ان طبقة الفلاحين المتماسكة ، وطبقة الحرفيين ، وطبقة الارستقراطية الناشئة ، بقيت خالدة الى السكينة في معاقلها ، وتحت قيادة امير من ابنائها ، رش غالوتا ، الذي كانت عاصمته نهاردي Nehardea . اما اولئك الذين عادوا الى وطنهم ، فكانوا اقلية صغيرة، جمعت كل عنيد ومتعصب. وكان عدد هؤلاء ،رجالاً ونساءً واطفالاً ، لا يتجاوز الاربعين الفاً،وهذا العدد لا يمكن ان يكون الا جزءاً من عشرة او من عشرين من المجموع ، وان اي انسان يخلط بين هؤلاء المستوطنين ومصيرهم ، وبين اليهودية ككل ، فإنه يجب بالضرورة ان يفشل في استقراء المعاني الباطنية لجميع الاحداث التي تلت فيما بعد . فعالم منطقة اليهودية الصغير عاش حياة روحية منعزلة ، اما الامة ككل ، ومع انها كانت تنظر الى هذه الحياة باحترام ، فإنها لم تشترك اكيداً او تشارك فيها . وفي الشرق

ازدهرت آداب الرؤى ، وريثة النبوة ، بوفرة وثراء . وكانت هذه الآداب ، شعراً اصيلاً للشعب ، ونحن لا نزال نملك منها تلك التحفة الرائعة سفر ايوب — وهذا السفر اسلامي الطابع ، وهو حتماً ليس بيهودي — بينما انتشرت جمهرة من اساطير هذا الشعب وخرافاته « كجوديت» وتوباط Tobit واشيكار Achicar ، كنوازع غطت جميع آداب العالم « العربي » . اما في منطقة اليهودية فلم يزدهر سوى القانون . فالروح التلمودية تبدو اول ما تبدو في حزقيال ، وامست هذه الروح بعد عام ٤٥٠ جسداً على ايدي النسّاخ (السوفيريم) الذين كان يرأسهم عزرا . وابتداء من عـــام ٣٠٠ حتى عـــام ٢٠٠ ق . م قام التانائيم Tannaim (المعلمون) بشرح التوراة وتطوير المشنا . ولم يعطل مجيء المسيح ، ولا تدمير الهيكل هذا العلم التجريدي . واصبحت القدس في نظر المؤمن المتعصب بمثـــابة مكة ، وامسى قرآنه شريعة من القوانين أضيف اليها تدريجياً تاريخ بدائي كامل يتألف من نوازع كلدانية فارسية أعيد تنسيقها وفق الافكار الفرّيسية . ولكن لم يكن في هذا الجو مكان لفن دنيوي او شعر او دراسة . فكل مـــا يحتويه التلمود من معرفة فلكية وطبية وفقهية هو حصراً في الأصل من بلاد مـــا بين النهرين . ومن الجائز ايضاً ، انه بدأ في بلاد ما بين النهرين ، وقبل نهاية السبي ، تكوّن النِحَل الكلدانية — الفارسية — البابلية ، التي تطورت الى تشكل اديان عظيمة ، وذلك في بداية الحضارة المجوسية ، وبلغت ذروتها في تعاليم ماني Mani. « القانون والانبياء » هذان الاسمان يحددان عملياً الفرق بين منطقة اليهودية وبين بلاد ما بين النهرين . وكلا النازعين اتحدا او وُجدا في اللاهوت الفارسي المتـأخر زمناً كما وفي كل لاهوت مجوسي آخر ، وهما منفصلان مكاناً في هـذا الموضوع الذي نبحثه . فقرارات القدس كان معترفاً بها في كل مكان ، ولكن العبرة هي فيما كان لاطاعتها من انتشار ومجـــال . فحتى الفريسيون ، الذين كانوا موضع شكوك وريب ، بينما لم يكن بالامكان سيامة او تكريس أي ربي (معلم) في بابل . وكان جامالييل العظيم ، استاذ بولس ، يرى في اطاعة فتاويه واجتهاداته ، خارج منطقة اليهودية ، علامة من علامات الشهرة . وقد اظهرت الوثائق العائدة

الى العصر الفيلي وعصر أسوان مدى الاستقلال الذي كانت تتمتع به حياة اليهود في مصر . فقرابة عام ١٧٠ استأذن اونياس Onias الملك ببنـــاء هيكل ، وفق مواصفات هيكل القدس : متذرعاً بأن الهياكل العديدة ـغير المتوافقة شكلاً : والموجودة هي سبب الخصام والمنازعات بين الطوائف .

وهناك موضوع آخـر تتوجب دراسته . فاليهودية كالفرس ، تزايدت منذ السبي بصورة هائلة تخطت جميع حدود الافخاذ الصغيرة ، والسبب في هذا يعودالى الاعتناقات والانشقاقات المذهبية – وهذه هي الشكل الوحيـــد للغزو او الفتح الميسور لامة لا ارض لها ، ولذلك فهو طبيعي وواضح للاديان المجوسية . وهـذا الغزو دفع في الشمال وفي وقت مبكر جداً ، بدولة Adiabene اليهودية حتى بلغ بها القوقاز ، وفي الجنوب تسرب (ربما بمحاذاة الخليج الفارسي) حتى سبأ ، وفي الجنوب كان مسيطراً في الاسكندرية والقيروان وقبرص . وكان اليهود يشغلون معظم الوظائف الادارية المصرية ، والوظائف الادارية في الامبراطورية البارثية.

ولكن هذه الحركة خرجت من بلاد ما بين النهرين وحدها ، وكانت روحها روح رؤيا وليست روحاً تلمودية . اما القدس فكانت لا تزال آنذاك منهمكـة في ابتداع حدود قانونية ضد الكافرين ولم يكن يكفيها ان تتخلى عن التبشير وخلق المهتدين. فلقد سمع احد الفريسيين باستدعاء الملك هيركانوس (١٣٥-١٠٦) الذي اجمع الناس على حبه، وطلب اليه ان يتخلى عن وظيفة رئيس الكهنة لأن ام هذا الملك كانت في احد الايام في قبضة الكافرين . وهذا هو ضيق افق التفكير ذاته ، الذي اتخذ بين الاخوة المسيحية في منطقة اليهودية ، شكل مقاومـــة التبشير بالانجيل بين الوثنيين . ومثل هـذا الخاطر كان لا يمكن ان يراود اي انسان في الشرق ، ليخطط حدوداً كهذه إذ انها تناقض وكامـــل فكرة الامة المجوسية . ولكن في هذه الواقعة بالذات كان يكمن التفوق الروحـــاني للشرق المنفسح الوسيع . فالسنهدرين في القدس، يمتلك سلطة دينية مطلقة لا تناهض ،

ولذلك كانت سلطة رش غالوتا السياسية وكذلك التاريخية ، أمراً مختلفاً عن تلك تماماً. وقد فشل البحاثون المسيحيون واليهود على حد سواء في إدراك هذه الاشياء. وعلى قدر ما اعلم ، فأنه لم يلاحظ احد تلك الواقعة الهامة القائلة بأن اضطهاد انتيوخوس أبيفانيس لم يكن موجهاً ضد الديانة اليهودية ، بل إنما كان موجّهاً ضد منطقة اليهودية . Judea . وهذا ما يفضي بنا الى واقعة أخرى ذات قيمة اعظم وأهم من تلك الواقعة التي ذكرتها آنفاً :

إن تدمير القدس نزل فقط بجزء جد صغير من الأمة ، وهذا الجزء ، هو علاوة على ذلك ، كان اتفه الاجزاء قيمة ، روحياً وسياسياً . والقول بأن اليهود قد عاشوا حياة من تشتت وانحلال منذ تدمير القدس ، قول ليس صحيحاً ، فهم قد عاشوا طيلة اجيال (ومثلهم في ذلك مثل الفرس والآخرين) . إن أثر تلك الحرب كان ، بالمثل ، ضئيلاً على اليهودية التي عرفتها منطقة اليهودية وفكرت بها وعاملتها على أساس كونها ذيلاً او ملحقاً . فلقد احست جوارح كل نفس بانتصار الوثنيين وتألمت لتدمير قدس الاقداس ، وانتقمت انتقاماً مريراً لها في الحملة الصليبية لعام ١١٥ ، ولكن المثل الاعلى الذي انتهك ومن ثم زكّي ، كان مثل اليهودية الأعلى وليس مثل منطقة اليهودية الاعلى . لذلك فالصهيونية هي ، في عصرنا كما كانت في عصر قورش ، حقيقة لأقلية صغيرة وضيقة بأفقها الروحي . فلو أنه قد أحسّ بالكارثة على انها « فقدان وطن » (على الشكل الذي تفهمه عقولنا الغربية لهذا الفقدان) لكان بإمكان اليهود ان يغتنموا مئات الفرص التي سنحت لهم عقب عصر مارك اوريل ، لاستعادة المدينة (القدس ـ المترجم) . ولكن هذا الأمر كان سيتعارض والمفهوم المجوسي للأمة الذي كان شكله العضوي المثالي هو الكنيس ، الاتحاد المجرد ـ « كالكنيسة المنظورة » الكاثوليكية المبكرة والاسلام ـ وكان استئصال شأفة منطقة اليهودية وتدمير روحها العشائرية ، هو ، حصراً ، الذي حقق تماماً ولأول مرة هذا المثل الأعلى .

فحرب فاسبسيان التي شنت على منطقة اليهودية كانت تمثل انعتاقاً وتحررا

اليهودية . فلقد وضعت اولاً نهاية لمطالبة شعب بمنطقة صغـــيرة كي يصبحوا امة أصيلة ، واغرست مزاعم روحـــانية عارية ساذجة كانت تتطلع الى التكافؤ والمساواة وحيـــاة نفس الكل الكامل (اليهودية ـ المترجم) ، وامسى بحث الاكاديميات الشرقية ولاهوتها وصوفيتها حقاً مكتسباً من حقوقهم ، وهكذا فان القاضي كارنا Karna مثلاً ـ وهذا معاصر تقريباً ليوليان وبابنيان ـ قـد صاغ في اكاديمية نهارديا اول قانون مدني . ومن ناحية ثانية ، انقذت حرب فاسبسيان هذا الدين من اخطار التشكل الكاذب الذي كانت المسيحيـــة في تلك الأيام بالذات ترزح مستكينة تحت وطأته . وقد وجـــد منـذ عام ٢٠٠ ق. م آداباً يهودية نصف هيلينية . فكتاب « الواعظ » (Ecclesiastesi, Koheleth) يحتوي على افكار لا ادرية . ويتبـع هـــذه حكمة سليمان ، والميكابيون والشيودسيون ، ورسائل ارستياس الخ .. وهناك اشياء اخرى كمجموعة مينندار Menander ، من المبادىء المقررة ، والتي يستحيل علينا ان نقرر ما إذا كانت هذه مجموعة يهودية ام يونانية . وقد وجد عام ١٦٠ كهنة بلغت روحهم درجة من الهيلينستية حيث اخذوا معها يكافحون الدين اليهودي الصحيح ، وجاء فيما بعـــد حكام يهود كهركانوس وهيرودوس ، قاموا بالقتال ذاته بوسائل سياسية . وقد زال هـــذا الخطر نهائياً عام ٧٠ ب. م.

وكانت تسود القدس في ايام المسيح ثلاثة تيارات ، نستطيع ان نصف اولها بالآرامي بصورة عامة ،وكان يمثل هذا التيارالفريسيون ، ومثل ثانيها الصدوقيون ويمثل ثالثها في الآسينيين . ومع ان مضامين هذه الاسماء متنوعة ، وبالرغم من أن البحث من يهودي ومسيحي يحتوي على أشد وجهات النظر تبايناً فيها ، غـير انه يجوز لنا ان نقول ، على كل حال ، بأن اول هذه التيارات الثلاثة قـد وجد في اشد نقائه في مذهب منطقة اليهودية ، ووجد الثاني في المذهب الكلداني ، امـــا الثالث فكان في المذهب الهيليني . فالاسينيون (وهم فصيلة تقريباً) هم بدء مذهب

متوا في شرقي آسيا الصغرى. اما الصدوقيون فهم ، بالرغم من انهـــم ظهروا في القدس كجماعة صغيرة مُمَيَّزة – ويوسيفوس يقارنهم بالابيقوريين – فأنهم ، فرداً وجماعة ، آراميون في نظراتهم في ميدان الرؤية وفلسفة الحشر والنشور ، وهناك عامل خاص يجعل منهم ، دستوفسكيي هذه الحقبة المبكـرة . ومكانة هؤلاء من الغربيين هي كمكانة يوحنا من بولس ، او بونداهيش مـــن فندِداد في العـالم الفارسي . وعندهم الرؤى عنصر شعبي ، والكثـــير من سماتها هي ملكة روحية مشتركة في طول العالم الآرامي وعرضه . امـا الفريسية التلمودية والأفستية فهي حاجبة مانعة ، وتحاول ان تنفي كل دين آخر بتزمت لا يعرف حلا وسطاً .

اما الأسينيون فهم يظهرون في القـدس كفصيلة من رهبـــان او نساك كالفيثاغوريين الجدد . وكانوا يمتلكون مخطوطات ونصوصاً سرية . ولقـد كانوا حسب المفهوم العريض الواسع ، يمثلين للتشكل الكاذب، ولذلك اختفوا كلياً من اليهوديةِ بعد عام ٧٠ مسيحية ، بينما كانت الآداب المسيحية في هذه المدة بالذات تصبح مجرد آداب أغريقية – وليس ابدا بسبب هذا الواقع، ترك اليهود الغربيون المتأغرقون مذهب منطقة اليهودية واعتنقوا تدريجيـاً المسيحية ، كي ينسحبوا الى شرق مذهب المنطقة اليهودية .

ولكن الرؤيا ايضاً ، والتي هي شكل تعبير لجنس بشري لا مدن له ويهاب المدن ، لاقت نهايتها داخل الكنيس، وذلك بعـــد ردة فعل رائعـة ومدهشة نشأت عن باعث الكارثة العظمى ومثيرها. فعندما اصبح واضحاً ان تعاليم المسيح لن تؤدي الى إصلاح مذهب منطقة اليهودية ، بل ستنتهي الى دين جديد، وعندما أدخلت قرابة عام ١٠٠ ب.م صيغ اللعنات الموجهة الى اليهود – المسيحيـــين ، عندئذٍ استقر ما تبقى للرؤى من عناصر وجود داخل الكنيسة الشابة .

-٦-

ان الامر الذي لا نظير له ، والذي سما بالمسيحية فوق جميع اديان ربيع الحضارة الغني ، هو شخصية المسيح . فليس بين إبداعات هذه الحقبة إبداع واحد يمكن ان يوضع جنباً الى جنب وهذه الشخصية . ولا شك ان أي إنسان كان يقرأ آنذاك او يصغي الى قصة آلام المسيح التي كانت لا تزال حديثة العهد والى رحلته الاخيرة الى القدس ، والعشاء القلق الأخير ، وساعات اليأس في الجثمانية ، والموت على الصليب – أقول بأن أي إنسان كان يقرأ او يصغي لمثل هذه فيجب ان تبدو في ناظريه جميع الأساطير والمغامرات الدينية المأثورية والأتسيه والاوزيريسية أليفة وفارغة . فالموضوع هنا ، ليس موضوع فلسفة . وما تفوه به المسيح من كلام وحفظته ذاكرة الكثيرين من المؤمنين حتى مر في مرحلة متقدمة من العمر ، انما كان كلام طفل عن وسط عالم غريب هرم ومريض . فكلامه لم يكن يستعرض استقصاءات وقضايا ومناقشات اجتماعية . فلقد كانت حياة اولئك الصيادين والعمال على ضفاف بحيرة طبريا بمثابة جزيرة هادئة من غبطة ونعيم في وسط عصر تيبريوس العظيم ، وبعيدة كل البعد عن التاريخ وكل احداثه ، وبريئة غافلة عن افعال الواقعة ، تتلألأ حولها المدُن الهيلينستية بمسارحها وهياكلها ومجتمعها الغربي المتأدب ، ولـهْو دهمائها الصخّاب وفيالقها الرومانية وفلسفتها الأغريقية . وعندما غزا الشيب رؤوس اصدقاء المتألم وتلاميذه ، وأمسى أخوه رئيساً لجماعتهم في القدس ، وضعوا معاً ، من الروايات والقصص والاحاديث الشائعة بين طوائفهم الصغيرة ، سيرة شخصية المسيح ، وباسلوب جذاب باستهوائه الباطني الى درجة ابدع معها شكل عرض خاص به ، ولا تمتلك الحضارات

الكلاسيكية والعربية مثيلا له – وأعني بهذا – الانجيل. فالمسيحية هي الدين الواحد في تاريخ العالم الذي اصبح فيه مصير إنسان الحاضر الفوري شعاراً ومركز ثقل لكامل الخليقة .

وفي تلك الايام انتاب العالم الارامي طولاً وعرضاً انفعـــال غريب ومشابه للانفعال الذي خبره العـــالم الجرماني قرابة عام ١٠٠٠ . فالنفس المجوسية قـــد استيقظت. والجوهر الذي كان يكمن في الاديان النبوية كأنه هاجس او اختلاج، وعبر عن نفسه في زمن الاسكندر بخطوط ميتافيزيقية عريضة ، بلغ الآن مرحلة الاكتمال . وقد ايقظ هـــذا الاكتمال ، وبشدة لا توصف ، الشعور البدائي بالخوف . فولادة « الأنا » وقلق العالم المنطبق عليها ، هي احد الاسرار النهائية للجنس البشري والحياة المتحركة بصورة عامة . فهناك يقف امام الكون الاصغر كون اكبر منفسح وسيع مُرهب قهّار، وإنه لمهواة من اجنبي غريب ، ووجود يبهر البصر ، ونشاط يرعب « الانا » الصغيرة المتوحدة فيعيدها داخل ذاتهـــا . فالبالغ سن الرشد لا يخبر حتى في احلك الساعات من حياته رهبة او خوفـــاً ، كالخوف الذي يركب أحياناً الطفل في أزمة اليقظة .

غلّف هـذا القلق المبيت الحضـارة الجديدة بجلبابه الرهيب . فأخـــذت العيون ، في مطلع صباح الشعور المجوسي بالعالم هذا ، هذا الشعور الهيّاب المتردد والجاهل بذاته ، ترى ان نهاية العالم امست وشيكة التحقق والوقوع . وهـذا هو أول فكر يسلك بكل حضـارة حتى اليوم الى معرفة ذاتهـــا ولم ترتعد سوى النفوس الأضحل امام الرؤى والعجـائب واللمحـــات الى باطن الاشياء . وقـد اصبح الناس الآن يعيشون ويفكرون فقط وفق نهج يتـــألف من صور وحي ورؤى . وامست الواقعة مظهـراً . وأخذ الواحد يحدث الآخر بغموض وإبهام عن رؤى غريبة مرعبة ، وتُستقرأ من نصوص مُقنعة غـامضة ، وتُتقبّل فوراً بقناعة باطنية فورية . وكانت هذه الكتابات تنتقل من طائفة الى طـــائفة ، ومن قريـــة الى قرية ، ومن المستحيل علينا ان نخصّ بها ديناً واحـداً مميـــزاً وخاصاً . فلونها فارسي وكلداني ويهودي ، لكنها امتصت جميع ما كان يدور في

أذهان الناس . فالكتب القانونية الدينية هي كتب قومية ، بينما ان آداب الرؤى والوحي هي آداب اممية بكل ما لهذه الكلمة من معنى ومفهوم . فهذه الآداب قائمة وموجودة وتبدو كأن لا مؤلف لها او واضع . ومحتواها وجراح مائع ـ فهي تُفهم اليوم على هذا الشكل ، وفي الغد على شكل مغاير له . ولكن هذا لا يعني أنها شعر ـ فهي ليست شعراً . فهذه الابداعات تماثل الاشكال المسرعة لسقائف الكاتدرائيات الرومانسكية في فرنسا ، والتي هي ايضاً ليست فنا ، بل إنها رُعب مُحوّل الى حجر . وكل انسان يعرف اولئك الملائكة والشياطين ويدري بصعود الجوهر الالهي الى السماء وهبوطه الى الجحيم ، ويعلم بآدم الثاني وبمبعوث الله ، وبالفادي للايام الاخيرة ، وبابن الانسان ، وبالمدينة الخالدة . وبالدينونة الاخيرة . فلقد كان من الممكن ان تُعرّف وتناقش العقائد المختلفة في المدُن الاجنبية ومن قبل من يحتلون المراكز العالية في الكهنوت اليهودي او الفارسي ، مناقشة حسية ، ولكن هنا بين طبقات جماهير الشعب الدنيا ، لم يكن موجوداً ، من الوجهة العملية ، دين مُعين ، بل كان يوجد تَديُّن مجوسي عام ملأ جميع النفوس ، وربط ذاته الى ومضات من رؤى من كل أصل يمكن ان يتصوره الخيال . فاليوم الاخير وشيك . والناس ينتظرونه مترقبين وعالمين بأن الـ « هو » الذي تتحدث عنه جميع الرؤى سيتجلى ويظهر . فأطلّ الانبياء وخرجوا الى ميدان الوجود ، وتزايد اكثر فأكثر عدد الطوائف الجديدة وتألفت جماعات كانت تؤمن بأنفسها بأنها اما وجدت فهماً افضل للدين التقليدي ، وإما وجدت الدين الحقيقي . ونشأ في هذا الزمن المُدهش بقلقه المتزايد ابداً ، وفي الاعوام المقاربة لعام ولادة المسيح ، اقول نشأ الى جانب عدد لا نهاية له من طوائف وملل ، دين فِداء جديد ، ألا وهو دين المندين Mandaean ، والذي لانعرف اي شيء عن مؤسسه او اصوله . فدين المندين ، بالرغم من البغضاء التي يكنها لمذهب منطقة اليهودية ، مذهب القدس ، وتفضيله الاكيد لفكرة الفداء الفارسية ، فإن هذا الدين يبدو انه كان من المعتقدات الشعبية اليهودية السورية .

وكل يوم يطل علينا يزودنا بنبذ من وثائق رائعة لهذا الدين ، وهذه الوثائق

تُرينا بصورة دائماً الـ « هو » إبن الانسان الفـــادي الذي أرسل به ليغوص في الاعماق ، والذي يجب هو نفسه ان يُفتدى، وهو هدف ترقب الناس ومطمحهم. فالاب في كتاب يوحنا ، هذا الاب المترفـّع عالياً في بيت الاكتال ، والمُستَحمّ بالنور يقول لابنه الوحيد : « يا بُني كن لي سفيراً ! واذهب الى عـالم الديجور ، حيث لايضيء فيه شعاع واحد من نور . » ويُنبه الابن أباه بقوله : « يا أبت بماذا اخطأت حتى ترسل بي الى الظلمات ؟ « ومن ثم يسترسل : » بدون خطيئة أهبط، وليس هناك من خطيئة او عيب فيَّ . ونحن نرى هنـــا طوابع جميع الاديان النبوية العظمى ، وكامل لمحات الرؤى التي جمعت فيا بعد في اسفار الرؤى ، هي الاسس والدعائم (ـ لهذا الدين المترجم) . ولم تصل نفثة واحدة من نفثـــات الفكر والشعور الكلاسيكيين هذا العالم المجوسي السُفلي (الطبقات الشعبية الدنيا ـ المترجم) .

وليس هناك من شك في اننا قد فقدنا بدايات هذا الدين الجديد فقـــداناً لا إسترداد لها بعده .

ولكن تطالعنا شخصية تاريخية واحدة ومذهلة في امتيازها من دين المتدين ، شخصية مأساوية القصد والنهاية كالمسيح نفسه ـ انها يوحنا المعمدان . فهو وقد تحرر تقريباً من ربقة مذهب منطقة اليهودية ، انطلق بنفس تفيض بكراهية روح القدس ككراهية النفس الروسية البدائية لبطرسبورغ الملك ، إنطلق لينذر بنهاية العالم ويبشر بقدوم بارناشا Barnacha ، ابن الانسان ، الذي لم يعد مدار حنين اليهود الطويل الى المسيح القومي ، بل اصبح حامل السنة اللهب التي ستـأتي على العالم . الى هذا الانسان جاء المسيح واصبح تلميذه ، حيث كان في الثلاثين من عمره عندما استيقظ على رسالته . ومن هذه السن فصاعداً ملأت الرؤى واعلان الالهي ، وخاصة عالم فكر الدين « المتديني » كل خلية في كينونته . امـا العالم الآخر الذي كان مترامياً من حوله ، فكان في نظره عالمـاً كاذباً مزوراً أجنبياً وعاطلاً من كل معنى . وايمانه بأنه الـ « هو » الذي جاء ليضع نهاية لهذه الحقيقة

اللاحقيقية ، كان يمثل قناعته الرائعة البديعة ، وهكذا انطلق كمعلم يوحنا للكون نذيراً. ونحن لانزال حتى الآن نرى في اقدم الاناجيل التي أدخلت على العهد الجديد، ومضات من مرحلة حياة المسيح هذه ، حيث لم يكن بشورة وعيه غير نبي .

ولكن كانت هناك مُحَيِّطَة راوده فيها خاطر ثم اصبح قناعة وطيدة وسيخ قناعة « بأنك انت نفسك « الـ. هو » . فضمت جوانحه هـذه القناعة وحافظت عليها سراً ، بالكاد اعترفت به حتى له ، وفقط فيا بعد أطلع أقرب اصدقـــائه ورفاقه على ما هو قانع به ومؤمن ، وهكذا شارك هؤلاء ، بكل هدوء، المسيح رسالته المباركة ، وأبقوها بعيدة عن كل دعاية واعلان ، حتى تجرأوا اخيراً على الكشف عن حقائقها امـام انظار كل العالم بواسطة رحلتهم الخطيرة الى القدس . وإذا كان هناك من سحابة تغطي كامل نقاء فكره وشرفه ، فـإنه ذاك الذي كان يراوده بين فينة واخرى في عما إذا كان قد خدع ذاته وضللهـا ، وهو شك تحدث عنه تلامذته فيا بعد بجلاء ووضوح تامين . وعاد المسيح الى بلدتـــه وسارع اليه أهل القرية زرافات زرافات ، وتعرفوا فيه على النجّار السابق الذي ترك عمـــله فاستشاطوا غضباً وبدت عائلته ـ امه واخوته واخواته ـ خجولـين به وكادوا يسجنونه . وعندما سُلطت عليه جميع هذه الانظار المألوفة لديه اعـــترته حيرة وارتباك وأحس بالقوة السحرية تهجره وتتخلى عنـــه (انجيل مرقص أصحاح خمسة) . وفي حديقة الجثمانية اختلط الشك بالرعب بما هو آت داخل نفسه ، وحتى وهو على خشبة الصليب سمعه الناس يصرخ معاتباً الله لتخليه عنه .

وحتى هذه الساعات الأخيرة عاشها المسيح عيشاً مطلقاً داخل شكل عالم رؤياه هذا العالم الذي كان وحده حقيقياً دائماً في نظر المسيح . وما كان في نظر الحرس الروماني تحت صليبه واقعاً وحقيقياً ،كان في نظره موضوع عجيبة معدومة الحيلة ، ووهماً قد يتلاشى في كل لحظة ويمسي عدماً دون تحذير او انذار . فالمسيح كان يمتلك النفس النقية غير المزيفة ، نفس الارض التي لاتقوم على تربتها بلدة او مدينة. فحياة المدن وروحها كانتا أمرين غريبين عنه غرابة كلية . وهل رأى المسيح حقاً

القدس شبه الكلاسيكية ، التي دخلها ممتطياً أتانه بوصفه ابن الانسان وهـــل فهم طبيعتها التاريخية ؟ وهذا هو الذي يهز مشاعرنا ويأخذ بمجامع افئدتنـــا في الايام الاخيرة للمسيح – تصادم الوقائع بحقائق عالمين لن يفهم ابداً احدهما الآخر ، وعدم إدراك المسيح المطلق لما كان يجري من حوله .

وهكذا انطلق يبشر برسالته دون تحفظ في طول البلاد وعرضها . ولكن هذه البلاد كانت فلسطين . وهو ولد في الامبراطورية الكلاسيكية ، وعـــاش تحت رقابة أعين مذهب منطقة اليهودية في القدس ، وعندمـــا تطلعت نفسه ، وهي لتوّها مدركة الوحي الاليم لرسالتها ، حولما جوبهت بواقعي الدولة الرومـــانية والفريسية . ونفور المسيح واشمئزازه من المثل الاعلى المتصلب الاناني للفريسية ، هذا الاشمئزاز الذي يشاركه فيه جميع المتدينين ، ولا شك الفلاحين اليهود ايضاً في الشرق المنفسح الوسيع ، إنما هو الطابع العام لجميع احاديثه وعظـاته بداية وختاماً . وقد اغضبه ان يرى ان هذا الفقر ، من الصيغ الباردة القلب المتحجرة الاحاسيس ، هو الطريق الوحيد الى الخلاص . وغضبه هذا هو حتى هذا الحد ايضاً نوع آخر من ورع كانت قناعته تؤكده ضد المنطق التلمودي . وكان الموضوع حتى الآن يتمثل في القانون ومناهضته للانبياء . ولكن عندمـــا اقتيد المسيح وجيء به امام بيلاطوس ، عندئذٍ أصبح عالم الحقائق وجهاً لوجه وعالم الوقائع ، وكانت جوانح هذين العالمين تصخب بعداوة حقود لا ترحم يكنهـــا كل منهما للآخر . وانه والحق لمشهد مرعب رهيب بوضوحه ، مشهد ساحق ماحق برمزيته ، مشهد لم يشهد له التاريخ من قبل ومن بعـد مثيلاً له . فالنزاع الذي يكمن على جذور كل حياة متحركة منذ بدايتها حتى نهايتها ، بمقتضى كينونتهـــا بالذات ، وبمقتضى امتلاكها وجوداً ودراية معاً ، قد اتخذ هنا اسمى شكل ، يمكن إدراكه اطلاقاً ، للمأساة الانسانية . ففي سؤال الحاكم الروماني : « مـــا هي الحقيقة ؟» (ما هو الحق ؟) – وهاتان الكلمتان هما وحدهما الصافيتان عنصراً في كل كتاب العهد الجديد الإغريقي – اقول في هذا السؤال يكمن كامـل مغزى التاريخ ،

وشرعية العمل المطلقة ، وهيبة الدولة ومكانة الحرب والدم وجميع جبروت النجاح والاعتزاز بالاهلية السامية الرفيعة الشأن . ولم يكن حقاً فم المسيح ، بل كان شعوره الصامت هو الذي اجاب على سؤال بيلاطوس بسؤال آخر حاسم في كل اشياء الدين وأموره ، الا ما هو : ما هو الواقع ؟ فالواقع كان كل شيء في نظر بيلاطوس ، لكنه لم يكن شيئاً في نظر المسيح . ولو كان دين المسيح بالفعل أي شيء من تدين مجرد لما كان بمستطاعه ابداً ان يقف في وجه التاريخ وقواه ، او ان يجلس ليقضي في الحياة الفعالة قضاءه ، واذا ما فعل ذلك فإنه لا يعود دينا بل يُخضع ذاته لروح التاريخ .

ان مملكتي ليست من هذا العالم . هذه هي الكلمة التي لا تحتاج الى صقل او شرح او تعليق ، والتي يتوجب على كل انسان ان يضبط المجرى الذي وضعته فيه الولادة والطبيعة . فلا يوجد هناك حلّ وسط صادق وشريف بين كائن يستخدم شعوره الواعي ، وبين شعور واع يخضع الكائن له ، ولا بين النبض والتوتر ، ولا بين الدم والذهن ، ولا بين التاريخ والطبيعة ، ولا بين السياسة والدين فهنا على المرء ان يختار فقط هذا او ذاك منهما . فرجل الدولة قد يكون عميق التدين متين الدين ، والانسان التقي الورع يستطيع ان يموت في سبيل بلاده ـ ولكن يتوجب عليهما ان يعرف كل منهما في اي جانب يقف حقا . فالسياسي بالفطرة يحتقر عملية التفكير الباطني للايدلوجي والفيلسوف الاخلاقي في عالم الواقعة ـ واحتقاره هذا في محله . وكل طموح وتنال في عالم التاريخ هما خطيئتان في نظر المؤمن ولا قيمة دائمة لهما ـ وهذا ايضا مصيب في رأيه . والحاكم الذي يرغب في ان يُحسّن الدين باتجاه أغراض سياسية ومقاصد عملية هو اخرق الرأي مجنون . والواعظ الاجتماعي الذي يحاول ان يدخل الحقيقة والبرّ والسلام والغفران في عالم الواقع هو مجنون ايضا . ولم يوجد حتى الآن ايمان بدّل العالم او غيّره ، كما لا توجد واقعة تستطيع ان تفند الايمان او تدحضه . وليس هناك من جسر يربط بين الزمان الاتجاهي والابدية المعدومة الزمان ، او بين مجرى التاريخ وبين وجود

نظام الهي العالم حيث تشير في تركيبه كلمة « العناية الالهيـــة » او « الناموس » الى شكل السببية (العلية) . وهذا هو المعنى النهائي لتلك اللحظة التي جعلت المسيح وبيلاطوس يقفان وجها لوجه . ففي العالم الواحد تسبب العامل التاريخي ، الروماني . بصلب الجليلي ـ وهذا كان مصيره . وفي العالم الاخر كان محكوما على رومـــا بالدمار والهلاك ، واصبح الصليب عهداً للفداء ـ هـــذه كانت « ارادة الله » .

ان الدين هو ميتافيزيقا وليس اي شيء آخر Credo quia absurdum — وهذه الميتافيزيقا ليست بميتافيزيقا المعرفة والمنافسة والدليل (التي هي جميعاً مجرد فلسفة أو تعلم) بل انها ميتافيزيقا قد عيشت وخبرت ـ أي انها غير قابلة للتفكير بوصفها قناعة ، وبوصف ما فوق الطبيعي واقعـــة ، والحياة وجوداً في عالم ليس واقعياً بل حقيقي . ولم يعش المسيح لحظة واحدة في اي عالم آخر غير هذا العالم . ولم يكن هو داعية اخلاقية ، فان يرى المرء في الدعوة الى الاخلاق الهدف النهائي للدين ، يعني ان يكون مثل هذا جاهلاً بماهية الدين . فالدعوة الى الاخلاق هي عصر التنوير في القرن التاسع عشر ، وهي دعوة مادية فيها شفقة واحسان وكرم . اما أن نعزو مقاصد واهدافاً اجتماعية الى المسيح ، فهذا كفر وتجديف .

وما كان يتفوه به احياناً من كلمات ذات نوع من طابع اجتماعي ، فانهـــا في حالة صحة نسبتها اليه ، وليس مجرد عزوها اليه ، هي كلمات تتجه فقط نحو تهذيب وتثقيف وترقية . وهذه لا تحتوي اي شيء مهما كان نوعه من العقيدة الجديدة ، وتشتمل على امثلة عامة كانت من النوع الشائع والمألوف في ذاك العصر . وتعاليمه لم تكن اعلاناً عن شيء ما عدا عن هذه الاشياء الاخيرة التي كانت صورها تملأ دوماً عليه نفسه ، كفجر الدورة التاريخيـــة الجديدة Age ، وظهور السفراء السماويين ، والدينونة الاخيرة ، وسماء وارض جديدتين . ولم يكن لدى المسيح اي مفهوم آخر غير هذه للدين ، كما وأنه لا يوجد غيرها في اية حقبة تاريخيـــة يسودها شعور عميق . فالدين هو ميتافيزيقا اولاً واخيراً متنا وحاشية ، وهو محبة

عالم آخر ، ودراية او معرفة داخل عالم تضيء فيه دلائل الحواس صدر الصورة فقط . وهو الحياة داخـــل ومع الشديد الحساسية والمرهف الشعور . وعندما تكون طاقـة هذه الدراية ، او حتى المقدرة على الايمان بوجودها غير موجودة فعندئذ يكون الدين الحقيقي قد بلغ نهايته . « ان مملكتي ليست من هذا العالم » والمرء الذي يستطيع ان يحملق داخل الاعماق التي تنيرها هذه الومضة هو وحده القادر على ادراك الاصوات التي تتصاعد منها . وفي حقبات المدنية المتأخرة زمناً ، حيث لم يعد من المستطاع النظر الى داخــــل الاعماق ، قام الناس بقلب فضلات التدين على العالم الخارجي واستبدل الدين بالمذاهب الانسانيـــة Humanities ، والميتافيزيقيا بالدعوة الى الاخلاق والآداب الاجتماعية .

غير أننا نجـــد في المسيح عكس هذا تماماً فهو القائل : « اعطوا ما لقيصر لقيصر » وهذا يعني « وفقوا بين انفسكم وقوى عالم الواقع ، وتمسكوا بالصبر ، وتألموا ولا تسألوا مما اذا كان هـــذا « عدلاً » . فالمهم المهم هو خلاص النفس وحده . اما قوله : تأملوا زنابق الحقل ! » فهو يعني : لا تهتموا بالثراء والفقر ، فكلاهمـــا يقيدان النفس ويشدانها الى الاهتمام بأمور هذا العالم . وقوله : « لا يستطيع الانسان أن يخدم الله ومامون معاً » ـ والمسيح يعني بمامون كامل الواقع . وانه لمن الضحالة ، لا بل من الجبن أن نجرد بالمناقشة والجدل الاقوال الانفـــة الذكر من مغزاها الأعظم . والمسيح كان لا شك لن يشعر بأي فرق اطلاقاً بين أن يعمل الانسان لزيادة ثروته او ان يعمل من أجل تأمين الرخـاء لكل فرد . فعندما ارعبته الثروة ، وعندما رفضت الطائفة البدائية في القدس ـ وهذه كانت تمثل فصيلة ذات نظام صارم وليست نادياً اشتراكياً ـ اقول رفضت الملكية العامة ، فان العاطفة التي حركتها نحو هذا الرفض كانت العاطفة المناهضة تماماً للعاطفة « الاشتراكية » فقناعة هذه الطائفة لم تكن منصبة على أنـ الوضع المنظور للاشياء هو كل شيء ، بل على أنه لا شيء اطلاقاً . وهي لم ترتكز على الرغبة في الهناء والرخاء في هذا العالم ، لكنها ارتكزت الى احتقاره بلا تحفظ او

شروط . نعم هناك شيء ما يجب أن يوجد دائماً للانطلاق ضده ، ولاحباط الثراء الدنيوي ، وهنا نعود ثانيــة الى التباين القائم بين تولستوي ودستوفسكي ، فتولستوي ربيب المدينة والغربي ، لم ير في المسيح سوى المصلح الاجتماعي ونظراً لعجزه الميتافيزيقي – وهو بهــذا كالغرب كله الذي لا يستطيع أن يفكر الا بالتوزيع وليس بالنبذ او الانكار ابداً – قد ارتفع بالمسيحية البدائية الى مرتبة الثورة الاجتماعية . اما دستوفسكي الذي كان فقيراً ، لكنه كان في ساعات معينة قديساً تقريبا ، فانـــه لم يفكر ابداً بالاصلاحات الاجتماعية – فما هي الفائدة المتوقعة لنفس الانسان من الغاء الملكية ؟

- ٧ -

وبينما كان تلاميذ المسيح على تلك الحال من الذهول الصاعق الناجم عن النتائج المرعبة لرحلة القدس ، انتشرت في وسطهم ، بعد ايام قليلة اخبار قيامته وتجليه . وتأثير هذه الانباء على نفوس كهذه وفي اوقات كتلك ، لا يمكن ان يكون لها اكثر من جزء من صدى في احساسات جنس بشري متأخر زمنـاً . وقد عنت هذه الانباء التحقق الفعلي لجميع رؤى ذاك الربيع الحضاري المجوسي ووحيه ، – وعي نهاية الدهر الحاضر مطبوعة بصعود الفادي المُفْتَدى ، آدم الثاني ساأوشيانت Saoshyant ، اخنوخ ، بارناشا Barnasha ، او اي اسم انسان آخر يتصل به « الـ هو » في مملكة النور ، بملكة الآب . وبهـذا اصبح المستقبل المُتَنَبأ به ، ودهر العالم الجديد ، و«مملكة السماء» موجودة فوراً . وشعروا بأن نفوسهم بلغت النقطة الحاسمة في تاريخ الفداء .

وهذه القناعة حولت شكل نظرة هذه الدوائر الصغيرة الى العـالم تحويلاً كلياً تاماً . وانسحبت تعاليمه التي تدفقت بهـا طبيعته الوديعة النبيلة على ذاك الشكل البديع الرائع ، الى مؤخرة الصورة ، واحتلت محلها التعاليم الصادرة « عنه » – كما

وضغط شعوره الباطني بالعـــلاقة بين الله والانسان ، وبإحساسه بالمعنى السامي للأزمنة ضغطاً مستنفداً وعرّفت بكلمة محبة ـ . وهو ، بوصفه القائم من بين الاموات ، قد اصبح في نظر تلاميذه شخصية جديدة في الرؤيا ومن الرؤيا (وما هو اكثر من ذلك) أهم شخصية فيها وآخرها . ولكن بهذا اتخـــذت صورتهم للمستقبل شكلاً بوصفه صورة لذاكرة . والآن كان هذا شيئاً ما ذا اهمية جاسمة تماماً ، شيئاً ما لم يسمح به عالم الفكر المجوسي ابداً ـ انه نقل واقع عيش ونُخبر الى مستوى القصة السامية نفسها . فانطلق اليهود (ومن بينهم الشاب بولس) والمندين (ومن بينهم تلامذة يوحنا المعمدان) يناهضون ويكافحون بانفعال هذه القصة ، وجعلوا من يسوع « مسيحاً مزوراً » كذاك الذي تحدثت عنه النصوص الفارسية الابكر زمناً . فالمسيح « الـ هو » في نظرهم كان لايزال مجيئه مترقباً من بعيد ، اما في نظر الطائفة فانه « الـ هو » قد جاء ، أفلم يروه وعاشوا معه ؟ اما نحن فيتوجب علينا ان نطرق هذا المفهوم دونما تحفظ ، وذلك اذا ما اردنا ادراك التفوق الهائل الذي كان يحظى به في تلك الايام . فهنا نرى بدلاً من لمحة غير واثقة الى البعــــد ، حاضراً ملزما مرغماً ، وبدلا من الترقب المرعب لقناعة محررة ، ونشاهد بدلا من اسطورة مصيراً انسانيا عيش وشورك فيه ـ حقا ان هذه البشائر سارة تلك التي جرى الاعلان عنها .

ولكن سارة لمن ؟ فحتى في الايام الاوائل انبعثت القضية التي حددت كامل مصير الاعلان الالهي الجديد . فيسوع واصدقاؤه كانوا يهوداً بالولادة ، ولكنهم لم يكونوا ينتمون الى منطقة اليهودية . وهنا في القدس كان الناس يترقبون مسيحا ينطبق على ماجاء في كتبهم المقدسة مسيحاً مقدراً لدأن يظهر للشعب اليهودي بمفهومه العشائري القديم ، ولهذا الشعب وحده . لكن بقية العالم الآرامي كلها كانت تنتظر مخلص العالم ، الفادي ، وابن الانسان ، شخصية جميع آداب الرؤى ، أكانت هذه الآداب قد كتبت بمصطلحات يهودية أوفارسية او كلدانية أم مندية . فموت المسيح وقيامته كانا من وجهة نظر واحدة يمثلان حدثين محليين فقط ، لكنهما يمثلان من وجهة نظر

اخرى تبدلا لعالم . وذلك لان اليهود كانوا في كل مكان آخر ، غير القدس ، امة مجوسية لا وطن لها او وحدة مولد ، اما القدس فقد استمسكت بشدة بالفكرة العشائرية . والصراع لم يكن يدور حول التبشير بين اليهود : او « التبشير بين الامين » فاسبابه قد ذهبت الى احمق من هذا بكثير . وقد كان اصلاً لكلمة « رسالة » هنا معنى مزدوج . فمن وجهة نظر منطقة اليهودية لم يكن هناك أصلاً من حاجة لتجنيد مسيحيين ـ بل على العكس من ذلك تماماً إذ ان هذا الامر يتناقض وفكرة ـ المسيح . وكلمتا «عشيرة» و «رسالة» هما بالتبادل كلمتان مطلقتان في مضيهما . فما كان على ابناء الشعب المختار ، وخاصة الكهنة منهم ، الا ان يقنعوا انفسهم بأن ما كانوا يتوقون اليه قد تحقق الآن . ولكن ما عناه البعث للأمة المجوسية المرتكزة على الاجماع او طائفة الشعور فكان يمثل حقيقة كاملة مؤكدة ، والاجماع على موضوع هذه الحقيقة وضع مبدأ الامة الحقيقية الذي كان من المتوجب عليه بالضرورة ان يمتد ويتوسع الى مدى يستوعب معه جميع المبادىء الاقدم وغير الكاملة مفهوماً « الراعي وخرافه » كان الصيغة لامة العالم الجديد . فأمة الفادي كانت تنطبق على الجنس البشري ، ولذلك فعندما نمسح التاريخ المبكر لهذه الحضارات بنظراتنا ، نشاهد ان المشادات التي كانت تجري في مجمع الرسل ، قد قررت قبل خمسماية عام بواسطة الوقائع . فيهودية ما بعد السبي (باستثناء يهودية منطقة اليهودية المستقلة والقائمة بذاتها) قد جندت ، بصورة واسعة ، كما جند الفرس والكلدان وآخرون غيرهم ، اتباعاً من بين الوثنيين ابتداء من تركستان حتى قلب افريقيا ، وذلك بغض النظر عن الوطن او الاصل . وعلى هذه الحقيقة لا يختصم اثنان ولا تتناطح عنزتان . فلم يبق ابداً ان راود هذه الطائفة اي خاطر يدعوها لتكون أي شيء آخر غير ما كانته فعلاً . وهي نفسها كانت نتيجة لوجود قومي في حالة من تشتت وانحلال . ولقد كتبت آداب الرؤى ، باسلوب مضاد تماماً لاسلوب النصوص اليهودية القديمة ـ هذه النصوص التي كانت كنزاً يصان ويحافظ عليه بحذر وعناية ، وقد حفظ الـ Halakha الربيون ـ الحاخاميون وصانوها بأنفسهم ـ اقول كتبت آداب

الرؤى باسلوب يستهدف ايصالها الى كل النفوس كي توقظها ، وكي تصيب مسكنا من كل نفس .

ومن السهل علينا ان نرى اياً من هذه المفاهيم كان مفهوم اقدم من للمسيح من اصدقاء ، وذلك لأن هؤلاء قد اجتمعوا بوصفهم طائفة الأيام الاخيرة (العالم — المترجم) في القدس وكانوا يترددون على الهيكل . فالنسبة الى هؤلاء البسطاء من القوم ، وبينهم اخوة المسيح الذين سبق لهم ان رفضوه فيا مضى ، وأمه التي أصبحت تؤمن الآن بابنها الذي أعدم — كانت قوة تقليد منطقة اليهودية أشد حتى من روح الرؤى ، او الاعلان الإلهي . وقد فشل هؤلاء في اقناع اليهود (بالرغم من أنه قد تقاطر عليهم حتى الفريسيون في الايام الاوائل) وهكذا بقوا ملة من الملل العديدة داخل مذهب منطقة اليهودية ، ونستطيع بكل اطمئنان ان نصف نتاجهم « اعتراف بطرس » على انه تأكيد واضح على كونهم اليهود الحقيقيين ، وكون السنيدريون Synedrion يهوداً مزورين .

وقدر لهذه الدائرة أن كان النسيان مصيراً نهائياً لها ، اذ سرعان ماتجاوب كامل عالم الفكر والشعور المجوسي وتعاليم الرؤى الجديدة . وكان هناك الكثيرون من بين تلاميذ المسيح فيمابعد من الذين كانوا اكيداً مجوسيي الفكر والشعور ، ومتحررين تحرراً مطلقاً من الروح الفريسية . وكانوا قد بتوا بهدوء في موضوع الرسالة قبل أن يعتنق بولس المسيحية بزمن طويل . فعدم التبشير والتوقف عن الحياة كانا في نظرهم سواء بسواء ، وهكذا سرعان ما تجمعوا في كل مكان ، من دجلة حتى التيبر ، في دوائر صغيرة ، كانت شخصية المسيح تندمج ، في كل عرض يمكن أن يدركه عقل ، وجمهرة من رؤى سالفة متقدمة . وقد نشأ من هذه خلاف جديد ، كالخلاف حول ما اذا كانت الرسالة للوثنيين ام اليهود ، ولكن هذا الخلاف الجديد كان اهم بكثير من الخلاف بين منطقة اليهودية والعالم حول مواضيع كان قد بت في امرها . فيسوع عاش في الجليل ، فهل على تعاليمه أن تتجه نحو الغرب او نحو الشرق ؟ وهل يجب ان تصبح هذه التعاليم مذهباً يسوعيا

ام نظام المخلص ؟ وهل كان عليها ان تبحث عن وفاق ووئام بينها وبين الكنيسة الفارسية ام الكنيسة التوفيقيـــة ، وكلتا الكنيستين كانتا لا تزالان في سياق التشكل ؟

هذه القضية بت فيها بولس – الشخصية العظيمة الأولى في الحركة الجديدة ، واول من كان يملك حساً لا بالحقائق وحدها بل بالوقائع ايضا . فهو بوصفـــه حاخاماً شابا يتحدر من الغرب ، وتلميـــذاً لأحد اشهر شخصيات طائفة التاناثيم Tannaim ، فقد أقدم على اضطهاد المسيحيين بوصفهم نحلة يهودية . ومن ثم بعد يقظـــة من ذاك النوع الذي كان كثيراً ما يحدث في تلك الايام ، اتجه نحو طوائف ـ مذاهب صغيرة وعديدة في الغرب وصاغ منها كنيسة وفق اسلوبه الخاص: وهكذا نشأت منذ ذاك الحين فما بعد ، كنيستا المذهبين من وثني ومسيحي في خطين متوازيين ، تتبادلان دائما العمل حتى ارتقتا فبلغتـــا أيامبلخوس Iamblichus واثناسيوس (قرابة عام ٣٣٠) . وأمام هذا المثل الاعلى العظيم ، كان بولس بالكاد يخفي احتقاره لطوائف – يسوع في القدس . وليس هناك من شيء في العهد الجديد يزيد في وضوحه وصحته على مطلع رسالة بولس الى غلاطية ، فنشاطه يمثل فرضا اختاره هو لنفسه ، فلقد علم كيفما استحسن وبنى كيفما راق له واشتهى . واخيراً نرى بولس يعود الى القدس بعد غياب عنها امتد ١٤ عاما ، كي يرغم ، بواسطة قوة عقله الاشد ، ونجاحـه واستقلاله الفعال عن رفاق يسوع القدامى ، اقول كي يرغم هؤلاء الرفاق على الموافقة على أن ما ابدعه بولس يحتوي على العقيدة الصحيحة . ولما كان بطرس ومريدوه ، غرباء عن الواقع ، فانهم لم يستطيعوا ان يستوعبوا ويدركوا المغزى البعيـــد المدى للمناقشة . ومنذ هذه اللحظة أمسى وجود الطائفة البدائية امراً نافلاً لا لزوم له او موجب .

كان بولس حاخاماً بعقله ، ورؤويا بشعوره . وقد اعترف بمذهب منطقـة اليهودية ، لكنه وجد فيه مجرد منطلق أولي للتطور . وهكذا نشأ دينان مجوسيان لهما نفس الكتب الدينية (أي العهد القديم) ولكن Halakha مزدوجة،

الاولى تنطلق نحو التلمود ـ وقد طورت على ايدي التانائيم في القدس ابتداء من عام ٣٠٠ فما بعد ـ والثانية وضع أسسها بولس وأكملها الاباء باتجاه الانجيـــل . ولكن بولس جمع ، بالاضافة الى ذلك ، كامل امتلاء الرؤى ، والحنين الى الخلاص اللذين كانا شائعين في هذه الميادين ، وجعل منها قناعة بالخلاص ويقيناً به ؛ وهذه القناعة كشفت فوراً عن نفسها له ، وله وحده بالقرب من دمشق .« يسوع هو الفادي وبولس هو نبيُّه » هذا هو محتوى رسالته . وهكذا فان مماثلته لمحمد بالكاد ان تكون أوثق من هذا الواقع . فبولس ومحمد لم يختلفا في طبيعة يقظتها ، ولا في ثقتها النبوية بذاتيها ، ولا في تأكيدهما التالي على الصحـــة الوحيدة غير المشروطة لشروح او تفاسير كل واحد منهما فيما يخصه منها .

ومع بولس يُطل الانسان المتمدن « وذكاؤه » ويدخل المشهد . ومع أن الاخرين قد يكونون عرفوا القدس او انطاكية ، لكنهم لم يدركوا ابداً جوهري هاتين المدينتين . فهؤلاء قد عاشوا مشدودين الى التربـــة ، قرويين ، يتألفون فقط من نفس وشعور . لكن الان ظهرت روح ترعرعت في المدن العظمى من القالب الكلاسيكي ، روح لا تستطيع أن تعيش الا في المدن ، وهي لا تفهم ريف الفلاح ولا تحترمه . فالتفاهم مع فيلو كان امراً ممكناً ، أما مع بطرس فهو امر مستحيل . وكان بولس اول من رأى في خبرة قيامـــة المسيح معضلة او مشكلة . فالرعب الذاهل ، رعب الريفي الشاب ، تحول في عقل بولس الى صداع يدور بين مبادىء روحيـــة . ويا له من تباين بين الصداع في حديقة الجثمانية وبين ساعة دمشق ! بين الطفل والرجل ، بين آلام النفس والقرار العقلاني ، بين التفاني حتى الموت والعزم على تبديل المعسكرات ! لقد بدأ بولس نشاطه برؤية الخطر الكامن في الملة اليهوديـــة (المسيحية البدائية ـ المترجم) والمهدد لفريسية القدس ، وفجأة نراه الآن يدرك أن الناصريين « هم على حق » ـ وهذه شبه جمـــلة لا يمكن ابداً ان تتمتم بها شفتا يسوع ـ ثم تبنى قضية المسيحية ضد مذهب منطقة اليهودية ، وبهذا جعل ذاك الذي كانت فيما مضى تحتويه معرفـــة

الخبرة ، كمية عقلانية . ولكن بولس بجعله هذه القضية كمية عقلانية دفع دون أن يدري بالمسيحية الى القرب من قوى عقلانيـة اخرى ، ألا وهي مدن الغرب . ففي دائرة الرؤيا المجردة لا يوجد ابداً « عقل » او « ذهن » . فلم يكن بامكان الرفاق القدامى ان يفهموه اقل فهم ، ولا شك انهم كانوا يحملقون فيه ، متفجعين مرتابين ، وهو يخاطبهم . فصورة المسيح الحية (التي لم يرها بولس ابداً) بهتت الوانها من جراء هذا الضوء اللامع الصارم ، ضوء المفاهيم والفرضيات . ومنـذ الآن فصاعداً ذوت الذاكرة فأمست منهاجاً لفلسفة كلاميـــة (لاهوتية — المترجم) . لكنه كان لبولس شعور دقيق ومصيب بالموطن الحقيقي لافكاره . فجميـع رحلاته التبشيرية يممت شطر الغرب ، اما الشرق فتجاهله . وهو لم يترك ابداً مناطق المدن الكلاسيكية . فلماذا ذهب الى روما والى كورنثيا ولم يذهب الى إدبسا Eddisa أو تستيفون ؟ ولماذا لم يعمل الا داخل المدن ولم ينتقل ابداً من قرية الى قرية ؟

ان تطور الاشياء على هذا الشكل تم بسبب بولس وحده . فلم تكن لمشاعر كل الآخرين اية قيمة امام حيويته العملية ، وهكذا تبنت الكنيسة الشابة النزعة الغربية بصورة حاسمة ، وعلى درجة من حسم جعلها تصف فيما بعـد ما تبقى من الوثنيين بأنهم «وثنيون» قرويون . وهكذا نشأ خطر هائل ، لولا الشباب وزخم ربيعي لما تمكنت الكنيسة النامية من رده . فعالم الفلاح التابع للمدن الكلاسيكية استمسك بالكنيسة بكلتا يديه ، وعض عليها بالنواجذ ، ولا تزال علامات تمسكه بها بادية للعيان حتى هذا اليوم . ولكن كم كانت هذه بعيدة عن جوهر المسيح الذي امضى طيلة حياته مشدوداً الى الريف والريفيين ! فالتشكل الكاذب الذي وُلد ، خلاله لم يلاحظه او يراه ، ونفسه نقيـــة صافية من اقل آثاره وأدناها . والآن يأتي جيل بعده ، ولربما جاء وأمه كانت لا تزال آنذاك على قيد الحياة ، جيل نما من موتـــه — المسيح — فأصبح مركزه هدفاً اشتقاقياً لذاك التشكل الكاذب . وهكذا سرعان ما اصبحت المدنية الكلاسيكية المسرح الوحيـــد

المتطور الطقوسي والدغماتي . اما الطائفة فانها لم تمتد نحو الشرق سوى خلسة وغير متطفلة . وكان يوجد هناك قرابة عام ١٠٠ مسيحيون ماوراء نهر دجلة ،ولكنهم فيما يتعلق بتطور الكنيسة ، كانوا، لربما ومعتقداتهم، بمثابة غير الموجودين تقريباً .

إذن فإن ما خرج من المحيطين ببولس ، احاطة السوار بالمعصم ، كان ابداعاً ثانياً ، لكن هذا الابداع كان ، اصلاً ، هو الذي حدد شكل الكنيسة الجديدة وعرّفه . لقد كانت شخصية يسوع وقصته تستغيثان بصوت عال مطالبتين بأن تُصاغا في قالب شعري، ومع هذا فإن الفضل لوجود الاناجيل يعود كله الى شخص واحد فقط الا وهو مرقص . فكل ما كان متوفراً امام بولس ومرقص قبـــل وضع الاناجيل يعود على شكلها المألوف اليوم ، إنما هو تقليد ثابت لطائفة ، وكان « الانجيل » مجرد اقوال متسلسلة متفشية تدعمها حواش وتعليقات لا شكل لها او قيمة ، كتبت بالآرامية واليونانية ، لكنها غير منظمة بأي شكل من الاشكال . وبالطبع فإن وثائق خطيرة كانت ستظهر ، في كل حال ، الى الوجود في وقت او آخر ، لكن شكلها الطبيعي بوصفها نتاجاً للروح التي عايشت المسيح (وعايشت روح الشرق بصورة عامة) كانت ستكون مجموعة من اعراف كنيسة مسهبة لأقواله، وعُرّفت تعريفاً نهائياً باتاً و زودت بشروح وتفاسير من قبل المجامع الكنسية ، وتدور حول المجيء الثاني Adventl ولكن انجيل مرقص قد قضى قضاء نهائياً على كل محاولة ترمي إلى الانطلاق في هذا الاتجاه ، وقد كتب هذا الانجيل قرابة عام ٦٥ ميلادية وفي الوقت ذاته الذي كتبت فيه آخر الرسائل البولسية ، وباليونانية ايضاً مثل هذه الرسائل . ولربما لم يكن كاتب هذا الانجيل يعلم بأهمية انجازه الصغير هذا ، لكن هذا الانجاز قد جعل منه إحدى أعظم الشخصيات لا في المسيحية فقط، بل شخصيات الحضارات العربية بصورة عامة. لقد اختفت جميع المحاولات الاقدم، تاركة الكتابات بشكل الانجيل، او باسلوبه ، المنابع الوحيدة لموضوع يسوع (حتى ان الانجيل انتقل في معناه من الاشارة الى محتوى البشائر السارة، الى الشكل ـ شكل الانجيل ـ المترجم ـ ذاته) لقد جاء انجيل مرقص تلبية لرغبات دوائر بولس المثقفة التي

لم يسبق لاي فرد من افرادها ان سمع شخصياً احدرفاق يسوع يتحدث عنه . وهذا الانجيل هو صورة رؤيا لحياة أخذت من مسافة نائية بعيدة . فهنا قد استبدلت الخبرة المُعاشة بالرواية ، ورواية بسيطة ومستقيمة الى درجة تجعل نزعة الرؤيا تمر دون أن يلحظها احد . ومع هذا . فإن الرؤيا هي شرطه المتقدم فليست كلمات يسوع ، بل عقيدة يسوع بالشكل البولسي هي التي تؤلف جوهر انجيل مرقص ، اول كتاب مسيحي ينشأ عن ابداع بولس . ولكن سرعان ما يصبح هذا الاخير أمراً غير قابل للتفكير بغير الاستعانة بهذا الكتاب وما تلته من كتب . إذ انه سرعان ما نشأ شيء ما لم يقصده ابداً بولس الرجل المدرسي بالفطرة ، ولكنه بالرغم من هذا كان امراً محتوماً استوجبته نزعة هذا الكتاب ـ وأعني بهذا الشيء كنيسة ـ مذهب القومية المسيحية . فبينما اجتذبت طائفة المذهب التوفيقي ، تناسباً والوعي الذي بلغته لذاتها ، ما لا يعد من مذاهب المدنية القديمة ووحدتها والمذاهب المجوسية بواسطة مذهب رفيع أنعم على التركيب بالشكل المُوحّد ، كان مذهب يسوع للطوائف الغربية الاقدم زمناً قد شُرّح وهُذّب وثقف امداً بلغ مداه حداً جعله ايضاً يتألف من جمهرة اخرى مثل تلك المذاهب . فلقد نمت حول ولادة يسوع قصة طفولته هذه القصة التي لم يكن يعرف تلامذته عنها شيئاً . فهي لم تظهر الى الوجود في انجيل مرقص بعد .

والحق انه ورد فعلاً في الرؤى الفارسية أن Saoshyant ، بوصفه المخلص في الايام الاخيرة ، سيولد حسبما يقولون من عذراء . ولكنه كان للاسطورة الغربية الجديدة مغزى آخر غير هذا تماماً ، وقد نجمت عنها نتائج لا تعد أو تحصى . وذلك لأنه سرعان ما نشأت شخصية أخرى الى جانب شخصية يسوع الذي كان ابناً لتلك ، وقد تسامت هذه الشخصية فوقه ـ وأعني بها ام الله . وهذه كانت ، كابنها ، مصيراً انسانياً بسيطاً ، يختزن طاقات من جاذبية رائعة تأخذ بمجامع القلوب بذاك النوع من الأسس الذي يجعلها تتسامى عالياً فوق المئة عذراء وعذراء من الأمهات التي تحدث عنهن المذهب التوفيقي ـ كإزيس ، وتانيت Tanit وسيبل وديمتر ـ وتحلق فوق جميع غوامض الولادة والألم ، وأن تمتصهن

جميعاً . ولقـــد كانت مريم في نظر إرينيوس Irenaeus حواء الجنس البشري الجديد . وأوريجين Origin يدافع وينـافح مصراً على انهـــا استمرت عذراء . فبولادتها لله ـ الفادي ، هي التي افتدت حقاً العالم . فمريم الـ « Theotokos » (التي حملت بالله) كانت اكبر حجرعثرة للمسيحيين خارج حدود العالم الكلاسيكي ، وكان التطوير العقائدي لهذه الفكرة هو الذي دفع اليعـاقبة والنسطوريــين الى الانفصال واعادة تأسيس دين يسوع المجرد . ولكن الحضارة الفاوستية ، عندما استيقظت واحتاجت الى رمز لتعبر بواسطته عن الشعور الأولي باللانهاية في الزمان ، ولتعرض مفهومها لتعاقب الاجيال ، قد جعلت هي بدورها « الـ Mater Dolorosa » وليس الفادي المتألم ، محوراً للمسيحية الكاثوليكية الألمـانية ، في الحقبة القوطية . وبقيت شخصية هذه المرأة طيلة قرون من خصب باطنية واشعاع المُركّب كل المُركّب للشعور الفاوستي بالعالم ، وموضوعاً لكل فن وشعر وورع . وحتى هذا اليوم يحتل يسوع المرتبة الثـانية بعد « المدونا » في طقوس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وأهم من هذه في افكار الناس وقلوبهم . Synthesis

ونشأ الى جانب مذهب مريم عدد عديد من مذاهب القديسين ، والذي يزيد أكيداً على عدد مذاهب آلهة المكان في الايام الغـابرة ، وعندما لفظت اخـــيراً الكنيسة الوثنية انفاسها ، كان بمقدور الكنيسة المسيحية ان تمتص كامل الخزين من المذاهب المحلية بشكل تبجيل القديسين .

وكان دور بولس ومرقص دوراً حاسماً ايضاً في موضوع آخر له من المغزى ما يفوق كل وصف او تقدير . فنتيجة لرسالة بولس اصبحت اللغة اليونانية ، خلافاً لجميع الاحتمالات الاولية ، لغة الكنيسة ولغة آداب يونانية مقدسة ـ مقتـــدية بذلك بالانجيل الاول . وليتأمل القارىء فيما لهـــذا الأمر من معنى بطريقـة او بأخرى . فكنيسة يسوع قد فصلت فصلاً اصطناعياً عن منابعها واصولها الروحية وشدت الى جوهر أجنبي وعلماني . وبذلك فُقد كل تماس وروح اقوام البـلاد الناطقة بالآرامية . ومن هنا اصبح لكنيستي المذهب اللغة ذاتها والتقاليد المفاهيمية

نفسها ، وكتب الآداب عينها والصادرة عن المدارس اياها . اما آداب الشرق الآرامية التي هي اقل زيفاً وغشاً من تلك ـ الآداب الصادقة في مجوسيتها والتي كتب وفكّر بها بلغة يسوع ورفاقه ـ هذه الآداب بُترت بتراً ومُنعت من التعاون في حياة الكنيسة . فلم يكن بالإمكان قراءتها ، ولذلك توارت عن الانظار ، واخيرا نُسيت جملة وتفصيلاً . ومع هذا ، وبالرغم من أن الكتب الفارسية قد دونت بلغة الأفستا، واليهودية بالعبرانية ، فإن لغة المؤلفين وشارحي الكتب الدينية ومفسريها ، ولغة كامل الرؤى ، التي نشأت منها تعاليم يسوع ، واخيرا لغة علماء وجميع جامعات بلاد ما بين النهرين ـ اقول ان لغة هذه الاشياء كلها كانت الآرامية . كل هذه الامور اختفت من ميدان النظر ، ليحل محلها افلاطون وارسطو اللذين قبض عليهما مدرسيو كنيستي المذهب ، واشتغلوا عليهما متعاونين ، وأساءوا فهمهما مشتركين .

وحاول انسان آخر أن يخطو خطوة نهائية في هذا الاتجاه ، وكان هذا الرجل نداً لبولس في موهبته التنظيمية واعظم بكثير منه في ابداعه العقلاني ، ولكنه أقل منه حساسية بالامكانات والوقائع ، ولذلك فشل في تحقيق مناهجه العظيمة العقلانية ـ وهذا الشخص هو ماركيون Marcion . فهذا قد رأى فيما ابدعه بولس وفي نتائج ابداعاته مجرد أسس او قواعد لدين الخلاص الحقيقي . وهذا كان يحس بسخافة الدينين اللذين كانا في حالة من حرب مستمرة شنها الواحد منهما على الآخر ، ويمتلكان معاً الكتاب المقدس ذاته ـ وأعني به كتاب الشريعة اليهودية وتوجب حدوث هذا الامر يبدو في ايامنا هذه شيئاً لا يدركه العقل تقريباً ، لكنه كان هذا واقع الحال طيلة قرن من الزمن ـ غير أنه يتوجب علينا ان نذكر ما الذي كان يعنيه احد النصوص المقدسة في نظر كل نوع من انواع التدين المجوسي . وماركيون رأى في هذه « المؤامرة الحقيقية على الحقيقة » وأشد الاخطار المحدقة بالعقائد التي عناها يسوع ، والتي لم تتحقق حتى الآن من وجهة نظر ماركيون . فبولس النبي اعلن أن العهد القديم قد اكتمل وأنجز ـ لكن

ماركيون المؤسس قرر بأن هذا العهد قد هزم وألغي . وهكذا انطلق ليستأصل كل ما هو يهودي غير موفر في ذلك أقل التفاصيل شأناً . فماركيون كان ، منذ البداية حتى النهاية ، لا يناضل ضد اي شيء آخر ، ما عدا مذهب منطقة اليهودية . وهو ككل مؤسس أصيل أحر ، وككل حقبة دينية مبدعة ، وكزردشت ، وانبياء اسرائيل ، وأغارقة هوميروس ، فيهوه بوصفه الله - الخالق والـ Demiurge [1] بوصفه « العادل » لذلك فهو « الشر » : ويسوع بوصفه تجسيداً للإله المخلص في هذه الخليقة الشريرة ، فهو « الاجنبي الغريب » - هذا هو المبدأ الصالح . وهنا لا يمكن للبصر أن يخطيء رؤية أساس الشعور المجوسي بصورة عامة ، والفارسي منه على وجه خاص . ينتسب ماركيون لمدينة Sinope العاصمة القديمة لامبراطورية متردات ، والتي كان دينها يشار اليه باسماء ملوكها بالذات . فهنا ايضاً نشأت في القديم مذاهب مترا .

ولكن لا شك يجب ان يكون للعقيدة الجديدة كتب دينية جديدة . « فالشريعة والانبياء » الذين كانوا حتى الآن القواعد الكنسية للمسيحية بمجموعها، كانت الكتاب المقدس للاله اليهودي ، وهو في الواقع قد اعطي هذا الشكل النهائي ، وبهذا الشكل من قبل الـ Synedrion في جابنا Jabna . وهكذا فإن الكتاب الموجود لدى المسيحيين هو كتاب الشيطان ولذلك وضع ماركيون الكتاب المقدس للاله - الفادي ضد هذا الكتاب - وكتابه كان تجميعاً وتبويباً ككتابات كانت مألوفة ودارجة بين الطائفة ، بوصفها كتب تهذيب واصلاح خالية من كل المزاعم القانونية الاكليركية . وهو يضع موضع التوراة انجيلاً - واحداً وصحيحاً - حيث يبني هذا الانجيل بصورة رئيسية من الاناجيل المتنوعة المنفصلة ، التي هي في نظره فاسدة ومزوّرة . ويضع في موضع كتب الانبياء الاسرائيليين رسائل نبي يسوع الواحد الذي كان بولس .

---

(١) Demiurge : الاله التابع لله وهو الذي خلق العالم - المترجم -

وهكذا أصبح ماركيون الخالق الحقيقي للعهد الجديد . ولكن لهذا السبب بالذات يستحيل علينا ان نتجاهل تلك الشخصية الغامضة يوحنا المرتبطة به ارتباطاً وثيقاً ، والتي قد كتبت قبله بزمن طويل الانجيل « حسبما يقول يوحنا. » وكانت مقاصد هذا الكاتب لا تتعمد الاسهاب في الشرح ولا إحلال كتابه محل الاناجيل بالذات ، فما فعله ـ وفعله بوعي لا كمرقس ـ كان يستهدف خلق شيء ما جديد كل الجدة ، خلق الكتاب المقدس الاول للمسيحية ، خلق قرآن الدين الجديد . والكتاب يبرهن على ان الدين قد ادرك من قبل بوصفه شيئاً ما كاملاً ودائماً . فالفكرة القائلة بالنهاية المترقبة سريعاً للعالم ، والتي كانت تملأ كل جارحة من جوارح يسوع ، والتي شارك فيها بولس وماركيون الى حدّ ما ، تقع ما قبل يوحنا وماركيون بعيداً بعيداً . لقد بلغت الرؤى نهايتها ، والصوفية تبدأ الآن ؛ ومحتواها ليس محتوى تعاليم يسوع ، ولا حتى تعاليم بولس عنه ، بل إنما هو احجية كون ، لغز كهف العالم World Cavern . فليس هنا اي ذكر لانجيل ، وليست شخصية الفادي ، بل مبدأ اللوغوس[1] Logos (الكلمة ، كلمة الله) هو معنى الحدوث وواسطته . وهنا ترفض ثانية قصة طفولة المسيح ، « فالإله » لم « يولد » بل انما هو « موجود » وينتقل بشكل انسان على الارض . وهذا الله هو الثالوث ـ الله ، وروح الله وكلمة الله . ويحتوي هذا الكتاب المقدس الذي يعود الى اقدم عصور المسيحية ، يحتوي لاول مرة على معضلة « الجوهر » المجوسية التي سيطرت على القرون التي تلتها وحيث استثني خلالها كل شيء آخر ما عداها ، والتي أدت أخيراً الى انشقاق الدين الى ثلاث كنائس . وحل هذه المعضلة الذي يبدو ان يوحنا كان أقرب الناس اليه ، هو الذي وقف الى جانبه الشرق النسطوري معتبرين إياه الحل الصحيح ـ وهذا مما له دلالته

---

(١) يقول يوحنا في مطلع انجيله : في البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت من عند الله . ونحن هنا سنستعمل كلمة لوغوس في ترجمتنا دفعاً للالتباس .

ـ المترجم ـ

ومغزاه في اكثر من ناحية أو جهة . وإنه بفضل فكرة اللوغوس ، (بالرغم من كون هذه كلمة اغريقية) وهي اشد ما في الاناجيـــل شرقية ، يُعرض يسوع أكيدا ، لا بوصفه الآتي بالاعلان الإلهي النهائي الكامل ، بـــل على انه مبعوث ثان ، سيتلوه ثالث (المعزي روح القدس ـ رؤيا يوحنـــا أ ـ ١٤ ، ١٦ و ٢٦ ، أ ـ ١٥ ، ٢٦). وهذه هي العقيدة المذهلة التي يعلن المسيح بنفسه عنها ، والاشارات الحاسمة لهذا الكتاب الغامض . فهنا نرى فجأة الاقنعة تتساقط عن ايمان الشرق المجوسي . فاذا كان اللوغوس لا يستطيع ان يذهب فان روح القدس لا يستطيع ان يحل ، (يوحنا ١٦ ـ ٧) ، ولكن بين هذين يقع الدهر الاخير حيث يسود اهرمان Ahriman أ ١٤ ـ ٣٠ . لقد حاربت كنيسة التشكل الكاذب التي كانت تسيطر عليها ذهنية بولس ، حربا طويلا ضد انجيل يوحنا ، ولم تعترف بهذا الانجيل الا عندما غطى تفسير لبولس هذه العقيدة المجوسية ذات الايماءات المظلمة. وينحسر القناع عن الوضع الحقيقي للأحوال العامـــة من خلال حركة المونتينين « Montanist » (التي شهدتها آسيا الصغرى عام ١٦٠) حيث عادت هذه الحركة الى التقاليد الشفوية ، وأعلنت في شخص مونتانوس البارقليط الظاهر ، ونهاية العالم . وقد حظيت هذه العقيدة بشعبية واسعة جبارة . حيث اعتنقها تورتليان في قرطاجة عام ٢٠٧ . وقرابة عام ٢٤٥ قام ماني ، الذي كان متصلا اتصالاً وثيقا بمجاري احداث المسيحية الشرقية ، ونبذ يسوع بولس الانساني ، واعتبره شيطانا ، واعترف بلوغوس يوحنا على انه المسيح الحقيقي ، لكن ماني اعلن نفسه روحا قدسا للانجيل الرابع . واوغسطين اصبح ايضا مانيا في قرطاجة ، وهذه واقعة توحي ايحاء شديدا بان كلتا الحركتين (المونتنينية ، والمانية ـ المترجم) قد انصهرتا في النهاية مع حركة ماركيون .

ولنعد الآن الى ماركيون بالذات. فهذا هو الذي حمل وسار متجولاً بفكرة « يوحنا » ، وخلق الكتاب المقدس المسيحي . وعندما بلغ سن الشيخوخة، وأخذت طوائف الغرب البعيد ترتد عنه فزعـــة مرعوبة ، انطلق ليقيم التركيب الفذ لكنيسة مُخلّصه الخاص . وعاشت هذه الكنيسة من عـــام ١٥٦ ـ ١٩٠ قوة

وسلطانا ، ولم تستطع الكنيسة الاقدم منها زمناً أن تنحدر باتباع ماركيون إلى مرتبة المراطقة الا في هـذا القرن الذي تلا ذاك العام . وهذه ايضا كانت حال كنيسة ماركيون حتى في الشرق المنفسح العريض ، وحتى توركستان ، وكانت ذات اهمية اشد في زمن جاء بعد ذاك بطويـــل ، ولكنها انتهت بانصهارها مع المانية ، وجاء انصهارها هذا على شكل عميق المغزى في شعوره الجوهري .

وبالرغم من أن ماركيون قد بخس ، داخل امتلاء تفوقه الواعي ، الاوضاع القائمة حقها ، فان مجهوداته العظمى لم تذهب سدى . فهو ـ كبولس من قبـــله واثناسيوس من بعده ، كان المنقـــذ للمسيحية في اللحظة التي كانت خلالها مهددة بالسقوط ، وعظمة فكرته ، لا تقلل ابداً من شأنها ، الواقعة القائلة بأن الاتحاد لم يتم بواسطته ، بل انما تم ضده . ولقد نشأت الكنيسة الكاثوليكية المبكرة زمناً ـ واعني بهذه كنيسة التشكل الكاذب ـ وبلغت عظمتها قرابـــة عام ١٩٠ فقط ، ومن ثم اصبح وضعها وضع المدافع عن نفسه ضد كنيسة ماركيون ، وفي دفاعها هـــذا استعانت بتنظيم اكتسبته من هذه الكنيسة . ومن ثم استبدلت الكتاب المقدس لماركيون بكتاب آخر ذي تركيب مشابه لتركيب ذاك ـ الأناجيـل والرسائل الرسولية ـ حيث انطلقت آنذاك لمزج الشريعـــة والانبياء في وحدة واحدة . وأخيراً ، وبهذا العمل الذي ربط العهدين (القديم والجديد ـ المترجم) أحدهما بالأخر ، بت في موقف الكنيسة من مذهب منطقة اليهودية ، انطلقت الكنيسة لقتال الابداع الثالث لماركيون ، ألا وهو عقيدته في الفادي ، وذلك بواسطة خلق بدايـــة للاهوت خاص بها ، بداية ارتكزت على قواعد تصريح ماركيون عن المعضلة واعلانه عنها . وعلى كل حال فان هذا التطور قد حدث على تربة كلاسيكية ، ولذلك نظرت اليهودية التلموديـة حتى الى الكنيسة التي هبت لتناهض ماركيون ودعوته المناهضة لمذهب منطقة اليهود ، اقول نظرت اليهودية التلمودية (التي كان يقع كامل مركز ثقلها في بلاد مابين النهرين وجامعاتها) اليها نظرتها الى مجرد نبذة من وثنية هيلينستية . لقد كان تدمير القدس حدثاً حاسماً جازماً لا تستطيع أية قوة روحية أن تلغيه من عالم الواقع . على هذا الشكل هي الفة

العلاقة الباطنية بين الشعور الواعي ، للدين ، والنطق حتى أن القطيعة التامة التي وقعت بعد عام ٧٠ ، بين التشكل الكاذب والمنطقة الأرامية (وهذه عربيـة صحيحة) كان محتماً عليها ان تسفر عن قيام دائرتين مختلفتين للتطور المجوسي الديني . أما على الحافة الغربية من الحضارة الشابـــة ، فكانت كنيسة المذهب الوثني ، كنيسة يسوع (التي نقلهـــا الى هناك بولس) متشابكة في لغتها وآدابها ومذهب منطقه اليهودية الناطق باليونانية من طابع فيـلو وطرازه ، تشابكا بلغ درجـة جعلت هذا المذهب يتساقط داخل المسيحية حتى في القرن الاول بعـد الميـلاد ، وهنا اتحدت المسيحية والهيلينيستية لتشكلا فلسفة مشتركة مبكرة . وتعاون ، من جهة اخرى ، مذهب منطقة اليهودية والمذهب البرمي (الفارسي) Persism ، داخل العالم الناطق بالآرامية الممتد من نهر العاصي حتى نهر دجلة ، تعاوناً دائماً ووثيقاً ، وقد خلق كل من هذين المذهبين في هذه الحقبة ، لاهوته وفلسفته الكلامية الدقيقين الصارمين والخاصين به والمتمثلين في التلمود والأفستا . وقـد كان لهذين اللاهوتين ، ابتداء من القرن الرابع ، اوسع الاثر واشده على المسيحية الناطقة بالآرامية والتي قاومت التشكل الكاذب مقاومة شديدة جعلتها في النهاية تنشق على الكنيسة وتتخذ لها شكل الكنيسة النسطورية .

ان الفرق بين فهم الحس وبين فهم الكلمـــة ، هذا الفرق الفطري والملازم لكل شعور واع في الشرق ــ وهو لذلك قائم ايضاً بين العين والحرف ــ قد أدى الى نشوء المناهج الصافيـة في عروبتها للتصوف والفلسفة الكلامية . فالقناعـــة الروحيـة ، حسب مفهوم القرن الاول ، بان يسوع كان يقصد الانعام بالتأمل والعاطفة الإلهين ، هي قناعة الانبياء الاسرائيليين وال Gathas والتصوف ، ولا نزال نراها لدى سبينوزا ، والمسيح البولندي بعل شم Baal Shem ، ولدى مرزا على محمد ، مؤسس البهائية المندفع ، والذي أعدم في طهران عام ١٨٥٠ .

اما الاسلوب الآخر « ال Paradosis » فهو المنهاج المميز بتلموديته ، منهاج شروح الكلمة وتفاسيرها ، والذي كان بولس فيه معلماً واستاذاً . وهذا يتخلل

كل الكتب الافستية التي وضعت فيا بعـــد ، ويتخلل ايضاً الجدل النسطوري وكامل اللاهوت الاسلامي . ومن جهة أخرى ، فان التشكل الكاذب هو واحد وكل ، في كل من قبوله بالاعتقاد المجوسي وفي قلبه الميتافيزيقي للظاهر الى باطن . ولقد قام بصياغة المعتقد المجوسي بشكله المتجـه غرباً Westerly ومن اجل المسيحيين إرانيوس وأهم من هذا والجميع ، ترتوليان صاحب الكلمـــة المأثورة « credo quia ab surdum » التي تلخص مفهوم هذه القناعـة بالمعتقد تلخيصاً شافيا وافيا . أما النسخة طبق الاصل الوثنية عن هذا فهو بلوتنيوس بآلهته التسعة Enneads ، وحتى اكثر من هذا بورفري في مؤلفـــه « في عودة النفس الى الله » . ولكن كان يوجـــد ايضا للكنيسة الوثنية آب ، (NUS) وابن وكائن وسيط ، كما كان تماما من قبل لفيلو Philo اللوغوس الإبن المولود أولاً والإله الثاني. وكانت العقائد المتعلقة بالنشوة والذهول الروحيين ، والملائكة والشياطين وثنائية جوهر النفس ، عقائد متداولة وشائعة بصورة واسعة بينهم ، ونحن نرى لدى بلوتنيوس واوريجين وكلاهما تلميذان للاستاذ ذاته ، أن الفلسفة الكلامية للتشكل الكاذب تتضمن تطور المفاهيم والافكار المجوسية بواسطـــة اعتماد تقييم منهاجي (Transvaluation) مخالف لأسس تقييم نصوص افلاطون وارسطو .

ان الفكرة المركزية المميزة لكامل فكر التشكل الكاذب هي اللوغوس ، في استعمال وتطوير صورته المؤمنة . ولا يوجد هنا اي امكانيـــة لوجود تأثير يوناني ، حسب المفهوم الكلاسيكي ، اذ أنه لم يكن في تلك الايام ، اي انسان حي يمتلك فطرة روحية تستطيع أن تتلقى اتفـــه اثر من آثار لوغوس هيرقليط ستوا Stoa . ولكن اللاهوتـــيين الذين عاشوا في الاسكندرية لم يستطيعوا ، بالمثل ، ابداً أن يطوروا ، بصفاء تام ، فكرة ـ اللوغوس ، كما عنوها ، بينما أنها لعبت دوراً حاسماً في تخيلات كل من الفرس والكلدان ـ بوصفها روحاً أو كلمة الله ـ وفي العقيدة اليهودية ـ بوصفها روحا Ruach وممرا Memra .

اما ما فعلته تعاليم اللوغوس في الغرب ، فهو أنها طورت صيغة كلاسيكية ،

من قبيل فيلو وانجيـــل يوحنا ، (صيغة لا تزال آثارها في الغرب متبدية على المدرسيين) ولم تطورهـــا فقط الى عنصر من عناصر الصوفيـــة المسيحية ، بل طورتها أخيراً إلى دوغما Dogma . وهذا أمر كان محتوماً لا بد منه . وهـــذه الدوغما التي استمسكت بها كلتا الكنيستين ، تطابق على جانب المعرفـــة ، ذاك الذي كان ممثلاً على جانب الايمان ، من قبل كل من المـذاهب التوفيقية ومذاهب مريم والقديسين . وقد تمرد وثار ، ابتـــداء من القرن الرابع ، شعور الشرق ضد هذا الشيء كله ، الدوغما والمذاهب، ان تاريخ هذه الافكار والشعورتتكرر، بالنسبة للعين ، في تاريخ الهندسة المعمارية المجـوسية فالشكل الاساسي للتشكل الكاذب هو البازيليكا التي كانت معروفة لدى يهود الغرب ولدى الملل الهيلينستية من الكلدان حتى قبل زمن المسيح . وكما ان لوغوس انجيل يوحنا هو جوهر مجوسي في شكل كلاسيكي ، كذلك فان البازيليكا هي غرفة مجوسية تطابق جدرانهـــا الداخلية ، السطوح الخارجية للمعبد الكلاسيكي ، فبناء المذهب هنا قلب باطنه الى ظاهره . ان الشكل الهندسي المعماري للشرق النقي هو البنـاء المقبب ، المسجد ، والذي دون ريب قد وجد قبل اقـدم الكنائس المسيحية ، في معـــابد الفرس والكلدان والكنيس في بلاد ما بين النهرين ، ومن الجائز أنه قد وجد في معـابد سبأ ايضاً . وقد تجسدت المحاولات للتوفيق بين الشرق والغرب ، والتي قامت بهـا مجامع الكنيسة في الحقبة البيزنطية ، اقول تجسدت هذه اخيراً رمزية في الشكل المزيج ، شكل البازيليكا المقببة . وذلك لان هذا الجزء من تاريخ الهنـــدسة المعمارية الكنسية هو ، حقاً ، تعبير آخر عن التبدل العظيم الذي بدأ باثناسيوس وقسطنطين آخر حُماة المسيحية العظام . فالواحد منهما قد خلق الدوغما الغربية الثابتة الراسخة وأوجد نظام الرهبنة الذي انتقلت تدريجياً الدوغما اليه من ايدي المدارس الهرمة . اما الثاني فلقد اسس دولة القومية المسيحية ، التي تبعها بالمثل في النهاية اسم « اليونان » . اما البازيليكا المقببة فهي رمز هذه المرحلة الانتقالية .

الفصل التاسع عشر

مشاكل الحضارة العربية

(ب)

النفس المجوسية

- ١ -

ان العالم كما هو منتشر ، بالنسبة الى الشعور الواعي المجوسي ، يمتلك نوعا من امتداد ، يجوز لنا ان نصفه بأنه شبيه بالكهف ، وذلك بالرغم من أنه من الصعب على الانسان الغربي ، أن يجد أياً من مفرداتـــه التي تستطيع ان تعبر ، بأية صورة ، تكون اكثر من مجرد لمحـــة او ايماءة الى معنى « الفراغ » المجوسي . وذلك لأنه ، أصلاً ، لكل ادراك من ادراكي الحضارتين « للفراغ » ، معاني غير متماثـــلة ومعاني الادراك الآخر . فالعالم – ككهف ، يختلف تماماً عن العالم كامتداد ، العالم الفاوستي المنفعل الفوار العواطف والمندفع بعيداً بعيداً ، اختلافه عن العالم الكلاسيكي بوصفه مجموعاً من اشياء حجمية . فالمنهاج الكوبرنيكي ، الذي

تفقد الارض ، كما فقدت ، فيه نفسها يجب أن يبدو بالضرورة للفكر العربي ، منهاجاً مجنوناً طائشاً . وقد اصابت كنيسة الغرب كبد الحقيقة عندما ناهضت فكرة مناقضة لعالم شعور يسوع ، ولعلم الفلك الكلداني الكهفي ، الذي كان حاشية ومتنا طبيعيا ومُقنعا في نظر الفرس واليهود وشعوب التشكل الكاذب ، والاسلام فكرة اصبح بامكان حفنة من اليونانيين الاصلاء ادراكها ، بعد ان اعادوا تقيم آرائها في الفراغ على أسس مخالفة لتلك .

ان التوتر القائم بين الكون الاكبر والكون الاصغر (المنطبق على الشعور الواعي) يؤدي ، داخل صورة ـ العالم لكل حضارة ، الى قيام المزيد من التناقضات ذات الاهمية الرمزية . فكل ما للانسان من احاسيس او فهم وايمان ومعرفة ، إنما تتلقى شكلها من تعارض أولي لا يجعلها فقط نشاطات لفرد ، بل يجعلها ايضا تعبيراً لمجموع. فالتعارض الأولي لدى العالم الكلاسيكي ، هذا التعارض الذي يسيطر بصورة كونية مطلقة على الشعور الواعي ، انما هو التعارض القائم بين المادة والشكل ، اما في العالم الغربي فانه التعارض بين الكتلة والطاقة . فالتوتر في العالم الكلاسيكي ، يستنزف ذاته فيما هو صغير وخاص ، لكنه في الغرب يفرغ ذاته ويفجرها في صفة من عمل . بينما انه من جهة اخرى ، وفي كهف العالم يثابر على الاعتراض والترنح اقبالاً وادباراً في صراع غير قانع او واثق ، وهكذا تنشأ تلك الثنائية ـ « الأولية السامية » Semitic والتي تملأ دائما وابدا ، وتحت الألف من اشكالها ، العالم المجوسي . فالنور يضيء في الكهف ويحارب الظلمة (انجيل يوحنا الاصحاح الاول عدد ٥) . وكلاهما جوهران مجوسيان . ففوق وتحت ، السماء والارض ، تصبحان قوتين تمتلكان ذاتيتين تنازع الواحدة منهما الأخرى. ولكن هذه الاستقطابيات تمتزج داخل اشد الاحاسيس أولية باستقطابيات الفهم الناقد الممحص ، كالخير والشر ، كالله والشيطان . فالموت في نظر مؤلف انجيل يوحنا كما هو ايضا في نظر المسلم الدقيق ، ليس نهاية للحياة بل انه شيء ما ، انه « طاقة ـ موت » تصارع « طاقة ـ حياة » من اجل امتلاك الانسان .

ولكن لايزال هناك أمرا اهم من كل هذا بكثير ، الا وهو التعارض القائم بين الروح والنفس (بالعبرية : روخ Ruach ، نفش Nephesh ، بالفارسية أهو Ahu أرفان Urvan ، بالمندية مونوبعد Monuhmed ، جيان Gyan باليونانية بنيوما Pneuma ، بسيشي Psyche) هذا التعارض الذي يظهر اول ما يظهر من خلال الشعور الاساسي للأديان النبوية ، ومن ثم يتفشى في كامل الرؤى ، واخيرا ويشكل وئيد تأملات الحضارة المستيقظة في العالم – فيلو ، بولس ، وبلوتينوس ، العارفون Gnostics ، المنديين ، اوغسطين ، الأفستا ، الاسلام والكابالا . ان كلمة « رُوَخ » تعني اصلاً « هواء » Wind ، ونفش يعني «تنفس» فالنفس هي دائما مرتبطة بشكل او بآخر ، بما هو جسماني وأرضي ، بالـ تحت ، بالشر بالظلمة . ومجهودها يستهدف « العلاء » . اما الروح فتنتسب لما هو المي الـ فوق Above ، للنور . واثرها يتبدى عندما تحل على الانسان في بطولة كبطولة شمشون ، في غضب مقدس كغضب ايليا ، في اثارة القاضي (قضاء سليمان) وفي جميع انواع علم الغيب والانتشاء الروحي . فهي مندفقة مسكوبة ، والمسيح ، كما ورد في اشعيا الإصحاح ١١ عدد ٢ ، يصبح تجسدا للروح . وفيلو واللاهوت الاسلامي يقسمان الجنس البشري الى نوعين ، نوع هو نفس بالولادة ، وآخر هو روح (ومفهوم « المصطفى » هو مفهوم خاص بأكمله بكهف – العالم وبالقسمة) . وجميع ابناء يعقوب هم روحيون . ومعنى القيامة في نظر بولس يكمن في التعارض القائم بين الجسد النفساني والجسد الروحي (رسالته الاولى الى كورنثوس اصحاح ١٥) ، وهو يتفق ايضا وفيلو ومؤلف رؤيا باروخ ، على انطباق هذا التعارض مع التعارض القائم بين السماء والارض ، بين النور والظُلمة . والمُخلّص ، بالنور ، في نظر بولس ، هو الروح السماوية . وهو ، في انجيل يوحنا ، يدمج اللوغوس بالنور ، وهو يتبدى لدى الافلاطونيين الجُدد نوس Nus ، أي الواحد – الكل المعارض لا – Physis ، وذلك حسب مصطلح التعريف الكلاسيكي . اما بولس وفيلو ، فهما ، بما لهما من ميزات مفاهيمية كلاسيكية (وهذه غريبة) ، قد ساويا بين النفس والخير ، وبين الجسد والشر ،

اما أوغسطين فبوصفه من اتباع ماني ويمتلك ملكة تمييز ترتكز الى أسس فارسية ـ شرقية ، فانه يجمع النفس والجسد معاً ويعتبرهما شراً طبيعياً ، في تباينه والله ، بوصفه الواحد الأحد ، ويجد في هذا التعارض منبعاً لعقيدته في النعمة ، التي تطورت ايضاً وفق الشكل ذاته في الاسلام (برغم استقلال تطورها هذا عن اوغسطين استقلالاً تاماً) .

ولكن النفوس هي باعماقهـا ذاتيات مميزة وقائمة بذاتها ، بينما أن الروح هي واحدة ، ودائماً الواحدة نفسها . فالانسان يمتلك نفساً ، لكنه يشترك او يشارك فقط في روح النور والله . والروح الإلهية تحل عليه ، وبذلك تربط جميع أفراد الدنيا Below معاً بالواحد الأحد في علين . وهذا الشعور الأولي الذي يسيطر على معتقدات جميع الناس المجوسيين وآرائهم ، هو شيء ما فرد فريد تماماً ، لا يطبع فقط نظرتهم الى العالم بطابعه ، بل يميز بدمغته جوهر تدينهم ولبه في جميع اشكاله عن جوهر تدين اي جنس بشري آخر ولبـه ، وهذه الحضارة ، كما اظهرنا فيما تقـــدم ، كانت بصورة مميزة حضارة الوسط . وكان باستطاعتها أن تقتبس أو تستعير أشكالاً وفكراً من معظم الحضارات الأخرى ، وكونها لم تفعل هذا ، بالرغم من كل ضغط واغواء وتجربـة ، جعلها تبقى سيدة مطلقة لشكلها الباطني ، وتوجد هوة من فرق لا يمكن أن تردم او تعـبر بينها وبين الحضارات الأخرى . فهي بالكاد قد اقتبست من كل ما للحضارتين البابلية والفارسية من ثراء اكثر من بضعة اسماء ، اما الحضارتان الكلاسيكية والهندية ، او بالاحرى مدنيتاهما اللتان ورثتاهما ـ اي الهيلينية والبوذية ـ فقد شوهتا تعبير الحضارة المجوسية حتى درجة التشكل الكاذب . لكنهما لم تلمسا ابداً جوهرها . وجميع أديان الحضارة المجوسية ابتداء من ابداعات اشعيا وزردشت حتى الاسلام ، تشكل وحدة باطنية كاملة للشعور بالعالم ، وكما أنه لا نستطيع أن نجد في معتقدات الأفستا اي اثر للبرهمية ، ولا في المسيحية المبكرة ولو نفخة من نفس شعور كلاسيكي ، بل نجد مجرد اسماء وارقام واشكال خارجية ، كذلك ايضاً لم تستطع المسيحية الكاثوليكية الجرمانية

الغربية امتصاص أي أثر من دين ــ يسوع ، بالرغم من أن تلك قد تلقت مخزون معتقدات وملاحظات هذا الدين بأكمله .

بينما أن الانسان الفاوستي هو « أنا » « I » تستطيع في النهاية أن تشكل استنتاجاتها الخاصة عن اللانهائي ، وبينما أن الانسان الأبولوني ، بوصفه حجماً وسط الكثير من الأحجام Soma ، يمثل فقط نفسه ، فان الانسان المجوسي ، بما له من نوع كينونة روحاني ، هو مجرد جزء من « نحن » روحانية ، تحل من فوق وتنزل ، وهي الواحدة نفسها لدى جميع المؤمنين . فالانسان المجوسي بوصفه جسماً ونفساً انما ينتمي لذاته وحدها ، لكن هناك شيئاً ما آخر ، شيئاً ما أجنبياً وأرقى، يسكن داخله ، ويجعله بكل ما له من لمحات وقناعات ومعتقدات ، مجرد عضو من اتحاد (اجماع) بوصفه فيضاً من الله وانبعاثاً ، يطرح الخطأ ويبعده ، ولكنه يطرح ايضا كل امكانية « للأنا » المعتدة بذاتها . فالحق هو في نظره شيء ما غير ما هو في نظرنا . وجميع المناهج الابستومولوجية المرتكزة الى المحاكمة الفردية ، هي بالنسبة اليه جنون وافتتان ، كما وأن نتائجها العلمية هي عمل من اعمال الشر الواحد ، الذي أربك وخدع الروح في نزعاتها ومقاصدها الحقيقية وهنا يكمن السر النهائي ، السر المستحيل علينا بلوغه ، سر الفكر المجوسي وتفكيره في عالم ــ كهفه ــ فاستحالة وجود « أنا » مفكرة ومؤمنة وعارفة هي الفرضية السابقة والملازمة لكل جواهر هذه الأديان . فبينما كان الانسان الكلاسيكي يقف أمام الهه كما يقف الانسان امام انسان ، وبينما أن « الأنا » الفاوستية المريدة تشعر بما لها من عالم ، بأنها تواجه الذات الإلهية ، وهذه هي فاوستية ومريدة ايضا وفعالة في كل مكان ، نرى أن الذات الإلهية المجوسية هي القوة الغامضة غير المعرفة ، وهي تصب من عليائها ، غضبها أو نعمتها وتنحدر بذاتها الى الظلام ، أو ترتفع بالنفس الى النور ، وذلك كله وفق ما تراه مناسباً او سديداً . أما فكرة الارادة الشخصية ، فهي بكل بساطة ، فكرة لا معنى لها او مفهوم ، وذلك لأن الارادة ، « والفكر » ليسا أصليين في الانسان ، بل انما هما معلولان

من الذات الإلهية فيه . وينشأ عن شعور ـ الجذر هـذا الراسخ المكين ، الذي يعاد التعبير عنه فقط ، ولا يتبدل ابدا اصلاً ، نتيجة لاي تبديـــل لدين ، أو استنارة ، او حذق في العالم ـ أقول تنشـــأ بالضرورة عن هذا فكرة الوسيط الإلهي ، فكرة الواحد الذي يبدل هذا الوضع من الالم ، العذاب ، الى النعمة . وهذه الفكرة تشد جميـع الاديان المجوسية بعضاً الى بعض ، وتفصلها عن جميـع أديان الحضارات الاخرى . وفكرة ـ اللوغوس بمعناها الواسع العريض ، وهي تجريـــد للاحساس المجوسي الكهفي بالنور ، هي الفكرة المترابطة تماما بهذا الاحساس داخـل الفكر المجوسي . فهي تعني أن من رأس الله الذي لا يمكن بلوغه ، تطلق روحه ، او « كلمته » كحامل للنور ، وآتٍ بالخير ، وتقيم علاقـة مع الكائن البشري ، كي تسمو به وتتخلله وتفتديه . وهذا التمييز للجواهر الثلاثة والذي لا يتعارض ووحدانيتها في الفكر الدينى ، كان معروفاً من قبـــل لدى الاديان النبوية . فنفس آهورمازدا المشعة بالنور هي الكلمة ، وفي احدى الغاثات Gathas ، تتحدث روحه القدسية مع روح الشر . والفكرة ذاتها هذه تتخلل كامل الآداب اليهودية القديمة .

وقد بقي الفكر الذي اقامه الكلدان على اساس من الفصل بين الله وبـــين كلمته ، والتعارض القائم بين ماردوك ونابو ، والذي يتدفق بقوة وشدة في كامل الرؤى الآرامية ، اقول بقي هذا ، بصورة دائمة ، فعالاً ومبدعاً ، وقد دخـــل بواسطة فيلو ويوحنا وماركيون وماني على التعاليم التلمودية ، ولذلك دخل ايضاً على كتابي الكابالا ، يسيراح Iesirah وسوهار Sohar ، ودخل على مجـــامع الكنيسة وكتب الآباء ، وعلى الافستا فيما بعد ، واخيراً على الاسلام حيث اصبح تدريجيا محمد اللوغوس، وجعل من محمدالحي في الدين الشعبي شخصية المسيح. وهذا المفهوم واضح وغني عن البيان بالنسبة الى الانسان المجوسي الى درجة استطاع معها ان يقتحم التركيب الصارم في توحيده للاسلام الاصـــلي ، وان يبدو مع الله ، بوصفه كلمة الله الروح القدس ، و « نور محمد » .

وذلك لان اول نور شع من خليقة العالم هو نور محمد حسب اعتقاد الدين الشعبي ، وشع على شكل طاووس تكوّن من لآلىء بيضاء وأحيط بأقنعة وحجُب . ولكن الطاووس هو رسول الله وهو النفس الاولية ، منذ ازمان المندين ، وهو شعار الخلود المرسوم على النواويس المسيحية المبكرة زمنا . فاللؤلؤة المشعة الناثرة نورا والتي تـُنير ظلمة بيت الجسد ، هي الروح التي حلت في الانسان ، ويراها الفكر ، لدى المندين كما في اعمال توما ، جوهرا . ويبجل اليزيديون اللوغوس بوصفها طاووساً ونوراً ، وهؤلاء ، بعد الدروز ، قد حافظوا بنقاء شديد ، وصفاء ما بعده صفاء ، على المفهوم الفارسي للثالوث الجوهري . وهكذا نرى ، مرة بعداخرى ، فكرة ـ اللوغوس تعود الى الاحساس بالنور الذي استخلص الفهم المجوسي منه . وعالم الجنس البشري المجوسي مليء بالشعور باساطير الجن . فالشياطين والارواح الشريرة تهدد الانسان ، والملائكة والجنيات يحمونه. وهناك في العالم المجوسي حجب وتمائم وطلاسم وتعاويذ ، واراض سحرية ، ومدن غامضة وكائنات خفية وأحرف سرية ، وخاتم سليمان وحجر الفلاسفة . وينسكب فوق كل هذه نور ـ كهف مرتعش رجراج تهدد الظلمة الطيفية دائماً بابتلاعه . واذا ما كان هذا الفيض من الشخصيات يدهش القارىء ويذهله ، فليتذكر اذن يسوع قد عاش فيه وعاشه ، وأن تعاليم يسوع لا يمكن فهمها الا بواسطته . فالرؤى الدينية هي ليست سوى اسطورة كثّفت شدتها حتى بلغت الحد النهائي للقوة المأساوية . ونحن نجد أخنوخ يحدثنا في كتابه أخنوخ عن المكان البلوري لله ، والجبال المؤلفة من الحجارة الكريمة ، وسجن النجوم المارقة من الدين .

والحق أنه ايضاً لمذهل خيالي ومدهش ، هو عالم الفكرة المسيطرة على كل شيء ، عالم فكرة المنديين ، وعالم فكرة العارفين واتباع ماني ، وعالم فكرة منهاج اوروجين وشخصيات « بونداهش » الفارسية ، وعندما انتهى زمن الرؤى العظمى ، تحولت هذه الفكر الى شعر اسطوري ، والى روايات دينية لا يحصيها

عد ، روايات لا نزال نتملك نماذج منها في الأناجيـــل والتي تتحدث عن طفولة المسيح ، وفي أعمال توما والكلامنتين الكاذبين المناهضين لبولس . واحدى هذه الروايات ، هي تلك التي تتحــــدث فتقول بأن ابراهيم هو الذي صك النقود التي قبضها يوذا الاسخريوطي ثمناً لخيانته . وغيرها تلك التي تتحدث عن « كهف الكنوز » الواقع تحت تلة الجلجلة ، حيث يختزن كنز الفردوس الذهبي ، ويضم عظام آدم . لقد كانت مادة دانتي الشعرية ، هي ، بعد كل شيء ، شعرية ، لكن هذه كانت واقعاً مجرداً ، وكانت تشكل العالم الذي عاشت فيه هذه الشعوب بصورة مستمرة . وأحاسيس كهذه ، هي أحاسيس نائيه ولا يمكن بلوغها بالنسبة لأناس يعيشون مع وداخل صورة ديناميكية للعالم . واذا ما حصلنا على بعض ايماءة من معرفة عن مدى غرابة كامل حياة يسوع الباطنية عنا ، - وهذه تشكل ادراكاً مؤلماً للمسيحي في الغرب ، الذي يبتهج حقاً ويسر اذا ما استطاع أن يجعل حياة يسوع الباطنية نقطة تماس وورعه الباطني الخاص - واذا ما اكتشفنا لماذا المسلم الورع وحده قادر هذه الايام على أن يخبر حياة يسوع خبرة حية ، عندئذ يتوجب علينا أن نغرق أنفسنا في عنصر - العالم هــــذا لصورة عالم كانت صورة - عالم يسوع . وآنذاك ، وآنذاك فقط نستطيع أن ندرك كم من القلة هو ذاك الذي اقتبسته المسيحيــة الفاوستية من ثروة كنيسة التشكل الكاذب - فهي لم تقتبس شيئاً من شعورها بالعالم ، واقتبست قليــــلاً من شكلها الباطني ، والكثير من مفاهيمها وشخصياتها .

- ٢ -

تنبع الـ متى When ، بالنسبة الى النفس المجوسية ، من الـ أين Where . وهنا لا يوجد أيضاً ذاك الالتصاق الابولوني بالحاضر الشبيه بالنقطة ، كما ولا يوجد ذاك الاندفاع الفاوستي والانسياق نحو هدف لامتناه في بعده . فالكينونة هنا

نبض مخالف ، وللكائن الواع نتيجة لذلك ، حس آخر بالزمان ، حس هو صورة طبق الاصل للفراغ المجوسي . فالشيء الاولي الذي تشعر به انسانية هذه الحضارة ، ابتداء بالعبيـــد المنكودين والحالين حتى الانبياء والخلفاء أنفسهم ، وتشعر بـه بوصفه قسمة قسمت لها ، هذا الشيء ليس فراراً غير محدود لعصور لا تسمح ابداً بتكرار لحظة مفقودة ، بل انما هو البداية والنهاية « لهذا اليوم » الذي قدر تقديراً لا يمكن عكسه او نقضه ، والذي يتخذ فيه الوجود البشري المكان المخصص له من الخليقة نفسها . وليس فراغ – العالم وحده ، بـــل انما زمان – العالم هو شبيـه بالكهف ايضاً . ومن هنا تنشأ القناعة المجوسية شكلاً وجوهراً والمقررة أن لكل شيء زماناً ، ابتـــداء بأصول المخلص ، التي دونت ساعته في النصوص الغابرة ، وانتهاء بأبسط تفاصيل الحياة اليومية التي قد تبدو فيها العجالة الفاوستية أمراً لامعنى له ، وشيئاً لا يدركه خيال . وهنا ايضاً تكمن أسس علم التنجيم المجوسي المبكر (وخاصة الكلداني منه) والذي يفترض ايضاً بأن كل الاشياء قد سطرت في النجوم ، وأن مدارات الكواكب القابلة للحساب العلمي ، تمكننا ايضاً من حساب مجاري الاشياء الارضية . أما الاوراكل الكلاسيكي فانـه كان يجيب فقط على السؤال الذي يربك الانسان الأبولوني ويشوشه – ألا وهو الشكل ، « الـ كيف » ؟ The How ، للاشياء الآتيـــة . لكن سؤال الكهف هو ، « متى » ؟ فجميع الرؤى ، وكامل حياة يسوع الروحية ، وآلام الجثمانية ، والحركة العظمى التي نشأت من موتـــه ، كل هذه الامور لا يمكن ادراكها اذا لم ندرك هذا السؤال الاولي للكائن المجوسي ، وندرك المستلزمات الكامنة وراءه . ولا شك أن علم التنجيم الذي دفع ، في انطلاقـه نحو الغرب ، بالاوراكل امامـــه خطوة فخطوة ، كان دلالة لا تخطىء على انطفاء النفس الكلاسيكية وخمودها . وليس هنـــاك من مثل يوضح هذا الوضع الانتقالي كما يوضحه تاسيتوس ، حيث نرى عنـده الارتباك والحيرة والتفسخ في صورته للعالم تسيطر على كامل تاريخه . فبوصفه رومانياً عريقاً يدخل اول ما يدخـل قوة آلهة المدينـة القديمة ، ومن ثم يعتبر ، بوصفه كوسموبوليتيا ذكيا هذا الايمان

ذاته ، بتدخل الآلهة خرافة وخزعبلة ، واخيراً يتحدث بوصفه رواقيا (وكانت النظرة الروحانية للرواقية يومذاك قد اصبحت مجوسية) عن قوة الكواكب السبعة التي تسيطر على اقدار الناس . وهكذا حدث خلال القرون التي تلت ، أن قامت الصوفية الفارسية فوضعت الزمان بوصفه آنية للقدر – وأعني بذلك سرداباً للزمان ومحدود الطرفين ، وبذلك يمكن للعين الباطنية أن تدركه – اقول وضعت الزمان في مرتبة أعلى من مرتبة نور – الله بوصفه تزرفان Zrvan ، الحاكم في الصراع العالمي بين الخير والشر . وقد أمست التزرفانية دين الدولة الفارسية من عام ٤٣٨ – ٤٥٧ . وهذا الايمان بان كل شيء قد سطر في النجوم هو أصلًا الذي يجعل الحضارة العربية تتميز بأنها حضارة من عصور – أي أنها حضارة حسابات زمان ، تبدأ بحدث يحس به على أنه عمل خاص مترع بالمغزى من أعمال العناية الإلهية . وأول هذه العصور وأهمها هو العصر الآرامي الجامع الشامل ، والذي يبدأ ، قرابة عام ٣٠٠ ق. م ، بنباء التوتر الرؤوي ، وهو « العصر السلوقي » . ولقد أعقبته الكثير من العصور غيره ، ومن بين هذه عصر الصابئة Sabaean « قرابة عام ١١٥ ق. م » ونحن لا نعرف نقطة انطلاقه معرفة دقيقة ، ثم عصر ديوكلتسيان ، ومن بعده العصر اليهودي الذي يبدأ بالخليقة والذي بدأ على ايدي السنيدربون Synedrion عام ٣١٦ ، ومن ثم العصر الفارسي وذلك ابتداء من ارتقاء يزدجرد آخر الساسانيين العرش عام ٦٣٢ ، ومن ثم عصر الهجرة الذي طوح بآخر السلوقيين في سوريا وبلاد ما بين النهر . ولا يوجد خارج ميدان – الارض هذه سوى مجرد تقليد لغايات عملية كحدث فارّو Varro ، « ab urbe condita » وحدث الماركيونيين الذي بدأ بانشقاق ماركيون عن الكنيسة عام ١٤٤ ، ومن ثم حدث المسيحيين الذي جرى بعيد عام ٥٠٠ ويبدأ بميلاد يسوع .

ان تاريخ العالم هو صورة العالم الحي التي يرى فيها الانسان نفسه قد حيكت داخلها بواسطة الولادة والسلف والخلف ، والتي يكافح من اجل ادراكها من

خارج شعور عالمه . والصورة التاريخية للرجل الكلاسيكي تركز ذاتها على الحاضر المجرد . ومحتواها ليس صيرورة حقيقية ، بل انما هو صدر صورة الكينونة ، ذات مؤخرة من اسطورة معدومة الزمان ، تعقلنت بوصفها « العصر الذهبي » . وهذه الكينونة ، كانت ، على كل حال ، حشداً مدبجاً بالألوان من تصاريف الدهر ، من قدر حسن وآخر سيء ، « وُقرابات » عمياء ، وتبدلاً خالداً ، ومع هذا هي هي نفسها ابداً ودائماً ، بكل تبدلاتها ، ودون ما اتجاه ، وهدف أو « زمان » . أما شعور الكهف ، فهو على العكس من هذه ، فهو يتطلب تاريخاً يمكن قياسه حيث يتألف من بداية ونهاية للعالم ، وهذا يعني أيضاً بداية ونهاية للانسان — وهما عملان من اعمال الله ، جباران في سحريهما - وبين هاتين الدورتين يقف الانسان معقود اللسان من الحدود النهائية للكهف والحقبة المقدرة ، وتدور المعركة بين النور والظلمة ، وصراع الملائكة Jazatas وجاتزاتاس مع اهرعان ، الشيطان ، ابليس والتي يتوقف عليها مصير نفسه وروحه . والله قادر على تدمير الكهف الحالي واستبداله بخليقة جديدة . وتعرض الرؤى الفارسية — الكلدانيـــة على البصيرة سلاسل كامـــلة من دهور كهذه ، ويسوع كان انسجاماً وزمنه ، يقف مترقباً نهاية دهره . وقد نجم عن هذا الاعتقاد مطـــل تاريخي ، كذاك المطل الطبيعي في نظر الاسلام حتى اليوم — النظرة الى زمن معين . « ان نظرة الشعب الى العالم تقسمه الى ثلاثة اقسام رئيسية — البداية ، تطور العالم ، وكارثـــة — العالم . فأهم الجواهر في تطور العالم بالنسبة للمسلم المتمتع بحس اخلاقي عميق ، هي قصة — الخلاص والاسلوب الاخلاقي في الحياة وقد لحمت تلك بهذا ، وجعل منها ومنه (قصة الخلاص والاسلوب — المترجم) واحداً كاملاً بوصفه «حياة» الانسان . وهذه تصب في كارثة العالم التي تحتوي الاقرار والمصادقة على التاريخ الأخـلاقي للانسانية .

ولكن ، بالاضافة الى ذلك ، فان موضوع الشعور بهذا النوع من الزمان ، والنظرة الى هذا النوع من الفراغ هو ، بالنسبة للوجود البشري المجوسي ، نوع

خاص ومميز تماماً من انواع التقى والورع ، والذي نستطيع بالمثل أن ندرجه تحت اشارة الكهف ـ انه استسلام عديم الارادة لا يعرف « الأنا » الروحانية ، ويشعر بأن « الـ نحن » الروحانية التي دخلت جسداً دبت فيه الحياة ، مجرد انعكاس للنور الإلهي . والكلمة العربية التي تعبر عن هذا المعنى هي اسلام « خضوع » ، ولكن هذا الاسلام كان بالمثل حالة شعور عادية ليسوع ، ولغيره من الشخصيات من عباقرة الدين الذين ظهروا في هذه الحضارة . اما الورع الكلاسيكي فهو شيء ما يختلف تماماً عن هذا

أما نحن فاذا ما استطعنا في حضارتنا أن نستخلص عقلانياً « الأنا » من ورع كل من القديسة تيريزا ولوثر وباسكال ـ هذه « الأنا » العازمة على المحافظة على ذاتها من الخضوع ، أو حتى من الانطفاء بواسطة الله اللامتناهي ـ أقول اذا ما استطعنا أن نستخلص هذه الأنا فعندئذ لن يبقى من ورع هؤلاء أي شيء اطلاقاً . فسر الندامة المقدس الاولي والفاوستي يستلزم ارادة قوية وحرة تستطيع أن تقهر ذاتها . ولكن استحالة وجود « الأنا » قوة حرة أمام وجه الله هي بالذات التي تشكل « الاسلام » . وكل محاولة ترمي الى مجابهة أعمال الله بقصد شخصي ، أو حتى برأي شخص هو عمل Masiga ـ أي أنه لا يعني ارادة شريرة ، بل يعني أن قوى الظلام والشر قد سيطرت على الانسان وطردت ما هو الهي داخله خارجاً . فالشعور الواعي المجوسي هو مجرد ميدان معركة تدور رحاها بين هاتين القوتين ، وليس هو ، مثلاً ، قوة بذاته . زد على ذلك أنه لا يوجد في هذا النوع من حدوث ـ العالم أي مكان لعلل ومعلولات فردية ، ناهيك عن وجود أي تركيز كوني مؤثر وفعال لها ، ونتيجة لذلك لا يوجد بالضرورة أي ترابط بين الخطيئة والعقاب ، ولا المطالبة بثواب ، ولا « بر » اسرائيلي قديم . فالورع الحقيقي لهذه الحضارة يعتبر أشياء من هذا النوع دونه بمراتب ومراتب . فقوانين الطبيعة ليست أموراً بت فيها وقررت الى الابد ، وأن الله يستطيع ان يبدلها بواسطة منهاج من عجائب ـ بل انها الوضع الطبيعي للارادة الإلهية الاتوقراطية ، |

وهذه القوانين لا تمتلك اي شيء من الضرورة المنطقية التي تمتلكها بالنسبة للنفوس الفاوستية . ففي كامل كهف - العالم توجد علة واحدة فقط وهي تكمن مباشرة وراء جميع الأعمال المنظورة ، وهذه هي رأس الله ، وتعمـــل دون ما علل . وحتى التفكير بعلل في موضوع الله كفر وتجديف .

من هذا الشعور الاساسي تنطلق الفكرة المجوسية في النعمة . وهذه تكمن وراء جميع الاسرار الدينية لهذه الحضارة (وخاصة السر المجوسي الاصلي - سر المعمودية) وتشكل (أي النعمة - المترجم) تباينـــاً بالغ الشدة بينها وبين الفكرة الفاوستية في الندامة . فالندامة تستلزم وجود ارادة « للانا » . لكن النعمة لا تعرف شيئاً كهذا . والفضل في تطوير هذه الفكرة الاسلامية الجوهر ، يعود الى انجازات اوغسطين الرفيعة ، اذ طورها بمنطق صلب عنيـد ، وبنفوذ وعمق بالغين الى درجة أن النفس الفاوستية قد حاولت منذ بيلاجيوس Pelagius كل السبل والوسائل لتراوغ هذه القناعة وتخاتلها - لأنها تشكل بالنسبة لها خطراً داهماً يهددها بتدمير ذاتها بذاتها - وهي باستعمالها فرضيات اوغسطين للتعبير عن شعورها الخاص بالله ، كانت دائماً تسيء فهم هذه الفرضيات وتعيد تقييمها على أسس مباينة لأسس اوغسطين . والحق أن اوغسطين كان آخر كبـــار المفكرين في الفلسفة الكلامية العربية المبكرة ، ولكنه لم يكن ابداً عقلاً غربياً . وهو لم يكن فقط لفترة من الزمن من أتباع ماني ، بل انما بقي من اتباعه في بعض الخصائص الهامة حتى بعد أن اعتنق المسيحية ، وأقرب اقربائه فكرا يوجدون بين لاهوتيي الافستا فيما بعد ، من الفرس ، بما لهؤلاء من عقائد في مخزون النعمة المقدسة ، وفي الذنب المطلق . فالنعمة في نظره هي دفق جوهري من شيء ما الهي وانسكاب في الروح البشرية التي هي بدورها جوهرية ايضاً . ورأس الله يشع بها ، والانسان يتلقاها ، لكنه لا يكتسبها وفكرة الطاقة مفقودة لدى اوغسطين ، كما هي مفقودة عنـد سبينوزا الذى تفصل بينه وبين ذاك قرون ، فمشكلة الحرية عند كل واحـــد منهما لا تشير الى الأنا وارادتها ، بـــل الى جزء من الروح الكونية سكب في الانسان والى علاقة هذا الجزء بباقي الانسان . فالكائن الواعي المجوسي هو

ميدان لمعركة تدور رحاها بين جوهري العالم ، بين النور والظلمة . أما المفكرون الفاوستيون المبكرون زمناً كدنز سكوتز Duns Scotus ووليام أوف أوكام Occam ، فهم يرون عكس هذا الرأي ، اذ أنهم يرون منافسة فطريـــة داخل الشعور الواعي الديناميكي نفسه ، منافسة بين طاقتي الأنا — وأعني بذلك الارادة والعقل ، وهكذا فان السؤال الذي طرحه اوغسطين يتحول بصورة لا شعورية الى سؤال آخر ، سؤال لربما كان هو نفسه عاجزاً عن فهمـــه ، — هل الارادة والعقل هما طاقتان مريدتان ومفكرتان وحرتان ، أم هما ليسا كذلك ؟ ولنجب على هذا السؤال كيفما نرغب ونشتهي ، ولكن هنا امرا واحدا مؤكدا ألا وهو أنه يتوجب على الأنا الفردية أن تخوض غمرات هذه الحرب ، لا أن تكابدها أو تعانيها . فالنعمـــة الفاوستية تشير الى نجاح الارادة وانتصارها وليس الى نوع الجوهر . ويقول اعتراف وستمنسر للبرسبيترين (١٦٤٦) : « لقد كان الله مسرورا بأن يتغاضى عن بقية الجنس البشري وفق رأي ارادته التي لا يمكن تقصيها ، والتي بواسطتها يمنح الرحمة او يمنعها ، كيفما يشاء ، من أجل مجد سيادة سلطانه على مخلوقاته ، وأن يفرض الخزي والسخط بسبب خطيئتهم ، وتمجيـدا لعدالته البهية الرائعة . »

أما المفهوم الآخر القائل بان فكرة النعمة تطرح جانباً كل ارادة فردية وكل علة ما عدا العلة الواحدة ، وأنه لخطيئة حتى أن يسأل الانسان لماذا يتألم ، اقول أن هذا المفهوم يجد التعبير عنه في اقوى الاشعار التي عرفهـــا تاريخ العالم ، في قصيدة ظهرت الى الوجود في منتصف مرحلة ما قبـل الحضارة العربية ، وهذه الحضارة لا تملك لهذه القصيدة مثيلاً في روعتها الباطنية — وأعني بها سفر أيوب . فليس أيوب ، بل أصحابه هم الذين يفتشون عن خطيئة تعود اليها أسباب آلامه . فهم — كالأكثرية الساحقة من الجنس البشري لهذه الحضارة وكل حضارة أخرى ، ولذلك بما فيهم القراء المعاصرون ونقاد الاعمال — أقول هؤلاء يعوزهم العمق الميتافيزيقي كي يتمكنوا من الاقتراب من المعنى النهائي للتألم داخل كهف العالم .

فهنا البطل نفسه يحارب وحده طيلة مرحلة الاكتمال حتى الاسلام المجرد وبهذا، يصبح الشخصية الوحيدة التي يمكن للمأساة المجوسية أن تضعها وفاوست جنباً الى جنب .

- ٣ -

ان الشعور الواعي لكل حضارة يسمح بطريقتين من باطنية ، تلك الطريقة التي ينتشر بموجبها الشعور التأملي داخل الفهم ، وتلك التي يحدث بموجبها العكس من ذلك . ويسمي سبينوزا التأمل المجوسي « بالمحبة العقلانية داخل الله (Mahw) » ويمكن ان يكثف هذا التأمل فيبلغ الذهول الروحاني المجوسي الذي منح لبلوطينس مرات عديدة ، ولتلميذه بورفيري مرة واحدة في سن متقدمة من العمر ، في شيخوخته . أما الجانب الآخر من الباطنية ، (انتشار الفهم داخل الشعور الواعي - المترجم) أي الجدلية التلمودية ، فانه يظهر لدى سبينوزا كمنهاج هندسي ، ويتبدى في الفلسفة العربية - اليهودية كالكلامية بصورة عامة . وكلاهما يرتكزان الى الواقعة المقررة أنه لا توجد في المجوسية « أنا » فردية ، بل يوجد فقط روح واحدة موجودة ، في الوقت الواحد ، داخل كل فرد من المصطفين ، وهي كذلك الحق . ونحن لا نستطيع ان نبالغ في التشديد مؤكدين على أن ناتج فكرة الجذر ، فكرة الاجماع ، هو اكثر من مفهوم او رأي وعلى أنها يمكن ان تكون خبرة معاشة حتى لطاقة كاسحة ماحقة ، وعلى أن جميع الطوائف من النوع المجوسي ترتكز اليها ، وأن بارتكازها هذا ، تنأى وتنعزل عن جميع الطوائف الاخرى لكل حضارة اخرى . فالطائفة الصوفية في الاسلام تمتد من هنا الى الماورائية ، وهي تبلغ ما وراء القبر ، وبهذا فهي تضم الموتى من المسلمين من الأجيال الأبكر زمناً . لا بل انها تضم ايضاً الأبرار في عصور ما قبل الاسلام . ويشعر المسلم بأنه مرتبط بوحدة واحدة وجميع من ذكرت . وهؤلاء

يقدمون العون له ، وهو بدوره يستطيع أن يزيد في غبطتهم وطوباهم بواسطة ممارسة أهليته وجدارتـــه الخاصتين به . » والشيء ذاته هو ما كان يعنيه تماماً المسيحيون واشياع المذهب التوفيقي للتشكل الكاذب عندمـــا كانوا يستعملون الكلمتين Polis و Civitas — فهاتان الكلمتان اللتان كانتا فيما مضى تدلان على مجموع من الاحجام والاجسام ، أصبحتا تعنيان الآن اتحاداً يضم الرفاق المؤمنين .
زد على ذلك أن Civitas Dei (دولة الله) الشهيرة لاوغسطين لم تكن مدينـــة كلاسيكية ولا كنيسة غربية ، بل كانت وحـــدة من مؤمنين ومباركين وملائكة ، تماماً كطوائف مترا والاسلام ، وماني ، وفارس . فالطائفة كانت ترتكز على الاجماع ، وهي معصومة عن الخطأ في الأمور الروحية . ولقد قال محمد : « ان شعبي لايمكن ابداً أن تجمع كلمته على خطأ » ، وهذا الشيء ذاته هو المقدمة المنطقيـــة في دولة الله لأوغسطين فالنسبة الى اوغسطين لم يكن هناك ولا يمكن ان يكون هناك اي وجود « للأنا » البابوية المعصومة عن الخطأ ، أو لأي نوع آخر من سلطة للبت في الحقائق الدغماتية ، فوجود مثـــل هذا الأمر يدمر تدميراً كامـــلًا المفهوم المجوسي للاجماع . والشيء ذاته ينطبق على هذه الحضارة بصورة عامة — ولا ينطبق فقط على الدوغما ، بل أيضاً على القانون والدولة . فالطائفة الاسلامية ، كطائفة بروفيري أو اوغسطين ، تضم كامـــل كهف العالم ، تضم الـ — هنا والـ — ما وراء ، والملائكة والارواح المستقيمة (الارثوذكسية) والخيرة ، والدولة تشكل داخل هذه الطائفة فقط وحدة أصغر من الجانب المنظور ، وحدة يحكم الكل الرئيسي اعمالها ويسيطر عليها . ولذلك فان الفصل بين السياسة وبين الدين هو امر مستحيل نظرياً في العالم المجوسي ولغو وبطلان ، بينما أننا نرى في الحضارة الفاوستية أن الحرب بين الكنيسة والدولة ، هي حرب ملازمـــة لكل المفاهيم — لذلك فهي حرب لا تنتهي بالضرورة من الوجهة المنطقية . فالقانون المدني في العالم المجوسي قانون ينطبق ، بكل بساطة على القانون الديني . فلقد كان البطريرك يقف جنباً الى جنب وامبراطور القسطنطينية ، وكذلك تزاراتستراتيا والشاه وغاوّن Gaon واكسلارخ ، وشيخ الاســـلام والخليفة ، وهؤلاء كانوا في الوقت ذاتـــه رؤساء ورعايا معاً . وليس هناك اقل

تشابــه بين هذا وبين العلاقة الغوطية بين الامبراطور والبابا ، وكذلك كانت جميع مثل هذه الفكر غريبة عن العالم الكلاسيكي . وهذا المزج المجوسي بين الدولة وطائفة المؤمنين قد تم لأول مرة في دستور ديوكلستيان ، وسار بــه قسطنطين حتى اكتماله . ولقد سبق لنا أن أظهرنا أن الدولة والكنيسة والأمة ، تشكل معاً وحدة روحية ـ وخاصة ذاك الجزء من الاجماع الارثوذكسي الذي يظهر ذاته داخل الانسان الحي . ومن هنا كان يرى الامبراطور ، بوصفه اميراً للمؤمنين ـ اي اميراً لذاك الجزء من الطائفــة المجوسية الذي اوكل الله أمرهم اليه ـ أن واجبه واضح كل الوضوح ، في أن يوجه المجامع الوجهة التي تؤمن اجماع المصطفين على الرأي .

- ٤ -

ولكن يوجــد ، الى جانب الاجماع ، نوع آخر من الاعلان الإلهي عن الحقيقة ـ وأعني بهذا « كلمة الله » بما لهذا التعبير من مفهوم مجوسي مقرر ومجرد ، وهذا مفهوم بعيد ، بالمثـل ، عن الفكرين من كلاسيكي وغربي ، وكان نتيجة لبعده عنهما منبعاً لما لا يعد او يحصى من اخطاء فهم . أما الكتاب المقدس الذي أصبح فيه هذا المفهوم منظوراً وواضحاً ، والذي اسر داخله بواسطة سحر كتابة مقدسة ، فانه يشكل جزءاً من مخزون كتب كل دين مجوسي . وقد حيكت معاً داخل هذا المفهوم ثلاثة آراء مجوسية وكل رأي من هذه الآراء يمثل ، حتى بحد ذاته ، مصاعب هائــلة بالنسبة لنا ، فانسلاخ كل رأي منها عن الآخر ، ووحدانيةهذه الآراءمعاً ، هما أمران يستعصيان ، بكل بساطة ، علىفكرنا الديني ، مع أن هذا الفكر قد حاول مراراً أن يقنع نفسه بعكس ما أوردت . وهـذه الفكر الثلاث هي : الله ، وروح الله ، وكلمة الله . وهي المكتوبة في فاتحة انجيل يوحنا ـ « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الله الكلمة ـ »

وقد وردت هذه الفكر الثلاث ، قبل ورودها في انجيل يوحنا بزمن طويـل ، وخرجت ، قبل تلك ، الى ميدان التعبير خروجاً طبيعياً تاماً بوصفها شيئاً ما « غنيا » عن البيـان في الفكر الفارسية سبنتا مينيو Spenta Mainyu وفوهو مانو Vohu Mano ، وتجلت بوضوح في المفهومـــين من يهودي وكلداني ، والمطابقين لهذا المفهوم الفارسي . وكان اللب الذي دارت حوله الاشتبكات في القرن الرابع والخامس ، هذه الاشتبكات المتعلقة بجوهر المسيح . ولكن الحق هي في نظر الفكر المجوسي جوهر بحد ذاته ، والكذب (او الخطأ) هو جوهر ثان — وهذه ايضاً هي نفس الثنائية التي تقابل النور والظلمة ، الحيـــاة والموت ، الخير والشر . والحق بوصفه جوهراً ، هو حيناً الله بذاتـــه ، وحيناً روح الله بعينها ، وآخر كلمة الله نفسها . وفقط على مثـل هذا الضوء نستطيـع أن ندرك قولاً كهذا :

« أنا الحق والحياة » و « كلمتي هي الحق » وهذان قولان يجب ان يفهما ، كما قصد لهما من معنى ، استدلالاً بالجوهر . وعلى هذا الشكل ايضاً نستطيـع أن نعرف : بأية عين كان الرجل التقي لهذه الحضارة ينظر الى كتابه المقدس : ففي هذا الكتاب قد دخل الحق المنظور نوعاً منظوراً من وجود ، أو على حد تعبير انجيل يوحنا في الاصحاح الاول عـ ١٤ : « والكلمة صار جسداً وحـل بيننا » . وحسب قول الياسنا Yasna ، فان الافستا قد أنزلت من السماء الى الأرض ، والتلمود يقول بأن موسى تلقى التوراة من الله سفراً بعد سفر . فالاعلان الإلهي المجوسي هو عملية صوفية حيث تدخل كلمة الله — أو رأس الله بوصفه كلمة — الخالدة التي لم يتم شكلها انساناً من البشر ، بغية ان تتخـــذ من خلاله الشكل المنظور المحسوس للاصوات وخاصـة الأحرف . « فالقرآن » يعني « قراءه . » ومحمد شاهـــد في احدى الرؤى ، ملفات من اسفار مقدسة في السماء واستطاع (بالرغم من أنه لم يتعلم ابداً القراءة) أن يحل رموزها « باسم الله » . وهذا هو شكل من اشكال الاعلان الإلهي ، وهو في الحضارة المجوسية قاعدة وقانون ،

وهو ليس حتى استثناء في الحضارات الأخرى ، ولكنه بدء يتخذ شكلاً ابتداء من عصر قورش . فالانبياء الاسرائيليون القدماء ، ولا شك زردشت ايضاً ، يشاهدون ويسمعون ، في ساعـة الانتشاء الروحي ، اشياء يقومون بنشرها واذاعتها فيا بعد . فسفر تثنية الاشتراع ، قد اعطي « على الحال التي وجد فيها في الهيكل » وهذا يعني أنـه يجب ان يعتبر بوصفه حكمة الآب . واول مثال (وعامد متعمد) « للقرآن » هو سفر حزقيال ، الذي تلقاه مؤلفه من الله خلال رؤيا متبصرة ثم ابتلع حزقيال السفر . وهنا تتبدى القاعدة التي ارتكزت عليها فيا بعد فكرة جميع كتابات الرؤى وشكلها . ويعبر عنها بشكل بعيد كل البعد عن الصقل او التشذيب او التكرير ، فهو خام الى ابعد حد يمكن ان يتصوره الخيال . ولكن هذا الشكل الجوهري من التلقي اصبح تدريجيا من متطلبات اي كتاب يراد له ان يكون كتابا قانونيا دينيا . وقد نشأت الفكرة القائلة بأن موسى قد تلقى لوائح الشريعة على جبل طورسينا ، في ازمان ما بعد السبي ، ومن ثم انتحلت كامل التوراة مثل هذا الاصل ، وامسى يزعم ، قرابة الحقبـة المكابية ، بأن للعهد القديم بأجمعه ، اصلا كهذا . وابتداء من مجمع جبنا Jabna (قرابة عام ٩٠ ق.م) اصبحوا يعتبرون بأن كل كلمة وردت في الكتب الدينية اليهودية ، هي كلمة من وحي وأنزلت بكل ما لحروفها من معنى . ولكن هذا التطور ذاته حدث في الدين الفارسي بغية ارضاء الأفستا ، وحدث في القرن الثالث ، وتتبدى فكرة التنزيل ذاتها في الرؤيا الثانيـة لهرماز Hermas ، وفي سفر رؤيا يوحنا ، وفي الكتابات الكلدانية و كتابات العارفين والمندين ، واخيراً فهي تكمن كقاعدة طبيعية مضمرة ، وراء جميع الفكر التي شكلها الفيثاغوريون والافلاطونيون الجدد من كتابات اساتذتهم القدمـاء . « فالقانون الديني » هو التعبير الفني عن مجموع الكتابات التي تسلم بها الاديان على أنها منزلة . وقـد اعتبرت ، وفق هذا المفهوم المجموعتان الهرمزية والاوراكل الكلدانية ، وهذه المجموعة ظهرت ابتداء من عام ٢٠٠ ، اقول اعتبرت قوانين دينيـة ـ وكانت المجموعة الاخيرة كتاباً مقدساً للافلاطونيين الجدد ، وقـد وافق بروكلس

Proclus ، راعي هذه الكنيسة « ووالدها » عليها وقبل ان توضع في مصاف طيموس لافلاطون .

وقد اعترف أصلا دين يسوع الفني ، كما اعترف يسوع نفسه بالشريعة اليهودية . فالأناجيل الاولى لا تبدي اي نوع من زعم بأن الكلمة صارت منظورة ، وانجيل يوحنا هو اول كتاب مسيحي يستهدف الغرض ذاته الذي يستهدفه القرآن . ولا شك أن المؤلف المجهول لهذا الانجيل هو صاحب الفكرة القائلة بأنه من الجائز ، لا بل يجب ان يكون هناك قرآن مسيحي . فالقرار الخطير الحاسم في عما اذا كان متوجباً على الدين (المسيحي) الجديد أن ينسلخ عن ذاك الدين الذي آمن بـه يسوع ، قد تقنع ، مرغماً تحت ضغط الضرورة العميقة ، بالسؤال عما اذا كان من الجائز أن يسترسل في اعتبار الاسفار الدينية اليهودية تجاسيد للحق الواحد . لقد كان جواب انجيل يوحنا بـلا مضمرة ، وجواب ماركيون بكلا صريحة ، وجواب الآباء بنعم تتنافى تماماً والمنطق .

ويستنتج من هذا المفهوم الميتافيزيقي لجوهر أي من الكتب المقدسة ، أن التعبيرين « الله يتكلم » و « الكتاب الديني يقول » كانا تعبيرين ينطبق أحدهما على الآخر انطباقاً تاماً وبشكل غريب تمامـاً عن فكرنا (نحن معشر الغربيين — المترجم) ويبدو لنا من الليالي العربية (الف ليلة وليلة) ، وبأسلوب ايحائي ، أن الله يجب أن يكون معقود اللسان في هذه الكلمات والاحرف التي يمكن أن تفض اختامهـا وترغم على اظهار الحق بواسطة المتضلعين في هذا السحر . فالتفاسير الدينية لا تقل ابداً عن الوحي ، والتعاليم الدينية هي عملية من معاني باطنية صوفية (انجيل مرقص الاصحاح الاول عدد ٢٢) . ومن هنا ينشأ التبجيل — الذي هو على طرفي نقيض والشعور الكلاسيكي — الذي احاط برعايـة هذه الكتب الثمينة والعناية بها ، وزخرفتها بكل وسيلة واسلوب عرفـه الفن المجوسي الفني ، وظهور خطوط كتابية جديدة المرة بعد المرة ، خطوط كانت تبدو في

نظر مستخدميها أنها هي الوحيدة التي تملك قوة الاستيلاء على الحق المنزل واستيعابه .

ولكن قرآناً كهذا هو مجد طبيعته بالذات ، قرآن غير مشروط في صحته ، ولذلك فهو لا يقبل تعديلاً او تحويراً ولا يحتمل تحسينا . ونتيجة لذلك نشأت التفاسير السرية والفتاوى التي كانت تستهدف اقامة تناغم وانسجام بين النص وبين قناعات العصر . وتحفة هذه التفاسير والفتاوى هي مجموعة القوانين المدنية التي وضعها يوستنيان ، ولكن هذا القول ذاته لا ينطبق فقط على كل سفر من اسفار الكتاب المقدس ، ولكنه (دون ريب) ينطبق ايضا على كتب افلاطون وارسطو الدينية وغيرهما من علماء اللاهوت الوثني الذي كان شائعا بين الناس في ذاك العصر . وأهم من هذا هو الزعم ، الذي لا نزال نجد له اثراً في كل دين مجوسي ؛ الزعم بوجود اعلان الهي سري ، او معاني خفية الكتب الدينية ، وأن ذاك الاعلان وهذه المعاني لا تحفظ بواسطة تدوينها ، بل انما تحفظ داخل ذاكرة الفقهاء المتضلعين بأمور الدين ، وتنتشر وتبلغ شفويا . وحسبما تقوله الظنون والآراء اليهودية ، فان موسى لم يتلق ، على طورسينا ، التوراة المكتوبة فقط ، بل انما تلقى ايضا توراة شفوية خفية ، منع من تدوينها . فالتلمود يقول بهذا الشأن :

(لقد رأى الله أنه سيأتي يوم يمتلك فيه الوثنيون انفسهم توراة وسيقولون حينذاك لاسرائيل : « نحن ايضا ابناء الله . » وبماذا سيجيبهم الله آنذاك ، سيقول « ان الذي يعرف اسراري هو وحده ابني) . ولكن ما هي اسرار الله هذه ؟ انها التعاليم الشفوية . اذن فالتلمود، في الشكل الذي هو بمتناول اليدالآن ،يحتوي فقط على جزء من مادة الدين ، والأمر ذاته ينطبق ايضا على النصوص المسيحية التي عرفتها الحقبة المبكرة زمنا . ولقد لاحظ الكثيرون ومرات عديدة ، أن مرقص يتحدث عن الافتقاد الإلهي وعن قيامة المسيح تلميحا فقط ، وأن يوحنا يتحدث فقط عن الروح القدس ، ويحذف سنة عشاء السيد تماما . فالاوائل من

المطلعين فهموا ما تعنيه هذه التلميحات ، ومن المتوجب ألا يفهمها من لا يؤمنون بايمانهم . وقد نشأ فيما بعد « نظام انضباط سري » كان يفرض على المسيحيين أن يصمتوا ، في حضرة غير المؤمنين ، عن الحديث في موضوع عقيدة المعمودية وفي مواضيع اخرى . وقد بلغت هذه النزعة بالكلدانيين وبالفثاغوريين الجدد وباتباع المذهب الكبي وخاصة بالملل اليهودية والاسلامية الى درجة كتلك جعلتنا لا نعرف اي شيء من الجزء الاكبر من عقائدهم السرية . فلقد كان يحيط بالكلمة المحفوظة على هذا الشكل داخل اذهانهم فقط ، اجماع على الصمت ، واكثر من هذا كان كل مؤمن قانعاً بأن أخاه المؤمن يعرف ، « وعرف » مغزاها . ونحن أنفسنا نغامر ، كأننا نغامر في أهم الاشياء المتأكدين منها اشد التأكد المباشر ، فنسيء ترجمة العقائد المجوسية وذلك بأخذنا جزءا قد عبر عنه منها ، بوصفه كلا كاملاً لتلك العقائد التي وجدت فيا مضى ، ونأخذ المعاني الحرفية الدنيوية للكلمات على أنها معان للمغزى الحقيقي لها . اما المسيحية الغوطية فلم تكن لديها اسرار ، ولهذا شكت في التلمود شكاً مزدوجاً ، واعتبرته ، وبحق ، كمقدمة صورة العقيدة اليهودية فقط .

والكابالا هي ايضاً نقية في مجوسيتها ، حيث أنها تفض المغازي السرية من الارقام واشكال – الحرف ، والنقاط والخطوط الفواصل ، ولذلك لا يمكن لهذه ان تكون قديمة قدم الكلمة نفسها التي أنزلت بوصفها جوهراً الى الارض . ونحن لا نزال نجد اثراً للعقيدة السرية القائلة بخلق العالم من الحروف الاثنين والعشرين للأبجدية العبرانية ، وعقيدة مركبة – العرش في رؤيا حزقيال ، في الازمان المكابية . وترتبط بهذه التفاسير المجازية للنصوص المقدسة ارتباطاً وثيقاً . وتملأ هذه ايضاً كل نبذة من المشنا وكل رسائل الآباء وفلاسفة الاسكندرية . ففي الاسكندرية كانت تعالج كل الاساطير الكلاسيكية وحتى افلاطون نفسه بمثل هذا الاسلوب ، وقد اقاموا مماثلة بينها وبين الانبياء اليهود . (موسى = موساوس) (Moses = Musaeus) .

ان القرآن الذي لا يقبل تعديلاً او تبديلا ، لا يسمح للرأي التقدمي من المناهج ، الا بالمنهاج الدقيق في علمانيته ، ألا وهو التفسير . فالفرضية كما تقول : ان « كلمة » العلم لا يمكن ان تحسن ، وأن الوسيلة الوحيدة للتعامل معها هي اعادة ترجمتها . كما وأنه لم يكن هناك في الاسكندرية من انسان يستطيع أن يزعم بأن افلاطون كان « على خطأ » ، بل انما كانوا يتبحرون في اقواله ويتمعنون في معانيه . وقد تم هـــذا الامر وفق اشد ما للهالاخا Halakha من اشكال ، وتثبيت هذه الشروح كتابة يتخذ شكل التفسير ، هذا الشكل الذي يسيطر على كل الكتابات الدينية والفلسفية ومؤلفات العلماء لهذه الحضارة . واقتداء بمسلك اتباع مذهب المعرفة ، قام الآباء بجمع هذه التفاسير الى الكتاب المقدس ، وبالمثل فان التفسير البلهوي للزنـد Zend ظهر ايضاً جنباً الى جنب والأفستا ، وظهر المرداش Midrash الى جانب الشريعة اليهودية . ولكن الفقهاء من الرومان وفلاسفة الحقبة الكلاسيكية المتأخرة زمناً — واعني بهؤلاء مدرسي كنيسة المذهب الناشئة قد سلكوا الطريق ذاتها تماماً ، كما وأن رؤيا هذه الكنيسة التي شرحت المرة تلو المرة ، بعد بوسيدونيوس Posidonius ، فانها كانت طيميوس Timaeus لافلاطون . وما المشنا سوى تفسير واسع مسهب للتوراة . وعندما اصبح علماء التفسير انفسهم مراجع ، واصبحت كتاباتهم قرآناً ، انطلق الناس في كتابـــة التفاسير تفسيراً بعد تفسير ، كما فعل سمبلسيوس آخر الافلاطونيين في الغرب ، وفعل الأموريم الذين اضافوا الجمارة الى المشنا في الشرق ، والفقهاء الذين صنفوا في بيزنطه ، الدساتير الامبراطورية في مجموعات من القوانين المدنية .

وهذا المنهاج ، الذي يرد ، متوهماً ، كل قول الى نطق موحى به مباشرة ، بلغ ذروتـــه في اللاهوتين من تلمودي واسلامي . فهالاخا جديدة ، او حديث جديد ، هو صحيح وصائب اذا كان مسنداً فقط الى سلسلة لا تنقطع من الرواة الموثوقين ، تبلغ موسى او محمد وكانت الصيغـــة المهيبة الخطيرة للاسناد في

القدس : « فليرووا هذا عني ا على هذا الشكل سمعته من المعلم . » والقيام بسرد سلسلة الموثوقين في الزند قاعدة وقانون ، واريناپوس يبرر لاهوته بالواقعة القائلة بأن للاهوته سلسلة تمتد منه عبر بوليكارب حتى تبلغ الطائفة المسيحية البدائية. وقد دخل شكل هذه المالاخا على المسيحية بصورة غنية عن البيان الى درجة لم يشعر معها بدخولها احد . وتظهر ، ما خلا ، جميع هذه الاسنادات الدائمة الى القانون والانبياء ، اقول تظهر عناوين الأناجيل الاربعة ، التي يتوجب على كل انجيل منها (حسب قول مرقص) أن يقدم مرجعه اذا ما اراد أن يدعي صحة نسبة الكلمات التي يعرضها ، الى السيد المسيح . وهذا هو الذي اوجد السلسلة الممتدة وراء الى التوراة التي تجسدت في المسيح ، ومن المستحيل علينا أن نغالي في الحقيقة المكثفة الشديدة لهذا الامر ، داخل فكرة ــ عالم انسان كأوغسطين أو جيروم . وهذه هي القاعدة للمارسة هذه ، التي تزايد انتشارها اتساعاً حتى ابتداء من عصر الاسكندر فما بعده القاعدة القائلة بتزويد الكتابات الدينية والفلسفية باسماء واضعيها ، كأخنوخ وسليمان وعزرا وهرمز وفيثاغوروس ــ مسانيد الحكمة الإلهية ومواعينها ، والذين اصبحت فيهم الكلمة جسداً منذ القديم . ونحن لا نزال نملك رؤى تحمل اسم باروخ ، الذي كان يقارن بومذاك بزردشت ، ونحن بالكاد نستطيع ان نشكل فكرة ، عما كان شائعاً وذائعاً من كتابات غطيت باسمي افلاطون وفيثاغوروس . ولقد كان « لاهوت ارسطو » من اوسع انجازات الافلاطونيين الجدد نفوذاً واعمقها تأثيراً . واخيراً فان هذا المستلزم الميتافيزيقي للاسلوب والمعنى الاعمق للاسناد ، والذي استخدمه الآباء والربيون والفلاسفة من اليونان وفقهاء « الرومان » ، وانتهى ، من جهة ، الى قانون فالنتنيان الثالث ، والى استئصال الكتابات المشكوك في صحتها من القوانين الدينية اليهودية والمسيحية ــ اقول ان هذا المستلزم هو رأي اساسي يفرق بين مواد الخزين الكتابي وفق الفرق في الجوهر .

- ٥ -

سيصبح من المستحيل علينا في المستقبل ان نكتب تاريخاً لمجموعة الاديان المجوسية، اذا ما استندنا الى ابحاث كتلك . فهذه المجموعة تشكل وحدة من روح وتطور لا يمكن ابداً العزل او الفصل بين عناصرها ، ويجب على المرء ألا يتخيل ابداً انه باستطاعته ان يفهم احد اديان هذه المجموعة دون العودة الى بقية الأديان التي تتألف منها . ان ولادة هذه الاديان وانتشارها وتثبيتها الباطني تقع في الحقبة الممتدة من عام ٠ – ٥٠٠ . وهذه تتوافق تماماً ونشوء الدين الغربي ابتداء بالحركة الكلانية Cluniac حتى عصر الاصلاح الديني . ويملأ هذه القرون عطاء وأخـذ متبادلان وازدهار مدهش بخصبه وثرائه ، ونضوج مذهل وتحولات شكل – وطلاءات وهجرات وتكاييف ورفوض – وذلك كله دون اي نوع من اعتماد المنهاج الواحد على كون المناهج الاخرى ثابتة بالبراهين والأدلة . ولكن اشكال هذه الاديان وتراكيبها هي وحدها التي تتغير او تتبدل ، اذ أن في اعماق هـذه الاديان تكمن الروحانية الواحدة ذاتها ، وهذه الروحانية هي نفسها التي تنطق دائماً بجميع لغات عالم الاديان هذا .

عاشت شعوب فتية في المناطق الريفية البابلية القديمة . وكان كل شيء هنا في حال من تحفز وتوثب واستعداد . وتبدت اولى ارهاصات المستقبل قرابة عام ٧٠٠ قبل المسيح ، وذلك في الأديان النبوية من فارسية ويهودية وكلدانيـة . وتجلت صورة خليقة من نوع واحد ، قدر لها أن تكون فاتحة التوراة ، وتبدت هذه الصورة بخطوط واضحة جلية ، وتقرر الى جانبها تنظيم واتجـــاه وهدف ورغبة . فشيء ما أدركته البصائر وهو لا يزال في رحم الغيب والمستقبل البعيد ،

انـه شيء كان لا يزال آنذاك غامضاً مظلماً مبهماً ، لكن القناعة بمجيئه كانت وطيدة راسخة . ومنذ ذاك الحين فما بعد عاش الناس رؤى هذا الشيء وكان يرافق عيشهم هـذا احساس عميق برسالة وتورمت موجـــة ثانية وانتفخت ثم تدحرجت في تيارات من رؤى هبت في اعقاب عام ٣٠٠ . فهنا قـــد استيقظ الشعور الواعي المجوسي وهب يبني لذاته ميتافيزيقا للاشياء الاخيرة ، ميتافيزيقا ارتكزت الى الرمز الاولي للحضارة الآتية ، الا وهو الكهف . وتفجرت في كل مكان فكر عن نهاية العالم المرعبة ، وعن الدينونة الاخيرة والقيامة والفردوس والجحيم ، وكان يرافقها الفكر الرائع بعملية الخلاص حيث يكون مصير الارض والانسان واحـداً – ونحن لا نستطيـع القول اي بلد او شعب هو الذي خلق هذه الفكر واوجدها – وقد جليت بمشاهد واشكال واسمـاء عجيبة مدهشة . فشخصية – المسيح تعرض ذاتها كاملة بضربة واحدة . وتجربة الشيطان للمخلص تروى كأنها اسطورة او خرافة. ولكن رعباً عميقاً متزايداً ابداً نشأ وانتفخ في الوقت ذاته ، وانتصب امام هذه القناعة بوجود حد نهائي – وشيك – لا يرحم ، حد نهائي لكل حدوث ، وبلحظة لا يكون عندها الا الماضي . وقد اعطى الزمان المجوسي ، اي « الساعة » ، الاتجاهيـــة تحت الكهف ، نبضاً جديداً للحياة ، ومغزى جديداً لكلمة « المصير » . وأمسى فجأة موقف الانسان من الالوهية مختلفاً تماماً عما كان عليه فيما مضى . وقد وصف بعل ، في النقوش المحفورة على الباسيليكا العظيمة في تدمر ، (والتي ظن فيها طويلاً أنها مسيحية) بالخير والرحيم والرؤوف ، وقد نفذ هذا الشعور مع عبادة الرحمـن حتى بلغ جنوب الجزيرة العربية . وهو يملأ المزامير الكلدانية ، وحلت التعاليم عن زردشت المرسل من الله ، محل تعاليم زردشت نفسه . وهو الذي حرك يهودية العصور المكابيـــة – فمعظم المزامير كتبت في تلك العصور – وآثار كل الطوائف الأخرى التي أسدل عليهـا الآن الزمان ستار النسيان هي في المناطق الواقعة بين العالم الكلاسيكي والعالم الهندي .

وحدث الجيشان العظيم الثالث في زمن قيصر ، وتمخض عن أديان الخلاص العظمى . ومعــه انتصبت الحضارة وأطلت على يوم رائع مشرق ، أما ما تبعه بصورة مستمرة وخـــلال قرن او قرنين من الزمن ، فانما كان تكشيفاً للخبرة الدينية ، تكشيفاً لا يعلى عليه ولا يطاق معاً . وتوتر كهذا يلامس نقطة تفجر نفس – الحضارة ، أغوطية كانت ام فيدية او اية نفس – حضارة اخرى معروفة لدينا ، ويلامسها مرة واحدة فقط وفي فجرها الوليد .

وهنا نشأت الآن الاسطورة العظمى في دوائر المعتقدات من فارسية ومندائية ويهودية ومسيحية ، ودوائر التشكل الكاذب الغربية – وعلى الشكل ذاته تماماً التي نشأت وفقه في عصور الفروسية من هندية وكلاسيكية وغربية . وفي هـذه الحضارة العربية لا نستطيع أن نفصل بين البطولة الدينية والبطولة القوميـة بوضوح اكثر من الفصل بين الأمـة والكنيسة والدولة ، أو بين القانون المنزل والقانون الموضوع . فهنا يمتزج النبي في المقاتل ، وترتفع قصة المتألم العظيم فتبلغ مرتبة الملحمة القومية ، وهنا تتصارع قوى النور والظـــلام ، وتحترب كائنات اسطورية ، وتقتل الملائكة والشياطين ، ويلتحم الشيطان مع الارواح الطيبة ، وتصبح الطبيعـــة كلها ، ابتداء من ولادة العالم حتى دماره ، ميدان صراع وقتال . وتشترع في الدنيا هذه ، عالم الجنس البشري ، مغامرات وآلام المبشرين بالدين وابطاله وشهدائه . وقد كانت لكل امـة ترتبط بهذه الحضارة اسطورتها البطولية الخاصة بها . وقد ألهمت حياة النبي الفارسي في الشرق الشعراء بمخطط رائع لشعر ملحمي . فلقد كانت قهقهات زوردشت حين ولادته تجلجل في السماء وتدوي ، وكانت كل الطبيعة تردد اصداءها . وفي الغرب ، أمست آلام المسيح التي كانت تتزايد ابداً اتساعاً وسعة وتطويراً ، الملحمة الصحيحة للأمة المسيحية ، وقد نمت على جوانبها سلاسل من الاساطير عن طفولتـــه ، هذه الاساطير التي أخصبت في النهايـــة وانمرت بنوع معين من الشعر . واصبحت شخصية ام الله واعمال الرسل ، كقصص ابطال الصليبيين الغربيين ، محوراً لروايات دينيـــة

(اعمال توما ، والكلامنتين الكاذبين) مسهبة مستفيضة ، حيث نبتت وفرخت في القرن الثاني في كل مكان يقع بين النيـــل ودجلة . وقد نسقت في الماغادا اليهودية وفي والتارغوم ، عدد وفير من الاساطير حول شاوول وداود والبطاركة والتنائيم العظام كشودا واكيبا ، وقد تناول خيـال العصر الذي لا يرتوي او يشبـع ما طالته يداه من اساطير المذهب الكلاسيكي المتأخرة زمناً ، ومن قصص حيـاة المؤسسين (كحياة فيتاغورس وهرمز ابولونيوس Apollonius أوف تيانا) .

ومع نهاية القرن الثاني تخفت اصوات هذا التمجيد وتخرس وتموت . ففصل ازدهار الشعر الملحمي قد مر وانتهى ، وأطل عصر سيطرة الميتافيزيقا والتحليل الدغماتي للمادة الدينية . فالبطولة تستسلم الآن للفلسفة الكلامية ، والشعر يخضع للفكر ، والعراف والباحث للكاهن . فالفلسفة الكلامية المبكرة ، والتي تنتهي قرابة عام ٢٠٠ (بينا الغربية تنتهي قرابـــة ١٢٠٠) تشتمل على كامل العلم الروحاني – وتشتمل في المعنى الاوسع على التأمل العظيم – وتضم مؤلف انجيل يوحنـــا ، وفلانتنيوس وباردسين Bardesanes ، وماركيون والمبررين Apologists والآباء الاولين حتى ارينيوس Irenaeus وتورتليان ، وآخر التنائيم حتى الربي يهودا الذي أتم المشنا ، والفيتاغوريين الجدد ونساك الاسكندرية . وكل هؤلاء يتوافقون في الغرب ، ومدرســـة شارتر وأنسلم ، ويواكيم اوف فلورس ، وبرنارد اوف كليرفو وهوغودي سان فكتور .

وتبدأ الفلسفة الكلاميـــة المليئة مع الافلاطونيين الجدد ، ومع كلمنت Clement واوريجين والآموراثيم الاوائل ، وواضعي الافستا الجديدة باشراف اردشير (٢٢٦ – ٢٤١) وسابور الاول ، وقبل هؤلاء جميعاً رئيس الكهنـة المازديين ، تانفاسار Tanvasar . وبدأ في الوقت ذاته تدين جديد ارقى ينسلخ عن ورع الفلاح في الريف الذي كان لا يزال يعيش داخل فطرته الرؤوية ، ومنذ ذاك الحين فما بعد ، حافظ هذا التدين على نفسه ، وتحت مختلف الاسماء ، من كل

تعديل او تبديل حتى عصر الفلاح التركي ، بينا امتص الاسلام الطوائف الفارسية واليهودية والمسيحية في العالم المتمدن والارقى عقلانياً .

وهنا بدأت الكنائس العظمى تتحرك بتؤدة وثبات متجهة نحو الاكتمال . فلقد تقرر بصورة حاسمة أن نتائج تعاليم يسوع لن تكون تبديلاً للديانة اليهودية ، بل انها ستكون كنيسة جديدة تسلك طريقها الى الغرب ، بينا تتجه اليهودية ، دون أن تفقد أي طاقة من قواها الباطنية ، نحو الشرق — وان ما أدت اليه تعاليم يسوع لهو أهم نتيجة دينية عرفها القرن الثاني . اما القرن الثالث فهو قرن تستأثر به التراكيب العقلانية العظمى للاهوت . فالدين يبلغ هنا مرحلة من تعايش سلمي والواقع التاريخي ، فالفكرة القائلة بنهاية العالم قد تقهقرت وتراجعت بعيداً بعيداً ، فهنا قد نشأت عقيدة جديدة (دوغما) لتشرح الصورة الجديدة للعالم . فبلوغ الفلسفة الكلامية مرحلة النضوج يفترض الايمان بديمومة العقائد التي اخذت هذه الفلسفة على نفسها امر تقريرها .

ونحن اذا ما القينا بنظرة على مجهودات الاديان المجوسية ، نرى ان موطن الآرمية قد طور اشكاله باتجاهات ثلاثة . ففي الشرق شكلت الكنيسة المازدية نفسها من الدين الزردشتي الذي عرفته ازمان الاخمينيين ، ومن بقايا كتاباته المقدسة ، واوجدت لها سلطة كهنوتية صارمة حازمة وطقوساً كدودة ، وامراراً مقدسة وقداديس وسر اعتراف . وقد قام تانقاسار ، كما ذكرنا آنفاً ، فكان اول من بدأ بجمع وتنسيق الأفستا الجديدة ، وقد أضيفت اليها تحت اشراف سابور الاول ، (وتم هذا في وقت واحد والاضافات على التلمود) النصوص الدنيوية من طب وقانون وعلم فلك . وجاء تجميعها وتكبيرها على يد ماهاراسبند Maharaspand ، مغنطيس الكنيسة ، وتحت اشراف سابور الثاني (٣٠٩ — ٣٧٩) . اما هذا النمو الفوري لتفسير ما في اللغة البهلوية ، فكان الشيء الوحيد الذي يجب ان يترقبه المرء من الحضارة المجوسية . فالأفستا الجديدة ، مثلها مثل الكتاب المقدس ، بشقيه اليهودي والمسيحي ، كانت شريعة تتألف من كتابات

منفصلة ، ونحن نعرف بأنـــه كان يوجد ، بين النسك Nasks (وهي اصلاً ٢١ سفرا) المفقودة الآن ، انجيل لزردشت ، وقصة هداية فيشتاسبا Vishtaspa وسفر تكوين ، وكتاب ـ قانون ، وكتاب سلالي يحتوي على اشجار عائلات تبدأ من الخليقـــة وتنتهي بملوك الفرس ، بينما أن الفنديداد Vendidad التي يسميها جلدنر بـ ليفيتيكس Leviticus فارس قد حوفظ عليها كاملـة باشد رعاية واهتمـام .

وظهر مؤسس دين جديد في عام ٢٤٢ ، وفي مدة ولايـة سابور الاول ، وكان هذا ماني الذي رفض اليهوديـــة والهيلينية « الخالية من الفداء » وصاغ الاديان المجوسية بكاملها في دين هو من اعظم الانجازات اللاهوتية وأهمها في كل العصور ـ وقد صلبته من اجله الكهانة المازدية عام ٢٧٦ فهو بعد أن سلحه ابوه (الذي تخلى عن عائلته في شيخوخته وانتظم في سلك رهبنة مانديـــة) بكل ما حقبته من علوم ومعارف ، قام بتوحيـــد الفكر الرئيسية للدينين الكلداني والفارسي مع مثيلاتها من مسيحية يوحنا والمسيحية الشرقية ـ وهذا عمل جرت محاولة القيام به من قبل وفي العلم الروحاني المسيحي ـ الفارسي الذي وضعـــه بارديسانيس ، ولكن هذه المحاولة كانت خاليـــة من فكرة تأسيس كنيسة جديـدة . وقد اعتبر ماني الشخصيات الصوفية للوغوس يوحنا « وهذا في نظره متوافق ومنطبـــق على فوهو ـ مانو Vohu — mano الفارسية » وزردشت اساطير الافستا وبوذا كما هو في النصوص المتأخرة زمناً ، فيضاً الهياً ، وأعلن نفسه على انه الروح القدس الذي تحدث عنه يوحنا في انجيله ، وأنه ساوشيانت Saoshyant الفرس . وكما نعلم ، والفضل بهذا يعود الى اكتشافات تورفان Turfan التي احتوت على اجزاء من مؤلفات ماني « وكانت حتى آنذاك مفقودة تماماً » اقول نعلم بأن لغة الكنيسة من مازدية ومانية ونسطورية كانت ـ مستقلة عن اللغات الدارجة ـ اذ انها كانت اللغة البهلوية . Pehlevi

وقد اوجدت كنيستا ـ المذهب في الغرب لاهوتا « وباللغة اليونانيـة » لم

يكن فقط مشابهاً لهذا اللاهوت ، بل انما كان ينطبق عليه ايضاً الى حد كبير .
وقد بدأ في زمن ماني الانصهار اللاهوتي لدين - الشمس الآرامي - الكلداني والمذهب الآرامي الفارسي ، مذهب مثرا ، وقد نشأ عن هذا الانصهار نظام ديني واحد ، وكان اول « آباء » هذا الدين العظام هو أيامبلخوس « قرابة عام ٣٠٠ » - معاصر اثناسيوس ، ولكنه معاصر لديوكلتسيان ايضاً هذا الامبراطور الذي جعل في عام ٢٩٥ مثراس الها « اله » لدين الدولة الموحد . ولم يكن ممكناً التفريق من الوجهة الروحانية بين كهنة هذا الدين وكهنة المسيحية بأي شكل من الاشكال . فبروكلوس « وهذا ايضاً « أب » حقيقي » قد تلقى في المنام شروحاً وتفاسير لبعض الفقرات الصعبة من النصوص . فطيميوس وأوراكل الكلدان كانت في نظره قوانين كنسية ، وكان لا شك سيسر ان يرى جميع كتابات الفلاسفة الآخرين طعماً الدمار . وترانيمه هي دلائل على تمزق الناسك الحقيقي وتفطره ، فهو يتضرع لهيليوس ومساعدين آخرين كي يحموه من الارواح الشريرة . وقد كتب هيروكليس Hierocles كتاب صلوات اخلاقية للمؤمنين من طائفة الفيتاغوريين الجدد ، ويحتاج المرء في هذا الكتاب الى عين نفاذة ونظرة ثاقبة كي يستطيع ان يفرق بينه وبين كتاب مسيحي مماثل له في موضوعه . وكان الأسقف سينسيوس Synesius هو الأسقف - الامير للافلاطونية الجديدة قبل ان يصبح الاسقف - الامير للمسيحية - هذا التبدل لم يشتمل على عمل من هدايته الى المسيحية وارتداده عن الافلاطونية الجديدة ، فهو قد احتفظ بلاهوته وبدل الاسماء فقط . وقد كان باستطاعة اسكليبيادس Asclepiades ان يكتب كتاباً عظيما عن تماثل جميع اللواهيت وتشابهها . ونحن نمتلك حتى هذا اليوم اناجيل وتواريخ لكتابات دينية وثنية ، مساوية لما لدى المسيحية من هذه . فلقد كتب ابولونيوس سيرة فيتاغوروس ، ووضع مارنيوس قصة حياة بروكلوس ، وألف داماسيوس سيرة اسيدور ، وليس هناك من أبسط فرق بين الكتب التي تبدأ وتنتهي بالصلوات وبين أعمال الشهداء المسيحيين . وبروفيري يصف الايمان والمحبة والأمل والحق بأنها العناصر الإلهية

الأربعة . ونرى الكنيسة التلمودية «الكنيس» المنتصبة في وسط كنائس الشرق والغرب ، تتطلع بابصارها، وبلغتها الآرمية المخطوطة ، الى الجنوب من اديسا . ولم تستطع الأديان اليهودية ـ المسيحية «كـ Ebionites, Elkaztes » والمندين وكذلك الكلدانية «الا اذا اعتبرنا المانية تركيباً ثانياً لذاك الدين» أن تحافظ على تراكيبها امام تلك الاسس القوية الثابتة والقواعد الوطيدة «لكنائس الشرق والغرب والكنيس ـ المترجم» . فتفتتت الى ملل لا تعد او تحصى ، وذوت ثم توارت في ظلال الكنائس الكبرى ، او امتصها تركيب هـذه ، كما حدث للماركيونيين والمونتانيين الذين امتصتهم المانية . وقرابة عام ٣٠٠ لم يبق لأي دين مجوسي هام وجود ما خلا الكنائس من وثنية ومسيحية وفارسيـة ويهودية ومانية .

- ٦ -

وانطلق ، الى جانب الفلسفة الكلامية الناضجة ، وابتداء بعام ٢٠٠ ، تيار من مجهود يرمي الى تثبيت هوية الطائفة المنظورة ، التي كان نظامها يتزايد دقة وصرامـة ، وتأكيد شخصيتها بكيان الدولة . وهذا نشأ بالضرورة عن شعور الانسان المجوسي بالعالم ، وأدى بـدوره الى تحول الحكام الى خلفاء ـ وهؤلاء سادة مجتمع مذهب واكثر بكثير من كونهم سادة لدوائر ومناطق ـ ونجمت عنـه ايضاً فكرة الارثوذكسية بوصفها شرطاً أساسياً ، ومقدمة منطقيـة للمواطنية الصحيحـة ، كما ونتج عنـه الواجب القاضي باضطهاد الأديان الملفقة («فالجهاد المقدس» في الاسلام مبدأ قديم قدم هـذه الحضارة نفسها حيث أن حقباتها مليئة باحداثه) ، ونجم عنـه نظام معين خاص اشترع داخل دولة غير المؤمنين ـ وتساهل معهم فقط في قوانينهم وادارتهم الخاصـة

(لأن القانون الذي أنزله الله لم ينزله للهراطقة) ـ ومع هـذا نشأ اسلوب حياة الغيتو Ghetto . وكانت اسرحون Osrhoene ، الواقعة وسط الصقع الآرامي اول من جعل المسيحية ديناً للدولة وذلك قرابة عام ٢٠٠ . ثم احتلت المازدية المرتبة نفسها في الامبراطورية الساسانية (٢٢٦) ، بينا أصبح المذهب التوفيقي هذا المركب من مذاهب ديفوس وسول ومتراس ، وباشراف اورليان «٢٧٥» وأم من هذا واولئك ديوكلتسيان « ٢٩٥ » دين الدولة للامبراطورية الرومانية . واعتنق قسطنطين عام ٣١٢ المسيحية ،وحذا حذوه في ذلك الملك ترداث ملك ارمينيا قرابة عام ٣٢١ ، وتبعه بعيد سنوات الملك ميريان ملك جورجيـــا اما في الجنوب البعيد ، فان سبأ يجب أن تكون قد اعتنقت المسيحية في القرن الثالث ، واكسوم في الرابع ، ومن جهة اخرى اصبحت في الوقت ذاته الدولة الحميريـة يهودية المذهب ، وكان هناك مجهود واحد اكثر ينتظر جوليان ليعود بالكنيسة الوثنية الى مراتب السلطان والسيادة .

وتباينا وهذا نجد ـ كما نجد في جميع أديان هذه الحضارة ـ انتشار الرهبانية بما لهذه من نفور واشمئزاز من الدولة والتاريخ والامر الواقع بصورة عامـة . وذلك لأن شكل الكنيسة المجوسية ، وتثبيت هويتها بالدولة والأمة ، لم يستطع بالرغم من كل شيء ، ان يسيطر سيطرة كاملة على الصراع الناشب ابداً بـــين الكينونة والكينونة الواعية ـ اي الصراع بين السياسة وبين الدين ، بين التاريخ وبين الحضارة . ولكنه لم يكن هناك من صراع بين الكنيسة والدولة في الحقبة القوطية ، ولذلك فان الانقسام في صفوف الامة كان بين المتدينين الدنيويين وبين النساك والمتقشفين . ويربط حصراً الدين المجوسي بالشرارة الإلهية ، الروح في الانسان ، هذه الروح التي يشارك فيها الطائفة غير المنظورة من المؤمنين والارواح المباركة اما ما تبقى من الانسان ، خلا الروح ، فانما هو ملك الشر والظلام . ولكن ما هو الهي داخل الانسان هو الذي يجب ان يحكم ويسيطر ويخضع ويدمر الجزء الآخر من الانسان . فرجل الدين الناسك ليس هو في هذه الحضارة كاهناً

صحيحا فقط ، بل انما هو اكثر من ذلك ايضاً ، اذ أنه رجل الورع الحقيقي ـ فالكاهن الدنيوي لا يكن ابداً له الناس في روسيا حتى هذا اليوم ، احتراماً حقيقياً ، وكثيراً من الاحيان يسمح له بالزواج . فلقد كان من غير الممكن ان يقوم المرء بالواجبات الدينية ويتمم فرائض الدين ، خارج الرهبانية ، ولذلك نرى أن طوائف الندامة او التوبة ، والأديرة والرهبانيات تحتل في وقت مبكر تماماً مركزاً كانت لا تستطيع ابداً ان تبلغه لاسباب ميتافيزيقية في الهند او الصين ـ ناهيك عن الغرب حيث كانت فصائل الرهبان تعمل وتشتغل وتقاتل ـ وهذه هي ديناميكية ـ الوحدات . ولذلك يتوجب علينا ألا نعتبر شعب العالم المجوسي شعباً موزعاً بين « عالم » « ودير » بوصف هذين اسلوبين من حياة ، منعزل الواحد منهما عن الآخر انعزالاً محدداً معرفاً ، ويتساوى كل منهما بامكاناته لاتمام فرائض الدين اذ أن كل انسان تقي ورع كان راهباً من بعض نواحيه ، ولم يكن هناك اي تعارض بين العالم والدير ، بل كان هناك فرق في المرتبة ، فالكنائس والرهبانيات المجوسية هي طوائف متجانسة ، ولا يمكن التمييز بينها الا بواسطة مدى انتشارها وحجمها . فطائفة بطرس كانت رهبانية ، اما طائفة بولس فكانت كنيسة ، بينما أن دين مثراس هو ، في وقت واحد ، اوسع من أن يوصف بالأولى وأضيق من أن ينعت بالثانية .

ان كل كنيسة هي رهبانية بالذات ، وعن الضعف البشري فقط نشأت درجات رجالها ومراتبهم ، وهذه ليست امراً لازماً متوجباً ، بل انما هي امر مسموح به فقط ، كما كان مسموحاً به بين الماركيونيين والمانيين « المصطفين والمستمعين » . والحق أن اية امة مجوسية هي ليست باكثر من المجموع الكلي ، اي رهبانية كل الرهبانيات التي تتألف من جماعات اقل فأقل عدداً ، وأصرم فأصرم نظاماً ، ومن ثم تتبدى اخيراً في رهبان ودراويش ونساك عموديين [1]

---

(١) اعتاد هؤلاء ان يجلسوا على رأس عمود واشهرهم سمعان العمودي الذي قيل انه بقي جالساً على رأس عمود مدة تزيد على الربع قرن من الزمن . — المترجم —

Stylites ، نبذت نفوسهم كل ما هو عالمي وامسى شعورهم الواعي ملكاً للروح فقط . ونحن اذا ما وضعنا جانباً الأديان النبويـــة – التي ولد ، منها وبينها ، الانفعال الرؤوي العديد من الطوائف الشبيهة بالرهبانيات – نرى أن كنيستي المذهب في الغرب قد انتجتا عدداً لا يحصى من الرهبان والأخويات « الاخوان » والرهبانيات ، والتي لا يمكن التمييز في النهاية بينهم او بينها ، الا بواسطة اسم الإله الذي يتضرعون او تتضرع اليه . فجميع هؤلاء كانوا يتمسكون بفرائض الصيام والصلاة والعفة والفقر . ومن المشكوك فيـه أي من الكنيستين كانت في عام ٣٠٠ اقوى نزعة الى التنسك والرهبنـــة من الاخرى . فالراهب النيو افلاطوني سارابيون ذهب الى الصحراء كي يكرس نفسه تكريساً كلياً لدراسة ترانيم اورفيس . وداماسيوس انسحب ، موجهاً بحلم ، الى كهف مؤذ وخيم كي يصلي باستمرار لسيبل ويتعبد لها . زد على ذلك أن مدارس الفلسفة لم تكن اكثر من رهبانيات ، وكان موقف الفيثاغوريين الجدد ، جـد متقارب من الأسين اليهود ، كما وأن مذهب مترا ، وهو رهبانية صحيحة ، لم يكن يسمح لغير الرجال بالانتماء الى طائفته وأخوياته ، أضف الى ذلك ان الامبراطور جوليان كان عازماً على ان يوقف مالاً وعقاراً على الاديرة الوثنية . ويبدو أن دين المندين كان يتألف من مجموعة من طوائف – رهبانية تتباين انظمتها في درجات الصرامة والشدة ، وكان يوحنا المعمدان ينتمي الى احدى هذه الطوائف . اما الرهبانية المسيحية فلم تبدأ بباخوميوس « ٣٢٠ » Pachomius ، فهذا كان مجرد بناء اول دير فقط . فحركة الرهبانية بدأت مع الطائفة الأصلية في القدس . وانجيـــل متى وجميع « اعمال الرسل[1] » تدل دلالة واضحة على عاطفة تنسك شديدة وصارمة . زد على ذلك أن الكنيستين من فارسية ونسطورية سارت بتطوير فكرة الرهبانية شأوا ابعد ، واخيراً جاء الاسلام فتمثلها تمثلاً كاملاً . ولا تزال الأخويات والرهبانيات

---

(١) سفر اعمال الرسل من العهد الجديد .

– المترجم –

الاسلامية تسيطر حتى هذا اليوم على الورع الشرقي . كما وأن اليهودية سلكت خط التطور ذاته ، ابتداء بالكاراي Karaie (Qaraits) في القرن الثامن وانتهاء بالماسيديم البولندي في القرن الثامن عشر .

أما المسيحية ، التي بالكاد كانت حتى في القرن الثاني ، اكثر من رهبانية ممتــدة ، والتي كان نفوذها الشعبي لا يتناسب اطلاقاً وعدد اتباعها ، نمت فجأة وانتشرت قرابة عام ٢٥٠ . وهذه هي اللحظة الحقيقية التي طمست فيها آخر مذاهب المدنية للدين الكلاسيكي معالم ذواتها ، أمام الكنيسة الوثنيـة الوليدة ، وليس اطلاقاً امام المسيحيــة . فقيود فريترز آرفالس Fratres Arvales في روما انهيت عام ٢٤١ ، وآخر نقوش – المذهب التي حفرت في اولمبيا كانت في عام ٢٦٥ . وامسى ، في الوقت ذاته ، ان يقوم احد الناس بتكديس اكثر الخصائص الكهنوتية اختلافاً وتنوعاً في شخصه امراً عادياً ومألوفاً ، وهذا يدل على أن هذه الاعراف لم تعد محددة ومعينة ومحصورة بفئة او فئات ، بل انها غدت اعرافاً لدين واحد فقط . وهذا الدين انطلق ليدخل الناس فيــه ، ونشر ذاته بصورة بعيــدة الابعاد وواسعة فوق اراضي الحزين الهيليني – الروماني . ومن جهة اخرى فكان الدين المسيحي « قرابة عام ٣٠٠ » هو وحده الذي يصول ويجول في الميدان العربي العظيم والمنفسح الوسيع . ولهـــذا السبب بالذات كان يجب حتماً ان تقام آنذاك داخله تناقضات باطنية . وقد أدت هـــذه التناقضات الى انشطار المسيحيــة الى اديان عديدة ، انشطاراً لا وحدة بعـده ، ولم ينجم آنذاك هذا الانشطار عن نزعات روحية لأناس معينين ، بل نجم عن روح الاصقاع الخاصة .

وكانت المشادة حول طبيعة المسيح هي الموضوع الذي دفع بهذا الخصام الى مرحـــلة الحسم . وكانت مواضيع الخلاف ، هي مشاكل الجوهر تلك تماماً ، هذه المشاكل ، التي تملأ بالشكل ذاته ، والهوى ذاتـــه ، اذهان جميع اللواهيت المجوسية الاخرى . وقد عالجت الفلسفة الكلامية الافلاطونية الجديدة ، وخاصة

بروفيري وأيامبليخوس ، وأهم من هذين واولئك ، بروكلوس ، هذه المشاكل وفق قاعدة غربية وبواسطة صيغ فكر شديد الشبه بفكر فيلو ، وحتى بفكر بولس . وقد قدرت العلاقة بين الواحد الاصلي ، النوس Nus اللوغوس الآب ، وبين الوسيط استناداً الى الجوهر . فهل كانت عملية هذا التقدير ، عملية من فيض ، او تقسيم او شمول ؟ وهل كان الآخر يحتوي الواحد ، وهل الواحد منهما هو الآخر بذاته ، ام انهما مقصوران بالتبادل ؟ وهل المثلث هو في الوقت ذاته الجوهر الفرد Monad ؟

ويتبدى لنا من المقدمـــة المنطقية لانجيل يوحنا ، ومن العلم الروحاني لبارديسانيان ، ان الشرق قد شهد قبل الآن تركيباً مختلفاً للمشكلة : فعلاقة اهورامازدا بالروح القدس « سبنتا مينيو Spenta Mainyu » وطبيعة القوهو مانو قد اترعت اذهان « آباء » الأفستا بالمشاغل ، ونحن في زمن مجامع افسوس وخالقيدونيا Chalcedon الحاسمة بالذات ، نجد الانتصار الموقت للتزرفانيـــة (٤٣٨ – ٤٥٧) وسيادة مبـــدأ مجرى – العالم الالهي « بوصف تزرفان زماناً تاريخياً » وتفوقه على الجواهر الالهية وبلوغه بالمعركة الدغماتية ذروة احتدامهـا . ومن ثم جاء الاسلام واخذ الموضوع بأكمله بين يديه وحاول ان يحله استناداً الى طبيعة محمد والقرآن . فمشكلة – الجوهر وجدت منـذ ان وجد الجنس البشري المجوسي – ووجودها قائم بالتأكيد ذاته الذي يقوم وفقه وجود مشكلة – الارادة الغربية ، الند لمشكلة – الجوهر ، والتي عرضت حين ولادة الفكر الفاوستي . وليست هناك من حاجة تدعو الى البحث عن هذه المشاكل ، فهي قائمة وموجودة حالما تبدأ الحضارة بالتفكير ، وهي الشكل الاساسي لفكرها ، وهي تنطلق الى المقدمـــة دون ان يستدعيها احـد ، وحتى احياناً لا تدرك مع كل الدراسات لها .

ولكن حلولا ثلاثة – فرضتها مسبقاً الاصقاع الثلاثـــة من شرق وغرب وجنوب ، كانت جميعها موجودة منذ البدايـــة ، ومفهومة قبل الآن ضمنا من

خـــلال نوازع مذهب المعرفة Gnosticism ، ويجوز لنا ان نشير الى هذه الحلول باسماء بارديسانيين Bardesanes و Basilides وفالنتينوسّ Valentinus .
وكانت مدينة اديسا هي نقطة الالتقاء ، حيث كانت شوارعها تجلجـــل بصرخات معركة النساطرة ضد المنتصرين في افسيس ، ويتبعها بعد قليل صياح اليعاقبـة وزعيقهم وهم يطالبون بطرح الاسقف اباس Ibas الى الوحوش الضارية في السيرك .

وجاءت صياغـــة السؤال العظيم على يدي اثاناسيوس الذي تضرب جذوره العقلانية في تربة التشكل الكاذب والذي له الكثير من اوجـه الشبه ومعاصره الوثني ايامبليخوس . ولقد قرر هـــذا ، تبايناً وآريوس Arius الذي رأى في المسيح نصف اله Demigod ومشابه فقط بجوهره للآب ، اقول قرر بان الآب والابن كانا من نفس الجوهر الذي اصبح في المسيح جسداً . « فالكلمـــة صار جسداً » وصيغة الغرب هذه تعتمد على وقائع منظورة لكنيستي المذهب ، ويعتمد فهم الكلمة على تأمل مستمر فيما هو قابل للتصوير . فهنا في الغرب المتعبد للأيقونات والصور ، حيث كتب أيامبليخوس في هذه الأزمان بالذات كتابه عن تماثيل — الله التي يكون فيها الله حاضراً جوهراً وصانعاً للعجائب والمعجزات ، اقول هنا في الغرب ، كانت ترافق تجريد التثليث دائماً وبصورة فعالة مؤثرة علاقة انسانيـة حسية الا وهي علاقة الأم بالابن وهذا الاخير هو الذي كان من المستحيل استئصاله من عمليات فكر اثاناسيوس .

ومع الاعتراف بوحدة الجوهر للآب والابن ، اتخذت المشكلة الحقيقية لأول مرة وضعها — واعني موقف الثنائية المجوسية من الظاهرة التاريخية ، ظاهرة الابن نفسه . ففي كهف — العالم لم يكن يوجد جوهر بشري الهي ، ففي داخـــل الانسان هناك جزء من روح الهية ، ونفس الفرد ترتبط بالجسد . اذن فما هو امر المسيح ؟

والحق انه كان عاملاً حاسماً – ونتيجة من نتائج معركة اكتيوم – كون النزاع قد انهى بعد عراك ، باللسان اليوناني وعلى ارض التشكل الكاذب – اي تحت التأثير والنفوذ الكاملين « لخليفة » الكنيسة الغربية . فقسطنطين كان حتى الداعي الى مؤتمر نيس وكان حتى رئيسه ، حيث انفردت عقيـــدة اثاناسيوس بالمؤتمرين واستأثرت باهتمامهم وبحوثهم . اما الشرق بنطقه وفكره الآراميين فهو نادراً ماتتبع مثل هذه الاعمال «كما نعلم ذلك من رسائل افراحات Aphrahat » ، فهنا لم ير الناس اي سبب يدعو الى الخصام ، فهذه الامور فيما يتعلق بهم ، قد بت فيها منذ طويل زمن . فالهوة بين الشرق والغرب ، والتي نشأت نتيجة لمؤتمر أفسس « ٤٣١ » ، قد فصلت بين امتين مسيحيتين ، امة « الكنيسة الفارسية » وامة الكنيسة اليونانية ، ولكن هذا الفصـل لم يكن اكثر من ظاهرة للفرق الفطري منذ البدء ، بين صيغ فكرين ينتمي كل واحد منهما الى صقع مختلف عن صقع الآخر . فلقـــد رأى نسطور والشرق باجمعه في المسيح آدم الثاني ، والمبعوث الالهي للدهر الاخير . فمريم ولدت طفلا – انسان يسكن في ناسوته وجوهره المخلوق (نفس) الجوهر الالهي غير المخلوق . اما الغرب فلقـــد رأى عكس هذا الرأي ، اذ رأى في مريم أماً لله : فالجوهر الالهي والانساني شكل في جسده « شخصه وفق الاصطلاح الكلاسيكي » وحدة سماها سيريل تيوفوروس Theoforus « ذاك الذي يحمل الله داخله – المترجم » . وعندما اعترف مؤتمر افسس بام الله ، وبها التي ولدت الله انفجرت[1] مدينة ديانا الذائعـــة الصيت باحتفالات ومهرجانات صادقة كلاسيكية في قصوفها ومجونها وخلاعتها .

ولكن ابوليناريس Apollinaris السوري كان قد بشر قبل هذا بوقت طويل بالفكرة « الجنوبية » لهذا الموضوع – قائلاً بأنه لا يوجد في المسيح الحي فقط جوهر ، بل انه جوهر واحد احد . فالجوهر الالهي قـد حول نفسه الى جوهر

---

(١) يعني افسس – المترجم

بشري ، ولم يختلط بهذا الجوهر ، « وافضل اسلوب للتعبير عن الفكرة اليعقوبية هو مفاهيم سبينوزا – وهذا الواقع فيه من المغزى ما يكفي – فسبينوزا يقول بأن الجوهر الواحد هو صيغة Mode اخرى – » وقد دعا اليعاقبة مسيح مؤتمر خالقيدونيا « (٤٥١ وحيث كانت السيطرة فيه للغرب مرة اخرى » بالصنم ذي الوجهين » . وهؤلاء لم ينشقوا عن الكنيسة فقط ، بل انفجروا بانتفاضات شرسة في فلسطين ومصر ، وعندما بلغت جحافل فارس في ايام جوستنيان ، في زحفها النيل هب اليعاقبة يرحبون بها بوصفها جيوش حرية وتحرير .

ولقد جاء المغزى الاساسي لهذا الصراع اليائس الذي امتد طيلة قرن كامل من الزمن – هذا الصراع الذي لم يكن يدور حول مفاهيم علماء ، بل حول نفس لصقع كان يحاول يحرر طاقاتها داخل شعبه – اقول جاء مغزى هـذا الصراع لينقض عمل بولس ويلغيه . ونحن اذا ما استطعنا ان ننقل نفوسنا فنجعلها تغوص ، دون تحفظ الى اعمق اعماق نفس هاتـين الامتين الوليدين وتجاهلنا جميـع النقاط الدغماتيـــة الثانوية ، عندئذ سنشاهد كيف أن اتجاه المسيحيـة نحو الغرب اليوناني ، وكيف أن تشابهها العقلاني والكنيسة الوثنيـــة قد بلغت اعلى ذراها في صيرورة حاكم الغرب وأساً للكنيسة بصورة عامة . فالمسيحيون اليهود من الطراز البطرسي كانوا في نظر هذا الحاكم ملة هرطيقـــة ، اما المسيحيون الشرقيون من طراز يوحنا ، فانه لم يشعر او يلحظ ابـداً لهم وجوداً . وعندما قامت روح التشكل الكاذب ومهرت ، في المؤتمرات الحاسمة الثلاثـة ، في نيس وافسوس وخالقيدونيا ، الدغما بخاتمها مرة واحدة والى الابد ، هب العالم العربي الحقيقي مدفوعاً بزخم الطبيعة ليقيم حاجزاً امام تلك الروح . ومع نهاية ربيـع الحضارة العربية ، انشطرت المسيحية الى ثلاثة اديان ، نستطيـع ان نرمز اليها باسماء بولس وبطرس ويوحنا ، والتي لا يستطيـع اي دين منها ان يطالب ، منذ ذاك الحين فصاعداً ، العين التاريخية العقائدية والمترفعة عن كل هوى ، بأن تعتبره المسيحية الاصلية . وهذه الاديان الثلاثة ، هي في الوقت ذاته ، امم ثلاث تقطن في مناطق – عنصرية قديمـــة ، مناطق اليونان واليهود والفرس ، والالسنة التي

استعملها هؤلاء ، كانت لغات الكنيسة التي اقتبسوها منها - اي اليونانيـــة والآرامية والبهلوية .

- ٧ -

قامت الكنيسة الشرقية ، منذ مؤتمر نيقيا ، بتنظيم نفسها وفق نظام اسقفي تربع على قمته كاثوليكوس تزتسفون ، وكان له مجامعه وطقوسه وقانونه الخاص به . وفي عام ٤٨٦ قبلت العقيدة النسطورية بوصفها عقيدة ملزمة ، وعلى هـذا الشكل انقطع الرباط بالقسطنطينية . وانطلاقاً من هذه النقطة اصبح للمازديين والمانيين والنساطرة مصير مشترك واحد بذرت بذرتـــه في العلم الروحاني لبارديسانس . وانبعثت ، من جديد ، داخـل كنائس اليعاقبة في الجنوب روح الطائفة البدائية ، واخذت تتوسع وتنتشر بعقيدة التوحيد التي لا تعرف حلاً وسطاً ، وبكراهيتها للصور وتشابهها الشديد ومذهب منطقة اليهودية التلمودية ، وجاءت صرختها القديمة في ميدان القتال التي كانت قد وسمتها قبل الآن لتكون مع تلك اليهودية نقطة انطلاق للاسلام « لا اله الا الله » . اما الكنيسة الغربيـة فانها استمرت في ارتباطها بقدر الامبراطورية الرومانية — اي ان كنيسة المذهب اصبحت الدولة . ثم اخذت تمتص تدريجياً اتباع الكنيسة الوثنية ، ومنـذ هذا الحين فصاعداً لم تعـد اهميتها تكمن الى ذاك الحد داخل ذاتها — وذلك لأن الاسلام قد استأصل شأفتها تقريباً — بـل اصبحت اهميتها تتمثل في الصدفة التي جعلت الشعوب الفتية للحضارة الغربية تتلقى منها المنهاج المسيحي بوصفه القاعدة للابداع الجديد ، وتتلقاه علاوة على ذلك بالزي اللاتيني للغرب الاقصى ، الذي لم يعد ذا معنى بالنسبة للكنيسة اليونانية نفسها ، وذلك لأن روما ذاتها كانت الآن

مدنية يونانية ، وكانت اللغة اللاتينية تشعر بأنها تجـد لها في افريقيا والغال من الاهل والوطن اكثر بكثير مما تجده في اي بلد آخر .

ان المفهوم الجوهري والمبدأي للأمة المجوسية ، وهو كينونة تتضمن امتداداً، كان منذ البداية نشيطاً في تمديد ذاتـــه . فجميع هذه الكنائس كانت كنائس تتعمد التبشير وتتمدته بقوة ونجاح . ولكن هذا لم يحدث الا بعد ان تخلى الناس عن التفكير بان نهاية العالم وشيكة ، وبعد ان اوجدوا عقيـدة مناسبة وملائمة لوجود "مد" في اجله في كهف العالم ، وبعد ان اتخذت الاديان المجوسية موقفها من مشكلة الجوهر ، فبعد هذا كله انطلقت الحضارة (العربية – المترجم) بامتدادها انطلاقاً زوبعياً حماسياً ميزها عن جميع الحضارات الاخرى ، ووجد في الاسلام اشد الامثلة تأثيراً واقواها تحريكا للعاطفة ، ولكنه ليس المثل الوحيد على ايـة حال . واللاهوتيون والمؤرخون الغربيون يعظوننا عن هـذه الوقائع الجبارة صورة خاطئة بكل خط من خطوطها ولون من الوانها . فكل ما تستطيعـــه حلقاتهم المسمرة على بلدان البحر الابيض المتوسط ، ان تلحظه هو الاتجاه الغربي الذي يتوافق ومناهجهم لتقسيم التاريخ الى « قديم – ووسيط – وحـديث » وحتى داخل هذه المحدوديات ، التي تقبـل بالوحدة الصريحة الواضحة للمسيحية ، فانهم يعتبرونها كأنها تمر في حقبة معينة من شكل يوناني الى شكل لاتيني ، حيث تتوارى بذلك الفضلة اليونانية عن الانظار تماماً .

ولكن الكنيسة الوثنية كانت قد اكتسبت حتى قبـــل المسيحية المذهب التوفيقي والجزء الاكبر من سكان شمالي افريقيا واسبانيا وبلاد الغال وبريطانيا وحدود الرين والدانوب – وهذه واقعة لم يلحظ احـد حتى الآن مغزاها الهائل العميق ، وحتى لم تفسر صواباً على انها مجهود تبشيري . فمن الكهانة الوثنيـة Druidism التي اسسها قيصر في بلاد الغال ، لم يبق منها الا القليل على قيد الحياة في ايام قسطنطين . فتمثـــل الآلهة الاهليين تحت اسماء الوهيات مجوسية عظمى لكنيسة – المذهب (وخاصة مترا – سول – جوبتر) وذلك ابتداء من القرن

الثاني فما بعده ، اقول كان هذا التمثل في جوهره عملية من فتح وغزو ، والقول ذاته صحيح بالنسبة لعبادة الامبراطور . ولا شك ان جهود المسيحية التبشيرية ، كانت هنا ستصادف نجاحاً اقـــل مما صادفته لو ان كنيسة المذهب الاخرى ــ الوثيقة القرابة بها ــ لم تسبقها الى التبشير في هذه الاماكن . ولكن دعاية هذه الكنيسة الاخـــيرة لم تكن باي حال مقصورة على ميادين البرابرة ، فالمبشر اسكليبيودوتوس Asclepiodotus قد اقنع اهالي Aphrodisias وهي مدينـــة كارية Carian[1] بالارتداد عن المسيحية الى الوثنية .

وقد سبق لنا ان قلنا بان اليهود وجهوا جهودهم التبشيريـــة ، وعلى نطاق واسع ، نحو الشرق والجنوب . فلقد انطلق هؤلاء من خـــلال جنوبي الجزيرة العربيـة الى قلب افريقيا ، ومن الجائز ان انطلاقتهم هذه تمت حتى قبل ولادة المسيح ، كما واننا لا نزال نشاهـــد ، على جانب الشرق ، وفي الصين ، آثاراً لوجودهم تعود حتى الى القرن الثاني . وشمالاً اعتنقت مملكة الخزر ، وعاصمتها استراخان فيما بعد ، مذهب منطقة اليهودية . ومن هذه المنطقة خرج المغول الذين يدينون باليهودية واندفعوا في زحفهم حتى بلغوا قلب المانيـــا ، ثم هزموا والمنغاريين في معركة لشفلد Lechfeld عام ٩٥٥ . ولقـد تقدم العلماء اليهود في الجامعات الاسبانية والمراكشية بمعروض الى الامبراطور البزنطي (عام ١٠٠٠) يرجونه فيه ان يسمح بحرية المرور وسلامته لبعثة كلفت بان تستفسر من الخزر عما اذا كانوا هم القبائل المفقودة من اسرائيل .

ومن ضفاف دجلة انطلق المذهبان المازدي والماني متسرباً يمنة ويساراً داخل الامبراطوريتين الرومانية والصينية حتى بلغا اقصى ما لهاتين الامبراطوريتين من

---

(١) منطقة قديمة في آسيا الصغرى ، وتقع بمحاذاة بحر ايجيه
ــ المترجم

حدود . وغزا المذهب الفارسي بريطانيـــا ، كما وغزاها ايضاً مذهب مترا ، واصبحت المانية في عام ٤٠٠ تشكل خطراً على المسيحية اليونانية ، وكانت توجد طوائف مانية في جنوبي فرنسا حتى في عصور الصليبيين ، لكن هذين الدينين اندفعا ايضاً بمحاذاة سور الصين العظيم (حيث تشهـــد النقوش المتعددة اللغات لكارا بالجاسون Kara Balgassun على وجود المذهب الماني في مملكـة أيغور Oigur) وبلغا حتى شانتونغ . وشيدت معابد النار الفارسية داخـل الصين ، ونحن نجد ، ابتـــداء من عام ٧٠٠ تعابير ومصطلحات فارسية في كتب علم التنجيم الصيني .

وقد اقتفت الكنائس الثلاث آثار اقدام ملتهبة على دروب مطروقـــة . وعندما هدت الكنيسة الغربية ، عام ٤٩٦ ، شلودفيـغ ملك الفرنجة الى دينها ، كان مبشرو الكنيسة الشرقية قد بلغوا سيلان ، والمعسكرات الصينية الواقعة في اقصى الغرب من السور العظيم ، وكان مبشرو الكنيسة الجنوبية ينشطون داخل امبراطورية اكسوم Axum . وفي الوقت ذاته عندما اعتنقت المانيا المسيحية بعد بونيفاسيوس (٧١٨) كان المبشرون النسطوريون على قاب قوسين او ادنى من اكتساب الصين نفسها . فلقـد دخلوا شانتونغ عام ٦٣٨ . وقـــد سمح الامبراطور كاو - تسونغ (٦٥١ - ٦٨٤) ببنـاء الكنائس في جميـع اقاليم الامبراطورية ، وفي عام ٧٥٠ كان يكرز بالمسيحية داخل القصر الامبراطوري بالذات . وفي عام ٧٨١ ، واستناداً الى النقوش الآراميـة والصينية المحفورة على النصب التذكاري في سنغافو Singafu والتي لا تزال محفوظة « فان كامل رقعة الصين مغطاة بقصور من وفاق واتفاق » . ولكن بما هو شديد العمق كل الشدة في مغزاه ، كون الكونفوشوسيين ، الذين لا يستطيـع احد ان يزعم بانهم غير خبراء بامور الدين ، قـــد اعتبروا النسطوريين والمازديين والمانيين اتباعاً لدين « فارسي » واحد ، وذلك في الوقت ذاته الذي كان سكان الاقاليم الرومانيـــة الغربية لا يستطيعون ان يميزوا بين مترا والمسيح .

لذلك يتوجب علينا ان نعتبر الاسلام كحركة تطهير Puritanism من كامل مجموعة الاديان المجوسية المبكرة زمناً ، وهو ينبعث كدين جديد من جهة الشكل فقط ، وفي دائرة الكنيسة الجنوبية ومذهب منطقة اليهودية التلمودي . وهذا المغزى الاعمق ، وليس فقط زخم اكتساحه الباسل المقدام ، هو الذي يعطي المفتاح لنجاحاته المذهلة الاسطورية . وبالرغم من ان الاسلام قد تسامح تسامحاً مذهلاً في الميدان السياسي – فيوحنا داماسنيوس آخر الدغماتيين العظام من الكنيسة اليونانية ، كان ، تحت اسم المنصور ، خازناً للخليفة – فان مذهب منطقة اليهودية والمازدية والكنائس الجنوبية والشرقية سرعان ما ذابت باكملها تقريباً داخله . فجوساب الثالث ، كاتوليكس سيلوقيا Seleucia يشكو ويتذمر من ان عشرات الالوف من المسيحيين قد اعتنقوا الاسلام حالما ظهر الى مسرح الوجود ، وقد اعتنق كامل سكان افريقيا الشمالية – موطن اوغسطين – الاسلام . وفي عام ٦٣٢ توفي محمد . وفي عام ٦٤١ اصبحت كامل مناطق اليعاقبة والنسطوريين (وكذلك مناطق التلمود والافستا) في قبضة الدين الاسلامي . وفي عام ٧١٧ كان يقرع ابواب القسطنطينية ، وكانت الكنيسة اليونانية مهددة بخطر الهمود والانطفاء . وفي عام ٦٢٨ ، كان احد اقارب النبي قد حمل الهدايا الى الامبراطور الصيني تاي – دسونغ ، واستحصل على ترخيص بانشاء مؤسسة تبشيرية . وابتداء من عام ٧٠٠ انتصبت الجوامع بمآذنها في شانتونغ ، وارسلت دمشق في عام ٧٢٠ تعليمات الى العرب ، الذين كانوا قد استقروا منذ زمن طويل في جنوبي فرنسا ، تطلب اليهم احتلال مملكة الفرنجة . وبعد مضي قرنين من الزمن ، وبينما كان ينشأ في الغرب ومن بقايا الكنيسة الغربية ، عالم ديني جديد ، كان الاسلام قد استقر في السودان وجزيرة جاوا .

ومع كل هذا فروعة الاسلام تتجلى فقط في كونه قطعة من التاريخ الديني الظاهري . فالتاريخ الباطني للدين المجوسي ينتهي حقاً بانتهاء زمن يوستنيان ، كما ينتهي التاريخ الباطني للدين الفاوستي بشارل الخامس ومؤتمر ترنت . وان اياً من

الكتب في التاريخ الديني ، يظهر « الـ » دين المسيحي قد مر بحقبتين من حركات فكرية عظمى الأولى في الشرق ومن عام ٠ — ٥٠٠ ، والثانية في الغرب ومن عام ١٠٠٠ — ١٥٠٠ . ولكن هاتين الحقبتين هما ربيعا حضارتين ، ويحتويان داخلها على اشكال غير مسيحية ابضاً تنتمي الى كل تطور ديني . فقيام يوستنيان باغلاق جامعة اثينا عام ٥٢٩ ، لا يمثل ، كما يصرحون مراراً ، نهايـــة الفلسفة الكلاسيكية — فلم يكن هناك آنذاك من فلسفـــة كلاسيكية قبل قرون وقرون من هذا التاريخ . اما ما فعله هذا ، قبل اربعين سنة من مولد محمـد ، فانـــه وضع خاتمة للاهوت الكنيسة الوثنية باغلاقه هـذه المدرسة ، وانهى — وهذا ما ينسى المؤرخون اضافته — اللاهوت المسيحي ايضاً باغلاقـــه لتلك الجامعات في انطاكية والاسكندريـة . فالدوغما كانت آنذاك قد اكتملت ، قد انتهت — وذلك كما حدث في الغرب مع مؤتمر ترنت (١٥٦٤) واعتراف اوغسبرج (١٥٤٠) ، وذلك لأن القوة الابداعية الدينيـــة تبلغ نهايتها مع المدينة والعقلانية .

وهذه هي ايضاً الحال واليهودية والفارسية ، فالتلمود انجز واكتمل قرابة عام ٥٠٠ ، وعندما قام تشوسروئيس نوشرفان ، في عام ٥٢٩ ، باخماد حركة الاصلاح الديني لمزداك واغرقها بالدم — وهذه الحركة لم تكن غير مشابهـة لحركة انكار معمودية الاطفال Anabaptism التي عرفها عالمنا الغربي . وعرفها برفضها لمبدأ الزواج والملكية الدنيوية ، والتي دعمها الملك كوباد الاول بابطاله لسلطان الكنيسة والنبـلاء — اقول عندما اخمدت حركة مزداك بلغت ايضاً دغما الافستا مرحلة الرسوخ وعدم التغير .

الفصل العشرون

مشاكل الحضارة العربية

(ج)

فيثاغورس ، محمد ، وكروميل

– ١ –

يجوز لنا أن نصف الدين أنه الكينونة – الواعية لمخلوق حي في اللحظات التي يتغلب ويسيطر وينكر وحتى يدمر الكينونة . فحياة – عنصر اندفاعه ونبضه يتضاءلان حينما تحملق العين في عالم ممتد متوتر ومملوء بالضوء ، وحينما يستسلم الزمان للفراغ . فالرغبة الشبيهة بالنبات تنطلق ، ويمور من الاعماق الاوليـــة الخوف الحيواني من الاكتمال ، ومن انتهاء الاتجاه والموت . وليست البغضاء والحب ، بل ان الخوف والحب هما الاحاسيس الرئيسية للدين . فالبغضاء والخوف يختلفان اختلاف الزمان والفراغ ، اختـــلاف الدم والعين ، اختلاف النبض والتوتر ،

اختلاف البطولة والقداسة . والحب حسب مفهوم ـ العنصر يختلف عن الحب وفق المفهوم الديني الاختلاف ذاته .

ان الدين باكمله قد وجه نحو الضوء . والممتد ذاته يصبح دينياً بوصفه عالماً للعين ، يدرك من الأنا كمركز للضوء . وينظم السمع واللمس ليلائم ما هو منظور والذي يحس باعماله فانما يصبح مجموعة من جن . وكل ما نشير اليه بكلمات « الوهية » ، « اعلان الهي » ، « خلاص » ، « افتقاد الهي » هو على كل حال عنصر من الواقع المنار . فالموت ، في نظر الانسان ، هو شيء ما يشاهده ويراه ، وهو يعرفه بالمشاهدة ، والولادة ، بالنسبة الى الموت ، هي السر الآخر . فهذا هما الحدان النهائيان المنظوران للكوني المدرك المتجسد جسداً يعيش في الفراغ المضاء .

وهناك نوعان من الخوف الاعمق ـ فهناك خوف (معروف حتى للحيوانات) يتبدى في حضرة الحرية الميكروكوسمية في الفراغ ، وامام الفراغ نفسه وقواه ، وامام الموت ؛ اما الآخر فهو الخوف على مجرى الكائن الكوني ، على الحياة ، على الزمان الاتجاهي . والنوع الاول يوقظ شعوراً اسود مظلماً بأن الحرية داخل الممتد هي ليس الا نوعاً جديداً من تبعية اعمق من تلك التبعية التي تسيطر على عالم النبات ، وهذا يدفع بالكائن الفردي المدرك لضعفه ، الى البحث عن ملازمة الآخرين والتحالف معهم . ان القلق ينتج النطق ، ونوعنا من النطق هو دين ـ وكل دين . وتنشأ من الخوف من الفراغ الارواح الالهية Numina للعالم ـ كطبيعة ، ومذاهب الآلهة . وتنشأ من الخوف على الزمان الارواح الالهية للحياة والجنس والنسل والدولة ، وتستقطب هذه عبادة السلف . وهذا هو الفرق بين التابو والطوطم ـ وذلك لأن الطوطمي ايضاً يتبدى دائماً في شكل ديني ، ويخرج من رعب مقدس يمر بكل منهم ويبقى ابداً اجنبياً غريباً .

ان الدين الارقى يتطلب تنبهاً شديداً ضد قوى الدم والكائن ، هذه القوى

التي تتربص ابداً في الاعماق لاستعادة حقوقها الفطرية على الجانب الاصغر عمراً من الحياة . « انتبهوا وصلوا كي لا تقعوا في تجربة . » ومع هذا فان « التحرير » هو كلمة اساسية في كل دين ، ورغبة خالدة لكل كائن واع . فهي في مفهومها العام وما قبل الدين ، تعني الرغبة في الحرية (التحرر – المترجم) من قلق الشعور الواعي وآلامـــه ، وفي استرخاء توترات الفكر والاستعصاء المولودين هيابين خائفين ، وفي طمس واطراح وعي الأنا لتوحدها في الكون ، وشرطيـــة الطبيعة الصارمـــة ، ومنظر الحدود الوطيدة الراسخة لكل الكينونـة في القدم والموت .

ان النوم محرر ايضاً – « فالموت وشقيقـــه النوم » . والخمر المقدس ، والثمل ، تحطم توتر الروح الصارم ، زد على ذلك الرقص ، وفن ديونيسوس ، وكل شكل آخر من اشكال ضياع الرشـــد ، والانتشاء الروحي . وهذه هي حالات وصيغ ينزلق فيها الانسان وينسل من القلق ، بمساعدة كائن ، بمساعدة الكوني ، بمساعدة الـ « IT » ، الفرار من الفراغ الى الزمان . ولكن هناك شيئاً يسمو فوق هذه كلها ، ألا وهو القهر الديني الأصيل للخوف بواسطة الفهم بالذات . فالتوتر السائد بين الكون الأصغر والكون الاكبر يصبح شيئاً ما باستطاعتنا ان نحبه ، شيئاً ما نستطيع ان نغرق فيه كل ذواتنا . وهذا ماندعوه بالايمان ، وهو بداية كل الحياة العقلانية للانسان .

ان الفهم هو سببي فقط ، أكان استدلالياً او استقرائياً ، أنشأ عن الحس أم لم ينشأ . فانه لمن المستحيـــل علينا تماماً ان نميز بين كون الشيء قد فهم ، وبين كونه قد سبب – فكلاهما يعبران عن المعنى ذاتـه . فعندما يكون شيء ما سبباً في نظرنا فعندئذ نراه ونفكر بـــه لشكل سببي ، وذلك تماماً كما نحس ونعرف انفسنا ونشاطاتنا بوصفها اشياء تولد اسباباً او عللاً . وعلى كل حال فان تعيين الاسباب او العلل ، يختلف من قضية الى قضية ، واختلافـــه هذا ليس محصورا بالانسان المتدين فقط ، بل يتعداه بصورة عامـــة ايضاً الى المنطق

اللامتعضي للانسان . فالواقعة ، كسببها ، قد يفكر بها في احدى اللحظات بأن لها كذا وكيت ، ثم ترى في لحظة اخرى أنها تمتلك شيئاً ما غير ذاك . فلكل نوع من التفكير منهاج خاص لكل مجال من مجالاته في حقل التطبيق . وفي الحياة اليومية لا يتكرر ابداً تماماً ترابط سببي داخـــل الفكر . وحتى في الفيزياء الحديثة ، فان فرضيات العمل – وهذه مناهج سببية – التي تبعد الواحدة منها الاخرى جزئياً ، فانها حين استخدامها تكون جنباً الى جنب ، مثلاً على ذلك فكر الالكترودينامكا وفكر الترمودينامكا . وبهذا لا تبطل اهمية الفكر او تلغى ، وذلك لاننا « نفهم » ، دائماً وخلال دورة مستمرة للشعور الواعي ، بشكل من مشاهد فردية ، حيث يكون لكل مشهد منها بدؤه ، او شروعـــه السببي الخاص به . اما النظرة الى كامل العالم – كطبيعة بالنسبة الى الوعي الافرادي ، بوصفها ترابطاً مفرداً ومنتظماً – سببياً ، هي شيء ما لا يمكن لفكرنا ان يتحقق منه تماماً ، نظراً لأن تفكيرنا يشرع دائماً بوحدة مشاهد . وهي – اي النظرة – المترجم – تبقى معتقداً والحق انها هي الايمان نفسه ، وذلك لأنهـا قاعدة الفهم الديني للعالم والتي تفترض ، حينما يلاحظ شيء ما ، ارواحاً الهية بوصفها ضرورة للفكر – ارواحاً ، مريعة الزوال وبنات ساعتها ، للاحداث التصادفيـــة التي لا يفكر بها ثانيـــة ، وتحتمل الارواح بوصفها سكاناً لمكان معرف محدد (كالينابيع والاشجار والحجارة والتـلال والنجوم الخ ...) او بوصفها سكاناً كونيين (كآلهة السماء او الحرب او الحكمـــة) والذين يمكن ان يكونوا موجودين وحاضرين في كل مكان . والارواح هي محدودة فقط بمقتضى انفرادية كل مشهد منعزل من مشاهد الفكر . فهذه التي تكون اليوم ملكة من ملكات الاله تصبح غداً بنفسها الهاً . وآخرونهم حيناً تجمع وحيناً وحدة ، وغيره كيان غامض مبهم. وهناك منها ماهو ليس منظوراً (اشكال) وماليس مدركا(مبادىء) وهذه قد تصبح ، في نظر من توهب اليه ، ظاهرة او مفهومة. والقدر وفق مفهوم الكلمة الكلاسيكية ، والكلمة الهندية له، هو شيء مايعلو ، بوصفه شيئاً – اصلاً، (اصيلاً – المترجم) فوق الألوهيات القابلة للتصوير ، اماالمصير المجوسي ، فهو على

العكس من هذا ، اذ انـه عملية الله الواحد الاسمى الذي لا شكل له . ويترك الفكر الديني ، دائما وابداً ، لنفسه أن تدرج قيماً ومراتب داخل التتالي السببي ، ويفضي الى الكائنات الاسمى ، او المبادىء بوصفها مقدمة الاوائل من العلل او الاسباب « الحاكمة ، المسيطرة » . وكلمة « ناموس » هي كلمة تستعمل لأشد جميع المناهج قابلية للادراك ، من المناهج المرتكزة الى التقييم . اما العلم فهو على العكس من هذا ، اذ انه يستفظع ويكره مبـــدأ التمييز للمراتب بين العلل او الاسباب ، وما يجده العلم هو القانون ، وليس ناموسا .

ان فهم الاسباب ، او العلل ، يحرر ، والاعتقاد بالروابط المكتشفة يفرض على الخوف من العالم ، ان يتراجع . والله هو ملاذ الانسان من المصير الذي يشعر به ويخبره خبرة حية ، ولكن لا يفكر به او يتصوره او يسميه ، والذي يعلق ويرجأ طالما – وطالما فقط – يستطيع الفهم « التنديدي » (او المفكك بالمعنى الحرفي) وليـد الخوف ، ان يقيم بصورة قابلة للادراك عللاً وراء علل ، وذلك في نظام منظور للعين الظاهرية او الباطنية ومعضلة الانسان من المرتبة الارقى ، هذه المعضلة الميؤوس منها ، هي في كون ارادتـه الجبارة لأن يفهم في حالة من تعارض مستمر ودائم مع كينونته ، فهذه الارادة لم تعد تخدم الحيـاة ، لكنها عاجزة عن حكمها ، ويبقىَ ، نتيجة لذلك ، في كل الارتباطات الهامـة عنصر لا يمكن حله . « وليس على المرء الا ان يصرح بانه حر ، وحينئـــذ يشعر بان اللحظة مشترطة ولكن اذا كان المرء يتمتع بالشجاعة ليعلن انه نفسه مشترط ، فآنذاك يملك شعوراً بكونه حراً » . (غوتيه)

اننا نسمي الترابط داخل العالم – كطبيعة ، والذي نكون قانعين بانـه لن يبدله اي مزيد من تأمل او تفكير – اقول نسميه الحق . والحقائق هي ثابتة ، ومعدومة الزمان – وكلمة مطلقة تعني انها منفصلة عن المصير والتاريخ ، ولكنها ايضاً منفصلة عن وقائع حياتنا وموتنا الخاصـــين بنا – وهي – اي الحقائق – المترجم – تحرر باطني وعزاء ومساواة وخلاص ، وهي بهذا تتغلب وتبخس قيمة

احداث عالم الوقائع . او هي كما تتبدى على مرآة الذهن ، في كون الناس قد يمضون ولكن الحق يبقى .

ان داخل العالم – المحيط شيئاً ما مقرراً ثابتاً – اي راسخاً معقود اللسان مسحوراً . ويملك الانسان الفاهم السر بين يديه ، أكان هذا ، كما كان في القديم ، بعضاً من سحر فعال ، ام انه ، كما هو في ايامنا هذه ، قانون رياضي . فالشعور بنشوة الانتصار يرافق ، حتى هـذا اليوم ، كل خطوة تجريبية تقرر شيئاً ما في ميدان الطبيعة – عن اغراض آلهـة السماء وقواها او ارواح – العاصفة لجن – الارض ، او عن ارواح العلوم الطبيعيـة (نواة – الذرة سرعة حركة الضوء ، الجاذبيـة) ، او حتى عن الارواح التجريدية التي يدركها الفكر حين تأمله لصورته الخاصة (مفهوم ، مرتبة ، او نسق ، عقل) – وفي حالة تقرير هـذا الشيء ما ، فعندئذ تنبته التجربة داخل سجن منهاج من روابط سببية لا يقبل تعديلًا او تبديلًا . ان الخبرة ، وفق هذا المفهوم القاتل اللامتعضي الحافظ ، والتي هي شيء ما يختلف تماماً عن خبرة – الحياة ومعرفة الناس ، تحدث في صيغتين – هما النظرية والتقنية ، او باللغة الدينية ، الاسطورة والمذهب – وذلك وفق ما اذا كانت مقاصد المؤمن ترمي الى فض اسرار العالم المحيط بـه ، او حصرها او تحديدها ، او سجنها . وكلتا هاتين الصيغتين تتطلبان تطويراً راقياً للفهم البشري . وكلتاهما قد تولدان من الخوف او المحبة . وهناك ميثالوجيا للخوف ، كالميثالوجيا الموسوية والبدائية بصورة عامـة ، وميثالوجيا للمحبة كتلك الميثالوجيا المسيحية المبكرة والصوفية الغوطية ، وبالمثل فهناك تقنية سحر دفاعيـة ، واخرى ترشيحية ، Postulant ، وهذا لا ريب ، هو اعمق التمييز اساساً بين القربان والصلاة ، وهو يميز ايضاً الجنس البشري بين بدائي وناضج . فالتدين هو ميزة نفس ، اما الدين فهو موهبة . والنظرية : تتطلب موهبة الرؤيا التي تمتلكها القلة من الناس الى حد البصيرة النيرة المشرقة ، والكثيرون منهم لا يمتلكونها اطلاقاً . وانها لنظرة الى العالم Weltanschaurung باعمق مالها من مفهوم اولي، هي ما اذا

كان يراه المرء هو يد القوى ومنوالها ، ام انه (وبتعبير روح متمدنة اشد برودة، روح لا تخاف او تحب ، بل انها فضولية فقط) مسرح لتطابق قوانين الطاقات وتوافقها . فاسرار التابو والطوطم تشاهد في الايمان بالآلهة ، وفي ايمان النفس ، وتحسب في الفيزياء النظرية والبيولوجيا . والتقنية تفترض مسبقاً الموهبة العقلانية للربط والتغريم Conjuring والانسان النظري هو العراف المنـــدد النقاد ، والانسان التقني هو الكاهن ، اما المكتشف فهو النبي .

وعلى كل حال ، فان الوسيلة التي بواسطتها تركز كامـــل طاقة العقل ذاتها وتكثفها فهي الشكل لما هو واقعي والذي يستخلص من الرؤيا بواسطة النطق ، والذي لا يستطيع كل شعور واع ان يميز او يفطن الى جوهره او لبه ـ الاحاطة المفاهيمية ، القانون القابل للتبليغ به ، الاسم الرقم . ومن هنا كان التغريم على كل اله او التعوذ به ، يرتكز على معرفـــة اسمه الحقيقي ، وعلى القيام بالطقوس والاسرار المقدسة المعروفـة من قبل المطلعين عليها فقط والتي هي بمتناول يدهم وحدهم ، والتي يجب ان تكون شكلا ، وكلمات ، دقيقة كل الدقة في صحتها . وهذا القول لا ينطبق فقط على السحر البدائي ، بـــل انما ينطبق بالقدر ذاته على تقنيتنا الفيزيائية (وخاصة الطبية) ، ولهذا السبب بالذات ، للرياضيات طابـع قداسة وطهارة ، وهي ، بصورة منتظمة ، ثمرة من ثمرات البيئة الدينيـــة ، (فيتاغورس ، ديكارت ، باسكال) ، وهكذا فان في كل دين ، صوفية لأرقام مقدسة (٣ ، ٧ ، ١٢) وأن الزخرف (الذي تمثل الهندسة المعمارية ـ للمذهب ارقى اشكاله) هو اصلا رقم احس بــــه كشكل . فالكون الاصغر يستخدم اشكالاً صلبة غاصبة ودوافع ـ تعبير واشارات مواصلة ، داخـــل عالم الشعور الواعي بغية الاتصال بالكون الاكبر . وهذه ما تسميها التقنية الكهنوتية بالسنن او الفرائض ، وتدعوها التقنية العلمية بالقوانين ـ ولكن كلا النوعين هما اسم ورقم ، والانسان البدائي قد لا يكتشف اي فرق بين سحر كاهن قريته الذي

بواسطته يأمر الجن ويسيطر عليها ، وبين مهندس ميكانيكي متمدن يدير الآلة ويتحكم بها .

ان النتاج الاول ، ولربما كان الوحيد ، لارادة الانسان ان يفهم هو الاعتقاد. « فأنا اعتقد » هي الكلمـــة العظمى ضد الخوف الميتافيزيقي ، وهي في الوقت ذاته ، مجاهرة بالحب واعلان عنه . ومع ان ابحاث احدهم او تجميعه للمعرفة قد يبلغ ذروته في نورانية مفاجئـــة « او تقدير بات جازم » ، ولكن مع ذلك فان مفهوم هذا المرء وادراكه سيكونان بلا معنى ، الا اذا وضع الى جانب نورانيته او تقديره ، قناعة باطنية بشيء ما بوصفه آخر وغريباً – ووضعه بالاضافـــة الى ذلك في شكل مثبت ومؤكد – داخل تسلسل من علة ومعلول . لذلك فان ارقى الممتلكات العقلانية المعروفـــة من قبل الانسان بوصفه كائناً ذا فكر يستنتج – نطقاً ، هو الايمان الثابت والمكتسب بشق الأنفس بهذا الـ - شيء ما ، والمستخلص من مجاري الزمان والمصير ، والتي فرزها بواسطـــة التأمل ووسمها بالاسم والرقم . ولكن ماهية هذا الشيء ما تبقى في نهاية المطاف غامضة مبهمة . فهل كان هذا الشيء ما للمنطق السري للكون هو الذي لامسه الانسان ام كان فقط صورة ظلالية له Silhouette ؟ وهكذا يبدأ من جديد كل نضال وانفعال، وتوجه الابحاث القلة التواقة نفسها نحو هذا الشك الجديد الذي قـــد يتحول الى يأس . فالانسان يحتاج في تنقيبه العقلاني عن الاعتقاد الى شيء ما نهائي يكون باستطاعة الفكر ان يبلغـه ، الى نهاية لتشريح لا يخلف وراءه اي اثر لغموض او ابهام . فالنور يجب أن يغمر زوايا عالم تأمله وجيوبه – ولا يستطيع اي شيء اقل من هذا ان يفرج عن الانسان او يعتقه .

وهنا ينتقل الاعتقاد الى داخل المعرفـــة التي حركها الشك او الريب ، او بتعبير ادق ، يصبح اعتقاداً داخل تلك المعرفة . وذلك لأن شكل المعرفة للفهم يتوقف بصورة جذرية على الاعتقاد ، اذ انه كفل وعجز ، واكثر اصطناعيـــة وعطا للتساؤل والريب . زد على ذلك ان النظريـــة الدينية – وهذه هي تأمل

المعتقد – تفضي الى الممارسة الكهنوتية، لكن النظرية العلمية ، هي العكس من هذه ، اذ انها تحرر ذاتها بواسطة التأمـــل من المعرفة التقنية للحياة اليوميــة . والاعتقاد الراسخ وليد النورانيات ، الاعلان الالهي ، واللمحات الفجائية العميقة ، كل هذه تستطيـع ان تستغني عن العمل التنديدي . لكن المعرفة التنديديـــة تفترض مسبقاً الاعتقاد الذي سيفضي بـــه منهاجها الى ما هو مشتهى ومطلوب تماماً – أي انها لا تؤدي الى خلق تخيلات جديدة ، بل الى ما هو «واقعي» . وعلى كل حال فان التاريخ يعلمنا بان الشك من جهة الاعتقاد يفضي الى المعرفة ، وأن الشك من جهة المعرفة يعود (بعد فترة من تفاؤل تنديدي) بالمعرفة الى الاعتقاد ثانية . ولما كانت المعرفة النظريـــة ، تحرر ذاتها من القبول الواثق ، فهي لذلك تتجـــه منطلقة الى تدمير ذاتها ، حيث لا يبقى بعد هذا التدمير الا مجرد خبرة تقنية فقط .

ان الاعتقاد ، في وضعه البدائي غير الواضح ، يعـترف بوجود منابع اسمى للحكمة ، حيث تكون بواسطتها الاشياء ، التي لا يستطيـع ابداً دهاء المرء او مراوغته ، ان يوضحها او يفسرها ، واضحة للعيان تقريباً – ومثل هذه الاشياء هي الكلمات النبوية ، الاحلام ، الاوراكل ، الكتب المقدسة ، صوت الاله . أما الروح التنديدية ، فهي على العكس من هذا ، اذ انها تريـد وتعتقد بانها قادرة بالذات ان تنظر داخل كل شيء بنفسها . وهي لا ترتاب فقط في الحقائق الغريبة عنها ، بل تنكر حتى امكانية وجودها . والحق في نظرها هو ليس الا معرفـة برهنت عليها لنفسها . ولكن اذا كان التنديد المجرد يخلق وسيلة من نفسه فقط ، فعندئذ لن يطول بنا الزمن لندرك ان هذا الوضع ينتحـــل صحة النتيجة . ان De omnibus dubitandum هي فرضية لا تستطيـع ان تدخل ميدان التحقق او الواقع . وانـه ، لعرضة لان لاينسى ، كون النشاط التنديدي يستوجب الارتكاز الى منهاج ، وامكانية الحصول على هذا المنهاج بدوره وبواسطة التنديد ، هي امر ظاهر فقط . وذلك لأنه ينشأ حقاً عن النزعة البرهية للفكر وهذا يعني

ان نتائج التنديد نفسها تقرر بواسطة المنهاج الاساسي ، ولكن هذا بدوره يقرر من قبل تيار الكائن الذي يحمل وينثر الشعور الواعي . فالاعتقاد بمعرفة لا تحتاج الى فرضيات هو مجرد علامة من علامات السذاجة غير المحدودة للمراحل العقلانية ، وليست اية نظرية من نظريات العلوم الطبيعيـة ، سوى دوغما اقدم تاريخياً من تلك ، وفي شكل آخر غير شكل تلك . والفائدة الوحيدة التي تحصل الحياة عليها منها ، هي تلك التي تتمثل في شكل تقنية ناجحة زودتها النظرية بالمفتاح . ولقد قيل فيا مضى ان قيمة الفرضية العملية لا تكمن في « صحتها » بـــل في قابليتها للاستخدام . لكن الاكتشاف من النوع الآخر ، لقطات البصيرة ، « الحقائق » وفق المفهوم التفاؤلي ، لا يمكن ان تكون ثمرات الفهم العلمي المجرد ، نظراً لأن هذا يفترض دائماً ومسبقاً نظرة يستطيـع ان يعمل بواسطتها نشاطه التنديـــدي المشرح . فالعلوم الطبيعية الباروكية هي تشريح واحد دائم ومستمر لصورة العالم الدينية الحقبة القوطية .

لا يكمن هدف الايمان والعلم ، هدف الخوف والفضول ، في اختبار الحياة ، بل في معرفة العالم — كطبيعة . وهذان (الايمان والعـــالم — المترجم) هما نفي واضح وجلي للعالم — كتاريخ . لكن سر الشعور الواعي الذي هو سر مزدوج، فهناك صورتان وليدتا خوف ، ومنتظمتان سبباً تنشآن بالنسبة للعين الباطنية — العالم « الظاهري » وصورته المضادة ، صورة « العالم الباطني » . وكلاهما يحتويان على معضلات حقيقية ، وليس الشعور الواعي رقيباً فقط ، بـــل انما هو ايضاً مشغول جداً داخل ميادينه الخاصة ايضاً . فالروح المقيمة هناك في الخارج تدعى الله ، والمقيمة هنا في الداخل تدعى النفس . وتتحول آلهة رؤيا المؤمن ، بواسطة الفهم التنديدي ، داخل الفكر الى احجام ميكانيكية تنسب الى عالمه ، لكن جوهرها ونواتها يبقيان الشيء نفسه — فهنا المادة والشكل الكلاسيكيان ، والنور والظلام المجوسيان ، والطاقة والكتلة الفاوستيتيان — ووسيلته هي دائماً التشريح ذاته لاعتقاد النفس البدائي ، ونهايته هي ايضاً دائماً النتيجة ذاتها والمقررة مسبقاً .

وتدعى فيزياء الباطن السيكولوجيا المنهاجية ، وهذه تكتشف ، اذا ما كانت علماً كلاسيكياً ، داخل الانسان شيئاً مشابهاً لاجزاء – النفس ، اما اذا ما كانت علماً مجوسياً فهي تكتشف جوهر – نفس (روح ، نفس) واذا ما كانت علماً فاوستياً فتكتشف طاقات – نفس (تفكيراً شعوراً ارادة) . هذه هي اشكال التأمل الديني في الخوف والمحبة والتي يتبعها بالعلاقات السببية للذنب والخطيئة والغفران والضمير والمكافأة والعقاب .

ان الكينونة هي امر خفي غامض ، حالما يتوجه الايمان والعالم باهتماميهما اليها ، تستجرهما الى خطأ خطير . فبدلاً من بلوغ ما هو كوني (وهذا الامر خارج تماماً عن نطاق امكانات الشعور الواعي الفعال) نرى ان حركة الجسم العاقلة داخل ميدان العين ، والصورة المفاهيمية للسلسلة السببية الميكانيكية المستخلصة منها ، خاضعتان للتحليل . ولكن الحياة الحقيقية هي حياة تعاد ولا تعرف . والعديمَ الزمان هو وحده الحقيقي . والحقائق تقع ما وراء التاريخ والحياة ، بالعكس من هذه ، هي شيء ما يقع ما وراء كل العلل والمعاليل والحقائق . والتنديد بشقيه ، تنديد الشعور الواعي ، وتنديد الكائن ، هما مضادان للحدوث وغريبان عن الحياة . لكن تطبيق التنديد في الحالة الاولى ، امر يجد له القصد التنديدي والمنطق الباطني للموضوع المشار اليه كل تبرير ومبرر لكن لا مبرر له في الحالة الثانية . وينشأ من هذا ان التمييز بين الايمان وبين المعرفة ، او بين الخوف وبين الفضول ، او بين الالهام وبين النقد ، هو ليس ، بعد كل شيء ، التمييز النهائي . فالمعرفة ليست الا شكلاً متأخراً زمنياً من اشكال الاعتقاد . لكن الاعتقاد والحياة ، الحب النابع من الخوف الغامض من العالم ، والحب النابع من البغضاء الخفية للجنسين ، (ذكر ، وانثى – المترجم) ، المعرفة ذات المنطق اللامتعضي ، والحس ذو المنطق المتعضي ، العلل والمصائر – هذه تمثل اعمق كل ما هناك من تعارض . ونحن هنا لا نميز بين الناس اعتماداً على صيغ تفكيرهم – أدينية هي ام تنديدية – ولا اعتماداً على مواضيع فكرهم ، بل نميز بينهم اعتماداً عما اذا كانوا مفكرين (وفي اي موضوع كان) او فعالين .

ان الشعور الواعي يتولى الامور في ميدان العمل ، فقط حينما يصبح العمل تقنية . زد على ذلك ان المعرفة الدينية هي قوة ايضاً – فالانسان لا يؤكد فقط التسبب ، او العلاقات بين العلل والمعاليل ، بل يعالجها . وان ذاك الذي يعرف العلاقـــة السرية بين الكون الاصغر والكون الاكبر ، يسيطر عليها ويأمرها ، اجاءت هذه المعرفة اليه نتيجة لوحي او الهام ، ام استرقها سمعاً . هكذا فان الساحر والمعزم (المشعوذ – المترجم) هو حقاً رجـــل – تابو . فهو يلزم الاله بواسطة القربان والصلاة ، وهو يقوم بالطقوس الصحيحة والاسرار المقدسة ، لأنها اسباب لنتائج محتومة ، وان من يعرفها ، يلزمها بان تخدمه بالذات ، وهو يقرأ في النجوم وفي الكتب المقدسة ، وداخل قوتـــه ، تكمن ، خارج الزمان ، ومصونة من كل احداث الصدفة ، العلاقة السببية بين الخطيئة والكفارة ، بـين الندم والمغفرة ، بين القربان والنعمة . وسلسلته من الاصول المقدسة والنتائج ، تجعله بالذات ماعوناً لقوة غامضة خفية ، ولذلك تجعله علة لمعاليل جديدة ، يتوجب على المرء ان يؤمن بها قبل ان يقوم بالتبليغ بها .

من نقطة الانطلاق هذه نستطيع ان نفهم (ما نسميه تقريباً العالم الاوروبي – الاميركي اليوم) المعنى النهائي للاخلاقية الدينية ، الاخلاق ، انها حينما تكون العلاقة قوية حقيقية وذات مضمون كامـــل للمشهد الطقوسي والممارسة ، انها (ولنستعمل كلمات ليولا) « الممارسة الروحية » المتممة امام الاله الذي تتوجب تهدئته بواسطتها والتضرع اليه . « ماذا يجب علي ان اعمل كي اخلص ؟ » هـــذه « الـ – ماذا » هي المفتاح لفهم كل الاخلاق الحقيقية . وتكمن في اعمق اعماقها « لماذا » ، « وماذا » . وهذا ينطبق ايضاً على حال تلك الحفنـــة من الفلاسفة المصعدين بالحرارة تصعيداً ، والذين خيل اليهم وجود اخلاق « من اجل الاخلاق بالذات » – وهؤلاء يعترفون حتى بجملتهم القائلة بانهم مع ذلك يشعرون هناك في الاعماق بوجود « لماذا » ، غير ان قلة جذابة من نوعهم تستطيع ادراكها . فهناك توجد فقط اخلاق سببية او علية – وهذه هي تقنية اخلاقية – وتوجد في

تركيزة خلفية للقانع بالميتافيزيقا .

ان الاخلاق هي سببية — علية — واعية ومخططة لسلوك ، وهي ما خلا كل خصوصيات الحياة الواقعية وطابعها ، شيء ما خالد وصحيح على مستوى كوني ، وهي ليست معدومة الزمان فقط ، بل انما هي معادية له ، وهي ، لهذا السبب بالذات ، « حقيقية » . وحتى لو لم يكن هناك وجود للجنس البشري ، لبقيت الاخلاق حقيقية وصحيحة — وهذا ليس مجرد خيلاء وتصور ، بل هو تعبير للمنطق الاخلاقي اللامتعضي منطق العالم المدرك بوصفه منهاجاً جرى فعلاً استخدامه . والفيلسوف قد لا يتنازل ابداً عن انه كان من الجائز للاخلاق تطور واكتمال . ان الفراغ ينفي الزمان ، والاخلاق الحقيقية هي مطلقة خالدة وكاملة ، وهي نفسها بالذات . ويكمن داخل اعماقها نفي دائم للحيـــاة ، وامتناع عنها وانكار يبلغان حدود التنسك والزهد وحتى الموت نفسه . فالنفي واضح وصريح في كل جملة من جملها — فالاخلاق الدينيـــة تحتوي على نواه وتحريم لا على فرائض . والتابو حتى حيث يؤكد بوضوح ، هو لائحة من انكار وتنصل . فلا سبيل الى تحرير المرء نفسه من عالم الواقع ، وان تجنب امكانات المصير ، وان النظر دائماً الى العنصر بوصفه عدواً يتربص به الدوائر — ما هوالا منهاج قاس وعقيدة وارادة ممارسة . ولا يتوجب على اي عمل ان يكون سبباً او محرضاً دافعاً — فهذا الامر متروك للدم — فكل شيء يجب ان يقدر على ضوء الدوافع والنتائج ، ويجب ان ينفذ « حسب منطوق الاوامر » . والمطلوب توتر مفرط القلق كيلا تقع في الخطيئة . واول الامور المستوجبة هي العفة وضبط النفس عن شهواتها ، وعما يتعلق بالدم والحب والزواج . فالحب والبغضاء في الجنس البشري هما كونيان وشران ، والحب الجنسي هو على طرفي نقيـــض والحب والخوف من الله اللذين لا زمان لهما ، ولذلك فهذا النوع من الحب خطيئة اصلية طرد من اجلها آدم من الجنة وأورث الجنس البشري وزر خطيئته . فالحمل والموت يجددان حياة الجسد في الفراغ ، وكون الجسد هو حقاً موضوع البحث ، يجعـل الحمل خطيئة والموت

عقاباً . والكلمة الكلاسيكية للجسد تعني قبراً ، وهـــذا كان اعتراف دين اورفيوس . وبندار وآشيل ادركا الكينونة بوصفها تبكيتاً وتعنيفاً ، كما وأب قديسي جميع الحضارة يشعرون بانهـــا عدم ورع او مروق يجب القضاء عليه بواسطة الزهد ، او بالاسراف في القصوف والتهتك والخلاعة (وهذه قريبة النسب اليها) . فالعمل وميدان التاريخ ، والفعـــل ، والبطولة ، والسرور في المعركة والنصر والغنائم والاسلاب ، كل هذه هي شر . وذلك لأن نبض الكائن الكوني يقرع الباب قرعاً شديداً ومزعجاً لتأمل الفكر ومجرانه . والعالم باكمله – واعني بهذا العالم كتاريخ – عالم مرذول فاضح السمعة بمقوتها . فهو عالم يحارب بدلاً من ان ينكر وينبذ ، وهو لا يملك فكرة التضحية . وهو يسيطر على الحقائق بواسطة الوقائع . وهو لكونه يتبع المحرض ، يحير الفكر ويربكه حين تفكيره بالعلة والمعلول . ولذلك فان اسمى تضحية يستطيع الانسان العقلاني ان يقدمها ، هي ان يجعل من العالم كتاريخ هدية لقوى الطبيعة . وكل عمل اخلاقي هو جزء من هذه التضحيـــة ، ومجرى الحياة الاخلاقي هو سلسلة متصلة الحلقات من ضحايا كهذه . والرحمة ، هي اول مظهر من مظاهر العطف ، حيث يتخلى القوي باطنياً عن تفوقه لعديم القوة . فالرجل الرحيم يقتل شيئاً ما داخل ذاته . ولكن يجب علينا ألا نخلط بين هذا العطف بمفهومه الديني الجليل وبين العاطفية الغامضة لرجل الحياة اليومية ، الذي لا يستطيع ان يسيطر على نفسه ، او بينـــه وبين شعور العنصر الفروسي ، هذا الشعور الذي ليس هو اطلاقاً اخلاقاً من اسباب وقواعد واحكام ، بل عادة شائخة واضحة ولدت بها خفقات نبض غير واعية لحياة زودت بمفتاحها . اما ذاك الذي يدعى في الازمان المتمدنة بالآداب الاجتماعية ، فانـــه لا يمت باية صـــلة الى الدين ، ووجوده قائم ليظهر فقط ضعف التدين اليومي وخواءه ، هذا التدين الذي فقد زخم قناعته الميتافيزيقيـــة الذي يعتبر الشرط الاساسي للاخلاق القوية الواثقة المنكرة للذات . ولنتأمل ، مثـلا ، في الفرق القائم بين باسكال ومل . فالاداب الاجتماعية ليست اكثر من سياسة عملية . وهي ثمرة جد متأخرة زمناً للعالم التاريخي ذاته الذي شهد ربيعه « في كل الحضارات على

حد سواء ، ازدهار اخلاق سامية في الشجاعة والفروسية وأرومة قوية لا يطرف لها جفن امام حياة التاريخ وتحت وطأة القدر ، اخلاق ذات ردود افعال طبيعية ومكتسبة التي قـــد يسميها المجتمع المتأدب اليوم « غرائز الجنتلمان » ، اخلاق نقيضها السوقية ، وليس الخطيئة . انها مرة اخرى القلعة في تباينها والكاتدرائية . فاخلاق القلعة لا تسأل عن الفرائض والاسباب . وهي في الواقع لا توجـــه اي سؤال اطلاقاً . فشرعتها تكمن في الدم – الذي هو نبض ، وخوفها لا ينبع من رهبة من عقاب او رغبة في ثواب ، بل من الاحتقار ، وخاصة احتقار الذات . وهي ليست منكرة للذات ، بل على العكس من ذلك ، انها تنبع من امتلاء كل امتلاء ذات قوية . لكن الرحمة تتطلب ، بالمثل ، عظمة نفس باطنية ، وهكذا فان الازمان الربيعية ذاتها هي تلك التي تنتج اعمق خدم الشفقة قداسة ، كأولئك الذين هم من طراز فرنسيس اوف اسيسي ، وبرنارد كليرفو ، والذين نبذ الحياة كان يتضوع اريجاً عطراً منهم ، وكانت تقدمة الذات غبطة وهناء في نظرهم ، وكانت طقوسهم اثيرية لا دم لها او زمان او تاريخ ، والذين اذاب الخوف من الكون نفسه داخلهم فاصبح محبـــة نقية سليمة من كل عيب ، وقمة من اخلاق سببية ، اصبحت المراحل المتأخرة زمناً ، عاجزة بكل بساطة عن ارتقائها .

ان من يريد ان يتحكم بدمه ويضبطه ، يجب ان يكون له دم . ونتيجة لذلك نجد الرهبانية من الطراز الرفيـع في ازمان الفرسان الحاوبين فقط ، ونجد أن ارقى رمز للانتصار الكامل للفراغ على الزمان يتمثل في صيرورة المقاتل راهباً – لا في الحالم او الضعيف بالولادة ، والذي ينتمي بطبيعته الى الدير ، وليس ايضاً في العالم الذي يعمل في مناهج الاخلاقيـــة في مكتبه . ولنضع التصنع ، او الرياء جانباً الذي يدعونه هذا اليوم بالاخلاق – فان عطف المرء على اقربيه ، او ممارسة رغبة جديرة ، او طقوس ، ممارسة تنبـع من فكرة سابقـــة لها وتهدف الى اكتساب قوة سياسية بواسطتها – فهذه ليست بأخلاق – الشرف ، وليست حتى درجة دنيا منها وذلك اذا ماقيست بمستويات الربيـع الحضاري . ولنكرر : هناك

أخلاق جليلة فقط بالنسبة الى الموت ، ومنابعها هي خوف ينتاب كامل الشعور بالاسباب والنتائج الميتافيزيقية ، ومحبته تتغلب على الحياة وتقهرها ، وشعور المرء بانه واقع تحت تأثير سحر لا يرحم لمنهاج سببي يتألف من قوانين وأغراض مقدسة ، تبجل بوصفها حقائق ، والتي يتوجب على المرء اما ان ينتمي اليها كلياً او ينبذها كلياً . ويرافق ممارسة هذه الاخلاق توتر دائم ومراقبة ذات واختبارها ، وهذه فن يهوي ازاءه العالم كتاريخ الى اللاشيئية . فليكن الانسان اما بطلاً او قديساً ، فبين هذين لا توجد الحكمة ، بل توجد التفاهة والمألوف من الأمور .

- ٢ -

لو كانت هنا حقائق مستقلة عن تيارات الخليقة . لما كان بالامكان وجود تاريخ للحقائق . ولو كان هناك دين واحد فقط خالداً في صحته لأصبح التاريخ الديني فكرة لا يدركها عقل . ولكن مهما قد يكون مستوى الجانب الكوني الاصغر من حياة الفرد راقيا في تطوره ، فانه بالرغم من ذلك هو شيء ما قد مد كأنه الغشاء فوق الحياة المتطورة ، ورش بنبض الدم ، ويفشي ، دائماً وابداً ، سر الاندفاع للتوجيه الكوني . ان العنصر يسيطر ويشكل كل فهم او ادراك . وان مصير كل لحظة من دراية او ادراك ، ان تكون شكلاً لشبكة الزمان فوق الفراغ .

وليست « الحقائق الخالدة » غير موجودة . فكل انسان يمتلكها – ويمتلك الكثير منها – الى حد انه يوجد ويمارس ملكة الفهم في عالم من الافكار ، وفي مجموعها المترابط حيث تكون داخل برهة الفكر ومن اجلها ، متاعاً ثابتاً لا يقبل

تغيراً او تبديلاً - ومشدوداً بعضها الى بعض بسلاسل من حديـــد ، بوصفها تراكيب من علة ومعلول تطوقها المقدمات والاستنتاجات . ويؤمن الانسان بانه لا يوجد اي شيء في هذا الترتيب يمكن ان يزاح او يزحزح . ولكن ، في الواقع ، ان جيشاناً واحدا من الحياة ، هو الذي يصعد ، في هذه الحال الشعور الواعي لمثل هذا الانسان وعالمه معاً . ووحدة هذا الترتيب تبقى متكاملة، ولكنه علك تاريخاً وذلك بوصفه وحدة ، كلا ، وواقعة . فالواحدة من هذه « الحقائق الخالدة » هي مطلقة ونسبية والحقيقة الأخرى ، كالأجزاء العرضية والطوليـــة لتتابع الاجيال ، حيث تتجاهل الاخيرة من هذا الفراغ ، والاولى منها الزمان . والمفكر المنهاجي يظل داخل نظام البرهـة السببي ، اما المفكر السيائي ، الذي يستعرض ويفحص سياق المواقع وتتاليها ، فهو وحده الذي يدرك التبدل الدائم الذي يطرأ على « ما هو » صحيح .

ان «كل ما هو ماض « هو رمز » قول ينطبق ايضاً على الحقائق الخـــالدة ، وذلك حالما نتتبع سياقها ومجراها في نهر التاريخ وتياره ، ونراقبها وهي مستمرة في انطلاقها ، بوصفها عناصر في صورة - العالم للاجيال التي تعيش وتموت . فالدين الواحد بالنسبة لكل انسان ، وطيلة اجله من الوجود ، هو خالد وحق ، وقرره له المصير بواسطة زمن ولادته ومكانها . والانسان به يشعر بنظرات عمره وقناعاته ومنه يشكل هذه النظرات والقناعات . وهو يتمسك بثبات وشدة بكلمات دينه واشكاله ، بالرغم من ان ما يعنيه بها هو في حال من تبدل مستمر . ففي العالم - كتاريخ توجد صحة ابدية في تبدلها او تغيرها .

لذلك فان مورفولوجيـــا التاريخ الديني هو واجب تستطيع فقط الروح الفاوستيـة وحدها ان تقوم باعبائه ، وهو واجب ، يليق الآن فقط ، بالروح الفاوستية ، وفي مرحلتها الحالية من تطورها ، ان تعالجه . فالمشكلة قـد صرح عنها الآن وأعلن ، ويتوجب علينا ان نتجرأ ونتقدم على بذل المجهود الذي ينأى بنا تماماً عن قناعاتنا ، وان ننظر الى كل شيء نظرة لا مبالية ، فنراه ، بالمثل ،

اجنبياً وغريبا عنا . ويا لهذا المجهود من مجهود شاق صعب ! ان من يتصدى للقيام بهذا الواجب (واجب ايجاد مورفولوجيـــا للتاريخ - المترجم) يجب ان يمتلك القوة التي لا تمكنه فقط من تخيل نفسه منفصلا انفصالاً وهمياً عن حقائق فهمه - العالم - ووهميا ايضا هو هذا الانفصال بالنسبة لمن يعتبر هذه الحقائق مجموعة من المفاهيم والمناهج - بل تمكنه ايضاً من النفوذ الى منهاجه الخاص نفوذاً سيمائياً يبلغ حتى آخر خلية فيه . ولكن حتى في هذه الحال ، هل باستطاعة لغـــة واحدة وحيدة ، تحمل تركيبياً وروحياً كامل المحتوى الميتافيزيقي لحضارتها الخاصــة ، ان تستولي على فكر الحقائق القابلة للتبليغ بها . والتي تعود لأناس ينطقون بالسنة غير السنتنا ؟

وبداية نقول بان هناك حشداً من السكان البدائيــين الذين لا لون لهم ، يقفون ، طيـــلة آلاف من السنين من الحقبة الاولى ، مرعوبين فاغري الافواه امام البيئة العديمة النظام والتي تثقل الغازها واحاجيها كواهلهم باستمرار ، هذه الاحاجي التي لا يستطيع اي واحد منهم ان يسيطر منطقيا عليها . والحيوان هو لسعيد الحظ اذا ما قورنت حاله وحال هؤلاء السكان ، الذين يعون ولكنهم لم يبدأوا بالتفكير بعد . فالحيوان يعرف الخوف فقط من حال الى حال ، بينما ان الانسان المبكر زمناً يرتعد رعباً امام العالم باكمله . فكل شيء داخل هـــذا الانسان وخارجـــه هو مظلم وغير ثابت او مقرر . فالجانب اليومي معقود ومشبوك مع الجانب الجني دونما قاعدة ، او دليل او حل . واليوم مترع بتدن مرعب واليم ، حيث يكون من النادر ان تجد فيه حتى مجرد اقتراح لدين يبعث على الثقة والطمأنينة - وذلك لأنه لا توجد اية طريق تنطلق من هذا الشكل الاولي للخوف من العالم وتؤدي الى المحبة الفاهمة . فكل حجر قد يعثر به هـذا الانسان ، وكل اداة تمسك بها يداه ، وكل حشرة تئز وهي مارة بـه ، والطعام والمنزل ، كل هذه يمكن ان تكون مسكونة من الجن . ولكن هذا الانسان يؤمن بالقوى الكامنة في هذه الاشياء ، طالما هو يهابها ويخافها ، او طالما يستطيع

ان يستخدمها – ويوجد منها ما فيه الكفاية تماماً حتى في هذه الحال . لكن الانسان يستطيع ان يحب شيئاً ما فقط عندما يعتقـــد بالوجود المستمر لهذا الشيء . فالمحبة تفترض مسبقاً وجود فكر لنظام عالم اكتسب الاستقرار . ولقد قاست الابحاث الغربية الامرين لا بغية ان تنظم فقط الملاحظات الفردية المجمعة من جميع اجزاء العالم في نظام ، بل بغيـــة ترتيبها ايضاً حسب مراتب منتحلة « تنطلق » من المذهب الروحي Animism [1] (او منطلقات اخرى كما تريد او ترغب) الى المعتقدات التي تتمسك بها هذه الابحاث نفسها . ومن سوء الحظ ان ديناً واحدا خاصا هو الذي زود المنهاج بقيمه ، كما وان الصينيين او اليونان كانوا سيقيمون مثل هذا المنهاج على اسس مختلفة تماماً . والحق انه لا يوجـــد تدرج مراتب كهذا ، تدرج يؤدي بتطور انساني عام الى هدف واحد . فعالم الانسان البدائي العديم النظام والمحيط بهذا الانسان ، ووليد فهمه المتقطع غير المستمر ، البرهات المنفصلة ، والذي هو مع هذا مليء بالمعنى المؤثر ، هو دائما شيء ما بالغ ناضج ومكتمل بذاته ومغلق مراراً بهاوي الالهام الميتافيزيقي العميق ورعبه ، وهو يحتوي دائماً على منهاج ، ولا يهم كثيراً ما اذا كان هذا المنهاج قد استخلص جزئياً من التأمل في عالم الضوء ، او انه يبقى باكمله داخل هذا العالم . وصورة عالم كهذه « لا تتقدم » ، وليست هي مجموعا ثابتا من خاصات يتوجب علينا ان نلتقط هذه الواحدة منها او تلك (بالرغم من اننا عادة نلتقطها) للمقارنة ، دون ان نلتفت الى الزمان والارض والشعب . وهذه تشكل ، في الواقع عالما متعضيا من اديان متعضيـــة امتلكت ، في كل جزء من اجزاء العالم ، (وهي لا تزال تمتلك حينما لم تمت بعد) طرازات خاصة بها ، وشديدة الاهميـــة ، عميقة المغزى ، طرازات من نشوء ونمو وامتداد وذبول ، وطابعا معينا احسن تقريره من حيث

---

(١) Animism : المذهب القائل بأن لكل شيء في الطبيعة روحاً .
– المترجم –

التركيب والنموذج ، او الاسلوب ، ومقياس السرعـــة الزمنية Tempo والديمومة . ولا يجري تطوير اديان الحضارات الراقية من هذه ، بل من اشياء مخالفة لها . فهي توجد على صورة انقى واعمق عقلانية ، في الضوء ، فهي تعرف ما تعنيه المحبة الفاهمة ، ولها قضايا وفكر ، ونظريات وتقنيات يرعاها عقل دقيق صارم ، لكنها لم تعد تعرف الرمزية الدينية لضوء كل يوم . ان التدين البدائي ينفذ الى كل شيء ، اما الاديان المفردة والتي تأتي فيما بعـــد ، فهي قائمة بذاتها ومستقلة عن عوالمها الخاصة .

ولذلك فان حقبات « ما قبل » الحضارات العظمى هي اعمق الغازاً ، وهي بعد بدائية متناً وحاشية ، وتخطو مع ذلك بجلاء وتشير بوضوح الى اتجاه معين . وهذه الحقبات ذات الديمومة التي لا تتعدى بضعة قرون ، هي وحدها التي كان من المتوجب فحصها فحصا دقيقا وصحيحا والمقارنة بين ذواتها ، ومن اجـل ذواتها . فاي شكل تعده الظاهرة القادمة لنفسها ؟ اما فيما يتعلق بالاديان المجوسية ، فان الحقبة الاولى قد انتجت ، كما سبق لنا ان رأينا ، طراز الدين النبوي الذي انتهى الى دين الرؤى . فكيف حدث ان رسخ هذا الشكل الخاص اعمق فاعمق داخل لب هذه الحضارة الخاصة ؟ او لماذا ملئت الفاتحـــة المسينية للحضارة الكلاسيكية منـــذ بدايتها حتى نهايتها ، بتخيلات عن آلهة لها اشكال الحيوان ؟ فهذه الآلهة ليست آلهة المحاربين القاطنين القلاع المسينية المشيدة فوق المرتفعات ، حيث كانت تمارس عبادة ـ النفس ـ والاسلاف ، بتقى رفيع وورع نبيل لا نزال نجد لها اثراً واضحاً في التماثيل والنصب التذكارية ، بل انما هي آلهة المنخفضات السفلية ، انها القوى التي آمن بها من هو داخـــل كوخ الفلاح . والآلهة العظام المشابهة للانسان صورة ،آلهة الدين الابولوني ، والتي يجب ان تكون قد نشأت عام ١١٠٠ في أعقاب اضطرابات دينية جبارة ، هذه الآلهة تحمل على كل جانب من جوانبها ، آثاراً واضحة من ماضيها المظلم . فبالكاد نجـــد اياً منها دون ما بعض لقب او كنية ، او نعت ، او دليل من اسطورة تحول تشير الى اصله . فهيرا عنـــد

هوميروس لها بصورة دائمـــة عينا بقرة ، وزفس يتبدى كثور ، وبوسيدون Poseidon يظهر في اسطورة ثلبيوسان Thelpusan كحصان . وأبولو يصبح اسما لما لا يعد او يحصى من الارواح البدائيـــة ، فهو حيناً ذئب (Lycaeus) كارس الروماني ، وحيناً دلفين (Delphinius) وآخر افعى (The Pythian Appollo of Delphi) وميليخيوس Meilichios زفس يتخذ شكل افعى ايضا على تضاريس القبور الأتيكيـة وقبور اسكليبيوس Asclepios وارواح الانتقام Furies حتى آشيـــل . كما وأن الافعى التي احتفظ بتمثالها في الاكروبول قد ترجمت على انها اريتشثونيوس Erichthonios . وفي آركاديا ، فان تمثال ديمتر الذي له رأس حصان والقائم في معبد فيغاليا Phigalia كان لا يزال بوسانياس يراه على هذه الحال ايضاً ، وكاليستو - آرتميس تظهر كدبة ، ولكن راهبات بوررونيا Brauronia ارتميس كن يدعين في اثينا ايضاً دبات . كما وأن ديونيسوس كان حيناً ثوراً وآخر ايلا ، واحتفظ بان Pan حتى النهايـة بعنصر حيواني معين . وبسيشي Psyche (وهذه كالنفس الجسمانية المصريـــة) هي طائر - النفس وقد تلا هـذه كلها اشباه آلهة لها اشكال حيوانية لا يحصيها عد ، كجنيـــات البحر ، والقنطروس التي تملأ كليـة الصورة الكلاسيكية المبكرة الطبيعـة .

ولكن ما هي الآن ملامح الدين البدائي للازمان الميروفنجية التي تنبىء بأن نهضة الدين الغوطي الجبارة هي وشيكة الوقوع ؟ انها لا شك الدين ذاته ، وهذا امر جلي وواضح ، اما المسيحية فانها لا تبرهن على شيء عندما نتأمل في كامـل الفرق الكامن في اعمـــاق هذين الدينين . وذلك (ويجب ان تكون النقطة التي سأوردها واضحة كل الوضوح في اذهاننا) لأن الطابع البدائي لدين ما لا يكمن في مخزونه من العقائد والاعراف ، بل يكمن في الروحانيـــة المعينة لجنس البشري الذي يعتنق هذه العقائـــد والاعراف ويشعر ويتحدث بها ويفكر بواسطتها . ويتوجب على طالب العلم ان يعود نفسه على الواقعة القائلة بان المسيحية

البدائية » وبتعبير ادق المسيحية المبكرة للكنيسة الغربية » قد اصبحت مرتين متتاليتين ماعونا لتعبير الورع البدائي ، ولذلك فهي نفسها دين بدائي ـ واعني بهاتين المرتين ، الاولى في الغرب الجرماني ـ الكلتي وفي الفترة الواقعـــة بين عام ٥٠٠ وعام ٩٠٠ ، والثانية في روسيا حتى هذا اليوم . والآن كيف كان العالم يصور نفسه لهذه العقول « المهتديـة » ؟ ونحن اذا ما اخرجنا من حسابنا بعض آثار قليلة للتربية البزنطية ، فعندئذ ما الذي كان الانسان يفكره فعلاً ويتخيله عن هذه الشعائر والعقائـد ؟ فالاسقف غريغوري اوف تور ، الذي ، كما يتوجب علينا ان نتذكر ، يمثل ارقى نظرة عقلانية عرفها جيـله ، قد امتدح مرة ترابا مسح عن شاهدة نصبت على قبر قديس بالكلمات التالية :

« ايها المطهر الالهي ، المتفوق على وصفات جميع الاطباء ، والمطهر للمعدة كعشبة السقامونيا Scammony والغاسل لجميع اللطخات عن ضميرنا ! » ولم يكن موت يسوع في نظر هذا الاسقف اكثر من جريمة ملأت قلبه سخطاً وغضباً ، بينما على العكس من هذا ، كانت قيامة يسوع التي كانت ترفرف غامضة مبهمة امام ناظريه ، اذ انه شعر في اعمق اعماقه بانها مهارة جسمانية رياضية طبعت المسيح بطابـع الساحر الاعظم ، وبذلك جعلت منه المخلص الحقيقي بصورة مشروعة وقانونية . كما وانـــه لم يكن لديه اقل مفهوم صوفي عن قصة الآلام . (آلام المسيح ـ المترجم) ولقد قررت في روسيا استنتاجات « سنودس المئة اصحاح » لعام ١٥٥١ نظاماً للايمان مغرقاً في بدائيته . فكانت حلاقـة الذقن ، وتناول الصليب باليد بشكل خاطىء يمثلان خطيئتين مميتـــين ـ اذ انهما اجتراء على الارواح . وقد ادى « سنودس عدو المسيح » لعام ١٦٦٧ الى الانشقاق الواسع الذي حدث في صفوف حركة راسكول Raskol ، اذ انـــه تقرر منذ ذاك التاريخ فصاعداً ان ترسم اشارة الصليب بثلاثة اصابع بدلاً من اصبعين ، وأن يلفظ اسم يسوع بـ « Yissus » بدلا من « Issus » ـ حيث بذلك قد تفقد قوة هذا السحر وسيطرته على الارواح في نظر المؤمن المتزمت . ولكن اثر الخوف

هذا ، ليس هو الاثر الوحيد ، وليس حتى الاشد سيطرة . ولكن ما هو السبب في ان الحقبة الميروفنجية لا تظهر اقل اثراً من تلك الباطنية المتأججة المتوهجة ، ومن الحنين الى الغوص في تلك الميتافيزيقا التي تخضب زمان ـ البذر المجوسي ، زمان الرؤى بألف لون ولون ، وتلون الحقبة الشديدة التماثل وهذه ، حقبة السنودس المقدس (١٧٢١ – ١٩١٧) في روسيا ؟ وما هو السبب الذي دفع ، منذ عصر بطرس الاكبر فما بعده ، بكل ملل ــ الشهيد ، ملل راسكولنيكي Raskolniki الى نذر العفة والفقر والحج وتشويه ــ الذات والنسك باشد اشكالها رعباً وهولاً ، ودفع في القرن السابع عشر بالآلاف لأن يلقوا خلال نوبات من جنون ديني ، بانفسهم وبالجملة في النار اللاهبة ؟ وعقائد تشلستي Chlysti ، بما لهذه من « مسحاء روس » (وهناك سبعة مسحاء معدودون منهم حتى الآن) ، والدوخوبوريون Dukhobors بكتابهم عن الحيـــاة Book of life والذي يستعملونه بوصفه كتابهم المقدس ويزعمون بانه يحتوي على مزامير نقلت شفوياً عن يسوع ، والسكوبتسي Skoptsi بفرائضهم للتشويه المرعب ــ وهذه الواحدة منها وجميعها ظواهر لشيء ما لا يستطيع المرء دونه ان يفهم او يدرك تولستوي والعدمية والثورات السياسية ـ وما هو السبب الذي يجعل الحقبة الفرنكية اذا ما قورنت بهذه تبدو بليدة غبية ضحلة على هـذا الشكل ؟ هل يكمن السر في كون الآراميين والروس هم وحدهم الذين يملكون عبقرية دينية ؟ واذا كان هذا هو الواقع ، فما هو الذي يجب ان نترقبـه من الـ ـ روسيا. التي يجب ان تأتي مستقبلاً ، ونترقبه الآن (وفي القرون الحاسمة بالذات) وبعد ان دمرت عقبة الارثوذكسية العلمانية ؟

- ٣ -

ان في الاديان البدائية شيئاً ما شريد لا موطن له او بلد ، انـــه شيء ما كالرياح والغيوم . فنفوس حشد الاقوام – الاصلية قد تكثفت داخل كيان واحد ، ولهذا فان « الـ – اين » – التي هي اي مكان – هي عرضيـــة وتبقى تصادفية ، واعني بهذه « الـ اين » « أين » انظمة ربط الشعور الواعي الناشىء من الخوف والمدافعة ، اللذين ينتشران فوقها . ولا يهم فيما يتعلق بالمغزى الباطني لهذه الاديان ، أاستقرت هذه ام تابعت تجوالها ، اتبدلت ام لم تتبدل .

وتقوم روابط التربة العميقة ووشائجها المتينـة بفصل الحضارات الراقية عن حياة هـذا النظام (الآنف الوصف – المترجم) . وهنا يكمن صقع – ام وراء كل اشكال – التعبير ، وكما يتوجب تماماً على الدولة ، وعلى المعبـــد والاهرام والكاتدرائيـــة ، ان تنجز تاريخها هناك (في البلد – المترجم) حيث ولدت فكرتها ، كذلك فان الدين العظيم لكل ربيع حضـــارة مشدود بكل جذور كيانه الى الارض التي نشأت فوقها صورته – للعالم . ويجوز ان تحمل الممارسات الدينية والعقائد الى اراض نائية واسعة ، لكن تطورها الباطني يبقى مشدوداً الى مكان ولادتها . وانها لمجرد استحالة كليـــة ان نجد اقل اثر لتطور مذاهب – المدينة الكلاسيكية في بلاد الغال ، او اتفه دليل على الانطلاق الدغماتي للمسيحية الفاوستية في اميركا . فكل شيء ، مهما كان لونه او نوعه ، يفصل ذاتـــه عن الارض ، يصبح متخشباً وصلباً .

والدين يبدأ ، في كل حال ، كأنه صرخـة عظمى . ويتحول فجأة ارتباك

الرعب البليد والدفاع الى يقظة باطنية نقية تزدهر من التربة الأم كأنها النبات تماماً ، وترى وتدرك عمق عالم ـ الضوء بنظرة واحدة . وحيثما يوجـــد فحص الضمائر والافكار بوصفه احساساً حيـاً ، يشعر بالتبدل ويرحب به بوصفه ولادة باطنية جديدة . وفي هذه اللحظة بالذات ـ وليس قبلها ولا بعدها (وعلى الاقل بالقوة العميقة ذاتها) اطلاقا يعترض الدين الارواح المختارة في زمنها كأنه النور الباهر الاعظم ، فيذيب كل الخوف في المحبة السعيدة ويترك لما هو غير منظور أن يتبدى فجأة ودون سابق انذار ، في اشعاع ميتافيزيقي .

وهنا تنجز كل حضارة رمزها الاولي . ولكل منها نوعه الخاص من المحبة ـ وهذا قد نسميه سماوياً او ميتافيزيقياً كما نرغب او نختار ـ وبواسطة هذه المحبة تتأمل الحضارة وتدرك وتدخل الى ذاتها لاهوتها ، او ما لها من الوهية ، والتي تبقى بمنأى عن ادراك اية حضارة اخرى ، او تبقى لا معنى لها في نظر الحضارات الاخرى . وأكان العالم قد وضع تحت كهف مقبب من ضوء ، كما كانت حاله بالنسبة ليسوع ورفاقه ، ام كان قطعة صغيرة متلاشية من لا نهائية اترعت بالنجوم كما احس به جيوردانو برونو ، او ما اذا كان الاورفيون يدخلون الاله المتجسد داخل ذواتهم ، او ما اذا كانت روح بلوتنيوس المحلقة في اجواء الانتشاء الروحي ؛ تنصهر وتذوب في وحدانيـــة وروح الله ، او القديس برنارد الذي يصبح « باتحاده الصوفي » متحداً وحملية الألوهيـة ـ كل هذه الامور هي الحاح عميق لنفس يسيطر عليها دائماً الرمز الاولي للحضارة الخاصة بها فقط ، وليس لأيـــة حضارة اخرى .

وفي عصر السلالة المصرية الخامسة (٢٦٨٠ ـ ٢٥٤٠) ، هذا العصر الذي تبع بناة الاهرام العظام ، ذوي مذهب عقاب ـ هوروس Horus-falcon الذي كانت روحه Ka تقيم في المليك الحاكم. وتراجعت الى المؤخرة المذاهب المحلية القديمة ، وحتى الدين العميق ، دين توت Thot لهرموبولس تراجع بدوره الى الصفوف الخلفية . وهنا تجلى دين ـ الشمس ، دين رع . واخذ كل ملك يشيد ، الى الغرب

من قصره وبالقرب من معبد ـقبره ، معبداً لرع ، وكان هذا المعبد الاخير رمزاً للطبيعة العظمى الخالدة ، اما الاول فكان رمزاً لحياة ذات اتجاه من الولادة حتى قاعـــة النواويس . فالزمان والفراغ ، والكيان الواعي ، والمصير والسببية المقدسة ، قد وضع كل واحد من هذه ، وجهاً لوجه ونقيضه داخل هذا الابداع التوأمي الجبار ، وعلى حال لا توجد لها مثيل في اية هندسة معمارية اخرى في العالم . والى كلا المعبدين تفضي درب مسقوفة ، وترافق الدرب المفضية الى معبد نقوش وتضاريس تشير الى سلطان اله – الشمس على عالمي النبات والحيوان ، والى تبدلات الفصول . وليس هناك من صورة ، اله ، او معبد ، بل هناك فقط مذبح من المرمر يزين الشرفة الجبارة المتسامية بشموخ فوق الغبراء ، والتي ينطلق فجرا الفرعون من الظلام اليها ليرحب بالاله العظيم البازغ من الشرق .

ان هذه الباطنية الفتية تنطلق دائماً من ريف لا تقوم فيـه مدن او بلدات ، تنطلق من قرى وزرائب ومعابد واديرة متوحدة وصوامع . فهنا تتشكل طائفة ذات دراية عالية ، طائفة المصطفين روحيـاً ، والتي انسلخت باطنياً بواسطة عالم كامل ، عن تيارات – كيان عظيم من بطولي وفروسي . وهنا تبدأ الطبقتان الاوليتان ، طبقة الكهنوت وطبقة النبلاء – ويبدأ التأمل داخل الكاتدرائية ، والانفعال امام القلاع ، النساك ، والمنشدين Minne ، النشوة الروحية ، والعادة الرفيعة الاصل – كل هذه تبدأ تواريخها الخاصة انطلاقاً من هذه النقطة . ومع ان الخليفة كان ايضاً اميراً او حاكماً زمنياً للمؤمنين ، ومع ان الفرعون كان يقدم القرابين في كلا المعبدين ، ومع ان الملك الجرماني قد بنى مقبرة عائلته تحت الكاتدرائية ، مع كل هذا فانه لا يوجد اي شيء يستطيع ان يقضي على التعارض السحيق العميق القائم بين الزمان والفراغ ، والذي ينعكس في التباين بين هذين النظامين الاجتماعيـــين . فالتاريخ الديني والتاريخ السياسي ، تاريخ الحقائق وتاريخ الوقائع ، يقف كل واحد منها من الآخر موقفاً مناقضاً لموقف الآخر ، موقفاً لا يمكن ابدا التوفيق بينه وبين نقيضه . ان التناقض يبدأ بالكاتدرائيـة

والقلمة ، ويتفشى وينشر ذاته داخل المدن المتزايـدة دائماً اتساعا ونموا ، بوصفه تناقضاً يقوم بين الحكمة والعمل Business ، وينتهي في آخر مراحل الطاقـة التاريخية كصراع بين العقل والسلطة .

ولكن كلتا الحركتين هاتين تحدثان على ذرى الانسانية . فالفلاحون يبقون تحتها كلية ، دون ما تاريخ ، وفهمهم للسياسة قليـــل كإدراكهم العقائد . وتتطور من الدين القوي الفتي لمجموعات القديسين ، فلسفة كلامية وصوفية وذلك داخل البلدات المبكرة زمناً ، وتنشأ حركات اصلاح ديني وفلسفة ، وتعلم دنيوي في ضجيج الشوارع والاحياء المتزايد صخباً ، وتتبدى عصور التنوير والعصور اللادينية في المدن العالمية العظمى والمتأخرة زمنا . اما اعتقاد الفلاح ، خارج هذه ، فهو خالد ، ويبقى دائما الاعتقاد ذاتـــه . فالفلاح المصري لم يفقه شيئا عن هذا الـ ـرع . فهو قد سمع بهذا الاسم ، لكنه بينما كان يمر فصل عظيم من تاريخ دين منطلقا فوق رأسه من المدن ، تابع عبادة آلهة ــ الحيوان لثاينيت Thinite حتى استعادة هذه الآلهة تفوقها بواسطة العائلة السادسة والعشرين ودينها الفلاحي . اما الفلاح الايطالي فلقد كان يصلي في زمن اوغسطس ، تماما كما كان يصلي ما قبـل هوميروس ، وكما يصلي هذا اليوم . فلقد تسربت الى الفلاح من المدن اسمـاء وعقائـــد اديان كبرى ، وازدهرت ثم ماتت بدورها ، لكنها لم تبدل من معتقدات الفلاح سوى جرس كلماته ونطوقها ــ اذ ان معانيها بقيت وتبقى المعاني ذاتها . فالفلاح الفرنسي لا يزال حتى هذا اليوم يعيش في الحقبـة الموروفنجية . ففريا Freya او مريم ، والكهنة الوثنيون او رهبان الدومنيكان ، ورومـا - او جنيف ــ لا تلامس اية منها اللب الباطني الأعمق لمعتقداته .

ولكن حتى في المدن ترتبط الطبقة الواحدة تاريخيا ونسبياً بالطبقة الاخرى . ففوق الدين البدائي للريف يوجد دين شعبي آخر ألا وهو دين الاقوام الصغيرة ابناء الطبقة السفلى في المدن وابنـاء الاقاليم . وكلما ارتفعت الحضارة في مدارج الرقي والسمو ، تزداد ضيقا دائرة اولئك الذين يملكون الحقائق النهائية لعصرهم

ويملكونها لا بوصفها مجرد اسم او صوت او جرس ، بل بوصفها حقيقـــة قائمة ـ وذلك كما حدث في المملكة الوسيطة والحقبات من برهمية وما قبل السقراطيين والكونفوشسيين والباروكيين . فكم كان عدد اولئك الذين عاصروا سقراط واوغسطين وباسكال وفهموهم . ففي الدين خلافا لغـــيره ، يرتفع الاهرام البشري بتدبيب متزايد حتى يكتمل في نهاية الحضارة ـ حيث يندثر ويتهاوى قطعة بعد قطعة .

وبدأ ، قرابة عام ٣٠٠٠ ، دينان عظيمان يشقان مجريـين لحياتيهما في مصر وبابل . وشهدت حقبة الاصلاح « الديني » في مصر وفي نهايـة المملكة القديمة ، ديناً فلكياً موحداً ارسيت دعائمه بثبات بوصفه ديناً للكهنة والمثقفين من الناس . وهكذا اصبحت جميع الآلهة ، الذكر منها والانثى ـ والتي استمر الفلاحون والبسطاء من الناس في عبادتها وفق المعنى القديم ـ تجسيداً او خدما لرع الواحد الاحد . وقد جرى التوفيق حتى بين الدين الخاص لهرموبوليس ، بما لهذا الدين من كوسمولوجيا ، وبين النظام الاعظم (دين رع ـ المترجم) ، وقـــد اسفرت مفاوضات لاهوتية ، جرت آنذاك ، عن اقامة وئام حتى بين بتا Ptah بمفيس وبين الدوغما بجعله المبدأ ـ الاولي التجريدي للخليقة . وقد اكدت روح المدنية سلطانها على الريف كما حدث تماماً في زمني يوستنيان وشارل الخامس ، وهكذا بدت القوة التشكيلية للربيـع الحضاري نهايتها ، فالدوغما قد اكتملت جوهراً ، وما تلاها من علاج لها وبحث بواسطة العمليات العقلانية ، هدم من تركيبها اكثر مما حسن فيه . فالفلسفة بدأت . والمملكة الوسيطة كانت فيما يتعلق بالدوغما ، كالحقبة الباروكية ، لا اهمية لها او وزن . وابتـداء من عام ١٥٠٠ بدأت ثلاثة تواريخ دينية جديدة ـ اولاً التاريخ الفيـــدي في البنجاب ، ومن ثم التاريخ الصيني المبكر في هوانغ ـ هو ، واخـــيراً الكلاسيكي شمالي بحر ايجيه . وتقابـــل الوضوح ذاتـه الذي تعرض به علينا صورة الانسان الكلاسيكي للعـالم ورمزه الاولي لجسم وحدتـــه ، صعوبـة حتى في تخمـين تفاصيل

الدين الكلاسيكي العظيم المبكر . « والفضل في هذا الخواء ، او الفراغ ، يعود الى الاشعار الهوميرية ، التي تضع العراقيل ، بدلاً من ان تساعدنا ، في طريقنا الى ادراكه . وفكرة الالوهة الجديدة التي كانت بمثابـــة مثل اعلى خاص لهذه الحضارة ، هي الجسد الانساني ـ المشكل في الضوء ، البطل بوصفه وسيطاً بين الانسان والاله ـ والى هذا الحد ، تشهد على كل حال الالياذة . ومن الجائز أن يكون هذا الجسد ضوءاً بدل شكله ابولو ، او نثره ديونسيس الى الرياح ، لكنه كان ، في كل حال ، الشكل الاساسي للكينونة . فوحدة الجسد بوصفها مثلاً اعلى للممتد ، والكون بوصفه مجموعاً لوحدة الاجسام هذه ، و « الكينونـــة » و « الواحد » بوصفه الممتد بذاته ، « واللوغوس » بوصفها نظاماً ناشئاً منها ، ـ كل هذه تراءت امام عيون الكهنة ، وتبدت بعظمة للعيان ، وتملك كل ما يزخر به دين جديد من طاقة وزخم .

ولكن الشعر الهوميري هو شعر أرستقراطي مجرد . فمن العالمـــين ـ عالم النبلاء وعالم الكهنة ، عالم التابو وعالم الطوطم ، عالم البطولة وعالم القداسة ـ يعيش عالم واحد في شعر هوميروس . وهذا العالم ليس جاهلاً فقط بالعالم الآخر ، بل انما يحتقره بالفعل ايضاً فكما هي الحال في الإدا Edda ، كذلك عنـــد هوميروس اذ أن معظم الانتصارات واروعها التي قـد يحققها الانسان الخالد ، يتمثل في أن يعرف طريقه الى شرعة طبقة النبلاء . وقد اعتبر مفكرو الحقبة الكلاسيكية « الباروكية » ، ابتداء من كزونوفانس حتى افلاطون ، مشاهد حياة ـ الاله تلك ، مشاهد وقحة سليطة تافهة ، وكانوا على صواب في هـــذا ، فاحساس هؤلاء كان تماماً كاحساس فلسفة الغرب ولاهوته فيا بعد ، باساطير ـ البطل الالمانية ، وحتى بغوتفريد فون شتراسبورغ وفلفرام وفالتر . واذا كانت الملاحم الهوميرية لم تتلاش وتختف كما اختفت اناشيد ـ البطل التي جمعها شارلمان ، فان السبب في هذا يعود الى انـــه لم يكن هناك كهنوت كلاسيكي كامل التشكيل ، وقد نشأ عن هذا ان الآداب الفروسية العقلانية ، وليست الآداب

الدينية ، هي التي سيطرت على المدن الكلاسيكية عندما نشأت هـــذه المدن وعرفت طريقها الى الوجود . زد على ذلك ان العقائد الاصلية لهذا الدين ، التي معارضة منها لهوميروس ، ربطت ذاتها باسم اقدم لأورفيوس (ومن الجائز باسم حتى اقدم من هذا) ، لم تدون ابداً او تكتب .

ومع ذلك فانها وجدت . ومن يعرف ماذا وكم مخبأ من آثار ، بين شخصيتي كالخاس Calchas وتايريسياس Tiresias ؟ فلا شك أن جيشانات جبارة يجب ان تكون قد حدثت في مطلع هـذه الحضارة ، كما حدث في مطالع الحضارات الاخرى ـ جيشان امتد من بحر ايجـيه حتى بلغ اتروريا ـ لكن الالياذة تظهر فقط القليل من علاماته ، والتي توازي ما تظهره اناشيد النيبلونغ ورولاند من باطنية بواكيم فون فلوريس والقديس فرنسيس والصليبيين وتصوفهم ، او تعادل ما تريه هذه من النار الباطنية لتلك Dies Irae [1] لتوماس فون سيلانو ، والتي لربما اثارت الطرب في بلاط الحب في القرن الثالث عشر . ولا شك انه يجب ان يكون قد وجدت شخصيات عظمى كي تعطي النظرة الجديدة الى العالم شكلاً صوفيا ميتافيزيقيا ، لكننا لا نعرف اي شيء عن هؤلاء ، ولم يصل من هـــذه النظرة الى اغاني قاعات الفرسان ، الا جانبها الهين المشرق والمرح الطروب . فهل كانت حرب « طروادة » خصاماً او نزاعاً ، ام كانت حرباً صليبية ايضا ؟ وما هو معنى هيلين ؟ فحتى سقوط القدس قد نظر اليه نظرة دنيوية ، كما ونظرة روحية ايضا .

فديونسيس وديميتر ، بوصفهما الهي الكهنة ، هما خاملا الذكر ، ولا يصادفان تكريماً او تمجيداً في شعر هوميروس الخاص بالنبلاء . ولكن حتى لدى هسيود ،

---

(١) Dies Irae ترنيمة دينية باللاتينية تتحدث عن يوم الدينونة .

ـ المترجم ـ

راعي الماشية في آسكرا ، والباحث المندفع والملهم بمعتقدات قومه ، فاننا لا نجد فكر الزمن المبكر العظيم على صورة انقى بما نجدها عليـــه لدى يعقوب بوهمة Jacob Böhme الاسكافي . وهذه هي الصعوبة الثانية . فالاديان العظمى المبكرة كانت هي ايضاً ملكا خاصاً بطبقة ، وكانت غير قابـــلة للفهم ، ولا بمتناول يد العامة من الناس ، كما وان صوفية ابكر العصور القوطية كانت بدورها محصورة بدوائر صغيرة من المختارين ، وقد اغلقت عليها اللاتينية بمفتاحها ، وزرعت صعوبة مفاهيمها واشخاصها الطريق الى فهمها بالسدود ، ولم يكن النبلاء ولا الفلاحون يملكون فكرة واضحة عن وجودها . كما والتنقيب ، وهو هام لذلك

ولذلك فالتنقيب ، على ما له من اهمية بالنسبة لمعتقدات الريف الكلاسيكية ، يستطيع ان ينبئنا عن الدين الكلاسيكي المبكر بالقليل من الانباء التي تستطيع ان تقدمها الينـا كنيسة قريـــة عن آبـلارد Abelard أو بونافنتـورا Bonaventura .

ولكن آشيل وبندار كانا ، على كل حال ، خاضعين لسحر تقليـــد كهنوتي عظيم ، وقد عرف التاريخ ، قبل هذين ، الفيتاغوريين الذين جعلوا مذهب ديمتير مركزاً لدائرتهم (وبهذا اشاروا الى المكان الذي يجب ان يبحث فيـه عن لب تلك الميتالوجيا) ، وقبل هؤلاء ايضاً كانت هناك الروايات الدينيـة الاليوسينية Eleusinian ، والاصلاح الديني الاورفي في القرن السابـع ، واخـــيراً كانت هناك هتامات من آثار فيريسيدس Pherecydes وابيمينيدس Epimenides ، الذين لم يكونا اول بـل آخر دغماتيي اللاهوت القديم حقاً . كما وان الفكرة القائلة بان عدم التقوى هي خطيئة متوارثـــة يتناقلها الآباء عن الاجداد فالى الاحفاد ، كانت فكرة معروفة لدى هسيود وصولون ، وكانت ايضا عقيـدة (ابولونية ايضا) لهبريس Hybris . ومهما كان فلقـد وضع افلاطون ، بوصفه مناهضاً اورفياً لمفهوم هوميريس للحياة ، عقائد جد قديمة عن الجحيم وعن دينونة الموتى وذلك في كتابه فيد Phaedo ونحن نعرف الصيغة المائلة للأورفية ، والتي

يجب ان تكون قد نشأت في عام ١١٠٠ على ابعد حد ، ونعرف لا الغوامض التي تجيب على نعم الصراع ، بوصفها احتجاجاً للشعور الواعي ضد الكينونة . وهنا لم يعد الانسان يشعر بنفسه على انها شيء من توالد ، او تربية وتوليد ، ومن قوة وحركة ، بل انه يعرف نفسه وهو مرعوب بما يعرفه . وهنا يبدأ التنسك الكلاسيكي بما يعرفه . وهنا يولد النساك الكلاسيكيون الذين يحاولون ، باشد الطقوس صرامة وباقسى اساليب التكفير والاستغفار ، وحتى بواسطة الانتحار الاختياري ، ان يحصلوا على الخلاص من كينونة ـ الجسد اليوقليدية . والحق انه لخطأ بالغ ان يفترض المرء ان الناس ما قبـــل سقراط قد هاجموا هوميروس مدفوعين بوجهة نظر عصر التنوير . فهم قـد قاموا بهذا الامر بوصفهم نساكاً . فهؤلاء « المعاصرون » لديكارت ولايبنتز قد نشأوا وفق اشد تقاليد الاورفية القديمة والعظيمة ، قسوة وصرامة ، هذه التقاليد التي حوفظ عليها بدقة واخلاص في مدارس ـ تأمل تشابه الاديرة تقريباً ـ وهذه اماكن قديمـــة ، شهيرة ومقدسة ـ كما خزنت الفلسفة الكلاميـــة الغوطية في جامعات عقلانية مظهراً وجوهراً ، ألا وهي الجامعات الباروكية . فمن تضحية امبدوكليس بذاتـــه ينطلق الخط بصورة مستقيمة الى الامام حتى يبلغ مبدأ الانتحار الذي دانت به وممارسته الرواقية الرومانية ، ويعود هذا الخط الى الوراء حتى « اورفيوس » . وعلى كل حال ، فانه ينبعث من هذه الآثار الاخيرة التي لم تطمس ، مخطط جلي واضح لتاريخ الدين الكلاسيكي المبكر . وكما ان كل الباطنية الغوطية قد وجهت ذاتها نحو مريم ، ملكة السماء ، والعذراء والأم ، كذلك نشأت ايضاً في تلك اللحظة من لحظات العالم الكلاسيكي اكاليل من صور وشخصيات واساطير حول ديميتر [١] الام الحامـــل ، وحول جيا Gaia وبيرسفون Persephone وايضا

---

(١) ديميتر الهة الخصب عند اليونان .

ـ المترجم ـ

حول ديونيسوس الوالد ، وحول الآلهة ما تحت الارض وما في داخلها ، ونشأت مذاهب عبادة العضو التناسلي للذكر ، والمهرجانات وغوامض المسرحيات عن الولادة والموت . كل هذه الامور كانت متميزة بكلاسيكيتها ، وقد ادركت على ضوء مفهوم الجسمانية الحاضرة . ولقد مجد الدين الابولوني الجسد ، اما الدين الارفي فنبذه ، كما وأن دين ديمتر كان يحتفل بلحظات الاخصاب والولادة ، حيث يكتسب الجسد خلالها كينونة . ولقد كانت توجد صوفية هناك تمجد بوقار سر الحياة ، بالعقيدة والرمز وبالتمثيل الصامت ، ولكن كان يوجد الى جانبها تماماً تهتك وخلاعة ايضاً ، وذلك لأن تبذير طاقات الجسد هو على شبه جد قريب وعميق من التنسك ، كالشبه القائم بين الدعارة « المقدسة » والعفة — فكلتاهما ، وكلها هي نفي للزمان . انه عكس « الـ قف ! » الأبولونية التي تكبح في مطلع « الهبريس » ، فالانفصال لم يحافظ عليه ، بل القي وطوح به ، وذاك الذي خبر هذه الامور داخل نفسه ، قد تحول من انسان فان « الى اله » . ويجب ان تكون تلك الايام قد عرفت قديسين وعرافين عظاماً سموا على ارتفاع عظيم فوق شخصيتي هرقليط واميدوكليس ، كما سما هذا الاخير فوق المعلمين المتجولين من معلمي الكلبية والرواقية — واشياء من هذا الطراز لا تحدث دون ان تحمل اسماً او شخصية . وبينما كانت اغاني آشيل وادبسيوس Odysseus تلفظ آخر نغماتها في كل مكان ، كانت تنتصب على قدميها ، وفي اماكن مذهبية شهيرة وقديمة ، عقيدة عظمى وصارمة ، انها صوفية وفلسفة كلامية ذات مناهج تربوية متطورة وتقليد سري شفوي كما هو في الهند . لكن كل هذا قد غيبه الثرى وابتلعته الغبراء ، والآثار التي تعود الى ازمان جاءت بعد ازمان هذه ، بالكاد تكفي للبرهنة على ان هذه قد وجدت في احد الايام .

ونحن اذا ما وضعنا الشعر الفروسي ومذاهب — الأقوام جانباً ، عندئذ نستطيع ان نقرر ، حتى الآن ، شيئاً ما اكثر من هذا « الـ » — دين الكلاسيكي . ولكن بعملنا هذا يتوجب علينا ان نتجنب شركاً ثالثاً — انه

التعارض بين الدين اليوناني وبين الدين الروماني . وذلك لانه لم يكن ، بالواقع ، وجود لمثل هذا التعارض .

فروما هي واحدة من دول - مدينة لا تعد او تحصى ، وقد نشأت خلال حقبة الاستعمار العظمى . وبناها الاتروسكان . وهي ، من وجهة النظر الدينية ، قد خلقت من جديد على ايدي السلالة المالكة الاتروسكانية في القرن السادس ، ومن الجائز فعلاً ان تكون مجموعة الآلهة الكابتولية ، جوبتر وجونو ومينرفا - التي حلت في ذاك العصر محل الثالوث القديم ، جوبتر ومارس وكويرنوس Quirinus - مربوطة ، على شكل ما ، بعائلة مذهب التاركوين ، حيث ، دون شك ، تبدو ، في هذا الموضوع ، مينرفا بوصفها الهة المدينة ، نسخة طبق الاصل عن بولياس Polias الهة اثينـــا . ومن الجائز ان يقارن المرء فقط بين مذاهب هذه المدينة الوحيدة وبين مذاهب تلك المدن الانفرادية الناطقة باللغة اليونانيـة والبالغة المستوى ذاته من النضوج ، ولنفرض مثـــلاً سبرطه او ثيبس Thebes التين لم تكونا اطلاقاً اكثر الواناً . فالقليل الذي يكشف عن نفسه في هاتـين الاخيرتين على انه هيليني بصورة عامة ، سيبرهن ايضاً على انـه ايطالي بشكل عام . اما الزعم القائل بان ما يفرق بين الدين « الروماني » ودين دول - المدينة اليونانية ، هو عدم وجود الاسطورة في الدين الاول - فعلى هذا الزعم ارد سائلاً ما هي القاعدة التي ترتكز اليها معرفتنا بهذا الموضوع ؟ فنحن يجب ألا نكون نعرف باي امر اطلاقاً عن اساطير - الالهة العظمى في ربيـع الحضارة ، لو اننا كنا نملك فقط (تقويم) روزنامـــة الاحتفالات ، ومذاهب دول - المدينة اليونانية لنقابل هذه على تلك ، كما وانـه يتوجب علينا الا نعرف أي شيء عن ورع المسيح وتقواه من خلال اجراءات مجمع افسس وقراراته ، او اي شيء عن القديس فرنسيس ، من خلال دستور كنيسة من كنائس الاصلاح الديني . فنلاوس Menelaues وهيلـــين لم يكونا في نظر مذهب الدولة اللاكونية Laconian اكثر من الهي شجرة . والاسطورة الكلاسيكية تنطلق من حقبة

لم يكن خلالها اي وجود لبوليس Poleis ومهرجاناتها ، ولم يكن حينذاك وجود لا لروما فقط بل لاثينا ايضاً . وهذه الاسطورة لا تمت بأية صلة اطلاقاً لوجانب المدن الدينية وشعائرها وآرائها — والتي كانت على مستوى رفيع من العقلانية . والحق ان حتى تماس الاسطورة والمذهب في الحضارة الكلاسيكية هو اقل من اية حضارة اخرى . زد على ذلك ان الاسطورة هي ليست ، في اية حال ، انجازاً من انجازات ميدان — الحضارة الميلينية ككل — فهذه ليست « يونانية » — بل انما ولدت (كما ولدت قصص طفولة المسيح واسطورة الكأس) داخل هـــذه المجموعة وتلك ، وولدت محلياً تماماً ، وتحت ضغط اضطرابات باطنية عميقة . فلقد نشأت ، مثلاً ، فكرة الاوليمبوس في تيساليا ، ولهذا السبب انتشرت ، بوصفها ملكاً خاصاً بجميع الناس المثقفين ، فبلغت قبرص واتروريا وهكذا اكتنفت بالبداهة روما . والتصوير الزيتي الاتروسكاني يفترض انها معروفة لدى الجميع ، ولذلك يجب ايضا على البلاط التاركويني ان يكون قد اطلع عليها والفها . ونحن باستطاعتنا ان نلصق اية تضامين نشاء ونرغب (ومهما قد تعنيه هذه) « بالاعتقاد » بهذه الاسطورة ، فالمهم ان هذه التضامين ستكون صحيحة بالنسبة لرومان حقبة الملوك ، صحتها بالنسبة لسكان Tegea او Corcyra .

ولا يعود سبب اختلاف صور الميثالوجيا اليونانية والرومانية التي استخرجها البحث الحديث عما اوردته ، الى الوقائع ، بل انما يعود الى المناهج . ففيما يتعلق بروما(مومسن) اتخذت روزنامة المهرجانات ومذاهب الدولة ، نقطتي انطلاق ، اما بالنسبة لليونان فجعل من الآداب الشعرية منطلقاً . ولتطبق المنهاج « اللاتيني » الذي افضى الى صورة فيسوفا Wissowa للمدن اليونانية ، وعندئذ ستكون النتيجة صورة مماثـــلة تماماً ، كما هو الحال مثلاً في كتاب « الاعياد اليونانية » لنلسون .

وعندما نأخذ هذه الامور بعين الاعتبار ، فعندئذ يرى الدين الكلاسيكي ككل يمتلك وحدة باطنية . فاساطير الآلهة العظمى العائدة الى القرن الحادي

عشر ، والتي لا تزالَ مبللة بندى الربيع ، وتذكرنا بقداستها الفاجعة بالجثمانية ، وبمصرع بالدر وفرنسيس ، هي انقى ما للتأمل من جوهر ، واصفى صورة للعالم تعرض على العين الباطنية ، فلقد ولدت بعد يقظة مشتركة لمجموعة من نفوس مختارة من عالم الفروسية . لكن اديان ـ المدينة التي جاءت بعد هذه بزمن طويل ، هي تقنية متناً وحاشية ، انها عبادة شكلية رسمية ، وهي ، على هذه الحال ، تمثل جانباً واحداً (وجانبا مختلفاً) من الورع . وهذه الأديان بعيـــدة عن الاسطورة العظمى بعدها عن معتقـــد ـ القوم Volk . وهي لا تهتم بالميتـافيزيقا ولا بالاخلاق ، بل تركز اهتمامها على اتمام اعمال طقوسية . واخيراً ، فكثيرا ما نشأ اختيار المدن المتعددة لمذاهبها ، لا عن نظرة واحدة وحيـــدة الى العالم ، كالاسطورة ، بـــل عن مذاهب ـ سلف وعائلات من بيوتات كبيرة الـتي جعلت (كما حدث تماما في الحقبـــة القوطية) من اشخاصها المقدسين آلهة اوصياء على المدينة ، واحتفظت لنفسها ، في الوقت ذاته ، بحقوق الاحتفال وعبـادة هذه الآلهة . ففي روما مثـــلاً كانت الـ ـ لوبركاليا Lupercalia التي تقام تكريما لإله ـ الحقل فاؤنوس ، امتيازا خص بـ الكوينشتي Quinctii والفابي Fabii .

ويتوجب علينا ان نعالج الدين الصيني بحذر وعناية بالغين ، وتقع الحقبـة « القوطية » العظمى لهذا الدين في الفترة الممتدة من عام ١٣٠٠ الى عام ١١٠٠ ، حيث تغطي هذه الحقبة نشوء سلالة « شو » Chou المالكة . ويبـدو لنا امام العمق الاصطناعي والحماس المتحذلق للمفكرين الصينيـين من طراز كونفشيوس ولاوتسي ـ والذين ولدوا جميعاً في حقبـة النظام الغابر لعالم ـ دولتهم ـ من الخطر بمكان ان نحاول تقرير اي شيء اطلاقا فيما يتعلق بالصوفية الراقيـــة وبالاساطير العظمى التي عرفها مطلع هذا الدين . وبالرغم من هـذا فانه يجب ان تكون قد وجدت ، في احد الايام ، صوفية كتلك ، واساطير كهذه . ولكننا لن نتعلم اي شيء عنها من هذه الفلسفات المغرقة في العقلانيـــة حتى تجاوزتها ،

فلسفات المدن العظمى – شأننا معها كشأننا والقليل الذي يستطيع ان يقدمه الينا هوميروس عن الدين الكلاسيكي الموازي لهذا ، ولكن السبب يختلف هنا عن السبب الكامن وراء قصور هوميروس . فما الذي كنا سنعرفه عن الورع الغوطي لو ان جميع المؤلفات الخاصة به قد مرت تحت قلم رقابـــة المطهرين Puritans ، او اقلام رقباء كلوك وروسو وفولف ! ومع هذا فاننا نعالج الخاتمة الكونفوشية للباطنية الصينية بوصفها بداية لها – وذلك اذا لم يشتط بنا المزار الى ابعد فنصف المذهب التوفيقي لأزمان الهان بانه هو « دين الصين » .

اننا نعرف ، في هذه الايام ، وخلافا للزعم المألوف بانه كانت توجد كهانة صينية قديمة وجبارة . ونحن نعرف ، بانـه هناك ، في نصوص ملك شو Shu ، آثاراً لاساطير ابطال غابرين وآلهة قديمة ، قد نقحت تنقيحاً عقلانيـــاً ، وبهذا استطاعت ان تبقى ، ونعرف بالمثل ، بان الهو – لي Hou - Li و Ngi - Li وملك شي Shi ، قد تكشف عن كمية اكبر بكثير ، لو اننا عالجناها بقناعة المؤمن بان فيها شيئاً ما اعمق بكثير من مقدرة كونفوشيوس واضرابـــه على فهمـه . ونحن نسمع عن مذاهب الارواح تحت وفي بطن الارض ، ونعرف بمذاهب العضو التناسلي الذكر وذلك في ازمان تشو Chou ، ونسمع عن طقوس تهتك وخلاعة ، حيث كان يرافق خدمة الآلهة رقص جماهيري خليع ، ونعرف بمسرحيات صامتة وحوارات تدور بين الاله والكاهنـة ، والتي من الجائز ان يكون قد نشأت منها « كما في اليونان » الدراما الصينية . ومن ثم نستحصـل اخيراً على بعض من لمحة عن السبب الذي جعل ، بالضرورة ، ما جاد بـــه النماء المفرط في خصبه من شخصيات آلهـــة واساطير صينية مبكرة زمناً تنسق في ميثالوجيا – لامبراطور . وذلك لأن ليس جميع اباطرة الاسطورة وحدهم بل ان معظم شخصيات السلالتين المالكتين ، هيا Hia وشانغ قبـل عام ١٤٠٠ م ايضا – بالرغم من كل التواريخ والاخبار التاريخية – ليسوا الا طبيعة تحولت الى

تاريخ . وتقع اصول عملية كهذه عميقا عميقا داخـــل امكانات كل حضارة شابة فتية . فعبادة السلف تسعى دائماً للسيطرة على جن ــ الطبيعة . وجميع الابطال الهوميريين ، ومينوس وثيسيوس Theseus وروମولوس هم آلهة اصبحوا ملوكا . وفي الهيلياند Heliand ، يكاد المسيح ذاته ان تصبح هـــذه حاله . فمريم هي ملكة السماء المتوجة .

انه لهو الاسلوب الاسمى « واســلوب لا شعوري تماماً » هو ذاك الذي يمكن الناس ذوي الاصل من تبجيل شيء ما ـ فما هو عظيم في نظرهم يجب ان يكون ذا اصل وعنصر ، وسلف كل العائلات يجب ان يكون سيداً جباراً . ان كهانة قوية لقادرة ان تلخص ميثالوجيا الزمان هذه ولقد نجحت الكهانـة الكلاسيكية في هذا الامر نجاحا جزئيـــا ، لكن الصينية حققت فيه نجاحا كاملا ـ وتحقيقها هذا جاء متناسبا تماما واختفاء العنصر الكهنوتي . فالآلهة القديمة هي الآن اباطرة وامراء ووزراء واتباع ، واصبحت حتى الاحداث الطبيعيـة افعال حكام ، وغدت غارات الشعوب مقاصد اجتماعية . وليس هناك من شيء يمكن ان يلائم كونفشيوس افضل من هذا . فهنا توجد اسطورة باستطاعتها ان تمتص النزعات الاجتماعية الاخلاقية الى حد غير معين ، وكل ما تحتاج اليه هو ان تطمس او تشطب آثار اسطورة الطبيعة الاصلية .

فالارض والسماء كانتا نصفي الكون الاكبر ، ولا يتعارض اي نصف منهما والآخر ، وكل واحد منهما هو صورة ــ مرآة للآخر . وهذه الصورة لم تكن تحتوي على الثنائية المجوسية ولا على الوحدة الفاوستية للطاقة العاملة . والصيرورة تتجلى هنا من خلال عمل متبادل ومطلق لمبدأين ، الـ يانغ Yang والـ ـ ين Yin اللذين كانا يفهمان على انهما دوريان متعاقبان اكثر من كونهما قطبين . وتوجد ، وفق هذه النظرية ، نفسان داخـــل الانسان ، الكوي Kwei التي تنطبق على الـ ـ ين الارضية المظلمة الباردة والمنحلة مع الجسد ، والـ سن Sen التي هي ارقى من تلك ولامعة ودائمة . ولكن توجد خارج الانسان بالاضافة الى ذلك جمهرات

لا تعد ولا تحصى من نفوس من كلا النوعين . فمجافل من الارواح تملأ الهواء والماء والارض — فكل هـــذه مسكونة وحركتها الـ Kweis والـ Sens . وحياة الطبيعة والانسان قد صنعت فعلاً من حركة وحدات كهذه . والحكمة والارادة والطاقة والفضيلة تعتمـــد على صلة قربى هذه الوحدات . فالنسك والخلاعة ، واعراف Hiao الفروسية التي تستوجب النبيل ان يثأر لتجديف على سلفه حتى بعد مرور القرون من الاعوام ، وتأمره بألا يبقى حياً بعد الهزيمة ، والتعليل الاخلاقي لـ — Yen الذي نشأ ، حسب قرار العقلانية ، من المعرفة — كل هذه تنطلق من مفاهيم الطاقات والامكانات لـ — Kwei والـ — Sen .

وكل هذا قد حشد في الكلمة الاساسية « Tao » . والصراع بين الـ — Yang والـ Yin داخل الانسان هو Tao حياتـه ، وسداة امراب — الارواح ولحمتها خارج الانسان ، هما Tao الطبيعة . والعالم يمتلك Tao نظراً لانـه يمتلك خفقاناً وايقاعاً وتتالياً . وهو يمتلك Li ، توتراً نظراً لأن الانسان يعرفه ويستخلص منه وشائج القربى الثابتـــة ليستخدمها في المستقبل . والزمان والمصير والاتجاه والعنصر والتاريخ — كل هذه شملتها ، من خلال الرؤيا التأملية الشاملة للعالم ، رؤيا ازمان Chou المبكرة ، هذه الكلمة الواحدة « الـ — Tao — المترجم » . فدرب الفرعون خلال الزقاق المظلم الى حرمه المقدس ينتسب الى هذه الكلمة ، وكذلك العاطفة الفاوستية وانفعالها بالبعـد الثالث ، ولكن الـ Tao هي برغم ذلك بعيدة كل البعد عن اية فكرة للغزو التقني للطبيعة . فالحديقـــة الصينية تتجنب المرء النشيط الفعال . فهي تضع افقاً وراء افق ، وبدلاً من ان تشير الى الهدف ، تراها تغري الانسان وتغويه بالتنزه والتجوال . وليس « للكاتدرائية » الصينية في الازمان المبكرة ، بما لهذه من دروب تمر من بوابات وايكات وادراج وجسور وقاعات ، اقول ليس لها ابداً ذاك الزحف العنيد القاسي للمعبد المصري ، او الانطلاق داخل الاعماق الذي تمتاز به الكاتدرائية القوطيـة . وعندما ظهر

الاسكندر على ضفاف الاندوس كان تقى هذه الحضارات الثلاث ـ الصينية والهندية الكلاسيكية ـ قد قولب في اشكال لا تاريخية منذ زمن طويل ، اشكال عريضة من Tao وبوذية ورواقية . ولكن لم يكد يمضي الا القليل من الزمن حتى نشأت مجموعة الاديان المجوسية في الاقاليم المتوسطة بين الميدان الكلاسيكي والهندي ، ويجب ان يكون قد بدأ ، قرابة الوقت ذاته ، التاريخ الديني للمايا والانكا ، هذا التاريخ الذي فقد منا فقداناً لا امل باسترجاعه . وعقب مضي الف سنة ، وعندما امسى هنا كل شيء قد اكتمل باطنياً وانتهى امره ، ظهرت المسيحية الكاثوليكية الجرمانية فجأة وارتقت بسرعة فوق تربة لا تجتذب املاً ولا تدغدغ رجاء ، تربة فرنسا . وهذه الكاثوليكية كانت في هذه الحال ، كما هي في كل حال اخرى ، وبغض النظر عما اذا كان كامل الخزين من الاسماء والممارسات قد جاء من الشرق ، او عما اذا كانت الآلاف من التفاصيل الخاصة قد اشتقت من الشعور الفطري الجرماني الكلتي ، فان الدين الغوطي هو شيء ما جديد الى حد لم يسمع بمثل هذه الجدة احد ، وذو اعماق نهائية تستعصي كلياً على ادراك اي انسان خارج دائرة ايمانه الى درجة يغدو معها استنباط انظمة ربط بين هذه الاعماق ، وعلى السطح التاريخي ، شعوذة لا معنى لها او مفهوم

والعالم الاسطوري الذي شكل عندئذ ذاته حول هذه النفس الشابة ، هذا التكامل ، من الطاقة والارادة والاتجاه المنظور على ضوء رمز اللانهائية ، ومن عمل مذهل عجيب داخل المسافة ومهاوي الرعب والغبطة المنشقة فجأة ـ كان كله في نظر المصطفين من هذا التدين المبكر ، شيئاً ما طبيعياً بكليته ، وطبيعياً الى حد لم يتمكنوا عنده من ان يعزلوا انفسهم بما فيه الكفاية ، كي « يعرفوه » كوحدة . لقد عاش هؤلاء الناس داخله . اما هذا العالم فهو يبدو بالنسبة لنا ، نحن الذين يفصلنا ثلاثون قرناً عن هؤلاء الاسلاف ، على العكس من ذلك ، اذ انه يبدو لنا غريباً وساحقا ماحقا الى درجة تجعلنا

نسعى معها لادراكه بالتفصيل ، وهكذا نسيء فهم كليته ووحدته غير القابلة للتجزئة والتقسيم .

ولقد احس الناس بالوهية - الآب على انها طاقــة بالذات ، وفعالية خالدة عظمى وحاضرة ابدا ودوماً ، وسببية مقدسة ، من النادر ان تتخذ لها شكلاً تستطيع العيون البشرية ادراكه . لكن كامل حنين الذرية الشابة ، كامل رغبة هذا الدم الدائر بقوة في الاوردة والشرايين ، في الانحناء بخشوع وتواضع امام مغزى الدم ومفهومه ، قد وجد تعبيره في شخصية العذراء والام مريم التي كان تتويجها في السماء من ابكر نزعات الفن القوطي . فهي شخصيــة من نور تتألق باللونين الازرق ويحيط بها مضيفوها السماويون . وهي تنحني على طفلها الوليد ، وتحس بالسيف يخترق قلبها ، وتقف عنــد قدم الصليب ، وتحتضن جثمان الابن الميت . وقد قام بطرس Petrus داميانى وبرنارد فون كليرفو ابتداء من القرن العاشر فما بعــد بتطوير مذهبها ، وهنا نشأت الـ Ave Maria [1] - السلام عليك يا مريم - ونشأت بعــدها التحيات الملائكية ، ومن ثم تاج الورود بين الدومنيكان . وقد اجتمعت اساطير لا تعد او تحصى حول شخصها . فهي حارس مخزون الكنيسة من النعمة ، وهي الشفيعة العظمى . وعين الفرنسيسكان يوماً للاحتفال بالافتقاد الالهي ، ونشأ بين البندكتيين من الانكلــيز (وحتى قبل عام ١١٠٠) الاحتفال بالحبل بلا دنس ، الذي سما بها تماما فوق البشرية الفانية الى عالم النور .

ولكن هذا العالم ، عالم الطهر وجمال النفس المطلق ، هو عالم كان لا يمكن للخيال ان يتصوره لولا الفكرة المضادة له والتي يستحيــل ان تنسلخ عنه ، انها

---

(١) Ave Maria تحية الملاك جبرائيل والبصابات لمريم .

- المترجم

فكرة تشكل حدا نهائيـــاً من حدود الغوطيَّة ، وابداعاً لا يسبر له غور من ابداعاتها — انها احدى الفكر التي ينساها هذا العصر ، وينساها عامدا متعمداً . فبينما نرى مريم تجلس متوجة هناك تبتسم بجمالها ورقتها ، نرى في المؤخرة عالماً آخر ينسج ، داخل كامل الطبيعة والجنس البشري باكمله ، الشر ويمزق ويدمر ويغوي — واعني بهذا العالم مملكة الشيطان . وهذه تتخلل كل الخليقة وتكمن متربصة في كل مكان . فالعالم مطوق بجحافل من الجن والعفاريت والارواح الليلية والساحرات وبالممسوخين ذئابا ، وجميع هذه تتبدى في شكل الانسان . وليس هناك من شخص يعرف ما اذا كان جاره قد التحق او لم يلتحق بمعسكر الشيطان . وليس هناك من انسان يستطيع ان يجزم بان طفلا يتفتح على الحياة لم يغد منذ حين رسولاً للوسواس وتابعا للخناس . فالرعب يسيطر على النفوس ويكتسحها بموجاته اكتساحا قد يكون مثيلا له فقط ذاك الذي خبره ربيع الحضارة المصرية المبكر . والانسان معرض كل دقيقة لان يعثر ويهوي الى قعر مهواة . ولقد كان يوجد هناك سحر اسود وقداديس شيطان ، وسبوت (جمع سبت) للساحرات ، واعياد ليلية يحتفل بها على قمم الجبـال ، ومجار لتيارات سحرية ، وصيغ سحر وفتنة . وامير الجحيم واقاربه — امه وجدتـه ، ولما كان وجوده بالذات ينفي ويسخر من سر الزواج المقدس ، لذلك من الجائز ان لا تكون له زوجـة او ولد — وملائكته الساقطون واتباعه الخطيرون ، كل هذا انما يمثل انجازاً من اروع الانجازات التي عرفتها جميع التواريخ الدينية . وبالكاد يبـدو لوكي Loki [1] الجرماني اكثر من لمحة اولية عن هذا الشيطان . وكانت اشخاصها الشاذة الغريبة ، بما لها من قرون ومخالب وحوافر خيـل ، قد تشكلت واكتملت منذ زمن في المسرحيات الدينية التي عرفها القرن الحادي عشر . وكان خيـال الفنان في كل

---

(١) Loki — اله الشقاق والشر .

— المترجم —

مكان يكثر من تصويرها ، وبقي التصوير الزيتي الغوطي وحتى ديرر وغرينفالد ، امراً لا يقبله عقل اذا لم يتناولها شكلاً وسيماء ولوناً . فالشيطان خبيث مكار مؤذ مميت حقود سيء ، ولكن مع كل صفاته هذه ، فان قوى النور ستغرر بـه في النهاية وتخدعه . فهو ونسله السيئو الطبع الاجلاف الجهنميون الحاذقون في الاستنباط ، هم جميعا ذوو خيـال مرعب وتجاسيد القهقهات الجهنمية في تباينها والابتسامة المشرقة لملكة السماء ، لكنهم هم ايضا تجاسيد لمزاج العالم الفاوستي في تعارضه وهلع ندامة الخاطيء وانسحاق قلبه .

وحتى المبالغة تقصر دون وصف عظمة هذه الصورة القوية الهوج وفخامتها ، او عمق الاخلاص الذي كان يسيطرعلى ايمان الناس بها . فقد تشكلت اسطورة مريم جنباً الى جنب واسطورة الشيطان ، وكان عدم الاعتقاد في هاتـين الاسطورتين يعتبر خطيئة مميتة . وكان هناك مذهب صلاة لمريم ، ومذهب الشيطان يقوم على السحر والرقى والتعازيم . وكان الانسان يسير ابداً على صراط ممدود فوق هاوية لاقعر لها او قرار . وكانت الحياة في هذا العالم ، مبارزة مستمرة بالسة والشيطان، وكان كل فرد يشترك بكل حمياه فيهذا الصراع بوصفه عضواً في الكنيسة المجاهدة، ويناضل من اجل نفسه ، وبغية الفوز بمهازي الفارس . وكانت الكنيسة الظافرة بالملائكة والقديسين في مجدهم تنظر من عليائها الى الدنى ، وكانت النعمة السماوية هي درع المقاتل في المعركة . وكانت مريم هي الحامية التي يستطيع ان يطير الى قلبها فيجد لديها الراحة والاطمئنان ، وكانت ايضا هي السيدة التي تمنح المكافآت والجوائز على الاقدام والشجاعـة . ولكل من هذين العالمين اساطيره وفنه وفلسفته الكلامية وصوفيتـه ـ وذلك لأن الشيطان ايضاً يستطيع ان يصنع العجائب ويقوم بالمعجزات . واللون : هو الشيء المميز البارز والوحيد الذي لم يعرفه اي ربيع حضاري آخر غير ربيـع هـذه الحضارة ـ فالمادونا قد خصت باللونين الابيض والازرق ، وخص الشيطان بالالوان من اسود واصفر ـ كبريتي واحمر . وكان القديسون والملائكة يطوفون في الاثير ، اما الشياطين فكانوا

يثبون ويقفزون ويجلسون القرفصاء ، وكانت الساحرات « يخشخشن » طوال الليل . فالنور والليل ، هما معاً اللذان يلآن الفن الغوطي بباطنيته تلك غير القابلة للوصف ـ وتلك وحدها لا اية تخيلات « فنية »اخرى . وكل انسان كان يعرف بان العالم مسكون بجحافل الملائكة وجنود الشيطان . فالملائكة المطوقون بالنور لفرا انجيليكو Fra Angelico ولغيره من الفنانين الرينشيين Rhenish المبكرين ، والاشياء المتجهمة المقطبة الوجوه التي نشاهدها على بوابات الكاتدرائيات العظمى كانت حقاً تملأ الجو والهواء . اذ كان الناس يرونها ويحسون بوجودها في كل مكان . اما نحن اليوم فلا نعرف ، بكل بساطة ، ما هي الاسطورة ، وذلك لانها ليست مجرد صيغة تستر جمالياً ، يعرض المرء بواسطتها شيئا ما على نفسه ، بل انما هي قطعة من واقع يزخر بكل طاقات الحياة ونشاطها ، قطعة تلغم كل زاوية من زوايا الشعور الواعي ، وتهز بقوة اعمق دعائم تركيب الكائن واسسه . فهذه المخلوقات كانت يومذاك تحيط بالانسان بصورة دائمة مستمرة . وكان الناس يلمحونها دون ان يروها . وكانوا يعتقدون بها اعتقادا جازماً حازما الى حد كان مجرد التفكير بايجاد برهان او دليل على وجودها يعتبر مروقاً وتدنيسا . اما ما ندعوه نحن اليوم بالاسطورة ، وما نراه من تذوق آدابنا وخبرائنا للون الغوطي ، فهو ليس الا اسكندرانية Alexandrinism . ففي الايام الخوالي لم يكن الناس « يستمتعون » به ـ فخلفه كان يقف الموت .

وذلك لان الشيطان قد استملك النفوس البشرية واغواها بالهرطقة والدعارة والفجور والفنون السوداء . ولقد كانت هي الحرب التي شنت عليه على الارض ، وشنت بالنار والسيف على اولئك الذين استسلموا له . انه من السهل علينا ما فيه الكفاية لطرد مثل هذه الافكار من رؤوسنا ، ولكننا اذا استأصلنا هذه الحقيقة المرعبة من الحقبة الغوطية فعندئذ يصبح كل المتبقي رومنتيكية و « ترمنتكا » . فلم تكن ترانيم ـ مريم المتأججة بالمحبة هي وحدها التي كانت تصعد الى السماء ،

بل كانت ايضاً تصعد اليها تلك الصرخات الهائلة الوفيرة المنبعثة من فوق اكوام الحطب المتأجج لهباً ونيراناً اكول . فالمشنقة وعجلة التعذيب كانتا تلتصقان بالكاتدرائية . وكان كل انسان يومذاك يعي وعياً كامـلاً الاخطار الهائلة التي تهدده ، وكانت الجحيم ، لا الجلاد ، هي مصدر رعبه وهلعه . وهناك الآلاف الآلاف من الساحرات اللواتي خيل اليهن انهن حقاً على هـذه الحال ، فبعضهن كن يفضحن امرهن بذواتهن ويصلين سائلات المغفرة والغفران ، وكن يعترفن مدفوعات بمحبة الحقيقة الصافية بجولاتهن الليلية وصفقاتهن والشيطان . وكان قضاة التفتيش يأمرون وعيونهم تترقرق بالدمع وقلوبهم تخفق بالاسى والحزن على اولئك البائسات الخاطئات ، بشدهن الى آلات التعذيب بغية انقاذ نفوسهن . هذه هي الاسطورة الغوطية التي انجبت الكاتدرائيـة والصليبين ، والتصوير الزيتي الروحي والعميق ، والصوفية . وقد نبتت في ظلالها - (الاسطورة - المترجم) وازدهرت تلك الغبطـة الغوطية التي لا نستطيع هذا اليوم ان نشكل حتى فكرة عنها .

وهذه الامور كلها كانت لا تزال ، في الازمان الكارولنجية بعيدة ونائية . ولقد حرم شارلمان في الاصحاح السكسوني الاول (٧٨٧) الاعتقاد الجرماني القديم بالممسوخين ذئاباً ، وفي عام ١١٢٠ صدر مرسوم عن بوركارد فون فورمز يعتبر هذا الاعتقاد ضلالة . ولكن بعد مضي عشرين سنـة على صدور هذا المرسوم ، ظهر ثانية تحريم هذا الاعتقاد في Decretum Gratiani بصيغة فيها الكثير من التساهل . وكان سيساريوس هيسترباخ قد اطلع ، قبلئذ ، على كامل اسطورة الشيطان ، وهذه الاسطورة كما اوردتها Legenda Aurea واقعيـة ومؤثرة كأساطير مريم تماما . وفي عام ١٢٣٣ عندمـا كانوا يعقدون قباب كاتدرائيتي مايتز وشبير ، صدرت النشرة البابويـة Vox in Roma وجعلت الاعتقاد بوجود الشيطان قانوناً كنسياً .

ولم يكن قد مضى بعد زمن طويل على اعادة كتابة ترنيمة القديس فرنسيس

المعروفة باسم « ترنيمة الى الشمس » وبينا كان الفرنسيسكان يركعون امام مريم مصلين باخلاص وصدق ، وناشرين مذهبها في اقاصي الارض ، كان الدومنيكان يسلحون انفسهم ويعدونها للمعركة ضد الشيطان وينشئون نظام التفتيش ومحاكمه . ووجد الحب السماوي بؤرته في صورة مريم ، وبهذا امسى الحب الدنيوي مماثلاً للشيطان وشبيهاً به . ان المرأة خطيئة — بهذا احس النساك العظام ، كما احس اندادهم في الاديان من كلاسيكية وصينية وهندية . والشيطان يحكم فقط من خلال المرأة ، والساحرة هي ناشرة الخطيئة المميتة وحاملة لوائها . وكان توما الاكويني هو الذي اوجد انكيوباس Incubus [1] وساكيوبا Succuba[2] المقيتة والتي تشمئز منها النفس . وقد طور متصوفون باطنيون مثل بونا فنتورا والبرتوس ماغنوس دانز سكوتس ، ميتافيزيقا كاملة متكاملة مما كان يعتقده الناس يومذاك عن الشيطان .

زد على ذلك ان الايمان الغوطي القوي كان ابداً ودوماً دعامة نظرة عصر النهضة الى العالم . وعندما قام يطنب في مديح كيمابيو Cimabue وجيوتو Giotto لعودتها الى الطبيعة ، كمعلميهم ، فانما كان يعني هذه الطبيعة الغوطية ، التي تطوقها بكل زاوية من زواياها جحافل من الملائكة والشياطين ، تتوعد وتهدد باستمرار في عالم الضوء . « وتقليد » الطبيعة كان يعني تقليد نفسها لا سطحها . فلنتخلص اذن من الخرافة القائلة بان كل هذا هو تجديد « للاساطير الكلاسيكية الغارقة في القديم » . وعصر النهضة كان يعني تصاعداً غوطياً يبتدىء بعام ١٠٠٠ ويمتد الى ما بعده ، انه عالم الشعور الفاوستي الجديد ، والخبرة

---

(١) Incubus : روح شريرة كانت تحضر النساء ليلا وتجامعهن جنسياً .

(٢) Succuba : عفريت كان يتجسد جسد المرأة ليلا ويحضر الرجال ليجامعوه .

— المترجم

الشخصية الجديدة ، للأنا في اللانهائي . ولا شك ان عصر النهضة قد عنى لبعض الارواح الفردية حماساً عاطفياً للكلاسيكية (او ما كان يخال انه كلاسيكي) لكن هذا لم يكن اكثر من مجرد تظاهرة لذوق . ولقد كانت الاسطورة الكلاسيكية مادة تسلية وترفيه ، وتمثيلية مجازية ، كان الناس يرون من خلال قناعها المرهف ، وبصورة لا تقل في ثباتها عما قبل ، الواقع الغوطي القديم . وعندما انتصب سافونا رولا واقفا على قدميه ، تهاوت ، بلحظة واحدة ، واندثرت الزخارف واختفت من على سطح الحياة الفلورنسية . وقد كان كل ما قام به الفلورنسيون من كدح وعمل مخصصا للكنيسة بقناعة وايمان . وكان رفائيل اعظم مصوري المدونا واخلصهم . وكان الايمان الثابت بوجود مملكة الشيطان وبالخلاص من هذه المملكة يلتف حول جذور كل هذا الفن والآداب ، وكان كل واحد منهم ، من مصورين ومهندسين وانسانيين ، يتطلع — مهما رددت شفتاه اسماء شيشرون وفرجيل وفينوس وابولو مرارا وتكراراً — ويرى في احراق الساحرات امرا طبيعياً تماما ، ويحمل الحجب والتمائم ضد الشيطان . وكتابات مارسيليوس فيسينوس Marsilius Ficinus مليئة بالابحاث الفنية عن الشياطين والساحرات . وقد كتب فرانسيسكو ديلا ميراندولا (وبلغة لاتينية كيسة) حواره « الساحرة » وذلك بغية ان يحذر العقول المرهفة من اعضاء دائرته من خطر مقيم . وعندما كان ليوناردو دافنشي يعمل ، وذلك حين بلغ عصر النهضة ذروته ، على تحفته « آنا سلبدرت » Anna Selbdritt ، كانت « الساحرة » همر قد كتبت في روما (١٤٨٧) باروع اسلوب انساني من اساليب اللغة اللاتينية . هذه هي الاشياء والامور التي تتشكل منها الاسطورة الحقيقية لعصر النهضة ، وبدونها لا نستطيع ابداً ان نفهم الزخم الغوطي الحقيقي والجيد لهذه الحركة المناهضة للغوطية . فالناس الذين لم يشعروا بان الشيطان هو اقرب اليهم من حبل الوريد ، لا يمكن ان يكون بمستطاعهم خلق رائعة

الكوميديا الالهية ، او الروائع المرسومة على جدران اورفيتو Orvieto ، او سقف كنيسة ستين .

والركيزة الهائلة لهذه الاسطورة هي التي ايقظت في النفس الفاوستية ما نعهده لها من شعور . ايقظت انا شريره ضائعة في اللانهاية ، انا كانت كلها زخم وطاقة ، لكنه زخم ضعيف حتى التفاهة ، في لا نهائية من طاقات او زخوم اقوى واشد . لقد كانت هـــذه الأنا ارادة مظهراً وجوهراً ، لكنها ارادة مليئة بالخوف على حريتها . ولم يسبق ابدا لمشكلة الحرية ان صادفت تأمـــلا اعمق او اشد ايلاما للنفس من هذا التأمل . فالحضارات الاخرى لم تعرف هذه المشكلة او تعانيها . ولكن بسبب كون الاستسلام المجوسي بالذات امراً مستحيـلا اطلاقا بالنسبة للنفس الفاوستية – وبسبب كون ذلك الذي كان يفكر به على انـــه لم يكن « IT » او ذرة من نفس كلية ، بل كانت انا فردية مقاتلة تناضل للحفاظ على ذاتها – بسبب هذا احست النفس الفاوستية بان كل حد من الحرية هو قيـد او غل يتوجب على الانسان ان يجره معه طيلة حياتـــه ، واحست بالحياة بدورها على انها هذا الشكل موت يحيـــا ويعيش . واذا كان الامر على هذه الحال – فلماذا ؟ ومن اجل ماذا ؟

كانت نتيجة هذه النظرة النافذة الى الاعماق شعوراً هائلا بالذنب حيث يسري هذا الشعور متخللا هذه القرون فيبدو كأنه مرثاة طويلة يائسة . فالكاتدرائيات كانت ترتفع بقبابها الى السماء بتضرع وابتهال متزايدين ، واصبح عقـد القباب كأنه تشابك الكفين حين الصلاة ، ولم يكن يشع الا القليل من الضوء متسربا من خلال النوافـذ العالية الى صحون الكنيسة الطويلة . وكان التتالي المتوازي الخانق من التراتيل والترانيم اللاتينية ينبىء بركب مرضوضة مهروسة وبالجـلد داخل الزنزانات المعتمة كدهماء الليل . ان كهف – العالم كان بالنسبة للانسان المجوسي على قاب قوسين او ادنى ، وكانت السماء وشبكة التحقق ، لكن هـذه السماء كانت في نظر الانسان الغوطي بعيدة بعداً لانهاية له او حد . ولم تكن ترى اية

يد تمتد من فوق خلال هذه المسافات الماثلة ، وكان كل ما يحيط بالانا المتوحدة هو عالم الشيطان ومعسكراته . ولذلك فان حنين الصوفية العظيم كان يهدف الى اضاعة الشكل المخلوق (كما قال هنيريخ سويسه Seuse) والتخلص من الذات ومن كل الاشياء (المعلم ايكارت) والتنازل عن الذاتية (اللاهوت الالماني) . ونشأ من هذا الحنين وتصاعد تدقيق عنيد شرس في الآراء التي كانت تلاقي يوماً بعد آخر المزيـــد من الفحص والتشريح بغيــة الوصول الى « لماذا » والخيراً الى استغاثة كونية من اجل الحصول على النعمة ـ وهذه ليست بالنعمـــة المجوسية التي تنزل من العلاء بوصفها جوهراً ، بـــل انما هي النعمة الفاوستية المحررة للارادة .

فكونك قادراً ، هو كونك تريد بحرية ، هذه هي المنحة الوحيـــدة التي تتطلبها النفس الفاوستية من اعماقها من السماء . فالاسرار المقدسة السبعة ، اسرار الدين القوطي ، التي شعر بها بطرس لومبارد على انها سر واحـد ، وارتقى بها مجمع لاتيران عام ١٢١٥ ، الى مرتبة الدوغما ، وارساها توما الاكويني على دعائم ميتافيزيقيـــة ، انما تعني هذه وهذه فقط (الارادة الحرة ـ المترجم) . فهذه الاسرار ترافق وحدة النفس من الولادة حتى الموت وتحميها من القوى الشيطانية التي تحاول أن تعشعش داخل ارادتها . وذلك لأن بيع المرء نفسه للشيطان يعني تسليم ارادته له . وما الكنيسة المجاهدة على الارض الا الطائفة المنظورة المشكلة من اولئك الذين زودهم نهي الاسرار ووصاياها بالمقدرة على ان يريدوا . ويقال ان هذه القناعة بالكائن الحر ، يضمنها سر المذبح والذي حسب هذا القول يقاسي تغيراً كامـــلا تاما بمعناه . فمعجزة التحول المقدس التي تحدث كل يوم على يدي الكاهن ـ معجزة المضيف المكرس (يسوع ـ المترجم) في مذبح الكاتدرائية العالي ، حيث كان المؤمن يشعر بوجود هذا الذي ضحى بنفسه منذ القدم ليؤمن له الحريـــة في الارادة ـ هذه المعجزة كانت تستخرج تنهدة من ارتياح ومن الاعماق وباخلاص من نوع بالكاد يحيط به خيالنا نحن معشر المعاصرين . ولذلك

كان تكريس جسد المسيح اهم عيد للكنيسة الكاثوليكية عام ١٢٦٤ تابعا من تقديم الشكر . ولكن اهم من هذا ـ لا بل واهم من هذا بكثير ـ هو سر الندامة المقدس الاولي والذي هو فاوستي سداة ولحمة . وهذا السر من مرتبة اسطورة ـ مريم واسطورة ـ الشيطان ، وهو الانجـاز العظيم الثالث من انجازات الدين القوطي . والحق ان السرين الآخرين يستحصلان على مغزييهما وعمقيهما من السر الثالث هذا ، فهو يكشف القناع عن آخر اسرار نفس هذه الحضارة ، وبهذا ينفرد بها ويجعلها بمنأى عن جميع الحضارات الاخرى . لقد كانت نتيجة المعمودية تتمثل في ضم المعمـد الى الاتحاد العظيم ـ وكانت الـ « IT » الوحيدة الكبرى للروح الالهية تتخذ لها منه كما من الآخرين مقراً او مقاما ، وبعد هذه كان الاستسلام لكل ما قد يحدث واجباً عليه وفرضاً . ولكن فكرة الشخصية في الندامة الفاوستية كانت مضمرة وثابتة ، وليس صحيحاً ابداً ان عنصر النهضة اكتشف الشخصية ، بل ان ما فعله هذا العصر هو ارتفاعه بها الى سطح رائع ، حيث اصبحت منظورة عليه من قبل كل فرد . فولادتها تمت في الحقبة القوطية ، وهي اشد ملكات القوطية التصاقاً بها وتميزاً لها ، وهي الواحدة والشيء ذاته والنفس القوطية . لان هذه الندامة هي امر ما يستطيع كل انسان ان ينجزه لنفسه وحدها . فهو وحده القادر على تحري ضميره الخاص . وهو وحده الذي يقف محزوناً اسيفاً في حضرة اللانهائي . وهو وحده الذي يستطيع ويجب ان يصنع ماضيه الخاص بكلمات في اعتراف . وحتى الغفران الذي يحرر أناه من اجل القيام بعمل جديد تترتب عليه مسؤولية ، هو امر شخصي لنفسه. اما المعمودية فهي امر غير شخصي ـ فالانسان يتلقاها لانه احدالناس وليس لانه هو هذا الانسان ـ ولكن فكرة الندامة تفترض مسبقا ان قيمة كل عمل تتوقف بصورة مطلقة على الانسان الذي يفرق بين الدراما الغربية وبين الدرامات من كلاسيكية وصينية وهندية. وهذا هو الذي يوجه تشريعنا اكثر فاكثر نحو الفاعل اكثر منه نحو الفعل ، ويجعل مفاهيم اخلاقيتنا الاولية ترتكز على الفعل الفردي وليس على السلوك النموذجي. انه المسؤولية الفاوستية بدلاً من التسليم الجموعي ، والفرد بدلاً من الاجماع

(المجموع – المترجم) ، وانه الخلاص من الاثقال بدلاً من الخضوع تحتها – هذا هو الفرق بين اقصى الايجابيـة وبين منتهى السلبية لكل الاسرار المقدسة ، وخلفه يكمن ايضاً الفرق بين كهف العالم وبين ديناميكا – اللانهائية . فالمعمودية هي عمل ما يقع على المرء ، اما الندامة فهي عمل يقوم به المرء داخل ذاتـه . واكثر من ذلك فالتحري الضميري الحي هـذا والذي يقوم به المرء لماضيه الخاص ، هو ابكر دليل ، وادق تدريب معاً للحس التاريخي للجنس البشري الفاوستي . وليس هناك من حضارة اخرى يحتل فيها الاستقصاء الضميري لكل ملمح من ملامح الحياة الشخصية للانسان الحي ، المركز الهام الذي يحتـله في الحضارة الفاوستية ، وذلك لان هـذا وحده هو الذي استوجب ان تؤدي الاقرارات بالكلمات . واذا كان البحث التاريخي والسيرة الشخصية Biography خاصتين من خصائص الغرب منذ بدايته ، واذا كان هذان هما في نهاية المطاف تحري ذات واعترافا ، واذا كانت حياتنا تعاد بقناعة وثقـة وباستدلال واع باساسنا التاريخي الذي لم يراود كونه ممكنا او محتملا اي خيال في اي مكان آخر غير بلادنا ، واذا كنا اخيراً قد تعودنا على النظر الى التاريخ بوصفه آجالاً من دورات الفية من الاعوام ، ودورات ليست مشوشة مفككة او مزخرفة كما هي حالها في العالم الكلاسيكي وفي الصين والهنـد ، بل دورات ذات اتجاه ، وتراها عقولنا ، دائما على ضوء صيغة السر المقدس القائلة :

« Tout comprendre c'est tout pardonner »

فعندئذ يتوجب علينا ان نتوجه بالشكر على هـذه الامور كلها الى السر المقدس هذا للكنيسة القوطية ، الى هذا التحرر المستمر للأنا من اثقالها بواسطة التجربة التاريخية والتبرير . ان كل اعتراف هو سيرة شخصية . وهـذا التحرر الغريب للارادة هو بالنسبة الينا ضروري الى حد يدفعنا معه رفض الغفران الى اليأس وحتى الى الدمار . وذلك الانسان الذي يشعر بغبطة بتبرئة باطنية كتلك

هو وحــــده فقط القادر على ادراك مغزى الاسم القديم لـ ـ Sacramentum Resurgentium سر اولئك الذين بعثوا ثانية .

وحينا تترك النفس ، في هذه القرارات الاخطر حسماً ، لوسائلها الخاصة ، فعندئذ يبقى هناك شيء ما غير مقرر ومعلقاً فوق النفس كأنه سحابـة دائمة . ولذلك يجوز لنا ان نقول بانه لربما لا توجد اية مؤسسة في اي دين آخر قد ادخل هذا القدر من السعادة على العالم . فكامل باطنية الغوطية ومحبتها السماوية ترتكز على القناعة بالغفران التام بواسطة السلطة المخولة للكاهن . وقد حدث ، نتيجـة للقلق الذي نجم عن تدهور هذا السر المقدس وانحلاله ، أن ذوت وتلاشت البهجة الغوطيـــة من الحياة وكذلك عالم ـ النور ، عالم ـ مريم . ولم يبق الا عالم الشيطان بكل ما له من وجوم وتقطيب . ومن ثم حل محل الغبطة المفقودة الى الابد ، البروتستنتي ، وخاصة البيورتاني (المطهر) والبطولة التي تستطيع ان تستمر في القتال ، وحتى دون امل داخل موقع مفقود . ولقد قال غوتيـــه مرة : كان المتوجب ألا يؤخذ ابداً (يسلب ـ المترجم) الاعتراف السماعي من الجنس البشري . فلقد انتشرت فوق الارض التي تلاشى منها هذا الاعتراف ، جدية صارمة ثقيلة . واتخذت الاخلاق والبزة ، الفن والفكر ، لون ـ الليـل للاسطورة الوحيدة[1] التي بقيت بارزة شهيرة . وليس هناك من شيء حظه من نور الشمس اقل مما هو حظ عقائد « كنت » Kant من نورها . ان القول : بان كل انسان هو كاهن نفسه هو قول يستطيع المرء ان يبلغ بواسطتـه فقط ذاك الجزء من الكهانة المشتمل على الواجبات ، لكنه لا يستطيع ابداً ان يبلغ جزءها الممتلك للسلطات . فلا يوجـد هناك انسان يعترف امام نفسه. وهو قانع قناعة باطنية بالغفران . وهكذا فان حاجة النفس لأن تخلص من اثقال ماضيها ،

---

(١) يعني بهذه اسطورة الشيطان ،

ـ المترجم ـ

وان توجه ثانية ، بقيت حاجة ملحاحاً لجوجا كحالها ابدا ، وقـــد بدلت كل الاشكال الارقى للمواصـــلة ، وتحولت الموسيقى والتصوير الزيتي وكتابة – الرسائل ، والمذكرات ، في البـلاد البروتستنتية من كونها اساليب وصف الى صيرورتها تشهيراً بالذات وكفارة واعترافاً غير محدود . وحتى الفن في الاقاليم الكاثوليكية ايضا – وخاصة في باريس – فانه حالما دخل عليـــه علم النفس نما الشك في سر الندامـة والغفران . فالمطل على العالم قد فقد في عراك دائم نشب داخل النفس وكان سلاحه الالغام ، وبدلاً من اللانهائي جمع المعاصرون والخلف ليكونوا كهنة وقضاة . وكان الفن الشخصي ، وفق المفهوم الذي يميز غوتيه من دانتي ، ورمبراندت من ميخلانج ، البديل لسر الاعتراف المقدس . وكان ايضا الاشارة الى ان هذه الحضارة قد بلغت حال الحقبة المتأخرة زمناً .

– ٤ –

ان للاصلاح الديني المعنى ذاته في جميـع الحضارات – ألا وهو العودة بالدين الى نقاء فكرته الاصلية وصفائها ، كما تجلت هذه الفكرة في بداية الدين ومطلعه . ولا تخلو اية حضارة من الحضارات من مثـل هذه الحركة (الاصلاح الديني – المترجم) ، وذلك اكنا نعلم بها ، كما هي الحال في مصر ، ام نجهل بها ، كما هو الامر في الصين . وهذه الحركة تعني ، فضلاً عن ذلك ، ان المدينة ومعها روح – المدينة قد اخذتا بتحرير ذاتيهما تدريجيا من النفس الريفية ، كما وان هذه الحركة قد شرعت بالوقوف موقفا مناهضا لكامل سلطان النفس الريفية ، واخذت تعيد النظر في احاسيس الحقبة ما قبل الحضريـــة وافكارها ، وذلك من جهة ذاتها الحاضرة . ولقد كان المصير ، وليست الضرورات العقلانية للفكر ، هو الذي

افضى في العالمين المجوسي والفاوستي ، الى تفتح براعم اديان جديدة عن هـذا الخط الزماني . ونعلم اليوم ايضا بان لوثر ، كاد يصبح ، في عهد شارل الخامس ، المصلح لكامل الكنيسة غير المنقسمة .

وذلك لأن لوثر ، ككل المصلحين في جميع الحضارات ، لم يكن الحلقة الاولى بل الاخيرة من سلسلة تعاقب عظيم ابتـدأ بالزهاد الذين عرفتهم البراري وانتهى بكاهن - المدينة . والاصلاح الديني هو غوطي ، وهو من الغوطيـــة انجازها وميثاقها . وترنيمة لوثر ذات المطلع « قلعة حصينة » لا تنتمي الى القصيد الغنائي الروحي الباروكي . ففي هـذه الترنيـمة لا يزال الاسلوب اللاتيني الرائع لـ Dies irae يقعقع فيها ويدوي . فهي آخر ترانيم – الشيطان الجبـــارة للكنيسـة المجاهدة . ولقد ناضل لوثر ضد الكنيسة لا بسبب أن الكنيسة كانت تطالب بالكثير الكثير ، بل انما بسبب كونها تطالب باقل القليل ، وشأن لوثر في نضاله هذا هو شأن كل مصلح آخر نشأ منـذ عام الف فما بعده . وهذا التيار العظيم ينطلق من كلاني Cluny ماراً بأرنولد فون برسكيــــا Arnold of Brescia الذي بشر ووعظ مطالباً بالعودة الى البساطـــة الرسولية ، ومن ثم احرق عام ١١٥٥ ، فيواكيم فون فلوريس الذي كان اول من استعمل كلمة « يصلح » ، فالروحانيين من الرهبانيـــة الفرنسسكانية ، فجاكوبون دا تودي Jacopone da Todi القائد ومنشد الترنيـمة ذات المطلع « لقد كانت الام تقف هناك » Stabat Mater [1] ، هذا الفارس الذي حوله موت زوجة صبية الى ناسك ، والذي حاول ان يطوح ببونافيس الثامن Boniface لأنه كان يحكم الكنيسة بيد لينة متراخيـــة ، فوكليف وهس وسافوناورولا ، واخيرا لوثر

(١) Stabat Mater : ترنيمة لاتينيـــة تتحدث عن احزان ام المسيح وهي تتبعه الى مكان صلبه .

المترجم -

وكارلشتادت وترفنجلي وكالفن – وليولا . وكانت مقاصد هؤلاء فرداً ومجموعاً لا تستهدف التغلب على مسيحية الدين الغوطي وقهرها ، بل تتوخى اولا واخيرا ان تسير بها الى الاكتمال الباطني . وهذه ايضا كانت حال ماركيون واثاناسيوس واليعاقبة والنساطرة الذين حاولوا في مؤتمري افسس وخالقدونيا ان يطهروا الايمان وينقوه ويدفعوا بـــه وراء الى اصوله . ولكن اورفيي القرن السابع الكلاسيكي كانوا كذلك آخر حلقات سلسلة المصلحين الدينيين وليسوا ببدايتها ، هذه السلسلة التي يجب ان تكون قد بدأت حتى قبل عام ١٠٠٠ قبل المسيح . وكذلك ايضاً توطد دين رع في مصر وفي نهاية المملكة القديمة ، نهاية الغوطيـة المصرية . ان هؤلاء يرمزون الى نهاية لا الى بدايـة جديدة . وكذلك ايضا تم اكتمال الاصلاح الديني في الدين الفيدي قرابة القرن العاشر ، وقد تبعه حلول البرهمية المتأخرة زمناً . كما ويجب ان يكون التاريخ الديني الصيني قد عرف في القرن التاسع نقطة حقبية مطابقة لهذه . .

ومهما بلغ الاختلاف بين الاصلاحات الدينية لشتى الحضارات ، من الاتساع ، فان الهدف او القصد هو ذاته بالنسبة لها جميعا – وهذا القصد يرمي الى اعادة الايمان الذي ضل وزاغ بعيداً بعيدا في العالم كتاريخ وفي دنيوية – الزمان الى ميدان الطبيعـة ، الى الشعور الواعي النقي والفراغ الذي تسيطر عليه السببية المجردة وتتخلله وتشمله ، وان تخرج به من عالم الاقتصاد (الثروة) لتدخله عالم العلم (الفقر) ، ومن مجتمع النبـلاء والفرسان (الذي كان ايضا مجتمع عصر النهضة وحركة الانسانيين) الى مجتمع الروحانيين والنساك والمتقشفين ، واخيراً الخروج به (وبقدر ما هو ممكن من الاهميـــة) من الطموح السياسي لابناء الارومة من ذوي الحلل الرسمية من رجال كهنوت ودولة الى السببية المقدسـة التي لا تنتمي الى هذا العالم .

وفي تلك الايام قام الغرب – بما قام به تماما غيره في الحضارات الاخرى –

بتقسيم مسيحية السكان الى ثلاث طبقات هي : السياسية ، والاكليركية والاقتصادية (وهذه هي المتحضرة) ولكن لما كانت النظرة التي اعتمدت هذا التقسيم هي نظرة المدينة ولم تعد نظرة القلعة او القرية ، فان الرسميين والقضاة كانوا ينتمون الى الطبقة الاولى ، وكان رجال العلم ينتمون الى الثانية — امـــا الفلاح فلقد-نسي امره وتجوهل شأنه . وهذا هو المفتاح الى التعارض بين عصر النهضة والاصلاح الديني ، وقـــد كان تعارضا طبقيا ، وليس تعارضا نابعاً من الاختلاف في الشعور بالعالم ، كذلك التعارض الذي قام بين عصر النهضـــة والغوطية . فذوق — القلعة ونفس — الدير قد نزحا الى المدينـة وبقيا فيها في حالة من تعارض كما كان امرهمـا في السابق — وكما كانت الحال في فلورنسا بين المديتشي وسافونا رولا ، وكذلك كما كان الامر بالنسبة للعائلات النبيلة في مدن اليونان القديمة — وبعد ان دون اخيرا هوميروسهم — حتى آخر طقس او عقيدة اورفية — وابناء هذه العائلات كانوا ايضا كتاباً . ان فناني عصر النهضة وانسانيه هم الخلفاء الشرعيون للتروبادورز والمنشدين ، وكما انـه يوجد هناك تماما خطر يمتد من ارنولد فون بوسكايا الى لوثر ، كذلك فان هناك خطاً يمتد من برتراند بورن وبير كاردينال ماراً بيترارك الى اريوستو . فالقلعة قد اصبحت منزل — البلدة ، واصبح الفارس ، النبيل الذي يعيش فيه . والتصقت كامل الحركة (عصر النهضة — المترجم) بالقصور كما التصقت بالبلاطات ، وحصرت نفسها داخـل ميادين التعبير هذه التي تؤثر وتستأثر باهتمام المجتمع المتأدب ، فهي براقة مرحة كهوميروس ، لانها ظريفة « بلاطية » Courtly — وحيث تمثل جواً تعتبر فيه المعضلات ذوقاً سيئاً ، وحيث كان دانتي وميكلانجلو لا يستطيعان الا أن يشعرا بانهما غريبان عن مثل هذا الجو — ومن ثم انتشرت فوق جبـال الالب وبلغت بلاطات الشمال لا بوصفها نظرة جديدة الى العالم ، بـــل بوصفها ذوقاً جديداً . فعصر النهضة « الشمالي » للمدن والعواصم التجارية تجلى فقط في الواقعة الماثلة بحلول المجتمع الراقي للنبلاء الايطاليين محل الفروسية الفرنسية .

ولكن آخر المصلحين ايضاً ، اللواثر (جمع لوثر) وامثـــال سافوناورولا ، كانوا رهباناً حضريين ، وهـــذا مما يفرقهم تفريقاً عميقاً عن برواكيم وبرنارد وامثالهما . فتقشفهم العقلاني هو المنطلق من الصوامع القائمة في الوديان الهادئـــة ، الى غرفـــة الدراسة في العصر الباروكي . وخبرة لوثر الصوفية التي ولدت عقيدة التبرير ، ليست خبرة القديس برنارد التي عرفها في الغابات والتـــلال والغيوم والنجوم ، بل انما هي خبرة انسان يتطلع من خلال نوافذ ضيقة الى الشوارع والطرق وجدران المنازل والسقوف المرمية . فالطبيعة التي يتخللها الله ويكتنفها هي نائية وبعيدة وتقع خارج جدران المدينة وأسوارها ، والعقل الحر المنفصل عن التربة يقع داخلها . فداخل الشعور الواعي المتحضر والمسور بجدران من الحجارة ، يفترق الحس عن العقل ويتخلى الواحد منهما عن رفقة الآخر ، ويصبح كل منهما عدواً للآخر ، وهكذا فان تصوف ـ المدينة ، تصوف آخر المصلحين ، هو تصوف العقل المجرد متناً وحاشية وليس بتصوف العين ـ انه اثارة مفاهيم تذوي في حضرتها الاشكال الملونة البراقـــة للاسطورة القديمة وتغدو شاحبة مكفهرة .

ولذلك كان هذا التصوف بالضرورة ، وباعماقه الحقيقية ، شيئا موقوفا على القلة من الناس . ولم يترك هناك من شيء من ذاك المحتوى المحسوس الذي كان فيما مضى يقدم حتى الى افقر الناس شيئا ما يمسك به او يقبض عليه . فالعمـــل الجبار الذي قام بـــه لوثر كان قراراً عقلانياً مجردا . واعتباره آخر العظماء من المدرسين من طراز Occam اوكام لم يأت عن لا شيء . فهو قد حرر الشخصية الفاوستية تحريراً كاملا ـ وازال الشخص الوسيط ، شخص الكاهن الذي كان فيما مضى يقف بين هذه الشخصية وبـين اللانهائي . وهكذا اصبحت تقف الآن وحدها تماما ، عارفة بمكانها ، وكاهن ـ ذاتها وقاضيها . لكن العامة من الشعب استطاعت فقط ان تحس ، لا ان تفهم ، عنصر التحرير فيها . والحق انها رحبت بحماس بتمزيق الوجائب المنظورة ، لكنها لم تتحقق من ان هذه الوجائب قـد

استبدلت بوجائب عقلانية هي اشد قسوة وصرامة من تلك . ففرنسيس الاسيسي قد اعطى الكثير واخذ القليل ، لكن الاصلاح الديني المتحضر ، اخذ الكثير ، واعطى القليل وذلك فيا يتعلق باكثرية السكان .

وقد استبدل لوثر السببية المقدسة لسر الندامة المقدس ، بخبرة الغفران الباطني « بواسطة الايمان وحده » . وهو قد اقترب جداً من برنارد كليرفو بمفهوم سر الندامة ، بوصفه تقشفا عقلانياً مستمرا مدى العمر وذلك في تباينه وتقشف الاعمال الظاهرية المنظورة . وكلاهما فهما الغفران على انه معجزة الهية . فالانسان فيا يتعلق بتبديله لذاته ، فان الله هو الذي يبدله . ولكن ما لا يستطيع ان يحل التصوف العقلاني المجرد محله انما هو الـ « TU » خارجاً في الطبيعة الحرة . فالاول منهما كالثاني قد وعظ قائلا : « يتوجب عليك ان تؤمن بان الله قد غفر لك » ، ولكن الايمان بالنسبة الى برنارد كانت ترتقي بـه قوى الكاهن الى المعرفة ، بينا بالنسبة للوثر ، هبط الايمان الى الشك واللجاجة اليائسة . فهذه « الأنا » الصغيرة المنفصلة عن الكون والمسمرة الى الكائن الفرد ووحيدة (بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم رهيب مرعب) تحتاج الى مجاورة « انت » جبارة ، وكلما كان العقل اوهن واضعف ، كانت حاجتها الى هذه المجاورة اشد لجاجة والحاحاً . وهنا يكمن المغزى النهائي للكاهن الغربي ، الذي ارتقي به ابتداء بعام ١٢١٥ ورفع فوق بقية الجنس البشري بواسطة سر السياحة المقدس ، وطابعه الذي لا يندرس او يطمس . فهو كان يداً يستطيع بواسطتها حتى افقر التعساء ان يتحسس الله ويدركه . وهذا الرباط المنظور باللانهائي هو الذي دمرته البروتستنتية وكان باستطاعة النفوس القوية ، وقد استطاعت ان تستعيد هـذا الرباط لذواتها ، لكنه فقد تدريجيا بالنسبة للنفوس الاضعف . وبالرغم من ان المعجزة الباطنية كانت بالنسبة لبرنارد معجزة ناجحة بحد ذاتها ، لكنه لا يحرم الآخرين من الوسيلة الاشد رفقاً ، وذلك لأن نورانية نفسه بالذات قد ارته عالم ـ مريم للطبيعة الحية ، يتخلل كل شيء ويكتنفه ، وقريبا دائما من الكل ،

ويمد دوما يد العون والمساعدة للكل . اما لوثر الذي عرف فقط نفسه ولم يعرف الناس ، فانه قد اقام البطولة المفترضة مقام الضعف الواقعي . فالحياة كانت في نظره معركة يائسة ضد الشيطان ، معركة طالب كل انسان ان يشترك فيها . وكل انسان خاض غمراتها ، انما خاضها منفرداً وحيدا .

لقد دمر الاصلاح الديني الجانب المشرق والمواسي من الاسطورة القوطية — فألغى مذهب مريم ، وتبجيل القديسين ، والذخائر النفيسة والحج والمزارات والقداس . لكن اسطورة الشيطانية ومهارة الساحرات بقيت واستمرت ، وذلك لانهما كانتا تجسيما للتعذيب الباطني وسبباً له ، وقد ارتقى التعذيب اخيراً فبلغ منتهى الرعب والهلع والفزع . وكانت المعمودية في نظر لوثر ، تعويذة على الاقل ، ومرأ مقدسا صحيحا لتحريم الشيطان او لعنة . وقد نشأت ونمت آداب بروتستنتية مجردة ضخمة ووفيرة عن الشيطان . ولم يبق من ثراء اللون القوطي ووفرته سوى اللون الاسود ، ولم يبق من فنونه ، سوى الموسيقى وخاصة موسيقى الأرغن Organ . ولكنه نشأ مكان عالم الضوء الاسطوري ، الذي لم يستطع ايمان عامة الناس ان يتنازل بعد كل شيء قربه عن المعين العضود ، عنصر اسطورة المانية غابرة . وقد دخل هذا العنصر دخولا خفياً مستسراً الى حد جعل الناس لا يتحققون حتى هذا اليوم من اهميته الحقيقية بعد . فتعبيرا « الخرافة الشعبية » و « العادة العامة » هما تعبيران لا يفيان بالمراد ، فانها والحق لاسطورة حقة هي تلك التي تلتصق بالاعتقاد الراسخ بوجود الفزعات والغيلان والجنيات وارواح المنزل والسحب الكاسحة لما لا اجسام لها ، وانه لمذهب حق ، هو ذاك الذي يشاهد من خلال الطقوس والتقدمات والتعاويذ والتوسلات التي لا تزال تمارس برهبة تقية ورعة . وعلى كل حال فان الخرافة قد حلت ، دون ان يلحظ ذلك احد ، محل اسطورة مريم : فلقد اصبحت مريم تدعى الآن السيدة هولدي ، وظهر حيث كان القديسون يقفون فيما مضى ، ايكارت الامين . اما ما نشأ بين الشعب الانكليزي فانه كان شيئا ما كان قد سمي منذ طويل زمن

بفتيشية « الكتاب المقدس » « Bible — fetishism » ان ما كان ينقص لوثر هو عين ترى الوقائع وقوة تنظيم عملي — وهذا النقص هو نكبة خالدة بالنسبة لالمانيا . فهو لم يسر بعقائده لتصبح منهاجا واضحاً ، ولم يقد الحركة العظمى ولم يختر هدفها . وكلفن خليفته العظيم هو الذي حقق كلا هذين الامرين . فبينما كانت الحركة اللوثرية تتقدم دون ما قائد في اوروبا الوسطى ، كان كلفن يرى في حكمه في جنيف نقطة انطلاق لاخضاع العالم منهاجياً لبروتستنتية عالجها الفكر دون تردد او تلعثم حتى نتائجها المنطقية . ولهذا السبب اصبح هو وحده قوة عالمية ، ولهذا السبب ايضا اصبح الصراع الحاسم بين روح كلفن وروح ليولا هو الذي سيطر ، ابتداء بالارمادا الاسبانية فما بعد ، على السياسة العالمية في الحقبة الباروكية ، وعلى الصراع على السيادة البحريـــة . فبينما كان الاصلاح الديني ومناهضته يتصارعان في وسط اوروبا على بعض مدن امبراطورية صغيرة ، او على كانتونات سويسرية قليـــلة فقيرة ، كانت كندا ومصب الغانج والكاب والمسيسبي مسارح لقرارات عظمى اختصمت حولها وقاتلت فرنسا واسبانيـــا وانكلترا وهولنـــدا من اجلها حتى بلغت بها نتائجها المعهودة . وكان المنظمان العظيمان (كلفن وليولا — المترجم) للدين المتأخر زمناً ابداً حاضرين وابـداً يقاوم الواحد منهما الآخر .

- ٥ -

ان الابداع العقلاني للمرحلة المتأخرة ، لا تبـــدأ مع ، بل بعد الاصلاح الديني . والعلم الحر هو اشد انجازاتها نموذجية . فالتعلم حتى في نظر لوثر كان « خادمة اللاهوت او وصيفتها » ، وقد امر كلفن بحرق المفكر الحر الدكتور

سيرفيت Servet . ولقد احس فكر الربيع الحضاري - الفاوستي منـه والمصري ، الفيـدي والاورفي - بوسالته في ان يكون تبريراً للايمان بواسطة النقد . واذا لم ينجح النقد ، فعندئذ يجب ان يكون المنهاج التنديدي خاطئاً . فالمعرفة كانت هي الايمان المبرر ، وليس الايمان المناقش .

والآن فان القوى التنديدية لعقل المدنية قد اصبحت ضخمة الى ذاك الحد ، حيث لم يعد هذا العقل يقنع بالتأكيـد والاستتباب ، بل يتوجب عليه ان يجرب ويمتحن . وغدا الخزين من المحتملات ، وخاصة ذاك الجزء منه الذي كان المرء يتلقاه بواسطـة الفهم وليس بواسطة القلب ، الهدف الاول الواضح للنشاطات التشريحيـة . وهذا مما يميز ربيع الفلسفة الكلامية من فلسفة - الواقعة للفكر الباروكي - كما ويميز الافلاطونية الجديدة من الفكر الاسلامي ، والفيدية من الفكر البرهمي ، والاورفية من الفكر ما قبـل السقراطي . فالسببية الدنيوية (كما قد نقول) للحياة الانسانية ، ومحيط العالم ، وعملية معنى المعرفة ، تصبح مشكلة . وقد قاست الفلسفة المصرية للمملكة الوسيطة قيمة الحياة وفق هـذا المفهوم ، وكانت تشابهها ، بكل ترجيح ، الفلسفة ما قبل الكونفوشسية المتأخرة زمنا في الصين ابتداء بعام ٨٠٠ حتى عام ٥٠٠ ق. م. ولم يبق سوى الكتاب المنسوب لكوان - تسي (قرابة ٦٤٥) هو الذي يعطينا فكرة معتمة كلية من هذه الفلسفة ، ولكن الاشارات ، بالرغم من انها خفيفـة طفيفة ، هي علامات تشير الى ان القضايا الابستمولوجية والبيولوجية قد احتلت مركز الثقـل في الفلسفة الصينية الاصيلة الوحيدة والتي هي اليوم مفقودة تماماً .

ويقف العلم الطبيعي لوحده داخل الفلسفة الباروكية . ولا تمتلك اية حضارة اخرى اي شيء مماثل له ، ولا شك ان هذا العالم يجب ألا يكون منذ بدايتـه « خادماً للاهوت » او « وصيفا له » بل انما كان خادما لارادة القوة التقنية ، وقد نسق نحو هذه الغايـة رياضياً وتجريبياً معا - وهو بأسسه كل اسسه ميكانيكا

عمليـــة . ولما كان هذا تقنية اولاً ، ونظرية ثانياً ، لذلك يجب ان يكون قديما قدم الانسان الفاوستي نفسه . وبناء على ذلك فنحن نجـــد ، حتى في عام ١٠٠٠ ، اعمالاً تقنية ذات طاقة تركيب عجيبة مذهلة . وفي وقت مبكر كالقرن الثـالث عشر ، كان روبرت غروستيستي Robert Grosseteste يعالـــج الفراغ بوصفـــه وظيفة ضوء . ولقد كتب بتروس بـــيرغرينوس Petrus Peregrinus في عام ١٢٨٩ افضل نبـــذة بنيت على التجارب عن المغنطيسية والتي ظهرت قبل جلبرت (١٦٠٠) . وقد اوجد روجر بيكون ، تلميذ كل من الآنفي الذكر ، نظرية علمية طبيعية للمعرفة لتقوم كقاعدة لأبحاثه التقنية . ولكن الجرأة في اكتشاف انظمة الترابط الديناميكية ذهبت الى مدى ابعد من ذلك ايضاً . فقد لمحت مخطوطـــة في عام ١٣٢٢ الى المنهاج الكوبرنكي (نسبة لكوبرنيكوس) ، وبعد عقود قليلة من السنين من هـــذا العام قام اوكامستيو باريس، بوريدان والبرت فون سكسوني واوريسم بتطوير هذا المنهاج رياضياً . ويجب ألا نخـــدع انفسنا فيما يتعلق بقوة الدافع الاساسية لهذه الاستقصاءات والاستكشافات . لقد كان باستطاعة الفلسفة التأملية المجردة ان تستغني الى الابد عن التجربـة ، لكن الرمز الفاوستي للآلة لا يستطيع ذلك ، فهذا الرمز قد دفع بنا وبالحاح الى التراكيب الميكانيكية حتى في القرن الثاني عشر وجعل من مبدأ الحركة الدائمة فكرة بروميثيوس للذهن الغربي . فان الشيء الاول بالنسبة لنا هو دائما وابدا الفرضية العلمية العاملة – وهي النوع كل نوع ثمرة – الفكر التي لا معنى لها او مفهوم في نظر الحضارات الاخرى . وانهـــا والحق لواقعة مذهـــلة (يتوجب ان نعتاد عليها على كل حال) كون فكرة الاستغلال الفوري ، وفي التطبيق ، لاية معرفـة بالعلاقات الطبيعية التي يمكن اكتسابها ، فكرة غريبة عن كل نوع من انواع الجنس البشري ما عدا الفاوستي منه (وما عدا اولئك الناس كاليابانيين واليهود والروس الذين اصبحوا اليوم تحت السيطرة العقلانية للمدنية الفاوستية) ففكرة الفرضية العلميـــة العاملة بالذات

تحتوي دون ريب على عرض ديناميكي للكون . وكانت النظرية العلمية ، اي الرؤيا التأملية للواقعة ، في نظر اولئك الرهبان المتسائلين بدهاء ومراوغة ، امراً ثانوياً فقط ، ولما كانت هذه النظرية بالذات ثمرة من ثمار العاطفة التقنية ، لذلك افضت بهم فوراً ، ودون شعور منهم ، الى المفهوم النموذجي في فاوستيته ، ألا وهو المفهوم القائل بان الله هو الاستاذ الاعظم للآلة ، الذي يستطيع ان ينجز كل شيء يتجرأون فقط هم انفسهم وفي عجزهم ، على تمنيه . وأصبح ، بصورة لاشعورية ، عالم الله قرناً بعد قرن ، يشابـــه اكثر فاكثر الحركة الدائمة . وغدا ، بصورة لا واعية ايضاً ، التفرس في الطبيعة يزداد حدة على حدة في مدرسة التجربـــة والتقنية ، وازدادت الاسطورة الغوطية ظلالية فوق ظلالية ، وتطورت مفاهيم الفرضيات العلمية الرهبانية العاملة ابتداء من غليليو فما بعد حتى اصبحت الروح التنديدية المضادة للعـــلم الحديث ، من التلاطمات ، Collisions والحقول ، والجاذبيـــة وسرعة الضوء و « الكهرباء » التي امتصت في صورة عالمنـــا الالكترودىناميكية اشكال الطاقة الاخرى ، وبذلك بلغت مرتبة ميتافيزيقية من وحدانية الله . وهذه هي المفاهيم الموضوعة وراء القوانين الرياضية كي تمنحها رؤية اسطورية بالنسبة للعين الباطنية كما وان الارقام نفسها هي عناصر تقنية ، عتلات ولوالب واستماعات مختلسة لاسرار العالم . ولم يكن فكر – الطبيعـــة الكلاسيكي – وغيره من افكار – الطبيعة لحضارات الاخرى – يتطلب ارقاما ، وذلك لأنه لم يكن يطمح او يجاهد للحصول على القوى . ولم تكن للرياضيات المجردة لكل من فيتاغورس وافلاطون اية علاقـة ، مهما كان نوعها ، بنظرات ديموكريتوس وارسطو الى الطبيعة .

وكما ان العقل الكلاسيكي قد شعر بان تحدي بروميثيوس للآلهة على انـــه « Hybris » كذلك فان عقلنا الباروكي احس بان الآلة هي من صنع الشيطان . فروح الجحيم قد افشى للانسان سر السيطرة على ميكانيكية العالم ، وحتى سر

نفسه للقيام بدور الله . ومن هنا نشأت كل هذه الطبائع الكهنوتية الصافية التي تعيش بكليتها في عالم الروح ولا تترقب أي شيء من « هذا العالم » — ومن هنا كان ايضاً الفلاسفة المثاليين ومقلدي الكلاسيكية والانسانيين وحتى نيتشته — لا يملكون شيئاً غير العداوة الصامتة للتقنية .

ان كل فلسفة متأخرة زمناً تحتوي على هذا الاحتجاج التنديدي على بداهة الربيع الحضاري اللاتنديدية . ولكن تنديد العقل هذا الواثق من تفوقه الخاص يؤثر ايضاً في الايمان نفسه ، ويبعث ذاك الانجاز العظيم في ميدان الدين الذي هو خاصة من خصائص المرحلة المتأخرة — وكل مرحلة متأخرة — واعني بهذا الانجاز حركة التطهير Puritanism .

ويظهر التطهير نفسه في جيش كرمويل واحراره الثابتين على الكتاب ثبوت الطود ، والذين كانوا ينشدون المزامير ويرتلونها وهم منطلقون على صهوات خيولهم الى المعركة ، ويتبدى ايضا في صفوف الفيتاغوريين الذين دمروا ، بجدية انجيل واجبهم المريرة مدينة سايباريس Sybaris ووصموها الى الابد بانها مدينة معدومة الاخلاق ، وفي جيوش الخلفاء الاوائل الذين لم يخضعوا دولاً فقط ، بل اخضعوا نفوسا ايضاً . فالفردوس المفقود لملتون ، والكثير من صور القرآن ، والقليل مما نعرفه من الفيتاغورية ، جميع هذه تبلغ الشيء ذاته . فهي حماسات تنبع من روح واعية صاحية وقور ، ومن توترات باردة وتصوف جاف وانتشاء روحي متحذلق . ولكن مع ان هذه هي حالها ، فان هناك ورعاً وحشيا يختلج داخلها مرة اخرى . فكل ما تستطيع المدينة ان تنتجه من باطنية متسامية بعد حصولها على السيطرة غير المشروطة على نفس التربة ، قد تركز هنا وتكثف بنوع من رعب وارهاب ، خشية ان يضطر ليبرهن على انه غير حقيقي وفان ، وهو بالمثل نافذ الصبر لا يرحم ولا يتسامح . فالتطهير تنقصه — لا في الحضارة الغربية فقط بل في جميع الحضارات ايضا —

تلك الابتسامة التي اضاءت الدين واثارتـــه في ربيع الحضارة – وربيع كل حضارة – وتعوزه تلك اللحظات من الفرح العميق في الحياة ، ويفتقر الى مزاح الحياة ومرحها . فنحن لا نجـد في القرآن اي شيء من تلك الغبطة المادئة التي كانت تومض مراراً وتكرارا في ربيع الحضارة المجوسية ، من خـلال قصص طفولة يسوع ، او من خلال Gregory Nazianzen ، كما ولا نجد شيئا لدى ملتون من بهجـــة ترانيم القديس فرنسيس الصريحة الواضحة . بل نشعر بجدية بمية تخيم فوق العقل الجانساني Jansenist لبورت رويال ، وفوق ذوي الرؤوس المستديرة المرتدين الثياب الـسود والذين استأصلوا شأفـــة « انكلترة شكسبير المرحة » خلال عدد قليـل من السنين – انها والحق قصة مدينة سايباريس مرة ثانية والآن شنت لأول مرة المعركة ضد الشيطان الذي أحس كلياً بقربـــه جسمانياً ، بحميا مريرة وهيجان اسود ولقـــد احرق في القرن السابع عشر ما يزيد على المليون من الساحرات – وبالمثل في الشمال البروتستنتي والجنوب الكاثوليكي وحتى الطوائف في اميركا والهند . زد على ذلك أن الفقه الاسلامي بعقلانيته الصلبة بالغ في جديته وشديد حتى الخشونة ، وكذلك ايضا دستور وستمنستر للايمان المسيحي الموضوع عام ١٦٤٣ ، والاخلاقيـــة الجانسنية (Jansen'a Augustinus, 1640) – كما وان الضرورة الباطنية استوجبت ان تكون هناك حركة تطهير بالنسبة لميدان ليولا .

ان الدين هو ميتافيزيقا خبرت خبرة حية ، لكن رفاق ما هو « المي » كما دعا انفسهم احرار « كرومويل » والفيتاغوريون وتلامذة محمـد ، لم يخبروها جميعاً وعلى حد سواء باحاسيسهم بل خبروها بصورة اوليـة بوصفها مفهوماً . وبارشفا Parshva الذي اسس قرابة عام ٦٠٠ ق. م. ملة « غير المقيدين » على ضفاف الغانج قد علم كما علم المطهرون من ابناء زمنه ، ان الخلاص لا يتم بواسطة القرابين والحقوق ، بل فقط بواسطة معرفة هوية آتمان وبراهمان Brahman .

وفي جميع شعر التطهير حلت محل الرؤى الغوطية القديمة روح مجازيـــة طليقة العنان لكنها روح ركيكة تافهة كذلك . فالمفهوم داخل الشعور الواعي لهؤلاء النساك هو القوة الحقيقية . ومصارعات باسكال كانت تدور حول المفاهيم ، ولم تكن كمصارعات المعلم ايكارت تستهدف الاشكال . ولقد احرقت الساحرات لأنه قـد برهن على انهن ساحرات ، ولم يحرقن لأنهن شوهدن محلقات في الهواء ليلاً ، وقد استعمل الفقهاء البروتستانت مطرقـــة الساحرات للدومنيكان لانها كانت مبنية على المفاهيم . وقد تجلت مادونات العصور الغوطية المبكرة استجابة للمتضرعين اليهن ، ولكن لم يشاهد اي انسان ابداً مادونات برنيني Bernini . فلقد وجدن لانه قد برهن على وجودهن – وقد نشأ حماس ايجابي لهذا النوع من الوجود . وقد قام ملتون ، السكرتير العظيم لدولة كرومويل ، بالباس المفاهيم اشكالاً ، كما ويستحضر بانيان Bunyan ميثالوجيا كاملة من مفاهيم الى فاعليـة اخلاقية – مجازية . ومن هنا تفصلنا فقط خطوة واحدة عن « كنت » الذي اتخذ الشيطان في اخلاقيـــة كنت المفاهيمية الشكل النهائي له بوصفه الشر اساساً وجوهرا .

يتوجب علينا ان نحرر ذواتنا من سطوح التاريخ – وعلينا بصورة خاصة ان نلقي جانباً بالاسوار الاصطناعية التي حبست منهاجية العلوم الغربية التاريخ داخلها – وذلك قبل ان نرى ان فيثاغور ومحمد وكرومويل انما يتجسدون الحركة الواحدة ذاتها في الحضارات الثلاث .

ان فيثاغوروس لم يكن فيلسوفاً . واستنادا الى جميع اقوال من هم قبـل سقراط ، فانـه كان قديساً ونبياً ومؤسساً لمجتمع ديني – متعصب متزمت ، فرض حقائقه على الناس المحيطين به بكل وسيلة سياسية وعسكريـة . فتدمير كروتون لسايباريس – وهذا حدث نستطيع ان نتق من انـــه بقي في دائرة التاريخ فقط لانه يمثل ذروة حرب دينية وحشية – كان انفجارا من انفجارات

البغضاء ذاتها التي لم تر في شارل الاول وفرسانه المرحين خطأ عقائديا فقط ، بل رأت فيه ايضاً نزعة عالمية كأنها شيء ما يجب ان يتلف جذورا واغصاناً . فلقد شربت اسطورة مصفاة ومدعمة مفاهيمياً ومتحدة مع نواميس اخلاقية صارمة ، الفيثاغوريين بالاعتقاد بانهم سيبلغون الخلاص قبل جميع الناس . وقد سطر على اللوائح التي وجدت في طهوري Thurii وبتيليا Petelia ، والتي كانت توضع في كف الموتى من المؤمنين الفيثاغوريين وعد الله وتأكيده التالين :

« ايها السعيد المبارك ، لن تكون بعد الآن انساناً فانياً بل الهاً . » وهذه هي القناعة ذاتها التي كان يوحي بها القرآن لجميع المؤمنين الذين يخوضون غمار الحرب المقدسة ضد الكافرين – ويقول حديث للنبي : ان رهبانية الاسلام هي الحرب الدينية – وهذا الشيء هو الذي ملأ قلوب جيوش كرومويل عندما شتتوا « شمل فلسطيني الملك وعمالقته » في معركتي مورستون مور وناسيبي Naseby .

ان الاسلام لم يكن دين الصحراء بصورة خاصة اكثر من كون ايمان زفنغلي دينا للجبال العالية بوجه خاص . والصدفة وحدها وليس اكثر منها ، هي التي جعلت حركة التطهير ، التي كان العالم المجوسي ناضجاً لتلقيها ، تنطلق على يدي رجل من مدينة مكة ، وليس على يدي يعقوبي وذلك لانه كانت تقوم في شمالي الصحراء العربية دول الغساسنة المسيحية ، ودول اللخميين ، وقد شهد الجنوب السبأي حروباً دينية دارت رحاها بين المسيحيين واليهود واتسعت مداها فشملت عالم الدول الممتد من اسوان حتى الامبراطورية الساسانية . ولم يحضر مؤتمر الامراء في مأرب اكثر من وثني واحد ، وعقب هذا المؤتمر بمدة قليلة اصبح الجنوب العربي تحت سيطرة حكومة فارسية – اي مازادية . وكانت مدينة مكة جزيرة صغيرة في محيط الوثنية العربية القديمة ، وتقع في وسط عالم من اليهود والمسيحيين ، وكانت مجرد اثر صغير قد لغم منذ زمن طويل بفكر الاديان

المجوسية العظمى . والقليل من الوثنية الذي تسرب الى القرآن قد طرد فيما بعد شرحاً وايضاحاً بواسطة تفاسير السنة وعقولها السورية – المابين النهرينية . والاسلام ، كان في منتهاه ، ديناً جديدا فقط الى الحد ذاته الذي كانته اللوثرية كدين جديد . فهو كان في الواقع الاسهاب في الاديان العظمى والمبكرة زمنا . وبالمثل فان امتداده او توسعه لم يكن (كما يخيل لبعضهم حتى الآن) نتيجة « لهجرة شعوب » انطلقت من الجزيرة العربية ، بل جاء نتاجاً لاكتساح المؤمنين به المتحمسين ، هذا الاكتساح الذي كان بمثابة انهيار كتل من الثلوج ، حمل معه المسيحيين واليهود والمازاديين ، وانتظمهم فورا في صفوفه الامامية بوصفهم مسلمين شديدي الايمان . فالبربر مواطنو القديس اوغسطين هم الذين فتحوا اسبانيا ، والفرس هم الذين انطلقوا من العراق فبلغوا اوكسوس (جيحون). فعدو الامس قد اصبح رفيق السلاح في الصفوف الامامية . ومعظم العرب الذين هاجموا القسطنطينية عام ٧١٧ لأول مرة كانوا قد ولدوا مسيحيين . وقرابة عام ٦٥٠ اختفت فجأة تماماً الآداب البيزنطية ، ولم يلاحظ حتى الآن احد المعنى الاعمق لهذه الواقعة – اذ ان الآداب العربية قد استولت على زمام المبادرة . ولقد وجدت الحضارة المجوسية اخيراً تعبيرها الحقيقي في الاسلام ، وبهذا اصبحت حقاً الحضارة العربية المتحررة منذ الاسلام فصاعداً من كل ما لعبودية التشكل الكاذب من قيود واغلال . فحركة تحطيم الصور والتماثيل التي قادها الاسلام ، والتي حضر لها منذ زمن طويل قبل الاسلام اليعاقبة واليهود ، قد انطلقت فبلغت القسطنطينية وحتى ما وراءها ، حيث كان السوري ليو الثالث « ٧١٧ – ٤١ » قد انشأ هذه الحركة التطهيرية للملل الاسلامية – المسيحية – البولشية قرابة ٦٥٠ والبغوملسية فيما بعد – وارتفع بها الى ذرى السلطان والسيادة .

والشخصيات الكبرى من بطانة محمد كأبي بكر وعمر هما من الاقرباء الاقربين لامثال بايم Pym وهامبدن Hampden من ابطال الثورة الانكليزية ، ونحن سنرى هذه العلاقة من القرابة اشد تماسكا وقربى لو عرفنا اكثر

مما نعرف عن الاحناف ، المطهرين العرب قبل وقرابة عصر النبي . فجميع هؤلاء قد اكتسبوا من الجبرية الضمانـة بانهم مصطفو الله وتمجيد العهد القديم البرلمان ولمعسكرات الحرية والاستقلال — الذي ترك وراءه في العديـد من العائلات الانكليزيـــة ، حتى القرن التاسع عشر ، الاعتقاد بان الانكليز يتحدرون من اصلاب العشرة قبائل المفقودة من اسرائيل ، وانهم امة من القديسين قدر لهم الله ان يحكموا العالم — اقول ان ذاك التمجيد قـــد سيطر ايضاً على المهجرات الى اميركا التي بدأت بالآباء الحجاج لعام ١٦٢٠ . وقد شكل ذاك الذي يجوز لنا ان ندعوه بالدين الاميركي المعاصر ، واصل واحتضن تلك الميزة التي تعطي الانسان الانكليزي حتى الآن عدم مبالاته السياسية الخاصة ضماناً هو ديني في جوهره ، وتضرب جذوره في تربة الجبرية . ولقـــد مارس الفيثاغوريون ايضاً السلطان السياسي « وهـــذا امر لم يسبق له مثيل في التاريخ الديني للعالم الكلاسيكي » ومارسوه بغية ترقية غاياتهم الدينية ومناصرتها ، وقد سعوا سعياً حثيثاً ان يمدوا بمجالات حركة تطهيرهم من مدينة الى اخرى . ونحن نجد في كل مكان آخر ومذاهب فردية تسود في دول فردية ، وقد ترك كل واحد منها الآخر حراً في واجباته الدينية ولم يهتم بشأنه او يبالِ ، ولكننا هنا ، وفقط هنا نجد طائفة من القديسين الذين بزوا في طاقتهم العملية العقائد الاورفية القديمة وتجاوزوها ببعيد ، كما بزت الاستقلالية المقاتلة وفاقت روح حروب الاصلاح الديني .

•

ولكن في تربة التطهير تكمن بذرة العقلانية منذ زمن ، وبعد ان يطوي الزمان عددا قليلًا من الاجيال المتحمسة ، وتنبجس هذه البذرة وتسيطر العقلانية في كل مكان . وهذه هي الخطوة من كرومويل الى هيوم . ولا تصبح المدن بصورة عامة ، ولا حتى المدن الكبرى ، بل انما يصبح فقط عدد قليل من المدن مسرحاً للتاريخ العقلاني — اثينا سقراط ، وبغداد العباسيـــة ولندن وباريس القرن الثـــامن عشر . ويصبح « التنوير » كليشة العصر . وتنبثق الشمس —

ولكن ما هو ذاك الشيء الذي يجـلي السماء من الوعي التنديدي ليمهد الطريق للشمس ؟

ان العقلانية تدل على الايمان بمعلومات الفهم التنديدي « المعلومات الصادرة من « العقل » » وحده . لقد كان بمقدور الناس ان يقولوا في الربيـع الحضاري « Credo quia absurdom » وذلك لأنهم كانوا متأكدين بان الممكن ادراكه وغير الممكن ادراكه هما معاً جزءان ضروريان من العالم — فالطبيعة التي صورها غيوتو والتي اغرق فيها المتصوفون انفسهم ، يستطيـع العقل ان ينفذ اليها فقط الى الحد الذي تسمح له بالالوهية به . ولكن الآن غيرة خفية تلد بفكرة اللامعقول — الذي بوصفه غير قابل للادراك ، هو لذلك معدوم من كل قيمة . وقد يسخر منه جهاراً على انه خرافة او خزعبلة ، او يهزأ به سراً بوصفه ميتافيزيقا .

فالفهم المقرر تقريرا تنديدياً هو وحده الذي يمتلك قيمة . وما الاسرار سوى شواهد على الجهل ودلائل على الجهالة . ويدعى الدين الجديد العديم الاسرار في ارقى امكاناته بالحكمة ، وكهنته هم الفلاسفة ، واشياعه هم الناس « المثقفون » . والدين القديم ، على حد زعم ارسطو ، هو امر لا يستغنى عنه بالنسبة لغير المثقفين وحدهم ، ونظرته هذه هي نظرة كونفشيوس وغوتاما بوذا وليسنغ وفولتير . والناس يبتعدون عن الحضارة « عائدين الى الطبيعة » لكن هذه الطبيعة ليست شيئا ما قد خبر خبرة حية ، بل انها شيء ما برهن عليـــه ، شيء ما ولد من العقل ، وهو يتناول العقل فقط — انها طبيعة لا وجود لها اطلاقا في نظر الفلاح ، طبيعة لا يرهبها الانسان ابدا ، لكنه يوضع فيها فقط في حال من الحساسيـة . فالدين الطبيعي ، والدين العقلاني والاعتقاد بالله وحده وانكار الوحي والانظمة الدينية Deism — كل هذه ليست ميتافيزيقا معاشة ، بـل انها ميكانيكا مدركة دعاها كونفوشيوس « بقوانين السماء » وسماها الميلينيون بـ . . . . لقد كانت الفلسفة فيما مضى خادمة للتدين المتسامي ووصيفة له ، ولكن الآن تأتي الحساسية ،

ولذلك يتوجب على الفلسفة أن تصبح علمانية كالابستميلوجيا ونقد الطبيعة والقيم . ولا شك انه كان هناك شعور بان هذه الفلسفة ، حتى في هذه الحال ، لم تكن شيئاً سوى دغماتية مخففة ورقراقة ، وذلك لان الفكرة القائلة بان المعرفة المجردة كانت امراً ممكناً بالذات ، فكرة تشتمل على اعتقاد . ولقد حيكت المناهج من بدايات مضمونة ظاهرياً ، ولكن في المدى الطويل كانت النتيجة تتمثل بالقول « بالطاقة » بدلاً من « الله » و « بحفظ الطاقة » بدلاً من «السرمدية». ونحن نجد في جميع العقلانية الكلاسيكية الاولمبوس ، وفي العقلانية الغربية دوغما الاسرار المقدسة . وهكذا فان فلسفتنا الغربية تتأرجح يمنة ويسارا بين الدين والعلم التقني ، وهي تعرف على هذا الشكل او ذاك وذلك حسبا يكون واضع التعريف ، أكان لا يزال في هذا الواضع بعض من اثر كهنوتي ، ام كان خبيراً مجرداً وتقنيا في الفكر .

ان النظرة الى العالم Weltansschauung ، هو تعبير مميز خاص لشعور واع منار موجه من الفهم التنديدي ويتطلع حوله في عالم ـ ضوء لا اله له او فيه ، وحينما يجد ان مدركات الحس لا تتلاءم والعقل البشري السليم ، عندئذ يعامل الحس كأنه « امرأة سليطة كاذبة » . اما ذاك الذي كان في احد الايام اسطورة ـ اي لب الواقعي ـ قد اخضع الآن لمناهج ما تعرف بالـ Euhemerism [1] . ولقد قام يوهميروس العلامة قرابة عام ٣٠٠ ق. م. « وفسر » الالهة الكلاسيكية للجمهور قائلا بان هذه قد خدمت فيما مضى

---

(١) Euhemerism : النظريـة التي اوجدها Euhemerus وهو فيلسوف من جزيرة صقلية عاش في القرن الرابع ق. م ، وقال في نظريته بان آلهة الميثالوجيا كانت اناساً فانين ألهوا .

ـ المترجم ـ

بصورة جيدة كتلك ، وهذه العملية تحدث على هذا الشكل او ذاك في كل عصر من « عصور التنوير » . ولدينا نحن تفاسيرنا اليوهميروسية : فالجحيم هو ضميرنا المذنب ، والشيطان هو الرغبة الشريرة ، والله هو جمال الطبيعة ، ونحن نشاهد النازع ذاته يعلن عن نفسه وذلك حينما نرى ان نقوش القبور الاتيكية قرابة عام ٤٠٠ لا تستنزل الهة — المدينة اثينا بل الهة « ديموس » — وهي بهذه المناسبة قريبة من الهة العقل اليعاقبة . وكونفوشيوس يقول « السماء » بدلاً من شانغ — تي ، وهذا القول يعني انه يؤمن فقط بقوانين الطبيعة . وكان « تجميع » الكونفوشيون للكتابات الدينية الصينية وتبويبهم لها عملاً جباراً من اعمال اليوهميروسية ، حيث اتلف واقعاً جميع الكتب الدينية القديمة تقريباً بكل ما للائتلاف من معنى حرفي ، اما فضلاتها فأخضعت لتزوير عقلاني . ولو كان بامكان المنورين من قرننا الثامن عشر ، ان يقوموا بما قام به اولئك الكونفوشيون ، فانهم كانوا لاشك قد عالجوا تركتنا الغوطية بالاسلوب ذاته الذي عالج به اولئك التركة الصينية . فكونفوشيوس سداة ولحمة ينتمي الى « القرن الثامن عشر » الصيني . ويقف لاوتسي (الذي كان يحتقر كونفوشيوس) في منتصف الحركة الطاوية التي تجلت عليها بعض سمات البروتستنتية والتطهير والزندقة بدورها ، وكلتاهما قد نشرتا اخيرا اسلوب عالم عملي يرتكز على نظرة ميكانيكية متناً وحاشية الى العالم . ولقد طرأت على كلمة Tao في المرحلة المتأخرة زمناً في الصين التبدلات المستمرة ذاتها في محتواها الاساسي ، وفي الاتجاه الميكانيكي ذاته ، وكذلك كانت حال كلمة « لوغوس » في تاريخ الفكر الكلاسيكي ابتداء بهرقليط حتى بوسيدونيوس ، وكما كانت حال كلمة « الطاقة » في المرحلة الواقعة بين عصر غاليليو وعصرنا نحن اليوم . فذاك الذي كان فيما مضى اسطورة مقولبة بقالب عظيم ، وكان مذهباً ، يدعيان في هذا « الدين » دين الناس المثقفين » طبيعة وفضيلة — ولكن هذه الطبيعة هي نظام ميكانيكي معقول ، وهذه الفضيلة هي المعرفة . وكونفوشيوس وبوذا ، وسقراط وروسو

جميعهم متفقون على هذا الامر . فلدى كونفوشيوس القليل من الصلاة ، او التأمل في الحياة بعد الموت. ولكن ليس لديه اي شيء من الوحي او الالهام او الاعلان الالهي . فان يشغـــل المرء نفسه كثيراً بالقرابين والطقوس ، فعندئذ سيوصم بانعدام الثقافة وباللامعقوليـــة ، وغوتاما بوذا ومعاصره ماهافـيرا Mahavira مؤسس طائفة الجانتس (الهندية) Jainism — وقد تحدر كلاهما من العالم السياسي للغانج الاسفل وشرقاً من ميـدان الحضارة البرهمية — اقول ان هذين لم يعترفـا ، كما يعرف كل انسان ، بفكرة الله ولا بالاسطورة ولا بالمذهب . والقليل من تعاليم بوذا الحقيقية يمكن ان تثبت صحة انتسابه اليـه — وذلك لانه كله يتبدى بالوان دين — الفلاحين الذي جاء فيما بعد وعمد باسم بوذا — ولكن هناك فكرة من فكره المتعلقة « بالنهوض المشروط » ، والتي لا ترقى الى صحة انتسابها اليه الشبهات ، وهذه هي فكرة اصل الالم الناشيء عن الجهل — اي الجهل « بالحقائق النبيـلة الاربـع » . فالنرفانا ، بالنسبة لهم ، هي انعتاق عقلاني مجرد ، وتنطبق تماما على الاكتفاء الذاتي « Autarkeia » والرفاه Eudaimonia او الغبطة لدى الرواقيين . انها (اي النرفانا — المترجم) ذاك الحـال من الفهم والشعور الواعي اللذين لا تعود توجد معهما كينونة .

ويكون المثل الاعلى للمثقفين ، في هذه المراحـــل ، هو الحكيم Sage . فالحكيم يعود الى الطبيعة — الى فرني Ferney او ارمون فيـــل ، الى الحدائق الاتيكية او الغابات الهندية — وهذه هي اشد الوسائل عقلانية لكون المرء ابناً لمدينة عظمى . والحكيم هو الانسان ذو الوسيلة الذهبيـة . ونسكه يقوم على تخفيض فطين لقيمة العالم لصالح التأمل . فحكمة عصر التنوير لا تتدخل ابداً في المواساة والراحة . والاخـــلاق مع الاسطورة العظمى كي تسندها ، هي دائما تضحية ، ومذهب حتى الحدود النهائية للتقشف ، وحتى الموت ، ولكن الفضيلة مع الحكمة تركب ظهرها هي نوع من متعة خفية ، وانانية عقلانيـــة فوق

المرهفة . وهكذا يصبح المعلم الاخلاقي الذي يكون خارج نطاق الدين الحقيقي مادياً وما بوذا وكونفوشيوس وروسو ، بالرغم من كل نبل فكرهم المنتظمة سوى قادة المادية وعظامها ، كما وان حذلقة حكمة - الحياة السقراطية هي امر كؤود لا يغلب .

والى جانب هذه الفلسفة الكلامية (اذا جاز لنا استعمال هذه الكلمة) للعقل الصحيح ، يجب ان يكون هناك بالضرورة تصرف عقلاني للمثقفين . فالتنوير الغربي هو من اصل انجليزي ومن ابوين بيوريتانيين . وتنبع عقلانية القارة الاوربية باكملها من لوك Locke . وقد نشأ في المانيا ، تبايناً والعقلانية ، الاتقياء الورعون Pietists (هرنهوت ١٧٠٠ ، وشبينر ، وفرنكه واوتنغر في فرتنبورغ) وفي انجلترا النظاميون Methodists (وسلي الذي « ايقظه » هرنهوت عام ١٧٣٨) . وهنا نرى لوثر وكلفن يعودان الى الحياة من جديد - اذ نظم الانكليز فوراً انفسهم واعدوها لحركة عالمية ، بينما فقد الالمان ذواتهم داخل جمعيات المعتزلة في وسط اوربا . ونحن نجد انداداً في الاسلام لهؤلاء في التصوف الذي هو ليس من اصل « فارسي » بل من اصل آرامي مشترك وقد انتشر في القرن الثامن وعم كامل اقطار العالم العربي . والاتقياء او النظاميون هم ايضا الوعاظ المنود العوام الذين كانوا يعظون قبل عصر بوذا بوقت قصير التحرر من دورة الحياة (سانسارا) بواسطة الانغماس في ذاتية الآتمان والبراهمان. ولكن لاوتسي وتلاميذه هم ايضا اتقياء او نظاميون ، وكذلك ايضاً الرهبان المتسولون الكلبيون - بالرغم من عقلانيتهم ، والوعاظ المتجولون والمربون الرواقيون ، والقساوسة المنزليون والمعرفون في العصور الهيلينية المبكرة زمناً . زد على ذلك ان التقى قد يسمو فيبلغ ذروة الرؤيا العقلانية ، حيث يعتبر سويدنبورغ مثله العظيم في هذا ، كما وان التقى هو الذي خلق للرواقيين والمتصوفين عوالم كاملة من الوهم والخيال ، والذي بواسطته كانت البوذية مستعدة

لاعادة تشييد ذاتها بوصفها مهايانا Mehayana . وبوسع البوذية او امتداد الطاوية Taoism في دلالتيها الاصليتين يشابهان قريب الشبه توسع الطائفة النظاميــة في اميركا ، كما وان بلوغ كل منهما مرحلة نضوجــــه الكامل في ذينك الاقليمين (الغانج الاسفل وجنوبي نهر يانغ – تسي كيانغ) لم يكن من ثمار الصدفــة ، اذ ان هذين الاقليمين كانا مهدي الحضارتين اللتين اشتقا منهما .

-٦-

وبعد مضي قرنين من الزمن على ولادة حركة التطهير ، بلغ المفهوم الميكانيكي للعالم ذروته . واصبح هذا المفهوم دين العصر البالغ النفوذ والواسع السلطان . وحتى اولئك الناس الذين كانوا لا يزالون ورعين متدينــين وفق المفهوم القديم التدين ، و « مؤمنــــين بالله » فانما كانوا فقط يخطئون في فهم العالم حيث كان شعورهم الواعي يتأمل في نفسه على صفحة مرآته . فالحقائق الدينية كانت دوماً داخل فهمهم حقائق ميكانيكية ، وكانت عادة استعمال الكلمات التقليدية وحدها هي التي تعطي بصورة عامة الطبيعة رواسب من لون اسطورة ، هذه الطبيعة التي كان ينظر اليها في الواقع نظرة علمية . ان الحضارة والابداع الديني هما دائما وابدا رديفان مترادفان . وكل حضارة عظمى تبدأ بموضوع جبــار ينشأ من الريف السابق للحضرية ، وينفذ هذا الموضوع في مدن الفن والعقل ، وينتهي بمادية نهائية في المدن – العالمية . ولكن حتى الاوتار الاخــيرة هي بصورة حازمة دقيقــة داخل مفتاح الكل . فهناك نظريات ماديــة صينية وهندية وكلاسيكية وعربية وغربيـــة ، وكل واحدة من هذه ليست سوى الحزين الاصلي من اشكال الاسطورة الذي نقي من عناصر الخبرة والرؤيا التأمليـــة ، ونظر اليه نظرة

ميكانيكية . فالكونفوشية كما ناقشها عقلانيا يانغ - تشو ، بت فيها وفق هذا المفهوم . ولم يكن منهاج اللاكاياتا Lakayata الا مدأ في اجل الاحتقار لعالم جرد من نفسه ، هذا الاحتقار الذي خاصة مشتركة بين غوتاما بوذا وماهافيرا والاتقياء المعاصرين ، الذين قد استخلصوه بدورهم من الحاد السانخيا Sankhya . وسقراط هو شبيه بوريث السفسطائيين وبالجد الاعلى للطوافـــين الكلبيين ، وبالمرتابين البايرهونيين Pyrrhonian [١] . وكل هؤلاء هم ظواهر تدل على تفوق عقل المدينة العظمى وسلطانه ، هذا العقل الذي انهى اللاعقلاني من الامور الى الابـــد ، والذي يحتقر اي شعور واع لا يزال يعرف او يعترف بالاسرار والغوامض . لقد كان الناس الغوطيون يجفلون عند كل خطوة امام ما لا يسبر غوره وما يبعث المزيـــد من الرعب ، كما هو لا يزال معروضاً في الحقائق الدغماتية . ولكن حتى الكاثوليكي اليوم قد بلغ نقطة اصبح عندها يشعر بان هذه الدوغمات هي تفسير منهاجي لأخبية الكون . فالاعجوبة ينظر اليها اليوم على انها حادثة من مرتبـــة ارقى ، ويعبر احد الاساقفة الانكليز عن اعتقاده بامكانية تولد القوة الكهربائية وقوة الصلاة في منهاج طبيعي متجانس واحـد . فالايمان هنا انما هو ايمان بالطاقه والمادة ، وحتى لو استخدمت الكلمات التالية : « الله » و « العالم » و « العناية الالهية » و « الانسان » .

والمادية الفاوستية هي ، ايضاً ، فريـدة في نوعها ومستقلة قائمة بذاتها وفق المفهوم الأضيق لهذه الكلمة . ففيها قد بلغت النظرة التقنية الى العالم الاكتمال . فالعالم باجمعـه هو منهاج ديناميكي ، صحيح ودقيق ، ومرتب ترتيباً رياضياً ، وقابل لأن يسبر تجريبـــة حتى اسبابه الاولى ، وان يثبت رقمياً كي يستطيع الانسان السيطرة عليه - وهذا هو ما يميز « عودتنا الخاصة الى الطبيعـة » عن

---

(١) Pyrrho : مؤسس مدرسة فلسفة ارتيابية في اليونان القديمة .

- المترجم -

جميع الآخرين فالمبدأ القائل « المعرفة هي فضيلة » مبـــدأ آمن به ايضاً كونفوشيوس وبوذا وسقراط ، ولكن « المعرفة قوة » هي شبه جملة لا تمتلك معنى الا داخل المدينة الاوربيـــة الاميركية فقط . فهنا تعني « العودة الى الطبيعة » استئصال جميع القوى التي تقف بين الذكاء العملي وبين الطبيعة ـ ففي كل مكان آخر قد قنعت المادية بان تقرر (بواسطة التأمل او المنطق ، او بواسطة ما يقتضيه الموضوع) وحدات بسيطة مفترضة يعلل عرضها السببي كل شيء دون ان يترك اية فضلة من الاسرار ، وحيث يكبح الكائن الماوراء الطبيعـــة نظراً للافتقار الى المعرفـــة . ولكن الاسطورة العقلانية العظمى ، اسطورة الطاقة والكتلة هي في الوقت ذاته فرضية علمية عاملة واسعة . فهي ترسم صورة الطبيعة بذاك الشكل الذي يمكن الانسان من استخـــدامها . « فيُمكنـــك » Mechanized عنصر المصير فيمسي تطوراً وتطويراً وتقدماً ، وبوضع داخل نقطة ثقل المنهاج ، والارادة هي عملية زلالية ، وجميع عقائد الوحدانيـــة والداروينيـــة والفلسفة الوضعية Positivism هذه ، وما لم يرق به الى الاخلاقية اللياقة او الاهلية التي هي مشعل رجال الاعمال الاميركيين والساسة البريطان والماديين ـ التقدميين الالمان على حد سواء ـ كل هذا يتضح في النهاية على انه ليس صورة كاريكاتورية رسمها الانسان العقلاني لمبـــدأ التبرير القديم بواسطة الايمان .

ولا تكتمل المادية دون حاجتها بـين حين وآخر ، الى التفريج عن التوتر العقلاني بواسطة اخلاء السبيل امام صيغ الاسطورة ، عن طريق القيام بطقوس من بعض نوع ، او بواسطة التمتع بخفة روح باطنية بفائن اللاعقلاني واللاطبيعي والشنيع ، وحتى اذا ما اقتضت الحاجة ، بالسخيف والغبي الاخرق . وهـذه النزعة الواضحة بما فيه الكفاية ، حتى بالنسبة لنا ، في ازمان منغتسي Mengtse « ٣٧٢ - ٢٨٩ » وفي عصور الجمعيات الاخوية البوذية الاولى ، هي موجودة

ايضاً ، ولها ايضا المغزى ذاته ، في الهيلينية حيث تعتبر هذه النزعة فيها ميزة رئيسية . وقد قام قرابة عام ٣١٢ العلماء الشاعريون من طراز كالياخوس في الاسكندرية باختراع مذهب سيرابيس Serapis وزودوا هذا المذهب باسطورة متقنة الصنع محكمة . وقد كان مذهب ازيس في روما الجمهورية شيئاً ما يختلف اختلافاً شديداً عن كل من مذهب عبادة الامبراطور الذي خلف ازيس ، وعن دين ازيس العميق في جديته في مصر ، والحق ان ذاك المذهب كان تسلية ولهوا دينيين للمجتمع الراقي ، حيث كان يستثير احياناً سخرية الجمهور ، وقد ادى احيانا اخرى الى فضائح اجتماعية واغلاق مراكز المذهب . وكان التنجيم الكلداني في تلك الايام « موضة » بعيدة كل البعد عن الاعتقاد الكلاسيكي الاصيل بالاوراكل ، وعن الايمان المجوسي بجبروت الساعة . لقد كان استرخاء وتسليا بالقول القائل « لنزعم او لنتظاهر » . وفوق هذا كان هناك الأفاكون والانبياء والمزورون الذين كانوا يتجولون وينتقلون من مدينة الى مدينة محاولين بطقوسهم المنتفخة ادعاء ان يقنعوا انصاف المثقفين ويستثيروا فيهم اهتماماً مجدداً بالدين . وبالمثل لدينا اليوم في العالم الاوروبي الأميركي تدليس الثيوصوفيين والسحرة ، والعلم الأميركي المسيحي ، وبوذية قاعات الاستقبال الكاذبة ، والاعمال الدينية من فن وحيلة ، وهذه انشط في المانيا مما هي حتى في انكلترا ، التي تمون عاطفة مجموعات ومذاهب غوطية او كلاسيكية متأخرة زمناً او طاوية . فنحن نجد في كل مكان لهواً وعبثاً باساطير لايؤمن بالواقع بها احد ، وتذوقاً لمذاهب يؤمل بانها قد تملأ الخواء الباطني . اذ ان الاعتقاد الصحيح هو الايمان بالذرات والارقام ، ولكن هذا يستوجب حيل الحواة وخزعبلات السحر كي تجعله امراً مطاقاً على المدى الطويل . ان المادية هي ضحلة ومستقيمة ، ولكن الدين الكاذب الساخر هو ضحل وغير مستقيم . وكون هذا الاخير امراً ممكناً اطلاقاً يرمز الى روح بحث جديدة اصيلة تعلن عن نفسها اولاً بهدوء ، ولكن سرعان ما تصرح عن ذاتها

بعدئذ بتأكيد وصراحة داخل الشعور الواعي المتمدن .

وسأدعو الطور التالي بالتدين الثاني . وهذا يظهر في جميع المدنيات حالمـــا تشكل هذه ذواتها تشكيلاً كاملاً على هذا الشكل وتبدأ بالعبور ببطء ودون ما شعور الى الوضع اللاتاريخي حيث لا تعود الحقبات الزمانية تملك اي معنى . « ولذلك فيما يتعلق بالمدنية الغربية فانه لا يزال يفصلنا الكثير من الاجيال عن هذا المحط الزمني » فالتدين الثاني هو النسخة طبق الاصل الضرورية القيصرية التي هي الدستور السياسي الختامي للمدنيات المتأخرة زمناً ، ولذلك فان هـذا التدين يصبح منظوراً في العصر الاوغسطسي من المدنية الكلاسيكية ، وقرابة عصر شي – هوانغ – تي في الصـين . وتفتقر كلتا الظاهرتين هاتين الى القوة الابداعية للحضارة المبكرة زمناً . ولكن لكلتيهما ، بالرغم من هذا عظمتاهما . فعظمـــة التدين الثاني تتمثل في تقوى عميقة تملأ الشعور الواعي – انها التقوى التي كان لها عميق الاثر في هيرودوت حينما شاهدها في المصريين « المتأخرين زمناً » ، وتؤثر في الاوروبيين الغربيين حينما يلمسون آثارها في الصين والهند والاسلام . اما عظمة القيصرية فتتجلى في جبروتها الطليق من كل قيد ، جبروت وقائعها الضخمة الهائلة . ولكن لا يوجد في ابداعات هذه التقوى ولا في شكل الامبراطورية الرومانية اي شيء اصلي وتلقائي ، فليس هنا من شيء قـد بني ، ولا من فكرة حسرت القناع عن نفسها – ان كل ما هو هنا يبدو فقط كأن ضباباً قـــد انقشع عن الارض فاظهر انقشاعه الاشكال القديمة بصورة ملتبسة في البدء ، لكنها سرعان ما اخذت تتزايد جلاء ووضوحاً . فمادة التدين الثاني هي فقط مادة التدين الاول الاصيل والفتي – لكنها خبرت وعبر عنها خبرة وتعبيراً مخالفين لخبرة الاول والتعبير عنه . فالتدين الثاني يبدأ بذبول العقلانية ذبولاً يجعلها عاجزة عديمة الحيلة ، ومن ثم تصبح اشكال الربيع الحضاري مشهودة منظورة ، واخيرا يعود كامل عالم الدين البـدائي الذي كان قد تقهقر متراجعا امام الاشكال العظمى للايمان

المبكر ، الى صدر الصورة ، ويعود قويا متنكرا بزي المذهب التوفيقي المألوف ، والموجود في كل حضارة تبلغ هذا الطور .

ان كل « عصر تنوير » ينطلق من تفاؤل العقل غير المحدود – ويكون دائماً منخرطاً في سلك نموذج الميغالوبوليتي – حتى يبلغ ارتيابية تساوي في كمالها ذاك التفاؤل . امـــا الشعور الواعي ، السيد ذو السلطان والذي تفصله جدران من التكلف والتصنع عن الطبيعة الحية وعن مـــا حوله وتحته من ارض ، فانه لا يعترف بوجود اي شيء خارج دائرة ذاته . فهو يطبق النقد على العالم الخيالي الذي طهره من خبرة – الحس اليومية ، ويتابع عمله على هذا المنوال حتى يجد آخر النتائج واشدها مراوغة ودهاء ، انها شكل الشكل – انها نفسه : اي لا شيء . وبهذا تكون امكانات الفيزياء بوصفها اسلوباً تنديدياً لفهم العالم قد استهلكت واستنزفت ، وهنا يعرض الجوع الى الميتافيزيقا نفسه من جديد . ولكن ليس اللهو الديني للمثقفين والعصبات المتشربة بالاداب ، وحتى اقل من هـــذه ليس العقل ، هو الذي يزود التدين الثاني بقوى النشوء ، بـــل ان منبعه هو الاعتقاد الساذج الذي ينشأ تلقائياً ودون ان يشعر بـــه احد بين الجماهير ، الاعتقاد بان هناك بعض نوع من دستور صوفي للواقع (حيث تعتبر فوراً البراهين الشكلية من جهة الواقع مجدبة وعقيمة ومتعبة وشعوذة كلمة) بالاضافة الى حاجة – قلب ساذجة سذاجة ذاك الاعتقاد ومستجيبة للاسطورة مع مذهب ما ، ولكن اشكال اي من الاثنين لا يمكن ان ترى مسبقاً ، وحتى اقل من هذا ان تختار – فهي تتبدى من ذواتها ، وامـــا فيما يتعلق بنا ، فنحن لا نزال بعيدين بمراحل عنها . ولكن آراء كومت وسبنسر ، والمادية ووحدانية الكون والداروينية التي اثارت افضل عقول القرن التاسع عشر وهزتها حتى تلك الدرجة من الانفعال ، قد اصبحت النظرة الى العالم الخاصة بابناء العم .

لقد استنزفت الفلسفة الكلاسيكية طاقاتها قرابة عام ٢٥٠ ق.م. ومنذ ذاك التاريخ فما بعده لم تعد المعرفة خزيناً يجرب ويتزايد باستمرار ، بل اصبحت اعتقاداً

بوجود هذا الحزن ، وهذا يعود بصورة اساسية الى قوة العادة ، لكن المعرفة كانت لا تزال قادرة على الاقناع بفضل منهاجية قديمة احسن تجريبها . وكانت توجد في زمن سقراط عقلانية بوصفهـــا ديناً للمثقفين ، وكانت توجد معها وفوقها فلسفة ـ علماء ، وتوجد تحتها خزعبلات الجماهير وخرافاتها . وقد تطورت الفلسفة انذاك باتجـاه العقلانيـة وتطور المذهب التوفيقي المألوف نحو تدين محسوس ، وكانت النزعة هي ذاتها في كل من الفلسفة والمذهب التوفيقي ، ولم ينتشر الاعتقاد بالاسطورة والتقوى انتشاراً هابطاً الى تحت بل انتشاراً صاعداً الى فوق . وكان على الفلسفة ان تتلقى الكثير وتعطي القليل . ولقد بدأ الرواقيون داخل مادية السفسطائيين والكلبيين ، وشرحوا كامل الميثالوجيا وفق خطوط مجازية ، ولكن الصلاة لزفس على المائدة ـ وهذه من اجمل ذخائر التدين الثاني الكلاسيكي ـ يعود تاريخها الى زمن مبكر كزمن كلينثيس Cleanthes (قرابة عام ٢٣٢) وكانت توجد في زمن سولا رواقية خاصة بالطبقة العليا ، وكانت هذه دينية سداة ولحمـــة ، ومذهب توفيقي جمع بــــين المذاهب الفريجية Phrygian والسورية والمصرية وبين عدد لا يحصى من الاسرار الدينية الكلاسيكية التي كانت قـد اصبحت منسية تقريباً ـ وهـذا ينطبق تماماً عـلى تطور حكمة بوذا المنارة وصيرورتها هنايانا Hinayana العلماء ، وماهايانا الجماهير ، وينطبق ايضاً على العلاقة بين الكونفوشية العلمية وبين الطاوية بوصفها ماعون المذهب التوفيقي الصيني والتي سرعان ما اصبحت ذلك .

ومعاصرة و « الوضعي » منغ ـ تسي (٣٧٢ - ٢٨٩) بدأت فجأة حركة جبارة عمت شطر الكيمياء السحرية Alchemy وعلم التنجيم والسحر . ولقد كانت هذه الحركة ، منذ طويل زمن ، موضوعاً شيقاً للنقاش عما اذا كانت هذه شيئاً مـا جديداً ، ام كانت بمثابـة انتقاض جرح في الشعور الصيني القديم بالاسطورة ـ لكن لمحـة نلقي بهـا على الهيلينية تزودنا بالجواب . فهـذا المذهب التوفيقي يظهر « في وقت واحد » في التدين الكلاسيكي وفي الصين والهند وفي

الاسلام الشعبي المألوف وهو يبدأ دائماً مرتكزاً على عقائد عقلانية ـ الرواقيون لاوتسي ـ بوذا ـ وينفذها بدوافع فلاحيــة وربيعية حضارية واجنبية وبكل نوع آخر من الدوافع التي يمكن ان يدركها العقل . فمنذ قرابة عام ٢٠٠ ق.م اخذ المذهب التوفيقي الكلاسيكي ـ ويجب الا نخلط بينه وبـين ذاك المذهب الذي نجم فما بعد عن التشكل المجوسي الـكاذب ـ بتجميع الدوافع من الاورفية ومن مصر وسوريا ، وابتداء بعام ٦٧ ق.م ادخل الصينيون البوذية الهندية على الشكل الشعبي المألوف للماهايانا ، كما وان فاعلية الكتابات المقدسة بوصفها سحراً ، وشخصيات بوذا كتمائم ، كان يعتقد بها بانها هي الاعظم ، نظراً لاصلها الغريب . وقد اختفت عقيدة لاوتسي الاصليـة بسرعة فائقة . وفي بداية ازمان الهـان (قرابة عام ٢٠٠ ب.م) لم تعد جحافل سن « ممثلي الاخلاق » واصبحت كائنات لطيفة . فلقد عادت آلهة الريح والسحاب والرعد والمطر . وقد اكتسبت جمهرة المذاهب التي افادت بانها قادرة على طرد الارواح الشريرة بمساعدة الالهة ، مقراً لها وموطىء قدم . وفي ذلك الوقت نشأت هناك ـ ودون ريب عن بعض من مبدأ اساسي سابق للفلسفة الكونفوشية ـ اسطورة بان ـ كو ، التي تحدرت من مبدئها الاصلي سلاسل من الاباطرة الاسطوريين . وكما نعرف فان فكرة ـ اللوغوس اتبعت خطاً مشابهاً لهذا في تطورها .

فنظرية سلوك الحياة وممارسته اللذين بشر بها بوذا جاءا نتيجة لسآمة العـــالم وفتوره وثمرة للاشمئزاز العقلاني ، وكانا لا يعنيان اطلاقاً بأية صلة للقضايا الدينية . ومع هذا فان بوذا نفسه كان قد اصبح في مستهل بداية الحقبة « الامبراطورية » الهندية (٢٥٠ ق.م) شخصية ـ اله مستقرة ، وكانت نظريات ـ النرفـــانا المدركة فقط من العلماء ، تخلي مكانها اكثر فاكثر ، لعقائد محسوسة صلبة عن السماء والجحيم والخلاص ، والتي على الارجح قد اقتبست ، كما حدث في المذاهب التوفيقية الاخرى ، من منبع اجنبي ـ واعني بهذا الرؤيا الفارسية . ولقد كانت توجد حتى في زمن آسوكا ثماني عشرة ملة بوذية . ولقد وجدت عقيدة المهايانا في

الخلاص اول بشير عظيم بها في شخص العالم الشاعر اسفاغوشا (قرابة عام ٥٠ ق م) ووجدت اكتمالها الخاص في ناغاريونا Nagarjuna (قرابة عام ١٥٠ ب.م) ولكن قـــد عادت ، وجنباً الى جنب وتعاليم كهذه ، مجموعة الميثالوجيا الهندية الاصلية بأكملها الى التداول بين الناس فدينا الفيشنو Vishnu والشيفا Shiva كانا في عام ٣٠٠ ق.م قد استقرا من قبل داخل شكل محدد معين ، واكثر من ذلك داخل شكل مذهب توفيقي ، وهكذا فان اساطير كرشنا وراما قد نقلت آنذاك الى الفيشنو . ونحن نصادف المشهد ذاته في الامبراطورية المصرية الجديدة ، حيث شكل آمون طيبة مركزاً لمذهب توفيقي واسع ، ونصادفـــه ايضاً في العالم العربي في الحقبة العباسية ، حيث دفع الدين الشعبي بصوره للمطهر والجحيم والدينونة الاخيرة والكلمة السماوية ومحمد – اللوغوس ، وجنياتـــه وقديسيه وخيالاته واشباحه بالاسلام الفطري كلياً إلى مؤخرة الصورة .

ويبقى في ازمان كهذه وجود لحفنة من الاذهان السامية كسنيكا ، معلم نيرون ، ونموذجه المضاد بسلوس Psellus ، الفيلسوف والمربي الملكي وسياسي حقبة القيصرية في الامبراطورية البزنطية وكمارك اوريل الرواقي وآسوكا البوذي اللذين كانا بنفسيهما القيصرين ، وكالفرعون آمنحوتيب الرابع (أخناتون) الذي اعتبرت تجربته العميقة هرطقة ، ودفع بهـــا كهنة – آمون الاشداء الى العدم – وهـــذه مغامرة كان على آسوكا ايضاً ان يواجههـــا ، دون شك ، من البراهميين .

ولكن القيصرية نفسها قـــد انجبت ، في الامبراطورية الصينية كمـــا في الامبراطورية الرومانية ، مذهب عبادة الامبراطور ، وبهـذا ركزت المذهب التوفيقي وكثفته . والحق انه لرأي سخيف وباطل هو ذاك الرأي القائل بأن تبجيل الصينيين للامبراطور الحي هو أثر من آثار الدين الغابر . اذ انه لم يكن يوجد اطلاقاً ، طيلة سياق الحضارة الصينية اي امبراطور . فحكام الدول كانوا

يلقبون بـ وانغ (وهذا يعني ملكاً) ، فلقد كتب منغ تسي قبل اقل من قرن تقدم الانتصار النهائي لأوغسطس الصيني – وكتب بمزاج قرننا التاسع عشر – قائلاً : « ان الشعب هو اهم عنصر في البلاد ، وتليه بالاهمية آلهـة التربة والغلال النافعة ، واقل هـذه وذاك اهمية هو الحاكم » . ولا شك ان كونفوشيوس ومعاصريه هم الذين قاموا بتجميع وتصنيف ميثالوجيا الاباطرة القدماء ، وقد أملت المقاصد العقلانية لهؤلاء شكلها الدستوري والاجتماعي والاخلاقي ، وقد اقتبس اول قيصر صيني من هذه الاسطورة كلاً من اللقب وفكرة – المذهب . فالارتقاء بالنـاس الى مرتب الألوهية هو عودة الدورة الكاملة الى الربيع الحضاري ، حيث كانت الآلهة تحول الى ابطال – تماماً كهؤلاء الاباطرة بالذات وكشخصيات هوميروس – وهذا التحويل هو سمة مميزة لجميع الاديان تقريباً ، الاديان من المرتبة الثانية هذه . فلقد أله كونفوشيوس بالذات عام ٥٧ ب.م واصبح له مذهب رسمي ، وكان بوذا قد بلغ هذه المرتبة قبله بزمن طويل . كما وان الغزالي (قرابة ١٠٥٠) الذي ساعد على احلال « التدين الثاني » في العالم الاسلامي ، هو اليوم وفق الاعتقاد الشعبي ، كائن الهي ، ومحبوب بوصفه قديساً وعضيداً . ولقد كان يوجد في مدارس الفلسفة الكلاسيكية مذهب لافلاطون ، وآخر لابيقور ، كما وان زعم الاسكندر بتحدره من صلب هرقل ، وادعاء قيصر بتحدره من رحم فينوس قد أديا في النهاية الى نشوء مذهب ديفوس Divus حيث تطل فجأة ومن جديد برؤوسها تخيلات اورفية غارقة في القدم واديان عائلية ، كما هي الحال تماماً في مذهب هوانغ – تي الذي يحتوي على مسحات من اقدم ميثالوجيا صينية .

ولكن تبدأ فوراً مع حلول مذهب عبادة الامبراطور المحاولة لوضع التدين الثاني داخل تنظيمات ثابتة تكون دائماً مهما سميت – مللاً ، انظمة ، كنائس – اعادة متيبسة لبناء ما كان فيما مضى اشكالا حية للربيع الحضاري ، وعلاقتها بهذه الاشكال هي نفس العلاقة القائمة بين « السلالة » و « المنزلة » .

وهناك اشارات من هذه النزعة حتى في الاصلاحات الاوغسطينية ، بما لهذه الاصلاحات من احياء اصطناعي لمذاهب مدن طواها الموت منذ زمن طويل ، كطقوس الفراترس أرفاليس Fratres Arvales . ولكننا لا نرى الا مع الاديان الغامضة الكلاسيكية ، او حتى مع المنزوية ، ان تنظم الطائفة او الكنيسة خاصة يبدأ ثم ينهي تطوره فيا يتلوه من سقوط للدين الكلاسيكي . والملمح المطابق لهذا يتمثل في الدولة الدينية التي اقامها ملوك الكهنة في طيبة في القرن الحادي عشر . والشبيه الصيني لهذا هو كنائس الطاو في حقبة الهان ، وخاصة تلك منها التي أسسها شانغ – لو والتي كانت سبب العصيان المرعب الذي قام به ذوو العمائم الصفر Yellow Turbans (وهذا يذكرنا بالثورات الريفية الدينية في الامبراطورية الرومانية) وقد دمر هذا العصيان أقاليم بأكملها وانتهى الى خلع سلالة الهان وسقوطها . ونحن نستطيع ان نجد النسخة طبق الاصل تماماً عن كنائس الطاوية المتنسكة هذه في دول – الرهبان البزنطية المتأخرة زمناً كدولة ستوديون Studion ، وفي مجموعة الاديرة المستقلة في آثوس والتي أسست عام ١١٠٠ ، وهذه الاديرة توحي بالبوذية كأحسن شيء يستطيع ان يوحي بها .

ويتدفق ، في النهاية ، التدين الثاني ليصب في اديان الفلاح . وهنا يختفي ثانية تماماً التعارض القائم بين التقوى الكوسموبوليتية والريفية ، كاختفاء التعارض بين الحضارة البدائية والحضارة الارقى . أما ما يعنيه هذا فان مفهوم الفلاح الذي بحثناه في فصل سابق يخبرنا بذلك . فهنا يصبح الدين كلياً دون ما تاريخ ، فحيث كانت العقود من السنين تشكل حقبة ، تمر الآن قرون كاملة تافهة مجدبة غير ذات اهمية او بال ، ولتقلبات التبدلات الاصطناعية هنا فائدة واحدة ، اذ انها تري نهائية الوضع الباطني التي لا يمكن تبديلها . ولا يهم أبداً كون الكونفوشوسية قد ظهرت في الصين (عام ١٢٠٠) بوصفها شيئاً مغايراً

لعقيدة ـ الدولة الكونفوشوسية ، كما لا يهمنا ايضاً متى ظهرت ، وعما اذا كانت قد صادفت النجاح او الفشل . وبالمثل ، فان كون البوذية الهندية قد أصبحت منذ زمن طويل ديناً شعبياً متعدد الالهة ، وسقطت امام الينو ـ براهمية (التي عاش المها العظيم سنخارا قرابة عام ٨٠٠) فهذا كله لا يعني شيئاً ، كما وانه ليس من الاهمية ان يعرف تاريخ انتقال هـــذا الاخير الى هندية براهما والفيشنو والشيفا . فان هناك دائمـــاً وستكون هناك ابداً حفنة من الناس العقلانيين والمفكرين على أرفع صورة والمتكلين على ذواتهم تماماً كالبراهميين في الهنـــد والماندرين في الصين والكهنة المصريين الذين أثاروا دهشة هيروديت وذهوله . لكن دين الفلاح بالذات هو مرة اخرى دين بدائي متنا وحاشية ـ انه مذاهب الحيوان للسلالة السادسة والعشرين المصرية ، ومركب البوذية والكونفوشوسية والطاوية الذي يشكل دين الدولة في الصين ، واسلام الشرق هذا اليوم . اما دين الازتيك فانه تقريباً موضوع آخر ، لانه يبدو ، كـما وجده كورتيز ، بعيداً حقاً عن دين المايا الشديد في كثافته العقلانية .

- ٧ -

ان دين اليهودية Jewery هو ايضاً دين ـ فلاح ، وذلك منذ زمن يهوذا بن هاليفي الذي كان (كمعلمه المسلم الغزالي) ينظر الى الفلسفة نظرة كامـــلة في ارتيابيتها ، وقد رفض في الكوتزاري Kuzari (١١٤٠) ان ينيط بها اي دور ما عدا دور خادمة اللاهوت الارثوذكسي ووصيفته . وهـــذا ينطبق تماماً على المرحلة الانتقالية من الرواقية الوسطى الى شكل الحقبـــة الامبراطورية التي جاءت فيما بعد ، وعلى انطفاء التأمل الصيني تحت وطأة سلالة الهان الغربية الحاكمة .

وبعد فان شخصية موسى بن ميمون لهي اكثر اهمية ، اذ انه قام في عام ١١٧٥ بجمع كامل مادة دين اليهودية ، بوصفها شيئا ثابتا وتاماً في كتاب ضخم عظيم من طراز لي – كي Li - Ki الصيني ، وذلك بغض النظر كلياً عما اذا كان بعض عناصر هذه المادة لا يزال يحتفظ باي معنى ام لا . وليس دين اليهودية ، في هذه المرحلة او في اية مرحلة اخرى ، ديناً فريدا في نوعه ، بالرغم من انه قد يبدو كذلك من وجهة النظر التي اتخذتها الحضارة الغربية استناداً الى اسبابها الخاصة . كما وانه ليس من المستغرب على دين اليهودية ، ان يكون اسمه في حالة من تبدل دائم في معناه ، دون ان يشعر بهـــذا التبدل من ينتمي الى هـذا الدين ، وذلك لان الشيء ذاته قد حدث له في تاريخه وفارس . ففي الحقبة « الميروفنجية » ، وهذه الحقبة تشمل تقريبا القرون الخمسة الاخيرة قبل ميلاد المسيح – انشأت اليهوديـــة وفارس وطورت من المجموعات العشائرية امتين من الطراز المجوسي ، دون ان تكون لهاتين الامتين ارض او وحدة اصـــل ، ولهما « وحتى بهذه السرعة » خاصة طابع حياة الغيتو التي لا تزال باقية على حالها ولم يطرأ عليها اي تبدبـــل بالنسبة ليهود بروكلـــين وللبرسيس « الفرس – المترجم » في بومبـاي على حد سواء .

وقد انتشر جغرافياً هذا الاتحاد الذي لا ارض له ، في الربيع الحضاري (في القرون الخمسة الاولى من الحقبة المسيحية) من اسبانيا حتى شانتونج . وهذا كان عصر الفروسية اليهودية ، وكان زمن الازدهار « الغوطي » لزخم ابداعه الديني . والرؤى التي جاءت فيما بعد ، والمشنا وايضا المسيحية البدائية (التي لم تنبذ الا بعد زمن تراجان وهدريان) هي جميعا منجزات لهذه الامة . وانه لمن المعروف جيداً ان اليهود كانوا في تلك الايام فلاحين وصناعاً وسكاناً في بلدان صغيرة وكانت « الاعمال الكبرى » في ايدي المصريين واليونان والرومان – اي في ايدي اعضاء العالم الكلاسيكي .

وتبدأ ، قرابة عام ٥٠٠ ، الحقبة « الباروكية » اليهودية التي تعود المراقبون

الغربيون على اعتبارها ، ومن طرف واحد فقط ، بوصفها جزءاً من صورة عصور امجاد اسبانيا .

وهنا اخذ الاتحاد اليهودي ، شأنه في ذلك شأن الاتحاد من فارسي واسلامي وبيزنطي ، يتقدم نحو دراية متحضرة عقلانية ، ومنذ ذاك الحين فصاعداً اصبح سيداً لاشكال اقتصاد ـ المدن وعلومها . فتراغونا وتوليدو وغرناطة هي بأغلبيتها مدن يهودية . كما وان اليهود يشكلون عنصراً اساسياً في المجتمع المغربي الراقي . وقد اذهلت اشكالهم المنجزة ، وروحهم وفروسيتهم النبلاء الغوطيين من الصليبيين الذين حاولوا تقليدهم ، زد على ذلك انه لولا الارستقراطية اليهوديـــة لما دار دولاب للدبلوماسية وتسيير دفة الحرب والادارات العامة في المدن المغربية . وقد كانت كل ذرة من هذه الارستقراطية اصيلة تماماً كالارستقراطية الاسلامية . وكما انه كانت هناك في الجزيرة العربية اناشيد Minnesang يهودية ، كذلك فانه قد كانت هنا آداب علم منـار . ولقد جرى (قرابة عام ١٢٥٠) اعداد الكتاب الجديد لألفونسو العاشر عن الكواكب بارشاد الرابي اسحق حسان وتوجيه العلماء اليهود والاسلام كما والمسيحيين ايضاً ، وبتعبير آخر نقول بان هذا الكتاب كان انجازاً مجوسياً وليس من منجزات فكر ـ العالم الفاوستي . ولكن اسبانيا ومراكش لم تكونا تضمان سوى جزء جد ضئيل من الاتحاد اليهودي ، وحتى هذا الاتحاد نفسه لم يكن له فقط معنى دنيوياً بل كان له « وبصورة رئيسية » مغزى روحي . وداخل هذا الاتحاد حدث ايضا حركة تطهير رفضت التلمود ونبذته وحاولت ان تعود الى التوراة المجردة . فطائفة اليهود القرائين Qaraites التي تقدمها الكثيرون من الرواد ، قد نشأت قرابة عام ٧٦٠ في شمالي سوريا ، وفي المنطقة ذاتها التي انجبت ، قبل هؤلاء بقرن واحد من الزمن ، محطمي الصور والتماثيل والايقونات ، ومن ثم التصوف الاسلامي ـ وهذه ثلاث نزعات مجوسية لا يخطىء البصر القرابة الباطنية التي تربط بينها جميعا . وقد ناهضت الارثوذكسية والتنوير معاً طائفة القرائين ، كما ناهضتا المطهرين في جميع الحضارات الاخرى .

قد ودوت الانفجارات التلمودية المضادة لهذه الطائفة ابتداء من قرطبة وفيتز Fez حتى جنوبي جزيرة العرب وبلاد فارس . ولكن ظهرت في تلك الحقبة ايضا تلك التحفة الرائعـــة من التصوف العقلاني ـ التي كانت ثمرة « التصوف اليهودي » وتذكر المرء في كثير من فقراتها بسويدنبورغ ـ واعني بهذه اليسيرا Yesirah المتناسبة في فكر جذرها الكابالية ورمزية الصورة البزنطية ، والسحر المعاصر « للمسيحية الاغريقية من الدرجة الثانية » ، وبالمثل كذلك للدين الشعبي من الاسلام .

ولكن خلق وضع جديـــد كل الجدة عندما وجد فجأة الجزء الغربي من الاتحاد اليهودي نفسه ابتداء من قرابة عام ١٠٠٠ ، داخـــل ميدان الحضارة الغربية الفتية .ٰ وكان اليهود آنذاك ، كما كان الفرس والبزنطيون والمسلمون ، قد اصبحوا متمدنين وكسموبولتيين ، وذلك حينما كان العالم الجرماني الروماني يعيش على ارض خالية من البلدان او المدن ، وكانت المستوطنات التي شقت (او ستشق) طريقها الى الوجود وانتصبت حول الاديرة والاسواق لا تزال تفصلها اجيال عديدة عن امتلاك نفوس خاصة بها . وبينما اليهود قد اصبحوا منذ زمن فلاحين ، كانت لا تزال الشعوب الغربية شعوبا بدائية تقريبا ، ولم يكن باستطاعة اليهودي ان يدرك الباطنية الغوطية ، الماثلة في القلعة والكاتدرائية ، ولا المسيحي الارفع منزلة منه ، ان يفهم ذكاء اليهودي التهكمي تقريبا ، وخبرته المتقنة الصقل في ميدان « فكر المال » . وهكذا كانت البغضاء والاحتقار المتبادل هما الناظمين لعلاقات الواحد منهما بالآخر ، وهذا الامر لم ينشأ عن تمييز عنصري بل انما نشأ عن الاختلاف في المرحلة التي كان يجتازها كل منهما . ولقد قام الاتحاد اليهودي ببناء احيائه اليهودية الخاصة داخل جميع المستوطنات والبلدان الريفية . فالحي اليهودي يتقدم على البلدة الغوطية بالف عالم . وكذلك ايضا المستوطنات الرومانية ، في ايام يسوع ، تنتصب داخل القرى القائمة على بحيرة جنيسارت .

ولكن هذه الشعوب الغربية الفتية التي كانت بالاضافة الى ذلك مرتبطة بالتربة

وبفكرة الوطن ، قـد رأت في هذا « الاتحاد » الذي لا وطن له ، والمتماسك ، لا نتيجة للتنظيم الحازم المتبصر بالعواقب ، بل نتيجة حافز هو بكليته حافز ميتافيزيقي ولا شعوري – وتعبير جد بسيط ومباشر عن الشعور المجوسي بالعالم – اقول رأت فيه شيئا ما خطراً وغير قابل للفهم والادراك . وفي هذه المرحلة ولدت اسطورة اليهودي التائه . فلقد كان يهم كثيرا والى حد بعيد الراهب الاسكتلاندي أن يزور مثلاً ديراً في لومبارديا ، ولكن سرعان ما كان الحنين الى الوطن يعود بـه الى موطنه ، ولكن عندما كان احد المعلمين اليهود (الرابي) من مدينة ماينز – التي كانت في عام ١٠٠٠ مركزاً لأهم مدرسة تلمودية في الغرب – أو من مدينـة سارنو يسافر الى القاهرة او ميرف Merv أو البصرة ، فأنه كان يشعر بكل حي يهودي يحل فيه على انه في وطنه . في هذا التماسك الصامت تكمن فكرة الأمـة المجوسية – بالرغم من ان الغرب المعاصر لم يكن يدري بالواقعة المبررة أن الدولة والكنيسة والشعب يشكلون كلًا كاملًا متكاملًا في نظر اليهود ويونان تلك الحقبـة والفرس والاسلام . ولقد كان لهذه الدولة تشريعها الخاص بها ، وكانت لها حياتها العامة الخاصة (وهذا ما لم يفهمه المسيحيون ابداً) ، وكانت تحتقر العالم المحيط بها والشعوب المضيفة بوصفها واقعة خارج حدودها ، وكانت تلك المحاكمة التي انتهت الى طرد سبينوزا واوريل اكسوتا Uriel Acosta محاكمة حقيقية لتهمة الخيانة العظمى – وهذه حادثـــة لا تستطيع الشعوب المضيفة ان تدرك معناها العميق . وفي عام ١٧٩٩ قامت المعارضة التلمودية بتسليم السنيور سلمان ، المفكر البارز بين الماسيديم ، الى حكومة بطرسبورغ ، بالرغم من أن هذه هي حكومة دولة اجنبية .

ولقد فقدت اليهودية من المجموعة الاوروبيـة الغربية علاقتها تماما بالارض المفتوحة الطليقة التي كانت لا تزال موجودة في الحقبة المغربية من اسبانيا . فلم يعد هناك من فلاحين يهود . وكان اصغر حي يهودي ، مهما كان بؤسه وتعاسته ، شظية من مدنية عالمية عظمى ، وكان سكانه « كسكان الهند والصين المتخشبتين »

منقسمين الى طبقات اجتماعية – فكان الرابي هو البراهمي او الماندرين في الغيتو - وكان جمهور – الكولي Coolie (العتالين) يتميزون بذكاء متمـــدن بارد متفوق ، وذوي نظرات لا تزوغ ابداً عن الاعمال من تجارية وغيرها . ولكن هذه الظاهرة ليست فريــدة في نوعها ، وذلك اذا كان حسنا التاريخي يستوعب الافق الاوسع ، لأن جميع الشعوب المجوسية كانت في هذا الوضع منذ حقبـــة الحروب الصليبية . فالفرس في الهنـد يمتلكون السلطان نفسه تماما في ميدان الاعمال الذي يمتلكـــه اليهود في العالم الاوروبي ، والذي للارمن واليونان في جنوبي اوروبا . وهذه الظاهرة ذاتها تتبدى في كل حضارة اخرى ، وذلك عندما تندفع داخل بيئة اصغر عمرا – ولنتأمل حال الصينيين في كاليفورنيـا (حيث نجدهم هدفا لمناهضة السامية في اميركا الغربيـة) وفي جزيرة جاوه وسنغفورة ، وفي حال التجار الهنود في افريقيا الشرقية ، وحال الرومان في العالم العربي المبكر زمنا . وكانت الاوضاع في هذا المثل الاخير (الرومان - المترجم) معاكسة تماما لأوضاعنا اليوم ، فيهود تلك الايام كانت حالهم كحال الرومان ، فلقد احس الآراميون نحوهم بعاطفـة من بغضاء عجيبة تشبه الى حد بعيد لبغضائنا لهم نحن معشر الاوروبيين . كما وان ثورة عام ٨٨ التي قتل خلالها السكان الساخطون ، باشارة من متروداش ، مئـــة الف من رجال الاعمال الرومان في آسيا الصغرى كانت مذبحة حقيقية منظمة .

ويقوم فوق هذه التناقضات ، التناقض في العنصر الذي تحول بصورة متناسبة من الاحتقار الى البغضاء ، وذلك عندما لحقت الحضارة الغربية بركب المدنيـة واصبح « الفرق في العمر » اقل مما كان عليه ، وقد تجلى هذا الفرق في طريقـة الحياة والسلطان المتزايد للذكاء . ولكن كل هذه الاشياء لا تمت باية صلة للشعارات السقيمة « كالآرية » « والسامية » والتي اقتبسناها من علم اشتقاق اللغات . فالفرس والارمن « الآريون » لا يمكن لنا ان نميز اطلاقاً بينهم وبين اليهود ، كما وانـه لا يوجد ، حتى في جنوبي اوروبا والبلقان ، اي فرق جسماني تقريباً بين السكان

المسيحيين واليهود . فالامة اليهوديـــة ، هي ككل امة اخرى من امم الحضارة العربيـــة ، هي ثمرة رسالة هائلة جبارة ، قد طرأ على هـــذه الامة ، وخلال الحملات الصليبية ، تغيير بعد تغيير نتيجة للزيادات والانشقاقات الجماعية . فهناك جزء من اليهود تنطبق اوصافـــه الجسمانية على سكان القوقاز المسيحيين ، وآخر على اوصاف التتار في جنوبي روسيا ، وجزء كبير ثالث منهم تنطبق اوصافه الجسمانية على مغاربة شمالي افريقيا . فما كان ذا اهميـــة في الغرب اكثر من اي تمييز آخر ، انما هو الفرق بين المثـــل الاعلى للعنصر في الربيع الحضاري الغوطي الذي انجب نموذجه البشري ، وبين المثـــل الاعلى لليهودي السفردي Sephardic الذي شكل ذاته اولاً داخل الغيتو في الغرب ، وكان بالمثل ثمرة تربية روحية خاصة وتدريب يخضع لظروف خارجيـة بالغة في شدتها وقسوتها – ولا شك انه يتوجب علينا ان نضيف الى هذين الدور الفعال للارض والشعب المحيطين به وردود افعاله الميتافيزيقية الدفاعية ضد هذا الدور ، وخاصة بعد ان جعل فقدان اللغة العربية هذا الجزء من الامة عالما مستقلا قائما بذاته . وهذا الشعور بالفرق القائم لدى الطرفـــين يزداد سطوة ونفوذا بازدياد احساس الفرد بامتلاكه للمزيد من الاصالة . وان الافتقار الى العنصر (العرق) وليس اي شيء غيره ، هو الذي يجعل العقلانيين – من فلاسفة وعقائديين وطوباويين – عاجزين عن عمق فهم هذه البغضاء الميتافيزيقية ، التي هي الفرق في النبض بـين تياري كينونة ، فرق يتبدى على صورة تنافر لا يطاق او يحتمل ، انه بغضاء قد تصبح فاجعة مفجعة لكل من الطرفين (اليهود والاوروبيين – المترجم) ، وانها البغضاء ذاتها التي سيطرت على الحضارة الهندية بدفعها الهندي الاصيل ذي العنصر للوقوف ضد السودرا Sudra . وقد كان هذا الفرق في العصور الغوطية فرقا عميقا ودينيا ، وكان الاتحاد اليهودي بوصفه دينا هدفا للبغضـاء وموضوعا لها ، وهو لم يصبح ماديا الا مع بدايـــة المدنية ، حيث شرع يهاجم الجوانب العقلانية والاعمالية (من تجارية ومالية وغيرها - المترجم) من اليهود ، اذ وجد

فجأة الغرب نفسه يجابه ندا له يتحداه في هذه المجالات .

ولكن اعمق عناصر التفرقة والمرارة كان عنصراً لاقت مأساته الكاملة اقل قــدر من الادراك والفهم . فبينما عاش الانسان الغربي (بكل ما لكلمة عاش من معنى) تاريخه منذ ايام الاباطرة السكسون حتى هذا اليوم ، وعاشه بوعي لا مثيل له في اية حضارة اخرى ،كان الاتحاد اليهودي قد توقف عن صنع التاريخ اطلاقاً . فمشاكله كانت قد حلت ، وشكله الباطني قد اكتمل اكتمالاً نهائياً ولا يحتمل اي تبديل او تغيير . فلم تعد القرون تعني اي شيء بالنسبة له ، كما بالنسبة للاسلام والكنيسة اليونانية والفرس ، ونتيجــة لذلك لم يستطع اي انسان ينتمي باطنيا للاتحاد ان يبدأ حتى بفهم الانفعال او العاطفة التي كان الفاوستيون يعيشون بها ويخبرون بواسطتها الحقبات القصيرة المزدحمة التي اتخذ خلالها تاريخهم ومصيرهم المنعطفات الحاسمة - وهذه الحقبات تتمثل في مطلع الحملات الصليبية ، وفي الاصلاح الديني والثورة الفرنسية وحروب التحرير الالمانيــة ، وفي كل منعطف في وجود الشعوب المتعددة . فكل هــذه الامور كانت ، بالنسبة الى اليهودي ، تقع ثلاثين جيـلا الى الوراء . فخارجه كان ينساب تاريخ من اعظم طراز ، ويتدفق شاقاً مجراه ، وكانت الحقبات تأخذ بعضها برقاب بعض ، وكان كل قرن يشهد بتبدلات انسانية جوهريــة ، لكن كل شيء في الغيتو وفي نفوس سكانه الدخــلاء ، كان جامدا صامتاً . وحتى عندما كان اليهودي يعتبر نفسه عضواً من الشعب الذي هاجر الى وسطه ، وكان يشارك في قدره من خير وشر - كما حدث في الكثير من البلدان عام ١٩١٤ - فانه لم يعش هذه الخبرات بوصفها خبرات خاصة به ، بل كان موقفه منها موقف النصير او المشايع ، فهو كان يحاكمها ويحكم عليها كمتفرج ذي مصلحــة فيها ، ومن هنا كان يتوجب على اعمق معاني الصراع أن تبقى محجبة عن ناظريه . فلقد قاتـل جنرال يهودي من سلاح الفرسان في حرب الثلاثين عاما (وهو يرقد اليوم في قبر من قبور المقبرة اليهودية

في براغ) - ولكن ما الذي كانت تعنيه له افكار لوثر او ليولا ؟ وما الذي فهمه البيزنطيون - وهؤلاء اقرباء قريبون لليهود - من الحروب الصليبية ؟ ان امورا كهذه هي من الضرورات الفاجعة للتاريخ الارقى الذي يتوقف على مجاري - حياة الحضارات الافرادية ، وهذه الامور قد كررت ذواتها مراراً . زد على ذلك ان الرومان ، الذين كانوا في عصر المسيح شعباً دبت فيه الشيخوخة ، لربما لم يستطيعوا ان يفهموا الهدف الاساسي لليهود في محاكمة يسوع او القصد وراء ثورة بارخوشبا . ولقد اظهر العالم الاوروبي الاميركي عدم ادراك مطلق لثورتي الفلاحين في كل من تركيا (١٩٠٨) والصين (١٩١١) ، فكون الحياة والفكر الباطنيين لكل من هذين الشعبين - ونتيجة لذلك كون حتى آراءهما في الدولة والسيادة - (الخليفة في تركيا وابن السماء في الصين) من طرازين يختلفان كلياً عن طراز حياة العالم الاوروبي الاميركي وفكره ، وهما كتابان مغلقان له ، لذلك لم يكن بمستطاع هـذا العالم ان يتبصر في مجرى الاحداث او ان يركن مسبقاً اليها . ان بمقدور العضو من الحضارة الغربية ان يكون مشاهداً متفرجاً ، ولذلك بامكانه ايضا ان يكون مؤرخاً وصافاً للماضي ، لكنه لا يستطيع ابداً ان يكون رجل دولة ، ان يكون انساناً يشعر بان المستقبل يعمل وينشط في داخله . فهو اذا لم يكن يملك القوة المادية ليعمل داخل اطار حضارته الخاصة ، فيتجاهل او يدير امور ابناء الحضارة الغربية عنه (كما حدث طبعا ومرارا مع الرومان في الشرق الفتي ، او دزرائيلي في انكلترا) فعندئذ سيقف عديم الحيلة وسط الاحداث .

لقد كان الانسان الروماني او اليوناني يرسم دائما عقلانيا اوضاع حياة مدينته داخل الحدث الغريب ، كما وان الانسان الاوربي الحديث ينظر دائما الى المصائر الغريبة عنه على اضواء الدستور والبرلمان والديموقراطية ، بالرغم من ان تطبيق فكر كهذه على الحضارات الاخرى هو امر مضحك ولا معنى له ، زد على ذلك

ان اليهودي من اعضاء الاتحاد يتتبع تاريخ الحاضر (الذي هو ليس سوى المدينة الفاوستية المنتشرة فوق القارات والمحيطات) بالشعور الاساسي للجنس البشري المجوسي ، حتى عندما يكون هو نفسه قانعا قناعة راسخة بان فكره ذو طابع غربي .

ولما كان كل اتحاد مجوسي لا ارض له او بلد ، وغير محدود جغرافيا ، لذلك فانه يرى ، بصورة لا ارادية ، في جميع الصراعات والخلافات المتعلقة بالفكر الفاوستية ، كلغة الأم ، العائلة الحاكمة ، الملكية ، الدستور ، عودة من الاشكال التي هي غريبة غرابة كلية عنه « ولذلك فهي شاقة ومتعبة ولا معنى لها » نحو اشكال تطابق طبيعته الخاصة . ومن هنا فان كلمة « الامية » ، أاقترنت هذه الكلمة بالاشتراكية او السلم العالمي ، او بالرأسمالية ، تستطيع ان تستثير حماسته واندفاعه ، ولكن ما يسمعه في هذه الكلمة هو جوهر اتحاده الذي لا ارض له او حدود جغرافية . فبينما نرى ان الصراعات الدستورية والثورات تعني في نظر الديمقراطية الاوروبية الاميركية تطوراً نحو المثل الاعلى المتمدن ، نراها تعني في نظره « وتعنيه دون ان يتحقق ابداً منه بصورة واعية تقريباً » انهيار كل شيء مخالفاً لاسلوبه الخاص . وحتى عندما تنهار داخله قوة الاتحاد ، وتجتذبه حياة الشعب المضيف اجتذاباً ظاهرياً يبلغ به درجة من وطنية مقنعة مؤثرة ، فانه مع هذا يناصر دائما من الاحزاب ذاك الحزب الذي تكون مقاصده الاقرب شبهاً من الجوهر المجوسي . ولهذا فانه في المانيا ديمقراطي ، وفي انجلترا « كالفارسي في الهند » امبراطوري « استعماري – المترجم » Imperialist . وانه سوء الفهم ذاته تماما الذي يتبدى عندما يقوم الاوروبيون الغربيون فيعتبرون ابناء تركيا الفتاة والاصلاحيين الصينيين ارواحاً من ارومة واحدة – اي « دستوريين » . فاذا كانت هناك قرابة باطنية ، فعندئذ يثبت الانسان حتى حيث يدمر ، اما اذا كان غريبا باطنيا ، فعندئذ سيكون تأثيره تأثيرا سلبيا حتى حيث تكون رغبته

رغبة انشائية . وما دمرته الحضارة الغربية بواسطة مجهودات الاصلاح من طرازها الخاص ، حيث كانت تمتلك قوة ، بالكاد يحتمل التفكير بامره ، كما وان اليهود كانوا بالمثـــل مدمرين حينما تدخلوا . ان مفهوم حتمية سوء التفاهم المتبادل هذا يؤدي الى البغضاء المرعبـــة التي تستقر عميقا في الدم وتتمكن من الطوابع المنظورة ، كالعنصر ، وصيغة الحياة والمهنة والنطق ، وتؤدي ، حيث تتوفر هذه الشروط ، الى دمار الطرفين وخواتمها والغلو الدموي .

وهذا الامر ينطبق ايضا ، وقبل كل شيء، على تدين العالم الفاوستي الذي يشعر بان هناك ميتافيزيقا غريبة تقوم في وسطه وتهدده وتكرهه وتحاول تقويضه . فياله من تيار من مد تدفق من خلال شعورنا الواعي ابتداء باصلاحات هيو اوف كلاني Hugh of Cluny والقديس برنار ومؤتمر لا تيران عام ١٢١٥ ، فلوثر وكلفن وحركة التطهير ، ومن ثم عصر التنوير ، وذلك كله عندما كان التاريخ الديني اليهودي قد انتهى جملة وتفصيلا ! ونرى داخل الاتحاد اليهودي الاوروبي الغربي يوسف كارو يعيد في كتابه شوليهان آروخ شرح مادة ابن ميمون بشكل آخر ، وهذا كان بالامكان القيام به ، وبالصورة الحسنة ذاتها ، في عام ١٤٠٠ او عام ١٨٠٠ ، اوكان بالامكان عدم القيام به اطلاقا . فبعد رسوخ الاسلام الحديث وعدم تغييره ، وثبوت المسيحية البزنطية وتوطدها منـــذ الحروب الصليبية « وبالمثل حتى في حياة الصين المتأخرة زمنا ومصر » تبدو كل هذه الامور اموراً شكلية لا تنطوي حتى على الاطعمة المحرمة واسرار الصلاة ، والحجب ، بـل تنطوي ايضا على الافتاء التلمودي الذي هو الشيء ذاته الذي كان يطبق طيـــلة قرون على الفنديداد في بومباي والقرآن في القاهرة . كما وان التصوف « الغربي — المترجم » Mysticism اليهودي « الذي هو تصوف — شرقي — المترجم — مجرد Sufism » قد بقي ، كالتصوف الاسلامي ، دون تبديل او تعديل منذ الحروب الصليبية ، وقد انجب في القرون الاخيرة ثلاثـــة قديسين اكثر ، وفق مفهوم

التصوف الشرقي – مع ان تعرفنا على هؤلاء كقديسين يستلزمنا ان نرى من خلال رواسب لون اشكال الفكر الغربي . فسبينوزا بتفكيره بالجواهر بدلا من الطاقات ، وبثنائيته المجوسية متنا وحاشية ، هو قابـــل بكليته ليقارن بالعلماء المتأخرين عن رفاقهم زمنا من علماء الفلسفة الاسلاميـة كالمرتضى والشيرازي . وسبينوزا ينتفع بافكاره من مخزونه الغربي الباروكي ، ويعيش ذاته داخل صيغة من تخيل لذاك التركيب « الغربي – المترجم » وبصورة كاملة الى حد تجعله يخدع حتى نفسه ، لكنه يبقى ، تحت سطح حركات نفسه ، ذاك الانسان المتحدر من اصلاب ابن ميمون وابن سينا والمنهاجية التلمودية « الاكثر هندسة » . وبعث في بعل شم Baal Shem مؤسس طائفة الماسيديم « والمولود في فولهينيا Volhynia قرابة عام ١٦٩٨ » مسيح حقيقي . فتجواله في عالم الاحياء اليهودية البولنديـة معلماً وواعظا وصانعاً للمعجزات ، يعان فقط بقصة المسيحية البدائية ، فهنا نشهد حركة تتدفق منابعهـا من التصوف المجوسي الكابالي ، حركة امرت ألباب جزء كبير من اليهود الشرقيين ، وكانت لا شك واقعة ذات اثر ونفوذ في التاريخ الديني للحضارة العربية ، ومع انها سارت في مجراها حتى نهايتـــه ، على الشكل الذي سارت وفقـــه ، وسط جنس بشري غريب عنها ، فانها بدأت وعاشت وانتهت دون ان يحس بوجودها هذا الجنس بصورة عمليـة . فالمعركة السلمية التي شنها بعل شم باسم حاول – الله ضد الفريسيين التلموديـين في عصره ، وشخصيته المشابهة لشخصيـة المسيح ، والثروة من الاساطير التي سرعان ما نسجت حول شخصه ، واشخاص تلاميذه – كل هذه الاشياء جادت بها نفس مجوسية صافية ، وهي في أعماقها غريبة علينا غرابة المسيحية البدائية نفسها . فعمليات الفكر في الكتابات الماسيدية هي عمليات غامضة غير مفهومة لغير اليهود ، وكذلك هي ايضاً طقوسهم ، اذ تنتاب البعض من طائفة الماسيديم ، اثناء قيامهم الانفعالي بشعائرهم هزات وانتفاضات ، بينما يأخـــذ البعض الآخر بالرقص كدراويش الاسلام . وقد قام احد تلامذة الزادقيـــة Zaddikism بتطوير تعاليم بعل شم

الاصلية ، والزادقيـــة هذه هي ايضا اعتقاد يقول بتتالي رسالات القديسين « الزادقيــين » الالهية وتتابعها ، وبأن مجرد مجاورة هؤلاء تعود على المرء بالخلاص ، وللزادقية وشائج واضحة من قربى بالمهدية الاسلامية ، واكثر من ذلك ، فهي وثيقة الصلة بعقيدة الامامة الشيعية ، حيث يتخذ « نور النبي » من الامام مقاما له ومقراً . وهناك تلميذ آخر يدعى سلمون ميمون – ولهذا سيرة شخصية عجيبة مدهشة Autobiography – وقد خطا سلمون فكريا من بعل ثم الى « كنت » Kant ، « الذي كان نوع فكره التجريدي يحظى بهوى شديد لدى العقول التلمودية » . ثم هناك تلميذ ثالث هو اوتوفاينِنجر Otto weininger الذي كانت ثنائيته الاخلاقية عقيدة مجوسية مجردة ، والذي كان موتـــه خلال صراع روحي ذي خبرة مجوسية بصورة جوهرية ، والحق ان موته هذا كان من انبل المشاهد التي يمكن للتدين المتأخر زمنا ان يعرضها . وقد يكون باستطاعـة الروس ان يخبروا شيئا من هذا النوع ، ولكنه ليس بمقدور النفس الكلاسيكية ولا الفاوستية ان تخبر مثله

وتصبح الحضارة الغربية بدورها في « عصر التنوير » ميغابولية وعقلانية ، وتمسي فجأة بمتناول ادراك الإنتلجنسيا من الاتحاد اليهودي . وهذا الاخــير (الاتحاد) الذي ارتقى وسط حقبة تنطبق بالنسبة لابنائه ، على الماضي البعيد ، ماضي مجري حياة سفردية تصرمت منذ زمن طويل ، فان مشاعر هؤلاء الابناء قد هزتها حتما احاسيس صدى هذا الماضي هزاً عنيفا ، لكن هذه الاصداء كانت من الجانب التنديدي والسلبي فقط ، وكانت النتيجة الفاجعة وغير الطبيعية لهذه ان جرف التماسك (اليهودي – المترجم) هذا التماسك الذي كان قد اكتمل تاريخياً وكان عاجزاً عن اي تقدم عضوي (حي) ، جرف فأمسى داخل الحركة الكبرى للشعوب المضيفة ، التي هزته وفككته ونثرته واتلفته حتى اعماقه . وذلك لان عصر التنوير كان يمثل ، بالنسبة للروح الفاوستية ، خطوة الى الامام على

دربها الخاص – وهي خطوة ، كانت لا شك ، فوق الانقاض والحطام ، لكنها مع هذا تبقى في اعماقها خطوة اثباتية ايجابية – بينما كان هذا العصر ذاته ، في نظر اليهود ، عصرا مدمراً فقط ، عصرا نسف التركيب الغريب عن اليهود ، نسفاً كاملا ، هذا التركيب الذي لم يدركوا له كنها ولم يفهموا منه سراً . وهذا هو السبب في اننا نرى مرارا وتكراراً مشهد عصر التنوير – وهذا مواز لوضع الفرس في الهند ، وحال الصينيين واليابانيين في الملة المسيحية والاميركيين الحديثين في الصين – نراه يدفع به حتى مذهب الكلبية Cynicism ، والالحاد الكامل ، ويقاوم دينا غريبا عنه ، بينما يستمر الفلاحون في ممارسة دينهم الشعبي الخاص ، غير متأثرين به . فهناك اشتراكيون (من اليهود – المترجم) ومع هذا لا يمسون المحرمات من المآكل ، ويحافظون على شعائر الصلوات الروتينية ، ويحملون الحجب ، ويقومون بكل هذه الامور بدقة صارمة كأنها دقة من اضناه الشوق او برحه القلق . ويتكرر ، في الواقع ، اكثر من هذا المروق الباطني من الاتحاد اليهودي بوصفه مذهبا – ويعرض علينا ذاك الطالب الهندي مشهدا مماثلا لهذا المشهد ، فذاك الطالب الهندي الذي اكتسب بعد دراسة جامعيــة للوك ومل ، احتقارا هازئا ساخرا لكل من المعتقدات الهندية والغربية معا ، يجب في النهاية ان تسحقه انقاض هذه المعتقدات وحطامها ، انقاض الهنديــة منها والغربية . فمنذ الحقبة النابليونيــة ، اخذ الاتحاد اليهودي المتمدن يتزج ، غير مرحب به ، « بمجتمع » المدن الغربية المتمدن – جديدا ، واخذ يقتبس مناهجها الاقتصادية والعلمية بتفوق الشيخوخة البارد وسلطانها . وبعد اجيال قليلة ، قام اليابانيون ، وهؤلاء هم ايضا عقل بالغ في القدم ، بالامر نفسه ، ومن الجائز ، انهم قد حققوا من النجاح فيه اكثر مما لاقاه اولئك . وهناك ايضا مثــل آخر يقدمه الينا القرطاجنيون : فهؤلاء الذين يعتبرون مؤخرة جيش المدينة البابلية ، والذين كانوا قد بلغوا شأواً رفيعا من التطور عندما كانت الحضارة الكلاسيكية لا تزال في طفولتها الاتروسكانية – الدوريــة ، قد انتهوا الى التسليم الهيلينية

المتأخرة زمنا – وتحجروا في دولة – ختام لكل ما هو متعلق بالدين والفن ، ولكنهم كانوا امهر بكثير من اليونان والرومان ، كرجال اعمال ، وكانوا مكروهين بقدر ما هم ماهرون .

والیوم فان هذا الشعب المجوسي ، « اليهودي – المترجم » باحيائه Ghettos ودينه ، مهدد بخطر التلاشي والزوال – والسبب في هذا يعود لكون الفلسفتين الميتافيزيقيتين لهاتين الحضارتين قد تقاربتا اكثر من الاول بكثير « فهذا امر مستحيل » ، بل يعود الى ان الطبقة العقلانية العليا من كلا الجانبين ، قد اخذت تكف عن كونها ميتافيزيقية اطلاقا . فلقد فقدت كل نوع من التماسك الباطني ، وما بقي من هذا التماسك فهو يتعلق فقط بالقضايا العملية . زد على ذلك ان الدور القيادي الذي اعتاد ان يقوم به هؤلاء القوم ، نتيجة لتدربهم الطويل على التفكير وفق المصطلحات والمفاهيم الاعمالية « من تجارية ومالية وغيرها – المترجم » ، اخذت اهميته تتضاءل يوما بعد يوم وبصورة مستمرة ، وبفقدانهم لهذا الدور سيفقدون آخر وسيلة فعالة للحفاظ على الاتحاد الذي تناثر اقليمياً مزقاً واجزاء . واللحظة التي تبلغ فيها المناهج المتمدنة للمدن العالمية الاوروبية الاميركية مرحلة نضوجها الكامل فعندئذ سيكون مصير اليهود – وعلى الاقل اليهود الذين يعيشون وسطنا « اما يهود روسيا فحالهم غير هذه الحال » قد انجز واكتمل .

ان للاسلام تربة يقف عليها . فلقد امتص عملياً الفرس واليهود والنساطرة والاتحاد اليعقوبي نفسه . كما وان « مخلفات » الامة البزنطية ، اهل اليونان الحديثين ، يقيمون في ارضهم الخاصة بهم ايضاً .

الفصل الحادي والعشرون

الدولة

(أ)

مشاكل المنازل (جمع منزله) ــ النبالة والكهنوت

- ١ -

هناك سر لا يسبر له غور للسيول الكونية التي نسميها بالحياة ، انه انفصالها الى جنسين Sexes . فهما يحاولان في مجاري ــ وجود عالم النبات المشدود الى الارض ، ان ينفصل الواحد منهما عن الآخر ، كما يعلمنا بذلك رمز الزهرة ــ فيصبح شيئاً ما هو هذا الوجود ، ويمسي الثاني شيئاً مــا يحافظ عليه ليستمر في سيره . ان الحيوانات هي عوالم صغيرة حرة وطليقة في عالم كبير ــ الكوني ــ مغلق بوصفه كوناً اصغر اقيم ضد الكون الاكبر . وحينما تفض مملكة الحيوان تاريخها ، يظهر ، اكثر فاكثر وبصورة حاسمة ، الاتجاه المزدوج للكيان المزدوج

المؤلف من الذكر والانثى نفسه ويعرض ذاته .

ان الانثى تقف اقرب من الذكر الى الكوني . وجذورها تضرب ، أعمق من جذوره ، في التربة ، وهي تشترك اشتراكاً مباشراً في الايقاعات الدورية العظمى للطبيعة . أما الذكر فهو أوسع حرية وانطلاقا منها ، وهو اكثر حيوانية وحركة - وذلك في ميادين الاحساس والفهم ، كما في غيرهـــا – وأشد تنبهاً وتوتراً .

ان المذكر يخبر المصير خبرة حية ، ويدرك السببية ، والمنطق السببي للمصير . اما الانثى فهي على العكس منه ، اذ انها هي نفسها المصير والزمان والمنطق العضوي للصيرورة ، ولهذا السبب بالذات ، فان مبدأ السببية ، مبدأ غريب ابداً .وذوماً عنها . وحينما حاول الانسان ان يعطي المصير شكلا محسوساً ، شعر به انه على شكل مؤنث وأسماه Moirai . Parcae , Norns فالاله الاسمى لم يكن ابداً بذاته مصيراً ، اذ كان اما ممثلا للمصير او سيداً له – تماما كالرجل الذي يمثل المرأة او يسيطر عليها . اما المرأة فهي بالفطرة عرافـــة ايضا ، وليس ذلك بسبب كونها تعرف المستقبـــل ، بل لانها هي المستقبل . فالكاهن يترجم فقط الاوراكل ذاتـــه ، والزمان هو الذي يتحدث بواسطتهـا .

ان الرجل يصنع التاريخ ، اما المرأة فهي التاريخ . وهنا وبوضوح غريب ، لكنه لا يزال مع هذا غامضا ، نمتلك معنى مزدوجاً لكل حدوث حي – فمن جهة نحس بدفق كوني على هذا الشكل ، ومن جهة اخرى تعود بنا سلسلة وقطار من الافراد المتعاقبين الى الاكوان الصغرى نفسها بوصفها اوعية هذا الدفق وحاوياته وحافظاته . ان هذا التاريخ « الثاني » هو التاريخ المذكر بصورة خاصة – انه تاريخ اشد وعياً واوسع حرية واشد تهيجا واضطرابا من التاريخ الآخر .

فهو يعود عميقا فيبلغ عالم الحيوان ، ويتلقى ارقى ما له من تعبـير رمزي وتاريخي - عالمي داخل بجاري - حياة الحضارات العظمى . اما تاريخ المؤنث فهو على العكس من هذا ، اذ انه التاريخ الاولي الخالد الامومي الشبيه بالنبات (وذلك لأن في النبات دائما شيئا ما انثوياً داخله) ، انـه التاريخ اللاحضاري لتعاقب الاجيال الذي لا يتبدل ابداً او يتغير بل يمر هامدا باطراد خلال كينونة كل انواع الحيوان والانسان ، وخلال الحضارات الافرادية التي امتد بها الاجل قليلًا من الزمن . وهو حين استذكارة مرادف للحيـاة نفسها . وهذا التاريخ ايضا لا تنقصـه معاركه ومآسيه . فالمرأة في حالة الوضع تناضل حتى تبلغ نصرها . ولقد كان الازتيك - رومان الحضارة المكسيكية - يكرمون المرأة حين يأتيها المخاض بوصفها محاربا يخوض معركة ، وكانت اذا ما توفيت وهي في هذه الحال ، يدفنونها وفق مراسم دفن البطل الذي خر صريعا في المعركة . ان السياسة في نظر المرأة تهدف ابدا ودوما الى غزو الرجل والاستيلاء عليه ، هذا الرجل الذي تستطيع بواسطته ان تصبح اماً لأطفال ، وتستطيع بواسطته ايضا ان تغدو تاريخا ومصيراً ومستقبلا . فهدف خجلها العميق ، ودهائها التكتيكي ، كان ولا يزال وسيبقى والد ابنها . اما الاب فهو على العكس منها ، اذ انه يريد ذاك الابن ، بوصفه ابناً له ووريثا وناقلا لدمه وتقاليده التاريخية .

وهنا نرى هذين النوعين من التاريخ يتصارعان داخل الرجل والمرأة بغيـة الاستئثار بالقوة والسلطان . فالمرأة قوية ، وكل ما هي انها تخبر الرجل والابناء فقط على ضوء علاقتهم بها وبدورها المقرر . اما الكائن المذكر ، فهو على العكس منها ، اذ ان هناك في داخله تناقضاً معينا ، فهو هذا الرجل ، وهو الى جانب ذلك شيء ما غيره ، شيء ما لا تستطيع المرأة ابدا ان تفهمه او تسلم به ، اذ انها تعتبره بمثابة سرقـة واعتداء على ما هو اقدس الاشياء في نظرها . وهذا السر والحرب الاساسية بين الجنسين قد بدأا منذ ان كان هناك جنسان ، وسيستمران

في قتال – صامت مرير غير متسامح لا يرحم – بينما يتابع الجنسان حياتيهما . وتوجد داخـــل تاريخ المؤنث ايضاً سياسات ومعارك وتحالفات ومعاهدات وخيانات . ويسود شعور – العنصر (العرق) من المحبة والكراهية ، والذي يولد في اعماق الحنين – الى العالم وغرائز التوجيه الاولية ، بين الجنسين – ويسود باكثر مما في التاريخ الآخر الذي يحدث بين الرجل والرجل الآخر من الفعالية الخطرة . فهناك اناشيد غنائية غرامية ، واناشيد غنائية حربية ، ورقصات حب ، ورقصات سلاح ، ونوعان من المأساة – عطيل ومكبث . ولكن لا يوجد اي شيء في عالم السياسي يمكن ان يقارن بانتقـام كليتمنسترا Clytaemnestra او كريمهلد .

وهكذا تحتقر المرأة ذاك التاريخ الآخر – اي سياسات الرجـــل – التي لا تستطيع ان تدركها ، والتي لا ترى فيها سوى انها تأخذ ابناءها منها . فما هي قيمة النصر في معركة تبيد الانتصارات في الف مرير من أسرة الولادة ؟ فتاريخ الرجل يضحي بتاريخ المرأة من اجـــل ذاته ، ولا شك ان هناك ايضا بطولة انثوية تدفع بالابنـــاء الى التضحية (كاترين سفورزا على اسوار امولا) ، ولكن بالرغم من هذا ، فانه قد كانت وتوجـــد ، وستوجد ابداً سياسة سرية للمرأة – وحتى للانثى من عالم الحيوان – وهذه السياسة تستهدف ابعاد ذكرها عن نوع تاريخه وان تنسجه جسدا وروحا في تاريخها الشبيـــه بالنبات ، تاريخ التتابع الجنسي – اي داخل ذاتها . ومع هذا فان كل ما ينجز في تاريخ الرجل ، انما ينجز على صيحات المعارك المرددة لشعارات الموقـــد والبيت والزوجات والاطفال والعرق وما يشابهها ، وكل ما له من هدف هو ان يصون ، يدرأ ، ويسند تاريخ الولادة والموت هذا . فالصراع بين الرجل والرجل ، انما ينشب بسبب الدم ، بسبب المرأة . فالمرأة بوصفها زماناً ، هي ذاك الزمـان الذي له اطلاقاً تاريخ .

والمرأة ، التي تمتلك عنصراً داخلها ، تشعر بهذا حتى حينما لا تكون تعرف

به . فهي مصير ، وتقوم بدور المصير . وهذا الدور يبـــدأ باحتراب الرجال واقتتالهم بغية امتلاكها – هيلين ومأساة كارمن وكاترين الثانية وقصة نابليون وديزيريه كلاري التي دفعت في النهاية ببرنادوت ليقف في معسكر اعـــداء نابليون – وهذا الدور ليس دوراً بشرياً فقط ، وذلك لان الاقتتال يبدأ تحت في عالم الحيوان ويملأ تاريخ جميع الانواع . ويبلغ هذا ذروته في سيطرة المرأة كأم او زوجة او محظية ، وفي مصير الامبراطوريات – هالجرد Hallgerd في اسطورة نجال Njal ، الملكة الفرنكية برونهلدي ، ومروتزيا التي اعطت السدة البابوية Holy See للذين وقع عليهم اختيارهـــا من الرجال . ان الانسان يرقى سلم تاريخه حتى يمتلك مستقبل بلد بين يديه – ثم تأتي المرأة وترغمه على ان يخر راكعاً على ركبتيه . والشعوب والدول قـــد تقتتل على المستقبل فتندثر وتمسي ركاماً ، لكن المرأة في تاريخها هي التي فتحت وغلبت . وهذا هو دائماً ، في نهاية المطاف ، هدف الطموح السياسي للمرأة ذات العرق .

وهكذا فان التاريخ معنيين ، ولا يجوز التجديف بأي منها . فهو إمـــا كوني ، واما سياسي ، وهو امـــا كائن ، او حافظ للكائن وصائن . وهناك نوعان من المصير ، ونوعان من الحرب ومن المأساة – نوع عام ، ونوع شخصي خاص . ولا يوجد اي شيء يستطيع ان يستأصل هذه الازدواجية من العالم . فهي جذرية واوجدت داخل جوهر الحيوان الذي هو كون اصغر ومشترك في الكوني معاً . وهي تظهر على جميع الارتباطات الهامـــة في شكل تضارب الواجبات الذي يوجد بالنسبة للرجال فقط ، ولا يوجـــد بالنسبة للنساء ، ولا يتم التغلب عليه في مجرى الحضارة الارقى ، بل انما يزاد في تعميقه فقط . وهناك حياة عامة وحياة خاصة ، وقانون عـــام وآخر خاص ، ومذاهب طائفية واخرى منزلية . والكينونة ، بوصفهـــا منزلة ، هي « شكل لائق » In form بالنسبة للتاريخ الواحد ، وبوصفها عنصراً ، سلالة ، هي ، في السيلان ، كنفسها ، التاريخ

الآخر . وهذا هو التمييز الجرماني القديم ، بـــين « جانب السيف » و « جانب المغزل » من قرابة الدم . ويجد المغزى المزدوج للزمان الاتجاهي اوفى تعبير له في فكر الدولة والعائلة .

ان تنظيم العائلة هو في المادة الحية ، مـــا هو شكل المنزل في المادة الميتة . واذا ما حدث تغيير في تركيب حياة العائلة ومغزاهـــا ، فعندئذ يتغير ايضاً مخطط البيت . وتنطبق على طريقة السكن الكلاسيكية عائلة العصب من الطراز الكلاسيكي . وهذه تدل بأكملها على المنزلة ، كما هي كائنة في المنا - والآن - اليوقليديتين ، وذلك كما كانت المدينة تدرك تماما على انها مجموعـــة من الاجسام الكائنة مباشرة . لذلك فان قرابـة الدم ليست ضرورية ولا كافية بالنسبة لها ، وهي تنتهي عند حد Patria Potestas « للبيت » . والام وفق هـذا المفهوم لا ترتبط باية وشيجة من قرابة عصب بذرية جسدها ، ومن جهة كونها مثـل ذريتها خاضعة لـ - Patria Potesta لزوجها الحي ، فانما هي فقط اخت عصب لاطفالها . ومن جهة اخرى فتنطبق على طريقة سكن « الاتحاد » عائلة الرحم المجوسية (مشباشا بالعبرانية) التي توسع بواسطة قرابة الدم الابوية والامومية معاً ، وتمتلك « روح » اتحاد صغير خاصة بها ، ولكن لاتمتلك رأساً خاصاً . ومما هو ذو مغزى ودلالة على انطفاء النفس الكلاسيكية وهمودها ، وتفتح الروح المجوسية وانطلاقها ، ان القانون الروماني ، في العصور الامبراطورية ، ينتقل من التركيز على قرابة العصب الى التركيز على قرابة الرحم . زد على ذلك ان قانوني جوستنيان ١١٨ ، و ١٢٧ ، المعدلين لقانون الميراث ، يؤكدان انتصار فكرة العائلة المجوسية .

ونرى على الجانب الآخر جماهير من الكائنات الفردية تتدفق عبوراً وتنمو وتمر وتزول ، لكنها تصنع . وكلما زاد الخفقان المشترك لهذه الاجيال المتعاقبة

صفاء وعمقا وقوة وثقة بـه ، يزداد تملكه من الدم والعرق . وتنشأ من اللانهائي عصبات من الناس لكل منها نفسها ، وتشعر بذواتها داخل موجة خفقان مشترك لكينونتها ككل - وهـــذه ليست طوائف - فكر كأنها الرهبانيات ، ولا نقابات صنعة او مدارس تعليم تشدها الى بعض حقائق مشتركة ، لكنها تعاهدات من دم في ملحمة الحياة المقاتلة .

وهناك اروال من كينونة هي في « شكل لائق » وفق ما لهذا الاصطلاح المستعمل في الرياضة من مفهوم . فميدان الخيول في سباق الحواجز هو في شكل لائق عندما تقفز القوائم بثقـة من فوق الحواجز ، وتضرب على سطحه بايقاع وقوة وثبات . وعندما يكون المصارعون ولاعبو الكرة في « شكل لائق » عندئذ تأتي اخطر الاعمال والحركات بيسر وسهولة طبيعية . ومرحلة الفن هي شكل لائق عندما تكون تقاليده هي الطبيعة الثانية ، كما الكونترپونيت لباخ . والجيش هو في شكل لائق ، عندما يكون كجيش نابليون في معركة اوسترليتز او جيش مولتكه في سيـــدان ، وان كل شيء آخر انجز في تاريخ العالم ، في الحرب ، وبمتابعة الحرب بواسطة الوسائل العقلانية التي نسميها سياسة ، وفي كل دبلوماسية ناجحـــة وتكتيك وستراتيجية ، وفي تنافس الدول او الطبقات الاجتماعية او الاحزاب ، هو عملياً ثمرة الوحدات الحيـــة التي وجدت ذواتها في شكل لائق .

ان الكلمة التي تعني تربية العنصر او الذرية هي كلمة « تدريب » وذلك في تباينها وكلمة تشكيل التي تعني خلق طوائف من الشعور الواعي على اساس من تعاليم وحيدة النسق او عقائد . فالكتب مثلاً هي عوامـل تشكيل ، بينما ان النبض المحس بـــه دائما وتناغم الوسط الذي يشعر المرء بنفسه داخله ويعيشها - كالراهب قبل سيامتـه او كالوصيف في الازمان الغوطيـــة المبكرة - هما مؤثرا تدريب . « فالشكل الحسن » وطقوس مجتمع معـــين هي عروض

حس لخفقان نوع معين من الكينونة ، ولكي يتمكن المرء منها يتوجب عليه ان يتلك خفقانها . ومن هنا كانت النساء ، بوصفهن اشد حساسية غريزية واقرب من الرجال الى الايقاعات الكونية ، يستطعن ان يؤهلن ذواتهن لاشكال الوسط الجديد ، امرع من الرجال . فالنساء من الطبقات الوضيعة يقدرن بعد عدد قليل من السنين ان يتحركن في المجتمع الكيس الرشيق بثقة كاملة بالنفس - ومن ثم يغرقن في طبقتهن الاصلية بالسرعة ذاتها . لكن الرجال يتبدلون ببطء ، لانهم اعمق وعياً واوسع دراية . فالبروليتاري لا يمكن ابداً ان يصبح ارستقراطيا كامــلاً ، كما وان الارستقراطي لا يستطيع ابدا ان يمسي بروليتارياً تاما - فخفقان الوسط الجديد لا يتبدى الا في الابناء فقط .

وكلما كان الشكل اعمق ، كلما كان اشد صرامة وتنفيراً للنفس ، لذلك يتبدى في نظر من لا ينتمي اليه رقاً وعبوديــة ، بينما ان حال من ينتمي اليه هي على العكس من ذلك ، اذ ان هذا يسيطر عليه سيطرة كاملة وبأيسر سبيل ، فسيطرة امير دي لاين Prince de Ligne على الشكل لم تكن ابداً تقـل عن سيطرة موزارت عليه ، وهو كان سيده وليس عبده ، والقول هذا ينطبق على كل انسان ارستقراطي بالولادة ، وعلى رجل الدولة والمقاتــــل . ولذلك يوجد في جميع الحضارات الراقية فلاحون هم نسل ، اورومة ، في المفهوم العريض (وبذلك هم الى حد معين طبيعة بالذات) ، كما ويوجد مجتمع هو تأكيداً واثباتاً في « شكل لائق » . انه مجموعة من الطبقات او المنازل (جمع منزلة) ، وهو لا شك شيء اصطناعي وانتقالي عابر . ولكن تاريخ هذه الطبقات والمنازل هو تاريخ العالم بارقى وضع له . وبالنسبة لهذا فقط يرى الفلاح ان لا تاريخ له . ولقــــد حقق كامل التاريخ العظيم لهذه الدورات الالفيــــة الست من الاعوام ذاته داخل مجاري - حياة الحضارات الراقية ، وذلك لان هذه الحضارات بالذات قد وضعت بؤرها المبدعة الخلاقة في منازل تمتلك سلالة وتدريبا ، وامست في سياق الاكتمال

مستولدة سلاليا ومدربة ومؤهلة . ان الحضارة هي نفس بلغت التعبير عن ذاتها باشكال محسوسة معقولة ، لكن هذه الاشكال هي حية منفتحــة وولود . ويوجد رحمها داخل الكينونة المصعدة للافراد او الجماعات — اي داخل ما اسميته قبل هنيهة بالكينونـة في « الشكل اللائق » . وعندما ، وليس حتى ، تتشكل هذه الكينونة ، بما فيه الكفاية ، فتبلغ ذاك الصلاح الراقي ، عندئذ تصبح ممثلة للحضارة المستذكرة فكراً او ذهناً .

ليست الحضارة شيئاً عظيما فقط ، بل انها بكليتها شيء لا يماثله اي شيء آخر في هذا العالم العضوي . فهي النقطة الواحدة التي يسمو عندها الانسان بنفسه فوق قوى الطبيعة ، ويصبح هو نفسه خالقاً . وحتى فيما يتعلق بالعرق والنسل ، فهو مخلوق الطبيعة — انــه مولود . ولكنه بالنسبة للمنزلة ، يولد نفسه تماماً كما يولد الانواع النبيلة من نبات — الحيوان الذي يحيط بـه نفسه — وهذه العملية باعمق مفهوم واشده نهائية ، هي « حضارة » ايضاً . فالحضارة والطبقة هما تعبيران متعاوضان ، وهما تنشآن معاً وتختفيان معـــاً . وتوليد نماذج مختارة من النبيذ او الفاكهة او الازهار ، وتوليد الخيول الاصيلة ، هو حضارة ، وحضارة وفق المفهوم ذاتـــه تماماً للصفوة Elite من البشر الذين ينشئون بوصفهم تعبيراً للكينونة التي جعلت نفسها شكلاً راقياً .

ويوجد ، لهذا السبب بالذات في كل حضارة ، حس دقيق عما اذا كان هذا الانسان او ذاك ينتمي للحضارة المعينة ام لا . فالفكرة الكلاسيكية عن البربري ، والفكرة العربية عن غـــير المؤمن ، والهندية عن السدرا هي — مهما اختلفت خطوط الانشقاقات التي توصل الناس اليهـــا — جميعاً فكر متشابهة ، لكون الكلمات لا تعبر بصورة أساسية عن الاحتقار او البغضاء ، بل تقرر أن هناك فروقاً واختلافات في نبض الكينونة حيث تقيم هذه الفروق حواجز لا

يمكن تخطيها امـــام جميع الاتصالات على المستويات الاعمق . وهذه الفكرة الواضحة وغير المبهمة تماماً قد حجبها المفهوم الهندي « للطبقة الرابعة » هـــذه الطبقة ، التي كما نعلم الآن ، لم توجد اطلاقاً . فشريعة مانو بأنظمتها المشهورة السدرا هي ثمرة من ثمرات دولة الفلاحين التي بلغت ذروة تطورها في هنده ، وقد وصف - وبغض النظر عن الوقائع حسب التشريع القائم ، او حتى القابل لان يشترع - الفكرة الضبابية للبرهمية مستعملاً بوصفه الاسلوب السلبي في معالجـــة نقيضها ، وذلك تماماً كما استعملت الفلسفة الكلاسيكية المتأخرة زمناً فكرة بانايوسوس Banausos العامل . فالاول ظاهرة هنديـــة بصورة خاصة ، بينما دفعتنا الثانيـــة الى تكوين فكرة خاطئة في اساسهـــا عن موقف الانسان الكلاسيكي من العمل .

فجميع ما يجابهنا في حالات كهذه ، هو الثقل الذي لا قيمة له او وزن في الحياة الباطنية للحضارة ورمزيتها ، وهـــذا الثقل يترك ، بالاصل ، خارج كل تصنيف حقيقي الاهمية ، كما يتجاهلون نوعاً ما « المنبوذ » في الشرق الاقصى . ان التعبير الغوطي « جسد المسيح الطاهر Corpus Christianum يـــدل باوضح صورة وافصح لسان على ان الاتحاد اليهودي لا ينتمي اليه . وفي الحضارة العربية كانوا يتسامحون مع المؤمن الآخر فقط داخـــل المناطق اليهودية والفارسية والمسيحية ، وفوق هذا الامم الاسلامية ، وكان يترك باحتقـــار وازدراء لادارته العامة الخاصة به وتشريعه الخاص . وفي العالم الكلاسيكي لم يكن البرابرة وحدهم هم المنبوذين - فلقد كان العبيد كذلك الى حد ما وخاصة بقايا السكان الاصليين - كالبنستيا Penestae في تساليـــا وهيلوط اسبرطه الذين كان اسيادهم يعاملونهم بطريقة تذكرنا بسلوك النورمان في انجلترا الانجلوسكسونية ، وبسلوك الفرسان التيوتون في الشرق السلافي . وتحفـــظ شريعة مانو ، كتسميات لطبقات السدرا ، اسماء شعوب قديمـــة من الاقليم المستعمر » في الغانج الاسفل . (وماغادها Magadha بين هذه الاسماء ، كما

أن بوذا نفسه يجب ان يكون من طبقـــة السدرا وكذلك « القيصر » آسوكا الذي كان جده تشاندراغوبتا يتحدر من اوضع ارومة) . والاخرى هي اسماء حرف ، وهذه تذكرنا انه يوجد في الغرب كما في غيره من البلاد حرف معينة كانت منبوذة ـ الشحاذين مثـــلاً (الذين يشكلون في نظر هوميروس طبقة) والحدادين والمغنين ومحترفي الفقر الذين كانت تكايا الكنيسة تطعم الجماهير منهم تعاونها في ذلك اريحية العامة في الازمنة الغوطية المبكرة .

وزبدة القول ، ان كلمة « طبقة » كلمة أسيء استعمالها بقدر ما استعملت . فلم تكن توجد طبقات في المملكتين القديمـــة والوسطى في مصر ، وكذلك في الهند قبل بوذا ، وفي الصين قبل ازمان الهان . فهذه لا تظهر الا في الاوضاع المتأخرة جداً في زمنها ، وعندئذ نجدها في جميع الحضارات . فابتداء من العائلة الحادية والعشرين فما بعـــد (قرابة عام ۱۱۰۰ ق.م) كانت مصر تقع حيناً بأيدي طبقة الكهنة في طيبه ، وحيناً آخر بأيدي طبقة المحاربين الليبين ، ومن ثم تابعت عملية التيبس مجراها بمثابرة وثبات حتى زمن هيرودوت ـ الذي كانت نظرته الى اوضاع يومه ، وخاصة المصرية ، غـــير صحيحة تماماً كنظرتنا الى الاوضاع السائدة في الهند . ان التمييز بين المنزلة وبين الطبقة ، هو التمييز بين أبكر حضارة واشد مدنيـــة تأخراً في الزمن . فالحضارة تكون حين نشوء المنزلتين الاوليتين ـ النبيل والكاهن ـ في حالة تفتح وانفتاح عن ذاتها ، بينما ان الطبقات هي تعبير عن وضعها الفلاحي النهائي التحديد . فالمنزلة هي اشد الجميع حياة ، انها الحضارة المنطلقة على درب الاكتمال ، انها الشكل الذي يتوجب على الحي ان يفضه بنفسه . اما الطبقة فهي الانتهائية المطلقة ، انهـــا الطور الذي يعقب فيه التطور رسوخ لا يتبدل او يتغير .

لكن المنازل الكبرى هي شيء ما يختلف عن مجموعات ـ الحرف ، كحرف الصناع والموظفين والفنانين الذين تشدهم حرفيا بعضا الى بعض ، التقاليد التقنية

وروح حملهم . وهم ، في واقع الحال ، شعارات من لحم ودم ، حيث ان كامل كينونتهم ، كظاهرة ، كموقف ، كأسـلوب وفكر ، تمتلك معنى رمزيا .
وعلاوة على ذلك يوجد داخـل كل حضارة — حيث يكون الفلاحون قطعة من الطبيعة المجردة .ونمواً ، ولذلك فهم تظاهرة كاملة في اللاشخصية — اقول يوجد نبلاء وكهنة هم نتاج توليـد وتشكيل راقيين ، ولذلك يعبرون عن حضارة شخصية سداة ولحمة ، حضارة لا تنبذ ايضا وفورا كل من ليس في منزلتهم بوصفه ثقلًا — يعتبره النبـلاء « كشعب » ويراه الكهنـة بوصفه عوامٌ . واسلوب الشخصية هذا هو المادة التي تتحجر ، عندما يحين عصر الفلاح ، في نموذج طبقـة تبقى فيما بعد طيلة قرون وقرون ثابتة على حالها لا يطرأ عليها تبديل او تغيير .
كما ان العنصر والمنزلة في الحضارة الحية هما في حال الطباق كاللاشخصي والشخصي ، كذلك فان الجمهور والطبقة ، الكولي والبرهمي ، هما في ازمان الفلاح في حال الطباق كاللاشكلي والشكلي . فالشكل الحي قد اصبح قاعدة او صيغة ، ومع انه لا يزال يمتلك اسلوباً لكنه يمتلكه بوصفه يبوسة اسلوبيـة . وهذا الاسلوب المتحجر للطبقة هو على جانب هائل من الدهاء والهيبة والعقلانية ، ويشعر بان ذاته ارفع بكثير وكثير من الجنس البشري المتطور لاية حضارة — وبالكاد نستطيع ان نشكل فكرة عن الذرى المتشامخة التي يطل منها المندرين او البرهمي على ما يراه تحته من الافكار والاعمال الاوروبيـة ، او عن اغوار احتقار الكاهن المصري لشخص زائر من طراز فيتاغوروس او افلاطون . وهذا الاسلوب يتحرك خلال الزمان هادئا رصينا بالوقار البزنطي لنفس خلفت بعيدا بعيـدا وراءها جميع مشاكلها والغازها واحاجيها .

- ٢ -

كان الناس (6) ، في الحقبة الكارولونجية ما قبل الحضارة ، يقسمون الناس الى ثلاث فئات : العبيد والاحرار والنبلاء . وهذا تمييز بدائي يرتكز فقط على وقائع الحياة الخارجية . لكن هذا التقسيم في الازمان الغوطيـة المبكرة قد ورد على الشكل التالي في هذين البيتين من الشعر :

« لقد خلق الله الحياة على ثلاثة اشكال »

« الفلاح والفارس والكاهن »

وهنا تتبدى لنا فروق في المقامات في حضارة قـد استيقظت لتوها . حيث نرى الجبة – الرداء – والسيف يقفان معاً في وجه المحراث موقفاً اعلى بالغاً في قوتـه ووضوحه ، وذلك بوصفها منزلتين قبالة الباقي الذي لا منزلة له ، والذي كونه شبيهاً بها هو واقعة ، ولكنه واقعة لا تشابه واقعيتها ، اذ انها واقعـة لا تمتلك مغزى اعمق . فالتفارق الباطني والمحسوس ، بينهم يبلغ حداً من التعين والقوة حيث لا يستطيع عنده اي فهم ان يجهله او يتجاهله . فالبغضاء تمور من القرى ، والاحتقار يومض مجيباً عليها من القلاع . وهذه الهوة الفاصلة « بين الحياتات » لم تشقها ملكية ولا سلطة ولا حرفة . كما وانه لا يوجد لها اي مبرر منطقي ، فهي طبيعة ميتافيزيقية .

وتنشأ فيا بعد البرجوازية ، وهذه اصغر سناً من المنزلتين الآنفتي الذكر ، وتصبح « المنزلة الثالثـة » . وهنا يرمي البرجوازي ايضا الريف بنظرات من

الازدراء والاحتقار ، حيث يجثم الريف حوله بليـــدا غبياً صبورا لا تتبدل له حال ، وحيث يشعر البرجوازي بنفسه متباينة واياه ، فهو يحس بانه اشد منـه وعيا وتنبهاً واوسع حرية وابعد انطلاقاً وتقدماً على درب الحضارة . كما وان البرجوازي يحتقر ايضا المنزلتين الاوليتين - « الاقطاعي » و « كاهن الابرشية » بوصفها شيئا ما دونه عقلانيا ووراءه تاريخيا . ومع هذا فاننا اذا ما قارنا بـين البرجوازي وبين هاتين المنزلتين يتضح لنا ان البرجوازي هو كما كان الفلاح ، اي لا منزلة له . فالفلاح في وسط « ذوي اصحاب الامتياز » يكاد يكون عديماً من كل قيمة ، لكن للبرجوازي قيمة بوصفه نقيضاً لاولئك وخلفية للصورة . فهو التفريغ الزخرفي foil الذي يصبح الآخرون ازاءه مدركين اهميتهم الخاصة ، وواعين للواقعة المقررة ان هذه الاهمية هي شيء ما يقع خارج جميع الاعتبارات العملية . وعندما نجد هذا في جميع الحضارات ، ونجد ان الشيء نفسه يحدث في الشكل ذاته ، وانه مهما اختلفت رمزيـة الحضارة الواحدة عن رمزية الحضارة الاخرى ، فتاريخها - (الحضارات) يكمل ذاته في كل مكان داخل وبواسطـة التعاوض القائم بين هـذه الجماعات - في الحروب التحريضية الفلاحية في الربيـع الحضاري وفي الحروب الاهلية المستندة الى العقلانية في المراحل المتأخرة زمناً - اقول عندما نجد هذا عندئذ يتضح لنا تماما انه يتوجب علينا ان نبحث عن مغزى الوقائع في اعمق اسس الحياة نفسها .

انها فكرة تلك التي تكمن تحت هاتين المنزلتين الاوليتـين ، وتحت هاتين فقط . وهي تعطيها الشعور الجبـــار بالمقام المستمد من اضفاء المي ، وهو لذلك فوق كل نقد وتنديد - فهو الموقف الذي يفرض احترام الذات ووعيها ، لكنه يفرض ايضا اشد انضباط - للذات صرامة ايضا (وحتى الموت نفسه اذا دعت الحاجة) بوصفه واجبا ، ويخضب هاتين المنزلتين بالتفوق التاريخي ، انه سحر - النفس الذي لا يعيش على القوة بل انما يولدها حقيقـــة وواقعا . فهؤلاء الذين

ينتمون الى هاتين المنزلتين باطنيا لا اسمياً هم شيء ما غير الثقل ، فحياتهم ، خلافاً ، لحياة البرجوازي والفلاح ، مدعومة بكل جزء من اجزائها ، بوقار رمزي . فهذه الحياتات لا توجد لكي تعاش فقط ، بل ليكون لها معنى ومغزى . ان جانبي كل حياة تتحرك بجريـة هما اللذان يعبران عن نفسيهما من خلال هاتين المنزلتين ، فالاول منهما هو بكليته كينونـــة ، اما الآخر فهو شعور واع سداة ولحمة

ان كل طبقـــة نبالة هي رمز حي للزمان ، وكل كهنوت هو رمز حي للفراغ . انها المصير والسببية المقدسة ، التاريخ والطبيعـة ، الـ – والـ – أين ، العنصر واللغة ، حياة الجنس وحياة الشعور – كل هذه الامور تبلغ داخلها ارقى تعبير ممكن . فالنبيل يعيش داخـــل عالم الوقائع ، اما الكاهن فيعيش في عالم الحقائق ، وللأول فطنة ودهاء ، وللثاني معرفة ، والاول هو فاعـل ، اما الثاني فهو مفكر . ان الشعور الارستقراطي بالعالم هو في جوهره حس نبض ، امـــا الشعور الكهنوتي بالعالم فينطلق بكليته بواسطة التوترات . وقـــد شكل شيء ما ذاته داخل مجرى الزمان وذلك في الفترة الواقعة بين شارلمان وكونراد الثاني ، وهذا الشيء ما لا نستطيع شرحه او ايضاحه ، لكن يتوجب علينا ان نشعر به اذا ما اردنا ان نفهم فجر الحضارة الجديدة . لقد عرف العالم منذ زمن طويل بالنبلاء والاكليريكيين ولكنه كان يوجد اولا – وليس لمدة طويلة من الزمن – طبقة نبالة وطبقـــة كهنوت باعظم ما لهاتين الكلمتين من معنى ، وبكل ما لمغزييهما من زخم رمزي كامل ومليء . ولقد بلغ هجوم الرمزية هذا درجة من الجبروت والشدة حيث ترامت عندها جميع الفروق الاخرى ، كفروق البلاد والشعوب واللغات في خلفية الصورة . فلقد كانت السلطة الكهنوتية الغوطية في جميع البلدان الممتدة من ارلندا الى كالابريا طائفة عظمى واحدة ، كما وان طبقة الفرسان الكلاسيكيين ، المبكرين زمنا ، امام اسوار طروادة ، او طبقـــة

الفرسان الغوطيين امام اسوار القدس تبدو لناظرينا كأن ابناءها ينتمون الى عائلة عظيمة واحدة . وتبدو المديريات المصرية (في العهد اليوناني — المترجم) Nomes والدول الاقطاعيـــة في أزمان تشو الاولى ، اذا ما قورنت بمنزلتين كهاتين باهتة اللون تماما كبورغونديا واللورين (وذلك بسبب المقارنـة) في مرحلة هوهنشتاوفن . وهناك وضع كوسموبوليتي في بداية ونهاية كل حضارة معا ، وهو يوجـــد في الحالة الاولى بسبب الجبروت الرهباني للاشكال الارستقراطية الكهنوتية التي تكون لا تزال محلقـــة فوق الاشكال القومية ، ويوجـــد في الحالة الثانية لأن الجماهير التي لا شكل لها تنخلف تحت هذه الاشكال .

وتنفي هاتان المنزلتان من حيث المبدأ الواحدة منهما الاخرى . وهذا يمثل التعارض الاولي بين الكوني والكوني الاصغر ، والذي يتخلل كل كائن يتحرك بحرية في الفراغ ، ويكمن وراء الوجود المزدوج ايضا . ولقد قابـــل العالم الهوميري الاورفية بمؤامرة من صمت عدائي ، وقد اصبح الاول بدوره (كما نرى من قبل السقراطيين) محطاً لغضب الاورفية واحتقارها . وفي الازمنـــة الغوطية اعترضت الارواح المصلحة . بحماس مقدس درب طبائع عصر النهضة . فالدولة والكنيسة لم تبلغا ابداً وضعاً من توازن ، وقـد بلغ التناقض بينهما ، خلال الصراع بين الامبراطورية والبابويـة حداً من الشدة التي لا يستطيعها الا الانسان الفاوستي .

زد على ذلك ان منزلة النبالة هي المنزلة الحقيقيـة من المنزلتين ، فهي مجموع الدم والعنصر ، وهي مجرى الكينونة باكمل شكل يمكن للخيال ان يتصوره . ولذلك فان طبقة النبالة هي طبقة فلاحيـــة ارقى . وكان هناك قول مأثور وواسع الانتشار حتى في عام ١٢٥٠ مفاده :

« ان من يحرث الارض قبل الظهر يثاقف (يبارز — يقارع) بعد الظهر .

وقد كان من المألوف تماما ان يتزوج الفارس من ابنـــة فلاح . ولقد كانت القلعة تمثل ، خلافا للكاتدرائية ، تطوراً من مسكن الفلاح فالبيت الريفي النبيل في الازمان الفرنكية . وتتحدث اساطير فلاحي ايسلنــــدا عن محاصرة البساتين واقتحامها كما تقتحم القلاع . فطبقتا النبلاء والفلاحين هما شبيهتان بالنبات. وهما فطريتان على السليقة ، وجذورهما تضرب عميقاً في تربة الاسلاف ، ويتكاثران في شجرة عائلة ، ينسلون وينسلون . ومنزلة الكهنوت حين مقارنتها بهاتين ، هي في جوهرها منزلة مناهضة لهما ، انها منزلة النفي ، منزلة اللاعنصر ، والانعزال عن التربة — منزلة الشعور الواعي العديم الزمان والتاريخ . ففي كل قريـــة فلاحية ، وفي كل عائلة فلاحيـة ابتداء من العصر الحجري حتى ذرى الحضارة ، يعرض التاريخ نفسه قليلا ، فلتستبدل كلمات : الشعوب العائلات الاراضي المزارع بكلمات : الحفاظ على الدم وتعاقب الاجيال والكوني والمرأة والسلطة — فهنا تجد ان المعنى النهائي لهذه هو المعنى ذاته لتلك . ومن الجائز تماما ان يكون مكبث والملك قـــد خططا فكريا كمأساتي قرية — والواقعة هي دليل حقيقتيهما الفاجعتين . وتتبدى طبقتا النبلاء والفلاحين في جميع الحضارات في اشكال اصل العائلة ، واللغة بالذات هي التي تربطهم بالجنس الذي بواسطته تنشر الحيـاة ذاتها وتمتلك تاريخا وتكون تاريخاً . ونظراً لكون المرأة تاريخا فان المرتبة الباطنية لعائلات الفلاحين والنبلاء تقرر بقدر ما تمتلك نساءهم من عنصر داخل ذواتهن ، وبقدر ما هن من مصير . ولذلك فان هناك مغزى عميقا في الواقعة المقررة انـه كلما كان التاريخ انقى عنصراً واشد اكتنافا له كلما تزايد مجرى حياته العامة تحولاً وتناسبا والحياتات الخاصة للعائلات الكبرى الافرادية . وهذه الواقعة هي طبعاً القاعدة التي يرتكز عليها مبدأ الاسرة الحاكمة ، لكنها ليست هذا فقط ، بل انها ايضا اساس فكرة الشخصية التاريخية العالمية . فوجود دول باكملها يصبح مرتبطا بمصائر شخصية قليلة ضخمت تضخما كبيرا واسعا . فتاريخ اثينا في القرن

الخامس هو في اساسه تاريخ Alcmaeonidae كما وان تاريخ روما هو تاريخ عدد قليل من العائلات من طراز عائلة فابي Fabii او عائلة كلاودي Claudii . وتاريخ الدول في الحقبة الباروكية هو ، بصورة عامـــة ، تاريخ اعمال آل هابسبورغ وسياسات عائلة البوربون وتتخذ ازماتها اشكال الزواج والحروب على وراثة العرش . زد على ذلك ان تاريخ الزواج الثاني لنابليون يحتوي ايضا على احراق موسكو ومعركة ليبتزيغ . كما وان تاريخ البابوية هو ، حتى القرن الثامن عشر ، تاريخ عدد قليل من العائلة النبيلة التي كانت تتنافس للحصول على التاج البابوي بغية توطيد نجاح امارة العائلة . وهذا القول ينطبق ايضا على اعيان بزنطة ورؤساء الوزراء الانكليز (ولنتأمـل في آل سيسل) وحتى على امثلة عديدة من قادة الثورة العظماء .

ان الكهنوت (والفلسفة الى الحد الذي هي فيه كهنوت) هو النفي المباشر الصريح لكل هذا . بمنزلة الشعور الواعي المجرد والحقائق الخالدة تقاتل الزمان والعنصري والجنس بكل معنى الكلمة . فالانسان كفلاح او نبيل يتجه ببصره نحو المرأة ، اما الانسان ككاهن فانه ينأى بناظريه عنها . والارستقراطيـــة تغامر في تشتيت وتبديد وفقدان مجرى الكينونة العريض للحياة العامة في اقنية تافهة من الاسلاف والاقارب الثانويين . اما الكاهن فهو يرفض مبدأياً الاعتراف بالحياة الشخصية والجنس والعائلة « والبيت » . والموت يصبح حقيقة مرعبة للرجل ذي العنصر فقط عندما يرى مثل هذا الرجل انه سيموت دون ان يخلف وراءه ذرية او ورثة – والاساطير الايسلندية لا تقل ابداً في تعليمها هذا الامر عن عبادة الاسلاف الصينية . فذاك المرء ، الذي يستمر في حياتـــه من خلال ابنائه وابناء اخيه وبنات اخته ، لا يموت كلياً . ولكن بالنسبة للكاهن الحقيقي فالحال هي Media vita in morte sumus ، وما سيورثـــه هذا فهو عقلاني ، وليس للمرأة المنبوذة اي جزء فيـه . والاشكال الظاهرتية لهذه المنزلة الثانية ،

والتي تحدث المرة تلو المرة ، هي العفة والدير والقتال ضد النزوع الجنسي ، هذا القتال الذي يبلغ منتهاه في خصي الذات ، والاحتقار للامومة الذي يعبر عن ذاته بالتهتك والخلاعة والدعارة المكرسة ، وبالبخس العقلاني لقيم الحياة والانحدار بها الى مستوى تعريف كنت Kant الفاجر السافل للزواج . وكانت تسود العالم الكلاسيكي طولاً وعرضاً قاعدة Temenos تقول بانه يتوجب ألا يولد اي انسان او يموت داخل المكان – التخم – المقدس . فعديم الزمان يجب ألا يتصل بالزمان . وبمقدور الكاهن ان يمتلك اعترافاً عقلانياً باللحظات الكبرى للجيل والولادة وان يمجدها بقداسة ، لكن ليس باستطاعته ان يخبرها .

فبينما نرى ان النبالة هي شيء ما ، نرى ان الكهنوت يعني شيئا ما ، وهذا وحده كاف ليعلمنا بان الكهنوت هو نقيض كل ما هو مصير وجنس ومنزلة . فالقلعة بمخادعها وابراجها واسوارها وخنادقها المائية تخبرنا بحياة متدفقة جبارة ، لكن الكاتدرائية بقبابها هي معنى متنا وحاشية – اي انها زخرفة – وكل كهنوت محترم قد طور ذاته حتى بلغ بها تلك الجاذبية الرائعة وجمال الهيئة ، حيث يبدو كل شيء ، ابتداء من تعبير الوجه وانحراف الصوت حتى البزة والسير ، على انه زخرفة استؤصلت منها الحياة الشخصية وحتى الباطنية بوصفهما نافلتين – بينما ان ما تعرضه ارستقراطية ناضجة (كالارستقراطية الفرنسية في القرن الثامن عشر) هو حياة منتهية . ولقد كان الفكر الغوطي هو الذي استخلص تطويرا من المفهوم الكهنوتي الصفة التي لا تمحى او تندرس والتي تجعل الفكرة غير قابلة للاندثار ومستقلة استقلالاً تاما تاجزا عن قيمة اهلية حياة حاملها في العالم كتاريخ – لكن كل كهنوت ، ونتيجة لذلك كل فلسفة ، (بمفهوم مدارس الفلسفة) تحتويان عليها بوضوح . فاذا كان الكاهن يمتلك عنصراً فعندئذ يعيش وجوداً خارجيا كوجود الفلاح او الفارس او الامير . ولقد كان البابوات والكرادلة في الحقبة الغوطية امراء اقطاعيين وقادة جيوش ، وكانوا

يتعشقون الصيد وخبراء ومتضلعين في السياسات العائلية . وكان بين البراهمة في الحقبة « الباروكية » السابقــة لبوذا ملاك كبار وكهنة علمانيون متأنقون متبرجون ، ورجال بلاط ومبذرون متلافون وخـــبراء بالمآكل والمشارب . ولكن الحقبة المبكرة هي التي تعلمت ان تميز بين الفكرة والشخص – ولم يحكم الناس ، حتى حلول عصر التنوير ، على الكاهن ككاهن استدلالاً بحياتـــه الشخصية ، وحتى هذا الحكم لم يصدر استناداً على ما ذكرت بسبب ان جيـل عصر التنوير قد اكتسب عينين احد بصراً مما سبقه من عصور ، بل لانه كان قد فقد الفكرة .

ان النبيل هو الانسان كتاريخ ، اما الكاهن فهو الانسان بوصفه طبيعة . فالتاريخ من النوع الارقى هو دائما وابدا تعبير كينونة المجتمع النبيل ومعلوله ، وان الميزان للاهمية النسبية لاحداثه المختلفة هو دائماً نبض مجرى الكينونة هـذا . وهذا هو السبب الذي يضفي على معركة كاني Cannae تلك الاهميـة البالغة ، ويجرد معارك الاباطرة الرومان المتأخرين زمنا من كل اهميـة اطلاقا . فحلول ربيـع الحضارة ينطبق كليا على ولادة النبالة الاولية التي يكون الامير داخل عواطفها مجرد Primus inter pares وموضوعا للريب والشكوك . وذلك لأن العنصر القوي ليس في غنى فقط عن الفرد الكبير ، بـــل ان وجوده ايضا هو انعكاس على جدارتـه ، ومن هنا كانت حروب الاقيال Vassal ، تصدراً ، الشكل الذي حقق فيه تاريخ المراحل المبكرة ذاته ، ومنذ ذاك الحين فصاعداً امسى قدر الحضارة رهين قبضة النبالة . فلقد اعطيت بالحضارة ، وبقوة ابداعية مؤثرة فعالة ، لانها كانت قوة صامتة ، شكلًا « ووضعاً » فالنبض في الدم قـد صعد وثبت تثبيتاً نهائيا . وذلك لأن ماهية هذا التصاعد الابداعي الى الشكل الحي هي بالنسبة للربيـع الحضاري – وكل ربيع حضاري – كماهيـة جبروت التقاليد بالنسبة للحقبة المتأخرة زمنا – وكل حقبة متأخرة – واعني بهذه الانضباط

القديم الصارم ، نبض الحياة ، الذي بلغ درجـة من اليقين ، حيث يعيش معها ما بعد انطفاء جميع العائلات وهمودها ، ويجتـذب بسحره من الاعماق بشراً جديدا ومجاري حياة جديدة . وان كامل تاريخ المراحل المتأخرة ، وذلك فيما يتعلق بالشكل والخفقان وقياس الزمن ، هو ، ما وراء ظلال من شك ، ملازم فطرة وسليقة (وبصورة لا تنقض) لأبكر ابكر الاجيال زمنا . والنجاحات التي يلاقيها هي ليست اكثر او اقل من ثمرات لقوة التقاليـد في الدم . فالنجاح يفترض في السياسة ، كما في جميع الفنون العظمى الناضجة الاخرى ، كائناً او كينونة ، في وضع راق ، ويفترض خزينا ضخماً موفورا من الخبرات الفطرية التي خزنت بصورة لا واعية وبيقين وطيد بوصفها غرائز ونوازع . وليس هناك من فن سياسي راق غير هـذا . فالفرد الكبير هو ليس الا شيئا ما افضل من الصدفة ، وليس الا سيدا للمستقبل ، وبهذا هو صاحب صولة ونفوذ ، (او يجعل كذلك) ، ومصير ايضا (او يملك مصيراً) داخل هذا الشكل وبواسطته . وهذا هو ما يميز بين الفن الضروري ، والفن الذي لا لزوم له ، ويميز ، لذلك بـين السياسة الضرورية تاريخيا ، وبين السياسة التي لا ضرورة تاريخيا لها . وانه لعلى جانب قليل من الاهمية ان يرقى الرجال الكبار من اعماق « الشعب » (وهذا هو مجموع من لا تقاليد لهم) الى الطبقـة الحاكمة ، او حتى ان يكونوا هم الوحيدين الذين يستأثرون بالسلطان – وذلك لان المد العظيم للتقاليـد يسيطر عليهم دون ان يشعروا ويشكل سلوكهم العقلاني والعمـلي ، ويتحكم بمناهجهم . وهذه التقاليـد هي ليست سوى نبض الانظمـة الغابرة التي انطفأت منـذ زمن طويل .

ولكن المدنية ، « العودة الحقيقية الى الطبيعة » هي ابادة النبالة وانقراضها – ولا اعني ابادتها جسمانيا (وهذه لا تهم بكثير او قليل) بل انقراضها كتقاليد –

وهي احلال الذكاء السببي محل نبض المصير ، وبهـذا لا تصبح النبالة اكثر من مقطع يضاف الى اول الكلمة Prefix . ولهذا السبب بالذات يكون التاريخ المتمدن تاريخا سطحيا موجهاً بشكل مفكك متصدع نحو غايات واضحـــة ، وهكذا يصبح معدوم الشكل في الكوني ، ويعتمد على الحوادث العرضية التي يأتيها الافراد العظام ، ويفتقر الى اليقين الباطني متناً وحاشية . ومع القيصرية ينتكس التاريخ الى انعدام التاريخ ، الى النبض القديم للحياة البدائية بما تتخلل هذه الحياة من معارك حول السلطة المادية ، معارك لا معنى لها او نهايـــة ، كمعارك الاباطرة ـ العسكر في القرن الثالث والمنطبقة على معارك الدول « الست عشرة » في الصين (٢٦٥ ـ ٤٢٠) والتي لا تفترق الا في توافـــه امورها عن احداث حياة الحيوان في الغاب .

ـ ٣ ـ

ويترتب على ما ورد آنفاً ان التاريخ الحقيقي ليس « حضاريا » وفق المفهوم المناهض للسياسة ، وذلك كما يزعم الفلاسفة والعقائديون في كل المدنيات المبتدئـــة . لكن التاريخ الحقيقي على عكس ما يزعمون ، هو تاريخ النسل والسلالات ، تاريخ الحرب ، التاريخ الدبلوماسي تاريخ مجاري الكينونة في شكل الرجل والمرأة ، العائلة والشعب المنزلة والدولة ، وهو ، بالتناوب ، دفاعي هجومي في نبض موجة الوقائع الكبرى . فالسياسة ، وفق المفهوم الارقى ، هي الحياة ، والحياة هي السياسة . فكل انسان مرغم على ان يكون عضواً في دراما ـ المعركة هـــذه ، كموضوع او محول ـ اذ ليس هناك من بديل ثالث .

ان مملكة الروح هي من هذا العالم . وهـــذا القول صحيح ، لكنها تفترضه مسبقاً ، كما يفترض الشعور الواعي الكينونة . فالاجابة الحوح بلا ، هي أمر ممكن فقط بالنسبة لواقعة توجد بالرغم من كل شيء ، ويجب ان توجد قبل ان يصار الى رفضها . والعنصر يستطيع ان يستغني عن اللغة ، ولكن نطق لغة ما بالذات هو تعبير لعنصر متقدم ، كما هي الاديان والفنون واساليب الفكر وكل شيء آخر يحدث في تاريخ الروح – وكون ان تاريخاً كهذا قائم وموجود ، هو امر تظهره قوة الدم وسيطرتها على الشعور والعقل . وذلك لان جميع هذه الامور هي الشعور الواعي الفعال في « شكل لائق » وهي معبرة بتطورهـــا ورمزيتها وعاطفتها عن الدم (الدم مرة اخرى) الذي يدور ويجري خـلال هذه الاشكال في كينونة – الوعي لجيل بعد جيل . والبطل ليس في حاجة لان يعرف اي شيء اطلاقاً من هذا العالم الثاني – فهو حياة سداة ولحمة – لكن القديس وحده هو الذي يستطيع بواسطة اصرم ما هناك من تقشف وزهـد ان يقهر الحياة الموجودة داخله ، وان يكتسب معاشرة منعزلة متوحدة وروحه – وقوته من اجل هذا الاكتساب تنبع ، مرة اخرى ، من الحيـــاة نفسها . ان البطل يحتقر الموت ، والقديس يحتقر الحياة ، لكننا نكتشف في التناقض القائم بين بطولة النساك العظام والشهداء وبين تقوى معظم الناس (التي وصفت في سفر الرؤيا[1] الاصحاح الثالث عدد ١٦) ان العظمة حتى في الدين تفترض مسبقاً العنصر وتفترض ان الحياة يجب ان تكون قوية فعلاً كي تكون جديدة بمثل هؤلاء المكافحين . اما الباقي فهو مجرد فلسفة .

---

(١) ورد في وصف هذه التقوى في السفر المذكور ما يلي :
وهكذا لانك فاتر ولست بارداً أو حاراً أنا مزمع أن اتقيأك .

– المترجم –

لذلك فان النبالة ، وفق المفهوم التاريخي للعالم ، هي اكثر بكثير مما تراه فيها المراحل المتأخرة المريحة المهينة الهينة ، فالنبالة ليست مجموعاً من الالقاب والامتيازات والطقوس ، بل انما هي ملكية باطنية شاقة الاكتساب ، والاحتفاظ بها امر محفوف بالمصاعب — وهي فعلاً جديرة باولئك الناس الذين يعرفون التضحية بكلية الحياة . فالعائلة العريقة لا تشير فقط الى مجموعة من الاسلاف (فلجميعنا أسلاف) بل تشير الى اسلاف عاشوا طيلة اجيال كاملة متربعين على ذرى التاريخ وقممه ، أسلاف لم يكن لهم فقط مصير ، بل كانوا انفسهم مصيراً ، أسلاف اصّلت خبرة القرون في دمائهم ، الشكل تصعيداً به حتى الكمال . والتاريخ بمفهومه الاعظم يبدأ بالحضارة . وانها لمجرد حزمة من ريش يشكلها الكولوني Colonna بخوذته حينما يتتبع اسلافه داخل الازمان الرومانية المتأخرة . ولكنه لم يكن امراً عديم المعنى في نظر الوجيه البزنطي ان يسلسل نسبه ، في ازمنة بزنطة المتأخرة ، حتى يبلغ به قسطنطين ، كما وانه ليس بالامر التافه بالنسبة للاميركي المعاصر ان يعود بأصله الى مهاجر حملته السفينة ماي فلاور — زهرة أيار — عام ١٦٢٠ الى اميركا . والواقع ان النبالة الكلاسيكية تبدأ بمرحلة طراودة ، وليس بالمرحلة المسينية ، كما وان النبالة الغربية تبدأ بالحقبة الغوطية ولا تبدأ بالفرنجة والغوط — وكذلك في انكلترا فانها تبدأ بالنورمان لا بالسكسون . ومن نقاط الانطلاقات الحقيقية هذه وحدها يوجد تاريخ ، ولذلك انطلاقاً من آنذاك فقط يمكن ان توجد ارستقراطية أصيلة ، تمييزاً لها عن النبلاء والابطال . وذاك الامر الذي اسميته ، في الفصل الاول من هذا الجزء من الكتاب ، بالخفقان الكوني ، او النبض يتلقى داخل هذه الارستقراطية اكتماله . وذلك لان كل ذاك الذي ندعوه ، في الازمان الأنضج ، « باللباقة » الدبلوماسية والاجتماعية — والذي يشتمل على الفطنة الستراتيجية والأعمالية ، هذه الفطنة التي هي بمثابة عين الجامع للاشياء الثمينة والبصيرة الحاذقة الخبير بالناس — وبصورة

عامة كل ما تعلمه المرء وما لا يتعلمه ، والذي يستثير الحسد العاجز للآخرين الذين لا يستطيعون ان يشتركوا فيه ، والذي بوصفه « شكلا » بوجه مجرى الاحداث ، كل هذه الامور ليست سوى ذات اليقين الكوني الشبيه بالحكم والذي يعبر عنه بصورة منظورة ، في تحاويم اسراب الطير ، أو في الحركات المنضبطة للحصان الاصيل .

ان الكاهن محيط بالعالم كطبيعة ويعينه ويعمق صورته عنه بواسطة التفكير داخله . اما النبيل فيحيا في العالم كتاريخ ويعمقه بواسطة تبديل صورته . وكلاهما يمتدان باتجاه التقاليد العظمى ، لكن الاول منهما ينشأ عن التشكيل أما الثاني عن التهذيب . وهذا هو الفرق الاساسي بين المنزلتين ، ونتيجة لما أوردت ، لا توجد الا منزلة واحدة منها هي منزلة حقيقية ، اما الاخرى فتبدو كمنزلة بسبب اكتمال التناقض بينها وبين الاخرى . ان الدم هو ميدان اثر التوليد الاصيل والتهذيب ، ولذلك فهما ينتقلان من الآباء الى الابناء . ومن جهة اخرى فان التشكيل يفترض مسبقاً وجود مواهب ، ونتيجة لذلك فان الكهنوت القوي هو دائماً مجموعة من المواهب الفردية – انه طائفة من شعور واع – لا تشدها اية وشيجة الى الاصل وفق مفهوم العنصر ، وهي ، بذلك من هذه الناحية كما من النواحي الاخرى ، نفي للزمان والتاريخ . فلنتأمل في هذين التعبيرين ولنسبر أغوارهما : القرابة العقلانية وقرابة الدم ! فالكهنوت المتوارث هو تناقض في حدود المنطق . In terms . فهذا قد وجد فعلا ، الى حد ما ، في الهند الفيدية ، لكن اسس وجوده ذاك كانت متمثلة في وجود نبالة ثانية احتفظت بامتيازات الكهنوت للاعضاء الموهوبين في دائرتها الخاصة . ولقد وضعت السعفة نهاية في كل مكان آخر لهذا المبدأ الذي انتهكت حرمته مراراً وتكراراً . فالكاهن داخل الانسان – أكان هذا الانسان نبيلا ام لم يكن –

يقوم مقام بؤرة السببية المقدسة في هذا العالم . والسلطة الكهنوتية هي بالذات ، ذات طبيعة سببية ، اوجدتها اسباب ارقى ، وهي بدورها بالذات سبب كفؤ فعال . فالكاهن هو الرجل الوسيط في الممتد العديم الزمان والممدود حتى التوتر بين الشعور الواعي والسر النهائي ، ولذلك يجري تقرير اهمية الاكليروس في كل حضارة بواسطة رمزه الاولي . امــا النفس الكلاسيكية فهي تنكر الفراغ ، ولذلك فهي لا تحتاج الى رجــل وسيط للتعامل مع الفراغ ، وهكذا نرى ان الكهنوت الكلاسيكي يختفي وهو لما يزل في بدايته . لكن الانسان الفاوستي يقف وجهــا لوجه واللانهائي ، وليس هناك شيء بديئي A priori يحميه من القوة الساحقة الماحقة لهـذا الوجه Aspect ، وهكذا صعد الكهنوت نفسه الى ذرى الفكرة البابوية .

ولما كان يتناسج مطلان على العالم ، ونمطان لجريان الدم في الاوردة والشرايين والافكار في الكينونة والفعل اليوميين لذلك ينشأ في النهاية (وفي كل حضارة) نوعان من الاخلاق ، حيث يحتقر كل نوع منهما الآخر ويزدري بـه — واعني بهذين عرف النبلاء وسلوك الكهنة ، وهما بالتناوب يقدح كل واحـد منهما في الآخر ، واصفاً اياه بالدينونة والحقارة . ولقد شرحنا كيف ان الاول ينطلق من القلعة ، وكيف يخرج الثاني من الدير ، فالاول يتدفق من كينونة مليئة مكتملة في فيضان التاريخ ، والثاني يسيل بعيـداً عنها ، اذ يخرج من الشعور الواعي داخل محيط الطبيعة التي يكتنفها الله . اما القوة التي تمارسها هذه التأثيرات الاولية عـلى الانسان فهي شيء مـا سيكون مستعصياً حتى على خيال المراحل المتأخرة زمناً . فالشعور الطبقي من العلماني ونده الروحاني قد انطلقا متصاعدين باتجاه مستقبليهما الحرفيين ، ويقتطع كل واحد منهما لنفسه مثلاً اخلاقياً اعلى هو بتناول افهــام اللائقين من الناس فقط ، وهو حتى بالنسبة لهؤلاء امر لن يدركوه الا بعد مران مدرسي صارم وطويل . فمجرى — الكينونة العظيم

يشعر بذاته على انه وحدة ضد ثقل الدم البليد العديم النبض والهدف . اما طائفة العقل العظمى فهي تعرف ذاتها على انها وحدة ضد الثقل من غير المطلعين . وهاتان الوحدتان هما عصبة من الابطال وطائفة من القديسين .

وسيبقى فضل نيتشه العظيم مـــاثلاً في انه كان اول من تعرف عـــلى الطبيعة المزدوجة لكل الاخلاق . فتحديده للاخلاق ، بأخلاق سادة واخـلاق عبيد ، كان تحديداً غير مصيب ، وعرضه « للمسيحية » قد وضعها بالكثير من التحديد على الجانب الواحـد للخط الفاصل ، ولكن أسس كل افكاره تتبدى قوية وواضحة ، في كون الطيب والخبيث هما تعبيران ارستقراطيان ، والخـير والشر تعبيران كهنوتيان . فالطيب والخبيث هما مكانتان طميتان بـــين المجموعات البدائية من البشر والعشائر ، ولا تصفان السلوك ، بل تصفان الناس ، وتصفانهم ادراكياً بالنسبة لكينونتهم الحيـــة . فالطيبون هم الاقوياء الاغنياء والمحظوظون . والطيبة تعني القوي الشجاع الاصيـــل وفق اصطلاح كل ربيع حضاري . والخبيث البائس الرخيص المبتـــذل هم وفق المفهوم الاصلي الضعفاء المعدمون المناحيس الجبناء التافهون – « ليسوا أبناء ، احد » كما كانوا يقولون في مصر . اما الخـير والشر فهما مفهومـا تابو Taboo تخصان الانسان بالقيمة حسب مداركه وعقله – اي حسب سليقته اليقظة واعماله الواعيـة . فان يسيء المرء لأخلاقية – الحب ، هو عمل غير شريف الاصل Ungentle ، أما ان يخطىء بحق وصية الكنيسة بالمحبة فهو عمل شرير . والعادة النبيلة هي النتيجة اللاوعية تماماً لتهذيب متواصل مستمر . وهي تكتسب في المخالطـة ولا تدرس في الكتب ، وهيَ ايقاع محسوس بـــه وليس رأياً او فكراً . لكن الاخلاق الاخرى هي اخلاق معلن عنها ومنظمة على اساس من السبب والنتيجة ، وهي لذلك قابـــلة لأن يتعلمها المرء ومعبرة عن القناعة واليقين .

فالاولى هي تاريخية مظهراً وجوهراً ، وتعترف بفروق المقامات والامتيازات

بوصف هذه امورا واقعية وبداهيــة او حكمية . والشرف في نظرها هو دائما شرف طبقة — اذ انـــه لا يوجد شيء « كشرف الانسانية » هذا . والمبارزة ليست واجباً محتوما على أناس غير احرار . فلكل انسان ، أكان بدويا ام ساموياً ام فلاحاً كورسيكيا ام عاملا ام قاضياً ام قاطع طريق ، ملزماته من قراعد الشرف والوفاء والشجاعة والثأر ، التي لا تنطبق على الانواع الاخرى من الحياة . فلكل حياة اخلاقية عرف — وهي امر لا يمكن التفكير بها بدون هذه الاخلاقية . والاطفال قد امتلكوها في لعبهم ، فهم يعرفون فوراً بانفسهم ما هو لائق وسديد . ولم يقم اي انسان بوضع هذه القواعد ، لكنها قائمة وموجودة . وهي تنشأ ، بصورة غير واعيـــة تماما من « الـ — نحن » التي كونت ذاتها من النبض المتجانس للجماعة . وهنا ايضا يكون كل كائن في « شكل لائق » . ولكل جمهور تجمهر في الشارع نتيجة لهذا الحرض او ذاك ، اخلاقيتـــه الخاصة بتلك اللحظة ، وكل فرد منه لا يتشرب هذه الاخلاقيـة ، ولا يناصرها بوصفها امراً غنياً عن البيان فيتبعها ، ويظهر اكثر من التعقلية في عمله بما هو موجود منها — هو مخلوق حقير بائس ، ولا منتمي . ويمتلك الناس غير المثقفين والأطفال ردة فعل مذهلة لهذه . وعلى كل حال فانـــه من المطلوب من الاطفال ان يتعلموا دستور الايمان ، ومن هـــذا الدستور يسمعون عن الخير والشر الموضوعين — وهذان قـد يكونان اي شيء ما عدا كونهما امراً واضحاً غنياً عن البيان فاخلاقيـة — العرف ليست بتلك الاخلاقية التي هي حقيقية ، بل انها الاخلاقية القائمة والموجودة هنا ، وهي امر من ولادة ونماء وشعور ومنطق عضوي . اما الاخلاق فهي على العكس من هذه ، اذا انها لا تكون ابداً امراً واقعاً (وذلك لانها لو كانت على هذه الحال لكان جميع البشر قديسين) ، بل هي قضية خالدة معلقـة فوق الشعور — وفروض سابقة فوق شعور جميع الناس على حد سواء ، وبغض النظر عن كل الفروق في الحياة الواقعية والتاريخ . ولذلك فان جميع

الاخلاق هي سلبية ، وكل اخلاقية - العرف هي ايجابية - اثباتية . فان يكون المرء في هذه الاخلاقية « بلا شرف » ، فهذه اسوأ صفة ، ولكن ان يكون بلا « خطيئة » فهذا ارقى نعت ينعت به .

ان المفهوم الاساسي لكل اخلاقية - عرف حية هو الشرف . وكل شيء غيره - من وفاء وتواضع وشجاعة وفروسية وضبط نفس وعزم - انما يشتمل عليه الشرف ويحتويه . والشرف هو قضية دم ، وليس بقضية عقل . فالانسان لا يتبحر في الامور المتعلقة بالشرف فكراً وتأملا - فهذا امر مخالف للشرف . وان يفقد المرء الشرف يعني ان يلغى من الحياة والزمان والتاريخ . فشرف الطبقة والعائلة والرجل والمرأة والشعب والوطن ، وشرف الفلاح والجندي وحتى قاطع الطريق - يعني ان للحياة في الانسان شيئا ما جديرا بالوقار التاريخي والرقة والنبالة . والشرف ينتمي الى الزمان الاتجاهي ، كما تنتمي الخطيئة الى الفراغ العديم الزمان وان يمتلك المرء شرفا داخل جسده يعني ان يمتلك عنصراً تقريبا . اما النوع المناقض فهو يتمثل في طبائع تارسيتس[١] ، وذوي النفوس الموحلة والدهماء واولئك « الذين يقولون ارفسنا بقدمك ودعنا نعيش » . فان يبلغ الانسان الاهانة وينسى الاذلال وتخور عزائمه فيجبن امام العدو - كل هذه الامور هي دلائل على ان الحياة قد اصبحت عديمة النفع ولا لزوم لها . ولكن هذه الامور هي ليست الامور ذاتها وفق مفاهيم الاخلاق الكهنوتية ، وذلك لان الاخلاق لا تلتصق بالحياة مهما كان ثمن التدني والانحطاط ، بل انها بالاحرى

---

(١) تارسيتس : كان ابشع الاغريق ، امام اسوار طرواده ، مظهرا واسقمهم لسانا وقد شتم الجميع وخاصة آشيل واوديسيس .

- المترجم -

ترفض الحياة وتستنكف عنها ، وهي على هذه الحال تستنكف مصادفة عن الشرف وترفضه . وكما قلنا سابقاً ان كل عمل من اخلاق هو في اعماقه جزء من التنسك وقتل للكينونة . ولذلك فان الاخلاق تقف خارج دائرة الحياة وميدان التاريخ .

- ٤ -

ومن الضروري هنا ان نتنبأ ، نوعا ما ، وان نتأمل باحثين عن المكان الذي يستمد منه تاريخ العالم (وخاصة في المراحل المتأخرة زمنا من الحضارات العظمى ومطالع المدنيات) تنوعه الموفور الثراء من الالوان والرمزية العميقة لاحداثه . ان المنزلتين الاوليين، النبالة والكهنوت ، هما اصفى تعبيرين لجانبي الحياة، ولكنهما ليسا بالتعبيرين الوحيدين . فهناك في الازمان المبكرة ، علاوة على ذلك ـ وتظهر ارهاصاتها فعلاً في الحقبة البدائية ـ مجاري كينونة وسلاسل من ترابطات تنطلق صعوداً وعياناً ، حيث ينتقل خلالها الزمان والفراغ الى التعبير الحي ، وهذه عندما (وليس الى ان) تتحد مع الزمان والفراغ تركب الامتلاء الكامل لما ندعوه بالتنظيم الاجتماعي او المجتمع .

فبينما ان الكهنوت هو ميكروكوسمي وشبيه بالحيوان ، نرى ان النبالة هي كونية وشبيهة بالنبات (ومن هنا ينشأ ارتباطها العميق بالارض) . .فالنبالة بالذات هي نبتة تضرب بذورها بقوة وعمق في التربة وتتوطد عليها — وهي من هذه الوجهة ، كما من وجهات اخرى كثيرة طبقة فلاحين عليا . ومن هذا النوع من الارتباط الذي تنشأ فيه فكرة الملكية ، هذه الفكرة التي هي بالنسبة

للميكروكوسمي ، المتحرك دون غل او قيد في الفراغ ، فكرة غريبة غرابة كليـــة . ان الملكية هي شعور اولي وليس مبدأ او مفهوماً ، وهي تنتمي الى الزمان والتاريخ والمصير ، ولا تنتمي الى الفراغ والسببية . وهي لا يمكن ان تركز على ركائز منطقية ، اذ انها قائمة وموجودة . « فالامتلاك » يبدأ بالنبات ثم يتكاثر وينتشر في تاريخ الجنس البشري الارقى حتى ذاك الحد الدقيق الذي يحتوي عنده التاريخ صفة نباتية وعنصراً . ومن هنا كانت دائما الملكية باشد ما لها من اصالة مفهوم ، ملكية ارض ، والاندفاع الى تحويـــل المكتسبات الاخرى الى ارض وتربـــة هو دليل صحيح الارومة سليمها . ان النباتات تمتلك الارض التي تضرب جذورها في تربتها . وهذه هي ملكيتها ، التي تدافع عنهـا بكل ما تمتلك كينونتها من زخم يائس ضد البذور الغريبـة ، وضد النباتات المجاورة لها والتي تغمرها بظلالها ، وضد كل الطبيعة ، اشد دفاع واعنــــده . وهكذا ايضا حال الطير ، اذ انه يدافع عن العش الذي يفرخ فيه . ولا تدور اعنف المعارك وامرها على الملكية والاموال المنقولة في المراحل المتأخرة زمناً من الحضارات العظمى ، بين الاغنياء والفقراء ، بل انما تدور هنا في مطالع عالم النبات . وعندما يشعر الانسان حوله في الغابة بهذه المعركة الصامتة العديمة الرحمة والدائرة ليلا نهارا بغية اكتساب التربـــة ، عندئذ يرغب مثل هذا الانسان ويرتجف رهبة من عمق الاندفاع المنطبق تقريباً على اندفاع الحياة نفسها . فهنا ، تنشب ، وعلى مدار السنة ، صراعات شديدة قاسية مريرة ، حيث يبدي الضعيف مقاومة يائسة للقوي ، مقاومة تبلغ حداً يتحطم عنده حتى المنتصر — وصراعات كهذه لا مثيل لها الا لدى الجنس البشري عندما تطرد عائلة فلاحية قديمة من تربتها ، من عشها ، او تستأصل عائلة من ارومة نبيلة ، او بتعبير ادق يستأصل المال مثل هذه العائلة من جذورها . والصراعات الاكثر جلاء واشد وضوحاً ، والتي تنشب في المدن فيما بعد ، معنى آخر تماما ، وذلك لأن هنا — في الشيوعية بكل انواعها — لا يكافحون خبرة الامتلاك ، بل انما يكافحون فكرة الملكيـة

المجردة بوصفها وسيلة مادية . فانكار الملكية أو نفيهـــا ، لا يكون ابدا نبضة عنصر ، بل انما هو الاعتراض العقائدي للشعور الواعي الصافي في عقلانيته وتمدنه، والعديم الجذور والمناهض للنباتية ، وهذا شعور القديسين والفلاسفة والمثاليين . والسبب ذاته هو الذي يستفز الراهب من صومعته والاشتراكي العلمي ـ اكان اسمه موه ـ تي Moh-ti أم زينون أم ماركس ـ ليرفضا ما هو شبيه بالنبات ، والشعور ذاته هو الذي يستحث الانسان ذا العنصر ليدافع عنه . وهنا نرى ، كما هي الحال دائماً وابداً ، الواقعة تناهض الحقيقة . « ان الملكية هي سرقـــة » هذا الشعار هو الشكل المفرط في ماديته للفكر القديم المتسائل : « مـــا فائدة الانسان اذا كسب كل العالم وخسر نفسه ؟ » . وعندمـــا يتخلى الكاهن عن الملكية ، فانما يتخلى عن شيء ما خطر وغريب ، ولكن عندما يقوم النبيل بهذا الامر فعندئذ يكون قد تخلى عن نفسه .

وهذا يفضي بنا الى ازدواجية الشعور بفكرة الملكية ـ الامتلاك كسلطة ، والامتلاك كسلب أو نهب . وكلا هذين يقعان مباشرة معـــاً داخل الناس البدائيين ذوي العنصر . فبطل البحر هو دائماً لص بحر ايضاً ، ولقد كان هدف كل حرب التملك ، واستملاك الارض قبـــل كل شيء . وخطوة واحـــدة تخطي ويصبح بعدهـــا الفارس الفارس اللص ، ويمسي المغامر فاتحـــاً وملكاً ، كروريك النورماني في روسيا ، وكالكثيرين من القراصنة الاتروسكان والآخيين في الازمان الهوميريسية . ونجد في جميع الشعر البطولي ، وجنباً الى جنب ، الغبطة الطبيعية بكسب المعارك والسلطان والنساء والانفجارات الطليقة من الفرح والحزن والغضب والحب والسرور الطاغي « بالامتلاك » . ولقد كان اول امر فعله اوديسيوس عندما نزل على شاطىء موطنه ان قام باحصاء الكنوز في سفينته ، ونرى في الاساطير الايسلندية كيف ان هجا لمار والفارود عندمـــا ادركا ان كل واحد منهما لا يملك بضائع في مركبه ، توقفا عن البراز فوراً ـ ان ذاك الذي يقاتل من اجل الفخار والشرف هو احمق الرأي اخرق . ولقـــد

كان التلهف ، في ملاحم الابطال الهندية ، على المعارك ، يعني التلهف على قطعان الماشية ، زد على ذلك ان الاغارقة « المستعمرين » في القرن العاشر كانوا بالاساس قراصنة كالنورمان . والمركب في البحار العالية ، بوصفه مركباً غريباً ، كان جائزة طيبة . ولكنه نشأ من المنازعات في جنوبي الجزيرة العربيـــة وصراعات الفرسان عام ٢٠٠ ب.م ومن « الحروب الشخصية » لبارونات بروفانس عـــام ١٢٠٠ ب.م – هذه الحروب التي لم تكن اكثر من حروب تدور على كسب الماشية – اقول نشأت في النهاية من هذه كلها الحرب بمعناها الصحيح ، الحرب العظمى المستهدفة الى اكتساب الاراضي واستملاك الشعوب . وهذا كله يرقى في النهاية بالحضارة الى ، قمة شكلها ، بينما نرى الكهنة والفلاسفة معاً يحتقرونها .

وعندما تبلغ الحضارة ذراها ، تنشأ بين هذين الحافزين (الامتلاك كسلطة ، الامتلاك كسلب – المترجم) الأولين المتباعدين تباعـــداً شديداً ، عداوة وبغضاء . وتاريخ هذا العداء تقريباً تاريخ العالم . فيتولد من الشعور بالقوة الفتح والسياسة والقانون ، وتنشأ عن شعور النهب التجارة والاقتصاد والمال . فالقانون هو ملكية الاقوياء . وقانونهم هو قانون للجميع . والمال هو امضى الاسلحة للكسب : فبالمال يخضع الكسب العالم . والاقتصاد يريد ويرغب ويتعمد اقامة دولة ضعيفة تناسب مصالحه وتخدمها . اما السياسة فتطلب من الحيـــاة الاقتصادية ان تتلاءم والدولة وداخلها – وهنا يطل علينا آدم سميث وفريدريك لست – الرأسمالية والاشتراكية . وجميع الحضارات تعرض في بداياتها نبـــالة حربية ونبالة تجارية ، ثم تعرض نبالة ارض ونبالة مال ، واخيراً ادارة عسكرية وادارة اقتصادية – حربية ، وصراعاً لا ينتهي بين المال والقانون .

ومن جهـــة اخرى ينفصل ، بالمثل ، الكهنوت عن التعليم . وكلاهمـــا لا يوجهان نحو ما هو واقعي بل نحو ما هو حقيقي ، وكلاهما ينتميان الى جانب التابو من الحيـــاة والى الفراغ . والخوف من الموت ليس منبعاً لجميع الاديان

فحسب ، بل هو منبع كل فلسفة وعلم طبيعي ايضاً . وهنا تنشأ ، على كل حال ، سببية دنيوية في تباينها والسببية المقدسة . والنجاسة هو المفهوم - المضاد الجديد « للديني » الذي كان حتى الآن قد تسامح والمعرفــة بوصف هذه خادماً له ووصيفاً . فجميع التنديد ، او النقد ، المتأخر زمنـاً ، هو ، بروحه ومناهجه ومقاصده واهدافه ، دنيوي - ولا يستثنى حتى اللاهوت المتأخر زمناً من هذه القاعدة . ولكن بالرغم من هذا تتحرك معرفـة جميع الحضارات بخطى راسخة ثابتة ، داخل اشكال الكهنوت السالف زمناً - وبهـذا تظهر على انها مجرد نتاج للتناقض نفسه ، وكيف انها تعتمد وستبقى تعتمد بكل شذرة من شذراتها ، على الصورة الاولية . ولذلك فان العلوم الكلاسيكية تعيش في طوائف - مذهب من الطراز الاورفي ، كمدارس ميليتوس Miletus ، والمجتمع الفيثاغوري ، والمدارس الطبية لكروتون وكوس Cos ، ومدارس الاكاديمـــة الاتيكية ، والمشائين (اتباع أوسطو - المترجم) والرواقيين ، وكل عميـد من عمد هـذه المدارس ينتمي الى طراز الكاهن القرباني (المقدم القربان) والى طراز العراف ، كما وان حتى المدارس الفقهية الرومانية ، مدارس سانبيان وبروكلياني تنتمي ايضاً الى هذا الطراز ، زد على ذلك ان الكتاب المقدس ، القانون الكنسي ، هو من هذه الناحية علمي ، كما هو من النواحي الاخرى عربي - اضف الى ذلك قانون بطليموس (المجسطي) والطبي لابن سينا ، وذاك الجسم الفلسفي الذي « ندعوه » « ارسطو » والمليء بالتزوير الى حـد بعيد - وكذلك ايضاً قوانين (لم يكتب معظمها) ومناهج الاقتباس والاستشهاد : والتفاسير بوصفها شكلاً لتطور فكر ، والجامعات كأديرة (Medrashim) - مدرسة - التي كانت تقـدم للاساتذة والطلاب الطعام والصوامع والكساء ، ونوازع دراسية اتخذت شكل اخويات . ومما لا ريب فيه ان العـــالم الغربي المتعلم يتلك شكل الكنيسة الكاثوليكية ، وخاصة في الاقاليم البروتستنتية . ولقد تشكلت حلقة الوصل بين فصائل المتعلمين في الحقبة الغوطية وبـين مدارس الفصائل المشابهة لهـذه في القرن التاسع عشر - كمدارس هيغل وكنت Kant ومدارس الفقه التاريخي ، وليس القليل من كليات

الجامعات الانكليزية ـ اقول تشكلت على ايدي الموريسيين Mauristis والبولانديين Bollandists في فرنسا الذين ابتداء من عام ١٦٥٠ فما بعده سيطروا وخلقوا الى حد بعيد « العلم » الثانوي للتاريخ وتوجد داخل جميع علوم التخصص (بما في ذلك الطب وفلسفة قاعات المحاضرات) سلطات كهنوتية طورت تطويراً عالياً حتى بلغت بابوات ـ المدرسة ، وذات درجات ورتب (فشهادة الدكتوراه هي سيامة وتكريس) واسرار مقدسة ومجامع . اما غير المثقف فيعامل بصرامة بوصفه « رجلاً عامياً » ، وفكرة الكهنوت المعمم تكمن داخل المؤمنين انفسهم ، وتظهر هذه في العلوم « الشعبية » ـ الداروينية مثلاً ـ التي تحارب بشدة وحماس . ولقد كانت لغة التعليم ، أصلاً ، هي اللغة اللاتينية ، لكن اليوم قد شكلت لغات خاصة من كل الانواع ، ذواتها ، وهذه اللغات غامضة مبهمة (مثلاً في ميداني النشاط الاشعاعي وقانون العقود) بالنسبة للجميع ما عدا اولئك الذين حصلوا على دراسة ارقى . وهناك مؤسسو شيع وملل ، كما كان الكثيرون من تلاميذ كنت Kant وهيغل ، وهناك مبشرون يبشرون غير المؤمنين كالموحدين Monists . وهناك هراطقة كشوبنهاور ونيتشه ، وهناك ايضاً سلاح الحرمان (البابوي ـ المترجم) ، وهناك ايضاً العقوبة التي تتخذ شكل مؤآمرة الصمت . وهناك حقائق اخلاقية ، (مثلاً تقسيم المرئيات في القانون الى اشخاص واشياء) ودوغمات (كدوغما الكتلة والطاقة ، ونظرية الوراثة) ، وطقوسية في اقتباس الكتابات الارثوذكسية ، ويوجد هناك ايضاً حتى نوع من تطويب كنسي علمي .

وقد ارتقى نموذج ـ العلامة التحرير في الغرب (الذي بلغ ذروته في القرن التاسع عشر فتساوى بذلك ونظيره نموذج ـ الكهنوت الحقيقي) بغرفة مكتبه حتى الكمال اذ جعلها كصومعة لرهبنة دنيوية لها نذورها اللاواعية ـ نذر الفقر في شكل الانفة الشريفة من حياة الترف والثروة ، والاحتقار الصادق لمحترفي التجارة ، ولكل استغلال للنتائج العلمية بغية تحقيق كسب او فائدة مادية ، ونذر

العفة الذي ولد بتولة العلم الصحيحة ، والتي كان « كنت » نموذجها وذروتها ، ونذر الطاعة ، حتى حد تضحية المرء بذاته عـــلى مذبح وجهة نظر المدرسة . واخيراً هناك ، علاوة على ذلك ، نوع من الاعتزال عن العالم ، هو صدى دنيوي للهروب الغوطي منه ، وهذا يفضي الى الاحتكار الكامل تقريباً للحيـــاة ، في شكلها العام ، وفي اشكال المجتمع الطيب ـ وهذا المجتمع يحتوي على القليل من « التأصيل » والكثير الكثير من التشكيل » . لقـد كانت النبالة حتى تشعباتها التي حدثت فيا بعد ـ القاضي ، تابع الشريف ، الضابط ـ لا تزال تحتفظ بالغبطة الطبيعية ذات الجذور القديمة القوية بتنفيذ ارومتهـــا وتجسيدها في الممتلكات والشرف ، لكن العالم (العلمي ـ المترجم) يعتبر هذه الاشياء زهيدة ضئيلة الى جانب امتلاك سريرة علمية مجردة وتنفيذ منهاج او وجهة نظر لم يفسدها المذهب التجاري العالم . أما الواقعة المقررة ان العلامة المعاصر لم يعد يعيش بمعزل عن العالم ، وانه يضع (ويطبق كثيراً بذكاء وحصافة) علمه في خدمة التقنية وجمع المال ، فهذه الواقعة تشير الى ان النموذج المجرد للعلامة قـــد بدأ بالتدهور والأفول ، وان العصر العظيم للتفاؤل العقلاني الذي عـــبر عن نفسه من خلال نموذج ـ العلامة تعبيراً حياً قد دخل في الماضي .

والخلاصة ، نرى ان للمنازل بنية طبيعية تشكل في تطورها وعملها التركيب الاساسي لمجرى حياة كل حضارة . ولم يأتِ هذا التركيب نتيجة لأي قرار معين او خاص ، فالثورات تبدله فقط عندما تكون اشكالاً لتطور ، وليست نتائج لارادة شخصية لبعض من الناس . وهو لا يدخل أبداً ، بمغزاه المليء كونياً ، شعور الناس بوصفهم فاعلين ومفكرين ، وذلك لانه يرقد عميقاً وعميقاً جـــداً داخل الكائن البشري ، وبذلك لا يكون غير حقيقة مادية بدهية وغنيـــة عن البيان . فمن على السطح فقط يلتقط الناس شعاراتهم واسبابهم التي يحتربون حولها على ذاك الجانب من التاريخ الذي تعتبره النظرية على انه رقد ترقيداً افقياً ، والذي هو في الواقع مجموع من تغلغلات لا يمكن الفصل بينها . وتنشأ اول ما تنشأ

النبالة والكهنوت من الصقع الطليق المفتوح ، ويمثلان الرمزية المجردة للكينونة والكينونة الواعية ، الزمان والفراغ . ومن ثم ينطلق متطوراً من الاول تحت مظهر السلب ، ومن الثاني تحت مظهر الابحاث نموذجان مزدوجان لزخم رمزي أدنى يرقى في المراحل المتحضرة المتأخرة زمناً الى مرتبة التسلط والغلبة في شكلي الاقتصاد والعلم . ويبلغ التفكير بفكرتي المصير والسببية ، خلال مجريي الكينونة هذين منتهاه ، ويكون هذا التفكير صارماً كل الصرامة ومناهضاً لكل تقليد . وتنشأ قوى تفصل بينها وبين المثل العليا للطبقة القديمة ، مثل البطولة والقدسية ، عداوة حاقدة مميتة - وهذه القوى هي المال والعقل ، وارتباطها بهذه المثل هو كارتباط المدينة بالريف . ومن هنا فصاعداً تدعى الملكية بالثروة ، ويسمى المطل على العالم بالمعرفة - أي المصير غير المقدس والسببية الدنيوية . ولكن العلم يتناقض والنبالة ، لان هذه لا تبرهن او تدال ، ولا تبحث او تتحدى ، بل هي طائفة قائمة وموجودة . ان القول «De Omnibus Dubitan Dum» يمثل موقف البرجوازي لا موقف الارستقراطي ، كما وانه ، في الوقت ذاته ، ينقض الشعور الاساسي للكهنوت حيث ان الدور الاساسي للتنديد ، بالنسبة للكهنوت ، هو دور الخادم والوصيف . ويجد الاقتصاد ايضاً هنا عدواً له يتمثل في شكل اخلاق التنسك التي ترفض جمع المال وتحتقره تماماً كاحتقار النبالة الأصيلة المرتكزة الى الارض . وفي كثير من الحال بادت حتى النبالة التجارية القديمة (كمدن الهنسا ، والبندقية وجنوا) وذلك لان هذه بما لها من تقاليد لم تستطع ولم تقبل الموافقة على المفهوم الاعمالي (من تجاري وغيره - المترجم) للمدينة الكبرى . ومع كل هذا فان الاقتصاد والعلم يكن الواحد منها للآخر عداوة شديدة ، ونحن لنصادف مرة اخرى في الصراع بين جمع المال والمعرفة ، بين دار المحاسبة وغرفة المطالعة ، بين الليبرالية الاعمالية والليبرالية العقائدية ، اقول نصادف التناقضات العظمى بين

العمل والتأمل ، بين القلعة والكاتدرائية . وهذا النظام للاشياء ، يظهر في هذا الشكل او ذاك ، في كل حضارة ـ ومن هنا تنشأ امكانية قيـام مورفولوجيا مقارنة في الناحية الاجتماعية ، كما في النواحي الاخرى من التاريخ .

وتقع الطبقات المهنية ـ الحرفيـة ـ بكليتها خارج نطاق مرتبة المنازل الحقيقية ، واعني بهذه الطبقات العمال المهرة والموظفين والفنانين والعمال ، الذين يرجع تاريخ انتظامهم في نقـابات (مثلاً نقابات الحدادين في الصين والنساخ في مصر والمغنين في العالم الكلاسيكي) الى العهود الغارقة في القـدم ، والذين يتطورون فعلاً ، بسبب انعزالهم المهني (هذا الانعزال الذي يبلغ احياناً حـد عدم زواجهم من الآخرين) فيصبحون قبائـل وعشائر حقيقية كما هي الحـال مثلاً مع الفلاشا في الحبشة ، وحال بعض طبقات السدرا التي عدد اسماءها قانون مانو . وانعزالهم هذا يعود فقط الى انجازاتهم التقنية ، ولذلك لا يعود الى كونهم اوعية لرمزية الزمان والفراغ . وتقاليدهم هي ، بالمثل محدودة بتقنياتهم ، ولا تستند الى اخلاقية ـ عرف او الى اخلاق خاصة بهم ، كما نجد هـذا دائماً في الاقتصاد والعلم اللذين هما على هذه الحال . ولمـا كان القضاة والضباط يشتقون من النبالة لذلك هما طبقتان ، بينما ان الموظفين هم حرفيون ، ولمـا كان العلماء يشتقون من الكهنوت فهم اذن طبقة ، بينما ان الفنـانين يشكلون حرفة . ومفهوم الشرف والضمير يلازمان عند الفئة الاولى الرتبة والمقام ، بينما يلتصقان لدى الفئـة الثانية بالانجـاز . وهناك شيء مـا من الرمزية ، بالرغم من انه قـد يكون ناحلاً ضعيفاً ، في كل مرتبة من الفئة الاولى ، لكنه لا يوجد اي أثر من هذا لدى أية مرتبة من الفئة الثانية . ونتيجة لذلك نشعر بان هناك شيئاً ما من غرابة وشذوذ ، ومراراً ، خزي وعيب يلتصق بابناء الفئة الثانية ـ فلنتأمل ، مثلاً في الجـلادين والممثلين والمغنين الجوالين ، او فلنتبصر في اي تقـدير كان يكنه العالم الكلاسيكي للفنان . فطبقات او نقابات هؤلاء تنعزل عن المجتمع

العام او تطلب الحماية لدى انظمة المجتمع (او لدى الحماة الافراد وامثال مايسناس [1] Maecenas اما ان تلائم هذه بين ذواتها والمجتمع فهذا امر لا تستطيعه ، وعجزها عن القيام به يجد له تعبيراً في حروب النقابات التي عرفتها المدن القديمة ، وفي الشذوذ من كل نوع في غرائز الفنانين واخلاقهم .

- ٥ -

ان تاريخ منازل او طبقات يتجاهل مبدئياً تاريخ الطبقات الحرفية او المهنية ، هو ، لذلك ، عرض للعنصر الميتافيزيقي في الجنس البشري الارقى ، من ناحية ، ارتقاء هذا الجنس الى الرمزية العظمى في انواع الحياة المتدفقة ، انواع يتحرك ، داخلها ومعها من البداية حتى النهاية ، تاريخ الحضارات حتى يبلغ اكتماله .

ويكون نموذج الفلاح المحدد تحديدا دقيقا ، في مستهل البداية وفاتحتها شيئا ما جديدا . فلقد كان الرجال الاحرار والعمال الزراعيون Hinds في الازمان الكرولانجية في النظام القيصري المعروف باسم « مر » « Mir » في روسيا هم الذين يقومون بفلاحة الارض وزراعتها وجني مواسمها ، لا الفلاحون (اذا لم يكن هناك فلاحون بالمعنى المألوف لهذه الكلمة - المترجم) وفقط عندما ينشأ الشعور بكون الكائن مختلفا عن « الحياتين » الرمزيتين ، تصبح هذه الحياة منزلة

---

(١) مايسناس : كان حاميا للشاعرين فرجيل وهوراس .
- المترجم -

والمنزلة الاغذائية ـ المغذية ـ Nourishing ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، اذ ان جذر نبتة الحضارة العظمى الذي كان قد ضرب بانسجته عميقا داخل تربة الارض الام ، يمتص ، بصورة معتمة وبمثابرة واجتهاد ، جميع العصارات داخله ، ويرسل بها الى الاجزاء العلوية ، حيث تشمخ الجذوع والاغصان عاليا داخل ضوء التاريخ ونوره . وهو ـ اي الجذر ـ لا يخدم الحياتات العظمى بتغذيتها ، او اغذائها فقط ، بل انما يقدم اليها ايضا حصاد الام الارض الآخر ذاك ـ يقدم اليها دمها الخاص ، وذلك لأن الدم كان يتدفق طيلة قرون وقرون من القرى الى داخل الاماكن الراقية ، حيث كان يتلقى هناك الاشكال السامية ، ويحافظ على الحياتات الراقية ويذود عنها ، وتسمى هذه العلاقة (من وجهة نظر النبلاء) بالمقطعية Vassalage (التبعية ـ المترجم) ونحن نجدها تنشأ في الغرب ـ مهما قد تكون الاسباب السطحية في كل قضية ـ بين عام ١٠٠٠ وعام ١٤٠٠ ، وفي المراحل « المعاصرة » لهذه من الحضارات الاخرى . فطبقة الهيلوتري Helotry في اسبرطة تنتمي اليها ، وكذلك الطبقة الرومانية القديمة Clientela (التي كانت ابناؤها يتعيشون على حساب طبقة النبلاء في المدينة Patrecians ـ المترجم) والتي نشأت منها بعد عام ٤٧١ طبقة العوام الريفية ـ وهذه تتشكل من ملاك ارض احرار . والحق ان زخم الكدح ذاك لمذهل وعجيب ، الكدح نحو الشكل الرمزي وذلك في مرحلة التشكل الكاذب الروماني المتأخرة زمنا ، حيث تطور الى الوراء نظام الطبقات للبرنسنبيت Principate الذي وضعه اوغسطس (وبتقسيمه موظفي الحكومة الى خيالة وسناتورين) ، حتى بلغ في سيره خلفاً قرابة عام ٣٠٠ حيث عاد ، في كل مكان خاضع لسيطرة الشعور المجوسي بالعالم ، الى الوضع الموازي للوضع الغوطي في عام ٣٠٠ ـ وهذا الوضع هو في الواقع ، وضع الامبراطورية الساسانية لزمنه . كما ونشأ من طبقة الموظفين في الادارات العامة البالغة مرتبة جد راقية من المدنية ، نبالة ثانوية تتألف من العرفاء العسكريين Decurions وفرسان القرى وسياسي البلدان الذين كانوا مسؤولين امام صاحب

السلطان ، جسداً ومالاً ، عن جميع المنصرفات - وهذا نظام اقطاعي متطور الى الوراء - وحيث اصبحت تدريجيا وظائف هؤلاء وظائف متوارثة يرثها الابن عن الاب ، تماما كما حدث في مصر خلال حكم العائلة الخامسة ، وفي الصين في القرون الاولى من حكم آل شو Chou ، وفي اوروبا في حقبة الحروب الصليبية . كما واصبحت الرتب العسكرية من ضباط وعساكر على حد سواء ، متوارثة ايضا وفق الطريقة ذاتها ، واصبحت الخدمة واجبا اقطاعيا ، وكذلك امسى كل الباقي الذي نظمه فوراً ديوكلتسيان في قوانين رسمية . وبذلك كان الفرد قد ربط ربطاً وثيقا بالمرتبة ، كما ووسعت دائرة سريان هذا المبدأ حيث فرضت على جميع العاملين في التجارة ان يكونوا اعضاء في النقابات ، كما كانت الحال في المراحل الغوطية او مصر القديمة . ولكن ، وقبل كل شيء ، نشأت بالضرورة ومن انقاض الاقتصاد العبودي الكلاسيكي المتأخر زمنا ، اقتصاد « لاتيفونديا » Latifundia جاليات من صغار الفلاحين المتوارثين ، بينما اصبحت الاقطاعات الكبرى مديريات ذات نظام اداري ، وامسى السيد مسئولا عن جباية الضرائب وتأمين سوق حصة مديريته من المجندين الى الجندية . وقرابة الفترة الواقعة بين عام ٢٥٠ وعام ٣٠٠ ، اصبح كل فرد من ابناء هذه الجاليات من صغار الفلاحين مربوطا قانونيا بالارض (Adscriptus glebae) . وبهذا بلغ الفرق بين السيد الاقطاعي والمقطع Vassal بوصف كل واحد منهما يمثل طبقة ، اقول بلغ حده .

ان لكل حضارة جديدة نبالتها وكهنوتها . اما الاستثناء الظاهري لهذه القاعدة فانما يعود فقط الى غياب التقاليد المحسوسة . فنحن نعرف اليوم بان كهنوتا حقيقيا قد وجد في الصين القديمة ، ويمكننا ان نزعم ، كأمر غني عن البيان ، بوجود طبقة كهنوت في مطالع الاورفية في القرن الحادي عشر قبل الميلاد — وزعمنا هذا يزداد ثقة واطمئنانا اذ ان لدينا دلائل واضحة عنه في الشخصيتين الملحميتين لكل من كلخاس Calchas وتيرسياس Tiresias . كما وان تطور .

النظام الاقطاعي المصري يفترض بالمثل ، وجود نبالة بدائية تعود حتى الى العائلة الثالثة . لكن الشكل الذي داخـــله والقوة التي بواسطتها قد حققت بادىء ذي بدء ، المنازل الاوليـــة ذواتها ومن ثم سيطرت على مجرى التاريخ ـ فشكلته وحملته وحتى مثلته بمصائرها الخاصة ـ انما هو شكل يعتمـد على الرمز الاولي الذي ترتكز عليه كل حضارة بكل ما لها من لغة ـ شكل .

ان النبالة ، وهذه شبيهة كليا بالنبات ، تنطلق في كل مكان من الارض التي هي ملكيتها الاوليـة والتي ترتبط اليها باوثق رباط . وهي تمتلك في كل مكان الشكل الاسامي للعائلة ، الامرة ـ العشيرة (والتي لذلك يعبر فيهـــا ايضا عن الجنس الثاني للتاريخ ، الانثوي) وتظهر ذاتها بواسطة ارادة الديمومة ـ اعني ديمومة الدم - بوصفها رمزا عظيما للزمان والتاريخ . ويتبدى لنا ان الوظائفيـة المبكرة Officialdom لوضع المقطعين Vassal المبنية على الموثوقية الشخصية في كل مكان ـ في الصين ومصر كما في العالمين الكلاسيكي والعربي ـ تمر باطوار التطور ذاتها ، فتخلف اولاً وظائف ومراتب بلاط شبيهة بالاقطاعيـــة ، ثم تسعى الى انشاء روابط وراثيـة والارض ، واخيرا تصبح اصلا لسلاسل نسب العائلات النبيـــلة .

وتعبر الارادة الفاوستية للانهائية عن ذاتها بواسطة مبدأ تسلسل الانساب ، وهذا المبدأ مبدأ خاص بهذه الحضارة ـ وهذا الامر قـد يبدو غريبا . زد على ذلك انه في هذه يتخلل متلاصقا ويقولب جميع الاشكال التاريخية ، وخاصـة اشكال الدول نفسها تلك . فالحس التاريخي الذي يصر ويلح على معرفة مصائر اسلافه خلال القرون المتصرمة من الزمن ويلاحق دلائل المحفوظات Archive ومعلومات المراجع حتى اسلافه الاولين ، واعداد شجرة العائلة وتنسيقها بعناية واهتمام ، هذا الاعداد الذي لديه من القدرة ما فيه الكفاية ليجعل التملك الحاضر والوراثة يعتمدان على اقدار زواج واحد لربما عقد قبل خمسماية سنة ، ومفاهيم

الدم النقي والولادة المتكافئة ، والزواج غير المتكافيء – كل هذه الامور هي ارادة الاتجاه في الزمان . وليس لهذا الامر من مثيـــل ، ما عدا لدى النبالة المصريـة ، لكن الاشكال المشابهة التي بلغتها هـــذه ، كانت اضعف بكثير من تلك .

اما النبالة من الطراز الكلاسيكي ، فهي على العكس من هذا ، اذ انها ترتبط بالمرتبة الراهنة لعائلة العصب ، وتنطلق منها مباشرة الى الاصل الاسطوري الذي لا يتضمن المغزى التاريخي من قريب او بعيد ، بل يتضمن فقط اشتهاء فخماً جليلا ، بغض النظر عن كل احتمالية تاريخية ، لأصول رائعة لما يعاصره في آنـه ومكانـه من الاحياء . وعلى هذا الشكل فقط نستطيع ان نفسر تلك السذاجة المحبطة المذهلة ، المتباينة ، التي كانت تجعل الفرد يرى ان زفس وهرقـل يقفان ما بعد جده على مستوى زماني واحد ، وتدفع به الى صناعة شجرة عائلة (او ربما عدة شجرات كما فعل الاسكندر) ، وكذلك تلك الخفة الجذلة التي كانت تندفع بعائلات رومانية محترمة الى صهر اسماء اسلاف مشهورين في قوائم قنصلية قديمة . وكانوا يحملون في موكب تشييع جنازة احد نبلاء الرومان الاقنعـــة الشمعية لاجداده العظام ، لكنهم كانوا يقومون بهذا العمل مدفوعين فقط بحب عرض عدد وصحة الاسماء المشهورة ، لا رغبة في اقامـة اقل رباط من تسلسل نسب والحاضر . وهذه الظاهرة تتبدى في كل النبالة الكلاسيكية التي ، تركيبيا وروحيا ، شكلت ، كالغوطية ، وحدة باطنيـة واحدة ابتداء من اتروريا حتى آسيا الصغرى . وعلى هـــذه النبالة استندت القوة التي كانت لا تزال ، حتى في مطلع الحقبة المتأخرة زمنا ، ملكا لمجموعة من عائلات شبيهة بالقبيلة (فخذ ، بطن عشيرة) ، والتي حافظت على عضويـــة ووحدة مرهونتـــين بحاضرها ، بواسطة اشكال طقوسية مقدسة – مثلا بطون العشيرة الدورية الثلاثة ، وبطون العشيرة الايونية الاربعة ، والقبائل الاتروسكانية الثلاث التي ظهرت في التاريخ

الروماني الابكر زمنا باسمـــاء تيتس Tities ورمنيس Ramnes ولوسيريس Luceres . ونفسا الام والاب لدى فيداس لهما الحق بطقوس نفس وذلك حتى الاجيال الثلاثة الاقرب ، والثلاثـة الاخرى الابعد من هذه ، وبعد هذه الاجيال السته للزمن الحق كل الحق ان يطويهم داخل ذمته . وليس هناك من مكان آخر غير الهند حيث نرى فيهـا المذهب الكلاسيكي لعبادة الاسلاف يمتد فيها امتداده في عالمه . بينما ان هـــذا المذهب هو على العكس تماما من ذاك لدى الصينيين والمصريين ، اذ انهم كانوا يرون نظريا ، ان التسلسل النسبي لا نهاية له ، وهذه النظرة حافظت على كيان العائلة داخل تنسيق معين حتى ما وراء الموت الجسدي . وحتى هـــذا اليوم يعيش في الصين دوق ، كونغ K'ung يتحدر من صلب كونفوشيوس ، وايضا من لاوتسي وشانغ – لو والآخرين . وليست القضيـة قضية شجرة عائـــلة كثيرة في تفرعاتها واغصانها ، بل انما هي تتابع تسلسل النسب طاو – الكائن – وبصراحة بواسطة التبني اذا ما اقتضت الحاجة (فالابناء بالتبني المرتهنون بمذهب عبادة الاسلاف ، يكونون بذلك قـــد انضموا روحيا للعائلة وامسوا من اغصانها) او بواسطة وسائل اخرى .

ويتدفق خلال القرون المزدهرة لمنزلة النبالة ، هذه المنزلة المتفوقـة ، سيول عرمة من فرع طاغ من الحياة ، حيث انها اتجـاه ومصير وعنصر سداة ولحمة . فالحب يتدفـق ، لان المرأة هي تاريخ ، والحرب تنشب ، لان القتال يصنع التاريخ ، وهذان هما البؤرتان المعترف بهما لافكار هـــذه المنزلة وشعورها . وينطبق شعر السكالد Skald الشمالي واغاني الميني الجنوبية ، على اغاني الغرام لعصر الفروسية الصينية في شي – كنغ والتي كانت تغنى في بي – يونغ ، القصور التي كان يجري فيها تدريب النبلاء وتثقيفهم (Hiao) . كما وان المهرجانات العامة لرمي السهام كتلك المباريات الكلاسيكية المبكرة ، ولعب الجريـد الغوطي والفارسي – البزنطي ، هي مظاهر الحياة على جانبها الهوميروسي .

وتقف الاورفية موقفا متباينا وهذا الجانب ــ وهذه هي تعبير خبرة الفراغ لحضارة بواسطة طراز كهنوتها . وهي بهذا تتوافق والصفة اليوقليدية للامتداد الكلاسيكي ــ الذي لم يكن بحاجة الى وسيط ليتعامل والآلهة الحجميين والقريبين منه ، ولهذا انحل الكهنوت بوصفه منزلة ، منذ البداية وهبط فامسى وظائف مدنية . وبالمثل ، فانه لأمر بالغ الاثر من الطاو الصيني ، ان تحل محل الكهنوت الاصلي المتوارث ، طبقات محترفة من المصلين والنساخ وكهنة الاوراكل الذين كان باستطاعتهم ان يصاحبوا القيام بالشعائر الدينية للسلطات ورؤوس العائلات بالطقوس المعينة الموضوعة . وهذا كان ايضا متوافقا والشعور الهندي بالعالم الذي اضاع ذاته في لا نهائية لا قياس لها ، فاصبحت طبقة الكهنة هنا النبالة الثانية وامست تمتلك سلطة هائلة وتتدخل متطفلة في كل انواع الحياة ، وتنتصب واقفة بين الشعب وبين تيه من الآلهة ، واخيرا انه لتعبير شعور « الكهف » كون الكاهن من الطائفة المجوسية الحقيقية راهبا وناسكا ، وكونه يتزايد مع الزمن رهبنة ونسكاً ، بينما يفقد الاكليروس الدنيوي بصورة مستمرة مغزاه الرمزي .

وخلافا لهذه جميعها فهناك الكهنوت الفاوستي الذي بالرغم من انه كان في عام ٩٠٠ لا يزال يفتقد كل مغزى عميق ، غير انه اندفع بعد هذا العام في مدارج الرقي حتى بلغ ذاك الدور السامي ، دور الوساطة الذي وضعه مبدئيا بين الانسانية (كل الانسانية) وبين الكون الاكبر ، هذا الكون الذي عمل فيه الوجد الفاوستي للبعد الثالث ، توسيعا ومداً الى اقصى حد قد يبلغه الخيال . ولما كان هذا الكهنوت قد عزلته العفة عن التاريخ وعزلته الصفة الراسخة عن الزمان ، لذلك فانه بلغ ذروته في البابوية التي تمثل اسمى رمز يمكن ان يدركه العقل للفراغ الديناميكي لله ، وحتى الفكرة البروتستنتية للكهنوت المعمم لم تدمر هذا الكهنوت الفاوستي ، بل انما نقلت مركزيته من نقطة واحدة ، وشخص

واحد ، ووضعتها داخل قلب كل فرد مؤمن .

ان التناقض القائم بين الكائن وبين الكائن الواعي والموجود داخل كل كون اصغر ، يدفع بالضرورة بالمنزلتين لتناهض الواحــــدة منها الاخرى . فالقوة الروحية ، والقوة الدنيوية هما حجمان يبلغان حداً من الاختلاف في التركيب والنازع ، حيث يبدو عنـــده قيام اية مصالحة ، او حتى تفاهم بينهما ، امرا مستحيلا . ولكن هذا الصراع لم يبلغ في كل حضارة مبلغ التعبير عن نفسه . ففي الصين صعد هذا الصراع الى فكرة الطاو القائلة بان السيادة يجب ان تستقر آمنة في الارستقراطية. اما في الهنـد فان مفهوم الفراغ ، بوصفه فراغاً لا نهائياً وغير معين ، قد استوجب ان تكون السيادة للكهنوت .

اما في الحضارة العربية ، فان الشعور المجوسي بالعالم يتضمن مبدئيا اندراج المجتمع المنظور دنيويا للمؤمنين ، بوصفه الجزء الاصلي الموجد Constituent ، في الاتحاد – الاجماع – العظيم ، لذلك استوجب قيام وحدة من نظام حكومي روحي ودنيوي ، وقانون وسيادة . وهذا الامر لا يدل على انه لم يكن هناك احتكاك او خلاف في الرأي بين المنزلتين ، فالواقع عن هذا القول جد بعيد ، فلقد نشبت في الامبراطورية الساسانية صراعات دموية بين الارستقراطية الريفية وبين الدِخان Dikhans وحزب ماجي – وقد قتل في بعض الحوادث حتى ملوك وسلاطين – كما وان كامل القرن الخامس البزنطي مليء ومترع بالصراعات التي دارت بين السلطة الامبراطورية والاكليروس ، والتي تشكل قاعدة دائمة للجدل اليعقوبي والنقاش النسطوري . لكن التحابك الاساسي لهاتين المنزلتين لم يكن ابدا موضوعا لنقاش او جدل .

اما في العالم الكلاسيكي ، هذا العالم الذي يمقت اللانهائية ويكرهها ، فانه قد جرى اختزال الزمان الى الحاضر منه ، والامتداد الى وحدة من احجام ملموسة ،

ونتيجة لذلك اصبحت المنزلتان الرمزيتان العظيمتان عاطلتين من المعنى الى حد ، انهما اذا ما قورنتا عنده بدولة المدينة التي كانت تعبر عن الرمز الاولي الكلاسيكي بافصح اسلوب يدركه الخيال ، فانهما لا تعتبران اطلاقا سلطتين مستقلتين . اما في تاريخ الجنس البشري المصري ، الذي هو تاريخ الكـــدح بزخم متساو (والفاوستي – المتوجم) نحو ابعاد من الزمان والفراغ ، فان الصراع بين هاتين المنزلتين وبين رمزيتيهما امر جلي وواضح دائمـــاً حتى المرحلة الكاملة في فلاحيتها من هـــذا التاريخ . وذلك لان مرحلة الانتقال من العائلة الرابعـــة الى العائلة الخامسة ، هي مرحلة يصاحبها الانتصار المنظور للشعور الفروسي الدنيوي ، فالفرعون يصبح ، بعد ان كان جسدا ووعاء للاله الاسمى ، خادما لهذا الاله ، ويتفوق معبد رع على معبد – القبر ، بهندسته وزخمه الايحائي . ولقد شهدت الامبراطورية الجديدة ، ومباشرة بعـــد قياصرتها العظام ، الارستقراطية السياسية لكهنة أمون Amen في طيبـة ، ومن ثم شهدت ايضا ثورة الملك « المرطيق » امينوفيس الرابع (أخنـاتو ن) – الذي يشعر المرء شعورا صادقاً بان لهذا الملك جانبـــين احدهما سياسي والآخر ديني – وهكذا انتهت مصر ، بعد صراعات غير محدودة نشبت بين طبقة المحاربين وطبقة الكهنة ، الى قبضة سيطرة اجنبية غريبة .

وقد دارت رحى المعركة ذاتها ، في الحضارة الفاوستية ، بين هذين الرمزين السامين المتكافئـــين في القوى ، بالروح ذاتها تقريبا ، غير ان السورة النفسية الفاوستية كانت اشد واقوى من نظيرتها المصرية – وهكذا فاننا لا نرى ابتداء من الحقبة الغوطية المبكرة فما بعدها ، ان الهدنة ، لا السلام ابداً ، كانت هي الامر الوحيد الممكن تحقيقه بين الدولة والكنيسة . ولكن العقبة التي تعترض سبيل الكائن الواعي في هذا الصراع تنبىء – ان هذا الكائن الواعي يريد ان يتحرر من اعتماده على الكائن ، لكنه لا يستطيع او يقدر . فالعقل يحتاج للدم ، لكن الدم لا يحتاج للعقـل . والحرب تنتمي الى عالم الزمان والتاريخ – اما المعارك العقلانية فسلاحها الوحيد هو العقل ، المناقشة فقط – ولذلك يتوجب على

الكنيسة المناضلة ان تهاجر من عالم الحقائق الى عالم الوقائع – ان تهجر عالم يسوع الى عالم بيلاطوس . وهكذا تصبح جوهرا في تاريخ العنصر ، وموضوعا لقوى توليدية ، تشكيلية من الجانب السياسي للحياة . فلقد كانت الكهانة ، ابتداء من عصور الاقطاع المبكرة حتى الديمقراطية الحديثة ، تقاتل بالسيف والمدفع والسم والخنجر ، والرشوة والخيانة ، وبكل الاسلحـــة التي تستعملها الاحزاب في عصرها . وكانت تضحي (ببعض) مبادىء الايمان بغية تحقيق مكاسب دنيوية ، وتتحالف مع الهراطقة والملاحدة ضد القوى الارثوذكسية . وللبابويـــة ، كفكرة ، تاريخ خاص بها ، ولكن هـــذا التاريخ لا يمت بصلة الى موقف البابوات في القرنـــين السادس والسابع بوصفهم نواب ملك Viceroy او ولاة بزنطيين من اصول سورية وإغريقيـة ، او الى تطورهم فيما بعد الى ملاك ارض ذوي صولة ونفوذ وسلطان على جماهـــير من الفلاحين الرعايا ، او الى الآباء الدينيين الوارثين Patrimonium petri ، في الازمنة الغوطيـة المبكرة – فلقد كان يوجد (في هذين القرنين – المترجم) نوع من دوقية في حوزة عائلات كبرى من اقليم الكامبـــانا Campagna [1] (كولونا Colona اورسيني Orsini ، سافيلي Savelli فرنجباني Frangipani) التي كانت بصورة متناوبة تنصب البابوات ، حتى ساد اخيرا هنـــا ايضا النظام الاقطاعي الغربي العام ، واصبح الكرسي البابوي موقوفا على عائلات من بارونات رومان ، وهكذا كان على كل بابا جديد ، ان يحذو حذو الملوك من المان وفرنسيين ، فيقر بحقوق المقطعين Vassals التابعين له . وقـد قام في عام ١٠٣٢ كونتات توسكولوم Tusculum بترشيح صبي يبلغ الثانية عشرة من العمر ، لمنصب البابا اذ انـــه

---

(١) Campagna : مقاطعة ايطاليـــة تقع حول روما وتبلغ مساحتها ٨٠٠ ميل مربع .

– المترجم –

كانت تنتصب في تلك الايام ٨٠٠ برج قلعة فوق ووسط الانقاض والخرائب الكلاسيكية المحيطة بمنطقة روما . وقـــد خندق عام ١٠٤٥ ثلاث بابوات في الفاتيكان وكان يدافع عنهم النبلاء من مناصريهم .

والآن خرجت المدينة بما لها من نفس خاصة بها الى ميدان الوجود ، وجـــاء خروجها بادىء ذي بدء بتحرير ذاتها من نفس الريف وروحـــه ، ومن ثم الانتصاب امام الريف بوصفهـــا نداً له ، واخيراً سعيها لاخضاع روح الريف واخماد جذوتها . ولكن هذا التطور قد حقق ذاته داخل انواع من الحياة ، وهو لذلك جزء من تاريخ المنازل او الرتب . وتنشأ حياة المدينة على هذا الشكل — من خلال سكان هذه المستوطنات الصغيرة المكتسبين نفساً مشتركة (جماعية — المترجم) والذين يصبحون واعين ان الحياة في الداخل — داخل المستوطنات — المترجم — هي شيء ما يختلف عن الحياة في خارجها — وهنا يبدأ فوراً سحر الحرية الشخصية بالنشاط واجتذاب تيارات من الحياة وسيولها لتتدفق داخل الاسوار ، وهذه السيول تتزايد جدّاً في انواعها . وهنـــا ينطلق نوع من حماس للتحضر ولنشر الحياة المتحضرة . وهذا الحماس وليست الاعتبارات المادية ، هو الذي ولد حميا مرحلة الاستعمار في العالم الكلاسيكي ، التي لا نزال نتعرف عليها من خلال عساليجها الصغيرة ، والتي هي ليست باستعمارية اطلاقاً وفق المفهوم الدقيق الصحة لهذه الكلمة . وذلك لان حماساً مبدعاً داخل انسان المدينة هو الذي اجتذب ، منذ القرن العاشر قبل الميـــلاد (وفي القرون « المعاصرة » لهـــذا القرن من الحضارات الاخرى) جيلاً بعد جيل تحت سحر الحيـاة الجديدة ، التي نشأت معها لاول مرة فكرة الحرية في التاريخ البشري . وهذه الفكرة لا تنتسب الى اصل سياسي (وحتى ، اقل من هذا ، اصل تجريدي) ، بل انها شيء ما يدفع بالواقعة الى التعبير عن ان الارتباط الشبيه بارتباط النبات بالتربة قد انتهى داخل اسوار المدينة وتصرم عهده ، وان الخيوط والانسجة التي تتخلل حياة الريف قـــد قطعت ، ونتيجة لذلك فان فكرة الحرية تحتوي ابداً ودوماً على نفي وانكار ،

فهي تفك وتفتدي وتحمي وتحرر دائماً الانسان من شيء ما . والمدينة هي التعبير لهـذه الحرية ، فروح المدينة هو الفهم الصائر حراً ، وكل شيء يتعلق بالحركات العقلانية والاجتماعية والقومية والذي قد ينفجر في المراحل المتأخرة زمناً باسم الحرية وتحت شعارها ، انما يعود الى اصل هذه الواقعة الاولية ، واقعة الانفكاك عن الارض والتحلل من رباطها .

ولكن المدينة هي اقدم من « المواطن فيها » Citizen . وهي تجتذب اول ما تجتذب طبقات الحرفيين ، او المهنيين ، الذين هم والحال هـذه ، خارج دائرة المنزلتين الرمزيتين ، وحتى عندما يتخذ الحضر شكل نقابات . ثم تجتذب المنزلتين الاوليتين نفسيهما ، فتنقل النبالة الصغيرة قلاعها ، والفرنسيسكان اديرتهم الى داخل محيط المدينة . وحتى هـــذه الفترة ، لا يكون الكثير قد تبدل باطنياً . وليس روما البابوية وحدها ، بل ان جميع المدن الايطالية العائدة الى تلك الازمان ، ملئت بالابراج المحصنة ، للعائلات التي كان افرادهـا يتبارزون ويتعاركون في الازقة والشوارع . وتبدو هذه الابراج في صورة مشهورة لمدينـة سينا Siena حول سوقها كأنها مداخن المصانع . وبالنسبة للقصر الفلورنسي من عصر النهضة ـ وهـــذا القصر فيما يتعلق بالحياة المشرقة داخله هو وريث بلاطات بروفنسال ـ أقول بالنسبة لهذا القصر هو بواجهته المتريفة عسلوج من القلاع الغوطية التي كان الفرسان الالمان والفرنسون لا يزالون ، آنذاك ، يشيدونها على تلالهم . والحق ان الحياة كانت تنفصل خارجاً ببطء فقط . وقد قامت العائلات المهاجرة في جميع البلاد الغربية ـ الى المدن ـ بـــين عام ١٢٥٠ وعام ١٤٥٠ ، بحشد اعضائها وتركيزهم في طبقات النبلاء قبالة النقابات ، وهم بعملهم هذا قد فصلوا انفسهم من الناحية الروحية ، كما من النواحي الاخرى ، عن طبقة النبلاء الريفيين . وقد حدث هذا الامر بالذات في الصين ومصر في عصورهما المبكرة ، وفي الامبراطورية البزنطية ، وعلى هذا الضوء فقط نستطيع ان نفهم عصبات المدن الكلاسيكية الاقدم زمناً (كعصبة الاتروسكان ومن الجائز ايضاً عصبة اللاتين) ونعرف امر الترابطات

التي كانت قائمة بين المدن البنات المستعمرة وبين المدينة الام . ولم تكن المدينة ، وهذه حالها ، هي العمود الفقري للاحداث ، بل كانت طبقة النبلاء من العشيرة وبطون القبيلة التي كانت تقيم داخلها . فالمدينة الاصلية تتجانس وطبقة النبلاء ، كما كانت روما حتى عام ٤٧١ ، ومدن اسبرطه والاتروسكان طيلة وجودها . والترادف ينمو من داخل هذه الطبقة ، كما وانها هي التي شكلت دول - المدن . ولكن هنا كان الفرق بين نبلاء المدينة ونبلاء الريف ، كما هو في الحضارات الاخرى ، غير ذي اهمية اطلاقاً ، وذلك اذا ما قورن بالفارق بين النبلاء (بصورة عامة) وبين الدهماء.

وينشأ البرجوازي الاصيل عندما يدفع الفارق الاساسي بين المدينة والريف « بالعائلات والنقابات » بالرغم من العداوة الحقود المستعرة بينهما ، الى مفهوم لاتحاد يجمع بينها ضد طبقة النبلاء القديمة والنظام الاقطاعي بصورة عامة ، وضد المركز الاقطاعي للكنيسة . ففكرة « الطبقة الثالثة » (ونحن نستعمل هنا شعار عام ١٧٨٩) هي اصلاً وحدة من تناقض غير قابلة للتعريف بواسطة محتوى ايجابي ، وهي لا تمتلك اخلاقية عرف خاصة بها - وذلك لان المجتمع البرجوازي الارقى يتخذ من طبقة النبلاء قدوة له ، كما يتخذ الورع المتحضر من الكهنوت الاقدم مثلاً يحتذى - زد على ذلك ان الفكرة القائلة بان الحياة غير مكرسة لخدمة الاهداف العملية ، بل للتعبير المستمر عن رمزية الزمان والفراغ ، وانها تستطيع ان تدعي الصدارة حتى الحد الذي تصبح عنده وعاء جديراً بالزمان الفراغ ، فكرة هذا شكلها ، هي بالضرورة شيء يشمئز منه العقل المتحضر وينفر . وهذا العقل يسيطر في المرحلة المتأخرة زمناً ، على مجموعة الآداب والكتاب السياسية ، ويؤكد على تصنيف جديد للطبقات يبدأ من نشوء المدينة - ويأتي في البداية تأكيده تأكيداً نظرياً ، ولكن عندما تصبح العقلانية هي صاحبة الكلمة العليا والسطوة والنفوذ ، ينتقل بتأكيده الى حقل الممارسة الدموية ، ويمارسه حتى عن طريق الثورات . اما منزلتا النبالة والاكليروس ، فهما من

جهة كونهما لا تزالان موجودتين وقائمتين ، فانهما ، بالاحرى ، تبدوان هنـا ، وبصورة بارزة ، عـلى انهما طبقتان تتمتعان بامتيازات خاصة ، ويتبدى المغزى الضمني لتأكيدهما على عدالة حقوقهما الوضعية ، استناداً الى منزلتيهما التاريخيتين (لوجهة نظر القانون العقلاني او « الطبيعي » العديم الزمـــان) سخفاً وهراء . وهاتان المنزلتان تكونان الآن قـــد اتخذتا المدينة العاصمة المركز الرئيسي لهما (والمدينة العاصمة هي ايضاً فكرة مرحلة ـ متأخرة زمناً) ، وتأخذان الآن والآن فقط بتطوير الاشكال الارستقراطية حتى تبلغا بهـا ذاك الموكب الجليل المهيب من الغطرسة والاناقة والذي نراه ، مثلاً ، في الصور الزيتية التي رسمهـــا رينولدز ولورنس . وهنا تقف القوتان العقلانيتان للمدينة التي أمست الآن تملك ازمة التفوق والسيادة ، واعني بهاتين القوتين ، الاقتصاد والعلم ، اللذين يشعران باتحادهما وجماهير الحرفيين والموظفين والعمال بأنهما حزب واحد متنافر في اجزائه الاساسية لكنه متماسك تماسكاً راسخاً وطيدا اذا ما دعا الداعي الى خوض معركة الحزبية ـ وهـــذه بالنسبة للاستقلال الحضري في الازمان القديـة العظمى هي رموز وحقوق تدفقت من هاتين المنزلتين . وبوصف الاقتصاد والعلم جزئين اصليين من الطبقة الثالثة ، هذه الطبقة التي تحصى وتعـــد رأساً رأساً وليس بالمراتب ، يصبح الجميع هنا ، في المراحل المتأخرة زمناً من الحضارة « ليبراليين » على هذا الشكل او غيره ، ـ اي متحررين من القوى الباطنية للحياة غـــير الحضرية . فينطلق الاقتصاد حراً لجمع المال وتكديسه ، ويتحرر العلم فيصول في ميادين النقد ويجول طليقاً . وهكذا نشعر انـ العقل بكتبه واجتماعاته يحصل في كل القرارات العظمى عـلى الكلمة « الديمقراطيـــة » ، بينما يفوز المـــال (البلوتوكراتية) بالمكاسب والمغانم ـ وذلك لان رأس المـال هو الذي دائمـاً ينتصر ويكسب اما الافكار فلا تعرف النصر ابداً . وهذه الحـال تمثل تماماً ايضاً التعارض القائم بين الحقائق والوقائع عـلى الشكل الذي تتطور وفقه من حيـاة المدينة .

زد على ذلك ان المدينة تقيم بواسطة اعتراضها على الرموز القديمة للحياة المرتبطة بالارض والمشدودة اليها ، ارستقراطيتين مالية وعقلانية ، كفكرتين تناهضان الارستقراطية بالولادة — والاولى من هاتين الارستقراطيتين هي واضحة جداً كمطلب وادعاء ، لكنها اشد اثراً ونفوذاً كواقعة ، اما الثانية فهي ليست اكثر من حقيقة ، لكنها ليست شديدة الاقناع كمشهد ، بالنسبة للعين . وتنمو في كل مرحلة متأخرة للنبالة القديمة — التي امسى جزء كبير من التاريخ (مثلاً الحروب الصليبية والفتح النورماندي) مخزوناً داخلها كشكل ونبض ، والتي كثيراً ما انحطت واضمحلت باطنياً في البلاطات العظمى — اقول تولد وتنمو لها (غلة) ذرية ثانية اصيلة . وهكذا نرى في القرن الرابع قبل المسيح ان دخول ابناء عائلات العوام العظمى ، بوصفها عائلات مجندين ، Conscripti مجلس الشيوخ الروماني لآباء المجندين[١] Patres قد أوجد داخل نظام مجلس الشيوخ ارستقراطية نبلاء — نبلاء يمتلكون الأراضي ، لكنها ملكية خولهم اياها المنصب او الوظيفة . وبالطريقة ذاتها تماماً نشأت نبالة المحسوبية او التحيز الكهنوتي للاقارب في روما البابوية ، وفي عام ١٦٥٠ لم تكن هناك اكثر من خمس عائلات تعود بأصولها العائلية الى اكثر من ثلاثة قرون .

وقد نشأت ، ابتداء من الازمنة الباروكية فما بعدها ، وفي الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الاميركية ، طبقة ارستقراطية من المزارعين ، لكن قوى المال في الشمال ابادت هذه الطبقة في الحرب الاهلية ١٨٦١ — ٦٥ ، واستأصلت جذورها . ولقد كان في النبالة التجارية من طراز عائلات فوغر Fugger وولسر Welser ومديتشي والبيوتات الكبرى في جنوا

(١) Patres : الترجمة الحرفية لها آباء المجندين ، وتعني اعضاء مجلس الشيوخ الروماني في العهد القديم .

— المترجم —

والبندقية – وبهذا الطراز من العائلات يجب ان نخص ملياً كل طبقة النبلاء في المدن الهيلينية المستعمرة لعام ٨٠٠ – اقول كان فيها شيء من الارستقراطية ، ومن التقاليدية العنصرية ، والمستويات العالية ، ونزوع طبيعي الى اعادة روابطها بالارض عن طريق اكتساب العقارات الزراعية . (بالرغم من ان منزل العائلة في المدينة لم يكن بديلاً رديئاً) . ولكن سرعان ما اكتسبت ارستقراطية المال ، ارستقراطية الصفقات والمضاربات التجارية ذوقاً وتذوقاً للاشكال الدمثة المهذبة ، ومن ثم شقت طريقها بالقوة الى طبقة النبلاء بالولادة – اما في روما فشقت طريقها بوصف ابنائها فرساناً في الجيش Equites[1] وذلك ابتداء من الحرب البونية الاولى ، وفي فرنسا في عصر لويس الرابع عشر – لكن هذه الطبقة افسدت طبقة النبلاء واشاعت فيها الانحلال ، بينما قامت ارستقراطية عصر التنوير ، من جانبها ، بغمرها بأمواج عاتية من المزء والسخرية . اما اتباع كونفوشيوس فانهم اخذوا الفكرة الصينية ، فكرة شي Shi ، من اخلاقية النبلاء ووضعوها داخل فضيلة العقل وحولوا الـ - بي يونغ Pi - Yung مركز دائرة التدريب الحربي الفروسي ، الى « مدرسة للمصارعة العقلانية » ، الى معهد رياضي – يشابه تماماً في روحه لمعهدنا في القرن الثامن عشر .

وعندما تبلغ الحقبة المتأخرة من كل حضارة نهايتها ، يبلغ ايضاً تاريخ منزلاتها نهاية شديدة العنف او قليلة . فتهيمن الرغبة المجردة في العيش بحرية لا جذور لها ، على الرموز العظمى الالزامية للحضارة ، هذه الرموز التي لم يعد بمقدور الجنس البشري الذي تسيطر عليه المدنية سيطرة كاملة ، ان يفقه لها معنى او يدرك لها مغزى او ان يطيقها او يحتملها . فالمال يهدر كل اثر لشعور

---

(١) Equites : سلاح الفرسان في الجيش الروماني وكان افراد هذا السلاح يتمتعون بامتيازات وحقوق خاصة بالمكاسب والغنائم .

– المترجم –

نحو القيم المشدودة الى الارض وغير المنقولة ، كما ويقوم النقـد العلمي بـدوره فيقضي على كل بقية من ورع او تقوى . ويتحقق هنا الى حد ما ايضاً انتصار آخر على هذا الشكل ، الا وهو تحرر الفلاح من نظام القنانة Servage لكن هذا التحرر ينتهي به قبضة سلطان المال الذي ينطلق الان الى تحويل الارض بالذات الى ملكية منقولة ــ وهذا الامر قد حدث بالنسبة الينا في القرن الثامن عشر ، وحدث في بزنطة قرابة عـــام ٧٤٠ بموجب القانون المعروف باسم نوموس جيورجيكوس Nomos Georgikos الذي وضعه المشترع ليو الثالث (والذي اختفت بعده القنانة لكن بتدرج بطيء) ، وحدث في رومـا مع تأسيس نظام العوام وتوطده عام ٤٧١ .اما محاولة بوسانياس في سبرطه لتحرير الهيلوت Helots فلقد لاقت الفشل .

ان العوام هم الطبقة الثالثة في الشكل المعترف به دستورياً بوصفهم وحدة ، ويمثلو هذه الطبقة هم التريبيونز[1] Tirbunes (القضاة الشعبيون) وليس الموظفين ، وهؤلاء كانوا اشخاصاً موثوقين يتسلحون بحصانـــة مضمونة . وقـــد اعتبر الاصلاح الذي وقع عام ٤٧١ ، والذي من بين ماحققه ، احلال اربع قبائل متحضرة ، او حماة ، محل القبائل الاتروسكانية الثلاث (وهذه الواقعة بالذات واقعة ايجابية الى حد بعيد) ، اقول اعتبر هذا الاصلاح ، على انـــه تحرر مجرد من الفلاحين او تنظيم للطبقة التجارية . ولكن العوام بوصفهم طبقة ثالثة ، ثقـلاً ، هم قابلون لان يعرفوا تعريفاً سلبياً فقط ــ فهم يمثلون كل من لا ينتمي الى طبقة نبلاء الارض ، او لا يشغل منصباً كهنوتياً سامياً . وصورة هـــذه الطبقة مبرقشة

---

(١) Tribunes ــ قاضي روماني من طبقة اجتماعية من الطبقات الرومانية وكانت مهمتـــه الاساسية ان يحمي الفرد من طبقة العوام من الاحكام التعيسة لقضاة طبقة النبلاء .

ــ المترجم ــ

الالوان معتدنها ، كصورة دولة الطبقات الفرنسية Tiers Etat لعام ١٧٨٩ . فالاعتراض هو وحده الذي يحفظ على هذه الطبقة تماسكها . فهي تضم التجار الى الصناع الى العمال المياومين الى الكتاب في الدواوين من حكومية وغيرها . ولقد كانت عشيرة كلاودي Claudii تضم عائلات نبيلة واخرى من العوام – واعني بهذا سادة اقطاع وملاك ارض اثرياء (مثلا مارسيلي الكلاودي) . وكان مركب العوام في دول – المدن الكلاسيكية كذاك المركب من الفلاحين والبرجوازيين في الدولة الباروكية في الغرب ، وذلك عندما هب هؤلاء ضد اوتوقراطية الامير . وليس هناك من وجود للعوام خارج ميدان السياسة ، اي الاجتماع ، وذلك بوصفهم وحدة متميزة من طبقتي النبلاء والكهنوت ، فهي متناثرة تناثراً فورياً الى حرف او مهن خاصة ، ذات مصالح مختلفة تماماً ومتباينة بجلاء ووضوح . وهي حزب ، وما تناصره وتقوم من اجله ، انما هو الحرية بالمفهوم الحضري لهذه الكلمة . وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح اكثر وجلاء اشد في النجاح الذي حققته طبقة نبلاء الارض الرومان فوراً بعد الحاقها ستة عشر قبيلة ، سميت باسماء عائلات وخضعت خضوعاً مطلقاً لابناء هذه الطبقة ، الحاقها بالقبائل الاربع المتحضرة التي كانت تناصر البرجوازية بالذات – اي تناصر المال والعقل . ولم تلغ قانونياً فكرة المنزلة الا بعد نشوب ذاك الصراع الاجتماعي الهائل خلال حروب السامنيت Samnite (وهذا الصراع معاصر للاسكندر ومتوافق تماماً والثورة الفرنسية) ، اذ الغاها قانون هورتنسيا Lex Hortensia الصادر عام ٢٨٧ ، وبهذا طويت صفحة تاريخ المنزلتين الرمزيتين . فهنا اصبح العوام الامة الرومانية ، بالطريقة ذاتها التي صنعت دولة Tiers Etat لعام ١٧٨٩ من ذاتها الامة الفرنسية . وانطلاقاً من هذه النقطة ، فان شيئاً ما مختلفاً اختلافاً جوهرياً هو الذي يحدث في كل حضارة ، تحت عنوان الصراع الاجتماعي ويافطته .

لقد كانت النبالة في كل ربيع حضاري هي المنزلة باوسع ما لهذه الكلمة من

مفهوم اولي ، وكان التاريخ يصبح فيها لحماً ودماً ، والعنصر يبلغ من خلالها الى ارقى جهد ومرتبة محتملة . وكان الكهنوت هو المنزلة المناهضة لهذه ، اذ انــــه يجيب بلا على كل ما تجيب النبالة بنعم عليه ، وبهـذا كان يعرض الجانب الآخر من الحياة ، برمز عظيم .

اما الطبقة الثالثة ، المجردة من وحدة باطنية خاصة بهـا ، فهي اللامنزلة – انها المعارضة في شكل منزلة ، معارضة وجود المنزلتين ، وهي لا تعارض هذه المنزلة او تلك ، بل انما تعارض النظرة الرمزية للحياة بصورة عامـة . وهي ترفض كل الفروق التي لا يبررها العقل أو المنفعة العملية . ومع هذا فان هذه الطبقة لا تعني بذاتها شيئاً لكنها تعني بجلاء ووضوح – ان حياة المدينة بوصفها منزلة ، هي حياة تتناقض وحياة الريف ، وان الحرية كشرط تتباين والالتزام وتتعارض والارتباط . ولكن اذا ما نظرنا اليها من ميدانها الخاص ، فهي ليست ، على اية حال ، الفضلة غـــير المنسقة التي تتبـــدى لنواظر المنزلتين . فللبرجوازية حدوودهـــا المعينة المقررة ، وهي تنتمي الى الحضارة ، وهي تمتش ، على افضل الوجـوه ، جميع من يلتصق بهـا ، وتلم باسم الامـــة ، الشعب ، شعث النبالة والكهنوت والمـــال والعقل والحرفيين والاجراء ، بوصف هؤلاء جميعاً اجزاء اساسية منها .

هذه هي الفكرة التي تجدهـــا المدنية ، سائدة ومسيطرة ، عندما تخرج الى مسرح الوجود . وهـــذه هي الفكرة التي تدمرها المدنية بفكرتها عن الطبقة الرابعة ، طبقة الجماهير ، التي ترفض الحضارة واشكالها الناضجة جملة وتفصيلاً . انها اللاشكلية المطلقة المضطهدة بحقدها وبغضائها كل نوع من شكل ، وكل امتياز في المرتبة ، وكل تنظيم للملكية وتنسيق للمعرفة . انهـا البداوة الجديدة للمدينة

العالمية العظمى Cosmopolis البداوة التي ترى في العبيد والبرابرة في العالم الكلاسيكي ، والسدوا في الهند ، وبصورة عامة ، في اي وكل شيء بشري ، مجرد بشري ، شيئاً ما طافياً محوماً عائماً لا يعرف او يميز ، بل يتساقط ارباً ارباً في لحظة ولادته التي لا تعرف ماضياً ولا تملك مستقبلاً . وهكذا تصبح الطبقة الرابعة تعبيراً عن انتقال التاريخ الى اللاتاريخ . ان هذه الجماهير هي النهاية ، وانها الهبوط الجذري والبطلان المطلق .

الفصل الثاني والعشرون

الدولة

(ب)

الدولة والتاريخ

- ١ -

في العالم كتاريخ ، حيث نسجنا داخله على صورة حية الى درجة — جعلت ادراكنا وعقلنا يطيعان ، دائماً وباستمرار ، شعورنا — في هـذا العالم يتبدى الدفق الكوني بوصفـه ذاك الذي ندعوه بالواقع ، بالحياة الحقيقية ، بتيارات الكينونة ومجاريها داخـل شكل جسماني . والشعار المشترك لهذه التيارات هو الاتجاه . ولكن يمكن لهـذه التيارات ان تدرك على صورة متباينة ، وذلك مترتب على مـا اذا كان المرء ينظر الى الحركة ، او الى الشيء المحرك . فالحركة ندعوها بالتاريخ ، امـا الشيء المحرك فندعوه بالعائلة او الارومة او

المنزلة او الشعب ، لكن الاولى تكون امرا ممكنـــاً وموجوداً فقط بواسطة الثاني ، فالتاريخ انمـــا يوجد فقط بوصفه تاريخاً لشيء ما . ونحن اذا مـــا كنا نشير الى تاريخ الحضارات العظمى ، فعندئذ تكون الامـــة هي الشيء المحرك . فالدولة ، تعني وضعـــاً ، ونحن نستحصـــل على انطباعنا عن الدولة بوصفها كينونة داخل شكل محرك سابق لنا ، وهنا نركز الشكل على هذا النمط ونثبته داخل ابصارنا ، بوصفه شيئا ما ممتدا ويقف راسخ القدم غير مقيد رسوخه بزمان ، ويتجاهل كليا الاتجاه والمصير . فالدولة هي التاريخ في حالة توقف ، والتاريخ هو الدولة في حـــال متحرك . زد على ذلك ان دولة الامر الواقع هي سيائية وحدة كينونة تاريخية ، وليست غير الدولة المصممـــة ، المخططة ، دولة الانسان النظري هي منهاج .

ان للحركة شكلا ، وان لمن هو محرك شكلا لائقا ، او فلنستعمل التعبير الرياضي Sport ، فنقول بان عندما « يبذل قصارى جهده » فهو في وضع ممتاز . وهذا القول ينطبق ايضا على حصان السباق ، او المصارع ، وعلى اي جيش او امة او شعب . فالشكل المستخلص من مجرى حياة الشعب وتيارها هو « وضع » ذاك الشعب من جهة صراعه في التاريخ ومعه . ولكن الجزء الاصغر من هذا هو وحده الذي يمكن ان يستحصل عليه وتعرف هويته بواسطة العقل . وليس هناك من دستور حقيقي ، اذا ما اخذ بذاته وصيغ بكلمات دونت على الورق كمنهاج ، هو تام وكامل . فما هو ليس بمكتوب وما لا يقبل الوصف ، هـــذا المحسوس به ، الغني عن البيان ، يتفوق باهميتـه على كل شيء آخر والى حد ــ بالرغم من ان النظريين لايرونه ابدا ــ يجعل وصف الدولة او محفوظاتها الدستورية عاجزة عن تزويدنا حتى بالصورة الظلالية (السلهوطة) لذاك الشيء الذي يكمن وراء كل دولة الامر الواقع الحي بوصفـه الشكل الجوهري لها . ونحن نتلف وحـدة وجود لتاريخ عندما نخضع حركتها لاصفـــاد الدستور المكتوب واغلالـه .

ان الطبقة الافرادية ، او العائلة هي اصغر وحدة في مجرى التاريخ ، بينما ان الامة هي اضخم وحدة فيه واكبرها . والاقوام البدائية تخضع للحركة ، وهذه ليست بحركة تاريخية وفق المفهوم الارقى - وهذه الحركة قد تكون وئيدة متئدة ، او قد تكون هجوما ، لكنها لا تملك صفة عضوية واهمية عميقة . ومع هذا فان هذه الاقوام البدائية هي ، جماعات وافراد ، في حالة من تحرك والى حد يبدون عنده ، بالفعل ، لا شكل لهم ، لنظر المراقب العجول المتسرع . اما الفلاحون فهم ، على العكس من هذه الحال ، اذ انهم الاهداف المتخشبة لحركة تأتي من الخارج وتلطمهم صدفة وعماء ، ودون ما معنى . وتضم حال الاقوام البدائية « دولة » الحقبة المسينية ، ودولة حقبة الثاينيت ، Thinite وحقبة حكم اسرة شانغ في الصين حتى ، فرضا ، الهجرة الى ين Yin (عام ١٤٠٠) ، ومملكة شارلمان الفرنكية ، ومملكة الفيزغوت حتى اورريخ ، وروسيا البطرسية - واشكال الدول هذه كانت مرارا قديرة ووافية ، لكنها كانت لا تزال تفتقر الى الرمزية والضرورة . اما للاخيرة فتنتمي الامبراطوريتان الرومانية والصينية والامبراطورية الاخرى ، التي لم يعد لها اي محتوى فعال معبر مهما كان نوعه .

ولكن بين الانسان البدائي والفلاح يقع تاريخ الحضارة العظمى . والشعب الذي يعيش وفق اسلوب الحضارة - وهذا هو الشعب التاريخي - يدعى امة . وتمتلك الامة ، بوصفها شيئا حيا مقاتلا ، دولة ، وهذه الدولة لا تكون فقط وضعا لحركة ، بل انما هي (وقبل كل شيء آخر) فكرة . وقد تكون الدولة ، وفق ابسط مفهوم هذا الاصطلاح ، قديمة قدم الحياة الطليقة الحركة بالذات . وقد تكون لاسراب من حيوانات ذات انواع جد منحطة « دساتير » من بعض نوع - ودساتير النمل والنحل والعديد من انواع الاسماك والطيور المهاجرة والقنادس قد بلغت درجة مذهلة من الكمال - ولكن الدولة من الطراز العظيم قديمة فقط قدم المنزلتين الاوليتين ، النبالة والكهنوت ، وليست باقدم منهما . فهاتان تولدان

مع الحضارة ، وتتلاشيان داخلها ، ومصيراهما متوافقان الى درجة عالية . ان الحضارة هي كينونة الامم في اشكال – دول .

فالشعب بوصفه دولة ، والاهل بوصفهم عائلة ، يكون هو وهم « في شكل لائق » – وهذا ، كما سبق لنا ان رأينا ، هو الفرق بين التاريخ السياسي وبين التاريخ الكوني Cosmic ، بين الحياة العامة ، وبين الحياة الخاصة ، بين الشيء العام Res publica وبين الشيء الخاص Res privata . وكلاهما بالاضافة الى ذلك رمزان للاهتمام . ان المرأة هي تاريخ العالم . فهي بحبَلها وولادتها تهتم باستمرارية الدم . والام الضامة طفلها هي الشعار الاعظم للحياة الكونية . ومن هذه الناحية بكون . وعلى كل حال فالرجل هو الذي يصنع التاريخ ، الذي هو معركة لا تنتهي تدور من اجل حفظ تلك الحياة الاخرى . فالاهتمام الامومي يتممه ويوازيه الاهتمام الابوي . والرجل المتمنطق بسلاحه هو الشعار الاعظم لارادة الديمومة . والامة هي اصلا « في وضع لائق » عندما تكون عصبة حرب ، وطائفة ، محسوس بها احساسا عميقا وثيقا ، من رجل لامتشاق السلاح . والدولة هي من اختصاص الرجل ، وهي الاهتمام بحفظ الكل (بما في ذلك حفظ الذات بالشرف واحترام – الذات) وهي الاهتمام باحباط الهجمات ، وبتوقع الاخطار ، وهي ، قبل كل شيء ، العدوان الايجابي ، هذا العدوان الذي هو امر طبيعي وواضح وغني عن البيان بالنسبة لكل حياة بدأت بالتحليق والتسامي .

ولو انه كانت كل الحياتات مجاري كينونة متوافقة متجانسة ، لما كنا قد سمعنا ابدا بكلمات « شعب » و « دولة » و « حرب » و « سياسة » و « دستور » . لكن التنوع الخالد الجبار في الحياة ، هذا التنوع الذي ترتقي به القوة الابداعية للحضارة الى ارقى ذرى الشدة والتوتر ، هو واقعة ، ونحن لا نملك تاريخيا الخيار الا ان نقبل به على هذا الشكل ، وبكل ما يتدفق منه . فحياة النبات ، هي فقط حياة نبات بالنسبة لحياة الحيوان ، والنبالة والكهنوت

يشترط بالتناوب الواحد منهما وجود الاخرى . والامة هي فقط على شكل امة بالنسبة للامم الاخرى ، ويتدفق جوهر هذا الامر الواقع في تعارضات طبيعية لا يمكن ان تزول او تمحى ، في هجوم ودفاع ، في عداوة وحرب . والحرب هي المبدعة لجميع الاشياء العظمى . وكل ما هو مثقل بالمعاني مليء بالمغازي ، في مجرى الحياة قد نشأ من النصر والهزيمة .

ان الشعب يعطي التاريخ شكلا ، من حيث انه « في وضع لائق » للقيام بمثل هذا الواجب . وهو يخبر خبرة حية تاريخا باطنيا ـ يبلغ به هذا « الوضع » الذي يصبح الشعب داخله فقط شعبا مبدعا ـ ويخبر ايضا تاريخا ظاهريا ، يقوم على هذا الابداع . اذن فان الشعوب ، بوصفها دولاً ، هي القوى الحقيقية لكل حدوث بشري . ولا يوجد اي شيء يتجاوزها في العالم كتاريخ . فهي المصير .

ان الشيء العام ، الحياة العامة ، « جانب السيف » من مجاري الكينونة الانسانية ، هو امر غير منظور داخل الامر الواقع . والانسان الغريب يرى فقط الناس ولا يبصر بالارتباط الباطني بينهم ، لان هذا يكمن فعلا ، عميقاً وعميقا جدا في مجرى الحياة ، وهو حتى حيث يكمن يشعر به اكثر مما يعرف او يفهم . وبالمثل فنحن لا نرى العائلة في الامر الواقع ، بل نرى اشخاصا معينين ، نعرف بتلاحمهم معرفة محددة تماما ، وندركه بواسطة خبرتنا الباطنية الخاصة . ولكن توجد ، بالنسبة لكل صورة عقلانية كهذه ، مجموعة من اشخاص اساسين يشدهم دستور لكينونة باطنية وظاهرية بعضا الى بعض بوصفهم وحدة من حياة . ويدعى الشكل ، في دفق الوجود ، بالاخلاقية العرفية ، وذلك عندما يستيقظ من داخل ذاته بخفق وزحف ، ويكون لاواعيا قبل ان يكون واعيا ، وثم يدعى بالقانون عندما يقرر بصورة عامدة ويقدم للقبول والموافقة عليه .

ان القانون ، وبغض النظر عما اذا كان يستمد سلطانه من الشعور والسورة

الفكرية (القانون غير المكتوب قانون العرف والعادة « العدل » الانكليزي) ام كان مستخلصا بواسطة التفكير والتأمل ، فسبر غوره ووضع داخـل منهاج بوصفه شريعة Statute law ، – هذا القانون هو الشكل الذي فرضته ارادة الكينونة . اما الوقائع الفقهيـــة التي يحتويها فهي على نوعين ، بالرغم من ان كلا النوعين يمتلكان رمزيـــة زمان – انها الاهتمام في حالين ، حال بعـــد النظر Prevision ، وحـال التدبير Provision – ولكن هذا الفرق بالذات في تناسبات الوعي التي تحتويها كل منهما فيما يخصهـا ، يستوجب ان يكون هناك داخل التاريخ الحقيقي باكمله قانونان يتناقض الواحـــد منهما والآخر – قانون الآباء ، التقاليد ، القانون الموروث المكتمل نمواً والممتحن المجرب ، وذي الحرمة القدسية بسبب كونه قديما قدم الزمان ومستخلصا من خبرة الدم ، وهو لذلك يركن اليه ، ومن ثم القانون الذي صممه العقل والطبيعـة والانسانية العريضة ، وهو نتاج التأمل والتفكير ، ولذلك فهو ابن العم الاول للرياضيات ، وهـــذا قانون قـــد لا يكون صالحاً تماما في التطبيق ، لكنه ، على كل حال ، قانون « عادل » . وداخل هذين النوعين من القانون ، ينضج التعارض القائم بين حياة الريف وحياة المدينة ، بين خبرة الحياة وخبرة الدراسة ، حتى ينفجر بتلك المرارة الثوروية التي يأخذ الناس بها القانون بدلا من ان يعطوه ، ويحطمون القانون الذي لا يريد ان يذعن او يستسلم .

ان القانون الذي تضعه الجماعة يعبر عن واجب كل عضو من هـذه الجماعة ، لكنه ليس الدليل على سلطان كل عضو من اعضائها . بل ان الامر على العكس من هذا ، فانها لقضية مصير بالنسبة لاولئك الذين يضعون القانون ، وبالنسبة لمن يشترع القانون من اجلهم . فهناك سادة ورعايا في اشتراع القانون ، بالرغم من ان كل فرد من هؤلاء واولئك ، هو خاضع لاحكامه . وهذا القول ينطبق ، دون ما تمييز ، على القانون الداخلي للعائلات والنقابات والمنازل والدول . ولكن يوجد الى جانب هذا القانون ، بالنسبة للدولة التي هي اسمى سيد يوجد في الامر الواقع

التاريخي ، قانون خارجي تفرضه عن طريق العدوان على الاجانب . ويندرج القانون المدني ، بصورة عادية ، في النوع الاول من القانون ، بينما معاهدة الصلح في النوع الثاني . ولكن قانون الاقوى ، هو في كل الاحوال ، قانون الاضعف ايضا . « فان تمتلك الحق » هذا تعبير عن القوة والسلطان . وهذه هي واقعة تاريخية تؤكدها كل لحظة من لحظات الحياة ، لكنها واقعة غير معترف بها في مملكة الحقيقة التي هي ليست من هذا العالم . فالكينونة والكينونة الواعية ، المصير والسببية ، يقفان في فهميهما للحق ، كما في فهميهما للاشياء الاخرى ، متعارضتين تعارضا لا يعرف هوادة او لينا . فالتمييز الاخلاقي بين الحق والخطأ ينتمي الى الاخلاق الكهنوتية المثالية ، من خير وشر ، لكن التمييز بين الطيب والرديء في اخلاقية العنصر هو التمييز بين اولئك الذين يعطون القانون وبين اولئك الذين يتلقونه .

وهناك فكرة تجريدية للعدالة تتخلل افكار وكتابات جميع الناس الذين يتمتعون بروح نبيلة قوية ، وبدم واهن خائر وضعيف ، وتتخلل كل الاديان وجميع الفلسفات — لكن عالم الامر الواقع للتاريخ لا يعرف الا النجاح الذي يحول قانون الاقوى ويجعله قانونا للجميع . وهذا القانون يدوس على المثل العليا دون شفقة او رحمة ، واذا ما حدث ان قام انسان او شعب برفض سلطان البرهة بغية الحفاظ على بره وورعه — فعندئذ سيتأكد اكيدا حيث هذا الشعب او ذاك الانسان في العالم الآخر للفكر والحقيقة ، ولكنه سيتأكد ايضا حين مجيء البرهة التي سيخضع فيها لقوة حياة اخرى ادركت وقائع الحياة وفهمتها اكثر مما فهمها .

وطالما ان القوة التاريخية تبلغ تلك الدرجة من التفوق على وحداتها الاصلية — كما تكون مرارا حال الدولة او المنازل الاجتماعية بالنسبة للعائلات والطبقات الحرفية ، او حال رأس العائلة بالنسبة لاولاده — يكون وجود قانون عادل

للاضعف امرا ممكنا فقط بوصفه هدية او منحة من يد المهيمن الجبار ، يد من لا غرض له او غاية . ولكن نادرا ما تشعر المنازل الاجتماعية ، والدول لا تحس اطلاقا بوجود قوة مهيمنة جبارة على هذا الشكل ، فوقها ، ونتيجة لذلك تسري بينها احكام قانون الاقوى بزخم فوري مباشر – كما نرى ذلك في معاهدة المنتصر ذات الجانب الواحد في موادها ، واكثر من هذه ، كما نشهد في تفسير مثل هذه المعاهدة ومراعاة احكامها والتقيد بها . وهذا هو الفرق بين الحقوق الداخلية والحقوق الخارجية للوحدات التاريخية للحياة . وفي الاولى – الحقوق الداخلية – المترجم – يمكن ان تكون ارادة الحكم ، ليكون عادلا وغير متحيز ، فعالة وبليغة الاثر – بالرغم من اننا ميالون لان نخدع انفسنا بصورة رديئة فيما يتعلق بدرجة اللاتحيز الفعال ، حتى في افضل شرائع التاريخ ، وحتى في اولئك الذين ينعتون انفسهم « بالمهذبين » Civil ، وذلك لان هذا النعت بالذات اللاامتحيز – المترجم – يدل على ان منزلة اجتماعيـة قد امتلكت القوة التي تمكنها من فرضها – الحقوق الداخلية – المترجم – على كل انسان . ان القوانين الداخلية هي نتاج فكر منطقي سببي صارم ودقيق اتخذ من الحقائق بؤرته ومركزه ، ولكن لهذا السبب بات يكون مفعولها معتمدا ابداً ودائما على القوة المادية لمشترعها ، أكان هذا المشترع منزلة اجتماعيـة او دولة . والثورة التي تدمر هذه القوة وتستأصل شأفتها ، تدمر هـذه القوانين وتلغيها – وهذه القوانين تبقى حقيقية لكنها لا تبقى واقعية . اما القوانين الخارجيـة ، كجميع معاهدات الصلح ، فلا تكون ابدا حقيقية ، بل تكون دائما واقعية – وهي مرعبة بواقعيتها هذه . وهي لا تزعم ابدا العدل او تدعيه – اذ يكفي تماما ان تكون سارية المفعول . ومن خلال هذه القوانين تنطق الحياة وتتحدث ، هذه الحياة لا تمتلك منطقا سببياً او اخلاقيا ، وهي ، عضويا ، تزداد لجاجة والحاحا لافتقارها الى مثل هذا المنطق . اما ارادتها فهي تستهدف امتلاك المشروعية بالذات ، وهي تشعر بيقين باطني . بمستلزمات هذه الغاية او تلك ، وبرؤيتها لهذه ، تعرف اي قانون

لما يتوجب ان يجعل قانونا للآخرين . ونحن نرى هذا المنطق يسيطر على كل عائلة ، وخاصة على تلك العائلات القديمة والاصيلة في فلاحيتها ، وذلك حينما تتهاوى سلطة رب العائلة ، ويحاول انسان غير رب العائلة ان يقرر « ما هو كائن وموجود » . وهذه الظاهرة تتبدى في كل دولة حالما يسيطر فيها احد الاحزاب على الموقف . زد على ذلك ان كل حقبة اقطاعية مليئة بالاحتكاكات بين سادة الاقطاع والمقطعين Vassals حول « الحق في الحقوق » . وقد انتهى هذا الصراع في كل مكان من العالم الكلاسيكي بانتصار المنزلة الاجتماعية الاولى التي جردت الملوكية من سلطاتها التشريعية ، وجعلتها خاضعة لما تسنته من تشاريع – كما يبرهن على ذلك ، بصورة لا تقبل الشك ، اصل آرخونس Archons في اثينا ، وايفوروس Ephores في اسبرطة . ولكن الامر ذاته حدث في الميدان الغربي – وحدث لبرهة في فرنسا (وفي مؤسسة States - general [1] لعام ١٣٠٢) ، وتوطد بصورة نهائية في انجلترا ، حيث فرضت البارونية النورمانية والكهنوت الارقى في عام ١٢١٥ الماغنا كارتا ، وبذلك بذرت البذرة التي تقدر لها ان تنضج في سيادة البرلمان الفعالة . ومن هنا جاء استمراز سريان مفعول القانون النورماني القديم للمنازل الاجتماعية في بريطانيا . اما في المانيا ، فلقد كانت حالها عكس حال بريطانيا ، اذ ان السلطة الامبراطورية الضعيفة ، التي كانت تضغط عليها مطالب الاقطاعيين الكبار ضغطا شديدا ، قد لجأت الى قانون جوستنيان « الروماني » (هذا القانون الضيق في مركزيته ابلغ ضيق) ليعضدها ضد القوانين الجرمانية الباكرة زمنا للارض .

---

(١) States - general : انها الجمعية العمومية في فرنسا قبل الثورة التي كانت تضم طبقتي الاكليروس والنبلاء والطبقة الثالثة .

– المترجم –

اما دستور دراكون ، دستور الاوليغارشية ، فلقد املته طبقة النبلاء ، على الشكل الصارم لقانون اللوائح الاثني عشرة في روما . ولكن مرحلة الحضارة المتأخرة زمنا كانت آنذاك قد انطلقت على دربها وكان سلطان المدينة والمال قد تطور تطورا كاملا ، وهكذا فان القوانين الموجهة ضد قوى المدينة والمال ، قد ارغمت بالضرورة على فسح الطريق باستحثاث كامل ، امام قوانين الطبقة الثالثة (صولون و Tribunate – وظائف الدولة) . ومع هذا فان هـذه القوانين كانت ايضا قوانين اوجدتها منازل اجتماعيـــة ولا تقل عن سالفتها . ولقد ملأ الصراع بين المنزلتين الاوليتين على حق اشتراع القوانين كامـل تاريخ الغرب ، ابتداء من الصراع الغوطي المبكر بين السيادة الدنيوية والكهنوتية حتى المشادة (التي لم تنته حتى هذا اليوم) والدائرة حول الزواج المدني . ومن هذه الناحية فما الذي كانته الخلافات الدستورية التي حدثت منذ نهايـة القرن الثامن عشر غير اكتساب دولة الطبقـــات (التي كانت حسب تصريح سيي Sieyès المشهور لا شيئا بل من الجائز ان تكون كل شيء) لحق التشريـع الملزم لكل انسان ، والتي انتجت قانوناً كان برجوازي الطبيعة تماماً كما كانت ابداً نبالة طبيعـــة القانون الغوطي . وان اشد الاشكال عراء الذي يتبدى فيه الحق تعبيراً للقوة هو (كما ذكرت سابقاً) في الاحوال المتباينة لابرام معاهدات الصلح ، وفي شرعة الامم التي استطاع ميرابو ان يقول عنها بأنها قانون القوي الذي يتوجب عـــلى الضعيف ان يراعي احكامه ويتقيد بها . وهذا النوع من القانون يحتوي على قسم كبير من مقررات تاريخ العالم وقراراته . وهذه هي الدستور الذي بموجبـــه يتقدم التاريخ المناضل ويتطور ، وذلك طالما انه لا يعمد الى استخدام الشكل الاصلي للنزاع المسلح ـ وهذا النزاع هو اصلي وأساسي ايضاً ، وذلك لأن كل معاهدة سارية المفعول ، ويقصد منها ان تكون ذا فعاليات حقيقيـــة هي استمرار عقلاني لهذا الصراع . فاذا كانت السياسة هي الحرب بوسائل أخرى ، فان « الحق في اعطاء القوانين » هو الغنيمة للحزب الناجح .

- ٢ -

ومن الواضح ان هناك على ذرى التاريخ شكلي حياة كهذين ، المنزلة والدولة ، حيث تتصارع هاتان وتتقاتلان على التفوق والسيادة ، وكلتاهما تيارا — كينونة ذات شكل باطني عظيم وزخم رمزي شديدين ، حيث عزم كل تيار من هذين التيارين ان يجعل مصيره الخاص مصيراً للجميع . وهذا — اذا ما اردنا ان نحاول فهم القضية في اعماقها وان نضع جانباً وبدون تحفظ مفاهيمنا اليومية عن الشعب والاقتصاد والمجتمع والسياسة — اقول هذا هو معنى التعارض القائم بين سير الأحداث الاجتماعية والاحداث السياسية . ولا يبدأ التفريق بين الفكر الاجتماعية والفكر السياسية قبل فجر الحضارة العظمى ، أو حتى يأخذ النظام الاقطاعي بالانحطاط وتصبح العلاقة القائمة بين السيد الاقطاعي وبين المقطع Vassal تمثل الجانب الاجتماعي ، وتمسي العلاقة بين الملك والشعب ممثلة للجانب السياسي . ولكن القوى الاجتماعية في الازمان المبكرة (النبالة والكهنوت) لم تكن اقل نشاطاً من تلك القوى في الازمان المتأخرة (المال والعقل) — ومن المجموعات المهنية من العمال المهرة والموظفين والعمال ايضاً ، حينما كان هؤلاء يرقون السلم الى سلطانهم في المدن النامية — في سعيها لأن تخضع كل واحدة منها المثل الاعلى للدولة للمثل الاعلى لمنزلتها الاجتماعية ، وفي اغلب الاحيان لمصالح منزلتها واغراضها . وهكذا نشب ، على كل المستويات ابتداء من الوحدة القومية حتى الوعي الفردي، صراع بين الاولى والثانية « المنزلة والدولة —المترجم» حول الحدود والحقوق الخاصة بكل منهما — وكانت نتيجة هذا الصراع

انتصار الاولى انتصاراً بلغ درجة من الكمال امست عندها الثانيـــة اداة طيعة لهـــا .

وعلى كل حـــال فان الدولة هي التي تقرر ، في كل الاحوال ، الموقف الخارجي ، ولذلك فان العلاقات التاريخية بين الامم هي دائماً ذات طبيعة سياسية وليست اجتماعية . ولكن السياسة الداخلية هي ،على العكس من هذا اذ يسيطر عليها التناقض القائم بين الطبقات سيطرة تجعل المرء يرى عند النظرة الاولى أن الفصل بين التكتيك السياسي يبدو امرا مستحيلاً ، اذ انهما ، فعـــلاً ، في عقول الناس « مثـــلاً البرجوازيين » الذين يساوون بين المثل الاعلى لطبقتهم والامر الواقع التاريخي – ونتيجة لذلك لا يستطيعون ان يفكروا بالسياسة الخارجيـة اطلاقاً – اقول هما فعلاً توأمان متجانسان متوافقان متطابقان . وتسعى الدولة في المعارك الخارجية الى عقد تحالفات مع دول اخرى ، لكنها في معاركها الداخلية تتحالف ابداً ودائماً مع هذه الطبقة او تلك – فلقد ارتكزت ، مثـــلاً ، دولة طغاة القرن السادس على التحالف القائم بين فكرة الدولة وبين مصالح الطبقـــة الثالثة ضد اوليغارشية النبلاء القديمة ، واصبحت الثورة الفرنسية أمراً محتومـاً في اللحظة التي تخلت فيها الطبقتان – العقل والمال – عن صديقها العرش في ساعـة محنته والتحقتا بالطبقتين الثانيتين « ابتداء من مجلس الاعيان ١٧٨٧ » . ولذلك فنحن على حق وصواب تامين ، في شعورنا بأن هناك فرقاً بين تاريخ الدولة وبين تاريخ الطبقة ، بين التاريخ السياسي « الافقي Horizontal » وبين التاريخ الاجتماعي « العمودي » بين الحرب وبين الثورة . وانه والحق لخطأ خطير ان يعتبر العقائديون روح التاريخ الداخلي ، على انها روح التاريخ العام . فتاريـــخ العالم هو ، وسيبقى ابداً ، تاريخ الدولة والدستور الداخلي للامة يستهدف دائمـاً ان تكون الامة « في وضع لائق » للصراع الخارجي « من دبلوماسي وعسكري واقتصادي » ، وان اي انسان يعالج دستور الامة بوصفه هدفاً ومثلاً اعلى ، فانما يكون بعمله هذا يحطم جسم الامة فقط . ولكن من وجهة النظر الاخرى فان

مفهوم النبض السياسي الداخلي للفئة الحاكمة ، أكانت هذه الفئـــة تنتمي الى الطبقة الاولى او الثانية او الثالثة او الرابعة ، يثابر على تدبر امر المتناقضات بـين الطبقات وتوجيهها الوجهة التي تجعل بؤرة افكار الامة غير مرتبطـــة بالصراع الحزبي ، ولا تجعلها تفكر بأن خيانة الوطن هي الورقة الرابحة .

وهنا يتجلى لنا بوضوح ان الدولة والمنزلة الأولى هما من اصل واحد حتى اعمق ما لهما من جذور — وهما متشابهتان قريبتان متناسبتان ليس فقط بسبب ما لهما من رمزية زمان واهتمام ، وعلاقة مشتركة بالعنصر ووقائـــع تعاقب تسلسل النسب وبالعائلة والحوافز الاولية لطبقة الفلاحين ، التي ترتكز اليها في نهاية المطاف كل دولة وكل نبالة ، وليس فقط بسبب علاقتها بالارض بقاطعة العشير ، اكانت هذه اقطاعية موروثة أم وطناً ، والتي تبخس من قيمتهـــا حتى الشعوب من الطراز المجوس بسبب ان جلال الارثوذكسية هو وحده الذي يطغى تماماً على كل شيء آخر — ولكن ايضاً وقبل كل شيء ، هما متناسبتان في الممارسة الراقيـة وسط جميع وقائع العالم التاريخي ، وفي الوحـــدة الاختيارية بين النبض والحافز ، والدبلوماسية والحكم على الرجال وفي القيادة والسيطرة والارادة الجسور للحفاظ على السلطة وتوسيع دائرة سلطانها والتي كانت حتى في الازمان المبكرة تميز النبلاء عن الشعب من الحشد الحربي الواحد بالذات ، واخيراً فهما ايضاً من اصل واحد بشعورهما بالشرف والشجاعة . ولهذا السبب فان الدولة التي تكون فيهـا طبقة النبلاء بأكملها أو التقاليد التي اوجدتها هذه الطبقة بمجموعها ، في خدمــة الصالح العام ، فان مثل هذه الدولة ستكون ارسخ الدول قدمـــاً حتى آخر اطوارها - كما كانت اسبرطة في حالة مقارنتها بأثينا ، وروما قبالة قرطاجـــة ، وفي تسن Tsin حين مقارنتها بدولة تسو Tsu المدججة بألوان الطاو Tao .

ان الفرق يتجلى في كون النبالة المستقلة القائمة بوصفها طبقة — وهـذا ينطبق ايضاً على اية منزلة اجتماعية اخرى — تخبر البقية من الامـــة على اضواء شخصيتها

الخاصة - النبالة - وهي ترغب فقط في ممارسة السلطة وفق هذا المفهوم ، بينما ان المبدأ الاساسي للدولة ينص على ان الدولة مرغمة على الاهتمام بالجميع ،واهتمامها بالنبلاء يكون على الشكل الذي يتوقف معه وينسجم واهتمامها الشامل العام . ولكن نبالة اصيلة قديمة تترك للدولة ان تتمثل Assimilate ذاتها ، فتهتم بأمور الجميع ، كاهتمامها بملكية او عقار . واهتمام النبالة هذا هو ، فعلاً ، واجب من اعظم واجباتها ، وواجب تعيه وتدركه اشد الوعي واعمق الادراك ، وهي تشعر به على انه امتياز فطري بالفعل ، وتعتبر الخدمة في الجيش والادارات العامة رسالتها الخاصة في الحياة .

وهناك فرق ، من نوع آخر تماماً ، يقوم ، على كل حال ، بين فكرة الدولة وفكرة اي من الطبقات الاخرى . وهذه جميعاً هي غريبة عن الدولة على هذا الشكل ، كما وان المثل العليا للدولة التي تصفها هذه الطبقات من حياتها الخاصة لم تنم عن روح التاريخ الواقعي وقواه السياسية - ومن هنا ينشأ التأكيد الواعي الذي تعنون بوصفه مثلاً عليا اجتماعية . وبينما كان الوضع في الازمان المبكرة يتلخص فقط بأن الوقائع التاريخية كانت تناهض طائفة الكنيسة في مجهوداتها الرامية الى تحقيق المثل العليا الدينية ، نرى ان المثل الأعلى الاعمالي للحياة الاقتصادية الحرة والمثل الاعلى الطوباوي للتعصب الذي قد يحقق هذا التجريد او ذاك ، يخرجان ، في المراحل المتأخرة الى الميدان ايضاً .

ولكن لا توجد في العالم التاريخي مثل عليا ، بل توجد وقائع فقط - ولا توجد حقائق بل وقائع ووقائع . وهذا العالم لا يعرف عقلاً ولا استقامة ولا عدلاً ولا انصافاً ولا هدفاً نهائياً ، بل يعرف الوقائع والوقائع وحدها ، وان اي انسان لا يدرك هذا الواقع يتوجب عليه ان يؤلف الكتب عن السياسة - ولكن اياه ثم اياه ان يحاول وضع سياسة او صنعها . ففي عالم الامر الواقع لا توجد دول تبنى على مثل عليا ، بل توجد فقط دول قد نمت ، وهذه ليست سوى

الامم الحية « في شكل لائق » . ولا شك « انه الشكل ممهور بأن الحي يتفتح وينمو بذاته » لكن الخاتم الذي مهر به هـــذا الشكل كان خاتم الدم والنبض لكائن كله غريزة وفطرة ، وليس له اي اختيـار ، وهو بالنسبة الى تفتحـــه يتخذ الاتجـــاه الفطري في الدم ، ويتخذه كان يـد استاذ ماهر في السياسة توجهه الى ذاك الاتجاه وترشده ، ولو ان المثالي هو الذي وجه هذا الـكائن واملى عليه قناعاته لـكان قد انتهى به الى الحبوط والبطلان .

ولكن قضية المصير ، بالنسبة للدول التي توجد وجوداً واقعياً ، ولا توجد فقط في مخططات عقلانية ، ليست قضية واجب مثالي او تركيب ، بـــل قضية سلطانها الداخلي الذي لا يمكن على المدى الطويل ان يحافظ عليه بواسطة الوسائل المادية ، بل بواسطة فقط الاعتقاد او الايمان – ايمان صديق او عدو – بفعاليات هذه الدول وتأثيرها . ان القضايا الحاسمة لا تكمن في وضع الدستور ، بـــل تكمن داخل تنظيم سليم شغال للحكومة ، كما وانها لا تكمن في توزيع الحقوق السياسية وفق مبادىء « عادلة » (هذه المباديء التي هي في اعماقها فقط الفكرة التي تشكلها الطبقة من مطالبها المشروعة الخاصة) ، بل تكمن في النبض الكفؤ القدير للمجموع (وهـــذا كفؤ وقدير وفق مفهوم القائل بان عرض العضلات والعصب هو كفؤ عندما يقترب حصان السباق المجلي من نقطة النهاية) ، وتكمن في ذاك الايقاع الذي يجتذب حتى العبقرية الجبارة للتناغم معـــه ، واخيراً لا تكمن في اية اخلاق عالم اجنبي ، بل في مثابرة ويقين وقناعـــة الزعامة السياسية وتفوقها . وكلما زادت هذه الاشياء كلها وضوحاً وجلاء ، كلما قل وتناقض ما يقال ويدور حولهـــا من احاديث او نقاش وجدل . وكلما ازدادت الدولة اكتمالاً في النضوج ، يزداد موقفها رفعة وسمواً ، وتزداد قدرتها التاريخية زخماً ، ولذلك يزداد مصير الامة تسامياً وشموخاً . ان جلال الدولة ، سيادتها ، هو رمز حيـــاة من المرتبة الاولى . وهي تميز بـــين المواطنين والرعـــايا

Subjects Objects في الاحداث السياسية ، ولا يجري تمييزها هـــذا فقط في التاريخ الداخلي ، بل ايضاً في التاريخ الخارجي (وهذا اهم بكثير من ذاك) . وان قوة الزعامة التي تبلغ التعبير عن نفسها من خلال الانفصال الواضح القائم بين المواطنين والرعايا ، لهي دليل لا يخطىء له سهم ، على زخم الحياة داخل وحدة سياسية - الى درجة ان تدمير السلطة القائمة (من قبل مناصرين لمثل اعلى دستوري مناوىء لها مثلا) لا تنجم عنه دائماً تقريبا صيرورة الحزب الجديد سيداً للسياسة الداخلية ، بل تنجم عنه صيرورة الامة بأكملها خاضعة لسياسة اجنبية - وليس من النادر ان يكون خضوعها هذا ابدياً .

ولهذا السبب فان حرفية الدستور المكتوب تكون ، في كل دولة سليمة ، ضئيلة الاهمية وذلك اذا ما قورنت بممارسة الدستور الحي ، الشكل الذي انشأ ذاته وطورها من خبرة الزمان ، والوضع ، وفوق هذه كلها ، ملكات العنصر الطبيعي للكيان السياسي في بناء ذاته قوة وجبروتا ، كلما تزايدت مهارته رسوخا وثباتا في تدبر امر الاوضاع غير المرتقبة او المنظورة ، والحق انه في النهاية لا يهم ابدا ما اذا كان الزعيم الفعـــلي يدعى ملكاً او وزيرا او زعيم حزب او ان لا تكون له حتى اية علاقة معينة بالدولة (كما كانت حال سيسيل رودز . لقد كان النبلاء الرومان هم الذين يديرون دفة السياسة في حقبـــة الحروب البونية الثلاث ، ولم يكن لهؤلاء اي وجود اطلاقا من وجهة النظر الدستورية . زد على ذلك ان الزعيم هو مسؤول دائما امام الاقلية فقط التي تمتلك حس المهارة السياسية وغرائزها وتمثل بقية الشعب في صراع التاريخ .

ان هذه الواقعة لتعبر تعبيرا جلياً صريحا غير مبهم عن ان دولة الطبقـــة الواحدة - اي الدولة التي تحكمها طبقة خاصة - هي الدولة الوحيدة (التي ينطبق عليها مفهوم الدولة الصحيح - المترجم) .

ويتوجب علينا ألا نخلط هنا بين هذه الدولة وبين دولة الطبقة التي يشعر الفرد بأنه مرتبط بها من حيث كونه ينتمي الى منزلة اجتماعية ، كما كانت الحال في دولة المدينة Polis الاقدم وفي الدول النورمانية في انكلترا وصقلية ، في فرنسا دستور عام ١٧٩١ ، وفي روسيا السوفياتية اليوم . فالدولة الطبقية الحقيقية هي التعبير عن الخبرة التاريخية العامة ، وهذه تكون دائماً مرتبة اجتماعية Stratum واحدة وحيدة تذود الامة بطريقة دستورية ، أو بطريقة اخرى ، بالزعامة السياسية. وهذه تكون ايضاً دائماً اقلية محددة تمثل النزعة العالمية التاريخية للدولة ، وهذه الاقلية هي ايضاً داخل الدولة ، مستقلة وقائمة بذاتها تقريباً ، وذلك بفضل قدرتها وجدارتها ، « وهي احياناً وافية كافية تتعارض في مواقفها وروح الدستور » ، وهي التي تمسك واقعياً بأعنة السلطة ومقاليد الامور . ونحن اذا ما تجاهلنا ، معتمدين على المبدأ القائل بأن الاستثناءات تبرهن على القاعدة ، الفترات الثورية لخلو سدة العرش والاوضاع القيصرية التي يحافظ خلالها افراد من الناس وجماعات الفت بينها الصدفة والاتفاق ، على السلطة بواسطة وسائل مادية « كثيراً ما يكون هؤلاء عاطلين من الكفاءة والجدارة » ، اقول اذا ما تجاهلنا هذا نجد الاقلية داخل المنزلة الاجتماعية هي التي تحكم دائماً بقوة التقاليد . وفي الاكثر من الاحوال تكون هذه الاقلية متفقة والنبلاء ومنسجمة معهم – مثلاً « الأعيان » الذين حكموا وسيطروا على الاسلوب البرلماني لانجلترا ، والوجوه والأعيان الذين امسكوا بدفة السياسة الرومانية في الحروب البونية والارستقراطية التجارية في البندقية ، والمدربين على ايدي الرهبنة اليسوعية (هؤلاء الذين وجهوا الدبلوماسية لكوريا Curia البابوية في الحقبة الباروكية) .

وبالمثل فاننا نجد الكفاءة السياسية موقوفة على جماعات مستقلة قائمة بذاتها داخل المنزلة الدينية – ولا نجد هذه الجماعات فقط في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، بل نجدها ايضاً في مصر والهند ، واكثر من هاتين في بزنطة وبلاد فارس الساسانية .

وهناك في الطبقة الثالثة - بالرغم من ان هذه الطبقة نادراً ما تنجب مثل هذه الاقلية ، وذلك بسبب عدم كونها بالذات وحدة من حياة - بعض حالات من وجود لمثل هذه الاقلية ، كالحالات التي عرفتها روما في القرن الثالث ، حيث تألفت مثل هذه الاقلية من عوام مدربين على التجارة وخبيرين بأمورها ، وعرفتها ايضاً فرنسا ابتداء بعام ١٧٨٩ في فئة متضلعة في القانون من الطبقة البرجوازية ، وتكون هذه الاقلية ، في مثل هذه الحالات ، قائمة داخل دائرة مغلقة تتألف من اشخاص يمتلكون مواهب متجانسة وعملية ، وهي تكون في وضع من تعبئـة دائمة لثباتها ، وتحتفظ داخلها بكامل التقاليد والخبرة السياسية غير المكتوبة .

هذا هو التنظيم للدول الواقعية في تمايزه والتنظيمات الموضوعـة على الورق ، والموجودة داخل عقول المتحذلقين واذهانهم . فلا توجد هناك دولة أفضل وحقيقية وسليمة يُمكن ان تُحقق وفق خطة أو منهاج . فكل دولة تنشأ في التاريخ ، انما توجد على الحال التي نشأت عليها، ولكن حال وجودها هذه هي وحيدة الحدوث وتستمر برهة من الزمن ، اذ انها تصبح حالها بصورة لاوعية ، في البرهة التاليـة مختلفة عن حالها تلك ، وذلك مهما بلغت صلابة قشرتها الدستورية والقانونيـة من التيبس والشدة. ولذلك فان الكلمات «جمهورية» « استبداد مطلق » «ديمقراطية» تختلف في كل برهة من الزمن عن معانيها في البرهة السابقة لتلك ، اما مـا يحول هذه الكلمات الى شعارات ، فهو استعمالها بوصفها مفاهيم محددة معينة للفلاسفـة والايديولوجيين . ان تاريخ الدولة هو تاريخ سياسي وليس بمنهاجي . وليست مهمة هذا التاريخ ان يظهر كيف تتقدم « الانسانية » لغزو الحقائـق الخالدة ، وكيف تنطلق نحو الحرية والمساواة ، والى خلق دولة لا نهائية الحكمة والعدالة، بل ان مهمته هي ان يصف الوحدات السياسية التي توجد حقاً في عـالم الامر الواقع ، فيصف كيف تنمو وتزدهر وتذوي ، وكيف انها فعـلاً ليست سوى الحياة الواقعية « في شكل لائق » . اذن فلنقم بهـذه المحاولة استناداً الى هذه القاعدة .

- ٣ -

يبدأ التاريخ من الطراز الراقي ، في كل حضارة ، بالدولة الاقطاعية ، وهذه الدولة ليست دولة وفق مفهوم الكلمة الآتي فيما بعد من تطور ، بل انما هي تنظيم الحياة العامة يستند الى الطبقة أو المنزلة . وهنا تأخذ أنبل ثمرة للتربة ، عنصرها ، بأشد ما لكل عنصر من مفهوم اعتزاز وفخر ، ببناء نفسها حسب نظـــام من مراتب يبدأ بابسط الفرسان رتبة حتى يبلغ مرتبة السيد الاول بين الأعيان Primus inter pares ، السيد الاقطاعي الأعلى بين أعيانه Peers [١] .

وهذا النظام يبدأ في وقت واحد والهندسة المعمارية للكاتدرائيات العظمى والاهرامات – اذ يرتقي بالحجر والدم فيصبحان رمزين ، حيث يكون الأول منهما معنى أو مغزى ، ويكون الثاني كينونة او وجوداً . ان فكرة الاقطاع التي سيطرت على كل ربيع حضارة هي مرحلة الانتقال من العلاقة البدائية المجردة بعمليتها والواقعة بين الزعيم ، او الرئيس السائد وبين الذين يطيعونه (أكان هؤلاء هم الذين اختاروه ، ام كان هو الذي قد اخضعهم) الى القانون الخاص ، الى العلاقة بين السيد الاقطاعي وبين المقطع Vassal ، (ولذلك فان هذا الامر

---

(١) Peers : الاعيـــان : وهؤلاء ينقسمون الى خمس مراتب في المجتمع البريطاني خاصة هي :

الدوق ، المركيز ، الايدل ، الفيسكونت ، البارون .

– المترجم –

عميق في رمزيته) . وهذه العلاقة ترتكز كلياً على اخلاقية النبـــلاء ، الشرف والولاء ، وتنشأ عنها بالضرورة أقسى تضارب واجب المقطع إزاء سيده ، وواجبه ازاء عائلته الخاصة . وما انحلال هنري الاسد واضمحلاله سوى المثل الفاجـع على هذا التضارب .

ولا يتجاوز هنا وجود « الدولة » الحدود القصوى للرباط الاقطاعي ، ولقد كانت توسع ميدان وجودها عن طريق دخول مقطعين اجانب او اغراب فيـه . وهنا سرعان ما اصبحت خدمة الحاكم والوكالة عنه – وهذه كانت بالأصل شخصية ومحدودة زمناً – هي الاقطاعية الدائمة من الارض ، وكان اذا ما توفي صاحبهـا وثبت ان ورثته غير قادرين على القيام بواجباتهم ، يقوم الحاكم باستردادهـــا « escheat » وتخصيصها بآخر (اذ انه كان حتى في عام ١٠٠٠ يوجـد مبدأ في الغرب يقول : لا ارض بلا سيد « لورد ») ، ومن هذا المبدأ انطلقت الى مرحلة التوارث (قانون الامبراطور كونراد الثاني ٢٨ أيار عام ١٠٣٧) . وبذلك نشأ وسيط بين الرعايا المباشرين سابقاً للحاكم وبين الحاكم ذاتـــه ، اذ امسى هؤلاء رعاياه بسبب كونهم رعايا لاحد مقطعه Vassal ، ولم يكن هناك من شيء يحفظ تماسك ما يتوجب علينا حتى في مثل هذه الاوضاع ان نسميـــه بالدولة ، سوى التحابك الاجتماعي المتين بين اعضاء المنزلة الاجتماعية (الاولى – المترجم) .

ونحن نشهد هنا فكرة السلطة والغنائم لاتحاد اتباعي Classic – او تبعي – للمنزلة الاجتماعية الاولى . وعندما فتح وليم وفرسانه من النورمان انكلترا ، جعلت كامل ارضها ملكية للملك واقطاعية له ، وهي لا تزال اسماً على هذه الحال حتى يومنا هذا . وهنا نشهد غبطة فايكنغية Viking حقيقية « بالامتـــلاك » واهتماماً مماثلاً لاهتمام اوسيوس الذي بدأ باحصاء كنوزه وماله حالمـــا لامست سفينته شاطىء اليونان . فمن حس الفاتحين الحاذقين ، هـــذا بالغنائم ، نشأت ممارسة وزارة الخزانـــة المشهورة ، ونشأ الموظفون في الحضارات المبكرة .

ويستحسن ان نميز هنا بين هؤلاء الموظفين وبـــين اولئك الذين حضنتهم وظائف الموثوقية العظمى التي نشأت من التوكيل الشخصي الاقدم . اما هؤلاء الموظفون فهم كتاب دواوين ، وليسوا بوزاريين او وزراء ــ انهم « خدم » لكنهم خدم وفق مفهوم فيـــه الآن من الاعتزاز اكثر مما كان فيه فيما مضى . ان الوظائف المالية ووظائف الدواوين هي تعبير عن الاهتمام ، وهذه تتناسب تماماً في تطورها وتطور فكرة الاسرة المالكة . ولهذا بلغت في مصر مستوى مذهلا في رقيـه ، وذلك في مستهل بداية المملكة القديمة . اما نظام وظائف الدولة الصيني الموصوف في كتاب تشو ــ لي Chou - li فهو يبلغ درجة من الشمول والتعقيد تجعـل المرء يشك في صحة ما اورده هذا الكتاب ، لكن هذا النظام ينطبق في روحـه ونزعته واتجاهه على نظام ديوكلتسيان الذي مكن نظاماً اقطاعياً من التطور من جهاز مالي هائل وجبار . اما في العالم الكلاسيكي المبكر فان غيابه يبدو واضحاً وبارزاً . « فلتتمتع بيومك ولتنتهز الفرصة المتاحة « Carpe diem » » كان هو شعار الاقتصاد الكلاسيكي منذ البداية حتى النهاية ، كما وان عدم التبصر في هذا الميدان ، كما في الميادين الاخرى ، سياسة الاكتفاء الذاتي الرواقيـــة Autarkeia ، قد ارتفع به حتى أصبح مبدأ . وحتى افضل الحاسبين الحاسبين لم يكونوا يشكلون استثناء من هذا المبدأ ــ وهكذا فان يوبولوس Eubulus كان يدير الاعمال في اثينا ، عام ٣٣٠ ق . م ، وعينه مركزة على الفوائض والارباح ليوزعها عندما تحقق على المواطنين .

ويقدم لنا الفايكنغ الماهرون الحذرون المحترسون النظرية والممارسة المناقضتين كلياً لنظرية يوبولس في الاقتصاد وممارسته للادارة الحالية . فهؤلاء الفايكنغ هم الذين وضعوا ، بواسطة نظامهم الاداري المالي لدولهم النورمانية ، أسس الاقتصاد الفاوستي المخيم اليوم بظلاله فوق العالم بأكمله فمن جداول روبرت الشيطان Robert the Deivl (١٠٢٨ ــ ٣٥) المبرقشة بالارقام Chequered ، نملك اليوم الاسم الانكليزي لوزارة الخزانة Exchequer ، ومن هنا اشتقت ايضاً

كلمة « شيك » . ومن هنا نشأت ايضاً كلمات « مراقبة » و «مخالصة» و «تدوين» فهنا قد جرى تنظيم بريطانيا بوصفها غنيمة ، وهبط بالانغلو سكسونيين هبوطاً لا يعرف شفقة او رحمة الى مرتبة القنانة Serfdom ، ومن هنا ايضاً ولدت الدولة النورمانية في صقلية — وهكذا فان ما بناه فريدريك الثاني من آل هوهنشتاوفن، فيما بعد ، لم يكن يرتكز على اللاشيئية ، فهو لم يبدع اشد انجازاته شخصية ، دساتير ملفي Melfi (عام ١٢٣١) بل انما قام فقط (وبواسطة مناهج اقتبسها من المدنية العربية الراقية) بصقلها صقلاً بلغ بها مرتبة الاكتمال . ومن هذا المركز انتشرت تقنية المالية ، من منهاجية وبيانية ، في عالم الاعمال في لومبارديا ، وهكذا انتشرت ايضاً في جميع المدن التجارية والادارات العامة في الغرب .

ولكن فترة قليلة من الزمن هي التي تفصل بين بنيان النظام الاقطاعي وبين اندثاره ، فهذان متقاربان زمنا وثيق تقارب . وعندما كانت المنزلتان الاوليتان لا تزالان في عنفوان الحيوية والازدهار ، كانت امم المستقبل ، ومع هذه فكرة الدولة الاصيلة ، تتحرك مندفعة نحو ميدان الحياة . وكان يقاطع الخلاف القائم بين القوميات ، المرة تلو المرة ، التعارض القائم بين القوى الزمنية والروحية ، والخلاف بين التاج والمقطعين الخلاف الالماني الفرنسي الذي بدأ حتى بازمان اوتو الاكبر ، والخلاف الالماني الايطالي الذي مزق ايطاليا بين اعضاء عائلتي غليف Guelph وجبلين Ghibelline ودمر الامبراطورية الجرمانية ، والخلاف الفرنسي الانكليزي الذي نجمت عنه سيطرة بريطانيا على الاقاليم الغربية من فرنسا . ومع ذلك ، فان هذه الامور كانت بالغة جداً في قلة اهميتها اذا ما قورنت بالقرارات والاحداث العظمى التي وقعت داخل النظام الاقطاعي بالذات ، حيث كانت فكرة القومية غير معروفة . فلقد تناثرت بريطانيا الى ٦٠٢٥١ اقطاعية رتبها كتاب دومسداي الصادر عام ١٠٨٤ . في قوائم (وهذا الكتاب لا يزال حتى اليوم مرجعاً في بعض الحالات) ، وبلغ المزال بالسلطة

المنظمـــة تنظيما مركزيا صارما جداً جعلها تلتمس الولاء لها حتى لدى صغار مستأجري الارض من الاعيان ، ولكن مع ذالك فانه لم تمض سوى مئة وخمسين من الاعوام حتى اصبحت الماغنا كارتا (عام ١٢١٥) نافذة المفعول ، وانتقلت السلطة الفعلية من الملك الى البرلمان المشكل من المقطعين — وقد تألف مجلس اللوردات من كبار البارونات ورجـــال الدين ، بينما تشكل مجلس العموم من ذوات المدن وابناء طبقة النبلاء فيها — وقـد اصبح هذا المجلس منذ ذاك الحين فصاعدا بطل التطور القومي ونصيره الشديد البأس والنفوذ . اما في فرنسا فان طبقة البارونات متعاونة والاكليروس والمدن ، قد ارغمت في عام ١٣٠٢ الملك على دعوة مجلس البرلمان States general ، زد على ذلك ان الامتياز العام الذي كانت تتمتع به ساراغوسا في عام ١٢٨٣ قد جعل من آرغون شبه جمهورية تتألف من النبلاء وتحكمها بلاطاتهم ، وقامت مجموعة من كبار المقطعين الالمان ، قبل هذا التاريخ بعدد قليل من عقود السنين ، بجعل انتخاب الملك الالماني من اختصاصهم ، بوصفهم ناخبين .

وقد وجدت فكرة الاقطاع — لا في الغرب فقط بل في كل حضارة اخرى — اعتى تعبير عن نفسها في الصراع الذي نشب بين الامبراطورية والبابوية ، فلقد كانت كل واحدة من هاتين تحلم ببلوغ نظام من السلطة يجعل العالم باكمله خاضعا لنظام اقطاعي هائل جبار ، وقد عاشتا داخل هذا الحلم جسدا وروحاً والى درجة من الاغراق جعلت انحلال النظام الاقطاعي واندثاره يؤديان الى سقوطهما من ذراهما معا ، وتناثرهما الى انقاض فاجعة وركام حزين .

واتخذت الفكرة القائلة بان اوامر الحاكم يجب ان تكون نافذة المفعول في العالم التاريخي طولا وعرضا ، وان مصير هـذا الحاكم يجب ان يكون مصيرا للجنس البشري باكمله ، اتخذت لها شكلا منظورا في حالات ثلاث — الاولى في

المفهوم القائل بان الفرعون هو حوروس Horus [1] ، والثانية في التخيل الصيني: للحاكم على انه هو الوسط وان مملكته هي تين – هيا Tien - hia ، اي كل ما يقع تحت السماء ، واما الثالثة فلقد عرفتها الازمان الغوطية المبكرة . فلقد فهم اوتو الاكبر في عام ٩٦٢ ، تجاوبا وشعوره الصوفي وحنينه الى اللانهائيـــة الفراغية التاريخية التي كانت آنـــذاك تجرف العالم بسيولها ، عـــلى ان فكرة « الامبراطورية الرومانيـــة المقدسة هي فكرة امة المانيـــة » . ولكن حتى ابكر من اتو ، كان البابا نقولا الاول (٨٦٠) ، هذا البابا الذي كان لا يزال يعيش داخل اطار الفكر الاوغسطيني – وهذا الاطار هو مجوسي – يحلم بديمقراطية بابوية ذات سلطان يخضع له جميع ملوك العالم وامرائه ، وابتداء بعام ١٠٥٩ ، انطلق غريغور السابع بكل عنفوان زخم طبيعته الفاوستية نحو تحقيق مملكة بابوية عالمية تخضع لاشكال من نظام اقطاعي عالمي ، يكون فيه الملوك هم المقطعون Vassals . وقد قامت البابوية ، انسجاما ووجهة نظرها في السياسة الداخلية بانشاء الدولة الاقطاعيـــة الصغيرة ،دولة كامبانيا Campagna ، حيث كانت عائلات النبلاء في هذه الدولة هي التي تسيطر على انتخـــاب البابوات ، وسرعان ما خولت هـذه مجمع الكرادلة (الذي خول صلاحية انتخاب البابوات ابتداء من عام ١٠٥٩ فما بعـده) الى نوع من نبالة اوليغارشية . ولكن البابا غريغور السابـع حصل فعلا ، حسب المفهوم الاوسع للسياسة الخارجية ، على الدولتين النورمانيتين في انجلترا وصقلية ، اذ ان هاتين الدولتين قد خلقتا نتيجة لمناصرته ومعاضدته ، وكان هو الذي يبت فعلا في امر التاج الامبراطوري ، كما بت اوتو الاكبر[1] في امر التاج البابوي . ولكن بعد مضي فترة قصيرة من الزمن نجح هنري الرابـع من آل هوهنشتاوفن نجاحا معاكساً في معناه (لنجاح

---

(١) Horus اله مصري ، وهو اله له رأس صقر .

– المترجم –

اوتو وغريغور – المترجم) وحتى ريتشارد قلب الاسد اقسم قسم ولاء المقطعين له لانكلترا ، وكانت الامبراطورية العالمية على وشك ان تصبح امراً واقعاً عندما جعل انوسنت الثالث ، اعظم البابوات اطلاقا (١١٩٨ – ١٢١٦) السيادة العليا للبابوية على العالم حقيقـــة وواقعاً لمدة قصيرة من الزمن . فلقد اصبحت انكلترا اقطاعية بابوية في عام ١٢١٣ ، وسرعان ما آلت الى هذه الحال كل من آراغون وليون والبرتغال والدانمرك وبولندا وهنغاريا وارمينيا والامبراطورية اللاتينية المؤسسة حديثا في بزنطة . ولكن ما كاد الثرى يغيب البابا انوسنت حتى دب الانحلال في الكنيسة بالذات ، وسرعان ما حذا الرؤساء الروحانيون العظام الذين حولتهم الاضفاءات القانونية Investitures الى مقطعين للبابا بوصفه السيد الاعلى ، حذو المقطعين الزمنيين ، وانطلقوا يحدون من سلطانه بواسطة اقامـــة مؤسسات تمثيلية لنظامهم . اما الفكرة القائلة بان المجمع العام يسمو فوق البابا ، فهي فكرة لا تمت بصلة الى الاصول الدينية ، اذ انها وليـــدة مبدأ الاقطاع ونظامه . ونزعة هـذه الفكرة تنطبق تماما على الفكرة التي جعلها الاقطاب من الانكليز في الماغنا كارتا هي صاحبة النفوذ والسلطان . وقـد جرت في مجامع كونستانس (١٤١٤) وبازل (١٤٣١) آخر المحاولات لتحويل الكنيسة بما لها من وجه دنيوي ، الى نظام اقطاعي اكليركي ، كانت ستصبح بموجب أوليغارشية الكرادلة ممثلة لكامل المنزلة الاكليريكية في الغرب ، وكانت ستحل محل طبقة النبلاء الرومان . ولكن فكرة الاقطاع كانت آنذاك قد انحدرت منـذ زمن طويل الى المرتبة الثانية بالنسبة لفكرة الدولة ، وبذلك آل النصر الى البارونات الرومان . واصبح الترشيح للمنصب البابوي محدودا داخل اقرب ضواحي روما ، وبهذا توفر لمركز الدائرة البابوية السلطان المطلق على تنظيمات الكنيسة . اما فيما يتعلق بالامبراطورية (البابوية العالمية – المترجم) فكانت قد اصبحت آنذاك منذ زمن طويـل ، شبحاً مبجلًا وظلًا محترما كالامبراطوريتين المصريـــة والصينيـة .

وعندما نقارن متمعنين في هذه الديناميكية الماثلة الجبارة المتجلية من خلال هذه القرارات والاحداث ، نجد ان تشكل النظام الاقطاعي في العالم الكلاسيكي جاء بطيئاً ساكناً دون ما صخب او ضجة تقريباً ، حتى ليجد المرء صعوبة في التعرف عليه لولا بعض آثار من مرحلة انتقال . فنحن نشهد في الملاحم الهوميرية ، كما ترامت الينا اليوم ، ان لكل دائرة باسيليوسها Basileus ، الذي كان ، كما هو واضح بما فيه الكفاية ، يوماً مقطعاً كبيراً - ونستطيع ان نرى ايضاً في شخص أغاممنون الاحوال والاوضاع التي كان فيها احد حكام الاقاليم الواسعة ينطلق وبطانته من الاعيان الى الحرب . ولكن انحلال النظام الاقطاعي في العالم الاغريقي كان مترافقاً وتشكل دولة - المدينة ، « النقطة » السياسية . ونتيجة لذلك فان جميع وظائف البلاط المتوارثة ، الـ - Archai والـ - Timai والـ - Prytaneis والـ - آرخون ، ولربما ايضاً وظيفة البريتور الاصلي ، كانت ذات طبيعة مدنية متحضرة ، كما وان العائلات لم تتطور بصورة افرادية منعزلة داخل مقاطعاتها ، كما حدث في مصر والصين والغرب ، بل جاء تطورها متلاصقاً تلاصقاً شديداً والمدينة ، حيث اخذ ابناؤها يستولون على حقوق الملك حقاً بعد حق ، حتى لم يعد في النهاية للبيت المالك سوى ذاك الحق الذي لا يمكن ان يمس بسبب الآلهة - الا وهو اللقب المرتبط بوظيفته في تقديم القربان (ومن هنا نشأ اللقب المعروف « بالملك المقدم القربان Rex Sacrorun) . ونجد في الاجزاء التي كتبت فيا بعد من الملاحم الهوميرية (قرابة عام ٨٠٠) ان النبلاء كانوا هم الذين يدعون الملك الى التربع على العرش ، وكانوا حتى هم الذين يخلعونه . والاوديسي لا تعرف حقاً الملوكية الا بوصفها جزءاً من اسطورة - فالاثا كا Ithaca الواقعية التي ترينا اياها هي مدينة تسيطر عليها الاوليغارشية . اما الاسبرطيون ، فلقد كانوا ، كطبقة نبلاء كوميتيا Comitia وكيورياتا Curiata الرومان ، نتاجاً لروابط الاقطاع . وتوجد في الفيديتيا Phiditiae آثار واضحة لجمعية النبلاء القديمة ، لكن سلطات الملك تدنت وانحطت الى الجلال الشبحي لملك روما المقدم للقربان . او « ملوك » اسبرطة الذين كانوا

دوماً معرضين للسجن والخلع في اية لحظـــة بشاء ذلك الايفورس Ephors .
ويرغمنا التشابه الجوهري بين هذه الاوضاع على الظن في انه قد سبقت عهد الطغاة التوركوانيين الخسيابة مرحلة سيطرت خلالها الاوليغارشية ، ويدعم هذا الظن التقاليد السليمة في اصالتها لتعيين الوصي على العرش ، وهـذا شخص يعينه مجمع النبلاء (مجلس الشيوخ) ويختاره من بين اعضائه ، وكان هـــذا يقوم بعمله حتى يطيب لهؤلاء انتخاب ملك ثانية .

وهنا ، كما في اي مـكان آخر ، يأتي زمن يدب الانحلال خـلاله في النظام الاقطاعي ، لكن دولة المستقبل لا تكون خلاله قد تكاملت بعد ، كما وان الامة لا تكون آنذاك قد أمست في « شكل لائق » . وهذه هي الازمة المرعبة التي تنشب في كل مكان وتتخذ ، من فترة خلو سدة العرش من شاغلها ، شكلا لها ، وتخطط الحدود بـــين الاتحاد الاقطاعي وبين دولة الطبقة . وفي مصر بلغ النظام الاقطاعي آخر مراحل تطوره قرابة منتصف عهد العائلة الخامسة . فلقد تخلى الفرعون آسوسي عن ممتلكاته قطعة قطعة للمقطمين ، زد عـــلى ذلك ان اقطاعات الكهنة الموفورة الثراء كانت (كما كانت تمامـــاً في الغرب) معفاة من الضرائب واصبحت تدريجياً ملكية دائمة (او بمعنى آخر موقوفة) على المعابـد الكبرى . ويبلغ عصر آل « هوهنشتاوفن » نهايته بالعائلة الخامسة (قرابة عام ٢٥٣٠ ق.م) . واصبح الامراء (رباتي Rpati) والكونتات مستقلـــين (هيتيو Hetio) في عهد السلطان الشبحي الواهن للعائلة السادسة التي لم يمتد بها الاجل طويلاً ، ولقد كانت الوظائف العالية جميعها وظائف متوارثة ، وترينـــا النقوش على القبور المصريـة التشديد الفخور المتزايد عـــلى سلاسل الانساب الغابرة . اما ذاك الذي خبأه المؤرخون المصريون ، الذين جاءوا فيما بعد ، تحت اسمي العائلتين السابعة والثامنة المشهورتين ، فانما كان في واقعه يمثل نصف قرن من الفوضى والخصومات المتمردة على القانون والتي دارت بـــين الامراء حول انتزاع مقاطعات بعضهم بعضاً ، او حول لقب الفرعون . وفي الصـــين ارغم

المقطعون حتى اي – وانغ I - Wang (٩٣٤ - ٩٠٩) على توزيع جميع الاراضي التي افتتحها ، وان يوزعها على صغار المستأجرين الذين عينوا اسماءهم . واضطر لي – وانغ وولي عهده عام ٨٤٢ على الفرار ، وقام امراء افراد بادارة امور الامبراطورية وتدبيرها . وقد بدأ خلال فترة خلو سدة العرش هذه تدهور مكانة آل شو وهبط الاسم الامبراطوري فامسى لقب شرف ، لكنه مجرد من كل معنى . وتنطبق صورة هذه المرحلة على صورة فترة خلو سدة العرش في المانيا والتي بدأت عام ١٢٥٤ ، وانحدرت بالسلطة الامبراطورية الى مرتبة نظيرتها لعام ١٤٠٠ وفي عهد ونسلاوس Wenceslaus ، وتتجانس ايضاً واسلوب عصر النهضة في تحييد الجنود المرتزقة ، وتتماثل تماماً والانحلال الكامل للسلطة البابوية . فلقد شهدت البابوية ، بعد وفاة بونفاس الثامن الذي تثبت ثانية ، في عام ١٣٠٢ ، السلطة الاقطاعية للبابوية ، بمنشوره البابوي اونام سانكتام Unam Sanctam ، والذي قام ممثلو فرنسا بسجنه ، المرة تلو الاخرى ، افول شهدت البابوية قرناً كاملاً من النفي والفوضى والوهن ، بينما افني معظم ابناء طبقة النبلاء الانكليز خلال الصراع الذي دار بين عائلتي يورك ولانكستر على العرش .

– ٤ –

جاء سقوط البابوية ليعبر عن انتصار الدولة على المنزلة . ولقد كان يكمن في جذر النظام الاقطاعي شعور يقول بأن هدف الوجود وغايته ، يستلزمان ان تعاش « الحياة » وتوجه على اضواء ما تعنيه . وكان التاريخ قد ضغط حتى آخر ذرة فيه داخل مصائر دم طبقة النبلاء . ولكن نشأ هنا شعور بأنْ هناك شيئاً ما

آخر الى جانب الاشياء الاخرى، شيئاً ما تخضع له حتى طبقة النبلاء، وتشترك فيه هذه الطبقة وجميع الطبقات الاخرى (أكانت هذه مراتب أم مهناً وحرفاً) ، شيئاً ما غير محسوس به او ملموس ، انه فكرة . وهنا لم يعد ينظر الى الاحداث من وجهة نظر قانون – شخصي خاص صريح ، بل من وجهة نظر قانون «عام». فمن الجائز ان تبقى (وقـــد بقيت تقريباً دون استثناء) دولة ارستقراطية قلباً وقالباً ، ومن الجائز ألا يتبدل مظهرها الخارجي خلال مرحلة الإنتقال من الجماعة الاقطاعية الى دولة الطبقة ، الا فيما ندر ، وان الفكرة القائلة بان لاولئك ، الذين يعيشون خارج دائرتي المنزلتين ، حقوقاً كما عليهم واجبات قد تكون فكرة لا تزال غير معروفة ، لكن الشعور قد تبدل وتغير ، وقد تنحى الوعي للحياة على انها قـــد وجدت لتعاش على ذرى التاريخ وقممه ، عن مكانه للفكرة القائلة بأن الحياة تشتمل على واجب او فرض . ويتضح لنا هذا الفرق بجلاء عندمـــا نقابل بين سياسة راينالد فان داسل (١١٦٧) – الذي يعتـبر من اعظم رجال الدولة الالمان في كل الحقبات والمراحل – وبين سياسة الامبراطور شارل الرابع (١٣٧٨) ، ونتأمل على نحو متواز وهاتين مرحلة الانتقال التي اجتازها الشعور الكلاسيكي من الحقبـة الفروسية ، حقبة ثميس Themis الى حقبة « الدايك » Dike ، حقبـة المدينة الكبرى الناميـــة . فالثميس تشتمل عـلى قضية او مطالبة فقط ، بينما ان الدايك تفترض بالاضافة الى تلك واجباً ايضاً .

ان فكرة الدولة هي ، في عنفوان شبابها مرتبطة دائماً – وتضرب ، بداهة ، جذورها ، بصورة طبيعية ، عميقاً داخل الحيوانية بالذات – بمفهوم الحاكم الفرد . وهذا القول ذاته ينطبق بالوضوح ذاته على كل جمهور محرض مستثار في كل وضع حاسم – كما تدلل على ذلك ، المرة بعد المرة كل جمعيـة مشاغبة وكل لحظة من خطر مفاجىء . وجماهير كهذه هي وحدات من شعور ، لكنها وحدات عمياء . وهي في « شكل لائق » بالنسبة لاندفاع الاحداث وتدافعها – فقط ، وعندمـا تكون في قبضة الزعيم الذي يظهر فجأة في وسطها ، فعندئذ تنصبه وحدة الشعور

هذه بالذات رأساً لها ، حيث يجد لديها طاعة عمياء غير مشروطة وهـذه العملية تكرر ذاتها في تشكل الوحدات العظمى من الحياة التي ندعوهــا بالشعوب والدول ، لكنهـا تتكرر ببطء وبغزى اشد رسوخ قدم ويقيناً . وفي بعض الاحيان يتكلفون في الحضارات الراقية وضع هذه العملية جانباً او وراء ، وذلك لصالح اساليب من كينونة هي « في شكل لائق» ومن اجل رمز عظيم ، ولكننا حتى في هذه الحال ، نجد عملياً وواقعياً تحت قناع هذه الاشكال دائمــاً سيطرة فردية ، أكانت هذه السيطرة سيطرة مستشار الملك أم سيطرة رئيس الحزب ، كما وان الوضع الاصلي للاشياء يظهر ثانية في كل اضطراب ثوري .

وترتبط بهذه الواقعة الكونية سمة من أعمق السمات باطنية واشدهــا التصاقاً بكل الحياة الاتجاهية ، انها الوصية الموروثة التي تعرض ذاتها بزخم ظاهرة طبيعية، وفي كل عنصر قوي ، وتستحث بارغام حتى الزعيم الموقوت (وبصورة لاواعية) على ان يرفع من شأن مرتبته طيلة وجوده الشخصي ، او حتى مــا بعده ، طيلة تدفق دمه في شرايين ابنائه واحفاده . وهذه السمة العميقة والشبيهة بالنبات تلهم بالذات كل دفق حقيقي يشعر باستمرارية دم الزعامة ، لكل من اليقين باستمراريته الخاصة ورمزه . وهــذه الغريزة الفطرية تنبجس في الثورات بصورة خاصة ، انبجاساً مليئاً قوياً بغض النظر عن كل ما هنالك من عقائد ومبادىء . وبسبب هذه الغريزة بالذات لم تر فرنسا عام ١٨٠٠ ، فقط في نابليون بــل في ذريته الوارثــة ايضاً ، الاكتمال الحقيقي للثورة . ان النظريين ، كماركس وروسو ، الذين انطلقوا من مفاهيم المثل العليا بدلاً من ان ينطلقوا من وقـائع الدم لم يدركوا أبداً هذا الزخم الهائــل الجبار الذي يكمن داخل العالم التاريخي ، ولذلك وصموا آثاره الجلية الواضحة بالحزبي والرجعية . ولكن هذه الآثار قائمة هنا وموجودة ، ولها من الزخم الملحاح ما يجعل حتى طغيان رمزية الحضارات العظمى عليهــا ، طغياناً موقتاً ومتكلفاً ، وهي تتبدى في احتكار عائلات كلاسيكية خاصة للوظائف المنتخبة ، وفي محسوبية البابوات ومحاباتهم لاقاربهم في

الحقبة الباروكية فيما يتعلق بنا . وتكمن دائمـــاً وبصورة عملية ، وراء التنحي مراراً بطيبة خاطر عن الزعامـــة ، ووراء الشعار القائل « بأن الكفاءة هي التي يجب ان تحكم » ، المنافسة بين الاقطاب الذين لا يمانعون من حيث المبدأ بقيام حكم متوارث ، لكنهم يحولون في حقل الممارسة دون قيامه ، وذلك لان كل واحد منهم يدعي سراً حق دمه الخاص فيـــه . وهذه الحـــال من الحسد او التحاسد الفعال المبدع هي الاساس الذي شيدت عليـــه اشكال الاوليغارشية الكلاسيكية .

ان مركب كلا العنصرين ينتج فكرة السلالة الحاكمة . وهذه الفكرة تبلغ جذورها عميقاً في الكوني ، ويبلغ تحابكها والغشاء الواقعي للحياة التاريخية من التلاصق والالتحام مبلغاً يجعـــل فكر الدول لكل حضـــارة تكيفات وهـــذا المبدأ الواحد ، ابتداء من النفس الفاوستية الشديدة في اثباتيتها وايجابيتها حتى النفس الكلاسيكية العاقدة العزم على النفي والسلب . ويرافق المدينة نضوج فكرة الدولة ، لأية حضارة ، وحتى مرحلة المراهقة من تطور المدينة . فالامم ، اي الشعوب التاريخية ، هي شعوب بناة مدن . والعاصمة تحل محل القلعة ، ويحول القصر نفسه بوصفه مركز دائرة التاريخ الراقي ، ومعه الشعور بممارسة السلطة ، الثيمس Themis ، الى مركز للحكومة ، الدايك . وهنا تنتصر باطنياً الوحدة القومية على الوحدة الاقطاعية ، وانتصارها يتحقق حتى داخـــل وعي المنزلة الاولى بالذات . وهنا يرتفع واقع الحكم بنفسه فيمسي رمزاً للسيادة .

وهكذا يصبح التاريخ الفـــاوستي ، بانخساف النظام الاقطاعي ، تاريخاً للسلالات المالكة . ومن تلك المراكز الصغيرة حيث تقوم مقرات عائـــلات الامراء (أما من اين « نبتت » هـــذه العائلات ، فان شبه الجملة هذه تذكرنا بالنبات والملكية) ، ينطلق تشكل الامم ــ امم ذات فطرة ارستقراطية صارمة ، ولكن مع ذلك فان الدولة هي التي تشترط كينونة المنزلة . فمبـدأ تسلسل

النسب الذي اصبح يسيطر في طبقة النبالة الاقطاعية وفي عائلات الملاك الزراعيين، أي تعبير الشعور عن التوسع والانفساح وارادة التاريخ ، قد أصبح من القوة على درجة أصبح عندها ظهور الامم المتسامية فوق الوحدات القوية من اللغة والصقع يعتمد على مصائر البيوتات الحاكمة . فالزواج او الموت يقطع او يوحد بين كامل دماء السكان . وحيث فشلت عائلة حاكمة لوترينجية واخرى بورغوندية في ان تتخذ شكلاً لها ، كذلك فشلت امم كانت لا تزال في الدور الجنيني في أن تتطور فتكتمل . والادانة التي كانت تخيم بظلالها فوق آل هوهنشتاوفن كانت تشتمل على اكثر من التاج الامبراطوري ، فلقد كانت تعني طيلة قرون من الزمن حنيناً عميقاً غير راض الى امة المانية — ايطاليـة متحدة ، بينما آل هابسبورغ ، كانوا على العكس من آل هوهنشتاوفن اذ انهم مكنوا أمة نمساوية لا المانية من أسباب التطور ووسائله .

ولقد تشكل مبدأ حكم الامرة المالكة في العالم المجوسي ، بما لهذا العالم من شعور كهف ، على شكل مغاير تماماً . أمـــا البرنسيبس Princeps — الرئيس الاكبر — الكلاسيكي ، ووريث الطغاة والتريبيونات ، فكان تجسيداً للعوام Demos . وكما ان الاله جانوس كان هو الباب ، والالهة فستا كانت هي الموقد، فكذلك كان القيصر هو الشعب . وهـذا كان آخر ابداعات التدين الاورفي . أما السيد الاله Dominus et Deus ، فكان على العكس من هـذا ، اذ كان مجوسياً ، وهو الشاه المشترك في النار الالهية (الهفارينو Hvareno للامبراطورية المازادية الساسانيين ، والذي يصبح هالة من نور في البزنطية من امية ومسيحية) والذي يشع حول الشاه ويجعله Pius, felix, Invictus (وهذا اللقب الاخير أصبح اللقب الرسمي له ابتداء بعهد كوميدبوس) . وقـــد مر نموذج الحاكم في بزنطة ، وفي القرن الثالث من تاريخنا ، بمرحلة الانتقال ذاتها ، وكان المفهوم ضمنا ان تحطيم اجهزة الادارة المدنية لدولة اوغسطس ، يستهدف بناء النظام الاقطاعي لديوكلتسيان . ويقول ماير في كتابه « المخطوطات الكلاسيكية » وفي الصفحة

١٤٦ منه ما يلي : « لقد بدأ الابداع الجديد [١] باورليان وبروبوس ، وقد قام ديولكتسيان ببنائه على الانقاض ، أما قسطنطين فلقد كان غريباً عن العـــالم الكلاسيكي والبرنسيبيت Principate غرابة امبراطورية شارلمان عنهـا » . ولقد كان الحاكم المجوسي يحكم الجزء المنظور من اتحاد ، (من اجمـــاع) الارثوذكسية ، وهذا الجزء كان مركبا واحدا من الكنيسة والدولة والامة ، وذلك كما وصفه اوغسطين في Civitas Dei . أما الحاكم الغربي فهو العاهل ، بنعمة الله ، في العـــالم التاريخي ، وشعبه خاضع له لان الله هو الذي قلده منصبه واوكله بذلك ولكن هذا العاهل ، فيما يتعلق بأمور الايمـان ، هو خاضع بالذات – لوكيل الله على الارض ، او لضميره وذلك وفق مقتضيات الحـــال . وهـــذا هو فصل سلطة الدولة عن سلطة الكنيسة ، وهو يمثل النزاع الفاوستي الماثل بين الزمان والفراغ . وعندما قام البابا في عام ٨٠٠ بتتويج الامبراطور ، فانه اختار حاكماً جديداً لنفسه وذلك بغية ان يكسب هو بالذات وان ينمو ويتشدد . وبينما كان الامبراطور في بزنطة ، بمقتضى الشعور المجوسي بالعالم ، السيد الاعلى للبابا في الامور الروحيـة والزمنية ، كان الامبراطور في الاراضي الفرنكية خادماً للبابا في القضايا الروحية ، الى جانب كونه (ربمـا) عضداً له ويداً في الامور الزمنية . ولذلك فان البابوية ، كفكرة ، يمكن لهـا ان تنشأ فقط بواسطة انعزالها وفصلها عن الخلافة Caliphate ، وذلك لان شخص الخليفة يشتمل على البابا أيضاً .

ولهذا السبب بالذات ، من غير المستطاع ، ان يجري ربـط اختيار الحاكم المجوسي بقانون وراثة ذرية البيت المالك للعرش . فهـــذا الاختيار ينبع من

---

(١) يعني القيصر .
– المترجم –

الاجماع لعشيرة ــ الدم الحاكمة التي يتحدث من خلالها الروح القدس ويعين من يختاره للعرش . وعندما توفي تيودوسيوس في عام ٥٥٠ عقدت احدى قريباته ، الراهبــة بلوكيريا ، قرانها على مار سيانوس الطاعن في السن وعضو مجلس الشيوخ ، وبذلك ضمت رجل الدولة هذا وجعلته احد اعضاء العائلة ، وامنت له ارتقاء العرش ، وضمنت استمرار السلالة الحاكمة ، وهذا العمل الذي نشهد كثيراً من الحوادث المشابهة له في الاسر المالكة الساسانية والعباسية ، كأن يعتبر على ان حدوثه قد تم بايعاز من فوق ، (من السماء ــ المترجم) .

اما في الصين ، فسرعان ما أصبحت فكرة الامبراطور ، التي كانت فكرة وثيقة الارتباط بالنظام الاقطاعي ، حلماً ، سرعان ما اصبح يعكس بوضوح متزايد ,كامل العالم السالف زمناً في شكل ثلاث سلالات مالكة من الاباطرة ، واباطرة اسطوريين اقدم من اولئك زمناً ايضاً . ولكن نشأت بالنسبة للاسر الحاكمة وفق نظام الدول الذي نمت عليه هذه الاسر وترعرعت ، (والذي اصبح اخيراً فيه اللقب ، الملك ، Wang شائعاً ومتداولاً بصورة عامة تماما) قوانـين صارمة وسارية المفعول لوراثة العرش ، واصبحت مشروعيــة الوراثة ــ وهذه فكرة غريبة تماما بالنسبة للازمان المبكرة ــ قوة يستند اليها ويركن ، وقد ادى انقراض السلالة الحاكمة ، والتبني والزواج غير المتكافيء ، الى ما ادى اليه في الحقبة الباروكية في الغرب ، الى حروب لا يحصيها عد ، دارت حول الحق في وراثة العرش . وهناك بعض من مبادىء المشروعيــة كانت تكمن ايضا وراء الوقائع العجيبة في نباهتها والتي تمثلت في قيام فراعنة العائلة الثانية عشرة ، والذين انتهت بهم الحقبــة المتأخرة زمنا من الحضارة ، بتتويج ابنائهم ، في حياتهم ، فراعنة على مصر . وان الترابط الباطني بين هذه الفكر الثلاث لتوارث العرش ، هو ايضا دليل آخر على ان كينونات هــــذه الحضارات الثلاث هي كينونات متشابهــة .

والحق ، أن المرء ليحتاج الى بصيرة ثاقبة لسبر اغوار لغة الشكل السياسي للعالم الكلاسيكي ، كي يدرك ان الاحداث والاشياء قد اتخذت هنا ايضا المجرى ذاته تماما ، وان هذا المجرى لم يحتو فقط على مرحلة الانتقال من الاتحاد الاقطاعي الى دولة الطبقة ، بل انما اشتمل ايضا على مبدأ الوراثة العائلية للعرش . والكائن الكلاسيكي هو ، فعلاً ، كائن كان يجيب نفياً على اي وكل شيء قد يجذبه الى ابعاد ومسافات في كل من الفراغ والزمان ، ولقد احاط نفسه حتى في عالم الامر الواقع للتاريخ ، بابداعات او مبتدعات كانت تحتوي على شيء ما من الدفاعية . ولكن هذا التضييق والصلم او الجدع ، يفترضان مسبقا وجود الشيء الذي يكدح الكائن الكلاسيكي ويناضل ضده بغية الحفاظ على نفسه . فالتبذير او الامراف الديونيسي ، والنفي الاورفي للجسد او انكاره ، انما كانا يحتويان في كل شكل من اشكال معارضتها على المثل الاعلى الكامل للكائن الجسماني .

فالحكم الفردي ، وارادة النقل الى الورثاء ، كانا دون ريب ، من الامور المسلم بها في اقدم الانظمة الملكية في العالم الكلاسيكي . لكنهما كانا قد اصبحا في عام ٨٠٠ موضوعين لنقاش وجدل ، كما يظهر ذلك دور تيليماخوس في الاجزاء الاخيرة من الاوديسية . ففي الكثير ، من الاحيان كان كبار المقطعين وابرز النبلاء يحملون اللقب الملكي فلقد كان يوجد في اسبرطة وليقيا شخصان يحملان هذا اللقب ، وكان هناك في المدينة الفينيقية التي ورد ذكرها في الملحمة ، وفي مدن واقعية كثيرة اخرى ، اشخاص اكثر يحملونه.. ومن ثم يأتي تجريد الوظائف من مهابتها وجلالتها ، واخيرا يصبح مقام الملك بالذات وظيفة ينعم بها النبلاء « ولربما كانوا ينعمون بها في البدء على اعضاء من العائلة المالكة » ، وهكذا فان الافور في اسبرطه الذين كانوا يمثلون المنزلة الاولى - النبلاء - المترجم - لم يكونوا باي شكل من الاشكال ، مقيدين باختيارهم باية قاعدة او قانون ، زد على ذلك ان الفخذ الملكي ، فخذ باكتشياديا Bacchiadae ، في كورينثيا ، قد الغى ، قرابة عام ٧٥٠ مبدأ توارث الملك ، وكان ينصب في كل مناسبة تستدعيه ،

بريتانيوس Brytaneus ، يختاره من بين أبنائه ، ويمنحه رتبة ملكية . زد على ذلك ان الوظائف الكبرى التي كانت بدورها في البداية وظائف متوارثة ، اصبح شاغلها يشغلها فقط طيلة حياته ، ثم عدل نظامها ، فأمسى شاغلها يقوم باعبائها لمدة محدودة من الزمن ، واخيرا حددت مدة اشغالها بسنة واحدة ، زد على ذلك انهم قاموا فيما بعد بتنظيمها على شكل اصبح معه الموظفون اكثر عددا من الوظائف ، اما الزعامة ، او القيادة ، فكانت دورية على كل فرد — وهذه العادة قد ادت ، كما نعرف تماما ، الى كارثة قانية . وهذه الوظائف السنوية ، ابتداء من الحكم الاتروسكاني المحدودة مدته بسنة ، حتى الافور الدوري « الذي وجد في هيراقليا ومسين كما في اسبرطة » ترتبط وثيق ارتباط بجوهر المدينة Polis ، وقد بلغت تركيبها الكامل قرابة عام ٦٥٠ . وفي التاريخ المناظر تماما لهذا ، تاريخ دولة الطبقة الغربية « نهاية القرن الخامس عشر » قام الامبراطور مكسيمليان ، وفرديناد ملك آراغون ، وهنري السابع ملك انكلترا ولويس الحادي عشر ملك فرنسا بتأمين سلطة الامرة الحاكمة وضمانها « ضد مطالب الناخبين وادعاءاتهم . »

ولكن التأكيد المتزايد على الـ ـ هنا والآن الكلاسيكيتين ، جعل الكهنوت ، الذي كانت له بدايات من تطوره الى منزلة ، يصبح ، بدرجة متساوية ، ابناؤه مجرد مجموعة من موظفي المدينة . اما العاصمة ، اذا جاز لنا استعمال هذه الكلمة ، عاصمة الملكية الهوميرية ، فبدلا من ان تكون مركزاً لاشعاع نفوذ الدولة وصولتها ، في كل الاتجاهات وداخل الابعاد والمسافات ، فانها قامت بتقليص دائرتها السحرية حتى اصبحت الدولة والمدينة شيئا واحدا . وبهذا انصهرت طبقة النبلاء وأعيان المدينة ، كما وان تميل حتى المدن الفتية للحقبة القوطية « مثلا مجلس العموم الانكليزي ، والجمعية الوطنية الفرنسية » كان امرا محصورا باكمله بطبقة نبلاء المدن ، فكيف اذن ستكون الحال في دولة المدينة الكلاسيكية القوية ، انها لا ريب لاكثر واشد بكثير من حال تلك المدن في

الحقبة الغوطية . فالدولة الكلاسيكية لم تكن قولا دولة ارستقراطيـة لا ملك لها ، بل كانت فعلا كذلك . اما « الشكل » الابولوني جوهرا ومظهراً للمدينة النامية فهو ما نسميه بالاليغارشية .

وهكذا نرى في نهاية المراحل المبكرة من كلتا الحضارتين مبدأين متوازيين ومتضادين ، مبدأ تسلسل الانساب الفاوستي ، والمبدأ الابولوني الاوليغارشي ، ونوعين من القانون الدستوري للدايك Dike ، اما الاول فهو يسنده مفهوم لانفساح يصل خلفاً ويغوص عميقا في الماضي ، بتقاليـد لشكل ، ويفكر اماماً وبالارادة القوية الشديدة ذاتها ، ارادة الديمومة ، بابعد مستقبل ، ولكنه يعمل ، في الحاضر ايضا ، لتدعيم الفعاليـة السياسية ونشرها في مساحات شاسعة واسعة بواسطة التزاوج المتدبر المتبصر بين السلالات المالكة ، وبواسطة السياسة الفاوستية الديناميكية الكونترابونتية « البلوفونية – المترجم » والتي ندعوها بالدبلوماسية . اما النوع الآخر فهو باكمله حجمي تمثالي ، وله ذات محدودة بسياستها ، سياسة الاكتفاء الذاتي الاقتصاديـــة ، Autarkeia ، ومحدودة باقرب الاشياء اليها ، وباشد ما للحاضر من آنية فورية ، وهي تنكر ، عند كل نقطة ، بجرأة واقدام ما تؤكده الكينونة الفاوستية وتثبته .

ان كلًا من الدولة ذات النظام الملكي السلالي ودولة المدينـــة تفترضان مسبقا وجود المدينـة بالذات . ولكن هذا هو الفرق بينهما ، فمقر الحكومة في الغرب ، بالرغم من انه قد يكون « وكثيرا من الاحيان يكون » في بلدة هي دون المدينة الكبرى ضخامـة وسكاناً بدرجات ودرجات ، هو مركز زخم وقوة في ميدان من توترات سياسية هي على شكل يجعل أي حدث ، مهما كانت الزاوية التي وقع فيها نائية بعيدة ، يهتز بصورة عامة داخل كل حدث – بينما ان الحياة في مقر الحكومة الكلاسيكية تحتشد وتزدحم على شكل اوثق فاوثق، حتى تبلغ تلك الظاهرة الشاذة الغريبـــة ظاهرة ازدواج الجنس – الاوج بالذات

لارادة الشكل اليوقليدي في العالم السياسي . فمن المستحيل على الكائن الكلاسيكي ان يتخيل الدولة الا على شكل تتراكم فيه الاجساد بعضا فوق بعض فتصبح كومة واحدة بوصفها جسدا واحـــدا ، ويجب ان تكون الدولة بالنسبة لهذا الكائن ، دولة يحيط بها نظره ، لا بل تحيط بها حتى « لمحة واحـدة » يلقي بها عليها . وبينما نرى النزعة الفاوستية تنزع اكثر فاكثر الى اختزال عدد مراكز دوائر السلالات المالكة — حتى ان مكسيميليان الاول كان باستطاعته ان يلمح في الافق امكانية تأمين السيادة الملكية لعائلته على مستوى عالمي - تناثر العالم الكلاسيكي الى نقاط حقيرة ما كادت تقريبا تنطلق الى ميـــدان الوجود حتى اخذت تقوم بذاك العمل الذي كان ، بالنسبة للجنس البشري الكلاسيكي ، عملا تستوجبـــه ضرورة الفكر وما يعنيه تعبير سياسة الاكتفاء الاقتصادي الذاتي تقريباً واعني بهذا العمل ، ان تدمر الواحدة من هذه النقاط الاخرى .

ولقد كان ازدواج الجنس ، هذا الابداع للنموذج الخاص بالمدينة ، وبما نجم عنه واسفر ، عملا من اعمال الارستقراطية حصراً . فأبناء هذه الطبقة هم الذين شيدوا دولة — المدينـة الاجتماعية الكلاسيكية ، وشيدوها لانفسهم وحدهم ، وكان انجذاب نبلاء الريف ونبلاء المدينـة بعضا الى بعض هو الذي اعطى هذه الدولة شكلها وادخلها فيه . وكانت طبقات المهنيين والحرفيين حاضرة وموجودة ، اما الفلاحون فلم يعد الناس يعتبرونهم آنذاك طبقة . وقد اسفر تركيز سلطـة النبلاء في نقطة واحدة عن اندثار الحقبة الاقطاعية الملكية ودمارها .

ونستطيـع على اضواء هذه الومضات ، التي القينا بها على اليونان ان نغامر ، وبكل تحفظ ، في تلخيص تاريخ روما البدائيـــة . ان الازدواجيـــة الرومانية — تجمع بين العائلات النبيلة المتناثرة المشتتة بصورة واسعة — تنطبق على تأسيس المدينة ، وهذا عمل قام به الاتروسكان في بداية القرن السابـع وكان يقوم منذ زمن طويل ، وقبالة القلعة الملكية على الكابيتول ، مستوطنات على

البالاتين والكويرنيال . وكان الاول من هذين ينتمي الى الالهـة القديمة ديفا رومينا Diva rumina ، وفخذ روما Ruma الاتروسكاني ، وكان اله الثاني هو كويرنيوس باتر Quirinus pater . ومن هذين نشأ الاسم المزدوج الرومان والكويريت ، ونشأ الكهنوت المزدوج ، كهنوت سالي Salii وكهنوت لوبرتشي Luperci اللذان التصقا بالرابيتين. والآن ، وبما ان قبائل- الدم الثلاث ، المسماة بالرمنيين Ramnes وبالرابيتين Tities وباللوتشريين Luceres ، هي ، على اغلب الظن ، شائعة في جميع الاماكن الاتروسكانية ، لذلك يجب ان تكون هذه القبائل هي التي وجدت في كلا المستوطنين اللذين يهمنا امرهما هنا ، وبهـذا يتضح من جهـة امر رقم ٦ ، لقرون سلاح فرسان في الجيش الروماني ، سلاح التريبونات العسكريين من الفستال Vestals الارستقراطيين ، ويتضح من جهة ثانية معنى رقم ٢ للبريتورات (او القناصل) الذين كانوا مرتبطين ، منـذ زمن مبكر تماما ، بالملك بوصفهم ممثلين النبلاء ، والذين جردوه تدريجيا من كل نفوذ . ويجب ان يكون نظام روما في عام ٦٠٠ نظاما لطبقة اليغارشية قوية تتألف من الباترز Patres ، وذات نظام ملكي شبحي وواهن ، جعل من الملك شكلا لرأس لها . وهكذا تستطيع اخيرا كلتا النظريتين ، نظرية طرد الملوك ، وهي النظرية الاقدم ، والنظرية الاحدث ، نظرية الانحـلال البطيء الذي دب في السلطة الملكية ، ان تقفا جنبا الى جنب ، فالنظرية الاولى تشير الى سقوط الطغاة التاركوينيين ، الذي اتخذ (كما اتخذ في كل مكان آخر من العالم الكلاسيكي — بسيستراتوس مثـلا —) موقف المناهض للاليغارشية قرابة منتصف القرن السادس ، اما النظرية الثانية فتشير الى الانحلال البطيء الذي دب في السلطة الاقطاعية (لما من الجائز لنا نسميه) بالملكية الهوميرية ، وذلك بسبب دولة — المدينة الارستقراطية ، وقبل « تأسيس » ما يسمى بالازمة التي ، على ما يظن ، تمخضت عن ولادة البريتوارت ، ونشوئهم ، النشأة التي نشأها الارخون والافور في كل مكان آخر .

ولم تكن المدينة Polis – الرومانية – المترجم – أقل انفلاقاً في ارستقراطيتها من الطبقة الغربيـــة بما لهذه من نبلاء واكليروس وبرجوازيين أرقى مرتبة من البرجوازيين العاديين . وكان الثقل من الشعب المنتمي اليها مجرد أقوام من رعايا تابعين لها ولكن – هؤلاء هم في الغرب رعايا ترعاهم دولة الطبقة باهتمامها السياسي ، أما في العالم الكلاسيكي فكانت دولة المدينة ترعاهم باهمالها شأنهم وبلا مبالاتهـــا بهم . وذلك لأن الشعار القائل ، تمتع بحياتك واغتنم كل فرصة متاحـــة لك ، لم يكن شعاراً للاليغارشية فقط ، بل شعاراً لكل انسان آخر ايضاً . وهو يعلن عن نفسه بضوضاء وصخب في قصائد تيوجنيس ، وانشودة هبرياس Hybrias الكريتي . وقد جعل المالية الكلاسيكية حتى آخر الأطوار الزمنيـة – ابتداء بالقرصنة التي كان يمارسها بلوكيتاس على شعبه الخـاص حتى طرد التريو مغربين الرومان وتجريدهم من حماية القانون – مالية تعتمد تقريباً على القاعـدة القائلة : من اليد الى الفم ، فتستولي على الموارد التي تفرضها احتياجات البرهة الآتيـــة . وقد نشأ عن هذا الشعار في ميدان التشريـع ، ذاك المنطق الذي لا مثيل له ، في تحديد مدة سريان مفعول قانون الأجراءات بمدة وظيفـــة البريتور التي لم تكن تتجاوز السنة الواحدة . واخيراً يجد الكثيرون في الممارسة المتزايدة نماء لاملاء الشواغر في الوظائف من عسكرية وادارية (وخاصة الوظائف الاشد اهمية منها) نوعاً من الاحترام والخشوع لتيشي Tyche ، الهة البرهة الحاضرة .

وهذا كان اسلوب العالم الكلاسيكي « لشكله اللائـق » سياسياً ، وكذلك لتفكيره وشعوره . وليس هناك من اي استثناء أو مستثنى . فلقد كان هـــذا الاسلوب يسيطر على الاتروسكان سيطرته ذاتهـــا على الدوريين والمقدونيين . وعندما قام الاسكندر وخلفاؤه من بعده ببرقشة الشرق ، بعداً وسعة ، وتنقيطه بمدنهم الهيلينية ، فانهم قاموا بهذا دون ما اختيار واع ، ولأنه لم يكن باستطاعتهم ان يتخيلوا أي شكل آخر للتنظيم السياسي . فانطاكية كانت ، في نظرهم ، هي سوريا كلها ، والاسكندرية هي مصر . ولم تصبح هذه الاخيرة ، قانوناً وواقعاً ،

في عهد البطالسة ومن ثم في عهود القياصرة ، دولة مدينة الى حد بعيد ، لكنها كانت ، في الممارسة ، اكيداً كذلك ـ لأن البلاد المصرية خارجها كانت قد امست منذ زمن طويل ريفاً فلاحياً لا تقوم على ارضه بلدان ودساكر ، وكان تدبر اموره ، على هدي سوابق غارقة في القدم ، وكان يقف عند بواباتها المبتدئـة كأنها حدود أجنبية غريبة . والحق ان الامبراطورية الرومانيـة لم تكن سوى آخر واعظم دولة مدينة كلاسيكية ترتكز الى اسس ازدواج جنسي هائـل ووسيـع . ولقد كان الخطيب ارستيديس كل حق ومبرر لأن يقول ، في عهـد مارك اوريل ، بأن الامبراطورية الرومانية قد جمعت بين اجزاء هذا العالم باسم مدينة واحدة : « وإن اي مكان منها ، انما يعيش ويسكن في مركز دائرتها . » وقد نظموا حتى الشعوب المغلوبة من الامبراطورية ـ وقبائل الصحراء الرحالة ، والطوائف في وديان الهضاب من جبال الألب ـ بوصفهم مواطنين في دولة المدينة. وليفي Livy يفكر دائماً ، وعلى منوال واحد لا يتبـدل أو يتغير في أشكال دول ـ المدن ، اما التاريخ الاقليمي فلا وجود له اطلاقـاً في نظر تسيتوس . وعندما تخلى عام ٤٩ بومباي المنسحب أمام جحافل قيصر ، عن روما بوصفهـا هدفاً غير هام من الوجهة العسكرية ، وانتقل الى الشرق لكي يوجد فيه قاعدة وطيدة راسخة لعملياته العسكرية ، فانه قد قضى بذلك على نفسه بالهلاك . فتخليه عن المدينة ، التي تخلى عنها ، كان يمثل في نظر الطبقات الحاكمة تخليه عن الدولة بالذات . فروما كانت كل الامبراطورية بالنسبة لهذه الطبقات .

ودوائر دول ـ المدن هذه ـ غير قابلة ، مبدئيا ، للتوسيع أو المطل . فعددها يمكن ان يتزايد ، لكن دوائرها لا يمكن أن تتسع . أما الفكرة القائلة بأن تحول بطانات النبلاء الرومان الى عوام لهم حق الانتخاب ، وان ايجاد قبائل ريفية قـد احدثا ثلمة في فكرة دولة ـ المدينة ، فانما هي فكرة خاطئة وغير مصيبة . فلقـد بقيت كامل حياة الدولة في روما كما في اثينا ـ على حالها السابقة ، أي محـدودة بنقطة واحدة ، كانت الأغورا ، الفوروم . فمهما نأت أماكن عيش أولئك الذين

منحوا الجنسية الرومانية وبعدت ـ ولقد كانت هذه الأماكن في ايام هنيبال تشكل ايطاليا ، ومن ثم اصبحت تقع في أي جزء من أجزاء العالم ـ فان ممارسة هؤلاء لحقوقهم السياسية كانت مشروطة بتواجدهم الشخصي في الفوروم . ومن هنا فان الاغلبية من المواطنين كانوا من الوجهة الواقعية ، لا القانونية ، عاطلين من أي نفوذ أو تأثير في الحياة السياسية . ولذلك فان ما كانت تعنيه الرعوية في نظرهم ، فهو فقط واجب الخدمة العسكرية والتمتع بالحقوق المنصوص عليها في القانون الداخلي للمدينة . ولكن ازدواجا ثانياً واصطناعياً كان يحد من الحقوق السياسية للمواطنين الذين يرتحلون للسكن في روما ، وقد حدث هذا نتيجة ، وبعد ، منح الفلاحين حق الانتخاب ، وهو لا يمكن ان يفهم الا على انه جهد غير واع يهدف الى الحفاظ على فكرة دولة المدينة سليمة تماماً من كل شائبة ، وأعني بهذا انهم كانوا يقومون بتسجيل المواطنين الجدد ، غاضين النظر تماماً عن عددهم ، في عشائر جد قليلة (وقد بلغ عدد هذه الثمانية في قانون جوليا) ولذلك بقي هؤلاء أقلية بالنسبة لعدد المواطنين الذين نالوا حقوقهم السياسية في فترة اقدم من الزمن .

وهذا امر بدهي لأن هذا الـ Civitas كان يعتبر ، سداة ولحمة على انه حجم واحد أو جسد واحد . وكان كل من لا ينتمي اليه لا يشمله قانونه ، Hostis . وكانت الآلهة والابطال في المرتبة العليا ، وكان العبيد (وهؤلاء لا يجوز لنا على حد قول ارسطو ان نصفهم بانهم بشر تماماً) يقفون تحت هذه المجموعة من الاشخاص . وكان الفرد موجوداً فقط بسبب عضويته في دولة ـ مدينة منفردة .

ونتيجة لهذا الشعور اليوقليدي ، فان طبقة النبلاء بوصفها جسماً مستقلاً قائماً بذاته ، كانت في البدء مرادفة لدولة ـ المدينة ـ ومرادفتها لهذه بلغ حداً جعل حتي اللوائح الاثنتي عشرة تحرم الزواج بين نبلاء المدينة والعوام ، وكان

الافوريون ، كما جرت العادة ، يستهلون الفترة المحــددة لولايتهم الوظائف ، باعلانهم الحرب على الميلوت . لكن الآية كانت تنعكس ، في كل مرة ، يصبح غير النبلاء ، نتيجة لثورة ، هم الشعب _ لكن معناه بقي واستمر . ولقد كان الحجم السياسي في العلاقات الداخلية ، كما في العلاقات الخارجيـــة ، هو الاساس الذي استندت اليه جميع الأحداث في كامل التاريخ الكلاسيكي . وكانت المدن، والمئات منها ، تتربص كل واحدة منها الدوائر بالاخرى ، وكانت كل واحدة منها معبئة ذاتها سياسياً واقتصادياً بحدود امكاناتها ، ومتحفزة للنهش ، تتذرع بأتفه الاسباب فتقاتل وتحارب ، ولم يكن قصدها من وراء الحرب الا توسيع دائرة دولتها ، بل كان يهدف الى ابادة الجانب الآخر والقضاء عليه . اذ كانت الحرب تنتهي بتدمير مدينة العدو وقتل سكانها واسترقاق الاحياء منهم ، وكانت الثورات تنتهي ايضاً بذبح او طرد المغلوبين ومصادرة أملاكهم من قبل الحزب المنتصر . اما الوضع الطبيعي للاحوال المتضاربة في الغرب ، فهو محـــل شبكة من العلاقات الدبلوماسية، والتي من الجائز ان تمزقها الحروب ، ولكن شرعة الامم الكلاسيكية تعتبر الحرب هي الوضع الطبيعي ، وهي وضع تقاطعـــه ، بين حين واخر ، معاهدات صلح وسلم ، كما وترى ان اعلان الحرب يعيد السياسة الى وضعها الطبيعي. وعلى هذا الشكل فقط تصبح معاهدات الاربعين والخمسين من معاهدات الصلح (كمعاهدة نيقياس Nicias المشهورة ، عام ٤٢١) جلية واضحـــة بوصفها معاهدات _ لضمانة موقتة .

وقد ضمن شكلا _ الدولة هذان ، بواسطة اساليب من سياسة المناسبة لكل واحد منها تحققها وذلك في ختام الحقبة المبكرة . وقد انتصرت فكرة الدولة على الاتحاد الاقطاعي ، لكن المنازل الاجتماعية هي التي تحمل هذه الفكرة ، وللأمة وجود سياسي فقط لأنها هي مجموع هذه المنازل .

- ٥ -

ويوجد ، مع بداية الحقبة المتأخرة ، منعطف حاسم ، تكون عنده المدينة والريف في حالة من توازن ، وتكون قوى المدينة ، المال والعقل ، قد بلغتا من القوة مبلغاً يجعلها يشعران بذاتهما بوصفها لا منزلة ، على انهما ندان للمنزلتين القديمتين . وهذه اللحظة ، هي اللحظة التي تسمو فيها أخيراً فكرة الدولة على المنزلتين ، بأساً وقوة ، وتبدأ ان يحل محليهما مفهوم الامة .

لقد ناضلت الدولة وانتصرت ، منطلقة بتقدمها الظافر على درب تبـدأ من الاتحاد الاقطاعي وتبلغ الدولة الارستقراطية . وهاتان المنزلتان الاجتماعيتان توجدان في الدولة الارستقراطية فقط وجوداً استدلالياً بها ، بدلاً من ان يكون الأمر العكس بالعكس ، ولكن ، فطرة الاشياء ، من جهة اخرى ، هي على شكل يجعل الحكومة تلتقي بالأمة المحكومة ، عندما ، والى الحد الذي تكون عنده الامة منتظمة انتظاماً طبقياً . فكل انسان ينتمي الى الامة ، لكن النخبة تنتمي الى الطبقة ، وهذه النخبة هي وحدها ذات قيمة سياسية .

ولكن كلما اقتربت الدولة من شكلها النقي المجرد ، تزداد مطلقيتها ـ أي استقلالها عن أي مثل أعلى لشكل آخر ـ وكلما تزايد حكم الدولة للشعب على هذا الشكل ، عندئذ تصبح الفروقات « بين المراتب » فروقات اجتماعية مجردة وتقوم الطبقتان القديمتان ، النبلاء والكهنوت ببذل جهد آخر من مقاومة ضد هذا التطور ـ الذي هو احدى الضرورات المحتومة وغير القابلة للنقض أو الفسخ أو

الالغاء ، من ضرورات الحضارة . وذلك لأن كل شيء ـ من بطولي وقديسي ، والقانون القديم والمرتبة والدم ـ قد أصبح الآن ، بالنسبة لهاتين الطبقتين ، على كف عفريت ، وتحف بـه المخاطر من كل جانب ، ومن وجهة نظرهم ضد ماذا ؟

وقد اتخذ صراع الطبقتين القديمتين هذا في الغرب ، ضـد الدولة ، شكل الفروند Fronde [1] ، أما في العالم الكلاسيكي حيث لم تكن هناك من سلالـة ملكية لتمثل المستقبل ، وحيث كان للارستقراطية وحدها وجود سياسي ، فاننا نجد تجسيداً أو شبه تجسيد سلالي مالك لفكرة الدولة قد شكل فعلاً ذاته ، وكان يناصر هذا التجسيد الجزء الذي لا يتمتع بامتيازات من الشعب ، وقد ارتقى هذا الجزء به لأول مرة الى السلطة . وهذه كانت رسالة الطغاة Tyrannis .

وخلال هذا التحول من دولة طبقة الى دولة مطلقـة ، والذي لم يكن يسمح بأي اجراءات لمشروعية ، غير مشروعيته ، دعت السلالات المالكة في الغرب – كما دعت من قبلها السلالات المالكة من مصرية وصينية - من لا منزلـة لهم الى مناصرتها وتأييدها ، وبهذا اعترفت باللا ـ منزلة ، بوصف هذه كميـة سياسية . وهنا تكمن الاهمية الحقيقية للصراع ضد الفروند ، هذا الصراع الذي لم تستطع ، بادىء ذي بدء ، قوى المدن الكبرى ، الا ان ترى فيه فائدة ومصلحة لها ، وذلك

---

(١) Fronde : هذا بالاساس حزب سياسي نشأ في فرنسا في عهد لويس الرابع عشر ، واتخذ من مناهضة الحكومة وحزب البلاط رسالته السياسية ، لكن اشبنغلر هنا ، يعمم اسمه ومعناه على جميع الحركات الاوروبية المماثلة في أهدافها له .

ـ المترجم ـ

لأن الحاكم كان يقف هنا باسم الدولة ، ورعاية الجميع والاهتمام بهم ، ويقاتل النبلاء لانهم لا يريدون ان يحتفظوا ويحافظوا على منزلة النبالة بوصفها مرتبة سياسية .

أما في دولة المدينة ، فالحال كانت على العكس من تلك ، فهذه الدولة التي كانت تستند حصراً على الشكل ، ولم تتجسد رأساً متوارثاً ، لقد أسفرت فيها ضرورة اخراج اللاطبقيين لمناصرة فكرة الدولة ، عن دولة الطغاة ، حيث أخذت إحدى العائلات النبيلة ، أو عصبة منها تقوم بدور السلالة المالكة ، هذا الدور الذي لم يكن تحققه أمراً ممكناً ، لولا مناصرة الطبقة الثالثة. ولقد كان المؤرخون الكلاسيكيون المتأخرون زمناً بعيدين جداً عن مجرى هذه العملية كي يدركوا مغزاها ، وقد عالجوها فقط داخل حدود الملامح الخارجية للحياة الشخصية . والحق ان الطغاة كانوا هم الدولة ، ولقد قاومتهم الاليغارشية تحت لواء الطبقة ، ولذلك فان دولتهم كانت تستند الى مناصرة الفلاحين والبرجوازيين – وكانت في اثينا (قرابة عام ٥٨٠) ممثلة بحزبي دياكري Diakrii وبارالي Paralii . ولهذا السبب ناصرت المذاهب الديونيسية والاورفية ضد الأبولونية ، وهكذا قام بسيستراتوس في اتيكا بفرض عبادة ديونسيس على الفلاحين بالقوة والارغام ، وقد حرّم كلستينيس Clisthenes في سيكيون Sicyon تلاوة اشعار هوميروس . وقد أدخل على روما ، وبصورة اكيدة تقريباً في زمن التاركويين مذهب ثالوث ديميتير (سيريس Ceres) – ديونسيس – كور Kore . وقد قام سبوريوس كاسيوس في عام ٤٨٣ بتكريس هيكل ذاك الثالوث ، وهو كاسيوس ذاته الذي خر فيا بعد صريعاً في محاولة لاعادة دولة الطغاة . وكان هيكل سيريس معبداً للعوام ، وكان مدراء هذا المعبد ، موظفي الاشغال العامة Aediles ، وهم الناطقون الموثوقون بلسانهم ، قبل ان يسمع اي انسان بذكر التريبونية Tribunate . وكان الطغاة ، كأمراء العصور الباروكية ، ليبراليين بالمعنى العريض لهذه الكلمة ، لكن الليبرالية لم تعد أمراً ممكناً بالنسبة لهم في المرحلة التالية مرحلة

سيطرة البرجوازية . ولكن العالم الكلاسيكي ، كان قد بدأ يشيع القاعدة القائلة « بأن المال يصنع الرجال . » وقد سار طغاة القرن السادس بفكرة الدولة حتى استحلبوها كل مدلولاتها ، وأوجدوا المفهوم الدستوري للمواطنين ، المهذبين Polite ، المدنيين ، وكان مجموع هؤلاء ، بغض النظر عن أصولهم الطبقية ، يشكل جسد دولة المدينة . ولذلك عندما تدبرت الاليغارشية أمورها واستطاعت ، خدعة وحيلة ، ان تنتصر ـ والفضل في انتصارها هذا يعود مرة أخرى الى التشبث الكلاسيكي بالحاضر ، والى الخوف والبغضاء الناجمين عنه ، واللذين استثارتهما شبه ارادة ديمومة للحكام ـ وجدت الاليغارشية ان مفهوم المواطنية والمواطنين قد اصبح عميق الجذور ثابت القدم ، وألفت ان اللانبيل قد تعلم ان يعتبر نفسه يمثل طبقة هي ند « للطبقات الأخرى » . فلقد امسى هذا حزباً سياسياً ـ ولقد اكتسبت الآن كلمة « ديمقراطية » (بما لهذه الكلمة من معنى كلاسيكي خاص بها) محتوى حقيقياً في جديته وهنا لم يعد انطلاقه يستهدف مناصرة الدولة وتعضيدها ، بل أصبح يهدف الى جعل نفسه هي الدولة ، كما كانت حال طبقة النبلاء من قبل . وبدأ يحصي المال والرؤوس من البشر ، لأن المال والحقوق السياسية العامة هما سلاحا البرجوازية سواء بسواء ـ بينما ان الارستقراطية لا تحصي او تعد ، بل تقيم ، وهي لا تصوت رأساً رأساً ، بل تصوت طبقة طبقة . وكما ان الدولة المطلقة قد نشأت عن الفروند ودولة الطغاة الأولى ، لذلك قوضتها الثورة الفرنسية ، ودولة الطغاة الثانية . ونرى في هذا النزاع الثاني ، وهو نزاع دفاعي ، ان السلالة المالكة تعود لتتخذ جانب النبلاء ، وذلك بغية حماية فكرة الدولة من حكم طبقة جديدة ، هي الطبقة البرجوازية . وتبتدىء ايضاً المرحلة ، الممتدة بين الفروند والثورة الفرنسية ، في مصر بجلاء ووضوح . وهذه تتمثل في المملكة الوسطى . فلقد أقامت العائلة الثانية عشرة (٢٠٠٠ – ١٧٨٨) ـ وخاصة آمينمحيت الاول سيزوستريس الأول ـ الدولة المطلقة على قواعد راسخة ، وبعد صراع شديد ضد البارونات المصريين . ولقد نجا الحاكم الاول من هذين ، كما تروي قصيدة شهيرة تعود الى ذاك الزمن ،

باعجوبة من مؤامرة دبرت في البلاط ، كما وان سيرة سنوحيت الشخصية ترينا كيف تبدت ارهاصات الثورة في الافق ، عندما توفي ، وكان نبأ وفاته قد احتفظ به سراً لمدة من الزمن . وقد قام بقتله موظفو القصر . وتخبرنا النقوش على جدث عائلة الامير تشمينوتيب ، كيف أمست المدن موفورة الثراء ومستقلة تقريباً ، وكيف كانت تحترب ويقتتل بعضها ضد بعض . ومن المؤكد ان هذه المدن لم تكن في ذاك الزمن ، أصغر من المدن اليونانية في زمن الحروب الفارسية. وكان وجود السلالة المالكة يرتكز على هذه المدن ويستند الى عدد معين من الاقطاب . وقد نجح أخيراً سيسوستريس الثالث (١٨٨٧ — ١٨٥٠) في الغاء طبقة النبلاء الاقطاعيين الغاء كاملا . ولم يعد منذ ذاك التاريخ فصاعداً من وجود للنبالة ، ما عدا نبلاء بلاط ، ودولة بيروقراطية وحيدة نظمت تنظيماً يبعث على التقدير والاعجاب ، ولكن كان هناك بعض من الناس يتفجعون على هبوط ابناء العائلات الى مهاوي العوز والبؤساء ، ويتألمون لتمتع «ابناء من لا آباء لهم» بالمناصب والتقدير . ففجر الديمقراطية كان آنذاك يتبدى في الافق ، والتطور الاجتماعي المائل لحقبة الهكسوس ، كان في حال من تخمر .

أما المتجانسون وهؤلاء من حكام الصين ، فهم آل منغ — تشو (او با Pa ، ٦٨٥ — ٥٩١) . وهؤلاء كانوا حماة من أصل ملكي ، وكانوا يمارسون سلطة غير دستورية ولكنها حقيقية في عالم من دول تتمرغ في الفوضى ، وقد استحضروا الامراء الى المؤتمرات بغية اعادة النظام والاعتراف بمبادىء سياسية ثابتة ، كما واستحضروا حتى « حاكم الوسط » نفسه من عائلة تشو (التي تصبح الآن غير ذات قيمة اطلاقا) . وكان اول هؤلاء ، هو هوانغ من تسي (قرابة عام ٦٤٥) الذي سمى أعضاء الجمعية التمثيلية لعام ٦٥٩ ، والذي كتب عنه كونفوشيوس قائلا بأنه هو الذي انقذ الصين من الارتداد الى البربرية . وقد أصبح اسمه منغ — تشو ، يعني فيما بعد ما تعنيه كلمة « طاغية » ، وهي كلمة أصبحت تقال الآن في معرض الذم والقدح ، وذلك لان الناس أمسوا فيما بعد

لا يريدون ان يروا في هذه الظاهرة أي شيء سوى سلطة غير مشروعة قانونيا ـ ولكن مما لا ريب فيه اطلاقاً ان هؤلاء الدبلوماسيين العظام كانوا عنصراً يعمل باهتمام صادق مخلص ، ومكرساً ذاتـــه للدولة ، ومتفانيا في سبيل المستقبل التاريخي ضد الطبقتين القديمتين ، وكانت تدعمه الطبقتان الفتيتان ، العمل والمال . والحق انها لحضارة راقية هي التي تتحدث الينا من خلال هذا القليل الذي نعرفه حتى الآن من المصادر الصينية . فبعض هؤلاء كانوا مؤلفين وكتاباً ، وآخرون منهم اصطفوا الفلاسفة وزراء لهم . ولا يهمنا في كثير او قليـــل اذا ما كنا نساويهم عقلًا بريشيليو او بفلانشتين ، او ب بيرياندر - فعلى كل حال ، فان « الشعب » قد أصبح معهم كماً سياسياً . انها المطل والدبلوماسية الراقية للباروكي لاصيل ـ حيث تنطلق الدولة المغلقة ، من ناحية المبدأ ، فتصبح المناهضة للدولة الا رستقراطية وتنتصر .

وفي هذا يكمن التوازي الوثيق لهذه الاحداث والفروند في اوروبا الغربية . ففي فرنسا لم يعد العرش ، بعـد عام ١٦١٤ ، يدعو الجمعية التمثيلية للاجتماع ، فهذه المؤسسة قد اظهرت بأنها قوية جـــداً بالنسبة لقوى الدولة والبرجوازية . وبالمثل حاول شارل الاول ان يحكم بعد عام ١٦٢٨ ، في انجلترا دون برلمان . ونشبت ، في الوقت ذاتـــه ، حرب الثلاثين عاماً في المانيا . وضخامة اهميتها الدينية ، جديرة بأن تحجب بظلالهـــا الموضوع الاساسي للنزاع ، عن ناظرينا ، ويتوجب علينا ألا ننسى ان هذه الحرب كانت أيضاً تمثل جهـداً يرمي الى البت بصورة حاسمة في الصراع بين السلطة الامبراطورية وبـــين عصبة الفروند من الامراء المنتخبين العظام ، والصراع بين الامراء المنفردين وبين الاقل فروندية من المجالس التمثيلية المحليـــة والمشكلة من النبلاء ، ولكن مركز الثقل لعالم السياسة كان يقوم آنذاك في اسبانيا . فهنا تفتح الاسلوب الدبلوماسي الباروكي ، مترابطاً والدماثة بصورة عامة ، في مجلس وزراء فيليب الثاني ، وبلغ مبدأ توارث العرش ـ الذي حشد كل امكانات الدولة أمـــام المجلس التشريعي ـ ارقى

مراحل تطوره وذلك في مجرى الصراع الطويل بين البيت المالك الاسباني وآل البوربون . وقد فشلت المحاولة الرامية الى ادخال انكلترا في المنهاج الاسباني على يدي فيليب الثاني ، وذلك عندما غضبت زوجته الملكة ماري من وريث كان مترقباً وقد أعلن عنه من قبل . ولكن الآن ، وفي عهد فيليب الرابع ، فان فكرة مملكة عالمية تقيس البحار والمحيطات وتعبرها شبراً شبراً ، لم تعد تبعث الحياة ـ في تلك المملكة الصوفية ، مملكة الاحلام ، في العصور الغوطية ، « الامبراطورية الرومانية المقدسة ذات الامة الالمانية - بل أحيت مثلاً أعلى ملموساً يتجسد صيرورة العالم في قبضة آل هابسبورغ ، وتصبح مدريد مركزه ، وجعل الممتلكات الثابتة في الهند وأميركا بالاضافة الى قوى المال التي كانت آنذاك قد أمست ذات وزن ، ركائز هذا العالم واسسه . وفي هذا الوقت ايضاً حاول آل ستيوارت تأمين مركزهم المهدد بالاخطار ، عن طريق عقد قران وارث العرشين الانكليزي والاسكتلندي ، على أميرة اسبانية ، ولكن مدريد اختارت في النهاية ان تربط نفسها باقربائها من السلالة المالكة في فيينا ، وهكذا عاد جيمس الاول فتحول بعروضه للزواج نحو الحزب المعارض لتلك السلالة ، نحو آل بوربون والحق أن التعقيدات العقيمة لهذه العائلة ، كان لها الفضل الاول في ربط حركة التطهير بعصبة الفروند من الانكليز ، وانفجارهما معاً بثورة عظمى واحدة .

ولقد كان المتربعون على العروش في هذه الفترة ـ كما كان « معاصروهم » في الصين ـ مجرد شخصيات ثانوية اذا ما قورنوا برجال الدولة العظام الذين أمسكوا بأيديهم بزمام مصير الغرب طيلة عقود من السنين . ولقد كان اوليفارتز في مدريد ، والسفير الاسباني اوناتي Onàte في فيينا أوسع شخصيات اوروبا سلطة وسلطاناً . وكان خصماهما فلانشتين المناصر لفكرة الامبراطورية في المانيا ، وريشيليو المكافح في سبيل الدولة المطلقة في فرنسا ـ وقد خلف هذين ، بعد فترة قليلة من الزمن ، كرومويل في انكلترا ، اولدينارنيفلدت في هولندا

وأكسونستيرنا في السويد . ونحن لا نصادف حتى اطلالة الامير المنتخب العظيم، أمير برندنبورغ ، أي عاهل يملك أهمية سياسية خاصة بـه .

وانطلق فلانشتين ، دون مـا وعي ، من حيث توقـف آل هوهنشتاوفن . وكانت سلطة المنزلتين الاجتماعيتين قـد أصبحت ، منذ وفـاة فريدريك الثاني ، عام ١٢٥٠ ، سلطة لا تحدهـا حدود ولا تقيدهـا قيود ، وهكذا فان حربه التي شنها ، بوصفه المدافع الاول عن دولة الامبراطور المطلقة ، قـد شنها ضد هاتين الطبقتين في الفـترة الاولى من توليه القيـادة . ولو أن فلانشتين كان دبلوماسياً أمهر مما كانه ، وكان أنقى بصيرة ، وفوق هذا كله ، كان أشد مضاء في عزمه وجسوراً غير هياب (لانه كان في الواقع رعديدا أمـام المنعطفات الحاسمة) ، وكلف على الاقل نفسه عناء اخضاع الملك لنفوذه ، كما فعل ريشيليو ــ لـكان من الجائز ان تتاثرت الامارات بدداً بدداً ، وانتهى امرها داخل الامبراطورية . لقد كان فلانشتين يرى في هؤلاء الامراء عصاة ومتمردين ، وانـه من المتوجب خلعهم ومصادرة أراضيهم . ولقد قال ، وهو في ذروة سلطانه ، وعندما كانت ألمانيا ، عسكرياً ، في قبضة يده (نهاية عام ١٦٢٩) بصوت جهوري وخـــلال حديث له ، بأنـه من المتوجب ان يصبح الامبراطور السيد في الامبراطورية ، كما هي حال ملكي فرنسا واسبانيا . وجيشه الذي « كان قادراً على تأمـــين احتياجاته بنفسه » وكان ، بسبب عدده ، مستقلاً عن المنزلتين ، هذا الجيش كان اول نموذج شهدته المانيا لجيش امبراطوري ذي وزن اوروبي ، واذا مـا قورن جيش تيللي Tilly به فانه يبدو ضئيل الشأن الى جانبـــه (وذلك لان جيش فلانشتين كان ما كانته فعلاً عصبة الدول الالمـانية) . وعندمـا ضرب فلانشتين ، عام ١٦٢٨ ، حصاره حول شترالسوند ، وأخذ يتأمل ببصره متخيلاً وجود قوة بحرية هابسبورغيـة في البلطيق تهاجم منهاج آل بوربون من مؤخرتـه ـ وكان ريشيليو في ذلك الوقت تماماً يحاصر مدينة لاروشيل وحظه منها كان اكبر من حظ ذاك ــ أصبح العداء بين فلانشتين وعصبة الدول الالمانية امراً لا يمكن

تجنبه تقريباً . ولقد تغيب عن حضور اجتماع الجمعية التمثيلية في رجنسبورغ ، عام ١٦٣٠ ، قائلا « إن مقر هذه الجمعية سيكون قريباً في باريس » . ولقد كان تغيبه هذا أشد الاخطاء السياسية خطورة التي اقترفها في حياته ، لان امراء الفروند الناخبين قد استغلوا غيابه فغلبوا الامبراطور على امره مهددينه بالخلع وتنصيب لويس الثالث عشر مكانه ، كما وارغموه على عزل قائده العسكري ، وبهذا تكون القوة المركزية في المانيا ، بالرغم من عدم ادراكها لخطورة نتائج الخطوة التي خطتها ، قد تخلت عن جيشها . ومنذ هذا التاريخ فصاعداً أخذ ريشيليو يدعم الاعضاء الاقوياء من الفروندي في المانيا ، مستهدفاً من وراء ذلك تحطيم القوة الاسبانية فيها ، بينما تحالف الجانب الآخر ، اليفاريز وفلانشتين ، حالما استعاد سلطته ، مع الارستقراطية الفرنسية التي استعادت زمام المبادرة ، وانطلقت تهاجم بقيادة الملكة الام وغاستون اوف اورليان . لكن السلطة الامبراطورية كانت حينذاك قد فقدت فرصتها العظمى . فالكاردينال ربح في اللعبتين ، اذ انه أعدم في عام ١٦٣٢ آخر آل مونتمورنسي ، واجتذب الامراء الكاثوليك من الالمان فعقدوا حلفاً مع فرنسا . ومنذ هذا التاريخ فصاعداً أخذ فلانشتين ، الذي لم يعد قانعاً بمقاصده النهائية ، ينحرف اكثر فاكثر عن الفكرة الاسبانية ، مفكرا بان انحرافه هذا قادر على ابقاء فكرة الامبراطورية بقية منها ، وهكذا كان يقترب ، فعلاً ، خطوة بعد خطوة من موقف طبقتي النبلاء والكهنة — كما حدث للماريشال تورين في الفروند الفرنسية بعد قليل من الاعوام. وهذا كان هو المنعطف الحاسم في التاريخ الالماني فيما بعد . فبانفصال فلانشتين أصبحت دولة الامبراطور المطلقة امراً مستحيلاً ، وقتله فيما بعد عام ١٦٣٤ ، لم يصحح هذه الحال ، لانه لم يكن لدى الامبراطور بديل له يحل محله .

ومع ذلك فان هذا الارتباط كان حينذاك ملائماً مرة اخرى ، وذلك لان صراعاً حاسما نشب في عام ١٦٤٠ بين العروش وبين النبلاء والكهنة ، وانفجر في وقت واحد في كل من اسبانيا وفرنسا وانكلترا . وقد هبت المجالس التشريعية

في كل المقاطعات الاسبانية تقريباً ضد اليفارتز ، وانفصلت البرتغال عن اسبانيا الى الابد ، جارة معها الهند وافريقيا ، وقد استلزمت استعادة كاتالونيا ونابولي سنوات وسنوات من الكفاح . أما انكلترا .. فلقد حدث تماما ما حدث في حرب الثلاثين تماما – اذ ان الصراع الدستوري الذي نشب بين العرش والاعيان الذين كانوا يسيطرون على العوام قد عزل بعناية وحذر عن الجانب الديني للثورة . وذلك نظراً لان ترجمة هذا الجانب بالنسبة لكل من الاعيان والعامة كانت أمراً عويصاً . لكن المقاومة المتنامية التي صادفها كرومويل لدى الطبقة الدنيا بصورة خاصة – والتي ارغمته ، غير مختار اطلاقاً ، على اللجوء الى الدكتاتورية العسكرية والشعبية التي استرجعتها الملكية فيما بعد ، تظهران الى أي حد تخطت عنده المصالح الارستقراطية كل الفروقات الدينية ، بغية اسقاط العائلة المالكة .

وفي الوقت ذاته الذي كانت تجري محاكمة شارل الاول ومن ثم اعدامه ، نشب عصيان في باريس ارغم البلاط الملكي على الفرار . وأخذ الناس يهتفون باسم الجمهورية ويقيمون المتاريس في الشوارع . ولو انه كانت في الكردينال دي ريتز كمية اكبر مما فيه من معدن كرومويل ، لكان انتصار المنزلتين على مازارين أمرا ممكناً على الاقل . ولكن موضوع هذه الازمة العظمى العامة في الغرب ، قد بت فيه بوزن ومصائر حفنة من الشخصيات ، واتخذ له شكلاً ، وبنوع من اسلوب ، مكن الفروند (الممثلين بالبرلمان) من اخضاع الدولة والملكية في انكلترا وحدها لاشرافهم – وتوطد هذا الاشراف في « الثورة المجيدة » لعام ١٦٨٨ ، وبصورة دائمة الى حد لا تزال معه حتى هذا اليوم اجزاء جوهرية من الدولة النورمانية القديمة ، راسخة ثابتة . أما في فرنسا واسبانيا فلقد حققت الملكية نصرا كاملا شاملا . ولكن صلح فستفاليا ، نظم علاقات الامراء الاقوياء على أساس انكليزي بالامبراطور بينما نظم علاقاتهم بالاقل فروندية من الامراء المحليين على اساس فرنسي . وكانت المنزلتان تسيطران

وتحكمان في الامبراطورية بعد حالها هذه ، أما في الاقاليم فكانت السيطرة للاسر المالكة . وهكذا أمسى ، منذ ذاك التاريخ فصاعدا ، المقام الامبراطوري الالماني ، شبيهاً بمقام الملكية الانكليزية ، اي مجرد اسم محاط بمظاهر عظمة اسبانية تعود آثارها الى العصور الباروكية المبكرة ، بينما خضع الامراء الافراديون ، كما خضعت العائلات الكبرى من الارستقراطية الانكليزية ، لطراز باريس ، وارتبط استبدادهم الاثني عشري المطلق ، سياسيا واجتماعياً ، باسلوب فرساي . وهكذا جاءت النتائج ، في هذا الميدان وذاك في صالح آل بوربون ، وضد آل هابسبورغ ، وهي نتائج كانت جلية واضحة في معاهدة صلح البرينيز لعام ١٦٥٩ .

وبهذا المنعطف الحقبي ، تحققت الدولة ، بوصفها امكانية ملازمة لكل حضارة ، وبلغت تلك القمة من « الوضع » ، التي لم يعد بالامكان تجاوزها ، ولا الحفاظ عليها طويلا . ونحن لنشعر بنسمة من ريح خريف تهب على فريدريك الاكبر وهو يقيم حفلاته في قصر سان سوسي . وهذه هي السنوات ايضاً التي تبلغ فيها الفنون العظمى ، قمة نضوجها العقلاني وأشده نقاء وصفاء — نجد تزيكسيس وبراكسيتيلس يقفان جنباً والخطباء المفوهين الذين عرفتهم آغورا أثينا ، ونجد موسيقى باخ وموزارت مترافقة ودبلوماسية مجلس الوزراء البعيدة النظر والثاقبة البصر .

لقد أصبحت دبلوماسية مجلس الوزراء بالذات فنا رفيعاً ، وغبطة فنية لكل من له أصبع فيها ، فهي عجيبة مدهشة بدهائها ، ومخاتلتها ، ورشاقتها وليونتها ، دمثة أنيقة ، تعمل بغموض وسرية في مساحات شاسعة واسعة - وذلك لان روسيا والمستعمرات في اميركا الشمالية ، وحتى دول الهند قد أدخلت منذ زمن الميدان ، بغية اتخاذ قرارات في نقاط اخرى تماماً من الكرة الارضية ، بواسطة الثقل المجرد للتحزبات او الاتحادات المباغتة . انها لعبة لها قوانينها الصارمة ، لعبة

من فض الرسائل والاطلاع عليها دون علم اصحابهـــا ، ومن العملاء السريين والتحالفـات والمؤتمرات الدوليـة وفق النظام الدولي والذي دعي حتى آنذاك « بجوقة » الدول الكبرى (ولهذا الاسم الجوقة ـ مغزى عميق) ـ وهي مليئة ، (ولنستعمل مصطلحة تلك المرحلة هنا) بالـ Noblesse والـ Esprit ، وهي اسلوب للمحافظة على التاريخ في « شكل لائق » لم يسبق أبداً للخيال ان عرفه في أي مكان او حتى ان يدركه الخيال .

وبالكاد تغطي مرحلة الدولة المطلقة ، في الغرب الذي قـد أصبح ميدان نفوذه ، العـالم بأكمله ، قرنا ونصف قرن من الاعوام ـ وتبدأ بعام ١٦٦٠ عندمـا انتصر آل البوربون على عائلة هابسبورغ في معـاهدة صلح البرينيز ، وعندما عاد آل ستيوارت الى انجلترا ، وتنتهي بالحروب الائتلافية التي شنت على الثورة الفرنسية ، والتي انتصرت فيها لندن على باريس ، او اذا مـــا فضل احدهم ، انتصرت عـــلى مؤتمر فيينا ، حيث قدمت خلاله الدبلوماسية القديمة ، دبلوماسية الدم والمال ، انجازها الوداعي العظيم . وتتجانس مع هـذه الحقبة ، حقبة بركليس الواقعة بين العهد الاول للطغاة وبين عهدهم الثاني ، وحقبة « ربيـع وخريف » لتشون ـ تسوي Tshun Tsui ، كما يصف الصينيون كل الزمان الممتد بين الحماة وبين الدول المتنازعة .

وتتبدى في هـذا الطور الاخـير من أطوار الدبلوماسية الوقور ، هـــذه الدبلوماسية ذات الاشكال التقليدية ، لكنها غير شعبية ، والمألوفة ، لكن المرء لا يبتسم عليها ، أقول تتبدى قمما مطبوعة بخمود نار السلالتين الهابسبورغيتين في حوادث من توارث مريـع للعرش ، واحـــداث دبلوماسية وشبه حربية ازدحمت من عام ١٧٠٠ ـ ١٠ ـ حول توارث العرش الاسباني ، واحتشدت من عام ١٧٤٠ ـ ٦٠ ـ حول وراثة التاج النمساوي . وهذا الطور هو ايضاً

أوج المبدأ السلالي . فالقول القائل : Bella, gerant alii, tu felix austria,nubi كان فعلاً « امتدادا للحرب بوسائل اخرى » . والحق ان شبه الجملة هذه كانت قد صيغت قبل هـــذا الزمن بمدة طويلة (وذلك ارتباطاً بمكسيمليان الاول) ، ولكنها لم تعبر فعلاً عن مدلولاتها الحقيقية الا الآن . فحروب الفروند تنتقل لتصبح حروبــاً تدور حول توارث العرش ، وهـذه تقررها مجالس الوزراء ، ويخوضون غمارها بروح الفروسية وبجيوش صغيرة ، وتدور رحاهــا وفق تقاليد حازمة صارمة . فالشيء الذي كانوا يتنازعون عليـــه ، هو تركة حجمها نصف العالم ، وملك كسبته سياسة الزواج الباروكية المبكرة ، ووضعته جزءاً بعـــد جزء في ايدي آل هابسبورغ . والدولة لا تزال في « حالة جيدة » ، والنبـــلاء قد أصبحوا ارستقراطية موالية ، ارستقراطية بلاط وخدمة ، ينفذون حروب العرش وينظمون ادارته العامة . وسرعان ما نشأ في بروسيا ، او جنباً الى جنب ولويس الرابع عشر الفرنسي ، تنظيم لدولة هو رائعـــة من الروائع . ولقد كانت طريق بروسيا ، ابتداء من النزاع بين الامير المنتخب العظيم وبين منزلتيه الاجتماعيتين (١٦٦٠) حتى وفاة فريدريك الاكبر (الذي استقبل ميرابو قبل ثلاثة اعوام من سقوط الباستيل) هو الطريق ذاتها التي سلكتها فرنسا ، وتمثلت النتيجة عند كل منهما في دولة ، كانت في كل نقطة من نقاطهــا النقيض للنظام الانكليزي .

وذلك لان الوضع في الامبراطورية الالمانية كان مخالفا للوضع في انكلترا . ففي انكلترا إنتصر الفروند ، ولم تكن الامة الانكليزية تحكم حكما استبداديا مطلقا ، بل كانت تحكم حكما ارستقراطيا . زد على ذلك ايضا وجود فرق هائل بين انكلترا والامبراطوريــة ، فانكلترا كانت جزيرة ، وكان باستطاعتها ان تستغني الى حد كبير عن الرقابـــة الحكومية ، كما وان لوردانها في مجلس اللوردات ، واعيانها في مجلس العموم باعمالهم قد استندوا على وضوح عظمـــة

انكلترا وجلائها ، بينا ركزت المرتبـــة العليا من امراء الارض — بجمعيتها التمثيلية الموجودة في ريجنسبورغ ، بوصفها مجلس لوردات اهتمامها بصورة رئيسية ، على تهذيب شظايا من الامة وقعت صدفة بين ايديهم وجعل هذه الشظايا « شعوبا » واضحة بينــــة ، وعلى تخطيط حدود قطيعاتهم المشتتة من ارض الوطن ، باشد ما يمكنهم من دقة وتحديــــد ، وعزلها عن قطيعات « الشعوب » الاخرى . وهكذا اخذ هؤلاء يتعهدون برعايتهم ، فكراً وعملا ، افقاً اقليميا ، بدلاً من ذاك الافق العالمي الذي تعهدته العصور القوطية . وتخلوا عن فكرة الامة لعالم الاحلام — ذاك العالم الذي لم يصنع من العنصر او العرق ، بل من اللغة ، ولم يبدع من العنصر بل من السببية . وفي هــذا العالم نشأت الفكرة واخيرا واقع « الشعب » ، كما ادركه الشعراء والمفكرون ، حيث اوجدوا لانفسهم جمهورية في غمام الشعر وغيوم المنطق ، ومن ثم اصبحوا يؤمنون اخيرا بان السياسة تتألف من كتابات وقراءات واحاديث مثالية ، وانها لا تتكون من الفعل والعزم — وحتى يومنا لا يزالون يشوشون معاني الافعال الفعلية والعزائم الحقيقية بتعابير مجردة عن رغبة وهوى .

ان انتصار الاعيان في بريطانيا ، واعلان الحقوق عام ١٦٨٩ قد وضعا فعلا نهاية للدولة . ولقد اجلس البرلمان وليم الثالث على العرش ، ثم منع فيما بعـد جورج الاول والثالث من ان يتخليا عن التاج ، وذلك كله ارضاء لمصالح طبقته . واصبحت كلمة « دولة » ، التي كانت شائعة ودارجة منذ زمن مبكر كزمن آل تيودور ، كلمة مهملة لا تتردد على لسان احد — وامسى من المستحيل ان نترجم الى الانكليزية كلمة لويس الرابع عشر « انا الدولة » او كلمــــة فريدريك الاكبر : « انا الخادم الاول لدولتي » . ومن جهـــة اخرى وطدت الكلمة «مجتمع» ذاتها بوصفها تعبيرا عن واقع كون الامة في «شكل لائق» في ظل نظام طبقة ونظام دولة . وهذه الكلمة « مجتمع » هي الكلمة ذاتها التي اقتبسها روسو والعقلانيون بصورة عامة ، واقتبسوها بسوء فهم بارز لمغزاها ، ليعبروا عن بغضاء

الطبقة الثالثة للسلطة . لكن السلطة في انكلترا بوصفها « الحكومـــة » مخططة تخطيطا جلياً واضحا ومفهومة جيـد الفهم . ولقد اصبح مجلس الوزراء ابتداء بجورج الاول فما بعده ، مركز السلطة ، لكنه كيان لا وجود له اطلاقا من الوجهة الدستورية ، فهو من الوجهة الواقعية لجنة تنفيذية لعصبة من النبلاء تكون مسيطرة على مقاليد الامور فترة وجود هذا المجلس . ولقد وجـــد الاستبداد المطلق ، لكنه استبداد وفد مفوض لطبقة ومن طبقة . زد على ذلك ان فكرة « صاحب الجلالة » قد انتقلت الى البرلمان ، كما انتقلت من قبل حصانـة ملوك الرومان الى التربيونات . ومبدأ التسلسل النسبي موجود في بريطانيا ايضا ، لكن يعبر عنه من خلال العلاقات العائلية داخل العائلات الارقى في طبقة النبلاء . وقد قام حتى اللورد سلسبري في عام ١٩٠٢ ، كأنه احد آل سيسل ، فاقترح ان يكون ابن اخيه بلفور خليفة له ، بدلاً من يوسف تشمبرلين . وكانت العصبتان من النبلاء ، التوري والهويغ ، في كثير من الاحيان تنفصل الواحدة منهما عن الاخرى انفصالا متزايدا في وضوحه ، وذلك حين اختلاف وجهتي النظر ، في عما اذا كانت السلطة اهم من الغنيمة – وذلك في حال تقييم الارض فوق المال – او العكس بالعكس ، وقد عبرت الطبقة البرجوازية الارقى عن هذا التناقض حتى في القرن الثامن عشر ، وذلك من خلال التباين القائم بين كلمة « جدير بالاحترام » Respectable وكلمة « على الموضة » Fashionable ، وهاتان الكلمتان تعبران عن مفهومين متباينين للجنتلمان . زد على ذلك ان مصلحة الطبقة تحل بصراحة ، محل مبدأ اهتمام الدولة بالجميع . ولهذا يطالب الفرد بحريته – وهذا هو ما تعنيه « الحرية » في الانكليزية – ولكن الوجود الجزيري – نسبة الى جزيرة – وبنية « المجتمع » قد خلقا في انكلترا علاقات على شكل يجعل في النهاية كل من ينتمي اليها (وهذا موضوع ذو شأن في دكتاتورية المرتبة) يشعر بان مصالحه ممثلة بهذا الحزب او ذاك من النبلاء .

وهذا الرسوخ لآخر الاشكال وامعقها وانضجها ، هذا الشكل الذي ينبع

من الشعور التاريخي للجنس البشري الغربي ، هو شكل انكره العالم الكلاسيكي ونفاه . فالطغاة تلاشوا واختفوا ، وكذلك الاليغارشية ، والشعب ، العوام ، الذي خلفته سياسة القرن السادس ، بوصفه مجموعا لجميع الناس المنتمين الى دولة المدينة ، قد تناثر الى عصبات واحزاب وصدمات تشنجية لنبلاء ضد اللانبلاء ، وبدأت الصراعات داخل الدول وبينها ، حيث حاول كل حزب ان يفني الحزب الآخر ، كي لا يصبح هو نفسه عرضة للافناء . وعندما قام الفيثاغوريون في عام ٥١١ – وهذا عام من اعوام عصر الطغاة - بابادة السايباريين Sybaris ، كانت هذه الحادثة هي الاولى من نوعها ، وقد افجعت العالم الكلاسيكي طولا وعرضا ، وحتى مدينة ميليطيوس البعيدة النائية Miletus ، لبست عليها السواد ولكن الآن امسى اباذة دولة – مدينة باكملها وافناء حزب باجمعه امراً عاديا مألوفا حتى انه نشأ شكل نظامي واختيار مناهج واساليب – وهذه تنطبق على معاهدات الصلح النموذجية في باروكيته في الحقبة الباروكية الغربية للقضاء على المغلوبين – فمثلا قد يقدم المنتصر على ذبحهم او بيعهم في اسواق النخاسة ، او قد يعمد الى تدمير منازلهم ، او اقتسامها كغنائم وهنا تتبدى ارادة الاستبداد المطلق قائمة وموجودة – وهذه امست عالمية في انتشارها بعد الحروب الفارسية ، فكنت تراها في روما واسبرطة ، وايضا في اثينا – لكنها ارادة هي ضيق الافق المراد لدولة المدينة ، انها سياسة النقطة ، والاختزال المراد لعدد اولئك الذين يشغلون الوظائف ، زد على ذلك ان فورية المناهج جعلت من المستحيل على هذه الارادة ان تبلغ قرارا ثابتا ، فيما يتعلق بما يتوجب ان تكونه « الدولة » . فتلك المهارة الراقية في الدبلوماسية التي كانت تمارسها مجالس الوزراء في الغرب والمستوحاة من اعراف وتقاليد ، عطلتها ، هنا في العالم الكلاسيكي الهواية ، وهذه لم توجد بسبب القلة التصادفية من الرجال – فالرجال كانوا موجودين – بل انما كانت موجودة فقط داخل الشكل السياسي بالذات . ومجرى تطور هذا الشكل ابتداء بعهد الطغاة الاول حتى الثاني ، مجرى لا تخطئه الفراسة ، وينطبق على التطور ذاته لكل الحقبات المتأخرة زمنا من الحضارات الاخرى ، لكن الطراز الكلاسيكي

منه يبـــدو ، بصورة خاصة مشوشا عادما لكل نظام ، وخاضعا لكل ما هو تصادفي وطارىء وهذا الطراز ينبع بداهة وحتما من شكل حياة لا تستطيع ولا تريد ان تفصل ذاتها عن البرهة الآنية .

واهم الامثلة على هذا الطراز ، هو تطور روما خلال القرن الخامس – وهذه مرحـــلة لا تزال حتى الآن مدارا لخصام المؤرخين ونزاعاتهم ، وذلك لانهم ، حصراً ، يحاولون ان يجدوا فيها متانة او ترابطاً ، هذا الترابط الذي لا يستطيع ان يوجد هنا اكثر من وجوده في اي مكان آخر من الدولة الكلاسيكية . وهناك نبع آخر من منابع سوء الفهم ، وهو كونهم قـــد اعتبروا الاوضاع لذاك التطور (تطور روما – المترجم) بوصفها اوضاعا بدائية تماما ، بينما في الواقع ، يجب ان تكون حتى مدينة التركوينيين ، قد بلغت منذ زمن وضعا متقدماً جداً ، وروما البدائية تقع في فترة اقدم زمنا بكثير من تلك . وعلاقات القرن الخامس هي عـلى مستوى بسيط اذا ما قورنت بعلاقات عصر قيصر ، لكنها لم تكن علاقات غارقة في القدم . وذلك لان التقليد المكتوب هو ناقص (كما كانت حاله في كل مكان آخر ما عدا اثينا) كما وان الحركة الادبية التي تلت الحروب البونية انطلقت لتملأ الفراغات بالقصائد والاشعار ، وبصورة خاصة (وذلك كما هو مترقب في العصر الهيليني) باستصراخ ماض رقيق لين ، كما هي الحال مثلا في قصة سنسناتوس . ومع ان العلمية الحديثة لم تعد تؤمن بهذه الاساطير ، لكنها بالرغم من ذلك بقيت تحت تأثير الوضع الذي اوحى بتلفيقها ، وتسترسل الآن في النظر الى اوضاع ذاك الزمن بعيني هذا الوضع – وبالاكثر من الاستعداد يعالج التاريخان اليوناني والروماني ، بوصفها عالمين منفصلين ، وتتبع كالعادة الممارسة الشريرة في البرهنة على بداية التاريخ ببداية اسانيد صحيحة . والواقع ان اوضاع عام ٥٠٠ ق م ، قـــد تكون اي شيء ، لكنها ليست بهوميرية . فالآثار الموجودة على جدرانها تظهر ان روما في عهـــد التاركوينيين كانت ، كابوا Capua ، اكبر مدينة في ايطاليا ، واكبر من اثينا في عهـد تيموستكليس .

فالمدينة التي تبرم المعاهدات التجاريــة مع قرطاجة ليست بالتأكيد مستوطناً لفلاحين . ونستنتج من ذلك ان عدد سكان مدينة القبائل الاربع عام ٤٧١ يجب ان يكون جد غفير ، ولربما كان عددهم اكثر من مجموع القبائل الست عشرة المشتتة في الخلاء ، تافهة حقيرة .

أما النجاح الهائل الذي لاقاه النبلاء ، ملاك الارض ، في خلعهم للطغاة ، والذي صادف من المؤكد تقريباً ترحيباً شعبياً شديداً ، وفلاحهم في اقامة نظام سانتوري غير محدود ، فان نجاحهم هذا قد احبطته ثانية سلسلة من الاحداث العنيفة وقعت في عام ٤٧١ – احلال اربع حماة عظام للمدينــة محل العشائر العائلية ، وتمثيــل التريبيونات لاولئك (هؤلاء الذين كانوا ذوي حرمة مقدسة واعني بهذا انهم كانوا يتمتعون بامتيازات ملكيـــة ، (لم يكن يتمتع بها اي موظف ارستقراطي من موظفي الادارات العامة) . واخــيرا تحرير صغار المزارعين من حواشي النبلاء وبطاناتهم .

لقد كانت التريبيونية ، اسعد إلهام ، لا لهذه الحقبة فقط ، بل لمدينة الدولة الكلاسيكية بصورة عامة . لقد كانت نظام الطغاة الذي أرتفع بــه الى مركز صحيح متكامل والدستور ، ووضعت على شكل متواز وكل ما بقي قائمــاً من انظمة ، وذلك بالاضافة الى الوظائف الاليغارشية القديمة . وهذا الامر يعني ان الثورة الاجتماعية ايضاً قد نفذت بوسائل مشروعة ، وان ما حدث في البــلاد الاخرى من انعتاق وحشي عنيف ، وبهزات وهزات مضادة أصبح هنا مناظرات في الفوروم محدودة ومقيدة بقاعدتي النقاش والتصويت . فــلم يكن هناك من حاجة لاستدعاء الطاغية ، فالطاغية كان موجوداً هنا وقائماً . وكان التريبيون يمتلك حقوقاً فطرية في المركز ، وليست حقوقاً تنشأ عن الوظيفة التي يشغلها ، وكان يستطيع ، اعتماداً على حصانته ، ان ينفذ مشروعات ثورية ، لا يمكن للمرء ان يتصور تنفيذها في دولة مدينة أخرى دون قتال شوارع . والحق ان خلق

التريبونية هذه كانت حدثاً تصادفياً ، ولكن لا يوجد أي من ابداعات روما ، كان بامكانه ان يأخذ بيدها ويعضدها كهذا الابداع . ففي روما وحدها نفذت مرحلة الانتقال من عهد الطغيان الاول حتى العهد الثاني منه ، وبالاضافة الى التطور من العهد الاخير هذا حتى ما بعد أيام زاما Zama ، تنفيذاً شهد بعض الهزات ، لكن ، على كل حال ، لم تنجم عنه أية كارثة . ولقد كان التريبيون هو حلقة الوصل بين التاركوينيين وقيصر . واصبح ، نتيجة قانون هورتنسيا Lex Hortensia الصادر عام ٢٨٧ ، صاحب السلطان المطلق ، اذ كان الطاغية الثاني في « شكل » دستوري . وفي القرن الثاني ، كان باستطاعة التريبيونات ان يتسببوا في اعتقال القناصلة والمراقبين Censors [١] ووضعهم في السجن . ولقد كان الغراتشيون تريبيونات ، كما وأن قيصر اتخذ لنفسه منصب التريبيونية بصورة دائمة ، أضف الى ذلك ان الوقار التريبيوني كان العنصر الاساسي في ولاية اوغسطس الحكم ، وهو العنصر الوحيد الذي يعود اليه الفضل في حصول اوغسطس على حقوق الملك .

ولم تكن أزمة ، عام ٤٧١ ، أزمة فريدة في نوعها ، بل انما كانت أزمة ذات اصل كلاسيكي . وكانت تستهدف الاليغارشية التي كانت تناضل حتى في هذا العصر ، عصر التريبيونية ، وداخل صفوف الشعب الذي خلفه عهد الطغاة ، كي تصبح القوة الحضية ، الدافعة ، في الامور العامة . ولم تكن حالها في هذه الايام ، كحالها في أيام هسيود ، أي طبقة اليغارشية تجابه اللا طبقيين ، بل كانت حزباً اليغارشياً يعارض حزباً ثانياً - وكلا الحزبين كانا داخل « كادر » Cadre

(١) Censors : كان لروما قاضيان كبيران ، يطلق عليهما هذا اللقب ، وكانا هما المشرفان على مراقبة الاخلاق والسلوك بالاضافة الى اشرافهم على مراقبة دوائر الاحصاء العام .

— المترجم —

(نظام) الدولة ، ولذلك فان الاليغارشية ، وهذا هو شكلها الآن ، لم تصبح موضوعاً لنقاش أو جدل .

وفي أثينـــا ، خلع الارخونات في عـام ٤٨٧ ق . م ونقلت حقوقهم الى مجمع الستراتيجية . كما وألغي الاريباغوس ، المماثل لمجلس الشيوخ الرومـاني في ٤٦١ . اما في صقلية (التي كانت وثيقة العلاقات بروما) فلقـــد انتصرت الديمقراطية في أكراغاس (اغريغنتوم) عام ٤٧١ ، وفي سيراكوس عام ٤٦٥، وفي ريجيوم ومسينا عام ٤٦١ .

وفي اسبرطه ، حاول الملكان كليومينيس (٤٨٨) وبوسانياس (٤٧٠) ان يحررا الميلوط لكنهما فشلا في هذه المحاولة ــ والميلوط وفق المصطلح الروماني هم الحواشي والبطانة ـ وكانا يهدفان من وراء محاولتهما هذه ، ان يرتفعا بالملكية ، تواجهاً والافوريين الاليغارشيين ، الى مكانة التريبيونية في روما . أمـــا العنصر المفقود في هذه المحاولة ، والذي كان متوفراً في روما (بالرغم من ان علماءنا قـد اغفلوه) ، فهو قوة سكان المدن التجارية ، هذه القوة التي تزود حركات كهـــذه بالثقل والقيادة . وبسبب فقدان هذا العنصر بالذات فشلت الثورة العظمى التي قام بها الميلوط في عام ٤٦٤ « وهذا حدث من الجائز أنه أوحى للرومان بالاساطير عن انشقاق العوام عن مونس ساسير » .

وفي دولة المدينة ، ينصهر نبلاء الارياف ونبلاء المدينة ويندمجون معاً في كتلة واحدة (وهذا هو هدف ازدواج الجنس كما سبق لنا ان رأينـــا) لكن البرجوازيين والفلاحين لا يتم اتحادهم على هذا الشكل ، فهم حزب واحـد متحد وذلك فيما يتعلق بصراعهم ضد الاليغارشيـــة ـ أي انهم الحزب الديمقراطي ــ ولكنهم حزبان في غير هذه الحال . وهذا هو ما ستعبر عنه الازمة التالية فيما بعد . وقد بذل نبلاء المدينة الرومان (قرابة عام ٤٥٠) جهودهم في هذه الازمة وذلك ان

يشيدوا سلطانهم على أساس كونهم حزباً - وهذا ما يتوجب علينا أن نفسر بـه الغاء التريبيونية واحـلال الديسيمفرز Decemvirs (مجلس العشرة قضاة - المترجم) محلها ، واشتراع اللوائح الاثنتي عشرة التي تحرم على العوام ، الذين كانوا قد استحصلوا حديثاً على وجود سياسي ، الزواج غير المتكافىء والتجارة ، واهم من هذا كله « خلق » قبائل ريفية صغيرة كانت تسيطر عليها (واقعـاً لا قانونا) العائلات العريقـة التي كانت تتمتع بأكثرية ساحقة ١٦ على ٤ (في الـ Comitia – Tributa التي وضعت الآن جنباً الى جنب والـ Centuriata) وهذا يعني بداهـة تحريم الفلاحين لحق التصويت على سكان المدن ، كما ويعني دون شك ايضاً ، انـه حركة قام بها حزب نبلاء المدينة، وحاولوا من ورائها ان يوحدوا، بضربة مشتركة واحدة ، بين بغضاء الريف وبغضائهم ، وان يجعلوا هـذه البغضاء المشتركة ذات اثر وفعل في الاقتصاد المالي للمدينة .

ولكن سرعان ما شن الهجوم المعاكس ، وهذا يتبدى في عـدد التريبيونات العشرة ، والذين يظهرون بعد انسحاب الديسيمفرز ، ولكن هناك احداثاً أخرى لا يمكن ان تكون الا منتمية لهذا الهجوم - كمحاولة سبتيموس ميليوس اقامة عهد طغيان (٤٣٩) ، وقيام الجيش - باحلال تريبونات قنصليين محل الموظفين المدنيين (٤٣٨) وقانون كانيوليا Lex Canuleia الذي وضع حـداً لتحريم الزواج غير المتكافىء بين نبلاء المدينة والعوام .

ولا شك انه كانت توجد ، طبعاً ، عصبات داخل حزبي نبلاء المدينة والعوام، وكانت هذه العصبات ترغب في تشويه هذا الملمح الاساسي من ملامح دولة المدينة الرومانية ، وان تستغل التباين القائم بين مجلس الشيوخ والتريبيونيـة ، فتدفع بالواحد منها الى الغاء الآخر ، ولكن هذا الشكل من النظام قـد اثبتت الايام سلامته الى درجة انه لم يصادف ابداً فيما بعد أي تحد خطير . وقـد اتخذ مجرى المنافسة منعطفاً مخالفاً تامـاً ، وذلك بسبب فرض جيش العوام جدارة هؤلاء

بأرقى الوظائف (عام ٣٩٩) . ويمكننا ان نلخص القرن الخامس ، فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ، انه قرن من صراع استهدف اقامة عهد طغيان قانوني مشروع ، ومنذ ذاك القرن فما بعده ، أصبحت السيادة للدستور ، وسلم الجميع باستقطابيته ، ولم يعد الصراع بين الاحزاب يستهدف الغاء المناصب الكبرى ، بل غدا يهدف الى الاستيلاء عليها . وهـــذا كان جوهر الثورة التي نشبت في مرحلة حروب السمنيت . وامست جميع الوظائف ابتداء بعام ٢٨٧ بمتناول العوام ، الذين كانوا حين موافقتهم على اقتراحات التريبونات ، تصبح هذه الاقتراحات اوتوماتيكياً قوانين سارية المفعول ، ومن جهة اخرى كان من الممكن عملياً ودائمـــاً ، وذلك ابتداء من ذاك الزمن فما بعده ، أن يقوم مجلس الشيوخ ، بسبب فساد أعضائه ، أو بأي سبب آخر ، فيغري احد التريبونات ويدفعه الى استخدام حق « الفيتو » (النقض) ، وبهذا يجرد مجلس التريبونات من سلطانه ، والحق ان ما نشهده من دهاء فقهي ، ومهارة قانونية لدى الرومان ، يعود الفضل في نشوئهما وتطورهما ، الى الصراع بين هاتين السلطتين القديرتين الماهرتين .

لقد كانت تتخذ القرارات حينذاك في كل مكان آخر بالقبضـــة والهراوة والنبوت — والكلمة الفنية لهذه « قوة الايدي وقانونها » Cheirocracy لكن هنا ، وفي « افضل » مراحل القانون الدستوري الروماني ، القرن الرابع ، لقد تشكلت عادة استخدام اسلحة البحث والاجتهادات والتفاسير ، وهـــذه اسلوب لمنافسة يمكن ان يكون فيه لابسط النقاط في الصياغة القانونية اهمية حاسمة .

ولكن روما كانت ظاهرة فريدة في نوعها ، في كل التاريخ الكلاسيكي ، باقامتها هذا التوازن بين مجلس الشيوخ والتريبونية . اذ ان القضية لم تكن في كل مكان آخر ، مسألة ميزان متأرجح الكفتين ، بل كانت دائماً الاختيـــار بين بديلين ، ، أي الأليغارشية او الدهماوية Ochlocracy وكانت دولة المدينـــة ، والامة المتجانسة واياها والمنطبقة عليها ، مقدمتين منطقيتين مسلماً بهما ، لكن لم

تكن أية واحدة منها تمتلك بشكلها الباطني هدوءاً أو استقراراً . اذ كان يعني انتصار الحزب الواحد ، الغاء جميع مؤسسات الحزب الآخر ، ولقد اعتاد الناس على الا يعتبروا أي شيء يملك من الاحترام أو النفع ما يكفي لاستثنائه من اقدار المعركة اليوميـــة ، لقد كان شكل اسبرطة ، مثلاً ، سينتوريا ، واثينا تريبيونيا ، ولكن ما كادت تنشب الحرب البيلوبونيزية في عـام ٤٣١ ، حتى كانت الفكرة القائلة بأن الاشكال يجب ان تكون متناوبة ، قد بلغت من الرسوخ مبلغاً ، امست معه ، منذ ذاك الحـــين فصاعداً ، الحلول الجذرية هي وحدها الامر الوحيد الممكن .

وبهذا يكون المستقبل قد تقرر لروما . فهذه هي الدولة الوحيدة في العـــالم الكلاسيكي ، حيث كانت العواطف والانفعالات السياسية تستهدف الاشخاص ، ولم تعد تجعل ابداً المؤسسات أهدافها ، وهي الدولة الوحيدة التي كانت يومذاك في « شكل لائق » فمجلس الشيوخ والتريبونية صهر في شكل من البرونز ، ولم يحاول اي حزب منذ ذاك الحين فصاعداً ان يطرقـه ، بينما ان جميـع الدول الباقية ، بما لسلطة كل واحدة منها ، من ضيق أفق في العـــالم الكلاسيكي ، لم تستطـع الا ان تبرهن ، المرة تلو الاخرى ، على الواقعـــة القائلة بان السياسة الداخلية ، انما توجد فقط ، من أجل صيرورة السياسة الخارجية أمراً ممكناً .

- ٦ -

وعند هذا المحط ، حيث تبدأ الحضارة بتحويل نفسها الى مدنية ، يتدخل من لا منزلة لهم – اللاطبقيون – في الامور العامة ، تدخلاً حاسماً – ويتدخلون لاول

مرة ، – بوصفهم قوة مستقلة .

ولقد سبق للدولة ان استصرختهم، في عصور الطغاة والفروند Fruonde ليهبوا الى مساعدتها ضد المنزلتين بالذات، ومنذ ذاك الوقت ، تعلم هؤلاء ، ولاول مرة ، ان يشعروا بأنهم سلطة وقوة . اما الآن فانهم يستخدمون قوتهم من أجل ذواتهم ، ويقومون باستخدامها بوصفهم طبقة تناصر حريتها وتدافع عنها ضد الباقين وهذه الطبقة ترى في الدولة المستبدة ، وفي التاج ، وفي المؤسسات ذات الجذور ، الحلفاء الطبيعيين للمنزلتين القديمتين ، والممثلين الحقيقيين والاخيرين للتقاليد الرمزيـــة . وهذا هو الفرق بين عهـــد الطغيان الاول والثاني ، بين الثورة الفرونـــدية والبرجوازية ، بين كرومويل وروبسبير .

ان العقل المتحضر يشعر بالدولة وبمطالبها الثقيلة من كل فرد داخلها ، على انهـا عبء مرهق . وهكذا يبدأون ، في الطور ذاته ، بأن يشعروا بأن الاشكال العظمى للفنون الباروكية هي اشكال قاسية في قيودها واغلالها ، وأنها قد اصبحت متكلسكة ومترمتكة – أي انها ناقصة التكوين وسقيمة واهنة ، وما الآداب الالمانية ابتداء بعام ١٧٧٠ الا ثورة طويلة شنتها شخصيات افرادية قوية على الشعر الملتزم . وهنا تصبح الفكرة القائلة بصيرورة الامة في حال من « تدريب لائق » أو « شكل لائق » ، فكرة لا تطاق أو تحتمل . وهذا القول ينطبق أيضاً على الاخلاق والفنون واساليب التفكير ، وقبل كل شيء آخر ، على السياسة . فكل ثورة برجوازية تتخذ من المدينة الكبرى مسرحاً لتمثيل رواياتها، وتتخذ من عدم ادراكها للرموز القديمة طابعها ، وتقوم باستبدال هذه الرموز بمصالح محسوسة ، وبأمنية (أو حتى بمجرد رغبة) المفكرين المتحمسين ومصلحي العالم ، في ان يروا

مفاهيمهم متجسدة واقعاً وفعلا . وهنا لا يعود لاي شيء قيمة ،ما عدا ذاك الذي يمكن للعقل ان يبرره . لكن الحياة القومية ، وهي قد جردت على هـذا الشكل الذي هو بجوهره رمزي ويعمل بصورة ميتافيزيقية ، تفقد القوة للحفاظ على رأسها مرفوعاً في مجاري كينونة التاريخ .

ولنتابـع المحاولات اليائسة التي قامت بها الحكومة الفرنسية ــ وقامت بهـا حفنة من الرجال القديرين البعيدي النظر في عهد لويس السادس عشر العـادي الجوهر ــ بغية الحفاظ على وطنهم « في وضع لائق » ، وكيف أصبحت كامل قوة ثقل الوضع الخارجي ، بعد وفاة فرجيني Vergennes عام١٧٨٧ ، جلية واضحة. فبموت هذا الدبلوماسي اختفت فرنسا لاعوام واعوام من الاتحـادات السياسية في أوروبا ،وكيف بقي في الوقت ذاته الاصلاح العظيم ــ وقبل كل شيء الاصلاح الاداري العام لتلك السنة ، المستند الى أوسع قواعد الحرية الذاتية هذا الاصلاح الهائل الذي نفذه التاج ضد كل المقاومات ، كيف بقي غير فعال اطلاقاً ، وذلك لانه قد اصبح فجأة ، في نظر دمائة السلطة ، موضوع الساعة بالنسبة للمنزلتين ، هو القوة والسلطان .

وكانت تتبدى في الافق ، قبل هذا التاريخ بقرن ، وفي قرن بعده ، ارهاصات منظورة لحرب اوروبية ، وكانت هذه تقترب شيئاً فشيئاً مسوقة بضرورة حتمية لا تنقض ، لكن لم يكن هناك من انسان يلقي بنظرة واحـدة على الوضع الخارجي . لقد كان من النادر ان يفكر النبلاء كمنزلة بابعاد السياسة الخارجية ، والتاريخ العالمي ، اما البرجوازيون ، بوصفهم منزلة ، فلم يعرف فكرهم ابداً مثل هذا التفكير . ولم يسأل أحد عما اذا كانت الدولة بشكلها الجديـد تستطيع اطلاقاً المحافظة على كيانها بين الدول . لقد كان كل ما يهمهم هو ما اذا كانت

الدولة تضمن « حقوق » الناس وتؤمنها .

لكن البرجوازية ، طبقة « الحرية » الحضرية ، بالرغم من بقاء شعورها الطبقي قويا لاجيال واجيال (اذ بقي هذا الشعور في اوربا الغربية قويا حتى ما بعد عام ١٨٤٨) فانها لم تكن في اي وقت من الاوقات السيد المطلق الحرية في اعماله . وذلك لان وحدتها ، قبل كل شيء ، قد تبدت في كل وضع حرج وخطير ، على انها كانت وحدة سلبية وانها وحدة ، توجد فعلاً ، في لحظات معارضة شيء ما ، او اي شيء آخر ، « فدولة الطبقات « TiersÉtat » ، « والمعارضة » هما كلمتان تكادان تكونان متماثلتين في المعنى – وعندما كان يتوجب ، على هذه الطبقة ان تقوم بعمل انشائي خاص بها ، كانت مصالح شتى مجموعاتها تتجاذبه الى كل اتجاه . فكل ما تريده او ترغب فيه – هو ان تكون حرة متحررة من شيء ما . لكن العقلانيين كانوا يرغبون في ان تكون الدولة هي التجسيد « للعدالة » ضد الوقائع التاريخية ، او هي « حقوق الانسان » ، او حرية تقل الدين السائد . وكان المال يريد طريقا حرة الى النجاح في الاعمال . وكان هناك الكثيرون من الذين يتمنون ان يعيشوا براحة وهدوء بال ، ويريدون التبرؤ من العظمة التاريخية ويرغبون في ان يجنبهم الناس عناء تحقيق هذا التقليـــد او ذاك ، الذين كانوا يعيشون عليه جسمانيا وروحيا . ولكنه كان يوجد الآن عنصر آخر ، عنصر لم يكن له من وجود في صراعات الفروند (بما في ذلك الحرب الاهلية الانكليزية) او في العهد الاول للطغاة ، لكنه اليوم يمثل قوة من القوى – واعني بهذا العنصر ، هو ذاك الموجود في جميع المدنيات وتحت مختلف نعوت التحقير – حثالة الامة ، ارذال القوم ، الغوغاء الدهماء Dregs , Canaille , Mob , Pobel – ولهـــذه جميعاً المضمون المريع ذاته . وفي المدن العظمى ، التي كانت هي وحدها تنطق الآن بالكلمات الحاسمة – كان اكثر ما يستطيعه الريف المنفسح هو اما ان يقبـل أو يرفض سياسة الامر الواقع ، كما يدلل على ذلك قرننا الثامن عشر – فمن يقطنه

كانوا هتامات لا جذور لها من سكان ، تقف خارج دائرة كل الترابطات الاجتماعية. وهؤلاء لا يشعرون بأنهم مرتبطون بمنزلة اجتماعية ، أو بطبقة مهنية ، ولا يحسون بأنهم حتى طبقة عاملة حقيقية ، بالرغم من انهم مرغمون على العمل . وهناك عناصر مقتلعة من جميع الطبقات تنتمي الى هؤلاء — كالفلاحين المستأصلة جذورهم من الارض ، والمتعلمين ، ورجال الاعمال المفلسين ، واهم من هؤلاء كلهم ، النبلاء المنحرفون عن الجادة (كما تظهر عصور كاتلين Catiline ذلك بوضوح مرعب). ولهذه الدهماء من القوة ما يفوق عددها ويتجاوزه ببعيد ، وذلك لانها دائما وابداً حاضرة وناظرة ، وهي موجودة وبمتناول اليد ، حين اتخاذ القرارات العظمى ، ومستعدة للقيام بأي عمل ، وعاطلة من كل احترام للانتظام والاتساق ، حتى الاتساق وحزب ثوري . ومن هذه الاحداث تكتسب تلك القوة المدمرة التي تميز بين الثورة الفرنسية والثورة الانكليزية ، بين عهد الطغاة الثاني وعهدهم الأول. وتنظر البرجوازية الى هذه الجماهير من الغوغاء بقلق حقيقي ، وبنظرة دفاعية ، وتسعى لتنعزل عنها — والى هذا العمل الدفاعي ، لهذه الطبقة يعود الفضل في تألق نجم نابليون في ١٣ فنديمير Vendemiaire . ولكن لا يمكن تخطيط الحد الفاصل بين البرجوازية والدهماء خلال ضغط الوقائع أو الاحداث ، وحينما تلقي البرجوازية بوزنها ضد الانظمة الاقدم زمناً ، يكون ثقله ضعيفاً في عدوانيته — ضعيفاً بعدده النسبي ، وضعيفاً لأن التماسك الباطني لهذه الطبقة مهدد في كل لحظة بالانحلال — وهكذا تجد الدهماء قد كشفت قوة وارغاماً ، طريقها الى صفوفها ، وتنطلق الى المقدمة ، وتقوم بالهجوم الذي يحقق النصر ، وتتدبر في معظم الاحيان امورها فتؤمن المركز المغزو لنفسها — ولم تكن معاضدة المثقفين المثالية المستمرة ، هؤلاء المفتونون عقلانياً ، بأمر نادر للدهماء على هذا الفوز ، وكذلك الاسناد المادي لقوى المال ، هذه القوى التي تسعى لتحويل تيارات الاخطار عنها باتجاه منزلتي النبلاء والاكليريكيين .

وهناك وجه آخر يعطي لهذه الحقبة أهميتها — ففي هذه الحقبة تحاول الحقائق

التجريدية ، لاول مرة ، ان تتدخل في عالم الوقائع . فالمدن العواصم قد أمست على تلك الدرجة من الضخامة ، وبلغ الانسان الحضري ذاك المبلـــغ من التفوق والنفوذ على الشعور الواعي لكامل الحضارة (وهذا النفوذ هو ما ندعوه بالرأي العام) ، حيث زعزعت معه قوى الدم والتقاليد الفطرية فيـــه ، ووجت في مركزها الذي لم يكن اقتحامه ممكناً حتى الآن ، رجاً . وذلك لانــه يتوجب علينا ان نذكر ان الدولة الباروكية ودولة المدينة المطلقة السلطان ، في تطويرهما النهائي للشكل ، هما سداة ولحمة تعابير حية عن عراقة الاصل ، وان التاريخ ، من حيث كونه ينجز ذاته داخل هذين الشكلين ، هو يمتلك النبض المليء لهـــذه الطرقة في الاصل . وان أية نظرية قد تصاغ عن الدولة ، داخل هذين الشكلين ، هي نظرية مستقرأة من الوقائع التي تطأطىء رأسها لعظمة الوقائـــع . ففكرة الدولة قد سيطرت أخيراً هنا على المنزلة الاجتماعية الاولى سيطرة كاملة ، ووضعت هذه المنزلة بأكملها ، ودون تحفظ ، في خدمة الدولة . والمطلق (يعني هنـــا الحكم المطلق المترجم) يعني ان المجرى العظيم الكينونة هو في شكل لائـــق بوصفه وحدة ، وانه يملك نوعاً واحداً من النبض والغريزة ، أكانت ظواهر هــذا النبض بصيرة دبلوماسية ، أو فطنة ستراتيجية ، وقار اخلاق وسلوك ، او ذوقاً متأنقاً في الفنون والافكار .

وهنا تطل العقلانية برأسها ، بوصفها النقيض لهذه الوقعة العظمى ، وتنشر ذاك الذي وصفناه أعلاه بأنه الصفة المشتركة من الشعور الواعي في المثقفين الذين دينهم هو النقد ، وأرواحهم ليست آلهة ، بل مفاهيم . وهنا يبدأ نفوذ الكتب والنظريات العامة فعله في السياسة ــ وهذا النفوذ يتمثل في الصين بلاوتسي ، وفي اثينـــا بالسفسطائيين ، وفي اوروبا بمونتسكيو ــ ويغرس الرأي العـــام الذي شكله هؤلاء ، نفسه في طريق الدبلوماسية ، بوصفه جرماً أو قيمة من نوع جديد تماماً . ومن السخف ان يزعم المرء أن بسيستراتوس او ريشيليو ، او حتى كرومويل ، قد قرروا ما قاموا به من اعمال تحت تأثير مناهج تجريدية ، ولكن هـــذا هو

ما يحدث فعلا بعد انتصار عصر « التنوير » .

وبالرغم من هذا ، فان الدور التاريخي للمفاهيم العظمى للمدينـة ، هو دور يختلف تماماً عن الملامح التي عرضتها داخل عقول الايديولوجيين الذين تخيلوهـا . فتأثير الحقيقة يختلف دائماً عن نزعتها . فالحقائق في عالم الوقائع ، هي وسائل ذات أثر ونفوذ ، من حيث انها تسيطر على الارواح ولذلك تقرر الاعمال والافعال . ولا يجري تقرير مركزها التاريخي ، على اساس انها عميقة وصحيحة او حتى منطقية ، بل على أساس ما اذا كانت توحي وتنطق فتبلغ . وهذا ما نراه في كلمة «شعار » (او الكلمة المأثورة ـ المترجم Catchword) . فما كانت تخبره أديان الربيع الحضاري من رموز معينة خبرة حيـــة ـ ككنيسة القيامة في نظر الصليبيين ، وجوهر المسيح في أزمان مجمع نيقية Nicaea ـ فان جرسي كلمتين او ثلاث موحيين روحياً ، هما الخبرة بالنسبة لكل ثورة متمدنة . فالشعارات وحدها هي الوقائع ـ أما ما يتبقى بعدها في المناهج الفلسفية او الاجتماعية ، ومن اين نشأت هذه وجاءت ، فهذا امر لا يهم التاريخ كثيراً أو قليلا . لكنها كانت ، بوصفها شعارات ، ولمدة قرنين من نبض الدم نفسه ، الذي اخذ يتبلد Dull في هذا العالم المتحجر من المدن الواسعة الانتشار .

ولكن ـ الروح التنديدية هي فقط احدى النزعتين اللتين تنشآن عن الكتل الفوضوية من اللاطبقيين . فتظهر المفاهيم التجريدية الى جانب المال التجريدي ـ المـال المنفصل عن القيم الاساسية للارض ـ والى جانب غرفـة المطالعة ، تظهر غرفة المحاسبة ، بوصفهما قوتين سياسيتين ، وكلتاهما متقاربتان باطنياً ، ومن أصل واحد ولا يمكن العزل أو الفصل بينهما ـ اما التعارض القائم بين النبيل والكاهن فلقد استمر على شدته كما كان دائماً ، في محيط البرجوازية وداخل اطار المدينة . ويظهر المال نفسه على انه هو المتفوق تفوقاً غير مشروط عـلى الحقائق المثالية ، التي لا وجود لها في نظر عالم الامر الواقع ، الا بوصفها شعارات ووسائل (كما

سبق لي ان قلت آنفاً) . واذا كنا نحن نعني بالديمقراطية انها الشكل الذي تريد الطبقة الثالثة ان تنشره على هذه الصورة في الحياة العامة ككل ، عندئذ يتوجب علينا ان نقرر ان الديمقراطية والبلوتوقراطية همـــا الشيء نفسه من وجهتي نظر الأمنية والواقع ، النظرية والممارسة ، المعرفة والعمل . والحق انهـا لمهزلة فاجعة تتبدى في الصراع اليائس لمصلحي العالم ومعلمي الحرية ، ضد المال ، فهم بصراعهم هذا يساعدون فعلاً المال على ان يكون مؤثراً واسع النفوذ . وما الاحترام للرقم الكبير – المعبر عنه في مبادىءالمساواة ، والحقوق الطبيعية والتصويت العـــام الشامل للجميـع – سوى مثل أعلى لطبقة من لا طبقة له ، وحالة هذه تتفق تماماً وحال مبدأ حرية الرأي العام (وبصورة اشد تخصيصاً مبـدأ حرية الصحافة) . فهذه جميعاً هي مثل عليا ، لكن حرية الرأي العـــام ، تشتمل في ميدان الامر الواقع ، على اعداد الرأي العام ، وهذا الاعداد يكلف مالاً ، كمـا وان حرية الصحافة تثير معها موضوع ملكية الصحف ، وهذه هي ايضاً قضية مال او نقود ، ومع حق التصويت العـام تطالعنا الانتخابات حيث من يدفع الثمن للمغني يختار الاغنية . زد على ذلك ان ممثلي الفكرة (المبدأ – المترجم) ينظرون الى الجانب الواحد فقط ، بينما يعمل ممثلو المال وينشطون في الجانب الآخر . كما وان مفاهيم الليبرالية والاشتراكية يدفع بها المال الى الحركة المؤثرة الفعالة . وسلاح الفرسان في الجيش الروماني Equites ، حزب الثروات المالية الكبرى ، هو الذي جعل حركة تيبريوس غراشوس الشعبية امراً ممكناً اطلاقـاً ، وحالمـا أقر قانونا ذلك الجزء من الاصلاحات الذي يخصهم ، انسحبوا وتراجعوا وانهارت هذه الحركة . زد على ذلك ان قيصر وكراسوس قد مولا حركة كاتلين Catilinarian ، وهكذا وجهوها ضد حزب الشيوخ بدلاً من ان يوجهوها ضد الملكية . « وقـــد استن ساسة بارزون في بريطانيا منذ عام ١٧٠٠ قاعدة « المضاربة بأصوات الناخبين كما هي حال المضاربة في سوق المال والاسهم ، وكان ثمن الصوت معروفـاً تماماً

كثمن فدان من الارض[1] » . وعندما بلغت انباء معركة واترلو مسامع باريز ارتفعت اسعار سندات الحكومة الفرنسية – فاليعاقبة كانوا قد دمروا وجانب الدم وفروضه القديمة وكذلك فعل المال المعتوق المحرر ، وهو الآن يتقدم الصفوف بوصفه سيداً للوطن . ولا توجد هناك أية حركة بروليتارية وحتى شيوعية لم تنشط لصالح المال ، أو في اتجاهات اشار اليها المال ، او لمدة من زمن سمح بها – وذلك دون ان يكون لدى المثاليين من قادتها أبسط وعي لهذا الواقع . ان العقل يرفض توجيهات المال – وهكذا نراه يدخل في كل فصل ختامي من دراما الحضارة ، وذلك عندما تصبح المدينة العالمية العظمى سيدة على الباقي . وفي النهاية لا يكون للعقل أي سبب يستثير شكواه . وذلك لانه قد حقق ، في نهاية المطاف ، انتصاره – اي انتصر في مملكة حقائقه ، مملكة كتبه ومثله العليا ، وهذه المملكة ليست من هذا العالم . ومفاهيمه أصبحت موضع احترام وتبجيل لمطلع المدنية . لكن المال ينتصر في مملكته بواسطة هذه المفاهيم بالذات ، ومملكته هذه هي من هذا العالم .

ومن دول العالم الغربي كانت انكلترا هي وحدها التي تدرجت على كلا جانبي سياسة الطبقة الثالثة ، الجانب المثالي ، والجانب الحقيقي منها . ففي هذه الدولة وحدها كان باستطاعة الطبقة الثالثة ان تتجنب ضرورة الزحف ضد الدولة المطلقة السلطان ، بغية تدميرها وتشييد سلطانها الخاص على انقاضها . وذلك لانه كان بمقدور هذه الطبقة ان تترعرع وتنمو داخل الشكل القوي للمنزلة الاولى ، منزلة النبالة ، حيث وجدت شكلاً مستكمل التطور لسياسة المصالح ، شكلاً كان بامكانها ان تقتبس من مناهجه ، ولاغراضها الخاصة ، تكتيكاً تقليديا بلغ

---

(١) ج. هتشيك : تاريخ التشريع الانكليزي ، صفحة ٥٨٨ .

– المترجم –

من التطور درجة ، بحيث نادراً مـــا راودتها عندها رغبة في ادخال اي تحسين عليه . فهنا كان موطن برلمانية اصيلة منقطعة النظير برلمانية لا تضاهي ولا تقلد او تحاكى ، برلمانية كانت تمتلك مركزا جزيرياً ، بدلاً من الدولة ، كمنطلق لها ، وتقاليد المنزلة الاولى ، لا الطبقة الثالثـــة ركيزة لها . اضف الى ذلك توفر الظروف والاوضاع الصالحـة لنمو هذا الشكل في أوج الازدهار الباروكي ، ولهـــذا كان يحوي موسيقى في داخله . وكان الاسلوب البرلماني متجانساً كل التجانس ودبلوماسية بمجلس الوزراء ، ويكمن في هذا الاصل المناهض للديمقراطية سر كل ما لاقاه من نجاح .

ولكن من التربة البريطانية ايضاً نمت الشعارات العقلانيـــة فرداً وجملة ، وعلاقاتها بمبادىء مدرسة مانشستر كانت وثيقة – وهيوم كان استاذ آدم سميث ومعلمه . « والحرية » كانت تعني جهاراً نهاراً حرية العقـــل والتجارة . وكان التعارض بين سياسة الامر الواقع والحماسة للحقائق التجريدية امرا مستحيلاً في انكلترا جورج الثالث ، على قدر ما كان امرا محتوما في فرنسا لويس السادس عشر . وقد استطاع فيما بعد ان يرد ادموند بورك على ميرابو قائلاً « اننا نطالب بحرياتنا ، لا بوصفها حقوقاً للانسان ، بل لكونها حقوقا للانسان الانكليزي » . لقد تلقت فرنسا جميع فكرها الثورية ، دون استثناء من بريطانيـا ، كما تلقت اسلوب ملكيتهـا المطلقة من اسبانيا . ولقد قامت فرنسا باعطاء كلتيهما شكلاً رائعا لا يقاوم اتخذ كنموذج في طول اوروبا وعرضها ، لكن فرنسا لم تكن تملك ايـة فكرة عن التطبيق والاستخدام العمليين لهذا الشكل . وان الانتفاع الناجح بالشعارات البرجوازية في ميدان السياسة يفترض وجود عـين ثاقبـة البصر داهية واربية لطبقة حاكمة ، نرى الدستور العقلاني لطبقة تنوي الحصول على السلطة لكنها لن تكون قادرة على استخدامها حين حصولها عليها . ومن هنا نجح الشكل الذي اعطتـه فرنسا في انكلترا . لكن انكلترا كانت هي ايضا البلد الذي استخدم فيه المال في السياسة ودون تردد ، اكثر ممـــا استخدم في اي بلد

آخر – لكنه لم يستخدم هنا لرشوة افراد يتمتعون بمراكز عالية ، كما كانت عادة الاسلوب الاسباني او البندقي ، بل « لحضانة » القوى الديمقراطية بالذات ورعايتها . وقد جرى في القرن الثامن عشر ، في انكلترا ، تدبير امر الانتخابات البرلمانية اولا ، ومن ثم تدبير المنتخبين لمجلس العموم ، تدبيرا منهاجيا بواسطة المال ، كما وان بريطانيا اكتشفت بدورها المثل الاعلى للصحافة الحرة ، لكنها اكتشفت ايضا الى جانبه ان الصحف تخدم من يملكها . فهي لا تنشر الآراء الحرة بل تولدها .

وكلا هذين الجانبين يشكلان الليبرالية (بمعناها العريض) ، وهذان هما – التحرر من قيود الحياة المرتبطة بالارض ، أكانت هذه الحقوق امتيازات أم اشكالا او مشاعر – اي حرية العقل في جميع انواع النقد – وحرية المال في كل نوع من انواع العمل ولكن كلاهما يهدفان ، دون تردد ،الى تحقيق سيطرة طبقة ، سيطرة لا تعترف بطغيان سيادة الدولة عليها . فالعقل والمال بوصفهما غير متمضيين معاً ، لا يريدان ان تكون الدولة شكلا ناضجاً لرمزية راقية تحترم وتبجل ، بل يريدانها آلة تخدم اغراضهما . وهكذا فان الفرق بين هاتين القوتين وبين قوى الفروندية هو فرق جوهري ، وذلك لان ردة فعل القوى الفروندية ، كانت تمثل دفاعاً عن اسلوب الحياة الغوطية ضد اسلوب الحياة الباروكية المفخم وكونه في « شكل لائق » – والآن نري كلا هذين يقفان معاً موقفاً دفاعيا ، ويبدو التمييز بينهما امراً يكاد يكون مستحيلا تقريبا . ففي انجلترا وحدها (وهذا ما نؤكده المرة تلو المرة) لم يجرد الفروند الدولة وحدها من اسلحتها في معركة مكشوفة ، بل انما جرد ايضاً الطبقة الثالثة بتفوقه الباطني ، وهكذا بلغت انكلترا ذاك النوع الواحد من الشكل ، من الدرجة الاولى ، الذي تستطيع الديمقراطية ان تحطه ، وهو شكل لم يخطط له ولم يقتبس ، بل نضج نضوجاً طبيعيا ، وهو تعبير لاصل عريق ، وفطنة اكيدة مستمرة تستطيع ان تهيء ذاتها لاستخدام كل وسيلة جديدة تضعها تصاريف الزمن بين يديها . وهكذا

ظهر ان البرلمان الانكليزي ، بينا كان يشترك في حروب الدول المطلقة الدائرة حول توارث العرش ، كان يعالج امورهـا بوصفها حروبـاً اقتصادية تشتمل على اهداف ومقاصد تجارية . ان سوء ظن اللاطبقيين ، اللاشكليين باطنا ، يبلغ من العمق ، في كل مكان ، مبلغاً يجعلهم دائمـاً وفي كل مكان مستعدين للمخاطرة بحريتهم - من كل الاشكال - بواسطة الديكتاتورية التي لا تعترف بأيـة قاعدة او قانون ، وهي لذلك معادية لكل ما نمـا وترعرع ، زد على ذلك ان ذوقي كل من العقل والمال يتقبلها نظراً انزعتها الميكانيكية - ولنتأمل مثلاً في هيكل آلة الدولة الذي بدأ ببنائه روبسبير وأنهاه نابليون . ولقـد لاقت الديكتاتورية في خدمة مصالح المثل الأعلى الطبقي هوى لدى روسو وسان سيمون كما واستحسنها الايديولوجيون الكلاسيكيون في القرن الرابع - كزينفون في كيروبايديا Cyropaedia واسوكراتس في نيكوكليس Nicocles .

ولكن قول روبسبير المأثور « ان حكومـة الثورة هي الاستبداد المطلق للحرية ضد الطغيان » يعبر عن اكثر من هذا . انه يكشف عن الخوف العميق الذي ينفض نفضاً كل جمهرة من الناس تشعر بذاتها في الشدائد الخطرة ، على انهـا « ليست في شكل لائق » . ان اللواء العسكري الذي تفككت حلقات انضباطه ، يكون مستعداً لاطاعة قواد تضعهم الصدفـة البرهية على رأسه ، ولتنفيذ اوامر الى حد وذات نوع لا تستطيع ابدا ان تصدرها القيادة الشرعية او تطالب بتنفيذها ، والتي اذا ما اصبحت مشروعة تمسي غير محتملة اطلاقـاً . ولكن هذا هو الى حـد بعيد حال كل مدينة مبتدئة . وليس هناك من شيء يكشف بوضوح وفصاحة عن انحطاط الشكل السياسي وتدهوره ، اكثر وافصح مما يكشفه نشوء تلك القوى اللاشكلية التي نستطيع ان نسميها ، اعتماداً على مثالها الواضح ، بالنابليونية . فكم كان لمقدمات حقبة ريشيليو أو فلانشتين الراسخة الثابتة ، من اكتناف شامل كامل لكياني هذين الشخصين !

وكم كان لشكل الثورة الانكليزية ، تحت كل مـا لشكلها الظاهري من

نقص تكوين ، من غريزة وسليقة وجبلة ! لكننا نشهد في النابليونيـــة العكس تماماً ، اذ نرى حزب الفروند يحارب على الشكل ، ونرى الدولة المطلقة تحارب داخل الشكل ، لكننا نشهد البرجوازية تحارب ضد الشكل . ان الالغاء المجرد لنظام اصبح هزيلا واهناً ليس بالامر الجديد – فكرومويل وزعماء عهد الطغيان الاول قاموا بهذا العمل . ولكن كون انتفاء وجود جوهر لشكل غير منظور وراء انقاض الشكل المنظور وركامه ، وكون روبسبيير ونابليون لم يجـدا شيئاً حولهما او داخلهما ليصنعا منه القاعدة الواضحة والغنية عن البيان ، والجوهرية بالنسبة لكل ابداع جديد ، وكون ان هذين لم يكن لهما من خيـار سوى ان يستبدلا حكومة ذات تقاليد راقية وخبرة عميقة بحكومة عرضية طارئة لم يعد مستقبلها يرتكز آمنا على صفات وسجايا اقلية مدربة تدريباً بطيئا وكاملا ، بل يعتمد بكليته على صدفة تدفع بخليفة كفؤ جدير قدير الى الميدان – على هـذا الشكل هي العلامات الفارقة في منعطف الازمان هذا ، ومن هنـــا ينشأ ذلك التفوق الهائل الذي لا تزال تتمتع بـــه ، طيلة أجيال ، تلك الدول التي تدبرت أمورها فاحتفظت بالتقاليد لفترة أطول من غيرها .

لقد انجز عهد الطغاة الأول بناء المدينة بمساعدة اللانبلاء ، لكن هؤلاء قاموا بتدميرها مستعينين بعهد الطغاة الثاني . ونراهـا كفكرة تضمحل وتفنى خلال الثورات البرجوازية التي شهدها القرن الرابع ، وذلك لأن كل مـــا كان لها استمرار ، جاء بوصفه تدبيرا أو عادة ، او آلة بيـد السلطات البرهية التي يؤول اليها الحكم . لكن الانسان الكلاسيكي لم يتوقف فعلا ، وابداً ، عن التفكير والعيش داخل شكلها ، غير ان احترامها وتبجيلها بوصفها رمزا يستوجب ذلك ، لم يعد لها من العمق ، أشد مما كان للحق الالهي للملوك من احترام وتبجيل في الغرب ، وخاصة بعد ان نجح نابليون تقريبا في ان يجعل سلالته المالكة « اقدم السلالات المالكة في اوروبا . »

زد على ذلك هذه الثورات (الكلاسيكية) لم تتمخض أبـداً عن ولادة أي

شيء ما عدا الحلول المحلية المؤقتة فقط ، وهـذه حالات مألوفـة ابدا ودوماً في التاريخ الكلاسيكي – كما وانه لم تشهد اي شيء يضاهي تلك الانطلاقة الرائعة للثورة الفرنسية التي اندفعت من الباستيل حتى واترلو – كما وان مشاهد هـــذه الثورات كانت اشد فظاعة وهولا من مشاهـــد تلك ، وذلك بسبب ان النهاية الوحيدة الممكنة للمغلوب ، في هذه الحضارة ، لم تكن تمثل في صهره عضويا داخل الحزب الغالب ونظامه ، كما هي الحال في الغرب ، بل في تدميره جذراً وجذعاً وغصناً . ولقد ذبحت طبقات المــــلاك ، في كورسيرا Corcyra (٤٢٧) في أرغوس (٣٧٠) وأبيدت على بكرة أبيهـــا ، وفي ليونتيني (٤٢٢) طردت الطبقات الدنيا هذه الطبقات ونفتها من المدينة ، مما اضطرها الى الاستعانة بالعبيد ، لفترة من الزمن ، على ادارة الشؤون العامة ، حتى ارغمها اخيراً الخوف من ردة ثأرية على النزوح جماعياً الى سيراكوس . وكان المئات من اللاجئين من هـــذه الثورات يغرقون المدن باعدادهم ، ويقطعون الطرق البرية والبحرية ، ويجندون الجيوش المرتزقة لعهد الطغاة الثاني . وان الموافقـــة على عودة المنفيين في شروط الصلح التي عرضهـــا الديادوتشي ، والرومان فيما بعد هي ملمح ظاهر وراسخ . لكن عهد الطغاة الثاني ضمن مراكزه بواسطة اعمال من هذا النوع . ولقـد قام ديونسيوس الاول (٤٠٧ – ٣٦٧) بتأمين سيادته على سيراكوس – هـــذه المدينة التي اجتمع حول مجتمعها الارقى ، كما اجتمع حول مجتمع اثينا الاعلى ، أنضج ما عرفته حضارة هيلاس ، وهي المدينة التي وضع فيها اشيلوس ثالوثها[1] الفارسية في عام ٤٧٠ – قام بتنفيذ اعدامات جماعية ، بالمثقفين وبمصادرة ممتلكاتهم ، ثم أتبع هذين الاجرائين باعادة بناء تركيب السكان تركيباً كاملاً في جدتـــه ، فخلق المستويات العليا منـــه ، بواسطة منحه لانصاره ممتلكات ضخمة وثروات

---

(١) – Trilagy رواية تمثيلية ذات فصول ثلاثة .

– المترجم –

وفيرة ، ثم انشأ المستويات الدنيا بمنحه حقوق الرعوية لجماهير غفيرة من العبيد ، وبتوزيعه بنـــات ضحاياه وزوجاتهم عليهم (وهذا امر لم يكن مستهجناً أو غير مألوف) .

وهذا الاسلوب لهذه الثورات لم ينتج ، تقيدا منـــه بالطراز الكلاسيكي الخاص المميز ، سوى زيادة في العدد ، ولم ينجم عنـــه ابداً اتساع في الحدود والتخوم . ولقد شهد العالم الكلاسيكي جمهرة غفيرة من هذه الثورات ، لكن كل ثورة منها كانت تنطلق مستقلة تماماً بذاتها عن الثورات الاخرى ، وتنشب في النقطة ، الخاصة بهـا ، وان الواقعة الوحيدة التي تجعلها تتخذ طابع الظاهرة الجماعية ، هذه الظاهرة التي تمثل حقبة تاريخية ، أقول ان هـــذه الواقعة تتمثل في كون هذه الثورات ثورات متعاصرة . وحال النابليونية متشابهة وهـذه . فهنا نرى ايضاً ولأول مرة ، نظام حكم لا شكل له يرتفع بنفسه فوق اطار الدولة ، ومع ذلك لا يستطيع ان يحقق انفصاله الباطني التام عن هـــذا الاطار . لقد ارتكز على مناصرة الجيش الذي بدأ ، تواجها والشعب الفاقد « لشكله » يشعر بذاتيته على انها قوة مستقلة . وهذه هي الطريق القصيرة من روبسبير الى نابليون - فبسقوط اليعاقبة انتقل مركز الثقل من موظفي الادارات العامة الى الجنرالات الطموحين . والى اي حد من عمق ركزت هذه النزعة الجديدة ذاتها في الغرب ، فهذا مـا نستطيع ان نستقرئه من مثلي برنادوت وولنغتون ، ونستطيع ان نستخلصه حتى بوضوح اكثر من قصة نداء فريدريك غليوم الثالث ، هـذا النداء الذي وجهه عام ١٨١٣ ، والذي عرف باسم « نداء الى شعبي » ففي هـــذا الحدث كان استمرار السلالة المالكة مهدداً تهديدا خطيرا من العسكريين ، لو لم يستجمع الملك عزمه على الانشقاق عن نابليون .

كما واعلنت المناهضة للدستورية ، مناهضة عهد الطغاة الثاني ، عن ذاتها من خـــلال المركز الذي شغله كل من السيبيادس وليساندر في كل من الجيشين

التابعين لبلديهما خلال المراحل الاخيرة من الحرب البولوبونيزية ، وهو مركز يتنافر والشكل الاساسي لدولة ـ المدينة . فالاول من هذين كان ابتداء بعام ٤١١ ، يرأس سلطات القيادة الواقعية للبحرية اليونانية ، بالرغم من انه لم يكن في هذا المنصب الرسمي لانه كان منفيا ، اما الثاني ، فلقد كان يشعر وهو على رأس جيش شديد الولاء لشخصه ، بأنه مستقل استقلالا تاما ، بالرغم من انه لم يكن حتى اسبرطيا . وقد اتخذت المنافسة ، في عام ٤٠٨ ، بين هاتين الدولتين على السيادة على عالم ايجيا ، شكل المنافسة بين هاتين الشخصيتين . وبعد هذا العام بقليل ، قام ديونسيوس حاكم سيراكوس بانشاء جيش محترف غفير العدد ، وعلى نطاق واسع ، وادخل آلات الحرب (المدفعية) على اسلحته ـ وجاء هذا الجيش المحترف شكلا جديدا حيث اصبح فيما بعد نموذجا للديادوتشي ولروما ايضا . ومنذ هذا التاريخ فما بعده ، اصبحت روح الجيش قوة سياسية ، بحد ذاتها ؛ وأصبحت القضية الخطيرة تمثل في السؤال التالي : الى اي حد كانت الدولة هي السيدة الآمرة ، والى اي مدى هي اداة بيد جيشها ؟

وان واقعة كون حكومة روما بأجمعها ومن عام ٢٩٠ ـ ٣٦٧ ، تحت السيطرة الكاملة للجنة العسكرية ، لتظهر بوضوح تام ـ انه كان للجيش سياسة خاصة به ومن المعروف تماماً ان الاسكندر ، رومانتيكي عهد الطغاة الثاني ، كان ينصاع اكثر فاكثر لنفوذ جنرالاته الذين لم يرغموه فقط على التراجع من الهند ، بل انما توزعوا ايضاً تركته فيما بينهم ، بوصف هذا الامر بدهيا تفرضه طبيعة الاشياء .

وهذا العمل هو نابليوني الجوهر ،. وكذلك امتداد السلطان الشخصي فوق مناطق واقاليم لا توحد بينها روابط قومية او قانونية ، بل الادارة العسكرية فقط . ولكن الاتساع كان امرا يتناقض بجوهره ودولة المدينة . فالدولة الكلاسيكية هي الدولة الوحيدة العاجزة عن اي اتساع عضوي ، ولذلك انتهت

فتوحات عهد الطغاة الثاني الى تقرير ذاتها داخل تلاصق لوحدتين سياسيتين ، هما دولة المدينة والمنطقة الخاضعة لسيادتهــا ، وتلاصق هاتين الوحدتين هو تلاصق عرضي طارىء ومهدد في كل لحظة بالخطر . وهكذا نشأت تلك الصورة الغريبة للعالم الهيلنستي الروماني ، والتي لم يعترف احد حتى الآن بعزاها الحقيقي — واعني بهذه دائرة من مناطق الحدود تقع داخلها عرمات من دول المدن التي بالرغم مما كانت عليه من صغر حجم ، أرضاً وسكاناً ، استمر لها المفهوم الخاص بالدولة ، بالشيء العام ، وبقي مرتبطاً بها كما كانت الحال اطلاقاً فيما قبل . وداخل هـــذا الوسط كان يوجد المسرح للسياسة الحقيقية (وذلك لأنــه فيما يتعلق بكل فرد ، فان السيادة كانت فعلاً في نظره تقيم في نقطـــة واحدة) . فدائرة الارض Orbis Terrarum » وهـــذا تعبير عميق المغزى — كانت فقط وسيلة ، او موضوعاً لها . زد على ذلك ان الآراء الرومانية في الامبراطورية - وهي تتمثل في السلطات الديكتاتورية للموظفين الاداريين خارج الخنادق المائية للمدينة (هذه الخنادق التي كانت تردم اوتوماتيكيا حالما يدخل المعتصمون بها الـ Pomoerium) — وارائهم في حكومة المقاطعة الواقعة بعيدا عن روما « Provincia » وهذه هي النقيض (لدولة المدينة) ، للشيء العام ، تعبر بوضوح عن الغريزة الكلاسيكية المشتركة التي لا تعرف الا حجم المدينة بوصفه الدولة ، والذاتية السياسية ، وكل ماهو خارجها ، وعلى ضوء علاقتها به ، بوصفه موضوعاً لها . ولقد حول ديونسيوس مدينته سيراكوس الى قلعة تحيط بها كومة من قصاصات من دول ، ومن هنـا وسع ميدان سلطانه ليشمل ايطاليا العليا وامتلك انكونا وهاتريا Hatria الواقعة على مصب البو . أمـا فيليب المقدوني الذي حـــذا حذو معلمه جانسون اوف فيريا Janosn of Pherae ، (وهذا قتل عام ٣٧٠) فانه سلك الطريق المعاكس لديونسيوس اذ جعل مركز ثقله داخل محيط الدائرة (أي داخل الجيش من الوجهة العملية) ومن هنا مارس سلطانه على عالم من الدول الهيلنية . وهكذا امتدت مقدونية حتى الدانوب ، واضيفت بعـــد وفاة الاسكندر

الامبراطوريتان السلوقية والبطلمية الى هذه الدائرة الخارجيـــة – وكانت كل امبراطورية من هاتين تحكم من دولة مدينة (انطاكية والاسكندرية) ، ولكن تحكم بواسطة جهاز اداري يشغل مناصبه افراد من سكانها الاصليين ، جهاز كانت ادنى مستوياته كفاءة ، أفضل بكثير من أي جهاز اداري كلاسيكي يمكن ان يوجد . كما وان روما ، انشأت في الحقبة ذاتها (قرابة عام ٣٢٦ – ٢٦٥) وفي أرضها الواقعة في وسط ايطاليا دولة حدود ، وامنتها في كل اتجاه بأحاطتها بسلسلة من المستعمرات والحلفاء ومستوطنات لها حقوق لاتينية . ومن ثم نشهد ابتداء بعام ٢٣٧ هملكار يكسب لقرطاجه ، هذه المدينة التي انشئت منذ طويل زمن وفق الاسلوب الكلاسيكي في الحياة ، امبراطورية في اسبانيا ،ونرى ك.فلامينيوس في (عام ٢٢٥) يغزو وادي البو ويضمه الى روما ، واخيراً قيصراً يصنـــع امبراطوريته الغالية . وهذه هي الاسس التي ارتكزت اليها اولاً صراعات الديادوتشي النابليونية في الشرق ، ومعارك تسيبيو وهانيبال في الغرب – وهنا نشهد حدود دولة المدينة تتجاوز نموها الطبيعي في كلتا الحالين – ونشهـــد اخيراً صراعات التريومفيريين القيصرية الذين استندوا الى مناصرة مجموع كل دول الحـــدود ، واستخدموا وسائلها كي يكونوا ه الاوائل في روما . »

- ٧ -

وفي روما ، حافظ شكل الدولة ، هذا الشكل الذي فقهه الشعب بغبطـــة وسرور ، وبلغته الدولة قرابة عام ٣٤٠ ، على بقاء الثورة الاجتماعية داخل الحدود الدستورية . ولقد فشلت شخصية نابليونية ، كأبيوس كلوديوس الرقيب Censor

في عام ٣١٠ ، واول من شق اقنية الماء في المدن ، وطريق أبيان ، وحكم روما كطاغية تقريباً ، اقول سرعان ما فشل هذا عندما حاول ان يستأصل شأفة الفلاحين مستعيناً بجماهير المدينة – الكبرى على ذلك ، بغية ان ينهج النهج الاثيني (نسبة لاثينا) ذا الجانب الواحد في ادارة دفة السياسة – وهذا كان قصده من وراء ادخال ابناء العبيد في مجلس الشيوخ،واعادة تنظيم فئات المئة Ceuturies من الناخبين ، على اساس المال ، بدلاً من قيمة الارض المخمنة ، وفي توزيعه الاشخاص المعتوقين ومن لا ارض لهم بين القبائل الريفية ، وذلك كي تكون لهم اغلبية الاصوات على الفلاحين « وهذه ما كانت تتحقق دائماً » بسبب ندرة حضور الفلاحين » . ولكن خلفاءه في مجلس الرقابة لم يضيعوا طويل زمن لينهجوا عكس نهجه ، اذ سرعان ما اعادوا ثانية من لا ارض له الى قبائل المدينة الكبرى . ولم تر فئات اللاطبقيين ، التي كانت تقودها اقلية من العائلات البارزة قيادة حكيمة، هدفها في تدمير الاجهزة السناتورية للادارات العامة ، بل في الحصول عليها عن طريق الاكتساب « كما سبق لنا ان قلنا » . وفي النهاية تمكن هؤلاء من ان يشقوا طريقهم الى جميع وظائف الدولة « وحتى ان قانون اغلينا Lex Ogulnia قد مكنهم ايضاً من الوصول الى مراتب الاحبار في الكهنوتين Pontifices and Augurs الذين كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي واسع » ، وفي مطلع عام ٢٨٧ استطاعوا ان يجعلوا قانون الاستفتاء ساري المفعول حتى بالرغم من عدم موافقة مجلس الشيوخ .

وجاءت نتائج حركة التحرير « الحرية » هذه على العكس تماماً مما قد يترقبه الايديولوجيون – ففي روما لم يكن هناك وجود لمثل هؤلاء . وجاءت عظمة نجاح هذه الحركة لتسرق من اللاطبقيين هدفهم ، وبهذا جردتهم من القوة الدافعة ، لان هؤلاء لا قيمة لهم مطلقاً ، في الحال الايجابي ، وذلك عندما لا يكونون « في وضع المعارضة » . وبعد عام ٢٨٧ كان وجود شكل الدولة ، قائماً بغية استخدامه سياسياً ، واستخدامه في عالم ، تكون فيه دول السجاف العظيم –

روما ، قرطاجة ، مقدونية ، سوريا ، ومصر ، – هي وحدها ذات القيمة والشأن . فشكل الدولة هذا لم يعد في خطر ليصبح النشاطات السلبية « لحقوق الشعوب » . وهذه الطمأنينة بالذات هي التي اوجدت القاعدة التي يسرت للشعب الواحد الذي بقي في « شكل لائق » كي يرتفع الى مستوى عظمة هذا الشكل وجلاله .

ونشأت داخل العوام اللاشكليين ، والذين اضعف ، منذ طويل زمن ، استنشاق كثيف للحرية ، نبضات العرق فيهم ، اقول نشأت وتطورت داخل هؤلاء مرتبة عليا من طبقة تميز ابناؤها بمهارة سياسية عظمى ، وبمكانة رفيعة ، وبثراء وفير ، وتحالفت هذه المرتبة الماثلة لها من طبقة نبلاء المدينة . ومن هنا نشأت دائرة بالغة الضيق من رجال يتمتعون بأقوى ما للعرق من صفات وسجايا ، وبحياة مهيبة وقورة ، وبنظرة سياسية واسعة ثاقبة ، وفي هذه الدائرة ، تمركز كامل مخزون الخبرة في الحكم والقيادة العسكرية والمفاوضات ، وانتقل اليهم . وهؤلاء كانوا يعتبرون ادارة دفة الدولة المهنة الوحيدة الجديرة بمرتبتهم ، ورأوا في انفسهم ورثة لامتياز ممارستها ، ودربوا اطفالهم ببطء وحزم على فن الحكم ، وغرسوا في نفوسهم الايمان العميق بتقاليد لا حدود فيها للشمم وعزة النفس والفخار . وهذه الطبقة من النبلاء التي لم يكن لها ، على هذا الشكل ، وجود دستوري ، وجدت جهازها الدستوري في مجلس الشيوخ ، الذي كان ، أصلاً ، هيئة تمثل مصالح طبقة نبلاء المدينة ، (واعني بهذه ، الارستقراطية « الهوميرية ») وكان هذا المجلس يضم ، ابتداء من منتصف القرن الرابع ، قناصل سابقين – كانوا حكاماً وقواد جيوش معاً – بوصفهم اعضاء طيلة حياتهم ، فيه وقد شكل هؤلاء مجموعة متماسكة من مواهب رفيعة سامية ، وكانت تسيطر على مجلس الشيوخ ، وتهيمن بواسطته على الدولة . وقد بدأ مجلس الشيوخ حتى ، في عام ٢٨٩ ، في نظر سيناس Cineas سفير بيروس Pyrrhus ، كأنه مجمع من ملوك ، واصبحت اخيراً فئة صغيرة ، من رجال قياديين ، يحملون لقبي برنسيبس

Princeps ، وكلاريسيموس Clarissimus ، لب هـــذا المجلس وجوهره .
وهؤلاء كانوا رجالاً بكل معنى الكلمة - مكانة وسلطة ومهابة شعبيـــة - انهم انداد لاولئك الذين حكموا امبراطوريات الديادوتشي . لقد شهدت روما في عصرهم حكومة لم تشهد مثيلاً لها أية مدينة عالمية عظمى في حضـــارة أخرى مهما كان لونها أو جنسها ، وكانت الحكومة تمتلك تقاليد من المستحيل ان نجد موازيات لها ، ما عدا في البندقية ، وفي كيوريا Curia البابويـــة في العصور الباروكية ، ولكننا نجدها هنا في أوضاع مختلفة تماماً عن تلك . فهنا لم يكن للنظريات وجود ، كتلك النظريات التي دمرت اثينا ، ولم يكن للروح الاقليمية أي أثر أو ملمـــح اطلاقاً ، هذه الروح التي جعلت من اسبرطة ، على المدى الطويل ، دولـة حقيرة مهانة ، بل كانت توجد ممارسة عملية فقط ، وممارسة من طراز جد رفيـع . واذا ما كانت روما ظاهرة عجائبية وفريدة في نوعها تماماً في تاريخ العالم ، فالفضل في هذا لا يعود الى « الشعب » الروماني الذي كان بحد ذاته لا يختلف عن «الشعوب» الكلاسيكية الاخرى ، اذ كان مادة فجة لا شكل لها ، بل انما يعود ويعود الى هذه الطبقة التي ارتفعت بروما الى الوضع اللائق ، وحافظت عليها على هذا الشكل أأرادت روما ذلك أم لم ترده - وجاءت نتيجة ابداع هذه الطبقة متمثلة في كون هذا التيار الخاص من الكينونة ، والذي كان في عام ٣٥٠ لا يزال عديم الأهمية، ما عدا في وسط ايطاليا ، قد استجر تدريجياً الى مجراه كامـــل تاريخ العالم الكلاسيكي ، وجعل الحقبة الكبرى والاخيرة من هذا التاريـــخ حقبة رومانيـــة .

لقد كان الكمال بالذات في الفطنة السياسية التي ابدتها هذه الحلقة الضيقة من الشخصيات (والذين لم يكونوا يشغلون اي منصب رسمي يخولهم قانوناً اتيان ما أتوه) هو الذي تجلى في توجيه الاشكال الديمقراطية التي خلقتها الثورة - اشكال تستمد قيمتها هنا ، كما تستمدها في كل مكان آخر ، من النفع الذي يستخلص منها. وأما العامل الوحيد في هذه الاشكال ، الذي قد يصبح فوراً خطراً اذا ما أسيء

توجيهه – هو تشابك الصلاحيات لسلطتين ، كل سلطة منهما جامعة مانعة لكنهم عالجوا هذا العامل علاجاً رائعاً هادئاً الى درجة كانت عندها للخبرة الارقى كلمة الفصل دائماً ، بينما بقي الشعب قانعاً طيلة هذه الحقبة بان القرارات المتخذة ، انما هو الذي ارادها واتخذها ، وشعوراً تمناها . فلكي تكون واسع الشعبية ، ومع ذلك ناجحاً تاريخياً حتى أرقى درجات النجاح – فعليك بسد هذ السياسة ، وهي فيما يتعلق بهذا الامر ، هي السياسة الممكنة الوحيدة والموجودة بقضها وقضيضها في أزمان كهذه ، انها فن لم يوجد حتى هذا اليوم من يضاهي الرومان فيه .

ومع هذا فنحن نشهد في الجانب الآخر من الصورة ، ان نتيجة الثورة كانت انعتاق المال وتحريره . فمنذ ذاك التاريخ فصاعدا اصبح المال السيد في الـ – Comitia Centuriata اما ذاك الذي يطلق على نفسه اسم « شعب » فلقد امسى هنا ، واكثر فاكثر ، اداة بيد المال الموفور ، وهذا مما استلزم الدوائر الحاكمة ان تبذل كل جهد من تفوق تكتيكي ، بغية الحفاظ على التوازن داخل العوام ، والمحافظة على ان يبقى تمثيل ملاك الارض فعالا نافذ الاثر ، وتحت قيادة العائلات النبيلة من عشائر الريف البالغ عددها ٣١ عشيرة ، والتي كانت لا تزال جماهير المدينة الكبرى مستثناة منها . وهذا هو منشأ تلك الحيوية الفعالة الخشنة التي الغت التدابير التي اتخذها أبيوس كلوديوس . وعلى كل حال ، فلقد جعل التحالف الطبيعي بين دوائر المال العليا وبين الجماهير والمستهدف تدمير تقاليد الدم امراً مستحيلا طيلة اجيال عديدة واجيال ، بالرغم من اننا نراها في وقت لاحق ناشطة فعالة ، (وخاصة في عصر الغراتشي وماريوس) . فلقد حافظ البرجوازيون وملاك الاراضي ، المال وملكية الارض ، على توازن متعادل في نظامين منفصل الواحد منهما عن الآخر ، وقد امسكت بهما معا فكرة الدولة (وهي تجسيد للنبلاء (وجعلتهما منتجين فعالين ، حتى تناثر هذا الشكل الباطني شظايا ومزقاً ، وانفصلت النزعة الاولى عن الثانية انفصالا عدائيا حاقدا .

لقد كانت الحرب البونية الاولى حربا شنها التجار على مصالح المزارعين ،

ولهذا السبب قدم القنصل ابيوس كلوديوس (سليل الرقيب العظيم) ، في عام ٢٨٤ ، قرار هذه الحرب الى الـ – Comitia Centuriata . ومن جهة اخرى ، جاء فتح وادي البو واحتلاله في صالح الفلاحين ، ولهذا قدم التريبيون فلامينيوس قراره الى الـ - Comita Tributa – وفلامينيوس هذا هو اول نموذج اصيل في قيصريتـه في التاريخ الروماني ، وهو الذي شق طريق فلامينيا وشيد سيرك فلامينيوس . ولكنه ، واستمرارا في سياسته ، عندما قام فحرم على اعضاء مجلس الشيوخ الاشتغال في التجارة ، وجعل في الوقت ذاته طبقة قواد المئة Centuries النبيلة القديمة مقبولة للعوام ، فانما كان يخدم عمليا مصالح طبقة نبلاء مالية جديدة فقط طبقة مرحلة الحرب البونية الاولى ، وبهذا أصبح (رغما عنه تماما) مبدعا لمالية رفيعة ، ومنظمة بوصفها طبقة (منزلة) اجتماعية – هي طبقة الفرسان في الجيش الروماني ، الذين وضعوا ، بعد قرن ، نهاية لطبقة النبلاء . ومنذ هـــذا التاريخ فصاعدا ، وعندما تخلصت روما من كابوس هانيبال (الذي سقط امامه فلامينيوس صريعا في ساحة المعركة) . اصبح للمال وبصورة ثابتـة ، كلمة الفصل ، حتى بالنسبة للحكومة وذلك فيما يتعلق بتنفيذ سياستها – وهي آخر دولة حقيقية قدر للعالم الكلاسيكي ان يعرفها .

وعندما لم يعـــد السيبيون « نسبة سيبيو » ودائرتهم هم النفوذ المسيطر على الحكم ، لم يبق اي شيء ، ما عدا سياسات شخصية لافراد انساقوا وراء مصالحهم الخاصة انسياقا اعمى ، ورأوا في الأربيس تيرارووم Orbis Terrarum ، غنيمة هينة لينة . ولقد اعتبر المؤرخ بوليبيوس « الذي كان ينتمي الى هذه الدائرة » فلامينيوس مجرد قائد دهماء Demagogue ، وعزا اليه كل الكوارث والحبوط التي عرفتها المرحلة الغراتشية . والحق ان هـذا المورخ كان مخطئا كل الخطأ فيما يتعلق بحكمه على مقاصد فلامينيوس واهدافه ، لكنه كان مصيبا ، فيما نجم عن هذه المقاصد من اثر . ففلامينيوس – ككاتو الاسبق الذي طوح ، مدفوعا بحميا المزارع العمياء ، بسيبيو العظيم من اجل سياسته العالمية – فلامينيوس هذا حقق

عكس ما كان يقصده تماما . فالمال حل محل زعامة ـ الدم ، وهي اقل من ثلاثة اجيال ، استأصل شأفة ملاك الاراضي فيها .

وانها لمبة بعيدة الاحتمال والترقب ، من هبـــات الحظ لمصائر الشعوب الكلاسيكية ، ان تكون روما ـ دولة ـ المدينة الوحيدة التي لم تنزل بدستورها خلال الثورة ، اية نازلة ، فخرجت به سليما صحيحا ، بينما ان الحال هي على العكس من ذلك عندنا في الغرب ـ بما لهذا من اشكال لسلاســـل من انساب تضرب جذورها عميقا في الارض وفكرة ديمومة ـ اذ انها لأعجوبة تقريبا ان يقدر اطلاقا لتلك الثورة العنيفة الدامية ان تنفجر ، وان تنشب حتى في مكان واحد ـ ألا وهو باريس . فلم تكن قوة الحكم الفرنسي المطلق ، بل ضعفه هو الذي دفع بالافكار الانكليزية الى الاتحاد والمال في مركب واحد بلغ الانفجار الذي زود شعارات « عصر التنوير » بالشكل الحي ، هذه الشعارات التي جمعت بين الفضيلة والارهاب معا ، بين الحريــــة والاستبداد ، والتي ترددت اصداؤها حتى في الكارثتين اللتين هما دون تلك الثورة رعبـــا وهولا ، كارثتي عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ ، وترددت في الحنين الاشتراكي الاحدث عهدا من هاتـين ، الحنين الى كارثة . ولقد كانت توجـد اكيدا في انكلترا نفسها ، وذلك عندما كانت الارستقراطية تحكمها باطلاقية اشد من اية اطلاقية عرفتها نفسها ، حلقة صغيرة التف اعضاؤها حـــول فوكس وشيردان ، وكانوا متحمسين لافكار الثورة وآرائهـــا ـ وهـذه الافكار كانت جميعـا ذات منابع انكليزية ـ وكان الناس يتحدثون عن حق الانتخاب العام وعن الاصلاح البرلماني . وهذا الامر كان وحده كافيا لان يدفع بكلا الحزبين ، وتحت زعامــــة قطب الهويـغ (بت الاصغر) الى اتخاذ اشد الاجراءات للقضاء على اي وكل محاولة ترمي الى اقـــل تدخل في نظام الحكم الارستقراطي لصالح البرجوازية . فطبقة النبلاء الانكليزية عندما فجرت حرب العشرين عاما ضد فرنسا لم تكن تستهدف اسقاط نابليون ، بل كانت تهدف الى التطويح بالثورة ووضع نهاية لها ـ هذه الثورة التي كان لها

الاقدام الساذج على ادخال آراء شخصية لمفكرين انكليز في السياسة العملية ، بغية ان تعطي مركزا لدولة الطبقة الثالثة ، حيث كانت نتائجها مقدرة مسبقا في كواليس السياسة البريطانية ومراديبها ، وجاء تقديرها هذا على صورة افضل ، بسبب كون صالونات باريس قد سهت عن هذه النتائج واغفلت امرها .

ان ما كان يدعى في انكلترا « بالمعارضة » - هو موقف واحد من الحزبين الارستقراطيين بينما يكون الحزب الثاني قائما بادارة الحكومة . فالمعارضة هنا لا تعني ما تعنيه في جميع دول القارة الاوروبية ، اي النقد المحترف لعمل هو حرفة لانسان ما آخر ، بل تعني الاجتهاد العملي في ان ترغم نشاط الحكومة على الدخول داخل شكل وجدت المعارضة نفسها فيه مستعدة وصالحة لتتسلم منها مقاليد الحكم وتضطلع به . ولكن هذه المعارضة قد اتخذت فورا - واتخذت بجهل مطبق بفرضياتها الاجتماعية - بوصفها ذاك النموذج الذي كان يهدف المثقفون في فرنسا ، وغيرها من الدول ، الى ابداعه ، اي السيطرة الطبقية للطبقة الثالثة تحت بصر السلالة المالكة ، ولم يشكل هؤلاء اية فكرة واضحة عن مستقبل هذه السلالة . وكانت الصفات الانكليزية ، ابتداء بمونتسكيو فما بعده ، يسبح بحمدها سوء فهم حماسي منفعل - بالرغم من ان هذه البلدان الاوروبية كانت تفتقر الى الشرط الاول للتطور « الانكليزي » ، وذلك بسبب عدم كونها جزائر . فلقد كانت انكلترا نموذجا صحيحا في نقطة واحدة فقط . فعندما بلغ البرجوازيون ذاك الشوط من الطريق كي يحولوا الدولة المطلقة ، ثانية الى دولة منزلية اجتماعية ، وجدوا هناك صورة لم تكن ابداً في الواقع الا ما كانته . نعم ان الارستقراطية وحدها هي التي كانت تحكم داخل هذه الصورة - ولكنها لم تكن على الاقل هي التاج .

ان نتيجة هذا المنعطف الحقبي ، او مآل الشكل الاساسي لدول القارة الاوروبية ، هي ، « الملكية الدستورية » في بداية المدنية ، وان اقصى امكانية لما هي تلك التي تتبدى على شكل ما ندعوه اليوم بالجمهورية . ولهذا من

الضروري ان نتخلص الى الابد من تمتمات المذهبيين ووشوشاتهم ، هؤلاء الذين تركيبهم مفاهيم معدومـــة الزمان ، وهي لذلك غير واقعية ، والذين تكون الجمهورية في نظرهم شكلاً قائماً بذاته . وما اوجه الشبه بين المثل الجمهوري الاعلى وبين المثل الاعلى الكلاسيكي للشيء المشاع ، او حتى البندقية او الكانتون السويسري الاصل ، بأكثر من اوجـــه الشبه بين الدستور الانكليزي وبين « اي دستور » وفق مفهوم القارة الاوروبية . ان ذاك الذي ندعوه نحـــن بالجمهورية ، هو نفي يفترض بالضرورة الباطنية ان الشيء الذي ينفيه هو امكانية قائمة وموجودة ابداً . والجمهورية هي اللاملكية في اشكال مقتبسة من الملكية . فالحس بالتسلسل السلالي حسن هائل القوة داخل الجنس البشري الغربي ، فهو يجهد ضميره الى حد يتعلل عنده بأن السلالة المالكة تقرر سلوكه السياسي حتى عندما لا يعود لهذه اي وجود اطلاقاً . فالتاريخي يكتنف هذا الحس ويكمن متحداً فيه ، ونحن لا نستطيع ان نعيش حياة لا تاريخية . وانه والحق لفرق كبير في عما اذا كان مبدأ السلالة المالكة لا يعبر عن اي شيء اطلاقاً للشعور الباطني للانسان ، كما هي الحال في العالم الكلاسيكي ، او ان فيه من الحقيقة مـــا يكفي ليرغم ستة اجيال من المثقفين على محاربته وكبحه داخل ذواتهم ، كما هي الحال عندنا في الغرب . ان الشعور هو العدو الخفي لكل الدساتير التي تكون مناهج ومخططات وليست نمـــوا ، فهي بعد كل تحليل ، ليست سوى اجراءات دفاعية اوحى بهـــا الخوف والارتياب . فالمفهوم الحضري للحرية - الحرية من شيء ما - يقلص ذاته حتى يصبح مغزى مناهضة للسلالة المالكة فقط ، والحماس الجمهوري لا يعيش فقط الا على هذا الشعور .

ونفي كهذا يشتمل حتما على ترجيح النظرية ورجحانها ، بينما ان مبدأ السلالة المالكة ودبلوماسيته المتجانسة واياه تجانساً وثيقاً ، وتعود معه الى اصل واحد ، يحفظان التقاليد القديمة والنبض ، فالدساتير تحتوي على حمل مرهف من المناهج والقراءات الكثيرة الحفظ والقليلة الفهم Bookishness ، والمفاهيم «المبروزة» -

وعلى شكل غير معقول ابدا لدى انكلترا حيث لا يلازم شكل الحكومة فيهـــا اي شيء دفاعي او انكاري . وليس كون الحضارة الفاوستية ، حضارة متفوقة في القراءة والكتابة ، بأمر دون مغزى . فالكتاب المطبوع هو شعار اللانهائية الزمانية ، بينما ان الصحافة هي عنوان اللانهائية الفراغية . وتبدو المدنية الصينية ، تباينا وقوة هذين الرمزين وطغيانها الماثلين ، كأنها فارغة تقريباً من الكتابة . ففي الدساتير توضع المؤلفات والمصنفات في الميدان ضد معارضة الناس والاشياء ، واللغــة ضد العرق ، والحق التجريدي ضد التقليد الناجح ــ وذلك بغض النظر عما اذا كانت الامة المستغرقـــة في تيار الاحداث لا تزال قادرة على العمل والحفاظ على شكلها » . لقد كان ميرابو وحيداً تماماً وغير ناجح في صراعه ضد الجمعية الوطنية التي تخلط بين السياسة والخيـــال » . ولم تكن تلك الدساتير العقائدية الثلاثة في تلك الحقبـــة ــ الدستور الفرنسي عام ١٧٩١ والدستوران الالمانيان الصادران في عامي ١٨٤٨ و ١٩١٩ ــ هي وحدهـا التي اغمضت عيونها عن المصير العظيم في عالم الامر الواقع وتوهمت ان اغماضها عنه هو والتغلب عليه سواء بسواء ، بل كانت ايضاً كذلك جميع المحاولات المماثلة لهذه . وتحكم هنـا السببية بدلا من الاحداث غـــير المنظورة ، كصدف من الشخصيات القوية والاوضاع الطاغية مثلا ، وهذه السببية هي تلاصق عقلاني لا يتبدل ابداً من علة ومعلول . وانه لأمر ذو دلالة ومغزى ان لا يكون هناك اي دستور مكتوب يعرف المال بوصفه قوة سياسية . والنظرية المجردة هي التي تحتوي عليهـــا هذه الدساتير جملة وتفصيلا .

ان هذا الفتق في جوهر الملكية الدستورية غير قابل للرتق . فهنـــا يتعارض تعارضاً جبهياً مـــا هو واقعي وما هو نظري ، العمل والنقد ، واحتكاكهما المشترك هو الذي يشكل ما يسميه الانسان العادي الثقافـــة بالسياسة الداخلية . وما خلا المانيا بروسيا والنمسا ــ حيث خرجت في هاتين الدولتين اول الدساتير الى الوجود ، لكن لم يكن لدستوريهما ابداً نفوذ شديد ازاء التقاليد السياسية

الاقدم عهدا – كانت بريطانيا هي وحدها التي حافظت في ممارستها للحكم على حكومة متجانسة . فهنا تمسك العرق واحتفظ بما له ضد المبدأ . وكان لدى الناس اكثر من لمحة من فهم ان السياسة الحقيقية ، السياسة الهادفة الى تحقيق نجاحات تاريخية ، هي قضية تدريب وليست قضية تشكيل . وهـذا لم يكن اعتراضاً ارستقراطياً ، بل واقعة كونية تتبدى في خـبرة اي مدرب انكليزي لخيول السباق ، بوضوح اشد بكثير من وضوح جميع المناهج الفلسفية في العالم . فبمقدور التشكيل ان يصقل التدريب ، ولكن ليس باستطاعته ان يحـل محله . وهكذا اصبح المجتمع الارقى في انكلترا ، ايتون وباليول Balliol ، ميداني التدريب حيث يجري فيها اعداد السياسيين بيقين ماحاح مثابر ، لا نجـد له مثيلاً الا في تدريب الضباط البروسيين – اي انهم يدربون بوصفهم خـبراء واساتذة للنبض الجوهري للاشياء (ولا يستثنى من هذا المجرى الخفي للاراء والفكر) . ولمـا كانوا قد أعدوا على هذا الشكل ، لذلك كان باستطاعتهم ان يقفوا ، خلال ذاك الطوفان الهائل من المبادىء الثورية البرجوازية التي غمرت سيولها الاعوام التالية لعام ١٨٣٢ ، فيحافظون ويسيطرون على مجرى الكينونة الذي كانوا يوجهونه .
لقد كانوا يمتلكون مرونة الفارس وتحفزه ، ومثل هذا الفارس يشعر وهو على صهوة جواد كريم ، بالنصر يزحف نحوه أقرب فأقرب . لقـد سمحوا للمبادىء العظمى بأن تحرك الجماهير لانهم كانوا يعلمون حق العلم بأن المال هو « الـ – بناء وبناء عليه » وهو الذي ينفخ في المبادىء الكبرى فتدب فيها روح الحركة ، وقد استبدلوا اساليب القرن الثامن عشر المرعبـة الوحشية ، بأساليب مهذبة مصقولة لكنها لم تكن أقل تأثيرا من تلك – وابسط احد هذه الاساليب هو ان يهددوا معارضيهم بنفقات حملة انتخابية جديدة . اما الدساتير العقائدية في القارة الاوروبية فانها لم تر الا جانباً واحداً من ديمقراطية الامر الواقع . وهنا ، حيث لم يكن من وجود لدستور ، بـل رجال « في وضع لائق » شوهدت هـذه الديمقراطية بوصفها كلا متكاملاً .

ولكن القارة الاوروبية لم تفقد تماماً وابدا شعورا غامضا بكل هـذا . فلقد كان للدولة المطلقة في الحقبة الباروكية شكل واضح كل الوضوح ، ولكن لم تكن توجد « الملكية الدستورية » سوى حلول وسطى متقلبة وغير ثابتة ، فكان هناك حزب محافظ وآخر ليبرالي — ولم تكن حال هذين كحال الحزبـين في انكلترا بعد كاننغ ، اي اسلوبين مختلفين لحرفة ، اسلوبين مجربـين للحكومة ، ويطبقان بصورة متناوبة على العمل الواقعي للحكم بل كانت حالهما مرهونـة باتجاه رغبة كل منهما لتعديل الدستور — اي هـل يتجه بالتعديل نحو التقاليد او نحو النظرية . وهل يتوجب على البرلمان ان يخـدم السلالة المالكة ام العكس بالعكس ! هذا كان الجوهر الذي يدور حوله كل نزاع ، ولقد نسيا في خلافهما حوله ان السياسة الخارجية هي الهدف النهائي . ان الجانب « الاسباني » والجانب المنعوت خطأ « بالانكليزي » للدستور لا يريدان ولا يستطيعان ان ينموا معاً ، وهكذا حدث ، في القرن الثـامن عشر ، ان سلكت الدبلوماسية في الخارج ، والنشاط البرلماني في الداخل طريقين متباعدتين . واصبح كل منهما داخل شعوره الجوهري غريبا عن الاخر ويبـادله احتقارا باحتقار . واخذت الحيـاة تمور وتضطرب حتى التفجع الوجيع داخل شكل لم ينشأ ويتطور منها . وخضعت فرنسا بعد شهر ثرميدور لقانون البورصة ، فكانت تلطف من حالهـا باقامة دكتاتورية عسكرية بـين حين وآخر (١٨٠٠ ، ١٨٥١ ، ١٨٧١ ، ١٩١٨) وكان ابداع بسمارك ، بأجزائه الجوهرية ، ذا طبيعة سلاليـة ملكية يردفها مركب برلماني ذو اهمية ثانوية بالتأكيد ، ولكن التعشق الاحتكاكي Friction الباطني داخله كان شديدا الى درجة استأثر عندهـا بكل نشاط ممكن وموجود واخيرا استنفد بعد عام ١٩١٦ النظام نفسه . اما الجيش فلقـد كان له تاريخه الخـاص ، وتقاليده التي تعود فتبلغ فريدريك غليوم الاول ، وكذلك كانت الادارات العامة للدولة . وهذه والجيش كانت منبع الاشتراكية بوصفها نوعاً واحدا من « التدريب » السياسي الحقيقي ، لكنه كان تدريباً متضادا قطرياً والتدريب الانكليزي ، غير انه كان مثله مليئاً بتعبير مفعم عن نوعية عرق قوية .

لقد كان الضباط والموظفون مدربين تدريبا عاليا . ولكن لم يعترف أحد بالضرورة القاضية باستيلاء وتأصيل طراز سياسي متجانس وهؤلاء . فلقد كانوا يعالجون السياسة العليا علاجاً « ادارياً » أما السياسة الثانوية فكانت نزاعاً ميؤوساً منه . وهكذا أصبح أخيراً الجيش والادارة العامة هدفين ذاتيهما ، وذلك بعد أن عزل بسمارك من منصبه ، اختفى الرجل الوحيد الذي كان ، حتى بدون مساندة الساسة الحقيقيين له ، فيه من العظمة ما يكفي ليعامل الجيش والادارة معاً بوصفهما اداتين للسياسة (وهذا أمر لا يستطيع الا التقاليد ان تكون منه الام والوالد) . وعندما أزاحت نتيجة الحرب العالمية (الاولى ـ المترجم) المراتب الطبقية العليا ، لم يبق من شيء ، سوى أحزاب ثقفت من أجل المعارضة وحدها ، وهذه هبطت بنشاط الحكومة الى درك لم تهبط اليه في أية مدنية أخرى حتى اليوم .

ولكن البرلمانية ، هي اليوم ، في حال من انحطاط كامل . فهذه كانت استمراراً للثورة البرجوازية بوسائل اخرى ، انها ثورة الطبقة الثالثة لعام ١٧٨٩ التي صيغ لها شكل قانوني ، واتحدت مع مناهضتها ، السلالة الملكية ، كوحدة حكومية . فكل انتخاب عام حديث هو ، في الواقع ، حرب أهلية سلاحها صناديق الاقتراع ، وكل تحريض مكتوب ، وزعيم حزب كبير ، هما نوعان من نابليون . وفي هذا الشكل المقصود ان يبقى صحيحاً ومشروعاً حتى اللا نهاية ، والذي هو خاص بالحضارة الغربية ، ويكون سخفاً وهراء ومستحيلاً في اية حضارة أخرى ، نبصر مرة اخرى نزعتنا المميزة الى اللا نهائية ، الى بعد النظر التاريخي ، والتوجس وارادة تنظيم المستقبل البعيد وفق المستويات البرجوازية للحاضر ، وذلك فيما يتعلق بهذا الامر .

ومع ذلك ، فليست البرلمانية قمة ، كما ان دولة ـ المدينة المطلقة والدولة الباروكية لم تكونا قمتين بل ان البرلمانية هي مرحلة انتقال قصيرة ـ بين الحقبة

المتأخرة من الحضارة بما لهذه الحقبة من اشكال ناضجة وبين عصر الافراد العظام في عالم لا شكل له . وهي تحتوي على ثقل من الحقبة البارو كية الطيبة ، شأنها في ذلك شأن المنازل والرياش في النصف الأول من القرن التاسع عشر . والعـــادة البرلمانية هي فن ر كو كو انكليزي - لكنها لم تعد ر كو كو لا تعي ذاتهـا اذ انها في الدم ، بل انها ابتـكار سطحي متصنع وتحت رحمة حسن الاستعداد . ولها فقط في المراحل القصيرة من الحماسات الأولى مظهر من عمق وديمومة ، وذلك لانه آنذاك فقط يحتم عليها الاحترام للمرتبة التي اكتسبها أحدهم حديثاً ، ان تقتبس سجايا الطبقة المغلوبة واخلاقها . وان المحافظة على الشكل ، حتى عندمـــا يتناقض والمنفعة ، هي التقليد الذي يجعل البرلمانية وضعاً ممكناً . ولكن عندمـا يلاحظ هذا التقليد ويعرف با كمله ، فان واقعه هذا بالذات ، وهذه هي حاله ، يعني ان جوهر البرلمانية قد تبخر وتلاشى منذ زمن. وهنا يتناثر اللا طبقيون «اللا منزليون» ثانية الى مجموعات طبيعية من مصالح ، وتخمد عاطفة الدفاع العنيـــد والمنتصر . وحالما لا يعود الشكل يمتلك قوة اجتذاب لمثل أعلى فتي نضـــير يدعو الناس ويحشدهم في المتاريس ، فعندئذ ستطل بوجوهها الوسائل اللا برلمانية لبلوغ الهدف بدون « وحتى بالرغم من » صناديق الاقتراع - وهذه الوسائل هي المال والضغط الاقتصادي ، واهم من هذين الاضراب . ولا تكن جماهير المدينة العالمية العظمى ولا الافراد الاقوياء أي احترام حقيقي لهذا الشكل الذي لا مـاض له أو عمق ، وعندما يكتشفون ان هذا هو شكل **فقط** ، عندئذ يكون قد أصبح علامـــة وظلا . وان البرلمانية « وحتى الانكليزية » أخذت ، مع مطلع القرن العشرين ، تجنح جنوحاً سريعاً نحو القيام بالدور الذي ، كان في احد الايام ، مناطـــاً بالملكية.وهي تصبح اليوم مشهداً دافعاً مؤثراً بالنسبة للجمهرة من الارثوذكس، وذلك بينما أن مركز ثقل السياسة الضخمة الذي كان قد انتقل بصورة دائمـة De jure من التاج الى ممثلي الشعب ، ينتقل الآن بشكل واقـع De facto من هؤلاء الى مجموعات من اللا رسميين والى ارادة شخصيات غير رسميـــة . ولقد أنجزت ، تقريباً ، الحرب العالمية « الاولى - المترجم » هذا التطور . وليس هناك

من طريق للعودة الى البرلمانية القديمة ابتداء بسيطرة لويد جورج ونابليونية العسكريين الفرنسيين . أما بالنسبة لاميركا التي كانت لا تزال حتى الآن بعيدة منعزلة ، ومنطوية على نفسها ، وكانت منطقة اكثر من كونها دولة ، فان توازية رئيس الجمهورية والكونغرس التي اقتبستها من احدى نظريات مونتسكيو قد أصبحت بدخولها ميدان السياسة الدولية ، امراً لا بدافع عنه ، ولذلك يتوجب عليها في اوقات الخطر الواقعي ، ان تفسح الطريق لقوى معدومة الشكل ، كتلك القوى التي ألفتها المكسيك واميركا الجنوبية منذ طويل زمن .

- ٨ -

وبهذا يدخل عصر الاصطدامات العملاقة الذي نجد انفسنا فيه اليوم . وهو انتقال من النابليونية الى القيصرية ، وطور عام من أطوار التطور ، وتسود على الاقل قرنين من الاعوام ، ويمكن لنا تبيان وجوده في جميع الحضارات . ويسميه الصينيون بـ شان - كوو Shan - Kwo ، أي « مرحلة الدول المتنازعة » (٤٨٠ - ٢٣٠ وتتجانس والمرحلة الكلاسيكية الممتدة بين عامي ٣٠٠ - ٥٠) . ونحن نتعرف هنا في بداية هذا العصر على قوى عظمى سبع ، ونرى هذه القوى تؤول ، في البدء ، ودون ما تخطيط سابق ، ولكن ملاحقة لمقصد يتزايد وضوحاً يوماً بعد يوم ، وتنتهي الى النتيجة النهائية المحتومة لهذا التتالي السريع من الحروب الواسعة والثورات ونشهد ان هذه القوى لا تزال بعد مضي قرن ، قوى خمساً . وفي عام ٤٤١ أصبح الحاكم من السلالة المالكة تشو Chou سجيناً سياسياً لدى « الدوق الشرقي » ، وبذلك لم يعد لما تبقى له من مناطق أي ذكر في التاريخ فيما

بعد . وبدأ في الوقت ذاته النشوء السريع لدولة تسن Tsin « الرومانية » في الغرب الشمالي اللا متفلسف ، ووسعت دائرة نفوذها في اتجـــاه الغرب والجنوب فاشتملت على التيبت ويونان واحاطت بالدول الاخرى بقوس عظيم . وكانت بؤرة المعارضـــة تقع في مملكة تسو في الجنوب الطاووي Taoist حيث كانت المدنية الصينية تضغط منطلقة ببطء الى المناطق الواقعة جنوبـــاً من النهر الكبير والتي كانت لا تزال معروفة قليل معرفة . وهنا يطالعنا فعلاً ، تضاد رومـــا والهيلينستية ـ وهو من الجهة الواحدة ارادة القوة الصلبة الواضحة، وهو من الجهة الاخرى نزوع الى الاحلام واصلاح العالم . وازداد الصدام ، ابتداء بعام ٣٦٨ ـ عام ٣٢٠ ، (وهذه الفترة متجانسة والحرب البونية الثانية) حدة وأمسى صداماً مستمراً عم كامل العالم الصيني ، وقد خاضت غماره جيوش جرارة استحلبت كل قطرة من ضروع السكان .

ويكتب ستزي ـ ما ـ تسين Sze - ma tsien قائلاً : « وعبثاً جند الحلفاء مليوناً من الرجال ، هؤلاء الذين كانوا يسيطرون على مناطق تبلغ مساحتهـــا عشرة اضعاف ما تسيطر عليه دولة تسن ، اذ كانت هذه الدولة تملك دائمـــاً احتياطاً من الجند ، ولقد التهمت هذه الحروب ، منذ نشوبها حتى خمودها مليوناً من الرجال . » وقد قام سو ـ تسن ، الذي بدأ عمله الحكومي بتسلمه لمنصب مستشار دولة تسن ، لكنه أصبح فيما بعد نصيراً لفكرة عصبة الامم (هو ـ تسونغ Hoh - tsung) وانتقل الى صفوف المعارضة ، اقول قام هذا بعقد ائتلافين عظيمين « عام ٣٣٣ و عام ٣٢١ » انهارا ، على كل حال ، في المعـارك الاولى ، بسبب التفكك الداخلي . وكان خصمه العظيم المستشار تشانغ ـ ا Chang - I الاستعماري الصميم ، على وشك ان يخضع العالم الصيني خضوعاً طوعياً ، عندمـا أحبط تبديل طرأ على اشغال سدة العرش مشاريعه الاتحادية . وفي عام ٢٩٤ بدأت حملات بي ـ كي Pe - Ki العسكرية .

وقد خول ملك دولة تسن ، ما اضفت عليه انتصاراتـه من مهابة ووقار

وجلال ، ان يتخذ لنفسه اللقب الغامض ، لقب الامبراطور ، للعصر الاسطوري ، والذي يعني جهارا نهارا المطالبة بحكم العالم ، وهنـا سرعان ما قام حاكم تسي في الشرق ، مقلداً ملك دولة تسن فيا اتخذه . وبهذا بدأ الطور الاقصى للصراعات الحاسمة . واخذ عدد الدول المستقـلة يتناقص تناقصا مستمراً . ففي عام ٢٥٥ اضمحلت حتى دولة لو Lu موطن كونفوشيوس ، وفي عام ٢٤٩ لاقت سلالة شو المالكة نهايتها . وفي عام ٢٤٦ اصبح وانغ – تشنغ الجبـار ، امبراطوراً لدولة تسن وهو لما يتجاوز الثالثة عشرة من العمر ، وقام هـــذا في عام ٢٤١ ، بمساعدة مستشاره لو – شي Lui - Shi ، (ماسيناس الصين) بالجولة الاخيرة ضد آخر خصومه ، امبراطورية تسو ، التي اقدمت على تحديه ، وانتصر عليها . واتخذ له في عام ٢٢١ ، بوصفه الحاكم الاوحد فعلاً لقب شي (اوغسطس) . هذا هو مطلع الحقبة الامبراطورية في الصين .

وليس هناك من حقبة تاريخية تجابه الجنس البشري ببديل للشكل العظيم ، او السلطات الفردية العظمى ، وبوضوح اشد من وضوح « مرحلة الدول المتنازعة هذه » ، وتعرض علينا تلك الدرجـة التي بلغتها الامم في توقفها عن الكون « في وضع لائق » سياسياً ، وتظهر درجة الامكانات المتاحة ، تلك للافراد الاقوياء الفعالين الذين عقدوا النيـة على ان يكونوا مبدين سياسياً ، والذين يريدون الحصول على السلطـة مهما كان ثمنها ، والذين يصبحون بوصفهم ظاهرة لزخم ، مصيراً لأمـــة باجمعها ، او حضارة باكملها . فالاحداث اصبحت اموراً لا يمكن التنبؤ بها اعتمادا على قاعدة الشكل . وهنا نرى بدلاً من التقاليـــد المعنية التي تستطيع ان تستغني عن العبقرية (لأنها هي بالذات زخم كوني من ارقى درجة وطاقة) ، صدفاً من رجال الامر الواقع العظام . فصدفة نشوئهم ترتفع ، بين عشية وضحاها ، بالشعب الضعيف (المقدونيين مثلاً) الى ذروة الاحداث ، كما ويمكن لصدفة موتهم (مثلاً قيصر) ان تهبط فورا بعالم يستقطب النظام فيه فرد الى مهاوي الفوضى وانعدام النظام .

ولقد تجلى هذا فعلاً في اوقات ابكر ، وفي الازمان الحرجـــة من مراحل الانتقال . فحقبات الفروند ، والمنغ – تشو ، وعهد الطغاة الاول ، حينما لم يكن الناس في شكل لائق ، بل كانوا يجتربون على الشكل ، كانت دائما تنجب بعدد من الشخصيات العظيمة الضخمة التي نمت وتضخمت حتى اصبحت اكبر من ان توصف مناصبها او تحدد او تُعرّف . زد على ذلك ان التحول من الحضارة الى المدنيـــة بأنموذجه التابليوني يستطيع ان يفعل هذا الامر ايضاً . ولكن مع هذا التحول الذي هو مقدمـــة اللاشكلية التاريخية التي لا يمكن ان تفتدى ، ينبلج فجر اليوم الحقيقي للافراد العظام . وهذه المرحلة ، بالنسبة لنا نحن معشر الغربيين ، بلغت تقريبا ذروتها في الحرب العالمية (الاولى – المترجم) اما في العالم الكلاسيكي فانها بدأت بهنيبال ، الذي تحدى روما باسم الهيلينية (التي كان ينتمي اليها باطنياً) ، لكنه سقط لأن الشرق الهيليني لم يدرك معنى ساعة الحسم تلك الا بعد فوات الأوان ، او انه لم يدركه اطلاقاً . وبسقوطه بدأ ذاك السياق المعتز الذي يبدأ بتسيبيو مـــاراً باميليوس باولوس ففلامينوس ، فآل كاتو ، فعائلة الغراتشي ، فماريوس فسولا حتى بومباي وقيصر واوغسطس .

وبالمثل ، فلقد تمركزت ، في دولة تسن ، وفي حقبة الدول المتنازعة ، سلسلة من رجال دولة وقادة عسكريين مشابهة لتلك السلسلة من الشخصيات الكلاسيكية التي تمركزت في روما . وتوافقاً والافتقار التـــام الى فهم الجانب السياسي من التاريخ الصيني ، هذا الافتقار المسيطر والسائد الآن ، لقد جرت العادة على ان ينعت هؤلاء بالسفسطائيين . وهم كانوا كذلك ، ولكن فقط بالمعنى ذاتـــه من حيث كون الشخصيات الرومانية في الحقبـــة نفسها ، رواقيين – أي انهم ثقفوا ودربوا على فن خطابة الشرق اليوناني وفلسفته فكل فرد من هذه الشخصيات كان خطيباً مصقولاً مفوها ، وجميعهم كانوا يكتبون بين فينة وفينة في الفلسفة ، وما كتبه قيصر وبروتس في هذا الموضوع كان اقل مما كتبه كاتو وشيشرون فيه ، لكنهم لم يعالجوه بوصفهم فلاسفة محترفين ، بل لأن Otium cum dignitate

كانت عادة الجنتلمان المثقف . وهؤلاء كانوا في ساعات العمل اساتذة الامر الواقع، أكان ذلك في ميدان المعركة أم في حقول السياسة العليا ، والقول ذاته ينطبق كل الانطباق على المستشارين تشانغ - آ وسو - تسن ، وعلى الدبلوماسي المرعب فان - سو Fan - Swi الذي طوح بالجنرال بي - كي ،ووي - يانغ Wei - yang المشترع في تسن ، ولوي - شي ، ماسيناس الأمبراطور الأول وآخرين غيره .

لقد كانت الحضارة سجنت كل طاقاتها داخل شكل صارم ، اما الآن وقد تحررت هذه الطاقات ، فسرعان ما تفجرت « الطبيعة » - أي العامل الكوني - بمكنوناتها . ان التحول من الدولة المطلقة الى مجتمع متعارك محترب من امم ، هو الطابع المميز لبداية كل مدنية ، وليعن هذا التحول في نظر المثاليين والايديولوجيين ما يريدون له ان يعنيه - فهو في عالم الوقائع يعني الانتقال من حكومة تقاليد صارمة وذات اسلوب ونبض الى الـ - Sic volo , sic jubeo لنظام حكومي شخصي متحرر من كل عنان . وان الحد الاقصى من الشكل الرمزي والمغرق في الشخصانية ينطبق على مثله في الحقبة المتأخرة من الحضارة - فلقد شهدته الصين قرابة عام ٦٠٠ ، والعالم الكلاسيكي قرابة ٤٥٠ ، وشاهدناه نحن معشر الغربيين قرابة ١٧٠٠ . أما الحد الادنى منه فيتمثل في سولا وبومباي ، أما نحن فسنبلغه (ولربما تجاوزناه) خلال المئة سنة القادمة . وتتشابك ، في مرحلة الانتقال هذه ، أحوال متباينة ضخمة ونزاعات داخلية وثورات من نوع رهيب ومرعب ، لكن القضايا الأساسية التي هي مدار النزاع في هذه كلها وبدون استثناء « وأكانت مدركة صريحة أم لم تكن » هي في النهاية قضايا السلطة الفردية المجردة وغير الرسمية « او القانونية - المترجم » . ولا يهم اطلاقاً من وجهة النظر التاريخية ، ما الذي استهدفه مثل هؤلاء الافراد في الحقل النظري ، ولسنا بحاجة الى ان نعرف الشعارات التي باسمها تفجرت الثورات من صينية وعربية في هذه المرحلة ، ولا حتى ان نعرف بما اذا كان قد وجد حتى شعارات كهذه .

وليست هناك من ثورة واحدة من ثورات هذه الحقبة التي لا تعد ولا تحصى

« والتي تصبح انفجارات يتزايد عماؤها يوماً بعد يوم ، لجماهير المدن العالميـــة العظمى ، هذه الجماهير المستأصلة الجذور » ـ قد بلغت ابدا ، او حتى توفرت لهـــا الامكانية لبلوغ هدفها . وكل ما يحدث فيها انما هو فقط تدمير متسارع للاشكال القديمة ، يجعل الطريق امام القيصرية خالياً من العقبات والعراقيل .

ولكن هذا الامر نفسه صحيح ايضاً فيما يتعلق بالحروب ، حيث لا تصبح فيها الجيوش ومناهجها التكتيكية ابداعاً للحقبة ، بل تصبح اكثر فاكثر ابداعاً لقواد افراديين غير منضبطين يكونون في كثير من الاحوال قـــد اكتشفوا عبقرياتهم في وقت متأخر جداً او عن طريق الصدفة . فبينما كانت توجد ، في عام ١٠٠٠ جيوش لماريوس وسولا وقيصر ، زد على ذلك ان جيش اوكتافيان الذي كان يتشكل من جند قيصر المتمرس في الحرب ، كان يقود قائده اكثر بكثير من انقياده له . ولكن الحرب وفق مثل هذه المناهج ، والوسائل والاهداف قد اتخذت اشكالاً كاسرة مفترسة , وذات طبيعـــة فجة ، وهـذه الاشكال تختلف اختلافاً كبيراً عن الاشكال التي كانت سائـــدة فيما قبل . ومبارزاتهـا لم تكن مبارزات من طراز الترپانون في القرن الثامن عشر ، هـذه المبارزات التي سادتها الاشكال الفروسية والتزمت بقواعد ثابتة ، تقرر متى يجوز للمبارز ان يعلن عن استنفاد قواه ، واي حد أقصى من القوة يجوز استخدامـــه ، وما هي الشروط التي تسمح بها الشهامة والفروسية للمنتصر ان يفرضها . بل انمـــا كانت معارك حلقات يخوضها رجال غاضبون حانقون ، يستخدمون قبضاتهم واسنانهم ، ويقاتلون حتى ينهار الخصم انهياراً جسمانياً كلياً ، وهنا يستغل المنتصر هـــذا الانهيار دون تحفظ أو كبح ، الى اقصى درجات الاستغلال . واول مثال ضخم « على العودة الى الطبيعة » تقدمه الينا الجيوش الثورية الفرنسية والنابليونيـــة ، حيث كانت هذه الجيوش ، بدلاً من ان تقوم بمناورات اصطناعية تعتمـــد وحدات صغيرة ، تقوم بشن هجمات جماعية لا تعير التفاتاً للخسائر ، وبهـــذا

نسفت الستراتيجية الروكوكية المهذبة ، المصفاة ، ودمرتها تدميراً . فأن تقذف بكامل القوة العضلية للامة الى ميدان القتال ، بواسطة نظام التجنيد العام ، فهذا امر غريب غرابة كلية عن حقبة فريدريك الاكبر .

ومشابهة ، فان تقنية الحرب ، في كل حضارة ، كانت تتبع بخطوات مترددة تقدم الصناعة ، حتى اذا ما تبدى مطلع المدينة ، تنطلق فجأة الى المقدمة وتتسلم زمام القيادة ، وتضع ، دون شفقة او رحمـــة ، امكانات العصر الميكانيكية في خدمتها ، ومن ثم تندفع ، تحت ضغط الضرورة العسكرية لتوجـد حتى ميادين صناعية جديدة لم تستغل بعد ـ لكنها في الوقت ذاته ، تشل الى حد كبير فعالية البطولة الشخصية للعريقين في اصولهم ، وكيف النبلاء Ethos والعقل الحـــاذق للحضارة المتأخرة زمناً . امـــا في العالم الكلاسيكي ، حيث جعلت دولة المدينة وجود الجيوش الجرارة الجماعية امرا مستحيلاً ـ ونظرا للضآلة العامة للاشكال الكلاسيكية ، بما في ذلك التكنيكية منهـــا ، فقد كانت اعـداد الجيوش التي اشتركت في معارك قانية وفيلبي واكتيوم ضخمة واستثنائية في غفارة عددها ـ في هذا العالم ادخل عهد الطغاة الثـــاني (ديونسيوس حاكم سيراكوس) التقنية الميكانيكية على وسائل الحرب وعممها بصورة واسعة . وهنـا أصبح لأول مرة ضرب الحصارات كحصارات رودوس (٣٠٥) وسيراكوس (٢١٣) وقرطاجة (١٤٦) واليسيا (٥٢) امراً ممكناً ، وحيث تبدت الاهمية المتزايدة للسرعة ، حتى بالنسبة للستراتيجية التكنيكية ، واضحة جلية . واتفاقاً وهـذه النزعة كان الفيلق الروماني ، الذي تطور تركيبه المميز في العصر الهيليني فقط ، ينشط كأنه الآلة ، اذا ما قورن بالمليشيا الاثينية والاسبرطية في القرن الخامس . وتطابقاً قاموا في الصين بصنع الاسلحة القاطعة والواخزة ، الطاعنة ، من الحديد ، ابتداء بعام ٤٧٤ ، وحل سلاح الفرسان الخفيف من الطراز المغولي ، محل المركبات الحربية الثقيلة ، واكتسب فجأة حرب القلاع أهمية بارزة . واخيراً اتحدت الرغبة الاساسية للجنس البشري في السرعة والحركة والنتائج والمؤثرات الجماعية ، في عالم

اوروبا واميركا ، مع الادارة الفاوستية للسيطرة عـلى الطبيعة ، وانتجت المناهج الديناميكية للحرب ، هذه المناهج التي كانت ستبدو حتى لفريدريك الاكبر كأنها الجنون بعينه ، لكنها تبدو لنا اليوم ، نظراً لتجاورهـــا الوثيق وتقنيتي النقـل والصناعة طبيعية تماماً . لقد قام نابليون بقطر مدفعيته الى الخيول ، وبهذا جعلها مدفعية بالغة في سرعة حركتها ، (كما وقام بتقسيم جيش الثورة الجماعي الى فيالق متفردة وسهلة التحريك) ، وفي معركتي فاغرام وبورودينو ، كانت فعاليـات هذه الفيالق قد تزايدت تزايداً جسمانيا مجرداً الى درجة مـــا نسميه بالقذف السريع ، وبالقذف الطبلي Drum fire . امـــا المرحلة الثانية – وهذه متميزة بالثورة الاميركية الاهليـــة ١٨٦١ – ٥ ، تميزاً له اشد دلالة واعمق مغزى – والتي ، حتى بما احتوت عليه من عدد من الفيالق التي اشتركت فيها ، قد تجاوزت الى حد بعيد تنظيم حجم الحروب النابليونية وفاقته ضخامة ، وقد استخدمت فيها لأول مرة السكك الحديدية للتحركات العسكرية الكبرى ، وشبكات التلغراف للرسائل ، واسطولا بخاريا يضرب الحصار على الشواطىء ، ويمخر عباب البحار طيلة شهور بدون توقف او كلل ، واستخدمت فيها السفن المسلحة والطوربيد والأسلحة السريعة ، واكتشفت خلالهـا المدفعية العملاقة ذات المرمى اللاقياسي في مـــداه .

أما المرحلة الثالثة فهي تتمثل في الحرب العالمية الثالثة التي كانت فاتحتها الحرب الروسية اليابانية ، وهنـــا استخدمت الغواصة والطائرة ، واصبحت السرعة في الاختراع سلاحاً جديدا بحد ذاته ، وبلغت الوسائل التي استعملت حدها الاقصى (وبالتأكيد ليست شدتها هي التي بلغت هـــذا الحد) . ولكن يتجانس في كل مكان والاسراف في الطاقات هذا ، عسف القرارات وقسوتهـــا . اذ تطالعنا في مستهل بداية مرحلة شان كووو Shan - Kwo الصينية الابادة الكاملة لدولة وو - Wu – وهذا عمل كان سيكون امراً مستحيلا في المرحلة الفروسية السالفة ، مرحلة تشون - تسيو Chun - Tsiu . وقد انتهك نابليون حتى في معاهـدة

صلح كامبيو فورميو حرمة ميثاق القرن الثامن عشر ، وبعد معركة اوسترليتز ادخل مبدأ ممارسة استغلال النجاح العسكري دون اي اعتبار لاي امر آخر ما عدا الحوائل المادية . وجاءت الخطوة الاخيرة والممكنة متمثلة في معاهدة صلح من طراز معاهدة فرساي ، حيث تتعمد هذه المعاهدة ان تتجنب النهائية وتصفية الامور ، وتترك الباب مفتوحا امام كل احتمال لخلق اوضاع جديدة عند كل تبدل يطرأ على الحال . ونحن نرى التطور ذاته يطالعنا من الحروب البونية الثلاث . ففكرة القضاء الكامل على احدى القوى الرئيسية الكبرى في العالم – والتي امست في النهاية فكرة مألوفة لكل واحد نتيجة للالحاح الجاف المتعمد لكاتو على قوله : Ceterum censeo carthaginem esse delendam – هذه الفكرة لم تخطر ابدا على بال المنتصر في معركة زاما ، وبالرغم من كل ما في الاخلاقية الحربية لدول المدن الكلاسيكية من وحشية ، فانها كانت ستبدو في نظر ليساندر ، وهو يقف منتصرا في اثينا ، كفرا وتجديفاً بكل إله .

وتبدأ مرحلة الدول المتنازعة ، بالنسبة للعالم الكلاسيكي ، بمعركة ابسوس (٣٠١) ثالوث القوى الكبرى الشرقية ، وبالانتصار الروماني على الاتروسكان والسمنيت في سانتينوم (٢٩٥) الذي خلق قوة كبرى ايطالية اوسطية الى جانب قرطاجة . ومن ثم نشأ اولا عن التفضيل المميز في كلاسيكيته للاشياء القريبة والراهنة ، وفي عيون كانت مطبقة الاجفان ، عندما انتصرت روما على الجنوب الايطالي خلال مغامرة البايريك Pyrrhic ، ومن ثم البحر خلال الحرب البونية الاولى ، واخيرا الشمال الكلتي بواسطة ك. فلامينيوس . وقد تجاهل الجميع ، ولا يستثنى الرومان انفسهم من هذا القول، اهمية هانيبال ومغزاه (هذا الشخص الذي لربما كان الانسان الوحيد في عصره الذي رأى مجرى الاحداث بجلاء ووضوح) . فالقوى الهيلينستية الشرقية قد هزمت في معركة زاما ، ولم تنهزم قط فيما بعدها ، في ماغنسيا وبدنا Pydna . ولقد حاول عبثاً سقسبيو فيما بعد ان يتجنب كل غزو ، نظراً لقلقة الحقيقي امام مصير كانت ترحف نحوه دولة

مدينة مثقلة الكاهلين بأعباء السيطرة على العالم وفروضها . وعبثا انشبت حاشيته الحرب المقدونية قوة وارغاماً وضد رغبات جميـع الاحزاب ، وانشبتها فقط بغية ان تتمكن فيا بعد من تجاهل الشرق بوصفه مسالماً وعاجزا عن الحاق اي ضرر بروما . ان الاستعمار هو نتاج ضروري بالنسبة لكل مدنية ، ومحتوم الى درجة انه يمسك بالشعب ويدفع به الى القيام بهذا الدور . فالامبراطورية الرومانيـة لم تكن ثمرة غزو او فتح ، ولكن الـ - Orbis terrarum كثفت نفسها داخل ذاك الشكل وارغمت الرومان على ان يطلقوا اسمهم عليها . فهي كلها كلاسيكية وكلاسيكية جداً . فبينا كانت الدول الصينية تدافع حتى عن بقايا استقلالهـــا بضراوة يائس ، وشجاعة مستميت ، اخذت روما ، في اعقاب عام ١٤٦ ، تحول جمهرات الاقاليم الشرقيـــة الى ولايات (تتمتع باستقلال اداري ـ المترجم) Province ، لانها لم تجد من وسيلة اخرى تمكنها من الصمود في وجه الفوضى . وحتى هذا المقدار افضى بشكل روما الباطني — وهذا هو آخر ما بقي قويماً — الى الذوبان خلال الفوضى التي تفشت في العهود الغراتشية . واكثر من ذلك (وهذا امر لا مثيل له في اي مكان آخر) كون الجولات الاخيرة من المعركة على الامبراطورية لم تدر بين دول ، بل بـين احزاب في مدينة — فشكل دولة المدينة لم يكن يسمح بايـــة نتيجة اخرى . فمنذ القدم كانت اسبرطة هي خصم اثينا ، واليوم اصبحت الخصومة بـــين الحزب الارستقراطي والحزب الشعبي . وخلال الثورة الغراتشية التي كانت ارهاصاتها قد تبدت خلال حرب العبيد الاولى (١٣٣) ، اغتيل سراً ستسيبيو الاصغر ، وذبح كـ غراتشوس جهاراً نهارا . والاول بوصفه برنسيب ، والثاني بوصفه تريبيون ، كانا يجد ذاتيهما قطبين سياسيين وسط عالم امسى لا شكل له . وعندما قامت الجماهـير الحضرية في روما لاول مرة ، ومخالفة لكل قانون ، ونصّبت ، اضطراباً وضجيجاً ، فرداً نفرا ، هـــو ماريوس ، امبراطوراً ، فان المغزى الاعمق لهذه الرواية التي مثلت ، يعـــادل مغزى انتحال حاكم تسن ، في عـــام ٢٨٨ ، للقب الاسطوري ، امبراطور . وجاءت النتيجة الحتمية لهذه الحقبة ، قيصرية رسمت فجأة ذاتها في الافق .

خلف ماريوس التريبون ، وحذا حذوه ، فوحد بين الدهماء والطبقة المالية الراقية ، ثم اقدم في عام ٨٧ على القيام بحملات من ابادة جماعية ضد الطبقة الارستقراطية القديمة . وخلف سولا البرنسيب حيث قام هذا في عام ٨٢ ، باستئصال شأفة كبار التجار اعداماً ونفياً وتجريداً من حماية القانون . وبعد هذا الحدث نرى القرارات الحاسمة الختامية تتدافع بسرعة كتدافعها في الصين بعد بروز وانغ - شنغ Wang - Cheng . وكان بومباي البرنسيب ، وقيصر التريبون - والتريبيون هنا ليست منصباً بل اتجاه وموقف - لا يزالان زعيمي حزب ، لكنهما بالرغم من هذا ، كانا يتدبران الامور مع كاسيوس ، في لوتشيا، ومعاً لتقسيم العالم لاول مرة بينهما . وعندما هزم ورثة قيصر قاتليه في فيلبي ، لم تعد الدهماء والطبقة المالية اكثر من مجموعات من افراد . وكان الصراع في معركة اكتيوم يدور بين افراد ، وكان للقيصرية ما تريد حتى في هذه العملية .

ومن البديهي ان يحل الاجماع المجوسي خلال التطور المتجانس هذا ، داخل العالم العربي ، محل دولة المدينة الحجمية ، بوصفه الشكل الاساسي الذي داخله وبواسطته تحقق الوقائع ذواتها ، وهذا الشكل ، ينفي ، كما رأينا ، اي فصل بين النزعة السياسية والنزعة الدينية ، وينكره الى حد يجعل حتى الاندفاع الحضري البرجوازي نحو الحرية (وهو هنا يدل ، كما يدل في كل مكان آخر على بداية مرحلة الدول المتنازعة) يعرض ذاته متنكراً بزي ارثوذكسي ، وهكذا فشل الناس حتى الآن تقريباً في التعرف عليه على هذا الشكل . وقد تبدى هذا الاندفاع كارادة عزمت على التحرر من نظام الخلافة الذي اوجده الساسانيون ، وديوكلتسيان من بعدهم ، في اشكال لدولة اقطاعية . وقد اضطر هذا النظام ، ابتداء بزمني جوستنيان وكسرى انو شروان ، ان يجابه « الفروندين » - الذين كان يقودهم احبار الكنيستين اليونانية والمزديه ، طبقة النبلاء من كل من المزديين الفرس (وخاصة في العراق) واليونان (وخاصة الاسيويين منهم) والفروسية

الراقية في ارمينيا التي كانت منقسمة الى جزئين بسبب الفرق الديني . وجـــاء الاسلام ليدمر فجأة النظام المطلق الذي بلغه هذا الجزء من العالم في القرن السابع. ولقد كان الاسلام في بداياتـه السياسية ارستقراطي الطابع تماماً ، فتلك الحفنة من العائلات العربية التي حافظت في كل مكان ، على بقاء مقاليد الامور بـــين ايديها ، سرعان ما شكلت في البلدان المفتوحة طبقة نبالة ارقى تتمتع بعراقة أصل قوية واكتفاء ذات هائل ينزل بالسلالة المالكة الى المرتبة ذاتهـا التي تنزل طبقتها « المعاصرة » من النبلاء الانكليز بسلالتها اليها . ولقد كانت الحرب الاهلية التي نشبت بين عثمان وعلي (٦٥٦ – ٦٦١) تعبيراً عن الفروندية الحقيقية ، وجاءت كل الحركات التي نشأت عنهـا في صالح فخذين وفي مصلحة مناصري كل منهما . وكان حزب « الهويغ » وحزب « التوري » Tories الاسلاميـــان في القرن السابع هما وحدهما اللذان يمارسان السياسة العليا ، مثلهم في ذلك مثـل الحزبين الانكليزيين في القرن الثامن عشر ، وكانت للنزعات التي نشبت بـــين الخلان والعائلات في هذين الحزبين ، اهمية من وجهة نظر التاريخ اشد ممـا كان لكل الاحداث التي شهدتها العائلة المالكة الاموية (٦٦١ – ٧٥٠) من اهمية .

ولكن ظهر مع سقوط السلالة المالكة المرحة والمثقفة المنـــارة والقابعة في دمشق - اي في الغرب الآرامي وسوريا اليعقوبية – وتبـدى مركز الجاذبية الطبيعي للحضارة العربية من جديد ، انه كان الاقليم الآرامي الشرقي . وهـذا الاقليم كان فيما مضى قاعدة السلطة الساسانية ، وهو الان قاعدة للدولة العباسية لكنه كان دائماً وابداً – وبغض النظر عما اذا كان تشكيله فارسياً او عربياً ، او كان دينه المزدية او النسطورية او الاسلام – يعـــبر عن الخط الواحد والعظيم ذاته للتطور ، وكان نموذجاً لسوريا وبزنطة على حد سواء . ومن الكوفة انطلقت تلك الحركة التي اسفرت عن سقوط الدولة الاموية ، الممثلة للنظام القـــديم Ancien Règime ، وان طابع هذه الحركة – التي لم يلحظ حتى الان كامل سعتها وحجمها – كان طابع الثورة الاجتماعيـــة الموجهة ضد الانظمة الاولية

للمجتمع وضد التقاليد الارستقراطية . وقد بدأت بين الموالي ، طبقة البرجوازية الصغيرة في الشرق ، وانعطفت مسوقة ببساط من عداوة مريرة ضـــد العرب ، لا بوصف هؤلاء أبطال الاسلام والذائدين عن حياضه ، بل بوصفهم طبقـة نبلاء جديدة . وكان الموالي المهتدون حديثاً الى الاسلام ، يتمسكون بشعائره اكثر من تمسك العرب بها ، وكان كل الموالي تقريباً مزدين سابقـين ، لكن العرب كانوا يمثلون بالاضافة الى ذلك مثـــلاً اعلى لطبقة . وحتى جيش علي الذي كان روحاً وجسداً ديمقراطي الفطرة وقراء مطهرين ، دب فيه الانقسام ، ونشاهد في صفوف هذا الجيش لاول مرة ، ذاك المركب من التشايعية المتعصبة ويعقوبية (الثورة الفرنسية ـ المترجم) ولا تبرز ، هنا والان ، فقط النزعـــة الشيعية ، بـــل يتجلى ايضـاً اول نزوع الى الخرميــــة الشيوعية وهـذه حركة بمقدورنا ان نقتفي آثارها عائدين بها حتى مزداك Mazdak ، وهي التي نجمت عنها فيما بعد تلك الانفجارات الواسعة في عهد بابك Babek . وقـد تكون عواطف العباسيين الودية قد اتجهت نحو اي شيء ولكنها لم تكن اكيـــداً مع المتمردين في الكوفــــة ، وبفضل مهارتهم الدبلوماسية فقط سمح بأن يكون لهم موطىء قدم ، كضباط ، ومن ثم استطاعوا ـ كما فعل نابليون تقريباً ان يرثوا الثورة التي عمت الشرق بأكمله . وبعـد ان تحقق لهم النصر قاموا ببناء بغداد ـ وهذه تبدو كأنها مدينة تستزفون قـد بعثت حية ، وهي رمز لسقوط العروبة الاقطاعية ـ واصبحت هذه المدينة العالمية الاولى للمدينة الجديدة ، ابتداء بعـام ٨٠٠ الى عام ١٠٥٠ ، مسرحاً للاحداث التي افضت بالنظام من النابليونيـة الى القيصرية ، اي من الخلافة الى السلطنة ، والتي هي بغداد ، ليست اقل مما هي في بزنطة ، الطراز المجوسي للسلطة التي لا شكل لها ـ وهي انها ايضاً النوع الوحيد الممكن من السلطة .

اذن فعلينا ان نعرف بصورة واضحة بان الديمقراطية في العالم العربي ، كشأنها في اي مكان اخر ، كانت مثلاً أعلى لطبقة ـ انهـا النظرة الفلسفية لأهل المدن

والتعبير عن ارادتهم للتحرر من الروابط القديمة بالارض ، أكانت هـذه الارض صحراء ام ارض حراثة وزراعة . وكان باستطاعـة « الـ ـ لا » التي اجابت على تقاليد الخليفة ان تتنكر في اشكال متعددة تعددا غفيراً جدا ، ولم تكن هناك من ضرورة تحتم على هذه « الـ ـ لا » ان تعمد الى الفكر الحر او تلجـأ الى الدستورية وفق ما نفهمها نحن . فالعقل والمـال المجوسيان هما حران ولكن بشكل يختلف تمامـاً عن شكل حريتهما عندنا . وكانت الرهبنة البزنطية تتمتع بدرجة من الليبرالية تبلغ حدود الشغب والفتن ، وكانت ايضاً توجـه مشاغباتها هذه ضد السلطات الاكليريكية العليا التي كانت قـد اوجدت وطورت نظاماً كهنوتيا (يتجانس والغوطي) حتى مـا قبل مؤتمر نيقية Nicaea . وكان ينظر الى اتحاد (اجماع) المؤمنين ، الى الشعب ، نظرة تفيض بكل معاني الشجاعـة والجرأة ، على انـه شيء اراده الله (ولا شك ان روسو كان سيقول الطبيعة) وهو متساو وحر من جميع قوى الدم . وكان المشهد المشهور لمناشدة الراهب ثيودور الستوديوني للامبراطور ليو الخامس (٨١٣) بمثابـة اقتحام الباستيل في شكل مجوسي . ولم يمض على هـذا الحدث الا القليل من الزمن ، واذ بثورة البولوسيين تنشب ، وهؤلاء كانوا عميقي الورع شديـدي التدين ، ولكنهم متطرفون جذرياً فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية ، وقد انشأوا ، مـا وراء جبال طوروس ، دولة خاصة بهم عاثت الفساد في آسيا الصغرى طولا وعرضاً ، وقـد هزموا جيوش الامبراطور جيشاً بعد جيش ، ولم تتمكن الدولة من اخضاعهم الا في عام ٨٧٤ . وهـذه الحركة تنطبق تماماً على حركة الخرمية الشيوعية الدينية والتي امتدت من دجلة حتى ميرف Merv ، وحيث لم يذعن قائدها بابك ويخضع الا بعـد صراع استمر عشرين عاماً (٨١٧ – ٨٣٧) ، وينطبق ايضاً على تلك انفجـار ثورة القرامطة في الغرب (٨٩٠ - ٩٠٤) والذين كانت ارتباطاتهم تمتد من جزيرة العرب الى جميع المدن السورية وكانوا يحرضون على الثورة وينشرونها بصورة واسعة حتى بلغوا بدعوتهم اليها شاطىء فارس . ولكن الى جانب هذه الثورات كانت لا تزال توجد اشكال تتنكر لمعارك حزبية سياسية

اخرى . وعندما يقولون لنا الان بأن الجيش البزنطي كان جيشاً يحطم الاصنام والايقونات ، وان الحزب العسكري يناهض حزبـــاً من الرهبان يقول بتبجيلها ، عندئذ نبدأ برؤية جدلية الصورة (٧٤٠ – ٨٤٠) على ضوء جديـد تماماً وبادراك ان نهاية ازمة (عام ٨٤٣) – بالهزيمـــة النهائية لمحطمي الاصنام والايقونات وسياسة الرهبان الهادفة الى كنيسة حرة – تمثل في مغزاهـــا عودة الملكية الى فرنسا في عام ١٨١٥ بكل ما للكلمة من معنى . واخيراً فان هـذه الحقبة هي ايضاً زمن ثورة الزنج المرعبـــة التي نشبت في العراق – لب الدولة العباسية وجوهرهـــا – وهذه الثورة تلقي فجأة بأضواء على سلسلة اخرى من الاضطرابات الاجتماعية. قام علي(بن محمد) عام ٨٦٩ سبارتكوس الاسلام،بتأسيس دولة صحيحة للزنج تقع الى الجنوب من بغداد،وقد كان سكانها يتألفون من الفارين والشاردين ، وشيد لنفسه عاصمة عرفت باسم المختارة ، ثم وسع سلطانه باتجـاه جزيرة العرب وبلاد فارس معاً،حيث لاقى معاضدة قوية من قبائل بكامل افخاذها وبطونها . وفي عام ٨٧١ شن الزنج على البصرة ، اول ميناء اسلامي عظيم والبالغ عدد سكانه آنذاك المليون من النفوس واقتحموها واستولوا عليها واعملوا فيها المذابح ثم احرقوها ودكوا مبانيها دكاً . ولم تتمكن الدولة العباسية من تدمير دولة الزنج هذه الا في عام ٨٨٣ .

وهكذا أفرغت ، ببطء ، الاشكال الساسانية والبزنطيـــة من محتوياتها ، ونشأت محـــل التقاليد الارقى للنبلاء وكبار الموظفين ، تلك السلطة الفردية اللامنطقية والمستأثرة كلياً بمقاليـــد الامور ، سلطة العباقرة الذين انجبت بهم الصدفة – سلطة السلطنة . وذلك لان هـذه هي الشكل العربي الخاص ، وهو يتبدى في وقت واحد في بزنطة وبغداد ، ويتخذ مجراه الثابت انطلاقـــاً من البدايات النابليونية قرابة عام ٨٠٠ ، ويكتمل في قيصرية السلاجقـة الاتراك قرابة عام ١٩٥٠ . وهكذا الشكل هو مجوسي الجوهر والمظهر ، وهو ينتمي فقط الى الحضارة العربية ، وهو شكل لا يمكن للمرء ان يدركه دون ان يكون

على اطلاع على اكثف بديهيات نفسه جوهرا ونظام الخلافة هو مركب من نبض سياسي « كي لا نقول كوني » واسلوب ، هذا النظـــام لم يلغ – وذلك لان الخليفة بوصفه ممثلا لله ومعترفاً به الاتحاد « الاجماع » هو شخص مقدس – لكن هذا النظام جرد من جميع السلطات التي احتاجت القيصرية الى امتلاكها ، كما هي الحال وبومبي واغسطس وسولا وقيصر حينما قام هؤلاء قولا وفعلاً باستخلاص تلك السلطات من الاشكال الدستورية القديمة لروما . اذ انه لم يبق في النهـــاية للخليفة من القوة ، الا ما بقي لمجلس الشيوخ والـ Comitias منها في عهـــد تيبريوس . وقد أمسى كل ذاك الثراء الموفور للكينونة من القانون، والعرف والاخلاقية – والذي كان في سالف الايام رمزاً ، أمسى الآن مجرد زخارف تغطي نظام حكم لا شكل له ، لكنه مجرد في واقعيته .

وهكذا نجد الى جانب ميخائيل الثالث (٨٤٢ – ٨٦٧) بارداس ونشهد الى جانب قسطنطين السابع (٩١٢ – ٩٥٩) رومانوس – وهـــذا الاخير كان فيما مضى حتى يشارك الامبراطور سلطاته ، Co-Emperor .

وقام ، في عام ٨٦٧ باسليوس ، سائس الخيل السابق ، والشخصية النابليونية ، بالتطويح ببارداس، وأسس « حتى ١٠٨١ » للارمن سلالة مالكة قانونها السيف ، حيث كان يحكم في معظم الاحيان ، الجنرالات بدلا من الاباطرة – جنرالات رجال قوة كرومانوس ونيقفوروس وبارداس فوكاس . وكان الاعظم من بين هؤلاء حنا تزيمسكس John Tzimisces (٩٦٩ – ٩٧٦) المسيطر على الاقليم كيورتزان Kiur Zan من أرمينيا . أما في بغـــداد فلقد قام الاتراك بدور الارمن ، وقد خلع الخليفـــة فاتك ، عام ٨٤٢ على أحد قادتهم لقب سلطان . وابتداء بعام ٨٦٢ أصبح الفيلق « البريتوري » التركي وصياً على الحاكم ، ومن ثم قام عام ٩٤٥ أحمد مؤسس سلالة الاباضية السلطانية بحصر سلطات الخليفة العباسي في الامور الدينية فقط . وهنـــا نشبت في كلتا المدينتين العالميتين « بغداد وبزنطة

المترجم » منافسة شديدة لا يكبح لها جماح بين العائلات الريفية الجبــارة حول الاستيلاء على السلطة العليـا . ونصادف فيا يتعلق بالعائلات المسيحية ، باسيليوس الثاني وآخرين يتحدون فعلا اسياد الاقطاعات الواسعة ، ولكن هـذه المناوأة لا تخفي وراءها اطلاقاً أقل الاهداف والمقاصد الاجتماعية من حيث التشريع . بل انما كانت عملاً دفاعياً عن النفس من جانب الحكام الراهنين آنذاك ، وموجهاً ضد ورثاء محتملين ، وهو لذلك كان شديـد الشبه واجراءات سولا وتريمفيوس من اعدام ونفي وطرد .

وكان دوكاس وفوكاس وسكليروس Skleros وأقرباؤهم يملكون نصف آسيا الصغرى ، وكان المستشار باسيليوس ، الذي استطاع ان يحتفظ بجيش وان يدفـع له مرتباته من موارده الخيالية الخاصة ، قـــد شبه منذ زمن طويل بكراسوس . ولكن العصر الامبراطوري بالذات يبدأ فقط بالسلاجقة الاتراك . فلقد استولى قائدهم طغرل بك، على العراق في عام ١٠٤٣ ، وعلى ارمينيا عام ١٠٤٩ وعام ١٠٥٥ أرغم الخليفة على ان يمنحه سلطنة متوارثة . وافتتح ابنه آلب ارسلان سوريا ، وربح بانتصاره في مانزكرت Manzikert آسيا الصغرى الشرقية . ومن هنا فصاعداً لم تعد لبقايا الامبراطورية البزنطية اية اهمية اطلاقاً او نفوذ او تأثير على مصائر الامبراطورية التركية الاسلامية .

وهـذا هو الطور ايضاً الذي يخفونه في مصر تحت اسم « الهكسوس » . ان هنـــاك قرنين من الاعوام يفصلان بين العائلة الثانية عشرة والعائلة الثامنة عشرة التي بدأت بانهيار النظام القديم الذي بلغ ذروته بسيسوسترس الثالث وانتهى بمطلع الامبراطورية الجديدة . ان عدد العائلات المالكة هنـا ، في هذه المرحلة ، كافية وحدها لتكشف عن شيء ما له أثر الكارثة وفعلها . وتتبدى لنا في لوائح الملوك اسمــــاء متتالية او متوازية لمغتصبين من أغمض الاصول وأشدها ضعة وخمولا ، وقواد عسكريين وأناس يحملون القاب شاذة غريبة ، وكان بعضهم لا يمتد أجل

حكمه اكثر من بضعة ايام قليلة . ونرى ان سجلات النيل الاعلى في سم Semne تتوقف في تدوينها عند اول ملك من العائلة الثالثة عشرة ، ونشهد ان محفوظات الدولة Archives تنتهي عند خلفه . وهـــذا هو الزمن الذي يرسم بابيروس لايدن من احداثه الثورة الاجتماعية الكبرى . وقـــد تلت سقوط الحكومة وانتصـــار الجماهير انفجارات حدثت داخل الجيش ، برز اثرها قادة عسكريون طموحون .

وابتداء بعام ١٦٨٠ ظهر في مصر اسم « المكسوس » ، وهو تسمية لم يعد ، او لم يرغب مؤرخو الامبراطورية الجديدة في فهم مغزى تلك الحقبة فاستخدموا اسم « المكسوس » ليستروا تحته خزي تلك السنوات وعارها . ومما لا شك فيه ابداً ان هؤلاء المكسوس قاموا بالدور ذاته الذي قام به الارمن في بزنطه ، ولا ريب ايضـاً في ان مصائر الكمبري Cimbri والتيوتون كانت ستسلك الطريق ذاتهـــا لو انه قدر لهم ان يهزموا ماريوس وفيالقه من دهماء المدينة وغوغائها ، وكانوا ، لو قدر لهم هـذا النصر ، ملأوا صفوف جيوش تريمفيوس المرة تلو المرة ولربما انتهوا الى تنصيب شيوخ عشائر بربرية محل هؤلاء - وذلك لان قضية جوغورتا Jugurtha تظهر الى أي حد تجرأ الغرباء فبلغوا في تعاملهم وروما في تلك الايام . فأصل المتطفلين المقتحمين ودستورهم أمران غير ذي بال فهؤلاء قد يكونون حرساً شخصياً ، أو عبيداً عصاة ، أو يعاقبة ، أو قبائل أجنبية تماماً . ولكن ما يهم هو ما كانه هؤلاء بالنسبة للعالم المصري في قرنهم . وقـــد قاموا في النهاية بانشاء دولة في الدلتا الغربية وبنوا مدينة عواريس Auaris عاصمة لها . وقد حكم أحد قادتهم ، واسمه Khayan ، هذا الذي لم يتخذ لنفسه لقب فرعون، بل « حاضن البلاد » و « أمير الشباب » (وهذان لقبان ثوروبا الجوهر كلقبي Consul Sine Collega أو Dictator prepetuus في زمن قيصر) وهو شخص لربما كان من معدن John Tzimisces ، أقول حكم هذا كامل البلاد المصرية وبلغت شهرته جزيرة كريت ونهر الفرات . ولكن نشب ، بعده صراع

عم كل المنـــاطق المصرية ، وكان المتصارعون يستهدفون الاستيـــلاء على الامبراطورية ، وأسفر أخيراً هـــذا القتال عن فوز آماسيس وسلالة طيبة المالكة .

أما بالنسبة لنا ، فان مرحلة الدول المتنازعة بدأت بنابليون وبنظام حكومته ، التعسفي العنيف . وكان رأس هذا النظام اول انسان في عالمنا جعـــل فكرة العسكريين مؤثرة فعالة ، ومبدأ السيطرة الشعبية على العالم مبدأ نافذاً شديـــد الأثر – وهذان امران يختلفان تماماً عن امبراطورية شارل الخامس وحتى عن الامبراطورية الاستعمارية البريطانية في ايام نابليون بالذات واذا ما كان القرن التاسع عشر فقيراً نسبياً في الحروب الكبرى – والثورات – وكان يتغلب على أسوأ الازمات الدبلوماسية بواسطة المؤتمرات ، فالفضل في هذا يعود الى الاستعداد الحربي المرعب والمستمر والذي كان يجعل المختلفين يقررون ، خائفين ، في الساعة الأخيرة ، تأجيل القرار الحاسم المرة تلو المرة ، ويستبدلون قرار الحرب بآخر . وذلك لأن هذا القرن كان قرن الجيوش الدائمة الجبارة ، وقرن الخدمة الاجبارية العامة . ونحن بذواتنا جد قريبين منه ، كي نراه على ضوء هذه النظرة المرعبة . فليس هناك من مثيل له في كامل تاريخ العالم .

ومنذ سقوط نابليون كان يقف مئات الآلاف ، ومؤخراً الملايين من الرجال على أهبة الاستعداد للزحف ، وكانت الموانىء البحرية تعج بالاساطيل الجبارة التي كانت تجدد كل عشر سنوات . لقد كانت الحال في ذاك القرن حربـــاً دون حرب ، حرباً من المزايدات في التسلح والاستعداد ، حرباً من ارقـــام وتمبو Tempo وتقنية ، وكانت المعاملات الدبلوماسية لا تجري بين بلاط وبلاط ، بل بين قيادة عسكرية عامة واخرى . وكلما كانوا يؤخرون في ساعة الانفجار ، كانت تتزايد وسائل الحرب جبروتاً وضخامة ويزداد التوتر شدة وارهاقاً . هذا هو الشكل الفاوستي الديناميكي « للدول المتنازعة » خلال القرن الأول من تلك

الحقبة ، لكنها انتهت بانفجار الحرب العالمية (الاولى - المترجم) وذلك لأن مستلزمات تلك الأعوام ومطالبها كانت اكثر من ان يطبقها مبدأ التجنيد العام - وليد الثورة الفرنسية ، والثوروي متناً وحاشية ، كما هو في هذا الشكل - وتحتملها كل المناهج التكتيكية التي نجمت عنه . وسيحل تدريجياً محل الجيوش الدائمة على الشكل التي نعرفها فيه ، قوات محترفة من الجند المتطوعين الحاذقين في فنون الحرب والمتلهفين عليها ، وستتدنى اعداد الجيوش من الملايين الى مئات الألوف . ولكن هذا القرن الثاني من هذه الحقبة سيكون في الواقع قرن الدول المتنازعة . ولن تكون هذه الجيوش بدلاء للحرب ، بل ستعد من اجل الحرب وهي تريد الحرب وتطلبها . وخلال جيلين ستكون لهذه الجيوش الكلمة العليا ، وستسيطر على كل اولئك الهانئين مجتمعين .

وسيقامر في الحروب التي ستشنها هذه الجيوش بمصائر قارات ، كالهند والصين وجنوبي أفريقيا وروسيا ، وسيطلب الاسلام الى المبارزة ، وستطبق تقنية جديدة يرد عليها بتطبيق معاكس . وستهب بؤرة السلطة الكوسموبوليتية العظمى ، ارضاء الجيوش ، الدول الصغرى بأراضيها واقتصادها وسكانها سواء بسواء - فهذه كلها تمسي الآن مجرد اقاليم ومناطق ، واهدافاً مغلوبة على امرها ووسائل الى غاية ، ومصيرها لا قيمة له بالنسبة للزحف العظيم للاشياء . لقد دربنا ، نحن معشر الغربيين أنفسنا ، خلال سنين جد قليلة ، على ألا نولي كبير اهتمام لاحداث كانت قبل الحرب العالمية « الاولى - المترجم » تثير الهلع والرعب في جميع انحاء العالم طولاً وعرضاً ، فهل يوجد اليوم احد من بيننا يفكر جدياً بتلك الملايين من البشر التي تهلك في روسيا ؟

وتتعالى المرة بعد المرة ، بين كوارث الدم والرعب ، صرخة تنادي بالتوفيق بين الشعوب والسلم على الارض . لكن هذه الصرخة ليست سوى مؤخرة صورة الحدوث العظيم وصداه ، ولكن وبوصف هذه الصرخة على هذا الشكل ، فمن

الضروري ان نفترض وجودها حتى ولو لم يكن هناك تقليد يخبرنا به ، كما كانت الحال في مصر المكسوس وبغداد وبيزنطة . وليحترم المرء منا ما تنادي به هذه قدر ما يشاء ويرغب ، ولكن يجب ان تكون لدينا الشجاعة على مواجهة الوقائع ، كما هي - وهذه هي الطابع المميز للناس ذوي السجايا العرقية ، وبسبب كينونة هؤلاء الرجال فقط يوجد التاريخ ويكون. واذا ما اريد للحياة ان تكون عظيمة. فهي شاقة قاسية ، وهي لا تسمح بالاختيار الا بين النصر والدمار ، وليس بين الحرب والسلم ، والى النصر تنتمي ضحايا النصر وقرابينه . اما ذاك الذي يمشي متثاقلاً ضجراً متذمراً وغيوراً الى جانب الاحداث فهو الآداب أو المؤلفات - أكانت آداباً مكتوبة ، او مفكراً بها أو معاشة - انها جميعاً مجرد حقائق تفقد ذواتها داخل تصادم الوقائع المتحرك . ولم يسبق للتاريخ أبداً ان تواضع فتنازل ليرمي بلمحة عابرة على مثل هذه المقترحات . وقد حاول هيانغ سو Hiang Sui في وقت مبكر يعود الى عام ٥٣٥ ايجاد عصبة سلم في العالم الصيني. وكانت فكرة عصبة تناهض ، خلال حقبة الدول المتنازعة الامبريالية Lien - heng ، وناهضتها خاصة في الاقاليم الجنوبية ، لكنها كانت فكرة مقدراً عليها الفشل ، شأنها في ذلك ، شأن الحل الوسط الذي يعترض سبيل الحل الكامل ، وقد اختفت هذه الفكرة حتى قبل الانتصار الذي حققه الشمال . ولكن كلتا هاتين النزعتين قد نبذتا ، سواء بسواء ، الذوق السياسي للطاويين Taoist ، الذين اختاروا في هذه القرون المرعبة ، التجريد العقلاني للذات من السلاح ، وبذلك هبطوا الى مستوى أصبحوا فيه مجرد اداة يستعملها الآخرون ، او للآخرين ، في القرارات العظمى الحاسمة . زد على ذلك ان حتى السياسة الرومانية - وهي سياسة تتعمد عدم التبصر ، كما كانت حال الروح الكلاسيكية في جميع الامور الاخرى - قد قامت على الاقل بمحاولة واحدة ترمي الى ادخال جميع بلدان العالم في نظام لقوى متساوية متناسقة ، وافترض في هذا النظام ان ينفي كل ضرورة للمزيد من الحروب - وذلك عندما أفلتت الفرصة من روما لضم الشرق بعد سقوط هانيبال . لكن التردد كان أمراً غير مجد ، اذ جاهر حزب تسيو الاصغر

بالامبريالية وانحاز الى جانبها كي يضع حداً للفوضى، بالرغم من أن زعيم هذا الحزب البعيد النظر استشف في الامبريالية هلاك مدينته التي كان لها « والى حد بعيد » العجز الكلاسيكي المألوف عن تنظيم اي شيء مهما كان نوعه او لونه . وان الدرب من الاسكندر الى قيصر درب واضح المعالم ومحتوم ، وقد كتب على أقوى امة لاية وكل حضارة ان تسلكه ، أوعته أم لم تعه ، أأرادته ، أم لم ترده .

ليس هناك من مهرب من صرامة هذه الوقائع وقسوتها . ولقد كان المؤتمر الضخم الذي عقد عام ١٩٠٧ فاتحة الحرب العالمية ومقدمتها ، وسيكون مؤتمر واشنطن لعام ١٩٢١ بدايات الحروب الاخرى ومطالعها . ولم يعد تاريخ هذه الازمان لعبة من فطن وبصائر في اشكال انيقة يستطيع أي جانب ان يستخلص منها النواقص (–) والزوائد (+) في أي وقت يشاء ويرغب . وليس هناك للمرء من خيار الا بين ان يقف ثابت القدم او ان ينهار ويتحطم ، اذ لا وجود اليوم لمجرى وسيط . ومنطق الاشياء لا يسمح لنا اليوم الا باتباع اخلاقية واحدة ، هي اخلاقية متسلق الجبل عند القنة الشامخة الوعرة ــ وهنا تكفي لحيظة من ضعف لتنهي كل أمر وشيء . وما كل « الفلسفات » اليوم سوى اعتزال واستسلام باطنيين، انها أمل يلوذ بالفرار من الحقائق عن طريق التصوف . والامر نفسه شهدته روما من قبلنا . فتاسيتوس يخبرنا كيف نجا موسينيوس روفوس الشهير بأعجوبة من ضربات الفيالق التي وقفت عام ٧٠ أمام ابواب روما حين انطلق هذا نحوها يبشرها بفضائل السلم وبركاته ويعظها عن شرور الحرب وويلاته ، مؤملاً من وراء ذلك ان يؤثر في صفوفها ، فكان ما كان من أمره . وكان القائد العسكري آفيديوس كاسيوس يسمي الامبراطور مارك اوريل « بالعجوز الشمطاء المتفلسفة » .

وفي هذه الاوضاع يكتسب القدر المتبقي من التقاليد العظمى القديمة ، ومقدار ما دخل دم امم القرن العشرين من « جدارة » تاريخية وخبرة ، فعالية

منقطعة النظير وعنفواناً لا مثيل له . وذلك لان الورع الابداعي (او لنستعمل اصطلاحا اصفى جوهرا) النبض ، بالنسبة لنا ، والذي تحدر الينا من الاصول الاولى ، يلازم فقط الاشكال الاقدم من الثورة ونابليون ، وهي اشكال نمت وترعرعت ولم تعمل او تصنع . وان كل فضلة من هذه الاشكال ، مهما كانت طفيفة زهيدة ، قد ابقت على نفسها حية داخل كينونة اية اقلية مستقلة بذاتها مهما كانت هذه الاقلية ، فان هذه الفضلة ، لن يبلغ بها الزمان طويلا ، حتى ترتفع الى قيم لا تعد او تحصى ، وتحقق نتائج تاريخية لم يتخيل اي انسان حتى الآن كونها امورا ممكنة . وان تقاليد ملكية قديمة ، وارستقراطية عريقة لمجتمع قديم اديب ومهذب ، وذلك الى الحد الذي يكون عنده ابناؤها لا يزالون نافعين صالحين بما فيه الكفاية ، كي يبتعدوا عن السياسة المحترفة او البروفسورية ، بحيث انهم يتمتعون بالشرف وانكار الذات والحس السليم الاصيل برسالة عظمى صفة عنصر وهذه تدريب وشعور بالواجب واستعداد للتضحية - تستطيع تلك التقاليد ان تصبح مركزا يحافظ على وحدة تيار الكينونة لشعب باكمله ، وتمكنه من ان يبقى بعد هذا الزمان وان يصنع ظهور يابسته في المستقبل .

ان كون الامة « في وضع لائق » هو كل شيء . لقد قدر لنا ان نعيش في اشد تجاريب الازمان التي عرفها تاريخ حضارة عظمى . وان العرق الاخير الذي يحافظ على شكله ، وعلى آخر التقاليد الحية ، وآخر الزعماء الذين يتكفلون بحمل هذه وذاك على كواهلهم ، له سيكتب النصر .

٩

أعني بلفظ « القيصرية » ذاك النوع من الحكومة التي هي بذاتها الباطنية العودة الى اللاشكلية ، وذلك بغض النظر عن أية صيغة دستورية قد تكون لها . ولا يهم ابداً ما اذا كان اغسطس في روما أو هوانغ ـ تي في الصين ، أو آمسيس في مصر وألب أرسلان في بغداد قد تستروا تحت اشكال قديمة . فروح تلك الاشكال كانت ميتة ، وكذلك جميع المؤسسات ، ومهما بلغت العناية في صيانتها والحفاظ عليها ، فلقد كانت منذ ذاك الزمن تفتقر الى كل معنى ووزن . فالاهمية الحقيقية كانت تتمركز في السلطة الشخصية الكاملة التي كان يمارسها القيصر ، أو في أي شخص آخر قادر على ممارستها في مكانه . والقيصرية هي الارتداد لعالم انجز شكله الى اللا تاريخي الكوني . وهنا تحل الامتطاطات البيولوجية للزمان في المحل الذي أخلته الحقبات والمراحل التاريخية .

وفي البداية حيث تكون المدنية تتطور نحو ازدهار كامل (اليوم) تنتصب أعجوبة المدينة الكبرى العالمية ، هذا التحجر الضخم ، ورمز اللاشكل ، وتتبدى ـ وضيعة منفسحة منتشرة بعجرفة وغطرسة . وتمتص داخلها تيارات من كينونة تتدفق من الريف الذي أمسى الآن واهناً عاجزاً ، وهـــذه جماهير بشرية تسير متموجة كأنها كثبان من رمال وتنتقل من مدينة الى اخرى أو تصب كالرمال المتحركة في شروخ وفلوع من حجر . وهنا يحتفل المال والعقـــل بأعظم وآخر انتصاراتهم . زد على ذلك ان هذه المدينة هي اضحل الظاهرات سطحيـة واشد ما عرض على العيون البشرية في عالم الضوء — وهي طيفية شبحية غريبـــة

« وواقعها أغرب من أن يصدقه العقل »، وها هي تنتصب وتكاد تكون وراء كل امكانات التشكل الكوني .

وفي كل حال سرعان ما تنطلق الوقائع المعدومة الفكر الى مقدمة الصفوف ثانية ، وتندفع الى الامام جبارة عارية . فلقد تغلب اخيراً النبض الكوني الخالد على التوترات العقلانية لعدد قليل من القرون . والمـــال قد انتصر في شكل الديمقراطية . وقد عرف المال حقبة كانت السياسة خلالها واقية ومربية . ولكن حالما حطم هذه الانظمة القديمة للحضارة ، أنجبت الفوضى بعامل جبار قهار يتخلل جواهر الصيرورة بالذات ــ انه رجال قيصر .

ولكن المال يتهاوى قبل هؤلاء وينهار . فالحقبة الامبرياليـة في كل حضارة تعني نهاية سياسة العقل والمـــال . وهنا تستأنف قوى الدم ، الطاقات السليمة جسداً ، ممارسة سيادتها الغابرة . ويتدفق « العرق » نقياً لا يقاوم ، ــ وهنا ينتصر الاقوى ، ويصبح الشغل غنيمة . وهنا يستولي هؤلاء « القياصرة ــ المترجم » على مقاليد العالم ودفته ، وتتحجر مملكة الكتب والقضايا ، أو تضمحل وتتلاشى من الذاكرة . ومنذ الآن تصبح مصائر جديدة من طراز ما قبـل الحضارة أموراً ممكنة من جديد ، ومنظورة من قبل الشعور دون ان تكون بحاجة الى ملابس تخيطها لها السببية . وهنا لا يعود يوجد من فرق باطني بين حياتي سبتيموس سيفروس وغالينوس ، أو بين حيـــاتي ألاريك وأدوسير Odoacer . وينتمي رمسيس وتراجان و وو ــ تي Wu - ti الى امتطاطات زمانية متجانسة هنا وهناك .

وعندما تطل الحقبة الامبريالية لا يعود هناك المزيد من القضايا السياسيـــة ، والناس يتدبرون امورهم والوضع كما هو قائم ، والسلطات كما هي حالها . لقـــد تدفقت الدماء انهاراً خلال حقبة الدول المتنازعة ، وصبغت بسيولها الحمراء أرصفة مدن العالم وشوارعها ، وذلك كله بغية ان تتحول الديمقراطية الى وقائع ، وتنال

لا كتساب الحقوق التي كانت تبدو ان الحياة غير جديرة بان تعاش بدونها . ولكن وقد اكتسبت هذه الحقوق الآن ، لكن احفاد مكتسبيها يعجزون حتى بالقصاص عن دفعهم الى استخدامها وممارستها . ولا تمضي المئة سنة على حلول القيصرية ، حتى يعود المؤرخون انفسهم لا يفهمون للمناظرات القديمة معنى أو مغزى . وفي زمن قيصر كان الرجال المحترمون قد توقفوا عن الاشتراك في الانتخابات تقريباً . وقد عانى تيبريوس العظيم الامرين بسبب ابتعاد معظم الرجال القديرين في عصره عن السياسة . ولم يستطع نيرون حتى بالتهديد ان يرغم سلاح الفرسان في الجيش Equites على الحضور الى روما لممارسة حقوقهم . هذه هي نهاية السياسة العظمى وختامها . وعلى الصدام بين العقول الذي كان بديلا للحرب ، ان يخلي الآن محله للحرب نفسها ، ولاشد اشكالها بدائية .

ولهذا فانه لسوء فهم كامل لمعنى هذه الحقبة ان يفترض المرء ، كما فعل مومسون ، وجود مخطط عميق لتجزئة في الحكومة الثنائية « Dyarchy » وضعه اوغسطس ، حيث وزع السلطات بين البرنسيبس ومجلس الشيوخ . فلو جاء هذا الدستور أبكر بقرن واحد لربما أمسى شيئاً حقيقياً ، ولكن هذا الواقع وحده كاف ليجعل من المستحيل دخول فكرة كهذه الى رؤوس رجال - القوة الراهنين . فهو الآن لا يعني سوى محاولة تقوم بها شخصية ضعيفة كي تخدع نفسها امام هذه الوقائع التي لا ترحم ، فتكسبها اشكالاً فارغة .

لقد كان قيصر يرى الاشياء على حالها الراهن ، وكان لا يسترشد في ممارسة سلطاته الا بالاعتبارات العملية الاثباتية التي لا تعرف عاطفة أو هوى . وكانت التشريعات التي استصدرها في شهوره الأخيرة تتعلق كلياً بتدابير انتقالية ، ولم يكن يقصد ان يكون لاي منها سريان دائم . وهذا هو بالذات الذي اغفل أمره بصورة عامة . فقيصر كحكم على الاشياء كان اعمق من ان يتوقع تطوراً أو ان يقرر في تلك الفترة اشكاله ويعينها ، وهو يرى ارهاصات الحرب البارثية

تلوح في الافق . لكن اوغسطس كبومباي من قبله ، لم يكن السيد بين اتباعه ، بل كان يعتمد اعتمادا كلياً عليهم وعلى نظرتهم الى الاشياء . زد على ذلك ان شكل البرنسيب لم يكن اطلاقا من مكتشفاته ، ولكنه كان التنفيذ العقائدي لمثل اعلى هزيل لحزب ، مثل اعلى كان كانو - وهذا بدوره شخصية ضعيفة اخرى - قد قد صاغه . وعندما قام اوغسطس في ١٣ و ٢٧ من كانون الثاني باعادة سلطة الدولة « الى شعب روما ومجلس شيوخها » (وهذا مشهد ، هو اكثر من ذلك عديم المعنى ، بسبب ما فيه من صدق او اخلاص) احتفظ لنفسه بالتريبونية . والحق ان التريبونية كانت هي العنصر الواحد الذي بمقدوره ان يظهر نفسه في الامر الواقع . فالتريبيون كان الوارث الشرعي للطاغية ، وكان كايوس غراكوس قبل اوغسطس بزمن طويل قد حمل ، عام ١٢٢ ق.م ، هذا اللقب من المضمون او المحتوى ، حيث لم يعد محدودا بالحدود القانونية للمنصب ، بل فقط بالمواهب الشخصية لشاغله . ومن كايوس ينتقل هذا المنصب بخط مستقيم ماراً بماريوس وقيصر حتى الفتى نيرون الذي اخذ على عاتقه احباط المقاصد السياسية لأمه اغريبينا . ومن جهة اخرى كان البرنسيبس قد امسى منذ ذاك الوقت فصاعدا لباساً رسميا فقط ، رتبة - ومرتبة من الجائز ان تكون حقيقة وواقعا في المجتمع ، ولكنها بالتأكيد ليست كذلك في السياسة . وكان هذا المفهوم هو الذي احاطته نظرية شيشرون بهالة من دون كل الناس - مع فكرة الـ ديفوس . وعلى العكس كانت حال « التعاون » بين مجلس الشيوخ والشعب ، فهذا التعاون كان طقساً اثرياً مستعتقاً ، وكان فيه من الحياة مقدار ما في شعائر فراتريس آرفاليس Fratres Arvales - وهذه ايضا اعادها اغسطس . اما الاحزاب الكبرى في العصر الغراتشي Gracchan ، فكانت قد امست آنذاك منذ طويل زمن بطانات وحواشي - لقيصر وبومباي - واخيرا لم تبق على الجانب الواحد سوى تلك الواقعة القهارة الشرسة اللاشكلية واعني القيصر - او اي انسان آخر تدبر امره فطوى القيصر تحت جناحي نفوذه - اما على الجانب الآخر فكانت توجد حفنة من الايديولوجيين الضيقي الافق والذين كانوا

يخفون تذمرهم تحت ستار الفلسفة ، واخذوا منذ ذاك الوقت فصاعداً ، يسعون لترقية مثلهم العليا مستعينين بسلم المؤامرات . وان ما كانه الرواقيون في روما كانه الكونفوشيون في الصين — ونحن اذا نظرنا على هـــذا الضوء يبدأ حدث « احراق الكتب » الذي اشترعه اوغسطس الصيني عام ٢١٢ ، بالاتضاح لنا من خلال الاجراءات الزجرية للفاندالية (الهمجية) المروعة التي تشد اليها عقول المتعلمين فيا بعد . ولكن ، هؤلاء الرواقيون المتحمسون لمثل أعلى أمسى مستحيـلاً ، هم الذين قتلوا قيصر على كل حال . ولقـــد أقاموا مذهب كاتو وبروتوس كمذهب مناهض لمذهب ديفوس . ولم يكل الفلاسفة في مجلس الشيوخ (الذي كان آنذاك قد اصبح نادياً للنبلاء) ولم يملوا من التفجع على سقوط « الحرية » ، واندثارهـا ، ومن حبك المؤامرات والتحريض عليها ، كمؤامرة بيسو Piso في عام ٦٥ مثلاً ، ولو ان هذا كان وضع الاشياء عند قتل نيرون ، فلربما كان سولا مرة أخرى ، وهذا هو السبب الذي دفع بنيرون الى اعدام الرواقي تراسيا بيتوس Thrasea Paetus ، وحمل فاسبسيان على اعدام هلفيديوس برسكوس ، وهو أيضاً السبب الذي جعل السلطة آنذاك تجمع نسخ كتاب تاريخ كريموتيوس كوردس الذي يمجد بروتوس بوصفه آخر الرومان ، وتقوم باحراقها . وهذه كانت اعمالاً استلزمتها الضرورة الدفاعية للدولة تواجهاً وايدلوجيا عمياء — وقد قام كرومويل وروبسبير بأعمال كهذه كما نعـــلم — كما وان هذا هو الوضع نفسه الذي وجـد القياصرة الصينيون أنفسهم فيه تواجها ومدرسة كونفوشيوس الذي كان سبق لهـا أن وضعت مثلهم الاعلى لدستور الدولة ، لكنها الآن لم تعد تميـــل الى احتمال الأمر الواقع . وان احراق الكتب هذا لم يكن سوى تدمير جزء من المؤلفات الفلسفية السياسية ، والغاء الدعاية ، والتنظيمات السرية وقد استمر هذا الاجراء الدفاعي قرناً من الزمن في كلتا الامبراطوريتين ، ومن ثم تلاشت حتى الذكريات عن الانفعالات والاندفاعات السياسية الحزبية ، وأصبحت الفلسفتان المطـل الفلسفي السائد في العالم في الحقبة الامبراطورية ونضوجها .

ولكن العالم كان الآن مسرحاً لتواريخ عائلية مأساوية ، ذابت داخلهـــا تواريخ الدول ، فعائلة يوليوس وكلوديوس دمرت التاريخ الروماني ، كما قضى آل شي – هوانغ – تي (وحتى ابتداء بعام ٢٠٦ ق . م) على التاريخ الصيني ، ونحن نميز ، بغموض شيئاً من هـذا النوع في مصائر الملكة المصرية هتشبسوت واخوانها (١٥٠١ – ١٤٤٧) . وهذه الخطوة هي الخطوة الاخيرة في الطريق الى القطعي . ومع السلام العالمي – سلام السياسات الراقية – يتراجع « جانب السيف » من الكينونة ، ويحكم « جانب المغزل » ثانية . ومنذ هذا الزمن فصاعـــداً لا تطالعنا سوى تواريخ شخصية ومصائر فردية ، وطموح شخصي ، وذلك ابتداء من القمة حتى القرار ، ومن الاضطرابات التعيسة بين الفلاحين ، حتى الصراعات الكظيم بين القياصرة على الامتلاك الشخصي للعالم . ان حروب حقبة السلام العالمي هي حروب شخصية ، وهي أشد رعباً وهولاً من اية حرب دولية ، وذلك لأن هذه الحروب لا شكل لها .

وذلك لان السلام العالمي – والذي وجـد فعلا مرارا – يستلزم الشجب الشخصي للحرب من جانب الاكثرية الساحقة ، ولكن يترتب عليه مع هذا ايضا الاستعداد الخفي لدى من يشجبه للخضوع لصيرورته غنيمة باردة للآخرين الذين لا يشجبوه . وهذا السلام يبدأ بالرغبة المدمرة للدولة ، الرغبة في الوفاق العالمي ، وينتهي بألا يحرك اي انسان ساكنا طالما ان النوازل تنزل بجاره فقط . ولقد كانت كل مدينة ، وكل رقعة من ارض ، قـــد اصبحت في عهد مارك اوريل تفكر بنفسها فقط ، وكانت ترى في نشاطات الحاكم وتحركاتـه اموراً شخصية خاصة به وحده ، كما كانت حال امور الآخرين . وكانت لا مبالاة الشعوب ، الأبعد مسافة عن تلك ، به وبجنده واهدافه كلامبالاتها بمقاصد العصابات الحربية الجرمانية سواء بسواء . ومن هذه المقدمة الروحية ينطلق تطور فايكنغية ثانية . وكيان الدولة « في شكل لائق » ينتقـــل من الامم الى العصابات وحواشي المغامرين والقياصرة المنصبين لذواتهم ، والجنرالات المنشقين ، والملوك البرابرة

وهكذا دواليك - حيث يصبح اخيرا السكان في نظر هؤلاء جزءاً من صقع فقط .
وهناك علاقة عميقـــة تربط بين الابطال في العهد المسيني البدائي وبين الاباطرة العسكر لروما ، ومثلا بين مينيس ورمسيس الثاني . وستبعث في عالمنا الجرماني روحا ألاريك وتيودريك ثانية - وها اننا نرى اول ملمح لها في سيسبل رودز - وفي الجلادين الاجانب في فاتحة الحضارة الروسية ، ابتداء من جنكيزخان حتى تروتسكي ، (بما يفصل بين هذين من مرحلة بطرسية قيصرية) والذين بعد كل شيء ، يختلفون اختلافا جد قليل عن معظم الادعيـــاء في جمهوريات اميركا اللاتينية ، هؤلاء الذين دمرت صراعاتهم الشخصية ، منذ زمن طويل الشكل الموفور الثراء للباروكية الاسبانية .

ومع الدولة القيصرية ، يضطجع التاريخ الراقي ايضا متعباً يطلب النوم .
ويعود الانسان ليصبح نبتة من جديد ، وغرسة تلتصق بالارض ، بكماء خرساء تكابـد الحياة وتستمر . وهنا تتبدى ثانية القرية المعدومة الزمان ، والفلاح «الخالد» فينجب بالاطفال ويدفن البذار في جوف ارضنا الام - وتبـــدو حشوده دؤوبة وليست بغير ملائة تمر من فوقهم زوابع الاباطرة العسكر هابة عبورا . وعلى وسط الارض تترامى المدن العالمية ، اواني واوعية فارغة لروح هامدة خامـــدة ، حيث يعشش فيها بطيئاً بطيئا ، جنس بشري لا تاريخ له .
والناس تستعجل افواههم حركات ايديهم لالتهام ما فيها ، ويعيشون عيش مقتصد حقير ، ذي ثروة تافهـــة حقيرة لكنهم يكابدون الحياة ويستمرون . والجماهير تدوسها سنابك خيل الغزاة وهم يتصارعون على السلطة واسلاب هذا العالم وغنائمه ، لكنها سرعان ما تملأ الثغرات بما عرف فيها من اخصاب تناسلي بدائي ، وتستمر في المكابدة والالم . وبينما يكون اولئك المتربعون على المراتب العالية في حال من تداول خالد من نصر وهزيمـــة ، يكون من في الحضيض مشغولين بالصلاة ، ويصلون بذاك الورع الجبار المعهود بالتدين الثاني والذي يكون قد تغلب على كل شك حتى الابد .

الفصل الثالث والعشرون

الدولة

(ج)

فلسفة السياسة

– ١ –

لقد أولينا السياسة ، كفكرة ، من التفكير اكثر مما يتفق وصالحنا ، وذلك لانه تطابقاً وهذا ، قد فهمنا الأقل من التفرس في السياسة بوصفها واقعاً . فرجال الدولة العظام معتادون على العمل الفوري والتنفيذ المباشر ، ويعتمدون في ذلك على دقة تمييز ، واثقة واكيدة ، بين الوقائع . وهذه العادة هي ، بالنسبة لهم ، واضحة وغنية عن البيان الى حد انه لا يخالجهم ابداً اي خاطر يستدعيهم للتأمل في المبادىء الاساسية العامة لعملهم – وذلك اذا ما فرضنا ان هذه المبادىء توجد فعلا . فهؤلاء الرجال كانوا في كل العصور يعرفون بما هو مترجب عليهم القيام

به ، ولقد كانت اية نظرية في المعرفة غريبة عن قدراتهم واذواقهم معاً . ولكن المفكرين المحترفين الذين وجهوا انتباههم الى سياسة الأمر الواقع Fait accomplis التي نفذها رجال الدولة كانوا بعيدين باطنياً عن اعمال هؤلاء ذاك البعد ، الذي جعلهم ينسجون فقط لأنفسهم شبكة من التجريدات – لحق الاختيار ولاساطير التجريدات كالعدالة والفضيلة والحرية – ثم طبقوها ، بوصفها ميزاناً ، على الماضي وخاصة على الحدوث التاريخي في المستقبل . وهكذا فانهم في النهاية قد نسوا ان المفاهيم هي مفاهيم فقط ، ثم دفعوا بأنفسهم الى الاستنتاج ان هناك علوماً سياسية نستطيع بواسطتها ان نشق مجرى العالم ونشكله وفق مخطط مثالي مرسوم . ولما لم يكن قد حدث ابداً ، وفي أي مكان شيء من هذا النوع ، لذلك اخذ هؤلاء المفكرون المحترفون يعتبرون الفعل السياسي ، في ميدان الواقع ، شيئاً ما زهيداً تافها حينما يقارن بالتفكير المجرد الذي يعرضونه في كتبهم ويناقشون « عما اذا كان يوجد ، اطلاقاً ، عبقرية فعل سياسي » .

وحالنا هنا ، هي العكس من حالهم ، اذ اننا سنحاول ، بدلا من ان نقدم منهاجاً ايديولوجياً للسياسة، ان نتقدم بسيمائية لها كما مورست فعلًا وواقعاً في مجرى التاريخ العام ، وليس لما كان الجائز ، او الواجب ان يكون شكل ممارستها واسلوبها . لقد كانت القضية ولا تزال تتمثل في النفوذ الى المعنى النهائي للاحداث العظمى ، بغية ان « نراها » ونشعر بالهامّ رمزيا – منها وننقله حرفاً وصورة وجوهراً . وليست هناك اية علاقة بين مشاريع مصلحي العالم وبين الامر الواقع للتاريخ .

ان مجاري كينونة الانسانية تسمى بالتاريخ ، وذلك عندما نعتبرها بوصفها حركة وعائلة ومنزلة (اجتماعية) وشعباً وامة ، اي عندما نعتبرهـا الموضوع المحرك . وان السياسة هي الاسلوب الذي تحافظ به هذه الكينونة المنساقة الدفاقة على نفسها ، فتنمو وتنتصر على مجار الحياة اخرى . وان كل حي هو سياسة

بكل ملمح من ملامح الغريزة وحتى نخاع عظامه . وان ذاك الذي نرغب في ان نسميه ، في هذه الايام ، بطاقة الحياة (الحيوية) ، الـ — it داخلنا ، التي تكد وتكدح أماماً وعلاء مهما كان ثمن هذين ، هـذا الاندفاع الكوني الأعمى نحو التوطد والرسوخ والقوة والذي يبقى في الوقت نفسه مرتبطاً بالأرض ، بأرض « الوطن » ، هذا التوجيه ، هذه الحاجة الى التحقق — هذا هو الذي يتبدى في كل جنس بشري ارقى بوصفه حياته السياسية الساعية ، طبيعة وحتما ، عن القرارات العظمى التي تقرر مـا اذا كانت هذه الحياة ستكون مصيراً بذاتها ، او ستكابد مصيراً ، وذلك لانهـــا تنمو او تذوي وتمـوت ، وليست هناك امكانية ثالثة امامها .

ولهذا السبب فان طبقة النبلاء بوصفها تعبيراً لنوعيـة عرق قوية ، هي النظام السياسي الصحيح ، وان التدريب لا التشكيل هـو النوع السياسي السليم من التهذيب والتثقيف . وان لكل سياسي عظيم ، قطب القوى في سيل الحدوث ، شيئاً ما من النبالة داخل شعوره برسالته الذاتية وبواجبه الباطني . ومن جهـــة اخرى فان كل ما هو عالم أصغر « وعقل » هو لا سياسي ، وهكذا فانـه يوجد شيء مـــا من كهنوت في جميع سياسات المناهج والايديولوجيات . وان افضل الدبلوماسيين هم الاطفال ، ففي لهوهم ، او عندمـــا يريدون شيئاً ما ، تتدفق فوراً it كونيـــة مشدودة الى الكائن الافرادي ، وتنطلق بخطوات واثقة ثابتة كأنها خطوات ، الجولاني (السائر نائماً) . والاطفال لا يتعلمون ، بل ينسون هذا الفن عندما يشبون ويكبرون — ومن هنا تنشأ هذه الندرة في العالم في رجال الدولة الراشدين سنا .

ان السياسة الراقية لا توجد الا بين وداخل سيول الكينونة هـذه التي تملأ ميدان الحضارة الراقية . لذلك فان هـــذه السيول هي ممكنة فقط في حال من تعدد Plural . فالشعب هو شعب كائن حقيقي وذلك ارتباطاً والشعوب ،

ولكن علاقة العرق الطبيعية بين الشعوب هي لهذا السبب بالذات علاقة حرب — وهذه واقعة لا تستطيع كل الحقائق ان تبدلها . فالحرب هي السياسة الاولية لكل من وما يحيا ويعيش ، وحتى ان الحياة والمعركة هما في الاعماق الامر الواحد ذاته ، زد على ذلك ان الكينونة وارادة العراك تموتان معاً . وان الكلمتين الجرمانيتين القديمتين ككلمتي « Orlog و Orrusta » تعنيان الجدية والمصير ، في تباينهما واللهو والتمثيل — وهـــذا التباين هو تباين في القوة ، في الشدة ، وليس فرقاً وصفيا Qualitative . وحتى بالرغم من ان جميع السياسات الراقية تحاول ان تكون البديل ، من اكثر الاسلحـــة العقلانية ، للسيف ، وبالرغم من ان طموح كل رجل دولة ، عندما تبلغ الحضارة ذروتها ، هو ان يشعر بأنه يستطيع ان يستغني عن الحرب ، بالرغم هذا ، تستمر العلاقة الاولية بين الدبلوماسية وفن الحرب قائمة وموجودة . فطابع المعركة هو طابع مشترك بينهما ، وبين التكنيك والمكائد ، وضرورة وجود قوى ماديـة في المؤخرة كي تعطي للعمليات وزناً . زد على ذلك ان الهدف ايضاً يبقى هو الهدف ذاتـه — واعني بذلك نمو وحدة الحياة للمرء (أكانت هذه طبقة او أمة) عـــلى حساب الوحدات الاخرى . وان كل محاولة ترمي الى استئصال جوهر العرق ، تؤدي في النهاية فقط الى نقل هذه الوحدة ، الى ارض اخرى ، ويكون لدينا بدلاً من الصراع بين الدول ، صراع بين الاحزاب ، او صراع بين المناطق او « اذا ما كانت ارادة النمو قد خمدت نارها » صراع بين بطانات المغامرين ، حيث تقوم البقية من السكان ، فتقدم نفوسها خضوعاً واذعانا ، لتتفق واعمال هؤلاء .

ان موضوع النزاع في كل حرب تنشب بين قوى الحياة ، يكون متمثلاً في اية من القوى ستحكم الكل منها . وان الحياة ، وليس ابداً النظام او القانون او المنهاج ، هي وحدها التي تعطي الخفقان Beat في سيل الحدوث . فأن تكون مركز العمل أو قطبه ، وبؤرة الجماهير الفعالة ، وان تجعـل من شكلك الباطني شكلًا لشعوب بأكملها ولحقبات وحقبات ، وان تكون الضابط الآمر للتاريخ ،

وان يكون هدفك من هذا الارتقاء بشعبك او عائلتك او مقاصدك الى قمة الاحداث - هذا هو الشعور النادر ، لكنه الحافز الذي لا يصمد اي شيء في وجهه لكل كائن فرد يمتلك دخله رسالة تاريخية . فهناك لا يوجد الا تاريخ شخصي ، ونتيجة لذلك لا توجد الا سياسة شخصية . فالصراع لا يدور بين المبادىء بل بين الرجال ، ولا بين المثل العليا بل بين صفات العروق ونوعياتها ، ويدور حول الاستئثار بالسلطة التنفيذية هذا هو ألف A السياسة وياؤها . وحتى الثورات نفسها لا تستثنى من هذه القاعدة ، وذلك لان ما يسمى « بسيادة الشعب » انما تعبر فقط عن الواقعة المقررة ان السلطة الحاكمة قد اتخذت لنفسها لقب زعيم الشعب ، بدلاً من لقب الملك ، زد على ذلك انه نادراً ما يتبدل منهاج الحكم نتيجة لهذا التطور ، كما وان مركز المحكومين لا يتبدل اطلاقاً . اضف الى ذلك ان كل قضية كان فيها حتى للسلام العالمي وجود ومكان ، فان مثل هذه القضية لم تكن سوى استعباد الجنس البشري بأكمله من قبل نظام فرضته طبائع قليلة وقوية عزمت على ان تحكم .

ان مفهوم السلطة التنفيذية يفترض ضمناً ان كل وحدة من حياة - وحتى وفيما يتعلق بالحيوان - قد قسمت الى اسياد للحكومة والى خاضعين لها . وهذا امر واضح وغني عن البيان الى درجة انه لم يسبق ابداً لوحدة من جماهير ان فقدت للحظة واحدة ، وحتى في اشد الازمات جموحاً (كأزمة ١٧٨٩) ، شعورها بتركيبها الباطني بالذات . فشخص من يشغل المنصب هو الذي يتوارى ويختفي وليس المنصب ابداً ، واذا ما حدث ان فقد ، فعلاً وواقعاً ، الشعب الزعامة او القيادة وعام سابحاً في خضم من المصادفات ، فهذا يعني ان مقاليد السيطرة على الامور قد انتقلت الى ايد خارجية ، وان الشعب بأكمله قد أصبح خاضعاً لهذه ومذعناً .

وليس هناك من وجود لشعوب موهوبة سياسياً ، اما الشعوب التي يزعمون

بان هذه هي حالها ، فهي تكون فقط في قبضة حازمة لاقلية حاكمة ، وتحس هذه الشعوب بذواتها، في سياق الاحداث على انها في شكل لائق . فالامة الانكليزية، كأمة هي امة لا تختلف في عدم تفكيرها وضيق افقها وانعدام شعورها العملي في القضايا السياسية ، عن اية امة اخرى لكنها تمتلك – بالرغم من كل ما لها من حب للمناقشات العامة – تقاليد ثقة . والفرق بين الانسان الانكليزي وغيره ، هو ان هذا الانسان يخضع لنظام ذي اعراف وعادات ناجحة وغارقة في القدم ، يقنع به الفرد الانكليزي ويرضى ، لان خبرته جعلته يرى ان هذا النظام نافع له ومفيد . ولا تفصل بين القناعة ذات المظهر الخارجي للموافقة ، وبين اليقين بان هـــذه الحكومة ترتكز الى ارادة القانـــع وتعتمد عليها سوى خطوة واحدة ، وذلك بالرغم من الحكومة ، تعارضاً وهذا اليقين الذاتي ، هي التي لا تكل ولا تمـل ، ولاسباب تقنية خاصة بها، باستمرار تسمر هذا اليقين داخل رأسه. فالطبقة الحاكمة في انكلترا قد اوجدت اهدافها ومناهجها وطورتها بصورة مستقلة تماماً عن «الشعب» وهي تعمل بواسطة وداخل دستور غير مكتوب – دستور نشأت انقى قواعده واصفاها عن الممارسة وهي بريئة من النظريات متناً وحاشية – وهـــذه القواعد معتمة مبهمة في نظر غير العليم ، كما هي ملتبسة غامضة . لكن شجاعـــة القطعة العسكرية تعتمد على ثقتها بالقيادة ، والثقة تعني الاستنكاف الارغامي عن النقد . فالضابط هو الذي يجعل من الرعاديد أبطالاً ، او يحول الابطال الى رعاديـد ، وهذا القول ينطبق تماماً على الشعوب والطبقات والاحزاب انطباقه على الجيوش . فالموهبة الساسية للامـــة ليست سوى الثقة بقادتها ، لكن هـــذه الثقة يجب ان تكتسـب اكتساباً ، وهي تنضج فقط في فصل نضوجهـــا ، والنجاح هو الذي سيرسخها ويجعل منها تقليداً . وما يظهر على انه انعدام يقين المحكومين بالحاكم ، فهو في الواقع ليس سوى افتقار الطبقات الحاكمة لموهبة القيادة ، هـــذا الافتقار الذي يولد ذاك النوع اللافطري والمتطفل من النقد والذي يدل بمجرد وجوده ، على ان الشعب لم يعد « في وضع مناسب » .

- ٢ -

كيف تصنع السياسة ؟ ان رجل الدولة بالولادة هو ، قبل كل شيء ، مقيم - مقيم للرجال والاوضاع والاشياء . وله « عين » تحيط ، بدون تردد وانحراف ، بالامكانات من جميع جهاتها . زد على ذلك ان الخبـــير بالخيول يستوعب جوهر الحصان بلمحة واحدة يلقيها عليه ، ويعرف اي حظ له في ميـدان السباق . فأن تقوم بالعمل الصحيح « دون ان تعرفه » وان تكون لك اليدان اللتان تشدان العنان أو ترخيانه بصورة لاشعورية - فهذه هي موهبة رجـل الدولة ، المناقضة كلياً لموهبة الانسان النظري . فالنبض السري في كل الكينونة هو النبض الواحد ذاتـه فيه وفي أشياء التاريخ . وكل نبض منهما يشعر بالثاني ويتواجدان معاً . ورجل الامر الواقع مصون من خطر ممارسة سياسة عاطفية أو منهاجيـة . وهو لا يؤمن بالكلمات الضخمة . وسؤال بيلاطوس يتردد دائماً على شفتيه - ما هو الحق ؟ زد على ذلك ان رجل الدولة بالولادة هو فوق مـا هو صحيح وخطأ . وهو لا يخلط بـين منطق الحوادث ومنطق المنـاهج . وهو يهتم فقط « بالحقائق » أو « الاخطاء » - ولهذه القيمة نفسها هنا - بوصفها تيارات عقلانية ، وفيما يتعلق بأعماله فقط . وهو يقدر فعالياتها وديمومتها واتجاهها ويضيفها ، عند اللزوم ، الى تقديراته لمصير السلطة التي يوجهها . وله اكيداً معتقداته الخاصة ، وهي معتقدات عزيزة عليه ، لكنه يملكها بوصفه فرداً ، أي بصورة شخصية ، ولم يسبق أبـداً لرجل سياسي حقيقي ان احس يوماً بأنه مشدود الى معتقداته حينما يمارس عمله . ولقد قال غوتيه « انـ العامل يعمل دائماً بصورة لاشعورية ، وليس هناك من انسانـ يشعر ويعي ما خلا المتفرج » ، وهـــذا القول ينطبق ايضاً على سولا

وروبسبيير ، انطباقه على بسمارك وبت Pitt أضف الى ذلك ان الباباوات العظام وزعماء الاحزاب الانكليزية كانوا ، طيلة نضالهم للسيطرة على الاشياء ، يعتمدون على المبادىء ذاتها التي يعتمدها الغزاة والمحدثو نعمة في كل العصور . ولنتأمل في تصرفات البابا انوسنت الثالث ، الذي لامس النجاح في تحقيق السيطرة العالميـــة للكنيسة ، ولنستنتج من هذه التصرفات دستور النجاح ، انك ستجد تصرفات البابا انوسنت الثالث تتنافى الى ابعد الحدود وجميع قواعد الاخلاق الدينية ومع ذلك فلولاها لما كان هناك من وجود مطاق لأي كنيسة ، ناهيك عن المستعمرات الانكليزية والثروات الاميركية والثورات المنتصرة ، او فيما يتعلق بهذا الامر ، بالدول والاحزاب او الشعوب بصورة عامـــة . فالحياة ، لا الفرد ، هي المعدومة الضمير .

لذلك فان الامر الجوهري هو ان يفهم المرء الزمان الذي ولد من أجله ، وان كل من لا يشعر باشد قوى زمانه تكتما وسرية ، ولا يحس في داخله بشيء ما هو وزمانه من أصل واحد ، شيء ما يدفع بـــه قدما على درب لم تسورها المبادىء ولم تحددها المفاهيم ، وان من يؤمن بالسطح ، بالرأي العـــام والجمل الضخمة والمثل العليا ليومـــه ـ لن يكون على مستوى الاحداث ولن يليق بمقامهـا ، وسيكون رهين سلطتها ، ولن تكون هي رهينة سلطته . وعليك ألا تنظر الى الماضي وراءك مفتشاً عن مقاييس ومقاسات ! وحتى أقل من هـذا ، لا تتلفت الى جانبي دربك باحثا عن منهاج معين أو آخر !

ان هناك ازمانا ، كزمننا والحقبـــة الغراكشية Gracchan تنجب بأشد مثاليتين مخاطر وتهلكة ، وهما الرجعية والديمقراطية ، فالاولى من هاتين تؤمن بتقهقر التاريخ Reversibility والثانية بغائيته . ولكن لا فرق بينهما فيما يتعلق بالفشل المحتوم الذي تلحقانه بالامة التي تسيطران على مصيرها ، ولا فرق بينهما فيما اذا كانتا تضحيان بها من اجـل ذكرى او في سبيل مبـدأ او مفهوم . ان

رجل الدولة الاصيل هو التاريخ المتجسد ، وان توجيه هذا التاريخ يتجلى بوصفه ارادة الفرد ، ويتبدى منطقه العضوي بكونه خلقه .

ولكن رجل الدولة يتوجب ان يكون ، الى حد بعيد ، مربياً ـ ولا أعني هنا ممثلاً لاخلاق او عقيدة بل اعني قدوة تحتذى في العمل . وانها لحقيقة واضحة جلية كون الدين لم يبدل ابداً حتى الآن اسلوب الوجود . فلقد نفذ الدين الى الشعور الواعي للانسان العقلاني وتخلله ، والقى بأضواء جديدة على عالم آخر ، وخلق غبطة عميقة شديدة فيما يتعلق بالانسانية ، واوجد الاتكالية والصبر حتى الموت ، لكن لم تكن له اية سلطة على قوى الحيـــاة . فلقد كانت الشخصية الكبرى ـ الـ it ، العرق ، الزخم الكوني المرتبط بهذه الشخصية ـ هي وحدها الطاقة المبدعة في محيط الحياة (وابداعها لم يكن تشكيلاً ، بل تأصيلاً وتدريباً)، وهي وحدها التي بدلت ، بصورة فعالة ، طراز طبقات اجتماعية وشعوب بأكملها، وهي ليست «الحقيقة» او الخير او القويم ، بل انها « الرومانية » او « البيوريتانية» او « البروسية » ، هـــذا هو الامر الواقع . فالشرف والواجب والانضباط والعزيمة ، كل هذه ليست بأمور يتعلمها المرء من الكتب ، بينما انها توقظها قدوة حية في مجرى الكينونة ، ولهذا كان فريدريك غليوم الاول من اولئك المربين العظماء في كل حقبـــة وجيل ، حيث ان سلوكه الشخصي المشكل للعرق لن يختفي اثره في سياق اجيال واجيال . ويمـــيز رجل الدولة الاصيل من الرجل « السياسي المجرد » ـ هذا اللاعب حباً بما في اللعبة من لهو ، وهذا الوصولي على قمم التاريخ والباحث عن الثروة والمنصب ـ كما ويميزه ايضاً من صاحب مدرسة لمثل اعلى ، ويتم تمييزه من هذين بكونه يملك من الجرأة مـا يجعله يطالب الامة بالتضحيات ـ ويحصل على ما يطالب به ، وذلك بسبب كون الالاف يشاركونه شعوره بأنه ضرورة ولازم لزمانه وأمته ، وهـــذا الشعور يبدلهم حتى اللب والجوهر ، ويؤهلهم للقيام بأعمال ما كانوا ليستطيعوها ابداً بوسائل اخرى .

وعلى كل حال ، فليس الفعل هو المتربع على ارقى مرتبة ، بل انها القدرة على القيادة . فهي التي تأخذ بالفرد وتجرده من ذاته ، وتجعله المركز من دائرة عالم العمل . وهناك نوع واحد من الامر (القيادة) يجعل الطاعة عادة فخورة حرة ونبيلة . وهذا النوع لم يكن يمتلكه نابليون مثلاً . فبعض راسب من نفسية الملازم الثاني قد منعه من ان يدرب الرجال كي يكونوا رجالا ، لا موظفين في المكاتب ، وقاده الى الحكم بواسطة المراسيم والاوامر بدلا من ان يحكم بواسطة الشخصيات ، ولما كان لم يفهم امهر اللياقات هذه ، وكان لذلك مرغماً على ان يقوم بنفسه بكل امر حاسم حقاً ، لذلك انهار رويداً رويداً بسبب عجزه عن التوفيق بين متطلبات مركزه وبين الحدود النهائية للطاقة البشرية . ولكن قائداً ، كقيصر او فريدريك الاكبر مثلاً ، يتمتع بهذه الموهبة الاخيرة والارقى من المواهب الانسانية يشعر — في عشية المعركة عندما تكون العمليات منطلقة نحو نتائجها المرادة ، ويتبدى النصر في المعركة حاسماً واكيداً ، او عندما يوقع الامضاء الاخير الذي يختزل حقبة تاريخية بأكملها — يشعر بسلطة عجائبية مذهلة لا يستطيع ابداً رجل الحقائق ان يعرف عن احاسيسها شيئاً . وهناك لحظات — وهذه تدل على الدفقات الكونية القصوى — يحس خلالها الفرد بأن شخصه والمصير والمركز من دائرة العالم سواء بسواء ، وتتبدى له شخصيته كأنها رداء على وشك ان يرتديه تاريخ المستقبل .

ان المشكلة الأولى هي في ان يجعل المرء نفسه شخصاً ما ، أما الثانية — وهذه أقل وضوحاً من الأولى لكنها أقسى وأشد وأعظم في نتائجها النهائية — فهي ان يخلق المرء تقليداً وأن يجعله سارياً عند الآخرين ، كي يستطيع عمله ان يستمر بنبضه وروحه ، بغية اطلاق تيار من نشاط مشابه لنشاطه ، تيار لا يحتاج الى القائد الاصلي كي يحافظ عليه في شكل لائق .

وهنا يرتقي الزعيم الى شيء ما كان ، لا شك ، سيسمى في العالم الكلاسيكي

بالإله . فهو بهذا يصبح خالقاً لحياة جديدة ، ويمسي الجد الروحي الاعلى لعرق فتي . أما هو نفسه ، بوصفه وحدة ، فانه يختفي من التيار بعد بضعة سنوات قليلة. لكن اقلية دفع بها الى الوجود تتعهد مجرى التيار وتحافظ عليه لوقت غير محدود . وباستطاعة الفرد ان يولد هـذا الشيء ما ، هذه الروح لمرتبة من طبقة حاكمة ، وان يخلفها وراءه تركة للاجيال طيلة التاريخ ، وهـــذه هي التي تعطي الآثار الباقية على الزمن .

ان وجود رجل الدولة العظيم امر نادر . والصدفة وحدها هي التي تقرر ما اذا كان سيأتي او سينتصر مريعاً جداً أو متأخراً جدا . وكثيراً من الأحيان يدمر الأفراد العظام اكثر مما شيدوا وبنوا — وذلك نتيجة للثغرة التي تحدثها وفاتهم في دفق الحدوث . لكن خلق تقليد يعني سد الطريق في وجه الصدفـة . فالتقليد ينجب بمستوى راق يستطيع المستقبل ان يعتمد عليه — وهو لا ينجب بقيصر بل بمجلس شيوخ ، ولا بنابليون بل بهيئة من ضباط لا تضاهى ، فالتقليد القوي يجتذب القرائح من كل ناحية ، ويستخلص من المواهب الصغيرة نتائـج ضخمة . ومدارس التصوير الزيتي في ايطاليا وهولندا خير دليل على صحة هـذا القول ، ولا يقل الجيش البروسي ودبلوماسية كيوريا Curia الرومانيـة في دلالتيها عن تلك . ولقد كان العيب الاكـبر في بسمارك ، اذا ما قورن بفريدريك غليوم الاول ، انه أستطاع ان ينجز تقليداً لا أن يخلقه ، فهو لم يخلق هيئة من ساسة عرق يوازي بها هيئة اركان حرب مولتكة ، ساسة يتحدون شعوراً ودولته ويتعرفون على واجباتها الجديدة ، ويرتفعون بصورة دائمـة بالرجال الطيبين الى مرتبتهم ، وبذلك يضمنون استمرار نبض العمـل البسماركي خافقاً الى الابد . واذا لم يتم خلق التقليد هذا ، فعندئذ ستطالعنا ، بدلاً من مرتبة متجانسة من طبقة حاكمة ، بمجموعة من الرؤوس المعدومة من كل حيلة ، اذا ما جابهتها الأمور غير المرتقبة . اما اذا تم خلق التقليد ، فعندئذ سيكون لدينـا شعب سيد ، وذلك بالمعنى الواحد للسيادة ، اي السيادة الجديرة بالشعب والممكنة

في عالم الامر الواقع ـ وهذه تتمثل في اقلية مدربة تدريباً عالياً ، أقلية تملأ نفسها بنفسها ، وذات تقاليد ثابتة . تقاليد نضجت بطيئاً على نار الزمن ، وتجتذب كل موهبة وتدخلها في الدائرة المسحورة ، وتستخدمها الى اوسع حد ، وتحافظ على ذاتها في حال متناغم . وبقية الأمة التي تحكمها هذه الأقلية تتطور ببطء لتصبح « سلالة » حقيقية ، وحتى لو أنها كانت قد بدأت كحزب ، ويصبح يقين قراراتها هو يقين الدم لا العقل . ولكن هذا يعني ان ما يحدث داخلها ، انما يحدث « من ذاته » ولا يحتاج الى العبقرية . فالسياسة العظمى ، ولنستعمل هذا التعبير ، تحل محل الساسة العظام .

اذن ما هي السياسة ؟ انها فن الممكن ـ وهذا قول قديم ويكاد يكون جامعاً مانعاً . فالبستاني يستطيع ان يستحصل على نبتة من البذرة ، أو بامكانه ان يحسن أصلها . وبمقدوره ان يدفع باستعداداتها الفطرية الخبيئة ـ أي بنموها ولونها ، بزهرها وثمرها ـ الى الازدهار او الى الوهن والفتور . فعلى بصيرته بالامكانات ـ ولذلك الضرورات ـ يعتمد كلياً اكتمالها وقوتها وكامل مصيرها . لكن الشكل الاساسي للنبتة واتجاه كينونتها ، ومراحل هذا الاتجاه ومقاساته الزمنية ، ليست بمتناول يدي البستاني . فعلى النبتة ان تنجزها بنفسها أو أن تذوي وتموت .

وهذا القول هو صحيح أيضاً بالنسبة لتلك النبتة الهائلة التي ندعوها «بالحضارة» ولسيول الكينونة من العائلات البشرية المرتبطة بعالم شكلها . وما رجل الدولة العظيم الا بستاني الشعب .

ان كل فاعل هو مولود في زمن ولزمن ، ولذلك فان محيط دائرة انجازاته الممكنة البلوغ ، هو محدود وثابت . فالوقائع بالنسبة لجده أو حفيده ليست بالوقائع ذاتها ، ولذلك فان الواجبات والاهداف ليست بذاتها ايضاً . ويزداد محيط

دائرته ضيقاً نتيجة لحدود شخصيته وملكات شعبه والوضع والرجال الذين يتوجب عليه ان يعمل معهم . وان الطابع المميز للسياسي الراقي هو انه من النادر ان يسيء تقدير مدى حدوده ، أو أن يغفل عن أي شيء قابل للتحقيق داخلها . وبهذا ـ ونحن لا نستطيع ان نكرر القول التالي مراراً وتكراراً وخاصة بالنسبة للألمان ـ يقوم تمييز أكيد بين « ما يجب » ان يكون وبين ما سيكون . فالاشكال الاساسية للدولة والحياة السياسية ، واتجاه تطورها ودرجته ، هي قيم معينة تعتمد اعتماداً ثابتاً على زمن معين . وهذه القيم تشكل درب النجاح السياسي لا هدفه . بينما نرى ، من جهة أخرى ، ان عبدة المثل السياسية العليا يخلقون من اللاشيئية . زد على ذلك ان حريتهم العقلانية عجيبة مذهلة ، لكن قلاع أدمغتهم المشيدة من مبادىء هوائية كالحكمة والبر والحرية والمساواة ، هي في النهاية جميعاً الشيء ذاته . فهم يبدأون البناء من الطابق العلوي ثم ينحدرون ببنائهم ليشيدوا الطوابق السفلية ، أما سيد الامر الواقع فيرضى ، من جانبه ، ان يوجه بصورة لا شعورية ، ما يراه ويقبل به بوصفه حقيقة واضحة . وهذا الأمر لا يبدو أمراً ضخماً كبيراً ، لكنه مع هذا فهو المنطلق كل المنطلق للحرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى . فالمهارة (البراعة) تكمن في الاشياء الصغيرة ، في اللمسة الحذرة الاخيرة لدفة السفينة ، في الاحساس الدقيق باشد اهتزازات النفوس ، من فردية وجماعية ، رقة وارهافاً . وفن رجل الدولة لا يقوم فقط على فكرته الواضحة عن الخطوط الرئيسية المرسومة أمامه رسماً لا انحراف فيه او زوغان ، بل يقوم ايضاً على معالجته الواثقة للحوادث الفردية والاشخاص الافراديين الذين يصادفهم بمحاذاة هذه الخطوط ، والذين يمكن لهم ان يحولوا كارثة تنذر بالوقوع الى نجاح حاسم . ان سر كل انتصار يكمن في تنظيم ما هو غير واضح . فباستطاعة اللوذعي في لعبة ، كتاليران مثلاً ، ان يذهب الى فيينا سفيراً للحزب المغلوب وأن يجعل من نفسه سيداً للمنتصر .

وقيصر ، هذا الذي كان وضعه في اجتماع لوكشا Lucca يكاد يكون ميؤوساً

منه ، لم يجعل سلطة بومباي خادمة لغاياته فقط ،بل انما لضمها ايضاً في الوقت نفسه، وذلك دون ان يشعر خصمه بهذه الواقعة . ولكن لميدان الممكن حافات خطرة ، واذا ما كانت اللباقة المصقولة للدبلوماسيين الباروكيين العظام ، قد تدبرت أمرها فبقيت نقية واضحة ودائماً تقريباً ، فان الايديولوجيين قد احتكروا دائماً امتياز التعثر بها . وان في التاريخ بعض منعطفات دفع فيها فن سياسة دولة برجله ليعوم مع التيار فترة من زمن ، وذلك بغية ألا يفقد زمام القيادة . فلكل وضع حده المرن المطاط ، ولا يسمح حين تقدير هذا الحد باقتراف أقل الاخطاء . وان الثورة التي تبلغ نقطة الانفجار لهي دائماً الدليل على افتقار الحكام ومنافسيهم معاً الى النبض السياسي .

زد على ذلك ان الضروري يجب ان يقام به وفي وقته المناسب ـ واعني بهذا طالما ان الضروري لا يزال هبة أو منحة تستطيع بواسطتها السلطة الحاكمة ان تبتاع الثقة بنفسها ، بينما انه اذا ما سامت به السلطة ونزلت عنه ، فان عملها هذا يكشف عن ضعف ويثير الاحتقار . ان الاشكال السياسية هي اشكال حية ، وتتبع التغييرات التي تطرأ عليها اتجاهاً محدداً تحديداً ثابتاً متزمتاً ، وان المحاولة لمنع هذا الاتجاه هي تحويل مجراه نحو احد المثل العليا، هي بمثابة الاعتراف الصريح بأن صاحبها خارج كل « وضع لائق » . لقد كان النبلاء الرومان يملكون مواءمة النبض هذه ، وأما الاسبرطيون فلا . ونجد في مرحلة الديمقراطية الصاعدة ، (كما في فرنسا قبل عام ١٧٨٩ وفي المانيا قبل عام ١٩١٨) والمرة تلو المرة ، حلول اللحظة الخطيرة عندما يكون فيها الاصلاح الضروري قد تأخر طويلاً ليمسي هبة حرة ، ومنحة قدمت طوعاً واختياراً ، ونرى ايضاً فيها ان ذاك الذي يجب ان يرفض بكل عناد واصرار يعطى بوصفه تضحية ، وهكذا يصبح علامة من علامات الانحلال . ولكن اولئك الذين يفشلون في اكتشاف الضرورة الاولى في الوقت المناسب ، سيكون اكيدا فشلهم أشد في فهم الوضع الثاني .

وحتى الرحلة الى كانوسا [1] يمكن ان يقوم بها المرء قبل اوانها بكثير ، او بعد اوانها بزمن طويـــل ـ فالتوقيت قد يبت في مستقبل شعوب بأكملها ، ويقرر ما اذا كانت هذه الشعوب ستكون مصائر للآخرين ، ام تصبح خاضعة لمصائر الآخرين . ولكن تدهور الديمقراطية يكرر ايضاً الخطأ ذاته ، خطأ التمسك بما كان مثلاً اعلى للأمس . وهذا هو الخطر الذي يحف بقرننا العشرين . فعلى الطريق الى القيصرية يوجد هناك دائماً فرصة لايجاد كاتو .

ان النفوذ الذي يمتلكه احد رجال الدولة ـ وحتى الذي يكون منهم في مركز منيع بصورة استثنائية ـ على مناهج السياسة هو نفوذ جد ضئيل ، وان من الخصائص المميزة لكونه رجل دولة من طراز رفيع ، هي انه لا يخدع نفسه فيما يتعلق بهذا الامر . فواجبه ان يعمل داخـــل الشكل التاريخي وبواسطته ، والشكل الذي يجده قائماً وموجودا ، والانسان النظري هو وحده الذي يبحث بحميا وحماسة عن المزيد من الاشكال المثالية . ولكن كي يكون المرء « في شكل لائق » سياسياً ، يعني بالضرورة ، بالاضافة الى ما يعنيه من امور اخرى ، أن يسيطر هذا المرء سيطرة غير مشروطـة على احدث الوسائل واجدها . وليس هناك من خيار في هذا . فالوسائل والمناهج هي مقدمات منطقية تتعلق بالزمان وتنتمي الى شكله الباطني ـ وأن ذاك الذي يمد بيده ليمسك بغير الملائم منها ، ويسمح لذوقه او شعوره بان يسيطر على النبض داخله ، يفقد سيطرتـــه على الوقائع . ويتمثل خطر احـــدى الطبقات الارستقراطية في تمسكها بالوسائل المحافظـــة ، بينما يتجلى خطر الديمقراطية في مزجها بين الصيغ والشكل . اما

---

(١) يشير هنا اشبنغلر الى رحلة اوتو الاكبر الى قلعة كانوسا طلباً لغفران البـــابا غريغور السابع والتماساً لاعفائه من الحرمان .

ـ المترجم ـ

الوسائل الراهنة فهي وستبقى طيلة سنوات عديدة ، وسائل برلمانية ـ الانتخابات والصحافة . وباستطاعة المرء ان يرى فيها ما يشاء ويريد ، وبمقدوره ان يحترمها او يحتقرها ، لكن يتوجب عليه ان يسيطر عليها . لقــد كان باخ وموتزارت يسيطران على الوسائل الموسيقية لزمنيهما . وهذا هو الطابع المميز للتفوق في كل ميدان ، والمهارة السياسية لا تشكل استثناء منـــه . وليس شكلها الخارجي والمنظور بصورة عامة ، هو الجوهر ، بل انما هو لباسها التنكري ، ولذلك هو قابل للتبديل وللعقلنة والصياغة في نصوص دستورية ـ دون ان تتأثر بالضرورة واقعها ادنى تأثر ـ ومن هنا فان طموح كل الثوروبين يبـدد طاقات نفوسهم في لهوهم بلعبة الحقوق والمبادىء والحقوق السياسية على سطح التاريخ . ولكن رجل الدولة يعلم حق العلم بان توسيع دائرة الحقوق السياسية هو امر معدوم الاهمية تماما اذا ما قورن بالتقنية ـ أثينية كانت ام رومانية ام يعقوبية ام اميركية ام المانية على حالها اليوم ـ تقنية ادارة الاصوات (الناخبين) وتوجيهها . فما يقضي به الدستور الانكليزي ، هو امر قليل الاهمية اذا ما قورن بكونه موجهاً من قبل مرتبة صغيرة من العائلات الراقية الى درجـة اصبح عندها الملك ادوارد السابع مجرد وزير لوزارته . اما فيما يتعلق بالصحافة فقد يشرق وجه الانسان العاطفي غبطـــة وهناء عندما يضمن الدستور حريتها ـ ولكن الانسان العملي يتساءل بخدمة من تقوم هذه الصحافة الحرة .

واخيرا ان السياسة هي الشكل الذي يتحقق فيه تاريخ امة بين تعددية من امم . وهي الفن العظيم للحفاظ على الامـــة « في شكل لائق » باطنياً استعـداداً للاحداث الخارجية ، وهذه هي العلاقة الطبيعية بين السياسة الداخلية والخارجية ، وهي علاقة لا تولد فقط لدى الشعوب والدول والطبقات ، بل ايضا لدى جميع الوحدات الحيـــة من كل نوع ، انحدارا حتى ابسط حشود الحيوان ، وحتى الاجسام الافرادية . وفيما يتعلق بمركزي السياسة من داخلية وخارجية ، فان الاولى توجد حصراً وحصراً فقط من اجـل الثانية وليس العكس بالعكس

ولقد تعود الديمقراطي الصحيح ان يعالج السياسة الداخلية بوصفها غاية بذاتها ، اما الدبلوماسيون افراداً وجماعات فانهم يفكرون بالامور الخارجية فقط ، ولهذا السبب بالذات ، ليس للنجاحات الفردية التي يصادفها كلا الفريقين اية قيمة عملية . ولا شك ان الاستاذ السياسي يعرض قواه بوضوح شديـــد من خلال تكتيك الاصلاح الداخلي ، ومن نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية ، ومن خلال مهارته في محافظته على الشكل العام للكل ، على « الحقوق والحريات » لتكون متناغمـة واذواق المرحلة ، وفعالة في الوقت ذاته ، ومن خلال تهذيبه ، او تثقيفه للمشاعر التي يستحيل بدونها ان يكون الشعب في « وضع لائق » ـ واعني بهذه الثقـة والاحترام لشعور السلطـــة القائدة ، والرضاء والامتنان (واذا ما اقتضت الضرورة) الحماسة لها . ولكن قيمة كل هذه الامور تستند الى علاقتها بهـذه الحقيقة الاساسية للتاريخ الارقى ـ اي الى ان الشعب هو ليس وحده في العالم ، وان مستقبله تقرره علاقات زخمة بالشعوب والقوى الاخرى ، ولا يقرره التنظيم الداخلي المجرد لها . ولما كان الانسان العادي ليس على درجة عالية من التبصر في الامور ، وكانت الاقلية الحاكمة هي التي يجب ان تمتع بهذه الملكة ، نيابة عن الباقين ، لهذا فان رجل الدولة لا يجد الاداة لتنفيذ مقاصده الا اذا وجدت مثل هذه الاقليات .

ـ ٣ ـ

تكون السلطات الحاكمة ، في السياسات المبكرة زمنا لجميع الحضارات ، راسخة ومقررة من قبل ومكينة حتى اليقين . ويكون كامل الوجود في شكل شديد الجلال والرمزية . وتكون الارتباطات بالأم الارض على تلك الدرجة من

القوة والمتانة ؛ والعلاقة الاقطاعية وحتى وريثتها ، الدولة الارستقراطية واضحة للحياة الواقعة تحت سحريها وجلية الى حد يجعل السياسة في الحقبة الوميرية او الغوطية محدودة بالعمل الصريح الساذج السليم الطويـــة داخل اطار الاشكال المعينة . اما من حيث تغير هذه الاشكال او تبدلها ، فان هذا الامر يتم بصورة تلقائية ، اما الفكرة القائلة بان واجب السياسة هو ان تقوم بمثل هذه التغيرات ، فانها اكيداً لا تخطر على بال احد ، حتى ولو كان الامر يتعلق بالتطويح بالمملكة او الانحدار بالنبلاء الى مرتبة الخاضعين المذعنين . فهنا لا توجد الا سياسة طبقة واحدة ، سياسة امبراطورية او باباويـــة او سياسة مقطعين Vassal والدم والعرق يتكلمان من خلال اعمال تصدر عن فطرة وجبـــلة او عن شعور نصف واع ـ وحتى الكاهن يكون شبه سياسي بوصفه رجـــل عرق او عنصر . « فمشاكل » الدولة ومعضلاتها لم توقظ بعد . وتكون هنا السيادة ، والانظمة الاولية وكامل عالم الشكل اشياء او اموراً معطاة من الله ، واستناداً الى هـذه كمقدمات ، لا خلافاً عليها بوصفها مواضيع لنقاش وجدل ، تحـارب الاقليات العضوية معاركها . ونحن سندعو هذه الاقليات بالعصبات .

ومن جوهر العصبة كونها لا تستطيع ابداً ان تدرك الفكرة القائلة بان بمقدور المرء ان يبدل نظام الاشياء الى مخطط او خطة . فهدفها ان تفوز لذاتها بالمقام والسلطة او بالممتلكات داخل النظام ـ وذلك ككل الاشياء النامية في عالم نام . وهناك مجموعات تلعب فيها علاقات العائلات والشرف والولاء ، (وهـذه روابط من اتحاد لباطنية اسطورية تقريباً ،) دوراً ، وعن هذه العلاقات تصدر تماماً جميع الفكر التجريدية . على هـــذا الشكل كانت العصبات في الحقبتين الهوميرية والغوطية ، مثلاً تليماخوس Telemachus [1] وطالبي يـــد (امه ـ

---

(١) تليماخوس : نجل اودسيوس وبينولوب ، الذي عندما فشل في البحث عن والده عاد في الوقت المناسب ليقتل طالبي يد امه .

ـ المترجم .

المترجم) في اثينا ، وعصبة الزرق والخضر في زمن جوستنيان، والغولف Guelphs والغيبللين ، وعائلتي لانكستر ويورك ، والبروتستنت والموغونت ، وحتى القوى المحرضة فيما بعد ، قوى الفروند وعهد الطغاة الاول . زد على ذلك ان كتاب مكيافيللي (الامير) يرتكز بصورة مطلقة على هذه الروح .

ويبدأ التغير حالما تتسلم الطبقة اللامنزلية ، البرجوازية ، مع المدينة الكبرى مهام الدور القيادي . وهنا تمسي الحال عكس ما كانت عليه ، اذ ان الشكل السياسي يصبح موضوع الخلاف ، ويغدو المعضلة . فهذا الشكل كان حتى الآن قد نضج ، واليوم ملزم بأن يقولب . وهنا أصبحت السياسة واعية ، وهي لم تعد مفهومة فقط ، بل اختزلت ايضاً الى فكر قابلة للفهم والادراك . وهنا تهب قوى العقل والمال لتناهض الدم والتقاليد ، وهنا يحل المنظم محل العضوي ، والحزب محل المنزلة الاجتماعية . والحزب ليس بناء عرق ، بل مجموعة من الرؤوس ، ولذلك يبلغ تفوقه العقلاني على المنزلتين القديمتين قدراً يساوي تماماً فقره في الغريزة والجبلة أو الفطرة .

والحزب هو العدو المميت للانتظام الطبقي الناضج بصورة طبيعية ، هذا الانتظام الذي يكون مجرد وجوده متناقضاً وجوهر الحزب . ونتيجة لذلك فان فكرة الحزب هي دائماً فكرة مرتبطة بتلك الفكرة النافية دون تحفظ والتصديعية التمزيقية والانبساطية الاجتماعية ، فكرة المساواة . وهنا لا يعترف احد بالمثل العليا النبيلة ، بل بالمصالح الحرفية ، المهنية ، وحدها . والامر ذاته بالنسبة لفكرة الحرية ، اذ ان هذه الفكرة نفي كذلك . والاحزاب هي ظاهرات حضرية مجردة . ومع انعتاق المدينة من الريف ، تخلي سياسة المنزلة الاجتماعية في كل مكان (أعرفنا به بيانياً أم لم نعرف) الطريق امام سياسة الحزب . وقد تم هذا الامر في مصر في نهاية المملكة الوسيطة ، وفي الصين في حقبة الدول المتنازعة ، وفي بغداد وبيزنطة في الحقبة العباسية . وتتشكل الاحزاب في عواصم الغرب

وفق الاسلوب البرلماني ، او في دول مدن العالم الكلاسيكي عـــلى طراز الفوروم ، وتطالعنا أحزاب من الطراز المجوسي في الموالي ورهبان ثيودور فون شتوديون .

ولكن الطبقة اللا منزلية ، وحدة المعارضة والاحتجاج على جوهر المنزلة ، هي دائماً التي تدفع بأقليتها ـ المشكّلة من المثقفين والاثرياء ـ بوصفها حزباً ذا منهاج يتألف من مقاصد لا يشعر بها بل تعرف ، ومن رفض لكل شيء لا يمكن ادراكه عقلانياً . ولذلك فانه يوجد في الاعماق ، حزب واحد فقط ، حزب البرجوازية ، حزب الليبرالية ، وهذا الحزب يعي وعياً كاملاً مركزه على هذا الشكل الآنف الوصف . وهو يرى نفسه متساوياً في الانتشار ، او الامتـــداد « والشعب » . وخصوم هذا الحزب (وهم قبل اي انسان المنزلتان الاصيلتان ـ أي النبيـــل صاحب الملك والكاهن) هم اعداء وخونة « للشعب » ، أما آراؤه فهي « صوت الشعب » ـ وهذه آراء تطعم بكل ما هو مناسب وملائم لحضانـــة الحزب سياسياً وتلقح بالخطابة في الفوروم ، وبالصحافة في الغرب حتى تمسي تمثـل الحزب تمثيلاً حسنا .

ان المنزلتين الاوليتين هما النبالة والكهنوت . اما الحزب الأولي ، فهو حزب المال والعقل ، حزب الليبرالية والميغالوبولينية . وهنا يكمن التبرير العميق في كل الحضارات لفكرتي الارستقراطية والديمقراطية . فالارستقراطية تحتقر عقل المدن ، والديمقراطية تزدري بالفلاح العتيق وتكره الريف . وهذا هو الفرق بين سياسة المنزلة وسياسة الحزب ، بين الشعور الطبقي والميل الحزبي ، بين العرق والعقل ، بين النمو والبناء . وتقف الارستقراطية في الحضارة المكتملة ، والديمقراطيـة في مطلع المدنية الكوسموبولينية ، موقفين يناهض الواحد منهما الآخر ، وتبقيان على هذه الحال حتى تجرفهما سيول القيصرية ويغرقهما طوفانها معاً . ولما كانت النبالة، المنزلة الاجتماعية الاكيدة (وكانت دولة الطبقة الثالثة لم تستطع ان تدبر أمرهـا

كي تجعل نفسها حقاً في شكل من هذا الطراز) كذلك يفشل اكيداً النبلاء في محاولة شعورهم بأنهم حزب بالرغم من انهم قد يقدمون على تنظيم انفسهم بوصفهم حزباً . وليس للنبلاء خيار في ذلك . فجميع الدساتير الحديثـة تنكر وجود المنزلتين الاجتماعيتين وتجحده . وهي مبنية استناداً الى الحزب بوصفـه الشكل الاساسي الواضح والغني عن البيان للسياسة .

ان القرن التاسع عشر هو موسم ازدهار سياسة الحزب وشبابها - وهو لذلك يتجانس والقرن الثالث قبل المسيح . والطبيعة الديمقراطية لهذه السياسة تفرض بالضرورة نشوء احزاب معارضة ، وحيث انـه فيما مضى ، وحتى في وقت متأخر يعود الى القرن الثامن عشر ، قامت « الطبقة الثالثة » تقليداً منها للنبلاء بوصفهم منزلة اجتماعية ، « بتشكيل » ذاتها ، لذلك تبرز هنا الشخصية الدفاعيـة ، شخصية حزب المحافظين ، المنسوخة عن الحزب الليبرالي ، والخاضعة كلياً لسيطرة اشكاله ، ومن ثم ترتدي هذه الرداء البرجوازي ، دون ان تكون برجوازيـة ، وترغم على الصراع وفق القواعد والمناهج التي اشترعتها الليبرالية . وليس أمـام الحزب المحافظ من خيار ، فعليه اما ان يعالج هذه الوسائل أفضل من خصمـه أو يبيد ، ولكن بسبب طبيعة تركيبه كمنزلة اجتماعية ، نراه لا يفقه الوضع الراهن ، فهو يهاجم الشكل بدلاً من العدو ، وهكذا نراه متورطـاً في استخدام تلك المناهج المتطرفة التي نشاهدها تسيطر على السياسات الداخلية لدول بأكملها وذلك في الاطوار الاولى من كل مدنية ، وبهذا يكون الحزب المحافظ يسلم هـذه المناهج بصورة بائسة الى أيدي العدو . ويصبح الارغام المحتوم على كل حزب أن يكون برجوازياً ، صورة كاريكاتورية مجردة ، وذلك عندما يقوم الثقل القابع ما دون برجوازيي الثقافة والممتلكات ، بتنظيم نفسه بوصفه حزباً ايضاً . فالماركسية مثلاً هي ، كنظرية ، نفي للبرجوازية ، ولكنها ، كحزب ، لها ، جوهرياً ، موقف الطبقة الوسطى وقيادتها . وتعاني ارادتها صراعاً دائماً مستمرا وهي لذلك تندفع بالضرورة خارج حدود السياسة الحزبية ، ولهذا خارج النطاق الدستوري (وكلا

هذين هما ، حصراً ، ظاهرتان ليبراليتان) الى ما نسميه صواباً بالحرب الاهلية ـ والى المظاهر الحزبية التقليدية التي تشعر بأنها مرغمة ، تبريراً لذاتها ، على اتخاذهـا كي تصون نفسها من التدهور والسقوط . ولكن هـــذه المظاهر هي أمور لا يستغنى عنها بالنسبة للماركسية ايضاً ، وذلك اذا ما كانت تقصد تحقيق نجاحات لها صفة الديمومة . زد على ذلك ان حزب النبلاء يكون باطنياً داخل البرلمان ، حزباً اصطناعياً مزوراً كالحزب البروليتاري تماماً. اذ ان الحزب البرجوازي هو وحده الذي يحتل مكانه الطبيعي داخل البرلمان .

وكان نبلاء المدينة والعوام ، في روما ، ابتداء من العمل بنظام التربيونات عام ٤٧١ ، حتى الاعتراف بالحق المطلق للفريقين في الامور التشريعية ، في ثورة ٢٨٧ ، يقتتلون بوصفهم منزلتين ، طبقتين ، بصورة جوهرية . ولكن لم يعد بعد هذا التاريخ للالفاظ المتناقضة اكثر من مغزى سلالي تقريباً ، وهنا نشأ وتطور ، بدلاً من الحزبين ، اللذين يمكننا ان نسميهما ، ونحن نستنـــد الى كل سبب ، بالليبرالي والمحافظ ـ اقول نشأ حزب الشعب الذي كان يسيطر عـلى الفوروم ، وحزب النبلاء الذي اتخذ من الشيوخ مرتكزاً له . وكان مجلس الشيوخ قـــد حوّل نفسه (قرابة عام ٢٨٧ من مجمع عائلي يضم الافخاذ القديمـة الى مجمع دولة للطبقة الارستقراطية الادارية . وكان حزب الشعب يرتبط بجمعيـــة الملكيات المدرجة ، جمعية سنتيورياتا وبمجموعة كبار الماليين الاكويتس ، اما النبلاء فكانوا يتحالفون مع ملاك الارض الذين كانوا ذوي سطوة ونفوذ في جمعية التربيوتا . ولنتأمل ، من جهة ، في الغراكشي Gracchi وماريوس ، من جهة أخرى ، في ك . فلامينيوس ، ان بعضاً من توغل سيكشف عن التبدل الكامل الذي طرأ على مركزي القناصل والتربيونات . فهم لم يعودوا الاوصياء المختارين من قبـــل المنزلة الاولى والثالثة ، ذلك وفق ما لهاتين من قواعد سلوك ، بل يمثلون حزبين ، ويبدلونهما في المناسبات . فلقد كان يوجد قناصل ليبراليون ككاتو الاكبر ، وتربيونات محافظون كأكتافيوس الذي عارض تي . غراكشوس . وكان كلا

الحزبين يعينان مرشحيهما للانتخابات ، ويستخدمان كل وسيلة دهماوية لانجاحهم ـ وكانا ، عندما يفشل المال في كسب الانتخابات ، يسارعان الى التأثير (وبصورة متزايدة) فيمن انتخب محاولاً كل منهما ان يجتذبه الى صفوفه .

اما في انكلترا فلقد قام التوري والهويغ ، ابتداء بمطلع القرن التاسع عشر ، وخلقا من نفسيهما حزبين ، وأصبح كلاهما برجوازيين ، واقتبسا المنهاج الليبرالي اقتباساً حرفياً ، هذا المنهاج الذي كان يتمتع بالرضاء التام للرأي العام وبقناعته المطلقة ، ولذلك اخلد الى السكينة . والحق ان هذا العمل كان بمثابة ضربة معلم وجهت في اللحظة السديدة ، ومنعت تشكل حزب معاد لمبدأ المنزلة الاجتماعية ، كالحزب الذي نشأ في فرنسا عام ١٧٨٩! . وقد أصبح أعضاء مجلس العموم ، الذين لا يزالون حتى اليوم سفراء المرتبة الحاكمة من الطبقة ، الممثلين الشعبيين ،لكنهم بقوا يعتمدون مالياً على هذه المرتبة . وهكذا بقيت مقاليد القيادة في الايدي ذاتها وكان تعارض الحزبين اللذين أصبحا ابتداء بعام ١٨٣٠ ، يعرفان بالليبرالي والمحافظ ، امراً بدهيا تقريباً ، اذ انه كان دائماً واحداً من الزوائد (+) أو النواقص (–) ولم يكن ابداً تعاقبيين غفلا . وتحولت ، في هذه السنوات ذاتها حركة الحرية الابية « لالمانيا الفتاة » الى حركة حزب ، وفي عهد اندرو جاكسون ، انتظم الهويغ القوميون والأحزاب الديمقراطية في اميركا في حزبين متنافسين ، وقد تم الاعتراف الصريح بالمبدأ القائل بان الانتخابات هي عمل تجاري أو صناعي Business ، وان وظائف الدولة من اعلاها مرتبة حتى ادناها هي « غنائم واسلاب حرب » للمنتصرين .

لكن شكل الاقلية الحاكمة يتطور بصورة منتظمة من شكل المنزل مروراً بشكل الحزب واتجها نحو التبعية للفرد . وذلك لأن الدلالة الظاهرية على نهاية الديمقراطية وانتقالها الى القيصرية ، لا تتبدى مثلًا في اختفاء الطبقة الثالثة ، الليبرالية ، بل في اختفاء الحزب نفسه بوصفه شكلًا وهنا تذوب العواطف

والمقاصد الشعبية والمثل العليا التجريدية التي تميز كل سياسة حزبية اصيلة ، وتحل محلها السياسة الشخصية وارادة القوة المطلقة من كل لجام وعنان لحفنة قليلة من الاشخاص ذوي نوعية عرقية قوية . ان للمنزلة الاجتماعية فطرتها وجبلتها ، وان للحزب « منهاجه وبرامجه » لكن للاتباع سيداً وهـذا كان مجرى الاحداث ابتداء بنبلاء المدينة والعوام ومروراً بحزبي الاعيان والشعبيين حتى اتباع بومباي وقيصر . وهنا نشهد ان حقبة السياسة الحزبية الصحيحة بالكاد تغطي قرنين من الاعوام ، وفيما يتعلق بنا (الغربيين) فانها في حال من تدهور مستمر منذ الحرب العالمية (الاولى - المترجم) .

اما القول بأنه يتوجب على كامل جماهير الناخبين التي يحركها حرض مشترك ، ان تختار أناساً قادرين على ادارة امورها — وهـذا زعم ساذج تتبناه جميع الدساتير — هو امر ممكن فقط في الانطلاقة ، في الدفعة الاولى ، ويفترض مسبقاً ألا يكون وجود حتى لمبدأ التنظيم لدى جماعات معينة . وهذه كانت الحال في فرنسا عام ١٧٨٩ وعام ١٨٤٨ . فليس امام الجمعية الا ان تكون او توجد ، حتى تتشكل فوراً داخلها وحدات تكتيكية ، يعتمد ترابطها على ارادة المحافظة على المركز الذي اكتسب ، وبدلاً من ان تعتبر هذه الوحدات نفسها ناطقة للناخبين ، تنطلق لتوفر كل وسائل التحريض التي يتطلبها نفوذ وتستلزمها غاياتها وتصلح لمقاصدها . فالنزعة التي نظمت نفسها داخل الشعب ، قد اصبحت فعلا اداة للمنظمة ، التي امست بدورها اداة بيد الزعيم . فارادة القوة هي اقوى من اية وكل نظرية . وفي البداية توحد الزعامة والاجهزة الحزبية من اجل المنهاج ، ثم يتمسك القائمون عليها بها تمسكاً دفاعياً حباً بالسلطة والغنائم — كما هي الحال اليوم في كل مكان ، اذ اننا نشاهد الآلاف في كل بلد يعيشون على حساب الحزب ويتعيشون من المناصب والمهام التي يوزعها عليهم . واخيراً يتلاشى المنهاج ويزول من الذاكرة ، وتصبح المنظمة تعمل من أجل نفسها فقط .

كانت الزمالة في المعركة ، في عصر تسيبيو الاكبر او كونيكتوس فلامينيوس لا تزال تعني الالتزام الادبي الذي نعهده بين « الاصدقاء » عندما نتحدث عنهم . ولكنها قطعت مع تسيبيو الاصغر شوطاً ابعد من ذلك « فاصدقاؤه الحميمون » كانوا لا شك اول مثال للاتباع المنظمين الذين كان نشاطهم يمتد الى المحاكم والانتخابات . ووفق الاسلوب ذاته تطورت العلاقة البطريركية والارستقراطية ، علاقة الولاء بين النصير والعميل الى طائفة مصلحية ترتكز الى اسس مادية صرفة ، وكانت توجد حتى قبل قيصر مواثيق خطية بين المرشحين والناخبين تنص على شروط خاصة بالدفع (بالقبض) والقيام بالالتزامات . وكانت توجد ، من الجهة الاخرى ، كما هي الحال اليوم في اميركا ، اندية ولجان انتخابية بلغت سيطرتها او ارهابها لجماهير ناخبين حماتها درجة مكنتها من ان تعقد الصفقات الانتخابية مع الزعماء الكبار ما قبل قيصر ، وتفاوض هؤلاء مفاوضة الند للند . وهذا الواقع بعيد كل البعد عن كونه مظهراً لدمار الديمقراطية واندثارها ، وذلك لان هذا هو ما تعنيه بالذات ، وهذا هو موضوعها بالضرورة ، اما تفجعات المثاليين الذين ليسوا من هذا العالم ، ومراثيهم وعويلهم على دمار آمالهم فانها تكشف فقط عن جهالتهم العمياء بالثنائية الصلبة التي لا ترحم ، ثنائية الحقائق والوقائع ، وبالرباط الوثيق الذي يشد العقل الى المال .

ان النظرية السياسية الاجتماعية هي قاعدة واحدة فقط من قواعد السياسة الحزبية ، لكنها قاعدة ضرورية . وان للسلسلة الفخورة الممتدة من جان جاك روسو الى ماركس ، نموذجها المضاد في سلسلة السوفسطائيين الكلاسيكيين حتى افلاطون وزينون . اما فيما يتعلق بالصين ، فانه يتوجب علينا ان نستخلص العقائد المتجانسة وتلك وهذه من الكتب الكونفوشية والطاوية ، ويكفينا هنا ان نشير الى الاشتراكي مو – تي Moh - ti كما وان هذه العقائد تحتل في الكتب البزنطية والعربية العائدة الى الحقبة العباسية – وحيث الراديكالية فيها هي ، ككل

شيء آخر منها ، ذات نظام ديني ارثوذكسي - اقول تحتل مكاناً كبيراً منها ، وقد كانت هذه العقائد قوى اقتحامية قيادية في جميع الازمات التي عرفها القرن التاسع . اما كون انها قد وجدت في مصر والهند ايضاً ، فهذا ما تبرهن عليه ارواح الاحـداث في عصور المكسوس وبوذا . والشكل الادبي ليس جوهرياً بالنسبة لها - فهي تنتشر بكلمة الفم والوعظ والدعاية بين الطوائف والملـــل والجمعيات الانتشار المطلوب والذي كان المنهاج المثـالي للدعوة في ختام حركات التطهير (ولا يستثنى من هذه الاسلام والمسيحية الانغلو اميركية) .

اما ما اذا كانت هذه العقائد « صحيحة » او « خاطئة » فهذا الامر لا قيمة له في نظر التاريخ السياسي - وهذا ما يتوجب علينا ان نكرره ونؤكده . - فدحض الماركسية ، مثلاً ، امر يتعلق بالبحث الاكاديمي وبالمناقشات العامة حيث يكون فيهـا كل انسان دائمـاً على صواب ويكون خصمه بصورة مستمرة على خطأ . ولكن ما اذا كانت هـذه فعالة ومؤثره - وابتداء بمتى والى متى بقيت المعتقد الذي يستطيع الامر الواقع ان يصلح من امره بواسطة منهاج من المفاهيم او الاراء ، المعتقد الممثل لقوة حقيقية يتوجب على السياسة ان تحسب لها حساباً - فهذا هو المهم . واننا لنجد اليوم انفسنا في مرحلة تسودها قناعة مطلقة بجبروت العقل وقدرته الكلية . فالفكر العظمى العامـــة - الحرية ، العدالة ، الانسانية التقدم - هي ذات حرمة قدسية ، انهـا قدس الاقـداس . والنظريات الكبرى هي الاناجيل . وقوتها عـلى الاقناع لا تنبع من مقدمات منطقية ، وذلك لان جمهرة الحزب لا تمتلك الحيوية التنديدية ولا التفريد Detachment لتضعها جديا في انبوب الاختبار ، لهذا فان قوتها تلك تنبع من اقنومها (جوهرها) الكامن في مفتاح كلماتها . زد على ذلك ان سحرها محصور فعله في سكان المدن الكبرى . كما وان مرحلة العقلانية هي مرحلة « دين الانسان المثقف » . وهي معدومة من كل اثر في الفلاحين ، كما وان تأثيرهـا في جماهير المدينة يستمر فقط مدة معينة . ولكن تكون لها طيلة مدة استمرارها لامقاومة الوحي الجديد . فهنا نرى

الجماهير مؤمنة بها وتتعلق بغيرة وحماسة بكل كلمة او عظة عنهـــا وتندفع الى الاستشهاد في المتاريس وميدان المعركة واعواد المشانق ، لكن هؤلاء تكون حلقاتهم مركزة على عالم اجتماعي سياسي غير هـــذا العالم ، لذلك يبدو لهم اي تنديد واع خبيثاً وتجديفاً يستحق صاحبه الموت .

ولكن لهذا السبب بالذات تكون الوثائق من طراز العقد الاجتماعي او البيان الشيوعي ، آلات ذات طاقات هائلة في ايدي الفئة الجسور التي ارتفعت الى قمـة الحيـــاة الحزبية ، والتي تعرف كيف تشكل وتستخدم قناعات الجماهـــير الخاضعة لسيطرتها .

ونادراً ما تستمر هذه المثل العليا التجريدية في المحافظة على ما لهـــا من قوى اكثر من قرنين ، وهذان مخصصان للسياسة الحزبية ، وقواها لا تسقط وتتلاشى نتيجة لانكار مثلها او دحضها ، بل بسبب السأم او الضجر - الذي قتل روسو منذ طويل زمن وسيقضي على كارل ماركس مما قريب . فالناس يتخلون اخيراً لا عن هذه النظرية او تلك ، بـل عن الايمـــان بالنظريات من اي نوع كانت ، ويتخلون معه عن التفاؤلية العاطفية لقرن ثامن عشر خيل اليـه بان باستطاعته ان يصلح من امر وقائع غير مرضية بواسطة تطبيق المبادىء او المفاهيم . وعندما قام افلاطون وارسطو ومعاصروهما بتعريف وتوليف مختلف الانواع من الدستور الكلاسيكي بغية الحصول على نتيجة حكيمة وجميلة ، كان العـــالم بأكمله آذاناً صاغية لهم ، وقـــد حاول افلاطون بالذات ان يحول سيراكوس وفق صيغة التركيب الايديولوجي - فدفع بهذه المدينة الى منحدرات الدمار . ويبـدو لي بصورة مؤكدة ان التجارب المختبرية الفلسفية من هـذا النوع هي المسؤولة عن تدهور دول الصين الجنوبية ، وتسليمها لقمة سائغة لامبرياليـــة تسن . زد على ذلك ان المتطرفين من اليعاقبة في المناداة بالحرية والمساواة قد دفعوا بفرنسا من نظام الديكتوار الى ايدي الجيش والبورصة الى الابد ، وكل انفجار اشتراكي

انما ينير فقط دروباً حديدة امام الرأسمالية . ولكن عندمـــا كتب شيشرون
De re publica لبومباي و كتب سالاست Sallust وعيـديه لقيصر لم يكن
يوجد يومذاك من يسمع او يصغي . ولربما اكتشفنا في تيبريوس غراكوس شيئاً
من اثر يعود للرواقي الغيور بلوسيوس الذي انتحر فيما بعـــد ، عقب ان دفع
بأرسطونيكوس فون برغاموم الى الدمار ، لكن النظريات كانت قـد أمست
والقرن الأول قبل المسيح ممارسة مدرسية رثة مهلهلة ، ومنذ هذا التاريخ أصبح
للقوة والقوة وحدها القول الفصل .

ان عصر النظريات ، يقترب ، بالنسبة الينا ايضاً ، من نهايته ـ وارجو الا
يخطىء انسان في هذا الامر . فجميع المناهج من ليبرالية واشتراكية قد نشأت
خلال الفترة الواقعة بين عام ١٧٥٠ وعام ١٨٥٠ . كما وان نظرية ماركس قـد
بلغت منذ حين نصف قرن من العمر ، ولم تجد من نظرية اخرى تخلفهـا . وهي
بهذا تعني باطنياً وحسب منطوق فهمهـا المادي للتاريخ ، ان القومية قـد بلغت
اقصى نتائجها المنطقية ، وانها لذلك حـد النهاية . ولكن كما ان الايمـان بحقوق
الانسان لروسو قد فقد زخمه (قرابة) عام ١٨٤٨ ، كذلك فان الايمان بماركس
قد فقد طاقاته ابتداء من الحرب العالمية . وعندمـا يقارن المرء ذاك التفاني حتى
الموت الذي اوجدته افـكار روسو في الثورة الفرنسية بموقف الاشتراكيين عـام
١٩١٨ ، هؤلاء الذين حاولوا الحفاظ امام وداخل مناصريهم على قناعة لم يعودوا
هم بالذات يمتلكونها ـ ومحاولتهم هـذه لم تكن باعثتها فكرة الاشتراكية ، بـل
كانت سببها السلطة المرتكزة اليها ـ عندمـــا يقارن المرء هذا ويتأمله عندئذ
يستطيع ان يتميز المراحل التي لا تزال امامه من الطريق ، حيث يكون الذي
لا يزال متبقياً من المنهاج محكوماً عليه بالاندثار ، نتيجة لكونـه آنذاك مجرد
عثرة في طريق الصراع على السلطة . لقد كان الايمـان بالمنهاج وساماً ومجـــداً
لاجدادنا ـ وسيكون في نظر احفادنا دليلاً على الاقليمية والريفية . فمكانه تنمو ،
حتى الآن ، بذرة لورع مذعن متوكل جديد انبثق من الضمير المعذب والجوع

الروحي ، وسيكون واجبه ايجاد جانب جديد يواجهنا ، جانب يبحث عن الاسرار بدلا من المبادىء الفولاذية اللماعة ، وسيجدها ، في النهاية في أغوار « التدين الثاني » .

- ٤ -

هذا هو الجانب الواحد ، انه الجانب اللفظي من الواقعة العظمى المعروفة بالديمقراطية . ويبقى أمامنا الآن ان نتأمل في الجانب الآخر ، الجانب الحاسم ، جانب العرق منها . ان الديمقراطية كانت ستبقى سجينة العقول اسيرة الورق لو لم يقدر لها ان يكون بين ابطالها طبائع اسياد اصيلي السيادة لم يكن الشعب في نظرهم اكثر من هدف ، ولم يكن المثل الاعلى اكثر من وسيلة - بالرغم انه من الجائز لم يكونوا يشعرون بهذا ، لكنهم كثيراً ما وعوا هذا الواقع وادركوه فجميع مناهجها ، وحتى أشدها دهماوية في انعدام الشعور بالمسؤولية - والتي هي باطنياً المناهج ذاتها لل- Ancien régime لكنها صممت لتطبق على الجماهير بدلا من تطبيقها على الامراء والسفراء ، واعتمدت الاراء الوحشية والانفعالات وانفجارات الإرادة بدلا من الارواح المختارة ، وكانت بمثابة جوقة من ابواق ومزاهر ، بدلا من موسيقى - المخدع Chamber music - نعم جميع هذه المناهج قد وضعها ديمقراطيون مستقيمون لكنهم عمليون ، ومن هؤلاء تعلمتها الاحزاب ذات التقاليد .

وعلى كل حال فان من الخصائص المميزة لمجرى الديمقراطية وسياقها ، كون مشترعي الدساتير الواسعة الشعبية لم يكونوا يمتلكون اية فكرة عن سير التطبيق

العملي لمخططاتهم - ولا يستثنى من هذا واضعو دستور « السرف » في رومـا ولا مشترعو دستور الجمعية الوطنية في باريس . ولمـــا كانت اشكالهم هــــذه (دساتيرهم - المترجم) ليست كشكل الاقطاع ، اي حاصل نمو وغلة نماء ، بل على فكر تجريدية عن الحق والعدالة) لذلك سرعان مــــا تنشأ هوة تفصل بين الجانب العقلاني من القوانين وبـين - العادات العملية التي تشكل بصمت تحت ضغط هذه القوانين ، فاما ان توفق بينها وبين هذه القوانين او تطردها من ايقاع الحياة العملية . فالخبرة هي وحدها التي علمت وتعلم ابـدا الدروس ، والناس لا يتأكدون الا في نهاية كامل التطور من ان حقوق الشعب ونفوذ الشعب همـــا شيئان يختلف الواحد منهما عن الآخر . وكلمـــا اتسعت دائرة حق الانتخاب تتقلص دائرة سلطة الناخبين وتضيق .

ويكون الميدان في مطلع الديمقراطية وقفاً على العقل وحـده . وليس لدى التاريخ من مشهد تباهي به أنبل وانقى من الجلسة الليلية التي عقدت في الرابع من شهر آب عام ١٧٨٩ ، والقسم الذي ادي في ساحـة التنيس ، او الاجتماع الذي عقـــد في كنيسة بولس في فرنكفورت في الثامن عشر من شهر ايار عام ١٨٤٨ - وذلك عندمـــا قام رجال يملكون مقاليد السلطة فغاصوا في خضم مناقشات الحقائق العامة تلك الفترة الطويلة من الزمن ، حيث استطاعت معهـا قوى الامر الواقـع ان تهزأ بالحالمين وتنحيهم جانبـــاً . ولكن تلك الكمية الديمقراطية الاخرى لم تضـع الوقت هباء في تلك الاثناء ، وذلك عندمـا تبدت على المسرح مذكرة رجال الامر الواقع ، بأن المرء يستطيـع ان يستخدم حقوقه الدستورية عندما يملك المال فقط . امـا ان يتوجب على حق الانتخاب ان يسفر عن النتيجة ذاتها تقريباً التي يريده المثاليون أن يسفر عنها ، فهذا يفترض عـــدم وجود اية قيادة منظمة تنشط بـين وعلى الناخبين (موجهـة اياهم لمصلحتها) الى الحد الذي يسمح به المال المتوفر لديها . وحالما تطل مثل هـذه القيادة برأسها ، لا يعود هناك اي معنى للتصويت اكـــثر من كونه تعزيزاً او لومـــا توجهه

الجماهير الى المنظمات الافرادية ، والتي لن تكون لهذه الجماهير في النهاية ابسط اثر من نفوذ ايجابي فيها . وهذه ايضاً حال الموضوع المثالي للدساتير الغربية ، حال الحق الجوهري للجماهير في اختيار ممثليها - فهذا الحق يبقى نظرية مجردة ، وذلك لان كل منظمة تجند ذاتها في ميدان الامر الواقع . واخيراً ينشأ ذاك الشعور القائل بان حق الانتخاب العام لا يحتوي اية حقوق فعالة اطلاقاً ، وحتى معدوم من حق الاختيار بين الاحزاب . وذلك لان الشخصيات الجبارة التي نمت على تربة الجماهير تسيطر ، بواسطة المال ، على الآلة العقلانية بأكملها من خطابة وكتابة ، وهي قادرة ، من جهة ، على توجيه الاراء الافرادية كيفما تشاء وتهوى ، فوق الاحزاب ، وتستطيع من جهة اخرى ، بواسطة حمايتها او رعايتها ونفوذها وتشاريعها ان تخلق كيانا كاملا من مناصرين مخلصين (نظام اللجان في الاحزاب) يصدون الباقين حيث يشيعون في نفس هؤلاء خمولا وتبلداً في ممارستهم للانتخاب ، وحيث لا يستطيع هؤلاء في النهاية ان يتغلبوا على شعور التبلد هذا حتى في الازمات الكبرى .

ويتبدى مظهراً ان هناك فروقاً كبيرة بين الديمقراطية البرلمانية الغربية وبين الديمقراطية التي عرفتها كل من المدنيات المصرية والصينية والعربية ، والتي تعتبر فكرة الانتخاب العام بالنسبة لها فكرة غريبة غرابة كلية . ولكن الجماهير في عصرنا نحن معشر الغربيين هي بالنسبة الينا في « شكل لائق » بوصفها هيئة من ناخبين ، وذلك وفق ذاك المفهوم تماماً حينما تعودت على أن تكون في «شكل لائق » بوصفها طاعة جماعية - واعني بهذا بوصفها هدفاً لسيد - وكما كانت في « شكل لائق » في بغداد بوصفها مللاً أو نحلاً ، او في بيزنطة كرهبان ، وفي غير هذه من أماكن بوصفها جيشاً مسيطراً او جمعية سرية او « دولة داخل الدولة » .

ان الحرية هي بمجالها أبداً ، نفي ، وهي تقوم على انكار التقاليد والسلالة

المالكة والخلافة ، لكن السلطة التنفيذية تنتقل فوراً من هذه المؤسسات ودون أن يطرأ عليها أي نقص الى القوى الجديدة ـ زعماء الحزب الديكتاتوريين ـ رؤساء الجمهوريات الانبياء ومناصريهم ـ وحيث تستمر الجماهير ازاءهم جميعاً ودون ما قيد أو شرط الموضوع السلبي . ان « حق تقرير المصير الشعبي » هو تعبير مجازي أريب مهذب ولكن الانتخاب لم يعد له في الواقع ووفق حق الانتخاب العام اللامتعني ، معناه الاصيلي . اذ كلما تزايد الاستئصال السياسي في جذريته لانظمة المنزلتين القديمتين الناضجتين والحرف ، المهن ، تتزايد جماهير الناخبين في لا شكليتها وهزالها ، ويتزايد اكتمال جمعها وتسليمها للقوى الجديدة ، لزعماء الحزب الذين يفرضون ارادتهم على الشعب بواسطة مجموع آلة الارغام المقلاني ، وهؤلاء يتبارز بعضهم ضد بعض بالمناهج على السيادة ، والتي لا تستطيع الجماهير في النهاية ان تلاحظها أو تدركها ، ويتعاملون والرأي العام بوصفه سلاحاً عليهم أن يصهروه ويصقلوه ليستعمله بعضهم ضد بعض . ولكن هذه العملية بالذات ، اذا ما نظر اليهم المرء من زاوية اخرى ، يراها كأنها نزعة لا تقاوم لتوفع بكل ديمقراطية خطوة فخطوة على طريق الانتحار .

وقد امتدت الحقوق الجوهرية للشعب الكلاسيكي (Demos Populus) الى القبض على ارقى مقاليد الدولة واشغال أعلى الوظائف القضائية . وكان الشعب في « شكل لائق » حينما يمارس هذه الحقوق في الفوروم التابع له ، حيث تكون جماهير النقطة اليوقليدية قد التأم شملها حجمياً ، وحيث تصبح هنا هدفاً لعملية تأثير وفق الاسلوب الكلاسيكي ، واعني بهذا وفق وسائل حجمية حسية وقريبة مسافة ـ أي بواسطة الخطابة التي يتلوها الخطيب على كل اذن وعين ، وبواسطة ابتكارات (حيل) قد يبدو الكثير منها في نظرنا أموراً تشمئز منها النفس ولا تطاق او تحتمل تقريباً ، كالبكاء التمثيلي المدرب عليه ، وشق الثياب وتملق المستمعين تملقاً لا خجل فيه أو حياء ، والاكاذيب الاسطورية التي كانوا يلفقونها عن خصومهم ، وباستعمال كلمات رائعة وشبه جمل بديعة ،

وكاندنزات Cadanzas متصاوتة (حيث أصبح مـــع الزمن لدى العـــالم الكلاسيكي مستودعات هائلة من هـــذه ومخصصة للمكان والغرض) وبالالعاب والمدايا ، وبالتهديد والضربات ، ولكن قبل كل هـــذه ، وأهم من جميع هذه بالمـــال . ويطالعنا هذا السلاح بادىء ذي بـــدء في اثينا عام ٤٠٠ ، ويبلغ ذروته في رومـــا قيصر وشيشرون . وهنا لم تختلف الحال عن الحال في اي مكان آخر ، فبدلا من أن تصبح الانتخابات تعيينات لممثلي طبقـــات ، أمست ميداناً تدور عليه المعارك بين مرشحي الاحزاب ، وميدان يفتح صدره لتدخل المال ، وللمزيد فالمزيد من المال ما بعد معركة زاما . ويورد غلتسر في الصفحة ٩٤ من كتابه « النبالة » الجملة التالية :

وكلما وفق الافراد في تركيز المال بايديهم ، كان الصراع السياسي على السلطة يتطور ليصبح موضوع مال . » ولا اعتقد بانني بحاجـة الى المزيد من القول . ومع هذا فانه لمن الخطأ ان ننعت هذا الامر بالفساد وذلك اذا اردنا الانسجام والمفهوم الاعمق . فهذا الامر لا يمثل انحلالا بل انه من صميم الاخلاقية الديمقراطية بالذات حيث تستلزمها الضرورة ان تتخذ اشكالاً كهذه عندما تبلغ مرحـــلة نضوجها . وكان الانتخاب العام بموجب الاصلاحات التي ادخلها السنسور آبيوس كلاوديوس (٣١٠) الذي كان دون ريب هلينيا صحيحا وعقائديا دستوريا من طراز حلقة مدام رولان ، اقول كان هذا الانتخاب بالتأكيد على هذا الشكل ولم تكن اطلاقاً تلك الاصلاحات تمثل فنوناً في تقسيم تحيزي لدوائر الانتخاب Gerry - mandering - بل كانت نتيجتها فقط تمهيد الطريق امام هذه الفنون . ولكن ما كادت هذه الاصلاحات تطبق حتى شقت ، وعند التطبيق الاول ، نوعيـــة العرق ، طريقها ، دون ان تتعمـد هذه الاصلاحات ذلك ، وسيطرت بسرعة صاعقة على مقاليد الامور بكاملها . وبعد هذا كله ارى من غير المستحسن ان

نصف استخـدام المال ، في دولة دكتاتورية المال ، بانه علامـــة تدن وانحـلال .

وكان احتراف المنصب في روما ، ابتداء بالزمن الذي امسى فيه سلاسل من انتخابات ، يتطلب رأسمالاً ضخماً حيث اصبح معــه كل سياسي مديناً لجميع رجال حاشيته . وكان منصب الادايل Aedile [1] اكثر المناصب التهاماً للمال ، اذ كان يتوجب على من يشغله ان يتفوق على سلفه في أبهة الالعاب العامة وروعتها ، وذلك بغية ان يستحصل فيما بعد على اصوات المتفرجين . (ولقد فشل سولا في محاولته للوصول الى منصب البريتور لانه لم يكن قبل ذلك ادايل) . زد على ذلك ان تملق جماهير المتسكعين كان يستلزم الرجـل السياسي ان يظهر يوما في الفوروم محاطاً باتباع رائعين مظهراً . لقـــد كان القانون يمنع الاحتفاظ باتباع مأجورين ، لكن اكتساب الرجل السياسي لاشخاص من الطبقة الراقية بواسطة اقراضهم المال وتزكيتهم للاعمال الرسمية والتجارية وتغطية نفقات دعاويهم امام القضاء ، وكل ذلك بغية ان يجعلهم اتباعا له ، لا شك كان اغلى بكثير من اي اجر او معاش . لقـــد كان بومباي نصيرا (Patron) لنصف العالم وظهيرا لنصف سكانه .

فمن الفلاح في بسينوم Picenum حتى ملوك الشرق ، كان بومباي يمثلهم ويحميهم جميعا ، وهذا كان رصيده السياسي الضخم الذي كان باستطاعته ان يقامر بــه ضد قروض كراسوس التي لم يكن يتقاضى فوائد عليها ، وضد « الطلاء الذهبي » الذي كان يغلف به فاتح بلاد الغال كل رجل طموح . وكانت

---

(١) Aedileship وظيفة الاشغــال العامـــة والعاب السيرك والشرطة وتموين المدينة بالحنطة .

– المترجم –

تقام حفلات العشاء لحشود من الناخبين الاتباع ، ويعطون مقاعد مجانية لحضور صراع المجتلدين ، او حتى (كما حدث وميلو) يحمل اليهم المال عداً ونقداً الى منازلهم - وذلك احتراما للتقاليد الاخلاقية على زعم شيشيرون . وارتفع رأس المال الانتخابي حتى بلغ في ضخامته الابعاد المألوفة في الانتخابات الاميركية اليوم ، اذ كان احيانا يتجاوز مئات الملايين من السسترسسات ، ومع ان السيولة النقديــــة كانت جد موفورة في روما ، غير ان انتخابات عام ٥٤ التهمت من الاموال قدراً ارتفع بسببه سعر الفائـــــدة من ٤ ٪ الى ٨ ٪ . وقد انفق قيصر من المال للحصول على منصب الأدايل مبلغا بلغ من ضخامته حداً اضطر عنده كراسوس ان يكفله على عشرين مليون قبـل ان يسمح له دائنوه بالسفر الى مقاطعته ، وحينما رشح نفسه لمنصب بونتيفكس ماكسيموس ، فانـه تمادى في انفاق رصيده المال الى حد كان يعني فشله عنده في الحصول على المنصب دماره ، زد على ذلك ان منافسه كاتولوس لم يكن باستطاعته ان يعرض عليـه جدياً ثمناً لانسحابه في صالحه . ولكن فتح بلاد الغال واستغلالها - وهذا امر حرض عليه المال جعل من قيصر اغنى رجل في العالم . والحق ان معركة فارسالوس[1] قد كسبت سلفا في الغال . ومن اجل السلطة كدس قيصر هذه المليارات الثلاثة ، شأنه في ذلك شأن سيسل ، وليس حباً بالمال كفيرس Verres وحتى كراسوس الذي كان اولاً واخيراً رجلاً مالياً ، ومن ثم وثم فقط سياسياً . لقـد ادرك قيصر الواقعة المقررة ان الحقوق الدستورية لا تعني شيئاً على تربة الديمقراطية بدون مال ، وانها تعني كل شيء معه . فعندما كان بومباي لا يزال يحلم بانه يستطيع اذا ما ضرب الارض بقدمه ان يجعلها تنبت فيالق وجيوشا ، كان قيصر قد حول

---

(١) فارسالوس : بلدة تقع في شمالي شرقي بلاد اليونان وقد دارت فيها رحى معركة عام ٤٨ ق . م .

المترجم -

هذا الحلم منـــذ زمن الى واقعة بواسطة ماله . وعلى كل حال يتوجب ان يفهم بوضوح ان قيصراً لم يدخل هـــذه المناهج والاساليب ، بل انما الفاها قائمة وموجودة ، وجعل من نفسه سيداً لكنه لم يساو نفسه بها ابداً . وذلك لأن احزابا لقرن من الزمن اجتمعت فيا مضى حول مبادىء ، قـد اخذت واقعياً بالانحلال الى اتباع شخصيين تجمعوا حول رجال كانوا يلاحقون مقاصد سياسية شخصية ، وكانوا خبراء في استعمال الاسلحة السياسية لعصرهم .

وكان التأثير على المحاكم هو احد الوسائل الى جانب المال . ولما كانت الجمعيات الكلاسيكية تصوت لكنها لا تناقش ، لذلك كانت المحاكمة امام منصة القضاء شكلًا من اشكال المعارك الحزبيـة ، ومدرسة المدارس للتدرب على الاقناع السياسي . وكان السياسي الشاب يفتتح حياتـــه السياسية باتهام او اذا امكن باستئصال شأفة شخصية كبرى ، فكراسوس مثلًا قضى وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره على بابيريوس كاربو الشهير ، صديق الغراتشي ، والذي انضم فيا بعد الى حزب الاعيان . وهذا هو السبب في كون ان كاتو قد حوكم اكثر من اربعين مرة ، بالرغم من انه كان يبرأ من كل قضية . وكان الجانب القانوني في هذه القضايا جانباً ثانوياً تماما . اذ ان العوامل الرئيسية في مثـل هذه المحاكمات كانت تتمثل في قرابات القضاة باعضاء الحزب ، وعدد الحماة ، وحجم جمهور المساندين — وكانوا يعرضون عدد الشهود بغيـــة القاء الاضواء على قوى المدعي من سياسية ومالية .

ولقد كان يرمي شيشيرون من وراء كل الخطابات التي القاها ضـــد فيريس Verres ، والتي اخفاها وراء حميا اخلاقية ان يقنع القضاة بان ادانة خصمـه تقتضيها مصالح نظامهم . فالمحاكم من وجهـة النظر الكلاسيكية العامة ، توجد بوضوح وجلاء ، من اجل خدمة المصالح الشخصية والحزبية . وقد درج المتظلمون الديمقراطيون في اثينا على عادة انهاء خطاباتهم بتذكير المحلفين من الشعب ، بانهم

سيخسرون اجورهم اذا ما برأوا المتهم الثري . وكانت السلطة الهائلة التي يتمتع بها مجلس الشيوخ الروماني تستند الى اشغالهم كل مقعــد في المنصة القضائية (المخصصة للمحلفين) ، وبهذا اصبح مصير كل فرد تحت رحمتهم . ومن هنا نشأ ذاك المرمى البعيد للقانون الغراكشي لعام ١٢٢ والذي اوكل السلطة القضائيـة للاكويتس ، واسلم النبلاء – اي طبقة الموظفين – لأيدي عالم المال . وفي عام ٨٣ قام في وقت واحد سولا ، باجراءاته العنيفـــة ضد الاقطاب الماليين ، واسترجاع السلطة القضائية لمجلس الشيوخ ، بوصفها طبعاً سلاحا سياسياً ، وتجـد المبارزة النهائية بين الرؤساء تعبيرها مرة اخرى في التبدلات المستمرة التي كانت تطرأ على القضاة المختارين .

وبينما كان الاسلوب الكلاسيكي ، وخاصة فوروم روما يجتذب جماهير الشعب ويحتويها معاً بوصفها حجماً منظورا يتوخى ارغامه على استخدام حقوقه المرغوبة ان يستخدمهـــا ، نرى ان السياسة الانكليزية الاميركية « المعاصرة » لهذه الحقبة قد خلقت ، بواسطة الصحافة ، مجال زخم ذا قوى عقلانية ومالية ، تكاد دائرتها تشمل العالم بامره وحيث يتخذ كل فرد داخلها ، دون ما شعور ، المكان المخصص له ، كي يتوجب عليه ان يفكر ويريد ويعمل وفق مشيئة شخصية حاكمة في مكان ما او آخر ، وبعيدة عنه . وهذه هي الديناميكية الفاوستية في تباينها والـكونيـــة الكلاسيكية ، والشعور الفاوستي العالمي في تعارضـه والشعور الابولوني ، وجـد البعد الثالث في اختلافـه والحاضر البرهي المحسوس المجرد . فالانسان ، في الغرب ، لا يتحدث الى الانسان ، بل يترك هذه المهمة للصحافـة وشريكاتها من وكالات الانباء العالمية (الكهربائية) ، ويستمر في تسليط النار الطبلية الصامة للآذان على الشعور الواعي لشعوب بأكملها ، ويقذفها يوما بيوم وسنة بسنة بمواضيـع وشعارات ومواقف ومشاهـد واحاسيس ، وهكذا كل « أنا » مجرد وظيفة لشيء ما عقلاني مرعب عملاقي ورهيب . ان المال لا يتداوله الناس سياسياً ، ولا ينتقل من يد الى يد ، وهو لا يبدد في المقامرة وعلى الخمور ،

انه يتحول الى قوة ، وكميته هي التي تحدد قدر شدة نفوذه العامل الفعال .

ان البارود والطباعة شقيقان توأمان – فكلاهما قد اكتشفا في ذروة الحقبة الغوطيـــة ، وكلاهما انجب بها الفكر التقني الجرماني – بوصفهما الوسيلتين العظماويتين للتكتيك الفاوستي البعيد المدى . ولقد شهد الاصلاح الديني في مطلع الحقبـــة المتأخرة زمنا اول المناشير وبكر مدافع الميدان ، كما وشهدت الثورة الفرنسية اول زوبعة من الكراريس في خريف عام ١٨٨٨ ، واول نيران مدفعية غزيرة في معركة فالمي . ولكن مع هذا اصبحت الكلمة المطبوعة المخرجة بكميات كبيرة والموزعة على مناطق هائلة في اتساعها ، سلاحا خطراً بيـد من يعرف كيف يستخدمها . لقد كانت الكلمة المطبوعـة لا تزال في فرنسا عام ١٧٨٨ وسيلة للتعبير عن قناعات شخصية ، لكن بريطانيا كانت في هذه الفترة ، قد تخطت بكلمتها المطبوعة هذه المرحلة ، وامست تسعى عامدة متعمدة ان تؤثر في القارىء وتخلق فيه ما تريده من انطباعات .

وما الحرب التي كانت اسلحتهـا المقالات والمناشير والمذكرات الشخصية المزورة التي انطلقت من لندن الى التربة الفرنسية ، ووجهت حملاتها ضد نابليون ، سوى اول مثال عظيم في هذا الميدان . وقـد حولت الصفحات المتناثرة المشتتة لعصر التنوير نفسها الى صحافة « Press » – ولهذه الكلمة اشد ما للغفلية من مغزى . واخذت الحملات الصحافيـــة تبدو الآن بوصفها اطالة – او اعداداً – للحرب بوسائل اخرى ، زد على ذلك ان ستراتيجية المراكز الامامية ، من قتال وخدع ومباغتات وهجمات ، قـد بلغت درجة من التطوير حتى امسى عندها كسب الحرب امراً ممكناً قبل اطلاق طلقة واحدة وذلك – لأن الصحافة كانت قد كسبته في تلك الغضون .

اننا نعيش اليوم ، تحت نيران هذه المدفعية العقلانية ، في حالة من رعب ، حتى امسى ، من الصعوبة بمكان ، على المرء ان يبلغ التغويد الباطني المطلوب ليلقي بنظرة صافية على هذه الدراما الرهيبة العملاقة . فلقد انجزت ارادة القوة المتنكرة ، في نشاطها ، برداء ديمقراطي ، وانعتها انجازاً بلغ من الكمال مبلغاً يجعل شعور المحكوم بالحرية يحس بالزهو والخيلاء ، حينما يتملقه اشد استعباد عرفه الوجود البشري حتى اليوم ، استعباد يتخلل حتى العظم . ان العقل البورجوازي الليبرالي فخور بالغاء الرقابة على الصحافة - نورث كليف - لا يزال يجلد عبيده من القراء بمقالاته الموجهة وبرقياته وصوره . لقد طردت الديمقراطية بصحافتها الكتاب ، المؤلف ، من حياة الامة الذهنية وابعدته ابعاداً تاماً . وهكذا نرى ان عالم الكتاب ، بما في هذا العالم من فيض من الآراء والافكار حيث يرغم معها القارىء على الاختيار والانتقاد ، لم يعد الا ملكاً حقيقياً لحفنة قليلة من الناس . فالشعب يقرأ الجريدة الواحدة ، « جريدته » التي تشق طريقها يومياً الى اعتاب الملايين من البشر ، بما لها من عروض اشد اغراء من الكتاب ، واذا ما حدث ان عرف هذا الكتاب او ذاك طريقه الى العالم المنظور ، تسارع الجريدة فتستأصل منه تأثيراته المحتملة بواسطة « استعراضها » له .

ما هو الحق ؟ بالنسبة للجماهير التي تقرأ وتسمع بصورة مستمرة ان نقطة صغيرة مهملة مهجورة قد تستقر في مكان ما وتستجمع من الاسباب والمبررات ما يجعلها تقرر « الحق » - ولكن ما تحصل عليه انما هو فقط حقها It's truth . أما الحق الآخر ، الحق الشعبي العام للبرهة القائمة ، والذي وحده يستأثر باهتمام النتائج والنجاحات في عالم الامر الواقع ، فالصحافة هي صواب وحق . وأمارها هم الذين يبعثون الحقائق ويبدلونها ويتداولونها ويتقايضونها . ويكفي للصحافة ان تنشط ثلاثة اسابيع حتى يعترف كل انسان بالحق ، وقواعده لن تكون ابداً قابلة للدحض او النفي ، طالما ان المال متوفر للمحافظة عليها في حال سليم . زد على ذلك ان فن الخطابة الكلاسيكي فن صمم من اجل تحقيق نتيجة ، لا رضاء

ـ كما يعرض ذلك شكسبير بصورة رائعة في مرثاة انطونيوس ـ لكنـــه فن محدود بالمستمعين حجماً وبالبرهة الراهنة . اما ما تتوخاه ديناميكية صحافتنا فهو التأثير الدائم المستمر . فهي يجب ان تحافظ على عقل الناس ليبقى بصورة مستمرة خاضعاً لنفوذها . وهي تطوح بقواعدها الجدلية حالما تنتقل مصلحة القوى الماليـة الى قواعد جدلية مناهضة لتلك ، وتردد هذه بتكرار اكثر على آذان النـــاس وعيونهم . وعند هذه اللحظة تنحرف ابرة الرأي العام نحو القطب الأقوى ، وهنا يقنع فوراً كل انسان ذاته بالحق الجديد ، ويعتبر انـــه قد انتشل من الخطأ واستيقظ فوعاه .

ويرتبط بالصحافة السياسية تثقيف مدرسي عام كان العالم الكلاسيكي مفتقراً اليه تماماً . ويوجد داخل هذا المطلب عنصر رغبة ـ غير واعية تماماً ـ في ان تسوق الجماهير ، بوصفها هدفاً للسياسة الحزبية ، الى منطقة نفوذ الصحافة . لقـد كان المثالي في المرحلة المبكرة من الديمقراطية يعتبر التعليم الشعبي ، كتنوير مجرد فقط ، اذ لم تكن لديه اية فكرة مبينة عنه ، وحتى هـــذا اليوم لا يزال المرء يصادف ، هنا او هناك ، بعض الرؤوس الضعيفة التي اصبحت متحمسة لحريـــة الصحافة ـ لكن هذا الحماس بالذات هو الذي يمهد الطريق لقياصرة صحف العالم القادمـين . فهؤلاء الذين تعلموا القراءة سيعنون لسلطانهم ، كما وان حق تقرير المصير الذاتي الرؤى في الديمقراطيـة المتأخرة زمناً ، سيتحول الى جبريـة الشعب Determinations بواسطة تلك القوى التي تطبعها الكلمة المطبوعة وتذعن لها .

ويستهدف تكتيك المبارزات اليوم حرمان الخصم من هذا السلاح. لقد عانت الصحافة في طفولة قوتها غير المشوبة ، الرقابة الرسمية التي اشترعها ابطال التقاليـد وحماتها دفاعاً عن الذات ، وهنا تعالت صيحات البرجوازيين مرددة ان حريـــة الروح في خطر. اما الآن فان الجماهير تسلك طريق الصحافة بوداعة ودماثة وهدوء ، فلقد حققت الصحافة اكيداً لنفسها هذه الحرية . ولكن هناك في المؤخرة ، حيث

لا يرى احد ما يحدث ، تتقاتل القوى الجديدة ، وتصارع الواحدة منها الأخرى، لشراء الصحافة . وبدون ان يشعر القارىء ، يبدل وتبدل الصحيفة سيدهما . وهنا ينتصر المال ايضاً ويرغم الأرواح الحرة على الدخول في خدمته . ولا يوجد هناك من مروض يملك من الحيوانات الاكثر الفة من هذه . فاطلق العنان للشعب كجماهير قراء ، وستراها متدفقة في الشوارع ومقتحمة الاهداف المعنية ، وناشرة الرعب ومحطمة للنوافذ ، واشارة واحدة يوعز بها للمحررين ، تكفي لتعود هذه هذه الجماهير الى منازلها بهدوء وصمت . ان الصحافة هي اليوم جيش منظم تنظيماً جيداً ، له اسلحته وفروعه ، والصحافيون هم ضباطــه اما جنوده فهم القراء . ولكن الحال هنا ، مماثلة للحال في كل جيش ، فالجندي يطيع طاعة عميــاء ، والاهداف الحربية وخطط العمليات تتبدل دوما . فالقارىء لا يعرف وليس مسموحاً له بان يعرف الاغراض التي يستخدم من أجلها ، ولا حتى الدور الذي سيسند اليه . ولا اعتقد بأن هناك صورة كاريكاتورية لحرية الفكر أشد تنفيراً للنفس من هذه الصورة . لقد كان الانسان فيما مضى لا يجرأ على التفكير بحرية ، اما اليوم فانه يجرأ لكنه لا يستطيع ان يفكر بحرية ، فارادته للتفكير هي فقط تصميمه على التفكير الايعازي ، وهذا هو ما يشعر به على انه حريته .

اما الجانب الآخر من هذه الحرية المتأخرة ـ فهو يسمح لكل انسان بأن يقول ما يشاء او يرغب لكن الصحافة هي حرة ايضاً في أن تشير الى قولــه او لا تشير . وبمقدورها ان تحكم على اية « حقيقة » بالموت، بصمتها وعدم تبليغها للعالم ـ انها والحق لرقابة صمت مرعبة ، وان قسوتها لأشد في كون جماهير قراء الجريدة لا يعرفون اطلاقاً بان مثل هذه « الحقيقة » قائمة وموجودة . وهنــا يبرز ، كما يبرز دائمــاً في غمرات آلام ولادة القيصرية ، ملمح من ملامح الربيع الحضاري الدفين .

فقنطرة الحدوث على وشك ان تنغلق على نفسها . وكما تدفقت مرة اخرى

ارادة التعبير للحقبة الغوطية المبكرة من خلال مباني الاسمنت والفولاذ تدفقاً بارداً مراقباً ومتمدناً ، فكذلك تماماً ستبدى ثانية ارادة القوة الحديديـــة للكنيسة الغوطية وتسيطر على النفوس بوصفها — « حريـــة (تحريراً — المترجم) من الديمقرطية . » فحقبة « الكتاب » محاطة من جانبها بحقبة الموعظة (الدينية — المترجم) وحقبة الجريدة . والكتب هي تعابير شخصية ، لكن الموعظة والجريدة تطبعان قصداً غير شخصي . وان سنوات الفلسفة الكلامية تقدم لنا المثل الوحيد في تاريخ العالم ، مثل الانضباط العقلاني الذي طبق بصورة عامة فكان لا يسمح بالكتابة والحديث والخطابة والتفكير في اي موضوع يتعارض والوحدة المرادة . هذه هي ديناميكية روحية . ولا شك ان الجنس البشري من كلاسيكي وهندي وصيني كان سينتابه رعب شديد من هذا المشهد ولكن الاشياء نفسها تتواتر ، وتتكرر بوصفها النتيجة الضرورية لليبرالية الاوروبية الاميركيـــة — بوصفها النتيجة « لاستبداد الحرية ضد الطغيان » كما وصفها روبسبيير . فالصمت العظيم حل الآن محل الخازوق وكومات[1] الحطب . ودكتاتورية زعماء الحزب تسند ذاتها بدكتاتورية الصحافة . والمتنافسون يجدون بوسائل المال لأن يفصلوا القراء — لا بل ، الشعوب قاطبة — عن الرأي المعادي لهم ، وان يدفعوا بهم الى ميادين تدريبهم العقلاني الخاص . وكل ما يتعلمه هؤلاء من هذا التدريب هو ما قدر على انه من المتوجب ان يتعلموه — فهناك ارادة اعلى تجمع لهم اجزاء الصورة معـــاً ، صورة عالمهم . وان لم تعـــد هناك من حاجة ، كما كانت بالنسبة للامراء الباروكيين ، تستدعي فرض كفالة الخدمة العسكرية ، على الرعايا — فيكفي ان يسوط المرء نفوسهم بالمقالات والبرقيات والصور (نورثكلف !) وعندئـــذ سيصخبون ويضجون مطالبين بالسلاح ، ويرغمون زعماءهم عـــلى اصطدامات اراد

---

(١) حيث كانوا يحرقون عليها الهراطقة .

— المترجم —

هؤلاء لهم ان يرغموهم عليها .

هذه هي نهاية الديمقراطية . واذا ما كان البرهان في عـالم الحقائق هو الذي يقرر كل شيء ، فان النجاح هو الذي يقوم بهذا التقرير في عالم الوقائع . فالحياة قد انتصرت ، وتحولت احلام مصلحي العالم الى ادوات بأيدي طبائع سيدة . ففي المرحلة المتأخرة من الديمقراطية ينطلق العرق متدفقاً، وهو هنا اما ان يجعل المثل العليا عبيداً له ، واما ان يقذف بها بسخرية وازدراء الى الهاوية .

وهذه كانت الحال ايضاً في طيبة المصرية وروما والصين ـ ولكن لا توجد أية مدنية اخرى عرضت ارادة القوة نفسها على هذا الشكل من الصلابة والتزمت ، غير مدنيتنا . ففكر الجماهير ، ونتيجة لذلك نشاطها ، خاضعان لضغط حديدي ـ من اجله ومن اجله فقط يسمح للناس بأن يكونوا قراء وناخبين ـ وهذا يعني ان يرزحوا تحت نير عبودية ثنائية ـ وذلك بينما تمسي الاحزاب بطانات مطيعة لحفنة من رجال بدأ ظلال القيصرية يلامسهم منذ زمن . والى ما انتهت اليـــه المكتبة الانكليزية في القرن التاسع عشر ، ستنتهي اليه البرلمانات في القرن العشرين ـ اي الى أبهة فارغة وفخامة دون جوهر . وكما عرض آنذاك الصولجان والتـــاج ، فكذلك تعرض حقوق الشعب على الجماهير ، وكلما كان عرضها مطبوعاً بالاكثر من قواعد الآداب وحسن السلوك ، كلما تزايد مغزاها ضحالة واقعية ـ ولهـــذا السبب بالذات لم يترك اوغسطس الحذر فرصة تفوته ليؤكد على العادات القديمة المحترمة للحرية الرومانية . لكن السلطة تهاجر حتى في هـــذا اليوم ، وتجانساً هجرتها ، نرى الانتخابات في حال من تدهور بالنسبة لنا ، حتى اننا امسينا نشهد فيها مسرحية انتخابات روما . فالمال هو الذي ينظم هذه العمليـة لتخدم مصالح اربابه ، وشؤون الانتخاب أمست لعبة يتدبرون امرها مسبقاً ومن ثم يدفعون بها الى المسرح بوصفها حق الشعب في التقرير الذاتي . واذا ما كانت الانتخابات اصلاً ثورة في اشكال مشروعة ، فانها قد استهلكت هذه الاشكال ، اما مـا يحدث الآن فهو ان الجنس البشري « ينتخب » اليوم مصيره مرة ثانية ، عامداً

في ذلك الى الوسائل البدائية ، وسائل العنف الدموي عندما تصبح سياسة المـال امراً لا يحتمل او يطاق .

ان الديمقراطية تصبح بالمال ، ناحرة لذاتها بذاتها ، وذلك بعد ان يكون المال قد دمر العقل . ولكن وبسبب كون ذاك الوهم بالذات والقائل بان الامر الواقع يستطيع ان يسمح لأفكار اي من امثال زينون وماركس بان تصلح من امره ، قد فر واختفى ، وبسبب ان الناس قد تعلموا في مدرسة الامر الواقع انه لا يمكن التطويح بارادة قوة الا بواسطة ارادة قوة اخرى فقط (وذلك لأن هـذه هي كانت العبرة البشرية العظمى من كل حقبات الدول المتنازعة) ، لهذه الاسباب يستيقظ اخيراً حنين عميق الى التقاليد القديمة الثمينة التي لا تزال متوانية في الحياة . فالاقتصاد المالي قد ارهق الناس حتى الاشمئزاز والنفور . وهم يفتشون عن الخلاص في كل جهة ومن اية جهـة ، ويبحثون عن شيء ما حقيقي الشرف فرومي الجوهر نبيل الباطن جاحد للذات قائما بالواجب . وهنا يتبدى فجر زمن يقظة قوى الدم المليئة شكلاً ، والتي كبتتها عقلانية المدينـة العالمية الكبرى ، فتستيقظ هذه القوى في الاعماق من جديـــد . وهنا يصبح فجأة كل ما يتفق وتقاليد نظام السلالة المالكة والنبالة القديمة ، والذي ادخر نفسه للمستقبل ، وكل ما هو مترفع من الاخلاقيات على المال ومزدر به ، وكل من هو سليم جوهراً بما فيه الكفاية ليكون خادم الدولة ، كما وفق منطوق كلمات فريدريك الاكبر – الخادم الكادح المضحي بذاته العميق الرعاية والاهتمام – ويصبح ايضاً كل ذاك الذي وصفته في مكان آخر من هذا الكتاب بالاشتراكية في تباينها والرأسمالية – كل هذه الامور والاشياء تصبح فجأة بؤرة لقوى حياة هائلة جبارة . ان القيصرية تنمو في تربة الديمقراطية ، لكن جذورها تضرب عميقا في تربة تقاليد الدم . لقد استمد القيصر الكلاسيكي سلطته من التربيون ، ويستمد مهابته ومعها استمراريتها من كونه البرنسيبس وهنا ايضا تستيقظ نفس الحقبة الغوطية القديمة من جديد . ان اقوياء المستقبل وجبابرته قد يملكون الارض بوصفها ملكية شخصية لهم –

وذلك لان الشكل السياسي العظيم الحضارة قد تصدع وتدمر ولم يعد قابلا لصلاح او اصلاح ـ ولكن لا اهمية لذلك فان له واجبا . وهذا الواجب يتمثل في رعاية لا تكل او تمل ، لهذا العالم على ما هي حاله ، وهذه الرعاية هي تستوجب حساً مرهفا بالشرف وشعورا شديدا بالضمير . ولكن لهذا السبب بالذات تنشب الآن المعركة الاخيرة بين الديمقراطية والقيصرية ، بين القوى الرئيسية للاقتصاد المالي الدكتاتوري وبين ارادة النظام السياسية المجردة للقياصرة . ولكن نستطيع ان نفهم تلك المعركة الاخيرة بين الاقتصاد والسياسة والتي ستستعيد السياسة ، خلالها ، ميدانها ، يتوجب علينا ان نلقي بلمحة على سيماء التاريخ الاقتصادي .



الفصل الرابع والعشرون

عالم شكل الحياة الاقتصادية

(أ)

المال Money

- ١ -

يجب علينا ألا نفتش عن المرقب Standpoint الذي ندرك منـــه التاريخ الاقتصادي للحضارات العظمى على اساس اقتصادي . فالفكر الاقتصادي والفعل هما جانب من الحياة يكتسب مظهراً مزوراً عندما يعتبر على انه نوع من الحياة متفرد بذاته . ودون كل هذا ، يجب ألا نوجد هذا المرقب على اساس الاقتصاد العالمي الراهن والذي كان طيلة المئة والخمسين عاما يرتفع بصورة خياليـــة خطرة وبلغ في النهاية حالا يائسة تقريبا – وهو علاوة على ذلك اقتصاد ديناميكي غربي

محصور بالغرب فقط ، ويمكن ان يكون اي شيء ما عدا كونــــه اقتصادا مشتركا انسانياً .

ان ما ندعوه اليوم بالاقتصاد الوطني ، انما هو شيء قـد شيد على مقدمات منطقية هي صريحة ومتفردة بانكليزيتها . وتقف صناعة الآلة ، هـذه الصناعة المجهولة لدى كل الحضارات الاخرى ، في مركز الدائرة كما لو ان هذه الصناعة كانت امراً طبيعيا ، وتسيطر ، دون ان يشعر الناس بهذه الواقعة ، سيطرة تامة على صياغـــة الفكر وعلى الاستدلال القياسي بما يسمى بالقوانين . ويقوم المال المعتمد Credit - money ، بالشكل الخاص الذي اعطته اياه علاقات التجارة الدولية وصناعة التصدير في انكلترا الحالية من الفلاحين ، يقوم هذا مقام الأساس الذي نحدد ، اعتماداً عليه ، معاني كلمات كرأس المال والقيمة والسعر والملكية — ثم ننقل تعاريف مثل هـذه الكلمات ، دون مشقة او عناء ، الى مراحل حضارة ودورات حياة اخرى .

ان المركز الجزيري لانكلترا قد قرر تصوراً عاماً Conception لسياستها ، وعلاقتها بالاقتصاد ، وهذا هو المسيطر في كل النظريات الاقتصادية . لقد كان خالقا هذه الصورة هما دافيد هيوم وآدم سميث . وكل شيء كتب ، منذ ذاك الحين فما بعده ، عنهما او ضدهما يفترض مسبقا ودائما التركيب والمناهج التنديدية العائدة الى نظامي هذين . وهذا القول ينطبق في صحتـــه على كاري Carey ولست List كما وعلى فورييه ولاسال . اما فيما يتعلق بالخصم الاعظم لآدم سميث ، كارل ماركس ، فان المرء مهما صرخ عاليا باحتجاجه على الرأسمالية الانكليزية ، فأمره لا يهم الا قليلا ، وذلك عندما يكون متشبعا بصورها ومضرجا بالوانها ، فالاحتجاج هو بحد ذاته اعتراف ، وهدفه الوحيد هو الانعام بفوائد كينونة السيد على التابع بواسطة نوع جديد من الحسابية .

ونحن لا نجد ابتداء بآدم سميث حتى ماركس أي شيء سوى تحليل ذات قام

به التفكير الاقتصادي لحضارة واحـــدة وعلى مستوى معين من التطور . وهو عقلاني سداة ولحمة ، ويبدأ من المادي وظروفه وشروطه وحاجاته وحوافزه بدلاً من ان يبـــدأ من النفس – نفس أجيال ومنازل اجتماعية وشعوب – ومن قوة النفس المبدعة – وهو ينظر الى الناس بوصفهم كأجزاء موجدة Constituent من الاوضاع ، ولا يعرف أي شيء عن الشخصية الكبـيرة وعن ارادة تشكيل التاريخ لدى الافراد والجماعات ، هـذه الارادة التي ترى في الوقائع الاقتصادية وسائل لاغايات . ويأخذ الحياة كأنها شيء ما يمكن ان تحسب دون ان تتبقى منه بقية وذلك بواسطة علل ومعاليل منظورة ، شيء مـا ذو تركيب ميكانيكي تماماً ومتفرد بذاته تفرداً كاملاً ، وحتى اخيراً شيء مـا يرتبط بنوع من بعض علاقة بالدين والسياسة – وهذان أيضاً يعتبرهما هـــذا الفكر بملكتين افراديتين متفردتين . وهـــذه النظرة هي النظرة المنهاجية وليست التاريخيـة ، ولمفاهيمها وقواعدها صحة كونية معدومة الزمان ، وهي بند ايمان ، وطموحها يهدف الى تقرير المنهاج الصحيح الواحـــد لتطبيق علـم الادارة . ونتيجة لذلك فاننا تلامست حقائقها والوقائع فانها كانت تصادف فشلاً كاملاً – كما كانت الحال ونبوءات النظريين البورجوازيين عن الحرب العالميـــة ، ونبوءات النظريين البروليتاريين عن بداءة الاقتصاد السوفياتي وتفاعله .

ولذلك لم يقم حتى الان اقتصاد وطني ، بمفهوم مورفولوجيا الجانب الاقتصادي من الحياة ، وبصورة اخص ، – هـــذا الجانب من حياة الحضارات الراقية بتشكلات طرازاتها الاقتصادية – المؤتلفة والمرحلة والقياس الزمني والديمومة . ليس للاقتصاد منهاج بل سيماء . وان سبر أغوار سر شكلها الباطني يستوجب تمتع المرء بالفطنة السيمائية . ولـكي ينجح في هـــذا ، يجب ان يكون « حكماً » (قاضياً) فيها ، ككونه « حكماً » على الرجال والخيول ، وهـذا يتطلب حتى قدراً أقل من المعرفة التي يحتاج اليها رجـــل الخيل من علم الحيوان . ولكن موهبة الحكم هذه يمكن في ان توقك ، ووسيلة ايقاظها تتوفر بواسطة المطل التعاطفي

على التاريخ الذي يعطي فكرة اريبـــة متبصرة لسلائق العرق وغرائزه، والتي تنشط في الاقتصاد ، كنشاطها في الجواهر الاخرى من الوجود الفعال ، وتشكل رمزياً المركز الخارجي - « المادة » الاقتصادية الحاجة - بصورة متناغمة وجبلتها الباطنية الخاصة . ان كل الحياة الاقتصادية هي تعبير لحياة نفس .

ان هذا مطل جديد ، مطل المانيا عـــلى الاقتصاد مطل من ما وراء كل رامالية واشتراكية - وكلتا هاتين انجبت بها العقلانية المزيلة التافهة للقرن الثامن عشر ، والتي لم تهدف الا الى التحليـــل المادي والمركب Synthesis التابـع للسطح الاقتصادي . وكل ما علم حتى الآن ليس بأكثر من اعدادي وتمهيدي . فالفكر الاقتصادي ، كالفكر القانوني ، يقف اليوم عـــلى عتبة تطوره الحقيقي الخاص الذي يبدأ (بالنسبة لنا كما بالنسبة للحقبة الهيلينية الرومانية) فقط عندما يلفظ الفن والفلسفة انفاسهما الاخيرة الى غير رجعة .

وان المحاولة التالية ، يقصد من ورائهـــا ، مسح جوي فقط للامكانات المتوفرة لدينا .

ان الاقتصاد والسياسة همـــا جانبان من جوانب تيار الكينونة الواحد المتدفق حيـــاة ، وليسا من جوانب الشعور الواعي ، الذهن . ويتبدى في كل منهما نبض الدفقات الكونية المحجوزة داخل الاجيال القادمة للوجودات الافرادية. فمن الجائز القول بان لا تاريخ لهما ، لكنهما يكونان تاريخا . فالزمان الذي لا يُعكس ، الـ - متى When ، هو الذي يحكم داخليهما ، وكلاهما ينتميان الى العرق ، ولا ينتميان كالدين والعلم ، الى اللغة بتوتراتها السببية الفراغية ، وهمـا يحملقان في الوقائع وليس في الحقائق . فهناك مصائر اقتصادية ، كما توجد مصائر سياسية ، بينما يوجد في النظريات العلمية والعقائد الدينية ترابط معدوم الزمان من علة ومعلول .

ولذلك فان للحياة نوعين ، سياسي واقتصادي « لشرط » ولياقتهـا للتاريخ . وهذان النوعان يتكيء الواحد منهما على الآخر ويسانده ، كما ويقابل الواحد الآخر ، لكن النوع السياسي هو ، دون اي شرط ، الاول . ان ارادة الحيـاة تتركز على الحفاظ على ذاتها وسيادتها ، او بالاحرى استجماع الاكثر من اسباب القوة كي تسود . لكن تيارات الكينونة من الوجهـــة الاقتصادية هي تيارات لاثقة بوصفها تقوم على مبدأ حب النفع الشخصي ، بينما انهـا من الوجهة السياسية تستهدف حب نفع الآخرين . وهذا القول صحيح بالنسبة لجميع السلاسل ابتداء بالنباتات الاحادية الخلية ومروراً بالحيوانات وانتهاء بالشعوب الطليقة من كل قيد في تحركها في الفراغ . وبمقدورنا التعرف على الفرق في المرتبة بين جانبي الحياة ، التغذية والفوز ، من خلال علاقة كل واحد منهما بالموت . وليس هناك من تباين يبلغ في عمقه ما يبلغه التباين بين الموت جوعاً وبين الموت البطولي . فالجوع يهدد الحياة اقتصاديا باوسع ما لهذه الكلمة من معنى ، تهديـداً مخزياً اثيماً مشيناً ـ زد على ذلك ان صد الامكانات وتقليل الفرص والظلام والضغط كل هذه لا تقل في تأثيرها عن التصور جوعاً بالمعنى الحرفي لهـذه الكلمة . لقـد فقدت شعوب بأكملها زخم عرقهـا الشديد بسبب البؤس الناخر القاضم لاسباب عيشها . فهنا يموت الناس بسبب شيء ما وليس من اجل شيء ما . فالسياسة تضحي بالناس من أجـل فكرة ، وهم يستشهدون من اجل فكرة ، لكن الاقتصاد يبددهم ويهدرهم هدراً .

ان الحرب هي مبدع كل الاشياء العظيمة ، لكن الجوع هو مدمرها . ففي الحرب يصعد الموت الحياة ، ويرتقي بها مراراً الى درجـة من زخم لا يصد او يقاوم ، والذي يضمن مجرد وجوده النصر ، لكن الجوع يوقظ في الحيـاة ذاك النوع من الخوف البشع الخسيس الدنيء اللاميتافيزيقي ، الخوف على الحيـــاة ، حيث ينهار تحت وطأته عالم الشكل الارقى للحضارة انهياراً بائساً تعيساً ويبدأ الصراع العاري من أجل الوجود بين الحيوانات البشرية .

اما المغزى الثاني ، لكل تاريخ ، والمتجلي في الرجل والمرأة ، فلقد بحثناه في فصل من هذا الكتاب ، تقدم . فهناك تاريخ شخصي يمثل « الحياة في الفراغ » بوصفها سلاسل من توليد ، او استيلاد لاجيال ، وتاريخ عام يدافع عن الحياة ويؤمنها ، بوصفها « الشكلية اللائقة » سياسياً « جانب المغزل » و « جانب السيف » من الكائن ، وهذان يجدان تعبيريها في فكرتي العائلة والدولة ، ولكنهما يجدانها ايضاً في الشكل الأولي للبيت ، حيث تقوم روح الباب الخيرة ، جانوس ، بحماية الروحين الخيرتين لفراش الزوجية - غنيوس وجونو في كل مسكن روماني قديم. والى هذا التاريخ الشخصي للعائلة ، يحشد الآن التاريخ الاقتصادي نفسه . انه لا يمكن ابداً التفريق بين ديمومة حياة مزدهرة وبين قوة هذه الحياة ، ويطالعنا سر انجابها وحملها بأصفى وجه من خلال أرومة الفلاح القوية النسل ، التي تضرب جذورها متعافية خصبة في تربتها . وكما ان العضو التناسلي يرتبط داخل شكل الجسد بالعضو الدوري ، فكذلك تشكل وسط المسكن ، بالمعنى الآخر لوسط المسكن ، بواسطة الموقد المقدس ، يدي فستا Vesta .

ولهذا السبب بالذات فان مغزى التاريخ الاقتصادي يختلف كلياً عن مغزى التاريخ السياسي . ففي هذا التاريخ الاخير تحتل مصائر افرادية عظمى صدر الصورة ، حيث تنجز هذه ، فعلاً ، ذاتها داخل الاشكال الملزمة لحقبتها ، ولكن بالرغم من هذا فان كل واحد منها ، هو مصير شخصي بصورة محددة صارمة . اما الموضوع الذي يستأثر باهتمام التاريخ الاقتصادي ، وباهتمام تاريخ العائلة ، فهو مجرى تطور لغة الشكل ، فكل شيء يحدث مرة واحدة فقط ، وشخصي ، هو مصير خاص غير ذي أهمية ، ولا أهمية سوى للشكل الاساسي المشترك بين ملايين القضايا والامور . ولكن حتى على هذه الحال ، فان الاقتصاد هو اساس فقط لكينونة مليئة بالمعنى على كل حال .

وليس كون الفرد او الشعب في « وضع لائق » حيث يغذى تغذية حسنة ،

ويكون خصبا ولوداً ، هو ذو الدلالة والمغزى ، بل انما المهم هو السبب الذي يكون من اجله الفرد او الشعب في مثل هذا الوضع ، زد على ذلك ان الانسان يتسلق تاريخياً ويرتفع كلما تزايدت ارادته السياسية والدينية والرمزية الباطنيـة وزخم التعبير وضوحا في تساميها فوق كل شيء تمتلكه الحيـــاة الاقتصادية من حيث الشكل والعمق . ويبــــدأ فقط في مطلع المدنية ، عالم الشكل باكمله بالتدهور والانجزار ، ويبدأ حفظ الحياة المجرد برسم ذاته عارية لحوحاً ـ وهـذا هو الزمن الذي لا يعود الزعم التافـــه ، بان « الجوع والعشق » هما القوتان الدافعتان في الحياة ، يستحي او يخجل من نفسه ، وهو الزمن الذي تصبح فيـه الحياة لا تعني زيادة في القوة من اجـل القيام بالواجب ، بل تعني قضية « سعادة اكبر رقم » قضية ترف ولهو ، قضية « خبز والعاب سيرك » وهو الزمن الذي تحل فيه السياسة الاقتصادية بوصفها غاية بذاتها ، محل السياسة العظمى .

ولما كان الاقتصاد ينتمي الى جانب العرق من الحياة ، لذلك فهو ، كالسياسة ، يمتلك اخلاقية عرف ، وليس اخلاقا ـ وهنا يطالعنا ثانيـــة الفرق بين النبالة والكهنوت ، بين الوقائع والحقائق . فالطبقة الحرفية ، كالمنزلة الاجتماعية ، تمتلك بداهة شعوراً بالطيب والخبيث (لا بالخير والشر) . وانعدام هذا الشعور يعني انعدام الشرف والقانون . وذلك لأن الشرف بالنسبة ايضا للعاملين في الحيـاة الاقتصادية ، يحتل منزلة القسطاس المركزي بما له من لياقة وفطنة حصيفة لما هو « بالشيء الصالح السديد » ـ وهو شيء ما منعزل تماما عن فكرة الخطيئة التي تكمن وراء التأمـــل الديني للعالم . ولا يوجد فقط شرف مهني محدد القواعد تحديدا شديدا بين التجار والمهرة من الصناع والفلاحين ، بل يوجد ايضا تدرج انحداري معرف كذلك تماما لاصحاب الدكاكين والمصدرين والمصرفيين وحتى ، كما جميعنا يعلم ، للصوص والشحاذين ، وذلك طالما يشعر اثنان او ثلاثة منهم ، بانهم زملاء محترفون . ولم يقم احد بتحديد او كتابة قواعد اخلاقية العرف هذه ،

لكنها قائمة وموجودة ، وهي ، كالأخلاقية الطبقية ، ملزمة دائما وفي كل مكان وسارية المفعول داخل دائرة الاعضاء المنتسبين فقط . ويظهر بمحاذاة فضائل النبلاء من ولاء وشجاعة وفروسية وزمالة ، او رفاقة ، والتي توجد في كل مجتمع مهني ، آراء محددة تحديدا شديدا في القيم الاخلاقية للصناعة والنجاح والعمل . ويتبدى ايضا احساس مذهل بالتميز والانفراد . ويملك الانسان هذا النوع من الشيء — ويملكه دون ان يعرف الكثير عنه ، وذلك لان العادة تتجلى للشعور فقط عندما تنتهك او تنقض — بينما ان الامر هو العكس من ذلك فيما يتعلق بنواة الدين وتحريماته التي هي معدومة الزمان وذات صحة كونية ، لكنها ليست ابداً مثلًا عليا قابلة للتحقيق ، ولذلك يتوجب على المرء ان يتعلمها قبل ان يستطيع ان يعرفها او يحاول اتباعها .

فجواهر الزهد الديني ، « كانكار الذات » و « بلا خطيئـــة » ، هي امور لا معنى لها في الحياة الاقتصادية . فالاقتصاد بحد ذاته هو خطيئة في نظر القديس الحقيقي ، وليس فقط من جهة كونه يتقاضى الفوائد ، او الغبطة بالثروات او حسد الفقراء . والقول المتعلق « بزنابق الحقل »[1] هو في نظر الطبائع العميقة التدين (والطبائع الفلسفية) قول صحيح دون قيد او شرط . فكل ما لهذه الطبائع من ثقل كينونة او وزن ، انما يقع خارج كل نطاق اقتصادي وسياسي وخارج جميع وقائع « هذا العالم » . وهذا ما نراه في ازمان يسوع والقديس برنارد وفي النفس الروسية اليوم ، ويطالعنا ايضا من خلال اسلوب حياتي ديوجنيس

---

(١) قول السيد المسيح : تأملوا الزنابق كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل ولكن اقول انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها . انجيل لوقا أص . ١٢ ع . ٢٧ .

— المترجم —

وكنت Kant . ومن اجله اختار رجال الفقر الطوعي والتطواف والتجوال ، وهم يخبئون انفسهم في الصوامع وغرف الدراسة . وليس هناك ابداً من وجود للنشاط الاقتصادي في الدين او الفلسفة ، وهو موجود دائما فقط في الانظمة السياسية للكنيسة او الانظمة الاجتماعية للزمالة للمشتغلين في عالم النظريات ، وهو في حالة من توافق دائم وهذا العالم ، ودليل على وجود ارادة القوة .

– ٣ –

ان ذاك الذي يجوز لنا ان ندعوه بالحياة الاقتصادية للنبات ، هو ينجز ويتم عليه وفي داخله ، ودون ان يكون هو بذاته اكثر من مسرح وموضوع معدوم الارادة لعملية طبيعية . وهذا العنصر يكمن في اقتصاد الجسد الانساني ايضا ، الذي لا يزال نباتيا لا يتبدل او يتغير ، وحاملاً بلاحق وجوده المعدوم الارادة (وهذا من هذه الوجهة غريب عنه تقريبا) في شكل الاعضاء الدورية . Circulatory organs . ولكن عندما نبلغ الجسد الحيواني المتحرك بحرية وانطلاق في الفراغ نجد ان الكائن ليس وحيدا – بل مرافقا بالكائن الواعي ، بالادراك والفهم ، ومن هنا ينشأ الارغام على تدبير حفظ الحياة بواسطة الفكر المستقل . وهنا يبدأ قلق الحياة المؤدي الى اللمس والشم والنظر والسمع بحواس تتزايد ابداً شدة وارهافاً ، ويفضي فوراً الى التحركات في الفراغ من اجل البحث والتقصي والجمع والملاحقة والمخادعة والسرقة ، والتي جميعا تنشأ وتتطور في انواع عديدة من الحيوان (كالقنادس والنمل والنحل والطيور المتعددة والجوارح من الطير) وتفضي الى تقنية اقتصادية ارومية تفترض عملية من تأمل واستبصار ولذلك تحقق للفهم قدراً معيناً من التحرر من الاحساس .

فالانسان هو انسان اصيل من حيث ان فهمه قد حرر ذاتـــه من الاحساس ، وبسبب ان الفكر قد تدخل ابداعياً في العلاقات بين الكون الاصغر والكون الاكبر . ولا تزال حيلة المرأة نحو الرجل حيلة حيوانية تمامـــا ، وكذلك دهاء الفلاح في حصوله على منافع صغيرة ، وكلاهما لا يختلفان في اي شكل عن مكر الثعلب ، وكلاهما ينبعان من المقدرة على الاستشفاف بلحظة واحدة لسر الضحية . ولكن يتلو هذا ويتربع على قمته الفكر الاقتصادي الذي يبذر الحقل ، ويدجن الحيوانات ويبدل الاشياء ويثمنها ، ويقايض عليها ، ويجد الف طريقة ووسيلة لحفظ الحياة بشكل افضل ، ويحول الاعتماد على البيئة الى سيطرة عليها . هذا هو الاساس لكل الحضارات . فالعرق ينتفع بالفكر الاقتصادي الذي يمكن أن يمسي على درجة من الجبروت بحيث يتمكن من التفرد بذاته عن المقاصد والاغراض المعينة ، فيشيد قلاعا من تجريد واخيرا يفقد ذاتـه في متاهات او امتدادات طوباوية .

ان كل حياة اقتصادية ارقى تطور ذاتها اعتمادا على الفلاحين وعلى حسابهم . فالفلاحون بالذات لا يفترضون اية قاعدة ما عدا انفسهم . فهم ، مثلا عرق بحد ذاته ، ومشابهون للنبات ومعدرمون من كل تاريخ ، وهم ينتجون وينتفعون كلياً بما ينتجون بذواتهم ولذواتهم ، وينظرون الى العالم نظرة ماسحة تعتبر كل وجود اقتصادي آخر ، وجودا عرضيا ، طارئاً وجديراً بالاحتقار . ويقابل فورا هذا النوع من الاقتصاد المنتج نوع مكتسب مستجمع مكتنز ، يستخدم النوع الاول بوصفه موضوعا خاضعاً – ومنبعاً للتغذيـــة والأتاوة والجزية والسلب والنهب . فالسياسة والتجارة هما في شبابيهما خلان لا يمكن الفصل بينهما ابـداً ، وكلاهما مأخوذان بشعور السيادة وشخصيان جسوران ، ويقطع احشاءهما جوع نهم للسلطة والاسلاب والغنائم ، جوع ينشأ عنه مطلٌ آخر تماما على العالم – مطل لا يستشرف العالم من زاوية داخله ، بل يجول ببصره منحدرا من فوق فاسفل ،

ويمسحه بنظرات يغريها ما في العالم من سوء انتظام ، مطل يعبر عنه بسلامة طوية تماماً ، اختيار الاسد والدب ، والصقر والنسر ، كشعار للاسلحة والعتاد .

ان الحروب البدائية هي دائماً حروب اسلاب وغنائم، زد على ذلك ان التجارة البدائية وثيقة الارتباط بالنهب والقرصنة .

وتحدثنا الاساطير الايسلندية كيف كان الفايكنغ يوافقون في كثير من الاحيان على عقد هدنة بينهم وبين سكان احدى البلدان يسود خلالها سوقها العام السلام لمدة اسبوعين ، وعندما تنتهي مدتها يتسارعون الى اسلحتهم ويبدأون بالسلب والنهب .

ان السياسة والتجارة في شكليهما المطورين – أي فن تحقيق الانتصارات المادية على الخصم بوسائل عقلانية متفوقة – هما بديل للحرب بوسائل اخرى . ولكل نوع من الدبلوماسية طبيعة أعمالية ، ولكل نوع من الأعمال (الاقتصادية – المترجم) سليقة دبلوماسية ، وكلاهما يرتكزان على الحكم الاختراقي النفاذ ، على الرجال ، ويستندان الى اللباقة السمائية .

ان روح المغامرة التي كان يتمتع بها العظام من جوابة البحار كالفينيقيين والاتروسكان والنورمان والبندقيين والهنسا ، والروح الداهية الأريبة التي لبست اسياد المصارف كآل فوجر Fugger وآل مديتشي والماليين الجبابرة من أمثال كراسوس ، وأقطاب التعدين والاحتكارات في يومنا هذا ، هذه الروح يجب ان تمتلك الموهبة الستراتيجية التي يتمتع بها الجنرال ، اذا ما كانت تريد لعملياتها النجاح . فالاعتزاز بفخذ العائلة ، والتركة الابوية ، وتقاليد العائلة ، ينمو هنا ويتطور ، قيمة في الميدان الاقتصادي ، نموه وتطوره في الميدان السياسي ، زد على ذلك ان الثروات الضخمة هي كالممالك الضخمة ، لها تاريخها ، وبوليكراتس

وصولون ولورنزو دي مديتشي ، ويورغن فوالنفيبر ، وهم ابعـد من ان يكونوا الأمثلة الوحيدة على الطموح السياسي المستولد من الطموح الاقتصادي .

لكن الامير ورجل الدولة الاصيلين يريدان ان يحكما ، اما التاجر الاصيـل فيريد ان يثري فقط ، وهنا يفرق الاقتصاد المكتسب بين ملاحقـــة الاهداف والوسائل . فالمرء قد يهدف الى الغنيمة من أجل كسب السلطة ، او يستهدف السلطة ليجني المغانم والاسلاب . ولقـــد كانت ايضاً للعظام من الحكام ، كهوانغ – تي وتيبريوس وآله وفريدريك الثاني – ارادة للثراء ، ارادة تدفعهم ليكونوا « موفوري الثراء بلداناً ورعايا » ولكن هذه الارادة كان يرافقها وتخضع لحس مرهف بالمسؤوليات . فقد يستولي الانسان على ثروات العالم بأكملها بنيـة سليمة ، وذلك كي لا نقول ببداهة : ويجوز ان يعيش حياة مشعة بالابهةوالرواء ، وحتى متلافة لاهية مسرفة ، – لكنهاذا ما أحس فقط بأنه آلة لرسالة (كنابليون وسيسيل رودز وأعضاء مجلس الشيوخ في القرن الثالث) فعندئذ تكون فكرة الملكية الشخصية نادرة الوجود في نظر مثل هذا الانسان .

ان من ينطلق مدفوعاً بالمنافع الاقتصادية فقط – كما كان أهل قرطاجة في الازمنة الرومانية ، وكما هم الاميركيون اليوم ، ولكن اندفاع هؤلاء اشـد من اولئك بكثير ، ان مثل هذا المرء يتساوى عجزه ، واندفاعـــه ذاك ، عن التفكير السياسي النقي . فهو يكون دائماً ضحية الخداع حينما تتخـــذ القرارات العظمى ، ويكون مخلباً واداة ، كما تظهر حال ولسن – وخاصـة عندما يترك غياب فن سياسة الدولة مقعده فارغاً من اجل التجاوب وعواطفاخلاقيـة . وهذا هو السبب الذي يجعل اليوم المجموعات الاقتصادية الكبرى (مثلاً اتحادات أرباب العمل والعمال) يكدسون الخطأ السياسي الواحد فوق الآخر ، الا اذا وجدوا فعلاً بينهم سياسياً واقعي السياسة ، واتخذوه زعيماً لهم – وعندئذ هو القادر على

الانتفاع منهم [١]

ان النجاحات الاعمالية الضخمة توقظ حساً لا عنان له او لجام بالسلطة الشعبية - وكلمة « رأس المال » بالذات تعبر تعبيراً ضمنياً لا يخطىء عن هذا المعنى ولكن لون الارادة واتجاهها ، وميزان الاوضاع للاشياء لا يتبدل الا عنـد قلة القلة فقط من الاقتصاديين . فعندما لا يعود الانسان يشعر حقاً بان مشروعه القائم ، هو مشروع « خاص به وملك له » وان هدفه هو اكتناز الثروات وجمع العقارات ، عندئذ وعندئذ فقط يستطيع مثل هذا القطب الصناعي ان يصبح رجل دولة ،ان يصبح سيسل رودز .

ولكن الامر يطالعنا على عكس ما نريـــد ، فرجال عالم السياسة معرضون لخطر التدني والانحلال ، ارادة وتفكيراً تاريخياً بالواجب ، فيمسي همهم الاول تدبير امور عيشهم فقط ، وهنا بمقدور النبالة ان تصبح نظاماً للصوص ، وهنـــا نرى نشوء النماذج المألوفة من الامراء والوزراء والدهماويين وابطال الثورات الذين يستنزفون طاقات حياتهم في الترف الخامل الكسول وفي تكديس الثروات الهائلة — وليس لدينا من هذه الجهة الا القليل من الخيار بين فرساي ونادي اليعاقبة ، بين اقطاب الاعمال وزعماء اتحادات العمال ، بين الحكام الروس والبلاشفة . وتصبح ، في مرحلة نضوج الديمقراطية ، سياسة اولئك الذين وصلوا « الى هناك» (كراسي الحكم – المترجم) متجانسة تماماً ليس والاعمال الاقتصادية فقط، بل ايضاً واعمال المضاربات ، من أقذر انواع المضاربة التي تعرفها المدينة الكبيرة .

وعلى كل حال فان هذا كله هو التجلي كل التجـــلي المجرى المستتر للحضارة

---

(١) لاحظ قلنا الانتفاع منهم لا بهم .

– المترجم –

الراقية . ففي بدايتها يظهر النظامان الاوليان ، النبالة والكهنوت ، برمزيتيهما الزمان والفراغ . وان للحياة السياسية ، كما للخبرة الدينية ، مكانها الثابت المقرر ، ورجالها الحاذقين الماهرين المكرسين ، وكل اهدافها المقررة من وقائع وحقائق ، على حد سواء ، في مجتمع حسن الانتظـــام ، اما هناك في الاعماق فتجري الحياة الاقتصادية ، جرياناً غير واع ، في حوض يقيني اكيد . ومن ثم يصادف سيل الكينونة عوائق وعراقيل في مباني البلدة الحجرية ، وابتداء بهذا فما بعد ، يتولى العقل والمال مقاليد التوجيه التاريخي لهذا السيل .

وهنا تأتي الايام شيئاً فشيئاً على البطولي والقديسي ، بما لهما من زخم رمزي فني ، ويمسي هذا أندر فأندر ، وينسحبان الى دوائر تزيد الايام في ضيقها . وهنا يحل الصفاء البرجوازي محليها . فابرام منهاج ، وابرام صفقة ، يتطلبان في الاعماق النوع الواحد ذاته من الذكاء المحترف . ولما كان هنا التمييز بواسطة أي قياس من زخم رمزي ، امراً نادراً بين الحياة السياسية والاقتصادية ، بين الخبرة الدينيـــة والعلمية ، لذلك سرعان ما تتعارفان وتتدافعان وتختلطان ، ويفقد سيل الكينونة في احتكاكات المدينة شكله الصارم الثري . وتطفو العوامل الاقتصادية الابتدائية على السطح وتتفاعل والسياسة المشبعة ببقايا الشكل ، كما يضيف العلم السيد ، وفي الوقت ذاته تماماً ، الدين الى مخزونه من الموضوعات .

وتنتشر فوق حياة من رضى ذاتي اقتصادي سياسي ، عالمية تنديدية تقويمية . ولكن تنبعث منها كلها ، مجاري حياتات افرادية ، تحل محل المنزلتين المضمحلتين . وتندفع هذه الحياتات بزخم سياسي حقيقي أو ديني ، قدر لها جميعاً ان تصبـــح مصيراً للكل .

وعلى هذا الشكل تبـــدأ بادرات مورفولوجيا التاريخ الاقتصادي . فهناك يوجد اولاً اقتصاد بدائي « للانسان » وهو – اقتصاد كاقتصاد النبات والحيوان –

ويتبع ميزاناً زمانيا بيولوجيا في تطور اشكاله . وهذا يسيطر سيطرة تامة على الحقبة البدائية ، ثم يستمر منطلقاً بتحركه بصورة لا نهائية في بطئها ، ويتحرك بغموض وارتباك تحت وبين الحضارات الراقية . وتدخل الحيوانات والنباتات فيه، وتحول تدجيناً وتهجينا واستيلاداً واختياراً وبذراً ، وهنا تستغل النار والمعادن ، وتجعل العمليات التقنية خصائص الطبيعة غير المتعضية ، صالحة لاستخدام الحياة لها في سلوكها . ويطلى كل هذا باخلاقية سياسية دينيـــة ومعنى ، ويكون التمييز ممكناً بين الطوطم والتابو ، وخوف النفس وعشق الجنس والفن والحرب والطقوس القربانية والمعتقد والخبرة .

اما التواريـخ الاقتصادية للحضارات الراقية ، فانها تختلف اختلافاً كلياً عن هذا ، وذلك في الفكرة والتطور ، وهي مميزة بشدة ، في القياس الزمني Tempo والديمومة ، ولكل منها طرازها الاقتصادي الخاص . امـا النظام الاقطاعي فهو ينتمي الى الريف المقفر من المدن . ويظهر ، مع الدولة الحاكمة نصف قطرياً Radially من المدينـــة ، اقتصاد المال الحضري ، ويرتفع هذا مع دنو المدنية واقترابها ليصبح دكتاتورية المال ، وذلك في وقت واحد ، وانتصار ديمقراطية المدينة العالمية . ولكل حضارة عالم شكلها الخاص والمطور تطويرا مستقلا . وان طباق المال الابولوني الحجمي (اي قطعة النقد المعدنيـــة المدموغة) ، والمال العلائقي Relational للطراز الفاوستي الديناميكي (وهذا تسجيـــل وحدات الاعتماد) كطباق دولة المدينة ودولة شارل الخامس . ولكن الحياة الاقتصادية ، كالحياة الاجتماعية ، اذ انها تشكل ذاتها على شكل هرمي . ويحافظ ، في الاعماق الريفية ، وضع بدائي ، كلي البدائية ، على ذاته دون ان تتأثر بالحضارة تقريبا . وينظر الاقتصاد الحضري المتأخر زمنا ، الذي هو نشاط محصور باقلية جسورة شديدة العزم ، بنظرات من احتقار متزايـــد للاقتصاد الفطري الريفي الذي يكون لا يزال محيطا به ، بينما يحدق هذا ، برماً متضجراً ، من الطراز المتعقلن المسيطر داخل اسوار المدينة . وتدخل اخيراً المدينـة العالمية الكبرى اقتصاداً

عالميـــاً متمدناً ، حيث يشع هذا من حبيبات (نواة) جد صغيرة لمراكز جد قليلة ، ويخضع كل شيء ما عداه ، معتبراً اياه اقتصادا ريفياً ، بينا تكون في كثير من الاحيان ، عادة (أبوية) بدائية كلياً لا تزال حية في الاصقاع الابعد . ويزداد ، باستمرار ، مع نمو المدينة اسلوب الحياة تصنعاً ودهاء ومراوغـــة وتعقيدا . فالعامل في المدينة الكبرى ، في ر وما قيصر ، وبغداد هارون الرشيد ، وبرلين اليوم ، يشعر بكثير من الاشياء على انها ضروريات واضحة غنية البيان ، حيث يكون اغنى ملاك لا يزالون يحسون بانها من الكماليات ، ولكن هـذا المستوى المعاشي هو امر شاق بلوغه ، وصعب الحفاظ عليـه . ففي كل حضارة ينمو كمّ Quantum العمل اضخم فأضخم حتى نجد في مطلع كل مدينة فيضاً في الحياة الاقتصادية وافراطاً ، حيث تصبح الافراطات متجاوزة كل حد وخطرة ومن المستحيل الحفاظ عليها لمدة طويلة ، ويتوصلون في النهاية الى وضع متخشب صلب مقررة ديمومته ، وهو شيوع ملكية عجيب او خليط غريب من عوامـل عقلانية نقية مصفاة واخرى بدائية خام ، فيبدو كأنـــه مسبحة الدراويش ، كالوضع الذي وجده اليونان في مصر ، ووجدناه نحن في الهند الحديثة والصين — وذلك طبعاً ، اذا لم يقم ضغط حضارة فتية بتفكيك القشرة ونخرها من اسفل ، كما فعل الضغط الكلاسيكي في زمن ديوكلتسيان .

وتناسباً وهذه الحركة الاقتصادية ، يكون الناس في « شكل لائق » اقتصادياً بوصفهم طبقة اقتصادية ، تماماً ككونهم في « شكل لائق » سياسياً بالنسبة لتاريخ العالم ، بوصفهم منزلة اجتماعية سياسية . فلكل فرد مركز اقتصادي داخل النظام الاقتصادي ، تماماً كما له درجة من نوع ما في المجتمع .

وهنا يطلب كلا هذين النوعـــين من الولاء (الاقتصـادي والسياسي — المترجم) بالاستئثار بالمشاعر والافكار والعلاقات ، ويطالبان بكل هذه في وقت واحد . ان الحياة تلح على ان تكون ، وعلى ان تعني شيئاً ما ايضاً ، وقد جعلت

الواقعة ارتباك فكرنا اسوأ تشويشاً وحيرة ، الواقعة التي نراهـــا اليوم ، كما كانت في الازمنة الهيلينية ، ماثلة في الاحزاب السياسية التي ارتفعت ، مدفوعة برغبتها في تحسين الاحوال المعاشية لمجموعات اقتصادية معينة ، فارتفعت بهـــذه المجموعات الى مقام منزلة سياسية ، كما ارتقى ماركس مثلاً بطبقـــة عمـال المصانـع .

البلبلة والارتباك ! – وذلك لأن المنزلة الاولى والاصيلة هي النبالة . فمنهـا يشتق الضابط والقاضي وكل من يقوم بأرقى واجبات الحكومات والادارات العامة . وهؤلاء هم مجموعات شبيهة بالمنزلة وتعني شيئاً ما . وكذلك ايضاً هي حال العلمـــاء Scientists فهؤلاء ينتمون الى الكهنوت ، ولهم نوع من طبقة محددة تحديداً دقيقاً ومحصورة بهم . لكن الرمزية العظمى تنطفىء مع القلعـــة والكاتدرائية . اما الطبقة الثالثـــة اللا منزلـة ، الباقي ، وهي عرمات متنوعة متعددة ، لا تعني الا قليلا جداً على هذه الحـــال ، ما عدا في لحظات الاعتراض السياسي ، وهكذا فان الاهمية التي تخلقها لنفسها هي اهميـــة حزبية . فالفرد لا يعي نفسه بوصفه برجوازياً ، بل بسبب كونه « ليبرالياً » وهكذا فهو جزء وعدد من الشيء الكبير ، وليس لأنه يمثل هذا الشيء بشخصه بل لانـــه ملتصق به عن قناعة أو معتقد . ونتيجـــة لضعف « شكله » الاجتماعي ، يزداد نسبياً « الشكل » الاقتصادي للبرجوازية وضوحاً على وضوح من خلال حرفتـه ونقاباتـــه واتحاداته . وعلى كل حال فان الانسان ، يشار اليـــه ، بصورة رئيسية ، في المدن ، وفق اسلوب العمل الذي يؤمن له قوته .

ان اول صيغة اقتصادية للحياة (ومن قديم هي الصيغة الوحيدة تقريباً) هي صيغة الفلاح التي هي انتاج نقي مجرد ، وهي لذلك الشرط السابق لكل صيغة اخرى . كما وان حتى المنزلات الاولى كانت هي ايضاً تركز اسلوبها في الحياة ، وفي الازمنة المبكرة على القنص وامتلاك قطعان الماشية والاراضي ، وكان النبـــلاء

والكهنة حتى في المراحل المتأخرة يعتبرون الارض النوع الوحيد الشريف والصحيح من الملكية . وتقف التجارة متعارضة وهذه ، وهي صيغة الوسط المكتسب ، او المتدخل ، وهذه جبارة قوية وخارجة على كل تناسب وعددها ، وكانت صيغة لا يستغنى عنها حتى في الاوضاع المبكرة تماماً - انها صيغة لطفيلية مهذبة ، عديمة الانتاج كلياً ، وهي لذلك غريبة عن الارض ، وذات مدى بعيد ، « وحرة » غير مقيدة روحياً ايضاً بأخلاقية الريف وبممارسته ، انها صيغة حياة تعيش على حساب حياة اخرى . وينمو بين هاتين الصيغتين الاقتصاديتين ، نوع ثالث من الاقتصاد ، الاقتصاد الاعدادي للتقنية ، ويتطور بمهنه وحرفه وصناعاته التي لا تعد أو تحصى ، ويظبق هذا النوع الثالث ، بابداع ، تأملاته على على الطبيعة ، ويكون ضميره وشرفه مرتبطين بانجاز العمل واتمامه . اما اقدم نقاباته والتي تبلغ من القدم حتى الحقبة البدائية الاولى ، وتملأ صورة هذه الحقبة باساطيرها المظلمة وطقوسها وتخيلاتها ، فهي نقابة الحدادين والذين كانوا يصبحون مراراً - نتيجة لاعتزالهم المستعلي عن الفلاحين ، والخوف المخيم فوق رؤوسهم والذي كان يوفر لهم آناً الاحترام وحيناً اللعنة - قبائل ذات عرق خاص بها ، كما هي حال الفالاشا الاحباش ، أو « اليهود السود » .

ويوجد في هذه الاقتصادات الثلاثة من الانتاج والاعداد والتوزيع ، كما يوجد في كل شيء آخر ينتمي الى السياسة والحياة بصورة واسعة ، اسياد واتباع - وهذان النوعان من البشر هم في هذا الامر أولاً مجموعات كاملة تتصرف وتقرر وتنظم وتكتشف ، وثانياً مجموعات كاملة تكون كل ما لها من وظيفة ان تنفذ فقط . والتدرج قد يكون هنا شاقاً ومحدداً ، او يجوز ان لا يحس به الا نادراً ، وقد تكون الترقية أمراً مستحيلا ، أو أمراً لا يعوقه عائق ، وقد يكون المقام النسبي في العمل هو ذاته تقريباً طيلة تدرج طويل من عبور بطيء ، أو مختلفاً اختلافاً يتجاوز كل مقارنة . فالتقاليد والقانون ، الموهبة والممتلكات ، عدد السكان والمستوى الحضاري والوضع الاقتصادي ، كل هذه يمكن لها ان تدوس

بصورة فعالة على هذين النقيضين الاساسيين من الاسياد والاتباع – لكنها قائمة وموجودة ، وهي مقدمة منطقية كالحياة نفسها ، وغير قابلة للتعديل أو التبديل . وبالرغم من هذا لا توجد اقتصادياً طبقة عاملة ، فهذه الطبقـــة هي المختراع من مخترعات النظريين الذين ركزوا أبصارهم على عمال المصانع في انكلترا – ومن ثم مدوا بمناهجهم بثقة واطمئنان وغطوا به كل الحضارات والعصور كي يأتي السياسيون فيأخذوه ويستعملوه كوسيلة لبناء احزاب لأنفسهم .

والحق انه يوجد عدد لا يحصى تقريباً من نشاطات خدمة مجردة في الورشات ودور المحاسبة والمكاتب وارصفة البضائع والطرق ومهواءات المناجم والحقول والمروج . وهؤلاء يعتلون ويطرقون ويخدمون ويلاحظون وكثيراً من الأحيان يفتقرون الى ذاك العنصر الذي يرتفع بالحياة فوق عيش الكفاف المجردة ويخلعون على العمل من الوقار والغبطة اللذين يخلعان مثلا على واجبات الضباط واعمال العلماء والحكماء ، او الانتصارات الشخصية التي يحققها المهندسون والمديرون والتجار – ولكن حتى ما عدا هذا فان جميع هذه الاشياء امور لا تستطيع ان تقارن بين ذواتها . فعقل العمل او قوته العضلية ، وموقعه في القرية او في المدينة العالميـــة الكبرى ، وديمومة القيام به وشدته يمر بعمال المزرعة القيام به وشدته حيث تجعله يتجاوز في جهده عمل العمال الزراعيين او كتبة المصارف والخياطين واجرائهم ، كل هذه تعيش في عوالم اقتصادية يختلف الواحد منها عن الآخر تماماً ، والسياسة الحزبية في الاطوار المتأخرة ، واكرر قولي ، هي وحدها التي تغري هؤلاء جميعاً بواسطة الشعارات وتغويهم فينتظمون داخل مركب من اعتراض ، بغية الاستفادة من جموع جماهيره . أما العبد الكلاسيكي ، فهو على العكس من ذلك ، ولا سيما فيما يتعلق بالقانون الدستوري – اذ انه كان يعتبر فيما يتعلق بدولة المدينة الحجمية ، غير موجود اطلاقاً – لكنه من الوجهة الاقتصادية كان مسموحاً له بان يكون

عاملا زراعيا أو صانعا او حتى مديراً او تاجر جملة ، له رأس مال ضخم ويملك القصور والدارات الريفية واتباعاً - بما فيهم رجالاً احراراً . اما ما كان يستطيع ان يكونه فوق كل هذا ، وذلك في الازمان الرومانية ، فهـذا ما سيظهر في العاقبـة .

- ٣ -

ومع مطلع الربيع الحضاري ، تبدأ في كل حضارة ، حياة اقتصادية ذات شكل مستقر . وتكون حياة السكان بأكملها هي حياة الفلاحين في الريف . فخبرة المدينة لم تأت بعد . وكل ما يتشامخ بذاته من بين القرى والقـلاع والقصور والاديرة وأسوار المعابد وسياجاتها ، ليس بالمدينة ، بل هو السوق ، النقطة التي تجتمع فيها مصالح الملاك ، والتي تكتسب فورا معنى دينيـاً وسياسياً معينا ، ولكن لا نستطيع اكيدا ان نقول بان لهذه السوق حياة خاصة بها . فالسكان ، حتى بالرغم من انهم قد يكونون صناعاً أو تجارا ، لكن لا يزالون يشعرون كفلاحين ، وهم حتى ، بطريقة أو اخرى ، يعملون كفلاحين .

ان ذاك الذي ينفتح عن حياة يكون كل فرد فيها منتجاً ومستهلكاً معاً هو السلع . وتبادلها هو علامة كل تعامل مبكر زمناً ، أكانت السلعة المتجر بهـا قد جيء بها من مكان بعيد ، أو من داخل حدود القرية أو حتى المزرعة . وأن قطعة من السلع هي تلك التي تلتصق مشدودة ببعض من خيوط جوهرها الخفية بالحياة التي تنتجها أو الحياة التي تستخدمها وتنتفع بها ان الفلاح يسوق بقرته الى السوق ، والمرأة تضع ادوات زينتها ، أو « كمالياتها » في الخزانة . ونحن « نقول

هنا » ان الرجل قد منح « بضاعة » العالم هذه ، وذلك لأن كلمة « امتلاك » تعود بنا مباشرة الى الأصل الشبيه بالنبات للملكية ، والتي نما فيها هذا الكائن بالذات - وليس غيره - جذرا وجذعاً وفروعاً . ويكون التبادل في هذه المراحل عمليـــة تنتقل السلع بواسطتها من دائرة حياة الى دائره حياة اخرى . وتقيم السلع استنادا الى الحياة ووفق تسعيرة متغيرة يحس بها على ضوء علاقتها بالبرهة الزمنية . وهنـا لا يوجد مفهوم للقيمة ولا يوجد نوع أو مقدار من البضائع بحيث يشكل قياساً عاماً - لأن قطع النقد الذهبية هي سلع ايضاً تجعلها ندرتها ولا فنائيتها تثمن تثميناً عالياً مرتفعاً .

ويدخل البائع ايقاع هذه المقايضة ومجراها بوصفه وسيطاً او متدخلاً فقط . ويصادف الاقتصاد المكتسب والاقتصاد المبدع احدهما الآخر ، ولكن التجـارة تبدو ، حتى الاماكن التي تفرغ فيها الأساطيل والقوافل بضائعها ، كأنها جهـاز المبادلة الريفية . وهذه هي الشكل « الخالد » للاقتصاد ، وهي لا تزال حتى اليوم منظورة في شخص البائع المتجول العتيق والغارق في القدم ، هذا البائع الذي يجوب المناطق الريفية النائية عن البلدان والمدن ، وفي الضواحي والدروب غير المطروقة ، حيث تتكون بداهة دوائر من تجارة صغيرة ، وفي الاقتصاد الشخصي للعلمـــاء والموظفين ، وبصورة عامة في كل ما هو ليس بجزء ناشط من الحياة الاقتصاديـة للمدينة الكبرى .

ويستيقظ مع روح البلدة نوع آخر تماماً من حياة . اذ حالمـــا يصبح السوق البلدة لا تعود البلدة مجرد مركز لسيول من بضائع تجتاز الصقع الفلاحي المجرد ، بل تصبح عالماً ثانياً داخل الاسوار ، وحيث لا تمسي الحياة المنتجة « هناك خارجاً » في نظرها اكثر من هدف ووسيلة ، وهنا يتدفق منها سيل آخر ويبدأ بالدوران. والنقطة الجازمة الحاسمة هي - ان الانسان المتمدن ليس منتجـــاً وفق مفهوم التربة الاولية . وهو لا يملك الترابط الباطني والتربة أو البضائع التي تمر بيديـه .

وهو لا يعيش معها بل ينظر اليهـــا من الخارج ويثمنها على ضوء علاقتها بأمور معيشته فقط .

وبهذا يصبح المتاع بضائع وسلعاً ، وينقلب التبادل رأساً على عقب ، ويحـل التفكير بالمال محل التفكير بالمتاع .

وهنا يجري استخلاص شيء ما امتدادي مجرد ، شكل لتعريف الحد الاقصى ، ويجري استخلاصه من المواد المنظورة من الاقتصاد ، وذلك تماماً كما يستخلص الفكر الرياضي شيئاً ما من البيئة المدركة ادراكاً ميكانيكياً . فالمال التجريدي ينطبق كل الانطباق على الرقم التجريدي . وكلاهما غير متعصبين تماماً . وهنـا تختزل الصورة الاقتصادية الى كميات اختزالاً جامعاً مانعاً ، بينما ان النقطة الهامة في السلع كانت تتمثل في النوعية . فلقد كانت البقرة في نظر الفلاح — في المراحل المبكرة ، كحالها تماماً ، أي وحدة كائن قبـل كل شيء ، ومن ثم فقط هي موضوع للمقايضة ، ولكن النظرة الاقتصادية لابن البلدة الحقيقي لا تقيم اي وزن لأي شيء آخر ما عدا لقيمة المال التجريدي ، وهذه هي وحدها الموجودة ، وقد تكون في هذه البرهة ماثلة في شكل البقرة التي تستطيع ان تحولهـــا دائماً الى ورق مالي مثـلاً . كما وان هذه ايضاً حال حتى المهنـدس الاصيل ، فهو لا يرى في شلال مشهور مشهدا طبيعياً فريدا في نوعه ، بل يرى فيه كماً محسوباً لطاقـة لم تستغـــل .

وان الخطأ الذي تقترفه جميع النظريات المالية الحديثة هو انها تبدأ من اشارة المال او علامته ، او حتى من مادة وسيلة الدفـــع ، بدلاً من شكل الفكر الاقتصادي . والحق ان المال هو ، كالرقم والقانون ، انـه مقولة Category فكر . فكما ان هناك تفكيراً فقهياً ورياضياً بالعالم ، كذلك تماماً يوجد تفكير مالي به ايضاً . ونحن نستحصل من خبرة الحس ببيت على تجريدات متباينة تماماً ،

وذلك فيما اذا كنا عقلانياً نثمن هـــذا البيت من وجهة نظر تاجر أو قاضي أو مهندس ، وعلى ضوء ما اذا كان هناك كشف حساب أو دعوى قضائية او خطر انهياره . زد على ذلك ان الرياضيات هي ، على كل حال ، قريبة للتفكير المـــالي ومن عشيرته . فان تفكر بحدود الاعمال يتوجب عليك ان تحسب . وقيمة المال هي قيمة رقمية تقاس بالعد والحساب . وانسان البلدة ، الانسان المعدوم الجذور هو اول من تصور هذه « القيمة بذاتها » كما تخيل « الرقم بذاته » ، وذلك لأنه لا توجد هنا في نظر الفلاح سوى قيم يومية الحياة سريعة الزوال ، وتستنـــد في تقديرها الى تبادل هذا الشيء الآن او ذاك في حين مبادلته ، فما لا يريد ان يستعمله ، او لا يريد ان يملكه لا قيمة له . اما القيم الموضوعية فلا توجد الا في صورة الاقتصاد لانسان البلدة الحقيقي ، وانواع من قيم لها وجود منفرد عن حاجاته الشخصية ، كعناصر فكر لصحة تقييمية ، بالرغم من ان لكل فرد ، في الواقع ، منهاجـــه الخاص للقيم ، وخزينه الخاص منها ، واشدها تنوعاً ، وهو يشعر بان الاسعار السائدة في السوق هي « رخيصة » او « مرتفعة » اعتماداً على قيمه الخاصة هذه .

بينما ان الجنس البشري الابكر كان يقارن بين السلع ، ولم تكن مقارنته هذه تستند الى العقل فقط ، اما الجنس البشري اللاحق فكان يخمن القيم ، وكان يستند في تخمينه الى مقاسات غير موصوفة . اما الآن فلم يعد الذهب يقاس بالبقرة ، بل أصبحت البقرة تقاس بالذهب ، ونتيجة القياس يعبر عنها الرقم التجريدي للسعر . أما ما اذا كان وكيف يجد قياس القيمة هذا تعبيراً رمزياً في اشارة قيمة – وذلك لأن اشارة الرقم المكتوبة او المنطوقة او الممثلة هي بمعنى ما رقم فهذا الامر يعتمد على الطراز الاقتصادي لكل حضارة بحد ذاتها ، اذ ان كل حضارة تنتج نوعاً مختلفاً من المال . أما الشرط المشترك لظهور المال فهو وجود سكان حضريين يفكرون اقتصادياً وفق منطوقه ومصطلحاته ، كما وان طابعه الخاص هو الذي يقرر مـــا اذا كانت اشارة قيمته ستستخدم ايضاً وسيلة للدفع ، وعلى هذا الشكل كان من الجائز حـــال القطعة المعدنية النقدية الكلاسيكية ، والفضة في بابل ، بينما ان

الدبين Deben المصري (وهو نحاس خام كان يوزن بالارطال) كان يستعمل قياساً للمبادلة ، ولكنه لم يستعمل كاشارة او وسيلة للدفع . زد على ذلك ان الورق المالي الغربي ، « ومعاصره » الصيني همـــا ايضاً وسيلة وليسا بقياس . والحق انه قد تعودنا على ان نخدع انفسنا خداعـاً تاماً بالنسبة للدور الذي تلعبه القطع النقدية من المعادن الثمينة في نوع اقتصادنا ، فهذه ليست سوى سلع صيغت تقليداً للعادة الكلاسيكية ، ومن هنا فهي تقاس قبالة قيم السجلات لمال الاعتماد ، ولهذه « ثمن » .

ويسفر هذا الاسلوب من التفكير عن افساح التملك القديم المرتبط بالحياة والتربة الطريق امام الثروة التي هي جوهراً متحركة وغير معرفة وصفاً ، وهي لا تتألف من السلع ، بل انما تعرض فيها . ونحن اذا ما تأملنا فيها بحد ذاتها ، نجدها كماً رقمياً مجرداً لقيمة مال .

ولما كانت المدينة هي مرتكز هذا التفكير ، لذلك تصبح السوق الماليـــة ومركزاً للقيم ، ويبدأ سيل من القيم بالانتشار والتعقلن ، ويسيطر على السيل المتدفق من البضائع . وبهذا يتحول التاجر من كونه اداة للحياة الاقتصادية الى صيرورته سيداً لها فالتفكير بالمال ، باسلوب او بآخر ، هو دائماً تفكير تجاري أو أعمالي . وهو يفترض مسبقاً وجود الاقتصـــاد الانتاجي للريف ، ولذلك هو دائماً وبصورة اولية تفكير مكتسب ،لأنه لا يجد امامه من طريق ثالثة يسلكها. فالكلمات التالية : « اكتساب » « ربح » « مضاربة » انما تدل بحد ذاتهـا على ان ربحاً قد حقق احتيالاً وخديعة اثناء انتقال السلع الى المستهلك - انه نهب عقلاني- ولهذا السبب فان هذه الكلمات غير قابلة للتطبيق على الفلاحين المبكرين زمناً . ونحن لا نستطيع ان نفهم مغازيها الا اذا ضبطنا أوتار ذواتنا لتتناغم وروح النظرة الاقتصادية للانسان البلدي المتحضر حقاً . فهو لا يعمل مدفوعا بحاجات ، بل بغية البيع وسعياً وراء « المال » . وتنتشر النظرة الاعمالية ذاتها تدريجياً وتتداخل في

كل نوع من نشاط . ولقد كان الانسان الريفي المرتبط باطنيـــاً في التعامل بالبضائع ، معطياً وآخذاً في الوقت ذاته ، ولم يكن حتى التاجر في السوق البدائية يشكل استثناء لهذه القاعدة ولكن يظهر مع التعامل بالمال بين المنتج والمستهلك، كأن هذين عالمان منفصلان ، فريق ثالث ، اي الوسيط ، الذي يسيطر بداهـــة الجانب الاعمالي من الحياة على فكره . فهو يرغم المنتج على العرض عليه ،والمستهلك على الطلب منه . ويرتقي بالوساطة حتى يجعل منهـــا احتكاراً ، ومن ثم تنطلق سيادته الاقتصادية ، ويرغم هذين الآخرين ، على ان يكونا « في شكل لائق » بمصلحته ، فيعد السلع وفق حساباته ، ويخفض اثمانها تحت ضغط عروضه .

ان من يسيطر على هذا الاسلوب من التفكير ، هو سيد المال وربه . وان التطور في كل الحضارات يسلك هذه الطريق .

ويصف لنا ليسياس في خطبته ضد تجار الحنطة ، كيف ان المضاربين في بيريوس كانوا في كثير من الاحيان يشيعون اخبار غرق اسطول بحري محمل بالحنطة ، او نشوب حرب ، كي يثيروا الذعر والفزع . وقد درجوا في الازمان الهيلينستية الرومانية على عادة تعمد اهمال زراعة الارض وجعلها بوراً ، او عـــلى احتجاز الواردات كي يرغموا الاسعار على الارتفاع . وقد وجد في الامبراطورية المصرية الجديدة محتكرون للقمح ، من الطراز الاميركي الذي نراه اليوم ، وقد جعلوا احتكارهم أمراً ممكناً بواسطة خصومات الحوالات التي يستطيع المرء ان يقارنها تماماً بالعمليات المصرفية في الغرب . ولقد تمكن كليومينيس ، المنظم الاداري للاسكندر الاكبر في مصر ، أن يجمع بين يديه كامل انتاج مصر من القمح ، وذلك بواسطة صفقات مالية اعتمدت السجلات ، وبهذا نشر المجاعـــة في اليونان طولاً وعرضاً وحقق لنفسه ارباحاً ضخمة هائلة . وان كل انسان لا يعتمد على هذه القواعد في تفكيره الاقتصادي ، سيصبح اكيداً مجرد متاع مرهون لدى

العمليات المالية للمدينة الكبيرة .

وسرعان ما يسيطر هذا الاسلوب من التفكير على الشعور الواعي للسكان الحضريين بأكملهم ، وكذلك على شعوركل فرد يلعب دوراً جدياً في توجيه التاريخ الاقتصادي . « فالفلاح » ووليد البلدة لا يمثلان الفرق القائم بين الريف والمدينة فقط ، بل يمثلان التباين بين الملكية والمال ايضاً . فالحضارة الرائعة التي عرفتها البلاطات الهوميرية ، وبلاطات امراء بروفنسال ، كانت شيئاً ما نما وتضخم وتضاءل وهزل مع الناس انفسهم – وهذا ما يقدورنا مشاهدته حتى اليوم في حياة العائلات القديمة في مراكزها الريفية – لكن الحضارة الاكثر صفاء (تصفية) ، حضارة البرجوازية ، فان « ترفها » شيء ما يأتي من خارجها ، شيء ما يستطيع البرجوازي أن يدفع سعره . ان كل اقتصاد مطور تطويراً عالياً هو اقتصاد حضري .

ويجب على ما اعتقد ان ندعو الاقتصاد العالمي ، وهو خاصة من خصائص كل مدينة ، باقتصاد المدينة العالمية . زد على ذلك ان مصائر حتى هذا الاقتصاد العالمي يجري تقريرها في أماكن قليلة ، في الاسواق المالية للعالم – في بابل ، طيبة ،روما بيزنطة ، بغداد ، نيويورك لندن برلين وباريس – أما ما خلا هذه ، أي الشغل ، فهو اقتصاد ريفي جائع وهزيل ، يتابع جريانه داخل دوائره دون ان يعي تبعيته المطلقة .

واخيراً فان المال هو شكل الطاقة العقلانية التي تتركز فيها ارادة الحاكم والقوة الابداعية من سياسية واجتماعية وتقنية وذهنية . ولقد أصاب جورج برناردشو كبد الحقيقة حينما قال :

« ان الاحترام العالمي للمال هو الواقعة الوحيدة المرتقبة في مدنيتنا ... فهذان الشيئان (المال والحياة) لا يمكن الفصل بينهما اطلاقاً ، فالمال هو الصداق ، أو

شباك الدفع ، الذي يجعل الحياة امراً ممكنا توزيعه اجتماعيا : هذه هي الحيـــاة ، اذن فان ما يوصف هنا بالمدنية ، هو مرحلة من حضارة فقدت فيها التقاليـــد والشخصية فعاليتها الفورية المباشرة ، وان كل فكرة يراد لها ان تتحقق يجب ان توضع في حدود المال ووفق اعرافه . لقد كان المرء في البداية ثريـاً لأنه كان قوياً – اما الآن فان المرء قوي لأنـه ثري يملك المال . والعقـل يبلغ العرش فقط عندما ينصبه المال عليه . والديمقراطية هي التعادل المنجز بين المال والسلطة السياسية .

علماً بأنه ينشب ، في التاريخ الاقتصادي لكل حضارة ، صراع يائس تشنـه تقاليد العنصر الضاربة جذوره في التربة ، تشنه روحه ، على روح المال . فحروب الفلاحين في الحقبة المتأخرة (وهذه تعاصر الحقبـة الكلاسيكية ٧٠٠ – ٥٠٠ ، الغربية ١٤٥٠ – ١٦٥٠ والمصرية تتمثل في نهاية المملكة القديمـــة) هي ردود الافعال الاولى للدم ضد المال الذي كان يمد بيده من المدينة الشمعية فوق الريف . وان تحذير شتاين القائل : « ان من يحرك التربة (عسكرياً – المترجم) يحلهـــا غباراً » هو تحذير وانذار بالخطر المشترك العـــام بين كل الحضارات ، واذا كان المال لا يستطيع ان يهاجم الملكية ، لكنه يدس بنفسه ويدمسها في افـكار النبلاء والمالكين من الفلاحين ، حتى يتبدى الملك الموروث الذي رافق نموه نماء العائلة ، مجرد مورد « وظف » في الأرض والتربة ، نظرا لاعتبار جوهريها ملكية منقولة . ان المال يهدف الى تعبئة كل الاشياء . وما الاقتصاد العالمي سوى اقتصاد القيم التي تفردت بفكرها تفردا تاماً عن الارض ، وجعلت سائلة . ولقد حول التفكير المالي الكلاسيكي ابتداء بزمن هنيبال فما بعده ، مدناً بأكملها الى قطـع معدنية من نقود ، وشعوباً بأجمعها الى عبيد ، ثم حول كلا من هذين الى مـال كان يمكن استجلابه من كل مكان الى رومـــا ، ويستعمل كقوة تنطلق من روما خارجاً .

ان التفكير المالي الفاوستي « يفتح » قارات بأكملها ، ويحول القوى المائية في احواض الانهار الجبارة ، وقوى الشعوب العضلية في اقطار وسيعة منفسحة ، وطاقات الفحم والغابات العذارى وقوانين الطبيعة ، يحول هذه جميعاً الى طاقة ماليه ترصد باسلوب أو آخر ، صحافة ، انتخابات أو موازنات او جيوشاً – لتحقيق خطط الاسياد . ويجري ابدا ودوماً استخلاص قيم جديدة من كل خزين عالمي مهما كان نوعه ، ولا يزال غير « مرصود بدين » من وجهة النظر الاعمالية ، وهذه القيم الجديدة هي ما يسميها جون جبرائيل بوركان بأرواح الذهب الهاجعة ، اما ماهية الاشياء بذاتها ، فهي ، ما عدا هذه ، لا قيمة لها أو وزن من وجهة النظر الاقتصادية .

– ٤ –

ولما كان لكل حضارة اسلوبها الخاص للتفكير بالمال ، فكذلك لها ايضاً رمزها الخاص بها ، والذي بواسطته تنطلق بمبدئها للتقييم ، الى التعبير عنه تعبيرا منظورا . وهذا الشيء ما ، وهو تحقق مغزى للتفكير ، هو مساو تماماً بأهميته لما للمشخصات أو الارقام المنطوقة أو المكتوبة أو المرسومة ، وغيرها من رموز الرياضيات الأخرى من اهمية . وهنا يوجد ميدان عميق وخصب للاستقصاء والبحث ، وهو لم تسبر أغواره حتى الآن تقريبا . ولم يجر حتى الآن ان صدح أو تلفظ حتى بالافكار الاساسية بصورة سليمة ، ولذلك فمن المستحيل علينا تماما ان نترجم بوضوح فكرة – المال التي كانت تكمن وراء المقايضة واعمال السندات في مصر ، والمصرفية في بابل ، ومسك الدفاتر في الصين ، ورأسمالية اليهود والفرس والأغارقة والعرب في زمن هارون الرشيد . لذلك فكل ما يقدورنا

هو ان نعرض التباين الجوهري بين المال الأبولوني والمال الفاوستي – المال الاول بوصفه حجماً والآخر بوصفه وظيفة .

لقد كان للانسان الكلاسيكي وجهة نظر اقتصادية ، لا تختلف عن وجهات نظره الأخرى في منبعها ، اذ كان يرى في العالم المحيط به مجموعة من أحجام ، افرادها يبدلون أماكنهم أو يسافرون وينطلقون او يضرب الواحد منهم الآخر ، أو يبيده ، كوصف ديمقريطس لطبيعته . فالانسان كان حجما بين أحجام ، ودولة المدينة لم تكن سوى حجم من نظام أرقى . وكانت جميع حاجات الحياة تتألف من كميات حجمية ، ولذلك كان المال يمثل أيضاً حجماً كهذا ، وبالطريقة ذاتها التي كان تمثال ابولو يمثل الهاً . وقرابة عام ٦٥٠ ظهرت قطعة النقد المعدنية ، وذلك في وقت واحد ، والحجم الحجري للمعبد الدوري والتمثال الحر المنحوت الممتلىء والمفتول حقا ، وكانت قطعة النقد هذه وزنا معدنيا وذات شكل جميل السبك . وكانت القيمة كحجم قد وجدت قبل طويل زمن – ووجدت فعلاً منذ وجود هذه الحضارة نفسها وطيلة وجودها .

وكانت التالنت [١] ، لدى هوميروس ، مجموعة صغيرة من الذهب في سبيكة ومواد ديكور ، وذات وزن اجمالي معين مقرر . وكان درع آشيل يمثل ٢ تالنت من الذهب ، كما واعتادوا حتى في الأزمان الرومانية المتأخرة على تحديد قيمة الأواني الفضية والذهبية وزنا . والحق ان اكتشاف المال المشكل حجما كلاسيكيا ، وهو اكتشاف غريب الى حد اننا لم ندرك بعد مغزاه العميق والمجرد في كلاسيكيته . فنحن نعتبره احد « انجازات الانسانية » وهكذا نسك هذه

---

(١) قطعة نقدية اغريقية .

– المترجم –

النقود المعدنية في كل مكان ، كأننا تماما نضع التماثيل في شوارعنا وساحاتنا العامة ، هذا كل ما بمقدورنا فقط ان نفعله ، وليس بأكثر من هذا ، اذ اننا نستطيع ان نقلد الشكل ، ولكننا لا نستطيع ان نعبر عن المعنى الاقتصادي ذاته له . فالقطعة المعدنية ، كمال ، او نقد ، هي ظاهرة كلاسيكية فقط - وهي امر ممكن فقط في بيئة فطرت كلياً على الفكر اليوقليدية ، شريطة ان تكون هذه الفكر مسيطرة سيطرة ابداعية على مثل هذه البيئة . فالآراء في الدخل والموارد والدين ورأس المال ، كانت تعني في المدن الكلاسيكية شيئاً ما مختلفاً تماماً عما تعنيه لدينا . فلم تكن تعني طاقة اقتصادية تشع من نقطه ، بل مجموعة من مواد ثمينة في حوزة اليد . فالثروة كانت دائماً مورداً نقدياً متحركاً منقولاً ، وحيث كان حجمها يبدل اما حسماً ، (طرحاً) واما جمعاً للمواد الثمينة ، ولم تكن لهذه العملية أي ارتباط بالممتلكات من الارض - وذلك لأن هذين النوعين من الثروة ، كان الواحد منهما منفصلاً تماماً عن الآخر في نظر الفكر الكلاسيكي. وكان الاعتماد يقوم على اساس اقراض النقود ترقباً من ان الدين يدفع نقداً ايضاً . لقد كان كاتلين Catiline رجلاً فقيراً ، بالرغم من انه كان يملك الشاسع الواسع من الأرض ، وذلك لأنه لم يجد من انسان يقرضه المال اللازم لتحقيق اهدافه السياسية ، زد على ذلك ان ديون الساسة الرومان الهائلة ، لم تكن أراضيهم تقبل كضمانات لها ، بل كان ضمانها النهائي يتمثل في امكانية اكيدة الحصول على منطقة يحكمونها ويعملون نهباً في ثرواتها المنقولة .

وعلى هذا الضوء ، وعليه فقط ، نستطيع ان نفهم ظاهرات معينة ، كتنفيذ الاعدامات الجماعية بالاثرياء في عهد الطغاة الثاني ، والحرمانات الرومانية من حماية القانون (التي كانت تستهدف الاستيلاء على جزء كبير من النقد المتداول في المجتمع) وصهر كنوز معبد دلفي ، هذا العمل الذي قام به Phocians في الحرب المقدسة وقيام موميوس بصهر كنوز الفن في كورينش ، وما فعله قيصر في روما بآخر الهبات المنذورة ، وبأعمال سولا في اليونان وبروتوس وكاسيوس في

آسيا الصغرى ، اذ أقدم هؤلاء ، دون رادع من تقدير فن على صهرها عندما احتاجوا الى المعادن الثمينة والمواد النبيلة والعاج . فلقد كانوا يستولون على التماثيل وكانت الأواني التي يعرضونها في استعراضات النصر مجرد نقود في أعين المتفرجين، وقد استطاع مومسون ان يحاول ان يقرر مشهد الكارثة التي نزلت بفاروس بواسطة الأماكن التي نقب فيها عن مخابىء القطع النقدية ـ وذلك لأن الجنود الرومان حملوا كامل ما يملكه هذا من المعدن الثمين على ظهره . ان الثروة الكلاسيكية لا تتألف من امتلاك الملكيات ، بل من تكديس المال نقداً ، ولم تكن السوق المالية الكلاسيكية مركزاً للاعتماد كالبورصات في عالمنا وعالم طيبة الغابرة ، بل كانت مدينة تجمع ، فعلاً ، فيها النقود من انحاء العالم . وباستطاعتنا القول بان روما كانت قد اصبحت تختزن في زمن قيصر نصف ما في العالم الكلاسيكي من ذهب .

ولكن عندما تطور هذا العالم ، ابتداء بزمن هنيبال تقريباً ، فأصبح دولة بلوتوكراتية غير محدودة ، وأصبحت كتل المعادن الثمينة والمحدودة طبيعيا ، وروائع الفن لا تفي ابداً بالحاجات المتزايدة ، تفجرت شهوة حقيقية تفتش عن احجام غير هذه يمكن استخدامها كنقود . وهنا وقعت ابصار الناس على العبد الذي كان حجماً من نوع آخر ، كان شيئا لا شخصا ، وبمقدور المرء ان يفكر به بوصفه مالاً . ومن هنا اصبحت العبودية الكلاسيكية فريدة في نوعها في جميع التواريخ الاقتصادية . فمطوا بصفات القطع النقدية وجعلوها تطبق ايضا على الأحياء ، وهنا انفتحت أبواب المستودعات من الناس في الاقاليم ليعمل فيها حكام الولايات نهبا وسلبا ، وأصبح فلاحو الجزية فيهم من المنفعة والمصالح ما في المخزون من المعادن . ونشأ نوع غريب من تقييم مزدوج ، فأمسى للعبد سعر في السوق ، بالرغم من ان الارض لم يكن لها سعر . فهو كان يقوم مقام تجميع الثروات غير المستثمرة ، وهذا هو السبب في وجود تلك الجماهير الضخمة من العبيد في الحقبة الرومانية ، والتي لا يمكن تفسير سبب وجودها على هذا الشكل بأي

نوع من ضرورة أخرى غير تلك التي اوردناها آنفا . فالانسان يومذاك ، حينما كان يهدف من جمع العبيد تشغيلهم في اعمال تدر عليه ربحا ومنفعة ، كان عددهم ضئيلا ، وكان من السهولة ان يسد أسرى الحروب والمحكومون بسبب دين او تعويض حاجات العمل هذه . وكان تشيوس Chios هو أول من بدأ ، وذلك في القرن السادس ، باستيراد العبيـد المباعـين Argyronetes . وكان الفرق بين هؤلاء وبين الجماهير الغفيرة من العمال المأجورين ، فرقا سياسيا وقانونيا ، وليس من نوع اقتصادي . ولما كان الاقتصاد الكلاسيكي اقتصاداً سكونيـا وليس ديناميكيا ، وكان جاهلاً بالاكتشاف المنهاجي لموارد الطاقة ، لذلك فانالعبيد في الحقبة الرومانية لم يوجدوا كي يستغلوا في العمل ، بـل استخدموا بشكل تقريبا يمكن من اعالة اكبر عدد منهم . وكانوا يفضلون بصورة خاصة العبيـد من ذوي السمات الذين يتمتعون بصفات خاصة من نوع معين أو آخر ، وذلك لأن نفقات اعالة هؤلاء هي واحدة ، لكن هؤلاء يمثلون موجودات مالية افضل ، وكانوا يقرضون العبيد ، كما يقرضون الدراهم ، وكان يسمح لهم بأن تكون لهم اعمال خاصة بهم وعلى حسابهم ، كي يصبحوا اثرياء ، وكان سعر العمل الحر بخسا ـ وذلك كله بغية تغطية نفقات اعالة رأس المال هذا . زد على ذلك انه كان من المستحيل اطلاقا تشغيل العدد الاكبر منهم او استخدامه . وكان القصد من وراء وجودهم يتمثل بكونه مخزونا من المال في اليد (قابل للتداول ـ المترجم) ، ولم يكن محدودا بأي حد طبيعي ، كالمخزون من المعادن الموجودة في تلك الايام . ولهذا السبب بالذات تضاعفت الحاجة الى العبيد تضاعفا لا حد له ، ولم تفض فقط الى حروب نشبت رغبة في الحصول على العبيد فقط ، بل ادت ايضا الى اقتناص العبيد ، وكان يقوم بهذا العمل متعهدون افراد على طول سواحل البحر الابيض المتوسط (حيث كانت تغمز لهم روما بطرفها) ، والى اسلوب جديـد لتضخيم ثروات حكام الولايات ، حيث كان يقوم هذا الاسلوب على استنزاف آخر طاقات السكان ، ومن ثم بيعهم عبيدا لعجزهم عن الوفاء بديونهم . ويجب ان تكون سوق ديلوس قد تعاملت يوميا بعشرة آلاف عبد وعندما ذهب قيصر الى بريطانيا ،

ووجدت روما في فقر البريطان ما خيب آمالهـــا ، تعزت بأسلاب موفورة من العبيد . وعندما دمرت مثلاً كورينث ، فان صهر التماثيـــل قطعاً من نقود ، ومزادات بيع سكانها عبيداً في سوق النخاسة ، كان بالنسبة للعقول الكلاسيكية الأمر الواحد ذاته — فهو تحويل مواد جسمانية وحجمية الى مال .

ويقف رمز المال الفاوستي موقفاً مناقضاً حتى آخر حـــدود التناقض من الكلاسيكي — فالمال هنا بوصفه وظيفة ، تكمن قيمته في أثره في فحواه وليس في وجوده المجرد . وقد تبدى هذا الاسلوب الخاص من التفكير الاقتصادي من خلال النهج الذي نظم وفقه النورمان في عام ١٠٠٠ ب.م أسلابهم من الرجال والارض فجعلوها طاقة اقتصادية . ولتقابل فقط بين تقييم السجلات لدى الموظفين في بلاطات الدوقات (والذين تخلد ذكراهم كلماتنا : « شيد » « ومحاسبة » « ومراجعة ») وبين التالنت الذهبية « المعاصرة » لهذه ، والتي ورد ذكرها في الالياذة ، وهنـــا سرعان ما يصادف المرء وفي مستهل فاتحة هذه الحضارة الفاوستية آثاراً لنظـــام الاعتماد الحديث الذي هو ثمرة الثقة بالزخم وباستمرارية صيغته الاقتصادية ، والتي معه تتجانس تماماً تقريباً فكرة المال وفق مفهومنا لها . وهذه المناهج المالية التي نقلها روجر الثاني الى المملكة الرومانية في صقلية ، قام الامبراطور فريدريك الثاني من آل هوهنشتاوفن (قرابة عام ١٢٣٠) بتطويرها وجعلها نظاماً جباراً يتجاوز في طاقاته النظام الاصلي في الديناميكية باشواط واشواط ، وبهذا أصبح أول قوة رأسمالية في العالم ، وبينما كان هذا التآخي بين قوة التفكير الرياضي ، وارادة القوة الامبراطورية (الملكية) يشق طريقه من النورمانـــدي الى فرنسا ، ويطبق ، وطبق على شكل واسع على استغلال انكلترا المفتوحة ، المغزوة ، اذ ان ارض انكلترا لا تزال حتى الآن أرضاً يملكها اسماً الملك) كانت جمهوريات المدن الايطالية تقلد جانبه الصقلي ، (نسبة لصقلية) (ولما كان النبلاء الحاكمون سرعان ما اقتبسوا مناهج الاقتصاد الحضري واستخدموها في مسك دفاترهم الشخصيـــة الخاصة) وهكذا انتشر هذا النظام فوق الفكر والممارسة التجاريين في العالم الغربي

بأكمله . وبعد قليل من الزمن اقتبس سلك الفرسان التيوتونيون المناهج العقلية كما واقتبستها السلالة المالكة في آراغون ، وبامكاننا ان نرد الى هذه الاصول مسك الحسابات التجارية في اسبانيا في عهد فيليب الثاني ، والطراز البروسي في زمن فريدريك غليوم الاول .

ولكن الحدث الحاسم جاء متمثلاً على كل حال بذاك الابتكار - « المعاصر » للابتكار الكلاسيكي للقطعة النقدية المعدنية قرابة عام ٦٥٠ - الذي حققه فرا لوكشا باتشيولا عام ١٤٩٤ واعني به مسك الدفاتر بالطريقة المزدوجة Double - entry book - keeping . ويصف غوته هذا الابتكار في ولهيم مايستر قائلاً « انه انقى اكتشافات العقل البشري وأصفاها جميعاً » ، والحق انه ليمقدورنا ان نصف واضعه ، دون تردد ، في مرتبة معاصريه كولومبوس وكوبرنيكوس . واننا مدينون للنورمان بحسابنا ، وللومبارديين بمسك دفاترنا.

ويتوجب علينا ان نشير هنا الى ان هاتين الأرومتين الجرمانيتين هما بالذات اللتان ابدعتا الانجازين القانونيين الايعازيين في الحقبة المبكرة ، واللتان ولد حنينهما الى البحار البعيدة ، الحوافز لاكتشاف اميركا . ان مسك الدفاتر بالطريقة المزدوجة قد انجبت به الروح ذاتها التي انجبت بغاليليو ونيوتن ... وهو يعتمد وسائل هذين بالذات في تنظيمه للظاهرات في نظام انيق ، ومن الجائز لنا ان نسميه بأنه أول كون شيد على قواعد من الفكر الرياضي . وهو يكشف لنا عن كون العالم الاقتصادي ، وفق المنهاج ذاته الذي حسر الاستقصاء العظيم للفلسفة الطبيعية بواسطته القناع عن الكون الكواكبي . فهو يرتكز على المبدأ الاساسي الذي نفذ منطقياً لفهم جميع الظاهرات بوصفها كميات مجردة .

ان مسك الدفاتر بالطريقة المزدوجة هو تحليل مجرد لفراغ Space القيم المستند الى نظام احداثيات Co - ordinate System ، الذي تعتبر الشركة

التجارية Firm أصلاً له . لقد كانت النقود المعدنية للعالم الكلاسيكي تسمح فقط بالتوليف الحسابي وأحجام القيمة . وهنا نجد فيتاغوروس وديكارت يقف كل واحد منهما موقفاً متعارضاً والآخر ، شأنهما في كل امر آخر . ويحق لنا شرعاً ان نتحدث ، بالنسبة للغرب ، عن « تكامل » في المباشرة او المعاطاة Undertaking كما وان المنعطف البياني هو الظهير Auxiliary البصري للاقتصاد ، وهذا ايضاً هو مركزه بالذات بالنسبة للعلوم . لقد كان العالم الاقتصادي الكلاسيكي منظماً ، ككون ديمقريطيس تماماً ، اي على اساس من مادة وشكل . فالمادة ، في شكل قطعة معدنية ، تحمل الحركة الاقتصادية ، وتضغط على وحدة — الطلب لكمية قيمة معادلة مساوية في مكان الانتفاع . اما عالمنا الاقتصادي فهو منظم على اساس من طاقة وكتلة . ويقع مجال توترات المال في الفراغ ، ويعين لكل مادة ، وبغض النظر عن نوعها الخاص ، قيمة تأثير ايجابية أو سلبية ، حيث تمثل هذه القيمة في المسجل Book entry . Quod non est in lebirs , non est in moundo ولكن رمز المال الوظيفي المتخيل على هذا الشكل والذي يمكن وحده ان يقارن بقطعة النقد المعدنية الكلاسيكية ، هو ليس المسجل فعلا ، ناهيك بسندات الاسهم والشيك ، أو الصك او الكمبيالة ، ولكن العمل الذي تتحقق به الوظيفة وتنجز تدويناً ، ودور قيمة القرطاس يراد منه فقط ان يكون الشاهد التاريخ المعمم على هذا العمل .

ومع هذا ، فان الغرب مدفوعاً باعجاب لا يأتيه الشك من خلف أو قدام ، أخذ يسك القطع المدنية من النقود ، وذلك لا بوصفها فقط دلائل على السيادة ، بل اعتقادا منه بان هذا المال المشهود يتجانس فعلاً والاقتصاد فكراً . والامر ذاته حدث في الحقبة الغوطية ، فلقد اقتبسنا القانون الروماني بمساواته الاشياء والاجرام الجسمية ، واقتبسنا الرياضيات اليوقليدية المبنية على مبدأ يعتبر الرقم جرماً . وهكذا قدر لتطور العوالم العقلانية الثلاثة لهذا الشكل ان لا ينطلق ، كما انطلقت الموسيقى الفاوستية تفتحاً كالأزاهير ، بل ان ينطلق من عملية تحرر تقدمي من

فكرة الحجم . ولقد حققت رياضياتنا تحررها هذا في نهاية الحقبة الباروكية . بينما ان تشريعنا ، من جهة أخرى ، لم يتعرف بعد حتى على واجبه المقبل ، لكن هذا القرن سيقرره ، وسيطالب بذاك الذي كان بالنسبة للمشرعين الرومانيين قاعدة، واضحة وغنية عن البيان ، للقانون ، واعني بـــه التطابق الباطني بين التفكير الاقتصادي والتفكير القانوني ، وبالفه ومودة ، عملية معادلة لهذا التطابق ،لكلا التفكيرين . فمفهوم المال الذي اتخذ له من قطعة النقد رمزه كان يتفق تمامـــا والقانون الكلاسيكي للشيء ، ولكن ليس هناك من اتفاق بعيد عنا كهذا النوع من الاتفاق. فكامل حياتنا قد نظمت تنظيماً ديناميكياًلاسكونياً ، ولا رواقياً، لذلك فانجواهرنا هي زخوم وانجازاتوعلاقات وقدرات ـ انها المواهبالمنظمة والعقول المبادهة ، والاعتماد المالي ، والفِكر والمناهج ومنابع الطاقـــة ـ وهي ليست مجرد وجود داخل اشياء حجمية .

ان الفكر الشيئي « المترومن » لمشرعينا وفقهائنا ، ونظرية المـال التي تبدأ واعية أو غير واعية من قطعة النقد المعدنية ، هما غريبان بالمثل عن حياتنا . زد على ذلك ان الكنز المعدني الضخم الذي كنا ، تقليدا للكلاسيكيين ، نزيـــد باستمرار في ضخامته حتى نشوب الحرب العالمية ، قد جعل فعلاً لنفسه دوراً بعيداً عن الطريق الرئيسي ، لكن الشكل الباطني للاقتصاد الحديث ووجائبه ومقاصده لا تمت بأية صلة له ، ولو ان الحرب أسفرت عن اختفائه كليا من النقود ، لما كان هذا قد بدل أي شيء اطلاقا .

ومن سوء الحظ ان الاقتصاداتالوطنية الحديثة قد انشئت في عصر التكاسك وكما ان التماثيل والمزهريات والأوعية الحزفيـــة والدراما الجامـدة كانت تعتبر في ذاك العصر فنا حقيقيا ، كذلك ايضا اعتبرت قطعة النقد المعدنيةالمدموغة دمغة جميلة انها هي المال الواقعي .

وان ما هدف اليه يوشع فدجوود Wedgwood (١٧٥٨) بتضاريسه ذات البنيات الناحلة الرهيفة وكؤوسه (فناجينه) ، كان آدم سميث ايضاً يهدف اليه باطناً بنظريته في القيمة واعني بهذا الحاضر البرهي المجرد للاحجـــام المحسوسة . وذلك لأن هذه النظرية متوافقة تماماً والوهم القائل بان المال واسعار المال الشيء ذاته لقياس قيمة الشيء قبالة حجم كمية العمل . وهنا لا يعود العمل عملاً علياً في عالم من معاليل ، عملاً قادراً على التبدل تبدلاً لا نهائياً من حال الى حال ، وذلك بالنسبة للقيمة الباطنية والشدة والمدى ، وعلى نشر ذاته في دوائر أوسع فأوسع ، وهو كالمجال الكهربائي ، يمكن ان يقاس لكن لا يمكن ان يدمغ (كالمال — المعدني —المترجم) — بل يصبح نتيجة للتسبيب ، للإحداث ، ويعتبر ما هو منجز اعتباراً ماديا كلياً وشيئاً محسوساً لا يظهر أي شيء جدير بالقيمة ، ما عدا حجمه أو سعته فقط .

والحق ان اقتصاد المدينة الاوروبية الاميركية قد شيد على العمـل ، وعلى العمل من نوع تنشأ فيه الفروقات وفق نوعية العمل الباطنية وحدها — وهـــذه القاعدة تجاوزت في دقتهـــا مصر والصين ، ناهيك عن العالم الكلاسيكي . ونحن لا نعيش ، دون سبب ، في عالم اقتصاد ديناميكي ، حيث لا تكون اعمال الفرد اعمالاً من جمع او اضافة ، وفق الاسلوب اليوقليدي ، بل اعمالاً يرتبط الواحد منها بالآخر ارتباطاً وظيفياً . فالعمل التنفيذي المجرد (الذي يعالجه ماركس فقط) هو ليس ، في الواقع ، الا وظيفة لانتظام ابتكاري اختراعي ، وتنظيم العمل ، ومن هذا يأخذ العمل من النوع الآخر ، معناه ، وقيمته النسبية ، وحتى امكانية القيام به اطلاقاً . فلقد كان الاقتصاد العالمي باكمله ، منذ اختراع الآلة البخارية ، ابداعاً انجزته حفنة قليلة من الرؤوس التي لولا عملها ذو الدرجة العالية ، لما كان قد خرج شيء الى الوجود . لكن هذا الانجاز للتفكير المبـــدع ليس بكم ، وقيمته يجب ألا توزن قبالة عدد معين من القطع المعدنية — فهو بالاحرى مال — مال فاوستي — لا يسك بل يفكر به بوصفه مركزاً تسبيبياً او احداثياً

ينبع من الحياة — وان النوعية الباطنية لهذا العمل هي التي ترتقي بالفكر الى اهمية الامر الواقع ومغزاه . ان التفكير بالمال يولد المال — وهذا هو سر عالم الاقتصاد . فعندما يدون قطب منظم مليوناً على القرطاس ، فهذا المليون قائم وموجود ، وذلك لان هذه الشخصية بوصفها مركزاً اقتصاديا تقرر وتؤكد زيادة في الطاقة الاقتصادية في ميدانه تعادل المليون الذي دوّنه . وهذا وحده ، ولا شيء غيره ، هو معنى كلمة « الاعتماد » في نظرنا . ولكن جميع ما في العالم من نقود ذهبية لن تكفي لأن تضفي على العمل اليدوي اي معنى ، وليس لذلك اية قيمة ، اذا ما استأصل مبدأ « نزع الملكية » المشهور ، و « نازعوها » هذه المقدرات المتفوقة من ابداعاتهم ، ولو حدث هذا الامر ، لأصبح العمل اليدوي قوقعة فارغة معدومة النفس والارادة . ولهذا فان ماركس هو كلاسيكي ، وثمرة من ثمار الفكر القانون « المترومن » تماماً كآدم سميث ، فهو يرى فقط الحجم المنجز ، ولا يرى الوظيفة ، وهو يرغب في ان يفصل وسائل الانتاج عن اولئك الذين تحول عقولهم بواسطة اكتشاف المناهج ، وتنظيم الصناعات الفعالة الكفؤة واكتساب اسواق الصادرات ، كومة من آجر وفولاذ الى مصنع ، كان لا يمكن ان تقوم له قائمة لو لم تجد طاقات هذه العقول ميداناً لها فيه تصول وتجول .

واذا ما كان هناك من حد يريد ان يعلن وينشر نظرية في العمل الحديث ، فليبدأ اولاً بالتفكير بهذا الملمح الاساسي لكل حياة . فهناك اسياد واتباع في كل حياة كما تعاش ، وكلما تزايدت الحياة اهمية وثراء في شكلها ، يتزايد الوضوح في الفرق بين هؤلاء واولئك . وكل سيل من كينونة يتألف من اقلية من زعماء يقودون ، واكثرية ساحقة تقاد ، وهكذا فان كل نوع من اقتصاد يتشكل من عمل — قائد وعمل تنفيذي .

اما نظرة الضفدعة ، نظرة كارل ماركس وايديولوجي الاخلاق الاجتماعية ،

فانها لا تظهر سوى حشد من الاشياء الاخيرة والصغيرة ، ولكن هذه انما توجد اطلاقا فقط بفضل الاشياء الاولى ، ولا يمكن فهم روح عالم العمل هـذا ، الا بواسطة فهم اوفى ما له من امكانات واسماها . فمخترع الآلة البخارية ، وليس وقادها ، هو العامل الحاسم . وللفكر القيمة والمقام .

وبالمثل ، فان للتفكير بالمال اسياداً واتباعا : وهم اولئك الذين يولدون بزخم شخصياتهم المال ، واولئك الذين يتدبرون امر عيشهم بـه . والمال من الصنف الفاوستي ، هو الزخم المقطر في ديناميكية الاقتصاد من الصنف الفاوستي ، وهو ينتسب الى مصير الفرد (الى الجانب الاقتصادي من مصير حياته) والذي فطر باطنيا على تمثيل جزء من هذا الزخم او ذاك الذي هو على العكس من هذا ، ليس سوى كتلة له .

- ٥ -

ان كلمة « رأس المال » تفيد مركز هذا التفكير — ولا تفيد مجموعـة من القيم ، بل تلك المجموعـــة منها التي تبقيها في حالة حركة على هـــذا الشكل . وتبرز الرأسمالية الى الوجود فقط مع وجود المدينة العالمية للمدنية ، وهي محصورة بتلك الحلقة الصغيرة جداً من اولئك الذين يمثلون هذا الوجود (وجود الرأسمالية — المترجم) باشخاصهم وذكائهم ، اما نقيضها فهو الاقتصاد الريفي .

ولقد كان التفوق غير المشروط الذي حققته القطعة النقدية المعدنية في الحياة الكلاسيكية (بما في ذلك الجانب السياسي من هذه الحياة) هو الذي ولد رأس المال السكوني ، الـ . . . ، او نقطـــة الانطلاق ، التي جذبت ، بالجمـــلة ، الى نفسها بوجودها ، بنوع من جاذبية مغناطيسية ، اشياء فأشياء . وكان تفوق

قيم ـ الكتاب الذي سرعان ما تفرد منهاجه التجريدي وانعزل عن الشخصية بواسطة الدوبيا في مسك الحسابات ، وانطلق اماماً بفضل ديناميكيته الباطنية ، هو الذي أنتج رأس المال الحديث الذي يجوب الارض باكملها شبراً شبراً ، بما لها من مجال زخم .

ولقد اتخذت الحياة الاقتصادية الكلاسيكية ، تحت تأثير نوعها الخاص من رأس المال ، شكلاً من سيل من ذهب يتدفق من الولايات على روما وينطلق عائداً منها ، وكان يبحث دائما وابداً عن مناطق جديدة بحيث يكون مخزونها من الذهب المصاغ « لم يفتح بعد » . ولقد حمل بروتوس وكاسيوس ذهب آسيا الصغرى على قوافل من البغال الى معركة فيليبي - وهنا يستطيع المرء ان يتخيل اية عملية من نهب قام بها المنتصرون في المعركة - كما وان حتى ك غراكوس قد أشار ، قبل هذه المعركة بقرن ، الى الجرة الضخمة ذات الحلقتين Amphorae التي خرجت من روما الى الولايات مليئة بالنبيذ وعادت اليها مملوءة ذهبا . وهذا الاقتناص للممتلكات الذهبية للشعوب الاجنبية يتجانس تماما واقتناص الفحم في هذه الايام ، والذي هو بمعناه العميق ليس بشيء بل مخزون من طاقة .

ولكن ، وبالمثل ، فان التطلع الكلاسيكي الى ما هو قريب مسافة ، وحاضر زمنا ، لا يستطيع ان يتوافق الا والمثل الأعلى لدولة المدينة ، المثل الاعلى لسياسة الاكتفاء الذاتي الاقتصادية ، وهذا هو بمثابة تذرير Atomization اقتصادي يتفق والتذرير السياسي . لقد كانت كل وحدة من وحدات الحياة الصغيرة هذه ، ترغب في سيل اقتصادي خاص بها كليا ، ومتفرد تماما بذاته ، ويدور مستقلاً عن سيول الوحدات الاخرى ، وداخل محيط البصر . واما القطب المناهض لهذا ، فهو يتمثل في الفكرة الغربية ، فكرة الشركة ، حيث تعتبر مركزاً لزخم لا شخصي ولا حجمي اطلاقا ، وحيث تتدفق منها النشاطات الى كل اتجاه والى مسافات غير محدودة ، والتي يكون مالكها ، صاحبها ، نتيجة

لقدرته ومهارته في التفكير بالمال ، لا يمثلها بل يملكها ويوجهها – اي انها طوع يمينه – كانها كون صغير . ان الثنائيـــة من الشركة والمالك ، كانت لا شك ستكون أمراً لا يستطيع العقل الكلاسيكي ان يتصوره اطلاقا .

ونتيجة لذلك ، فكما ان الحضارة الغربية تعرض الحد الاقصى ، من التنظيم ، فلذلك تعرض الحياة الكلاسيكية الحد الادنى منه . وذلك لان التنظيم لم يكن له ابداً وجود كفكرة لدى الانسان الكلاسيكي . وكانت ماليتـــه تقوم على اساس من تدابير وقتية ، تضبح قواعد وعادات .

وكان يجوز في اثينا وروما ان تلقى تكاليف تسليح السفن الحربيـة على عاتق الاثرياء من ابنائها . وكانت السلطـة السياسية للادايل Aedile الروماني لا ترتكز فقط على كونه انه هو الذي يخرج الالعاب ، ويشق الطرقات ويشيد المباني ، بل ايضا بسبب انه هو الذي كان يدفع تكاليفها – وطبعاً كان باستطاعته ان يعوض ما انفقه بواسطة نهبه لاحدى الولايات . ولم يكن الكلاسيكيون يفكرون بموارد دخل ، الا عندما تسوطهم الحاجة اليه ، وهنا كانوا يسحبون من هذه الموارد دون اي اعتبار للمستقبل ، ملبين فقط مطالب البرهة – وحتى لو كانت هذه المطالب ستؤدي الى دمارهم الكامل . فنهب كنوز معابدهم الخاصة ، وشن حملات قرصنة على مدنهم بالذات ، ومصادرة ثروات مواطنيهم ، كل هذه الامور كانت مناهج سياستهم المالية . واذا كان يوجـــد من فائض فكان يوزع على المواطنين – وهذا الاجراء لم يعد بالحب الشعبي على يوبولوس Eubulus وحده ، بل عاد على الكثيرين من اضرابه في اثينا .

اما الموازنات العامة . فكانت مجهولة لديهم تماما فكرة وعملاً ، كغيرها من قواعد السياسة المالية واعراضها . وكان « النظام الاداري الروماني » في الولايات منهاجاً للصوصية ، وكان يمارسهـــا الشيوخ والماليون ممارسة لا تتقيد بأبسط

الاعتبارات بما اذا كان من الممكن تعويض البضائع المصدرة . ولم يسبق ابداً للانسان الكلاسيكي ان فكر منهاجياً بكيفية تنمية حياته الاقتصادية ومواردها ، بل كان أبداً يبحث عن نتائج البرهة الآنية وحدها ، عن الكم من النقد المحسوس وكانت روما الامبراطورية لا شك ستتهاوى وتندثر لو لم يسعفها الحظ بما فيه الكفاية لتمتلك في مصر القديمة مدنية لم تفكر طيلة دورة ألفية من الاعوام بشيء ما عدا تنظيم اقتصادها .

اما الانسان الروماني فلم يدرك هذا الاسلوب من الحياة ولم يكن قادراً على اقتباسه ، ولكن الصدفة التي جعلت مصر تزود الملاك السياسيين لعالم الفلاحين ، بمورد لا ينضب له معين من الذهب ، وهذا ما جعل فيما بعد المذابح الجماعية في روما ليس بالعادة المألوفة المتعارف عليها ، فلقد جرت آخر عملية مالية على شكل مجزرة عام ٤٣ ، وذلك قبيل ضم مصر بوقت قليل . وقد جعل الذهب الذي كان يستجمعه بروتوس وكاسيوس من آسيا الصغرى — وهذا يعني جيشاً وسيطرة على العالم — من الضروري قتل ألفين من أغنى سكان ايطاليا وحمل رؤوسهم بأكياس الى الفوروم لقاء المكافآت المعروضة . وهذه المجزرة لم توفر الاقارب والاطفال والشيوخ ، وحتى الناس الذين لم يسبق لهم ابداً ان تعاطوا السياسة . فلقد كان يكفي ان يكون الضحية ثرياً ومالكاً لمخزون من نقود . والا فان المحصول سيكون ، خلافاً لهذا ، جد قليل .

ولكن مع انطفاء الشعور الكلاسيكي العالمي ، في العصور الامبراطورية المبكرة ، انطفأ ايضاً هذا الاسلوب من التفكير بالمال . وهنا عادت القطع النقدية لتصبح ثانية بضائع — لأن الناس عادوا مرة اخرى ليمارسوا حياة الفلاح — وهذا هو ما يفسر التدفق الهائل من الذهب الى الشرق البعيد عقب عهد هدريان ، والذي لا يمكن حتى الآن حسابه .

الفصل الخامس والعشرون

عالم شكل الحياة الاقتصادية

(ب)

الآلة

- ١ -

ان عمر التقنية هو عمر الحياة الطليقة الحركة ذاتها . وان النبات – على قدر ما نراه في الطبيعة – هو وحده المسرح المجرد للعمليات التقنية . فالحيوان من حيث انه يتحرك ، له تقنية حركة ، وذلك كي يتمكن من تغذية نفسه وحمايتها .

ان العلاقة الاصلية بين الكون الاصغر الواعي وكونه الاكبر – « الطبيعة » – تتكون من ملامسة بواسطة الحواس التي تنبجس من انطباعات حاسة مجرده وترتفع الى حكم – حاسة ، وهكذا تراها تعمل تواً عملاً تنديدياً (أي عازلاً

فاصلاً) او ما ينتهي الى الشيء ذاته ، عملاً تحليليا سببيا وما يقرر عندئذ من مختزن احكام يضخم الى منهاج ، على القدر الذي قد يكون من الاكتمال ، من اشد الخبر اولية ـ اي علامات تعريف ـ وهو منهاج ذاتي تلقائي يتمكن المرء بواسطته من الشعور بأن هذا العالم موطنه ، وقد أدى هذا المنهاج فيما يتعلق بالحيوان الى ثراء موفور مذهل من الخبرة ، ثراء لم يسبق ابداً حتى الآن لأي علم انساني ان تفوق عليه وارتفع . ولكن الكائن الواعي الأولي هو دائماً كائن فعال، وهو بعيد عن النظرية المجردة بكل انواعها ، وهكذا فان هذه الخبر تكتسب ، بالتقنية الصغرى للحياة اليومية ، واستناداً الى اشياء ؛ من جهة كونها ميتة ، اكتساباً قهريـــاً لا طوعيا . وهذا هو الفرق بين المذهب والاسطورة ، وذلك لأنه لا يوجـــد على هذا المستوى أي حد يفصل بين الدين والدنيا ـ فكل الشعور الواعي هو دين .

ويحدث المنعطف الحاسم في تاريخ الحياة الأرقى عندما يتحول قدر الطبيعة أو عزمها الى ارساخ وتوطيد (وذلك بغية ان تترك زمام قيادتها له) ـ وهذا يعني تبدلاً مقصودا متعمدا يطرأ على الطبيعة

وبهذا تصبح التقنية هي ذات السيادة تقريباً ، وتتبدل الخبرة الاولية الغريزية الى معرفة اولية « واعية » . فالفكر قد حرر ذاته من الاحساس . ولغة الكلمات هي التي تصنع هذا التبدل الحقبي . فتحرر اللغة من النطق ينبجس عنه مخزون من اشارات للغة مواصلة ، وتكون هذه الاشارات اكثر بكثير من كونها علامات تعريف ـ فهي اسماء ترتبط بمفهوم من معنى ، والتي بواسطتها يمتلك الانسان سر الارواح (الآلهة ، قوى الطبيعة) ويسيطر عليه ، ويملك رقماً (صيغة ، معادلة، قوانين بسيطة) يجري بواسطته استخلاص الشكل الباطني من التصادفي الموغـل في الحساسية .

وبهذا يتطور نسق علامات التعريف الى نظرية ، الى صورة تفصل ذاتهـا عن

تقنية اليوم – أكان هذا اليوم هو يوم تقنيات متمدنة على مستوى عال ، او يوم أبسط البدايات – ويتم تطوره بواسطة التجريد ، بوصفه جزءاً من الشعور الواعي وغير ملتزم بالنشاط . ان الانسان « يعرف » ما يريده ، ولكن يجب ان يكون قد حدث الكثير للمرء حتى تمكن من الحصول على هذه المعرفة ، وعلينا الا نخطىء فيا يتعلق بصفتها . وقد مكنت الخبرة الرقمية الانسان من ان يضيء السر ويطفئه ، ولكنه لم يكتشفه . ان شخصية الساحر الحديث وهي لوحة مفاتيح المحولات Switch board ذات الاذرع والاشارات المميزة والتي يستطيع العامل ان يدفع بفعاليات هائلة الى النشاط بواسطة ضغط من اصبعه دون ان تكون لديه اقل فكرة عن جوهر هذه الفعاليات – هذه اللوحة هي فقط رمز التقنية الانسانية بصورة عامة . وان صورة عالم الضوء المحيط بنا – وحيث اننا قد شكلناها تشكيلاً تنديديا تحليليا ، كنظرية ، كصورة – هي ليست سوى لوحة مفاتيح المحولات ومن النوع الذي وسمت عليها الاشياء بعلامات مميزة وبشكل يجعل (مثلاً) اذا ما ضغطنا على زر معين ، انطلاق فعاليات معينة أمرا اكيدا . ومع ذلك فان السر يبقى في هذه الناحية ظالماً مستبداً . ولكن بالرغم من هـــذا ، فان الشعور الواعي يتدخل بواسطة هذه التقنية في عالم الامر الواقع تدخلا بارعاً ماهرا . فالحياة تستخدم الفكر كأنه « افتح يا سمسم » ولكن تأتي اخيرا لحظة عند ذرى مدنيات كثيرة ، وفي المدن العظمى لهذه المدنيات ، يحل فيها النقد التقني ويتعب من كونه خادماً للحياة ، وهنا يتحول فيصبح المستبد بها والطاغية . وان الحضارة الغربيـة تشاهد ، حتى الآن ، تهتك هذا الفكر الجموح والطليق من كل عنان ، وتختبر لهوه على درجة مأساوية .

لقد انصت الانسان الى زحف الطبيعة ، ودون ملاحظات عن أسسها (جمع اس) . وهو يبدأ بتقليدها بواسطة وسائل ومناهج تنفع النبض الكوني وتفيده . وهو قد تجرأ على القيام بدور الله ، ومن السهل علينا ان نفهم كيف تبدى الأوائل من معدي هذه الاشياء الاصطناعية ومختبريها – وذلك لأنه هنا اصبح الفن المفهوم

المضاد للطبيعة - وكيف تبدى بصورة خاصة حماة فن الحـــدادة لأولئك الذين حولهم ، على انهم شيء ما خطر ومهلك ، وكيف كانوا ينظرون اليهم بخشوع او رهبة ، حسبما قد تكون الحال . لقد نما المخزون من اكتشافات كهذه وتزايـــد يوماً بعد آخر . وكثيراً من الاحيان كانوا يحققونها ثم ينسونها ، ثم يحققونها ثانية ، ويقلدونها ويعرضون عنها ويحسنونها . ولكن هذه الاكتشافات اوجدت في النهاية ولكل القارات بأكملها مخزوناً من الوسائل الجلية الواضحة - النـــار والتعدين والادوات والاسلحـــة والمحاريث والقوارب والبيوت وتدجين الحيوانات والزراعة ، وقد كان يقود الانسان نابض خطر صوفي داخله الى مواقع المعادن قبل كل شيء . وقد افضت دروب تجارية غارقة في القدم الى اماكن رواسب المعادن الخام التي كانت قـــد ابقتها حياة الريف المستقر سراً ، وزرعت هذه الدروب البحار طولا وعرضاً ، وعلى هذه الدروب انتقلت فيما بعـــد المذاهب والزخارف واساطير ملحاحة عن جزر من التنك ، وارض من الذهب . لقد كانت تجارة المعادن هي اول نوع عرفته التجارة ، ويرتبط بها وباقتصاد الانتاج والعمل عنصر متطفل ثالث - عنصر غريب مغامر جسور ذا مدى واسع وحر طليق فوق الارض .

وعلى هذا الاساس تنشأ تقنية الحضارات الارقى ، معـبرة تعبيراً مؤثرا في نوعيته ولونه وسورته عن كامل نفس هذه الذاتيات الكبرى . ونكاد لا نكون بحاجة الى القول بان الانسان الكلاسيكي الذي كان يشعر بذاته وبيئته شعورا يوقليديا سواء بسواء ، قد اتخذ بداهة موقفا معاديا لفكرة التقنية بالذات . اما اذا كنا نعني بالتقنية « الكلاسيكية » شيئا ما بالاضافة الى المتبقى مما نفهمه من الصفة الكلاسيكية) ، شيئا ما ارتفع بجهد عزوم فوق كمال الانجازات العامة للحقبة المسينية ، فعندئذ نقول بانه لم تكن هنا تقنية كلاسيكية . فسفن هذه الحقبة ، من نوع الطريم ، (ذات مجاذيف ثلاثة - المترجم) التي كانوا يجدونها ، لم تكن سوى زوارق تجديف ، وكانت منجنيقاتها وسلاسلها بدلاء للاسلحة والقبضات -

وهذه لا تذكر أبداً عند ذكر آلات الحرب في آشور والصين أمـــا فيا يتعلق بهيرو Hero واشكاله ، فان الاكتشافات التي انجزوها كانت كلاليب مراسي . لقد كانوا يفتقرون الى الوزن الباطني وضحية برهتهم وقدريتهم والضرورة العميقة . فهم كانوا يلعبون هنا وهناك بالمعلومات (ولماذا لا ؟) معلومات ربما جاءت من الشرق ولكن لم يكرس اي واحد منهم اهتماماً جدياً بها ، وفوق هذا كله ، لم يحاول احد ان يدخلها على هيئة صورة الحياة .

اما التقنية الفاوستية فتختلف اختلافا كبيرا جداً عن هـذه ، فهي بما لها من سورة نفسية وحماس للبعد الثالث تدفع منذ ابكر العصور الغوطية بنفسها ضاغطة على الطبيعة بعزم ثابت وتصميم مكين على ان تكون سيدتها . وهنا ، وفقط هنا يكون الترابط بين البصيرة والانتفاع امراً بدهيا . فالنظرية هي فرضية علميـة ناشطة منذ البدء . ولقد كان الباحث الكلاسيكي يتأمل تأمل لاهوت ارسطو ، والعربي كان يسعى بالكيميا لاستنباط وسائل سحرية (كحجر الفلاسفة) وذلك كي يمتلك كنوز الطبيعة دون ان يبذل جهداً ، لكن البحاثة الغربي يكدح ليوجه العالم وفق مشيئته .

ان المخترع والمكتشف الفاوستيين هما من طراز فريد في نوعـــه . فالزخم البدائي لارادته ، وروعة رؤياه والطاقة الفولاذية لتبصره ، يجب ان تتبدى غريبة شاذة وغير مفهومة لأي واحد يقف في اي مرقب لحضارة اخرى ، لكن هذه جميعا هي بالنسبة لنا مستقرة في دمنـــا وموجودة . فلحضارتنا باكلها نفس مكتشف . فان تكتشف Dis - Cover ذاك غير المنظور ، وان تجر بـه الى داخل عالم الضوء للعين ، كي تسيطر عليه ـ هذه هي السورة العنيدة منـذ اليوم الاول فما بعده . فلقد نضجت جميـع الاختراعات التقنية الفاوستية بطيئا بطيئا في الاعماق ، كي تبرز اخيرا مع ضرورة المصير . وجميـع هذه الاختراعات تقريبا كاد يقترب منها الرهبان الغوطيون بابحاثهم الباسلة الفطنة . واذا كان هناك من مكان

تتجلى فيه الاصول الدينية لكل فكر تقني ، فإنه هاهنا . فهؤلاء المكتشفون التأمليون في صوامعهم ، والذين اغتصبوا بصلواتهم وصيامهم سر الله منه ، كانوا يشعرون بانهم بهذا يخدمون الله . وهنا تطالعنا شخصية فاوست ، الرمز العظيم لحضارة مكتشفة فعلاً . فالـ — Scientia experimentalis ، (العلم التجريبي) الذي كان روجر بيكون أول من سمى بحث الطبيعة به ، هذا الاستنطاق الملحاح الدؤوب للطبيعة بواسطة الاذرع والعتلات والرافعات واللوالب والبراغي ، قد بدأ بذاك الذي يقع موضوعه تحت ابصارنا بوصفه مداخن المصانع المفرخة من الريف ، وابراج التبليغ . ولكن كان يمثل بالنسبة لهم جميعا ، الخطر الفاوستي الحقيقي في ان تكون للشيطان يد في هذه اللعبة ، خطر ان يقودهم روحاً الى ذاك الجبل الذي يعد فوق قمته باعطاء كل قوة الارض . وهذا هو مغزى مبدأ الحركة الدائمة الذي حلم به اولئك الدومينيكان الغريبو الأمر ، كبطرس بيريغرينوس ، والذي بموجبه ينتزع المرء القدرة الكلية من الله . لقد كانوا يذعنون المرة بعد المرة لهذا الطموح ، ولقد اغتصبوا هذا السر من الله كي يصبحوا انفسهم الله . لقد كانوا يصيخون السمع لقوانين النبض الكوني ، كي يتمكنوا من التغلب عليه وهكذا خلقوا فكرة الآلة ، بوصفها كوناً صغيراً يطيع مشيئة الانسان وحده . ولكنهم بهذا تجاوزوا الخطر المرهف الفاصل حيث كان يرى بعده ورع الآخرين بداية لخطيئة ، وابتداء من روجر بيكون حتى جيوردانو برونو ، كان يعتبر هذا المسلك مصيبة وكارثة ، اذ ان الاعتقاد الحقيقي كان دائما وابداً يرى في الآلة انها الشيطان .

ان سورة الاكتشاف اعلنت عن ذاتها في وقت مبكر ، بكور الهندسة المعمارية الغوطية — ولتقابل بين هذه وبين الفقر المتعمد في شكل الهندسة الدورية ! — وهي تتجلى واضحة في كل موسيقانا . فلقد ظهرت طباعة الكتب والاسلحة ذات المدى البعيد ، وجاء على اعقاب كولومبوس وكوبيرنكوس

التلسكوب والميكروسكوب والعناصر الكيميائيــة واخيرا كامل الجسم التكنولوجي الهائل للعصور الباروكية المبكرة .

وتبع هذه ، في وقت واحد والعقلانية ، اختراع الآلة البخاريـــة التي قلبت كل شيء رأسا على عقب ، وبدلت شكل الحيـــاة الاقتصادية اساسا وهيكلا .

لقد كانت الطبيعة ، حتى آنذاك تتفضل علينا بخدماتها ، اما الآن فلقد شددنا نيرنا الى عنقها وجعلناها عبداً لنا ، زد على ذلك حتى قواها كأنها تقاس باحتقار على مستوى قوة الحصان . فلقـد تقدمنا من القوة العضلية للعبد التي كانت قـد قررت لتعمل وفق روتين منظم ، الى الاحتياطات العضويـة لقشرة الارض ، حيث كانت قوى حياة مطمورة ، كفحم فيها لدورات ودورات الفيـــة من الاعوام ، والآن نتوجه بابصارنا نحو الطبيعة غير المتعضيـة ، حيث دفع بقوى المياه منذ زمن لتتم ما للفحم من قوى . وكما ان قوى الاحصنة ترتفع الى الملايين والمليارات ، كذلك يتزايد عدد السكان زيادة على زيادة ، وعلى مستوى لم تفكر اية حضارة اخرى بانه امر ممكن . وهذا النمو هو نتاج الآلة ، نتاج يلح على ان يستخدم وتوجه الى تلك الغاية التي تضاعف قوة الفرد مئة ضعف . ومن اجـل خاطر الآلة تصبح حياة الانسان غالية ثمينة . ويصبح العمل كلمة عظمى في نظر التفكير الاخلاقي فهو يفقـــد مثالب مغزاه في القرن التاسع عشر وفي جميع اللغات . فالآلة تعمـل وترغم الانسان على الاشتراك في الشغل Co - Operate (لاحظ لم يقل التعاون ـــ المترجم) وتبلغ الحضارة الفاوستية باكملها درجـة من النشاط والحيوية تهتز لها الارض وترتعد تحت اقدامها .

اما ما ينشأ الآن ويتطور ، وخلال فترة تكاد لا تبلغ القرن ، فانه دراما من عظمة ستجعـل الناس من ذوي النفوس والانفعالات الاخرى ، في حضارة

مقبلة عاجزين عن مقاومة قناعتهم بان الارض « في تلك الايام » كانت ترتعد خوفاً ورعبا . ان السياسة تسير فوق المدن والشعوب، وحتى الاقتصادات ، وبما لها من عضات عميقة في مصائر عالمي النبات والحيوان ، فانها تلامس فقط هدب الحياة وتندرس وتبيد . لكن هذه التقنية ستخلف وراءها آثار ازدهارها ، عندما يكون كل شيء قد طواه الضياع والنسيان ، وذلك لأن السورة الفاوستية قد بدلت وجه الارض .

وهذا الكفاح المجاهد خارجا وعلاء ، كفاح الحياة ، المتحدر حقاً لذلك من الاصلاب الغوطية — هو كما عبر عنه مونولوج فاوست غوتيه عندما كانت الآلة البخارية لا تزال طرية العود فتية . ان النفس السكرى تريد ان تحلق فوق الفراغ والزمان . والحنين المخرس يغريها الى آفاق لا تحديد لها او تعريف . ان الانسان قد يحرر ذاته وشيكا من الارض وان يرقى سدة اللامنتهى ، مخلفاً وراءه قيود الجسد واغلاله وحوماً في كون الفراغ (الفضاء) بين النجوم والافلاك . وهذا هو ما سعت اليه في البداية باطنية القديس برنارد المحلقة الوهاجـــة ، وهذا هو ما فهمه غرينفالد ورمبرانت في مؤخرات لوحاتهم ، وادركه بيتهوفن في انغامه المتجاوزة حدود الارض ، انغام رباعياته الاخيرة ، هذا يعود الآن في هذا الثمل العقلاني من الاختراعات الآخـذ بعضها برقاب بعض . ومن هنا حركة المرور الخيالية هذه ، التي تعبر القارات بايام قليـلة ، وتضع نفسها في مدن عائمة عابرة المحيطات ، وتنقب في بطون الجبـال ، وتتدافع في متاهات من كهوف ، وتستخدم الآلة البخاريـــة حتى تلفظ آخر انفاسها ، ومن ثم تتحول الى الآلة الغازية ، واخيرا ترتفع بنفسها فوق الدروب والخطوط الحديدية ، وتحلق محومة في الهواء ، ومن هنا ترسل الكلمة الملفوظة ببرهة واحدة عبر كل المحيطات ، ومن هنا ينبجس الطموح لتحطيم كل رقم قياسي وتجاوز كل الابعاد ، في بناء قاعات جبارة وآلات عملاقـــة وبواخر منفسخة ودروب من جسور ، ومبان تناطح

السحاب بهذيان محموم ، وزخوم خيالية ضعطت معاً داخـــل بؤرة ، كي تطيع بنان طفـل ، ومنشآت من فولاذ وزجاج تدنــــدن وترتعش ، والانسان الصغير حجماً يجول بينها ملكاً مطلق السلطان ، فأخيراً قد احس بان الطبيعة تحت اقدامه .

وتتنازل هذه الآلات باشكالها ، يوما بعد يوم عن انسانيتهـا ، وتزداد نسكا وغموضا وصوفية ، وتنسج حول الارض شبكة لا نهايـــة لها من قوى مكارة وتيارات وتوترات . واحجامها تخلع يوما بعد يوم اورديتها المادية عنها ، وتقل ابداً جلبـة وضجيجا . وتخرس الدواليب والاسطوانات والعتلات والاذرع ، فهي لم تعد لتستطيع لغطاً . وكل ما يهم يتراجع منسحباً الى الداخـل ، انها لتعني في عيني المؤمن خلع الله عن عرشه . وتسلم الانسان السببية المقدسة ، وبيديـــه يسلمهـــا ، وبنوع من استشفاف العلم بكل شيء ، تدور هادرة صامتـة لا تقاوم .

- ٢ -

ولم يسبق مطلقاً ما عدا هنا ، ان احس كون اصغر بانه متفوق على كون اكبر ، ولكن ها هنا جعلت وحدات صغيرة من حياة اللاحي يعتمــــد عليها ، وجعلته كذلك بواسطة زخم عقلها المجرد . انه لانتصار ، هذا ما تقرر ابصارنا ، انتصار لا مثيل له او شبيه . ولقد حققته فقط حضارتنا ، ولربما لبضعة قرون قليلة لا غير . ولكن لهذا السبب بالذات اصبح الانسان الفاوستي عبداً لمخلوقه . فرغم حياته وتدبيرها كما يعيشها ، قد دفعت بهما الآلة الى درب لا توقف فيه ولا

رجوع . وهنا يتبدى فجأة الفلاح والعامل اليدوي ، وحتى التاجر ، من النوافل ، وذلك اذا ما قورن بينهم وبين الشخصيات الثلاث العظمى التي انجبت بها الآلة - المتعهد والمهندس وعامل المصنع . فلقد نبتت من فرع عمل يدوي صغير تماما - واعني بهذا الاقتصاد التجهيزي - (وفي حضارتنا وحدها) شجرة جبارة غمرت كل الحرف والمهن الاخرى بظلالها - وهذه هي اقتصاد صناعة الآلات . وارغامها للمتعهد على اطاعتها لا يقل ابدا عن ارغامها للعامل . فكلاهما قد اصبحا عبدين للآلة وليسا بسيديها ، هذه الآلة التي تبرز الآن ولأول مرة سلطتها الشيطانية الحربة . ولكن بالرغم من ان النظرية الاشتراكية المعاصرة قد ادخلت بالحاح هذين الاولين في اعتبارها من حيث ما يقدمانه من عمل ، ورأت ان كلمة « عمل » لا تنطبق الا على هذين وحدهما ، فان العمل اصبح أمراً ممكناً فقط نتيجة لسيادة إنجاز المهندس وحسبه . وان القول المأثور « الذراع القوية » التي تأمر كل دولاب ان يتوقف عن الحركة ، هو قطعة من حماقة . فالذراع تستطيع ان توقفها ، ولكنها لا تحتاج الى العامل ليقوم بهذا العمل . اما ان يحافظ العامل على دورانها - فكلا ولا ! فمركز مملكة الآلة الاصطناعية والمعقدة هو المنظم او المدير . والفكر لا اليد هو الذي يحافظ على بقائها متماسكة . ولكن لهذا السبب بالذات ، سبب المحافظة على هيكل الآلة المعرض دائما للخطر ، يكون شخص واحد اهم بكثير من كل نشاط الرجال الاسياد المقدامين الذين يجعلون المدن تنمو من التربة ، ويبدلون وجه الصقع ، وهذه الشخصية النزاعة الى ان تنسى في هذا الصراع السياسي - هي شخصية المهندس ، كاهن الآلة ، الرجل الذي يعرفها . وليست اهمية الصناعة وحدها ، بل وجودها المجرد ايضا يعتمد بصورة مطلقة على وجود المئة الف من العقول الموهوبة المدربة تدريبا مدرسياً صارما والتي تسيطر على التقنية وتطورها قدماً وقدماً .

ان المهندس الصامت هو سيد الآلة ومصيرها . فكما ان الآلة هي امر واقع فكذلك فان فكره امكانية . ولقد انتشرت مخاوف ، مخاوف مادية النزوع

والمنبع ، من نفاد مناجم الفحم وحقوله . ولكن طالما يوجــد هناك رواد لدروب، فلن يكون هناك من وجودلمخاطر من هذا النوع .وفقط عندما، وعندما فقط ينفد محصولنا من مجندي هذا الجيش ـ هذا الجيش الذي يشكل عمل فكره وحدة باطنية وعمل الآلة ـ فحينذاك يجب ان تخمد الصناعة بالرغم من كل نشاط اداري ، وبالرغم من كل ما يستطيع العمال ان يفعــلوه . ولنفترض ان اوفر العقول موهبة في الاجيـال المقبلة ، قد وجدت ان صحتها النفسية اهم بكثير من جميع سلطات العالم ، ولنفترض ان صفوة النخبة من هذه العقول المهتمة بالآلة قد وقعت ، تحت تأثير الصوفية الميتافيزيقية التي اخذت تحل الآن محل العقلانية ، تحت سيطرة حس متزايد بشيطانية الآلة (وهناك خطوة تفصــل بين روجير بيكون وبين برنارد فون كليرفو) ـ فعندئذ لن يستطيع اي شيء ان يمنع هذه الدراما التي وضعت مسرحيتها العقول من ان تنتهي على ابد هي مجرد اضافيـة ومعاونـة .

لقد حولت الصناعة الغربية التقاليد القديمـة للحضارات الاخرى . ومجاري الحياة الاقتصادية تتجـه اليوم نحو مواقع الملك فحم والى المناطق الكبرى التي تتوفر فيها المواد الاولية . فالطبيعة تستنزف ، والكرة الارضية يضحى بها على مذبح التفكير الفاوستي بالطاقات . فالارض العاملة ، هي النظرة الفاوستية فيها ، النظرة التي تأملها فاوست بطل الجزء الثاني من هذه الدراما ، انها التبديل الجسور لشكل العمل ـ وفاوست يموت وهو يتأمـل . وليس هناك من شيء تقاطري مطلق Antipodal لهذه النظرة كالكينونة المترهلة المعدومة الحركة ، كينونـة فكر القانون الكلاسيكي ، هو الذي سيتدبر الامر كي يكون لاقتصاده قانونـه الخاص به ، حيث تحل القوى والجهود محل الشخص والشيء .

- ٣ -

ولكن هجوم المال ايضاً على هذا الزخم العقلاني هو هجوم جبار مروع . فالصناعة ، كالمالك الزراعي ، هي مشدودة الى الارض بدورها . والمال الراقي وحده هو حر مطلق من كل قيد ، وغير ملموس باكمله . ومنـــذ عام ١٧٨٩ اخذت المصارف ومعها البورصات تطور ذاتها على اساس احتياجات الاعتمادات للصناعات المتزايدة نمواً على شكل هائل ، وتعتبر هذه الصناعات قوى في حسابها ، والمال يريد (كما يريد في كل مدينة) ان يكون هو القوة الوحيدة . وهنا يشتد الصراع القديم بين الاقتصاد المنتج والاقتصاد المكتسب ، ويتطور الى معركة صامتة يخوض غمراتها عمالقة الفكر ، وتدور رحاها في تخوم المدن العالميـة . اما المعركة فهي صراع يائس يبديه الفكر التقني ليحافظ على حريتـــه من سيطرة الفكر المالي .

وتخطو دكتاتورية المال ، وتتابع زحفها متجهة نحو ذروتها المادية في المدينة الفاوستية كما شأنها في المدنيات الاخرى . والآن يحدث شيء ما هو واضح فقط في نظر ذاك الذي نفذ ببصيرته الى جوهر المال . فلو كان هـــذا الجوهر شيئا محسوسا لبقي موجودا حتى الابـــد ـ ولكنه كما كان شكلاً من اشكال الفكر ، لذلك يذوي ويضمحل حالما يبلغ تفكيره بعالمه الاقتصادي نهايته ، ولا يعود لفكره هذا من مادة يعيش عليها او بها يقتات . وهنا يندفع الى داخل حياة ريف المالك الزراعي ، ويطلق في الارض الحركة ، ففكره قد بدل شكل كل نوع من صناعة ، وها انـه اليوم يضغط بانتصار على الصناعات كي

يجعل العمل المنتج لكل من المتعهد والمهندس والعامل سواء بسواء ، غنيمة له . أن الآلة بما لها من بطانة بشرية ، ملكة هذا القرن ، مهددة لأن تذعن لقوة اشد منها . ولكن بهذا يكون المال ايضا قد بلغ نهاية نجاحاته ، فالمعركة الاخيرة وشيكة ، حيث تتلقى فيها المدينة شكلها الجامع النهائي الناجز - وهذه المعركة هي بين المال والدم .

ان حلول القيصرية سيحطم دكتاتورية المال وسلاحها السياسي ، الديمقراطية . وبعد طويل انتصار حققه اقتصاد المدينة العالمية ومصالحه على القوى السياسية المبدعة ، يحسر الجانب السياسي من الحياة القناع عن وجهه ، بوصفه ، بعد كل شيء ، الجانب الاقوى منها . فالسيف ينتصر على المال ، وارادة السيد تخضع ثانية ارادة النهاب . واذا ما سمينا قوى المال هذه بالرأسمالية ، فعندئذ يمكن لنا ان نعرف الاشتراكية بانها الارادة لاستدعاء نظام سياسي اقتصادي جبار الى الحياة ، نظام يتسامى فوق كل المصالح الطبقية ، نظام لحمته تبصر عميق وسداته احساس بالواجب يحفظ الكل في وضع حسن استعدادا للمعركة الحاسمة للتاريخ ، وهذه المعركة ايضاً معركة المال والقانون . ان القوى الشخصية للاقتصاد تريد دروباً حرة الى اكتساب موارد ضخمة . ولا تريد لاي تشريع أن يقف دربها ، فهي تريد ان تشترع القانون بذاتها وفي صالحها وخدمة لمصالحها ، واتجاها نحو هذه الغاية تستخدم الاداة التي صنعتها لذاتها ، الديمقراطية والحزب المموّل .

وان القانون ليحتاج ، بغية مقاومة هذه الغارة الاجتياحية ، الى تقاليد راقية رفيعة ، والى طموح عائلات قوية تجد غبطتها لا في تكديس الثروات ، بل في وجائب الحكم الحقيقي المتشامخة فوق ووراء كل منفعة مالية . ان بالامكان ان تطوح قوة بقوة اخرى لا بمبدأ أو نظرية ، ولم يبق لدينا أية قوة تستطيع ان تجابه المال الا هذه القوة . فالمال لا يطوح بسلطانه ولا يلغيه الا الدم وحده وفقط . والحياة ألفاً وياء هي دفق كوني مستمر في الشكل الكوني الاصغر ،

وهذه هي واقعة الوقائع في العالم – كتاريخ . فامام الايقاع الذي لا يدفع او يقام ، ايقاع تتالي الاجيال ، يتلاشى حتى آخره ، كل شيء بناه الشعور الواعي في عاله العقلاني . فالحياة في التاريخ وحدها ، ووحدها فقط هي دائماً وابدا – صفة عرق ، وهي انتصار ارادة القوة – وليست انتصار الحقائق ، او ما ترمز اليـــه الاختراعات أو المال . ان التاريخ العالمي هو المحكمة العالمية ، وهذه المحكمـــة كانت ابدا ودوماً تحكم لصالح الحياة الاقوى والاشد امتلاء والمتسلطة المحققـــة لسلطانها – وقد قضت لها بالحق في الوجود ، أقبلت به محكمة الشعور الواعي ام لم تقبل .

فمحكمة التاريخ كانت ابداً تضحي بالحقيقة والعدالة ، على مذبح الجبروت والعرق ، وكانت دائماً تقضي بالاعدام على اولئك الناس أو الشعوب التي كانت تختزن من الحقائق أقل مما تختزنه من الافعال ، ومن العدالة اقل من القوة . وهكذا تنتهي دراما حضارة راقية – بعالمها العجائبي من الآلهة والاديان والفنون والافكار والمعارك والمدن – بعودة الوقائع الفطرية للدم الخالد ، الذي هو الواحد ذاته والدفق الكوني الدائر ابدا . وهنا تغوص الكينونة الواعية المبتكرة بذاتها وتضعها في الخدمة الهادئة الصامتة للكينونة ، كما تحدثنا بذلك الامبراطوريتان الصينية والرومانية . وهنا ينتصر الزمان على الفراغ . والزمان هو الذي يدفن بحركته الجامدة المتزمتة الصدفة اليومية للحياة ، صدفة الحضارة ، على هـــذا الكوكب ، ويطمرها في صدفة الانسان – وهذا شكل تتدفق فيه الحياة لمدة من زمن ، بينا تتكدس وراءه جميع الآفاق من التواريخ الجيولوجيـــة والكواكبية في عالم ضوء ناظرينا .

أما بالنسبة لنا نحن الذين وضعنا المصير في هذه الحضارة ، وفي هذه اللحظة من تطورها – لحظة احتفال المال بآخر انتصاراته ، واقتراب القيصرية وريثته بخطى ثابتة اكيدة – فان اتجاهنا المحتوم والمراد قد حدد داخل حدود ضيقة ، والحياة

ليست جديدة بان تعاش اذا كانت حدودها غير هذه . وليس لنا الحرية في ان نمد بأيدينا الى هذا الامر أو ذاك ، بل لنا الحرية في ان نقوم بما هو ضروري ولازم أو أن لا نقوم بأي شيء . وان واجباً تستلزمه الضرورة التاريخية ، سينفذ ، بالتعاون مع الفرد أو ضده .

Ducunt Fata Volentem , Nolentem Trabunt .

انتهى
النص الكامل للكتاب



« اللوحة الاولى »

الحقبـــات الروحية « المتعاصرة »

	الحضارة الهندية (ابتداء من عام ١٥٠٠)	الحضارة الكلاسيكية (ابتداء من عام ١١٠٠)	الحضارة العربية (ابتداء من عام ٠)	الحضارة الغربية (ابتداء من عام ٩٠٠)
الربيع	**١ ولادة اسطورة ذات طراز عظيم تعبر عن شعور جديد بالله وخوف العالم**			
وجداني ريفي . ابداعات عظمى للنفس المستيقظة جديداً والمثقلة بالاحلام. وحدة واكتمال ما فوق الذاتية .	١٥٠٠ - ١٢٠٠ الدين الفيدي واساطير الابطال الآريين المحفوظة	١١٠٠ – ٨٠٠ الدين الميليني الايطالي دين ديمتر، دين الشعب هوميروس واساطير هرقل وزفس .	٠ – ٣٠٠ – المسيحية البدائية (الماندية مارسيون ، الغنوصية،مذهب التوفيق بين النقيضين،متراس بعل. الاناجيل.سفر الرؤيا، الاساطير المسيحية والمازادية والوثنية .	٩٠٠ – ١٢٠٠ – الكاثوليكية الالمانية ،الادا (بلدر) برنارد كليرفو ، يواكيم فلوريس فرنسيس الأسيسي الملحمة الشعبية « سيجفريد » اساطير القديسين.
	٢ أبكر تشكيل صوفي ميتافيزيقي والنظرة الجديدة الى العالم وذروة الفلسفة اللاهوتية (الكلامية)			
	في اقدم أجزاء الفيدا	اقدم انضباط « شفهي » أرفي اتروسكاني ما بعد الاثر : هسيود وكسموغونيس.	اوريجن « ٢٥٤ » بلوطونيوس «٢٦٩» مان « ٢٧٦ » ايامبليخوس « ٣٣٠ » الافستا ، التلمود ، الادب الكنسي .	توما الاكويني « ت ١٢٧٤ » دونس سكوتوس «١٣٠٨» دانتي « ١٣٢١ » ايكهاردت « ١٣٢٩ » الصوفية . الفلسفة اللاهوتية .
الصيف .	**٣ الاصـلاح : المناهضة الشعبية الداخليـة لأشكال الربيـع العظمى**			
الوعي في مجرى التفوح الهيجانات الحضرية والانتقادية في ابكر العصور	البراهمة اقدم اجزاء اليوبانيشادز (١٠٠٠ – ٩٠٠)	الحركة الافستية . دين ديانوزيس ، « نوما » كدين (القرن السابع)	اوغسطين «٤٣٠» النساطرة «قرابة ٤٣٠ » اليعاقبة «قرابة ٤٥٠ » مزداك « قرابة ٥٠٠ »	نقولا جونوس «١٤٦٤» جون‌هس «١٣٠٨» سوفونا رولا كارلشتادت لوثر كالفن « ١٥٦٤ »
	٤ بدء شكل فلسفي مجرد للشعور بالعالم ومناهضـة المناهج المثالية والحقيقيـة Realistic			
	محفوظة في اليوبانيشادز	الفلاسفة العظام ما قبل سقراط (القرنان الخامس والسادس)	الاداب البزنطية اليهودية السورية القبطية والفارسية في القرنين السادس والسابع	غاليليو بيكون وديكارت برونو بوهمي لينتز القرنان السادس عشر والسابع عشر .
	٥ تشكل مفهوم رياضي جديـد للرقم بوصفـه نسخة ومحتوى لشكل العالم			
	مفقودة	الرقم كحجم « تناسب » الهندسة . الحساب الفيثاغوريون وابتداء من عام ٥٤٠ »	الرقم غير المعرف « الجبر » لم يبحث بعد تطوره	الرقم كوظيفة (التحليل) ديكارت باسكال فرما « ١٦٣٠ » نيوتن وليبنتز « ١٦٧٠ »
	٦ البيوروتانية والافقار العقـلاني الصوفي للدين			
	مفقودة	الجمعية الفيثاغورية « ابتداء من عام ٥٤٠ »	محمد « ٦٢٢ » البولصية وتحطيم التماثيل « ابتداء من ٦٥٠ »	المطهرون الانكليز « ابتداء من ١٦٢٠ » الجانسيتيون الفرنسيون « ١٦٤٠ » بورت رويال

الخريف	٧	عصر التنوير ، والايمان بالعقل القادر على كل شيء . مذهب « الطبيعة » (الدهري) والدين العقلاني			
ذكاء المدينة ، ذروة الابداعية الصارمة		سوتراس ، بوذا سنخيا اليوبانيشادز المتأخرة .	سفاسطة القرن الخامس سقراط « توفي ٣٩٩ » ديمقريطيس « توفي قرابة عام ٣٦٠ »	المعتزلة والصوفية نظام والكندي « قرابة ٨٣٠ »	العقلانيون الانكليز « لوك ، الانسكليبيديون الفرنسيون « فولتير » روسو .
	٨	ذروة الفكر الرياضي وشروح عالم شكل الارقام			
		مفقودة « الصفر كرقم »	ارخيتاس « ٣٦٥ » افلاطون « ٣٤٦ » القطع المخروطي	لم تبحث نظريه الرقم .. حساب المثلثات الدائري . « تريغو نومتري »	اويلر « ١٧٦٣ » لاغرانج « ١٨١٣ » لابلاس مشكلة اللا نهائيات « ١٨٢٧ »
	٩	المناهج النهائية الجامعة الشاملة العظمى			
في ذهنيتها		المثالية بوغا ، فيدانتا الابستيمولوجيا : فالكاشيكا المنطق : نيايا	افلاطون ارسطوطاليس « توفي عام ٣٢٢ »	الفارابي « ٩٥٠ » ابن سينا « ١٠٠٠ »	غوتيه كنت | شللنغ هيجل فيشتي
الشتاء	١٠	النظرة المادية الى العالم . مذهب العلم ، المنفعة والرفاه			
فجر مدنية المدينة العالمية الكبرى		سنخيا ، تشارفاكا الوكوياتا	الكلبيون ، والسيرانيون وآخر السفاسطة « بيرهون »	المذاهب الشيوعية الالحادية الابيتورية في العصور العباسية « اخوان الصفا »	بنتهام كومت داروين سبنسر ستونر ماركس فيورباخ
	١١	المثل العليا الاخلاقية الاجتماعية للحياة . حقبة الفلسفة اللارياضية . الارتيابيات			
استئصال القوة المبدعة . النوازع الاخلاقية العملية للكوسموبوليته اللامتدينة واللاميتافيزيقية		النوازع في زمن بوذا	الميلينية ، ابيقور « ت عام ٢٧٠ » زينون « عام ٢٦٥ »	حركات في الاسلام	شوبنهور نيتشه الاشتراكية الفوضوية هيبل فاجنر ايبسن
	١٢	الاكمال الباطني لعالم الشكل الرياضي . الفكر المستدل المستنتج .			
		مفقودة	يوقليد ، ابولونيوس « قرابة ٣٠٠ » ارخميدس « قرابة ٢٥٠ »	الخوارزمي « ٨٠٠ » ابن قرة « ٨٥٠ » القرشي ، البيروني « قرن عاشر »	غاوس « ١٨٥٥ » كوتشي « ١٨٥٧ » ريمان « ١٨٦٦ »
	١٣	انحلال التفكير التجريدي الى فلسفة قاعات المحاضرات المحترفة			
		« المناهج الكلاسيكية الستة »	الاكاديمية ، الرواقيون الابيقوريون ، المشاؤون	مدارس بغداد والبصرة	الكانتيون « المناطقة ، السيكولوجيون .
	١٤	انتشار عاطفة عالمية نهائية			
		البوذية الهندية	الرواقية الميلينية – الرومانية ابتداء من عام ٢٠٠	الجبرية العملية في الاسلام ما بعد عام ١٠٠٠	الاشتراكية الاخلاقية ابتداء من عام ١٩٠٠

عقبات الحضـــارة « المتعـاصرة »

المصرية	الكلاسيكية	العربية	الغربية

مرحلة ما قبل الحضارة ، فوضى من اشكال التعبير البدائية . الرمزية الصوفيــة . والتقليد الساذج

مرحلة ثانيات — الميجان — (٣٤٠٠ — ٣٠٠) المصري المتأخر (منوان) — العصر الماسيني (١٦٠٠ — ١٧٠٠) البابلي المتأخر (آسيا الصغرى) الكلاسيكي المتأخر (هيلنستي) — المرحلة الفارسية السلوقية (٥٠٠ — ٠) الهندي المتأخر (هندي ايراني) — العصر الميروفونجي الكارولنجي ٩٠٠ — ٥٠٠

الحضارة

تاريخ حياة اسلوب اشتقاقي لكامل الكينونة الباطنية ، ولغــة شكل ذات ضرورة هي الإعمق رمزية

	المصرية	الكلاسيكية	العربية	الغربية
I المرحلة المبكرة (الزينة والهندسة المعمارية بوصفهما تعبيرين ابتدائيين ظاهريين للشعور الفني بالعــالم) « البدائيون »	المملكة القديمة (٢٩٠٠ — ٢٤٠٠)	العصور الدورية (١١٠٠ ٥٠٠)	عالم الشكل العربي المبكر (الساساني البزنطي الارمني السوري ، البابلي ، الكلاسيكي المتأخر والمسيحي المبكر) (٠ — ٥٠٠)	العصور الغوطية ٩٠٠ — ١٥٠٠
	١ — الولادة والنشوء . الاشياء التي انبثقت من الارض وشكلت (دون وعي) تشكيلاً عفوياً			
	العائلتا الرابعة ـ الخامسة (٢٩٣٠ — ٢٦٢٥) اسلوب المعبد الهندسي ، معابد الاهرامات الاعمدة المنتظمة صفوفاً صفوف التضاريس المستوية تماثيل الاضرحة	القرن الحادي عشر ـ التاسع : البناء الخشبي ، العمود الدوري العارضة ، الاسلوب الهندسي (ديلون) ترميد الميت .	القرن الاول ـ الثالث : دواخل العبادة : البازليكا ، القبة (البنتون كمسجد) العمود والقنطرة . مشبك الجذع بملأ الفراغات . التوابيت الحجرية .	من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر الرومانسك والكاتدرائيات الغوطية ذات العقود المبكرة . الدعامة الطائرة . لتصوير على الزجاج . الكاتدرائية . النحت .
	٢ — اكتمال لغة الشكل المبكرة . استهلاك الامكانات .. التناقض			
	العائلة السادسة . خمود اسلوب الاهرام اسلوب التضويس الملحمي النشيدي ، ازدهار التصوير التشكيلي المبتذل .	القرنان الثامن والسابع نهايــة الاسلوب الدوري الاوتروسكاني المبتذل التصوير على الاواني ذي الاسلوب الكورنــتي الاولي والاتيكي والخزافي ، رسم الآنية .	القرن ٤ — ٥ ـ نهايــة فن التصوير الســوري ، الفارسي ، القبطي . نشوء تصوير الفسيفساء والزخرف العربي .	القرن ١٤ ـ ١٥ ـ الغوطي المتأخر ، وعصر النهضة وازدهار وانكماش التصوير على الحائط والتمثال ، ابتداء من جيوتو (غوطي) الى ميكالنجلو «باروكي» سينا ، نورنبرغ . الصورة الغوطية من فان آيك حتى هولباين الكونتربوينت . التصوير الزيتي .
II المرحلة المتأخرة تشكل مجموعة من الفنون تشكلاً حضرياً واعياً على ايدي الافراد والاساتذة العظام » .	المملكة الوسطى (٢١٥٠ — ١٨٠٠)	الايوني (٦٥٠ — ٣٥٠)	عالم الشكل العربي المتأخر والفارسي ـ النسطوري ، الارمــني البزنطي ، الاسلامي المراكشي» (٥٠٠ — ٨٠٠)	الباروكي (١٥٠٠ — ١٨٠٠)

٣ — تشكل شهرة وذوق فنيين للصفوة

العائلة الحادية عشرة : الفن الرهيف التعبيري (لم يبق منه أثر تقريباً)	انجاز جسم المعبد (البريتورز الحجري) العمود الايوني . سيادة التصوير على الحائط حتى بوليغنوتوس (٤٦٠) نشوء التشكيل الحر « بالتتابع » (ابولو من تينيا هاجيلاداس) .	انجاز داخل المسجد (القبة الرئيسية لآجيا صوفيا) ذروة الفسيفساء التصويرية . اكتمال لاسلوب الزخرف العربي المشابه للسجادة مشاطا (Maschatta) .	الاسلوب التصويري في الهندسة المعمارية ابتداء من ميكالنجلو حتى برنيني (توفي ١٦٨٠) سيادة التصوير الزيتي ابتداء من تيتسيان حتى رمبراندت « توفي ١٦٦٤ » . نشوء الموسيقى ابتداء من اورلاندو لاسو حتى « شوتز » توفي عام ١٦٧٢ »

٤ — انجاز لغة شكل عقلانية وبلوغها مستوى الكمال

العائلة الثانية عشرة « ٢٠٠٠ — ١٧٨٨ » معبد بيلون ، المتاهة ، تماثيل الاخلاق والتصاوير التاريخية .	نضوج أثينا « ٤٨٠ — ٣٥٠ » الاكروبول سيادة التشكيل الكلاسيكي من مايرون الى فيدياس نهاية التصوير على الحائط الجازم وتصوير على الفخار وزيكسوس	الامويون « القرن السابع — الثامن » الانتصار الكامل للزخرف العربي الحالي من الملامح على الهندسة المعمارية ايضاً .	الروكوكو : الهندسة المعمارية الموسيقية ، « روكوكو » سيادة الموسيقى الكلاسيكية ، من باخ الى موزارت ، نهاية التصوير الزيتي الكلاسيكي من فاتو الى غويا .

٥ — نضوب الابداعية الحازمة وانحلال الاشكال العظمى . نهاية الاسلوب ، « الكلاسيكية » ، والرومانتيكية

الاختلاط ما بعد قرابة عام ١٧٥٠ « لم يبق اي اثر »	عصر الاسكندر . العمود الكورنثي . ليسبوس وابلليس .	هارون الرشيد « قرابة عام ٨٠٠ » الفن المراكشي .	الامبراطورية وبيدر ماير ، الذوق « التكلسكي » في الهندسة المعمارية بيتهوفن ديلاكروا .

المدنية : الوجود دون ما شكل باطني فن المدينة العالمية الكبرى بوصفه فناً عامياً ، الرفاه ، الرياضة البدنية ، الانفعال العصبي الازياء السريعة التغير في الفن تكشف عن اكتشافات تعسفية وعن اقتباسات واستعارات .

١ — الفن الحديث . « مشكلات الفن » المحاولات لتصوير أو اثارة وعي المدينة العالمية الكبرى تحويل الموسيقى والهندسة المعمارية والتصوير الزيتي الى مجرد صناعات فن

مرحلة الهكسوس « محفوظة فقط في كريت ، الفن المنواني »	الهيلينية : فن برغامين « مسرحية » . فنون الرسم الهيلنستي . « فرستيكي » شاذ ، ذاتي » المرض الهندسي في مدن الديودوتشي .	عهود السلطان من القرن التاسع الى العاشر . الفن الاسباني الصقلي الابتدائي سامرا .	القرن التاسع عشر — العشرين : لست ، برليوز ، فاغنر الانطباعية ابتداء من كونستابل الى لايبل ومانيت . الهندسة المعمارية الأميركية .

٢ — نهاية تطور الشكل ، هندسة معمارية وزخرفة لا معنى لها وفارغان متكلفتان ومدعيتان تقلد النوازع المبتذلة والدخيلة

العائلة الثامنة عشر — « ١٥٨٠ — ١٣٥٠ » المعبد الصخري في ظهر البحر . تماثيل بمتون العائلة . فن كنوسوس وتل العمارنة	المرحلة الرومانية « ١٠٠ — ١٠٠ » التركيز اللاميز لكل الانظمة الثلاثة . السوق العامة المسارح « كولوسوم » اقواس النصر	السلجوقوث « ابتداء من ١٠٥٠ » « الفن الشرقي » لمرحلة الحروب الصليبية .	ابتداء من عام ٢٠٠٠

٣ — الختام : تشكل مخزون ثابت من الاشكال . العرض الامبراطوري بواسطة المادة والجمهور . صناعة الارياف .

العائلة التاسعة عشر « ١٣٥٠ — ١٢٠٥ » الابنية الجبارة في الاقصر والكرنك وابيدوس فن الصغير : « تشكيل حيوان ، نسيج ، أسلحة »	تراجان الى اورليان ، والفورا الجبارة ، سوابيط الاعمدة في الحمامات العامة ، اقواس النصر الفن الريفي الروماني « والتصوير على الفخار ، التماثيل ، الاسلحة .	فترة المغول « من ١٢٥٠ » الابنية الجبارة « مثلا في الهند » صناعة فن شرقية : « السجاد ، الاسلحة الادوات »	

الحقبـــــات التاريخية السياسية « المتعاصرة »

	المصريـة	الكلاسيكيـة	الصيـنية	الغربيـة
مرحلة ما قبـل الحضارة : القوم البدائيون . العشائر وشيوخها . حتى الآن « لا سياسة » ولا « دولة »				
	مرحــلة ثانيات (مينيس) ٣٤٠٠ – ٣٠٠٠	العصر الماسيني (آغاممنون) ١٦٠٠ – ١١٠٠	مرحلة شانغ (١٧٠٠ – ١٣٠٠)	المرحلة الفرنكية (شارلمان) ٥٠٠ – ٩٠٠
الحضارة : الجماعات القوميـــة ذات الاسلوب المعين والشعور الخـــاص بالعالم . « الشعوب » . حمل فكرة دولة فطريـــة				
I . المرحلة المبكرة . العقدة المتعصية للوجود السياسي . الطبقتان الاوليتان (النبيل والكاهن) . الاقتصاد الاقطاعي ، قيم تقسيم الاراضي المجردة				
١ – الاقطاع . روح الريف وروح الانسان الريفي . « المدينة » وحدها كسوق او كقلعة . المثل العليا للفروسية الدينية . صراع اصحاب الاقطاعيات بعضهم ضد بعض وضد السيد.	المملكة القديمة (٢٩٠٠ – ٢٤٠٠) الظروف الاقطاعية للعائلة الرابعـة تزايد سلطان كبار الملاك والكهنة . فرعون بوصفه تجسداً لرع .	المرحلة الدورية . (١١٠٠ – ٦٥٠) المملكية الهوميروسية نشوء طبقة النبلاء (اثيكا . اتووريا ، اسبرطة)	مرحلة تشو المبكرة . (١٣٠٠ – ٨٠٠) الحاكم المركزي (وانغ) المضغوط عليه ضغطاً شديداً من قبل طبقة النبلاء الاقطاعيين .	المرحلة القوطية . (٩٠٠ – ١٥٠٠) المرحلة الامبراطورية الرومانية الجرمانية . نبلاء الصليبين . الامبراطورية والبابوية .
٢ الازمـة والحل المزدوج للشكلين الابويين . من الاقطاع الى الدولة الاوستقراطية .	العائلة السادسة . اندثار المملكة الى امارات وولايات وراثية . العائلتان السابعة والثامنة . فترات خلو عرش المملكة	الشكل الارستقراطي وانحلال المملكية الى وظائف (حولية) تشغل لمدة عام الاوليغاركية	٩٣٤ – ٩٠٤ ، ١ – وانغ وكبار الملاك من الاقطاعيين ٨٤٢ – خلو عرش المملكة .	امراء الاقاليم ، نهضة البلدات . لانكستر ويورك ١٢٥٤ – خلو العرش .
II . المرحلة المتأخرة . تحقق فكرة الدولة الناضجة . البلدة ضد الريف . نشوء المنزلة الثالثة (البرجوازية) انتصار النقود على الملكية العقارية				
٣ – صياغة عالم من دول ذات شكل ثابت بات . (حزب الفروند)	المملكة الوسطى (٢١٥٠–١٨٠٠) العائلة الحادية عشرة . تطويع حكام طيبه بالنبلاء . الدولة ذات البيروقراطية المتمركزة .	المرحلة الايونية (٦٥٠ – ٣٠٠) القرن السادس . الطغاة الاوائـل (كلايثينس بيرياندر ، بوليقراطيس ، التركويتز) . دولة المدينة .	مرحلة تشو المتأخرة (٨٠٠–٥٠٠) مرحلة « الحماة » منغ تشو (٦٨٥ – ٥٩١) ومجلس الامراء (٤٦٠ ق.م)	المرحلة الباروكية (١٥٠٠ – ١٨٠٠) سلطة العائلة السلالية وحزب الفروند (ريشليو ، فالنشتاين كرومويـل) قرابة عام ١٦٣٠ .
٤ – ذروة شكـل الدولة . (الاخلاقيـة) (الاستبداد) اتحاد البلدة والريف (« الدولة والمجتمع » . المنزلات – الطبقات الثلاث)	العائلة الثانية عشرة (٢٠٠٠–١٧٨٨) التمركز الاشد للسلطة طبقة نبلاء البلاط والمال	المدينة المجردة (استبداد العوام) سيادة السوق العامة . نشوء دولة تيموتنكليس وبركليس	مرحلة تشون – تشيو (« الربيع والخريف ») ٥٩٠ – ٤٨٠ السلطات السبع واكمال الاصلاحات الاجتماعية (...)	النظام القديم . طبقـة نبلاء بلاط فرساي . الروكوكو . سياسة مجلس الوزراء . آل هابسبورغ والبوربون لويس الرابع عشر . فريدريك العظيم

• – اندثار شكل الدولة (الثورة والنابليونية) انتصار المدينة على الريف (الشعب على أصحاب الامتيازات ، الانتلجنسيا على التقليد ، المال على السياسة)	الثورة والحكومة العسكرية (١٧٨٨ – ١٦٨٠) انحطاط الدولة ، وثوب ملوك من عامة الشعب في بعض الحالات الى مرابع السلطان .	القرن الرابع . الثورة الاجتماعية ، والعهد الثاني للطغاة (ديونيسيوس الاول ، جاسون من فيريي ، الرقيب آبيوس كلوديوس) الاسكندر	٤٨٠ . بدء مرحلة شان كو ٤٤١ . سقوط عائلة تشو ، الثورات وحروب الابادة .	نهاية القرن الثامن عشر . الثورة في اميركا وفرنسا (واشنطن فوكس ميرابو روبسبير نابليون

المدنية :

جسم الشعب الآن هو حضري (مدني) في تركيبه الاساسي . الانحلال الى جماهير لا شكل لها . المدينة العالمية الكبرى والاقاليم . المنزلة الرابعة (الجماهير) ، لا متعصبة وكسموبوليتية

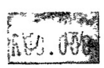
١ – سيطرة المال (الديمقراطية) القوى الاقتصاد تنفذ الى الاشكال السياسية والسلطات .	١٦٨٠ ، ١٧٨٨ ، – ١٥٨٠ . مرحلة الهكسوس احط درجات الانحطاط دكتاتوريات قواد عسكريين اجانب ، تشيان ، بعد عام ١٦٠٠ الانتصار الاكيد لحكام طيبة	٣٠٠ – ١٠٠ الهيلينية السياسية بدء من الاسكندر الى هانيبال ، والسلطة الكاملة الملكية لنبيو ،ابتداء من كليومينيس الثالث وفلامينيوس ، ٢٢٠ ، الى ماريوس ، الدماغوجيون الراديكاليون .	٤٨٠ – ٢٣٠ مرحلة الدول المتنازعة، ٢٨٨ ـ اللقب الامبراطوري، رجال الدولة الامبراطوريون في عهد تسن .ابتداء من ٢٨٩ دمج آخر الدول في الامبراطورية	١٨٠٠ – ٢٠٠٠ . القرن التاسع عشر ابتداء من نابليون الى الحرب العالمية الاولى ، نظام الدول العظمى ، الجيوش الدائمة ، الدساتير . القرن العشرون : الانتقال من المرحلة الدستورية ، الى السلطان غير الشرعي للافراد . حروب الابادة . الاستعمار
٢ ـ تشكل القيصرية . انتصار سياسة القوة على المال . الابتدائية المتزايدة في الاشكال السياسية . الانحطاط الباطني للشعوب الى سكان لا شكل لهم ، دستورهم كسلطة عليا لمجابهة طغيان يتزايد تدريجيا .	١٥٨٠ ـ ١٣٥٠ العائلة الثامنة عشر توتوسيس الثالث	١٠٠ – ٠ – ١٠٠ سولا الى دوميتيان . قيصر ، تيبريوس ..	٢٥٠ – ٠ – ٢٦ ، عائلة وانغ – تشنغ ، وعهد سلالة الهان الغربية . ٢٢١ لقب اوغسطس ، للامبراطور هوانغ – تي . ١٤٠ – ٨٠ وو – تي .	٢٠٠٠ – ٢٢٠٠
٣ – نضوج الشكل الختامي ، سياسات من خاصة وعائلية لقادة افراديين . العالم ككتلة . المصرية والمندرانية والبزنطية . التاريخ اقل تصلباً ، تخشباً ، ووهن الآلية الامبراطورية ام شعوب فتية تتطلع الى الغنائم ، أو امام غزاة غرباء . احوال بشرية بدائية تندفع ببطء في صيغ عيش رفيع الدرجة في قدمه .	١٣٥٠ – ١٢٠٥ ، العائلة التاسعة عشرة سيتوس الاول رمسيس الثاني	١٠٠ – ٣٠٠ ، تراجان الى اوروليان . تراجان ، سبتموس سيفروس	٢٥ – ٢٢٠ ب . م عهد سلالة الهان الشرقية ٥٨ – ٧١ منغ تي .	ما بعد عام ٢٢٠٠

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تليفون ٢٣١٩٢٠ ص.ب ١٣٩٠

هذا الكتاب

بلغ التقدير لهذا الكتاب في الغرب حدًّا صُنِّفَ معه كأعظم مؤلَّف صدر في النصف الأول من القرن العشرين ؛ فهو كتاب يعالج جميع مواضيع الحضارات الإنسانية وانجازاتها من فنّ وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان ، فاشبنغلر يرى أنّ كلّ حضارة من الحضارات هي كل متكامل غير قابل للتجزئة وظاهرة أوليّة متفرّدة ، وذلك لأنّ لكلّ حضارة نفسًا أوليّة واحدة تنطلق عنها ، وتعبّر برموزها عن نوازعها وطاقاتها ، وأنّ تلك الظاهرة وهذه النفس وهذه الرموز هي التي تسيطر وتوجّه جميع نتاج الحضارة من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان ، لهذا سيجد القارئ اشبنغلر يعالج في هذا الكتاب الضخم جميع هذه الفروع الحضاريّة ، وسيراه يستشهد بالموسيقى وهو يبحث في الرياضيّات ، ويدلل على صحّة أقواله بالدين وهو يتحدّث عن النحت والتصوير ، ويقتبس براهينه من الطقوس المذهبيّة أو الدينيّة ليثبت نظريّاته في الهندسة المعماريّة ، ويختار دليله من الرقم الرياضي ليبرهن على صحّة نظريّته في الجنس . لهذا فإنّ القارئ سيذهل لوفرة معلومات اشبنغلر الموسوعيّة وسيعجب بمنطقه المنسّق والدقيق الملاحظة في هذا الكتاب .

من مقدمة المترجم



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان